التفسير الميسر

الدكتور عائض القرني

العبيكان
Obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
القرني، عائض عبدالله.
التفسير الميسر. / عائض عبدالله القرني.
ط٥- الرياض، ١٤٣٦هـ.
٧٥٢ ص؛ ٢٠ × ٢٧,٥ سم.
ردمك: ٣-٨٣٩-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - التفسير الحديث.
أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ رقم الإيداع ١٤٣٦/٨٤٥٠

الطبعة الخامسة
١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية
طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥
ص.ب ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت
www.obeikanpublishing.com
متجر العبيكان Obeikan على أبل
http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية
طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٨٩٠٢٣
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
www.obeikanretail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه
أما بعد:

فهذا تفسير يسير سهل قريب قدمتُ فيه المعاني بأسلوب مفهوم، ولغة واضحة، فلا أذكر فيه الآيات المتشابهة بل أبقيها في مواضعها، وكذلك لا أورد أحاديث ولا آثاراً إلا فيما ندر باختصار، وقد أعرضتُ عن الأقوال والخلافيات، وعمدتُ إلى الراجح والظاهر من الآية، ولم أورد فيه شواهد شعرية، ولم أبحث مسائل نحوية ولا قضايا لغوية ولا وجوه قراءات، ولا إسرائيليات ولا نقولات عن العلماء ولا استطرادات، وإنما اقتصرت على زبدة القول، وخلاصة الكلام، وربما أذكر بعض الحِكَم واللطائف والفوائد والأسرار - إذا وُجدت - بإيجاز، وقد التزمتُ منهج السلف أهل العلم والإيمان، وجانبتُ مذاهب المخالفين لهم.

ولأن القرآن كتاب هداية ورشد، حرصتُ على بيان هذا الهدي، فاطَّرحت الأقوال الغريبة والشاذة والضعيفة والبعيدة، وحرصتُ على القول الصحيح الثابت المشهور.

أسأل الله الحي القيوم أن ينفعني بهذا التفسير، وينفع به من طالعه أو سمعه، أو طبعه أو وزّعه، ويجعله سببًا لي ولهم في نيل رضوانه، والفوز بسكنى جنانه، إنه سميع مجيب. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عائض بن عبدالله القرني

مكية

ترتيبها ١

سورة الفاتحة

آياتها ٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

أبتدئ مستعينًا بالله متوكلاً عليه، وذكر اسم الله؛ لأنه الاسم الأعظم الذي تضاف له كل الأسماء الدالة على كمال الألوهية واستحقاقه للعبودية، والرحمن واسع الرحمة، وهي عامة لكل مخلوق، والرحيم بأوليائه من الأنبياء والصالحين، والأسماء والصفات تثبت على الحقيقة المرادة منها في الكتاب والسنة.

(٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الثناء على الله بأوصاف الكمال، فهو المحمود على كل حال، فرحمته فضل، وعذابه عدل، وهو الرب الذي خلق ورزق، وربَّى جميع المخلوقات عُمُومًا، وربَّى أولياءه بالإيمان والعلم خصوصًا، فلهذا استحق الحمد، فهو كامل الغنى عن غيره، وغيره كامل الفقر إليه.

(٣) ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

أعاد الرحمن الرحيم لأن رحمته سبقت غضبه؛ ولأن رحمته وسعت كل حيٍّ، وعمّت كل مخلوق.

(٤) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

هو الحاكم ليوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة، وإنما خص يوم القيامة؛ لأنه يظهر للخلق تمام ملكه في ذلك اليوم، وإلا فهو المالك ليوم الدين وغيره، ويوم الدين يوم يدان الناس فيه بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فالواجب تذكُّر ذلك الموقف وإعداد العدة له.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

لك وحدك عبادتنا، وبك وحدك استعانتنا، فحقك علينا أن نعبدك ولا نشرك بك شيئًا، ولكن هذا لا يتم إلا بعون منك، والعبادة كل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال، والاستعانة هي الاعتماد على الله في جلب المحبوب ودفع المكروه، وقدَّم الضمير «إياك» على الفعل لإفادة قصر العبادة على الله والاستعانة به وحده.

(٦) ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

أرشدنا إلى الطريق الواضح الموصل إلى رضوانك وجنتك باتباع أمرك واجتناب نهيك.

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

وهذا الطريق الواضح هو طريق الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، وليس طريق من عرف الحق ولم يعمل به، كاليهود، ولا طريق من ترك الحق عن جهل وضلال كالنصارى.

* * *

مدنية

ترتيبها ٢

سورة البقرة

آياتها ٢٨٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓ﴾

الله أعلم بمراده من هذه الحروف العربية، وأقرب الأقوال أن فيها إظهاراً لعجز المعارضين عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع نزوله بحروف لغة العرب التي يعرفونها.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

هذا القرآن العظيم الذي لا يماثله كتاب في صدقه وبركته وبلاغته، وهو لا شك فيه بل فيه اليقين التام، وهو المزيل لكل حَيْرة وشرك وشبهة، وهذا الكتاب مرشد لمن اهتدى به لخير الدارين، فهو يدله على الهدى، ويجنبه الردى، ولا ينتفع به إلا المؤمنون به، وهم من تقربوا من رحمة الله بطاعته، وابتعدوا عن عذابه باجتناب معصيته.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

هؤلاء المتقون يُصَدِّقون بما أخبر به الرسول ﷺ من أخبار الغيب؛ كالقيامة، والجنة والنار، والأخبار الماضية والمستقبلة، ويؤدون الصلاة على أكمل وجه، ولم يقل: يصلون، بل يقيمون، أي: بخشوعها وبشروطها وسننها، فتنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وهم ينفقون مما رزقهم الله في الزكاة والصدقة والصلة، ووجوه البر وأنواع القربات ولا يدخرون شيئًا في ذات الله، فالرزق من الله لا منهم، وينفقون بعضها لا كلها.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾

وهم الذين يصدقون بما نزل على محمد ﷺ، ويصدقون بما نزل على الرسل قبله من الكتب - والمؤمنون يؤمنون بجميع الكتب، وجميع الرسل بلا تفرقة - وهم يعلمون علم يقين أن اليوم الآخر حق، وأن الله يجمع الناس ليوم لا ريب فيه ليحاسبهم.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

هؤلاء على هدى عظيم من خالقهم ورازقهم؛ لأنهم فعلوا ما أمر به، واجتنبوا ما نهى عنه، فلا هدى أعظم من هداهم، وهم فازوا بالمطلوب، ونجوا من المرهوب؛ لأنهم سلكوا سبل النجاة، وحادوا عن طريق الهلاك.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

أما من كفر بالله ورسوله ﷺ فسواء وعظتهم أم لم تعظهم فلن يجدي فيهم الوعظ، ولن ينفعهم الذكر، ولن يصدقوا بما جئت به؛ لأنَّ أعينهم في غطاء عن ذكر الله.

(٧) ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

فالله حجب الحق عن قلوبهم فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر، وغَطَّى على أسماعهم، وغَشَّى أبصارهم، فمنافذ العلم عندهم مغلقة، فلا يفهمون الحق، ولا يسمعون الهدى، ولا يبصرون الرشد، وقد أعد الله لهم في الآخرة عذابًا لا يُطاق في نار جهنم جزاءً لأعمالهم.

٨ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وهناك صنف منافق من الناس يظهر غير ما يبطن، فهو مؤمن باللسان، كافر بالجَنان، يدّعي أنه مصدق بما جاء عن الله، والحقيقة أنه في سره مكذب، وما دخل الإيمان قلبه.

٩ ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وهؤلاء يظنون أنهم بهذا الكلام يحتالون على الله وعلى عباده الصالحين، وأن هذه الحيلة سوف تستقيم، ولكن هيهات، فهم يلعبون على أنفسهم، ويسعون في هلاكهم، وما يستخفّون إلاّ بأنفسهم، وما يقطعون إلا وتينَهم ولكن لا يدرون، فهم جاهلون بقبيح ما يفعلون، غافلون عن سوء ما يصنعون.

١٠ ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

في قلوبهم مرض الشبهة والتكذيب، وزادهم الله بزيغهم حيرة وشكًا واضطرابًا؛ لأن جزاء السيئة السيئة، وثواب الحسنة الحسنة، وقد أعد الله لهم عذابًا مؤلمًا، في الدنيا بأنواع المثلات، وفي الآخرة بأصناف العقوبات؛ لأنهم كذّبوا بالصدق وكذبوا في القول، وأساؤوا الفعل، فالكذب أصل خطاياهم.

١١ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾

إذا نُصح هؤلاء المنافقون بترك أفعالهم الشنيعة؛ لأن فيها فسادًا في الأرض، فهم أسباب النفاق والشقاق، وقبيح الأخلاق، وتفريق الجمع، ادعوا كذبًا أنهم يريدون الخير والنفع العام، وهذا شأن كل مفسد.

١٢ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

لكن هؤلاء المنافقين هم المفسدون الذين لا أشد إفسادًا منهم، فهم فاسدون في أنفسهم لاعتقاداتهم الباطلة، وأفعالهم القبيحة، مفسدون لغيرهم لسعيهم بالفتنة بين الناس، ولكنهم مع ذلك لا يدرون بفسادهم، فقد انقلبت الأمور، وانعكست عليهم المقاصد، فصار الشر عندهم خيرًا، والباطل حقًا، ومن لم يعلم بفساده كان أجدر ألا يعود إلى الحق، ويكفيهم خزيًا أنّ الله كَذَّبهم، ومما قيل: كفى لصاحب الكذب فضيحة أن يقال له في وجهه: كذبت.

١٣ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

وإذا طُلب من هؤلاء المنافقين أن يدخلوا في الدين ويتبعوا الرسول ﷺ كما فعل المؤمنون، قالوا كيف نفعل مثل فعل هؤلاء الجُهلاء السفهاء - يقصدون الصحابة - لأن من ضحّى في سبيل الله، وأوذي من أجله، وتعرض للأخطار عندهم مخالف للعقل المعيشي الجبان الذي يدندن على الشهوات واللذات، فردَّ الله عليهم وبيّن أنهم هم الجهلة الأغبياء؛ لأنهم فوتوا أعظم المصالح، وخسروا أجلَّ المطالب، ووقعوا في أخطر المهالك، وعثروا في أودية الحسرات ومع ذلك لا يعلمون سوء ما فعلوه، وقبيح ما ارتكبوه، فانحرافهم لا يُرجى الرشد بعده.

١٤ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

هؤلاء المنافقون إذا خالطوا المؤمنين أظهروا الإيمان بألسنتهم، وأبطنوا الكفر في قلوبهم؛ ليحقنوا دماءهم، ويعصموا أنفُسَهم، ويحفظوا أموالهم، لكن إذا رجعوا إلى أتباعهم ومن هم على شاكلتهم في الكفر قالوا: نحن معكم فيما تعتقدون، وإنما خدعنا هؤلاء المؤمنين وضحكنا عليهم، وإلا فنحن لسنا معهم ولا نَدِين بدينهم، أرادوا أن يجمعوا بين عشرة الكافرين وصحبة المسلمين، فلم يستقم لهم ذلك؛ لأنه لا يجتمع الضدّان.

١٥ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

الله يستهزئ بهم جزاء استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، ويمهلهم حتى يتمادوا في طغيانهم وظلمهم وغوايتهم وانحرافهم، وهم في غفلة وعمهٍ عن هذا.

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

هؤلاء المنافقون دفعوا الهدى الذي بُعث به محمد ﷺ ثمنًا للضلالة التي شروها ورغبوا فيها، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فبئس والله تجارتهم، وخسرت صفقتهم، وخاب بيعهم، فمن هذا منهجه فلن يهتديَ أبدًا.

(١٧) ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾

مثلهم مثل من كان في ظلمة عظيمة، ثم أوقد نارًا فلما أبصر بها ما حوله أطفأ الله عليه تلك النار فبقي في ظلمة لا يرى شيئًا، وهؤلاء أضاء لهم الإسلام في الدنيا فحقن دماءهم، وحفظ أموالهم، ثم توفاهم الله فأخزاهم وعَذَّبهم، ونكَّل بهم.

(١٨) ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

فهم لا يسمعون الحق، ولا ينطقون به، ولا يرونه، وإن كانت حواسّهم سليمة، فهم لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها، ولا إلى الهدى بعد أن باعوه.

(١٩) ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

أو مثلهم كمثل من أصابه مطر عظيم مع ظلمة ليل وظلمة سحاب وظلمة مطر، فصوت الرعد يزعجه، ورؤية البرق تخيفه، والمنافقون إذا سمعوا القرآن خافوا من وعيده، وراعتهم أوامره، ونفروا من تعاليمه، فهم يَسُدُّون آذانهم عن سماعه، ومع هذا فالله قادر عليهم لا يفوتونه، محيطٌ بهم لا يُعْجِزونه.

(٢٠) ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

كما يوشك البرق أن يذهب ببصر من رآه، فكذلك زواجر القرآن توشك أن تذهب برؤية من لم يهتدِ به، والمنافقون ينتفعون بالإسلام انتفاعًا دنيويًا ظاهرًا في الحياة الدنيا في حقن الدماء، وحفظ الأموال، كما ينتفع من يمشي في ضوء البرق زمنًا قصيرًا ثم تطبق عليه الظلمة، كذلك المنافقون في حيرة وشك، ثم عذابٌ دائم في نار جهنم، مع أنه من المعلوم أن الله قادر على طمس أبصارهم وأخذ أسماعهم؛ لأن الله لا يعجزه شيء لكمال قدرته جل في علاه.

(٢١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

المستحق للعبادة هو الله -جل في علاه- فلا يجوز أن يُشرك معه في ألوهيته أحد؛ لأن الربوبية له، فهو الخالق للناس وحده لا سواه، فالخالق أحق أن يُعبد، نادى الله عباده - وهذا أول نداء في القرآن - وأمرهم أن يعبدوه فهو خالقهم وخالق من قبلهم ، والرب حقيق أن يُعْبَد، والعبد حقيق أن يَعْبُده؛ ليتقي سخطه وأليم عقابه، وهذه العبادة هي مقصود الله من الخليقة، ومن أجلِ عبادته أوجد الخلق وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فهي المقصود الأعظم، والمطلب الأسمى.

(٢٢) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أليس الله هو الذي مهَّد الأرض كالفراش للناس، ووطأها لهم ليعيشوا على ظهرها، ويتمتعوا بأنواع النعم عليها، وصيَّر السماء سقفًا لهذه الأرض، وجعل فيها ما ينفع الإنسان من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ثم أنبت - سبحانه - بالماء الذي أنزله أنواع الثمار والحبوب من فواكه وخضراوات مما لذَّ وطاب وراق العينَ، ولذَّ في الفم، وما دام أن الرازق هو الله، فهو أحق أن يُشكر وحده، فكيف تعبدون غيره، وأنتم تعلمون أن لا خالق ولا رزاق غيره.

٢٣ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

إن كنتم شاكين في هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ فتعالوا بسورة من مثله في البيان والبلاغة، فأنتم أهل فصاحة وبلاغة، والكلام متاح لكم، واستعينوا بمن شئتم به من أعوانكم ليساعدوكم على معارضة هذا القرآن بسورة مثل إحدى سوره، إن كنتم صادقين أنكم تستطيعون المعارضة والتحدي، ولكن هيهات، لقد أُفحِموا - والله - غاية الإفحام، وهُزموا شرَّ هزيمة.

٢٤ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

فإن لم تستطيعوا على هذه المعارضة ولن تستطيعوا؛ لأن القرآن كلام الحكيم الخبير فارحموا أنفسكم بالإيمان بالله؛ لينجيكم من نار تلظَّى، فلن يُتَّقى عذابه إلا باتباع رسوله ﷺ، وأنتم لا تقدرون على عذاب النار التي تشتعل بالناس وبالحجارة، والله جعلها مثوى من كفر به سبحانه. [وفيها أن المؤمن العاصي لو عُذب في النار لا يخلَّدُ فيها كما يُخلَّدُ الكفار].

٢٥ ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وبشِّر - يا محمد - عبادنا الصالحين من أتباعك بما أعددنا لهم من النعيم المقيم، والخير العميم جزاءً لإيمانهم وأعمالهم الصالحة من توحيد وصلاة وصيام وصدقة وحج ونحوه، فهم في جنة ثمراتها متشابهة الألوان، مختلفة الطعوم حتى يخيَّل إلى مَنْ سكنها أن الثمرة إذا قُدمت له بعد الثمرة أنها هي أعيدت له، وهي مختلفة في ذوقها؛ لزيادة النعيم، وعندهم زوجات جميلات ناعمات مطهرات مما يَعْرض لنساء الدنيا من نجاسات وقاذورات وأخلاق رديئة، ومع هذا النعيم فهم مقيمون أبدًا، متنعمون سرمدًا لا ينقطع عنهم النعيم ولا يخافون الزوال والانتقال.

٢٦ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾

الله لا يستحيي أن يضرب الأمثال بما شاء من خلق البعوضة فما فوقها، فالكل خلقه، فبديع حكمته في خلق البعوضة والنملة مثلُ عجيب خلقه في الفيل والجمل، بل إنّ تركيبه للصغير الحقير يلفت النظر أكثر من الكبير، والمؤمن عند سماع هذه الأمثال يعتقد أن هذا المثل صدق لا مِرْيَة فيه من عند الله، بخلاف الكافر الذي يقف حائرًا مترددًا، وكل مثل يُسَاق يزداد به المؤمن إيمانًا والكافر كفرًا؛ ولهذا تَجِد عند العالم بآيات الله من اليقين والرسوخ؛ لتوارد الأدلة وكثرة البراهين ما لا يوجد عند الجاهل المعرض، وتجد المنحرف الفاجر يزداد فجورًا عند سماع البيّنات والحجج الواضحات.

٢٧ ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

هؤلاء هم الذين ينقضون العهد الذي بينهم وبين ربهم من الإيمان به واتباع رسوله ﷺ، وكل ميثاق عقدوه على أنفسهم من الإيمان والنذور والمعاهدات؛ لأنهم فَجَرَةٌ، وكل ما أمر الله به أن يوصل من بر الوالدين، وصلة الرحم، وحق الجار، قطعه هؤلاء العصاة المردة، فلا مع الخالق صدقوا، ولا مع الخلق وفَّوا، ثم هم يسعون في الأرض فسادًا من إشعال الفتن، ونشر الفرقة، واختلاف الكلمة، والتربص بالمؤمنين، وحبك المؤامرة على المسلمين، فهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وحياتهم وسعادتهم، فلا أشد منهم هلاكًا، ولا أغبن منهم صفقة، فالخسارة المالية تعوض، ولكن خسارة الدين والقيم لا عوض منها؛ لأن خسارة هؤلاء المكذبين خسارة دائمة في الدارين، فلعظم خسارتهم حصر الخسارة فيهم. ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

كيف تجحدون ألوهية ربكم وقد كنتم في عالم العدم فأوجدكم في الحياة بعد الفناء، ثم هو بعد هذه الحياة يميتكم ثم يخرجكم من قبوركم للحساب، أفلا يستحق من هذا وصفه - جل في علاه - أن يُعبد ويُوحّد؛ لأنه لا خالق ولا محيي ولا مميت إلا هو؟ فلماذا لا تفردونه بالعبودية؟ فإن من يملك الإحياء والإماتة والبعث هو وحده الذي تجب عبوديته، لكن عجبًا لكم جحدتم بهذا الحق كله، وكَفَرْتم بهذا الإحسان جميعه، فصيّرتم العبادة لغيره، وأشركتم معه سواه، فأي جرم أعظم من جرمكم؟ أم أي ذنب أكبر من ذنبكم؟.

﴿٢٩﴾ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

فالله - سبحانه - الذي يستحق العبادة، وهو الذي أوجد لكم كل ما في الأرض من غذاء وماء وهواء ودواء وضياء، وجعل الأصل فيما خلق لكم الحل والطهارة، وبعدما خلق لكم ما في الأرض من نِعَمٍ، قصد إلى السماء فأبدعهن وحسّن خلقهن، وأحكم صناعتهن، وجعلها سبع سموات، ومع هذا الخلق والإبداع فعلمه - سبحانه - محيط شامل، فله - سبحانه - كمال الخلق، وتمام العلم، فمن كان هذا وصفه من القدرة على الخلق وكمال العلم مستحق أن يُعبد وحده، وأن يُشكر بامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يخبرنا الله أنه أخبر ملائكته أنه سوف يجعل في الأرض من يَعْمُرها ويحييها بالإيمان، وهم آدم وذريته، وبعضهم يخلف بعضًا؛ ليبقى العمار والنماء والحياة، وتتم سنة الابتلاء وحكمة الخليقة، فقالت الملائكة: أتجعل في الأرض خليفة يفسد فيها بالعصيان والظلم والفتنة ويسفك الدماء المعصومة بغير حق. لأن الملائكة سالمون من الذنوب والخطايا، منزهون عن الظلم والعدوان، عندها أخبرهم سبحانه أنه يعلم ما لا يعلمون من سر الخلق وعواقب الأمور وبديع الحكم التي لا يطلع عليها إلا الله من إقامة الدين والدعوة إلى الله ووجود الأنبياء والعلماء والأولياء والعباد والزهاد ومَنْ يَصْلُحُ لِعِمَارة الأرض.

﴿٣١﴾ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

علَّم الله آدم أسماء المسميات من المخلوقات من سماء وأرض، وجبل وشجر ونحوها؛ ليتميز عليهم بالعلم الذي هو فوق كل شرف، وأجلُّه ما كان من الله - عز وجل - كعلم آدم وعموم العلم الشرعي، وبعدما علم آدم الأسماء عرض المسمّيات على الملائكة ليكون التفضيل بعد الامتحان، ويكون التكريم بعد الابتلاء، وقال للملائكة: أخبروني بأسماء هذه المخلوقات إن كنتم صادقين بأنكم أهل فضيلة وميزة على آدم وذريته.

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قالت الملائكة لما أمرهم سبحانه بذكر أسماء المسميات: يا ربنا تبارك اسمك وتقدّس نحن لا نستطيع ذكر هذه الأسماء إلا إذا علَّمتنا أنت؛ لأن علمك واسع محيط، وأنت مع العلم حكيم، فعلمك وحكمتك من أجلِّ صفاتك، وهذا يدلك على أن العالم الحكيم هو الرباني بحق، فمن فاتته الصفتان أو إحداهما فاتته الإمامة في الدين، وانظر كيف حصروا العلم والحكمة لله وحده؛ لأنه الأعلم الأحكم تقدس اسمه.

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

فلما عجز الملائكة عن معرفة الأسماء أمر الله آدم بعدما علّمه أن يذكر الأسماء أمام الملائكة؛ ليظهر فضله ويُبَيِّن شرفه وليأخذ الاصطفاء باستحقاق، فأخذ آدم يذكر أسماء المسمّيات أمام الملائكة، حينها قال الله للملائكة: أما

أخبرتكم أنني العالم بكل ما في السموات والأرض وأعلم ما تبدون من أعمال وأقوال وما تكتمون من عقائد وأسرار، وهذا يدلك على فضل العلم؛ لأنه الصفة الوحيدة التي فاق بها آدم على الملائكة، ثم إن الله مدح نفسه بالعلم، ثم إن الملائكة اعترفوا بالفضل لآدم؛ لأنهم أدركوا شرفه عليهم بما علّمه الله، فمن أراد العلو والرفعة فعليه بطلب العلم النافع الذي أنزله الله على رسله، فهو الذي تحصل به الفضيلة ويرفع به نقص الإنسان وغفلته ويعظم شأنه.

(٣٤) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

فلما ظهر للملائكة فضل آدم عليهم بالعلم أمرهم - سبحانه - بالسجود إكرامًا له لما ميّزه الله عليهم بعلم الأسماء؛ لأنه لا يوجد أفضل من صفة العلم، فامتثلوا أمر ربهم وسجدوا له؛ لأنه يجب على المفضول احترام الفاضل اعترافًا وإكرامًا، ولكن إبليس لكبره وشقاقه امتنع عن السجود، وضرب الأمثال كبرًا وعتوًا، فأذله الله وأخزاه وطرده ولعنه، وهذا شأن أتباعه من أهل الكبر لا يذعنون للحق، فمرض الشبهة أعظم من داء الشهوة، فالأول مرض إبليس؛ ولذلك طُرد، والثاني أصاب آدم لما أكل من الشجرة، لكنه تاب فتاب الله عليه، فالواجب على العبد المبادرة عند الأمر وترك التسويف والاعتراض، وهذا السجود لآدم سجود تحية وتعظيم، لا سجود عبادة الذي لا يصح إلا لله.

(٣٥) ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ثم أمر الله آدم أن يسكن الجنة مع زوجه في أمن وأمان وخير ورضوان، في عيش هنيء لا كدح فيه ولا مشقة، بل فيه ألوان من النعيم وصنوف من اللذائذ وأنواع من الثمار، مما تشتهيه الأنفس، ويسر النظر، ويشرح البال، ونهاهم - تعالى - عن أكل نوع من الشجر ابتلاءً منه لهما وامتحانًا ليظهر صبرهما وجهادهما للنفس، وحذرهما من مغبة ارتكاب المنهي، فإن من فعل ذلك بعد البيان فقد ظلم نفسه، وعصى ربه.

(٣٦) ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

فاجتهد الشيطان في إبعادهما عن الجنة حسدًا لهما، وسوّل لهما ولبّس عليهما فوقعا في فَخِّه المنصوب، وهذه بداية الصراع العالمي بينه وبين عباد الله إلى يوم الدين، فلما ارتكبا المحظور، حُرما من الحبور والسرور، وهذا جزاء من عصى فإنه يُحرم بسبب معصيته من مقامات الأمن والرعاية بحسب معصيته، فيا شؤم المعصية، ويا سوء عاقبتها، ثم أمر الله آدم وحواء والشيطان بالنزول إلى الأرض، وجعل بينهم العداوة الأبدية لتتم سنة الابتلاء والمدافعة والمجاهرة، وجعل الأرض لبني آدم دارًا للعيش والسكنى والتمتع مدة معلومة من الزمن حتى يأذن الله لقيام الساعة ونهاية العالم، فالمستقر سكن ووطن، والمتاع غذاء وماء فلا بقاء للدنيا، ولا لأهلها، وإنما سوف يعودون لإحدى الدارين دار آدم الجنة، ودار إبليس النار.

(٣٧) ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

من رحمة الله ولطفه بآدم وذريته أن علمه كلمات يستوجب بها الرحمة والغفران، وهي كلمات الاعتراف بالذنب وإعلان التوبة وطلب العفو، وفي هذا فضل الاستغفار، وأن الذنب قد تكون فيه مصالح عظيمة للعبد إذا تاب وأناب من الانكسار والندم والاجتهاد في الطاعة والبكاء والخوف والتواضع لعباد الله.

(٣٨) ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ولما أمرهم - سبحانه - بالنزول إلى الأرض من الجنة بَيَّنَ لهم أنه لن يتركهم هملاً، بل سوف يرسل إليهم رسلاً، ويُنَزِل إليهم كتبًا، من آمن بالله واتبع رسله واهتدى بهداه فله الأمن من الله، فلا يخاف مما يستقبله؛ لأن الله حافظه وكافيه ولا يحزن على ما مضى، فالله يغفر له ويتجاوز عنه، والسعادة مبنيّة على أصلين: - لا خوف، ولا حزن.

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أما من أعرض عن هدي الله وردّ ما جاءت به رسله، وكتم الحق وكذب به فالنار جزاؤه خالدًا مخلدًا فيها، فانظر كيف بيَّن الله لعباده مصيرهم حتى يكونوا على أهبة وبينة، وتكون الحجة لله عليهم، فلم يأخذهم قبل البلاغ.

(٤٠) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾

ثم نادى الله بني إسرائيل وذكَّرهم بأنهم أبناء النبي الكريم يعقوب، فكأنه يقول لهم: أين أنتم من أبيكم الذي كان شاكرًا لربه، عارفًا لحق مولاه، ما لكم أنتم خالفتم أباكم فكفرتم بالله وحاربتم رسله وعصيتم أمره؟!

ثم ذكَّرهم - سبحانه - بنعمه عليهم لعلهم يراجعون أنفسهم، ويستحيون من ربهم، فهل جزاء هذه النعم العصيان وقتل الأنبياء وكتم الحق؟.

وذكَّرهم بعهده عليهم الذي قطعوه على أنفسهم من الإيمان به واتباع رسله، فإذا فعلوا ذلك نصرهم وأعزهم ومكَّن لهم في الدنيا وأكرمهم في الآخرة بجنات النعيم، وأمرهم ألا يخافوا سواه، بل يكون الخوف كله من الله؛ لأنه مالك الضر والنفع، وبيده الثواب والعقاب.

(٤١) ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾

واتبعوا هدي النبي الأمي محمد بن عبدالله ﷺ وما جاء به من الوحي؛ لأنه مصدق لما جاء به موسى عليه السلام من التوراة، بل يؤيده ويعضده، فكيف تفرقون بين الرسولين والكتابين، واحذروا أن تكونوا أول المكذبين بهذا النبي فيقتدي بكم غيركم فتكونون أسوة شر، ومفتاح فتنة وصدٍّ عن سبيل الله.

وإياكم أن تشتروا بآياتي التي عندكم عرض الدنيا الزائل فتكتموا الحق وتشهدوا الزور، وتكذبوا مقابل رشوة أو مراباة أو كسب خبيث، فالدنيا كلها ثمن قليل فكيف بجزء منها، وعليكم باتقاء الله وحده بفعل ما أمر واجتناب ما عنه زجر، فلن يحول بينكم وبين عذاب الله إلا تقواه.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

وإياكم يا بني إسرائيل أن تخلطوا الحق بالباطل، فتمزجوا بين الصدق والكذب لتروجوا على الناس باطلكم؛ لأن بعض الفجرة يذكر شيئًا من الحق ليُصدَّقَ في باطله، وإياكم أن تكتموا الحق الذي ظهر وبان بقيام الأدلة والبراهين من نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته وأن دينه حق وشرعه صدق، وأنتم تعلمون أنه رسول من عند الله، فهو مكتوب عندكم بعلاماته وصفاته فكيف تجحدون ما تعلمون.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

وعليكم بإقامة الصلاة التي أمركم الله بها؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ما أُقيمت على الوجه الصحيح، لا مجرد صلاة بلا خشوع وحضور، وأدُّوا زكاة أموالكم لتزكوا بها نفوسكم وتُحطَّ عنكم خطاياكم، ويرضى عنكم ربكم، وتسخو قلوبكم، ويذهب الشح عنكم، وصلوا مع المصلين، واستدل بهذا من أوجب صلاة الجماعة، وقيل: اخضعوا لربكم مثل ما خضع له عباده الصالحون.

(٤٤) ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

ما لكم تزكون الناس بكلامكم وأنتم في ظلمة المعاصي واقفون، تأمرون غيركم ولا تأتمرون، وتنهون عن الذنوب ولا تنتهون، ثم عندكم كتاب يُتلى فيه حجج بيّنات، وبراهين واضحات، ومع ذلك لم تستضيئوا بنوره، ولم تهتدوا بهداه، وإذا لم يزجركم العلم أفلا يزجركم العقل! فإن العقل الراجح يدعو إلى الفضائل ويزجر عن الرذائل؛ ويمنع من السفه ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

(٤٥) ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾

وعليكم بالصبر على أداء المأمور واجتناب المحذور - والصبر قوة من قوى النفس تدخل في كل نظام الحياة وأعمالها -، وداوموا على الصلاة؛ لأنها تعين صاحبها في الأزمات، وتريحه في الكربات، وفي الحديث: «أرحنا بالصلاة يا بلال»،

فهي قرة العيون، وبهجة النفوس، وهذه الصلاة كبيرة وشاقة وصعبة إلا على الخاشعين المخبتة قلوبهم وجوارحهم للجبار جل جلاله، ولا يشق عليهم أداؤها في وقت النوم والراحة والبرد والسفر والمرض، وأما المنافق فمن أشق شيء وأصعبه عليه.

٤٦ ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

وهؤلاء المؤمنون الخاشعون الصادقون يتيقنون بالبعث بعد الموت، ولقاء الله للحساب، والرجوع إليه للثواب والعقاب، وهذه مسألة الإيمان باليوم الآخر التي هي من أركان الإيمان العظيمة، وهي التي تحمل صاحبها على تقوى الله؛ لأنه يعلم أنه سوف يلقاه في يوم لا ريب فيه.

٤٧ ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يا أبناء النبي الكريم الصالح يعقوب الذين لم تفعلوا فعله في الاستجابة لنا، لماذا لا تذكرون نعمنا عليكم، أما نجيناكم من العذاب؟ أما ظلّلنا عليكم السحاب؟ أما والينا عليكم النعم، وصرفنا عنكم النقم وفضلناكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء منكم، ونزول الكتب فيكم ونصركم على الأعداء مع كثرة أيادينا عليكم، فهلا للنعيم شكرتم وللإحسان ذكرتم؟

٤٨ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وخافوا يومًا تعرضون فيه على الله، لا تدفع نفس عن نفسها شراً، ولا تجلب لها نفعًا، ولا شفاعة تقبل لكافر، ولا يُفتدى فيه من العذاب بمال، ولا ناصر لمن حق عليه العذاب ينقذه، فلا شافع قبل العذاب، ولا فدية إذا حل، ولا ناصر إذا وقع، فهي أربعة يتعلق بها الكفار في الآخرة لا تنفعهم نفسٌ بدل نفس تفديها، ولا صاحب جاه يشفع لينجيها، ولا ثمن مال من الهلاك يحميها، ولا مدافعٌ صاحب قوةٍ يكفيها.

٤٩ ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل نعمتنا عليكم يوم نجيناكم وسلّمناكم من فرعون وقومه لما هربتم من بطشه، فأدرككم ففلقنا لكم البحر، وخرجتم سالمين من بعد ما كان يذبح كل مولود لكم من الذكور، ويترك كل مولود من الإناث للخدمة في بيوت قوم فرعون، وهذه ابتلاءات واختبارات بالنعم والنقم عظيمة، ولكنكم كفرتم النعم، ونسيتم النقم، وخير ما تَبْكُت به اللئيم تذكيره بما أسديت إليه من نعيم.

٥٠ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل يوم شققنا لكم البحر وقد ضاق عليكم الأمر؛ لأن البحر كان من أمامكم والعدو من خلفكم، وقد أشرفتم على الهلاك فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون، وقد كانوا طالبين لكم، وأنتم مطلوبون، فجعلنا الدائرة عليهم، وأغرقناهم وأنتم تبصرون غرقهم زيادة في التشفي منهم، ولئلا تتكروا هذه النعمة أو لتقوم بها عليكم الحجة.

٥١ ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

واذكروا حين واعدنا موسى قبل أن نكلمه بطور سيناء، وجعلنا له أربعين ليلة قبل هذا الموعد، وكل هذا من أجل هدايتكم وصلاح أموركم، فكفرتم الإحسان، واتخذتم العجل إلهًا يُعبد من دون الله بعد غياب موسى، فأي ظلم أظلم من فعلكم؟! وأي بغي أشد من بغيكم؟ لأنكم صَدَّقْتم الدجل، وعبدتم العجل، ورضيتم بالجهل، وشتان بين أمة موسى وأمة محمد ﷺ، فأمة موسى غاب نبيّها أربعين يومًا فجعلوا العجل معبودهم، وأمة محمد ﷺ مات نبيها والخير فيهم إلى يوم القيامة.

(٥٢) ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وبعد هذا الصنيع المشين منكم والفعل السيئ القبيح عفونا عنكم، وسامحناكم وتجاوزنا عن أخطائكم لعلكم ترجعون إلى الجليل وتعترفون بالجميل، وتحفظون هذا الإحسان منا.

(٥٣) ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

وتَذَكّروا يا بني إسرائيل يوم أكرمنا موسى بالتوراة وبيان الحلال والحرام، هدايةً لكم وإرشادًا لعلكم تستقيمون على أمر الله، وتهتدون بهداه.

(٥٤) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

واذكروا حين نهاكم موسى عن عبادة العجل، وأنكر عليكم فعلكم الشنيع الفظيع في عبادتكم لعجل يخور، وتمثال كالثور، وعرض عليكم موسى التوبة إلى الله والعودة إلى دينه؛ لأنه سبحانه هو خالقكم ورازقكم ومبدعكم، لا ربَّ غيره ولا إله سواه، وهذه التوبة تقتضي منكم أن يقتل منكم البريءُ المجرمَ؛ لأن في هذا تطهيرًا لكم من دنس الذنب وبراءةً للذمة، ودليلاً لصدق التوبة وامتثالاً للأمر، فلما فعلتم تاب الله عليكم من ذلك الذنب العظيم والجرم الأثيم؛ لأنه - سبحانه - يتوب على من تاب، ويرحم من أناب، فلا يأخذ بالذنب بعد التوبة، ولكنه يرحم من استغفر من الحوبة.

(٥٥) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

ومن تمردكم وتنكركم والتوائكم طلبتم من موسى أن يريكم الله - جل في علاه - مباشرة لترونه عيانًا بأبصاركم، والله -عز وجل- أعظم وأجل من أن يُرى في الدنيا، وإنما يُرى في الجنة لأوليائه بقوة خاصة يُمدّهم بها، فكيف طلبتم هذا الأمر الجليل، وهو من المستحيل؟ وكفرتم بالتنزيل، ورفضتم الدليل؟ ولكنكم لما سألتم هذا السؤال عاقبناكم بصاعقة من السماء خلعت قلوبكم، وأحرقت أجسامكم وأنتم تشاهدون مصارع بعضكم، فهَلَّا كان عندكم حياء من تذكر ذاك البلاء؟ وهَلَّا استفدتم من تلك المشاهد العظيمة في زجر النفوس الأثيمة؟.

(٥٦) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وبعدما أهلكناكم بالصاعقة بعثناكم من جديد، وأعدناكم إلى الحياة لعلكم تراجعون أنفسكم وتوحدون ربكم وتتبعون رسولكم، ولكن ما نفعت فيكم العبر، وما أجدت فيكم العظات؛ لأن النفوس شريرة، والطباع خبيثة، والفِطَر فاسدة، والأخلاق دنسة.

(٥٧) ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ومن زيادة النعيم لكم نشرنا السحاب عليكم، يُلَطِّف لكم الجو ويحجب عنكم حرارة الشمس، ويكون مصدرًا للغيث، وتكفلنا بطعامكم من المنِّ الذي هو كالعسل حلاوةً وطلاوة، والسلْوى وهو لحم طير لذيذ شهي، فالجو لكم قد طاب بتظليل السحاب وتوفير الطعام والشراب، فكلوا من الطيبات واعملوا الصالحات، واشكروا رب الأرض والسموات، ولكن هيهات هيهات لقد قابلوا الإحسان بالإساءة، والجميل بالنكران، فأعرضوا عن الهداية، وركبوا الغواية، فكان ظلمهم على أنفسهم ومغبة ذنوبهم عليهم، فالله لا تضره - سبحانه - معصية العاصي، كما لا تنفعه طاعة الطائع؛ لأنه الغني عما سواه. لا إله إلا الله ولا نعبد سواه، وفي الآية الاكتفاء بالطيبات عن الخبائث، وبالحلال عن الحرام.

٥٨ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وأمرناكم بدخول فلسطين لطلبكم ذلك، وهيأنا لكم فيها معيشة هنيئة بلا مشقة ولا عناء في تحصيلها، بل رزق وافر من طعام لذيذ مع راحة بال وحسن حال، وأمرناكم بدخول باب القرية خاضعين خاشعين شكرًا لله، مستغفرين لذنوبكم، طالبين العفو من ربكم، ووعدناكم بغفران الخطايا إذا تبتم، وتكفير الذنوب إذا استغفرتم، ومن لم يكن منكم مذنبًا زدناه باستغفاره وصلاحه حسنات، ورفعناه درجات، فالمسيء نكفّر سيئاته، والمحسن نزيد في حسناته، فوعدناكم إذا استقمتم بعيش رغيد، ومقام سعيد، وغفران للخطايا، وزيادة في العطايا. وفي الآية وجوب الاستغفار من الذنوب مع تقوى القلوب.

٥٩ ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

فغيّر الفجرة منكم ما أمرناهم به من الاستغفار، وقلبوا الكلام فسقًا وعنادًا، فقالوا: حنْطَة مكان حِطَّة، وما ذاك إلا لكثرة تمردهم على ربهم، وتأصل الخبث في نفوسهم، بعدها أنزلنا عليهم عذابًا من السماء نكَّل بهم جزاء فعلهم الشنيع وقولهم القبيح، فكم من آية مرت بهم وبلاء، وكم من محنة عاشوها ورخاء، لكن المُخَدَّر بسكار المعصية لا يشعر، والمفتون بحب الدنيا لا يحس، فالذنوب تميت القلوب وتنسيها علام الغيوب، فما أذهب الفطنة وعطّل الفهم ومحق البركة مثل المعصية.

٦٠ ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

فلما أمّنا لكم الطعام مما لذَّ وطاب، بقي الشراب، فلما دعانا موسى أن نسقيكم الماء البارد جعلناه بطريق المعجزة لعلكم تشاهدون قدرة الله فتخافوا، وتنظرون فضله فتشكروه، وتبصرون كرمه فتحبوه، فلا شكر على النعم، ولا خوف من النقم، ولا حب على كثرة الأيادي.

أمَا ضرب موسى بعصاه الصخر مثلما ضرب بها البحر، فانفجر الصخر بالماء، وانفلق البحر للنجاة، فاليابس القاسي بقدرتنا لان، وقلوبكم ما لانت، والسائل بأمرنا تجمّد، فهل من معتبر؟ وفجرنا من الصخر لكم اثنتي عشرة عينًا بعدد قبائلكم؛ ليقل الزحام ولا يقع الخصام، فكل قبيلة تعرف مشربها، فها هو الطعام والشراب مهيأ لكم، وكله من فضل الله فهلاَّ شكرتموه وعبدتموه، فلله في كل لقمة نعمة، وفي كل قطرة ماء آلاء، وفي كل نسمة هواء عطاء، وقد حذرناكم مغبة العصيان، وعاقبة الكفران من السعي في الأرض بالظلم، وسفك الدم الحرام، والقطيعة وأخذ أموال الناس بالباطل، وشهادة الزور ونحوها، ولكن تركتم المأمور، وارتكبتم المحذور، وخالفتم الرسول، وجانبتم الحق، وأطعتم الهوى.

٦١ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

وبعدما هيأنا لكم أحسن الطعام من اللحم والحلوى والشراب البارد مللتم ذلك لانعكاس الفطرة وخواء القلوب والتنكر للنعم، ومحبة التبديل والتغيير حتى في الأكل والشرب، اقترحتم على موسى طعامًا آخر وهو أدنى من الأول في الطعم والقيمة من البقل وأنواع الحبوب والخضراوات، فكيف تستبدلون – حتى في الطعام – الأدنى بالأحسن، والرخيص بالغالي، فلا تمييز عندكم ولا فرقان حتى فيما تأكلون؟! ولكننا أعطيناكم طلبكم أيضًا، وأنزلناكم بلدة طيبةً تأكلون من الثمار والحبوب والخضراوات، وجزاءً لعتوكم والتوائكم وتمردكم جعلنا الهوان عليكم فضربناكم بالخوف في القلوب، والفقر في النفوس، مع خِسَّة الهمم وانحطاط العزيمة؛ لأنكم رضيتم بالدون، وطلبتم الأخس من كل شيء، ورفضتم اختيارنا لكم من العلو والرفعة، وطهارة النفس وسلامة الأخلاق، وصفاء الضمير، وصحة

المنهج، فغضبنا عليكم أشد الغضب؛ لمخالفتكم وفجوركم بعد قيام الحجة، وثبوت الدليل، ووضوح البرهان، فالعالم العاصي مغضوب عليه، والجاهل العاصي ضال، وسبب غضب الله على اليهود كفرهم بالرسالة ورفضهم الإيمان، وقتلهم للأنبياء، وهي جرائم بشعة فظيعة، وخطايا هائلة مرعبة، وهذا الهوان الذي حل بهم والذل الذي لزمهم والغضب الذي وقع عليهم بسبب عصيانهم في ترك المأمور، وعدوانهم بارتكاب المحظور، ويمكن أن يكون العصيان ظلم النفس، والعدوان ظلم الناس.

(٦٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هذه الآية في أهل الكتاب قبل رسالة محمد ﷺ، ومعناها أن من آمن من هذه الطوائف من اليهود والنصارى والصابئة (هم الذين بقوا على فطرتهم بلا دين معلوم عنهم، وقيل فرقة من النصارى)، وعمل صالحًا فهم مأجورون عند الله لا يخافون مما أمامهم من الأهوال، ولا يحزنون مما خلفهم من آثار الأعمال، وأما بعد بعثة محمد ﷺ فلا يصح إيمان مؤمن حتى يؤمن به ﷺ، وهذه الآية فيها احتراز واستثناء؛ لأنه لما ذم بني إسرائيل أخبر أن فيهم مؤمنين، ثم ذكر النصارى والصابئين ليكون الحكم عامًا والقاعدة مطردة في كل من آمن وعمل صالحًا، وبيّن أن أجرهم عند ربهم، وهي الجنات، ولا يلحقهم خوف من عقاب من العقوبات، ولا ينالهم حزن على فوات ثواب؛ لأنه لا أمن لخائف ولا راحة لمحزون، وفي الآية اقتران الإيمان بالعمل الصالح، وإلا صار مجرد دعوى لا يوصل لفوز، ولا ينجي من هلاك.

(٦٣) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل أخذنا عليكم العهد الثقيل بطاعتنا واتباع رسولنا، وأكدنا ذلك برفع جبل الطور فأصبح كالسحابة فوق رؤوسكم حتى تخافوا وترهبوا، وأمرنا بالجد والاجتهاد في أخذ التوراة والصبر على تعاليمها والعمل بأوامرها واجتناب نواهيها، مع تدارس هذا الكتاب وتذكره وتدبره ودوام تلاوته؛ ليبقى حاضراً معكم؛ لأن الإهمال طريق النسيان؛ ولأن في لزوم قراءته ما يدعو لتقوى الله بما يحب واجتناب ما يكره، وهذا هو المقصود من المدارسة للكتاب لا مجرد التلاوة بلا عمل.

فالقوة في أخذ الكتاب تقتضي حسن التلقي، وصحة العمل، فلا كسل في الأخذ، ولا وهن في التنفيذ.

(٦٤) ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

وبعد هذه الآيات والحجج البيّنات أعرضتم عن الهداية واخترتم الغواية، فلولا أن الله تفضّل عليكم بالإمهال والتوبة ولم يعاجلكم بالعقوبة لحل بكم الهلاك، فلا ناصر يدفع، ولا وليًا يشفع، وفضل الله يشمل الإحسان للمحسن، ورحمته تعم التجاوز عن المسيء.

(٦٥) ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾

ولقد عرفتم قصة سكان قرية إيلات الساحلية الذين خالفوا حرمة يوم السبت، فصادوا فيه فعاقبناهم بتغيير صورهم إلى قرود ذليلة قبيحة حقيرة، فمن بدّل النص والسورة عُوقب بتبديل الشكل والصورة، كما في الحديث: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوِّل الله صورته صورة حمار**». والجامع بينهم وبين القرود الهوان والذلة وقبح الصورة.

(٦٦) ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

فجعلنا هذه العقوبة التي حلّت بهم عظة وعبرة لمن شاهدها، وسمع بها في عصرهم، ولمن نقلت إليهم ممن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة؛ ليرتدع العاصي، ويحذر المتقي، وتقوم الحجة، وتظهر نقمة العظيم بأعدائه، والسعيد من

وعْظ بغيره، ومصائب قوم عند قوم فوائد، وذكرت هذه الآيات لهذه الأمة لتأخذ الحيطة والحذر من مخالفة أمر الملك الحق، ولكن لا ينتفع بهذه الآيات إلا المتقي؛ لتمام بصيرته وكمال إيمانه وحسن تدبره.

(٦٧) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

واذكروا حين قال لكم موسى إذ قتلتم قتيلاً منكم ثم اختلفتم فيمن قتله، وكادت تقع بينكم فتنة، فأمركم بذبح بقرة وأخذ عضو من أعضائها وضرب المقتول به ليخبر من قتله، لكنكم ما بادرتم لامتثال أمر موسى بل تلكأتم وترددتم وتشددتم في السؤال فشدد الله عليكم في أوصاف البقرة، ولو أنكم بادرتم إلى أيَّة بقرة فذبحتموها لاستقام الحال وحصل الامتثال.

فلما أمرهم موسى بذبح البقرة ظنّوها سخرية منه، فقالوا: نسألك عن القاتل، فتقول: اذبحوا بقرة؟! ومعاذ الله أن يهزل رسول الله في أوامر الله، فكلام الرسل جدٌّ ليس بالهزل، بل حق وصدق وفصل، ولهذا تعوَّذ موسى من الجهل الذي منه الاستهزاء بالناس، والسخرية بعباد الله، والتكلم بكلام لا فائدة فيه، واللعب بأمر الله، والمزاح في شرعه سبحانه.

فمن مزح بالحق فقد جهل، ومن استهزأ بالناس فقد خسر.

(٦٨) ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

فلما علموا صدق موسى أخذوا يطلبون أوصاف البقرة تعجيزًا وترددًا، فقالوا: يا موسى، اسأل ربك يخبرنا ما سنُّها؟! أكبيرة هي أم صغيرة؟ فقال موسى: ربي يقول: إنها وسط ليست بالفارض وهي الكبيرة، ولا بالبكر وهي الصغيرة، بل هي بينهما، وذلك الأقوى والأحسن والأكمل نموًا، فهيا بادروا إلى الأمر واتركوا التشدد والتعنت.

[فمن سأل عما سُكت عنه ساءه ما صدر منه].

(٦٩) ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

فلما سألوا عن السن وأجيبوا، سألوا عن اللون، فقال لهم موسى: إن ربي يقول: إنها صفراء شديدة الصفْرة، وهي أحسن ألوان الدواب التي تبهج العين حسنًا وتسر النفس مشاهدةً.

(٧٠) ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

وما زال اللبس عندهم بعد هذا البيان، فقالوا: ادع لنا يا موسى ربك يبين لنا شأن هذه البقرة وإنَّا بعد ذلك لمهتدون بمشيئة الله، ولو لم يقولوا: إن شاء الله ما اهتدوا.

(٧١) ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

فقال لهم موسى إنها ليست مذللة للعمل، ولا مسخرة للخدمة، ولا يُحرث عليها، ولا يُسقى عليها، سالمة من العيوب كالعرج والعور والمرض، أو سالمة من العمل، ولونها لون واحد لا لون فيها غير الصفرة، وبعد هذا التشدد منهم شدد الله عليهم، فقالوا لموسى بعد هذه الأوصاف: عرفنا البقرة الموصوفة، فذبحوها بعد عنت ومشقة.

(٧٢) ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

وقد قتل أناس منكم نفسًا معصومة، واختلفتم فيمن قتلها والقاتل جاحد والشاهد كاتم، فجعل الله علامة بينت الحق، وهي أن الله أمركم بذبح البقرة، ثم أخذ عضو منها وضرب المقتول به، فأحياه الله وأخبر بمن قتله، فأخرج الله البينة التي أخفاها القاتل وكتمها الشاهد.

(٧٣) ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

فلما أمرناكم بضرب المقتول بعضو من أعضاء البقرة أحيينا المقتول بإذن الله ليتحدث بنفسه ويخبر عمن قتله، وتكون لكم آية على قدرة - الله تعالى - في الإحياء لعلكم تراجعون عقولكم؛ لأنكم بعد هذه الآيات والحجة ضللتم في المحجة.

(٧٤) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وبعد هذه الآيات غلظت قلوبكم، ومردت على الكفر، فلم تؤثر فيكم موعظة، ولم تنفعكم نصيحة، ولم يجدِ فيكم هدى من بعد ما أظهرنا لكم البينات والآيات الباهرات، فقلوبكم في قسوتها كالحجارة بل أشد، لأن الحجر ينفجر منه النهر، وقلوبكم لا تنفجر بخير ولا تقوى، ومن الحجر ما يتشقق بالماء، وقلوبكم لا تتشقق للهدى الذي نزل من السماء، ومن الحجر ما يسقط من خشية الله، وقلوبكم لا تتفطر من خوف الله، فيالها من قلوب رانت عليها المعصية فغلظت، وكثر عليها الذنب فقست، ولكن الله ليس بغافل عما فعلتموه من التكذيب والتحريف والتبديل، بل هو عالم بذلك حافظ له وسيجازيكم بأعمالكم.

(٧٥) ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ما كان لكم - أيها المؤمنون - أن تطمعوا في إيمان اليهود، وقد حرفوا كتابهم الذي فيه هدايتهم وشرفهم وبدّلوه، فكيف تريدون أن يُصَدِّقوا بكتابكم، ويتبعوا رسولكم؟ هذا بعيد جدًا على هذه الأمة البائرة الحائرة، فما دام أنهم سمعوا كلام الله الذي جاء به موسى ثم حرّفوه من بعد ما ثبت عندهم أنه من الله، وعلموا علم اليقين أنه وحي إذًا فلا تطمعوا في إيمانهم بما عندكم وقد كفروا بما عندهم، فلو أرادوا الإيمان لآمنوا بموسى قبل محمد، والتوراة قبل القرآن.

(٧٦) ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

هؤلاء اليهود منهم من إذا لقي المؤمنين قالوا: آمنا، بألسنتهم فحسب وقلوبهم كافرة، ولكن إذا رجع بعضهم إلى بعض وانفردوا عن المؤمنين قال بعضهم لبعض: لا تظهروا لهم الإيمان بما عندهم، وتشهدوا أن دينهم حق وديننا باطل، فيجعلوا ذلك حجة علينا عند الله يوم القيامة فيكونوا شهداء بضلالنا ونكون شهداء بإيمانهم، أفلا تعقلون خطورة ما تفعلون. فلا تحدثوهم بما عندنا من الآيات التي تظهر صدق محمد ﷺ فيجعلوها حجة منا علينا عندالله، بل اكتموا ما عندنا ولا تؤمنوا بما عندهم.

(٧٧) ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

كيف لا يعلم هؤلاء العصاة العتاة من بني إسرائيل أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم، فيخافونه ويخشونه، فهم يظهرون للمؤمنين غير ما يبطنون خوفًا ومداراة، والله أولى أن يخاف، وأجدر أن يخشى؛ لأنه يعلم السر وأخفى، لكن المراقبة إذا ارتحلت من القلب فسد، والعمل إذا خلا من الصدق كسد.

(٧٨) ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

ومن أهل الكتاب عوام مقلدون، مبلغ علمهم من التوراة التلاوة فقط، بلا فقه ولا تدبر ولا فهم، فعلماؤهم فاسدون، وعوامهم مقلدون، وهؤلاء العوام ليس عندهم يقين، وإنما هي شكوك وأوهام بلا رسوخ ولا عمق، فلا خير في علم بلا فهم، ولا في قراءة بلا تدبر، ولا في عبادة بلا فقه، وإنما حصل الفساد من الغواية والتقليد.

(٧٩) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

فالخسارة والهلاك على من كتب وحرّف كتاب الله بيده، ثم ادعى كذبًا وزورًا أنه كلام الله ليحصل على شيء من الدنيا الفانية الزائلة، كيف والدنيا بأسرها من أولها إلى آخرها ثمنٌ قليل بخس رخيص تافه، والهلاك عليهم من جهتين، من جهة التحريف للكتاب، ومن جهة أكل أموال الناس بالباطل، فهم حرفوا الكلام، وأكلوا الحرام، فالعلم فاسد، والمطعم خبيث، فقوت الروح مقت، وقوت الجسم سحت.

(٨٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وقالت اليهود: إن الله لن يعذبنا في نار جهنم إلا أياما معدودة كذبًا منهم وزورًا، فرد عليهم الله بأن هذه الدعوى لها احتمالان: إما أن لهم عهدًا بينهم وبين الله من الإيمان به ورسوله والعمل بكتابه وهذا ليس موجودًا، وإما أنهم يقولون كلامًا لا حقيقة له، وهذا الواقع والحال، فهم كاذبون فيما قالوا، آثمون فيما فعلوا؛ لأنهم نقضوا العهود، وأخلفوا الوعود، وكفروا بالمعبود، فاستحقوا الخلود في النار ذات الوقود.

(٨١) ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

والحق أن من كسب ذنبًا أحاط به، وهو الشرك بالله؛ لأن ما سواه قد يغفره الله، لكن هذا الشرك إذا أتى به صاحبه فقد حبط عمله، وضل سعيه، وحق عليه العذاب، فهذا خالد مخلد في النار، وهذا عام لكل الطوائف، شامل لكل الأمم، ولو كان العبد له خطايا غير الشرك لم تحط به خطيئته، فلا حجة لخارجي مكفّر في الآية ولا لمعتزلي متذبذب بل فيها الرد عليهم.

(٨٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

ثم ذكر حكمًا عامًا في النجاة، وهو أن من آمن بالله واتبع رسله وعمل صالحًا مع الإخلاص والمتابعة فهو ناجٍ من النار، خالد في جنات النعيم، فبين في هاتين الآيتين أهل الهلاك وأهل النجاة، فالإيمان والصلاح طريق الفلاح.

(٨٣) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

قد أخذنا الأيمان الغليظة على بني إسرائيل مع العهود الموثقة على أن يعبدوا الله وحده لا يشركوا به شيئًا، مع بر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى اليتيم والمسكين، وحسن معاملة الناس، وإقامة الصلاة في وقتها بحدودها، ودفع زكاة المال لمن يستحقها، وهذه أصول العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وهي متفق عليها بين الديانات السماوية، ولكن مع أخْذنا المواثيق الصارمة والأيمان الجازمة عليكم، ومع حسن ما أمرناكم به، وقبح ما نهيناكم عنه أعرضتم وبدلتم وحرفتم، فتركتم الأوامر، وارتكبتم المناهي ظلمًا وبغيًا، ولكن فئة منكم لم تفعل فعلكم بل آمنت وصدّقت واتبعت، وأما أكثركم فهو معرض مكذب، لم يحسن عبادة الخالق، ولم يحسن معاملة المخلوق، فياخسارة بني إسرائيل ومن شابههم، كم من عهد نقضوه، وواجب تركوه، ومحرم ارتكبوه، وعلم نسوه.

(٨٤) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

واذكروا يوم أخذنا عليكم المواثيق الغليظة، والعهود الملزمة ألاّ يقتلَ بعضكم بعضًا بلا حق، ولا يخرج بعضكم بعضًا من وطنه بلا حق؛ لأن قتل النفس والإخراج من الوطن قرينان، فذاك بقاء النفس وهذا دوام الأنس، فأين هذه العهود التي أقررتم بها وشهدتم على الوفاء بها، وعلمتم أنها حق من عند الله ثم نقضتموها بالقتل والطرد؟

(٨٥) ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

فأنتم الآن في المدينة تقتل كل قبيلة منكم الأخرى، فبنو النضير تقاتل بني قريظة، وكذلك بنو قينقاع، وبعضكم يخرج بعضًا ويُجْلِيه عن بلده ويطرده من داره، وهذا محرم في شرعكم، وأنتم تتعاونون على هذه الأفعال المحرمة، وتتحالفون مع غيركم كالأوس والخزرج من العرب على قتل إخوانكم من اليهود وإخراجهم، فأنتم على إثم في ترك الأمر، وعلى عدوان من فعل المنهي عنه، ثم إذا انتهت الحرب فديتم أسراكم فتخرجونهم ثم تفادونهم، والإخراج محرم، والفداء واجب عليكم، فأنتم كَفَرْتُم ببعض الكتاب من تحريم القتل والإخراج، وآمنتم بالفداء، فلماذا تفرقون شريعة الله؟ فما أعجبكم آمنتم به، وما شق عليكم كفرتم به!! فمعقوبة من يفرق الكتاب أن يخزيه الله، وهذا ما وقع لليهود في عهده ﷺ، فإنه نكّل بهم وقتل بعضهم، وأخرج بعضهم جزاء وفاقًا؛ لنقضهم العهد والميثاق، فصاروا بعد هذا في ذُلٍّ وهوان وهلاك وخسران، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فعذاب دائم أليم في نار جهنم، وهذا جزاء من أعرض عن الهُدى ضنك وعار في الدنيا، وعقوبة وعذاب في الآخرة. أما المؤمن فسعادة ونصر وعزة في الدنيا، ونعيم ونجاة وخلود في الآخرة، ثم أخبر - سبحانه - أنه ليس بغافل عن أعمال اليهود وما يفعلونه من دسائس ومكر ومعاصٍ، بل هو مطلع عالم يحصيها لهم ثم يوفيهم إياها.

(٨٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

هؤلاء الكفرة الفجرة اختاروا عرض الدنيا الزائل على نعيم الآخرة الدائم، فتعاونوا على الإثم والعدوان خوف العار في نظرهم، فلسان حالهم يقول: النار ولا العار، فلما أغضبوا الجبار أوقع بهم العار، وأعد لهم النار، فهم يقدمون الحاضر الرخيص على الغائب النفيس دائمًا، ففي الآخرة لن يخفف الله عليهم عذاب جهنم، وليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب، فلا عمل صالح ينفع، ولا ناصر يدفع، ولا ولي يشفع، فلا يرحمهم الله، ولا يقبل قول من يرحمهم.

(٨٧) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

وأخبر - سبحانه - أنه أنزل على موسى التوراة؛ هدايةً لبني إسرائيل، ثم تابع الرسل عليهم مبشرين ومنذرين من أجل هدايتهم، ومنهم عيسى الذي أنزل الله عليه الإنجيل وأيده بجبريل، لكن اليهود لما قَدَّموا الهَوى على الهدى حاربوا أنبياء الله واستكبروا على أمر الله، وجحدوا بآيات الله، فكذبوا بعض الأنبياء، وآذوهم وقتلوا بعض الأنبياء، فهم بين تكذيب وتقتيل، فكان جزاؤهم التنكيل والتعذيب.

(٨٨) ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

هؤلاء اليهود اعتذروا عن الإيمان بالرسول النبي الأمي فقالوا: قلوبنا مغطّاة بأغشية لا تفهم ما تقول، فسامحنا فلن نستطيع اتباعك، فليس عندنا استعداد لسماع ما بُعثت به؛ لأننا لا نفقه ما تقول، وأخبر - سبحانه - أن هذا عذر كاذب، بل السبب أن الله كتب عليهم اللعنة فأصبحوا مطرودين من الرحمة والخير والهدى، فلما كتب عليهم الشقاوة وحرمهم الهداية لارتكابهم الغواية أصبحوا لا يريدون الرشد الذي بُعث به ﷺ؛ لأن الملعون مغبون، وما استحقوا اللعنة إلا بكفرهم بالله واستهزائهم برسله وكتبه، فالمؤمن فيهم قليل، وغالبهم كافر جاحد.

(٨٩) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

ولما جاء اليهودَ كتابُ القرآن المنزل على محمد ﷺ وهو يصدق ما جاء في التوراة الذي نزل على موسى ويتفق معها، وكان في كتابهم ما يخبر برسالة محمد ﷺ وأوصافه، وكانوا هم قبل رسالته - عليه الصلاة والسلام - إذا حاربوا مشركي العرب استنصروا وافتخروا به وتوعدوا بخروجه، وأنهم سوف يقاتلون معه، لكنهم بعد ما بعث كفروا به، فلعنة الله على أمثالهم من الكافرين.

(٩٠) ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

بئس ما استعاضوا واستبدلوا، فهم اختاروا الكفر على الإيمان، والتكذيب على التصديق، والهلاك على النجاة؛ لأن الحسد والبغي حملهم على المكابرة والتكذيب، فرفضوا متابعة النبي العربي عنادًا وحسدًا؛ لكونه ليس من اليهود مع أنهم كفروا بما أُنزل على موسى، فلا برسولهم صدَّقوا ولا بمحمد آمنوا، مع العلم أن الاختيار في إرسال الرسل لله وحده يختار من يشاء من عباده من العرب واليهود وغيرهم، فالخلق خلقه والأمر أمره، فكان جزاؤهم غضبًا من الله على تكذيبهم محمد ﷺ على غضب سابق؛ لتكذيبهم موسى، ولهم ولكل كافر عذاب مؤلم موجع في هون وخسران؛ لأنهم أغضبوا الرحمن واتبعوا الشيطان.

(٩١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

وإذا قيل لليهود آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ، قالوا: نحن لا نؤمن إلا بما نزل علينا نحن اليهود، أما ما أُنزل على غيرنا فلا سمع ولا طاعة، فردَّ عليهم - سبحانه - بأن ما نزل على محمد حق وصِدْقٌ من عند الله الذي أنزل الكتاب، فهو حجة لهم لو آمنوا به على صحة ما في كتابهم من الحق، فكيف يكفرون بما يتفق مع رسالتهم؟!!! فتكذيب القرآن تكذيب للتوراة؛ لأن بعضها يصدق بعضًا، لكنه حمق اليهود وسفههم وبغيهم وحسدهم، ثم إن كنتم صادقين أيها اليهود في أنكم لن تؤمنوا إلا بِرُسُلِكُم فلمَ قتلتموهم؟ فهل قَتَلَةُ الأنبياء يؤمنون بهم؟ فكيف تؤمنون بالنبي العربي الأمي وأنبياؤكم من اليهود قتلتموهم وكذبتموهم؟!!

(٩٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾

ولقد جاءكم موسى بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة؛ وبعد ظهور البيان ووضوح البرهان على وحدانية الرحمن عبدتم العجل من دون الله، فمن أظلم منكم؟! ومن رفض الحجة، وعق الدليل، وكابر الحق فهو ظالم، وأنتم عبدتم غير الله مع وجود موسى نبي الله، فمن كفر بالحق وجحد، وكذّب بالآيات وألحد، كيف يتبع النبي محمدًا ﷺ؟!

(٩٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

واذكروا حين أخذنا منكم المواثيق الغليظة، والعهود القاطعة على الإيمان بنا، وجعلنا جبل الطور فوق رؤوسكم كأنه سحابة ليكون دليلاً على قدرتنا لعلكم تخافون وتؤمنون، وأمرناكم بأخذ الرسالة بحزم، والعمل بجد واجتهاد لا باستهزاء وسخرية وكسل، واسمعوا سماع استجابة وطاعة وقبول، لكن كان جوابكم أسوأ جواب؛ فقلتم سمعنا بالآذان، وكذبنا بالجنان والأركان، فقامت عليكم الحجة بعد وضوح المحجة؛ لأن قلوبكم شُغِفَت بحب عبادة العجل، فمن لا يعبد الله عبد غيره، ومن لا يحبه أحبَّ سواه، فسحقًا لكم كفرتم بعبادة العزيز الغفور، وعبدتم الثور، فإذا

كان هذا هو الإيمان الذي تقصدونه فقُبْحًا له من إيمان، وخسارة لكم به، فهل المؤمن الصادق يفعل هذه الأفاعيل من التكذيب والدجل والتزوير والجهل وعبادة العجل؟!

فلو كان إيمانكم حقًا، ودينكم صدقًا كنتم اتبعتم المرسلين، وعبدتم رب العالمين؛ فدل على أنكم كفرة فجرة، قتلة جهلة.

٩٤ ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قل لهؤلاء اليهود إن كنتم تعتقدون أن الجنة لكم وحدكم كما زعمتم أنه لن يَدخلها إلا من كان هودًا، فهيًّا اطلبوا الموت حتى تدخلوا جنتكم الموعودة إن كنتم صادقين أن الجنة لكم؛ لأن من وُعِدَ محبوبًا مرغوبًا جَدَّ في طلبه.

٩٥ ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

وهؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت؛ لخوفهم من سوء مصيرهم، فهم لو كانوا صادقين أن الجنة لهم لتمنوا الموت، ولكنهم كاذبون، فأعمالهم القبيحة تمنعهم من طلب الموت، والله - سبحانه - مطلع على أفعال الظالمين ليوفيهم إياها.

٩٦ ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

لكنهم كاذبون، فهم أشد الناس حبًا وتعلقًا بالبقاء في الحياة الدنيا حتى إنهم أكثر طمعًا فيها من المشركين عبدة الأصنام، يريد أحدهم أن يعيش في هذه الدنيا ألف سنة من شدة حبه للبقاء، فهو يتعلق بالمحال لسوء الحال، وقبح الأعمال، ولو على فرض أنه عُمِّرَ ألف سنة فسوف يعود إلى ربه فيعاقبه على سوء صنيعه وقبيح فعله؛ لأن الله مطلع على أعمالهم، عالم بها، محصيها عليهم.

٩٧ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

واليهود يقولون إن عدوّنا من الملائكة جبريل؛ لأنه ينزل بالدمار والخسف، فقيل لهم: بل جبريل نزل بالحق على محمد الذي يصدِّق الحق الذي نُزِّل على موسى، وهو لا ينزل إلا بأمر الله، فنزوله سبب لكل خير من إرشاد العباد وهداية البشر والتبشير لمن آمن برحمة الله ورضوانه وجنته، فأيُّ خطإٍ لجبريل حتى عادوه؟! لكنه البغي والعدوان منكم.

٩٨ ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾

وهؤلاء لما عَادَوا جبريل وما نزل به من الحق من عند الله عَادَوا الله، وعَادَوا ملائكته ورسله، فاستحقوا عَدَاء الله، ومن كان الله عَدُوَّه محقه وأخزاه وأذلّه، فالله عدو لكل كافر، يشتت أمره ويقصم ظهره.

٩٩ ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾

ولقد أنزلنا إليك - يا محمد - آيات القرآن البيِّنة الواضحة التي تحمل الرشد والهدى، وتنهى عن الغي والردى، وما يكذب بها بعد هذا البيان إلا من خرج عن طاعة الله واستوجب غضب الله، وتمرد على أمره.

١٠٠ ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فما لهؤلاء اليهود كلما عقدوا عقدًا، أو عاهدوا عهدًا مع الله ومع خلقه قام فريق منهم بنقض هذا العقد، ونكث هذا العهد، ففريق منهم يغدرون، وأكثرهم لا يؤمنون، فمن لا يؤمن بالمعبود لا يحترم العهود، ولو كانوا صادقين في إيمانهم لما نقضوا عهودهم، فمع الخالق كفروا، ومع الخلق غدروا.

(١٠١) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

ولما جاء اليهودَ هذا الرسولُ النبيُّ الأميّ الكريمُ بهذا الكتاب العظيم الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو مصدق لما نُزِّل على موسى من التوراة طرح فريق منهم كتابهم وأعرضوا عنه؛ لأنهم لما كَذَّبوا ما نُزِّل على محمد فقد كذبوا ما عندهم؛ لأن بعضها يصدق بعضًا، فلشدة إعراضهم كأنهم رموا الكتاب خلف ظهورهم استخفافًا به وإهانة له وعدم احتفاء واحتفال به، وفعلهم هذا فعل من لا يعلم أنه من عند الله، بل هو فعل جاهل سفيه.

(١٠٢) ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾

فلما طرحوا كتاب الله وأعرضوا عنه ابتلاهم الله بما اعتادوه من الباطل كالسحر ونحوه، فتركوا الحق المبين، وذهبوا يتبعون الإفك المهين، فصاروا يتبعون ما نسبته الشياطين إلى سليمان من سحر وكهانة، وهو - عليه السلام - بريء من ذلك، بل هو نبي معصوم، ورسول كريم لم يكفر بربه بسحر أو غيره، وإنما الذين كفروا هم الشياطين.

فاليهود اتبعوا سحر الشياطين وتركوا اتباع المرسلين، واتبعوا أيضًا السحر الذي يعلِّمه هاروت وماروت في أرض بابل في العراق مع العلم أنهما ينصحان من علَّماه بخطورة السحر ويحذرانه من الاغترار به، فالشياطين يعلِّمون السحر للإضلال، والملكان يعلمانه بعد النصح والتحذير والإخبار أنه من أقبح الأعمال، فاليهود يتعلمون السحر، ويهجرون الذكر، ويتعلمون من السحر أسوأه وأقبحه، وهو التفريق بين الرجل وامرأته، ويسمى الصرف؛ لأن العلاقة بين الزوجين علاقة مودة ورحمة، ومع هذه العلاقة القوية فإن السحر يؤثر - بإذن الله - فيها وله حقيقة، فلقوَّة تأثيره يفرق بين الزوجين.

وقد علم اليهود أن من رغب في السحر واشتراه وباع إيمانه بالله أنه ليس له عند الله نصيب من الرحمة والثواب، بل له أعظم النكال وأشد العذاب، ويا خسارة وحقارة ما استعاضوا به من تركهم الإيمان واتباع الرسل وتعلقهم بالسحر والدجل، لكن ليس عندهم علم نافع يحملهم على تمييز الصالح من الطالح والنافع من الضار.

(١٠٣) ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾

ولو أن اليهود آمنوا بالله واتبعوا رسله واتقوا عذابه؛ لكان ثواب الله ونعيمه خيرًا لهم من هذا العرض الزائل الذي يحصل لهم من السحر؛ لأن الإيمان يحث على فعل الطاعات، والتقوى تنهى صاحبها عن المخالفات، ولكن علمهم علم فاسد ما دلهم على الرشد ولا ردهم عن الغي؛ لأن العلم النافع إذا تمكن من القلب أورث الخشية، وأثمر الإنابة، وأنتج الاستجابة، لكن علمهم علم لسان وجاه لا قلب ونجاة.

(١٠٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

كان الصحابة يقولون للرسول ﷺ: راعنا أي راعِ أحوالنا، فأخذها اليهود وقصدوا بها راعنا من الرعونة والحمق، فنهى الله المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة ليقطع الطريق على اليهود، وليرفع اللبس، ولا يكون هناك مدخل لليهود، فعليهم أن يقولوا: انظرنا لأنها أسلم وأحسن وأبعد عن سوء الاستعمال، فعلى العبد أن يبتعد عن الشبهات والألفاظ المحتملات، وعليه بالجلي الواضح الحسن الذي لا مدخل فيه من أي ظن أو احتمال يحصل به التدليس والتلبيس، على حديث: «دع ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ».

وعليكم بسماع كل نافع مفيد من الكتاب والسنة وعموم العلم النافع، السماع المقرون بالقبول والاستجابة.
أما الكافرون فلهم عند الله عذابٌ أليم موجع لسوء أفعالهم وقبح أقوالهم وشناعة أحوالهم.

(١٠٥) ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

ما يريد اليهود ولا مشركو العرب أن يُنَزِّل الله على رسوله وحيًا يهدي به المؤمنين؛ حسدًا وبغيًا وبغضًا منهم لأهل الإسلام؛ لأن الوحي سبب لكل خير. ومصدر لكل سعادة، فهو أجلُّ نعمة، وأعظم كرامة، وأكبر عطية، ولكن الله اختص من آمن بمحمد ﷺ بهذا الفضل واختارهم لهذا الخير، وحرم منه غيرهم، وأبعد عنه سواهم، ففضله عظيم لا يحد، وخيره كثير لا يُعد، ونواله غزير لا يرد، فله الحمد، فالوحي رحمة وفضل، رحمة يمنع من اتبعه العذاب، وفضل يثمر لمن اهتدى به الثواب.

(١٠٦) ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ما ننقل آية من حكم إلى حكم فنرفع حكم الأولى ونبقي حكم الثانية أو نمحها من القلوب إلا نزَّلنا أفضل منها وأنفع عاجلاً أم آجلاً، أو نزلنا مثلها في النفع والفائدة؛ لأن الذي ينزلها قادر على تغيير الأحكام وفْقَ أحوال الأنام، وتغير الأيام؛ لعظمِ حكمته وسعة علمه ونفاذ قدرته.

(١٠٧) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

فما دام أن الله قدير يفعل ما يشاء، ذو ملك عظيم يتصرف بما يشاء، فله كمال القدرة والتصرف في آياته الشرعية، مثلما له كمال التصرف في آياته الكونية، فإذا تصرف في الخلق تصرف في الأمر ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾. فهو الولي الذي يجلب لعباده ما ينفعهم، والنصير الذي يدفع عن عباده ما يضرهم، ومن كمال ولايته بعباده اختيار الأحسن والأجمل من الآيات على قَدْر الأوقات، ونسخها بالأرفع، أو الإتيان بما ينفع، ومن كمال نصرته دفع ما يشق عليهم من التشريع وإعفاؤهم من التكليف بما لا يُطاق، فهل من ولي يتولاكم سواه؟ وهل من ناصر ينصركم غيره؟

(١٠٨) ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

هل ترغبون أن تسألوا -أيها المؤمنون- رسولكم محمدًا ﷺ سؤال تعنت واعتراض كما سأل بنو إسرائيل موسى حتى وصل بهم الحال إلى الكفر والتكذيب؟! والذي يختار الكفر على الإيمان ويستعيض الضلال بالهدى فقد أخطأ الصراط المستقيم والطريق القويم. أما السائل للاستفادة فهو مأجور؛ لأنه طالب علم يريد الفهم ورفع الوهم.

(١٠٩) ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يتمنى كثير من أهل الكتاب حسدًا وبغيًا لو ترتدون عن الإسلام إلى الكفر؛ لما تحقق لديهم من أنكم على حق وصواب؛ ولأن دينكم سبب عزِّكم ومجدكم ونصركم وسعادتكم، فاثبتوا على دينكم، فلا تقابلوا هذه الإساءة بإساءة، ولكن بالإحسان من الحلم والصبر والكظم وعدم الأذى؛ لتُؤَلفوا القلوب إلى إسلامكم، وتحببوا الناس في دينكم حتى يأذن الله بمسلك آخر حيالهم كقتالهم مثلاً، والله ذو قدرة بالغة لا يعجزه شيء فعليه توكلوا وبه ثقوا.

(١١٠) ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وعليكم بإقامة الصلاة؛ لأنها سبب كل نصر، وطريق كل فوز متى ما أحسنتم إقامتها، وعليكم بدفع الزكاة لمستحقيها؛ لأنها طهارة للقلوب، وكفارة للذنوب، ومرضاة لعلام الغيوب، فحق البدن الصلاة، وحق المال الزكاة، وإن تصدقتم غير الزكاة نفلاً فكله محفوظ عند الله، مكتوب عنده، تجدونه في صحائف الأعمال، وتحصلون على ثوابه عند ذي

الجلال، وهو – سبحانه – بصير بالنيات، مطلع على السرائر، يعلم المخلص من المرائي، والصادق من الكاذب، فراقبوه واخشوه وحده.

(١١١) ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

اليهود يقولون الجنة لهم، والنصارى يقولون الجنة لهم، وهذه مجرد دعوى لا دليل عليها، والمدعي بالباطل دَعِيٌّ، والمتكلم بلا برهان صاحب بهتان، فأين الدليل على ما ادعوه والحجة على ما قالوه من كتاب ناطق أو رسول صادق؛ بل دعواهم كذب فاضح وباطل واضح.

(١١٢) ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

كلا ليس الأمر كما زعموا وليس القول كما ادَّعوا، بل الصحيح أن من أخلص عبادة ربه ووحّده صادقًا، وعبده منيبًا، وهو مع إيمانه وإخلاصه محسن في عبادة ربه، محسن إلى عباده بحيث يعبده بما شرع لا بالبدع، فهذا له النعيم الدائم، والمكان الآمن والفوز العظيم في الجنة، ولا خوف عليه مما ينتظره في مستقبل أيامه؛ لأنه مؤمن، ولا حزن على ما قدم؛ لأنه محسن، والسعيد من أمِنَ العاجل والآجل.

(١١٣) ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

اليهود كفّروا النصارى، والنصارى كفّروا اليهود، وكل منهم يرى ضلال الآخر مع أن كلاً منهم عنده كتاب يبين لهم الحق من الباطل، ومن يستحق الكفر من غيره، لكنهم لم يهتدوا بهذا الكتاب، وإنما مجرد تلاوة بلا فهم ولا عمل، وقولهم هذا يشابه قول الجهلة من الأمم السابقة والفرق المنحرفة، والطوائف الهالكة التي يضلل بعضها بعضًا، ويكفّر بعضها بعضًا، وقد وقع هذا في هذه الأمة، وهو مما أخبر به المعصوم ﷺ، والله وحده – سبحانه – هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة في هذا الخلاف فيعلم المؤمن من الكافر.

(١١٤) ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

لا أحد أظلم من الذي يمنع العباد من ذكر الله في بيوت الله بإقامة الصلاة فيها وتلاوة القرآن والتسبيح ومدارسة العلم النافع ونحوها من القربات، ولا أشد ظلمًا من الذي يجتهد في هدم المساجد والاعتراض على بنائها، وأيضًا تعطيلها من الطاعات والصلوات والقربات والعلوم النافعات، فعقوبات هؤلاء المخربين ألا يدخلوا هذه المساجد إلا ذليلين حقيرين خائفين جزاء وفاقًا؛ لتخويفهم المؤمنين، وهو ما حدث للمشركين في دخولهم الحرم على هيئة الأسر والذل، وكذلك المرتدين في عهد أبي بكر الصديق، فإنه أدخلهم المسجد صاغرين خاسئين.

هذا في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب فظيع لا يُستَطاع، مؤلم لا يُطاق، وكما أنه لا أظلم ممن سعى في خراب المساجد، فلا أعظم أجرًا ممن بناها وعمّرها بالطاعة.

(١١٥) ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾

والله – وحده – هو الذي يملك المشرق حيث تشرق الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ويملك المغرب حيث تغرب هذه الأفلاك، ومن يملك المشرق والمغرب يملك ما بينهما، فهو – سبحانه – المالك لكل شيء، فحيث ما تتجهون فهناك قبله الله فهذه الوجهة بأمره – سبحانه – وإليه الاتجاه.

والله سبحانه واسع في هباته، واسع في صفاته، ومن سعته أنه وسع عليكم في مأموراته ومنهياته، فلم يكلفكم العسر، بل قبل منكم اليسر، وهو عليم بالسرائر، مطلع على ما في الضمير، فمن علمه أن شرع لكم شريعة سمحة سهلة تناسبكم.

١١٦ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

وقال أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين إن الله اتخذ ولدًا؛ تنزّه عن ذلك وتقدّس عن هذا القول الباطل الآثم، فإنه - سبحانه - قاهر من في السموات والأرض، وهم عبيده مسخرون له، في حكمه وتحت سلطانه، [ولو اتخذ ولدًا لكان هذا الولد من جنس الوالد في الألوهية وخرج عن صفات المخلوق، وهذه لا تكون]، ثم إن من يملك من في السموات والأرض لا يحتاج إلى ولد؛ لأنه غني عن كل أحد، فهو أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ومن في السموات والأرض كلهم تحت تصرفه وحكمه وتدبيره، منهم القانت قهرًا، ومنهم القانت طاعةً وبرًا.

١١٧ ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

وهو - سبحانه - مبدع السموات والأرض ومُنْشئهما على غير مثال سابق ولا شكل متقدم، هذا في الخلق، أما في الأمر، فإنه إذا أراد أن يقضي أمرًا فإنما هو في كلمة (كن) فلا يعجزه أمر، ولا يتعاظمه شيء، ولا يصعب عليه قضاء، فالخلق أنشأه، والأمر قضاه، لا إله إلا إياه، ولا نعبد سواه.

١١٨ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾

وقال الجهلة من أهل الكتاب والمشركين: لماذا لا يكلمنا الله كما يكلم الرسل، أو ينزل علينا آية مما اقترحنا مثل: أن نراه جهرة، أو ينزل علينا كتابًا من السماء، أو ينزل علينا ملكًا أو يُلقى إليه كنز، أو تكون له جنة، أو يفجر لنا من الأرض ينبوعًا ونحوها من الآيات، وهذا القول قال به المشركون ومن قبلهم اليهود والنصارى، فقلوبهم في الزيغ متشابهة، وفي الكفر متقاربة؛ لأن القلوب محل الإيمان والكفر والصلاح والفساد، وطلبهم، هذه الآيات للتعجيز والتعنت، وهو طلب المحال لا للفهم والاستدلال، وإلا لو أرادوا البيان والإيمان فتلك آياتنا الشرعية ظاهرةٌ للعيان باهرةٌ بالبرهان، لكن لا يَعِيها إلا من عظم إيمانه، ورسخت معرفته وكمل صدقه.

١١٩ ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

ومن أعظم الآيات وأجل العلامات إرسال محمد النبي الأمي العربي ﷺ، فإرساله آية باهرة وعلامة ظاهرة؛ لأنه أتى بمعجزات تبهر العقول سواء أكانت في نفسه أم كتابه أم سيرته أم في كل شؤون حياته، ثم إنه بُعث بالحق الذي ثبت لكل عاقل مؤمن صدقه القائم على الدليل القاطع، ثم إنه بَشَّر بالنصر والجنة لمن أطاعه فحصل هذا، وأنذر بالخزي والذل والنار لمن عصاه فتحقق ذلك، والرسول ﷺ إذا بَيَّنَ المحجة وأظهر الحجة للناس فليس مسؤولاً عن ضلال من ضل، بل هذا الضال المعرض يتحمّل جرمه وحده، ويأخذ عقوبته في نار جنهم؛ لأنه لا عذر له، فقد وَضُحَ له الطريق وقامت عليه البيّنة. فالداعية عليه البلاغ، والله عليه الحساب، فإما ثواب أو عقاب.

١٢٠ ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تترك دينك وتعتنق دينهم، فهم دعاة لدينهم المحرّف الباطل، فأخْبِرْهم أن معك الهدى ومعهم الهوى، فهدى الله الذي أرسلت به هو الدين الصحيح الحق الذي لا يماثله دين، واحذر أن تتّبع الهوى والزيغ الذي يدعون إليه بعد ما جاءك العلم النافع المبارك من عند ربك، فأنت على الحق وهم على الباطل، ولو اتبعت دينهم وتركت دينك لن ينفعك ولي، ولن يدفع عنك الضر ناصر من دون الله؛ لأنه لا يجلب النفع ويدفع الضر إلا الله وحده، وإذا كان هذا التحذير للرسول ﷺ فكيف بأتباعه، وفي الآية تحريم موالاة اليهود والنصارى واتباع شيء من دينهم وحبهم والتشبه بهم، وبقاء عدائهم للمسلم حتى يترك دينه ويدخل في دينهم.

﴿١٢١﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

الذين أنزلنا عليهم الكتاب فاتبعوه حق الاتباع، واهتدوا بهداه، وأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، أولئك هم الصادقون في الإيمان به وحمله، لا من فرّق بين كتب الله ورسله وقال: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فمن هذا فعله من التكذيب والعناد فهو الخارج عن طاعتنا، المتمرد على شرعنا، الناكث لعهدنا، فجزاؤه الخسران والهلاك والعذاب الدائم.

﴿١٢٢﴾ ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يا بني إسرائيل (وهو يعقوب عليه السلام) تذكروا نعمي عليكم علّكم تراجعون أنفسكم وتشكرون ريكم؛ لأن ذكر النعم يوجب حمد المنعم، والتفكر في النعماء يقتضي الحياء من رب الأرض والسماء، فالله المنعم وحده لا سواه، وتذكروا يا أبناء يعقوب أنني فضلتكم على عالمي زمانكم بالرسل والشريعة، فهل جزاء هذا التفضيل وشكر هذا الاختيار التتكر والتكذيب؟!

﴿١٢٣﴾ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وخافوا يوم القيامة بعمل الطاعات واجتناب المنكرات، فذاك اليوم لا تنفع نفسٌ نفسًا، ولا يؤخذ منها فداء تفتدي به من العذاب، ولا يشفع لها شافع يجلب لها النفع، ويدخلها الجنة إذا كفرت، وليس لها ناصر يدفع عنها عذاب جنهم، ومن تذكر القيامة وأهوالها خاف علام الغيوب وارتدع عن الذنوب.

﴿١٢٤﴾ ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لقد امتحن الله إبراهيم الخليل بأوامر ونواهٍ وفرائض وحدود، فقام بها على التمام أحسن قيام، وأداها أحسن أداء، فاستحق الإمامة في الدين بالصبر واليقين، فصار إمامًا للعالمين، فأهل الكتاب كلهم يدعّون النسبة إليه، والانتماء إلى دينه.

فهو الإمام بحق وصدق، سيرته تُتلى، ومناقبه تُروى، والثناء عليه جليل، والمدح فيه جميل، فهو أمة في الهدى والرشاد، وأسوة للعباد، وقدوة لأهل العلم والجهاد، عندها سأل إبراهيم ريه أن يجعل من ذريته إمامًا ليبقى الأجر الجزيل، والثناء الجميل، فأخبره سبحانه أنه لن يُعطيَ الإمامةَ إلا عالمًا عاملاً، أما الظالم وهو الغاوي في العلم، والضال في العمل فلن ينال الإمامة في الدين، وفي الآية أنه لابد قبل التمكين من الابتلاء، وأن الإمامة عملٌ بالشرع ظاهرًا وباطنًا، وأن من فسد علمه وساء عمله لن ينال الإمامة أبدًا.

﴿١٢٥﴾ ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

وكما جعلنا إبراهيم إمامًا يقتدي به الناس جعلنا البيت الحرام قبلة يستقبلها الناس ويتوجهون إليها؛ قاصدين المصالح الدينية والدنيويَّة، وأمنًّا الناس فيه، فمن دخله كان آمنًا، حتى إن من الأمن تحريم الصيد فيه وقطع الشجر، ثم أمر الله عباده أن يتخذوا من المقام الذي صلى فيه إبراهيم مصلًّى، وهو الذي فعله ﷺ لما صلى فيه بعد طوافه ركعتين، وأمر الله إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الأوثان والأصنام، والمعاصي والآثام، وكل شرك ورجس، وكل قذر نجس؛ ليكون البيت مهيئًا لطواف الطائفين، واعتكاف العاكفين، وعبادة الراكعين الساجدين، ونسب البيت إليه سبحانه؛ للتشريف، وتعريف الناس به وبيان حرمته وعظيم مكانته ولزوم تطهيره.

(١٢٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

دعا إبراهيم ربَّه أن يؤمِّن البلد الحرام ويؤمن لأهله الغذاء؛ لأنه لا عيش لخائف ولا راحة لجائع، ولهذا أطعم الله أهله من جوع وآمنهم من خوف، وقيد إبراهيم الدعاء فاختص به المؤمنين؛ لأن الله منعه من الإطلاق في الدعاء بالإمامة، فأخرج الظالم، ولكن الله بيّن له في الرزق أنه على وجه الإطلاق للمؤمن والكافر، فللمؤمن عون على عبادة رب العالمين، وللكافر متاع إلى حين، وأما الإمامة فهي منزلة ربانية لا تنال إلا لمن قام بالشريعة حق القيام.

فإذا أعطى الله الكافر من الدنيا، ومتّعه كما يمتّع البهيمة ألجأه الله إلى عذاب أليم في جهنم، ويا له من مقام بائس وعاقبة مخزية.

(١٢٧) ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

واذكر فضل الله على إبراهيم وإسماعيل لَّما شرفهما ببناء البيت، ورفع أركانه على أساس قوي، ومع هذا العمل الصالح كانا بين خوف من الرد ورجاء للقبول، فسألا الله أن يتقبل هذا العمل، إنه السميع للأقوال، العليم بالأعمال والأحوال، الذي لا تخفى عليه النية، فيعلم المخلص من المرائي والصادق من الكاذب.

(١٢٨) ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

ثم سألا الله البقاء والدوام على دين الإسلام؛ لأنه أجل النعم وأعظم الكرامات، وأثمن العطايا، وهو الانقياد والخضوع ظاهرًا وباطنًا لله تعالى.

وسألا الله صلاح الذرية؛ لبقاء العقب الصالح، والدعاء النافع، والذكر الحسن، وطلبا بيان مناسك الحج ومعالم الدين والعبادة على وجه المشاهدة؛ ليكون أنفع في التعليم، وأثبت في القلب، وبعد عملهما الصالح سألا الله التوبة؛ لأن العبد مهما بلغ في الصلاح فهو عرضة للذنب والتقصير والغفلة والخطأ، والله أهلٌ أن يتوب على عباده؛ لأنه يتوب على العاصي بمحو ذنوبه، ويرحمه بترك عقابه.

(١٢٩) ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ثم سألا الله أن يرسل في ذريتهما رسولاً من أنفسهم، فاستجاب الله لهما، فبعث سيد ولد آدم وهو محمد ﷺ أعظم نعمة لله على البشرية، وأفضل هبة من الله للإنسانية، فهو دعوة إبراهيم كما قال عليه الصلاة والسلام، وأتى معه بكتاب هو خير الكتب، كما أنه هو خير الرسل، يعلّم الأميين ويهدي الضالين، ويقيم الحق بين العالمين.

ورسولاً منهم ليتم الاقتداء والائتساء به؛ لكونه بشرًا مثلهم، وهو يعلمهم هذا الكتاب العظيم ليأخذوه عنه تلقيًا وتلقينًا وحفظًا وتعليمًا، ويطهرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق النبيلة، وينهاهم عن كل إثم وقبيح، فهو – سبحانه – عزيز حكيم، عز فحكم، واطلع فعلم، وقدر فحلم، فمع أنه عزيز لا يغالبه أحد، ولا يمتنع عليه أحد، لكنه حكيم يدبر الأمور بحكمة، ويقضي الأشياء في سداد، وينفذ الأحكام في سداد، فعزة بلا حكمة تهور وطيش، وحكمة بلا عز ضعف.

(١٣٠) ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

لا يختار أحد ملة غير ملة إبراهيم الوسط الراشدة السمحة غير سفيه جاهل، يسعى في الإضرار بنفسه؛ لأنه لا يعرف مصلحتها، ولذلك اختار غير هذه الملة، ولقد اخترنا إبراهيم، وهديناه الصراط المستقيم، ورفعنا مقامه بمنصب الإمامة، فأحسن الملل ملته، وأفضل الأديان دينه، وهو في الآخرة من أئمة من أنعم الله عليهم، فطوبى لإبراهيم، وقرة عين وسلام على إبراهيم في العالمين.

(١٣١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

لأنه لما أمره الله بالانقياد له والعبودية والطاعة استجاب قولاً وفعلاً وحالاً للإله الذي يستحق الألوهية، الذي رباه وربى العالمين بنعمه، فحقه أن يُطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا يُنسى.

(١٣٢) ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

وهذه الملة وصى بها إبراهيم بنيه وذريته من بعده ليلزموها، وأنتم - أيها اليهود - وصى أبوكم يعقوب أبناءه من بعده بملة إبراهيم، فلماذا تركتم هذه الوصية؟ فإن هذه الملة اختارها الله ورضيها لأنبيائه ورسله، فتمسكوا بها حتى الموت، فإن الإسلام دين الله المرتضى وملته المختارة، وهو دين الرسل جميعًا.

وفي الآية مشروعية وصية الوالد لأبنائه، وأن الدين أهم المهمات، وحرص المسلم على ذريته ونصيحة العالم لأتباعه.

(١٣٣) ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

اليهود غيروا ملة إبراهيم ويعقوب؛ ولهذا أنكر الله عليهم، وأخبر أن نبيهم يعقوب لما حضره الموت جمع أبناءه فأوصاهم بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ونهاهم عن الشرك، فأقروا بإله واحد مع الاستسلام له، فجمع بين صحة العقيدة وصلاح العبادة.

وفي الآية سؤال العالم لطلابه وتقرير العلم لهم ومدارسته لهم ما يعرفون، والبدء بأبرز المسائل، واستحضار التوحيد عند سكرات الموت.

(١٣٤) ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

إبراهيم ويعقوب ومن معهم من الصالحين أمة قضت وانتهت بصلاحها وفلاحها، لا ينفعكم - أيها اليهود - التعلق بهم بلا عمل ولا اتباع، فمجرد النسبة لا توجب النجاة، فعملهم النافع لهم وحدهم، وعملكم السيئ القبيح عليكم وحدكم، لا تزر وازرة وزر أخرى، فالإنسان إنما يحاسب هو، فحسنات غيره لا تُهدى إليه، وسيئات سواه لا تناله، كما أنه لا يسأل عن غيره، ولا يظلم بسوء ما عمله، ولا يهضم بحرمانه من خير فعله.

(١٣٥) ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قال اليهود للمسلمين: كونوا يهودًا؛ لأن الهدى معنا. وقال النصارى للمسلمين: كونوا نصارى؛ لأن الهدى عندنا، وهذا كذب قبيح، وكلام غير صحيح، وأرشدنا الله إلى أن نردَ عليهم فنقول بل: نتبعُ ملة إبراهيم الخليل، وهي دين الإسلام الحنيفية السمحة والشريعة الوسط، فإبراهيم كان مقبلاً على التوحيد معرضًا عن الشرك، أما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، فأين التوحيد والهدى لديهم؟!

وفي الآية حرص اليهود والنصارى على الدعوة إلى دينهم الباطل؛ فالمسلم أولى بالدعوة إلى دينه الحق.

(١٣٦) ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

قولوا - أيها المسلمون - آمنا بالله مقرين معترفين بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، معلنين هذا الإقرار ناطقين به، معتقدين بالقلوب، عاملين بمقتضاه بالجوارح، ونؤمن بما في كتابنا وسنة رسولنا ﷺ وما نزل على أنبياء الله بمن فيهم صاحب الملة الإمام الأسوة إبراهيم، وما نزل على النبيين بعده من كتب، نحن نؤمن بجميع الأنبياء فلا نفرِّق بينهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسله وما نزل عليهم من ربهم كصحف إبراهيم، وزبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، ونحن على ذلك طائعون منقادون، نعلن هذا المبدأ مجتمعين عليه صادعين به، وإيماننا على وجه الإجمال لما جاء مجملاً، وعلى وجه التفصيل لما جاء مفصلاً.

وفي الآية إعلان المبدأ والاجتماع عليه، وتصديق كل الرسل والكتب من عند الله، وأن عطية الأنبياء أجلّ عطية؛ لأنها من ربهم، وهي الوحي، وأن من ربوبيته سبحانه هداية الخلق، وكفر من جحد نبوة نبي، وأن الإسلام دين الجميع.

١٣٧ ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

فإن آمن أهل الكتاب بجميع الرسل بمن فيهم محمد ﷺ، وجميع الكتب بما فيها القرآن، ووافقوكم في هذا الإيمان فقد أحسنوا وأصابوا، وإن أعرضوا عن هذا الهدى وجانبوا هذا الطريق فهم أهل تفرق وخلاف وفتنة، لا يريدون الهدى والاجتماع على الخير، فلا تخف منهم، ولا تضق بمكرهم؛ فالله وحده يكفيك أذاهم ويرد كيدهم، وينصرك عليهم؛ لأنه سميع بكل قول مع اختلاف اللهجات وتعدد اللغات، عليم بما بطن وظهر، وأعلن واستتر، وما خفي وما جهر، فمن هذا وصفه فكفى به وكيلاً ونصيرًا.

١٣٨ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾

فهذا دين الله وهذا صراطه، فالزموه واتصفوا به حتى يكون لكم صفة دائمة ثابتة كالصبغة في الثوب، وهل هناك أحسن من هُدَى الله؟ أم هل هناك أقوم من دينه؟ فمن اتصف بهدى الله صدق وبر ووصل وعلم وعلَّم وجاهد وصبر وتواضع وأحسن في كل شأن من شؤون حياته، ومن ترك هذا الهدى ذلّ وزلّ وضلّ وأصابه الخذلان ووقع في الخسران، ونحن طائعون لربنا منقادون لأمره، مخلصون له الدين، مقتدون برسوله الكريم، وهذه هي العبادة الصحيحة التي تجعل الإنسان عبدًا لربه ظاهرًا وباطنًا.

١٣٩ ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾

قل - أيها الرسول وأيها المسلم لأهل الكتاب-: أتجادلوننا في ربنا -جل في علاه- وتزعمون أنكم أولى به منا، وأنه ربكم وحدكم وهو الذي خلقنا وخلقكم ورزقنا ورزقكم، فأي تفريق هذا والله رب الجميع؟ ثم إن صلاحنا لنا وضلالنا علينا، وأنتم حسناتكم لكم وسيئاتكم عليكم، ونحن نخلص عبادة ربنا لا كما فعل أهل الكتاب من الإشراك مع الله غيره، فإخلاص العبادة هو أصل الأصول ورأس الأمر، فنحن نتفق مع أهل الكتاب في الربوبية وهي أن خالقنا واحد، ونختلف معهم في الألوهية فنحن موحدون مخلصون وهم مكذبون مفرّقون.

١٤٠ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

لماذا تدَّعون كذبًا وزورًا - يا أهل الكتاب - فتزعمون - أيها اليهود - أن إبراهيم وأبناءَه وحفدته كانوا يهودًا وهذا كذب وافتراء، وتزعمون - أيها النصارى - أن هؤلاء الرسل نصارى وهذا دجل وادعاء، فالله أخبر أنهم على الحنيفية ملة إبراهيم، وعلى الإسلام دين الأنبياء، وأنتم تخالفون هذا القول، فهل أنتم أعلم بهم من ربهم الذي خلقهم وهداهم وأرسلهم؟ بل الله أعلم وأصدق وأنتم أجهل وأكذب، ومن أشد ظلمًا وأقبح جرمًا منكم؛ لأنكم كتمتم شهادة عندكم من الله بالإيمان بكل الرسل والكتب، فكتمتم وكذبتم، كتمتم الحق وكذبتم في الشهادة، فالله لن يغفل عن هذا الفعل القبيح، بل هو محصيه ومجازيكم به أسوأ الجزاء، ومن كان الله عليه فمن يرجو، ومن كان معه فمن يخاف.

١٤١ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وهذه الأمم السالفة مضت وانتهت، لستم مسؤولين عن إحسان من أحسن منهم، وإساءة من أساء، فصلاح صالحهم له لا يصلكم منه شيء، وفساد مفسدهم عليه لا ينالكم منه شيء، وإنما تجازون أنتم بأعمالكم، فلا نضيف حسنة لمن لم يعملها، ولا نُحَمِّل أحدًا سيئة لم يفعلها.

﴿١٤٢﴾ ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

سيقول الجُهلاء من اليهود والنصارى: لماذا تركتم قبلة بيت المقدس واستقبلتم الكعبة؟ مدعين أن هذا تذبذب وحيرة، فرد عليهم - سبحانه - بأن الجهات كلها لله بما فيها المشرق والمغرب، وهو الذي خلقها، يوجه من شاء من عباده إلى أيّ جهة شاء منها، فلماذا الاعتراض من هؤلاء الجهَلاء السفهاء؟

وأما توجيهه للمسلمين إلى الكعبة فهو أمرٌ منه - سبحانه - لحكمة أرادها؛ لأن الكعبة بناء إبراهيم الخليل الحنيف المسلم صاحب الملّة، فهي أولى بالاستقبال عند الصلاة، ثم إن المسلمين مُطيّعون لأمر الله سواء في استقبال بيت المقدس أو الكعبة، وأن طريق المسلمين ومنهجهم هو الصحيح الحق؛ لأنه من عند الله.

وفي الآية أن المعترض على الشريعة سفيه، وأن من جهل شيئًا عاداه، وأنه يُردُّ حتى على الجاهل ويبين له الصحيح في المسألة، وأن المعترض على الثوابت هالك، وأنه يجب التسليم حتى فيما خفيت الحكمة منه.

﴿١٤٣﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

ومن نعمة الله عليكم - أيها المسلمون - أن جعلكم وسطًا بين الأمم، وهي أعدل الطرق وأصوبها، فلا إفراط ولا تفريط، ولا علو ولا جفاء، فأنتم وسط في المعتقد والعبادة، وفي الأنبياء وفي الأخلاق والآداب والسلوك، وكل شؤون الحياة، فلا فسق اليهود، ولا رهبانية النصارى، ولا محاربة للرسل ولا عبادة لهم بل اتباع، فالمسلمون حسنة بين سيئتين، ووسط بين طرفين، ونجاة بين مهلكتين، وإنما جعل الله المسلمين وسطًا وعدولاً وخيارًا؛ ليقوموا بالشهادة على الناس، فقولهم مقبول، وحكمهم نافذ، وهم صادقون فيما يقولون، عادلون فيما يحكمون، وسوف يشهدون يوم القيامة على الأمم المكذبة بإرسال الرسل إليهم؛ لأن العدل يُقبل قولُه، وتصح شهادتُه لانتفاء التهمة، فقوله وحكمه وفتياه مقبولة، فهذه الأمة في مجموعها معصومة من الخطأ، إجماعها حجة، ومخالفتها ضلال، والخروج عليها بغي، والرسول ﷺ - وهو أعدل العدول وإمام الأئمة - شهيد على الأمة، فهو يشهد لمن أطاعه، ويشهد على من عصاه، ويشهد بصدق رسالته، ويشهد لمن قبله من الأنبياء، ويشهد على سائر الأمم يوم القيامة، والله ما أمر الرسول ﷺ باستقبال بيت المقدس إلا ليعلم علمًا يثيب عليه من أطاعه، ويُعاقب عليه من عصاه؛ لإقامة الدليل وبيان الحق والإعذار للناس؛ فيظهر من يطيع الرسول في استقبال القبلتين والتنقل معه في سائر أحوال الطاعات وتعدد العبادات، ويظهر من اعترض على الحق واتبع الهوى وخالف الرسول، ورفض الدليل.

وصَرْفُ الرسول ﷺ عن بيت المقدس إلى الكعبة شاق صعب؛ لعدم ظهور الحكمة لبعضهم وللحسد عند الآخرين. لكن من هداه الله فأسلم لربه ومولاه انقاد طائعًا، وأقبل مخبتًا، وسلّم الأمر لربه، ولم يعترض ويحتر ويتردد، وهذا شأن المسلم يسارع في تنفيذ أمر الله ظهرت له الحكمة أم لم تظهر؟

والله لا يضيع عمل المؤمنين وصلاتهم، ولا يبطل سعيهم بلا موجب، فهو حافظ لإيمانهم، من وفقه للطاعة زاده هدى، ومن وقع منهم في ذنب فتح له باب التوبة، ومن ابتلاه بمصيبة محّصه بها، فالعباد في نعمة تُشْكَر، وذنب فيه يُسْتَغفر، ومصيبة تمحو وتُكَفِّر، والذين استقبلوا بيت المقدس من المسلمين ثم ماتوا ولم يصلوا للكعبة إيمانهم محفوظ، وسعيهم مشكور.

وفي الآية أن العمل يدخل في الإيمان، وثبوت النسخ، ووجوب التسليم، وهو - سبحانه - رؤوف يوصل المحاب إلى عباده من ألطف الطرق، ويصرف المكاره عنهم، وهو رحيم يعود على المذنب بالتوبة، والخائف بالأمن، والمكروب بالفرج، وعلى صاحب العسر باليسر، وعفا عنه فلا عتاب ولا عقاب.

١٤٤ ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

ولقد رأى الله رسوله ﷺ وهو يقلب وجهه في كل الجهات شوقًا وانتظارًا لأمر الله له باستقبال الكعبة؛ لأنه يريد قبلة إبراهيم مثلما كان على ملته الحنيفية السمحة، فالآن سوف نوجهك إلى قبلة تحبها وتتمناها وتريد أن تتجه إليها، فعليك باستقبال جهة المسجد الحرام، بيت إبراهيم وبلدك، وعلى أمتك جميعًا أن يستقبلوا هذا البيت في أي مكان كانوا برًا وبحرًا أو جوًا حسب الاستطاعة.

وأهل الكتاب يعلمون أنك على حق في استقبال الكعبة؛ لأنك صادق عندهم في كتبهم؛ ولأن هذا الأمر معلوم عندهم من طريق رسلهم، لكنهم كابروا بغيًا وحسدًا؛ فالله محصٍ ما فعلوا؛ وحافظ ما عملوا من قول كاذب وفعل سيئ؛ ليوفيهم إياه ويجازيهم به في دار الثواب والعقاب.

١٤٥ ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

ولو عرضت كل برهان ودليل وحجة على أهل الكتاب ليتبعوا قبلتك ما فعلوا؛ حسدًا لك ولأمتك، وبغيًا منهم واستكبارًا على الحق، واعتراضًا على الدليل وعنادًا للحجة، وأنت أيها الرسول لن تتبع قبلتهم؛ لأن الحق معك، أنت عبد مأمور من ربك، وهم أهل باطل وزيغ وهوى، ثم إن أهل الكتاب من يهود ونصارى لا يتبع بعضهم قبلة بعض بغيًا وحسدًا، فكيف يتبعون قبلتك، فاحذر كل الحذر أن تتبع أهواءهم الباطلة؛ لأنهم تركوا الهدى واتبعوا الهوى، وأنت على علم بيِّن من ربك وسلطان ساطع ويقين راسخ، فإن آثرت الباطل على الحق، والهوى على الهدى من بعد هذا البيان والبرهان فأنت إذًا ممن بدّل الحقائق وغيَّر الأدلة، ورفض الحجة وهو الظالم، وحاشاه ﷺ، ولكنه إذا كان هذا الوعيد والتهديد له فمن باب أولى أن يكون لمن اتبعه، فمن والاهم من المسلمين فهو منهم يحشر معهم.

١٤٦ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

اليهود والنصارى يعرفون محمدًا ﷺ حق المعرفة مثلما يعرف الإنسان ابنه؛ لأنهم قرؤوا أوصافه في كتبهم، لكن طائفة منهم كذبت به وكتمت أمره بغيًا وحسدًا، وهم يعلمون أنه رسول من عند الله، وطائفة آمنت به وصدقته، والعالم الكاتم آثم؛ لأنه صد عن عمد.

١٤٧ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

هذا الوحي الذي نزل عليك - يا محمد - هو الحق؛ لسطوع برهانه ووضوح بيانه، فاعتصم به، واستمسك به، وادع إليه، ولا تشكَّ فيه. فإنك على الحق المبين، وأعداؤك ضالون.

١٤٨ ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

لكل أمة من الأمم قبلة يتجهون إليها، وقد تتغير بنسخ، لكن المسألة الكبرى والقضية العظمى مسألة الشريعة الحاملة للخيرات، الناهية عن المنكرات، والسبق للخيرات هو الإسراع والتنافس في أدائها على أكمل وجه تامة الأركان والشروط، مستوفية للآداب والسنن، والخيرات اسم جامع لكل عمل مشروع وفعل حسن وخلق نبيل، ثم ذكرهم - سبحانه - بأنه سوف يجمعهم من الأقطار كافة، من القفار والأمصار والبحار؛ ليجازيهم في تلك الدار ويثيب الأبرار، ويعاقب الفجار؛ لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء، علا فقهر، وحكم فقدر، واطلع فستر، وعزّ فغفر.

(١٤٩) ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

وفي أي مكان كنت في سفرك وإقامتك فتوجه في صلاتك إلى الكعبة؛ لأن هذا أمر من الله حق لا باطل، ويقين لا شك فيه، فأنت على الهدى في ذلك؛ لأنك امتثلت أمر الله، وكما أطعتموه في الظاهر باستقبال القبلة فأطيعوه في الباطن بالمراقبة؛ لأنه لا يغفل عن أعمالكم بل سوف يحاسبكم بها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فَشر.

(١٥٠) ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾

كرر الأمر بالتوجه إلى الكعبة؛ لرفع الشبهة وإزالة الشك والحَيّرة؛ لأن الأمر صعب وشاق، وللرد على المبطلين من أهل الكتاب والمشركين في قولهم: هذا من محمد للتشهي والهوى، واتجاه الرسول ﷺ إلى الكعبة يقطع حجة اليهود القائلين: يخالف ديننا ويتبع قبلتنا، ويقطع حجة المشركين القائلين: يدعو إلى ملة إبراهيم ويخالف قبلته، أما الظالم وهو صاحب الهوى الرافض للدليل المعرض عن الحق فلا سبيل إلى إقناعه، ومثله لا يُخْشى؛ لأنه صاحب باطل، وصاحب الباطل ذليل؛ لأنه ليس له دليل، ومخذول لأنه خالف المنقول والمعقول، والله أراد من تحويل القبلة إقامة الحجة كما تقدم، وإتمام النعمة بهدايته إلى قبلة يتمناها مثلما هداه إلى ملّة يرضاها، وفي استجابتكم لأمر الله هداية لكم؛ لأن من علم الحق وعمل به، زاده من الإيمان، وبوّأه الجنان، وأنعم عليه بالرضوان.

(١٥١) ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾

ومثلما أنعمنا عليكم بالقبلة فقد أنعمنا قبلها بنبي الملة، رسول معه شريعة، منكم تعرفون صدقه، يدرّسكم الوحي، ويلقنكم الحكمة، ويطهركم بدينه من كل رجس ودنس، فيصفي نفوسكم من كل شرك وشك وشبهة وشهوة، ويهذب أخلاقكم ويعلمكم الأحكام من الكتاب والسنة، ويخبركم بما لم تكونوا تعرفونه من أمر الدين والدنيا، ومن غيب الماضي والمستقبل.

(١٥٢) ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾

فما دام أنني أنا المنعم وحدي فاذكروني أذكركم، فمن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، ولو لم يكن للذكر شرف إلا هذا لكفى، ويدخل في ذلك ذكره بالعبادة ليذكر عبده بالثواب، وذكره في الرخاء ليذكره في الشدة، ثم أمر عباده أن يشكروه على نعمه وآلائه، ومن أعظمها نعمة الهداية، ومن لوازمها العلم النافع والعمل الصالح، فكل نعمة دَقَّت أو جلّت، صغرت أو كبرت فالله مسديها ومهديها، فمن شكره بقلبه ولسانه وجوارحه استوجب المزيد، ومن كفرها باء بالخسران، فالذكر والشكر أصلان عظيمان، عليهما تقوم العبودية الحقة، فبالذكر تعظم الولاية، وبالشكر تدوم الرعاية.

(١٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

يا أيها المؤمنون، استعينوا على طاعة ربكم بالصبر والصلاة؛ لتهون عليكم المشقة، فبالصبر ينال كل مطلوب ومحبوب، وبالصلاة تدفعون كل مبغوض من الذنوب؛ فالصبر يأمر بكل خير وبر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، واعلموا أن الله مع من صبر بحفظه وتأييده وتسديده، فما أشرفها من معيَّة، وما أعظمها من رعاية ربانية.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾

ولما أمرهم بالصبر ذكر لهم أمرا من أشق ما يكون على النفوس، وهو القتل في سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، فالمقتول في سبيله ليس ميتًا، بل له حياةٌ مُخَصَّصَةٌ من التنعم في جوار ربه، والأنس بقربه، والفوز برضوانه وحبه، فما أعظمها من حياة، وما أسعدها من عاقبة، وهكذا فلتذهب النفس في سبيله. وحيا الله الموت لأجله، ومرحبًا

بالسيف في مرضاته، فأنتم أيها الناس لا تعلمون بحياتهم ونعيمهم وراحتهم، فالميت من مات قلبه بالعصيان، ومن حاد عن طاعة الرحمن.

وفي الآية إثبات نعيم البرزخ وعذابه.

١٥٥ ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

لنختبرنكم بشيء من المصائب والشدائد؛ ليظهر الصادق من الكاذب مثل: الخوف من الأعداء، وقلة الغذاء، وذهاب بعض المال، وتكدر الحال، وموت الأحباب، والأقارب والأصحاب، وهلاك الثمار، وفناء الأشجار؛ لنبتليكم في هذه الدار؛ لأنها ليست دار قرار، ولن ينفعكم في هذه الحال والامتحان القاسي غير الصبر، فمن صبر فله الظفر، فهو الذي يُوَفَّى أجره بغير حساب، وينال أعلى الثواب، وتدخل عليه الملائكة من كل باب.

١٥٦ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾

هؤلاء المؤمنون إذا وقعت بهم المصائب قالوا: نحن عبيد الله وملك لله، يقضي فينا ما يشاء من سراء وضراء وشدة ورخاء، فنحن تحت تدبيره ورهن تقديره، وسوف نرجع إليه للحساب، فمن صبر فله الثواب، ومن جزع فعليه العقاب، فالصابر مرحوم، والساخط محروم.

١٥٧ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾

فهؤلاء الصابرون لهم ثناء وتمجيد من الحميد المجيد، ولهم الرحمة والرضوان من الدّيان، لأنهم اهتدوا لعبودية ربهم بالشكر على النعم، والصبر على النقم، فالصلوات من الله تاج قبول، والرحمة أمان من الخسران، والهداية توفيق لأقوم طريق.

١٥٨ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

الصفا والمروة من مناسك الحج، فعلى الحاج والمعتمر أن يسعى بينهما سبعة أشواط؛ لأن بعض الصحابة تحرّج من السعي بينهما لفعل المشركين، وخاف من التشبه بهم، فأخبر سبحانه أن هذا العمل مشروع، وأن المسلم يفعله عبادةً لله، والمشرك للأصنام، وقيدهما بالحج والعمرة؛ لأن السعي لا يكون دونهما بخلاف الطواف.

وفي الآية أن الأعمال بالنيات، وألاَّ نترك شيئًا من ديننا إذا فعل مثله الكافر خوف التشبه، وحرص الصحابة على البعد عن أعمال الجاهلية. والله شاكر لمن يعمل، يقبل اليسير ويهب الكثير، فهو يجازي على مجرد النيات، ويضاعف الحسنات، ويعيد ثواب الطاعات، فهمًا في الأذهان، وعافيةً في الأبدان، وحسنًا في الخلق، وبركة في الرزق، كل بحسب طاعته ونيته وسعيه؛ لأن الله عليم بقدر كل أحد وما يستحق، فكل عطاء بحكمة، وفي كل هبة رحمة.

١٥٩ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾

كل من كتم الحق من أهل الكتاب أو من هذه الأمة فإنه ملعون، والحق يشمل البينات الدالة على الحق التي أنزلها الله على رسوله، أو كتم العلم النافع الواجب نشره من فتيا أو قضاء أو شهادة، فمن هذا شأنه فجزاؤه الطرد من رحمة الله، وتقع عليه لعنة الخليقة؛ لأنه خان مولاه، وكتم ما أعطاه، وغش عباده، وأخفى البيان، وأظهر البهتان، واتخذ التدليس شعارًا، والتلبيس دثارًا، فكما أن معلم الخير يصلي عليه كل شيء؛ فكاتمه يلعنه كل شيء جزاء وفاقًا.

١٦٠ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إلا الذين رجعوا عما اقترفوا، وتابوا عما أسرفوا، وندموا وأقلعوا واعتذروا إلى ربهم وأصلحوا ما سبق أن أفسدوه، وأظهروا ما كتموه، فهؤلاء يقبل الله توبتهم، ويغسل حوبتهم، ويغفر زلتهم؛ لأنه تواب يرجع على عباده بالعفو إذا تابوا، وبالإحسان إذا أنابوا؛ ولأنه رحيم لا يؤاخذ بذنبٍ غفره لصاحبه، بل يحسن إليه ويتغمده برحمته.

١٦١ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يؤمن فهذا مستوجب للعنة الدائمة من الله وملائكته والناس أجمعين.

١٦٢ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

ومن مات كافرًا فاللعنة عليه دائمة مع الخلود في نار جهنم لا يخفف عذابه، بل يزاد ولا يؤجل، بل ربه له بالمرصاد، فعذابه خلود بلا انقطاع، وزيادة بلا تخفيف، ومبادرة بلا إمهال. وسيمكثون في هذه اللعنة وفي النار لا يخفف عنهم العذاب الأليم بلا إمهال ولا تأخير.

١٦٣ ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

إلهكم - أيها الناس - هو الله الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له ولا مثيل، ولا ندٌّ ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لا معبود بحق سواه، ولا إله يستحق العبادة إلا إياه، فلا إله إلا الله، ومن أدلة وحدانيته أنه رحمن رحيم، رحمن بكل المخلوقات؛ لأنه صاحب الهبات، ومعطي الخيرات، وصارف النقمات، ورحيم بأوليائه رحمة مُخَصَّصة يوصل لهم هداه، ويوفقهم لرضاه. ويصرفهم عما يكرهه ويأباه، فمن هذا وصفه استحق أن يكون الإله المعبود بحق.

١٦٤ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

خلق السموات وارتفاعها واتساعها وشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومجراتها؛ آية باهرة، وعلامة ظاهرة على عظمة الخالق وحكمته، وشاهد على ربوبيته، خَلْقُ الأرض وامتدادها وجبالها ووهادها وسهولها دليل على بديع صنع اللطيف الخبير، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بدقة وطولهما وقصرهما رسالة موحية لكل عاقل بعظمة المبدع وجلال الصانع تقدس اسمه، والسفن العظيمة وهي تحمل الأحمال الثقيلة من الحديد والناس والأرزاق أعجوبة مذهلة توحي بألوهية العزيز الجبار سبحانه، إِنْزَالَ الماء من السماء وهطوله على الأرض وإخراج النبات والأشجار برهان ساطع ودليل قاطع على تمام القدرة وكمال الحكمة لهذا الرب العظيم والملك الكريم، تَعَدُّدُ المخلوقات من الناس والحيوانات والطيور والزواحف باختلاف الصور والألوان والأشكال والألسن كتاب مفتوح لكل متدبر، وسفر مشروح لكل متفكر، وُهُبُوبُ الرياح من كل اتجاه، سريعة وبطيئة، نافعة وضارة، قاصف وعاصف، حارة وباردة، تنبيه موحٍ، وبلاغ مهم لكل من يحترم عقله، ويقدر إنسانيته، فيعلم من أوجدها وأرسلها، والسحاب كالهضاب، والغمام كالآكام، يحمل كميات كبيرة من المياه بين السماء والأرض، وكيف يمطر، وكيف يعبر، وطريقة انتشاره وتراكمه، وارتفاعه وانخفاضه، بيان فصيح وإرشاد صحيح بحكمة الملك الحق المستحق للعبودية، المستحق للألوهية، لكن تلك الآيات الباهرة هي لمن كان له عقل يعتبر، أما الجاهل والجاحد والمكذب فمطموس البصيرة، منكوس القلب، محجوب البصر عن هذه الآيات.

١٦٥ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾

من الناس مَنْ لكفرهم وجهلهم من يعبدون غير الله ويجعلونهم شركاء لله - تعالى الله عن ذلك - ويتولونهم ويحبونهم مثل حبهم لله الذي خلقهم ورزقهم، وهذا لعنادهم وإلحادهم، ولكن المؤمنون عرفوا الحقيقة، وسلكوا أحسن طريقة، فأحبوا الله أشد من حب الكفار للأنداد والأوثان، فصدقوا رسله، وآمنوا بكتبه، وجاهدوا في سبيله، ولو رأى هؤلاء

الكفرة الفجرة العذاب في نار جهنم لرأوا أمرًا مذهلاً مهولاً، وعلموا عظمة الله وأحقيته بالألوهية في وقت لا ينفع الندم بعد عثرة القدم، حينها يشاهدون قوة الله وعذابه وبطشه ونقمته.

(١٦٦) ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾

حينها يتبرأ المتَّبَعون المطاعون من التابعين الجُهلاء، ويتخلى الرؤساء المضلون عن أنصارهم السفهاء؛ لأنهم شاهدوا ما لا طاقة لهم به من العذاب وأليم العقاب، وتقطعت بهم الأسباب من الأحساب والأنساب والمنافع التي تربط الأصحاب، والصلات التي تجمع الأحباب.

(١٦٧) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

وتمنى الأتباع لو يعودون إلى الدنيا فيخلعون زعماءهم المضلين، وينبذون رؤساءهم الكافرين مثلما تبرأ الرؤساء منهم وتخلوا عنهم سواء بسواء، لكن هيهات سبق الكتاب ووقع الحساب، وحلت العقوبة لينال الرئيس الضال جزاء عمله ونكال إغوائه، ويذوق التابع المقلد وبَالَ تقليده وسوء محاكاته، لتظهر للجميع أعمالهم القبيحة ندمات وحسرات وزفرات وآهات، فلا شافع ينفع، ولا ولي يدفع، ولا ناصر يرفع، بل عذاب أليم، وخزي مقيم، في خلود أبدي، وبقاء سرمدي.

(١٦٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

يا أيها البشر، كلوا من رزق ربكم الذي أخرجه لكم من الأرض، لكن عن طريق الحلال لا الحرام، فلا تأكلوا ما حرمه الله من غصب أو سرقة أو ربًا أو رشوة أو نحوها من المعاملات المنهي عنها، ولا تقربوا الخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير وما نص الله ورسوله على وجوب اجتنابه، بل اقصدوا الطيب الحلال، فإن أخذكم من الغذاء بقدر إقامة الحياة واجب، واحذروا أن تسلكوا سبل الشيطان في تحريم الحلال وتحليل الحرام، بل عليكم بما شرعه الرحمن؛ لأن الشيطان عدو لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير، ولا يدل إلا على رَدَى، ولا يحذر إلا من هُدِى، وقد بانت عداوته، وظهر غشه وخداعه ومكره.

(١٦٩) ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فالشيطان لا يأمركم إلا بالسوء كالظلم والأذي والبغي والعدوان والفحشاء كالزنا، وشرب الخمر، فالسوء ما ساء صاحبه، والفحشاء ما فحش عند الناس وخرج عن العرف والقياس، ومما يأمركم به الشيطان القول على الله بالجهل لا بالعلم، كنسبة الزوجة والولد له - سبحانه - والخوض في ذاته، وتحريف أسمائه، وتأويل صفاته، وتبديل آياته، والتحليل والتحريم بلا علم، والإضافة إلى الشرع ما ليس منه بلا فهم.

(١٧٠) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

وإذا نُصِحَ هؤلاء المشركون باتباع ما أنزل الله على رسوله من الهدى والبيان رفضوا النصيحة، وقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه الآباء، فيقال لهم: حتى ولو كان الآباء سفهاء أغبياء لا عقل يردعهم عن الضلال، ولا هدى يدلهم على طاعة ذي الجلال، فقد فقدوا سداد المعقول، ونور المنقول.

(١٧١) ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

مثل هؤلاء الكفار في عدم انتفاعهم بنصوص الوحي وأنوار الشريعة كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه، فهي تسمع الصوت ولا تفهم الخطاب، فهؤلاء الكفار يسمعون اللفظ ولا يعرفون المعنى، ويصلهم الصوت ولا يدركون الفحوى، انطمست منهم البصيرة فهم في حيرة، فلا رادع من عقل، ولا وازع من نقل، صم عن الهدى، خرس عن الحق، عمي عن الصواب، لا يعرفون الرشاد ولا يوفقون للسداد، ألسنتهم خرساء، وعيونهم عمياء وآذانهم صماء، وقلوبهم في غطاء، يعيشون كالأنعام، ويسرحون كالهوام، فحياتهم حياة بهائم، وعيشهم عيش السوائم.

١٧٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

فما دام الكفار أخطؤوا في عبادتهم ومطعمهم فعبدوا الأصنام وأكلوا الحرام فأنتم - أيها المؤمنون - كلوا من الطيبات واشكروا رب الأرض والسموات، فأمرهم بإطابة المطعم، وشكر المنعم إن كانوا إياه يعبدون وله يسجدون.

وفي الآية إباحة الطيبات والاستعانة بها على الطاعات بلا مخيلة ولا سَرَف، ولا تعدٍّ ولا ترف، ووجوب الشكر ودوام الذكر.

١٧٣ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ذكر - سبحانه - المحرمات لقلتها، وسكت عن المباحات لكثرتها، فنهاهم عن الميتة التي لم تُذكَّ؛ لأنها لم تزك، والدم لما فيه من ضرر على الجسم، وعن لحم الخنزير لقذارة لحمه وأثره في الأخلاق، وعن كل ما ذُبح للأصنام والأوثان، والأولياء والشيطان، إلا من بلغت به الحاجة مبلغًا وخاف التلف وأشرف على الموت فيجوز له تناول ما يبقي حياته بشرط ألا يكون طالبًا للحرام مع وجود الحلال، أو متجاوزًا للحد في الأكل بل بقدر الحاجة؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، وإنما أباح الله ذلك؛ لأنه واسع المغفرة يتجاوز عن الذنب بلا عقاب؛ كثير الرحمة يقابل التائب بالثواب.

١٧٤ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

والذين يخفون ما أنزل الله من الحق فلا يظهرونه، ويكتمونه فلا يعلنونه، من أجل الحطام، ومداهنة للآثام، وخوفًا من الحكام، ولطلب الجاه والمكانة، فجزاؤهم اللعنة والمهانة، فأكلهم الذي أكلوه مقابل العلم الذي كتموه يجعله الله نارًا في بطونهم يوم القيامة جزاء وفاقًا، ولا يكلمهم الله إعراضًا عنهم وإهانة لهم، ولا يطهرهم من دنس الذنوب؛ لأنهم حملوا القبائح والعيوب، ولهم عذابٌ مؤلم موجع.

وفي الآية إثبات صفة الكلام للملك العلام.

١٧٥ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾

هؤلاء الكفار المكذبون باعوا الهدى واشتروا الضلالة لاستيلاء السفه والجهالة عليهم، واختاروا العذاب في النار على مغفرة العزيز الغفار، فما أصبرهم على النار، كيف يستطيعون عذابها وهي لا تُطاق لما فيها من النكال والإحراق.

١٧٦ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾

وهذا العذاب الذي ذاقوه لأنهم كفروا بالكتاب المبين، وكتموا الحق من رب العالمين، فما دام أن الله أنزله بالحق فمن الحق أن للمحسن الثواب، وعلى المسيء العقاب، والذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه من اليهود والنصارى في محادةٍ لله وفي نزاع بينهم واختلاف في قلوبهم؛ لأنهم لما فرقوا كتاب ربهم؛ فرّق الله شملهم وشتت كلمتهم، فهم في بُعد عن الصواب، وهم مستوجبون للعذاب.

١٧٧ ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

ليست القضية مجرد تَوجُّه إلى جهةٍ من الجهات في المشرق والمغرب، لكن القضية الكبرى والمسألة العظمى هي الإيمان بالله ربًا وإلهًا، وإخلاص العبوديّة والاستعداد وإصلاح العمل والإيمان بالملائكة كما أخبر عنهم الوحي، وأنهم عبيد لله مقربون لهم مهمات، وكذلك الإيمان بالكتب السماوية وأنها حق من عند الله، وأن الله أنزلها على رسله،

وأيضًا الإيمان بالمرسلين من رب العالمين، مَنْ ذُكر ومَنْ لم يُذكر، والاعتراف برسالتهم، ومن الإيمان بذل المال مع شدة التعلق بحبه والرغبة فيه، ولكن النفس سَخَتْ به رجاء ثواب الله وخوف عقابه، فبدأ بذي القربى؛ لأنهم أقرب في النفس وألصق بالإنسان، وأعظم صلة، وأعطى اليتامى لفقدهم الولاية، وحرمانهم من الرعاية، فتعاهدهم ببره ووصلهم من خيره، ووصلَ المساكين من المعوزين المحرومين فأطعم جائعهم، وكسى عاريهم، ولمّ شعثهم، ومنحَ ابن السبيل الذي انقطع به الطريق، فلا رفيق، ولا صديق، فأسعد حاله، وأجزل نواله، وأجاب سؤاله، وأكرمَ السائل، وأدخلَ عليه المسرة، ورفعَ عنه المضرة، وواساه من البر، وجبرَ منه الكسر، وفكَّ الأسرى من يد الكفار، وأعطى القريب والمحبوب في الدين من ماله، وأدى الحقوق ففرج كربة المحتاج، وآنس وحشته، وأقام الصلاة حق الإقامة، فأداها على الكمال والتمام، بخضوعها وخشوعها كما شُرعت، وأعطى زكاة ماله فطهر نفسه، وزكى ماله، وواسى إخوانه، وأطاع ربه، وشكر مولاه، ووفّى بالعقود، وصدق في العهود، واحترم كل ميثاق، وبرَّ في كل اتفاق بينه وبين الخالق والخلق، وصبر على الفقر وألمه وشدته فرضي عن ربه، وجعل القناعة في قلبه، وستر الحاجة بالتجمل، والفقر بالتّحمل، فترك التسخط والجزع، والتذمر والهلع، ولزم التقوى والورع، وصبر على ما أصابه من أمراض وبلاء، وفوّض الأمر لرب الأرض والسماء، ولم يشكُ الخالق إلى الخلق وما اعترض على القضاء، بل صبر على الضراء، وسلم الأمر للمدبّر ووكلّ الملك للمالك، وصبر وثبت عند القتال ومصاولة الرجال، فما جزع ولا فر بل ثبت واستقر أملاً في الأجر، فمن اتصف بهذه الصفات، وقام هذه المقامات، فهو المؤمن حقًا، البار صدقًا، وهو المتقي لربه، الفائز ببره وقربه، فالصادق يشمل فاعل الطاعات، والمتقي يعم هاجر المنهيات.

١٧٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

فرض عليكم - أيها المؤمنون - أن تقتلوا القاتل بالمقتول إذا وجب عليه القتل وانتفى المانع، فالحُرُّ يقتل بالحُرّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، ولا تتجاوزوا الحدود فتقتلوا غير القاتل كفعل الجاهلية، أو تهدروا دم الضعيف كفعل الوثنية، بل عليكم بالعدل في الدية والقتل، فمن أسقط حقه في القصاص، ورضي بالدية، فلا يعنف الولي في مطالبته بالمال، ولا يسوف القاتل في دفع الدية إلى من له الحق بل إحسان من الطرفين في الاستقضاء والقضاء، وقد يسَّر الله على الأمة فخفف ورحم، فشرع الدية رحمةً بالقاتل ولطفًا بأهل القتيل إذا وقع الرضا وزال المقتضى، ولكن من أخذ الدية ثم قتل فقد ظلم وجهل، فالله أعدّ له العذاب الأليم على هذا الذنب العظيم.

١٧٩ ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

ولكم - أيها المؤمنون - في قتل القاتل حياة لما بقي من الأنفس، فإن الإنسان إذا تيقن أنه سيقتل لو قتل؛ كف عن سفك الدماء، وقَتْلِ الأحياء، فَعَمَّ الأمن في المجتمع، واستقامت حياة الناس، فالنفوس تعصم، والدماء تصان، والأمن يستقر، والمجتمع يسعد، وإنما يفهم سر التشريع وحكمة الباري ومحاسن الدّين من كان سليم العقل نيّر البصيرة طاهر الضمير، وتشريع القصاص من أجل أن يتقي العبد ربه فيكف عن البغي والعدوان، وظلم الإنسان، واستحلال ما حرم الله منه.

١٨٠ ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

أوجبنا عليكم - أيها المؤمنون - إذا أشرف أحدكم على الوفاة أن يوصي لوالديه وأقاربه من ميراثه بجزء بحيث لا يضر بالورثة بما لا يزيد على الثلث، فلا يحرم نفسه الأجر، ولا ينسى أقاربه من البر، ولا يجحف بورثته في القسمة وكان ذلك الأمر حقًا واجبًا على من اتقى ربه وأطاعه، ونسخ الحكم بآية الميراث ليعطي كل ذي حقٍ حقه، وتحدّد نوعية القرابة ومقدار الحق ويخرج من لا حق له، فسبحان الملك الحق.

(١٨١) ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾

فمن غيَّر هذه الوصية أو حرَّف في نقلها أو كتَّمها من وصي أو كاتب أو شاهد فذنبها وجرمها على من ارتكب ذلك لا يتعداه؛ لأنه فقد الأمانة، وارتكب الخيانة، وأضاع الحقوق، وحرم المستحق، والله لا تخفى عليه خافية؛ فهو مطلع على النيات، يسمع الأصوات، ويعلم الأعمال والحالات، فويل لمن بدّل. والخسار على مَنْ حرّف وغيّر.

(١٨٢) ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

ومن تخوَّف أن يميل الموصي في الوصية ولا يعدل، بحيث يميل على الورثة فيجحف في الوصية بالزيادة، فيضرُّ بالميراث ويحرم المُوصَى له من الأقارب فيأثم بإبطال الحق، فلا بأس أن يصلح من يريد الخير فيأمره بالعدل والإحسان بلا ضَرَر ولا ضِرَار، فيوصي بالأرفق للوارث والأحسن للمُوصَى له، والله يغفر للمجتهد خطأه ويثيبه على سعيه؛ لأنه رحيم بعباده.

وفي الآية فضل الإصلاح، وجواز الاجتهاد وأجر المجتهد ومردّ ذلك النية.

(١٨٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

يا أيها المؤمنون، لقد فرض الله عليكم صيام رمضان، كما فرضه على الأمم قبلكم، فامتثلوا كما امتثلوا؛ لأن في صيامه أسباب التقوى لكم، من تنفيذ الأمر، وكسر النفس الأمارة، وتعلُّم الصبر، واجتناب المنهي عنه، ومخالفة الهوى، ومحاربة الشيطان، وعبودية المجاهدة.

(١٨٤) ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ
فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

والصيام المفروض أيام قلائل، ووقت مقتطع من زمن طويل، ففطركم أطول من صيامكم، وزمن أكلكم أكثر من زمن إمساككم، رحمة بكم، ولطفًا بضعفكم، فأما المريض الذي يشق عليه الصيام، والمسافر الذي فارق المقام، فلهما الفطر نهار رمضان، والقضاء بعده بعدد الأيام، وعلى من يقدر على الصيام لكن بمشقة شديدة وكلفة كالشيخ الكبير والعجوز الهرمة إذا أفطروا عليهم إطعام مسكين عن كل يوم، وصيامكم أفضل من فطركم؛ لأن الصوم خير لكم في الأجر، وتربية النفس على البر، وتلبية الأمر، وتوطين النفس على الصبر، ولو علمتم منافع الصوم وفوائده لصمتم.

(١٨٥) ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ
وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ
ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

هذا الشهر المبارك له شرف عظيم، ومقام كريم، ومناسبة سعيدة، ومنزلة حميدة، ففيه أكرمناكم بنزول القرآن كله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، هذا القرآن الذي فيه سر سعادتكم ومجدكم وعزتكم ونجاتكم ونصركم وفلاحكم في الدارين، فاشكروا الله على هذه النعمة بصيام هذا الشهر الكريم، وهذا القرآن فيه أدلة واضحة وبراهين جلية من العلم النافع والعمل الصالح وبيان الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والخير من الشر، وأخبار الماضي وأنباء المستقبل، وعلى من يدركه الشهر وهو حي صحيح مقيم أن يصومه وجوبًا، فلا عذر له في ترك الصيام، وأما المريض والمسافر فلهم العذر في ترك الصيام حتى يُشْفَى المريض ويقيم المسافر فيقضيان بقدر الأيام، والله سبحانه يريد بنا اليسر؛ ولذلك أباح للمسافر والمريض الفطر، وجعل الصيام شهرًا واحدًا فحسب، ومن النهار إلى الليل فقط، بل كل الشريعة ميسرة سمحة سهلة لا تكليف فيها ولا مشقة ولا حرج؛ لأنه لا يريد بنا العنت والصعوبة والإحراج، بل وضع عنا الآصار والأغلال، ولطف بنا ورحمنا، فله الحمد والشكر، فإذا صام من فاته صيام

رمضان عدة من أيام أخر فقد أكمل العدة، ولا يجوز صيام بعض الشهر للمستطيع، وفطر بعضه، بل يصومه كله إكمالاً وتمامًا، ويُكبِّر الله - سبحانه - عند انقضاء الشهر ورؤية الهلال وانقضاء أيام العيد؛ لأنها أيام فرح واحتفال، وليَشْكُرْ المولى - جل وعلا - على ما أنعم، وتفضل وأكرم، وسدد وألهم، فهو صاحب المواهب، ومسدي العطايا، ومهدي الخيرات.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قال بعض الصحابة: يا رسول الله، أربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأمر الله - عز وجل- رسوله أن يخبر عباده أنه سميع قريب مجيب، يسمع دعاءهم، ويجيب سؤالهم، ويكشف كَرْبَهم، ويزيل هَمَّهم، ويذهب غمهم، ويلبي طلبهم، ويعلم أحوالهم، فعلى العبد أن يسأل ولا ييأس، ويطلب ولا يقنط؛ فالجود واسع، والعطاء كثير، والفضل جزيل، وعلى العباد أن يطيعوا ربهم باتباع رسوله ﷺ والعمل بشرعه، ويُصدِّقوا بما أنزل في كتابه، ويتيقنوا بصحة ما جاء به، فالاستجابة عمل، والإيمان اعتقاد، والدعاء قول. فالدين قول وعمل واعتقاد، ومن أطاع الله فقد رشد؛ لأنه أُلْهِم الصواب، ووفق للسداد، وسلك الجادة وخالف الهوى، وجانب الغواية، فثمرة العمل الصالح زيادة في الإيمان، وعاقبة الطاعة زيادة في الهداية.

(١٨٧) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

أحل الله لكم بعد التحريم جماعَ نسائِكم ليل رمضان؛ لأنهن ستر وغطاء وسكن لكم؛ لأن المرأة تزين زوجها وتستر قبحه، وتعينه على غض بصره، وحفظ فرجه، وسكون قلبه واستقرار نفسه، وتمنعه من الفضيحة مع غيرها بما يعاشرها من الحلال، والرجل لباس لزوجته يجملها ويسترها ويعفها ويحجبها ويمنعها من الحرام بالحلال، فما ألطف العبارة وما أجمل الإشارة، وسبب إباحة الجماع ليل رمضان أن الله علم أن بعض المسلمين كانوا يتعرضون للعقاب بمقارفة الجماع ليلاً يوم كان محرمًا، فأباحه وسامح فيه ورخص رحمةً منه، فالجماع في ليل رمضان مباح بالإجماع، فالله عاد بالتوبة على عباده ولم يؤاخذ بما سلف، فبعد الرخصة أبيح الجماع لطلب الولد والذرية الصالحة وإعفاف النفس وأداء الحق، فعليكم بإحسان النية في الجماع لحصول النسل المبارك، وليس لمجرد اللذة العابرة والشهوة القاصرة، فاللذات بالنيات طاعات، والعادات بالمرادات عبادات، وكلوا واشربوا ليالي الصيام حتى يطلع الفجر بحيث يتبيَّن لكم خيط الصبح الأبيض وهو العمود المعترض في السماء من خيط الليل الأسود، ثم أمسكوا عن كل المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومن كان معتكفًا في المسجد فلا يقربن زوجته ليلاً أو نهارًا طيلة اعتكافه، لحرمة الزمان والمكان وعبادة الرحمن، فهذه محارم الله وحدوده وأوامره ونواهيه، فلا تتجاوزوها ولا تنتهكوها، والتعبير بالقرب لمنع كل داعٍ يوصل إلى معصية الرب، فالله يبيِّن لكم الأحكام لتجتنبوا الحرام، وتتقوا الملك العلام، وتحذروا عذابه، وتخافوا عقابه، وتطلبوا ثوابه.

وفي الآية:- أن من أعظم أسباب التقوى تعلم العلم ومعرفة الأحكام والفقه في الدين.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ولا يأكل بعضكم أموال بعض بالحرام ورشوة الحكام وأنتم تعلمون بطلان ذلك والنهي عنه، وجاءت هذه الآية بعد آيات الصيام؛ ليدل على أن من امتنع في ذلك الزمن عن الطعام فعليه أن يمتنع في كل زمن عن الحرام، ويحصل ذلك بكسر النفس وتربيتها وتهذيبها، وطريق ذلك هو الصوم؛ لما فيه من تأديب ومصابرة، فلا يجوز أكل أموال الناس

بالإثم والخديعة والغش والتدليس وأنواع البيوع المحرمة، ولا بالعدوان كالغصب والظلم والسرقة وجحد العارية والوديعة ونحوها، فالحمد لله الذي أمر بحفظ النفوس، فحرم قتلها إلا بحق، وحفظ الأموال، فنهى عن أخذها بالباطل، وحفظ الأعراض بحدود وتعزيرات.

(١٨٩) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يسألك الناس عن الحكمة من كون الهلال يبدأ صغيرًا ثم يكبر شيئًا فشيئًا، فأخبرهم أن الله أراد أن يعرِّفهم أوقات العبادة، وأزمان الطاعة من صيام وزكاة وحج وغير ذلك، وليس العمل الصالح أن تدخلوا بيوتكم من خلفها كما كنتم تفعلون في الجاهلية، ولكن الطاعة الشرعية لا الجاهلية ولا البدعية هي امتثال أمر الله ودخول المنازل من الأبواب مع هجر المخالفات وترك المنكرات، ففي ذلك الفوز والظفر.

وفي الآية:- أن على المسلم أن يأتي كل أمر من بابه، ويسلك المدخل المناسب سواء في العلم أو العمل؛ ليصل إلى أفضل الثمار وأحسن النتائج.

(١٩٠) ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

وجاهدوا الكفار لإعلاء كلمة الواحد القهار وليس لأغراض دنيويَّة ودعاوى جاهلية، ولا تقاتلوا إلا من قاتلكم، أما من سالمكم أو عاهدكم فوفُّوا فلا تقاتلوه، ولا تعتدوا بقتل من ليس من أهل القتال، كالشيوخ والنساء والأطفال، وقتل من أمنتموه أو أسرتموه أو عاهدتموه، فالله لا يحب العدوان وأهله، والظلم ومرتكبيه، وانظر إلى هذا العدل والميزان من الرحمن حتى مع أعدائه، فما أجلّها من شريعة، وما أعظمه من دين.

(١٩١) ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

حيث وجدتم الكفار فاقتلوهم في الحل والحرم واطردوهم من دياركم؛ لأنهم قاتلوكم وطردوكم، فأذيقوهم مرارة الحرمان من الأمان والأوطان؛ لأن فتنتهم للمؤمنين وإيذاءهم في الدين وصدهم عن المسجد الحرام ومحاربة الإسلام أشد ضررًا من قتلكم إياهم في الحرم، ولا تبدؤوا قتالهم عند المسجد الحرام لعظيم حرمته وجلالة منزلته حتى يبدؤوكم هم، فإذا حصلت منهم مقاتلة فالبادي أظلم، والانتصار من البغي واجب، فعليكم بكف أذاهم وسل السيف عليهم، فهذا جزاء كل مجرم وباغٍ؛ ليُحمى الدين وتُصان المِلّة، وتُحمى الشريعة، ويعلو الحق.

(١٩٢) ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فإن تركوا قتال المسلمين واعتنقوا الدين، فلا تتعرضوا لهم بالقتال، لتغير الحال، والله يتوب على من تاب، ويقبل من أناب، وفيه مسالمة من سالم وعدم التعرض له.

(١٩٣) ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وقاتلوا من حارب الإسلام وعبد الأصنام، حتى لا يبقى لهم شوكة ولا دولة، ولا قوة ولا صولة، فيستمر منهم الإيذاء ويعظم البلاء، فالحق قد لا يحفظ إلا بجلاد، والإسلام قد لا ينصر إلا بجهاد، فإن انتهوا عن الشرك وتركوا القتال والفتك، فمن قاتلهم بعد ذلك فقد اعتدى ولا عدوان إلا على الظالم، وليس على المسلم، وفيه موادعة من وادعنا والوفاء بعهد من عاهدنا.

١٩٤ ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

وإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام مثلاً بمثل وسواء بسواء، ومن ارتكب محرَّمًا عُوقب بمثله؛ فمن قتل قُتل، ومن جرح جُرح، ومن سلب مالاً أُخذ من ماله مثله؛ لأن هذا هو العدل مثلاً بمثل؛ لأن من اعتدى عليكم لا يكفُّه إلا أن تعاملوه بالمثل لحسم شره ودفع ضره، وراقبوا ربكم في هذا القتال، فلا تبدؤوا أنتم، ولا تقاتلوا من لم يقاتل؛ لأن الله يحب من اتقاه وراعى حدوده وعهوده، وهو معه ينصره ويؤيّده، ويحميه ويسدّده، وهي معية القرب والولاية، والحفظ والرعاية.

١٩٥ ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

أنفقوا أموالكم وابذلوها لنصرة الدين ولإعلاء كلمة الله، فإن لم تفعلوا تَقَوّى الكافر فأهلككم، وتسلط عليكم، فمن ترك الغزو والإنفاق في سبيل الله عرَّض نفسه للهلاك في الدنيا والآخرة، فطريق العلياء التعب، والمشقة سبيل الظفر والفوز، وكم من راحة أعقبت ندمًا، ومن ذلة أوجبت خزيًا، ومَنْ طلب الموت وهبت له الحياة.

وعليكم بتجويد أعمالكم بالإخلاص والمتابعة مع إحسانكم بالبذل والسخاء، فالإحسان في القول السداد، وفي العمل الإتقان، والله يحب من أحسن في عمله.

١٩٦ ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

ومن شَرَعَ في الحج والعمرة منكم فليكمل عمله ولا يقطعه وليتم نسكه، وأخلصوا لله فيهما، فإن حالَ بينكم وبين الحج والعمرة مرض أو عدو، أو طريق مَخُوف، فتحللوا واذبحوا ما تيسر من الإبل أو البقر والغنم، ولا يجوز لكم التحلل من الإحرام بحلق أو تقصير حتى تذبحوا الهدي إما في الحرم أو حيث أحصرتم، والمحرم الذي يضطر إلى حلق رأسه لمرض في جسمه أو ألم في رأسه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، أو يذبح شاة للفقراء، وإذا لم يكن هناك خوف بل كنتم آمنين ولم تُحصروا عن البيت فإذا اعتمرتم في أشهر الحج ثم حججتم من عامكم فعليكم بذبح شاة شكرًا لله على ما أعطاكم، ولتيسير الحج والعمرة في عام واحد، فالحمد لله على ما حباكم، فإذا لم يجد قيمة الهدي فليصم عشرة أيام ثلاثة منها وهو حاج، وسبعة إذا رجع إلى وطنه، وهذا الهدي على من كان بعيدًا عن الحرم، أما أهل الحرم فليس عليهم دم، وعليكم بتقوى الله في فعل مناسك الحج وترك محذوراته والقيام بالهدي والفدية؛ لأن الله شديد عقابه لمن عصاه، فليحذره سبحانه.

١٩٧ ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

الحج أشهر معروفة محدّدة وهي: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فمن أوجب على نفسه الحج بالدخول فيه فلا يجامع النساء ولا يعصي ربه ولا يخاصم إخوانه، وهذا حكم مع النفس والأهل والناس، ولا يكفي ترك المعاصي بل عليه عمل الطاعات من الكلام الطيب والذكر والصدقة وحسن الخلق؛ فالله يعلم السرائر ويطلع على ما في الضمائر، فيوفي كلاً بعمله، وعليكم بزاد السفر ليعينكم على الحج، ولا تنسوا زاد الآخرة من العمل الصالح فإنه أعظم زاد ليوم المعاد، ويا أهل العقول خافوا عذابي واخشوا عقابي بعمل طاعتي واجتناب معصيتي.

١٩٨ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

وليس عليكم حرج أن تتاجروا في الحج، فالبيع والشراء فيه مباح؛ لأنه موسم للدنيا والآخرة، والرازق هو الله وحده، فاطلبوا الرزق من عنده بفعل الأسباب، فإذا عدتم من عرفات فقفوا عند المشعر الحرام بمزدلفة وأكثروا الذكر والدعاء شكرًا لله على أن هداكم صراطه المستقيم ودينه القويم، لأنكم كنتم قبل هدايته لكم في ضلال وشر حال، فهداكم عن الضلالة، وعَلَّمَكُم من الجهالة.

١٩٩ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وانزلوا مع الناس من عرفة لا من مزدلفة؛ لأن قريشًا كانت تخص نفسها عن الناس بمزدلفة، وعليكم بالاستغفار؛ لأنه لا يخلو العمل من تقصير ليزول عنكم عجب الطاعة ويجبر كسر التقصير، فالله يغفر الذنب بستره، ويرحم عبده لضعفه وفقره، فهو كثير الغفران، رحيم رحمن.

٢٠٠ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾

فإذا أكملتم مناسك الحج فعليكم بذكر ربكم كثيرًا مثلما كنتم تذكرون مفاخر آبائكم وتمدحونهم، فالله أحق بالمدح، فأكثروا ذكره بمحامده، فهو أحق من ذُكر وأولى من شُكر، والناس منهم من همه الدنيا فحسب، يسعى إليها، ويطمع في غناها وجاهها ومتاعها الفاني ومجدها الزائل، وهذا ليس له في الآخرة حظ عند ربه من النعيم، ولا قسم له من الأجر الكريم؛ لأنه باع آخرته بدنياه.

٢٠١ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

ومنهم – وهم الأفضل – فريق طلبوا من ربهم خير الدارين؛ صحةً في الدنيا، وعافيةً وسترًا، ومجداً ونصرا، وغنىً وذخرًا، وسألوا في الآخرة الفوز بالأجر العظيم والنعيم المقيم، في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، مع الوقاية من النار وغضب الجبار.

٢٠٢ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

وهؤلاء فائزون أبرار، سعداء أخيار، فهم أحسنوا فيما سألوا، وأجادوا فيما أقلّوا، فلهم قسط وافر من الأجر، وقسم عظيم من الثواب، من قرة العين وبهجة النفس والأمان في جوار الرحمن؛ لأن الله سوف يقيم القيامة للمجازاة فينال كل جزاءه؛ لأنه سريع الحساب، يحاسب العدد الكثير في الزمن القصير، وهو عليه يسير.

٢٠٣ ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

وأكثروا ذكر ربكم في أيام الحج فإنها أيام معدودات تمر سريعًا، فاغتنموها، فمن استعجل منكم الخروج من منى بعد يومي الحادي عشر والثاني عشر من عيد الأضحى فمباح له ذلك ولا حرج عليه، ومن تأخر أكمل الثالث عشر فهو خير، وذلك الحكم وهو التأجل والتعجّل هو لمن اتقى ربّه وخاف وعيده، وعليكم بالخوف من الله ومراقبته وحفظ حدوده وتيقنوا أنكم تُجْمَعون عند ربكم للحساب، وإنما ذكر حشر الناس؛ لأن اجتماع الناس في الحج يذكر باجتماعهم عند ربهم للجزاء.

٢٠٤ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾

ولما ذكر الأخيار البررة أتى لذكر الفسقة الفجرة، فأخبر أن منهم من يملك نفسك بفصاحته، ويبهج قلبك ببلاغته، لكنه كذاب فاجر، منافق غادر، وزيادة في نفاقه وإمعانًا فيه يعلن أن الله شاهد على ما في قلبه من الحب له ولدينه ورسوله، وهو أشد الأعداء الألداء محاربةً للدين وعداوةً للمسلمين، وذلك شأن كل منافق على مر العصور.

٢٠٥ ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾

وإذا خرج من المجلس أو تولّى أمرًا من أمور الناس سعى في الإفساد وزرع الفتنة بين العباد التي تؤدي إلى إتلاف الزرع وقتل الأنفس وخراب الديار، والله يبغض كل مفسد شرير، وكل خبيث حقير، ويبغض الإفساد في الدين والدنيا؛ لأنه أمر بالإصلاح والعمار.

٢٠٦ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾

إذا نُصح هذا المنافق أن يخاف الله حمله الكبر على زيادة الإثم والجرم عنادًا واستخفافًا، فليس له إلا نار جهنم تشويه، وهي كافية في التنكيل به خالدًا فيها، ولبئس القرار لمن أغضب الجبار.

٢٠٧ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

أما صنف من الناس فمختلف عن هؤلاء المنافقين، فهم البررة الأخيار، من يبيع نفسه وماله لنصرة دينه، ويشتري رضوان الله وجنته، كما فعل صهيب الرومي الصحابي ﵁ لما أعطى المشركين كل ما يملك وهاجر مع الرسول ﷺ إلى المدينة، والذي وفق هؤلاء لهذا العمل الجميل هو الله الجليل؛ لأنه رؤوف بعباده يدلهم على المسار من ألطف الطرق، ويجنبهم المضار بأحسن الحيل، ومن رأفته بهم توفيقهم لمرضاته.

٢٠٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

أيها المؤمنون: ادخلوا في الإسلام واقبلوه بكل شرائعه وأحكامه وسننه، ولا تجزئوه فتأخذوا بعضه وتتركوا بعضه، وإياكم ومسالك الشيطان القبيحة وطرقه الخبيثة فابتعدوا عنها، فإن الشيطان عدو لكم يسعى فيما يضركم ويبعدكم عما يسركم، قد بانت عداوته وانكشف أمره، والعدو لا يُوَافق ولا يُرَافق.

٢٠٩ ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

فإن آثرتم الضلال على الهدى وانحرفتم عن الحق بعدما ظهر لكم البرهان وسطع البيان، على صدق الرسول وصحة الرسالة فاعلموا أن الله عزيز ينتقم ممن عصاه، حكيم لا يوقع العقاب بغير أهله، ومن عزته أنه قهر ما سواه، ومن حكمته أنه أحسن فيما قضاه.

٢١٠ ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾

وهل ينتظر هؤلاء المكذبون إلا يومًا يأتي فيه الواحد الأحد لفصل القضاء يوم الجزاء في ظلل رهيبة كثيفة من الغمام معه الملائكة الكرام، حينها قضي الأمر فلا توبة لتائب ولا عذر لمعتذر، ولا ينفع الكافر ندم ولا أسف، وإلى الله تعود مصائر الخلائق، وإليه تنتهي أعمال الجميع فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وإتيان الله يوم القيامة يحمل على حقيقته وظاهره بما يليق به سبحانه.

٢١١ ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

يا أيها الرسول: سل اليهود توبيخًا لهم وتقريعًا كم آتيناهم من معجزة باهرة، ومن آية متظاهرة، كنتق الجبل، وفَلْقِ الصخر والبحر، والعصا واليد، فكذبوا ونسوا وأعرضوا وعصوا، فمن يغير آيات الله بالكفر والتبديل، والتحريف

والتعطيل بعدما قامت عليه الحجة، ووضحت له المحجة، فإنه قوي الأخذ شديد البطش، عظيم العذاب لكل من عصاه، وخالف أمره واتبع هواه.

٢١٢ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

حُسِّنت الدنيا في عيون الكافرين فأحبوها وقدموها على الآخرة ورضوا بها وعملوا من أجلها، وسخروا من المؤمنين لتقديم الآخرة الباقية على الدنيا الفانية؛ لأن لسان الكافر يقول: خذ ما تراه لا ما تسمع به، ولكن النتيجة أن من اتقى ربه وأطاع مولاه فهو في المنازل العالية والدرجات الرفيعة والعيشة الهنيئة، أما الكفار الفجار ففي درك النار وبئس القرار، والرزق ليس علامة قبول العبد، فإن الله يرزق من يشاء مسلمًا أو كافرًا؛ لحكمة قدّرها ولمصلحة علمها، فلا يظن من زوي عنه الرزق أنه لكره الله له، ولا يظن من وسع عليه أنه لحب الله له، فقد يرزق الكافر ويحرم المؤمن قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾، قال الله مجيبًا عن الاثنين: ﴿كَلاَّ﴾ أي لا الأول رزقناه لمحبتنا له، ولا الثاني قدرنا عليه في رزقه لهوانه عندنا.

٢١٣ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

كان الناس قبل إشراكهم بربهم على فطرة التوحيد، ثم أغواهم الشيطان للإشراك بالله، فأرسل الرسل يدعونهم إلى الإيمان، ويبشرون الطائع بالثواب والعاصي بالعقاب، ولما أرسل الله الرسل أنزل معهم الكتب فيها البيان الشافي لأمور الدين؛ ليتحاكم إليه الناس وقت الاختلاف، ولم يخالف في القرآن إلا اليهود والنصارى من بعد ما جاءتهم الأدلة الصحيحة على صدقه حسدًا وبغيًا، فاختار الله للهداية عباده المؤمنين، فاتبعوا القرآن الذي كَذَّبَ به أهل الكتاب، وهذه الهداية توفيق منه - تعالى - لعباده المؤمنين للصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم المبعد عن نار الجحيم.

٢١٤ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن دخول الجنة سهل دون ابتلاء واختبار، فما نجا من نجا قبلكم إلا بعد شدائد وأهوال من الجهاد والتضحية والمصائب، فقد ابتلاهم الله بالفقر فصبروا، وبالمرض فشكروا، ونزلت عليهم أهوال ومحن، فثبتوا إلى درجة أن الرسول وأتباعه منهم يقولون من شدة الخطب وهول الكرب: متى الفرج بعد الشدة؟ ومتى النصر بعد الذلة؟ فيا أيها المؤمنون: نصر الله قريب، وفرجه آتٍ، وفتحه حاصل، فلا تيأسوا من النصر، وعليكم بالصبر.

٢١٥ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

يستفتيك المؤمنون -أيها الرسول- ماذا يتصدقون؟ وعلى من يتصدقون؟ فقل لهم: أي صدقة منكم قلّت أو كثرت فالأولى بها القريب، ثم اليتيم، ثم الفقير. ثم الغريب المنقطع، واعلموا أن فعلكم للخير قليلاً أو كثيرًا محفوظٌ لكم عند الله، والله عالم به محصيه لكم، ويعلم المخلص فيه من المرائي، وسوف يُوفَّى كلٌّ بعمله.

﴿٢١٦﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾

فرض عليكم جهاد الكفار أيها المؤمنون، والنفوس تكره القتال لما فيه من مشقة وألم ومخاطرة بالنفس والمال، ولكن كم من مكروه عاقبته محمودة، فالجهاد على مشقته له ثمار من العزة والكرامة والنصر والغنيمة والشهادة في سبيل الله، ويمكن أن تحبوا أمرًا من أمور الدنيا من الشهوات ومطالب النفس وترك الجهاد، فيثمر لكم الهوان والذل والخزي والعار وغضب الجبار، فكم من أمر كرهته النفوس وهو الفوز والرفعة والفلاح، وكم من شيء أحبته النفوس وهو الهلاك والخسارة والبوار، لأن العبد لا يعلم سر المسألة، ولا عاقبة الأمر ولا الحكمة الخفية؛ وإنما يعلمها علام الغيوب، فارضَ بقضائه، وسلم لاختياره، وافرح بتدبيره ففيه الحكمة والمصلحة.

﴿٢١٧﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

يسألك الناس - يا محمد - عن القتال في الشهر الحرام أيَحلُّ أم يَحْرُم؟ فأجبهم بأن القتال فيه محرمٌ وإثمه عظيمٌ وجرمه شنيعٌ، فلا تقاتلوا فيه من لم يقاتلكم، ولكن مَنْعُ الناس من الإسلام ودعوتهم للكفر بالله وتدنيس المسجد الحرام وطرد الرسول والصحابة من مكة أعظم ذنبًا وأكثر إثمًا من قتلكم للكفار في الشهر الحرام، فإن كان قتلكم لهم في هذا الشهر عظيمًا فاعظم منه ما فعلوه بكم وبدين الله ورسوله وبيته؛ لأن رد المسلم عن دينه أعظم إثمًا من قتلكم لهم، وسوف يستمر الكفار يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن الإسلام بما استطاعوا من جهد، فمن يترك دينه ويرغب في الكفر ويستمر على ذلك حتى الموت ضيّع الله سعيه. وأبطل أجره وأحبط عمله وخلّده في النار.

﴿٢١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

إن المؤمنين المهاجرين المجاهدين مستحقون لرحمة الله، وسوف يحصلون على ما أملوا، ويجدون ثمرة ما عملوا، فبإيمانهم أرضوا القهار، وبهجرتهم فارقوا الدار وبجهادهم قاتلوا الكفار، فاستحقوا رحمة الغفار؛ لأنه واسع العطاء يتجاوز عن الأخطاء.

﴿٢١٩﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾

يستفتونك -يا محمد- عن حكم شرب الخمر ولعب القمار، قل: فيهما ذنب كبير وضرر كثير، ولو أن فيهما ربحًا ماديًا قليلاً ولكنه لا يساوي ما فيهما من شَرٍّ خطر، وإثم عظيم، فإثم من شرب المسكر ولعب القمار يشمل ذهاب العقل وقد يصل إلى إزهاق الروح، وسفك الدم، وخراب البيوت، وذهاب الأسر، وهتك الأعراض وغيرها.

ويستفتونك - أيضًا - ماذا يتصدقون؟ وماذا يمسكون من أموالهم؟ فقل لهم: أنفقوا الميسور وتصدقوا بما زاد عن حاجتكم، فكما هداكم الله فقد وضّح لكم ما يحل و ما يحرم، وما يجوز وما لا يجوز، وما ينفع وما يضر، فتدبروا أموركم، وتفقهوا في دينكم لتسعدوا وتفلحوا.

﴿٢٢٠﴾ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾

بيّن الله لكم الآيات لتتفكروا في مسائل الدنيا والآخرة وتختاروا الأجمل والأكمل وتنظروا في حال الدنيا وفنائها، وزوال أبنائها، ونعيم الآخرة وبقائها وحسن بهائها.

ويستفتونك في مخالطة اليتامى والأكل من أموالهم، فأجبهم أن من خالطهم وأصلح وسدد وقارب ونصح لهم فهو أحسن ممن اجتنبهم، وإن جمعتم مالكم مع مالهم ليعظم الربح وتقل الخسارة وقامت بينكم شراكة للمنفعة فأنتم إخوان في الدّين، بعضكم ولي بعض، ينصح له ويحرص عليه، والله يطلع على من أراد الفساد وسعى إليه ممن اجتهد في الخير واتقى ربه في حال الشراكة والخلطة مع اليتامى، ولو أراد الله أن يعسِّر عليكم لحرم عليكم مخالطة اليتامى، ولكنه سهّل عليكم ولم يكلفكم ما لا تطيقون؛ لأنه عزيز يحكم ما أراد بقوة ونفاذ، حكيم يقضي بما فيه حكمة ويقدر ما فيه رحمة.

(٢٢١) ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

لا تتزوجوا المشركات حتى يُسْلِمن، فإن الجارية المملوكة المسلمة أفضل من الحرة المشركة ولو أعجبكم جمال المشركة، فجمال الباطن أحسن وأفضل من جمال الظاهر، ولا تُزَوِّجوا بناتكم من المشركين حتى يُسْلِموا، فإن المملوك الرقيق المسلم أفضل من المشرك ولو أعجبتك صورته أو أقواله، فالمسلم أبر وأطهر وأكرم؛ لأن هؤلاء المشركين دعاة إلى الكفر الموصل إلى نار جهنم، والله يدلّكم على ما يسعدكم في الدنيا ويوصلكم إلى الفوز بجنته في الآخرة، فهو الذي يقبل الحسنات ويتجاوز عن السيئات، ومن اهتدى فبتوفيقه له، والله يوضح الأدلة لعباده، ويقيم البراهين للخلق لكي يبصروا الهدى من الضلال والحق من الباطل، فيختاروا الأحسن والأصوب.

(٢٢٢) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

ويستفتونك -يا محمد- عن جماع الحائض أحلال أم حرام؟ فقل لهم: هو حرام؛ لأن دم الحيض مستقذر مؤذ، فابتعدوا عن جماع الحائض حتى تطهر، فإذا طهرت من الحيض وتطهرت بالماء فجامعوها في الفرج؛ لأنه المأذون فيه شرعًا، فهو - سبحانه - يحب التائب من الأوزار، والمتطهر من الأقذار؛ لأن الذنب دنس على النفس، والقذر رجس على الجسم ونجس، فطهارة الأرواح والأجسام بترك الأقذار والآثام.

(٢٢٣) ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

زوجاتكم موضع إنجاب أولادكم فجامعوهن على أي هيئة بحيث يكون الجماع في القبل، واحرصوا على فعل الخير لأنفسكم في الآخرة ولو في الجماع بحسن النية في الذريّة وإعفاف النفس، والمرأة لا لمجرد الشهوة البهيمية، وعليكم بتقوى الله في اجتناب ما نهاكم عنه مثل: جماع الحائض والجماع في الدبر، وتيقنوا أنكم سوف تلقون ربكم يوم العرض الأكبر ليحاسبكم على أعمالكم، فلا تلقوه بما تفتضحون به، فالبشرى لمن آمن بجنات ونهر وحسن مستقر، وما أجمل ربط الأحكام بتقوى الملك العلام.

(٢٢٤) ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لا تجعلوا الحلِفَ بالله سببًا لمنع الخير كأن تحلف ألا تفعل خيرًا، فإن طُلب منك أن تفعله قلت: قد حلفت بالله فلن أترك يميني فكأن الله مانع لك من فعل الخير، بل كفِّر وافعل الخير من عمل طاعة واجتناب معصية وإصلاح بين المتخاصمين؛ لأن الله يسمع الأقوال، ويعلم الأعمال، ويطلع على الأحوال، فهو أحق أن يُتقى ويخاف.

(٢٢٥) ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

لا يعاقبكم الله بما يجري على اللسان من أيمان دون نية منكم، كقولكم: لا والله، وبلى والله، وإنما العقاب على من قصد الكذب؛ لأن الأعمال بالنيات، والله كثير العفو عظيم التجاوز واسع الرحمة يتوب على من تاب ويقبل من أناب ويتجاوز عن المسيء.

٢٢٦ ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

من حلف ألا يجامع زوجته هجرًا لها وإضرارًا بها فله مدة أربعة أشهر ليراجع نفسه ويتوب إلى ربه من إيذاء زوجته، والله يغفر له إذا عاد، ويسامحه إذا كفّر ورجع إلى زوجته، وانظر إلى لطف الله بالمرأة ورحمته بها.

٢٢٧ ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لكن لو استمر الزوج على حلفه وهجر زوجته فعليه أن يطلقها لرفع الضرر عنها، أو طَلَّقَها الوالي فلا ضرر ولا ضرار؛ لأن الحياة الزوجية مبنية على الألفة وحسن العشرة، فإذا لم توجد انتهى الغرض، والله يسمع كل قول ونجوى، ويعلم السر وأخفى، فحق على العبد أن يخشاه.

٢٢٨ ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

والمرأة المطلقة تنتظر ثلاث حِيَض من بعد طلاقها استبراءً للرحم، وهي عدتها إذا دخل بها زوجها، ثم يجوز لها بعد الحيض الثلاث أن تتزوج، ولا يجوز لها أن تخفي الحمل وتجحده لئلا تعود إلى زوجها، وحبًا في الفراق وإنهاء للعدة، هذا إذا كانت تخاف ربها وتخشاه وتحذر الحساب بين يديه يوم العرض الأكبر، فلن يمتثل الأحكام الشرعية إلا المتقي ولا يخالفها إلا شقي، وللزوج الحق في إرجاع الزوجة ما لم تنته العدة؛ لأنها ما زالت تحت عصمته وفي ولايته، إن كان يريد حسن العشرة معها وعدم إدخال المشقة عليها، وللزوجة من الحق كحسن العشرة والرحمة بها والنفقة عليها مثل ما للزوج عليها من لطيف المعاملة وطيب العشرة وعدم الخيانة، وللأزواج على الزوجات ميزة وخاصيّة بسبب الإنفاق والولاية والقوامة مع حسن المعاشرة، ولا يقتضي هذا أن يكون خيرًا منها، فالفضل للتقوى، والله عزيز ينتقم ممن تعدى حدوده من الزوجين وغيرهما، حكيم يضع كل شيء بحكمة في موضعه، ومن ذلك أحكام الزوجية.

٢٢٩ ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

الطلاق الصحيح الذي يحل للرجل به مراجعة زوجته طلقتان، واحدة بعد الأخرى، فإما أن يراجعها بمعروف، وإما أن يطلقها بلا ظلم ولا عدوان، وبعد أن تصير منه بائنًا لا حق له في المراجعة، فالمراجعة لحسن العشرة، والفراق مع أداء الحق، ولا يجوز للرجل أن يأخذ من مهر زوجته شيئًا إذا فارقها إلا بالخلع إذا تأكدتم أنه لا يمكن الصلح، وأن يقع الضرر كظلم الزوج وسوء معاشرة الزوجة، فيجوز الخلع على شيء من المهر، فإن تيقنتم أنه لا يمكن توافق الزوجين وانتفت المصلحة من المراجعة جاز للمرأة أن تفتدي نفسها من زوجها ببعض مهرها ليفارقها لتحققِ الضرر من الرجوع إليه، وهذه المسائل فيما شرعه الله وسنّه فاحذروا تجاوزها والتساهل بها ومخالفتها؛ لأن من عصى الله بارتكابه المحذور فقد أغضب ربه، وظلم نفسه، وتجاوز الحد، ووقع في الحرام؛ وهذا ظلم.

٢٣٠ ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

فإن طلقها الطلقة الثالثة بانت منه وحرمت عليه حتى تتزوج زوجًا آخر ويجامعها، لا على وجه الحيلة والتحليل، وهذا تعزير له وتأنيب وردع له وتأديب، لئلا يتلاعب بالطلاق ويعبث بالرجعة والفراق، فإن طلقها زوجها الثاني واعتدَّت جاز لزوجها الأول أن يتزوجها بعقد جديد، ومهر آخر إذا علم الزوج والزوجة أنهما سيقومان بأوامر الله ويجتنبان

نواهيه، والله إنما يوضح الأحكام لأهل البصائر وأصحاب الأفهام الصحيحة الذين يفقهون في الدين، أما المعرضون الجهال فلا فهم لديهم ولا بصيرة.

(٢٣١) ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وإذا طلقتم النساء دون الثلاث وهن في الرجعة، فراجعوهن إذا أردتم قبل انقضاء العدة دون أن تسيئوا عشرتهن، بل عاشروهن برحمة ولطف، أو تمهلوا حتى تنقضي عدتهن ليصبحن بائنات مع متاع حسن وعدم ذكرهن بالسوء، ولا تراجعوا النساء من أجل الانتقام والإساءة حتى تبذل المرأة مهرها لتفتدي نفسها، ومن يراجعها ليؤذيها أو ليأخذ من مهرها فقد جار وتعدى وظلم، والله له بالمرصاد، ولا تتلاعبوا -أيها الناس- بأحكام الله فتأخذوا ما تريدون وتتركوا ما تريدون تشهيًّا، وتذكَّروا فضل الله عليكم بالقرآن وبمحمد ﷺ لتتعلموا ما ينفعكم، وكنتم قبله جهلاء ضلالاً، فهذا الوحي لهدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه فلاحكم وفوزكم، فخافوا ربكم وأطيعوا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه؛ لأنه - سبحانه - عليم بالأعمال مطلع على الأحوال لا تخفى عليه خافية وسوف يحاسبكم عن القليل والكثير.

(٢٣٢) ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وإذا طلق الأزواج زوجاتهم ثم انقضت العدة ورغب الرجل أن يراجع المرأة برضىً منهما واختيار فعلى الولي أن لا يمنع ذلك؛ لأن المرأة سوف تُحْرَم الحياة الزوجية بمنع الولي، وهذا هو التزام أمر الله واتباع شرعه إنما يفعله من رضي بالله ربًّا وخاف لقاءه، وخشي عقوبته، وهذا العمل من المراجعة بالمعروف، واتقاء الزوجين لله وعدم منع الولي، أزكى للقلوب لبعدها عن الآثام، وأطهر للأجسام لاجتنابها الحرام؛ لأنها فعلت المأمور وتركت المحذور؛ لأن الله أعلم بمصالح العباد، وما فيه خيرهم وعواقب أمورهم وأسرار أحوالهم ما لا يعلمونه؛ لأنهم بشر استولى عليهم النقص وغلب عليهم الضعف ولزمتهم الغفلة.

(٢٣٣) ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

على الأمهات أن يرضعن أولادهن سنتين كاملتين إذا أراد الوالدان ذلك برضا واختيار، وإنما ذكر الوالدات للاستعطاف وعدم إهمال الطفل والاستخفاف به، ووالد الطفل تلزمه نفقة والدة طفله وكسوتها بما هو معروف بلا تبذير ولا تقتير، بقدر حالة الغني والفقير، وقال: وعلى المولود له ولم يقل الوالد؛ لأن الطفل ينسب إليه لا إلى أمه، ولا يجوز أن يقع الضرر على هذا الطفل بسبب الفراق، فلا ترضعه أمه نكاية في أبيه، أو يأخذ الوالد الطفل فيَحرِمه حنان أمه، فيضره ويضرها، والضحية بسبب هذا الشقاق هو الطفل، فحمى الله جانب الطفل، فتبارك الحكيم الرحيم ما أعدله وأرحمه، وأورث الطفل من جد وعم وأخ يقوم مقام الوالد في الإنفاق على والدة الطفل من طعام وسكن إذا مات الوالد، وإذا اتفق والد الطفل ووالدته على فطم الطفل قبل مضي السنتين فلا بأس بذلك بشرط أن يكون عن رضا لا خلاف معه من الطرفين وتشاور في مصلحة الطفل.

وإذا رغب الوالد في مرضعة غير أم الولد ورأى المصلحة في ذلك فلا إثم عليه إذا كانت أم الطفل عاجزة أو رافضة، أو لا تصلح لسبب وجيه، فسلموا أجرة المرضعة بلا نقص ولا مطل، بل أجرة المثل. وانظر إلى هذا الإنصاف والعدل،

وعلى الجميع أن يتقوا الله، فالوالد عليه ألا يضر بالطفل أو والدته، ولا يبخس المرضعة الأخرى أجرتها، والوالدة لا تضر بطفلها ولا تنتقم من أبيه بترك رضاعته، وعلى المرضعة حسن الرضاعة وجميل معاملة الطفل؛ لأن الله مطلع على كل عمل قائم على كل نفس عالم بكل سر، فخافوه وراقبوه وامتثلوا شرعه.

(٢٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾

ومن مات منكم وله زوجة أو زوجات فعليهن البقاء في بيوتهن مدة أربعة أشهر وعشر ليالٍ حدادًا على الأزواج، إلا الحامل فعدتها حتى تضع الحمل، لتُحفظَ الأنسابُ، وتُصانَ الأحسابُ، ويُحترمَ حقُّ الزوج، فإذا انتهت العدة جاز لها الزواج ومقدماته من التجمل والتزين إذا كان في حدود الشرع، والله - سبحانه - لا تخفى عليه الخوافي، فيعلم عمل البار والفاجر، وسيجزي كلاًّ بما فعل فراقبوه رجالاً ونساءً، فإنه محاسبكم.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾

ليس عليكم إثم إذا عرضتم للمرأة المعتدة بالزواج تلميحًا لا تصريحًا يُفهم منه الرغبة في نكاحها، ولا ذنب في إسراركم بهذه الرغبة في نفوسكم لئلا يتوهم الإثم من حب الزواج من المعتدة، فلا تخفوا وعدكم لهن بالنكاح في السر فإنه يعلم السر وأخفى، ولكن لمِّحوا ولا تصرحوا؛ لأنه لا يحق الدخول في مسألة النكاح إلا بعد انتهاء العدة، ولا يحل لكم عقد النكاح إلا بعد انتهاء العدة، واعلموا علم اليقين أن الله مطلع على أسراركم، خبير بنياتكم، عليم بأفعالكم، فاحذروا غضبه واخشوا عقابه، وهو مع قدرته على العقاب وشدة أخذه في العذاب فهو يغفر لمن تاب ويرحم من أناب، فكونوا بين رجاء رحمته وخوف نقمته.

(٢٣٦) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

إذا طلقتم النساء قبل الجماع ولم تُسمُّوا لهن مهرًا فليس لهن إلا المتعة، وإن سميتم لهن مهرًا ثم طلقتموهن قبل الجماع فلهن نصف المهر، وعند الطلاق متعوهن قبل الفراق؛ ليذهب ما في نفوسهن من عتب، ويزول ما يحصل بعد الطلاق من غضب، والمتعة على قدر الغنى والفقر، يفعل ذاك المتقي المحسن الذي يحب أن يتفضل، وهذه المتعة شيء من المال والمتاع شرعه الله على أهل الكرم ليمحو ما أصاب المطلقة من ندم.

(٢٣٧) ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

وإذا كان الطلاق قبل الدخول وقد سمى الزوج لها مهرًا فعليه إذا طلقها أن يدفع لها نصف المهر إلا إذا سامحته المطلقة ولم تطالبه بشيء، أو سامحها الزوج في نصف المهر بعدما دفع لها المهر كله أو سامح وليها إذا تبرع بإرضائها، فالمسامحة هنا من كل الأطراف أحسن؛ لأنها تدل على كرم النفس ولين الطباع وجميل الخُلُق، وهذا أقرب لما يحبه الله، فإنه عفو يحب العفو، كريم يحب أهل الكرم، ولا تتركوا -أيها الأزواج- الإحسان بينكم حتى بعد الفراق من حفظ العهد وكتم السر والصلة بالمعروف بالمال وغيره لمن احتاج إليه منكم، فقبل الفراق كان بينكم معروف وإحسان، فليستمر قدر المستطاع، فالله - سبحانه - يعلم إحسان المحسن، وإساءة المسيء وسوف يوفي كلاً بعمله.

٢٣٨ ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾

حافظوا على الصلوات الخمس في أوقاتها بخشوعها وآدابها ولا تشغلكم الدنيا عنها، فالمحافظة أعظم من مجرد أدائها؛ لأن الصلاة عماد الدين، وقرة عيون الموحدين، وعلامة صدق العابدين، وحافظوا على صلاة العصر؛ لأن الملائكة تشهدها، ثم إنها تقع في وقت تعب بعد عمل وقيلولة وبرد في الشتاء، واخشعوا في صلاتكم وداوموا على طاعة ربكم.

٢٣٩ ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾

لا تتركوا الصلاة على أي حال ولو كنتم في حال خوف من الكفار، فصلوا ماشين أو راكبين، فإذا ذهب القتال واستقر الحال فصلوا صلاة وافية الشروط والأركان، مع كثرة ذكر للرحمن، مثلما علمكم ربكم في كتابه وسنة رسوله ﷺ وشكرًا له على هذا العلم. وكنتم قبل الرسالة في ضلالة، وقبل العلم في جهالة.

٢٤٠ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

قبل أن يموت الزوج عليه أن يوصي لزوجته بعد وفاته متاعًا يكفيها لسنة كاملة يشمل النفقة والسكن، ولا تخرج الزوجة من سكنها عدة مدة هذه السنة، وكان هذا عدة المتوفى عنها زوجها ثم نُسخت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، فانظر كيف حفظ الحقوق وسن الحدود - سبحانه - فإذا خرجت الزوجة من منزل زوجها المتوفَّى عنها بعد العدة فلا حرج على الولي أن يأذن لها بالزينة والتجمل والطيب لتخطب في حدود ما شرعه الله؛ لأنه عزَّ فأمر، وحكم فعدل، فمن عزته أوامره ونواهيه، ومن حكمته تنزيله لكل حكم ما يقتضيه.

٢٤١ ﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

وللمطلقة على زوجها حق وهو أن يمتعها بقدر استطاعته ليجبر الخاطر ويزيل ما كدرها من فاجعة الطلاق ووحشة الفراق، وهذا يفعله من اتقى ربه وراقب مولاه ففعل ما يرضيه.

٢٤٢ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

وهذه الأحكام بيانها من الله، فهو المشرع - سبحانه - فالحكم لله وحده، فعليه البيان وعلى الرسول البلاغ وعليكم العمل، وقد شرع الشرائع كي تتدبروها وتتفقهوا في أحكامها لتعقلوا الحكمة، فالبيان علم، والتدبر عقل، فجمع هنا بين المنقول والمعقول.

٢٤٣ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾

ألم تأتك قصة قوم هربوا من أوطانهم، وتركوا ديارهم - وهم كثيرون في عددهم - خشية الموت والموت لا مهرب منه ولا مصد عنه، فإنه يأخذ من استقر ويلحق من فرًّ، فأماتهم الله بكلمة ثم أحياهم بكلمة؛ ليقيم الدليل على أنه الرب القدير الجليل، قيل: إنهم من اليهود كتب عليهم الجهاد فهربوا فأدركهم الموت، ثم بُعثوا، فيا من فرَّ من الجهاد، لا مهرب من الموت ولا راد، والله - سبحانه - لم يكلف الناس ما يشق عليهم حتى يفروا من القضاء، فإن شرعه رحمة، وقضاءه حكمة، وعطاءه فضل، وأخذه عدل، وتجاوزه إحسان، لأنه رحيم رحمن، ولكن أكثر الناس لا يشكر ربَّه بامتثال أوامره وهجر نواهيه، فجِبِلَّة الجحود في الناس كامنة، وصفة النكران في نفوسهم ساكنة.

٢٤٤ ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾

فلا تكونوا - أيها المؤمنون - كمن فرّ من القتال ورفض الجهاد بل جاهدوا لإعلاء كلمة الله، فلكم النصر والأجر والعزة والشهادة والفوز والفلاح، فالله يعلم من جاهد مخلصًا لربه، ومن قاتل رياءً وسمعة؛ لأنه يسمع الأصوات، ويعلم النيّات، ويطّلع على الخفيّات.

٢٤٥ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

أيُّكم السابق لبذل ماله لمرضاة ربه ونصرة دينه، فماله لن يذهب بل هو قرض مضاعف، وحسنات وافرة، الحسنة بعشر إلى سبع مائة إلى ما شاء الله، فالمعطي حقيقة هو الله، وأموالكم من عنده سبحانه؛ لأنه يقلل رزق من يشاء، ويكثر عطاء من يريد لحكمة يعلمها، فمن قلّ رزقه فلينفق على حسبه، ومن كثر فليعط على كثرته، وسوف تعودون إليه يوم القيامة؛ فيثيب الجواد المنفق، ويعاقب البخيل الممسك.

٢٤٦ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِىّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ
إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا
كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

ألم يَصِلْك خبر قوم من اليهود قالوا بعد موت موسى للنبي شمعون: نريد قائدًا يقودنا لنقاتل الكفار معه في سبيل الله، فقال لهم: أخْشى إن أوجبَ الله عليكم الجهاد عصيتم وتركتم القتال، فلا تتمنوا لقاء العدو، ولا تستعجلوا البلاء، فردّوا عليه، وقالوا: كيف لا نجاهد ونحن مظلومون شُرِّدنا من الوطن، وسلبت أموالنا، وفرّق بيننا وبين أولادنا؛ فنحن نريد الانتقام ممن فعل ذلك. فلما أوجب الله عليهم الجهاد تركوه وخافوا الأعداء وما صبر منهم إلا نفرٌ قليل، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت، والله عالم بالظالم منهم الذي نكث ما عاهد الله عليه، ونقض ما التزمه من جهاد في سبيل الله، فلما وقعت الحرب ضعفوا وانهزموا وهذا مخالفة لأمر الله، فهم سألوا ما لم يجب، فلما وجب ما وسعهم إلا الهرب.

٢٤٧ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ
وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِى ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِى مُلۡكَهُۥ
مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾

وقال لهم نبيّهم شمعون: إن الله قد اختار لكم قائدًا هو طالوت، فاعترضوا وقالوا: كيف تكون القيادة والملك لطالوت؛ وهو فقير والملك يحتاج إلى مال، فبالمال يطوّع الرجال ويُقام القتال، والمال عندنا، فنحن أولى بالملك منه لغنانا وفقره، فردّ عليهم نبيهم وقال: حصل الاختيار من الله وهو أعلم بالحِكَم والمصالح وعواقب الأمور، وطالوت معه سعة علم وقوة جسم، فبالعلم يسوس الناس، وبالجسم يخوض البأس، فصاحب العلم قويّ النفس، وصاحب الجسم قويّ البطش، وهذا أكمل للهيبة والسلطان. والله وحده يُملّك من يشاء من عباده؛ لأنه ملِك الملوك وهو أعلم بمن يصلح للملك فيختاره، فليس لأحد أن يعترض؛ لأن الله واسع الفضل كثير الإحسان عليم بخفايا الأمور وأسرار القضايا، فهو يهب عن سعة، ويختار عن علم.

٢٤٨ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ
مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

وقال لهم نبيّهم شمعون: إن علامة اختيار الله لطالوت ليكون ملكًا عليكم، أن يحضر الصندوق الذي فيه الطمأنينة من الله لكم، وفيه بقايا آثار موسى وهارون كالعصا والثياب وبعض التوراة، تأتي به الملائكة حتى تضعه بين يدي طالوت إثباتًا لملكه، ونزول التابوت إلى طالوت علامةٌ ظاهرة على اختيار الله له من بينكم إن كنتم تصدقون بآيات الله.

(٢٤٩) ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

فلما خرج طالوت من المدينة بالجيش وأصبح في الصحراء لا ظل ولا ماء بل حر ورمضاء؛ ابتلاهم الله بنهر عذبٍ باردٍ وهم في ظمأ شديد؛ ليمتحن صبرهم، وحذّرهم طالوت بأن من شرب من الماء فليس من جنده؛ لأنه لن يصبر، ولن يثبت في المعركة، ومن لم يشرب فهو معه، وأذن لهم بقليل من الماء ملء الكف لكل واحد منهم، فأكثروا من الشرب إلا نفرًا قليلاً صبروا، فلما خرج من النهر هو ومن معه من المؤمنين وشاهدوا جيش العدو دبٌّ الخوف في قلوبهم؛ لكثرة الكفار وقالوا: لا نستطيع المواجهة فعددنا قليل وعددهم كثير، فردّ عليهم الصادقون الصابرون: بأن النصر مع الصبر، والطائفة القليلة المؤمنة تغلب الطائفة الكثيرة الكافرة؛ لأن من كان الله معه لن يُغلب، فالله يؤيد من صبر بنصره ويُنزل السكينة على جنده.

(٢٥٠) ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ولما التقوا بجيش عدوهم جالوت سألوا الله أن يمدهم بصبر في قلوبهم لئلاً يجزعوا، وبثبات أقدامهم لئلاً يفروا، وبنصرهم لئلاً يُهزموا، فالصبر يدفع الجبن، والثبات يمنع القلق، والنصر يحمي من الخذلان، وطلبوا الغلبة على الكافرين؛ لأن جهادهم من أجل رفع الدين ونصرة رب العالمين.

(٢٥١) ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فغلب جيش طالوت جيش جالوت بنصر من الله وحده، وقتل داود جالوت، فأعطاه الله كرامة الملك يسوس به الناس، والنبوّة يهدي بها العباد، والعلم يفقّه به الخلق، فالملك صلاح الدنيا، والنبوة صلاح الدّين، والعلم صلاح النفس، ولولا أن الله يدفع شر الكفار بقوة الأبرار لَتَسلَّطَ الأشرار، وعمّ الفساد في الكون، وخربت الدنيا، ولكن الله لطيفٌ بالبشر، ينصر الحق وأهله على الباطل وحزبه؛ ليبقى الخير ويستقيم أمر الناس، وتعمر الديار وينتشر الصلاح.

(٢٥٢) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

هذه الأخبار - يا محمد - صادقة من عند الله أنزلها الله بالحق وحيًا يُتلى عليك؛ لأنك رسول من عند الله كما أرسل الأنبياء قبلك، فما أوحيناه إليك فهو للبلاغ لأنّا أكرمناك بالرسالة.

(٢٥٣) ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

والذي قصصنا عليك أخبارهم من الأنبياء هم رسل من عند الله متفاوتون في الدرجات متباينون في الفضل، منهم من خصّه الله تكريمًا بأن كلّمه كموسى، ومنهم من جعله من أُولي العزم كنوح وإبراهيم، ومنهم من فضّله على الجميع وختم به الكل وهو محمد ﷺ، أما عيسى فقد أعطيناه معجزات باهرة، وعلامات ظاهرة، فهو يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويَشْفِي المرضى بإذن الله، وجعلنا جبريل يعينه ويساعده على مهام الرسالة وتكاليف الدعوة.

ولو أراد الله ما تقاتل الناس بعد ما جاء الأنبياء بالرسالات والدلالات والحكم والعظات، ولكن لما اختلفوا في متابعة المرسلين سلّط المؤمنين على الكافرين لينصر الدين، ولو أراد الله لجمعهم على كلمة واحدة وما حصل بينهم خلاف ولا قتال، ولكن لمصلحة أرادها الله وحكمة علمها، قدّر الخلاف بينهم والقتال؛ ليتميز أولياؤه من أعدائه، ويقوم سوق

الجهاد ويتخذ الشهداء، ويظهر أهل الجنة من أهل النار، فله - سبحانه - الحكمة المطلقة والقدرة النافذة، حكيم في قضائه، رحيم في بلائه.

(٢٥٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون، تصدقوا من فضل الله في سبيل الله وأنتم على قيد الحياة، قبل أن تسلب منكم الأرواح وتلقون ربكم يوم العرض الأكبر، فلا بيع تُفدى به النفس بالمال، ولا مودة صديق تنفع، ولا شفاعة صاحب تدفع؛ لأن الكافر ظلم نفسه بمحاربة ربه، فلا يقبل منه الفداء ولا مودة الأصدقاء ولا شفاعة الأولياء.

(٢٥٥) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

الله وحده لا إله إلا هو المستحق للألوهية، المستأهل للعبودية؛ لأن له الحياة المطلقة الكاملة التامة، وهو دائم باق لا يموت ولا يفنى، قائم على تدبير الخليقة وتصريف الكون، به تقوم حياة كل حي، لا يأخذه النعاس ولا النوم؛ لكمال حياته وقيّوميته؛ لأن النعاس والنوم نقص، والله منزه عن النقص، وهو - سبحانه - يمسك السموات والأرض أن تزولا، فلا ينام وليس بحاجة إلى النوم - جل في علاه - لأنه لا يدركه تعب ولا لغوب، تقدّس علام الغيوب؛ ولأن من نام يموت والله لا يموت، والجن والأنس يموتون، فجميع ما في الكون ملكه تحت تصرفه ومشيئته، مقهورون تحت سلطانه، خاضعون لعظمته، أذلاء لقوته، خائفون من بطشه، فالخلق عبيده والملائكة جنده، ولجلاله وعظيم مهابته وملكه لا يشفع أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عن المشفوع؛ لأنه صاحب الكبرياء، تنزه عن الشركاء، وهو - سبحانه - مطلع على ما يراه البشر في الدنيا وما لا يرونه من أمور الغيبيّات في الآخرة، أحاط بالمنظور والمستور، وعلم الظاهر والباطن، واطلع على السر والجهر، ولا يعلم أحد من علمه - سبحانه - إلا من أطلعه عليه، لا ملك مقرّب ولا نبي مرسل، ولا ولي صدّيق، ولا أحد من الجن والإنس؛ لأن علمه واسع محيط شامل، وعلمهم ضيق مقصور محدود؛ لأنه خَلَقَ علِمَهم وعَمَلَهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومن عظمته - سبحانه - أن كرسيّه أعظم من السموات والأرض، والعرش أعظم منه، والكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في صحراء واسعة لا يعلم سعتها إلا الله، فإذا كانت هذه السموات والأرض باتساعها وعظمتها، والكرسي أعظم وأكبر منها فكيف بعرشه العظيم، فسبحان من استوى على عرشه استواء يليق بجلاله، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا صفاته تشبه الصفات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والله - سبحانه - لا يثقله حفظ السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات، بل يحفظها من كل الآفات، وتدعوه كل المخلوقات بشتى اللغات، ومختلف اللهجات، وتعدد الأصوات، وبجميع الحاجات، فيفيض جوده على كل الكائنات، وهو عليٌّ - سبحانه - علو ذات وقدر وقهر، فهو عالٍ فوق السموات على عرشه، وقدره أعلى قدر؛ لأنه صاحب النهي والأمر، يعلم السر والجهر، وبيده النفع والضر، وقد قهر سواه فلا رب ولا إله إلا إياه، تفرد بالملك وتوحّد بالألوهية واستحق العبوديّة، فهو العلي العظيم؛ لأن العلو مع العظمة يقتضي قوة الجبروت، وتمام الملكوت، وكمال العزة، ونهاية الجلال والقداسة، وهذه الآية أعظم آية في القرآن، وفيها من المدح والتقديس والتعظيم للملك الكريم، الرحمن الرحيم ما يخترق حجب الضمير إلى شغاف القلب، ويهز أركان الكون بالثناء على الملك الحق المبين.

(٢٥٦) ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لا تجبروا أحدًا على الدخول في الإسلام، بل عليكم بدعوته بالإقناع وحواره بالتي هي أحسن؛ لأن الأمر بيّن ظاهر، فقد وضح الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر، فمن وحّد الديّان وكفر بما يعبدون من دونه من إنس وجان

وشيطان وأوثان فقد التزم حبل الإيمان، وعروة الدين قوية لا انقطاع لها؛ لأنها مَوْصُوْلَةٌ بالله وفيها كل أسباب النجاة، والله مطلع على النيات الخفيات، يسمع الأصوات ويعلم الأحوال والأعمال، فحقه أن يوحّد ويُعبد، وإليه يسعى ويحفد، وله يعظم ويسجد.

٢٥٧ ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

والله وحده ولي المؤمنين يحفظهم ويرعاهم، ويهديهم ويسددهم، ويعزهم وينصرهم، وهو الذي أنقذهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وأنجاهم من الضلال إلى الهدى، وسلّمهم من مهالك الشبهات وأخطار الشهوات بالآيات البيّنات، ودلهم على أسلم طريق بالرشد والتوفيق، أما الكفار الفجار فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من الهداية إلى الغواية، ويردّونهم من الهدى إلى الردى، ويمنعونهم من الإسلام، ويدعونهم إلى عبادة الأصنام، فهؤلاء الكفار خالدون مخلدون في النار فبئس القرار.

٢٥٨ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ألا تتعجب من النمرود بن كنعان صاحب الكفر والطغيان، فإنه جادل إبراهيم، في الرحمن الرحيم، ولم يعلم أن وجود الله ووحدانيته أمر معلوم، شهدت به الفطر السليمة والنفوس المستقيمة، وقامت عليه البيّنات بما أوجد من مخلوقات وأقام من آيات، والله - سبحانه - هو الذي أعطى هذا - المخاصم - النمرود الملك فانظر كيف جحد وألحد، فلما دعاه إبراهيم بيّن له أن ربه - جل في علاه - يوجد من العدم ويُنشئ الخلق ثم يميتهم ويفنيهم، فهو خالق الموت والحياة، والوجود والعدم، والبقاء والفناء، لا غيره ولا سواه، فكان جواب هذا الرعديد العنيد، الغبي البليد: وأنا أيضًا أحيي وأميت، فأتى برجلين مسجونين عنده فعفا عن أحدهما وقتل الآخر، وقال: هذا إحياء وإماتة!! فلما عرف إبراهيم جهالة هذا السفيه وتعلقه بالشبه والتمويه، أتى ببرهان ساطع ودليل قاطع، لا يتعلق فيه المشكّك فقال إبراهيم: دعنا مما تقول، ولكن هذه الشمس في السماء ظاهرة للعيان جلية للأبصار، كل يوم يأتي بها ربي من جهة المشرق فاجعلها أنت تطلع علينا من المغرب ولو يومًا واحدًا لنصدق كلامك!!! فانقطع الغبي الفاجر، وبُهت الشقي الكافر؛ لأن إبراهيم أفحمه بالحجة وقصم ظهره بالبرهان، وهكذا شأن كل ظالم فاجر لا يهديه الله إلى صواب ولا يوفقه للسداد في الجواب.

٢٥٩ ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أو اعجب من قصة صاحب القرية فإنها تثير العجب، فإن عزيرًا مرَّ بقرية مات أهلها وخرب بناؤها، وذَوَتْ أشجارها فلا حياة فيها لشيء، بعدما كانت عامرةً بسكانها، آهلة بأهلها، فوقف متحيّرًا وتساءل: كيف يعيد الله الحياة لهذه القرية بعد هذا الفناء العظيم والدمار الكبير، فأراد الله أن يريه قدرته على الإحياء فأماته وأمات حماره مدة مئة عام، ثم أحياه بعد الموت وسأله: كم مرَّ عليك وأنت ميت؟ فأجاب: مرَّ عليّ يوم أو بعض يوم؛ لأنه بُعث قبل غياب الشمس فظن أنه اليوم نفسه، قال له ربّه: بل بقيت ميتًا مئة عام، فشاهد طعامك الذي كان معك على الحمار لم يفسد بل هو على حاله تقديرًا منا وحكمة، وانظر إلى حمارك الذي مات وتفتت أوصاله وفنيت أجزاؤه كيف نحييه أمامك عضوًا عضوًا وجزءًا جزءًا، ونركب عظامه بعضها على بعض، ثم نجعل اللحم عليها، ثم ننفخ فيه الروح فهزَّ الحمار رأسه ومشى على رجليه ونهق، فصاح عزير وهو يشاهد ما أذهله وأدهش عقله: أشهد أن الله قادر على كل

شيء، وأنه وحده المحيي والمميت، وأنه وحده المستحق للعبودية المستأهل للألوهية، المتفرد بالربوبية، فلا إله إلا هو ما أعظمه وأجله، فما أعظم هذه البراهين وأوضح هذه الأدلة.

(٢٦٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

واذكر – يا محمد – سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيفية إحياء الأموات، فقال له ربه: أما تصدق يا إبراهيم أنني قادر على إحياء الميت أم أنك في شك؟ فقال إبراهيم: بلى يا رب أنا مصدق أنك قادر على ذلك لكن أريد أن أشاهد الكيفية، فليس الخبر كالمعاينة؛ ليزداد يقيني، فأمره ربّه بأخذ أربعة من أنواع الطيور يضمها إليه، ثم يقطعها ثم يخلط بعضها ببعض، ثم يجعل على كل جبل قطعة من اللحم المختلط، ثم نادِ في الطير تأتِ إليك تسعى بعدما ردّ الله فيها أرواحها، فشاهد بعينه كيف أحيا الله الموتى وتيقن ذلك، واعلم يا إبراهيم أن من أحياها عزيز لا يعجزه شيء، ولا يغالبه أحد ولا يمتنع عليه أمر، حكيم يضع كل أمر موضعه، وكل شيء مكانه بحكمة وحسبان.

(٢٦١) ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

مثل المتصدقين بأموالهم في الجهاد وسائر أنواع البر وطرق الخير والإحسان كافة، مثل حبة قمح زُرعت في أرض خصبة، فأنبتت الحبة سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، فالمجموع سبع مئة حبة وهذا مثل أجر من تصدق، فإن الله يضاعف له الحسنات إلى سبع مئة إلى أضعاف كثيرة، فإذا كانت هذه الأرض المِعْطَاء فكيف برب الأرض والسماء وهو أكرم من أعطى؛ لأنه – سبحانه – يربي الصدقة لصاحبها ويضاعفها بقدر نية المنفق وصدقه؛ لأنه واسع يعطي عن غنىً، عليم بمن يستحق العطاء وبما أسر العبد وأخفى.

(٢٦٢) ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء المتصدقون الذين يضاعف لهم الله الثواب يريدون بصدقتهم وجه الله، ولا يلحقون صدقتهم بالمن على السائل فيمتنوا عليه ويجعلونها يدًا لهم عنده يذكرونها له تبكيتًا ويذكرونه بها تفضّلاً عليه، وهذا فيه إذلال للسائل، ولا يلحقون بصدقتهم أذىً للسائل مثل انتهاره واستثقاله وزجره ورفع الصوت عليه ونحو ذلك، بل يحمدون ربهم أن جعلهم مقصودين لا قاصدين، يحتاج إليهم الناس ولا يحتاجون إلى الناس، وهذه نعمة قلَّ من يعرف قدرها، فمن تصدق مخلصًا لوجه الله ولا يمنُّ على السائل ولم يؤذه فأجره عند ربه كبير، وثوابه عظيم، ولا يخاف مما يستقبله من أهوال، فهو آمن لحسن سعيه، ولا يحزن من تبعات ما خلفه من أعمال، فهو ناجٍ لصلاح حاله، وسر السعادة في الأمن من مَخُوفٍ منتظر والسلامة من أمر محزن سبق.

(٢٦٣) ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾

رد السائل بقول لين، وخطاب جميل، وعفو عما بدر منه، ومسامحة له على ما يحصل منه من إلحاح، أحسن من صدقة مقرونة بسوء أدب المعطي وفظاظته وغلظته على السائل من زجر وانتهار، فقول جميل أحسن من عطاء ثقيل، وخطاب لين أجمل من هبة بإهانة، والله – تعالى – غني عما في أيدي الخلق؛ لأنه واهب الرزق، ولكنه أمر بالعطية ليثيب المعطي وهو حليم على من عصاه لا يعاجل بالأخذ، ولعل في قوله: «غني» تذكيرًا للمعطي أن الله أعطاه، وتذكيرًا للسائل أن يسأل ربه ومولاه، وفي قوله: «حليم» تنبيه للمتصدق أن يحلم على من سأله وإخبار أنه يعفو عما بدر منه إذا استغفر.

٢٦٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ
صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

أيها المؤمنون المتصدقون لا تذهبوا أجر صدقتكم على السائل بالمن عليه وإذلاله بالعطية أو الإساءة إليه بكلام غليظ أو فعل فظ، فيذهب وزر ما فعلتم بثواب ما أعطيتم، فيكون فعلكم فعل المنافق في ذهاب الأجر، فإن المرائي لا يريد الله بعمله بل يطلب ثناء الناس والجاه لديهم؛ لأنه لا ينتظر الآخرة فيرجو ثوابها ويخاف عقابها، وإنما قصده الدنيا، فمثل هذا المرائي بنفقته كمثل حجر أملس عليه تراب قليل نزل عليه مطر قوي فأذهب التراب وأبقى الحجر فليس للغيث أثر، فالمنافق أظهر للناس الحسن كالتراب على الحجر، فلما بليت السرائر وانكشفت الخوافي إذا هو مراءٍ، فأذهب الرياء أجره كما أذهب المطر التراب، فبقي محرومًا من الخير والأجر كالصخر لا نفع فيه ولا بركة، فالمنافق لا يجد ثمرة ما أعطى ولا نفع ما قدم؛ لأنه أنفق رياء فذهب عمله هباء، والمنافق كافر بربه في باطنه فكيف يهديه إلى السداد، وكيف يدله على الرشاد؛ لأن الله لا يهدي إلا تقيّاً ولا يرشد الكافر الشقي.

٢٦٥ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ
أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

والذين يتصدقون لوجه الله وطلب الثواب من الله وليزدادوا هدى وثباتًا على الإيمان، أو أن نفوسهم المطمئنة تدفعهم إلى الصدقة لثباتها على الحق، فهؤلاء مثلهم كمثل بستان أخضر كثير الشجر طيب التربة حسن الثمر بمكان مرتفع من الأرض، وهو أحسن الأمكنة للزراعة، حيث تضربه الشمس ويباشره الهواء ثم أصابه غيث غزير فأثمر البستان ضعف نتاجه مرتين، فإن لم يباشره الغيث المدرار كفاه الندى الخفيف مع الهواء اللطيف؛ لأن المحل خصب، والمكان مرتفع يداخله الهواء ويباشره الضياء، وهذا مثل المؤمن الصادق في نفقته، يعظم الله صدقته لإخلاصه وصدقه وسخائه وحبه لمرضاة ربه ومسارعته فيما يحبه مولاه، والذي يميز النيات ويعلم السرائر هو الله وحده؛ لأنه بصير بالأعمال مطلع على الأحوال، يعلم المخلص من المرائي.

٢٦٦ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ
وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

هل يحب أحدكم أن يكون له بستان مثمر بالنخيل والأعناب، وهما أنفع الأشجار وأبرك الثمار، وفي البستان أنواع الفواكه والخضراوات، وفي البستان نهر عذب سائح جار يتدفق بالماء بلا مشقة ولا تعب، وصاحب البستان شيخ كبير، ضعيف عن الكد والتكسب لعياله الضعفاء وأطفاله الصغار وهو ينتظر ثمر البستان، وفجأة هبت على البستان عاصفة فيها نار ودمار، فاحترق البستان كله وذهب الشجر جميعه، وهذا المثل ذروة الحسن وغاية البهاء ونهاية الإشراق، وهو مثل من عمل عملاً صالحًا ثم أفسده بالرياء وأذهبه بالمعاصي، فلما أتى إلى عمله يوم الفقر الأكبر أحوج ما يكون إليه وجده هباءً منثورًا. وسعيًا باطلاً؛ لفساد نيته وخبث طويته وقبح سريرته، فالله يوضح لنا الأمثال لعلنا نتدبر ونعتبر، فنخاف ونحذر، ونخلص ونتصدق؛ فالرياء يتسلط على عمل الإنسان كما يتسلط الحريق على البستان.

٢٦٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم
بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

أيها المؤمنون، تصدقوا من الحلال الطيب الذي بذلتم الجهد في كسبه من التجارة والعمل، وتصدقوا مما أنبتته الأرض من الحبوب والثمار، ولا تقصدوا الرديء الرخيص فتعطوه الناس، وأنتم لا تقبلونه لرداءته إلا بالمسامحة وغض الطرف عنه، فكيف تتصدقون على غيركم ما لا ترضون لأنفسكم، وفيه معاملة الناس معاملة النفس، واختيار الأجود في الصدقة، وتيقنوا أن الله غني عن صدقاتكم فهي لأنفسكم، وشاكر لمن تصدق منكم، أو غني عمن بخل، حامد لمن أعطى.

٢٦٨ ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾

عليكم بالصدقة والإنفاق في وجوه الخير، ولا تصدقوا وسوسة الشيطان وأمره لكم بالبخل خوفًا من الفقر، ووعد الله أصدق بغفران ذنوبكم إذا أنفقتم؛ لأن الصدقة تكفِّر الذنب، ثم إن الله يخلف عليكم ما أنفقتم، وفي الحديث: «ما نقصت صَدَقَةٌ من مال، بل تزده بل تزده»، وانظر كيف قابل وعد الشيطان بالفقر بالوعد بالغنى، وأمره بالفحشاء بالوعد بالمغفرة، فخير الدنيا والآخرة عند الله؛ لأنه واسع الفضل لا تعجزه مسألة السائلين، كثير الإحسان لعموم الناس أجمعين، وهو عليم بمواضع العطاء ومن يستحق الثواب والثناء.

٢٦٩ ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

والله - سبحانه - يعطي الفقه في الدين، والفهم في المسائل، والعمل النافع والبصيرة في الأمور والسداد في القول والعمل من يشاء له الخير من عباده، ومن يختصه بالفضل من خلقه، ومن يعطى هذه المكاسب الربانيّة والمواهب الإلهية، فقد أعطي الخير الكثير والفضل الوفير والنصيب الكبير. وما يستفيد من الآيات ويتعظ بالأمثال إلا نيّر البصيرة، حيّ القلب، صحيح الفهم، أما مظلم الفؤاد، سفيه الإدراك فلا تذكّر ولا اعتبار، فلا علم نافع ولا عمل صالح.

٢٧٠ ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴾

وما تصدقتم به لوجه الله، أو ألزمتم أنفسكم به في سبيل الله فالله سوف يثيبكم عليه؛ لأنه عالم به يحفظه لكم ليوفيكم إياه وأنتم أحوج ما تكونون إليه، أما الظالم الذي منع ما أوجب الله عليه من زكاة في ماله ونحوها فلن ينصره أحد غدًا، ولن يمنعه أحد من عذاب الله، ولكل ظالم عاقبة سيئة ومصير وخيم.

٢٧١ ﴿ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾

إن أعلنتم صدقاتكم بلا رياء ولا سمعة ففعل حسن وتصرف جميل، لعله يقتدي بكم غيركم، وإن أسررتم الصدقة للفقراء فهو أفضل وأبعد عن الرياء والسمعة وأسلم لحال من تصدقتم عليه، والله - سبحانه - سوف يمحو عنكم الذنب بالصدقة؛ لأنها تكفّر الخطيئة، وهو - تعالى - خبير بالخفايا والسرائر، عالم بالنيات، يعلم من عمله ومن أظهره ومن أسرّ قوله ومن أعلنه.

٢٧٢ ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾

ليس عليك - يا محمد - هداية الناس، إنما عليك البلاغ، أما الموفق للهداية حقيقة فهو الله وحده؛ لأنه يعلم من يستحق الهداية ومن لا يستحق، فهو يصطفي لدينه ويختار كما أراد - تعالى - والذي تتصدقون به من الأموال عائد إليكم بالثواب، فالمنّة لله وحده، فأنتم بصدقاتكم تحسنون إلى أنفسكم، فاقصدوا الله بعملكم واحذروا الرياء والسمعة، واعلموا أن كل نفقة أنفقتموها لوجه الله فهي مضاعفة عند الله، ولن يذهب الله من حسناتكم شيئًا يوم القيامة؛ لأنه عادل لا يظلم ولا يهضم.

٢٧٣ ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

وتصدقوا على الفقراء الذين منعهم الجهاد في سبيل الله من الكسب لطلب الرزق كالتجارة ونحوها؛ لأنهم حبسوا أنفسهم للغزو، فالذي لا يعرف حقيقتهم يظنهم لتجملهم وعفتهم أغنياء وهم في الحقيقة فقراء، فأنت - أيها

المتصدق - تعرف هؤلاء بعلاماتهم، فأثر الفاقة والفقر لا يخفى على اللبيب، وهم لشدة حيائهم وعفة نفوسهم لا يُلحون في السؤال، واعلم - أيها المتصدق - أن كل شيء تنفقه لوجه الله فهو محفوظ فلا تخف من ضياعه، والله يعلم النيات فيطلع على المخلص في صدقته والمرائي.

﴿٢٧٤﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء البررة المتصدقون الذين يعطون أموالهم لوجه الله في كل وقت من ليل أو نهار، وفي كل حال علانية وخفية محفوظ أجرهم عند ربهم، وهم مع ذلك لا يخافون ما أمامهم من أهوال العرض الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الحياة الدنيا الفانية، فقد أمَّن الله خوفهم وأذهب حزنهم.

﴿٢٧٥﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أكَلَةُ الربا حينما يبعثون في قبورهم للحساب يخرجون كالمصروع من مس الجان وتلبس الشيطان، تضطرب حركاتهم وتختل مشيتهم؛ لأن أثر الحرام في بطونهم، والكسب الخبيث في أجسامهم، فالله عاقبهم بهذا العقاب؛ لأنهم لجهلهم وفجورهم قالوا: لا شيء علينا في الربا؛ لأنه مثل البيع تمامًا كلها على وجه العوض والتراضي؛ عنادًا منهم واستخفافًا، فردّ الله عليهم كذبهم بأن البيع حلال لما فيه من تبادل المصالح وتداول المنافع بلا ضرر ولا غرر، أما الربا فإنه إضرار بالغ بأموال الناس، فأناس يكدحون لجمعه ثم يأتي أناس لسلبه منهم بطريق محرم، وأناس اضطرتهم الحاجة إلى قرض فضوعف عليهم ظلمًا وعدوانًا، فالذي وصل إليه النهي من الله ورسوله ﷺ فتاب من الربا فالله يتجاوز عنه ما كان قبل النهي ومرده إلى ربه يقضي فيه ما شاء، ومن استحل الربا بعد النهي فهو معاند لربه محارب لمولاه، فجزاؤه الخلود في نار جهنم.

﴿٢٧٦﴾ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

والله - سبحانه - يذهب بركة الربا ويجعل عاقبته إلى تلف وخسارة في المال والنفس؛ لأنه بُني على حرام، وبالمقابل يُنمِّي الله الصدقة ويبارك فيها، فالربا في الظاهر زيادة وهو نقصان، والصدقة في الظاهر تنقص المال وهي تزيده وتنميه، والله يكره المعاند لآياته، المعترض على شرعه، الذي تهتك في الحرمات، وأكثر من المخالفات، وأعرض عن التَّواب، فالكافر تارك للطاعة معرض عن الأمر، والأثيم ساقط في المعاصي مرتكب للنهي.

﴿٢٧٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وبعد ما ذكر العصاة من أهل الربا أتى لذكر الصالحين المفلحين الذين أحسنوا الاعتقاد وجوّدوا العمل فآمنوا وأصلحوا، وحافظوا على صلاتهم كما شرعت، وأحسنوا أداءها، وزكوا أموالهم طيبة بها نفوسهم، فهؤلاء الأبرار لهم الأجر العظيم والثواب الجسيم من ربهم الرحمن الرحيم، ولا يخافون مما ينتظر العصاة أمامهم، ولا يحزنون من تبعة ما خلفوا في الدنيا وراءهم، بل هم في أمن وسرور، وقرة عين وحبور.

﴿٢٧٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أيها المؤمنون، خافوا الله وراقبوه، واتركوا ما بقي من الربا عند الناس إن كنتم صادقين في التوبة ممتثلين أمر الله طائعين له، فالمؤمن يفعل المأمور ويجتنب المحذور.

(٢٧٩) ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾

فإن أبيتم إلا الربا ولم تتوبوا منه، فانتظروا حربًا من الله ورسوله من الأمراض والكوارث وفساد الذرية والفتن ونقص الفهم، والعذاب في الآخرة، وإن تبتم من الربا فلكم أصول الأموال بلا زيادة، فلا تأخذوا مال الغير ظلمًا ولا تتركوا أصول أموالكم فيلحقكم الضرر.

(٢٨٠) ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

إذا أُعْسِر المقترض فأمْهِلُوه حتى ييسّر الله له السداد، وإن أسقطتم بعض حقكم عنه فهذا أجمل وأحسن إذا علمتم أن الله سوف يجازي المحسن بإحسانه فيتجاوز عنه كما تجاوز عن المعسر.

(٢٨١) ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

خافوا يومًا تعودون إلى ربكم فيه فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، لا ظلم في ذلك اليوم بزيادة سيئات ولا هضم بنقص حسنات.

(٢٨٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

أيها المؤمنون، إذا كان لكم مال على أحد، أو تبايعتم إلى زمن معلوم فاكتبوا بينكم كتابًا لتحفظوا به الحقوق ولا تقعوا في الخلاف، واختاروا كاتبًا مسلمًا أمينًا عدلاً ضابطًا، وإذا دعي هذا الكاتب فلا يَعْتَذِر بل يحتسب الأجر؛ لأن الله هو الذي علمه الكتابة وعليه أن يكتب الكتاب، والذي يملي عليه نص الوثيقة هو المدِين الذي وجب في ذمته المال؛ ليكون مقرًا على نفسه بما أملى، ويشهد الشهود بإملائه، وليخف ربه فلا يزوّر في إملائه ولا يبخس في أدائه، فإذا كان من عليه الدين ضعيف العقل أو طفلاً أو هرمًا أو أبكم فوليُّه يقوم مقامه في الإملاء لا يزيد على المدِين ولا ينقص من حق الدائن، وأشهدوا على الوثيقة شاهدين عدلين لضمان الحق، فإن لم يوجد إلا رجل فهذا الرجل يشهد وتشهد معه امرأتان من أهل الديانة والأمانة، وإنما جعل امرأتان مكان رجل لغلبة النسيان على النسوان، فإذا نسيت واحدة ذكرتها الأخرى؛ لأن مسائل المال يغلب على معرفتها الرجال، وإذا لزم الأمر واحتيج إلى شهود فحرام عليهم الامتناع عن أداء شهادتهم لئلا تذهب حقوق الناس، ولا يصيبكم ضجر ولا سأم من كتابة الدين قلّ أو كثر؛ لأن هذه الكتابة أعدل في الحكم، وتحفظ شهادة الشهود، وأبعد عن الشك في مقدار الدين والأجل، ولئلا يقع اختلاف وخصومة، لكن إذا كانت السلعة حاضرة والثمن نقدًا فليس عليكم إثم في عدم الكتابة، لزوال المقتضي من خوف ضياع المال، ووقوع الجحود من المدين، وأشهدوا على وثائق البيع وبخاصة إذا كان المال كثيرًا والسلعة غالية من عقار ودور وصفقة تجارية أو دخول شركات ومضاربات ونحوه، ولا يلحق صاحب الحق بمن كتب الوثيقة أو شهد عليها ضررًا كأن يكلفه التنقل معه بلا أجرة أو يدعوه في وقت شغله أو راحته فيشق عليه، فإن حصل منك ضرر لكاتب أو شهيد أو مطل بدين أو مخالفة لمقتضى العقد فهذا من العصيان ومخالفة الديان، وإذا راقبتم الله وأطعتموه واجتنبتم معاصيه فتح عليكم بالعلم النافع والفقه في الدين؛ فهو العالم بكل دقيق وجليل، المطلع على كل صغير وكبير، لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه شيء.

(٢٨٣) ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

وإذا سافرتم وتبايعتم ولم تجدوا كاتبًا فليأخذ صاحب الحق من المدين رهنًا ليحفظ به ماله يقوم مقام الوثيقة المكتوبة، فإن وثق صاحب الحق في ذمة المدين وأمانته فلا داعي للرهن، فعلى المدين تقوى الله في حفظ مال الدائن الذي ائتمنه على ماله فليردَّ الدَّين عند تمام الأجل، وإذا طلب منكم الأداء بالشهادة فأدوها كما هي بلا تحريف ولا تبديل ولا كتمان، ومن كتم الشهادة فهو فاجر القلب خاوي الضمير عديم التقوى، والله سوف يحاسب كلاً بما فعل؛ لأنه عالم بالضمائر، مطلع على السرائر، يعلم الأعمال والأقوال والأحوال.

(٢٨٤) ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

كل ما في الكون لله ملكًا وخلقًا وعبيدًا وهو الخالق الرازق الذي يدبرّ الأمر ويصرف الأحوال، وهو وحده القائم بشؤونهم - سبحانه - ومن أظهر سوءًا أو أسره فالله عالم به مطلع عليه؛ لأن الجهر والسر عنده واحد، فيحاسب كلاً بما كسب على قدر ذنبه، يحاسب بعلم ويقضي بعدل.

وله - سبحانه - المشيئة المطلقة، من شاء غفر له ذنبه وتجاوز عن جرمه، ومن شاء أخذه بإثمه وجازاه بعصيانه، لحكمة قضاها ومصلحة قدرها، فغفرانه فضل وعذابه عدل، نفذت قدرته وغلب أمره، ومضى قضاؤه، لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

(٢٨٥) ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

صدّق محمد وأصحابه وأتباعه بما في القرآن والسنة من وحدانية لله وألوهية له سبحانه، وصدًّقوا بالملائكة والكتب والرسل كافة كما جاء بها الوحي، ولم يصدقوا ببعض الرسل ويكذبوا ببعضهم كما فعل أهل الكتاب بل آمنوا بالجميع، واستجابوا قائلين: يا ربنا سمعنا قولك وأطعنا أمرك، فإذا حصل منا بعد الاجتهاد تقصير فنسألك مغفرة منك تمحو بها الذنب، وتعفو بها عن السيئة؛ لأنا عبيد خطّاؤون، فليس لنا رب سواك، ولا إله غيرك، وسوف تجمعنا ليوم لا ريب فيه، فلا مفرّ إلا إليك، ولا شكوى إلا إليك.

(٢٨٦) ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

فلما استجابوا وأنابوا بشّرهم بوضع الآصار والأغلال، فأخبرهم أنه لن يشق عليهم في الأوامر والنواهي بل على قدر جهدهم وطاقتهم رحمة منه بهم، وكل نفس تثاب على قدر صلاحها وتعاقب على قدر سوئها بلا زيادة ولا نقص، وسألوا ربهم قائلين: يا ربنا لا تحاسبنا على نسياننا وخطئنا فنحن بشر مقصرون، ولا تكلفنا ما يشق علينا فنعجز كما فعلت الأمم قبلنا الذين تحملوا الشرائع ثم تركوها، ونسألك أن لا تبتلينا بالمكاره والمصائب فوق قدرتنا فنجزع ولا نصبر، فنحن عبيد ضعفاء، ولا توجب علينا فرائض وحدودًا لا نستطيع القيام بها، وامحُ ذنوبنا وكفّر سيئاتنا. واستر عيوبنا وعد بفضلك علينا، وارحم ضعفنا بعدم مؤاخذتنا، فأنت ربنا ومتولي أمرنا ومدبر شؤوننا ومصرف أحوالنا، والمولى ينصر وليه وأنت مولانا القوي، ونحن عبيدك المساكين الضعفاء، فانصرنا على عدوك وعدونا الذين حاربوك وكذّبوا رسلك وردوا دينك من المشركين وأهل الكتاب المكذبين، فالنصر من عندك يا ربنا يُرتجى، ونحن جندك فلا يُهزم من كنت مولاه، ولا يغلب من أنت نصيره.

مدنية

ترتيبها
٣

سورة آل عمران

آياتها
٢٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

هذه الحروف: الله أعلم بمراده بها ولا شك أنها نزلت لمعانٍ عظيمة، ومقاصد كريمة.

(٢) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾

الله المستحق الألوهية الذي لا يجوز أن تصرف العبادة إلا له، فهو واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهو الحي الباقي الدائم بعد فناء خلقه حياةً كاملةً لا تشبه حياة المخلوق، وهو القائم على تصريف الخلق وتدبير الكون.

(٣) ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

نَزَّل عليك القرآن - يا محمد - بالحق القاطع والدليل الساطع والبراهين الباهرة، والحجج المتظاهرة، يصدّق ما سبق من كتب نزلت على الرسل قبلك، وهو سبحانه الذي أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى ليبيّن الحق لبني إسرائيل.

(٤) ﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

وأنزل - سبحانه - الكتب التي فيها فرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال، والذين يجحدون هذه الآيات البينات ويكفرون بربهم ويحاربون رسله جزاؤهم العذاب الشديد الدائم في نار جهنم؛ لأن الله يمحق من عاداه، ويكبت من عصاه؛ لعزته المتناهية ينتقم ممن خالف أمره فيوقع به أشد النكال وأفظع العقاب، لا يقدر على مثله منتقم.

(٥) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

والله - سبحانه - مطلع على المغيبات، عالم بالخفيات، مما يقع في الأرض قلَّ أو كثر في السر والعلن من تصرفات الناس وغيرهم، ومحيط علمه بما يقع في السماء من الملائكة وغيرهم؛ لأن الكل في ملكه وتحت سلطانه.

(٦) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ومن آثار علمه وحكمته وقدرته تركيب صوركم في أرحام أمهاتكم باختلاف اللون والجنس والشكل كما يريد سبحانه، فما دام أن هذا خلقه وتدبيره وقدرته فلا معبود بحق غيره ولا إله إلا هو، فهو العزيز الذي قهر سواه، لا يغالبه مغالب ولا يقهره محارب، حكيم يدبر بلطف ويقضي بحكمة.

(٧) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

وهو سبحانه وحده الذي أنزل عليك القرآن - يا محمد - وفيه آيات واضحات صريحات لا لبس فيها ولا غموض، ظاهرة للفهم، معلومة للقارئ، كالأحكام الشرعية والأخلاق والآداب، وهي أصل هذا القرآن وأكثره، وفي القرآن آيات

أخرى ليست واضحة بل تحتاج إلى تفسير وتأمل وتوقف أحيانًا كالحروف المقطعة في أول السور، فالذين في قلوبهم ريبة وهوى يبحثون في غير الواضح من القرآن ليتعلقوا بشبه، ويؤيدوا باطلهم؛ ليزرعوا الشك في القلوب، ويُحْدِثُوا الخلاف بين الناس، وليفسروه بما يوافق باطلهم، ويزعموا أنه يؤيد ما ذهبوا إليه، كالنصارى الذين استدلوا بقوله – تعالى – عن عيسى: ﴿وروح منه﴾ قالوا: خرج منه، فهو ابنه – تعالى الله عن ذلك – وتركوا المحكم الصريح في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وكذلك كل صاحب بدعة يأخذ من الدليل المحتمل ما يوافق هواه ويؤيِّد باطله، والذي يعلم معنى المتشابه حقيقة هو الله وحده؛ لأنه اختص بعلمه كعلم الروح وغيرها، وأهل العلم المتمكنون الغائصون في الحقائق يردون العلم إلى ربهم، ويعترفون بعجزهم أمام هذا المتشابه، ولكنهم يؤمنون به ويعلمون أن له معنى وحقيقة، ويرون أن الجميع من المحكم والمتشابه كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهم يعملون بالمحكم ويؤمنون بالمتشابه، والذي يقبل النصح وتنفع فيه الموعظة هو صاحب العقل الفطن والقلب السليم، فهو لفهم عقله يدرك، ولطهارة قلبه يؤمن، فينفعه المعنى ويدرك المقصود ويصل إلى الحق.

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

وعباد الله المؤمنون يسألون ربهم ويقولون: إلهنا وخالقنا ورازقنا لا تصرف قلوبنا عن الحق الذي أرسلت به رسولك بعد أن عَرَّفتنا به وأرشدتنا إليه، وذقنا حلاوته، وعرفنا صحته، وتفضل علينا بلزوم الحق والثبات على الصدق، فمن هديته وعن الباطل صرفته فقد رحمته؛ لأن فضلك لا يحد، وكرمك لا يعد، وعطاؤك لا يرد، تهب لمن لم يطلب ولمن طلب.

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

ويدعون فيقولون: إلهنا وخالقنا ورازقنا أنت سوف تجمع الخليقة ليوم العرض عليك، والقدوم إليك، وهذا اليوم حاصل لا محالة، وواقع لا شك فيه، فأنت لا تخلف ما وعدت وقد وعدت به، فوعدك آت ولقاؤك حاصل، وقولك نافذ.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾

المكذبون لرسل الله، المشركون بالله، المحاربون له لن تنفعهم هذه الأموال التي يجمعونها ولا هؤلاء الأبناء الذين يربونهم، فلن تمنعهم من عذاب الله، ولن تدفع عنهم غضب الله، وأولئك هم حطب جهنم؛ لفظاعة ما ارتكبوه وشناعة ما فعلوه، فيالسوء المنقلب، وفظاعة المصير.

(١١) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

مثل هؤلاء الذين كذبوك كمثل قوم فرعون ومن سبقهم من الأمم الكافرة، كلهم اجتمعوا على جحد ما أنزلناه ومحاربة من أرسلناه، مع أن آياتنا بينات، وحججنا واضحات، لكنهم كذبوا بالصدق، وردّوا الحق، فالله – جل في علاه – لما فعلوا ذلك أخذهم أخذ عزيز مقتدر فنكّل بهم، ونوّع أساليب تدميرهم وعذابهم من إغراق وريح وصاعقة وخسف ومسخ وغير ذلك من أشكال العقوبات وأصناف المثلات؛ لأن أخذه قوي وعذابه أليم.

(١٢) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

أخبر – يا محمد – كفار مكة بأنهم سوف يُهزمون في الدنيا ويعذبون في الآخرة؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا رسوله، فالخزي والعار عليهم في هذه الدار، والعذاب والنكال ينتظرهم في النار وبئس القرار، ففراشهم الجحيم، ولباسهم القطران والحميم.

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

أما أخذتم يا معشر الكافرين العبرة مما حصل في بدر، يوم اجتمع أهل الإيمان وعبدة الأوثان، فالمؤمنون ينصرون الرحمن، والمشركون يقاتلون مع الشيطان، والكفار يشاهدون المؤمنين بأبصارهم أكثر منهم مرتين، وليس في المنام ولا

في الأحلام، فالله وحده أعز عبده، ونصر جنده، وهزم المشركين وحده، فانتصر المؤمنون، وشفى الله غيظهم من عدوهم، ووقع القتل والأسر والهزيمة بأعداء الله من كفار قريش، وهذه المعركة فيها أبلغ العظات، وأعظم الحجج البينات على نصر الله أوليائه وإن قلّوا، وسحّق ومحّق أعدائه وإن كثروا، لكن لا يعتبر إلا مستنير القلب سليم الإدراك.

١٤ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾

جُمّلت الدنيا في عيون الخلق بلذّاتها وفتنها وشهواتها ابتلاءً وامتحانًا من الله للناس فأحبوها وعشقوها، كفتنة النساء، وهي أعظم فتنة؛ لكثرة الإغراء والإغواء، وحب البنين؛ لأنهم فلذات الأكباد وباقات الفرح والإسعاد، وخزائن المال المحفوظة المقفلة؛ لارتفاع أثمانها وغلاء قيمتها من ذهب وفضة ونحوها، وحبب إليهم الخيول المعلمة بأحسن الألوان وأبهج الأشكال، وهي الغالية الثمينة الفريدة، وكذلك أحبوا الإبل والبقر والغنم؛ لأن فيها المنظر البهي والمطعم الشهي والمركب الوطي، وأحبوا الحبوب والثمار والنبات والأشجار؛ لاختلاف طعومها وتعدد أذواقها وجمال منظرها وكثرة فوائدها، وهذه كلها متاع زائل وزينة ذاهبة؛ لأن الدنيا يفنى نعيمها ويسافر مقيمها، لا بقاء لها ولا قرار، ولا وفاء لها ولا حسن جوار وما هي إلا شَرَكُ الردى وقرارة الأكدار، أيام معدودة، وآجال محدودة، وأرزاق مقسومة، لكن النعيم المقيم والفوز العظيم عند الملك الكريم، في دار من دخلها أمن، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ولا عدم ولا سقم ولا هرم، فلا تتخدعوا بفتنة الدنيا عن ذاك المصير، ولا تغتروا بهذه الشهوات عن الفوز الكبير، فخاب - والله - من قدّم الفاني على الباقي، والخسيس الرخيص الذاهب على الثمين الغالي الدائم.

١٥ ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

قل لهم يا محمد: ألا أخبركم بأحسن وأجمل وأفضل من هذه الشهوات واللذائذ الزائلات، أفضل منها - والله - حدائق غناء، وبساتين فيحاء، وأنهار جارية، ونعيم مقيم، وحبور وسرور، وقصور ودور، ونساء طاهرات، من كل دنس ونجس، فيهن حسن وجمال، وعفاف وكمال، مع حلول الرضا والغفران عما مضى، في أمن وسلام، وحسن مقام كل هذا لمن اتقى مولاه، وخشي ربه، فهذا أحسن من دار الفناء ومنزل الشقاء، ودنيا الهم والنكد، والمصائب والكبد، ولكن لا يفوز بنعيم الجنة إلا من صدق مع ربه ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الله بصير بعباده يعلم ما يسرون وما يعلنون، فيجازي كلاً بما صنع، ويحاسب كلاً بما فعل.

١٦ ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

ومن صفات هؤلاء الفائزين أنهم يدعون ربهم فيقولون: يا ربنا آمنا بك وصدقنا بكتابك واتبعنا رسولك؛ فتجاوز عن زلاتنا، واعف عن خطيئاتنا، ونسألك النجاة من النار دار البوار ومقر الأشرار، فهم أقروا بما لله عليهم، ثم سألوه غفران الذنوب، ثم دعوه أن يصرف عنهم العذاب.

١٧ ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

وهم صابرون على الطاعة في الشدة والرخاء، صابرون على البأساء والضراء والبلاء ومجاهدة الأعداء، صادقون في النية والأقوال وسائر الأعمال والأحوال، مطيعون دائمون على امتثال الأمر واجتناب النهي، وهم يستغفرون الغفار من الأوزار في الأسحار وقت نوم الناس وراحتهم، وزمن صفاء النفس وإشراقها، وموعد تنزل الكريم المنان إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل.

(١٨) ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

شهد الله لنفسه أنه لا إله إلا هو، وأنه لا يستحق العبودية سواه، وأنه واحد أحد، وأقام على الشهادة الدليل من بديع الكائنات وسائر المخلوقات وعظيم الآيات، وشهدت الملائكة المقربون بالوحدانية للأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وشهد العلماء بهذه الشهادة العظيمة، وأقروا بها لفضل ما عندهم من العلم، ويكفيهم شرفًا وفخرًا اختصاصهم من دون الناس بهذه الشهادة، وهذا أعظم دليل على فضل العلم النافع. والله الواحد الأحد، وهو الذي يقيم العدل في الأنفس والآفاق، والآجال والأرزاق، فكل قضائه عدل، وكل حكمه فصل، وكل عطائه فضل، فلا معبود بحق سواه، ولا مستحق للألوهية غيره، لأنه الرب الخالق الرازق المالك. فقد عزّ عن أن يكون له ندٌّ، وجل أن يكون له ضدٌّ، حكيم فيما فعل؛ لأنه خلق بإتقان، وأوجد بإحسان، وأعطى بامتنان، فبعزته قهر ما سواه، وبحكمته أبدع ما نراه.

(١٩) ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

الدين الصحيح المقبول عند الله هو دين الإسلام، الذي أتى به رسول الهدى ﷺ، وكل دين غيره باطل مردود، ومن ابتغى سواه فلن يقبل الله سعيه، ولا يرضى عمله، وما اختلف اليهود والنصارى في رسالة محمد ﷺ إلا من بعد ما تحققوا من أنه هو المقصود؛ فجحدوا استكبارًا، وكذبوا عنادًا، وأعرضوا بغيًا وحسدًا، ومن يكذب بآيات الله ورسله فإن العذاب ينتظره؛ لأن الله لا يعجزه حساب الخليقة على كثرتهم، فإنه يحاسب الجموع الكثير في الوقت القصير، فحسابه للبرية كافة كحسابه لنفس واحدة.

(٢٠) ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

فإن جادلوك - يا محمد - بأهوائهم الباطلة، وأقوالهم المتهافتة، فأخبرهم أنك أخلصت دينك لله على بصيرة من الله، ترجو ثواب الله، فأنت وأتباعك على يقين من الحق الذي معكم وعلى صراط مستقيم، واسأل اليهود والنصارى والمشركين بعد هذا البيان وظهور الإيمان وسطوع البرهان، أما قبلتم الإسلام دينًا، وعلمتم أنه حق من عند الله؟ فإن اتبعوك وصدَّقوا بما جئت به فقد أصابوا وسدّدوا، فلهم الحظ الأعظم، والفوز الأكبر، وإن أبوا وكذبوا وعاندوا فقد بَلَّغَتَ رسالتك، وأدَّيتَ أمانتك، فلا تحزن لكفرهم، ولا تهتم لتكذيبهم، فمصيرهم إلى رب العباد الذي هو بالمرصاد لأهل الكفر والعناد، وهو عالم بعمل الجميع، مطلع على كل دقيق وجليل؛ ليوفي كلاً حسابه.

(٢١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

إن اليهود الذين كذبوا بما جاءت به رسلهم من الآيات، وقتلوا الأنبياء وأتباعهم من الدّاعين إلى الله، فهؤلاء لهم عذاب أليم في الجحيم، جزاء صنيعهم الشنيع وفعلهم الفظيع، وهي شاملة لكل من سخر من الشريعة أو صد عنها أو آذى حملتها باضطهاد أو حبس أو قتل.

(٢٢) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

هؤلاء الكفرة الفجرة أبطلوا ما عملوا من خير بما فعلوا من شر، فلا سعادة لهم في الدنيا ولا نجاة في الآخرة، بل حياتهم عار ودمار، وآخرتهم لعنة ونار، وليس لهم من ينصرهم فيدفع عنهم العذاب، ويمنعهم من العقاب؛ لأن الله غالب على أمره ولا راد لقضائه.

(٢٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

ألا تعجب من اليهود الذين تعلموا كثيرًا من التوراة وعرفوا ما فيها من أحكام، يُقال لهم: تعالوا عند المنازعة إلى التوراة لتأخذوا حكم الله منها، وبعد سماع الحكم تأبى طائفة منهم هذا الحكم الإلهي وتطلب غيره صدودًا وعصيانًا وتمردًا وطغيانًا.

(٢٤) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

وسبب إعراضهم عن شرع الله أنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه؛ والحبيب لا يعذب حبيبه، فلا يُعَذَّب إلا مدة يسيرة بمقدار ما عبدوا العجل وهذا الزعم منهم كذب ودجل، بل ليس له أصل، فكل من كفر بالله خلّده في نار جهنم كائنًا من كان، لكنهم يقولون: إن الله وعد يعقوب ألا يعذبَ أبناءه، وهذا كذب وافتراء، وزور وهراء.

(٢٥) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

فماذا يفعلون إذا أحضرناهم للحساب وأتينا بهم للعقاب؛ في يوم واقع لا محالة، لتحاسب كل نفس على ما قدمت من خير أو شر بلا ظلم ولا جور.

(٢٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

فيامن بيده الملك ومقاليد الأمور والمتصرف في الخلق والمدبر للكون وله من في السموات والأرض، أنت وحدك تعطي الملك من تريد من عبادك، وتخلع من تريد منهم من ملكه، وتمنح العزة من تريد، وتدخل الذلة على من تريد؛ لأنك وحدك القادر على النفع والضر، فلا يعجزك شيء ولا يتعاظمك أمر، ولا يستعصي عليك مطلب؛ لأن قدرتك نافذة، وحكمك ماض، وسلطانك قاهر، تقدست عن الأنداد، وتنزهت عن الأضداد.

(٢٧) ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

وأنت وحدك –يا حكيم– من يدخل الليل في النهار بعد انقضائه فيذهب ضياؤه، ويدخل النهار في الليل بعد انتهائه فتذهب ظلمته فتزيد من هذا في هذا بمشيئتك، يُغْشِي الليل النهار حثيثًا، فإذا الظلام يمضي رويدًا رويدًا حتى يطبق العالم بجلبابه، ويُغْشِي النهار الليل، فإذا النور يتضاءل شيئًا فشيئًا حتى يبهر العالم بنوره في نظام عجيب وحكمة باهرة، وقدرة نافذة، وتنبت الزرعة الخضراء من الحبة اليابسة، والنخلة الباسقة من النواة الجامدة، والبيضة الميتة من الدجاجة الحية، فأيٌّ قدرة أعظم، وأي صنيع أعجب وأي فعل أحكم من هذا !! تاهت الأفكار في عظمة العزيز الغفار، بل كل آية في الكون سطر في كتاب العظمة، وحرف في سفر الوجود شهدت بألوهية وربوبية الملك الحق المعبود، وهو – سبحانه – وحده يعطي من شاء من عباده ما شاء من عطائه هبةً منه بلا حد، وسخاء بلا عد، وكرمًا بلا رد.

(٢٨) ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

لا توالوا –أيها المؤمنون– الكافرين من دون الله وتتخذوهم أحبابًا وإخوانًا وأصحابًا وأعوانًا من دون المؤمنين، فإن فعلتم ذلك من الولاء لأعداء الله والتنكر لأولياء الله، فلستم عباد الله حقًا، ولا أولياءه صدقًا، ودعواكم الإيمان كذب ونسبتكم إليه زور.

لكن إذا تيقنتم من الضرر الداخل عليكم منهم فأظهروا لهم القول اللين والخطاب الجميل مع بقاء الولاء لله والمحبة في القلب، فهي مصانعة بالظاهر، ومجاملة باللسان فحسب، فمن تيقن من الكفار المكاره جاز له إظهار ما أحبوه.

وخَافُوا غضب الله، فإن الله قد أنذركم ذلك، ونهاكم عن كل ما يوجب عذابه وعقابه، وسوف تعودون إليه لا محالة ليوفي كلاً بصنيعه، من أحسن فله الإحسان، ومن أساء فله العذاب في النيران.

(٢٩) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

وأخبر أمتك من أسرّ في نيته شيئًا، أو أظهر من عمله شيئًا فالله مطلع على الجميع عالم بالكل، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية، فإذا كان هذا علمه بكم وقدرته عليكم فلماذا لا يوقر ويقدر، فهو أولى من عُظِّم، وأحق من أُتُّقي، وأولى من قُدِّس، فهو مع ملكه لما في السموات والأرض أحاط بما فيها علمًا، وأحصى ما بها من عدد، وتكفل بما فيها، فهو الذي خلق الزمان والمكان والإنسان، وهو على فعل ما شاء قادر لا يعجزه فعلٌ أن يفعله، ولا يغلبه مغالب أن يقهره، ولا يفوته مطلوب أن يدركه، جل عن الأشباه لا إله إلا الله.

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾

ويوم القيامة يوفى كل عامل بعمله فلأهل الخير ثواب وزلفى، ولأهل الشر عقاب ونار تلظى، فما فعلت وجدته أمامك، فالفعل الجميل ثوابه جزيل من رب جليل، والفعل القبيح جزاؤه الخسار والنار، حينها يتمنى من أساء أن بينه وبين عمله أرض وسماء، ويودّ لو أنه عنه بعيد، وأن بينه وبينه بِيْدًا دونها بِيْدُ، لكن هيهات، وقع -والله- في الضنك بلا شك، فليس له خلاص، وما من عمله مناص، والله إنما أخبركم بهذه الأخبار من باب الإعذار والإنذار؛ ليكف النفس عن الردى، ويلزم الصالح طريق الهدى، ومن رأفته بالعباد إنذاره لهم يوم المعاد؛ لأنه تلطف بخلقه وأخبرهم بما يسرهم، وأحسن في صرفه عنهم ما يضرهم، فمن رأفته الإمهال بلا استعجال، وقبول التوبة، وتقديم التحذير وإقامة الدليل لقطع الاحتجاج.

(٣١) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يا من ادعى حب الله عليه بالدليل وهو اتباع الرسول والاقتداء به، فمن اهتدى بمحمدﷺ فقد أحبه، ومن أحبه أحب الله، ومن أحب الله استوجب رضاه، فمجرد الدعوى بلا برهان ادعاء، وقول بلا عمل يصدقه افتراء، ومن تبع هذا النبي الأمي أحبه مولاه، واجتباه وسامحه عن خطاياه وتجاوز عن سيئاته؛ لأنه واسع المغفرة، يمحو كثير السيئات بقليل الطاعات، عظيم الرحمة فاقت رحمته بالعباد رحمة الأم بالأولاد، فالواجب على العبد أن يقابل هذه الأفضال بالامتثال، وهذا العطاء بالاهتداء والاقتداء، يهتدي بالكتاب المنزل، ويقتدي بالنبي المرسل.

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

قل - يا محمد - للناس إن كنتم تريدون السعادة والفلاح، والفوز والنجاح فأطيعوا الله ورسوله بامتثال ما في الكتاب والسنة والعمل بما فيهما من أوامر واجتناب نواهيهما، فإن كذبتم وأعرضتم فأنتم في عداد من كفر، والله يبغض الكفار ولا يحب الفجار؛ لأنهم أعداؤه وأعداء رسوله.

(٣٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

اختص الله بالنبوة واختار للرسالة آدم أبا البشر، ونوحًا أول الرسل، وإبراهيم أبا الأنبياء، وآل عمران بيت الطاعة والصلاح، فميزهم على كل الناس بالاصطفاء، وخصهم بالاجتباء، فقاموا بحقوق الولاية، وأدّوا شكر الهداية.

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وهم سلالة واحدة بعضهم من نسل بعض، يرث التالي الأول في الخير والصلاح، تشابهوا في الفضائل، وتجانسوا في المكارم، أسرة بِرٍّ، وأهل تقوى، والله أعلم بمن يصطفي؛ لأنه يسمع الأصوات والحركات، ويعلم الخفيات والنيات، فاختياره عن علم، واجتباؤه عن حكمة.

٣٥ ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

واذكر - يا محمد - للناس القصة العجيبة لما دعت امرأة عمران الولي الصدِّيق فقالت: إني نذرت أنَّ ما أحمل في بطني إذا ولدته يكون خالصًا لخدمة بيت المقدس، فأسألك أن تتقبل مني ما نذرت؛ ولأنك تعلم أني جعلته لوجهك لا رياء ولا سمعة، ويكفي علمك لأنك مطلع على الضمير، عالم بالسريرة، تسمع كل مسموع، وتعلم كل معلوم، من أخلص في قصده علمته، ومن أراد غيرك جازيته.

٣٦ ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

فلما ولدت ما في بطنها إذا بالمولود أنثى فكأنها تأسفت فاعتذرت، لأن من عادتهم أن الذكور للنذور، والبنات لخدمة البيوتات، والله عالم لا يُعلَّم أنها أنثى، فهو يعلم السر وأخفى، ثم قالت متحسرة: وليس الرجل كالمرأة في القوة والقدرة على العمل والتحمل؛ لأن الأنثى ضعيفة تصلح للأمومة، والرجل يصلح للكد والعمل.

ثم أخبرت أنها سمتها مريم أي الطائعة العابدة في لغتهم تيمنًا وتفاؤلاً، وأسألك يا رب أن تحفظها وذرِّيتها من نزغات الشيطان وفتنته، فإن من تعصمه في أمان، ومن تحفظه وُفق للبر والإيمان.

٣٧ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

فقبل الله هذا النذر وهي مريم من أمها قبولاً مباركًا، فحفظها وتولاها، وهداها وأكرم مثواها، وأصلح شأنها واجتباها، وجعل الوصي على تربيتها النبي الكريم زكريا، فتعاهد أمرها بما يصلحها، ورعاها أحسن الرعاية، وتولاها أجمل ولاية، فنشأت عابدة قانتة، لها معبد تعتكف فيه للذكر والعبادة، فكان الله يهيئ لها طعامًا يكفيها وقت حاجتها إلى الطعام، دون كسب ولا تعب منها؛ كرامةً من الله لها، فتعجب زكريا من وجود هذا الطعام وسألها من أين ومَنْ جاء به؟ فأجابت: هو رزق من عند الله الكريم المنّان، وهو - سبحانه - يعطي من يشاء بلا حدود؛ لأنه واسع الفضل عظيم الجود.

٣٨ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

فلما رأى زكريا هذه الكرامة وشاهد هذه العلامة، تضرع إلى ربه ومولاه وسأله ودعاه أن يهب له ولدًا صالحًا من زوجته العقيم على شيخوخة منه؛ لأنه لما أبصر ما أكرم الله به مريم من إحضار الطعام بلا كد ولا اجتهاد، طمع في الأولاد من غير السبب المعتاد؛ لأن الواحد الأحد لا مستحيل يمنع قدرته ولا صعب على إرادته.

٣٩ ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

فأجاب الله دعوته فنادته ملائكة الرحمن وهو في مسجده يصلي، فبشرته بمولود كريم، وصبيّ حليم، يصدق نبوة عيسى الذي خُلق من الله بكلمة كن من دون أب.

وهذا المولود المبارك سوف يسود الناس في زمانه بالعلم والحكمة والنبوة، وهو ورع تقي عفيف، يصون نفسه عن الشهوات، ولا يقرب النساء لتفرغه للعبادة، واشتغاله بالسيادة، وانهماكه في الخيرات، وفعل الصالحات، وهو نبي يوحى إليه، معصوم من الخطايا، عامل بمقتضى الحكمة.

٤٠ ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

يا رب كيف يولد لي مولود وقد كبرت سني ورقَّ عظمي ودهمتني الشيخوخة، وزوجتي أصابها العقم لا تنجب، فأخبره ربه أنه يفعل ما أراد، لا يستعصي عليه أمر، ولا يستحيل عليه شيء، ولا يعجزه فعل؛ لتمام القدرة ونفوذ الحكمة، يُخرِج الماء من الحجر.

(٤١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

قال زكريا: رب اجعل لي علامة أعرف بها أن زوجتي حملت بغلام، فأخبره ربّه أن علامة ذلك عجز زكريا عن الكلام ثلاثة أيام من غير خرس ولا مرض، لكن لا تستطيع التعبير عما في نفسك إلا بالإشارة، وهذا لا يمنعك من ذكر ربك؛ فاذكره أول اليوم بعد طلوع الشمس وآخره قبل الغروب؛ إظهارًا للشكر واعترافًا بالنعمة، واستمرارًا على العبودية.

(٤٢) ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

واذكر حين قالت الملائكة لمريم: لقد اصطفاك ربك ومولاك من بين النساء جميعهن، فحباك بالكرامة ولزوم الاستقامة، وطهرك من كل فعل دنس وعمل نجس، ونزهك عما رماك به اليهود من فرية عظيمة وكذبة وخيمة، فصان الله عرضك - جل في علاه - فكنت بحق أهلاً للاصطفاء ومحلاً للاجتباء.

(٤٣) ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

فداومي يا مريم على عبودية مولاك وعلى ذكره وشكره، فبالعبادة تُنال السيادة، وتطلب الزيادة، وتحصل السعادة، وحافظي على الصلاة مع المصلين، فهي قرة العين، وبهجة الروح، وعماد الدين، فبالعبادة تنالين أشرف المقامات، وأجزل الهبات، وأعظم الدرجات.

(٤٤) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

هذه الأخبار الغيبية -يا محمد- لولا أن الله قصها عليك ما كان لك بها علم؛ لأنه لا طريق للاطلاع عليها إلا بالوحي من الله، مثل قصة امرأة عمران وابنتها مريم الطاهرة المطهرة، وزكريا وابنه يحيى، فأنت - يا محمد - لم تحضر يوم استهموا أيهم يقوم بكفالة مريم، وحين اختلفوا في شأنها، وهذا دليل على أنك رسول من عند الله وعلى صدق نبوتك، فلولا الوحي من القهار ما علمت هذه الأخبار.

(٤٥) ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

واذكر إذ جاءت الملائكة تبشر مريم بولد يولد لها وهي بلا زوج؛ لتكون وابنها آية على قدرة اللطيف الخبير؛ لأن الأصل أن الولد من أب إلا آدم وعيسى، آدم من تراب وعيسى بكلمة «كن» من الله، فالله بشرك بعيسى وسماه ولقبه واختاره واجتباه ورفعه إليه وحماه، وجعله إمامًا في الدنيا ووجيهًا وشريفًا مكرمًا، وفي الآخرة مقربًا عند الله في مقعد صدقٍ، في مقام جليل وفي إكرام وتبجيل.

(٤٦) ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ومن المعجزات في خلق عيسى أنه يتكلم وهو طفل لم يمش، ولم يحْبُ ما زال في سرير الولادة مثل كلامه وهو في حال اكتماله، فليس كلامه كلام أطفال بل كلام رجال وهو من الصّالحين المحفوفين بالعناية، المحفوظين بالعصمة.

(٤٧) ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

فتعجبت مريم كيف يكون لها ولد ولا زوج لها ولم يقربها رجل، قال لها الملك: الله قدير على كل شيء لا يعجزه شيء، غلب أمره ونفذت مشيئته، وعمت قدرته، وإذا أراد - سبحانه - إيجاد شيء فإنما يقول له: "كن فيكون".

(٤٨) ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

والله يعلم عيسى الكتابة بلا معلم، ويمنحه العلم النافع والفقه في الدين، ويحسن علم التوراة كتاب موسى، وكتابه وهو الإنجيل، وفيه أن الكتابة باليد منقبة، والفقه في الدين شرف، واتباع الوحي فوز ونجاة.

(٤٩) ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ويكرم الله عيسى بالرسالة فيبعثه إلى بني إسرائيل، ويخبرهم أن معه دليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا على صحة نبوته وثبوت رسالته، منها أنه يشفي من وُلد أعمى فيرده بصيرًا بإذن الله، ويداوي الأبرص فيعود له جلد جميل بإذن الله، ويرد الروح على الميت فيعود حيًا بإذن الله، ويخبرهم بأمور الغيب كأنواع الطعام في بيت كل واحد منهم، وما خزّنه من مال وأخفاه من متاع وهو لم يشاهده، لكن أطلعه الله عليها، وهذه آيات عظيمة وحجج قاطعة على صدق رسالته، إن كانوا يريدون تصديقه واتباعه فقد ظهر الصبح لذي عينين، وقامت الآيات للسائلين.

(٥٠) ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

وأتيتكم بعد موسى مصدقًا لرسالته وجعل الله رسالتي رحمة بكم لما فيها من الرخصة والسماحة، فمن ذلك أنني أحل لكم بعض ما كان محرمًا عليكم في شريعة موسى، وعندي معجزة ظاهرة ودليل ثابت على صدقي فيما أدعو إليه، فخافوا الله واتبعوني، واخشوا الله وصدقوني، وفي هذا ركنا العبادة: الطاعة لله، واتباع رسله، أو قل: الإخلاص والمتابعة.

(٥١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

إن الذي يستحق الألوهية وله العبودية هو الله وحده الذي خلقني وخلقكم، فأنا لست إلهًا ولا ثالث ثلاثة ولا ابن الله، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإنما أنا عبد من عبيده، أكرمني بالرسالة، هذا هو الحق البين الواضح، والطريق القويم الموصل إلى النعيم المقيم، والفوز العظيم.

(٥٢) ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فلما شعر عيسى بتكذيب اليهود ومكرهم وإرادتهم قتله كما فعلوا بالأنبياء قبله قال للمؤمنين ممن صدقوه واتبعوه: من يحميني لأبلغ دين الله؟ ومن يدفع معي أعداء الله؟ فقال الخلّص وهم الصفوة من أتباعه: نحن ننصرك، وقد شهدنا بأن لا إله إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ونحن نستشهدك على صدقنا وانقيادنا لما جئت به من عند ربك.

(٥٣) ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

ثم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا قد صدّقنا بما أنزلت على عيسى من الإنجيل واتبعناه، فاكتبنا مع الصادقين يوم القيامة الذين يشهدون على غيرهم من الأمم، وفيه أن أعظم ما يتوسل، إلى الله به هو الإيمان به وبرسله، وأن الصدق في الدنيا نجاة في الآخرة.

(٥٤) ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

ودبروا لعيسى مكيدة، وحبكوا خُطَّة لقتله، فأحبط الله خطتهم، ورد كيدهم، بأن شبه لهم غير عيسى فحسبوه هو، وسلم عيسى ورفعه، وقتلوا الخائن المندس الشبيه لعيسى فلبّس الله عليهم أمورهم، وهتك أستارهم، وأذلهم لأنه أقوى منهم مكرًا، وأعز جانبًا، وأعظم قدرةً، فهو يكيد لأوليائه ويكيد ويمكر بأعدائه.

٥٥ ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

أخبر الله عيسى أنه سوف يميته مثل ما يميت عباده، ويرفعه إليه مكرمًا معززًا، ويحميه من كيد الفجار، ويُطَهِّرُه من رجس الأشرار الذين أرادوا قتله فخذلهم الله وأذلّهم، وأخبره الله بذلك ليطمئن إلى حسن التدبير وجميل المصير، ورفع عيسى كان بروحه وجسده، (فالنصارى) كاذبون في قولهم أن عيسى قُتل، فكيف يُؤلَّه ثم يُقْتل؟!! ولو كان إلهًا فهل الإله يقتل ويصلب! وقد كذب الله دعواهم، وصدق الله وكذبوا، وتعالى الله وخابوا.

وأخبر الله عيسى أنه سوف يرفع أتباعه ويعزهم وينصرهم إلى يوم القيامة وهم من صدّق برسالته، واتبعه قبل مبعث الرسول ﷺ، وكذلك من آمن بعيسى من أتباع محمد ﷺ دون اليهود الذين كذبوه، والنصارى الذين ألَّهوه، ومرجع من اختلف في عيسى إلى الله يوم القيامة؛ ليحق الحق ويبطل الباطل، ويثيب المؤمن الصادق، ويعذّب الكافر الكاذب؛ لأنه الحكم العدل، قوله فصل ليس بالهزل ورحمته فضل.

٥٦ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

فأما من كذبك وكفر بما أنزل عليك وزعم أنك إله وأنهم صلبوك، فلهم خزي في الدنيا من الذل والقتل والأسر والتشريد، ولهم في نار جهنم عذاب أليم، لا ينصره ناصر ولا يشفع له شافع، وهؤلاء هم أهل الصليب وأهل التثليث.

٥٧ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وأما من صدق بالرسالات وآمن بالله وعمل أعمال البر من صلاة وزكاة وغيرها فالله - تعالى - يحفظ لهم ثوابهم، ويتمم لهم أجرهم كاملاً غير منقوص؛ لأنه لا يحب من ظَلَمَ، فكيف يَظْلِم - سبحانه - وقد حرّم الظلم على نفسه، فلا يبخس محسنًا حسناته، ولا يزيد على مسيء سيئات لم يعملها.

٥٨ ﴿ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾

هذه الأخبار نقصُّها عليك - يا محمد -، وهي بالصدق أتت، وبالحق نزلت في هذا الكتاب المبارك الذي أوحيناه إليك، وفيه الشرف لك ولقومك، والحكمة المتناهية؛ لأن من أنزله عزيز كمل سؤدده وعظم ملكه، حكيم فصّله بعناية وأنزله للهداية.

٥٩ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

إن خلق عيسى كخلق آدم، فإن آدم خُلق بلا أب ولا أم، وهذا أتم في الإعجاز، وأكمل في القدرة، فخلق عيسى من باب أولى وفيه ضرب الأمثال، والإقناع بالتدرج، وإحالة المشكوك فيه إلى المعلوم، فآدم متفق عليه بين عقلاء البشرية أنه من تراب، صور بكلمة «كن» من الله، فلا يستغرب إذًا خلق عيسى.

٦٠ ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾

هذا فصل الخطاب في قضية عيسى، وهو الصدق البيّن والحق الواضح، فلا تَشُكّ مع من شك، بل اعتقد ما قلناه ولا تلتفت لغيره من الهراء، ولا تصدق سواه من الافتراء.

٦١ ﴿ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾

فمن خالفك وخاصمك بعد هذا الحق الذي أخبرناك به فباهلهم مباهلة، وَأمُرهم أن يجمعوا أحب الناس إليهم من الأبناء والنساء، ثم ادعوا جميعًا أن يلعن الله الكاذب في شأن عيسى، وقد دعا ﷺ نصارى نجران للمباهلة فامتنعوا فظهر الحق وبطلت دعواهم الكاذبة الآثمة، فكل كاذب له حظ من اللعنة قلّت أو كثرت.

٦٢ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

إنّ الذي أخبرناكم به في شأن عيسى ابن مريم هو الصحيح الثابت، والحق القاطع، فهو عبد نبي كريم على الله، أمه مريم وليس له أب، خُلق بكلمة: "كن" وليس كما قال: اليهود: إنه أتى من حرام عليهم لعنة الملك العلام، ولا ما قالت النصارى إنه ابن الله، عليهم غضب الله، بل الصحيح ما في القرآن لا ما قاله الفريقان، فليس هناك إلا إله واحد يستحق العبادة، وهو الله وحده لا عيسى ولا غيره وليس لله صاحبة ولا ولد، بل أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والله وحده صاحب العزة، فمن عزته أنه تفرد بالجلال وتوحد بالكمال فقهر ما سواه وأعز من والاه، وأذلّ من عاداه، وهو الحكيم وحده، فمن حكمته أنه أحسن لما أبدع، وبهر العقول بما صنع.

٦٣ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

فإن كذبوا هذا الحق الذي أُنْزِل عليك، والصدق الذي أُوْحِي إليك من إخلاص التوحيد لله، وعدم الإشراك به، فاعلم أنهم مفسدون؛ لأن من رفض الدليل ورد الحجة وكفر بالبينة فاسد القلب والتصور، والله عالم به سوف يجازيه بما فعل.

٦٤ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود والنصارى: هلموا نتفق على كلمة عادلة وقضية فاصلة تجمع بيننا وبينكم، وهي أن نوحِّد الله بالعبادة، ولا نشرك معه غيره، ولا يؤلّهَ مخلوق مخلوقًا مثله، ويصرف له شيئًا من العبادة، من الأوثان والشيطان والصلبان، ولا كفعل اليهود في عبادة عزير، والنصارى في عبادة عيسى، ولا في اتخاذ العلماء والعباد أربابًا يحللون ويحرمون من دون الله، فإن امتنعوا عن قبول هذه الدعوة وأبوا إلا الكفر والتكذيب، فقل اشهدوا أيها اليهود والنصارى أننا وحَّدنا الله ولم نشرك به شيئًا، وكفرنا بكل ما يعبد من دونه، وهذه حقيقة الإسلام الذي معناه الاستسلام والانقياد والخضوع لله رب العالمين.

٦٥ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى كيف تدّعون كذبًا وزورًا أن إبراهيم يهودي أو نصراني، والتاريخ يشهد أن إبراهيم قبل اليهودية والنصرانية بأعوام مديدة وقرون عديدة، فلا بالوحي أخذتم ولا بالتاريخ صدقتم، ولا بالعقل حكمتم، فالتوراة نزلت على موسى بعد إبراهيم، والإنجيل على عيسى بعد الخليل فلماذا هذا التحريف والتبديل؟!!

٦٦ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

أنتم أيها اليهود والنصارى خاصمتم في قضية واضحة لكم وهي قضية عيسى، فقد أدركتموه وعشتم معه، لكن إبراهيم خاصمتم في شأنه وهو قبلكم بقرون لا تعلمون أخباره، ثم تدعون أنه يهودي أو نصراني، فكيف يتكلم الإنسان فيما يجهل؟! وإلا فإبراهيم جاء بالحنيفية السمحة قبل مجيء موسى وعيسى؛ فلا شأن له باليهود والنصارى، فهم بعده بأزمان، لكن كيف تُقْنِع من أصيب بالخذلان، فالعلم لله وحده؛ لأنه المطلع على كل شيء، أما أنتم فجهلاء أغبياء.

٦٧ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

لم يكن إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا - لتقدمه عليهما - ولكن كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكُ من المشركين، كمن قال: عزير ابن الله والمسيح ابن الله.

٦٨ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن أحق الناس باتباع إبراهيم الخليل هو هذا النبي الكريم محمد ﷺ وليس اليهود ولا النصارى، وكذلك من اتبع إبراهيم على الحنيفية السمحة ملة التوحيد من سائر الأمم وأتباع محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فكل حنيف مسلم

موحد بريء من الشرك، فهو على دين إبراهيم الذي رضيه الله وأحبه وتولى من دان به، ومن تولاه الله أحسن رعايته وأيّده، وأصلح أموره وأسعده.

(٦٩) ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

تمنى فريق من اليهود والنصارى ردَّتكم عن الإسلام وإغواءكم عن طريق الهداية بإثارة الشبه ونشر الفتنة حسدًا لكم على الهداية وبغيًا منهم وإمعانًا في الغواية، ولكن لن يضروكم، فالله تولى أمركم، وسوف يرد كيدهم وضررهم على أنفسهم، فيضاعف لهم العذاب، ويعظم لهم العقاب، لكنهم لا يعلمون سوء ما يفعلون، فعل السفيه الغبي، ولا يدركون خطورة ما يصنعون، تصرف الأحمق الشقي.

(٧٠) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لماذا تكذِّبون محمدًا ﷺ وما أنزل الله عليه من قرآن، وأنتم تعلمون علم اليقين أن ما جاء به حق؛ لأنه مذكور في كتبكم، بُشِّرت به أنبياؤكم، ووجدتم علامات صدقه ظاهرة، وآيات نبوته باهرة، فأنتم ضللتم عن عمد، وكفرتم على قصد.

(٧١) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لم تخلطون الحق بالباطل تلبيسًا للناس ومخادعة، بتحريفكم كلام الله؟ ولماذا تجحدون الحق الثابت لديكم وهو صدق محمد ﷺ؟ فما ظهر من الحق لبستموه، وما سوى ذلك كتمتموه، فأنتم بين تدليس وتلبيس من إبليس، وأنتم متيقنون صدق الرسول محمد ﷺ وصحة ما جاء به.

(٧٢) ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقال بعض علماء اليهود لعامتهم: صدِّقوا بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ أول النهار، وارجعوا عن دينكم آخره؛ لأن الناس إذا رأوا ذلك دخلهم الشك في الإسلام فارتدوا عنه؛ لأنهم سوف يقولون: إن اليهود كشفوا خللاً ونقصًا في الإسلام فتركوه، فيتركون هم دين الإسلام، وهذا من مكر اليهود وخبثهم وإيغالهم في الشر والفجور.

(٧٣) ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وقالت اليهود بعضهم لبعض: لا تثقوا ولا تصدقوا إلا لمن كان يهوديًا؛ تعصبًا أعمى للباطل، أما غير اليهودي فلا يقبل قوله بل هو متهم عندهم، فأخبر – تعالى – أن الهدى ليس بهواهم ولا على ما أرادوا، بل هو في الدين الإسلامي الصحيح الذي بُعث به محمدٌ ﷺ، وخشي اليهود أن يكرم الله غيرهم بالرسالة، فرفضوا الاعتراف لغيرهم بالحق؛ حسدًا وبغيًا وخوفًا من أن يحتج عليهم المسلمون يوم القيامة إذا أقروا بنبوة محمد ﷺ ثم خالفوه فتآمروا ألا يصدقوا به أصلاً، ولا يجعلوا للمسلمين عليهم طريقًا من الإقرار بنبيِّهم، فأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يخبرهم أن النبوّة ليست ملكًا لهم وليست حكرًا عليهم، بل هي فضل بيد الله يعطيها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته؛ لأنه كثير التفضل كريم العطاء، جزيل الهبات، عليم بمن يستحق النبوة والولاية، مطلع على من هو أهل للفضل مستحق للكرامة.

(٧٤) ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

والله – تعالى – يجتبي للنبوة ويختار للرسالة من يصلح لها من عباده مثلما شاء سبحانه؛ لأن عطاءه عظيم لا تحده الأوهام، وفضله واسع لا يقدر قدره الأنام، فالنبوة فضل رباني لا لنسب ولا حسب ولا مال ولا جاه، لكنها العناية والرعاية لمن شاء الله له ذلك.

(٧٥) ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

في اليهود الأمين والخائن، فالأمين لو ائتمنته على مال كثير رده إليك؛ لما عنده من الضمير والأمانة والورع، وهذا من إنصاف القرآن ومن العدل في الحكم، ومن اليهود الخائن الذي لو ائتمنته على قليل من المال لما ردّه إليك، ولخانك إلا إذا كنت مراقبًا له لا تفارقه، حينها يَخْشاك، وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي لنا التعميم في الأحكام، بل يجب التفصيل حتى لا يُظلَم أمين ولا يُزكَّى خائن، والذي يحمل اليهود على خيانة المسلمين أنهم يعتقدون أنه يجوز لليهودي أن يخون غيره، وليس للأميين الذين هم العرب احترام عندهم، ولا لأموالهم قيمة، ولا لأنفسهم عصمة، فحملهم هذا الكذب على استباحة أموال الناس واستحلالها، فكذّب الله - سبحانه - وتعالى قولهم، وأخبر أنهم يعلمون أنهم كذبة، وأنهم مفترون فيما زعموا.

(٧٦) ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

وليس الأمر كما زعموا بأنه يُعفى عمن خان في أموال غيرهم، بل الصحيح أن من اتقى الله - سبحانه وتعالى - ووفّى بعهده وراقب مولاه ورد الأمانة إلى أهلها فهذا من التقوى، والله يحب المتقي وهو من يخاف ربه ويراقب مولاه ويخشى إلهه ويحفظ حدوده.

وفي هذه الآية تضمين للرد عليهم أنه ما أصابوا حينما سامحوا أنفسهم في أموال غيرهم، فأخبر الله أن الخائن محاسب معاقب، وأن الأمين مثاب مكرم.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إن هؤلاء اليهود وأمثالهم الذين باعوا دينهم بثمن بخس، وبقيمة رخيصة من حطام الدنيا وجاهها وعرضها الزائل، هؤلاء ليس لهم نصيب عند الله من المغفرة، ولا حظ من الرضوان، وجزاؤهم أن الله يعرض عنهم يوم القيامة غضبًا عليهم ومقتًا لهم وسخطًا عليهم، فلا يكلمهم - سبحانه وتعالى - ولا ينظر إليهم نظر رحمة ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يخلصهم من دنس معاصيهم، ولهم عند الله - سبحانه وتعالى - عذاب مؤلم لسوء صنيعهم وجرمهم، وعلى ما فعلوه من فساد في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال، فهم كذبة في الأقوال مكذبون للرسل، كافرون بالأنبياء، خونة في المال، ناقضون للعهود، فجزاؤهم عند الله ما يستحقونه يوم القيامة.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

من اليهود طائفة تحرف ألسنتها في قراءة التوراة لتغير مدلول كلام الله - عز وجل - عن مقاصده ومراميه؛ ليتوهم الناس أن هذا الكلام الملتوي المحرّف هو من كلام الله في التوراة، وهذا كذب منهم وبهتان على طريقتهم، فأتوا بخطأين عظيمين: خطأ التبديل والتغيير لكلام الله، وخطأ الكذب والافتراء على الله - عز وجل -، وهذا الكذب الذي افتروه والباطل الذي فعلوه هم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كذبوا على الله -عز وجل- فهم غيّروا صفات محمد - عليه الصلاة والسلام - وأنكروا سماته في التوراة، وتلاعبوا في الحدود، وقدموا وأخروا في كتاب الله المنزّل، فجزاؤهم غضب من الله - سبحانه وتعالى - وعذاب شديد ينتظرهم، وكل من فعل فعلهم من هذه الأمة من الذين شابهوهم من الفرق الضالة، من الفرق المغضوب عليهم الذين غيروا النص وبدّلوا وحرّفوا في معاني كلام الله، وكلام رسوله ﷺ.

٧٩ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ
بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

ليس لأحد من الناس بعد أن يشرفه الله - سبحانه وتعالى - بالحكمة والنبوة والعلم النافع أن يدعو الناس إلى عبادة شخصه والإشراك به من دون الله - عز وجل - هذا لا يكون أبدًا في الفطر السوية، ولا في العقول الصريحة، ولا النقول الصحيحة، هذا لا يمكن أن يكون، وهذا يدلك على افتراء النصارى على عيسى - عليه السلام - حينما زعموا أنه دعا الناس إلى عبادته، وأنه أمرهم أن يعبدوه من دون الله - عز وجل - إنما أرسله رسولاً وعبدًا له ليدل الناس عليه، ويأمرهم بعبادته وحده - سبحانه وتعالى - وهذا الذي حصل من عيسى فإنه أخلص العبودية لله، وأخلص في دعوة الناس إلى الله، إن هذا الرسول الذي يبعثه الله - سبحانه وتعالى - إنما يدعو الناس إلى طاعة الواحد وإلى تمام العبودية والألوهية لمن أرسله - سبحانه - ويأمر الناس أن يكونوا ربانيين يتعلمون الحكمة التي أنزلها الله على رسله، فيربون أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح، فمن تعلم العلم وعمل به وعلّمه الناس وصبر على ذلك فهو رباني يُدعى في الملأ الأعلى، وإنما نُسب إلى ربه تشريفًا؛ ولأن أصل العلم من عند رب العالمين، وهذا الأصل في كل مسلم وداعية فضلاً عن الأنبياء والرسل الذين هم أكمل الخلق، فإنهم يدعون الناس إلى أن يكونوا عبادًا حكماء علماء يعلمون الناس الكتاب والحكمة، شكر لله على ما علمهم ودرّسهم وفقههم في الدين.

٨٠ ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

لا يحق لنبي كائنًا من كان أن يدعو الناس إلى عبادة الملائكة من دون الله أو الأنبياء واتخاذهم أربابًا يَصرف لهم شيئًا من العبودية، وشيئًا من معالم الألوهية، كيف يفعل النبي هذا الفعل والله إنما أرسله لإصلاح الناس وردهم إلى ربهم وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان؟! أيمكن أن يأمر النبي الناس بالإشراك بالله بعد أن وحّدوه - سبحانه وتعالى - وألّهوه وأخلصوا له العبودية؟ هل يصح من رسول شرّفه الله - سبحانه وتعالى - برسالة التوحيد أن يغوي الناس وأن يضلهم وأن يصرفهم عن عبادة الله؟ وهذه هي دعوى النصارى - قاتلهم الله - فإنهم زعموا أن عيسى إنما دعاهم لعبادته وعبادة أمه، وهذه فرية عظيمة وكذبة وخيمة قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

٨١ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ
وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

واذكروا -أيها اليهود والنصارى- يوم أن أخذ الله ميثاق المرسلين وألزمهم بالعهد المؤكد من أجل ما وهبهم الله - سبحانه وتعالى- من الكتاب المنزل والحكمة المؤيدة من عنده، هذا العهد أنه إذا بعث رسولاً بعدهم من عنده - سبحانه - وهذا الرسول يصدق ما عندهم ليصدّقنّه هؤلاء الأنبياء ولينصرنّه، فالله - سبحانه وتعالى - ما بعث نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره بأخذ الميثاق على أمته فسألهم - سبحانه وتعالى - هل اعترفتم؟ هل آمنتم بهذا العهد؟ هل ذكرتم هذا الميثاق؟ هل قمتم بلوازم هذا اليمين؟ قالوا: اعترفنا، فلما اعترفوا أمر الله - سبحانه وتعالى - بعضهم أن يشهد على بعض، فإذا شهد بعضهم على بعض فالله - سبحانه وتعالى - معهم من الشاهدين على هذا الإقرار العظيم، وملخصه أن عليهم أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ﷺ الذي بُعِثَ مصدقًا لما قبله ﷺ.

٨٢ ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

فمن نكث هذا الميثاق ونقض هذا العهد منكم أيها اليهود والنصارى بعدما أقررتم على أنفسكم، وبعدما شهد بعضكم على بعض فمن أعرض من بعد ذلك فهذا خارج عن طاعة الله، كاذب خائن، وهذا الميثاق هو ميثاق مقدس عظيم،

وهو شرف لرسولنا الكريم ﷺ، وهو شهادة من الواحد الأحد برسالته قبل أن يبعثه احتفاءً بهذه النبوة، وتقديمًا لها وإشهارًا لمكانته - عليه الصلاة والسلام - عند جميع الأمم.

(٨٣) ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

أيبحث اليهود والنصارى عن دين آخر غير هذا الدين الحق دين الإسلام؟ أيريدون منهجًا غير منهج الله الذي رضيه لأنبيائه وعباده الصالحين؟ لماذا لا يتبعون منهج الله - سبحانه وتعالى - الذي رضيه؟ والله - سبحانه وتعالى - عظيم قد انقاد له وخشع كل مَنْ في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وأقبلوا إليه مسلِّمين مذعنين إما عن طاعة وحب، وإما عن قهر وإجبار، فالكل منقاد له - سبحانه وتعالى - وطائع وذليل، فما يحق لهؤلاء المنحرفين عن منهج الله إلا أن يدخلوا فيما دخل فيه الخلائق من الاستسلام للواحد الأحد، فمرجعهم إليه يوم العرض الأكبر، يجازيهم بأفعالهم ويحاسبهم بأقوالهم وأعمالهم، وهو مطلع على أحوالهم لا رب سواه ولا نعبد إلا إياه.

(٨٤) ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

قل - يا محمد - أنت والمؤمنون معك: صدّقنا بوحدانية الله، وآمنا بألوهية ربنا - سبحانه وتعالى - واعترفنا بربوبيته وأسمائه وصفاته، وآمنا بما أنزل الله على أنبيائه المرسلين المصطفين المذكورين في الآية، وصَدَّقْنا بما نَزَّل الله - عز وجل - من التوراة على موسى والإنجيل على عيسى؛ لأن موسى وعيسى أعظم أنبياء بني إسرائيل، وهما من أولي العزم، ونحن أيها المؤمنون نؤمن بجميع المرسلين، ولسنا كاليهود الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، ولا كالنصارى الذين آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد وموسى، ولكننا آمنا بالجميع، لا نفرق بين أحد منهم، فكلهم مرسلون صادقون أنبياء كرام، وإقرارنا هذا لله - سبحانه وتعالى - بالألوهية وبالعبودية وبالربوبية، هذا هو الدين الصحيح، وهو دين الإسلام الذي جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فنحن المسلمون حقًا، ونحن المصيبون صدقًا، وأما غيرنا فبدلوا وغيروا وحرّفوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ألّهوا بعض الأنبياء وقتلوا بعض الأنبياء، ونحن آمنا بالجميع، وصدقنا الجميع، والحمد لله رب العالمين.

(٨٥) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

من يُرِدْ دينًا غير هذا الدين الذي بُعث به محمد ﷺ وهو دين الإسلام فلن يقبل الله دينه ولا طاعته ولا عبادته بعد مبعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - نُسخت كل الأديان وبطلت بدينه وبرسالته، وهذه الآية ردٌّ على من افترى على الله، وكذب على دينه وادعى أن اليهود والنصارى إذا كانوا على ديانتهم ولم يعتنقوا الإسلام أنهم مصيبون؛ لأنهم تمسكوا بما عليه أنبياؤهم، وهذه كذبة عظيمة تردها الآية، ونشهد الله - عز وجل - على أن الله لا يقبل بعد مبعث الرسول ﷺ من العبد إلا دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية ولا غيرها من الأديان، فالإسلام دينه المرتضى، وصراطه السوي، وطريقته المثلى.

(٨٦) ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

كيف يكون على هدى ويكون مصيبًا من كذب خاتم النبيين محمدًا ﷺ بعد أن علم أن رسالته حق، وبعد أن شهد أن ما جاء به من عند الله حق، وبعدما وجد وصفه ﷺ موجودًا في التوراة والإنجيل، مثل هذا كيف يهتدي؟ كيف يُسَدَّدُ؟ إن الذي يفعل هذا الأمر بعد أن يستبين له الحق جدير بأن يضله الله - سبحانه وتعالى - ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلاً يوم القيامة؛ لأنه ظالم، حرف الأدلة، ورد الحجة، وتنكب المحجة، والله لا يهدي من هذا شأنه في الظلم

والطغيان والبغي، وهذا هو فعل اليهود والنصارى بعد مبعثه ﷺ، فقد تبين لهم الحق وظهرت لهم الأدلة، وبانت لهم البراهين ثم رفضوا ذلك كله.

٨٧ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾

هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعل وكذبوا محمدًا ﷺ بعد ما بان لهم الحق، فهؤلاء كفار أشرار جزاؤهم عند ربهم – سبحانه وتعالى – لعنة ماحقة ساحقة محرقة، يلعنهم الله بها فيطردهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والناس أجمعين، المهتدي والضال، الصالح والطالح؛ لأنهم كتموا شهادة عندهم من الله؛ ولأنهم نكثوا عهد الله؛ ولأنهم حاربوا رسول الله، وردوا الحجة البينة من الله.

٨٨ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾

فجزاء هؤلاء أن يبقوا معذبين أبد الآبدين في نار جهنم، ولا يُخَفَّفُ الله عذابهم ولا يرفع عقابهم، ولا يشفع فيهم شفيع، ولا يدافع عنهم مدافع، ولا ينصرهم ناصر؛ لأنهم جاهروا الله بالعداوة وكفروا عن قصد، وكذبوا عن عمد، ورفضوا الهداية التي بُعث بها نبي الله ﷺ.

٨٩ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

لكن من عاد إلى الله – سبحانه وتعالى – ورجع إلى الحق وآمن بمحمد – عليه الصلاة والسلام – وكفر بما يُعبد من دون الله – عز وجل – واهتدى بالنور الذي بُعث به ﷺ واتبع سنته واهتدى بهديه فهؤلاء يغفر الله ذنوبهم، ويستر عيوبهم، ويتجاوز عن أخطائهم، ويعفو عن سيئاتهم، فإنه – سبحانه وتعالى – كثير المغفرة، واسع الرحمة، لا يتعاظمه شيء، وهذا فتح باب التوبة لمن فعل الفعل الشنيع، والعمل الفظيع، فكيف بغيره ممن هو أقل منه من أهل الكبائر وأهل المعاصي، وهذا فيه رجاء كبير من رحمة أرحم الراحمين.

٩٠ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾

إن اليهود الذين كفروا بعيسى بعد أن آمنوا بموسى ثم ازدادوا طغيانًا وعتوًا فكفروا بمحمد – عليه الصلاة والسلام – هؤلاء زادوا شرًا إلى شر، وفجورًا إلى فجور، هؤلاء الخونة المعرضون الناكثون لعهد الله لا يقبل الله – سبحانه وتعالى – توبتهم؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند الموت ولا يغفر ذنوبهم، ولا يتجاوز عنهم؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، وصدوا عن سبيل الله – عز وجل – وأغرقوا في الكفر وأمعنوا في الضلال وأكثروا من الفساد.

٩١ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

الذين كفروا بالله وكذبوا رسله واستمروا على ذلك حتى ماتوا ولم يسلموا، هؤلاء لو أتوا يوم القيامة بما يعادل الأرض ذهبًا وجعلوه فديةً لهم من عذاب النار، لن يقبل الله – سبحانه وتعالى – منهم هذه الفدية، ولن يخرجهم من النار، بل لهم عذابٌ أليم موجع، خالدين مخلدين في النار، ليس لهم نصير يدفع عنهم العذاب، ولا ولي يجلب لهم الثواب، وإنما هم في أشد النكال، جزاء لما فعلوا واقترفوا.

٩٢ ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾

لن تصلوا إلى أفضل الأعمال وأعظم الأحوال حتى تتصدقوا من أفضل أموالكم وأحبها إلى نفوسكم وأغلاها وأنفسها وتؤثرون ما لله – عز وجل – على ما لأنفسكم، وتختارون في الصدقة ما تصطفون لأنفسكم، فتجعلونه لوجه الله، حينها تحظون بالأجر الجزيل، والثناء الجميل، والله – سبحانه وتعالى – يعلم النيات، ويطلع على الخفيات، فيعلم من تصدق لوجهه، ومن أنفق رياءً وسمعة، فلا يضيع عمل عامل.

(٩٣) ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

كل الأطعمة كانت حلالاً لليهود إلا لحوم الإبل وألبانها، فإنها كانت محرمة على يعقوب حرمها على نفسه، فحرمت عليهم تلك الأطعمة نكالاً من الله - سبحانه وتعالى - وعقوبةً لهم؛ لأنهم قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، ونقضوا العهد والميثاق، وحاربوا الله - سبحانه وتعالى - وأولياءه، فحرمهم - سبحانه وتعالى - من بعض الأطعمة، ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول لليهود: تعالوا بالتوراة فاقرؤوا عليّ ما ادعيتموه من كذب أن الله - سبحانه - حرم على إبراهيم لحوم الإبل وألبانها؛ لأنكم افتريتم عليه وكذبتم، فلما طالبهم أن يخرجوا من التوراة التحريم الذي زعموه انهزموا وانقلبوا صاغرين، ولم يستطع عالم منهم أن يخرج شيئًا من التوراة يؤيد ما ذهبوا إليه من الكذب، وفيه دليل على صدق النبيِّ ﷺ.

(٩٤) ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

فمن أتى بالكذب من بعد ظهور الدليل، وقيام الحجة، وصدق الرسول ﷺ؛ من بعد أن ظهر كذبه هو بما ادعاه أن التحريم كان على الرسل السابقين، وليس بسبب عصيان اليهود ولا بنقضهم الميثاق، فمن قال هذا القول فهو مفترٍ على الله - سبحانه وتعالى - كاذب في دعواه، ومن حرَّف الكلم وغير المعاني فإنه ظالم لا ينصف، ولا يلتفت إلى البينات، والظالم حظه العذاب، وجزاؤه النكال.

(٩٥) ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود والنصارى: صدق الله فيما قال وأنزل وكذبتم - أنتم أيها النصارى - في دعواكم أن إبراهيم كان نصرانيًا، وكذبتم أنتم أيها اليهود في دعواكم أن إبراهيم كان يهوديًا، فليس يهوديًا ولا نصرانيًا، ولم يكن مشركًا، بل كان حنيفًا مسلمًا موحدًا، وهذا هو الدين الذي رضيه - سبحانه وتعالى - والذي دعا إليه رسول الهدى محمد ﷺ.

(٩٦) ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

أول مسجد أقيم في الدنيا هو المسجد الحرام الذي بناه الخليل إبراهيم، وهذا المسجد مباركٌ، فهو كثير الخير، واسع الرزق؛ لما يُجبى إليه من الثمرات، ولما يُقام فيه من التجارة والخير العظيم، وفيه أيضًا فوزٌ في الآخرة لما يحصل فيه من عبادة من صلاة واعتكاف، وحج وعمرة، وذكر لله - عز وجل -، وفيه خير الدنيا وخير الآخرة وفي الصحيح أن «المسجد الحرام وضع قبل بيت المقدس بأربعين سنة».

(٩٧) ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

في هذا المسجد العظيم علامات واضحات على فضله وشرفه وقدسيته؛ كالكعبة المشرفة، والحجر الأسود، والصفا والمروة، وزمزم وحجر إسماعيل ونحو ذلك من تلك المعالم العظيمة الجليلة، والله - سبحانه - أوجب على الناس من استطاع منهم أن يحج هذا البيت العتيق وهذا من أركان دينه القويم، ومن ترك الحج وهو قادر على الحج فإن الله - سبحانه وتعالى - غنيٌ عن عبادته، وليس - سبحانه وتعالى - محتاجًا إلى من أعرض من خلقه وأدبر من عباده، وغلّظ - سبحانه وتعالى - الكفر هنا إما أن ترك الحج مع الاستطاعة يؤدي إلى الكفر، أو أن من جحد هذا الركن كفر، وهذا البيت نوه الله بشرفه بأول مساجد الدنيا وبالآيات البينات والعلامات الظاهرات، وبأن جعله -سبحانه وتعالى - أمانًا لمن دخله.

٩٨ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود وللنصارى: لماذا تكذبون بالقرآن وتكفرون برسالتي وقد قامت الدلائل البينة والحجج القاطعة على صدقي فيما أتيت به، والله - سبحانه وتعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، ومن تكذيبكم، فهو - سبحانه وتعالى - شاهد على ما أرسلني به وشاهد على ما فعلتم وعلى ما كذبتم، وسوف يجازيكم بسوء صنيعكم وفظاعة جرمكم إذا عدتم إليه يوم القيامة.

٩٩ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لماذا تصرفون الناس عن الهداية إلى الإسلام؟ ولماذا تشككون في دين الله - سبحانه وتعالى - الذي بعث به محمداً ﷺ؟ ولماذا تورثون الناس الشبهة وتلقون الكلام المحتمل وتريدون من الناس الانحراف بعد أن دعاهم الله - سبحانه وتعالى - إلى إجابة رسوله ﷺ وأنتم تعلمون حق العلم أن محمداً ﷺ صادق، وأن دينه حق، وأنه رسول من عند الله، والله - سبحانه وتعالى - لن يترك هذا لكم ولن ينساه، فسوف يجازيكم بهذا الصنيع؛ لأنكم جمعتم بين الضلال في أنفسكم وإضلال العالم.

١٠٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾

يا من آمن واتبع محمداً واهتدى بهداه، إنكم إن أطعتم طائفة من اليهود والنصارى صرفوكم عن دينكم بشبههم وبإغوائهم، فتقعون في الكفر بعد أن منَّ الله عليكم بالإسلام وأنتم لا تشعرون، إذًا فلا تُصغُوا إليهم ولا تسمعوا لكلامهم ولا تقبلوا شبههم، فإنهم أعداء لكم يريدون أن تتحولوا عن دينكم الذي أكرمكم الله به بغيًا وحسداً من عند أنفسهم.

١٠١ ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

فكيف تَرْتَدُّون - أيها المؤمنون - عن الإسلام والقرآن يُتلى عليكم بآياته البينات، وبمعجزاته الظاهرات، وفيكم رسول الهدى محمد ﷺ وقد ظهر صدقه، وبانت صحة دعواه، وبانت صحة رسالته، فاعتصموا بالله - سبحانه وتعالى - فإنه من يلتجئ إلى ربه ويفوض الأمر إليه، ويثق به، كفاه عما سواه، وهداه صراطًا سويًا وطريقًا قويمًا لا عوج فيه، وأسعده في الدنيا والآخرة. وفي الآية دليل على أن العبد لا يأمن الفتنة مهما بلغ في التقوى، وأن عليه أن يتزود من الطاعات وأن يكثر من العبادات، وأن يلتجئ بالدعاء في وقت الفتن والمحن، وفيها أنَ من جعل الله له ملاذًا عند الشبهات حفظه منها.

١٠٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون، يا من صدق بالله واتبع رسوله الكريم، عليكم بتقوى الله - عز وجل - بفعل المأمور واجتناب المحظور، وعبادته حق العبادة بأن تطيعوه فلا تعصوه، وتذكروه فلا تنسوه، وتشكروه فلا تكفروه، واحذروا أن تموتوا على غير الإسلام، فإن الإسلام هو الدين الذي رضيه - سبحانه وتعالى - لعباده، ومن اتقى الله - سبحانه وتعالى - وأصلح نيته وأخلص عمله، ثبته الله سبحانه وتعالى، فأماته مسلمًا، وهي الأمنية الغالية، والمطلب العظيم الذي يسعى إليه أولياء الله وعباده الصادقون.

١٠٣ ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا
وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

واستمسكوا بالإسلام والقرآن وباتباع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولا تختلفوا كما اختلف الذين من قبلكم من اليهود والنصارى، وتذكروا نعمة الله عليكم لما أخرجكم من الكفر إلى الإيمان، ومن الظلمات إلى النور، وهداكم صراطًا سويًا، وجمع قلوبكم على الخير، وألف بين أرواحكم بعدما كنتم متباغضين متناحرين، يقتل بعضكم بعضًا،

ويحارب بعضكم بعضًا، فأصبحتم كالأسرة الواحدة، بل أكثر في الأخوَّة من الإخوة في النسب، فصرتم يدًا على من سواكم، وصار أدناكم يسعى بذمة أعلاكم، وصار أكرمكم عند الله أتقاكم، وكنتم قبل ذلك على طرف خطر وهاوية من الفتن والبغي، ومن الضلال والغي، فأخرجكم – سبحانه وتعالى – من تلك الجاهلية وأعد لكم دينًا قويمًا وهداكم صراطًا مستقيمًا، ووفقكم إلى اتباع محمد ﷺ فأنتم كمثل من كان واقفًا على رأس حفرة عظيمة تشتعل نارًا يكاد يسقط فيها فهذا مثل من كان كافرًا ثم أنقذه الله – سبحانه وتعالى – وبهذه الأمثلة ونحوها من الحجج يبين الله لكم – سبحانه وتعالى – الأدلة والبراهين، ويورد عليكم من الآيات ما فيه هدايتكم، وفيه دليل على أن الاطلاع على نصوص الكتاب والسنة يزيد في الإيمان، ويعظم الهداية واليقين عند العبد.

١٠٤ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وعليكم أن تُخصِّصوا طائفة منكم من أهل العلم والفضل والإحسان للدعوة إلى الله – سبحانه وتعالى – وتعليم الناس ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم، فيأمروا الناس بكل معروف نصَّ عليه الشرع، وتعارف عليه العقلاء من الفضائل والآداب والأخلاق والسلوك، وينهوا عن كل منكر حرَّمه الله – سبحانه وتعالى – ورسوله، وما استقبحه أهل الفطرة والفضلاء، ومن يقمْ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محتسبًا، ويكون حسن الطريقة في الدعوة إلى الله – سبحانه وتعالى – لينًا رفيقًا، ينلْ أعظم المطالب، ويفزْ بأحسن المراتب، فجزاؤه النجاة في الآخرة، والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى.

١٠٥ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

احذروا – أيها المؤمنون – أن تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في أقوالهم واختلفوا في قلوبهم من بعد ما جاءتهم الرسل، ونزلت عليهم الكتب فضلُّوا على بصيرة، وغووا عن عمد، فجزاء أولئك عذاب عظيم عند الله – سبحانه وتعالى – من الخلود في النار، وغضب الجبار.

١٠٦ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وتذكروا – أيها المؤمنون – يوم يُبيِّضُ الله وجوه من آمن به، وصدَّق رسله، فتظهر عليها البهجة والسرور والفرح، ويسوِّد الله – سبحانه وتعالى – وجوه من كفر به، وكذب رسله، فيظهر عليها الأسف والكآبة والندامة، والخزي والعار، ويُوبخ الكفار في تلك الدار، فيقال لهم ما لكم كفرتم بعد الآيات البينات؟ وما لكم ارتددتم بعد ظهور الحجج الواضحات؟ الآن تذوقون العذاب الأليم، والعقاب الشديد؛ جزاءً على فعلكم الآثم، وعلى جرائمكم الكبيرة؛ لأنكم عصيتم الله – سبحانه وتعالى – بعد أن ظهر لكم البيان، وسطع لكم البرهان، فذوقوا الخزي والهوان، والنكال والخسران.

١٠٧ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وأما من ظفر بالسعادة من أهل العبادة فهؤلاء لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وهم في رحمة الله ورحمة الله دائمة لا تنقطع؛ لأنها صفة من صفاته، فهم في الجنة مكرمون، في حبور وسرور ونور، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، ولا يدركهم الهرم ولا العدم ولا السقم؛ جزاءً لعملهم البار في طاعة العزيز الغفار.

١٠٨ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾

هذا الكتاب المنزَّل عليك – يا محمد – نزل بالحق، وأتى بالصدق؛ ليهدي به الله من يشاء من عباده، فيبين لهم الحق ليتبعوه، والباطل ليجتنبوه، والله – سبحانه وتعالى – أقام الحجة وأوضح المحجة، وبين وأعذر إلى الناس لئلا يَغوي غاو بلا برهان، ولئلا يَضلَّ ضالٌّ بلا دليل، فالله أرسل الرسول وأنزل الكتاب؛ لبيان الدليل للناس؛ لأنه – سبحانه وتعالى – لا يريد أن يظلم أحدًا من الناس، والظلم أن يعذب أحدًا بلا ذنب، والله منزَّه عن ذلك، وليس هو سبحانه بظلَّام للعبيد.

(١٠٩) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

كل ما في الكون من خلق بما فيها الملائكة والإنس والجن وما يدب على ظهر الأرض، ملك لله الواحد الأحد، لا ينازعه في ملكه أحد، يتصرف في خلقه كيف يشاء، لا خالق ولا رازق ولا إله ولا معبود بحق إلا هو، ومن عدله – سبحانه وتعالى – أنه بيّن الشريعة، ووضَّح الطريق، وإليه – سبحانه – تعود الأمور، وينتهي الناس إليه، ومصير الخلائق عنده – جل في علاه – فيقيم يوم الدين فيثيب المحسنين ويعاقب الظالمين.

(١١٠) ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

أنتم – أيتها الأمة المحمدية – أفضل الأمم عند الله – سبحانه وتعالى – فلا توجد أمة تفضلكم؛ لأنكم تأمرون بكل خير وتنهون عن كل منكر بعدما آمنتم بالله وصدقتم رسوله، فأنتم أمة الشهادة على الناس، وأمة إقامة الحجة على العالم، وأمة الدعوة إلى الله – سبحانه وتعالى – وأما أهل الكتاب فلو أنهم صدَّقوا بمحمد – عليه الصلاة والسلام – لأسعدهم الله في الدنيا والآخرة، ولأنجاهم من غضبه، ومن أليم عقابه، ولكن لم يصدق منهم إلا القليل؛ كعبد الله بن سلام، والنجاشي، وأما الكثير فقد استحبوا العمى على الهدى، وخرجوا عن طاعة الله، وحاربوا أولياءه، وتمردوا على شرعه.

(١١١) ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

لا يستطيع أعداؤكم من اليهود وغيرهم إدخال الضرر على المؤمنين؛ لأن الله يحميهم ويتولاهم، إلا أذى يسيرًا يكفِّر الله به من سيئاتهم، كأذى الكلام والتهديد والوعيد والسب والشتم ونحو ذلك، ولكن لو حصلت المقاتلة والمنازلة في الميدان، فإن الله ينصر أولياءه من أهل الإيمان، ويجعل العاقبة لهم، وأما الكفار فيلقي الرعب في قلوبهم، وينزل الهزيمة بهم، ثم يفرون من ساحة القتال، ومن أرض الجهاد، فليس لهم عند الله نصر ولا عزة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة.

(١١٢) ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

هؤلاء اليهود ضرب الله – عز وجل – عليهم الذل والهوان والحقارة والخسة، فأينما وجُدوا فهم مغلوبون مهزومون مهما انتصروا في بعض الجولات على المؤمنين، ولا يمكن أن يُعصَموا من هذا الذل والهزيمة إلا بعهد يعقدونه بينهم وبين الناس، فيبقون آمنين ما استمر هذا العهد، وهؤلاء اليهود قد رجعوا بغضب شديد من الله – سبحانه وتعالى – ولعنة وخزي بسبب ما فعلوه من نقض الميثاق، وقتل الأنبياء وتكذيب الرسل والعصيان والتحريف في الكتاب والتبديل في النصوص، والله – سبحانه وتعالى – أصابهم بالفقر النفسي والإحباط وخسة الهمم وسخف العزائم، فلا تلقى اليهودي إلا ذليلاً في داخله، يعبد المال ويكدس القناطير المقنطرة ويريد الحياة الدنيا؛ لأنهم كانوا يكذبون بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله – سبحانه وتعالى – بغير حق، وأكثروا من العصيان، فهم عصوا الله – سبحانه وتعالى – في ترك الأوامر واعتدوا بترك النواهي، وتولوا الشيطان وحاربوا الرحمن.

(١١٣) ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا على طريقة واحدة وعلى مستوىً واحد، فمنهم المؤمن الذي آمن بمحمد ﷺ بعدما بُعث واستقام على أمر الله، وتلا كتابه – سبحانه وتعالى – بالليل قائمًا، وأكثر من عبادة ربه واتقى مولاه.

(١١٤) ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وهؤلاء يؤمنون بالله - سبحانه - وتعالى إيمانًا صادقًا، فيوحدونه بالعبودية، ويفردونه بالألوهية، ويؤمنون باليوم الآخر وما جاء فيه، ويصدقون أنه الحق من عند الله - عز وجل - ويأمرون بكل خير وهدى ورشد، وينهون عن كل شر وردىً وغي، فهم صالحون في أنفسهم، مصلحون لغيرهم، وهم يتسابقون إلى فعل الصالحات، ونوافل العبادات، والأفعال الجميلة والأخلاق النبيلة من كلمة طيبة، وتواضع وجود، ونصر للمظلوم، وإعطاء للفقير، ورحمةٍ لليتيم، وبر للوالدين، وصلة للرحم ونحوها، فهؤلاء حقيقةً هم الفائزون برضوان الله، الناجون من غضب الله، المحظوظون بجوار الله الذين صلحت أحوالهم عند الله.

(١١٥) ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾

وليطمئن هؤلاء البررة الأخيار بأن ما فعلوه من صلاح وما قدموه من بر، لن يضيع عند الله - سبحانه وتعالى - بل هو محسوب ومدخر لهم، يثابون عليه أعظم الثواب، ويُجازون عليه أحسن الجزاء، والله - سبحانه وتعالى - عالم بمن اتقى وأراده بالعمل وصدق في نيته واجتنب الرياء والسمعة، فمدار الأعمال على تقواه تعالى، بحيث تفعل الطاعة على تقوى منه، وتترك المعصية على تقوى منه.

(١١٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

كل كافر لن ينفعه ما جمع من مال، ولا ما ربّى من أبناء، فمهما افتخر بأنه أكثر الناس أموالاً وأولادًا، وأن هذا يَصْرف عنه العذاب، وينالـه الثواب، فإن هذا من الخطأ العظيم، بل لا ينفع الإنسان إلا إيمانه وعمله الصالح، وهؤلاء الذين ادعوا هذه الدعوى هم من أهل الكتاب والمشركين، فكذَّبهم - سبحانه وتعالى - وأخبر أن هذه الأمور لا تنفعهم شيئًا عند الله، فلا ينالون بها فوزًا ولا ينجون بها من خزي؛ لأنهم خالدون مخلدون في النار لما اقترفوه من غضب الجبار.

(١١٧) ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

مثل ما أعطوا من الأموال وما صرفوه في سبيل الظهور والشهرة، وحب التصدر عند الناس؛ كمثل قوم زرعوا زرعًا وأجهدوا أنفسهم في استصلاحه، فلما نما الزرع وأقبل الثمر، أرسل الله عليه ريحًا عاصفةً قويةً فيها برد مُهْلِك فأحرقت هذه الزروع وأبادت هذه الثمار، فهؤلاء جمعوا أعمالاً كثيرة، وأنفقوا أموالاً وفيرة، ولكن أرادوا غير الله، وأشركوا مع الله - سبحانه وتعالى - غيره، فمحق الله أعمالهم، وأبطل سعيهم، وما ظلمهم الله ولكن هم استوجبوا هذا الجزاء بكفرهم بربهم وشركهم بمولاهم وإرادة غيره بالعمل ومحاربة أوليائه، فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

(١١٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

أيها المؤمنون لا تقرِّبوا المنافقين منكم، وتجعلوا لهم من المكانة والموالاة والمودة والقرب مثل اتخاذ الثوب قربًا والتصاقًا، فهؤلاء المنافقون لا يقصرون في الإفساد والإيذاء، والسعي بالفتنة وتفريق الصف، بل هم مجتهدون في الفساد والإفساد، وهم يتمنون ما يشق عليكم، ويودون هزيمتكم وإيذاءكم، وقد حصلت منهم أفعالٌ قبيحة بدت في كلماتهم من التشفي والاستهزاء والهمز واللمز والسخرية، فكيف تثقون بهم بعدما ظهرت لكم هذه العلامات، وقامت

لكم هذه الدلائل من فلتات ألسنتهم، فكيف بما في صدورهم من الحقد عليكم والحسد لكم، والبغضاء لدينكم، ونية الشر لجماعتكم، ونحن بيّنا لكم هذه الأشياء لتجتنبوها وتكونوا على حذر من مكر هؤلاء المنافقين، فهم أخطر من الكفار الظاهرين، وإذا كانت لكم عقول تفكر، وأفئدة تَتَبَصَّر، فاحذروا هذا الداء الدوي من موالاة المنافق، والرضا به والركون إليه والثقة به واتخاذهم في المناصب وفي الاستشارات، وإظهار الحب لهم والثقة بهم، وهذا أمر محرم عليكم؛ لأنهم أعداء الله ولا يجوز موالاة أعدائه.

(١١٩) ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ما لكم أيها المؤمنون تخطئون في محبة هؤلاء وهم أعداء الله وهم لا يحبونكم ويكفرون بشرع الله، آمنتم أنتم برسولهم وبكتابهم وهم كفروا برسولكم وبكتابكم، إذا حضروا عندكم أظهروا لكم الإيمان والتصديق لكم والمتابعة، وإذا انفرد بعضهم ببعض أظهروا الغضب الشديد، والمكر الأكيد، والحقد عليكم وعلى دينكم، وتمنوا زوال النعمة التي نزلت عليكم، وخططوا لأذاكم، والله – سبحانه وتعالى – يعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما تخفي ضمائرهم وما تستتر عليه سرائرهم، وسوف يجازيهم بصنيعهم، وهذا فيه أن على المؤمن أن لا يوالي الكافر مهما أظهر له من المودة إلا ولاءً ظاهرا، فلا يتخذه خليلاً ولا صفيًا، ولا يثق بمودته ولا بصداقته، ولا يوالي إلا أولياء الله – سبحانه وتعالى – الذين صدقوا برسوله واتبعوا كتابه.

(١٢٠) ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٞ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾

وهؤلاء الأعداء إذا نزل بكم خير من نصر وعزة وتوفيق ورخاء وغيث وخصب ورزق واسع وصحة في الأجسام، ساءهم ذلك وأقلقهم وغاظهم؛ لأنهم أعداء حسدة، وإذا حلّت بكم نكبة أو وقعت بكم ملمّة أو أصابكم مرض أو فقر أو هزيمة فرحوا بذلك وسرّهم ما ساءكم، وأفرحهم ما أزعجكم، وأنتم إذا صبرتم على عداوتهم وكففتم عن صداقتهم فلن يضركم كيدهم ولا يصل إليكم من مكرهم شيء، فالله مبطل كيدهم محبط عملهم متبّر سعيهم، وهو – سبحانه وتعالى – غالب من غالبه، وهو عالم – سبحانه وتعالى – بكل ما أسروا وكل ما أخفوا من المكايد، وكل ما دبروا من المؤامرات، وسوف يكشف أسرارهم ويهتك أستارهم.

(١٢١) ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

واذكر – يا محمد – تلك الغزوة العظيمة غزوة أحد يوم خرجت من منزلك تصفُّ المؤمنين للقتال في سبيل الله، وتنزلهم في مواقف القتال وتُهيئهم لمبارزة الكفار، والله سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون، لا تخفى عليه خافية، يعرف الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، والمخلص من المنافق.

(١٢٢) ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

واذكروا حين كادت بنو سلمة وبنو حارثة – وهما بطنان من الأنصار – أن ينخذلا مع عبد الله بن أبّي بن سلول، ويتركا القتال مع الرسول – عليه الصلاة والسلام – ولكن الله – سبحانه وتعالى – تولى أمرهم، وجمع شملهم وعصمهم وثبت أقدامهم، وردهم إلى الخير، وعلى الله – سبحانه وتعالى – فَلْيَعْتَمِدْ في الشدائد من أراد النصر، وبالله فليثقْ من أراد الخير، فإنه – سبحانه وتعالى – نعم المولى ونعم النصير والمعين والظهير – جل في علاه – والذي حصل لبني سلمة وبني حارثة حديث نفس وخطرات من الشيطان بالانهزام والفَرار من أرض المعركة، ولكن الله أيدهم بكلمة ثابتة فثبتوا.

١٢٣ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - غزوة بدر وكيف نصركم الله - سبحانه وتعالى - في تلك الغزوة وأنتم في قلة من العدد، وفي فَقْرٍ من ذات اليد، وفي ضَعْف من الحال، وكان الكفار قرابة الألف وأنتم ثلاث مئة وخمسة عشر مقاتلاً، فأنزل الله الملائكة معكم وأيدكم بنصره، وأنزل عليكم السكينة، وثبت أقدامكم ونصركم على أعدائكم وجعل الفوز والفلاح معكم، فاتقوا الله - سبحانه وتعالى - باتباع رسوله والاهتداء بكتابه واجتماع الشمل على طاعته، لعلكم بتقواكم تؤدون شكر نعمته عليكم بالنصر والتأييد.

١٢٤ ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾

واذكروا إذ يقول الرسول ﷺ لأصحابه في بدر: أما يكفيكم أن يؤيدكم الله - سبحانه وتعالى - بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلهم من السماء ينصرونكم ويعينونكم على أعدائه، وهذا مدد عظيم من الملك الكريم.

١٢٥ ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

نعم، هذا العدد - وهو ثلاثة آلاف من الملائكة - يكفيكم إذا اتقيتم الله - سبحانه وتعالى - وثبتم في القتال وصبرتم على مشقة الجهاد، فإذا جاءكم أعداؤكم في هذه الساعة وقد ظهر منكم الصبر والثبات، فإن الله - سبحانه وتعالى - سوف يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة؛ معلَّمين على صنوف القتال، مدربين على مبارزة الرجال، لهم علامات يُعرفون بها، ولهم شارات يتميزون بها ومن شكر الله زاده الله.

١٢٦ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

وما جعل الله - سبحانه وتعالى - إنزال الملائكة من السماء عليكم إلا بشارةً لكم بالنصر والعز، وتثبيتًا لكم على الإيمان، وإعانة لكم على أعدائه، ولتثقوا في موعود الله - جل في علاه - وليس النصر موقوفًا عليكم ولا على الملائكة، فإن الناصر هو الله وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه عزيز حكيم، عزَّ فقهر، من عزته أنه قهر غيره، ومن حكمته أنه أحسن فيما قضى وقدّر، فالعزة والقوة والهيبة والسلطان والحكمة سداد الأمر وحسن الاختيار وجميل التدبير.

١٢٧ ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾

ليُهلِكَ من الذين كفروا طائفة، أو يأسر منهم جماعة، أو يزلزل عَمُودًا من أعمدة الكفر، وهذا الذي تحقق، فقد أهلك الله - عز وجل - من كفار قريش في بدر بعضهم، وأسر المسلمون جماعة منهم، وأما الباقون فعادوا بالخيبة والفشل، فأصابهم الخزي والعار والوهن في الدنيا وفي الآخرة، والعذاب الشديد، وصارت العزة والنصر والدولة والتمكين لمحمد ﷺ وأصحابه، وهذا من لطف الله بالمؤمنين وحسن تدبيره وبالغ حكمته.

١٢٨ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

ولما شُجَّ وجهه ﷺ وكُسرت رباعيته قام يدعو على كفار قريش، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية، والمعنى ليس لك - يا محمد - من أمر هؤلاء وما يحل بهم شيء، فالأمر كله لله - عز وجل - فلا تستطيع هدايتهم ولا تعذيبهم ولا الانتصار عليهم، ولا تستطيع إقناعهم بدينك، وإنما مردهم إلى الله - عز وجل - إن شاء وفّقهم للإيمان، وإن شاء أبقاهم على عبادة الأوثان، والمرد إليه - سبحانه وتعالى - يعذب من يشاء ويتوب على من شاء، وله - سبحانه وتعالى - الحكمة المطلقة، فإن تاب عليهم بإسلامهم فضل منه، وإن عذبهم بكفرهم فإنهم يستأهلون ذلك ويستحقونه، والله ليس بظلام للعبيد.

١٢٩ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

كل ما في السموات وما في الأرض هو لله ملكًا وخلقًا وعبيدًا فهو - سبحانه وتعالى - يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء، لا معقب لأمره ولا راد لقضائه، وهو - سبحانه وتعالى - له الحكمة المطلقة والقدرة النافذة، يغفر لمن يشاء ويرحمه، ويعذب من يشاء ويعاقبه، والله - سبحانه وتعالى - غفور واسع الغفران لمن أقبل إليه وأناب، رحيم يتجاوز عن كبائر الذنوب لمن عاد إليه وتاب.

١٣٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون يا من صدقتم بكتاب الله واتبعتم رسول الله احذروا أكل الربا، فإنه من أعظم المحرمات، ومن أكبر المعاصي والمخالفات، فلا تتساهلوا به حتى يصل بكم الحال إلى أن تأكلوا المال الكثير متساهلين به وتظنوا أنه قليل؛ لأن الطمع والجشع يتدرج بآكل الربا إلى أن يستولي على أموال الناس، وعلى مقدراتهم وهو لا يشعر، وإنما أتى بهذه الآية؛ لأنه لا يصلح جهاد ولا طاعة إلا بأكل الحلال، وآكل الربا لا تُقبل له دعوة، وترد عليه مسألته كما في الحديث: «فأنَّى يستجاب له»، ثم قال لهم: وعليكم بتقوى الله - عز وجل - بفعل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، مثل: الربا ونحوه، فإن في ذلك الفلاح والصلاح والنجاح والفوز الأكبر، والنعيم الأعظم؛ ففي طاعة الله - عز وجل - سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. [*وهذه الآية كانت قبل تحريم الربا في البقرة*].

١٣١ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

واحذروا - أيها المؤمنون - الأعمال التي توصلكم إلى عذاب النار، مثل: أكل الربا الذي لا يأكله إلا كل فاجر كفّار، ومثل: التهاون بأموال الناس فإن النار هيأها الله - عز وجل - لمن كفر به وصدّ عن سبيله، وقد تُوْصِل الذنوب الكبيرة إذا توالت بالعبد إلى الكفر، وقد يُعَذَّب صاحب الكبائر بالنار التي أعدها الله للكافرين ولا يخلد في النار؟.

١٣٢ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

أطيعوا الله ورسوله فيما أُمِرتم به وما نهيتم عنه لتتوصلوا إلى رحمة الله ومرضاته، وبالسعادة من غشيته رحمة الله، وبالفوزه وفلاحه.

١٣٣ ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

بادروا - أيها المؤمنون - وعجلوا - أيها المتقون - إلى ما يوجب لكم مغفرة ربكم، وما تستحقون به دخول جنة مولاكم جنة عرضها عرض السموات والأرض، والفوز برضوانه ونيل النعيم الذي أعدّه لأوليائه، وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات، فإن من عمل صالحًا وأكل حلالاً وقال خيرًا، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وسابق في الخيرات استحق أن يتجاوز الله - عز وجل - عن سيئاته، وأن يعظم حسناته، ويرفع درجاته في جناته.

١٣٤ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

من صفات هؤلاء الأولياء أنهم يتصدقون في حال الرخاء والشدة والعسر واليسر، والفقر والغنى، فهم لحبهم لما يرضي ربهم عنهم لا يمنعهم الفقر ولا العسر ولا الشدة عن الإنفاق وبذل المال، ولا يحملهم الكبر والطمع والجشع في حال اليسر والرخاء والغنى على إمساك المال، وإنما يغلبون أنفسهم وينفقون في سبيل الله، ومن صفاتهم أنهم يغلبون أنفسهم بالحلم وقت الغضب والغيظ، فلا ينفذون مرادات نفوسهم من التشفي والانتقام، بل ينتصرون عليها ويملكون زمامها، ومن صفاتهم أنهم يسامحون من ظلمهم ويعفون عمن أساء إليهم، ويتجاوزون عنه، فهم يقدمون

العفو طمعًا في عفو الرحمن، ويتركون معاقبة الناس؛ خوفًا من عقاب الديان، وهذا من الإحسان، والله يحب المحسن، وهو الذي يفعل الجميل ويزيد، وهو الذي يتجاوز عمن أساء إليه بل يحسن إلى من أخطأ معه، بل يزيد في إحسانه من إكرام الناس وإيصال النفع إليهم وفي الأثر: «إن الله أمرني أن أصل من قطعني وأن أعطي من حرمني وأن أعفو عمن ظلمني».

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ومن صفات هؤلاء المتقين أنهم إذا ارتكبوا كبيرةً أو اقترفوا جريرة وظلموا أنفسهم باعتدائهم على غيرهم عادوا إلى ربهم - سبحانه - فذكروا عقابه وما أعدّ لمن عصاه فاستغفروا الله من الخطيئة، وسألوه المغفرة، وندموا على ما فعلوا، وتأسفوا عما اقترفوا، وعلموا أنه لا يغفر الذنب ولا يتجاوز عن الخطأ ولا يعفو عن السيئة إلا الله الواحد الأحد، ولم يداوموا على هذه المعاصي، ويلجُّوا في الخطأ، ويستمروا على الذنب، وينهمكوا في الإجرام، بل أصبح عندهم من القلق والاضطراب والأسف والندم على ما فعلوا ما يوجب معرفتهم بقبح الذنب، ويعلمهم أنه يجب عليهم التوبة، ويعلمهم أن الله يغفر الذنوب جميعًا، فيحملهم ذلك على التوبة والاستغفار والمبادرة إلى طلب العفو من العزيز الغفار.

(١٣٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾

أولئك الأخيار المتقون ثوابهم عند ربهم أن يغفر خطيئاتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ويقبل توبتهم، وزيادةً على ذلك يثيبهم بالخلود في جنات النعيم، والفوز العظيم والنعيم المقيم، وهذه الجنات التي أعدها الله لهم هي بساتين غناء، وحدائق فيحاء، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن جمالها أن الأنهار تجري من تحتها، وفيها من الثمار والأشجار والطعوم والألوان ما الله به عليم، ونِعْمَ والله هذه الجنة ثوابًا لمن عمل، وأجرًا لمن سعى، وجائزةً لمن أحسن.

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

قد سبق قبلكم - أيها الكفار - حوادث وعقوبات ووقائع أنزلها - عز وجل - فيمن كفر به، ومن كذب برسله فسيروا في الأرض وانظروا إلى آثار منازلهم، وإلى بقايا بيوتهم وقراهم كيف عصف بهم الدمار، وأحل بهم الخزي والعار، لعلكم تتعظون بما ترون، وتعتبرون بما تشاهدون، فإن في مناظر بقاياهم عبرة لمن اعتبر، وفي النظر إلى آثارهم عظة لمن اتعظ وادّكر.

(١٣٨) ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

هذا الذي وقع في الأمم السابقة، وحل بهم من العقوبات بيان للمؤمنين المستفيدين من هذه العظات، وفيه هدىً لمن اتقى، يدلُّه على الصواب، ويجنبه الخطأ، ويجعله على الدوام منتبهًا لنفسه ومصيره، وفيه - أيضًا - موعظة وزجر لمن له ضمير حيٌّ، وقلب حي، ولمن له عقل واعٍ، فالسعيد من وُعظ بغيره، ومصائب قوم عند قوم فوائد.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

أيها المؤمنون، لا يصبكم الخور والضعف في نفوسكم، والوهن في هممكم ولا تحزنوا على ما أصابكم في سبيل الله من أذى وتشريد وقتل أو هزيمة فالعاقبة لكم، وأنتم الأعلون المنتصرون الفائزون، فالله مولاكم والقرآن كتابكم، ومحمد رسولكم، والجنة مثواكم، وأهل الكفر لا مولى لهم، والغَيُّ منهجهم، والضلال طريقهم، والنار منقلبهم، فأنتم

- أيها المؤمنون - سعداء في هذه الدنيا؛ لأنكم تحملون الهداية في قلوبكم، والشهادة لقتلاكم، والثواب الجزيل لموتاكم، لا تساوي بينكم وبين الكفار، فأنتم أبرار، أرْضيتم الواحد القهار، وهم أشرار فجار، لهم سوء الدار، وعذاب العزيز الجبار.

(١٤٠) ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أيها المؤمنون، إن كان أصابكم أذىً في سبيل الله، أو قتل أو جراح، فقد أصاب الكفار مثلما أصابكم، وهذه سنة الله - عز وجل - فالأيام دول، مرة نصر، ومرة هزيمة، ومرة سرور، ومرة حزن، فالله - عز وجل - يقلب الأيام والليالي بين الأمم، فيومًا تجد الأمة ظافرة قاهرة منتصرة، ويومًا تراها مغلوبةً مهزومة ذليلة، ولكن لله - سبحانه وتعالى - في ذلك حِكَم، فمنها أن الله - سبحانه وتعالى - يمتحن القلوب بهذه المصائب والأزمات والحروب؛ ليتميز المؤمن من الكافر، والصادق من الكاذب، ومنها أن الله - سبحانه وتعالى - يكرم الشهداء من الأمة المحمدية فيتخذهم أولياء له في جنات النعيم، ومنها أن يظهر عمله - سبحانه وتعالى - في من نصره ومن كفر به ومن صدقه ومن كذبه، وإلا فالله - سبحانه وتعالى - عالم بالأشياء قبل حدوثها، ولكن يظهر علمه فيمن يقع عليه القضاء والقدر من العباد، فمن انحرف عن نصرة الله - عز وجل -، وكذب برسله فهو ظالم، والله لا يحب الظالم؛ لأن الله حرم الظلم على نفسه، وحرمه على غيره، وذم الظالمين وتوعدهم بالجزاء الأليم.

(١٤١) ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

والله - سبحانه وتعالى - يريد من هذه الأزمات والكرب أن يطهر المؤمنين من الذنوب، وأن يصفيهم من العيوب، وأن ينقيهم من الخطايا بالشدة التي تحصل لهم من هموم وغموم، وأحزان وقتل وأسرٍ وحبس وتشريد وأذىً، ويريد - سبحانه وتعالى - أن يسحق أعداءه الفجار، ويمحق الكفار، فيقتلهم بأيدي أوليائه، وينكل بهم بأنصاره وحزبه، حتى يستقر الحق على أساس متين، ويبقى مهاب الجانب قوي الركن، ويظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

(١٤٢) ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

ثم أنكر الله - سبحانه وتعالى - على من ظن أنه سوف يدخل الجنة بلا جهاد ولا جلاد، ولا تضحية ولا ابتلاء ولا شدة، فأخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه لابد من التمحيص وظهور علمه - سبحانه وتعالى - فيمن صدق في المجاهدة في سبيله، ومن أنفق ماله وقدم نفسه وسخا بروحه؛ لرفعة كلمة ربه ومولاه، ويظهر علمه - سبحانه وتعالى - وإلا فإنه عالم بكل شيء قبل أن تقع الحوادث، وبعد وقوعها يظهر علمه فيمن صبر واحتسب، وقام بنصرة الحق أشرف قيام، وصمد في وجه الباطل أجلَّ صمود، فهؤلاء يستحقون الجنة برحمة الله، ويستأهلون الفوز بفضله، جزاء بما كانوا يعملون.

(١٤٣) ﴿ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾

ولقد كنتم قبل المعركة تريدون مواجهة الكفار لتنالوا الشهادة في سبيل الله من قبل أن تجدوا حرَّ الموت وشدته، فالآن قد شاهدتموه بأم أعينكم، ورأيتم القتل في إخوانكم وأشرفتم على الهلاك، فكيف تمنونه من قبل ثم كرهتموه لمَّا حصل، وشقَّ عليكم لمَّا نزل؟!.

١٤٤ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

ليس محمد ﷺ إلا رسول مثل المرسلين قبله، ليس بإله يُعبد ولا برب يوحَّد، يموت كما يموت الناس، أفترونه لو مات أو استشهد رجعتم عن الإسلام، وكفرتم بالله الملك العلام؟، إنه من يرتد منكم عن دينه فإنه لا يضر إلا نفسه؛ لأن مصيره العذاب، وأليم العقاب، والله لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، ولكن من أطاع ربه واتبع رسوله وجاهد في سبيل الله شكر الله له سعيه؛ لأنه يثيب من شكره، ويذكر من ذكره، ويعاقب من كفر به.

١٤٥ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

لا يحصل لنفس أن تموت قبل أجلها أو تتأخر، فالأجل مسمى والعمر محدود، والزمن معدود، والذي يطلب بجهاده الشهرة والثناء والغنيمة فإنه سوف يجدها، ولكن ليس له في الآخرة حظ من الثواب ولا نصيب من الأجر، ومن يطلب بجهاده وجه الله وإعلاء كلمة الله فأجره موفور، وسعيه مشكور، وذنبه مغفور مع نعيم في الجنة وقرة عين في الخلد، والله لا يخيب سعي من أحسن، ولا عمل من استقام.

١٤٦ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وكم من نبي جاهد معه عدد كثير من أتباعه، وعلماء ربانيون من أنصاره، فما أصابهم خور ولا ضعف ولا فشل، وما أصابتهم ذلة ولا خضوع للكفار، بل صمدوا وثبتوا وضحوا حتى انتصروا، والله يحب من صبر ويثيب من شكر؛ والصابر مرحوم، والجازع محروم.

١٤٧ ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

كانوا إذا حضروا المعركة في سبيل الله سألوا الله أن يغفر ذنوبهم وما اقترفوه من خطايا وسيئات، وسألوه تثبيت الأقدام، والنصر على الكفار الطغام عبدة الأصنام. وفيه فضل الدعاء وقت القتال، وأن الذنوب سبب الفشل، وأنه ينبغي التوبة والاستغفار لمن أراد الانتصار على الكفار.

١٤٨ ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

فأكرمهم الله بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة، فعزٌّ عاجل وفوز آجل، والله يحب من أحسن العمل، حيث جمع بين الإخلاص لربه والاتباع لرسله، فأدى الطاعة على أكمل وجه، واجتنب المعصية خوفًا من ربه.

١٤٩ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾

إنكم – أيها المؤمنون – لو اتبعتم هؤلاء الكفار لضللتم؛ لأنهم يزيّنون لكم الباطل ويصدونكم عن الحق فهم لا يريدون خيرًا، وإذا أطعتموهم في غيهم رجعتم وقد خسرتم الدنيا والآخرة، فلا عز ولا نصر لكم في دنياكم ولا فوز ولا ثواب في أخراكم.

١٥٠ ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾

ليس الكفار هم أولياؤكم بل وليكم الله وحده – سبحانه وتعالى – وهو الذي يؤيدكم وينصركم ويثبت أقدامكم، فأطيعوه واتبعوا رسوله وآمنوا بوعده ووعيده.

١٥١ ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

سننـزل في قلوب الكفـار الخوف والقلق والاضـطراب؛ لأنهم أشـركوا بربهم بلا دليل ولا برهان، ولم يأمـرهم ربهم – سبحانه وتعالى – بما فعلوه، بل خالفوا أمره وفعلوا معاصيه وكفروا بكتابه، وكذبوا رسله، فلهم في الدنيا الخزي والعار، ولهم في الآخرة عذاب السعير ولبئس المصير.

١٥٢ ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

والله – سبحانه وتعالى – أنجز لكم ما وعد من النصر على الكفار، فصارت لكم الغلبة عليهم وكنتم تحصدونهم بالسيوف وتقتلونهم قتلاً، ولكنه لما أصاب بعضكم الوهن وحب الدنيا في أُحُد من إرادة الغنيمة، وقع الخلل والخور والجبن في الجيش، فوقعت الهـزيمة من بعد ما كاد النصر يحل، ومن بعد مـا كانت الغلبة لكم عليهم، فأراد – سبحانه وتعالى – أن يمتحن إيمانكم، وأن يمحص قلوبكم، وأن تكون لكم هذه عبرة ودرسًا، فصرفكم عن الكفار، ثم عاد سبحانه وتعالى عليكم بالعفو، فغفر لمن فرَّ منكم أو انهزم، والله فضله واسع، وأحق العباد بفضله هم عباده المؤمنون، فهو قريب منهم يغفر زَلَلهم، ويسدد خَلَلهم، ويعافي عِلَلهم.

١٥٣ ﴿ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

وتذكروا – أيها المؤمنـون – إذ تفـرون يوم أحـد صـاعدين في الجبل منهزمين تاركين رسول الله ﷺ خلفكم من شدة الخوف والهلع، والرسـول – عليه الصـلاة والسـلام – يناديكم أن اثبتوا، إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، فجازاكم الله – سبحانه وتعالى – بفعلكم هذا غمًا وجدتموه في صدوركم بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم لأمره، ومن أجل ألا تأسفوا على ما فاتكم من الغنيمة، ولما أصابكم من الهزيمة، فالغم يكفِّر السيئات، والحزن يمحو الخطيئات، والله – سبحانه وتعالى – مطلع على أعمالكم، سامع لأصواتكم عالم بأحوالكم، يعلم الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

١٥٤ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ثم أرسل الله – سبحانه وتعالى – بعد هذا الغم الشديد سكينة وطمأنينة أنزلها على قلوبكم بعد الفَرَق والقلق، فكان الواحد من المسلمين ينعس والسيف يسقط من يده، وأما المنافقون فقد طاشت عقولهم، ودهشت أذهانهم، وفارق النوم عيونهم لجزعهم وهلعهم وعدم سكينتهم، والمنافقون يقولون لم نُستَشر في مثل هذا الأمر من مقاتلة الكفار، ولو كان لنا رأي وقُبِل كلامنا ما كنا في هذا الموقف الضنك، ولا في هذا الخوف الشديد؛ ليشكِّكوا في أمر الرسول – عليـه الصـلاة والسـلام – وفي دين الله – عـز وجل –، وهم مع ذلك يبطنون في أنفسـهم الكفـر والنفـاق والكره لله ولرسوله وللمؤمنين، ويظهرون المسايرة والمجاملة في الظاهر، فردَّ الله – سبحانه وتعالى – عليهم بأنهم لو كانوا في

بيوتهم لأخرج الله – سبحانه وتعالى – من حلّت منيته وانتهى عمره ونفذ القضاء فيه فقُتل في أي مكان قدّره – سبحانه وتعالى – فلا بيته يمنعه، ولا حصنه يحميه، وبمثل هذه الوقائع والحوادث يختبر الله سبحانه وتعالى إيمان المؤمن ونفاق المنافق، فينقي قلوب المؤمنين، ويطهرها من الأمراض، ومن الشكوك والريب، ويفضح الله – سبحانه وتعالى – المنافقين، ويظهر ما في قلوبهم من الكره للإسلام والبغض لأوليائه؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم ما في السرائر ويطلع على ما في الضمائر لا تخفى عليه خافية، ولا يستتر عليه سر.

(١٥٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

إنّ الذين فرّوا منكم – أيها المؤمنون – يوم أحد إنّما استدرجهم الشيطان، وألقى في قلوبهم الرعب بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، لكن الله لما علم بإيمانهم تجاوز عنهم وغفر ذنبهم وسامح خطأهم؛ لأنه غفور واسع المغفرة لمن استغفره، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهلهم حتى يتوبوا وهذا جزاء المؤمنين عند خطئهم، وأما المنافق فإنه يؤاخذ بالكبيرة والصغيرة لسوء معتقده.

(١٥٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

أيها المؤمنون، احذروا أن تشابهوا من كفر من أهل النفاق والريب والذين يقولون لأصحابهم إذا خرجوا للتجارة أو سافروا للجهاد لو كانوا في بيوتهم معنا ما أدركهم الموت، وما قُتلوا؛ ليكون هذا الأمر غمًّا في قلوبهم وحسرةً في نفوسهم؛ لأنه غير صحيح، فالله قدّر المقادير وقدّر وقت موت الميت، وقتل المقتول لا يتقدم ساعة ولا يتأخر ساعة؛ لأنه – سبحانه – المحيي والمميت وحده، فكل شيء بقضاء وقدر وبأجل مسمى، ولكن أراد الله أن يدخل عليهم الكآبة والحسرة فجعلهم يترددون حتى في مسائل القضاء والقدر، والله – سبحانه وتعالى – عليمٌ بما يكنُّ هؤلاء، وما يخفون وما يسرون، فهو فاضح أمرهم كاشف نياتهم.

(١٥٧) ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

أيها المؤمنون، إن قُتلتم في سبيل الله وإعلاء كلمته أو متم على فراشكم وأنتم تنوون نصرة دين الله، فالله يغفر ذنوبكم ويجزل ثوابكم ويرفع درجاتكم، وهذا الفوز العظيم الذي ينتظركم والنعيم المقيم الذي هو أمامكم خير مما يجمع أعداء الله ومما يدخرون، فأنتم تكسبون الثناء الحسن والعز والنصر في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

(١٥٨) ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾

وسواء مات الميت منكم على فراشه، أو قُتل في ساحة المعركة، فإن مصيره إلى الله – سبحانه وتعالى – فعليه أن يخلص نيته وأن يصدق في عمله وأن يراقب ما بينه وبين ربه، فما دام أن المرجع إليه فينبغي أن تقدم مرضاته، وأن يحذر غضبه، وأن يُطاع رسوله ﷺ.

(١٥٩) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

فبسبب الرحمة التي أودعها الله فيك، والعطف الذي جعله الله في قلبك كنت لينًا قريبًا سهلاً مع المؤمنين، فعفوت عن خطئهم، وسترت خللهم، وتجاوزت عن زللهم، مع أنهم خالفوا أمرك ولم يصمدوا معك في القتال، وهذه رحمةٌ من الله – سبحانه وتعالى – أعطاك إياها، ولو كنت – أيها النبي الكريم – فظًّا في قولك، غليظ المعاملة لتفرق عنك

أصحابك، ولابتعدوا عن نصرتك، ولكنه لحسن خلقك جمع الله عليك القلوب، وألَّف عليك الأرواح، فعليك بالعفو عن المؤمنين عمَّا بدر منهم من تقصير في مخالفة أمرك، واطلب من ربك أن يغفر لهم الخطايا والذنوب، فإنه غفَّار رحيم، وشاور أصحابك في كل أمرٍ ذي بال ليشعروا بقربك منهم؛ ولتكون قدوةً للأمة من بعدك، فإذا جدّ الجد واجتمع رأيك على أمر فاعزم وتقدم وتوكل على ربك - سبحانه وتعالى - فعليه وحده الاعتماد، وعليه التكلان، فإنه يحب من يفوض الأمر إليه، ويعتمد عليه، ويثق بحسن اختياره جل في علاه.

١٦٠ ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

إذا كتب الله لكم النصر فلن يغلبكم كافر، ولن يهزمكم عدو، وإن كتب الله عليكم الهزيمة فلن ينصركم أحد من الناس، فعليكم بطلب النصر من عنده - سبحانه وتعالى - وذلك بالتوكل عليه والثقة بوعده والرضا بدينه، حينها تُنصرون في دنياكم، وتُثابون في الآخرة؛ لأن الذي يملك أمر الدنيا وأمر الآخرة هو الله وحده سبحانه وتعالى.

١٦١ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ما ينبغي لنبي ولا يحق له أن يخفي شيئًا من الغنيمة أو يدخرها لنفسه كما قال بعض المنافقين لما فُقدت في يوم بدر بعض الأموال، قالوا: لعل النبي ﷺ أخذها، وحاشاه بل هو البريء المطهر المعصوم ﷺ؛ لأن الغلول ينافي الأمانة وهو نوع من الخيانة، فكيف يخون النبي بمال وعرض زائل وقد استأمنه الله - سبحانه وتعالى - على الرسالة السماوية والدعوة الربانية، ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أن من يخون فإنه يأتي يوم القيامة بجريرته وجريمته على رؤوس الأشهاد فيفضحه ربه أمام العالمين، ثم يوفيه الله حسابه وعقابه يوم يوفِّي - سبحانه - كل نفس بما كسبت من صلاح أو فساد، وهو - سبحانه وتعالى - عادل لا يظلم، فلا يضيف لمسيء سيئات لم يعملها، ولا يبخس محسنًا حسنات قد عملها، بل هناك القسطاس المستقيم والوزن القويم، وعدل الرحمن الرحيم.

١٦٢ ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

هل من سَلك ما يحبه الله - سبحانه وتعالى - من الإيمان به واتباع رسوله ﷺ والعمل بما يحبه واجتناب ما يكرهه كمن عاد بالخسران واللعنة والغضب بسبب كفره ونفاقه وإلحاده في دنياه، فله في الدنيا الخزي والعار، وفي الآخرة مأواه النار وبئس المصير.

١٦٣ ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

الناس متفاوتون عند الله - عز وجل - فالمؤمنون درجات في جنات ونعيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وفي النار دركات للمنافقين والكفار والمعرضين عن دين الله - عز وجل - والله بصير بعمل كل عامل، فهو - سبحانه وتعالى - ينزِّل كل إنسان منزلته في الآخرة على حسب عمله، لا يزيد ولا ينقص، بعدلٍ وعلمٍ وحكمةٍ، فما على العبد إلا أن يعمل وأن يخلص عمله ولا يخشى أن يُهضم يوم القيامة أو يُظلم.

١٦٤ ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

لقد تفضل الله - سبحانه وتعالى - فأكرم المسلمين بمبعث محمد - عليه الصلاة والسلام - من جنسهم ومن قبائلهم؛ ليقتدوا به ويكون أسوةً لهم يقرأ عليهم آيات الله - عز وجل - ويبين لهم الأحكام ويدلهم على أشرف الآداب، ويطهر قلوبهم من الرجس والدنس والشك والريبة، ويعلمهم القرآن والسنة بعدما كانوا يتخبطون في الظلمات، ويتعثرون في المخالفات، فلم يكن لهم نور يهدي، ولا إمام يُقتدى به، ولا شرع يُتحاكم إليه، بل كانوا في غيّ عظيم وفي ضلال مبين.

١٦٥ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

أحين وقعت عليكم هزيمة أحد قلتم كيف نُهزم وقد وُعدنا بالنصر ونحن على الحق؟ وكيف يغلبنا المشركون وهم على الباطل؟ فقل لهم يا محمد: سبب الهزيمة منكم أنتم؛ لأنكم عصيتم أمري ولم تعملوا بما وجهتكم به من المكْثِ على جبل الرماة فَهُزِمْتم، فاذكروا ولاتنسوا أنكم لما وجهتكم إليه طلبت منكم الصبر على جبل أحد، وأنتم قد هزمتم الأعداء يوم بدر، فإن كان قُتل منكم سبعون في أحد، فقد قتلتم أنتم منهم في بدر سبعين، وأسرتم سبعين، فأنتم نلتم منهم ضعف ما نالوه منكم، وكل شيء بقدر من الله -سبحانه وتعالى - لأنه قدير لا يعجزه شيء، حكيم لا عوج في أمره ولا اختلال بصير بعباده.

١٦٦ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

والذي أصابكم في أحد بسبب عصيانكم للرسول ﷺ هو بتقدير الله فكل شيء بقضاء وقدر، لحكمةٍ أرادها - سبحانه وتعالى - حتى يظهر علمه في المؤمنين، ويتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فيظهر جهاد المجاهد، وزيغ الزائغ، ويبين كل شيء على حقيقته، ويبطل الادعاء.

١٦٧ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾

وليظهر علمه - سبحانه وتعالى - في أهل النفاق المردة، وليتبين موقفهم ولينكشف أمرهم، الذين دعاهم رسول الهدى ﷺ للجهاد في سبيل الله في أحد أو الدفاع عن المدينة إن لم يقاتلوا دينًا، فليدافعوا من أجل دنياهم، فكذبوا على الله - عز وجل - وقالوا: لو أننا نتيقن أن هناك قتالاً لخرجنا مع الرسول ﷺ، ولكنهم كذبوا في ذلك فهم يعلمون أن هناك قتالاً، وهم لن يخرجوا لو تحقق لهم الأمر وهم أقرب للكفر، وليسوا أقرب للإيمان، فالإيمان منهم براء؛ لأن المؤمن لا يخالف أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يشق عصا المسلمين، ولا يتخلف عن الجهاد، ولا يوالي أعداء الله، وهؤلاء يتحدثون بألسنتهم كلامًا يخالف ما يعتقدونه في قلوبهم، فظاهرهم غير باطنهم وعلانيتهم غير سرهم، فهم يظهرون الملاينة والكلام الحسن، ويبطنون الخبث والمكر والكيد للإسلام والمسلمين، ولكن الله كاشف أمرهم، وفاضح سرائرهم وهاتك أسرارهم، لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه غائبة - جل في علاه -.

١٦٨ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

هؤلاء المنافقون يوصون إخوانهم إما من المسلمين أو من المنافقين، ويقعدون عن القتال هم، ويقولون لمن خرج مجاهدًا في سبيل الله بائعًا نفسه من الله مضحيًا لنصرة دين الله، لو أطاعنا هذا الخارج إلى المعركة ما قُتل هناك، ولو أخذ برأينا ما ذهبت نفسه هدرًا، فكأنهم تحصنوا من الموت، وامتنعوا من الفناء، فردّ الله - سبحانه وتعالى - على مقولتهم القبيحة فقال: فأنتم إن كنتم صادقين أنكم سَلِمْتُم من الموت في المعركة فادفعوا عن أنفسكم الموت وأنتم في بيوتكم، لكنكم لا تستطيعون، وسوف يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، فهل تستطيعون دفع الموت عن أحد أو تأخير الموت عن أحد، وأنتم لا تستطيعون تأخيره عن أنفسكم؟.

١٦٩ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾

ولا يظنن أحدٌ من الناس أن من قُتل من أجل إعلاء كلمة الله - عز وجل - شهيدًا في المعركة أنه ميت، بل له حياة مُخَصَّصةٌ في البرزخ يُنعّم فيها بجوار رب العالمين في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، فهو مسرور فرح بمقعده يُرزق من ثمر الجنة، ومن أنواع أطعمتها ومن شرابها، فله إكرام مَخْصوصٌ، وله إنعامٌ من الله - عز وجل -؛ لأنه بذل نفسه في سبيل الله.

١٧٠ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

هؤلاء الشهداء مسرورون بما وفقهم الله - سبحانه وتعالى - من بيع أنفسهم منه، ومن نيل الشهادة، ونيل الكرامة في جنات النعيم، وفي المقام العالي الآمن، وفي الفوز الأكبر، ويفرحون أيضًا لإخوانهم المؤمنين في الدنيا، ويتمنون أن ينالوا الشهادة مثل ما نالوها هم ليشاركوهم في الأجر وفي الثواب العظيم وفي المقام الكريم في جنات النعيم، وهؤلاء الشهداء لا خوف عليهم، فلا يخافون من أهوال القيامة، فقد أمَّن الله خوفهم، وربط على قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم، وبشرهم بالأمن الدائم والسرور والحبور، ولا يحزنون من عواقب سيئات يخافون منها، أو من مغبة خطايا سلفت منهم، بل إن الله حطَّ خطاياهم، وغفر ذنوبهم، وعفا عنهم لتضحيتهم في سبيل الله.

١٧١ ﴿ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

هؤلاء الشهداء فرحون بما أعطاهم الله - سبحانه وتعالى - من هذا النعيم من قرة العين، وبهجة الروح، وحسن الحال، ونضرة الوجه، ورغد العيش، والإقامة الدائمة مع الشباب والصحة، ومع النظر إلى وجهه الكريم - جل في علاه - فالفضل فضله، والنعيم نعيمه - سبحانه وتعالى - لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يحبط عمل عامل، ولا يضيع سعيه إذا صدق في إيمانه وأخلص في عمله، بل يدخر الله - سبحانه وتعالى - له أعظم مما فعل، ويجعل عاقبته حميدة في جواره.

١٧٢ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾

هؤلاء المؤمنون المجاهدون في سبيل الله الذين حضروا أحدًا، لهم الأجر الدائم، فمَيِّتُهم شهيد مقيم في جنات النعيم، وحَيُّهم في عزة ينتظر النصر والثواب من الله، الذين استجابوا لله ولرسوله من بعدما أصابتهم الجراحات والبلاء والشِّدَّة، وبعدما أصابتهم الهزيمة فدعاهم الرسول ﷺ لمناجزة المشركين لما بلغه أنهم اجتمعوا في حمراء الأسد، فهب المسلمون من ساعتهم، وكان الرجل يحمل أخاه الجريح، وذهبوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - طائعين لأمره بعدما زُلزلوا زلزالاً شديدًا، فهؤلاء الذين أحسنوا الاستجابة وامتثال الأمر والمسارعة إلى إجابة داعي الجهاد، واتقوا الله - سبحانه وتعالى - في ترك مخالفة الرسول ﷺ والخروج على جماعة المؤمنين، هؤلاء لهم أجرٌ عظيم عند الله، فمن أجرهم تكفير سيئاتهم، ومضاعفة حسناتهم، ورفع درجاتهم مع الأمن في الجنة وحسن الإقامة ودوام النعيم الأبدي الأزلي في جوار أرحم الراحمين.

١٧٣ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾

هؤلاء المؤمنون الصادقون المجاهدون قال لهم بعض المرجفين من الموالين لكفار قريش يخوفونهم: إن قريشًا قد جمعوا جموعهم، وقد أعدوا عدتهم، وأقبلوا في خيل ورجل يريدون غزوكم، فانتبهوا واحذروا؛ ليدخلوا الرعب في قلوب المؤمنين، فما كان من المؤمنين إلا أن زادهم الله - سبحانه وتعالى - على إيمانهم إيمانًا، وعلى صدقهم تصديقًا، وعلى ثباتهم ثباتًا، فثبتوا أعظم ثبات، ووقفوا أحسن موقف، وذهبوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - والتجؤوا إلى الله فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فالله يكفينا من كل عدو، والله يمنعنا من كل غاز، والله ينصرنا من كل محارب، فنحن جنده، ونحن حزبه، ونحن معه، ولن نُغلب والله معنًا، ولن نُهزم والله نصيرنا، ولن نخذل والله يؤيِّدنا.

١٧٤ ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾

فبعد أن قالوا هذه الكلمة العظيمة واتكلوا على الله - سبحانه وتعالى - رجعوا بالخير والسلام، والأجر والكرامة، ولم يصبهم أذىً، ولم يتعرضوا لمكروه، ولم يلقوا عدوًا؛ لأنهم أحسنوا الاستجابة لأمر الله، وكل مستجيب لله يحسن

الله عاقبته، ويجعل الدائرة على عدوِّه، وهؤلاء اتبعوا ما أمر الله به - سبحانه وتعالى - فإن رضا الله - عز وجل - في اتباع رسوله المرسل من عنده، والله - عز وجل - يمنُّ على من يهتدي بهداه، ومن يقتدي برسوله ﷺ بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة، فإن عاش عاش عزيزًا، وإن مات مات مرحومًا مكرمًا منعّمًا في جنات النعيم.

(١٧٥) ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ويا أيها المؤمنون، إن هذه التخويفات، وهذا الإرجاف إنما هو من الشيطان، يخوفكم بأوليائه، ويرسل أتباعه وأعوانه يبثون الرعب في قلوب المؤمنين، فاصمدوا وثقوا بالله - عز وجل - وتوكلوا عليه وفوضوا الأمر إليه، ولا تخافوا أتباع الشيطان ولا أولياءه، وعليكم بخوف الواحد الأحد عزيز الجانب القوي الذي لا يُغالب، الذي بيده الضر والنفع، والموت والحياة، فإن المؤمن الصادق لا يخاف غير الله - عز وجل - فإن الناس لا ينفعون ولا يضرون، ولا يُحْيون ولا يُميتون، ولا يَصِلُون ولا يَقْطَعون، ولا يُعْطُون ولا يَمْنَعون إلا بإذن الله.

(١٧٦) ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ولا تحزن - أيها الرسول - من هؤلاء الذين يذهبون إلى الكفر ويتعمقون في الضلالة ويستمرون في الغواية، فإنهم لن يضروا إلا أنفسهم، ولن يدخلوا الضرر على الله - سبحانه وتعالى - فالله غني عن العباد لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضره معصية العاصي، وإنما أراد الله - سبحانه وتعالى - يوم كتب عليهم الكفر ألا يدخر لهم ثوابًا في الآخرة من النعيم ودخول الجنة، ولا يكتب لهم في الدنيا عزةً ولا نصرًا، وإنما فعل بهم هذا الفعل ليمحقهم ويُذلهم ويكرم المؤمنين على أيديهم، وادخر - أيضًا - لهم عذابًا مؤلمًا فظيعًا في الآخرة جزاء ما فعلوا من القبيح وما قدموا من الإساءة.

(١٧٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

هؤلاء المنافقون الذين باعوا الإيمان واستعاضوا به الكفر، ضررهم على أنفسهم، وكيدهم يعود عليهم، والله - عز وجل - لن يتضرر من إدبار مدبر، ولا من كفر كافر، ولا من نفاق منافق، فله العزة المطلقة، الغنى المطلق - جل في علاه - وما يضرون إلا أنفسهم وسوف يجزيهم على سوء هذا الصنيع وعلى قبح هذا التصرف منهم.

(١٧٨) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

لا يظنَّن الكفار أنَّنا إذا أمهلناهم في هذه الحياة ولم نُعاجل لهم العقوبة، ولم نقدم لهم النكال والعذاب أنه لخير لهم عندنا، أو أننا ادخرنا لهم الثواب، بل نريد من تأخير العقوبة بهم وإمهالهم أن يبقوا أطول مدة ليزدادوا من الخطايا، ويتكثَّروا من السيئات، ثم ينقلبوا إلينا في الآخرة لننزل بهم أشد أنواع العقوبات، وأفظع النكال في نار الجحيم.

(١٧٩) ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

ما كان الله ليترك المخلصين منكم - أيُّها المؤمنون - على ما أنتم عليه حتى يتميز المخلص الصادق من المنافق الكاذب، بما يوحيه إلى نبيه وإخباره بأحوالكم، والله - عز وجل - لا يطلع العباد على الأسرار التي لا يعلمها إلا هو، ولكنه - سبحانه وتعالى - يكتب الابتلاءات والمحن والشدائد، فيظهر هذا من هذا، فلولا البلاء لما عُرف الأتقياء من الأشقياء، ولولا البلاء لما اطّلع المؤمنون على نفاق المنافقين، والله - سبحانه وتعالى - لا يكشف الغيب لكل أحد من عباده، ولكنه يختار - سبحانه - من عباده رسلاً يطلعهم على بعض الغيب، وعلى أسرار القضاء والقدر، فيخبرون أقوامهم بشيء من ذلك، فأنتم ليس عليكم مطالعة الغيب واكتشاف أسرار القدرة، لكن عليكم الإيمان بالله - عز

وجل - واتباع رسوله ﷺ والتسليم لأمره - سبحانه - والجهاد في سبيله، وأنتم إذا فعلتم الواجب عليكم من الإيمان وفعل المأمور وترك المحظور والقيام لله - سبحانه وتعالى - حق القيام بما يحبه ويرضاه، فالله - سبحانه وتعالى - يدّخر لكم الثواب الجزيل، والأجر العظيم في جواره ومع أوليائه.

١٨٠ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

ولا يظن الأغنياء البخلاء الذين يمسكون أيديهم ولا ينفقون في سبيل الله ولا في وجوه الخير أن إمساكهم للمال ينفعهم ويحصنهم من النكبات والنوازل، بل إن هذا الإمساك هو مقت عليهم وعذاب لهم في الآخرة، ومحق لبركة رزقهم وقسوة في قلوبهم، وسيجعل الله - سبحانه وتعالى - هذا المال طوقًا في عنق الواحد منهم من النكال والعذاب يلازمه في نار جهنم بسبب بخله وإمساكه وتقتيره على نفسه، وإلا فإن الواحد الأحد له ما في السموات والأرض ليس بحاجة إلى إنفاق هؤلاء ولا إلى صدقتهم، فهو رب السموات والأرض ومالك ما فيهما، وهو يرث - سبحانه وتعالى - كل غني وفقير؛ لأنه يرث الأرض ومن عليها، فسوف يحاسبهم بهذه الأموال؛ لأنه - سبحانه وتعالى - خبير بما اقترفوه، عليم بما فعلوه، مطلع على ما صنعوه.

١٨١ ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

سمع الله مقالة اليهود الشنيعة القبيحة - قاتلهم الله - التي قالوا فيها: إن الله فقير؛ ولذلك يطلب القرض منا، ويدعونا للإنفاق، ولو كان غنيًا لاستغنى عن أموالنا ولم يطلب منا أن نتصدق وأن ننفق، فأخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه سوف يسجل عليهم هذه المقولة القبيحة، وهذه الكلمة النابية؛ ليحاسبهم بها، وأيضًا سوف يأخذهم بما فعلوه في سابق الزمان من قتلهم لأنبياء الله - عز وجل -، وسوف يوردهم النار ليحرق أجسامهم التي تَرَبَّت على السحت، ويمزق أوصالهم التي نبتت بالمال الخبيث، فالله - سبحانه وتعالى - له ما في السموات والأرض، وهو الغني عن كل أحد، ولكنه أراد من العبد أن يتصدق على نفسه بشيء من المال يعطيه الفقير والمحتاج والمسكين.

١٨٢ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

وهذا العذاب الذي يحل بهؤلاء الفجرة من اليهود وأمثالهم إنما هو بسوء صنيعهم، وبما فعلوه في الدنيا من التكذيب ونكث العهد ونقض الميثاق، وقتل الأنبياء والبخل بالمال، وأكل السحت وقول الكذب وتناول الرشوة والتزوير في الكتاب، والتحريف للكلام والتبديل للمعاني؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا، وليس في حاجة أن يوقع العقاب بمن لا يستأهله، فإن العباد عباده، فَتَقِيُّهم مأجور، وشقيهم معذب مهان؛ حكمةً من الباري - جل في علاه - ليوفي كل نفسٍ بما كسبت.

١٨٣ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

هؤلاء اليهود افتروا على الله فرية وكذبوا على الله كذبة فقالوا: نحن لا نؤمن لأي رسول يُبعث إلا إذا أتانا بعلامة واضحة، وهذه العلامة أن يأتينا بكبش أو بناقة أو ببقرة فيقدمها فتنزل نار من السماء، فتحرق هذا القربان الذي قدّمه، فردّ الله عليهم - سبحانه وتعالى - قولهم بأن هذا كذب وافتراء، فلم يعهد الله لهم ذلك، ولم يوصهم به، ولم ينزل عليهم هذا في أي كتاب من كتبه، ثم قال لهم: قل لهم يا محمد: قد جاءكم من قبلي رسلٌ بالبينات

الواضحات والآيات الباهرات والدلالات والمعجزات، وأتوكم - أيضًا - بما طلبتم من القرابين، وما ذكرتم من العلامات، ولكنكم كذبتموهم وقتلتموهم وكفرتم بما أنزل عليهم، فَلِمَ فعلتم هذا الفعل بأنبيائكم وتطلبون من غير أنبيائكم هذه العلامات؟ إنكم إذًا مفترون على الله، كاذبون على دينه، خارجون عن طاعته.

﴿١٨٤﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾

فإن ردوا رسالتك - يا محمد - وأعرضوا عن دينك وكذبوا بما بُعثت به، فقد سبقك رسل جاؤوا بالآيات البينات والمعجزات، وجاؤوا بالكتب السماوية، وأتوهم بالهدى الواضح والحِكَم النيِّرة والمواعظ المؤثرة، ولكنهم كذبوهم، وحاربوهم وقتلوهم، فأنت لست بدعًا في هذا الطريق، ولست أول من كُذِّب فاصبر واحتسب.

﴿١٨٥﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

كل نفسٍ ستذوق كأس الموت لا محالة، ولا استثناء أحد من ذلك، وهذا فيه وعد للمؤمن بأن الله سوف يثيبه بعد وفاته، ووعيد للمكذب الفاجر بأن الله سوف يعاقبه بعد موته، وسوف توفون - أيها الناس - أجور أعمالكم بعد موتكم إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر، فليست هذه الدنيا دارًا لإثابة المطيع ومعاقبة العاصي، وإنما الدار هناك حيث يوفي الله - سبحانه وتعالى - كل نفسٍ ما كسبت، وإلا فالدنيا دار قصيرة حقيرة، لا يمكن أن تكون زمنًا لتنعم المؤمنين، ولا معاقبة الكافرين، والآخرة خير وأبقى، وفيها الحياة الحقيقية فمن بُعِّد عن نار جهنم فقد حصل على الفوز العظيم والرضوان الكبير، وليس الفوز هو ما يدعيه بعض الجهلاء والسفهاء من أنه نيل المناصب العالية والأموال الكثيرة، وجمع الحطام الفاني والتباهي في هذه الدار بزينتها وزخرفها وكثرة الأولاد وسعة الدور والقصور والشهرة والجاه عند الناس، فليست هذه الدار إلا أحلام نائم، وخيال عابر زائل، وأمانٍ مضمحلة، وثوان معدودة.

﴿١٨٦﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

لتمتحنن بالمصائب والحوادث والكوارث في أموالكم بالنفقة الواجبة، وبالجائحات السماوية وبالآفات الأرضية وبذهاب هذه الأموال بالسرقات والتلف والإحراق وغيره؛ ليعلم - سبحانه وتعالى - من يصبر ومن يحتسب، وسوف تُبْلَون في أنفسكم بالأذى الشديد والابتلاء الأكيد والمحن والزلازل والفتن؛ ليثبت من يثبت على حق، وينحرف من ينحرف عن بينة، وليمحص الله الذين آمنوا ويظهر نفاق المنافق، وكفر الكافر حكمةً من الله وسنة ماضية، وسوف تسمعون من اليهود والنصارى، ومن وثنيِّي العرب من الاستهزاء والسخرية والتكذيب والعناد والمحادة والصدود عن دينكم ومحاربتكم وتأليب الناس عليكم، والتحزب ضدكم، فإن صبرتم بالثبات على دينكم، وأداء ما أمركم الله به واجتناب ما نهاكم عنه واتقيتم بفعل المأمور واجتناب المحظور، فهذا الذي يعينكم على إصلاح أنفسكم وعلى قوام أمركم وعلى الهمة التي يمنحها الله لكم بسبب هذا الصبر والتقوى والعزيمة الماضية التي تثمرها الطاعات، وتنتجها العبادات، حينها تنتصرون بإذن الله على كل عدو لكم.

﴿١٨٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

واذكروا يوم أخذ الله - سبحانه وتعالى - العهد الوثيق والميثاق الغليظ على اليهود والنصارى أن يبينوا للناس الكتب التي نزلت إليهم من التوراة والإنجيل، ويظهر للناس حكم الله - سبحانه وتعالى - في هذه الكتب من الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، والحلال والحرام، وأُمِرُوا أن يبينوا ما أوتوه تعليمًا وفتيا وقضاءً ولا يجحدوا شيئًا منها ولا يخفوا أمرًا من أمورها، ولكنهم طرحوا ذلك ونبذوه خلف ظهورهم كالمُعْرِض وكالمستهزئ بأمر الله - سبحانه وتعالى - واستعاضوا مكان هذا الكتاب المقدس ثمنًا بخسًا رخيصًا حقيرًا تافهًا من حطام الدنيا الزائل المضمحل، فبئس - والله - ما استعاضوا به بدل الرفعة بالعلم والإمامة في الدين والثناء عند الله وعند خلقه والمكانة الباقية والذكر الحسن والخلود في جنات النعيم.

١٨٨ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

لا تعتقد أن من فرح بما فعل، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل، فلا تعتقد أنه بعيد عن عذاب الله وأخذه، فإن بعضهم يفرح بما فعل ولو كان خطأً ولو كان معصيةً ويتبجح بذلك عند الناس مثلما فعل اليهود لما سألهم الرسول ﷺ عن شيء مما أنزل عليهم فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وخرجوا من عنده وقد أرَوْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه ﷺ فباؤوا بخسران من الله عظيم، وربما دخل في ذلك من فرح بمديح الناس وطلب المنزلة عندهم، وسعى إلى الجاه لديهم، وإلى المكانة في صدروهم، فيمحق الله سعيه ويبطل عمله؛ لأنه أراد غير الله سبحانه وتعالى.

١٨٩ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

والأمر لله - سبحانه وتعالى - فكل ما في السموات والأرض ملك له، فهو يتصرف فيهما كيف يشاء خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياءً وإماتةً ومجازاةً ومحاسبةً، فالواجب أن يُقصد هو بالعمل وأن يُعبد وحده، وهو - سبحانه وتعالى - قادرٌ على كل شيء ولا يغلبه أمر ولا يعجزه شيء ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فهذا الإله الذي هذا وصفه حقيق أنْ يُخاف، وأنْ يُتقى، وأن يُخشى، وأن يُعامل وحده، وأن يُخلص له السعي، ولا يُطلب الثناء ولا الحمد ولا الجزاء من غيره - جل في علاه -.

١٩٠ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

في خلق السموات المرتفعة، وهذا السقف المحفوظ وما فيه من آيات بينات من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومجرات مع ارتفاع هذا البناء وحسن نظامه وروعة بنائه، وكذلك الأرض وبسطها للناس وتسويتها، وإيجاد الجبال فيها والروابي والهضاب والبحار الواسعة والمحيطات الكبيرة وشق الأنهار، - وأيضًا - خلق الليل إذا أقبل بظلامه وغطى العالم بسرباله، وما فيه من آيات كالقمر والنجوم والكواكب، والنهار الذي تطلع فيه الشمس ببهائها وصفائها وإشراقها، كل هذا دلالات لمن أراد أن يتفكر في خلق الله، وأنْ ينظر في بديع صُنع الله، ولكن لا يعتبر بذلك إلا من كان له عقل مفكر، وبصيرة حية، وضمير واعٍ، أما ميت القلب، خاوي الضمير، أعمى البصيرة فلا ينتفع من هذه الآيات لأنه لا لبّ له ولا عقل ولا بصيرة، بل هو كالبهيمة التي لا يطمع منها التفكر ولا النظر في صنع الله وآياته.

١٩١ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

وهؤلاء الذين يتفكرون في خلق الله هم الذين يذكرونه ويداومون على ذكره بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، يذكرونه قيامًا وهم يمشون في مصالحهم وفي أسواقهم وطرقاتهم، ويذكرونه إذا جلسوا في مجالسهم ومساجدهم ودروسهم ومناسباتهم الخاصة والعامة، ومن حبهم له - سبحانه - أنهم يذكرونه - أيضًا - وهم على جنوبهم مستقبلين النوم في وقت الراحة بعد التعب والإعياء، ومع ذلك لم يشغلهم شاغل عن ذكره ويديمون التدبر لآيات الله وخلقه في

السموات والأرض، فينظرون إلى كل آية بصفتها دليلاً من أدلة القدرة، وينظرون إلى كل مخلوق على أنه سطر في كتاب المعجزة يدل على الباري - سبحانه وتعالى - فهذه الكائنات إنما هي حروف ناطقة، وشهادات باقية على عظمة العظيم - جل في علاه - وعلى قدرته وحكمته وبديع صنعه، وهم يقولون إذا رأوا ذلك وجلين خائفين: يا ربنا نشهد أنك ما خلقت هذا عبثًا وباطلاً، بل أوجدت هذا الخلق لحكمة، وأبدعته بقدرة، وصورته لمقصد تقدست عن الأنداد، وتنزهت عن الأضداد، فتباركت يا ربنا، فنسألك أن توفقنا للعمل الصالح الذي نفعل فيه ما أمرتنا به، ونجتنب ما نهيتنا عنه، ليوصلنا ذلك إلى أن تنجينا من عذاب النار، وتحمينا من غضبك ومن سوء عقابك.

١٩٢ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾

وهم ينادون ربهم وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ويشتكون إليه أن من أدخله - سبحانه وتعالى - ناره فقد أخزاه وأذله وأبطل سعيه، فهم يستعيذون من ذلك ويرجونه - سبحانه وتعالى - وهو الغفار أن يجنبهم النار؛ لأن من دخل النار فقد استوجب غضب الجبار، فليس له ناصر ينصره فيدفع عنه العذاب، ولا ولي يجلب له النفع، وكل من أشرك بالله فهو ظالم، وكل ظالم مستحق للعقوبة بلا شك.

١٩٣ ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾

ويا ربنا وخالقنا ورازقنا إننا سمعنا محمد بن عبدالله ﷺ ينادي بالقرآن، ويدعو إلى دينك وإلى توحيدك وإلى طاعتك فاستجبنا له، وسمعنا كلامه واقتدينا بسنّته واهتدينا بهداه واتبعنا طريقه؛ فنسألك يا ربنا أن تستر منا العيوب، وأن تغفر لنا الذنوب، وأن تكفّر عنا السيئات والجرائم، وكل ما اقترفنا، ونسألك أن تختم لنا بخير، وأن تثبتنا على الحق حتى تتوفانا مع أوليائك وأتباع رسلك، وقد رضيت عنا وختمت لنا بخير وتوفيتنا على الملة.

١٩٤ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾

ونسألك يا ربنا أن تحقق لنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من الثواب الجزيل، وغفران الذنب والتجاوز عن الخطيئة وجوارك في جنات النعيم، والفوز بالنظر إلى وجهك الكريم، ولا تفضحنا يا ربنا ولا تذلنا ولا تهنا على رؤوس الأشهاد يوم تجمع الأولين والآخرين، إنك يا ربنا لا تخلف ما وعدت، فإنه لا أصدق منك قيلاً، ولا أحسن منك حديثًا، فنحن ننتظر ما وعدتنا به، ونستنجز ما أخبرت به، وننتظر ما ذكرته في كتابك وعلى لسان رسولك ﷺ.

١٩٥ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

فقبل الله دعوتهم وحقق أمنيتهم ولبّى سؤالهم وأخبرهم - سبحانه وتعالى - أنه لن يترك سعي ساع ولا إثابة محسن، بل ادخر لهم الأجر العظيم، والنعيم المقيم سواء كانوا رجالاً أو نساءً، فإن النساء شقائق الرجال، والرجل والمرأة متعاونان على طاعة الله - عز وجل - من الإيمان والهجرة والدعوة والجهاد، فالرجال مثل النساء، والنساء مثل الرجال؛ لأنهما من آدم وحواء، وكلهم شُرِّفوا بالرسالة، فالذين خرجوا من أوطانهم من الرجال والنساء، وفارقوا ديارهم وأهلهم وأموالهم ومراتع شبابهم، ومغاني صباهم، وطُردوا من بيوتهم، وأُوذوا في سمعتهم وفي أعراضهم، ونُكّل بهم وعُذّبوا بسبب دينهم، ونالهم من الأسر والطرد والتشريد والقتل والجراحات وقاتلوا أعداء الله - سبحانه وتعالى - وثبتوا في المعارك، وصمدوا في الأزمات وقُتلوا في سبيل الله شهداء، فقد أقسم - سبحانه وتعالى - أن يكفّر عنهم سيئاتهم، ويغفر زلاتهم، ويمحو خطيئاتهم، ثم يدخلهم جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، فينعمهم هناك، ويثيبهم في داره التي بناها بيده، وهذا الأمر هو جائزة لهم على حسن عملهم وعلى كريم سعيهم، والله - سبحانه وتعالى - يثيب أحسن الثواب، وأجلّ العطاء، وأعظم الهبات، فإن عطاءه لا يشبهه عطاء، وهبته لا تعادلها هبة.

١٩٦ ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾

لا تنخدع بما يظهر لك من حال الكفار وتقلبهم في المناصب والأموال والنعم واللذات العاجلة والشهوات الزائلة، والأماني الخدّاعة، فإن هذه دنيا لا يُغتر بها ولا يوثق بها، ومتاع الكافر منها كمتاع الدابة، وكحياة البهيمة، ليس إلاّ!!

١٩٧ ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

وهذا كله الذي يمر به الكفار إنما هو وقت قصير، ومتاع زائل حقير لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله - عز وجل - في جنات النعيم، فإن هؤلاء الكفار يقضون شهواتهم في عجل وهم مستعجلون، ويمرون بالحياة مرورًا ثم يأوون في الآخرة إلى نار جهنم التي مهدوها بسوء أعمالهم، وفرشوها بقبائح صنيعهم؛ ليجدوا سعيهم القبيح، وعملهم الخبيث ينتظرهم هناك.

١٩٨ ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾

أما الذين خافوا ربهم وراقبوه وعملوا بما أحبه وتركوا ما أسخطه، فهؤلاء لهم نعيم مقيم، ولهم مقام طيب آمن في جوار ربهم من الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء، والقصور والدور والأنهار، وهم مع ذلك مخلدون لا يخشون انتقالاً ولا يخافون هرمًا ولا ينتظرون سقمًا ولا يجدون نصبًا ولا تعبًا ولا مشقة، وهذا كله مهيأ لهم وجائزة من الله - سبحانه وتعالى - وهبة من عنده - جل في علاه -؛ لأنه لما وفقهم إلى العمل ادخر لهم أحسن الجوائز، وأعظم الهبات، وما عنده - سبحانه وتعالى - خير مما يحصل للكفار في الدنيا من الربح في الأسفار، وجمع الدرهم والدينار، والتباهي بالقصور وسكنى الدور، ولكنه غرور.

١٩٩ ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

من اليهود ومن النصارى فريق يؤمن بالله - عز وجل - وما أنزل على رسلهم وما أُنزل على محمد ﷺ فيجمعون بين الإيمان بأنبيائهم وبالنبي العربي الأمي ﷺ وهم مع ذلك خائفون من ربهم، موقنون بموعوده عاملون بشرعه ولا يستبدلون دين الله - عز وجل - بعرض فان من الدنيا، ولا بثمن بخس من الحياة، لا من مناصبها ولا من أموالها، بل ثابتون على دينهم صادقون في طاعة ربهم متبعون لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لا يبخسهم الله -سبحانه وتعالى - أجرهم، ولا يضيع سعيهم، بل لهم أجر عظيم عند ربهم، فالله - سبحانه وتعالى - يرحمهم في ذاك اليوم العظيم، وهو سريع الحساب، وهو يحاسب العدد الكبير في الوقت القصير، وقد اطلع على أعمالهم وعلم نياتهم - جل في علاه - وهذا من العدل في الحكم، فالواجب على الإنسان أن يفرق في الحكم بين المهتدي والضال، والمصيب والمخطئ، فإن الله - عز وجل - استثنى بعض أهل الكتاب حكمةً منه وعدلاً لا إله إلا هو، لأنهم أصبحوا في عداد المسلمين.

٢٠٠ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون، عليكم بالصبر على الطاعات وأدائها على أكمل وجه، والصبر عن الشهوات والمعاصي والمخالفات باجتنابها والتوبة منها، والصبر على أقدار الله المؤلمة وعلى قضائه المرّ بحسن العبودية واحتساب الأجر وعدم السخط والجزع، وعليكم بمصابرة الأعداء ومنازلتهم ومغالبتهم ومراغمتهم في المعارك وساحات القتال، وفي ميادين النضال العلمي والردود عليهم ومجاهدتهم، وعليكم - أيضًا - بالمرابطة في ثغور الجهاد العملية، والمرابطة في أوقات العبادات، وملازمة المسجد للصلوات الخمس كما أخبر ﷺ أن ذلك رباط لمّا ذكر الوضوء وكثرة الخطى للمساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فمن صبر وصابر ورابط فاز بالأجر العظيم والنعيم المقيم، وأعطاه الله أشرف الجوائز وأعظم الهبات ووصل إلى أعلى المراتب، ونال أسمى المطالب، بسبب أنه تعبّد الله - عز وجل - في المواطن كلها، في موقف الطاعة وفي موقف المعصية، وفي موقف الابتلاء، فكان من عباد الله المخلصين، ومن أوليائه الصادقين جعلنا الله منهم.

مدنية

ترتيبها
٤

سورة النساء

آياتها
١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

يا أيها الناس، خافوا ربكم وراقبوه واخشوه، فقد خلقكم من إنسان واحد، وهو آدم، وخلق من آدم حواء، فسبحان من خلق حيًا من ميت، كما خلق ميتًا من حي، وهو آدم، فأنتم أبناء رجل واحد، وأم واحدة، فراقبوا الله في هذه الأخوة الإنسانية التي تربطكم، وهذا النسب الذي يوحد بينكم، وهذا الحسب الذي يجمعكم، وهو - سبحانه وتعالى - نشر من آدم وحواء بشرًا كثيرًا، وخلقًا لا يُعد ولا يُحصى، ثم عليكم باتقاء الله - سبحانه وتعالى - في كل شؤونكم وفي كل أموركم وراقبوا الله في أرحامكم، فلا تقطعوها؛ لأنه - سبحانه وتعالى - يعلم أعمالكم، ولا تخفى عليه أحوالكم وهو يسمع أقوالكم، ومطلع على ما في سرائركم عالم بما في ضمائركم، وهو رقيب على كل شؤونكم حذر الله عباده من التفريط في رابطة التقوى التي تصعد بهم إلى منزلة كمال الوحدة الإنسانية ورابطة الرحم التي تقوي ذلك.

(٢) ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

وعليكم بأن تدفعوا أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا سن الرشد، ولا تأكلوا أموالهم التي هي محرمة عليكم وتتركوا أموالكم التي أحلها الله وجعلها طيبةً لكم، فيحملكم الطمع والجشع على الاستيلاء على أموال هؤلاء الضعفاء المساكين، فتتركون ما أباح الله، وتأكلون ما حرم الله وإن فعلتم ذلك فإنه ذنب عظيم وظلم أثيم، ومنكر من العمل.

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾

وإذا خشيتم عدم العدل في مهر اليتيمة بحيث لو تزوجتم منها ولم تعطوها ولم تدفعوا لها المهر الذي يدفع لمثلها من غير اليتامى، فتزوجوا غيرها من النساء، ولو تزوج كل رجل اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا ولم يَزِدْ على ذلك من الحرائر فله ذلك؛ لأن الله أباح التعدد إلى أربع، ولكن إذا خشي الإنسان ألا يعدل بين زوجاته في السكنى أو النفقة أو نحو ذلك وظن أنه سوف يجور ويظلم إحداهن فلا يوفيها حقها، فعليه أن يتزوج واحدة فقط، فهو أقرب للعدل وإذا لم يستطع ولم يكتف بواحدة وخاف من الجور لو تزوج أكثر من واحدة، فله أن ينكح من السراري ما شاء، فإنه أحسن له وأبعد عن الجور والظلم.

(٤) ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾

على المسلم أن يعطي المرأة مهرها ولا يستعلي عليها بهذا المهر، فإنه حق لها وهو أقل الواجب لها، ولكن إذا تفضلت وسمحت نفسها بشيءٍ من المهر على طريق الهدية فلا بأس أن يأخذه الزوج حلالاً طيبًا.

(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

لا تعطوا من يسرف من النساء واليتامى وغيرهم الأموال التي تحفظونها لهم، أو أموالكم على سبيل الهبة التي بها نظام حياتكم وصلاح أموركم وتسديد مراداتكم في الحياة؛ لأنهم سوف يتلفونها لسفههم وسوء تدبيرهم، ولكن

أطعموهم من هذا المال بما يكفي مثلهم، وألبسوهم من الثياب ما يسترهم ويجملهم، ولينوا لهم في القول حتى تجبروا خواطرهم وتقنعوهم بأحسن الألفاظ وأطيب الأقوال وفي الآية تنفير من الإسراف وبيان مغبّته وأنه من شأن السفهاء.

٦ ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾

واختبروا هؤلاء الأيتام إذا بلغوا سن الرشد، فإذا علمتم منهم الرشد وحسن التدبير وجميل التصرف، فلا بأس بدفع الأموال إليهم دون أن تؤخروها، ولا يجوز أكل أموالهم بطريق الحيلة والمسارعة إلى أكل هذه الأموال قبل أن يرشدوا؛ لأن بعضهم ينفق من مال اليتيم قبل أن يكبر فيطالبه اليتيم فيسارع بإتلاف هذا المال، وإذا كان من الأولياء من هو غني فليتعفف عن أكل مال اليتيم، فقد أغناه الله عن ذلك، أما إذا كان الولي فقيرًا فعليه أن يأخذ بقدر حاجته الضرورية ولا يزيد على ذلك، كأجرة مثله من الأجانب، ومنها أجرة العامل ونحو ذلك، فإذا أعطى الولي اليتيم ماله بعد أن يرشد فعليه أن يُشهد على ذلك لئلا يقع الخطأ أو الجحد بعد القبض، وكفى بالله محاسبًا للناس ورقيبًا على أعمالهم، وأحوالهم، وسوف يحصي كل هذه التصرفات ليجازي العباد بها، فهو أهْلٌ أن يُراقب وأن يُخشى ويُتقى سبحانه وتعالى.

٧ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾

للأولاد والبنات حق في الميراث مما تركه آباؤهم وأقاربهم، سواء كان الميراث قليلاً أو كثيرًا، أو كان مما يصلح للرجال من عدة الحرب أو ما يصلح للنساء من الحلي ونحو ذلك، وهذا ردٌّ على شريعة الجاهلية الآثمة التي كانت تَحْرِم المرأة الميراث وتجعله للرجل وتقول كيف نورث من لا يشد في المعركة شداً، ولا يستقبل وفداً، فكذبهم الله - سبحانه وتعالى - ورد عليهم، وجعل للمرأة حقها نصيبًا ثابتًا وحظًا مقررًا وقسمًا محددًا، لا يجوز الجور فيه ولا إهماله بحال من الأحوال.

٨ ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾

وإذا حضر قسمة التركة بعض الأقرباء الذين لا يرثون أو بعض اليتامى والمساكين الغرباء، فقدروا لهم شيئًا من هذه التركة، من أجل تطييب خواطرهم، وقولوا لهم كلاماً جميلاً طيباً.

٩ ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾

وليتذكر الأوصياء على اليتامى حال أولادهم إذا ماتوا وتركوهم يتامى ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، هل يرضون لهم الذل والضعف وضياع المال؟! فليتقوا الله إذن في أفعالهم وليخاطبوا اليتامى باللين والعطف والحنان كما يخاطبون أولادهم.

١٠ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾

الذين يعتدون على أموال اليتامى فيأخذونها بلا حق شرعي، وبلا موجب، ويستبيحونها لأنفسهم فهم بفعلهم هذا يجعلون لأنفسهم طريقًا إلى النار، فهم إنما يأكلون حرامًا وسحتًا يوصلهم إلى عذاب الجحيم الذي لا يُطاق، تلك النار الهائلة المستعرة التي لا يصلاها إلا الأشقى، فعليهم أن يتوبوا من أكل أموال اليتامى ويردوا إليهم أموالهم كاملة، وأن يخافوا الله - سبحانه وتعالى - في هؤلاء المستضعفين.

١١ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾

في هذه الآية تفصيل لأحكام المواريث التي وردت بالإجمال في الآية السابعة من هذه السورة، أي يأمركم الله ويعهد إليكم، بالعدل في شأن ميراث أولادكم الذكور منهم والإناث، فإذا ترك الميتُ أبناءً وبنات، فللابن ضعف ميراث البنت،

وإذا لم يكن للميت إلا الإناثُ، وكنَّ اثنتين فأكثر، فلهنَّ الثلثان من التركة، وإن كانت بنتًا واحدة، فلها نصفُ تركة أبيها، وإنما كان نصيب الذكر ضعف الأنثى لكثرة التزاماته فهو الذي عليه المهر، والنفقة، والإنفاق على الأسرة، بينما الأنثى لا تُكلَّف بشيء من الإنفاق، ولكل واحدٍ من الأب، والأم سُدسُ التركة، إن كان للميت ولدٌ - ذكر أو أنثى - فإن لم يكن له من يرثه من الأولاد، وليس له وارث إلا الأب والأم، فللأم ثلث التركة، والباقي للأب، فإن كان له إخوة - اثنان فأكثر - فلأمه السدس، وتُقسَّم التركة كما فرضها الله، من بعد تنفيذ وصية الميت، وقضاء ديونه للعباد، ولقد تولَّى تعالى قسمة المواريث بنفسه، ولم يتركها لأحدٍ من خلقه، لئلا يقع حيفٌ أو ظلم، ولو تُرك الأمر إلى البشر، لضاعت حقوق كثيرة؛ لأنكم لا تعلمون من هو أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم، فاتركوا الأمر لخالق العباد، فهو أعلم وأدرى بما يحقق مصالح البشر.

⑫ ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

ولكم أيها الأزواج نصف ما تركته زوجاتكم، إن لم يكن لزوجاتكم ولدٌ منكم أو من غيركم، فإن كان لهن ولدٌ فلكم الربع مما تركن من الميراث، من بعد الوصية، وقضاء الدين، ولزوجاتكم -واحدة فأكثر- الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولدٌ مطلقًا، فإن كان لكم ولد فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من الميراث، من بعد إخراج الوصية وقضاء الدَّين عن الميت، وإذا كان الميت لا آباء له ولا أولاد -وهذا معنى الكلالة- وورثه بعض الأقارب، كالأخ، أو الأخت من الأم، فلكل واحد منهما السدسُ، فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد، فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية، ذكورهم وإناثهم في القسمة والاستحقاق سواءً، لقوله سبحانه: ﴿ شُرَكَآءُ ﴾ والشركة تقتضي المساواة، وهذه القسمة تكون بعد تنفيذ الوصية، وقضاء الدين، ويُشترط في الوصية أن تكون للمصلحة، لا بقصد حرمان أحدٍ من الورثة، أو الإضرار به، كأن يوصي بأكثر من الثلث، هذه وصية الله إليكم، ومن رحمته تعالى أنه لا يعجِّل العقوبة لمن خالف أمره.

⑬ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

الأحكام التي ذُكرت فرائضه وأوامره التي لا يجوز أن تُخالف أو يُتعدى فيها، ومن يمتثل أمر الله - سبحانه وتعالى - بتقواه وأمر الرسول ﷺ باتباعه فجزاؤه عند الله أن يكرمه بالجنات التي ادخرها لأوليائه، وهي حدائق جميلة وبساتين بديعة تجري من تحت قصورها ودورها المياه العذبة والأنهار السائحة، وجزاؤهم أن يمكثوا فيها بلا فناء، وأن ينعموا فيها بالبقاء مع صحة بلا سقم، وحياةٍ بلا هرم، وغنىً بلا عدم، وأمن بلا خوف ولا حزن.

⑭ ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

ولكن من يخالف أمر الله - سبحانه وتعالى - ويخالف أمر الرسول ﷺ فلا يلتزم أمره ويقع فيما نهى عنه، ولا ينفذ أحكامه التي شرعها لعباده فجزاؤه نار جهنم يصلى حرها مع الإهانة والإذلال والأغلال والأنكال خالدًا مخلدًا لا يزول عذابه ولا يخفف عقابه.

(١٥) ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾

والنساء اللواتي يرتكبن فاحشة الزنا فعليكم - أيها الرجال - أن تُشهدوا عليهن أربعةً من الرجال العدول الثقات بحيث لا يكون في الشهادة جور ولا إثم، وبحيث يكون الشهود عدولا، فإذا شهدوا شهادة واضحة لا لبس فيها ولا تدليس، فعليكم بحبس النساء في البيوت إلى وقت الموت فلا يخرجن من البيوت؛ نكالاً لهن وتأديبًا على ما فعلن وتعزيرًا على سوء صنيعهن، أو يجعل الله - سبحانه وتعالى - طريقًا آخر وحلاً غير هذا، وقد نسخ الله هذه الآية، فحد الحَدَّ - سبحانه وتعالى - في الزنا وبيّنه وشرحه للناس كما في أول سورة النور.

(١٦) ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾

والرجل والمرأة إذا اقترفا فاحشة الزنا فعليكم بتأديبهما وتعزيرهما وتوبيخهما وجلدهما، فإن أقلعا عن الفاحشة وتابا إلى الله وأصلحا فيما بينهما وبين ربهما فعليكم بعدم تذكيرهما بالذنب، والإعراض عنهما، وكف الأذى عنهما؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يتوب على من تاب، ويعود بلطفه على من أناب، وهو - سبحانه وتعالى - واسع الرحمة لمن عاد إليه، ومهما ارتكب من الكبائر والفواحش فعليكم - أيضًا - أن تعودوا على من تاب بالإعراض، والكف عن إيذائه.

(١٧) ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

التوبة الصحيحة المتقبلة التي يتوب الله على أصحابها هي التي تحصل من قوم ارتكبوا المعصية عن سفه وجهالة، ثم شعر أحدهم بالذنب والندم والأسف والانكسار، فعاد إلى ربه - سبحانه وتعالى - وأناب وأقلع وانخلع من ذنبه واعتذر إلى ربه، لا كالذي يرتكب الأخطاء عن عمدٍ وعن علم وسخرية واستهزاء بربه، وتهاون بأمر مولاه، فمن عاد إلى ربه تعالى بعدما ارتكب الذنب عن سفاهة وجهلٍ، وأناب وصدق فإن الله - سبحانه وتعالى - يغفر ذنبه، ويستر عيبه، ويبدل سيئاته حسنات، ويكرم مثواه؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - عليم بمن صدق في توبته وعاد إلى مولاه بإخلاص، وهو حكيم - سبحانه وتعالى - يضع كل شيء موضعه، لا يعذب غير من يستحق العذاب، يعطي كل إنسان ما يستحقه من ثواب أو عقاب بحكمة متناهية، وقدرة فائقة.

(١٨) ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾

والتوبة المتقبلة الصحيحة لا تُعطى لمن أسرف في الإجرام، واستمر على الآثام، وارتكب المحارم بعمدٍ، وقصر واستهزأ بوعد الله - سبحانه وتعالى - ووعيده، فإذا فاجأه الموت وأخذ يعتذر وأخذ يتنصل من ذنوبه، هذا ليس ممن يستحق التوبة؛ لأنه أسرَّ واستكبر وتجرأ على محارم الله -عز وجل- وسوّف بالتوبة وأخر الإنابة، وكذلك لا يُتاب على من مات كافرًا، بل هو خالد مخلّدٌ في النار، فإن الله لا يقبل من كافر عملاً ولا شفاعة، ولا يدفع عنه العذاب يوم القيامة دافع، هؤلاء أعدّ الله - سبحانه وتعالى - لهم العذاب الأليم الموجع، والنكال الدائم، والعقاب المقيم.

(١٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾

أيها المؤمنون، لا يجوز لكم أن تتلاعبوا بميراث المرأة كما يتلاعب بسقط المتاع، فلا يحل لكم أن تحرموا المرأة ميراثها، أو تتوارثوا المرأة بعد موت زوجها كرهًا ورغمًا لها، ولا يجوز لكم أيها الأزواج أن تمنعوا المرأة بعد طلاقها الزواج بزوج آخر لتعودوا إلى ما أعطيتموهن من المهر فتأخذوه ظلمًا وعدوانًا، وهذا فيمن يرغم في أن تفتدي نفسها دون موجب إلا في حالة واحدة أن تأتي المرأة بفاحشة واضحة فإنه يجوز للرجل أن يضيق عليها وأن يعزرها ويؤدبها

حتى تفتدي ببعض مالها كما قال بعض السلف، ولكن في العموم عليكم بحسن معاشرة المرأة واللطف معها ورحمتها وتَحَمُّل ما يبدر منها، واتقاء الله - سبحانه وتعالى - فيها، وعدم الإضرار بها، وهذا كله لضعف المرأة ولعدم قدرتها على مصاولة الرجل، وعليكم بالصبر على المرأة فيما يبدر منها من نقص أو حدة أو نحو ذلك، فربما كان الخير في الإمساك، فيرزقكم الله - سبحانه وتعالى - الذرية الصالحة، والأبناء المفلحين، فيكون الصبر عليهن من الحكمة، وتكون العواقب سليمة؛ لأن الله يأجر من صبر ومن حلم. وفيه حث على الاستمرار في الحياة الزوجية، وعلى تلافي الأخطاء من الجانبين، وعلى حسن العشرة بين الزوجين، وفيه حث على الرحمة بالمرأة واستدامة العشرة معها ولو بدرت منها أخطاء، وفيه نهي عن التعجل بالطلاق، لما فيه من هدم الأسر وتشتيت الأبناء وكسر القلوب وتوريث الإحن والأحقاد في النفوس، فالطلاق لا يُفزع إليه إلا أن يكون حلاً أخيراً، ويكون الإنسان مضطراً إليه اضطراراً لا يجد مخرجًا منه.

(٢٠) ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

وإذا رغب أحدٌ منكم - أيها المؤمنون - أن يتزوج زوجةً أخرى، ويطلق الزوجة التي معه بسبب شرعي وقد أعطى هذه المطلقة مالاً كثيرًا ولو ما يبلغ القنطار الذي لا يُعد ولا يُحصى من الذهب، فلا يجوز له أن يعود على هذا المهر، فلا يأخذ منه شيئًا، فإنه حق خالص لهذه المرأة، وأخذه ظلم وجور وتعدٍّ وبغي، ولا يفعله إلا كل ظالم جبار لا يراقب ربه ولا يخاف مولاه، فإن أحقية المرأة بالمهر لا شك مقابل الاستمتاع الذي حصل والعشرة التي وقعت.

(٢١) ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾

هل يحل لكم أن تعودوا إلى مهر المرأة وتأخذونه غصبًا وظلمًا وأنتم تعلمون أنه وقع بينكم من الخلوة والمعاشرة الخاصة والتمتع بالأجسام وقضاء الوطر ما يفوق أضعافًا مضاعفة من هذا المهر؟! فكيف لا تُقدِّرون ما حصل من هذه الأمور الخاصة وهي عظيمة؟ وقد أخذ الله - سبحانه وتعالى - العهد الوثيق على الزوج في العقد الشرعي الذي سنه رسول الهدى ﷺ وذكره بقوله: **«اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»**، فعلى العبد أن يراقب ربه في هذا العهد الوثيق الذي قام بينه وبين الولي على الزواج من هذه المرأة وأن يراعي ذلك الميثاق الغليظ.

(٢٢) ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

لا تتزوجوا بزوجات آبائكم بعد موتهم، إلا ما سبق منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه؛ لأن الإسلام يهدم ما قبله، فإن نكاح زوجات الآباء أمرٌ قبيح، متناهٍ في القبح والشناعة، وساء هذا النكاح المشؤوم طريقًا لقضاء الوطر، إذ كيف يليق بالعاقل أن يعلو امرأة أبيه بعد وفاته، وهي مثل أمه؟ كان الرجل في الجاهلية إذا تُوفي أبوه هو الأحق بامرأته، إن شاء نكحها - إن لم تكن أمه - وإن شاء زوَّجها لمن يريد وأخذ مهرها، فلما تُوفي "أبو قيس بن الأسلت" قام ابنه يريد أن يتزوَّج بزوجة أبيه، فقالت له: إني أعدُّك ابنًا لي، ولا أقبلُ حتى آتي رسول الله ﷺ فأسأله عن هذا الأمر، فأتته فأخبرته فنزل قوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم ..﴾ الآية، ثم ذكر تعالى المحرمات من النساء في الآية.

(٢٣) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

فصل المولى - عز وجل - من يحرم نكاحهن من النساء، وبدأ بالمحرمات من النسب، وهنَّ سبعٌ: **«الأمهات، البنات، الأخوات، العماتُ، الخالات، بنات الأخ، بنات الأخت»** فهؤلاء يحرم نكاحهن بسبب القرابة والنسب، والأمهات يدخل

فيهن الجدات، والبناتُ يدخل فيهن بناتهنَّ، والأخوات يشمل الأخوات الشقيقات، والأخوات من الأب، والأخوات من الأم من أيِّ جهة كُنَّ، والعمات يشمل أخوات الآباء وأخوات الأجداد، والخالات يشمل أخوات الأمهات وأخوات الجدات، وبنات الأخ وبنات الأخت يدخل معهن بناتهن. ثم ذكر - تعالى - المحرمات من الرضاعة، وتحرم عليكم أمهاتكم من الرضاعة، وهي الأم التي رضع منها الطفل قبل اكتماله العامين، وأخواتكم اللاتي رضعن معكم، ولم يذكر - سبحانه - من المحرمات من الرضاعة سوى «الأمهات والأخوات» وقد وضحت السنة النبوية، أن المحرمات من الرضاعة سبعٌ كما هو الحال في النسب، فقد روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»** ثم ذكر - تعالى - المحرمات بالمصاهرة، ويحرم عليكم أمهات زوجاتكم، وهنَّ محرمات بمجرَّد العقد على بناتهن، والربائب جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من زوج آخر، يحرم نكاحها إذا كان قد دخل بأمها، فإن لم يكن قد دخل بها وفارق أمها قبل الزفاف، فلا حرج من نكاح ابنتها، والقاعدة في هذه المسألة، (العقد على البنات يُحرِّم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرِّم البنات)، ويحرم - أيضًا - نكاح زوجة الابن الصُّلبي، لا الابن من التبنِّي، فخرج بذلك الأدعياء من أولاد التبني، ويحرم الجمع في النكاح بين الأختين، وجاءت السنة النبوية بتحريم الجمع بين الزوجة وعمتها، والزوجة وخالتها، فقد روى مسلم بسنده أن النبي ﷺ: **«نهى أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها»** وقد كانوا في الجاهلية يجمعون بين الأختين في وقت واحد، إلا ما كان منكم في الجاهلية، فقد عفا الله عنه؛ لأنه - سبحانه - ساتر لذنوب العباد، رحيم بهم.

﴿٢٤﴾ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

وحُرِّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء، إلا ما ملكتموهن في الحرب، عن طريق الأسر، فيحل لكم وطؤهنَّ بعد الاستبراء بحيضة، وكتب الله عليكم تحريم ما ذُكر من النساء كتابًا، وفرضه فرضًا، وأبيح لكم نكاح ما سواهنَّ، إرادة أن تطلبوا النساء، بطريق شرعي صحيح، فتدفعوا إلى الزوجة المهر، حال كونكم أعفَّاء متزوجين غير زانين، وسُمي الزنا سفاحًا؛ لأنه لا غرض للزاني إلا سفح الماء (المني) وقضاء الشهوة البهيمية، والمراد بالاستمتاع هنا: التمتع والتلذذ بالنساء، بطريق النكاح الشرعي، لا نكاح المتعة كما يفسِّره الرافضة، حيث أباحوا نكاح المتعة، وهو محرم بالنصوص النبوية القاطعة، حرَّمه الرسول ﷺ في مشهدين عظيمين: حين فتح خيبر، ويوم فتح مكة، وقد سُئل جعفر الصادق - وهو من أئمة آل البيت - عن نكاح المتعة؟ فقال: هو الزنا بعينه، ويدل عليه أن الله ذكر المحرمات من النساء، ثم أعقبه بذكر ما يحل من النساء، بشرط الدوام والاستمرار، ودَفْعِ المهر لهن، ومعنى الآية الكريمة: فما تلذَّذتم بالجماع من النساء، بالنكاح الشرعي الصحيح، فادفعوا إليهن مهورهنَّ، فريضة فرضها الله عليكم، ولا حرج ولا إثم عليكم أيها المؤمنون، فيما أسقطن من المهر برضاهنَّ، فالله - سبحانه - عليم بمصالح العباد، حكيم فيما شرع لهم من أحكام.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ومن لم يجد سعةً من المال أن يتزوج بالحرة العفيفة فله أن ينكح أَمَةً - أي مملوكة مؤمنة - إذا خاف على نفسه الوقوع في الزنا، فليتزوج بها للضرورة، بإذن سيدها ومالكها، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ جملة اعتراضية،

لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر، والله يتولى السرائر، فلا تستنكفوا من نكاح الأَمَةِ؛ عند الضرورة، فكلكم بنو آدم، ومن نفس واحدة، وربَّ أَمَةٍ خيرٌ من حرة، فتزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن، وادفعوا مهورهن بالعدل والإنصاف، بشرط أن يكنَّ عُفيفات، غير مجاهرات بالزنا، ولا عشيقات لرجال بالسر، يفجرن معهم، والخدن: هو الصديق للمرأة يزني بها سرًا، فإذا تعفَّفن عن الزنا بالزواج، ثم زنين، فعليهنَّ نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنا، وهو الجلد خمسون جلدة، ولا رجم على الأَمَةِ، لأن الله - تعالى - جعل عقوبتها النصف، والرجم لا يمكن أن يُنصَّف، هذا الذي بينَّاه من نكاح الإماء، إنما هو لمن خاف على نفسه (العنت) أي الفجور، والوقوع في جريمة الزنا، وقد أشارت الآية إلى أن النكاح بالمملوكات للضرورة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وتعففكم أيها المؤمنون عن نكاح الإماء المملوكات خير من نكاحهن، لئلا يصير الولد رقيقًا، والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة.

(٢٦) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ويريد الله بما شرع لكم من هذه الأحكام، أن يبيِّن لكم ما خفي عليكم من مصالحكم، ومحاسن دينكم، ويرشدكم إلى مناهج الأنبياء والمرسلين، لتقتدوا بهم، وأن يوفقكم إلى التوبة، والله عليم بأحوال العباد، حكيم في تشريعه لهم.

(٢٧) ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾

والله يريد أن يطهركم من الذنوب والآثام، ويريد الفسَّاق والفجَّار الذين يتبعون الأهواء والشهوات أن يصرفوكم عن التقوى إلى الفجور، وعن الإيمان إلى الضلال؛ لتكونوا مثلهم.

(٢٨) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

ويريد - تعالى - أن يُسهِّل عليكم في أمر التكاليف الشرعية؛ ولهذا خفف عنكم الأعباء، وجعلكم على الحنيفية السمحة، رحمةً منه وفضلاً، لضعفكم وعجزكم؛ لأن من طبيعة الإنسان عدم الصبر عن شهوات النفس.

(٢٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

أيها المؤمنون، لا يأكل بعضكم مال بعض في الحرام، كأكل الربا والقمار والسرقة والرشوة وأنواع البيوع المحرمة، فإن هذا مما حرمه الله - سبحانه وتعالى - في كتابه وسنة رسوله، واحذروا أن يسفك بعضكم دم بعض، وأن يعتدي بعضكم على عصمة نفس بعضكم، فإن المسلمين نفس واحدة، فمن قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا، وإنما حرم الله - عز وجل - قتل الأنفس المعصومة وأخذ الأموال المحترمة؛ لأنه - سبحانه وتعالى - رفيق بالمؤمنين، رحيم بالمسلمين، فمن رحمته أنه عصم دماءهم، وحفظ أنفسهم، وصان أموالهم، ليعيشوا في أمن وسعادة وتآخ وتآلف.

(٣٠) ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

ومن يقدم على ذلك من قتل النفس وأكل أموال الغير بالباطل فقد اعتدى وظلم، اعتدى على غيره، وظلم نفسه، وجزاء من قام بالعدوان والظلم أن يُصْلَىَ نار جهنم جزاءً لفعله المنكر، ولعمله القبيح، وتعذيب المعرض والظالم يسير وسهل على الله -عز وجل- فالله لا يعجزه أحد ولا يخرج عن قدرته قوي، ولا يغلبه مغالب، فإن الله إذا أراد شيئًا أدركه وأحاط به، لا معقب لأمره ولا راد لفضله، وهو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(٣١) ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

أيها المؤمنون، إذا تركتم كبائر الذنوب والفواحش العظيمة من مثل: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ونحوها من الخطايا الكبيرة والذنوب العظيمة غفر الله لكم صغائر الذنوب، وتجاوز عن محقراتِ السيئات، وتغمدكم برحمته

وأدخلكم رضوانه في جنة عدن، حيث الحبور والنور والسرور، والمقام الكريم الآمن، والمقعد الصدق، والخير العميم، والنعيم المقيم، في جنات النعيم.

٣٢ ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾

لا يحسد بعضكم بعضًا فيتمنى الفضل الذي وهبه الله - سبحانه وتعالى - لأخيه، فإن هذه أرزاق مقسومة يمنحها الله - سبحانه وتعالى - من يشاء بحكمة وعلم، فليس للعبد أن يحسد أخاه على ما أعطاه الله -عز وجل- من مال أو أبناء أو جاه أو منصب أو صحة، بل يسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يعطيه من فضله ومن كرمه كما أعطى غيره، فإن الله - سبحانه وتعالى - هو المعطي الكريم الوهاب، فكل قسمة بحكمة، وكل هبة بعلم، وكل عطية بتقدير؛ لأن الله عليم حكيم قدير مدبر يعطي من يصلح له العطاء بقدر ما يصلحه، وبقدر ما يستحقه، ويمنع هذا بقدر ما يعلم - سبحانه وتعالى - أنه الأفضل له والأجدر في حقه.

٣٣ ﴿ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾

كل ميت له عصبة يرثون من ماله مما تركه والداه وأقاربه، ومن عقدتم معهم حِلفًا في الجاهلية على النصر والميراث فأعطوهم نصيبهم من الإرث، وكان هذا الحكم معمولاً به في أول نزول الرسالة، ثم نُسخ بقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ أي: أحق بالإرث، والله - سبحانه وتعالى - مطلع على ما في الضمير. عالم بما في السريرة، لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عليه غائبة. ويأتي وصف الله - سبحانه وتعالى- بالرقيب والشهيد والحسيب عند الحدود والأوامر والأحكام لينبه عباده على أنه - سبحانه وتعالى - لمن خالفه بالمرصاد، وأنه يثيب من أطاعه واتبع رسوله.

٣٤ ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾

جعل الله - سبحانه وتعالى - الرعاية والإشراف والإدارة للرجل على المرأة لأمرين:

الأمر الأول: لِما أعطاه الله - سبحانه وتعالى - ومنحه من كمال العقل وحسن التصرف، وجميل التدبير وقوة الشخصية.

والأمر الثاني: لأن الرجل هو المنفق على زوجته، فهو الكاسب والمعطي، والقائم بالحقوق والمتصرف في الأموال، فحقه أن تكون الرعاية والإشراف والأمر والنهي بيده لهذين الأمرين، ثم وصف - سبحانه وتعالى - النساء الصالحات اللاتي يطعن أزواجهن في طاعة الله - سبحانه وتعالى - فتقوم بطاعة الله - سبحانه وتعالى - أولاً من إتمام عبوديته ومراقبته وخشيته، ثم تحفظ زوجها في عرضه، فتحفظ ما بينهما من الأسرار، وتحفظ شرف بيته ونسبه من أبنائه، فلا تغدر به ولا تخونه، ولا تتخذ خَدَنًا، فهي تحفظ زوجها بما أمرها الله - سبحانه وتعالى - بحفظه، وإذا خاف الرجل من زوجته عصيانًا واستكبارًا وتمرُّدًا فعليه أن يعظها ويزجرها ويوجهها التوجيه السليم، ويبين لها الأخطاء وينصحها نصيحةً بالغةً، ويحاورها بالتي هي أحسن، فإن أبت فعليه أن يؤدبها بضرب غير مؤذٍ فيجتنب الوجه والبطن والأعضاء الحساسة في جسمها، وهذا الضرب تأديب وتعزير وليس بتنكيل ولا تعذيب، وهذه كلها حلول جميلة وآداب نبيلة يتنزل فيها الشارع الحكيم مع المرأة لئلا يوصل إلى الطلاق المشين وإلى الفراق المؤذي، وليبقى بيت الزوجية ولتستمر العشرة، وليجتمع الشمل وهو كالعلاج الذي يناوله الطبيب المريض، وقد يكون فيه ما

يكره، وربما صحت الأجسام بالعلل، فإذا أطاعت المرأة واستجابت فالواجب كف الأذى عنها والرحمة بها وحسن العشرة لها؛ لأن المقتضي للتعزير والتأديب قد زال، واعلموا أن الله – سبحانه وتعالى – هو العلي الكبير، فهو عليٌّ على خلقه، له – سبحانه وتعالى – الرعاية العامة بشؤون عباده -جل في علاه- وله التصريف المطلق، وهو كبير – سبحانه وتعالى – في ملكه، وكبير في قدرته وكبير في علمه -جل في علاه-؛ ولذلك نبّه عباده على هذه العظمة ليُخشى ويُخاف، ولا يعجب أحد بقوامته ولا برعايته، ويعلم أن فوقه من هو أعظم منه، فالواجب أن يُخاف وأن يُراقب.

(٣٥) ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

وإذا خاف الحاكم كثرة الخلاف بين الزوجين فعليه أن يختار رجلاً عاقلاً عادلاً ثقة من أقارب الزوج، ورجلاً عاقلاً عادلاً ثقةً من أقارب الزوجة، فيكلفهم بمهمة الإصلاح بين الزوجين، وسلوك الطريق الأنسب في جمع الشمل، وإنما خصّ القرابة؛ لأنهم أعرف بما يقتضيه الحال، وبملابسات القضية وبأسرار المشكلة، فإذا أخلص الحكمان صدقا، فإن الله – سبحانه وتعالى – سوف يُصلح الأمور ويكلل المساعي بالنجاح ويوفق الجهود؛ لأنه – سبحانه وتعالى – يعلم السرائر، ويعلم الصادق في نيته من الكاذب، والمخلص في مسعاه من غيره، وهو -سبحانه- وتعالى خبير يعلم أسرار الأمور ويطلع على خفاياها، فلا يحكم إلا بعدل، ولا يقضي إلا بحكمة، ولا يدبر إلا بعلم -جل في علاه-.

(٣٦) ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

ثم أمر الله – سبحانه وتعالى – الناس بعبادته وحده وعدم الإشراك به، وإخلاص العبودية له وإفراده بالوحدانية، وإطاعة أوامره وتصديق رسوله والعمل بكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، وأمر بالإحسان بالوالدين واللين في مخاطبتهما وطاعتهما في طاعة الله والرأفة بهما والإحسان إليهما بكل أنواع الإحسان، ثم أمر بالإحسان للقرابة؛ الذين بين المرء وبينهم نسب وحسب وصلة، فالإحسان إليهم والصبر على أذاهم وصلتهم ثوابه عظيم، والإحسان إلى اليتيم والعطف عليه وحسن الرعاية له، وإيصال النفع إليه يرقق القلب ويقرب من الله، وكذلك المسكين الذي لا يجد قوامًا لحياته ولا ما يكفيه في معيشته فيوصل بقدر حاجته، وكذلك الجار الذي بينك وبينه قرابة فإن له حق القرابة وحق الجوار من حسن التعامل معه وكف الأذى عنه، وكذلك الجار الذي ليس بينك وبينه قرابة وإنما له حق الجوار فحقه أن يُحسن إليه، وأن يُكرم ويُتطلف معه، وأن لا يرى منك إلا خيرًا وإحسانًا وبرًا، وكذلك من رافقك في سفر أو في تجارة أو في عمل من الأعمال، فإن هذا قد صار صديقًا لك فوقٌ له حق الصداقة، وكذلك المسافر المنقطع في سفره الذي ليس له من يقوم بشؤونه ولا من يقضي حوائجه، فعليك ببذل جهدك في نفعه، فإن الله – سبحانه وتعالى – لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وكذلك المسْتَخْدَمين ومن لك عليهم حق التصرف والتدبير، فعليك بالرحمة بهم واللطف والإحسان إليهم؛ لأنهم ضعفاء جعل الله لك عليهم القوامة والتدبير، والله – سبحانه وتعالى – لا يحب من كان مختالاً بنفسه بالكبر والعتو والاستعلاء، ولا يحب من يفتخر بلسانه بمديح نفسه وبالثناء عليها وبإطرائها، فإن هذين خلقان مذمومان، وهما من أخلاق إبليس الذي عصى ربه وخرج عن طاعة مولاه، فالواجب على العبد أن يتواضع في نفسه فلا يرى لها قدرًا ولا حقًا، فلا يطالب ولا يعاتب ولا يفتخر بلسانه، بل يحمد الله – سبحانه وتعالى – على ما عنده من النعم، فيتفكر في ذنوبه القصيرة، فينكسر لمولاه، ويتواضع لخالقه، ويخبت لمعبوده.

﴿٣٧﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

وهؤلاء المختالون والفخورون بأنفسهم ينطبق عليهم مثل اليهود الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله من العلم ومن المال، ولم يكفهم هذا حتى قاموا ينصحون الناس ويأمرونهم بالبخل وبإمساك أيديهم في الإنفاق، وزادوا على ذلك بأن كتموا العلم الذي منحهم الله إياه، فهم كتموا أوصاف الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكتموا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يشمل غيرهم ممن شابههم من هذه الأمة، فإن من الناس من يبخل بماله، ومنهم من يبخل بعلمه، وهما من شر الخليقة، فإن الواجب على العبد أن يراقب ربه فيما أعطاه من مال وعِلْم، فصاحب المال ينفقه في وجوه الخير، والعالم يُعَلِّمُ بعلمه ولا يكتمه؟ فيلقى ربه عاصيًا له، ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أنه هيأ لأعدائه ومن كذّب رسله ومن كفر بهم عذابًا وإذلالاً وخزيًا وعارًا في نار جهنم، حيث الخلود فيها، مع العذاب الفظيع والنكال الشنيع.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - صنفًا آخر ينفق ويعطي لكنه يريد مراءاة الناس وحمدهم ومدحهم والثناء منهم، فعمله مُحبط وسعيه مردود عليه، وإنما ينفق رياءً؛ لأنه لا يؤمن بلقاء الله -عز وجل- وثوابه وعقابه، وإلا لو علم أن الله يحاسب العباد ويجمعهم ليوم لا ريب فيه كان أخلص عمله، وصدق في قوله وفعله، ولكن الشيطان تولاه وأصبح صاحبًا له وقرينًا، فبئس من كان صاحبه الشيطان، وقبحًا لهذا القرين الذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

وماذا يضرهم لو أنهم صَدَّقَوا بكتاب الله ورسوله ﷺ، وعملوا لليوم الآخر، وأخلصوا أعمالهم، وصَدَقُوا في أقوالهم، وأصلحوا أعمالهم، فكان لهم الثناء الحسن، والأجر الجليل، والمنقلب الطيب عند ربهم ومولاهم، ثم ماذا يضرهم لو أنهم تصدقوا مما أعطاهم الله - سبحانه وتعالى - وكان زكاةً لنفوسهم، وطهارةً لأعراضهم، ونماءً لأموالهم، وكان الله - سبحانه وتعالى - أعطاهم من كرمه ومن واسع فضله وزادهم من خيره وبرّه؛ لأنه - سبحانه وتعالى - عليم لا تخفى عليه خافية. وهنا لما كان هناك دخول في النيات وتحدث عن المقاصد، كان مناسبًا أن يذكر الله - سبحانه وتعالى - علمه؛ لأنه يطلع على الخوافي، ويعلم السرائر لا إله إلا هو.

﴿٤٠﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

والله - سبحانه وتعالى - ليس بظلاّم للعبيد، فلا يبخس أحدًا مثقال ذرةٍ من التراب، فإذا كانت هذه الذرة من أعمال الخير ضاعفها أضعافًا كثيرة حتى تصبح كجبل أحد، كما في الحديث. وهو - سبحانه وتعالى - يتفضل من عنده بالعطاء والمضاعفة، فهو يقبل اليسير ويعطي الكثير والأجر العظيم مدخر عنده لمن أحسن العمل وهو الفوز برضوانه ودخول جنانه في مقام آمن، مقعد صدق.

﴿٤١﴾ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

كيف يكون الأمر وعلى أي حال يكون الخطب إذا جمع الله الأولين والآخرين، وأخذ الشهداء من الأمم يشهدون على أُمَمِهم بالبلاء وبأنهم نصحوهم وعلموهم، ثم يكون على الجميع شاهد واحد هو محمد بن عبدالله ﷺ، إنه لموقف صعب، ومقام رهيب، وحدث هائل، وخبر مرعب، وموقف شديد، ونبأ مذهل، فالواجب أن يُعِدَّ العبد العدة لهذا اليوم العظيم، ويحسن العمل لينجو من تلك الأهوال. ولما قُرِئت عليه ﷺ هذه الآية بكى شفقةً على أمته، ورحمةً للمقصرين منهم.

(٤٢) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾

يوم يحصل هذا اليوم يتمنى الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ ولم يتبعوه لو يجعلهم الله والأرض سواء فيصبحون تراباً حتى لا يعودون إلى الله للحساب يوم القيامة، وهم لا يقدرون إخفاء سرٍّ مما في نفوسهم بل يعترفون بكل شيء إذا ختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

(٤٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

أيها المؤمنون، لا تُصلُّوا وأنتم في حالة السكر، فتهرفون بما لا تعرفون، وتهذون بما لا تعقلون، ولكن امكثوا حتى ينتهي السكر ثم صلوا، وهذا قبل أنْ تُحرم الخمر ويُنهى عنها، ولا تصلوا - أيضًا - وأنتم عليكم الجنابة، بل اغتسلوا قبل ذلك الغسل الشرعي، ومن كان منكم مسافرًا ولم يجد ماءً فيتيمم، ومن كان مريضًا ولا يستطيع استخدام الماء لضرر يحصل له، فعليه بالتيمم بالتراب، والمسافر الذي يقضي حاجته أو يجامع زوجته ولم يجد ماءً فعليه أن يتيمم بالتراب الطيب، وهو الصعيد الذي يطلق عليه تراب، فيمسح وجهه ويديه، وهذا من رحمة الله ومن عفوه ولطفه بهذه الأمة، ومن التيسير بها، ووضع الآصار والأغلال التي كانت على الذين من قبلها؛ ولذلك ختم الله ذلك بأنه عفوٌّ غفور، فهو يعفو عن الخطأ فلا يأخذ به بعد العفو، ويستر الزلة فلا يفضح صاحبها بعد أن يتجاوز عنه، وانظر كيف كنى الله - سبحانه وتعالى - عن الجماع بالملامسة؛ لأنه حيي كريم - جل في علاه -.

(٤٤) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾

ألا تتعجب من هؤلاء اليهود الذين أعطاهم الله بعض علم كتابهم من التوراة، وفيه الشهادة برسالة محمد ﷺ وبيان كل شيء، ومع ذلك باعوا الهدى الذي عندهم واستعاضوا مكانه الضلالة والانحراف عن منهج الله، ولم يكفهم الضلال في أنفسهم والغي في قلوبهم حتى سعوا جاهدين لإضلال المسلمين، وإلى صرفهم عن الهداية التي شرفهم الله بها، فهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم لما في قلوبهم من الخبث وما في نفوسهم من المكر والخديعة.

(٤٥) ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾

ولكن الله يعلم مخططات هؤلاء الأعداء، وسوف يكشفها للمؤمنين ويهتك أستارهم، ويفضح أسرارهم حتى يظهر عوارهم، وحسب المؤمنين الله وليًا يمنحهم ما ينفعهم ويتولى شؤونهم ويدبر أمورهم، ويحسن إليهم، وحسبهم ناصرًا يدافع عنهم، وينصرهم ويخذل أعداءهم، وياله من شرف عظيم لهؤلاء المؤمنين أن يكون الله هو الولي والنصير وحده.

(٤٦) ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فريق من اليهود حرّفوا كلام الله - سبحانه وتعالى - وبدّلوا معانيه وألحدوا في آياته وحملوا الكلام على غير محمله، وإذا أتوا إلى الرسول ﷺ قالوا: سمعنا بآذاننا وعصينا بقلوبنا وأعمالنا؛ زيادة في البهت والمكر والكيد، ويقولون للرسول ﷺ: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمع منا لا سمعت مكروهًا، - هذا في ظاهر الكلام - وهم يقصدون بمكرهم وخبثهم: اسمع لا أسمعك الله، أو ابتلاك الله بالصمم، ويقولون من السفه والجهل: راعنا، فظاهرها انظرنا حتى نتكلم، وباطنها راعنًا من الرعونة، وهي الحمق والسفه، تحريفًا بألسنتهم وخبثًا في قلوبهم، ومكرًا في أعمالهم، ويريدون بذلك الاستهزاء بالرسول ﷺ والدين، وتهوينه عند الناس، ولو أن هؤلاء الكفرة الفجرة

اتبعوا السبيل الأقوم، والمسلك الأحسن لقالوا: سمعنا كلامك وأطعنا أمرك، واسمع منا وأنظرنا، وتمهل علينا، وأخذوا بالألفاظ التي لا تحتمل المحامل السيئة، وليس فيها تشويش، ولا تلبيس ولا تدليس لكان خيرًا لهم في الدنيا نصرًا وتمكينًا، وكان خيرًا لهم في الآخرة من الأجر العظيم والثواب الجليل، ولكن هؤلاء القوم لعنهم الله، والملعون لا يهتدي إلى دليل، ولا يفهم حجةً ولا يفقه دينًا، فإن قلبه مطموس؛ لأنه مطرود عن أماكن الرحمة التي تتنزل عليها بركات الله، فهم لا يؤمنون ومن آمن منهم قليل، كعبد الله بن سلام وربما آمن بعضهم ببعض ما أنزل على محمد ﷺ، وكفر بأكثره.

(٤٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

أيها اليهود، صدقوا بمحمد - عليه السلام - فقد أتى بما صدق رسالتكم في التوراة، وما أنزل على موسى، وآمنوا به قبل أن يغضب الله عليكم، فإذا غضب عليكم طمس وجوهكم فمحا محاسنها، وردّها على أقفائها، وطردكم من رحمته كما طرد أجدادكم يوم خالفوا واصطادوا يوم السبت، وأمر الله حاصل لا محالة، وكائن لا شك فيه، ليس له راد إذا أراد، وهذا وعيد وتهديد شديد بمعاجلة اليهود بالعذاب في الدنيا، والنكال في الآخرة.

(٤٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

أخبر - سبحانه وتعالى أن من أشرك به شيئًا، فإنه لا يغفر ذنبه، ولا يدخله الجنة، بل هي محرمة عليه، وهو خالدٌ مخلّدٌ في النار، وكل ذنب دون الشرك عسى أن يغفره الله، فهو تحت مشيئة الله - سبحانه وتعالى - إن شاء غفر، وإن شاء عذب، ومن أشرك به - سبحانه وتعالى - فقد أتى بجرمٍ فظيع، وذنب شنيع، كل ذنب يهون دونه، وكل معصية تخف عنده، فهو أعظم السيئات، وأكبر الخطيئات، وصاحبه موبق في النار، لا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا يدافع عنه ولي، ولا ينصره ناصر، ولا تقبل منه فدية، ولا ينفعه عمل، أعاذنا الله من الشرك.

(٤٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

انظر إلى هؤلاء اليهود كيف يمدحون أنفسهم، ويطهرونها بألسنتهم، ويزعمون أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، ويتمدحون عند الناس أنهم شعب الله المختار، وأنهم خير الأمم، وهذا لا يُوكل إليهم، إنما الذي مدحه زين، وذمّه شين، والذي يعود له تزكية العباد ومدحهم والثناء عليهم ثناء حقيقيًا بصدق وعلم وحق هو الله - سبحانه وتعالى -، وهؤلاء لو أن عندهم حسنات لما ظلمهم الله بعدم إثابتهم عليها، والله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا شيئًا، ولو كان بمقدار الخيط الذي في شق النواة، لتنزهه عن الظلم، وأمره بالعدل.

(٥٠) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾

ألا تتعجب من هؤلاء اليهود كيف يجترئون هذه الجرأة في الكذب على الله، والافتراء على دينه ورسله، ويزعمون أنهم خير الأمم، وأنهم أبناء الله، وأنهم أحباؤه، وأنهم لا يعذبون في النار إلا أيامًا معدودة، وأن الله أخذ عليهم العهد والميثاق ألاّ يؤمنوا برسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، إلى غير ذلك من الافتراءات والكذبات الكبرى، والغدر والفجور، فقاتلهم الله، ألا عَقْلٌ يردعهم؟ ألا يردّهم دين؟ ألا يمنعهم حياء؟ وهذا الكذب الذي يمارسونه ويعملونه كفى به جرمًا بينًا، وخطأً واضحًا، وذنبًا شهيرًا، يستحقون عليه أشد النكال، وأعظم العذاب في دار الخزي والهوان في نار جهنم.

(٥١) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾

ألا تتعجب من هؤلاء اليهود الذين أعطيناهم حظًا من علم التوراة، وأرسلنا إليهم رسولاً كريمًا هو موسى عليه السلام، ومع ذلك يؤمنون بالسحر ويعبدون طواغيت من دون الله -عز وجل- ويشركون مع الله غيره، وقام أحد

أحبارهم وهو كعب بن الأشرف فأقسم عند كفار قريش أنهم أحسن طريقةً، وأهدى دينًا من محمد وأصحابه.. فهم أهل الخيانة، وقلة الأمانة، وانحراف عن الديانة، وإيمان بالسحر والكهانة، فابتلاهم الله بالذل والمهانة.

(٥٢) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾

هؤلاء الذين فعلوا هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة من الكفر بالله والاستهزاء بمحمد ﷺ وأصحابه، والشهادة للكفار على المؤمنين، قد طردهم الله من رحمته وغضب عليهم غضبًا شديدًا، وسَخِط عليهم وأذلهم وأخزاهم، فليس لهم ناصر ينصرهم من دون الله، ولا دافع يدفع عنهم العذاب، ولا ولي يجلب لهم النفع.

(٥٣) ﴿ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

وهم يدعون أنهم سوف يكون لهم الملك في آخر الزمن كما كان لأسلافهم، فلو كان لهم الملك لو أُعْطُوه - وهم كذبة لن يُعطوه - فسوف يبخلون غاية البخل، ولا يعطون الناس شيئًا من الخير، لأنهم حسدةٌ بخلاء، حتى إنهم يمنعون النقير، وهو الشيء الحقير الذي يشابهه النقرة في ظهر النواة.

(٥٤) ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴾

وهم مع البخل حسدة، فقد حسدوا المؤمنين على ما كَرَّمهم الله وشرّفهم به من إرسال محمدﷺ، وإنزال القرآن عليه، فلماذا يحسدون عباد الله على كتاب الله ورسوله وقد أنزل الله عليهم - سبحانه وتعالى - الكتب، وأرسل إليهم الرسل، وجعل منهم الأنبياء، فأبو الأنبياء إبراهيم ومن جاء بعده من أبنائه كإسماعيل وإسحاق ويعقوب مصطفون آتاهم الله النبوة والكتاب، ويعقوب هو إسرائيل أبوهم، فكانت فيهم النبوة والرسالة، لو قدروها حق قدرها، وقاموا بها حق القيام، وأحسنوا طاعة الله -عز وجل- وشكره، وآتيناهم ملكًا عظيمًا؛ كملك داود وسليمان، ومع ذلك لم يشكروا الله، بل قتلوا الأنبياء، وكفروا بالرسالة، وألحدوا في الكتاب.

(٥٥) ﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

من اليهود وهم قلة قليلة من آمن بالرسول ﷺ وصدق بكتابه، وأكثرهم أعرض عن الرسول ﷺ، وكذبوا بما جاء به واستهزؤوا برسالته، فهم جمعوا بين البخل بأموالهم والحسد في أنفسهم والصد عن سبيل الله -عز وجل- والكفر برسالته، وهؤلاء جزاؤهم نارٌ تلظى، تحترق احتراقًا لتشوي وجوههم، وتحرق أجسامهم جزاءً وفاقًا على سوء صنيعهم، وعلى خبث سرائرهم، وعلى كثرة كيدهم ومكرهم.

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾

الكفار من أهل الكتاب ومن غيرهم من مشركي العرب لهم عند الله - سبحانه وتعالى - نار تحرق أجسامهم، وتشوي جلودهم، كلما أحرقت الجلد وأذهبته - وهو موطن الإيذاء في الجسم والإحساس - أبدل الله مكان الجلد جلدًا؛ ليستمر العذاب ويبقى النكال، فيا سوء حالهم، ويا قبح مآلهم، والله - سبحانه وتعالى - الذي كتب هذا العذاب عليهم عزيز لا يُغالب، متفرّد عن سواه بالألوهية والربوبية، فلا نديد له ولا ضد، وله القوة المطلقة، ثم إنه حكيم لا يُوقع العذاب والعقاب لغير مستحقه، يقع كل شيء منه بحكمة وبعدل.

(٥٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾

أما المؤمنون الصادقون الذين أكثروا من فعل الخيرات واجتناب المنكرات فبشرهم بجنات النعيم، فيها أنهار من ماء وعسل، وخمر ولبن، لا يسمعون فيها لغوا، وهم مع ذلك منعّمون يستمر نعيمهم أبد الآباد، لا يتحوّلون عنه ولا ينقطع

عنهم التكريم، ولا يعتريهم هرم ولا سقم ولا عدم، وهم مع ذلك لهم زوجات مطهرات في الجنة من الأقذار والأدناس، فلا يأتيهم ما يأتي نساء الدنيا من الحيض والنفاس أو نحو ذلك، ومع ذلك يُدْخِل الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين الظل الدائم في جنات النعيم، فلا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا، بل هم في مقعد آمن، وعيش رغيد، وحياة سعيدة، وقرة عين، وبهجة نفس، وانشراح صدر.

(٥٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾

يأمركم الله - أيها المؤمنون - أن تؤدوا الأمانة إلى أهلها، فالأمانة التي بينكم وبين الله من القيام بأمره واجتناب نهيه، والأمانة التي بينكم وبين الناس من أداء الودائع والحقوق المالية، وإنفاذ العقود، والوفاء بالعهود، وعدم نقض الأيمان، وعليكم بالإنصاف والسوية بين الناس إذا أُسند إليكم حكم من قضاء، أو فصل خصومات، أو صلح بين العباد فاتقوا الله في ذلك، فلا يظلم أحدكم ولا يغدر ولا يملّ عن الحق، ووالله إن هذه الوصية من أعظم الوصايا، ومن أجلّ النصائح، فهي خير في الدنيا والآخرة، وهي رشد وسداد، والذي أمر بها هو الله الواحد الأحد السميع للأقوال، فلا يخفى عليه صوت، والبصير بالأفعال، فلا يعزب عنه علم، والخبير بالأحوال، فلا تخفى عليه خافية -جل في علاه-. ويا من آمن بالله وصدّق رسوله عليكم بطاعة الله -عز وجل- فيما أمر به ونهى عنه، وطاعة الرسول ﷺ باتباع سنته وتحكيم شريعته ظاهرًا وباطنًا، وأطيعوا أولي الأمر في طاعة الله -عز وجل- وهم من يتولى الأحكام وسياسة الأمور، فإذا أطاعوا الله فأطيعوهم، ولا تطيعوهم في معصية الله -عز وجل- فالطاعة لهم إذا كانوا مسلمين مؤمنين بالله يأمرونكم بخير، وإذا اختلفتم في قضية من القضايا، فإن المرد إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، فحكّموا الشريعة في أنفسكم عند الخلاف، وارضوا بحكم الله وحكم الرسول ﷺ، ففيه غاية الإنصاف، وفيه العدل كل العدل، والحق أجمعه والصدق أوله وآخره، ولا يفعل ذلك من طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر والرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا من خاف الله واتقاه، وأعد للقائه ورجا رحمته وخاف عذابه، وهذه الأمور الحسنة والمسلك الجميل خير في الدنيا من العز والنصر واجتماع الكلمة، وخير عاقبة عند الله -عز وجل- من الأجر الدائم والنعيم المقيم والأجر العظيم.

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾

يا أيها المؤمنون بي وبرسولي أطيعوني وأطيعوا الرسول والذين يلون أمركم ويتولون شؤونكم القائمين بالعدل والحق، الحاكمين بشرع الله فإن اختلفتم معهم في أمر من أمور الدين فاعرضوه على كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الحكم فيما بينكم، وإنكم إن رددتم ذلك إلى الله ورسوله كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر، وكان ذلك خيرا لكم لأنكم تهتدون به إلى الحق والعدل المرضي ويمنع الخلاف الذي يفضي بكم إلى التنازع والضلال.

(٦٠) ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾

ألا تتعجب من هؤلاء المنافقين وهم أخبث من المشركين، وأشد ضلالاً من الكافرين يقولون في الظاهر إنا آمنا بالرسول وما أُنزل إليه وما أُنزل من قبله من الكتب وأرسل من الرسل، ولكن إذا حصلت خصومة ذهبوا إلى رؤساء الكفار، وإلى زعماء الطواغيت الذين يحكمون بغير ما أنزل الله بغيًا منهم، واعتراضًا على شرع الله -عز وجل- كفرًا بما أنزل الله، وهم أصلاً قد أُمروا بالتوحيد، وحُرم عليهم الشرك، وأن يتحاكموا إلى غير الله -عز وجل-، ولكن سوَّل لهم الشيطان فأطاعوه، وناداهم فأجابوه، ودلّهم على الضلالة فاتبعوه، والشيطان يريد بهذا أن يزيدهم غيًّا وبعدًا عن الله، وأن يزيدهم كفرًا به، فهو إمامهم ووليهم.

(٦١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴾

وإذا قيل للمنافقين: تعالوا إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ عند الخلاف والخصومات، وجدتهم يعرضون ويكرهون ذلك وينفرون منه لما في قلوبهم من مرض النفاق، والكراهية للشريعة والبغض للدين، فلا يرضون به حُكْمًا، ولا بالله حاكمًا، ولا برسوله مشرعًا؛ خبثًا منهم وعداوة.

(٦٢) ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴾

فما هو حالهم إذا أظهر الله ما كتموه وفضح ما أخفوه، ثم عذبهم على فعلهم الشنيع وأمكن منهم المؤمنين، فأنزلوا بهم البأس جزاءً على نفاقهم، بعدها يأتون أذلاء يستترون بالحلف الكاذب، والأيمان الآثمة أنهم ما ذهبوا لطلب التحكيم إلى غير الشريعة إلا على حسن نية، وعلى مقاصد من المصالح ومراعاة لبعض الأحوال والأمور الاجتهادية كذبًا منهم وزورًا.

(٦٣) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾

هؤلاء الفجرة الأعداء ما صَدَقُوا فيما قالوا، فالله يعلم أنهم تحاكموا إلى غير الشريعة؛ كراهيةً منهم لها، وبغضًا لحملتها، فعليك بعدم معاقبتهم لمصلحة شرعية، بل عليك بنصحهم وتحذيرهم وزجرهم بكلام يخوِّفهم فيما بينك وبينهم، علّهم يرتدعون وينتهون عن أعمالهم القبيحة، وخداعهم الرخيص، فلا سوط ولا سيف، بل كلام مؤثر عنيف.

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾

وما أرسل الله رسولا من رسله إلا ليطيعه المؤمنون في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه بتوفيق من الله، ولو أن المنافقين يوم وقعوا في النفاق ندموا على ما فعلوا، وتابوا مما صنعوا، وأتوا إليك يطلبون المغفرة من الله، ويطلبون منك أن تستغفر لهم ربهم، واستغفرت لهم لغفر الله ذنوبهم، وستر عيوبهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ لأن الله يتوب على من ندم وأقلع وتاب، ويرحم من رجع إليه واستغفره وأناب؛ لأنه يحب التائب من ذنبه النادم على خطئه.

(٦٥) ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾

قسمًا بربك - يا محمد - لا يدخل الإيمان قلوبهم صدقًا، ولا يجدون حلاوته حقًّا، حتى يرضوا بحكمك فيما اختلفوا فيه، فتقضي بينهم في الخصومة بشرع الله، ثم يسلموا بما حكمت، بلا تبرم ولا ضجر، ويطيعوك منقادين لحكمك سرًا وعلانية.

(٦٦) ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾

ولو أوجبنا على هؤلاء المنافقين أن يقتلوا أنفسهم كفّارةً لذنوبهم كما كتبنا على اليهود لـمّا عبدوا العجل، أو أوجبنا عليهم الخروج من الوطن للهجرة والجهاد، أو تأديبًا وتعزيرًا، لما أطاعنا إلا القليل منهم، أما الغالب منهم فهم عصاة. ولو استجابوا لنا فيما أمرناهم به من طاعة الله ورسوله ﷺ؛ لكان أعظم بركة في الدنيا من النصر والعزة، وفي آخرته من الفوز بجنات النعيم، ولثبت الإيمان في قلوبهم، وذهب النفاق والشك منها.

(٦٧) ﴿ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

ولو استجابوا لأمرنا واتبعوا رسولنا ورضوا بحكمه، لوهبنا لهم في الآخرة الثواب الجزيل بسكنى الجنات، ونيل الكرامات ورفع الدرجات.

٦٨ ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

ومن نتائج طاعتهم لنا ولرسولنا - لو فعلوا - تثبيتهم على الصراط المستقيم، وزيادة الهدى على الدين القويم الذي يوصلهم إلى رضوان الملك الكريم والنعيم المقيم.

٦٩ ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾

من يمتثل أمر الله وأمر رسوله ﷺ فمصيره الجنات العالية مع النبيين الأصفياء، والصديقين الأوفياء، والشهداء الشرفاء، والصالحين الأولياء، وأنعم بتلك الصحبة، وأعظم بتلك الرفقة، فيا سعادة من كان معهم، ويا قرة عين من صاحبهم، ويا بهجة روح من رافقهم.

٧٠ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾

هذا العطاء المبارك والتكريم العظيم والفضل الواسع من الله وحده منّةٌ منه على عباده المصطفين، وأوليائه المخلصين، وحسبك بالله عليمًا بمن يستحق التكريم ويستأهل النعيم.

٧١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾

أيها المؤمنون: تحفظوا واحترسوا من أعدائكم الكفار، وخذوا العدة واخرجوا لقتالهم كتيبةً كتيبة، أو جيشًا قويًا مهابًا، ولا ينفرد الواحد منكم أو يبقى بلا سلاح، وفي هذا الأخذ بالأسباب، والجمع بين التوكل والاستعداد، وأخذ الحيطة والحذر من العدو.

٧٢ ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾

فيكم - أيها المؤمنون - بعض المندسين من المنافقين يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله لنفاقه، فإذا غُلبتم أو قُتلتم عدها كرامةً له من الله أن الله سلّمه بالتخلف عنكم، وسرّه أنه لم يكن شهيدًا أي: حاضرًا تلك الغزوة التي أصبتم فيها.

٧٣ ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

وإذا حصل لكم النصر والغنائم تأسف هذا المنافق على تخلّفه، فأتى يطالب بنصيبه من الدنيا، ويستعطف المؤمنين ويذكرهم بالصلة والمودة والقربى التي تربطه بهم، ويتلهف ويدعو يا ليتني حضرت المعركة وأدركت قسمي من الغنيمة، فالدنيا همه، والمال مطلبه، نسي الله وما أعدّ لعباده الصادقين فتبًا له.

٧٤ ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

فإذا أعرض المنافقون عن الجهاد، فليجاهد أولياء الله أهل الإيمان أعداءه الكفار؛ لأن المؤمنين الصادقين باعوا الحياة الدنيا واشتروا الجنة، ومن يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا فيُقتل، فله الشهادة عند ربه، وإن انتصر على الأعداء فله العزة والرفعة والسؤدد، فهو بين نصر عاجل، وثواب آجل، ظفر في الدنيا ونعيم في الآخرة.

٧٥ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

ماذا يمنعكم من الجهاد في سبيل الله وفي سبيل فك إخوانكم المستضعفين من الأسر والقهر والعذاب الذي يلقونه من كفار مكة، وهم شيوخ ضعفاء، ونساء وأطفال يدعون ربهم ليل نهار، أن ينجيهم من كفار مكة، ويخرجهم سالمين

غانمين، ويسألونه أن يهيئ لهم وليًا يحميهم، وناصرًا ينصرهم على الأعداء، فتولاهم الله ونصرهم وهيأ لهم رسول الهدى ﷺ الذي فتح مكة، ونصرهم وقمع الكفر وأهله.

٧٦ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

من صفة المؤمنين أنهم يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا، ومن صفات الكافرين أنهم يجاهدون في سبيل الشيطان والطغيان والأوثان، فيا أيها المؤمنون، جاهدوا الكفر وأهله، والشيطان وحزبه؛ لأن كيدهم ضعيف، وركنهم منهار، وأمرهم إلى خسار، فكل محارب لله وحزبه ذليل مهزوم مقهور.

٧٧ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

ألا تعجب من أناس من المسلمين نهوا عن قتال الكفار بمكة، وأُمروا بالاشتغال بتزكية النفوس وتربية الروح من صلاة وزكاة، فلما هاجروا وأُمروا بقتال الكفار تغير حالهم وخافوا وجَبُنُوا وأحبوا الحياة، وصار خوفهم من الكفار كخوفهم من الملك الجبار أو أكثر خوفًا منه؛ لشدة حبهم لهذه الدار، وأخذوا يقولون من شدة الفزع: يا ربنا ودَدْنا أنك ما كتبت علينا القتال لنموت بالآجال، فأخبرهم - يا محمد - أن الدنيا عمرها قصير، وزادها حقير، نعيم زائل، وظل مائل، أما الآخرة فهي خيرٌ وأبقى لـلأتقى، فهي مقعد صدق، ومقام آمن، ودار رضوان، وقرة عين، وبهجة نفس، وأعمالكم محفوظة لكم لتنالوا عليها الجزاء، ولا تُزَادوا في السيئات ذرة، ولا تنقصوا من الحسنات فتيلا، وهي شق نواة التمر، فما دام أن السعي محفوظ لمن سعى، والعمل مدّخر لمن عمل فأكثروا من الإحسان ليثقل الميزان.

٧٨ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

مهما فَرَرْتم من الموت فإنه سوف يصل إليكم ويلحقكم ولو سكنتم في أبراج عالية مقفلة محصّنة لدخل عليكم، وقبض أرواحكم هناك، فلا حيلة تنجي من الموت، ولا دواء يصرفه عن الإنسان، ثم أخبر أن المنافقين إذا وجدوا خيرًا في حياتهم من أبناء وأموال وانتصارات وغنائم قالوا: هذا مما عند الله لنا من المنزلة العالية، فهو يختصنا بهذه، وإذا وقعت عليهم مصائب الموت والمرض والفقر والهزائم ونحوها قالوا: هذا من شؤم رسالة محمد، فنحن لما اتَّبَعْناه أصابنا هذا البلاء، فأمره أن يقول لهم: كل هذا -أيها الجهلاء- بقضاء من الله مكتوب، وتقدير سابق سواء كان خيرًا أو شرًا، فما لهؤلاء لا يكادون يفقهون معاني الدين، وأسرار التشريع؟ فالمنافق قليل الفقه في الدين، سقيم الفهم في شرع رب العالمين.

٧٩ ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

أيها العبد، كل نعمة أصابتك فبقضاء وقدر من ربك، وكل بلاء فبسبب ذنوبك، مع العلم أنها كلها بقدر من الله، وكل طاعة فبتوفيق الله، وكل معصية فبكسب من العبد، ثم أخبر الله أن رسالة محمد ﷺ عالمية لكل الأمم والخليقة كافة، لا تختص قومًا عن قوم، ويكفي أن الله شاهد على صحة نبوته وعموم رسالته.

٨٠ ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

من امتثل أمر الرسول فقد امتثل أمر الله؛ لأن محمدًا ﷺ مُبَلِّغ عن ربه كل الأوامر والنواهي، ومن كذب بالرسول ﷺ فالله هو الذي يحصي أعماله ويحاسبه عليها، وليس الرسول؛ لأن الرسول مبلغ عن الله، والجزاء من ثواب وعقاب على الله.

(٨١) ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

المنافقون إذا كانوا حضورًا في مجلسك قالوا خداعًا وغشًا: سوف نطيعك يا محمد فيما أمرتنا به، فإذا غابوا عنك عزم أناس منهم على معصيتك، وصمموا على مخالفتك، والله يحصي ما فعلوا ويطلع على ما دبّروا؛ ليحاسبهم بما صنعوا، فاترك معاقبتهم فسوف يكفيك الله الانتقام منهم، وكفى بالله وكيلا لمن اعتمد عليه وتوكل عليه وفوّض الأمر إليه.

(٨٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾

ما لهم لا يتفكرون في هذا الكتاب المعجز، وهذا القرآن العجيب المذهل؛ ليروا ما فيه من أسرار تدهش العقل، ومن حِكمٍ تأخذ القلب، ولو أن القرآن تكلم به غير الله من المخلوقين القاصرين لوُجد فيه التناقض والخلل في تركيبه، والاضطراب في معانيه، لكنه محكم متناسق؛ وهذا برهان أنه كلام الرحمن.

(٨٣) ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

وإذا سمع المنافقون بخبر من الأخبار المهمة من مسائل النصر والهزيمة، والخير والشر التي ينبغي ألاّ يطلع عليها إلا الخاصة، قام هؤلاء المنافقون بإشاعته في الناس، ونشره في العامة، وهذا فيه إفشاء لأسرار المسلمين، وضرر كبير عليهم، ولو أن المنافقين فوّضوا هذه الأسرار إلى الرسول ﷺ وأعيان المسلمين لفهم هذه الأسرار أهل الفقه في الدين والبصيرة في الشريعة، وليس الدهماء الجهلاء، ولا العامة البسطاء، ولبقيت أمور الخاصة سرًّا للمصلحة الكبرى، ليتولّى الأمور أهلها، ولا يدخل من ليس أهلاً في القضايا الخطرة، ولولا أن الله تفضّل عليكم بإرسال محمد ﷺ يرشدكم إلى طريق الهدى، ويحذركم من سبيل الرّدى لأطعتم إبليس فيما يأمركم به من غواية ويوسوس لكم به من ذنوب، ويدعوكم إلى الفحشاء، ولكان كثيرون منكم انساقوا وراءه إلا القليل من أهل التقوى والإيمان والاعتصام بشريعة الرحمن، ففضل الله تسديده لكم إلى الصواب، ورحمته حمايتكم من الضلال وغفران ما يحصل من تقصير.

(٨٤) ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾

فجاهد ولو وحدك – أيها الرسول –، ولا تهتم لمن أبى الجهاد، واخرج بنفسك وتوكل على الله، فالله معك وهو حسبك، وسوف ينصرك ولو وقف في وجهك أهل الأرض، وما عليك من ترك المنافقين للجهاد معك، فأنت منصور والعاقبة لك، ولا يمنعك ذلك أن تحث المؤمنين على الجهاد لكسب الأجر والفوز بالنصر، وكسب الشهادة ورضوان الله، وسوف يكسر الله قوة الباطل وأهله، ويفل حدهم، ويخزيهم وينزل الهزيمة بهم؛ لأن الله أشد منهم أخذًا، وأقوى جندًا، وأعز جانبًا، وهو قادر على تعذيبهم والتنكيل بهم وإنزال أقسى العقوبات وأفظع العذاب بهم.

(٨٥) ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴾

من يسع في عمل الخير ويكون سببًا لحصوله من نفع ضعيف، وإيصال الحق لمستحق، وعون مسكين، والوقوف مع مظلوم، فله حصة عظيمة من الثواب على فعله الحسن، ومسعاه الحميد، ووساطته الفاضلة، وبالضد، من يسعى في باطل، ومنع حق، وحجب خير، وتعطيل حد، وإنزال ظلم ببريء، فله قسم وافر من الوزر، وقسط عظيم من الإثم، والله –عز وجل– قدير على ما أراد، حسيب على كل نفس، مقدر كل أمر، يجازي كلاً بعمله، فصاحب الخير بأجره، وصاحب الشر بوزره بعدل وعلم وحكمة.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾

إذا سُلِّم عليكم فسلموا، فالواجب رد التحية، والأفضل الزيادة عليها، فعليكم السلام لمن قال: السلام عليكم، ومثل: وعليكم السلام ورحمة الله أفضل، فالمحسن مشكور، والمقتصد مأجور، والمقصر مأزور، والله سوف يحاسب العباد على أقوالهم وأعمالهم لا تغيب عنه ذرة، ولا تند عن علمه همسة، وسع كل معلوم علمًا، وكل مسموع سمعًا، ووسع الخلق رحمة، والكون حكمة، والخلق فضلاً ونعمة.

(٨٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾

قسمًا بمن لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه ولا يستحق الألوهية غيره، ليجمعنكم ربكم للعرض الأكبر، والموقف العظيم يوم البعث والنشور، ليجازي كلاً بما فعل، ويحاسب كل إنسان بما صنع، ولا شك في ذلك الجمع، فهو واقع لا محالة، كائن لا ريب فيه، فلا أحد أصدق من الله ولا أوفى بوعد من الله، ولا أنجز لما وعد من الله، فقوله فصل، وعطاؤه فضل، وعذابه عدل، وهو لكل خير أهل.

(٨٨) ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

ما لكم - أيها المؤمنون - في أمر المنافقين انقسمتم إلى طائفتين، طائفة تقول: إنهم مؤمنون، وطائفة ترى كفرهم وقد خذلهم الله وأوبقهم في الكفر وردهم الله على أعقابهم؛ لأنهم أبطنوا الكفر، وسلكوا مسالك الشيطان، هل تريدون أن تهدوا من كتب الله عليه الغواية، وأن ترشدوا من أدركه الخذلان، وباء بالخسران، وعاد بالخيبة؟ فإن من كتب الله عليه الشقاء، وقضى عليه بالضلال فلا حيلة في صلاحه، ولا وسيلة لهدايته، فقد عميت بصيرته، وانطفأ نوره.

(٨٩) ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

يريد هؤلاء المنافقون بكل وسيلة أن ترتدوا عن دينكم فتكونوا على مثل حالتهم من الكفر فَتُساووهم في النفاق، فإيّاكم أن تَوَادُّوهم وتصادقوهم وتثقوا بهم إلا إذا هاجروا معكم، وجاهدوا في سبيل الله، وتابعوا رسول الله ﷺ، فإن أبوا إلا الكفر واختاروا النفاق، ورفضوا الإيمان، فاقتلوهم في كل زمان، في حلٍ وحرم، ولا تركنوا إليهم، ولا تصدقوهم ولا تستعينوا بهم في أمر، فهم العدو فاحذروهم، ولا تنخدعوا بظاهرهم، ولا يغركم كلامهم اللين ومسالمتهم في الظاهر، فالخبث مستقر في قلوبهم، والكفر كامن في نفوسهم.

(٩٠) ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

إلا الذين يذهبون إلى قومٍ عاهدوكم ودخلوا معهم في عقد الأمان، فلا تحاربوهم؛ لأنهم تحت ولاية الكفار المعاهدين، أو أناس احتاروا ووقعوا في حرج شديد، وضيق كثير، فلا يستطيعون القتال معكم ضد قومهم، ولا القتال مع قومهم ضدكم، والله قادر أن يحوّل نيّاتهم فيقاتلوكم، فما دام أنهم مسالمون، وتركوا مقاتلتكم، وأظهروا لكم الأمن من جانبهم، فليس لكم طريق عليهم ولا حق في مقاتلتهم ولا رخصة في ذلك.

(٩١) ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾

أما قسمٌ آخر من المنافقين فهم مخادعون يظهرون لكم الإسلام طلبًا للمسالمة، فإذا رجعوا إلى قومهم أعانوهم وأظهروا أنهم معهم عليكم، كلما طلب منهم محاربة المسلمين أوغلوا في ذلك وجدّوا، وقلَّبَ الله قلوبهم، فاستمروا في

الفتنة، فإذا لم يجتنبوكم ويتركوا التعرض لكم، ويعلنوا الاستسلام، ففي أي مكان لقيتموهم فعليكم بقتلهم قتلاً ذريعًا، وحصدهم بالسيف حصدًا، ولكم العذر الواضح في قتلهم، والدليل الساطع في الفتك بهم؛ لأنهم خانوكم وغدروا بكم، وسلكوا النفاق معكم، وهم من أشد الأعداء لكم، فالمنافقون أقسام ثلاثة: قسم مسالم واعتزل القتال فلا يتعرض له، وقسم دخل مع أهل عهد من الكفر وهو مقهور تحت رئاستهم فيُترك قتاله، وقسمٌ لعب على الحبال واستخدم المخادعة والاحتيال مرةً معكم ومرةً مع الأعداء المحاربين عليكم؛ فهؤلاء يُقاتلون.

﴿٩٢﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

لا يحق للمؤمن ولا يجوز له أن يقتل مؤمنًا آخر معصوم الدم؛ لأن الإيمان يمنعه أن يفعل ذلك، ولكن من فعل ذلك عن طريق الخطأ وعدم التعمد والقصد، فإن عليه أن يحرر رقبة ليخرجها من ذل الرق، فتحريرها كإحيائها، وعليه أن يدفع ديةً إلى أهل القتيل إلا إذا عفا أهل المقتول عن الدية، فإنها تسقط، فإذا كان المقتول من الكفار المحاربين وهو مؤمن فإن على القاتل تحرير رقبة مؤمنة فحسب، ولا يُعطَون دية؛ لأنهم كفار محاربون يستعينون بها على قتال المسلمين، وإذا كان المقتول من الكفار ولكن بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، فإن على القاتل مع تحرير الرقبة المؤمنة أن يسلم الدية لهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين، فإذا لم يجد القاتل ما يحرر به رقبة فإن عليه أن يصوم شهرين متتابعين يهذب بهذا الصوم نفسه وتكون له تأديبًا وردعًا، وهو مع انكساره واستغفاره يتوب الله - سبحانه وتعالى - عليه، والله -عز وجل- عليم بما أسر العباد، فهو مطلع على أعمالهم، حكيمٌ فيما شرعه من تحرير رقبة، ومن الدية ومن تقسيم هذه الأنواع وترتيب هذه المنازل؛ حكمةً منه ولطفًا لا إله إلا هو.

﴿٩٣﴾ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

والذي يتعمد قتل مؤمن معصوم الدم، فإن جزاءه أن يخلده الله في نار جهنم، ويبوء بغضب من الله - سبحانه وتعالى - على سوء ما فعل وعلى جُرم ما صنع، وعلى فداحة ما ارتكب، وعليه لعنة الله فيطرده من رحمته ويحرمه عفوه ورضوانه، وهيأ له - سبحانه وتعالى - من النكال العظيم والجزاء الوخيم ما يستحقه على فعلته الشنعاء؛ لأنه قتل نفسًا معصومة، وفي الحديث: **«لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم».**

﴿٩٤﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

أيها المؤمنون، إذا خرجتم للجهاد في سبيل الله فعليكم بالتحري فيمن تقاتلونه، وعليكم بالتثبت والتبين، ولا تقولوا لكل من سلَّم عليكم إنّ قصده المخادعة، وقصده المجاملة لتكسبوا من ورائه غنيمة من الدنيا، تأخذون سلاحه أو ماله، فإن الذي أعدّه الله - سبحانه وتعالى - لكم في الآخرة من الأجر العظيم والثواب الجزيل والمقام الدائم في الجنة خير من عرض الدنيا كلها، وتذكروا أنكم كنتم بهذه الحال قبل أن تسلموا يوم كنتم كفارًا، فاحمدوا الله على الهداية، وقيسوا حال هذا الرجل بحالكم من قبل، فإن هذا يحملكم على التثبت وعلى التبين، ومن خالف أمر الله - عز وجل - وعصاه فإن الله خبير بصنيعه، مطلع على فعله، وسوف يحاسبه - سبحانه وتعالى - على مخالفته لأمره الشرعي.

(٩٥) ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

ولا يمكن أن يستوي في الأجر والمثوبة من قعد من المؤمنين غير أهل الأعذار؛ كالأعمى والأعرج والمريض، فإن الله عذرهم، لكن من يقعد عن الجهاد بلا عذر لا يستوي ومن جاهد في سبيل الله، فأنفق ماله وقدّم نفسه رخيصةً لطلب رضوان الله، فهذا أعظم أجرًا بلا شك وأرفع منزلةً وأكبر رتبةً، والله - سبحانه وتعالى - فضل المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم على الذين قعدوا بعذر درجةً من الثواب؛ لأنهم جاهدوا وأولئك لهم عذر قعدوا به، وكلٌ موعود بالحسنى سواء من قعد بعذر لصدق نيته وإخلاصه وتمنيه الجهاد، ومن خرج لتضحيته وبذله نفسه وماله، ولكن الله - سبحانه وتعالى - فضّل المجاهد على القاعد بلا عذر أجرًا عظيمًا وثوابًا كبيرًا وكرمًا واسعًا، فإن الله يرفع المجاهد مئة درجة كما صح في الحديث، كل درجة ما بين السماء والأرض.

(٩٦) ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

وهذه الدرجات وذلك الغفران والرحمة من الله - سبحانه وتعالى - إكرامًا للمجاهدين فرفعة الدرجات لما بذلوه من الأموال والأنفس في سبيل الله، والمغفرة لما صار من ذنوبهم، فإن الشهيد تُغفر له ذنوبه عند أول قطرة من دمه، ورحمة يتغمده الله بها - سبحانه وتعالى - فينسيه كل هم وكل غم وحزن مرّ به، والله - سبحانه وتعالى - يغفر الذنوب العظيمة؛ لحلمه وعفوه وصفحه، وهو رحيم بمن أقبل من عباده وطلب رحمته.

(٩٧) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

والذين يموتون وتتوفاهم الملائكة من المؤمنين وقد ظلموا أنفسهم ببقائهم تحت راية الكفر، وفي ديار الشرك ولم يهاجروا لديار الإسلام تسألهم الملائكة عند الموت، لماذا لم تهاجروا بدينكم؟ فقالوا: إنا كنا مقهورين تحت راية الكفار، فتقول لهم الملائكة: أليست أرض الله واسعة رحبة يمكن أن تنتقلوا إليها فتظهروا شعائر الدين وتعبدوا رب العالمين؟ فالذين لا يهاجرون ويبقون وهم مستطيعوا الهجرة، فأولئك مقرهم نار جهنم؛ لأنهم رضوا بقهر الكافر وقد جعل الله لهم فسحةً في الأرض ولم يفعلوا، وكان لهم خيار ولم يقبلوا، فبئس والله مردهم، وبئس مقرهم في ذلك المقام المخزي في نار جهنم.

(٩٨) ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾

لكن الذين لا يستطيعون الهجرة وهم مستضعفون حقًا من الشيوخ الكبار والنساء الضعيفات والأطفال، فهؤلاء ليس لهم حيلةٌ في الفرار، وليس لهم نفقة يستطيعون الذهاب بها، وليست لهم قدرةٌ جسمية ولا معنوية ليهاجروا إلى بلاد الإسلام، هؤلاء حقًا معذورون عند الله سبحانه وتعالى.

(٩٩) ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

فهؤلاء الضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال، الله - سبحانه وتعالى - يتجاوز عنهم ويغفر لهم تركهم للهجرة؛ لأنهم معذورون ولا يستطيعون الخروج من ديارهم، والله -عز وجل- يحب الصفح عن عباده ويتجاوز عن سيئات من عاد إليه، وهو - سبحانه وتعالى - يغفر الذنوب مهما عظمت لمن استغفره وأناب إليه، ولا يتعاظمه شيء أن يغفر لمن صدق في الإقبال عليه.

١٠٠ ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

والذي يخرج مهاجرًا في سبيل الله من ديار الكفر إلى دار الإسلام يحصل على ما يُرغم به أنوف الكفار ويغيظهم بإذن الله من التفافهم على المؤمنين وإظهار شرائع الدين، وأرض الله - سبحانه وتعالى - واسعة لمن خرج يبحث عن بقعة يعبد الله فيها، والذي يخرج إلى بلاد الإسلام ونيته صادقة وفي أثناء الطريق يموت ولم يصل إلى بلاد الإسلام فأجره على الله ثابت، وثوابه واقع بلا شك، والله يأجره على فعله، وهو غفور يغفر ذنوب العباد إذا عادوا إليه، ويستر عيوبهم، وهو - سبحانه وتعالى - رحيم، رحمته واسعة، وفضله عظيم وخيره عميم.

١٠١ ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

وإذا خرجتم للجهاد في سبيل الله، أو طلب رزق من التجارة ونحوها فليس عليكم حرج أن تقصروا الصلاة رخصةً من الله -عز وجل- فاقبلوا رخصته، فاجعلوا الرباعية ركعتين عند الخوف من الكفار، و - أيضًا - حتى لو لم يحصل خوف كما نص على ذلك رسول الهدى ﷺ فإنه قال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»؛ لأن الكفار أعداء لكم، وجهادهم واجب باليد واللسان والقلم والنية، وبكل وسيلة يمكن أن تضرهم، وهذه عداوة أبدية حتى يدخلوا في دينكم، وعداوتهم حق يُؤجر عليه العبد.

١٠٢ ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

يخبر سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن صلاة الخوف أنه إذا كان مع المؤمنين المقاتلين في سبيل الله وأراد أن يصلي بهم فليجعلهم قسمين، القسم الأول يصلون مع الرسول ﷺ وهم يلبسون السلاح، والقسم الآخر يقف في وجه العدو، فإذا انتهى القسم الأول من الصلاة فليأت القسم الثاني إذا لم يصل فليصل مكان القسم الأول، وليكونوا متهيئين متجهزين حذرين من الكفار لابسين سلاحهم؛ لأن الكفار يريدون أن ينشغل المسلمون عن سلاحهم وعن أمتعتهم فيقتلوهم على حيلة وعلى خدعة، ويثبون عليهم وثبةً واحدة، وهم في حالة الانشغال بالصلاة، ولا ذنب ولا إثم على المؤمنين إذا كانوا مرضى أو في السفر ألا يحملوا السلاح في الصلاة، وليكونوا على أُهبة الاستعداد، وأتم الانتباه من العدو مهما استطاعوا إلى ذلك، والله - سبحانه وتعالى - قد أعد وهيأ للكفار من عذاب الخزي والمهانة والذلة والصغار من اللعنة والغضب والنار ما الله به عليم جزاءً وفاقًا لأفعالهم.

١٠٣ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

وإذا انتهيتم من الصلاة - أيها المؤمنون - فعليكم بالإكثار من ذكره - سبحانه وتعالى - في قعودكم وفي قيامكم، في أعمالكم، وفي أشغالكم وفي طرقاتكم وفي سفركم، وعليكم بكثرة ذكره وأنتم قعود في مجالسكم ومدارسكم واجتماعاتكم، على جنوبكم مضطجعين، وهذا لأهمية الذكر وفضله وعظيم أجره، فإذا ذهب الخوف عنكم من الكفار فعليكم بإقامة الصلاة كما هي تامةً بعددها وخشوعها وركوعها وسجودها وآدابها وسننها؛ لأن الصلاة فريضة محددة لوقت معلوم وزمن معين، لا يجوز أن تؤخر حتى يخرج وقتها، ولا يحذف من ركعاتها إلا بعذر كالسفر والحرب، وهذه الصلاة هي عمود الإسلام، وهي الركن الأهم بعد الشهادتين.

١٠٤ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

ولا يصبكم الوهن والخور والإحباط في طلب منازلة الكفار وفي مواجهتهم، فإنكم إذا كنتم تتألمون وتتضررون فإنهم - أيضًا - بشَرٌ مثلكم ينالهم الألم والضرر، لكن الفارق أنكم ترجون من الله ثوابًا جزيلاً وأجرًا جميلاً ومنقلبًا طيبًا، وهم ليست لهم ولاية عند الله وقد عادوه وحاربوه، وهم لا يرجون ثوابه - سبحانه وتعالى - ولا ينتظرون خيرًا عنده - جل في علاه - والله - سبحانه وتعالى - عليم بمن صدق في نيته وفي جهاد عدوه، وفي الإخلاص لطلب مرضاته، حكيم في أوامره فهو - سبحانه وتعالى - أنزلها بحكمة وعدل، وببصيرة وبلطف تُناسب الأحوال والأزمات والمقامات.

١٠٥ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾

يا أيها الرسول، نحن نزلنا عليك القرآن ينطق بالحق ويحكم بالعدل لتقيم شريعة الله - سبحانه وتعالى - بين عباده، وتجتهد في النص بما فقهك - سبحانه وتعالى - في دينه، فتحكم بين الناس بالعدل، واحذر أن تدافع عن الخونة أو تكون مجادلاً عنهم.

١٠٦ ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

وعليك أن تستغفر ربك إن كنت هممت أن تدافع عن خائن أو تجادل عن منافق، فإن الله - سبحانه وتعالى - يتجاوز عن خطئك، ويغفر لك ويرحمك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. وفيه أن من وقع منه مثل هذه النية فعليه أن يستغفر ربه ويتوب إليه -جل في علاه -.

١٠٧ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾

وإياك أن تدافع عن الخونة الذين يرتكبون الخيانة ثم يضيفونها إلى أبرياء ويتهمون بها المخلصين، فهؤلاء أجرموا في حق أنفسهم ثم نسبوها إلى غيرهم لزيادة مكرهم وخديعتهم، والله - سبحانه وتعالى - لا يحب ناقض العهد، ناكث الميثاق، المرتكب للمعاصي والآثام، المدمن الخطايا بلا توبة، السريع في انتهاك حدود الله، الذي لا يرده عن الذنب رد، ولا يحده عن المعصية حد، فهؤلاء سوف يعودون بغضب الله ومقته، وهذه الآية نزلت في قوم من المنافقين سرقوا، ثم نسبوا السرقة إلى غيرهم من الأبرياء، فدافع النبي ﷺ عنهم بناء على ظاهر حالهم، فأنزل الله هذه الآية.

١٠٨ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾

هؤلاء المنافقون يستترون من العباد ولا يستترون من رب العباد، ويستحون من الخلق ولا يستحون من الخالق، يخافون عقاب الناس ولا يخافون عقاب رب الناس، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه غائبة، وهو الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، والله - سبحانه وتعالى - مطلع على ما في السرائر، عالم بما في الضمائر، وهؤلاء كانوا، يدبرون في ليلهم من السرقة والتخطيط للجريمة والتشاور في أن ينسبوا هذا الفعل إلى غيرهم من الأبرياء، والله لا يرضى هذه الأقوال والأعمال، وهو - سبحانه وتعالى - عالم بما اقترفوه، سامع لما قالوه، مطلع على ما دبّروه، سوف يحاسبهم به، ويجازيهم بسوء صنيعهم.

١٠٩ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

أما أنتم يا أقارب هؤلاء المنافقين فعلى فرضٍ أنكم دافعتم عنهم في هذه الحياة عند الحاكم وحاولتم صرف العقوبة عنهم، لكن من يدافع عنهم عند الله؟ ومن يحامي لهم عند الواحد الأحد الذي لا تغيب عنه غائبة، والذي يطلع على الأمور؟ ومن الذي يقف معهم يوم العرض الأكبر؟ ومن الذي ينجيهم من تلك المقامات الهائلة؟ أو من الذي يمكن أن يصرف عنهم العذاب، أو يدفع عنهم العقاب؟ لا أحد، وهذا وعد شديد لكل قاضٍ وكل مدافع وكل محامٍ وكل مسؤول أن يراقب ربه - سبحانه وتعالى - ولا يكون مدافعًا ولا وكيلاً للظلمة وأعداء الله - عز وجل - الفسقة.

١١٠ ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

ولكن المسلم إذا وقع منه السوء أو ظلم نفسه بارتكاب معصية، ثم ندم واستغفر وأناب وتأسف على ما فعل وعاد إلى ربه يطلبه الغفران يجد ربه كريمًا، فإن الله أكرم من العبد، رحيم يتجاوز عنه ويقابل الإساءة بالإحسان، والمعصية بالغفران، ويتغمده بالرضوان، ويسكنه الجنان، فلا أحسن من التوبة إلى الله، ولا من استغفاره جل في علاه.

١١١ ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

والذي يفعل جريمة أو يمارس خطيئة أو يفعل معصية فإثمها عليه لا على غيره، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وهو مسؤول عن فعله، والله - سبحانه وتعالى - يعاقبه وحده؛ لأنه هو الذي اقترف وأخطأ، والله - سبحانه وتعالى - من علمه وحكمته لا يوقع العقاب بغير مستحقه، - أيضًا - لا يضيف على المخطئ سيئات لم يعملها، بل كل شيء بعلم وحكمة، فالعلم إحاطة بكل ما يقع، والحكمة إيقاع العذاب بمن هو أهل له بقدر جرمه.

١١٢ ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾

والذي يعمل ذنبًا صغيرًا أو جرمًا كبيرًا، ثم ينسبه إلى غيره من الأبرياء، فقد أخطأ خطأ بينًا، وتحمَّل إثمًا عظيمًا؛ لأنه فعل جريمتين: أجرم في حق نفسه، وأجرم في حق غيره، وذنبه واضح، وإثمه عظيم، وجرمه جسيم، وسوف يعاقبه الله على سوء تصرفه.

١١٣ ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾

ولولا أن الله - سبحانه وتعالى - تفضل عليك - أيها النبي - ورحمك لأراد بعض القوم أن يصرفك عن معرفة الحق، ويوهمك بأن صاحب الذنب هو البريء، ويريدون أن يلبسوا عليك الحكم الشرعي، ولكن الله - سبحانه وتعالى - عصمك من ذلك بالنبوة، وأعلمك من علم الغيب ما كشف لك المخبوء، وهؤلاء الذي يسعون في الضلال والإضلال إنما يضلون أنفسهم، فهم لن يضلوك؛ لأنك نبي مجتبى، ورسول مصطفى، معك العصمة والنبوة، وقد أكرمك الله بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وكشف لك من العلوم الغيبية والأسرار الدينيّة والأحكام الشرعية ما جعل فضله عليك دائمًا وكبيرًا وعظيمًا؛ لأن المنزلة التي وصلت إليها لم يبلغها أحد من الناس، وذلك من فضل الله ورحمته عليك.

١١٤ ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

أكثر الناس لا خير في كثير مما يسرونه ويتحدثون به بينهم، لكن من تحدث وأمر بصدقة في سبيل الله -عز وجل- أو قال خيرًا ينفع نفسه وينفع غيره، أو أصلح بين المتخاصمين من المسلمين، وأراد بذلك وجه الله - عز وجل - فالله سوف يأجره الأجر العظيم، وسوف يدّخر له الثواب الجزيل على حسن فعله وعظيم أثره.

١١٥ ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾

والذي يخالف الرسول ﷺ من بعد ما قام له الدليل الساطع على صحة نبوته ﷺ وانكشفت له الحقائق، وبان له الأمر ويختار غير طريق المؤمنين الذين أجمعوا مع الرسول ﷺ على هذا الدين، فالله - سبحانه وتعالى - يذره في ضلاله ويتركه في غوايته، ثم يعذبه في نار جهنم بأنواع العذاب وبئس المصير مصيره، وقبحًا له ولمنقلبه عند الله يوم القيامة. وهذا فيه دليل على أن إجماع الأمة حجة قاطعة، وأنه لا تجوز مخالفة الإجماع المتحقق.

١١٦ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

الله لا يغفر لمن أشرك به، فالشرك ذنب لا يُغفر أبدًا، ولكن ما دون الشرك تحت المشيئة، إن شاء غفر الله لصاحب الذنب غير الشرك، وإن شاء عذبه؛ لأن صاحب الشرك قد أخطأ خطأً بينًا، وضلَّ ضلالاً واضحًا، وغوى غواية ما بعدها من غواية، وقد ابتعد عن رحمة الله – عز وجل – واستحق غضب الله على أعظم جُرم، وأكبر ذنب في العالم.

١١٧ ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾

وهؤلاء الذين يدعون من دون الله إلهًا آخر إنما يدعون ويسألون آلهةً ألفَوْها من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ويدعون – أيضًا – شيطانًا متمردًا على الله قد بلغت به الغواية أعظم مبلغ، وقد بلغ في الضلال والعتو والفجور النهاية، فصار قدوةً لغيره، وأسوةً لسواه لكثرة ضلاله.

١١٨ ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

هذا الشيطان المريد قد طرده الله من رحمته وكتب عليه الشقاء في الدنيا والآخرة، وقال الشيطان حينها حالفًا ومقسمًا: لأغوين من عبادك قسمًا كبيرًا، طائفةً كثيرةً، وآخذ منهم قسطًا إلى النار بإضلالي لهم بالشهوات والشبهات.

١١٩ ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ
ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾

وسوف أستمر في غوايتهم وفي عرض الأماني الكاذبة لهم، وحيل الخداع والتسويف والتدليس والتلبيس، ولألقين عليهم الأوامر، فيمتثلون أوامري من الزيغ الذي في قلوبهم والإجرام الذي في نفوسهم وحب المعصية الكامنة في قلوبهم، ومن أمري لهم أن يقطعوا آذان الإبل والبقر والغنم بما يسمونه البحيرة والسائبة والوصيلة، وآمرهم أن يغيروا أشكالهم وأشكال بهائمهم زيادةً في الغواية من خصاء العبيد وتعذيب البهائم، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ونحو ذلك من الأفعال المحرمة كالنمص والوصل والوشم والتفلج للحسن ونحوها، مما حرَّمه الله ورسوله ﷺ، ولكن من يرضَ بالشيطان وليًا من دون الله ويحبه ويطع أوامره، ويتبع سبيله، فقد خسر الدنيا والآخرة، خسر نفسه ودينه وتعرض لمقت ربه وخرج من ولاية مولاه، وأفلس في عمله، وخاب سعيه وضل سبيله وغوى.

١٢٠ ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

والشيطان إنما يعد أتباعه بالوعود الكاذبة والأماني الخادعة والتلبيس والأوهام والدجل والكذب، وكل الذي يفعله بهم هو غرور ومخادعة لا حقيقة لها، فيوهمهم بأن اللذة في المعصية، وأن الراحة في الجريمة، وأن الخير في مخالفة أمر الله، وكل هذا كذب لا حقيقة له، بل الخير كل الخير في طاعته – سبحانه وتعالى – وطاعة رسوله ﷺ.

١٢١ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾

والذين يتبعون الشيطان ويرضون بمسلكه ويوافقونه على منهجه، فدارهم في الآخرة دار جهنم لا يجدون مفرًا منها ولا مهربًا، ولا مكانًا يخلصون إليه منها، بل تحيط بهم وتضطرم عليهم جزاءً لفعلهم الشنيع وذنبهم الفظيع.

١٢٢ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾

لكن الذين آمنوا بالله –عز وجل– واتبعوا رسوله وعملوا الصالحات وأنواع البر وسائر الخيرات فجزاؤهم عند الله – عز وجل– أن يسكنهم الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء التي تجري فيها الأنهار، وفيها الأشجار كافة والأزهار المختلفة مع حسن الإقامة، في دار الكرامة، ولزوم التنعيم، ودوام التكريم في جنات النعيم، وفي المقعد الكريم، بجوار الرب العظيم، مع الخلود أبدًا، والمكث سرمدًا، وهذا وعد لازم، وقول فصل وحق، والله لا أصدق منه إذا وعد، وقوله

- سبحانه وتعالى - هو المقدم على كل قول، فهو لا يخلف وعده ولا ينكث عهده، لا كالشيطان ولي الكفار الذي وَعْدُه كذب، وعهده زور، وأمانيه باطلة، ووساوسه خادعة.

١٢٣ ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

ليس النجاة ودخول الجنة والحصول على رضوان الله بتمنيكم أيها المسلمون أو أنتم أهل الكتاب، فليست المسألة بالدعوة الخالية من الدليل بالعمل الصالح والامتثال، إنما يصدق ذلك العمل وإلا فالدعوة سهلة ويسيرة كلٌ يدعيها، لكن المحك والمناط في الأمر هو العمل الصالح، وحسن الامتثال لله -عز وجل-، والله عالم بمن صدق في امتثال أمره ممن كذب، والذي يخالف أمر الله ويرتكب السوء يعاقبه - سبحانه وتعالى - إما في الدنيا أو في الآخرة، ولا يجد من ينصره من دون الله -عز وجل- ولا من يتولاه، فليس له وليٌّ ينفعه ويحفظه ويسدده، وليس له نصير يدفع عنه الضر ويصرف عنه العقاب.

١٢٤ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

والذي يعمل خيرًا ويقدم لنفسه برًا سواء كان رجلاً أو امرأة وهو مؤمن بالله - عز وجل- متبع لرسوله فإن مصيره إلى جنات النعيم والمقام الكريم، ولا يظلمه - سبحانه وتعالى - بترك شيء من حسناته التي قدمها ولو كان شيئًا يسيرًا وقليلاً بمقدار الحفرة التي في ظهر النواة، فلن يضيع الله سعيه ولا عمله، بل كل خير قدمه، وبرٍّ فعله محفوظ له.

١٢٥ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

لا أحد أحسن ديانةً ولا أقوم سبيلاً ولا أوضح منهجًا ممن استسلم لحكم ربه، وأطاع مولاه واجتنب ما حرّمه الله، وهو مداوم على طاعة ربه وسنة نبيه، مجتهد في طاعة مولاه وخالقه، وهو متبع في ذلك أحسن الملل وهي ملة إبراهيم دين الإسلام، ودين السماحة واليسر؛ لأن إبراهيم قد اصطفاه ربه واختاره عن سائر الخليقة وخصّه بالمحبة وبالقرب وبالزُّلْفَى؛ ولذلك اختار له أحسن الملل الإسلام، وأحسن الأديان الحنيفية السمحة.

١٢٦ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾

كل ما في السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس وسائر المخلوقات والكائنات والموجودات ملك للباري سبحانه، يدبرها ويصرفها كيف يشاء، وهو مع ذلك مطلع لا تخفى عليه خافية، عالم لا تغيب عنه غائبة، جمع - سبحانه وتعالى - بين الملك والعلم، ومن كان هذا شأنه وصفته حُق للعبد أن يخافه وأن يرجوه، وأن يختار ما اختاره من الدين الصحيح الذي هو دين إبراهيم دين الإسلام، وبُعث به محمد ﷺ.

١٢٧ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾

يسألونك يا محمد في شأن النساء، قل: الله سوف يخبركم بالأحكام الشرعية الخاصة بهنّ في كتابه، وما أوحاه إلي من السنة، و -أيضًا - سوف يخبركم بشأن ما أنزل في كتابه العظيم في شأن النساء الضعيفات اليتيمات اللواتي تتزوجونهن ثم لا تدفعون لهن مهرًا، فإن الله يأمركم بالعدل والإنصاف، وأن تتقوا الله - سبحانه وتعالى - في المرأة سواء أكانت يتيمة أم غير يتيمة في إعطائها حقها وإيصال المهر إليها كاملاً مكملاً، وكذلك يخبركم - سبحانه وتعالى - في شأن الأطفال من اليتامى وغيرهم أن تتقوا الله فيهم وتحفظوا حقوقهم، من الميراث وغيره، وأن تعدلوا بين اليتامى، فلا تجوروا في قسمة مواريثهم، ولا في الوصية لهم، وخافوا الله بألا تأكلوا أموالهم بالباطل، واعلموا أن ما

تقدمونه للمستضعفين واليتامى والفقراء والمساكين ونحوهم فالله - سبحانه وتعالى - عالم به، سوف يجازيكم عليه الجزاء الأحسن، وسوف يتقبله منكم إذا صدقتم وأخلصتم.

(١٢٨) ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

وإذا خشيت المرأة من زوجها أن يعرض عنها أو يفارقها وهي تريد البقاء معه فلا بأس أن تصطلح معه على إسقاط بعض الحقوق، وجبر الأمور والاتفاق على الأمر معًا، فتتنازل عن بعض حقها في البيتوتة ونحو ذلك من الاستمتاع؛ ليبقى شيء من الوفاق، فإن ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلّه، ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - بالصلح بين الزوجين؛ لأن الصلح فيه خير عظيم، فالموافقة والتنازل عن بعض الحقوق واستمرار العشرة أحسن من طلب الحق كله، ثم يعقب ذلك فراق وطلاق وبينونة، فالصلح خير؛ لأنه يدوم به الوفاق ويحصل به القرب ويزيل ما في النفوس، والنفوس مجبولة على البخل وعلى الشدة، وعلى الحرص الشديد على حقوقها، وعدم التنازل بشيء من ذلك وعدم إعطاء الآخرين من الخير، فالرجل حريص على متعته أو مفارقة زوجته إذا لم تعجبه، والمرأة حريصة على حقها كاملاً من زوجها ولو شق عليه، فالواجب التنازل من الطرفين ليجتمع الشمل، ولكن من أحسن في عشرة زوجته - ولو كرهها وصبر على أذاها لتستمر الحياة معها، وأحسنت هي في التنازل عن بعض الحقوق والصبر عن الجفاء الذي يحصل منه أو التقصير لتستمر الحياة الزوجية - فإن هذا خير عند الله - عز وجل - والله يعلم هذا الإحسان من فعل الخير ومن التقوى ومن ترك المعصية بينهم، وسوف يثيب الله - عز وجل - من أحسن من الزوجين بالثواب العظيم عنده.

(١٢٩) ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

لن تقدروا - أيها الرجال - على العدل كل العدل بين زوجاتكم مهما حاولتم ومهما حرصتم؛ لأن العدل أمر دقيق ومكلف، فلا يستطيع أحد أن يعدل في الحب والمعاشرة واللطف والقرب بين الزوجات؛ لأن هذا فوق طاقته وهو مُكَلِّف له، فإذا كان لا يستطيع فعليه أن يسدد ويقارب، فلا يجور على إحدى الزوجات بحيث يحرمها ولو بعض الحق ويميل إلى إحداهن كل الميل، فيترك الأخرى لا هي مطلقة ولا هي متزوجة؛ كالشيء المعلق ليس مستقرًا على الأرض، وليس واصلاً إلى السماء، فعلى العبد أن يصلح ويسدد ما استطاع، ويقارب بين الأمور ويجتهد جهده ويتقي مولاه، ويخاف ربه في هذه المرأة ألا يظلمها، ثم بيّن الله - سبحانه وتعالى عند حالة التقصير التي تحصل عند الأزواج والتي لابد منها - أنه غفور رحيم، وهو يتجاوز عن الأخطاء، ويسامح من قصر إذا اجتهد، ويغفر لمن استغفر، ويتغمد برحمته من بدرت منه بوادر، وهو واسع الفضل والإحسان في تشريعه وفي أمره وفي نهيه وفي قبوله لاستغفار من استغفر، وتوبة من تاب.

(١٣٠) ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

لكن إذا لم يحصل اتفاق، ولم يقع الوفاق، وقد صمم على الفراق وعلى الطلاق، فالله - سبحانه وتعالى - سوف يغني الجميع من فضله، فسوف يغني الرجل بامرأة أخرى هي خير له من الأولى، وسوف يغني المرأة برجل آخر خير من الأول، فإن الله - سبحانه وتعالى - واسع الفضل والإحسان، عظيم الامتنان، بيده الخير كله، وهو يسهل - سبحانه وتعالى - النصيب الأحسن، واختياره أجمل، ومن فوض إليه الأمر كفاه وأعطاه وواساه.

(١٣١) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴾

كل ما في السموات وما في الأرض ملك لله - سبحانه وتعالى - يدبره ويتصرف فيه، لا يغالبه مغالب ولا يعجزه شيء، وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - اليهود والنصارى ممن كان قبلكم ومن قبلهم من الأمم وأمركم أنتم بأن تتقوه وتخافوه وتعملوا بأوامره وتتركوا نواهيه، وهذا فيه مصلحة لكم وخير عميم عظيم في الدنيا والآخرة، ولكن إذا رفضتم ذلك وكفرتم بالله وأشركتم معه وخالفتم رسوله وجحدتم آياته، فالله متصرف في الكون، غني عن إدبار من أدبر، فلا يضره كفر من كفر، ولا ينقص من ملكه شرك من أشرك، وهو محمود - سبحانه وتعالى - في ذاته على حسن أفعاله، وعلى جميل صفاته وأسمائه وعلى عظيم ذاته، وهو حميد أيضًا يشكر من أقبل إليه ومن آمن به ومن اتقاه.

(١٣٢) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

وملكه - سبحانه وتعالى - لما في السموات والأرض قهر وقدرة وإحاطة وعلم.. وأعاد هذا المعنى سبحانه وتعالى ليبين كمال استغنائه عن الخلق وقوة ملكه ونفوذ أمره - جل في علاه - وكفى به محصيًا لأعمال العباد، مطلعا عليها، حافظًا لها، مجازيًا عليها.

(١٣٣) ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴾

وإذا أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يفنيكم أيها الخلق، ويذهب بكم ويستبدل غيركم، فمن الذي يرده؟ ومن الذي يعجزه؟ فقدرته نافذة، وحكمته باهرة، وأمره واقع، وملكه عظيم، وهو غني عن الكل من ذهب ومن بقي، من أطاع ومن عصى، ومن آمن ومن كفر، فلا إله إلا هو ما أعظمه.

(١٣٤) ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾

من طلب لعمله الدنيا فأجر الدنيا وأجر الآخرة عند الله - سبحانه وتعالى - فلماذا هذا العبد يطلب الرخيص الخسيس، ويترك الأغلى والأحسن والأعلى، وما عند الله - سبحانه وتعالى - من الرضوان والفوز بالجنان ومغفرة الديان، فإن الله - سبحانه وتعالى - يطلع على أعمال هؤلاء الناس، وهو سميع لأقوالهم، بصير بأفعالهم، لا تخفى عليه خافية، يعلم المخلص من المرائي، والصادق من الكاذب، ومن أخفى نية أظهرها الله سبحانه وتعالى وعلمها - جل في علاه -.

(١٣٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾

أيها المؤمنون، اتقوا الله - سبحانه وتعالى - وكونوا عدولاً شاهدين بالحق، قائمين بالشهادة على الوجه الصحيح حتى لو كانت الشهادة على أنفسكم أنتم، أو على أقاربكم من الآباء والأبناء والإخوان، فلا تمنعكم القرابة من قول كلمة الحق والشهادة بالصدق على أكمل وجه، فلا يُخشى إلا الله، ولا يُخاف إلا هو - سبحانه وتعالى - حتى لو تكون الشهادة على الغني فلا يمنعكم غنى الغني وجاهه وسلطانه ومنصبه أن تُدلوا بالشهادة الحقة، وأيضًا لا يحملكم العطف والرحمة والإشفاق على الفقير ألا تقيموا الشهادة عليه، بل أقيموها فالله - سبحانه وتعالى - الأولى بالفقير وبالغني، وهو أعلم - سبحانه وتعالى - بما يصلح لهذا وهذا، وهو المتكفل برزقهم وهو المعطي لهم - سبحانه وتعالى - ومرد أمر الفقير والغني إليه، فعليكم ألا تتبعوا مراد النفوس الظالمة الجائرة في إرضاء الناس وإغضاب رب الناس، بل قولوا كلمة الحق، رضي من رضي، وغضب من غضب. المقصود أن تكونوا صادقين وإن حرفتم الشهادة أو كتمتموها فسوف يعلم الله - سبحانه وتعالى - ذلك ويحصيه عليكم ليحاسبكم به؛ لأنه اطلع - سبحانه وتعالى - على ما وقع، وسوف يجازي كلاً بما صنع.

(١٣٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾

أيها المؤمنون، داوموا على الإيمان واثبتوا على اليقين وتصديق الله - عز وجل - واتباع رسوله ﷺ، وعليكم بالإيمان بالقرآن الذي نزله الله - سبحانه وتعالى - على رسوله مفصلاً ومجملاً، وآمنوا - أيضًا - بالكتب التي أنزلها الله - سبحانه وتعالى - على رسله من قبل، والذي يعرض عن الهداية، ويحارب ربه ومولاه ويكفر بألوهية خالقه، ويجحد الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر فهذا قد ابتعد عن الحق ابتعادًا كبيرًا، وضل ضلالاً عظيمًا، وأخطأ خطأً بيِّنًا، ووقع في خسران ما بعده خسران، وأصابه خذلان لا أكبر منه خذلان.

(١٣٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾

المنافقون الذين آمنوا بالله ورسوله في الظاهر ثم ارتدوا على أعقابهم ثم رجعوا فآمنوا، ثم رجعوا فارتدوا وبعد الارتداد زادوا كفرًا إلى كفر بأعمالهم الشنيعة، وأفعالهم القبيحة، هؤلاء بعدما استمرؤوا الكفر والنفاق، وأدمنوا الردة والمخالفة، لن يتجاوز الله عن سيئاتهم، ولن يغفر ذنوبهم ويقبل عذرهم، ولن يقيل عثرتهم، ولن يوفقهم لتوبة بعدها، فقد أظلمت بصائرهم وانطمست معالم الخير في قلوبهم، وساء تصورهم؛ ولذلك من أدمن المعاصي وتاب وعاد ثم تاب وعاد فيُخشى عليه ألا تقبل توبته.

(١٣٨) ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يا محمد: بَشِّرْ هؤلاء المنافقين؛ على سبيل السخرية والاستهزاء بهم؛ لأنهم كانوا يسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم، بشرهم بعذاب مؤلم، وبجزاء فظيع، وعقاب شديد عند الله جزاءً لفعلهم ولخديعتهم ولمكرهم ولكذبهم.

(١٣٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾

هؤلاء المنافقون يتولون الكافرين من دون المؤمنين فيحبون أعداء الله، ويحاربون أولياء الله ويصادقون الكفار ويعادون المؤمنين، عجبًا لهم!! يريدون النصرة والمنعة والمكانة والمنزلة عند الكفار، والكافر لا يملك هذا، فهو فقير من ذلك كله، كيف لا يطلبونها عند من يملكها وهو الله - سبحانه وتعالى - فإنه لا أعز منه، فالعزة له ولرسوله وللمؤمنين، والتكريم عنده، والنصر والثواب الجزيل والنعيم المقيم، فلماذا ما طلبوها - قاتلهم الله - ممن يملكها جل في علاه؟.

(١٤٠) ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

أيها المؤمنون: قد بُيِّن لكم في القرآن العظيم أن عليكم إذا سمعتم الكفار يسخرون من آيات الله - سبحانه وتعالى - وأنتم في مجلس معهم فقوموا من ذلك المجلس مقاطعةً له ولهم، وإضرابًا عن الحديث معهم حتى ينتقلوا إلى حديث آخر، وإلى موضوع غير موضوع الاستهزاء بالله وبكتابه وبرسوله، لكنكم إذا رضيتم كما يفعل المنافق وجلستم معهم واستمعتم لقولهم ولو لم تتكلموا فأنتم معهم مشتركون في الإثم والوزر، وأما المنافق الذي يجلس مع الكافر ويشاركه الاستهزاء بالدين، والسخرية منه فإن الله سوف يجمعه معه في نار جنهم؛ لأنه أحب صحبته واختار مرافقته، فحشره الله معه.

(١٤١) ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

هؤلاء المنافقون ينتظرون بالمؤمنين الدوائر، ويتحرون أن تنزل بهم الكوارث والهزائم، فإذا وقعت واقعة وكان النصر للمسلمين قال المنافقون للمسلمين: نحن حضرنا معكم وشاركناكم بالظاهر فنريد حظنا من الغنيمة، وإن كان النصر

للكفار على المؤمنين قالوا: أما تركنا قتالكم وخذَّلنا عنكم وتباطأنا في منازلتكم وكففنا عنكم، فأعطونا نصيبنا من الغنيمة فنحن كنا سببًا في منع المؤمنين وخذلهم وتوهين صفهم. فأخبر - سبحانه وتعالى - بأنه سوف يحكم بين الجميع يوم العرض الأكبر بين المؤمنين والمنافقين والكافرين فهو يعلم عمل الجميع، وسعي الجميع، وما نواه الجميع، وبشّر - سبحانه وتعالى - أنه لن يمكّن الكفار من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم ويزيلوهم من الأرض ويفنوهم عن بكرة أبيهم، هذا لن يكون أبدًا ولو كان للكفار جولة أو صولة فإن العاقبة - بإذن الله - للمؤمنين، والنصر الأخير لعباد الله الصالحين.

١٤٢ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

هؤلاء المنافقون يلعبون بدينهم ويخادعون ربهم في ظنهم، والله - سبحانه وتعالى - هو الذي سيخدعهم -جل في علاه- فإنه عصم دماءهم في الدنيا، ولكنه أعد لهم غاية العقاب وأفظع العذاب في نار جهنم، فهم يظنون أنهم لبّسوا أمرهم على خالقهم ومولاهم، والواقع أن الله لبَّس عليهم أعمالهم وغطى بصائرهم وحجب الفَهْم عن عقولهم، ومن صفاتهم أنهم يتكاسلون في أداء الصلاة فيؤدونها بلا حب ولا نية ولا خشوع؛ لأنهم لا يريدون أجرًا ولا يخافون وزرًا ولا عذابًا، بل يريدون أن يعصموا دماءهم بهذه الصلاة، ويُقال في الظاهر: إنهم مسلمون، فهم يريدون المحمدة من الناس وكف الأذى من المؤمنين بصلاتهم التي لا تنفعهم، ومن صفاتهم أنهم قليلو الذكر لله - عز وجل - سواء باللسان أو بالقلب، فمن أحب الله أكثر من ذكره، والمنافق لا يحب ربه ولذلك لا يذكر مولاه، فمن أكثر من ذكر ربه فقد برئ من النفاق، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه الفائدة لكفى بها.

١٤٣ ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾

هؤلاء المنافقون حائرون مترددون، مرةً مع المؤمنين ومرة مع الكافرين، لا يثبتون على رأي ولا يقفون على قول ولا يستمرون على مبدأ، كل يوم لهم طريق ومنهج وسيرة يتلونون ويتشكلون وفْقَ المصالح المعيشية والمطالب الدنيوية، فإن كانت المصلحة مع المؤمنين دخلوا معهم، وإن كانت مع الكافرين ساروا معهم، وهؤلاء أضلَّهم الله - سبحانه وتعالى - على علم، ومن يضلُّه - سبحانه وتعالى - فلن تجد له من يرشده ولا من يسدده ولا من يريه طريقه ولا من يوفقه ويأخذ بيده، بل يبقى في طغيانه وغوايته.

١٤٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾

أيها المؤمنون: لا تكونوا كالمنافقين الذين تولوا الكفار من دون الواحد القهار وتركوا صحبة الأبرار وذهبوا مع الفجار، هؤلاء لا تسلكوا مسلكهم، وعليكم أن تتولوا الله ورسوله والمؤمنين، فإنكم إذا توليتم الكفار من دون المؤمنين جعلتم لله حجة في أن يعاقبكم، وأن ينتقم منكم، وأن يوقع بكم أشد العذاب وأفظع العقاب.

١٤٥ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾

هؤلاء المنافقون في أسفل طبقة من النار؛ لأن فعلهم أشد من فعل الكفار، فهم خادعوا المؤمنين ولعبوا في الدين واستهزؤوا بعباد الله الصالحين، ومكروا بأوليائه، وأعانوا المشركين من داخل صف المؤمنين، وخذلوا المؤمنين في مواقف الجهاد والنصرة، فكان جزاؤهم أن ينكّل الله بهم أشد النكال، ويعذبهم أشد العذاب، وليس لهم من يدفع عنهم العذاب ولا من يحميهم من العقاب عند الواحد الأحد.

١٤٦ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

لكن من تاب من هؤلاء المنافقين وعاد إلى الله وندم على ما فعل، وأصلح عمله عَوضًا مِمَّا أفسده من قبل واعتصم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتمسك بهما، وعض النواجذ على الشرع المطهر، وأخلص العمل لربه، وترك الرياء

والسمعة وصدق في طاعة مولاه، فمصير هؤلاء مع المؤمنين في الثواب والأجر العظيم، والله - سبحانه وتعالى - قد وعد المؤمنين الأجر العظيم والثواب الجزيل والمقام الآمن، فهم معهم في الأجر؛ لأنهم فعلوا فعلهم.

(١٤٧) ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾

أي مصلحة لله في تعذيب عباده؟ أي منفعة للخالق في التنكيل بالمخلوق؟ أي خير يريده - سبحانه وتعالى - من أن ينزل العذاب الشديد بعبيده؟ هل يتشفى من غيظ وجده - جل في علاه -؟ أم يريد أن يدرك الثأر لا إله إلا هو؟ أم يريد بهذا العقاب أن يجلب النفع لنفسه - تقدس اسمه -؟ أم يريد - جل في علاه - أن يدفع الضر عنه سبحانه؟ هذا لا يوجد ولا يكون، فهو الغني عن الكل الحاكم للجميع، المتصرف في أمر الجميع، بل من شكر الله على نعمه، وآمن بشرعه فلن يعذبه الله - سبحانه وتعالى - وليس الله - سبحانه وتعالى - محتاجًا إلى عذاب أحد ولا إلى طاعة أحد، ولكنه أمر بها - سبحانه وتعالى - وهو شاكر لمن أحسن، وعليم بمن أساء، فهو يشكر الإحسان ويعلمه، ويعاقب على الإساءة ويعلمها.

(١٤٨) ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

الله لا يحب كشف الأسرار وهتك الأستار وإظهار الفضائح وبث القبائح، ولا يحب - سبحانه وتعالى - أن يفحش الإنسان إذا تحدث ولا أن يؤذي أحدًا في لفظه إلا المظلوم، فإنه يجوز له أن يذكر الظالم بما فيه من قبائح ليجتنب الناس ظلمه، وليُبرز مظلمته وليخبر عما وقع عليه من حيف، ويجوز أن يدعو على ظالمه ليجتنب الناس هذا الظالم، والله - سبحانه وتعالى - يسمع أقوال الجميع من أحسن ومن أساء، ويعلم أعمال الجميع من أصاب ومن أخطأ، وسوف يحاسب الجميع - جل في علاه - ولا إله إلا هو.

(١٤٩) ﴿ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴾

أيها الناس، إن أظهرتم الخير أو أخفيتموه، أو تجاوزتم عن إساءة من أساء، فالله عالم بذلك مطلع عليه، وجاء العفو عمن أساء بعد جواز ذكر الظالم بما فيه ليبين - سبحانه وتعالى - أن من عفا وأصلح وترك قول السوء في من ظلمه كان حسنًا؛ لأن من صفاته - سبحانه وتعالى - أنه يعفو عمن أساء، وهو قدير على أن يعاقبه، ومع ذلك يتجاوز - سبحانه وتعالى - فهو أقدر على عقوبة خَلْقِه من خَلْقِه، ومع ذلك تجاوز عن الخَلقِ، فالخلقُ بحاجة إلى أن يتجاوز بعضهم عن بعض لحاجتهم إلى عفو ربهم سبحانه وتعالى.

(١٥٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

الذين كفروا بالله - سبحانه وتعالى - ورسله وهم يريدون أن يفرقوا في الإيمان بين الإيمان بالله ورسله، فاليهود آمنوا بموسى والتوراة، وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمد وبالقرآن، والنصارى آمنوا بعيسى والإنجيل، وكفروا بموسى والتوراة وبمحمد والقرآن، أما المؤمنون فآمنوا بمحمد والقرآن وبعيسى والإنجيل وبموسى والتوراة، وبعضهم يريد أن يفرق بين الله ورسله فيؤمن بالله وحده، ولا يؤمن برسله، حسدًا وبغيًا من هؤلاء الكفار، وبعضهم يقولون نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم الآخر، ونتخذ طريقًا وسطًا نختاره لنا، ومنهجًا نرتضيه، وهو منهج باطل منحرف ضال لا خير فيه ولا يقبله الله.

(١٥١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾

هؤلاء الذين يفعلون ذلك من التفرقة بين الله ورسله والكفر ببعض الأنبياء والإيمان ببعض، هم كافرون على الحقيقة لا شك في كفرهم، خارجون عن الملة، خالدون في النار، والله قد أعد لهم في الآخرة من النكال والعذاب والإهانة ما الله به عليم، جزاءً على كفرهم وطغيانهم.

١٥٢ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

أما المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله وبكتابه واتبعوا رسوله محمداً ﷺ، ولم يفرقوا بالإيمان بين رسل الله - سبحانه وتعالى - بل آمنوا بجميع المرسلين وصدقوا جميع الأنبياء، فهؤلاء لهم عند الله - عز وجل - الثواب الجزيل والأجر العظيم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - واسع الإحسان كثير الامتنان، يحب العفو ويتجاوز عن الخطأ، ويحلم على المسيء، وهو - سبحانه وتعالى - يتغمد المقبل إليه بواسع الرحمة والفضل -جل في علاه-.

١٥٣ ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾

يطلب منك اليهود - يا محمد - أن تأتيهم بكتاب من السماء جملةً واحدة، فلا تعجب من هذا الطلب، فقد طلبوا من موسى أكبر مما طلبوا منك، فقد سألوه أن يريهم الله - سبحانه وتعالى - جهارًا نهارًا علانية؛ لينظروا إلى الله - سبحانه وتعالى - ولقبح سؤالهم وخبث صنيعهم أحرقهم الله بالصاعقة لجورهم بالسؤال وعدم التأدب مع ذي الجلال وما كفاهم هذا، بل عبدوا العجل من دون الله - سبحانه وتعالى - من بعد ما أظهر الله المعجزات والآيات البينات على يد موسى من العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك، ثم تاب الله - سبحانه وتعالى - عليهم من بعد هذا الفعل وأمهلهم وأظهر موسى عليهم بالحجة والبيان الواضح والسلطان الباهر.

١٥٤ ﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾

وهؤلاء اليهود قد رفعنا فوقهم الجبل، رفعناه فوق رؤوسهم لما أخذنا عليهم الميثاق، وهددناهم بإسقاط الجبل على رؤوسهم إن لم يمتثلوا العهد الوثيق والميثاق الغليظ، فأجابوا ثم نكثوه ونقضوه، وأمرناهم بالدخول إلى بيت المقدس من بابه وأن يقولوا: حِطة -حطَّ عنا خطايانا- فدخلوا مستهزئين يزحفون وهم يقولون حبة حنطة في شعيرة أو في شعرة، وأمرناهم بألا يصطادوا يوم السبت، فرفضوا أمرنا، وخالفوا نهينا، واصطادوا يوم السبت، وسبق أن أخذنا عليهم المواثيق في هذا كله، ولكنهم نقضوا كل ميثاق، فخانوا كل عهد ونكثوا كل وعد.

١٥٥ ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

فبسبب نقضهم للمواثيق ونكثهم للعهود، وجحدهم بآيات الله وقتلهم لأنبياء الله -عز وجل- بغير حق مسخهم الله وأذلهم وأعمى أبصارهم، و - أيضًا - قالوا لخاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - إنَّ قلوبنا مغطاة لا تفقه شيئًا مما تحدثنا به، ومما نزل به عليك، فقال سبحانه وتعالى: بل كذبوا فيما قالوا، لكن الله طبع على قلوبهم وغطاها بسبب الكفر وبسبب جرائمهم وأعمالهم الشريرة، فلا يؤمن منهم إلا القليل أما الكثير فكافرون خارجون عن الملة.

١٥٦ ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾

ويكفرهم - أيضًا - بالله - سبحانه وتعالى - وتكذيبهم لآياته التي أنزلها على رسوله وفريتهم العظيمة وبهتانهم القبيح على مريم الطاهرة الصديقة لما اتهموها بالزنا -برّأها الله- قالوا: إن عيسى ابن زنا، والعياذ بالله.

١٥٧ ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴾

ومن جرائمهم - أيضًا - ومكرهم وكيدهم ادّعاؤهم الكاذب أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم الرسول من عند الله، والحقيقة أنهم لم يقتلوه، وأنهم لم يصلبوه ولكن الله شبه عليهم المسألة فأتى رجل منهم يدلهم على عيسى، فألقى

الله شبه عيسى على هذا الرجل، فقتلوا هذا الرجل، ثم وقعوا في مرية وشك، وقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا؟! وإن كان صاحبنا المقتول فأين عيسى؟! واليهود والنصارى أصلاً في شك وحيرة من قتلهم وصلبهم لعيسى، فإن اليهود يزعمون أنهم قتلوا عيسى وما عندهم بيّنة ولا دليل قاطع بذلك، والنصارى يرون أن اليهود قتلوه ثم يدّعون ألوهيته، فكيف يكون إلهًا ومع ذلك يُقتل، والإله لا يُقتل ويدافع عن نفسه ؟! ومع هذا الشك فإن اليهود والنصارى ليس لديهم يقين في هذه المسألة، وما عندهم إلا ظنون وشكوك، فالواقع أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكن الله رفعه بجسده وروحه وتوفاه الله في السماء.

(١٥٨) ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

فرفع الله – سبحانه وتعالى – عيسى وبرأه مما قالوا ونزهه مما نسبوا إليه وإلى أمه، وحماه الله منهم، والله عزيز لا يُغالب، وقوي لا يُقهر، وحكيم في تصريفه وتدبير أمور خلقه، وفي أمره ونهيه.

(١٥٩) ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

ما من يهودي ولا نصراني في آخر الزمن إلا سوف يصدق بأن عيسى رسول وليس بإله، وأنه لم يُصلب، حينما ينزل عيسى في آخر الزمان، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، حينها يصدق به اليهود والنصارى الذين كانوا يكذبونه، وكان اليهود يقولون إنهم قتلوه وصلبوه، والنصارى ألّهوه، فحينها يؤمنون أنه رسول، وأنه لم يُقتل ولم يُصلب، ويوم يبعث الله الأولين والآخرين سوف يشهد عليهم عيسى ابن مريم، يشهد لمن آمن به ويشهد على من كفر به.

(١٦٠) ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

وبسبب انحراف اليهود وجورهم وتكذيبهم لكتاب الله ورسوله، عاقبهم الله – سبحانه وتعالى – فحرم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم جزاءً على مخالفتهم لأمره، وجزاءً على أنهم منعوا كثيرًا من الناس منهم من دخول الإسلام، وقهروهم وحجبوهم عن الهداية.

(١٦١) ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

ومن معاصيهم ومما تسبب في عقوباتهم أكلهم الربا وهو محرم عليهم في شريعتهم، ومنهي عنه، وأخذهم أموال الناس بغير وجه شرعي من السحت والسرقة والمعاملات المحرمة، والبيوع المنهي عنها، والله – سبحانه وتعالى – قد أعد لهم ولكل كافر عذابًا فظيعًا في الآخرة، ونكالاً شديدًا في نار جهنم.

(١٦٢) ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

لكن يُستثنى من اليهود الذين تمكنوا من العلم النافع وثبتوا على الإيمان، وفهموا حقائق الدين، فهم يؤمنون بما أنزل عليهم، وما أنزل عليك – يا محمد – من الكتاب والسنة، ونخصُّ من أقام الصلاة بالمدح؛ لأنها أعظم ركن بعد الشهادة، وكذلك من الذين يؤتون الزكاة طيبة بها أنفسهم، ومن يؤمنون بلقاء الله –عز وجل– والبعث بعد الموت والنشر والحشر، هؤلاء ادخر الله لهم ثوابًا جزيلاً، ومقامًا أمينًا، وسوف يكرمهم في جناته جزاءً لإيمانهم وصلاتهم وزكاتهم وبرِّهم وفضلهم.

(١٦٣) ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾

أنت – يا محمد – قد أنزلنا عليك وحيًا كما أنزلنا على الذين سبقوك كوالد الأنبياء نوح – عليه السلام – والذين جاؤوا من بعده كشيخ التوحيد وإمام الملة إبراهيم وابنه إسماعيل وابنه الآخر إسحاق وابن إسحاق يعقوب

الذي هو إسرائيل، وأبناؤه من الأسباط، وعيسى من أعظم أنبياء بني إسرائيل وأيوب العبد الصابر، ويونس بن متى الذي نجا من الكرب، وهارون أخو موسى، وسليمان صاحب الملك العظيم، والعبد الكريم الحكيم، وداود صاحب الزبور، وإنما أكثر - سبحانه وتعالى - من ذكر أنبياء بني إسرائيل تبكيتًا لهم بكثرة أنبيائهم مع كثرة إعراضهم، وأنه قد أقام الحجة عليهم، وأنه أكرمهم بالرسالة، وإنزال الكتب، ومع ذلك حسدوا الناس، وبغوا وكفروا، وقتلوا أنبياءهم.

١٦٤ ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾

وهناك - يا محمد - رسلٌ آخرون نَقُصُّهم عليك غير هؤلاء الرسل الذين أخبرناك بخبرهم وذكرنا أسماءهم، فالرسل كثيرون وهم جمع غفير، وعلى المسلم أن يؤمن بهم جميعًا على الإجمال والتفصيل، من ذُكر منهم ومن لم يُذكر، وأكرم موسى - عليه السلام - من بينهم بالتكليم، واختصه بهذه المنزلة العظيمة تكريمًا له وإنعامًا عليه.

١٦٥ ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

وهؤلاء الرسل والأنبياء يُبَشِّرون بجنات النعيم لمن أطاع الله، وينذرون بنار الجحيم لمن عصاه، وإنما أرسلهم الله لقطع اعتذار الناس بعدم إرسال الرسل، وإقامة الحجة لئلا تكون للناس حجةٌ على الله، فلا يقول الكافر إذا كفر لم يُرْسَلْ إليَّ رسول، وما أُنزل عليّ كتاب، فالله سبحانه وتعالى أرسل الرسل ليقطعوا المعاذير، وليقيموا الحجج على الناس، ومن عزته - سبحانه وتعالى - أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب وأثاب من أطاعه، وعذّب من عصاه، ومن حكمته - سبحانه وتعالى - أنه لا يعطي الثواب غير مستحقه، ولا ينزل العقاب على غير من هو أهلٌ له، لكن كل شيء بحكمة، وحسن تصريف، وجمال تدبير.

١٦٦ ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

وإذا لم يشهد هؤلاء بنبوتك ورسالتك فالله يشهد وحده أنه أنزل إليك القرآن وأنزله - سبحانه وتعالى - بعلمه واطلاعه -جل في علاه-، ويشهد مع الله -عز وجل- ملائكته، يشهدون بصدقك وبنزول الكتاب عليك، وإن لم يشهد أحد فيكفي شهادة الواحد الأحد -جل في علاه- فهو خير الشاهدين، وهو المطلع على كل خافٍ، العالم بكل غائب، وشهادته تغني وتكفي.

١٦٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

إن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم ممن كفروا بالله، ومنعوا الناس من الدخول في دين الله، واتباع رسول الله قد جمعوا بين الفساد في أنفسهم والإفساد لغيرهم، بين الضلال في مناهجهم وإضلال سواهم، هؤلاء ابتعدوا عن الحق ابتعادًا كبيرًا، وقد أخطؤوا خطأً بينًا، وارتكبوا غواية ما بعدها غواية، وأسرفوا في العصيان.

١٦٨ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾

وهؤلاء الكفار جمعوا بين جحد آيات الله - عز وجل - وظلم عباده بأن صدوهم عن طاعة الله - عز وجل - بالشبهة وبِالوَهْمِ، وهؤلاء لن يتجاوز الله عن سيئاتهم ولن يغفر زلاتهم ولن يعفو عن خطيئاتهم، ولن يرشدهم، ولن يفقههم في الدين، ولن ينير بصائرهم؛ لأنهم أغرقوا في الكفر وفي رد الناس عن طاعة الله -عز وجل- فهم ضالون ضُلّال لغيرهم.

١٦٩ ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

هؤلاء لا يهديهم الله - سبحانه وتعالى - طريق الخير والرشاد وطريق الجنة والعمل لها، إنما يدلهم على طريق النار وبئس القرار؛ لأنهم أغضبوا الجبار، هذه النار سوف يدخلونها خالدين مخلدين مؤبدين فيها جزاءً على أعمالهم القبيحة الشنيعة، والله - عز وجل - سهلٌ عليه أن ينتقم ممن عصاه، وأن يأخذ ممن خالف أمره، وأبَى كتابَهُ وسُنَّةَ رسوله ﷺ فلا يغلبه غالب، ولا يمتنع عليه أمر، ولا يعجزه طلب.

(١٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أيها الناس: قد أرسل إليكم محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم، وهو كتاب موحى إليه من ربه، فننصحكم ونوصيكم بأن تتبعوه وتصدقوا ما جاء به، فوالله إنه الخير كل الخير في اتباعه وامتثال أمره، وهو الأسلم لكم في الدنيا والآخرة، ولكن إذا جحدتم آيات الله وعصيتم رسوله فالله غني عنكم؛ لأن له ملك السموات والأرض تصريفًا وتدبيرًا وخلقًا ورزقًا، فأي ضرر يدخل عليه إذا أعرضتم عن طاعته، والله - سبحانه وتعالى - عالم بكل خاف مطلع على كل سريرة، حكيم في كل تدبير وتصريف، فهو - سبحانه وتعالى - جمع بين العلم الذي هو الاطلاع على مواقع القدر والأحكام، حكيم في تنفيذ ما علم - سبحانه وتعالى - وفي ميزان مواطن قضائه وقدره المواطن اللائقة بها.

(١٧١) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

يا معاشر النصارى، لا تتجاوزوا الحد في دينكم فَتَدَّعوا ألوهية عيسى وهو عبدالله ورسوله، فلماذا لا تقولون الحق في هذه المسألة كما أخبر الله سبحانه وتعالى؟ ولماذا تقولون الزور والبهت والباطل؟ إنما المسيح عيسى عبد الله ورسوله، وهو كلمة من الله - سبحانه وتعالى - ألقى الله هذه الكلمة على جبريل، وجبريل نفخ بها في جسم مريم الطاهرة البتول، فآمنوا بما أخبر الله به، وصدقوا رسله كعيسى وموسى ومحمد، ولا تقولوا إنّ الإله ثلاثة: الله والمسيح ومريم، وإنهم اتحدوا فصاروا إلهًا واحدًا، وهذا كذب وزور، فاتركوا هذه الأقاويل الباطلة، وهذه الكذبات القبيحة، فالله إله واحد - سبحانه وتعالى - لا إله إلا هو، هو المستحق للعبادة، والمستأهل للألوهية وهو الخالق والرازق وحده، وما سواه مخلوق سواء مريم أو عيسى أو غيرهما، فتعالى الله - سبحانه وتعالى وتقدس - عما تنسبونه إليه من ذكر الأقاويل الثلاثة على حد زعمكم: الأب والابن وروح القدس، وقلتم إن مجموعها واحدة، وهي مقولة خاطئة آثمة كاذبة، وهي زور وبهتان، فتعالى الله - سبحانه وتعالى - أن يتخذ ولدًا من العباد، فهو غني عن اتخاذ الولد، وهو إله متفرد في الألوهية والربوبية لا يولد له ولد؛ لأنه ليس له صاحبة أي: زوجة يأتي منها نسل، ولو كان هناك له ولد لكان فيه صفات الألوهية، والله لا يشابهه أحد في صفاته - جل في علاه -؛ لأن له ما في السموات وما في الأرض، فالذي له ما في السموات والأرض لا يحتاج إلى ابن، فهو يتصرف في الخليقة كيف يشاء، وهم عباد أذلاء مقهورون تحت قدرته وملكه ويكفي بالله - سبحانه وتعالى - محاسبًا لهؤلاء ومطلعًا على ما أسروه، وحافظًا لأعمالهم، وما افتروه ليحاسبهم على قبيح ما صنعوه وما تفوهوا به وما قالوه.

(١٧٢) ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾

والمسيح عيسى ابن مريم أصلاً لا يتكبر عن عبادة ربه ولا يأنف، بل يتشرف بذلك ويفخر بعبودية مولاه والاستسلام له والانقياد له، وكذلك الملائكة المقربون ليس عندهم أنفة ولا كبر ولا تَمَنُّع ولا إباء، فهم كلهم يعبدون الله ويسبحونه الليل والنهار، لا يفترون ولا يسأمون، وإن حصل أن بعض العباد تكبروا عن عبادة الله وأبوا وأنفوا من ذلك فسوف يعيدهم الله إليه يوم القيامة ليحاسبهم بفعلهم، فالمرجع والمرد إليه، فهو - سبحانه وتعالى - الذي يُخاف ويُرجى لا إله إلا هو.

(١٧٣) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

أما المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا أنواع الخيرات وصنوف البر، فالله - سبحانه وتعالى - سوف يوفيهم سعيهم ولا ينقصهم من أجورهم شيئًا، ولا يبخس من حظوظهم العظيمة في الآخرة، وسوف يزيدهم

على ثواب ما فعلوا كرمًا منه وتفضلاً - جل في علاه -، وأما الذين أبوا وأنفوا وتكبروا وأعرضوا عن عبادة الله - سبحانه وتعالى - فجزاؤهم العذاب الأليم والأخذ الشديد، فليس لهم وليّ يجلب نفعًا ويحفظهم من العذاب، وليس لهم نصير يدفع عنهم العقاب، ولا يُحَامِ عنهم محامٍ، ولا يذب عنهم ذاب، بل سوف يتولى الله تعذيبهم لا إله إلا هو.

(١٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾

أيها البشر: قد أتتكم آية باهرة وحجة قاطعة وعلامة مشهورة ورسالة محمودة من ربكم الذي تكفل بخلقكم ورزقكم، فأكرمكم بهذا النبي الأمي العربي محمد بن عبدالله ﷺ الذي هو من أعظم الرسل على الله، ورسالته قد ظهرت أدلتها وسطعت براهينها، وأنزل معه كتابًا محكمًا فيه من الآيات والعبر والمواعظ وأحكام الحلال والحرام والآداب والأخلاق ما يفوق الوصف ويربو عن المدح ويجل عن الثناء، وهو نور يهدي به الله -عز وجل- في ظلمات الحياة، وينير طريق من اتبع وتدبر وعمل بما فيه.

(١٧٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾

أما الذين صدّقوا بألوهية ربهم ووحدانيته وأخلصوا العبودية له وتمسكوا بشرعه والتزموا سنة نبيه، فجزاؤهم أن يكرمهم الله برحمةٍ تأتي على ذنوبهم وخطاياهم وتنزلهم أعظم المنازل وبفضل من الأجر العظيم والثواب الجزيل، وسوف يتولى الله أمرهم في الدنيا والآخرة، فيوفقهم لأحسن الطرق وأجمل المناهج وأحسن المسالك ويورثهم في السعادة الأبدية والخير السرمدي.

(١٧٦) ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾

يسألك الناس - يا محمد - عن مسألة الكلالة، وهو الرجل يموت وليس له والد ولا ولد، فمن الذي يرثه؟ هل يرثه أخوه أو ترثه أخته، فأخبرهم أن هذا الميت إذا مات وليست له إلا أخت واحدة وليس له آباء ولا أبناء، فلأخته الشقيقة أو أخته من أبيه نصف الميراث من تركته، وأخوها الشقيق أو أخوها لأب يرث جميع تركتها إن لم يكن لها والد ولا ولد، وإذا كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما، وإن كان الورثة إخوةً وأخواتٍ فللذكر منهم مثل نصيب الأختين، وهذا يبينه - سبحانه وتعالى - حتى لا يخطئ الناس في قسمة المواريث، أو أن لا يسددوا فيقع الظلم والحيف على بعض الورثة وبخاصة من اليتامى والمساكين والإناث؛ ولذلك ختم الله - سبحانه وتعالى - هذه السورة بحقوق النساء والأيتام والبنات والأخوات لضعفهن، وليذكّر العباد ما لهن من الحقوق التي يجب أن تصان وأن تحترم وأن تؤدى إليهن كاملة مكملة.

* * *

مدنية

سورة المائدة

ترتيبها ٥

آياتها ١٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

أيها المؤمنون، يا من صدّقتم بكتاب الله واتبعتم رسول الله، أوفوا بما عاقدتم عليه ربكم وما عاهدتم عليه مولاكم، وأوفوا بما بينكم وبين الناس من عقود وعهود، فلا تتقضوا العهد وتتكثوا الميثاق، وأتموا ما اصطلحتم عليه وما وافقتم عليه من الوثائق والصكوك وعقود النكاح والبيع والإيجار وسائر أنواع الشركات والمعاملات، والمواثيق الإنسانية والدولية التي لا تخالف الشرع، ومن نعم الله عليكم أن أحل لكم لحوم الإبل والبقر والضأن والماعز بعدما تُذبح على الطريقة الإسلامية، ولا يجوز لكم أن تصيدوا وأنتم محرمون صيد البر؛ لأنكم دخلتم في شعائر الحج والعمرة؛ فينبغي أن يأمنكم الناس والطير والحيوان، واعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - يفعل في خلقه ما أراد، ويحكم ما شاء، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

أيها المؤمنون، لا تستحلوا ما حرمه الله - سبحانه وتعالى - في أشهر الحج: شوال وذي القعدة، وذي الحجة، ولا تستحلوا ما أهدي إلى البيت العتيق من بهيمة الأنعام وما قلد في أعناقها وأصبحت خالصة لمساكين الحرم، فلا يجوز لكم أن تتعرضوا لها بصد عن البيت أو باغتصاب، ولا يجوز لكم أن تتعرضوا بالأذى أو القتال لمن قصدوا البيت الحرام يريدون عبادة مولاهم وطاعته من الحج والعمرة، ولكنكم إذا فسختم الإحرام وخرجتم من النسك، جاز لكم صيد البر الذي كان محرَّمًا عليكم، ولا يحملنكم كرهكم الأعداء الذين ردوكم عن المسجد الحرام ومنعوكم من أداء النسك، لا يحملنكم هذا العداء على أن تعتدوا عليهم، فإن الله لا يحب الظلم ولا يرضاه، ولو كان على العدو، فإن الدين جاء بالعدل مع الإنسانية كافة، ومختلف البشر ولو كانوا كفارًا، وحرّم الله الظلم حتى على غير المسلم، وعليكم أن تتعاونوا فيما بينكم على كل خير وصلاح وتقوى، فالمعاونة على البر هي معاونة على فعل كل ما يحبه الله ورسوله، والمعاونة على التقوى اجتناب كل ما حرّمه الله ورسوله، واحذروا أن يكون تعاونكم على الإثم (وهو ذنب النفس) والعدوان (وهو ظلم الناس)، وعليكم بمراقبة الله - عز وجل - في كل أموركم وخشيته؛ لأنه - سبحانه وتعالى - صاحب القوة التي لا تُقهر، والعذاب الذي لا يُطاق، والعقاب الذي لا يستطاع له، لمن خالفه وعصى أمره وارتكب نهيه.

(٣) ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

واعلموا أن الله حرّم عليكم الميتة، وهي التي ماتت حتف أنفها من غير تذكية شرعية، وحرّم الله - سبحانه عليكم - الدم المسفوح كالذي يتدفق في أثناء الذبح، وحرّم عليكم لحم الخنزير بعينه حتى لو ذُبح على ذكاة شرعية فإنه نجس الذات لا تُحِلُّه ذكاة، ومحرّم عليكم ما ذُبح لغير الله كالذي ذبح على الأصنام والأنصاب والأوثان وذبح للكهان والعرافين، ونحوهم، وحُرمت عليكم المنخنقة التي ماتت بالخنق بحبل ونحوه، أو تردت من رأس جبل أو مرتفع، أو غرقت، أو التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت، أو ما أكله الذئب والأسد ونحوه ثم مات بعد ذلك إلا إذا أدركتم أنتم ذكاته قبل أن يموت فذبحتموه ذبحًا شرعيًا، ولا يجوز لكم أن تستقسموا بالأقداح، فهو من عمل الجاهلية وصنع المشركين، وقد كانوا يأخذون ثلاثة أسهم على أحدها مكتوب: اخرج، والثاني: لا تخرج، والثالث: ليس عليه شيء، فإذا أراد أحدهم سفرًا أقرع بينها فإن ظهر له الأمر اخرج خرج، وإن ظهر له النهي بقي، وأما الذي ليس مكتوبا عليه شيء فإنه يعيد القرعة مرة ثانية، وهذا من عمل الجاهلية، وهو خروج عن طاعة الله -عز وجل- وعن دينه، ثم بيَّن - سبحانه وتعالى - أن الكفار قد انقطع أملهم في أن تعودوا عن دينكم، وانتهى رجاؤهم في أن تتركوا إسلامكم، فعليكم بالخوف من الله وعدم خوفهم، فقد أعز الله دينه ونصر عبده وأعلى كلمته، واعلموا أن الله قد أكمل لكم الدين بإنزال الكتاب والسنة وتعليم شرائع الإسلام وبيان الحلال والحرام، فلا تجوز الزيادة في هذا الدين، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد، وقد أتم الله عليكم النعمة بإرسال محمد - عليه الصلاة والسلام - ونزول الوحي عليه، وهي من أجلّ النعم وأعظم العطايا من رب العالمين، ولكِ رخصة - أيتها الأمة - أن من ألجأته الضرورة والمجاعة الشديدة إلى الأكل فإنه يجوز له أن يتناول ما حرم عليه ما دام أنه ليس مائلاً إلى الأكل تلذذًا أو مجاوزًا إلى حد الرخصة، أو أراد هو مخالفة النهي، فلا بأس إذا اضطر العبد إلى أن يأكل بقدر حاجته من المحرمات؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، وهذا من سهولة دين الله، ومن يسر شرعه، وهذا منهج الحنيفية السمحة، واعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - يغفر الزلات ويرحم من تاب من الخطيئات، ففضله واسع، وعطاؤه جزيل لا إله إلا هو.

(٤) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

يستفتيك - يا محمد - الناس ما الذي أباح الله سبحانه وتعالى؟! فأخبرهم أن الله أباح لهم كل طيب، وهو النافع المفيد الذي ليس بخبيث قذر، وضار متلف، وحرّم عليهم ما استقذرته النفوس وعافته الطباع السليمة، وكرهته الأنفس المستقيمة مثل: الخنزير والكلاب والفئران، فإن الرسول ﷺ أتى ليحل الطيبات، وهي ما ينفع الجسم ولا يضر العقل ولا يتلف الحياة، ولا تتقذر منه النفس، وأتى بتحريم الخبائث، وهي كل ما فيه ضرر، أو ما استقبح واستقذر، ويجوز لكم صيد ما علّمتم من الجوارح مثل: صيد الكلب المعلم، والصقر، والباز ونحوها، والمُعَلَّمُ هو الذي ينطلق إلى الصيد إذا أرسلتموه، ويرتدع إذا ردعتموه، ولا يأكل من الصيد، وتذكرون اسم الله عليه إذا انطلق، فهذه الكلاب يشترط فيها أن تكون مُعَلّمَةً، وهذا ينبئك عن فضل العلم، حتى إن الله أباح صيد المعلَّم وحرّم صيد الكلب الجاهل، وعليكم بتقوى الله- سبحانه وتعالى - في كل أموركم ومراقبته والانتهاء عند نهيه وامتثال أمره، فهو - سبحانه وتعالى - سوف يحاسب الجميع؛ فعقابه أليم لمن عصاه، وثوابه عظيم لمن أطاع أمره واتقاه، فعند قيامكم بأي عمل تذكروا ذاك اليوم يوم الحساب.

(٥) ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

بعد إرسال محمد - عليه الصلاة والسلام - أباح الله لكم كل نافع مفيد طيب طاهر من الطعام والشراب، وأحلّه لكم رحمةً بكم بعد أن حرّم بعضه عمن كان قبلكم، وأباح الله لكم طعام اليهود والنصارى وذبائحهم؛ لأنهم أهل كتاب

بخلاف ذبائح المشركين فإنها محرّمة، وقد أحلّ الله لكم الزواج من العفيفات المؤمنات والعفيفات اليهوديات والنصرانيات، ولا يجوز لكم أن تجاهروا بمعصية الله -عز وجل- بالزنا واتخاذ العشيقات والصديقات والفجور بهن، ومن يكفر بعد إيمانه بآيات الله فعمله محبط وقد باء بالإثم وعاد بالخسران وأدركه الخذلان؛ لأنه عصى مولاه وخالف أمره وارتكب نهيه وخرج عن طاعته.

﴿٦﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

أيها المؤمنون، إذا أردتم أن تصلُّوا فعليكم بالوضوء الشرعي، فابدؤوا بغسل وجوهكم ويدخل في ذلك المضمضة والاستنشاق، ثم اليد اليمنى إلى المرفق، واليد اليسرى إلى المرفق، ثم امسحوا الرأس مسحةً واحدة، وعليكم بغسل أرجلكم إلى الكعبين، فإن الأرجل في الآية معطوفة على الأيدي فلا يجوز مسحها إذا لم تكن في خف أو جورب، وإنما تغسل غسلاً، وإذا أصابتكم جنابة فاغتسلوا، لكن إذا كنتم مرضى ويضركم الغسل أو كنتم مسافرين وليس عندكم ماء فعليكم بالتيمم، وإذا خرجتم إلى قضاء الحاجة أو جامعتم النساء ولم تجدوا ماءً فالتراب الطاهر يكفيكم، فتمسحوا به على طريقة التيمم الشرعي، والله - سبحانه وتعالى - بهذه الأحكام أراد بكم الخير واليسر والسهولة، وما جعل عليكم حرجًا في الدين ولا ضيقًا في التشريع، وإنما سنّ لكم الرخص وأمركم بما تطيقون، ووضع عنكم الآصار والأغلال؛ ليطهركم بهذه الرسالة وبهذه التعاليم الربانية، ويزكي أرواحكم، ويصلح أنفسكم، وييسر لكم أموركم، ولعل هذا يحملكم على شكره - سبحانه وتعالى - ومعرفة نعمته والعمل بطاعته واجتناب نهيه.

﴿٧﴾ ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

وتذكروا أيها المؤمنون ما أنعم الله به عليكم من إرسال رسوله محمد ﷺ، وإنزاله الكتاب عليه بعد أن كنتم مشركين في جاهلية جهلاء، فهداكم هذه الهداية العظيمة ووفقكم هذا التوفيق الكبير، وتذكروا أنكم عاهدتم الله وعاهدتم رسوله على طاعة الله وطاعة الرسول في مثل بيعة الرضوان وغيرها من العهود والمواثيق، واستجبتم وقلتم سمعنا وأطعنا، لا كما قال اليهود سمعنا وعصينا، فأنتم أحسنتم استماع القول، وأردفتم ذلك بالعمل، فعليكم بتقوى الله -عز وجل- في أن تنفذوا الأوامر وتجتنبوا النواهي، فإن الله لا تخفى عليه خافية، فعلمه واطلاعه - سبحانه وتعالى - كافٍ للعبد أن يرتدع عما نهى وأن يفعل ما أمر، وأن يراقب ربه في كل صغيرة وكبيرة.

﴿٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

يا أيها المؤمنون، قوموا بالشهادة على الوجه الصحيح، وراقبوا الله في أدائها واحترسوا من شهادة الزور، فأدوا الشهادة بعدل وصدق، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، ولا يحملنكم عداوة المشركين وبغض الكافرين على ألا تعدلوا في الشهادة معهم وعليهم، بل قولوا كلمة الحق حتى ولو كانت لصالح عدوكم؛ فالعدل هو أقرب للتقوى، وهو الذي قامت عليه السموات والأرض، وهو الذي أمركم الله به، فلا تحملنكم قرابة القريب على الشهادة له، ولا عداوة العدو على الشهادة عليه، وعليكم بتقوى الله - سبحانه وتعالى - وخشيته في أداء الشهادة، والحذر كل الحذر من شهادة الزور، فإن الله لا تخفى عليه خافية، فعلمه - سبحانه وتعالى - بعملكم، واطلاعه على حالكم، وسماعه لأقوالكم، ثم محاسبتكم على ذلك يوجب خشيته جل في علاه.

⑨ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

والله - سبحانه وتعالى - وعد وعدًا صادقًا كل من آمن به وصدق رسوله وعمل الخيرات المأمور بها واجتنب المنكرات أن يغفر ذنوبه، ويستر عيوبه، وأن يُعِدَّ له جنات النعيم في مقام كريم. وفي جوار رب رحيم؛ جزاءً لفعله الجميل ولسعيه المشكور.

⑩ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

وبالمقابل وعد الله - سبحانه وتعالى - من كفر به وكذب رسله وخالف شريعته بنار جهنم خالدًا مخلدًا فيها، فبئس الدار هي دار القرار، ففيها النكال وشدة العذاب لمن أشرك بالله وكفر به.

⑪ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

تذكروا أيها المؤمنون ما أنعم الله به عليكم وتفضل بحماية رسوله ﷺ وحمايتكم من كيد اليهود والمشركين، وكف الله - سبحانه وتعالى - أيدي اليهود حينما مكروا بالرسول ﷺ وخططوا لاغتياله وأرادوا أن يلقوا صخرة عليه، فمنعهم الله - سبحانه وتعالى - وحمى رسوله وعصمه منهم؛ فعليكم بتقوى الله - سبحانه وتعالى - فإن من اتقى الله - سبحانه وتعالى - نصره على عدوه وأيده وأعلى شأنه، وعليكم في كل الأمور خاصةً في مصاولة الأعداء وفي ملاقاة الكفار بالتوكل على الله -عز وجل-، فإن أقوى الناس من فوّض الأمر إلى الله واعتمد عليه ورضي به كفيلاً وحسيبًا ووكيلاً، وسينصره ريه ويخزي عدوه.

⑫ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

واعلموا أن الله قد أخذ المواثيق والعهود الغليظة على اليهود، ولكنهم نقضوها ونكثوها، فاحذروا أن تفعلوا فعلهم، وأن تسيروا سيرتهم فتنالوا جزاءهم، فإن الله قد أخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل، واختار منهم موسى اثني عشر رجلاً كالعرفاء والرؤساء عليهم حتى يلزموهم العهد والميثاق، ووعدهم - سبحانه وتعالى - أن ينصرهم وأن يعينهم وأن يسددهم متى ما أحسنوا إقامة الصلاة وأدوا ما عليهم من الزكاة، وصدّقوا برسالته - سبحانه - واتبعوا رسوله وناصروا وقاموا معه وجاهدوا الأعداء في صفه، وأنفقوا أموالهم في وجوه الخير، فوعدهم - سبحانه وتعالى - أن يمحو خطاياهم، وأن يغفر زلاتهم، وأن يتجاوز عن سيئاتهم، ثم يدخلهم جنة عدن، تلك الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولكن من خالف بعدما قامت عليه البينة واتضحت له المحجة ارتكب خطأً بينًا وضلالاً فاحشًا واتجه وجهة غير مرضية وسار في طريق غير سليم.

⑬ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

فبسبب هذا النقض طردهم الله من رحمته وأبعدهم عن رضوانه، وجعل قلوبهم فظة غليظة قاسية لا تلين لحق، ولا تستفيد من موعظة، ولا تنتفع بذكرى، وصاروا بهذا النقض يغيرون كلام الله - سبحانه وتعالى - ويبدلون المعاني ويصرفون الألفاظ عن مراداتها زيغًا وضلالاً وغيًا وعدوانًا، ثم إنّ هذه الذنوب أنستهم العلم النافع فصاروا لا يذكرون الأدلة، وخرج من قلوبهم نور العلم، وهذا من شؤم المعصية؛ فإنها تنسي صاحبها العلم النافع، وهؤلاء اليهود لا تزال

- يا محمد - تلقى منهم من الخيانات ونقض العهود ونكث المواثيق ما يظهر لك كل يوم إلا بعضهم ممن أسلم كعبد الله بن سلام وغيره، فعليك أن تتجاوز عنهم وأن تسامحهم حتى يقضي الله بقضائه ويريك فيهم الحق، وقد أراه - سبحانه وتعالى - فأمره في النهاية بمقاتلتهم بعد أن أمره بأن يعفو عن سيئاتهم، وأن يصفح عن معاقبتهم، وأخبره أن من أحسن في المعاملة ولزم العدل أثابه الله.

(١٤) ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ
وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

ومن الذين ادعوا أنهم نصارى وقالوا: إنهم أنصار الله، ولم يثبت لهم الله ذلك الوصف، بل قال: إنهم أدعياء بألسنتهم فقط، هؤلاء أخذ الله عليهم العهود الغليظة والمواثيق القوية فنكثوها ونقضوها من بعدما ذُكّروا بها، ابتلاهم الله - عز وجل - بأن ألزمهم العداوة فيما بينهم، وجعل الحرب بين فرقهم، فالنصارى متباغضون كفرقة البروتستانت والكاثوليك، وهذا العداء سوف يستمر إلى يوم القيامة، وهو جزاء نقضهم الميثاق وعصيانهم ربهم - سبحانه وتعالى - وسوف يحاسبهم الله على هذه الأفعال القبيحة، وهذا النقض وهذه المخالفات؛ ليوفي كلاً بعمله.

(١٥) ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ
وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾

أيها اليهود والنصارى، قد جاءكم محمد بن عبدالله ﷺ ليوضح لكم ويشرح لكم كثيرًا من الآيات والمعجزات التي مرت عليكم مع أنبيائكم السابقين، ويخبركم بالأخبار التي نزلت عليكم في التوراة والإنجيل، كآية الرجم، وقصة أصحاب السبت، ونتق الجبل، وضرب الصخرة وانفجار الماء منها، وفلق البحر، والمسخ إلى القردة والخنازير وغيرها، وهذا النبي يسكت عن كثير من تلك الآيات والمعجزات فلا يفضحكم بذكرها، وإنما يتجاوز عنها، فاعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - قد بعث محمداً بنور عظيم في كتابه الحكيم، وبدليل واضح وحجة قاهرة وآية باهرة في هذا الكتاب العظيم الذي فيه خبر الغيب، ولولا أنه نبي صادق ﷺ ما كان أخبركم بشيء لم تُخبروا به أنتم أصلاً، ولم يدرِ به إلا نبي.

(١٦) ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ
وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

وهذا الكتاب العظيم الذي أنزل على الرسول ﷺ، يوفق الله من عمل به وامتثله إلى العمل الصالح الذي يوصله إلى رضوان الله، وإلى هدايته وسلوك ما يحبه والفوز بجنته، والنجاة من غضبه وناره، وهذا الكتاب يُخرج من اتبعه واقتفاه وعمل بما فيه من ظلمات الجهل والشرك والشبهات والشهوات والمخالفات إلى نور الهداية وإلى وضوح المحجة وإلى صدق البرهان وإلى رضا الرحمن؛ ففيه الهداية المطلقة والعامة والخاصة، والنور المبين الواضح، والنجاة والعصمة من كل زيغ.

(١٧) ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ
ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا
يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

الذين قالوا من النصارى إن عيسى ابن مريم إله كفروا بالله وخرجوا عن دينه، فعيسى عبد من عباد الله -عز وجل- هو وأمه، ثم قال الله للنصارى: من الذي يدفع العذاب عن عيسى وعن أمه مريم إذا أراد الله تعذيبهما، ومن الذي يحميهما؟ فإن عيسى عبد من عباد الله تحت حكم الله وتدبيره وتصريفه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، والله - سبحانه وتعالى - إذا أراد بعيسى وأمه هلاكًا أو أراد أن يهلك أهل الأرض جميعًا فمن الذي يرده؟ ومن الذي يمنعه سبحانه وتعالى؟! فهو الإله لا إله إلا هو، له ملك السموات والأرض وملك ما

فيهما، وهو خالقهما ومدبرهما ومصرفهما، وهو - سبحانه - يخلق ما يشاء كيف يشاء، فخلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وخلق زوجه من غير أم، وخلق عيسى من أم بلا أب، وخلق سائر الناس من أم وأب، فهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء ولا يغالبه مغالب، ولا يخرج عن قدرته أمر -جل في علاه-.

(١٨) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

اليهود يقولون: إنهم أبناء الله وأحبابه من دون الناس، وكذلك النصارى يدّعون هذه الدعوى، وهذا كذب وزور وبهتان؛ فالله لم يتخذ أبناء من عباده، وأحبابه هم أهل طاعته وعبادته، ولو كان اليهود والنصارى صادقين في هذا ما عذبهم الله بذنوبهم. فإن المحبَّ لا يعذب حبيبه، بل هم كسائر الناس، من اتقى الله منهم أثابه، ومن عصى الله منهم عاقبه، والله - سبحانه وتعالى - له الحكمة المطلقة والملك المطلق، يغفر لمن يشاء من العباد ويعذب من يشاء؛ لأنه الخالق وحده والرازق، والإله لا إله سواه، وإليه يعود الخلق ليجازيهم على أفعالهم جميعًا.

(١٩) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يا معشر اليهود والنصارى، قد بعث الله لكم محمد بن عبدالله ﷺ بعد انقطاع من الرسالات، وبين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - ما يزيد على خمسمئة، فالآن أتى الله برسولهﷺ رحمةً للعالمين، جاء يبشر الطائعين برحمة الله وجنته، وينذر العصاة بغضبه وعقابه، فهو - أيضًا - يبشركم إذا أطعتم الله واتبعتم رسوله؛ لأنه يصدق ما جاء به موسى وعيسى، وينذر ويخبر بما جاءا به، فاستقيموا على أمر الله، وأجيبوا داعي الله، واتبعوا رسول الله، فالله - سبحانه وتعالى - قديرٌ على إثابة الطائع ومعاقبة العاصي.

(٢٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

واذكر - يا محمد - للناس يوم قال موسى لبني إسرائيل تذكروا نعمة الله عليكم وأفضاله يوم اختار منكم أنبياء وشرّفكم برسل من بين أظهركم، وجعلكم في النعيم والخير والترف كالملوك بعد أن كنتم عبيدًا لفرعون وقومه، فأنعم عليكم بالحرية والاستقلال والخروج من مصر بعد الاستبداد والظلم والقهر، وآتاكم من الآيات ما لم يؤت أحدًا من العالمين مثل: فلق البحر وانبجاس الحجر، وتظليل الغمام والمن والسلوى وما خصّكم الله - سبحانه وتعالى - من العلوم ووجود الحكماء والعلماء والقادة والمصلحين منكم.

(٢١) ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾

وقال لهم موسى يا بني إسرائيل: هيا تعالوا معي لنفتح بيت المقدس هذه الأرض المباركة الطاهرة ونسكن فيها ونقيم شرع الله فيها، فقد كتب الله - سبحانه وتعالى - أن تكونوا أهلاً لهذه الأرض متى استقمتم على دينه واتبعتموني، وإياكم أن تخالفوا أمر الله وتتركوا طاعته فيسلب عنكم العز، ويمنع عنكم النصر، ويكتب عليكم الذِّلة، ويطبع على قلوبكم المسكنة، وتكونون مقهورين من عدوكم.

(٢٢) ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾

فرد اليهود على موسى ردًا قبيحًا ينبئ عن جبنهم وهلعهم وخوفهم وذلّتهم وقالوا: يا موسى لا نستطيع دخول بيت المقدس؛ لأن فيها أقوامًا أشداء وشجعان ولا نستطيع مواجهتهم، لكن ننتظر ونصبر حتى يخرج هؤلاء الأقوياء الشجعان من تلك الأرض، فإذا خرجوا منها دخلنا فيها بلا قتال ولا جهاد، فلا نستطيع المواجهة ولا مصاولة

الأعداء، وهذا لما كتب الله في قلوبهم من الذلة والجبن بسبب مخالفاتهم للأوامر ونقضهم للعهود، فإن المعاصي من أعظم ما تصيب الأمم بالوهن والذلة والهزيمة أمام أعدائها.

(٢٣) ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

لكنَّ رجلين من المؤمنين كانا مع موسى ممن أنعم الله عليهما بالهداية وثبات القلوب وصحة العقول قاما وطلبا من اليهود أن يدخلوا، وأن يجاهدوا ولا يخيفهم العدو، فالواحد القهار أقوى من الكفار، وقالا لهم: توكلوا على الله – سبحانه وتعالى – وبإذن الواحد الأحد إذا دخلتم عليهم انهزموا أمامكم؛ لأنكم إذا صدقتم مع الله كان الله معكم، ومن كان الله معه فلا يخاف أحدًا، فسوف يهزم عدوه، وينال العزة والكرامة وتكون له العاقبة بإذن الله من صدق وآمن واتقى.

(٢٤) ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

فأعاد اليهود السفهاء كلام العصيان والتنكر للواحد الديان، وقالوا لموسى: لا تتعب نفسك ولا تحاول معنا فلن ندخل الأرض المقدسة أبدًا ما دام هؤلاء الجبابرة فيها، فقد عزمنا وصممنا ألا نواجههم، فإن كنت تريد قتالهم فلا دخل لنا في ذلك، فسر ومعك ربك فجاهد الأعداء، أما نحن فسوف ننتظر النتيجة في أماكننا، وهذا جواب مخزٍ وكلام قبيح فيه من الاستهانة والسخرية والاستهزاء ما الله به عليم، وانظر إلى هذا ووازنه بقول أصحاب رسول الله ﷺ الكرام في بدر: والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لنقاتلن من بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومن خلفك، فياله من جواب ضافٍ شافٍ، ويالسخف جواب اليهود وحقارته.

(٢٥) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

حينها دعا موسى ربه قال: يا رب تعلم أني لا أقدر إلا على نفسي وأخي هارون، أما هؤلاء فلا طاقة لي بهم فقد خالفوا أمري وعصوني، فاجعل بينهم وبيني الفراق، فقد مللتهم وكرهتهم لنقضهم العهود، ونكثهم المواثيق وخروجهم عن طاعتك وعصيانهم أوامرك، فلا أريد أن أصحبهم وأعيش بين أظهرهم.

(٢٦) ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

فأخبر – سبحانه وتعالى – موسى أن هذه الأرض المقدسة حرام على هذا الجيل من بني إسرائيل مدة أربعين عامًا جزاء عصيانهم وتركهم الجهاد حتى ينقرض هذا الجيل الجبان الذليل الفاشل، ويأتي جيل آخر شجاع مجاهد؛ ليواجه الأزمات ويتحدى الأعداء، وهؤلاء الذين عصوا الأمر ابتلاهم الله -عز وجل- بالضياع في الصحراء مدة أربعين عامًا، وهذه قصة التيه المشهورة؛ فكانوا يمشون سائر النهار فإذا أظلم عليهم الليل ثم أصبح الصباح وجدوا أنفسهم في المكان نفسه لا يهتدون سبيلاً للخروج من هذه الضائقة؛ لأنهم كما ضلوا في المنهج أضلهم الله في الأرض، وكما ضلوا عن الصراط المستقيم أضلّهم الله في الطريق، فلا يهتدون، ثم قال لموسى: لا تحزن على هؤلاء الأشرار الفجار فإنهم خارجون عن الطاعة، وكل عاصٍ لا يُحزن على فراقه، ولا يندم المرء على ذهابه، ففي فراقه البركة، وفي الانفصال عنه الخير والرشد.

(٢٧) ﴿ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

وقصَّ عليهم – يا محمد – خبر ابني آدم هابيل وقابيل، قصة بريئة من الكذب الذي نُقل عن الأمم السابقة، ولكنها مدعومة بالصدق والدليل الواضح التي لا تشويه شائبة، فإن هابيل وقابيل قرّبا إلى الله – سبحانه وتعالى – قربانًا،

فالله - عز وجل - تقبل من هابيل لإخلاصه وصدقه، ولم يتقبل من قابيل لسوء نيته ولقبح سريرته، فغضب قابيل على هابيل وحسده وبغى عليه وأقسم له ليقتلنّه، فحاوره هابيل وقال: ولِمَ تقتلني ولم أرتكب ذنبًا وما ظلمتك؟ فقال له قابيل: لأن الله تقبّل منك ولم يتقبل مني. فبين له هابيل أن الله - سبحانه وتعالى - يتقبل ممن أخلص في نيته، وصدق في طويته، وأراد بعمله وجه الله، ولم يعارض حكم الله، فما هو ذنبي إذًا؟!

(٢٨) ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

ثم قال له هابيل في أدب وسكينة: لئن مددت يدك نحوي لتقتلني ظلمًا وعدوانًا فلن أفعل مثلك ولا أمد يدي إليك لأقتلك؛ لأنني أخاف الله ربي وأخشى لقاءه، فلن أقدم على عمل يغضبه سبحانه.

(٢٩) ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

إني أريد حين أمتنع عن قتلك أن ترجع بذنبي لأني لم أقتلك، وذنبك لأنك قتلتني فتصير من أهل النار، وذلك المصير المشؤوم جزاء الظالمين الذين لا يفلتون من عدل الله.

(٣٠) ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

فزيّنت له نفسه الأمارة بالسوء، وحسّنت له قتل أخيه ظلمًا وعدوانًا، فقتله وهو أخوه وشقيقه، فارتكب جُرم العدوان على نفس معصومة، وجُرم قتل الأخ الشقيق، فلما قتله أصبح من المبعدين عن رحمة الله، الخارجين على طاعة الله، العائدين بالخسار والغبن في الصفقة، والهلاك في الآخرة.

(٣١) ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾

فأراد الله أن يضرب له المثل والعبرة، ويريه كيف يستر أخاه بعد أن قتله، فأرسل الله غرابًا فتقاتل هو وغراب آخر، فلما قتل الغراب أخاه واراه الثرى، فقال قابيل لما رأى صنيع الغراب بأخيه: ما لي لم أهتد وأنا إنسان إلى أن أفعل مثلما فعل هذا الغراب وهو طائر فأستر أخي بالتراب، فندم على أنه لم يكن كالغراب، ولو ندم قابيل على قتل أخيه ندامته على أنه لم يستطع أن يواريه لتاب عليه باريه، وكما في الحديث: «الندم توبة»، ولكنه ندم على عدم محاكاة الغراب ولم يندم على قتل أخيه وإهدار دمه.

(٣٢) ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾

فلما حصل العدوان على النفوس المعصومة وسُفك الدم أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يحرّم ذلك على بني إسرائيل فجعله في كتابهم التوراة، وأنزله على ذلك، وأوجب عليهم - سبحانه وتعالى - أن من اعتدى على نفس معصومة بغير نفس أخرى، فمثله كمن قتل الناس أجمعين؛ لأن أصل الناس من نفس واحدة فكأنها مثل الناس، ومن أعتقها من رقها وأنقذها من موتها فكأنما أحيا كل الناس، وبنو إسرائيل أتتهم البراهين الساطعة من الله والأدلة على تحريم قتل الأنفس وسفك الدماء، ولكنهم قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء وذبحوا الأبرياء، وأغضبوا رب الأرض والسماء، فكثير من بني إسرائيل مسرف على نفسه في الخطايا، مقترف للسيئات ناكث للعهود ناقض للعقود.

(٣٣) ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم بيّن - سبحانه وتعالى - جزاء المحاربين الخارجين على جماعة المسلمين، فأخبر - سبحانه وتعالى - أن الحد فيهم - وهم الذين يسعون في الأرض فسادًا بالقتل وغصب المال وتخويف الآمنين - فتقتيلهم وتصليبهم على الخشب

وفي الأعمدة ونحوها ليكونوا عبرة للمعتبرين، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو نَفيهم من الأرض وإخراجهم من الوطن وتشريدهم من مساكنهم، وهذا الأمر عار لهم في الدنيا، وذلّة ومهانة، وفي الآخرة أعدّ الله لهم العذاب العظيم، فمن قتل قُتل، ومن قَتَل وأخذ المال قُتل وصُلب، ومن أخذ المال ولم يقتل قطِّعت يداه ورجلاه من خلاف، ومن أخاف الآمنين ولم يقتل ولم يأخذ مالاً نُفي من وطنه.

﴿٣٤﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

إلا إذا كان هؤلاء المحاربون قد تابوا وندموا على ما فعلوا قبل أن يُلقي عليهم الولاة القبض، وقبل أن يسلموا أنفسهم للعدالة، فإن الله يتوب على من تاب، ولا يؤاخذون من قِبل وليّ الأمر، فإن الله يتجاوز عن ذلك، وهذا تحبيب للتوبة ليقلع من أفسد عن الفساد، وليدخل في جماعة المسلمين وليرضى بالعفو من الله – سبحانه وتعالى – فإن الله واسع المغفرة، رحيم بعباده –جل في علاه–.

﴿٣٥﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون، يا من آمنتم بالله وصدقتم رسوله، اخشوا الله وخافوا عقابه وراقبوه في أوامره ونواهيه، واجتهدوا في عمل صالح يكون بينكم وبين الله وسيلة وسببًا للنجاة من غضبه والفوز برضوانه، وعليكم بالجهاد في سبيله بكل أنواع الجهاد بالنفس والمال واللسان والقلم؛ والفكر لتنالوا الفلاح الأبدي والخلود السرمدي ورضوان الباري – جل في علاه – الذي ما بعده رضوان.

﴿٣٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

أما الكافرون الذين كذّبوا بالله –عز وجل– وبرسله فلو أن للواحد يوم القيامة مثل ما يملأ الأرض من الذهب والفضة والقناطير المقنطرة، ثم أراد أن يضعه فداءً له من غضب الله وعذابه في النار ما قَبِل الله هذا الفداء، بل يعذب صاحبه وينكّل به؛ لأنه أتى بأعظم ذنب في العالم، وأكبر خطيئة في الدنيا وهي الشرك بالله، فلن يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً ولا فداءً، ولا ينفعه شهيد، ولا يتولاه ولي، ولا يدفع عنه نصير، وله عذاب مؤلم عند الباري جل في علاه.

﴿٣٧﴾ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾

يتمنى هؤلاء الكفار إذا دخلوا النار أن يخرجوا من عذاب الجبار، ولكنهم لا يخرجون من النار، بل هو خلود أبدي، ومكوث سرمدي؛ لأنهم أشركوا بالله، والمشرك لا يغفر الله ذنبه، فعذابه مقيم في الجحيم، وفي العقاب الأليم، جزاءً على فعله الأثيم.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

إذا سرق الرَّجلُ أو المرأة وقامت البينة وتوافرت الشروط في إقامة الحد، فإنه تُقطع يده أو يدها من مفصل الكف كما هو مبين في السنة المطهرة؛ جزاءً على هذا الفعل الشنيع، وعلى هذا الجرم الفظيع؛ لتحفظ أموال الناس وتُصان حقوقهم؛ ولئلا يهدد أمنهم؛ وليرتدع كل فاجر وسارق، وهذا حكمه سبحانه؛ لأنه عزَّ فحكم، فمن عزته قوته – سبحانه وتعالى – في إصدار الحكم بقهر وقدرة، ومن حكمته إنزال الحكم المناسب في مثل السرقة والقتل ونحوه، ولن تجد أحسن من الله حكما.

٣٩ ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

إذا تاب السارق أو السارقة من بعد السرقة وأقيم عليه الحد وأصلح فيما بينه وبين الله وندم على ما فعل وتأسف غفر الله ذنبه، وستر عيبه، وأبدله مكان السيئات حسنات، فمغفرة الله واسعة، ورحمته عامة جل في علاه، فليطمع في فضله من زنا ثم تاب، أو من سرق ثم تاب، أو قتل ثم تاب، فإن الله تواب رحيم.

٤٠ ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

ألا تدري أن الواحد الأحد – سبحانه – له كل ما في السموات والأرض، ملكًا وخلقًا وعبيدًا فله نفوذ القدرة في خلقه، وله الحكم المطلق، يفعل ما يشاء، فله أن يعذب من أراد من العباد وعذابه عدل، وله أن يتفضل على من أحب من العباد ورحمته فضل، فهو – سبحانه وتعالى – له نفوذ الحكمة وتمام العلم، وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه أحد ولا يغالبه مغالب ولا يخرج عن قدرته مخلوق، وسع كل شيء رحمة وعلمًا وعزة وحكمة وفضلاً ومقدرة.

٤١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

يا رسول الله، لا تحزن ولا يضق صدرك من هؤلاء المنافقين الذين يتسابقون إلى الكفر تسابقًا، ويكذبونك بما جئت به، وهم في الظاهر يدّعون الإيمان وفي الباطن يبطنون الكفر، و – أيضًا – لا تضق ذرعًا بهؤلاء اليهود الذين كذبوك بما جئت به، فقد كذبوا رسلاً من قبلك وقتلوهم وآذوهم، وهؤلاء اليهود من صفاتهم أنهم يلقون أسماعهم للآثام وللزور وللافتراء والشائعات الباطلة ويقبلونها ويبثونها، ويسمعون لساداتهم وأمرائهم الذين منعهم الحسد أن يحضروا إليك أو يأتوا إليك؛ فهؤلاء اليهود الذين حضروا عندك إنما هم يتبعون ساداتهم وأمراءهم الذين لم يأتوا إليك أنفة وكبرًا، هؤلاء اليهود من صفاتهم أنهم يبدلون أحكام الله سبحانه وتعالى ويغيرون النصوص ويحرِّفون الكلام عن مقاصده وعن مراميه، وهم حينما أتوك يطلبون منك إقامة الحد على من زنا منهم من المحصنين قالوا فيما بينهم قبل أن يأتوك: إن حكم محمد بالجلد فاقبلوا حكمه، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوا حكمه، (فأتوا الرسول ﷺ فقال ماذا تجدون في التوراة؟ قالوا: نجد الجلد على المحصن، وتحميم الوجه والتشهير به في الناس، فسأل أحدهم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، فأخبره بالصحيح أن بالتوراة رجم الزاني المحصن، فنفذه – عليه الصلاة والسلام – وأقامه عليه) وهؤلاء اليهود مفتونون ضالون وأنت لا تملك أن تهديهم ما دام الله كتب عليهم الشقاء والضلال والطرد والإبعاد عن رحمته، فلا تستطيع مهما أوتيت من بيان ومن قدرة على الإقناع أن تهديهم سواء السبيل، والله – سبحانه وتعالى – ما أراد أن ينقي قلوبهم من الخبث ولا نفوسهم من الريب والشك والمرض؛ لأنهم استمرؤوا الكفر والتكذيب ومخالفة الواحد الأحد وإغضابه وسلوك ما يسخطه جل في علاه، فكتب الله عليهم العار والمهانة والذلة في الدنيا، ولهم عنده – سبحانه وتعالى – النكال والأخذ الشديد والعذاب الأكيد على ما فعلوه مع أنبيائه وكتبه ورسله.

٤٢ ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾

هؤلاء اليهود سمّاعون للأكاذيب وللزور وللبهتان ويتقبلونها وينشرونها في الناس، ويأكلون الرُّشَى والأموال المحرمة، فهم جمعوا بين الأقوال الآثمة والمطاعم المحرمة، ففسدوا في الأفهام وفسدوا في الأجسام، فإذا أتاك هؤلاء اليهود وطلبوا الحكم منك وأن تقيم عليهم الحدود فأنت مخيَّر، إما أن تحكم بينهم أو أن تتركهم، فإن تركتهم فالله يتولاك ويعصمك منهم، فلن يضروك بأذى ولن يصلك منهم شر، وإن حكمت بينهم فاحكم بالعدل الذي أنزله الله في كتابه،

وتوخِّ إقامة الحق فيهم، فإن الله يحب العادل ويكره الظالم، والعدل حتى مع الأعداء من اليهود والنصارى أو غيرهم من الأمم واجب على المسلم، وعلى الحاكم أن يتقي الله -عز وجل- فيسلك العدل ولا يظلم أحدًا.

(٤٣) ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

عجبًا لهؤلاء اليهود كيف يرضون بحكمك، وهم أصلاً لن يرضوا بحكم ما عندهم من الكتاب الذي نزل على نبيهم موسى، وهو التوراة، فإنهم بدّلوه وغيروه وحرّفوه ونقضوه وتولوا عن ذلك وأعرضوا، فهم ما استجابوا لنبيهم، فكيف يستجيبون لك، ولكن حملهم على ذلك الكفر والتكذيب، ولو صدّقوا بك وآمنوا بما أُنزل عليك لقبلوا بحكمك لكن هيهات.

(٤٤) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

والله - سبحانه وتعالى - وحده هو الذي نزّل التوراة على موسى، فيها الحجة القاطعة، والدليل الشافي، والبرهان الكافي الذي يفرِّق بين الغي والرشاد، والعدل والجور، ويحكم بهذه التوراة أنبياء الله من بني إسرائيل لليهود الذين انقادوا لحكم الله -عز وجل- لا للخارجين عن طاعته والعاصين له، و - أيضًا - يحكم بهذه التوراة العلماء الربانيون الخائفون من ربهم، والفقهاء من بني إسرائيل الذين يرجون لقاء الله - سبحانه وتعالى - ويخافون أخذه؛ بسبب أن الله أمرهم بذلك وطلب منهم المحافظة على التوراة فلا يحرِّفونها ولا يبدِّلونها ولا يتلاعبون بنصوصها ولا يغيرون أحكامها، وأخذ عليهم العهد والميثاق في حفظ ذلك كله، فعليهم أن يخشوا ربهم وأن يراقبوه، ولا يأخذوا ويستبدلوا بآيات الله وشريعته شيئًا من عرض الدنيا الزائل الفاني، ولا من أموالها الرخيصة الخسيسة، ولا من مراداتها من الجاه والمنصب والوظائف الدنيوية فتعطل أحكام الله - سبحانه وتعالى - ويترك شرعه، ويطلب الفاني الزائل مكان الباقي الخالد عند الله، والذي لا يحكم بما أنزل الله -عز وجل- ويستبدل به شرعًا غيره ويرى أن حكم غير الله خير من حكم الله، فهو كافر خارج عن ملة الإسلام، مرتد على عقبيه؛ لأنه رضي بحكم غير الله ورفض حكم الله.

(٤٥) ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

وقد أوجبنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفسًا فإنه يُقتل بهذه النفس، ومن فقأ عين أخيه فُقئت عينه، ومن جدع أنفه جُدع أنفه، ومن صلّم أذنه صُلمَت أذنه، ومن كسر سنه كُسرت سنه، والجروح فيها القصاص، الجرح مثل الجرح إذا تساوى معه وتماثل؛ لئلا يكون في الأرض جورٌ أو ظلم أو عدوان، ولتحفظ أنفس الناس وجوارحهم، وليكون الإنسان في مأمن من عدوان أخيه عليه، لكن من اعتدي عليه فتنازل عن حقه وعفا فالله يكفِّر عنه ذنوبه مقابل عفوه عن أخيه، وتَصَدُّقَهَ بهذا العفو والجارحة منه وبسبب تنازله عنه حقه، فالله يكافئه الثواب الجزيل، والذي لا يحكم بهذه الشريعة إنما هو معتدٍ مسيء مخالف لأمر الله، يدخل في عداد الظالمين الذين أعدّ الله لهم أشدّ العذاب.

(٤٦) ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

ثم أَتْبَعْنَا بعد أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فإن الله أرسله لبني إسرائيل، وأنزل عليه الإنجيل فيه الأدلة الواضحة والنور الساطع والبيان الشافي، يصدّق ما في التوراة من الأحكام ولا ينسخها، وفيه بيان لكثير من الآداب والأخلاق، وفيه مواعظ تدل العبد على الرشاد، وتزجره عن الغي والفساد، ولا يستفيد من هذه المواعظ ولا من هذه الأحكام إلا من اتقى ربه وخاف مولاه وأصلح ما بينه وبين إلهه، فإن العلم ينفعه ولا ينفع غيره.

(٤٧) ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

أوجب الله على النصارى أن يحكموا بما أوجبه - سبحانه وتعالى - في الإنجيل، فإنه ما نزل على عيسى إلا ليُقام ما فيه من حكم، ويُجتنب ما فيه من نهي، ويُطاع أمر الله - سبحانه وتعالى - ولكن من لم يُحكِّم أمر الله - سبحانه وتعالى - وشرعه فقد خرج عن طاعته جل في علاه، واستبدل بها شريعة غيرها، فمن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، فهو خارج من الملة، ظالم لنفسه ولغيره لأنه استبدل شريعة الخلق بشريعة الحق.

(٤٨) ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

وأنت - يا محمد - قد شرفناك بإنزال القرآن عليك بالحق الذي يفرِّق بين الغي والرشاد، وهذا الكتاب يصدِّق الكتب التي سبقت مثل التوراة والإنجيل، ويثبت ما فيها من حق، ويرد ما فيها من تحريف أُدخل عليها، وهو ناسخ لكثير من الأحكام التي فيها كالمشقة والآصار والأغلال، فعليك - يا محمد - أن تحكم بما أنزل الله في كتابه، وفي السنة المطهرة، ولا تذهب مع مرادات الناس وأهوائهم، وتترك الوحي المنزَّل، بل اتبع الحق، رضي من رضي وغضب من غضب، والشرائع مختلفة وأصل الدين واحد، وهو الإسلام فلليهود شريعة مفصلّة في الأحكام مُخصَّصة لهم، وللنصارى أيضًا وللمسلمين، لكن الملة واحدة، إن الدين عند الله الإسلام، ولو أراد - سبحانه وتعالى - أن يجمع الناس جميعًا فيجعلهم أمةً واحدة على شريعة واحدة متفقين لفعل - سبحانه وتعالى - فإن قدرته نافذة، ولكن أراد - سبحانه - أن يمتحن العباد، وأن يفرّق بينهم في الشرائع؛ ليرى من يطيعه ممن يعصيه، ومن يصدق ويكذب، فعليكم أيها المؤمنون المسارعة إلى أفعال البر من طاعة الله -عز وجل- وتقواه، واتباع الرسول ﷺ والتصديق بلقائه فإنكم سوف تعودون إلى ربكم - سبحانه وتعالى - والمرد عنده، والخاتمة هناك، والمنتهى إليه، وسوف يسألكم ويجازيكم على ما قدمتم وما فعلتم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٤٩) ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾

وعليك - يا محمد - أن تحكم حتى على اليهود أو غيرهم بما أنزله - سبحانه وتعالى - لا بالأهواء ولا باستحسانات النفوس، وأقم عليهم العدل وخذ حذرك منهم من أن يصرفوك عن الحق الذي أنزله الله عليك وأكرمك به، وهذه الآية نزلت في أناس من أحبار اليهود أتوا إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - قالوا: نحن نتبعك، وإذا تبعناك اتبعك اليهود؛ بشرط أن تحكم لنا على قومنا، فحذَّر الله رسوله من أن يفعل ذلك وحاشاه ﷺ، فإن حكمت بينهم بالحق ثم تولوا وأعرضوا ولم يقبلوا الحق الذي حكمت به، فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يعاقبهم على آثامهم ووزرهم وجرمهم، وينكّل بهم بسبب ما اقترفوه وفعلوه، وإذا كان أكثر البشر خارجين عن طاعة الله -عز وجل- فإن القليل منهم شاكر، والنزر اليسير مؤمن، وإلا فأكثرهم جاحدون لآيات الله، مكذبون لشرائعه، خارجون على طاعته.

(٥٠) ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

سبحان الله! يريدون حكم الجاهلية والهوى والزيغ ويرفضون حكم الله الذي هو الحق كله، والنور والصدق والعدل، يريدون حكم الخلق القاصرين الغافلين الجهلة ويتركون حكم الخالق العادل جل في علاه الحكيم العليم الخبير بكل شيء؛ هؤلاء قوم لا يصدقون، ولا يؤمنون، ولا يريدون الخير، فلا أحسن من حكم الله -عز وجل- عدلاً، وبيانًا، وحكمةً، ومصلحة، وخيرًا في الدنيا والآخرة، لكن هذا الحكم من الله لا يقدِّمه ويفرح به إلا من رسخ الإيمان في قلبه وأحب مولاه وأطاعه.

(٥١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أيها المؤمنون، يا من صدقتم بكتاب ربكم واتبعتم رسولكم، لا تجعلوا اليهود والنصارى أحبابًا لكم وأصدقاءً من دون المؤمنين توالونهم وتستنصرون بهم، وتضمرون لهم المحبة، فهؤلاء اليهود والنصارى بعضهم ينصر بعضًا، ويتولى بعضهم بعضًا عليكم، فهم متحزبون يدًا واحدة في حربكم، والذي يوالي اليهود والنصارى ويحبهم ويقدمهم هو في الحقيقة منهم؛ لأنه رضي بأعمالهم وأحبهم واتخذهم أولياء من دون المؤمنين، وهو في ذلك ظالم معتد، والله لا يهدي كل ظالم ولا يوفقه ولا يصلحه.

(٥٢) ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾

سوف تجد المنافقين يتسابقون في موالاة اليهود والنصارى بحجة الخوف من أن تصيب المسلمين حرب من اليهود والنصارى، فقالوا: نستبق الأحداث ونكسر شوكة اليهود والنصارى بهذه الصداقة، وقيل: إنهم يستعزون بهم ويستنصرون بهم على المسلمين ليتخذوا عندهم يدًا حتى لا يبطش المسلمون بالمنافقين، والله - سبحانه وتعالى - أخبر في كتابه: لعل الله أن يفتح للمسلمين مكة فيهلك أعداء الدين من المشركين ومن والاهم من اليهود والنصارى، أو يأتي الله - سبحانه وتعالى - بأمر من عنده في هلاك هؤلاء وإزالتهم، ونصر المسلمين عليهم، حينها يندم المنافقون على ما فعلوا من الموالاة لأعداء الله -عز وجل- والتحزّب معهم.

(٥٣) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

يقول المؤمنون لليهود: هؤلاء أعوانكم وأنصاركم من المنافقين الذين يظهرون لكم المودّة ويبطنون الكراهية، ويقسمون لكم إنهم معكم، هؤلاء أصلاً خاسئون أشقياء أذهب الله أعمالهم بالنفاق، وليس لهم عهد في الدنيا ولا أجر في الآخرة.

(٥٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون: من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر فالله غني عنه وليس بحاجة إلى عبادته، وسوف يعوض الله الإسلام خيرًا منه، ويأتي بجند له يتولاهم ويحبهم، وهم يتولون الله ويحبونه، متواضعين لأهل الإيمان، أقوياء أشداء على أهل الكفر، يجاهدون في سبيل الله بأيديهم وألسنتهم وعلمهم وأقلامهم، وما عليهم من لوم اللائمين، ولا استهزاء المستهزئين؛ لقوة إيمانهم وثبات مبادئهم، وهذا فضل من الله - سبحانه وتعالى - عليهم فيما وفقهم إليه من الجهاد والحب والموالاة، وفضل الله واسع، لأنه - سبحانه وتعالى - لا يحد فضله حد، ولا يرد خيره راد؛ ولأنه - سبحانه وتعالى - عليم بمن يستأهل الفضل ويستحق الإحسان.

(٥٥) ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾

أيها المؤمنون: الله هو وليكم لا هؤلاء اليهود والنصارى ولا المشركون، ووليكم رسوله ﷺ الذي أتى بهذا الدين، ووليكم المؤمنون الصادقون الذين يحافظون على الصلوات، ويؤتون الزكوات، وهم متواضعون لربهم، خاشعون لمولاهم، فهؤلاء الذين يجب أن توالوهم وأن تحبوهم.

(٥٦) ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

والذي يحب الله ورسوله والذين آمنوا ويجعلهم أولياء ويستنصر بهم ويتحزّب لهم، هو في الحقيقة منتصر والعاقبة له، وسوف يكون الله معه، من كان الرحمن وليه فلن يُهزم ولن يُغلب.

(٥٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

أيها المؤمنون: احذروا أن تتولوا اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين وتحبوهم وتطلبوا صداقتهم وقد استهزؤوا بدينكم وجعلوه مصدرًا للضحك، فهؤلاء أعداء في الحقيقة فَعَادُوا من عاداه الله، واحذروا من عقاب الله وغضبه إن كنتم مؤمنين بما يرشدكم إليه ربكم ويأمركم به.

(٥٨) ﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾

هؤلاء الأعداء من أهل الكتاب والمنافقين إذا سمعوا الأذان للصلاة جعلوه مصدرًا للسخرية والاستهزاء والضحك؛ لاستهانتهم بربهم وخروجهم عن طاعته؛ ولشدة عداوتهم لكم، فليس لديهم خشية تمنعهم ولا عقل يردعهم، فهم مستحقون لعدائكم لا موالاتكم.

(٥٩) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾

قل - يا محمد - لأهل الكتاب: أيها اليهود والنصارى، هل تعيبون علينا وتنكرون منا إلا أننا صدقنا في الإيمان بربنا، واتبعنا رسولنا، وقمنا بما أمرنا الله به، وانتهينا عما نهانا عنه، وصدقنا بالقرآن وبما قبل القرآن من التوراة والإنجيل؟! أما أنتم فخرجتم عن طاعة الله -عز وجل-؛ فأي الفريقين أحق بأن يُعاب وأن يُنكر عليه؟!

(٦٠) ﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

لكن ألا أخبركم -أيها اليهود والنصارى- بمن كانت عاقبته سيئة وعذابه أليمًا عند الله ومصيره بئيسًا، هو من كتب الله عليه الطرد والإبعاد عن رحمته، ورجع بغضب من الله - سبحانه وتعالى - لاستهزائه بالأنبياء وقتله للرسل وتحريفه للكتاب ومخالفته لأوامر الله - عز وجل -، وهؤلاء غيَّر الله صورهم إلى صور القردة والخنازير، وجعل منهم من يعبد الشيطان وأولياءه، هؤلاء هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهم شر الخليقة، وهم الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم وعن الصراط القويم.

(٦١) ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾

هؤلاء الذين أظهروا لكم الإسلام من اليهود إذا دخلوا عليكم قالوا: آمنا بدينكم وصدقنا رسولكم، والحقيقة أنهم حينما دخلوا عليكم دخلوا بالكفر ولم يتركوه وعادوا به إلى قومهم، والله - عز وجل - عالم بخفايا أمرهم وما أسروه في أنفسهم وما أضمروه في قلوبهم وسوف يحاسبهم.

(٦٢) ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

كثير من اليهود يتسابقون في المعاصي وفي تناول الحرام مخالفين أمر الله -عز وجل- وفي ترك طاعته؛ فبئس الصنيع صنيعهم، وبئس الفعل فعلهم، لقد ارتكبوا السوء وفعلوا القبيح.

(٦٣) ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

هَلاَّ يقوم علماؤهم ورؤساؤهم بزجرهم عن الكذب وأكل الرشوة والربا؟! ألا يحذرونهم من هذه الأفعال القبيحة؟ ألا يعظونهم ويزجرونهم عن هذه الأعمال الشنيعة؟! قبحًا لصنيعهم هذا، ولبئس ما يصنعونه من أعمال منكرة، ولبئس ما يصنعه علماؤهم من تركهم وعدم زجرهم عن المنكر.. وفيه دليل على أن الترك فعل، فلا علماؤهم نصحوهم، ولا هؤلاء العامة سمعوا وارتدعوا عن فعلهم، لقد اشتركوا في المعصية وباؤوا بغضب من الله.

٦٤ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ومن شناعة اليهود -قاتلهم الله- أنهم افتروا على الله، قالوا: إن الله بخيل في الإنفاق لا يوسع على خلقه في الرزق - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا - فردّ الله عليهم بالدعاء عليهم، وأخبر أن أيديهم هي المغلولة وسوف تغلُّ عند الله -عز وجل- إلى أعناقهم، ويُطردون من رحمة الله طردًا، والواقع أن الله - سبحانه وتعالى - ينفق بيديه، وكلتاهما يمين مملوءة بالبركة والعطاء، وأنهما مبسوطتان ليلاً ونهارًا، سحاء الليل والنهار، كل من في السموات والأرض يرزقه الله - سبحانه وتعالى - وهو كثير الجود، واسع العطاء، عظيم الكرم، متفضل منّان، وسوف يزيد هؤلاء اليهود بما أنزل الله عليك من القرآن كفرًا إلى كفرهم، وعدوانًا إلى عدوانهم؛ لأنهم كلما أُنزلت عليك آية كفروا بها وزاد كفرهم، وبغيهم، ثم إنهم يحسدونكم على كل آية نزلت، وكل سنّة قامت، فيزداد إثمهم عند الله - سبحانه وتعالى - وقد جعلنا العداء والخلاف الشديد والبغض الأكيد بين فرق اليهود، فهم بينهم متخاصمون مختلفون إلى قيام الساعة، لا يجتمعون على كلمة ولا يتحدون إلى رأي، وكلما سعوا في محاربة المسلمين وإشعال الفتنة رد الله كيدهم في نحورهم، وأبطل مكرهم وخيّب مسعاهم، فهم لا يفترون عن الإفساد في الأرض ونشر الفتن وبث الجريمة وإشاعة الرذيلة، والله - عز وجل - لا يحب من هذه صفته، فلا يحب أهل الفساد ولا المفسدين، وإنما يحب أهل الصلاح والمصلحين.

٦٥ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

لو كان اليهود والنصارى صدّقوا بما أنزل الله على رسوله، واتبعوا رسوله، وآمنوا بما أنزل على رسلهم واتبعوهم، وامتثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه لمحونا عنهم الخطيئات، وتجاوزنا عما فعلوه من سيئات، ورحمناهم وتبنا عليهم، ثم كانت عاقبتهم في جنات الخلد الدائم والنعيم المقيم مع رضوان من الله أكبر وفوزٍ أعظم.

٦٦ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

ولو أن اليهود عملوا بما في التوراة، والنصارى عملوا بما في الإنجيل، وصَدَّقُوا بما أنزل الله على محمد - عليه الصلاة والسلام - لوسع الله عليهم في الرزق، ولأغدق عليهم في العطاء، ولجعل رزقهم هنيئًا في حدائق مثمرة، وبساتين وارفة من أنواع الثمار مما أنبتته الأرض وأطلعه الشجر، ومن هؤلاء اليهود والنصارى طائفة معتدلة في الدين متوسطة في المنهج لا تسرف ولا تقصر، وهم الذين اتبعوا الرسول ﷺ واتقوا الله - عز وجل - ولكن الكثير الغالب من اليهود والنصارى عملهم سيئ، وفعلهم قبيح؛ لمخالفتهم أمر الله وتكذيبهم رسول الله ﷺ.

٦٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يا محمد، عليك بأداء الرسالة التي ائتمنك الله عليها، وتبليغ هذا الدين الذي استحفظت عليه ولا تنقص منه شيئًا، فإن كتمت منه شيئًا فما أديت الأمانة على وجهها، ولا بلغت الرسالة، ولا نصحت الأمة وحاشاه ﷺ، ولا تخف من الناس في تبليغ الرسالة، فسوف يحفظك الله -عز وجل- ويبطل كيد أعدائك ويتولى أمرك؛ لأن من عاداك فهو كافر، والله لا يُسَدِّدُ الكافر ولا يهديه سبيلاً، ولا يوفقه إلى أي خير، فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وقد بيّن الله رسالته، وأدى الرسول ﷺ أمانته، ونحن أسلمنا وصدقنا.

(٦٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

أيها اليهود والنصارى: لستم على حق ولا بينة من أمركم حتى تتعلقوا بالتوراة والإنجيل بعدما حرّفتموهما وغيرتم كثيرًا من نصوصهما وأبطلتم العمل بهما، وكذبتم محمد بن عبدالله ﷺ وخالفتم أمره، والذي أنزل الله على رسوله ﷺ لا يزيد هؤلاء اليهود والنصارى إلا بعدًا عن الله، ومعصيةً له - سبحانه وتعالى - لأنه كلما أتى الرسول ﷺ ببينة كفروا، وكلما أتى بآية كذبوا؛ فيزدادون بهذا التكذيب وهذا العناد كفرًا إلى كفر، فأنت يا محمد، لا تأسف على كفرهم ولا تحزن على إعراضهم، فالله - سبحانه وتعالى - غني عنهم، وسوف ينصرك ويأتي الله بخير منهم.

(٦٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المؤمنون بالله الذين صدقوا بكتب الله، واتبعوا رسله مثل اليهود الذين صدقوا بموسى واتبعوا ما في التوراة، والصائبة (وهم من لا دين لهم، الباقون على فطرتهم) والنصارى الذين اتبعوا عيسى وَصَدَّقوا بالإنجيل، وآمنوا باليوم الآخر في زمانهم وعملوا صالحًا فهؤلاء لا ينالهم خوف مما ينتظرهم من الأزمات، فالله أمَّن خوفهم بأعمالهم الصالحة، ولا يحزنون على ما تركوا أو يخافون مغبة ما فعلوا وعاقبة ما صنعوا، وهؤلاء هم الذين آمنوا بأنبيائهم في زمانهم، أما بعد مبعث محمد ﷺ فلا يسع أحد من العالم كائنًا من كان إلا اتباعه، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وعلى هذا فالآية تشمل المؤمنين بأنبيائهم الذين ماتوا قبل البعثة المحمدية، والذين آمنوا به بعد مبعثه من جميع أهل الأديان السماوية.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾

سبق أن أخذنا على اليهود عهودًا موثقة، وأيمانًا مغلظة، أن يؤمنوا بالله ويتبعوا رسله، فلما بعثنا إليهم الرسل ورأوا أن ما جاؤوا به يخالف أهواءهم، أخذوا يقتلون أنبياء الله وكذبوهم فارتكبوا عملين فظيعين: تكذيب الكتب، وتقتيل الرسل، فاتبعوا الهوى وتركوا الهدى، وأخذوا الهلاك وتركوا النجاة، وسلكوا سبل الردى.

(٧١) ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

ظن اليهود أن الله - سبحانه وتعالى - لن يعاقبهم على ما فعلوا، فاستحبوا العمى على الهدى، وصموا عن سماع الحق، ثم تاب الله عليهم لعلّهم أن يراجعوا أنفسهم ويعودوا إلى ربهم، فعادوا إلى جرائمهم وبغيهم من جديد، فازدادوا عمى عن الحق، وصممًا عن سماع الرشد، وهذا فعل الكثير منهم، وأما القليل منهم فمهتدٍ، والله لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ولا مما أسرُّوه واقترفوه، وسوف يجازيهم بسوء صنيعهم، وقبح فعلهم.

(٧٢) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

والله لقد كفر الذين قالوا من النصارى إن الله - سبحانه - هو المسيح عيسى ابن مريم تعالى الله عن ذلك، وهم فرقة اليعقوبية الذين يرون حلول الله في عيسى، ويقولون بمبدأ اللاهوت والناسوت، حلت ذات الله في ذات عيسى تقدس الله عن ذلك، فيرون أن عيسى جمع بين كونه إلهًا وكونه إنسانًا، ثم قالوا بألوهيته، وعيسى ينكر ذلك ويبرأ إلى الله منه، وينادي في قومه: اعبدوا الله المستحق للعبودية وللألوهية، ولا تعبدوني فإني عبدٌ لله، وربي وربكم الله، وإنه الذي خلقنا

ورزقنا وأمرنا بعبادته، وعملكم هذا شرك مخرج من الملة، ومن يشرك بالله فالجنة عليه حرام، والنار مثواه خالداً فيها مخلداً وهو ظالم معتد، وليس للظالم وليٌ يدفع عنه ويجلب له النفع يوم القيامة، ولا ناصر يمنعه من العذاب.

(٧٣) ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وهنا فرقة ثانية من النصارى يقولون بالتثليث، وأن الله ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، فهؤلاء كافرون بالله وهم في النار؛ لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فليس له - سبحانه وتعالى - شريك في ملكه، وإنما عيسى ومريم من عباده، وهؤلاء إن لم يتوبوا إلى الله من قولهم ويراجعوا أنفسهم في هذا الشرك العظيم فسوف يصيبهم - سبحانه وتعالى - بعقابه، ويبتليهم بعذابه، وعذابه أليم فظيع، لا طاقة لأحد في تحمله؛ لأنهم ارتكبوا أعظم ذنب في العالم، وأكبر خطيئة في الدنيا.

(٧٤) ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أفلا ينتهون عن قولهم السقيم، وعن فعلهم الأثيم من ادعاء عقيدة التثليث وقولهم في الأب والابن وروح القدس، وزعمهم بأن مريم وعيسى مشاركان في الألوهية لله، تعالى الله عن ذلك، فالله إله واحد، وهم يزدرون بالعقول ويجعلون الثلاثة واحداً، وقولهم هذا من أبطل الباطل وأمحل المحال، ويشبهون ذلك بالشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وهي تعادل واحداً!! وهذا سفه في المعقول، وكذبٌ في نسبته إلى منقول، وازدراء بالفكر البشري والعقل الإنساني، فلا عقل ولا نقل، ولو أنهم تابوا واستغفروا ربهم لغفر الله لهم، فإن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة جل في علاه، فانظر كيف عرض لهم التوبة وقد قالوا بقول عظيم، وهذا فيه رجاء لكل عاصٍ أن يراجع نفسه ويتوب إلى ربه.

(٧٥) ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

عيسى ابن مريم عليه السلام عبد الله ورسول وليس إلهاً فهو كالرسل الذين أتوا من قبله، وكذلك مريم أمه ليست بإله وإنما هي صديقة وولية طاهرة عفيفة شريفة، وعيسى وأمه بشر ليس فيهما من الألوهية شيء، يحتاجان إلى أكل ويأكلان الطعام كما يأكله الناس وتخرج منهم الفضلات كما تخرج من الناس، ولكن القرآن الكريم يرتفع بالأذواق إلى أعلى المدارج فكنى عن فضلات الطعام بالأكل بما يفهمه أولو الألباب، وهذا هو الجواب الصحيح في المسألة والقول الحق، والعجب من هؤلاء النصارى كيف نوضح لهم الحق بالدليل، والصدق بالبرهان، ثم ينحرفون عن هذا القول، ويفترون على الله الكذب ويقولون الباطل ويحرِّفون الكلام!!

(٧٦) ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

قل - يا محمد - لهؤلاء النصارى: هل تعبدون من لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضراً من البشر كعيسى - عليه السلام - والله - سبحانه وتعالى - هو الذي يستحق العبادة - جل في علاه - فهو الذي يملك النفع والضر، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، والله سميع لأقوالكم الآثمة، وعليم بأفعالكم القبيحة، وسوف يحاسبكم على ما فعلتم ويعاقبكم على ما اقترفتم.

(٧٧) ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

أيها اليهود! أيها النصارى! لا تتجاوزوا الحد في معتقدكم، ولا تكذبوا على ربكم، ولا تتبعوا أهواءكم، فإن النصارى غلوا في عيسى فجعلوه إلهًا أو ابنًا له، وهذا مجاوزة في الحد وافتراء على الله، واليهود غلوا في ذلك وقالوا قولاً

فاحشًا بنسبة أمه إلى الزنا، وأنه ابن غير شرعي -أكرمه الله وصانه عن ذلك وصان أمه- فهؤلاء ضلوا عن سواء السبيل، وأفسدوا في الأرض وأضلوا غيرهم بهذه الأقوال، وخدعوا العوام، فهم أساؤوا في المعتقد ودعوا الناس إلى معتقدهم الباطل المحرم.

٧٨ ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

لقد طرد الله من رحمته وغضب أشد الغضب على من كفر من بني إسرائيل وكذَّب رسل الله، وجعل لعنتهم في الزبور الذي أنزله على داود، وفي الإنجيل الذي أنزله على عيسى؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله، وتكذيبهم لرسل الله، واعتدائهم في الدين بترك المأمور وعمل المحظور، ومخالفة شرعه سبحانه وتعالى.

٧٩ ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

كان هؤلاء الفجرة المردة من بني إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضًا عن فعل المنكر القبيح ولا عن الفساد، وإنما يسكت بعضهم عن بعض، فبئس الصنيع صنيعهم، وبئس الفعل فعلهم، وسوف يجازيهم الله على ذلك.

٨٠ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

تجد كثيرًا من اليهود يوالون المشركين الوثنيين بغضًا في المسلمين، وهذه الموالاة عمل قبيح وفعل سيئ وقبحًا له من صنيع، فهم بهذه الموالاة استوجبوا غضب الله وسخطه في الدنيا والآخرة، وسوف يخلدهم الله في نار جهنم؛ لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان.

٨١ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

لو أن هؤلاء اليهود صدّقوا بما أنزل الله على نبيهم موسى من التوراة، واتبعوا محمدًا سيد الخلق ﷺ وتركوا موالاة المشركين لكان خيرًا لهم، ولكنهم خارجون عن طاعة الله، فجرة في أوامر الله، عتاة لا يخافون الله.

٨٢ ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

لتجدن - يا محمد - أن أكثر الناس عداوة لمن اتبعك من المؤمنين هم اليهود؛ لحسدهم وبغيهم وكبرهم وعنادهم، وكذلك من أشرك بالله من عبدة الأصنام، وسوف يظهر لك أن النصارى أقرب الناس صداقة للمسلمين؛ لأن فيهم العلماء الزهاد، والخاشعين العباد، وفيهم تواضع للحق، وقبول للصدق، وفيهم من صدق منهم بمحمد ﷺ ولم يلحد. وهم المقصودون هنا لا كل النصارى.

٨٣ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

وإذا أنصتوا للقرآن فاضت عيونهم بالدموع من الخشوع، ومن تصديقهم بالمسموع، كما فعل النجاشي وأهل الحبشة، لما سمعوا كلام الله، وسألوا أن يشرفهم بمنزلة الشهادة على الأمم مع الأمة المحمدية يوم القيامة؛ لينالوا الفوز الأكبر.

٨٤ ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وما الذي يمنعنا من توحيد الله وتصديق كتابه واتباع رسوله النبي الأمي ﷺ ونأمل أن يجعلنا ربنا مع من صدق في عبادته وفاز بمغفرته ودخل جنته.

٨٥ ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

فكان جزاؤهم عند الله على إيمانهم بالحق وقولهم الصدق أحسن الجنان مع الفوز بالرضوان من ربهم الرحمن، وهذا مكافأة لأهل الإحسان.

(٨٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

والذين كفروا بربهم وكذبوا رسوله، ولم يقبلوا كتابه، فهم في نار جهنم مخلدون وفي العذاب مقيمون، لا وليًا يشفع، ولا ناصرًا يدفع، ولا دعاءً يُسمع.

(٨٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

أيها المؤمنون: لا تمتنعوا عن الطيبات من المطعومات والمشروبات والزوجات وتجعلوها محرمات، ولا تقربوا المحرمات، فالله لا يحب الاعتداء بتحريم الحلال ولا بتحليل الحرام، ولكن يحب الممتثل لما شرع.

(٨٨) ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

وعليكم - أيها المؤمنون - بأكل الحلال الطيب، واجتناب المحرّم الخبيث، واخشوا ربكم بفعل المأمور واجتناب المحظور إن كنتم صادقين في عبوديته واتباع رسوله والعمل بشرعه.

(٨٩) ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يا أهل الإيمان، لن يعاقبكم الله باللغو في الأيمان، إذا كنتم لم تقصدوا الحلف بالنية، كقولكم: لا والله وبلى والله، لكن من نوى بقلبه إذا حلف بربه انعقد يمينه، فإن أمضاه وإلا فعليه أن يطعم عشرة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من قوت الناس، أو كسوة عشرة، لكل واحد كسوة كاملة، أو يعتق مملوكًا، فمن لم يستطع الإطعام أو الكسوة أو العتق فليصم ثلاثة أيام، واحترزوا من كثرة الحلف والحنث في اليمين وعدم الوفاء بها، أو ترك الكفارة إذا حلفتم، ومثلما أوضح الله لكم حكم اليمين فقد أوضح لكم شرائع الدين كي تشكروا رب العالمين على ما أنزله على الهادي الأمين.

(٩٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون: كل ما أسكر العقل أو أضاع المال في الحرام كالقمار أو عُبِدَ من دون الله كالأصنام أو منع من التوكل على الله كالقداح التي يستقسم بها المشركون فهذا كله حرام من تلبيس إبليس، ومن مكر الشيطان وكيده، فاتركوه لتنالوا رضوان الله، وتنجوا من غضبه وعذابه.

(٩١) ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

وقصد الشيطان من إيقاعكم في هذه المحرمات أن يجعل بينكم الخلاف والخصومة، فيبغض بعضكم بعضًا، فتكونوا أعداء لِدادًا أهل بغضاء وشحناء بسبب المسكر؛ لأن الخمر يمنع من أداء الصلاة وذكر الله لغياب العقل؛ ولأن القمار يضيع الأعمار ويشغل عن الأذكار بغضب الجبار، فإن كنتم صادقين في الإيمان فانتهوا عما نهى عنه القرآن.

(٩٢) ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

وقوموا بطاعة الله أحسن قيام، واتبعوا خير الأنام - عليه الصلاة والسلام - واخشوا الله وراقبوه في أداء ما أوجب، والبعد عما نهى عنه، فإن تركتم الاستقامة التي هي طريق الكرامة فلكم الويل والندامة، والرسول ﷺ ليس عليه إلا إقامة الحجة وتوضيح المحجّة، وليس مسؤولاً عمن ضل عن الهدى ووقع في الردى.

(٩٣) ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ما على من آمن وأطاع ربه ذنب في تناول المسكر قبل تحريمه، ثم تركه بعد التحريم وانتهى وراقب مولاه وخافه واتقاه، وعمل الخيرات، وترك المنكرات، ثم ازداد تقوى لله بفعل ما أمره به وترك ما نهاه عنه من قوة التصديق

ورسوخ المعرفة، ثم وصلوا إلى درجة اليقين في الإيمان برب العالمين، حتى صار الغيب كالعيان، وهي درجة الإحسان، فهم يتقون ربهم ويطيعونه ويعبدونه كأنهم يرونه، والله يحب من هذه صفته.

وفيه أن الكافرين يعذبون يوم القيامة بالأشياء التي تَنَعَّموا بها في الدنيا من مأكل ومشرب، فإذا لم يكن على المؤمنين جناح، فإن على الكافرين جناح.

(٩٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون، سوف يمتحن الله إيمانكم وامتثالكم لشرعه بأن يقترب منكم الصيد المحرم عليكم، وأنتم محرمون حتى يمسَّ أيديكم ورماحكم؛ ليظهر علمه فيمن راقبه وخافه فلم يقتل الصيد، فمن اعتدى فقتل الصيد وخالف النهي فقد استحق العذاب الشديد والعقاب الأكيد.

(٩٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

أيها المؤمنون: إذا كنتم محرمين فاجتنبوا صيد البر، ومن قصد قتل الصيد فعليه أن يذبح ما يماثله من الإبل والبقر والغنم، ويجعله لفقراء الحرم، ويقدر هذا الهدي رَجُلان من أهل العدالة، فإن لم يوجد للصيد ما يماثله اشترى بقيمته طعامًا وتصدق به على فقراء الحرم، أو صام يومًا عن كل نصف صاع من ذلك الطعام؛ تأديبًا له وتعزيرًا على فعله وزجرًا له عما ارتكب، ومن صاد قبل أن يحرم الصيد فالله يتجاوز عنه ويغفر له، ولكن من قصد الصيد بعدما حُرّم فالله يؤاخذه بالانتقام؛ لأنه ارتكب الحرام؛ لأن الله قوي لا يُغالب، منيع لا يحارب، من أراده أدركه بلا عجز، ينتقم ممن عصاه إذا أراد أذاه.

(٩٦) ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

أيها المؤمنون: قد أباح الله لكم ما صدتم من البحر وهو حي، وما وجدتم فيه وهو ميّت، تنتفعون به في حال الإقامة والسفر، فإذا أحرمتم حرُم عليكم صيد البر حتى تتحلّلوا، وراقبوا ربكم وافعلوا ما أمر واجتنبوا ما نهى، فسوف تساقون إليه للحساب، فإما ثواب وإما عقاب.

(٩٧) ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لقد تفضل الله – سبحانه وتعالى – بأن جعل الكعبة وجعل بيته الحرام أمنًا للناس وصلاحًا لدينهم وقبلةً لصلاتهم، وحرّم – سبحانه وتعالى – العدوان في أشهر الحج: شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، فلا يجوز لأحد أن يعتدي على أحد، وحرّم –سبحانه وتعالى – انتهاك حرمة بهيمة الأنعام مما يُهدى إلى البيت العتيق، وما يقلَّد منها ويصبح شعارًا عليها بأنها مما أُهدي إلى البيت العتيق؛ لتتيقنوا بهذه الأحكام أن الله لا تخفى عليه خافية، فهو يعلم أسرار ما في السموات والأرض، ولا تغيب عليه غائبة، ولا يستتر عليه سر، فهو يعلم ما في السرائر، ويطلع على ما في الضمائر، أحاط بكل شيء علمًا.

(٩٨) ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أيها الناس، اعلموا تمام العلم أن الله قوي الأخذ لمن عصاه، شديد المعاقبة لمن خالف أمره وارتكب نهيه، وأنه – سبحانه وتعالى – كثير المغفرة لمن تاب، رحيم لمن أناب، فهو واسع الغفران؛ لأنه رحيم رحمن.

٩٩ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

ليس على رسولنا إلا أن يبلغ ما أُمِرَ بإبلاغه فهو لا يعلم حقيقة ما تبدونه ولا ما تكتمونه، فالله وحده هو الذي يعلم ذلك كله ويجازي عليه.

١٠٠ ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أخبرهم – يا محمد – أنه لا يمكن أن يستوي الخبيث من كل شيء مع الطيب من كل شيء، فلا يستوي من كفر مع من آمن، ولا من عصى مع من أطاع، ولا يستوي الجاهل والعالم، والمبتدع والسني، والمال الخبيث والمال الحلال، والقول الطيب والقول القبيح، فخافوا الله أيها الناس وراقبوه إن كانت لكم بصائر وعندكم عقول تفكرون بها، فأقبلوا على الطيب، واتركوا الخبيث؛ لتنالوا رضوان الله وتفوزوا برحمته وبثوابه في جنات النعيم.

١٠١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون: اتركوا كثيرًا من الأسئلة وقت نزول التشريع على رسول الله ﷺ، وما سكت الله عنه فهو عفو؛ لأنكم إذا سألتم عن أشياء وتكلفتم السؤال عنها ربما تُفرض عليكم فلا تستطيعون القيام بها، فكونوا في عفو الله –عز وجل–، وإذا سألتم عنها والقرآن ينزل على الرسول ﷺ بيّنها الله لكم وقد تعجزون عن حملها والقيام بها، فاقبلوا عفو الله – سبحانه وتعالى – ورحمته؛ لأنه يغفر الذنب ويحلم عمن عصاه، ويتوب على من تاب عليه، ويتجاوز عمن أقبل إليه.

١٠٢ ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾

الذين قبلكم من الأمم سألوا مثل هذه الأسئلة التعجيزية المكلفة، فلما بُيِّن لهم الحكم جحدوا بها، وألحدوا فيها، وكذبوا بها، ولم يعملوا بما أمر الله – سبحانه وتعالى – ولم ينتهوا عما نهى عنه.

١٠٣ ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

كذب المشركون فالله – سبحانه وتعالى – لم يشرع لهم هذه الضلالات التي جعلوها وابتدعوها في بهيمة الأنعام، فهم جعلوا أقسامًا ما أنزل الله بها من سلطان مثل: البحيرة يقطعون أذنها إذا ولدت عدة بطون، ثم يسيّبون بعضها ويقولون هذه لأصنامنا، ويجعلون الوصيلة وهي التي تلد الأنثى، ثم الأنثى وهكذا، ويسمون الحامي من الإبل وهو الذكر إذا وُلِدَ من صلبه عددٌ من الإبل فيجعلون هذه الأنواع للأصنام ولا يقربونها وينسبونها إلى الله بأن الله أمرهم بذلك، وهم كذبوا وافتروا على الله –عز وجل–، والله – سبحانه وتعالى – لم يأمر بذلك، إنما أمر بالحق والصدق الذي أنزله على رسوله – عليه الصلاة والسلام – لكنهم لا عقول عندهم يفكرون بها، ولا بصائر يستنيرون بها.

١٠٤ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

وإذا خُوطب هؤلاء المشركون وقيل أقبلوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قالوا يكفينا ما ورثناه عن آبائنا، فإذا كان آباؤهم جهّالاً ضلاّلاً لا يفهمون حقًا، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، ولا يهتدون إلى صواب، ولا يسلكون رشدًا، فكيف يتبعونهم ويتركون الهدى الذي بُعث به الرسول ﷺ؟ وكيف يقدمون آراءهم على الوحي وهم من أضل الناس سبيلاً وأجهلهم طريقًا.

١٠٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أيها المؤمنون: استمسكوا بطاعة الله – سبحانه وتعالى – وألزموا أنفسكم الصلاح والإصلاح، واتركوا المعاصي وداوموا على عبادة ربكم تستوجبوا رحمته، فأنتم إذا بلّغتم رسالة ربكم وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فلا

يضركم ضلال من ضل، بل ضَلالُه على نفسه وإثمه عليه، لا يصيبكم من ذنبه شيء؛ لأنكم قد قمتم بما أوجب الله عليكم والمرجع إليه - سبحانه وتعالى - فيخبر الجميع بما عمل، ويوفي الجميع بما صنع، ويحاسب الجميع على ما قدّم.

﴿١٠٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾

أيها المؤمنون: إذا قارب أحدكم من الوفاة وظهرت عليه مقدمات الموت وهو مسافر فليشهد على وصيته مسلميْن عدليْن، وإن لم يجد فغير مسلمين، فإذا شككتم في صدق الشاهدين فأقيموهما بعد صلاة العصر للحلف في جمع الناس، فيحلفان بالله لا نستعيض مكان صدق شهادتنا شيئًا من حطام الدنيا فنكذب على الله ونخون عباده ولو كان من نحلف له قريبًا منا، ولا نخفي شيئًا من الشهادة أو نغيّرها، بل نؤديها كاملة واضحة كما سمعناها، فإن أخفينا شيئًا منها فقد جرنا وظلمنا وأثمنا.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

فإذا ظهر أنهما كَذَبا وخانا واستوجبا الإثم، فاختاروا بدلهما رجلين آخرين عدلين من أولياء الميت، فيحلفان بالله أن شهادتنا أصدق من شهادة الشاهدين الكاذبين، ويميننا أبر من يمينهما؛ لأنهما كذبا وخانا، وما ظلمناهما بما رميناهما به من الكذب والخيانة، ولو فعلنا ذلك لكنا نحن الظالمين الآثمين المستحقين للعقاب.

﴿١٠٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

وهذه الصيغة من الشهادة أقرب لأداء الشهادة على وجهها الصحيح بلا خيانة ولا كذب ولا تغيير ولا تحريف، خوفًا من وصمة العار عليهما في الدنيا والعقاب يوم القيامة، فإذا رُدت شهادتهما في الدنيا افتضحا، وإذا عادا إلى الله عُذبا، فيخافان هذا المصير، فيحرصان على الصدق والوفاء، ويحذران من الكذب والخيانة، واخشوا ربكم أيها الناس واحذروا عقابه بطاعته، واسمعوا سماع قبول لأمره، والله لا يوفق من خرج عن طاعته لهدايته، ولا يسدّد من عصى شرعه لمرضاته.

﴿١٠٩﴾ ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾

وتذكروا - أيها الناس - يوم الفزع الأكبر، والهول الأعظم، يوم يجمع الله الرسل وأممهم، فيسأل الله الرسل وهو أعلم بما حدث، ماذا أجابكم به من أُرسلتم إليهم بالإيمان هل صدقوكم وقبلوا ما جئتم به أم كذبوكم وردوا ما بُعثتم به؟ فيقول الرسل من هول الموقف: لا علم لنا بما صار، أو لا علم لنا بجانب علمك يا رب، فأنت أعلم بما تخفي الصدور وتُكِنّ الضمائر، ولا ندري ما حدث بعدنا في أممنا.

﴿١١٠﴾ ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

وتذكروا - أيها الناس - ذلك اليوم العصيب الرهيب يوم يقول الله لعيسى بن مريم: تذكر يا عيسى فضلي عليك وعلى أمك مريم إذ قويتك وأعنتك بجبريل، وأنطقتك بالكلام المسدد وأنت رضيع، وتدعوهم إلى التوحيد وأنت كبير، وعلمتك الخط بلا معلم، وفهّمتك الحكمة بلا مفهِّم، فصار عندك نفاذ في البصيرة، وقوة في الإدراك، وحفّظتك

التوراة والإنجيل في صدرك، مع فقه نصوصها وفهم معانيها، وكنت ترسم وتشكل من الطين مثل أجسام الطيور فتنفخ في تلك الأجسام فتطير بإذن الله، ومن وُلد أعمى من قومك رددت عليه بصره بأمر الله وقدرته، وتذهب البرص عن الأبرص فيعود جلده حسنًا بمشيئة الله وقدرته، وتنادي الأموات فيخرجون من قبورهم أحياء بإذن الله وقدرته، وكرر كلمة بإذني أربع مرات ليرد على النصارى أهل الافتراءات في دعواهم أن عيسى إله يحيي الأموات وقد كذبوا، فكل هذه بقدرة رب الأرض والسماوات، وتذكر يا عيسى نعمتي عليك لما رددت بني إسرائيل عن قتلك ومنعتك منهم فلم يصلوا إليك حين أتيتهم بالآيات البيّنات والمعجزات الواضحات، فردّ عليك المكذبون منهم بأن ما جئت به من هذه الآيات الباهرة سحر ظاهر لا يخفى؛ كذبًا منهم وزورًا.

١١١ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

وتذكر - يا عيسى - حين أمرت الحواريين بوحدانيتي والإيمان برسالتي التي أرسلتك بها فوافقوا وصدقوك وأخلصوا العمل لله، وأحسنوا الانقياد له - سبحانه - بالإقرار بوحدانيته والتصديق برسالة عيسى.

١١٢ ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

واذكروا يوم قال الحواريون أتباع عيسى في سوء أدب: يا عيسى هل يستطيع الله أن ينزل علينا مائدة طعام من السماء؟! فقال عيسى: خافوا الله واخشوه وتأدبوا معه إن كنتم صادقين في الإيمان به واتباعي، وكأنهم سألوا للاطمئنان لا للامتحان.

١١٣ ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

فقال الحواريون: نحن يا عيسى نريد بهذا السؤال أن نتبرك بالأكل منها، ونزداد إيمانًا ويقينًا، ونعتقد اعتقادًا جازمًا في صدقك، ونشهد على هذه المعجزة عند من لم يحضرها، وتظهر لنا الحجة على وحدانية الله وعلى رسالتك فنكون على ذلك شهودًا.

١١٤ ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

فلما علم عيسى صدق الحواريين في الطلب قام فسأل ربه بالألوهية والربوبية أن ينزل عليهم مائدة من السماء يكون يوم نزولها عيدًا فيه مناسبة فرح وسرور لمن حضرها من ذاك الجيل، ولمن يخلفهم من قومهم، وتكون المائدة آية على وحدانيتك ومعجزة تدل على صدق رسالتي، وجُدْ علينا بفضلك الواسع، وعُدْ علينا بخيرك العميم، فأنت خير من وهب، وأجود من بذل.

١١٥ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

فأوحى الله إلى عيسى أنني سوف أنزِّل عليكم المائدة من السماء، فمن كذّب بعد هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة فسوف أعذبه العذاب المؤلم الشديد؛ لأن الحجة قامت عليه فأصبح معاندًا بالتكذيب فيُضَاعَفُ له العذاب؛ لأنه كفر عن عمد وعلى علم، وفيه أن من عصى الله على علم أعظم جرمًا ممن عصاه على جهل.

١١٦ ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

هل أنت يا عيسى أمرت الناس أن يوحدوك من دون الله، ويؤلهونك أنت وأمك؟ والله يعلم كل شيء، ولكن ليكون النفي على لسان عيسى، فقال عيسى: بل أنزِّهك يا رب عن هذه الفرية، وأبرأُ إليك من هذه التهمة، فما يحق لي ولا

ينبغي لي أن أقول هذا القول الشنيع، فأنت تعلم أني ما قلته، ولو قلت هذا لعلمته، فأنت الله لا إله إلا أنت لا معبود بحق سواك، ولا إله غيرك، وأنت تعلم ما في نفسي وأنا لا أعلم ما في نفسك، فعلمك محيط كامل شامل عام، وعلمي قاصر ناقص محدود؛ لأنك رب إله معبود، وأنا مخلوق عبد لك، فلا تخفى عليك خافية، ولا تعزب عن علمك غائبة.

(١١٧) ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

ما بلغت بني إسرائيل إلا ما كلفتني به لم أزد على ذلك ولم أنقص، ولم آت بشيء من عندي، وقد دعوتهم إلى عبوديتك وتوحيدك؛ لأنك الخالق الرازق المدبر وحدك، وأنا مخلوق مثلهم لا يحق لي أن أدعي الألوهية، أو أضيف إلى نفسي الربوبية، وأنا في حياتي كنت شاهدًا على أعمالهم مدة مقامي فيهم، فلما رفعتني إلى السماء انتهى علمي بهم وأنت العالم بأعمالهم، السامع لأقوالهم، المطلع على أحوالهم، وأنت شاهد على كل نفس، عالم بكل سر مطلع على كل أمر.

(١١٨) ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

إن عذبت هؤلاء القوم فأنت الرب وهم العبيد، وقد استحقوا هذا العذاب؛ لأنهم عبدوا سواك، فعذابك عدل لا ظلم فيه، وإن تجاوزت عنهم فأنت القوي الذي لا يُغالب، والقادر الذي لا يعجزه شيء، والحكيم في كل أفعاله، إن عذّب وإن غفر، فبعزتك قد تؤاخذ، وبحكمتك قد ترحم، تفعل ما تشاء بمن تشاء كما تشاء، عذابك عدل، ومغفرتك فضل.

(١١٩) ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

فيخبر الله عيسى يوم القيامة يوم العدل الذي لا ظلم فيه، والصدق الذي لا يستطيع أحد أن يكذب فيه، أنه صادق فيما قال، وأنه - عليه السلام - إنما بلغ رسالة ربه كما أنزلها الله، فدعا إلى توحيد الله وحده، وأنه بريء مما قالته النصارى وافترت عليه، وأنه عبد لله خُلق بكلمة الله، يدعو إلى عبادة الله وحده، ومن صَدَّقَ وبَرَّ فجنات النعيم مصيره، والخلد الدائم منزله، والمكان الآمن مقيله، خلود بلا انتقال، وحياة بلا موت، وصحة بلا سقم، وشباب بلا هرم، وغنىً بلا عدم، مع رضا الله عنه؛ لحسن عمله ورضاه عن ربه لعظيم أجره، وهذا هو الظفر الكريم، والفوز العظيم، والنعيم المقيم مع رضوان الرحمن الرحيم.

(١٢٠) ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

الله - عز وجل - يملك ويتصرف ويدبر كل من في السموات والأرض، لا يخرج عن سلطانه أحد، ولا يعزب عن علمه شيء، ولايعجزه أمر، وقدرته نافذة للجميع لا راد لما قضى، ولا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، لا يحول حائل عن مراده، ولا يَرُدُّ رادٌّ قضاءه، جل في علاه، فله كمال الملك وتمام القدرة.

مكية

ترتيبها
٦

سورة الأنعام

آياتها
١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

يُعلِّم الله عباده أن يحمدوه على تمام إنعامه وكمال إحسانه وبديع خلقه وإتقان صنعه؛ لأنه يستحق أكمل المحامد، وأجل المدائح، وأجل الثناء، فهو الذي أنشأ خلق السموات والأرض، هذا الخلق العظيم المحكم المتقن الجميل المتناسق، الذي يحير العقول ويدهش الأذهان ويذهل البصائر، وخلق الليل والنهار بما فيهما من ظلمة ونور للنوم والراحة والعمل والمعاش وكسب العلم والإنتاج، وبعد هذا كله من الخلق والإبداع لهذه المخلوقات الباهرة والآيات الظاهرة يأتي الكفار يسوون بينه وبين الأصنام التي لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر ولا تحيي ولا تميت، فتبًا لهم على هذا السخف والحمق والجهل.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

هو وحده - سبحانه - الذي خلق أباكم آدم من طين، ثم خلق ذريته من بعده من ماء مهين، وجعل لكل واحد منكم عمرًا محددًا لا يتجاوزه، وجعل وقتًا معلومًا للبعث بعد الموت وهو يوم القيامة، لا يطلع على علمه إلا الله وحده، ثم يأتي المشرك ليشك في البعث بعد هذه الدلائل والبراهين.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

وهو - سبحانه - الذي له الألوهية والعبودية وحده، يعبده ويوحده من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من المؤمنين، وهو يعلم ما أخفوا من النيات وما أسروا وما أعلنوا من القول والعمل، وما كسبوا من خير وشر، وحسن وقبيح؛ ليوفيهم الثواب والعقاب يوم القيامة.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

وما نبين لهؤلاء الكفار من دليل ساطع وبرهان قاطع على صحة الألوهية لله وصدق رسالة محمد ﷺ إلا وهم غير مبالين بها وقابلين لها ولا متفكرين فيها، بل هم في إعراض وغفلة.

(٥) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فهم أصلاً ما قبلوا القرآن الذي هو أعظم معجزة، بل كذبوا به وردّوه وشكُّوا في صحته، فدعهم فسوف يظهر لهم سوء صنيعهم حين يرون العذاب، ويدركون قبح فعلهم إذا عاينوا العقاب؛ لأنهم سخروا من الرسالة والرسول، واستهزؤوا بآيات الله البينات، فهم أعرضوا، ثم كذبوا، ثم استهزؤوا.

(٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾

أما بلغ هؤلاء الكفار أخبار الأمم قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، أما شاهدوا آثارهم وسمعوا بمصارعهم لما كذبونا؟ فلماذا لا يتعظون ويعتبرون، فإننا أعطينا تلك الأمم من القوة والتمكين والنعم ما لم نُعْطه كفار مكة، بما في ذلك إنزال الغيث المدرار الذي تحيا به الزروع والثمار والخضراوات والأشجار، وأجرينا لهم الأنهار من تحت بيوتهم،

فهم في حدائق غناء وبساتين فيحاء، وغذاء وماء، ولكنهم ما شكروا بل كفروا، فعاقبناهم عقابًا شديد بسبب تلك المخالفات والتكذيب بالرسالات، فاحذروا أن نأخذكم كما أخذناهم، فقد أفنيناهم ثم خلقنا أجيالاً من بعدهم متعاقبة، فما نقص في الملك شيء ولا تغيّر في القدرة ذرة.

(٧) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

وهؤلاء الكفار فجرة معاندون لن يؤمنوا أبدًا حتى لو نزلنا القرآن في ورق مسطور، ومصحف منشور، فأبصروه ووضعوا أيديهم عليه لما صدقوا ولقالوا: نحن مسحورون بهذا السحر ولا أصل لهذه الأوراق والصحف؛ لعتوهم وتمرُّدهم.

(٨) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾

يقول كفار مكة: لماذا لم يُنَـزَّل على محمد ملك من ملائكة السماء نراه جهرةً يشهد له أنه نبي حتى نصدّقه، ولو استجبنا لهم وأنزلنا ملكًا ورأوه كما طلبوا ثم كفروا لعجلنا هلاكهم بلا انتظار، ولكان بعد ذلك استعجال الاستئصال بلا إمهال.

(٩) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾

ولو أرسلنا الرسول ملكًا من الملائكة لأرسلناه في صورة رجل من البشر؛ لأن الناس لا يستطيعون مشاهدة الملك في صورته لعجز أبصارهم عن ذلك، ولو جاء الملك في صورة رجل لاختلط عليهم الأمر هل هو ملك في صورة رجل أم رجل من البشر؟

(١٠) ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

اصبر – يا محمد – ولا تحزن من تكذيب الكفار، فقد أرسلنا من قبلك كثيرًا من الرسل فكذبهم أقوامهم واستهزؤوا بهم فلك فيهم أسوة، فلست بأول من كُذّب، فلما سخر الكفار من أنبيائهم أخذناهم بأشد العقوبات، ونكّلنا بهم جزاء فعلهم القبيح من السخرية بالأنبياء والاستهزاء بالرسل.

(١١) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

أيها المستهزئون، سافروا في نواحي الأرض وانظروا آثار الهالكين وديار المكذبين، كيف محونا رسومها بالعذاب، ودمرنا عمارها بالخراب، ومزّقنا أهلها بأنواع العقاب، فهل من معتبر لما شاهد؟ وهل من متعظ لما سمع؟

(١٢) ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

قل – يا محمد – للمشركين: لمن هو ملك ما في السموات والأرض؟ فأخبرهم أن الملك لله كما تعترفون بذلك، فلماذا لا تعبدونه وتوحدونه كما شهدتم أنه الرب الخالق وحده؟ وهو – سبحانه – كتب على نفسه الرحمة، ورحمته سبقت غضبه، فلا يعجل بالعقاب ولا يأخذ قبل الإنذار، ويقبل توبة من تاب، وليجمعنكم ربكم ليوم الحساب والجزاء لا شك في ذلك ولا ارتياب، والمشركون خاسرون؛ لأنهم أشركوا بالله ولم يصدقوا بلقائه ولم يُقِرُّوا برسالة محمد ﷺ.

(١٣) ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

والله يملك كل ما سكن وتحرك في الوجود وغشيه الليل والنهار، سواء أكان خافيًا أم ظاهرًا فإنه لا يخفى عليه شيء، يسمع الأقوال ولا تختلط عليه الأصوات، ويعلم الظواهر والخفيات والأعمال والنيات.

١٤ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: كيف أتخذ من يتولى أموري وينصرني غير الله ربي، وهو خالق السموات والأرض وخالق من فيهن، وهو واحد أحد يرزق كل أحد ولا يرزقه أحد؛ لأنه صمد، وقد أمرني ربي أن أكون أول منقاد له بالعبودية، ومستسلم له بالألوهية، ونهاني عن الشرك؛ لأنه أرسلني بالتوحيد؛ لأدعو إليه سائر العبيد.

١٥ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: إنني وأنا رسول من عند الله أخاف أن يعذبني ربي عذابًا شديدًا إذا خالفت أمره، وعبدت غيره، وأشركت معه سواه، فكيف بكم أنتم وقد أشركتم وأعرضتم.

١٦ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾

من يَمْنَعُهُ الله من العذاب الشديد يوم الوعيد، إذا أتى بالتوحيد، فقد شمله برحمته وعفوه، وهذا ظفر عظيم وفوز كبير؛ لأنه أدرك المطلوب ونجا من المكروه.

١٧ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

أيها الإنسان، إذا أرادك الله بضر من فقر ومرض وبلاء فلا يدفعه عنك غير الله، وإذا أرادك بخير من غنىً وصحة وتوفيق فلا يرد خيره عنك راد، ولا يمنع فضله مانع؛ لأنه على كل شيء قادر إذا قضى أمضى، وإذا قدّر اقتدر.

١٨ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

والله غالب بأمره فوق عباده قهرهم بالجبروت؛ لأنه قهّار لكل جبار، فأطاعه التقي بالأمر، وذلّ له المتكبر بالقهر، وضع الأشياء مواضعها بحكمة وإتقان، وعلم كل خاف عن العيان، فبحكمته قدر الأقدار، وبعلمه علم الأسرار، فهو مستحق لأنْ يعبد ويوحد ولا يشرك به شيئًا، وفي الآية إثبات العلو للعزيز الغفار، والفوقية للكبير الجبار بما يليق بجلاله ويتفق مع كماله.

١٩ ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: ما أعظمُ شاهد على صدق رسالتي وإثبات نبوتي، قل: الله أعظم شاهد على ذلك، وهو العالم بما قلت لكم وما رَدَدْتم عليّ، وأنزل عليّ القرآن لأنذركم به من عذاب الله إن خالفتموه، وأُنْذِر وأُخَوِّف به كل من وصل إليه هذا القرآن من البشر كافة، وإذا كان الله خالق الخلق ورازقهم فكيف تقرون بألوهية غيره معه، وتشركون به، ولكنني لا أقر على ما أقررتم به من الشرك، بل أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فلا أقر بزور ولا أشهد على جور، وأبرأ إليه من كل شريك سواه، وأنا بريء من عمل المشركين؛ داعية إلى توحيد رب العالمين.

٢٠ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

اليهود والنصارى يعرفون محمدًا ﷺ بصفاته في التوراة والإنجيل كمعرفتهم لأبنائهم تمامًا، فكما أن الأب لا يضيع أوصاف أبنائه لتمام علمه بهم، فكذلك أهل الكتاب لا تختلف عليهم أوصاف النبي الأمي محمد ﷺ لوضوح أوصافه لديهم، لكنهم ردّوا الهدى واتبعوا الهوى فرجعوا بالخسران، وباؤوا بغضب الرحمن، حينما كذبوا بالذكر الحكيم ولم يتبعوا النبي الكريم.

(٢١) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

لا أحد في العالم أكبر ظلمًا وأعظم إثمًا ممن ادعى أن لله شركاء، ونسب إليه صاحبة وأبناء، أو جحد أدلة وحدانيته وبراهين ألوهيته، وشواهد نبوة رسوله، ومن فعل ذلك فهو ظالم، والظالم لا يوفق للصواب ولا ينجو من العقاب.

(٢٢) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

ألا يتذكر هؤلاء المشركون يوم نجمعهم ليوم لا ريب فيه فنسألهم أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ لماذا لا ينصرونكم ويدفعون عنكم العذاب ويشفعون لكم في رفع العقاب؟

(٢٣) ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

ثم لم تكن حجتهم الباطلة ودعواهم الكاذبة بعدما رأوا تخلي آلهتهم عنهم إلا أن ادعوا أنهم ما عبدوهم في الدنيا، وما أشركوا مع الله غيره، كذبًا منهم وبهتانًا.

(٢٤) ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

ألا تعجب - يا محمد - من هؤلاء يشركون مع الله غيره في الدنيا، ويكذبون على أنفسهم في الآخرة إذ يتبرؤون من هذه الآلهة ويقسمون ما عبدوها في الدنيا من دون الله، فجمعوا بين الكفر والكذب وسوء الفعل وقبح العذر، شرك في العمل وكذب في القول، وقد ذهبت عنهم في الآخرة شفاعة آلهتهم التي ظنوا أنها تنفع أو تدفع أو تشفع.

(٢٥) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

من هؤلاء المشركين من يستمع لك - يا محمد - إذا قرأت القرآن لكن سماعًا بلا فهم ولا وعي ولا انتفاع؛ لأن الهوى غطى على منافذ البصيرة، وحجب على القلوب، فهي في أغطية لا تفقه، والأسماع في صمم لا تسمع ولا تعي، ولو عرضت لهم كل الآيات الدالة على صدقك وجميع المعجزات الشاهدة برسالتك لكذبوا وجحدوا، وبعدها يأتونك ليقولوا: كل هذه الآيات والمعجزات من أساطير الأولين وخرافات المتقدمين لا حقيقة لها.

(٢٦) ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وهؤلاء المشركون ينهون الناس عن تصديق الرسول ﷺ ويبتعدون عن اتباعه، فهم ضالون مضلون، يكفرون ويَصُدّون غيرهم، وهم لا يضرون بهذا الإعراض إلا أنفسهم، ولا يسعون إلا في هلاكهم، ولكنهم لا يحسون بخطورة ما يفعلون، ولا يدركون ضرر ما يصنعون .

(٢٧) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وليتك - يا محمد - تشاهد هؤلاء المشركين إذا عُرِضُوا على النار وأبصروا عذاب الجبار وشاهدوا الفظائع والأنكال، والسلاسل والأغلال، حينها يقولون: يا ليتنا نعود أحياء إلى الدنيا فنؤمن بالله ونصدق رسوله. لكن هيهات فما فات مات، وما بقي إلا الندم والحسرات، فياهول ذلك المشهد ما أعظمه وأشده .

(٢٨) ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

وما صَدَقُوا فيما قالوا: بل إنه ظهر لهم يوم العرض الأكبر صدق الرسول ﷺ وصحة الرسالة، ولو أنهم كانوا يدعون من تبعه لخلاف هذا، ولو رُدّوا مرة ثانية إلى الدنيا لعادوا يكذبون بآيات الله مثلما كذبوا بها من قبل.

(٢٩) ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

يقول المشركون: لا بعث ولا نشور، فإذا متنا فلن نخرج من قبورنا للحساب، فالحياة حياتنا الدنيا فقط.

٣٠ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

ولو شاهدت - يا محمد - هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا قاموا للحساب، ورأيت ما أصابهم من خوف، إذا قيل لهم: أليس هذا البعث حقًا وكنتم تكذبون به؟ فيقولون: بلى والله إنه حق، فيُقال لهم تبكيتًا: هذا العذاب الذي تصلونه بسبب كفركم بالله وتكذيبكم رسول الله ﷺ.

٣١ ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

قد خاب سعي الكفار وضل عملهم؛ لأنهم كذبوا باليوم الآخر، فإذا قامت الساعة وشاهدوا عاقبة تكذيبهم وفوجئوا بهذا الأمر المذهل صاحوا من الخوف متحسرين على سوء صنيعهم وقبح فعلهم، وقد ألزموا عاقبة عملهم ونتيجة تكذيبهم، فما أسوأ تلك الأعمال، وما أشنع تلك الأفعال .

٣٢ ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع قصير كخيال النائم، وهي غرور باطل، وظل زائل، والآخرة أفضل وأسعد لمن اتقى ربه وعمل صالحًا؛ فهو في دار نعيم دائم، أفلا تتدبرون هذا الأمر فتنظروا في قصر الدنيا وسرعة انقضائها وتفاهة شأنها وفنائها، والآخرة ونعيمها المقيم في جنات الخلود فتعملوا لها .

٣٣ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

الله يعلم - جل في علاه - أنك - يا محمد - يصيبك الحزن من تكذيب قومك لك واستهزائهم بك، فاصبر فإنهم يعلمون صدقك في الباطن، وإنما يكذبونك في الظاهر استكبارًا وعتوًا، فيردون الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة التي بعثت بها .

٣٤ ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

فاصبر -يا محمد-، فلك أسوة فيمن كُذِّبَ من قبلك من الرسل فصبروا على تكذيب قومهم، وتحملوا الأذى في سبيل الله، وواصلوا الدعوة والجهاد حتى نالوا نصر الله، ولا يمكن أن تتغير كلمات الله التي أنزلها عليك من الوعد بالنصر وحسن العاقبة والانتقام من الكفار، ولقد أُنْزِلَ عليك - يا محمد - أخبار الرسل قبلك، وكيف نصرهم الله وأهلك أعداءهم، فاقتد بأولئك الأنبياء وتسل بهم.

٣٥ ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

وإن كان اشتد عليك -يا محمد- تكذيب هؤلاء المشركين، فإن قدرت على أن تسلك طريقًا في باطن الأرض، أو تصعد درجًا إلى السماء لتأتي بمعجزة على صدقك وبرهان على صحة ما جئت به غير ما آتيناك من الأدلة والبراهين فافعل فلن يستجيبوا لك، ولو أراد الله أن يهديهم لهداهم، ولكن اقتضت حكمته ألا يوفقهم للإيمان، فلا تكن ممن كثر تحسره، وزاد جزعه فجهل أسرار القضاء ومقاصد الحكمة.

٣٦ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

إنما يتبعك -يا محمد- ويؤمن بما جئت به مَنْ عنده سماع قبول واستجابة، والكفار كالموتى؛ لأن الحياة حقيقة إنما هي في الإيمان، فالكفار أموات القلوب، وأما أموات المقابر فسوف يخرجهم الله منها أحياء ليحاسبهم على أعمالهم يوم القيامة.

(٣٧) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وقال المشركون: لماذا لا يُنَزِّل اللهُ على محمد معجزة خارقة للعادة، فقل لهم: إن الله لا يَعْجَزُ عن ذلك فهو على كل شيء قدير، لكنه ينزل الآيات بحكمة منه متى ما أراد، ولكن المشركين لا يعلمون.

(٣٨) ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

ما على وجه الأرض من دابة ولا في السماء من طائر إلا جماعات مثل الناس في التوافق والاختلاف، وبينهما وبين الناس أوصاف متشابهة، ما أغفلنا شيئًا من المخلوقات وغيرها إلا كتبناه في اللوح المحفوظ تقديرًا وتدبيرًا، وسوف يعود الجميع إلى ربهم ليحاسبهم على كل ما فعلوه .

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

الذين كذبوا بالقرآن والسنة لا يسمعون سماع قبول ولا استجابة، ولا ينطقون بالصدق والحق، وهم في ظلمات كفرهم وأهوائهم حائرون لا يهتدون إلى رشاد ولا يُوفّقون لسداد، ومن أراد الله إضلاله أضلّه فلا يهديه أحد، ومن أراد أن يهديه هداه فلا يَضِلُّ أبدًا، فلا مضل لمن هدى ولا هادي لمن أضل.

(٤٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

أخبروني - أيها المشركون - إذا أتاكم عذاب الله في الدنيا: هل هناك أحد يدفع عنكم العذاب؟ أو إذا قامت القيامة بأهوالها هل ينجيكم من العذاب ما كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا إن كنتم مصيبين في زعمكم أنهم ينفعون ويضرون من دون الله؟ فلماذا ما جلبوا لكم نفعًا ولا دفعوا عنكم ضرًا؟!

(٤١) ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾

الواقع أنه إذا اشتدت الكربات، وحلّت الأزمات لا تدعون إلا الله وحده وتتخلون عن دعوة الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة؛ لأن عبادتكم لها زور وبهتان، وكذب وخسران، وفي الشدة يظهر الحق ويبطل الباطل.

(٤٢) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾

ولقد بعثنا قبلك - أيها الرسول - رسلاً إلى أقوامهم فكذبوهم فأصبناهم في العيش بالفقر والضيق ونقص الأموال والآفات، وأصبناهم في الأجسام بالأمراض والآلام، عسى أن يعودوا إلى ربهم بالدعاء والتضرع، ويتوبوا إليه من الذنوب، ويتذلّلوا له بالطاعة.

(٤٣) ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

فلماذا لما جاءهم بلاؤنا لم يخضعوا لنا، ولم ينقادوا لأمرنا ويصدقوا رسلنا؟! ولكن السبب قسوة قلوبهم التي لا ينفع فيها الذكر، ولا تجدي فيها الموعظة، ثم إن الشيطان حَسّن لهم التكذيب بآياتنا وعصيان أمرنا، فما اتعظوا بالآيات، ولا اعتبروا بالابتلاءات.

(٤٤) ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

فلما عصونا وكذبوا بآياتنا وما أجدى فيهم البلاء، ولا ردتهم إلينا البأساء فتحنا عليهم أبواب الرخاء، فصببنا عليهم الدنيا بكثرة الأموال والأولاد وصحة في الأجسام، ورفاهية في العيش حتى أصابهم البذخ ووقعوا في الترف، فركبوا مركب الأشر، وسلكوا طريق البطر، فأعجبهم الثراء، وسرّتهم النعماء، وخدعهم الرخاء، عندها فاجأناهم بالعذاب، فسلبناهم من كل نعمة، وأنزلنا بهم أشد نقمة، فانقطعوا عن كل خير، وأفلسوا من كل فضل، وخسروا كل شيء.

(٤٥) ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فأُهلك هؤلاء الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، ولم يبق لهم أثر، والشكر والثناء لله على حسن فعله في إهلاكهم؛ لأن في ذلك نصرة للحق ومحقًا للباطل، والله يُحمد على كل حال؛ فلا يحمد على مكروه سواه؛ لأن رحمته فضل وعذابه عدل.

(٤٦) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

قل لهؤلاء الظالمين: لو أن الله أصمكم فَذَهَب سمعكم، وأعماكم فذهبت أبصاركم، وأغلق على قلوبكم فأصبحتم بلا فهم، هل هناك إله آخر غير الله يرد عليكم الأسماع والأبصار ويفتح على قلوبكم؟ تأمل كيف تنوع لهم الأدلة والبراهين ثم يعرضون عن الاستجابة ويأبون القبول.

(٤٧) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أخبروني - أيها الظالمون -: لو نزل بكم العقاب فجأة بلا إنذار، أو أخذكم وأنتم ترون العقاب بالأبصار، فهل يستحق العقاب إلا من ظلم نفسه بِرَدِّ الحق وتكذيب الرسل؟

(٤٨) ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

والرسل لا نرسلهم إلا ليبشروا من آمن بالجنة، وينذروا من كفر بالنار، فمن آمن بالله وصدق الرسل فلا يخاف ما أمامه من أهوال، ولا يحزن على ما خلفه من أعمال.

(٤٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

والذين كذبوا بآياتنا كلها القرآنية والكونية، يمسّهم عذابنا بسبب خروجهم عن طاعتنا وعدم اتباعهم رسولنا.

(٥٠) ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

أخبر المشركين - يا محمد -: أنك لا تملك خزائن الأرض فتعطي من تشاء وتمنع من تشاء، ولا تعلم الغيب إلا ما أطلعك الله عليه، ولست ملكًا من الملائكة وقل لهم: إنّما أنت بشر أوحى الله إليك القرآن وأرسلك إليهم، وأخبرهم - يا محمد -: أن الكافر كالأعمى، والمؤمن كالبصير، فذاك عَمِي عن آيات الله، وهذا أبصرها فلا يستويان، أفلا تتأملون وتتدبرون آيات الله الدالة على وحدانيته وصدق ما أنزل على رسوله.

(٥١) ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

وخوّف بكتاب الله المؤمنين الذين يتيقنون من لقاء ربهم يوم القيامة، فليس لهم غير الله ولي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، ولا شفيع ينفعهم عند الله في رفع العذاب لعلهم يخافون الله بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه.

(٥٢) ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولا تبعد عن مجلسك الضعفاء والفقراء الذين يتعبدون لربهم بالذكر والدعاء أول النهار وآخره مخلصين لله، فأنت لن تُسأل عن أعمالهم وهم لن يُسألوا عن عملك، فإن أبعدتهم عن مجلسك فقد أخطأت وما أصبت، وجُرت وما عدلت.

(٥٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

وهذه سنة الله يبتلي بعض عباده ببعض، يعطي بعضهم الغنى والقوة والصحة ويسلبها من بعضهم؛ ليحتاج بعضهم إلى بعض، ويعلم من شكر ومن صبر، ويقول الكفار الأغنياء للمؤمنين الفقراء: أهؤلاء المساكين هداهم الله للإسلام وتركنا؟! فالجواب: إن الله أعلم بمن يشكره ويستحق الإيمان فيهديه.

(٥٤) ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وإذا أتاك - يا محمد - المؤمنون المصدقون بما أُنزل عليك من الآيات يسألونك عن التوبة فحيهم بالسلام، وألن لهم الخطاب، وأخبرهم أن الله هو التواب، رحمته وسعت كل شيء، وقد أوجب على نفسه أن يتوب على من تاب، فمن ارتكب ذنبًا وجهل عاقبته وأغضب ربه - وكلُّ عاصٍ جاهل وإن بلغه التحريم - ثم أقلع عن ذنبه وندم على فعله وأحسن عمله، فإن الله يمحو ذنوبه، ويتغمده برحمته؛ لأنه واسع المغفرة كثير الرحمة.

(٥٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

ومثل هذا البيان الذي أنزلناه عليك نبين الأدلة ونوضح الحجج ونظهر المعجزات، ليظهر الحق ويبطل الباطل وتتضح طريق المنحرفين المكذبين للأنبياء.

(٥٦) ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

قل - يا محمد لعبدة الأوثان -: إن ربي نهاني أن أشرك به شيئًا وأن أعبد غيره، ولن أتبع أهواءكم، فأنتم ضلال، بل أتبع هدى ربي الذي أوحاه إليّ، ولو سلكت طريقكم لضللت عن الصراط المستقيم، ولتركت الهدى الذي أكرمني الله به.

(٥٧) ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

قل لهؤلاء الكفار: إني على محجة واضحة وصراط مستقيم من التوحيد والعبادة، ولكنكم كذبتم بهذا الوحي، ولا أستطيع أن أعجل لكم العذاب الذي تطلبونه، فأنا عبد رسول لا أملك إلا البلاغ. فالله الذي عنده الحكمة والتقدير في تعجيل العذاب أو تأخيره، وهو - سبحانه - يبين الحق ويوضح الهدى وهو وحده، الذي يفرق بين الحق والباطل، ويقضي بحكمه بين المؤمنين والكافرين.

(٥٨) ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أخبر هؤلاء المشركين - يا محمد - أنه لو كان بيدك تقديم العذاب الذي يستعجلونه لأوقعته بهم وانتهى الأمر بينك وبينهم، والله عليم بمن يستحق العذاب ممن تجاوز الحد بالشرك وأعرض عن الإيمان.

(٥٩) ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

والله - وحده - عنده خزائن الغيب لا يعلمها إلا هو ولا يدري بها سواه، كعلم الساعة، ونزول الغيث، وعلم ما في الأرحام، وما تكسب كل نفس غدًا، ومحل موت العبد، وهو مطلع على خفايا ما في البر والبحر ويعلم متى تسقط كل ورقة من شجرة وكل حبة في مسارب الأرض يعلمها، ومطلع أين هي، وكل شيء رطب بالحياة من إنسان وحيوان ونبات وغيره، أو يابس من ذلك كله، فهو مكتوب عنده في كتاب ظاهر بيّن، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ.

٦٠ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

وهو – سبحانه – الذي يمسك أرواحكم بالنوم في الليل حتى تصبحوا كالأموات، وهو مطلّع على ما فعلتم في نهاركم من أعمال، ثم يوقظكم من نومكم كأنه بعثكم من موتكم، لينتهي الأجل المحدود والعمر المعدود في هذه الحياة، ثم يعيدكم إليه يوم القيامة فيحاسبكم بما فعلتم ويقرركم بما اكتسبتم ويجازيكم على ما صنعتم.

٦١ ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

والله – سبحانه – الذي قهر عباده قهر علو وقدر وقوة وجبروت، فله الفوقية المطلقة بما يليق بجلاله، كل مخلوق ذليل لعظمته خاضع لحكمه، ضئيل في ملكه، ويوكل بكم ملائكة يحفظون ما تعملون، ويحفظونكم مما تخافون، فإذا حانت وفاة أحدكم قبضت الملائكة روحه، وهم لا يهملون ما أوكل إليهم ولا يضيّعون ما كلفوا به، بل يؤدّون ما أمروا به في إتقان.

٦٢ ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾

ثم رجع الأموات إلى ربهم الحق – جل في علاه – ليوفيهم حسابهم، ليقضي بالعدل ويحكم بالفصل، وهو أسرع من حاسب، حيث يحاسب الجمع الكثير في الوقت القليل، ويفصل بين الخلائق في زمن يسير عليه؛ لكمال القدرة وتمام الحكمة.

٦٣ ﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

قل – يا محمد – للمشركين: من الذي ينقذكم من مخاوف البر وأهواله، ويخرجكم من أخطار البحر ومهالكه غير الواحد الأحد الذي أشركتم معه غيره في العبادة؟ مع العلم أنه إذا اشتد بكم الخطب وضاق بكم الكرب التجأتم إليه بذل وخضوع تنادونه جهارًا وتناجونه سرًا وتعاهدونه أنه إذا أنقذكم من هذا الخطر وسلمكم من هذا الهول لتوحدونَّه بالعبادة ولا تشركون به شيئًا.

٦٤ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾

قل: الله وحده هو الذي يتولى إنقاذكم من هذه الأخطار ولا يستطيع أحد غيره إنقاذكم، وهو الذي ينقذكم من كل خطر ألم بكم، ويسلمكم من كل هول حل بكم، ويفرج عنكم كل شدة، وبعد هذه النجاة تشركون مع الله غيره في العبادة، فوقت الرخاء عاصون، وفي الشدة طائعون متضرعون.

٦٥ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾

قل لهم: الله وحده هو الذي يستطيع بقدرته أن يرسل عليكم عذابًا من السماء كالصواعق والرجم والطوفان ونحوها، ويهلككم من تحتكم بالخسف والزلازل وغيرها، أو يجعلكم متفرقين فيخالف بين قلوبكم فتقتتلون ويبيد بعضكم بعضًا، وتدبر كيف نسوق لهم أنواع العظات ومختلف البراهين الواضحات لعلهم يفقهون الدليل ويتبعون الرسول، ويميّزون بين الحق والباطل، لكن هيهات، رانت الذنوب على القلوب؛ فعميت عن هَدْي علام الغيوب، فالضال أعمى عن الدليل، خارج عن سواء السبيل.

٦٦ ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾

وكذب المشركون بكتاب الله وهو الحق كله، والصدق جميعه، فقل لهم: يا محمد ما أنا بحفيظ على أعمالكم لأجازيكم، ولا برقيب على ما أخفيتم فأعلم سرائركم، فمن الله البيان وعلى رسوله ﷺ البلاغ، وعلى الناس الانقياد، ثم حساب الجميع على الله.

(٦٧) ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾

لكل أمر نهاية ينتهي إليها، ولكل شيء عاقبة يصير إليها؛ فيظهر خيره وشره وحقه وباطله، وسوف يَظْهَر لكم - أيها المكذبون - سوء فعلكم عند نزول العقاب بكم، فالأعمال لها آجال، وكل عامل سيلقى ما قدَّم حيث لا ينفع الندم.

(٦٨) ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وإذا أبصرت المكذبين بالقرآن يستهزئون بآياتنا ويضربون القرآن بعضه ببعض ويجادلون فيه جدال مراء وخصومة وشك فاترك مجلسهم واهجر اجتماعهم حتى يتكلموا في كلام غير هذا الخوض، وإذا نسيت فجلست معهم فإذا تذكرت فقم عنهم؛ لأنهم معتدون لا يوفقون لصواب، ولا يلهمون إلى رشاد.

(٦٩) ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾

ليس على من آمن بالله واتبع رسوله وأطاع أمره واجتنب نهيه محاسبة بسبب من استهزأ بآيات الله وسخر منها بعد البلاغ والنصح؛ فالمؤمن عليه أن يعظ العصاة وله مثل أجر من اهتدى بهداه وليس عليه إثم من ضل.

(٧٠) ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾

وأعرض عمن استهزأ بالدين وسخر من الشريعة، فحياته لعب وأعماله لهو، خدعته دنياه بزخرفها وغرته بفتنتها، فهجر الكتاب ونسي الحساب، وذَكِّرْ بكتاب الله من أجل ألا تفلس النفوس من الإيمان وَتُرتَهِن بالعصيان، فالذنب يوبق العبد، وليس لكل نفس إذا خسرت ولي يدفع ولا شفيع ينفع غير الله وحده، فهو ولي من تولاه، وناصر من دعاه، ولو قدمت النفس الهالكة كل فداء لتنجو من العذاب ما قبله الله؛ لأن الشرك لا غفران له، وهؤلاء المشركون هالكون بسبب أعمالهم، خاسرون لسوء صنيعهم، شرابهم الحميم مع العذاب الأليم، والنكال المقيم، في سواء الجحيم؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا رسله.

(٧١) ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قل للمشركين: أنعبد أوثانًا لا تجلب لنا نفعًا ولا تدفع عنَّا ضُرًا ونترك عبادة الواحد الأحد الذي يملك الضر والنفع وبيده كل شيء ونرجع إلى ظلمات الشرك بعد أن منَّ الله علينا بإخراجنا من هذه الظلمات إلى نور الإيمان، ويصبح مثلنا مثل من خدعته الشياطين وغرته وأضلته عن سوء السبيل ولم يسمع نصيحة أصحابه الذين ينادونه إلى الإيمان وينصحونه بترك عبادة الأوثان؛ فيتبع هواه ولا يسمع نصح من دعاه، فأخبر هؤلاء المعرضين بأن ما أرسلني به ربي من الهدى هو الصراط المستقيم والمنهج القويم، والله أوجب علينا أن ننقاد لدينه ونتبع رسوله ﷺ ولا نشرك به شيئًا؛ لأنه مُرَبي العباد بنعمه، ومتولي أمرهم وتصريف حياتهم. وملخص الآية يتمثل في التخلي عن الأوثان والتحلي بالإيمان.

(٧٢) ﴿ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾

وأوجبنا عليكم إقامة الصلاة كما شُرعت لتنهاكم عن الفحشاء والمنكر، وأوجبنا عليكم عمل الصالحات وترك المنكرات، فسوف تعودون إلى ربكم ليجازيكم بالحسنات ثوابًا وبالسيئات عقابًا.

٧٣ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

الله وحده هو الذي خلق السموات والأرض بالحق ليُعْبدَ، ورزق من فيها ليُشْكَر وتذكّر إذا أراد الله أن يقيم القيامة بكلمة: (كن) فيكون في لمح الطرف أو أسرع، فقوله في ذلك حق ووعده صدق، فالمُلكُ له وحده يتصرف فيه كيف يشاء لا ينازعه في الملكوت عبد، ولا يشاركه في الجبروت أحد، ويظهر تمام ملكه يوم النفخة الثانية في الصور، يوم يُبعثر ما في القبور، ويحصَّل ما في الصدور، يعلم ما ظهر للعيون وما خفي عن الظنون، ومطلّع على الجهر والسر، وهو حكيم، كل صنعه بإتقان، وفعله بإحسان، وعطائه بامتنان، خبير بالنيات والخفِيات، بلغ علمه أسرار الأشياء، وأحاط بتفاصيل الأموات والأحياء.

٧٤ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

واذكر يوم حاجَّ إبراهيم أباه آزر وجادله وقال له: كيف تعبد أصنامًا لا تنفع ولا تضر، وتترك عبادة الله الواحد القهار، لقد انحرفت أنت وقومك عن الحق، وضللتم عن الرشد، وبان لي أن ضلالكم ظاهر؛ لأنكم أشركتم بالله، وتركتم عبودية الله، وفيها دعوة الابن لأبيه، والبدء بأصول توحيد الله، وأن الولاء لله، والرفق بالوالد ولو كان مشركًا.

٧٥ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾

ومثلما وفَّقنا إبراهيم لسلوك طريق الهداية أطلعناه على ما في السموات والأرض من ملك باهر وبديع صنع ظاهر، مع آيات تدل على عظيم القدرة، وتمام الحكمة؛ ليرسخ إبراهيم في الإيمان؛ لأن من تدبر أبصر، ومن تفكر زاد يقينه، وعظم إيمانه، والكون كتاب مفتوح لكل معتبر.

٧٦ ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾

لما أقبل الليل وغطى العالم بظلمته وشاهد إبراهيم كوكبًا منيرًا أراد أن يناظر قومه ليستدرجهم للوصول إلى الحق بضرب المثل بالكوكب، فقال لهم: هذا ربي، على سبيل المناظرة ولفت أنظارهم ليصل بهم إلى حقيقة بطلان عبادة النجوم التي يعبدونها، فلما غاب الكوكب، قال إبراهيم: أنا لا أحب إلهًا يغيب؛ إذًا فهذا الكوكب لا يصلح أن يكون إلهًا؛ لأن النقص يدخله، والإله لابد أن يكون قائمًا على كل نفس حيًا قيومًا.

٧٧ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

فلما شاهد إبراهيم القمر قد طلع، وبنوره سطع، قال ليستنزل قومه عن رأيهم: هذا القمر ربِّي، فلما غاب القمر، قال إبراهيم طالبًا الرشد من ريه: إذا لم يدلني ربي على الحق في هذه المسألة وهي (من هو الإله الذي يستحق أن أعبده)، فسوف أصبح ممن غوى عن الصراط المستقيم، وحاد عن الحق القويم، بشركه بالرحمن الرحيم.

٧٨ ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

فلما شاهد إبراهيم الشمس طلعت: قال لقومه على سبيل التمثيل والمحاجّة: هذه الشمس هي ربي، فهي أكبر من القمر والكواكب، ولكن الشمس غابت، إذًا لا تصلح لأن تُعبد، فأنا إذًا أبرأ إلى الله من عبادة غير الله من شمس وقمر وكواكب ونجوم وأوثان وأصنام وغيرها؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الله وحده، أما هذه المخلوقات فلا يجوز صرف شيء من العبادة لها؛ لأنها مخلوقة مدبرة لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

٧٩ ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

إني جعلت وجهة وجهي لربي الواحد، الأحد الذي خلق السموات والأرض ثابتًا على التوحيد، مائلاً عن الشرك، وأبرأ إلى الله من عمل المشركين، وهذا هو لب الدين وأساسه توحيد المعتقد والمنهج والبراءة من أعداء الله.

(٨٠) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

وجادل إبراهيم قومه في مسألة الألوهية، فقال لهم: كيف تجادلونني في ألوهية ربي، وتوحيدي لخالقي بالعبادة وأنا على بيّنة من أمري، فالله قد ثبتني على الحق، وعصمني من الباطل، أما آلهتكم الباطلة من الأصنام والنجوم فلا أخافها، ولن يصلني منها ضرر إلا بمشيئة الله؛ لأن ربي يعلم كل شيء لا تغيب عن علمه غائبة، فما لكم لا تتدبرون فتعلمون أنه الله الذي يستحق العبادة ولا يستحقها غيره.

(٨١) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

كيف أخاف أوثانكم وهي لا تضر ولا تنفع وأنتم لا تخافون ربي الواحد القهار الذي بيده النفع والضر، مع العلم أن عبادتكم لها لا حجة لكم ولا دليل على صحتها، فهل أنا أحق بالأمن والسلامة وأنا موحد أم أنتم أحق بها وقد أشركتم وضللتم؟! أخبروني إن علمتم صحة ما سألتكم عنه من أنه من عبد الله وحده أحق بالأمن؟

(٨٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله فحققوا الإخلاص والمتابعة ولم يخلطوا إيمانهم بالشرك فهؤلاء يؤمِّنهم الله من كل خوف وحزن، ويُسلِّمُهم من كل شر؛ لأنهم أتوا بأسباب النجاة، وهم الذين وفقوا للهداية الربانية ومعرفة الصراط المستقيم، فلا أمن بلا إيمان، ولا إيمان لمن أطاع الشيطان.

(٨٣) ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

وذلك برهاننا الذي علّمناه رسولنا إبراهيم حتى غلب به قومه، ونحن الذين نرفع بالعلم والحكمة من نريد من عبادنا مراتب يفضلون بها غيرهم، وربك حكيم فيما أعطى من هبات علمية ومنح دينية، عليم بمن يستحق العطاء ويشكر النعماء، فصاحب الدليل مرفوع، وحامل الأثر مقدر لشرف الحجة.

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

ورزق الله إبراهيم إسحاق ابنًا، ويعقوب حفيدًا، ورزقهما الاستقامة على طريقه، وأعطاهما الكتاب والحكمة، وهدى نوحًا من قبل إبراهيم إلى صراطه القويم، ومن نسل نوح داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، كلهم علمهم الحكمة وآتاهم النبوة وأرشدهم إلى الحق؛ لأنهم أحسنوا بحسن الاستجابة والقبول وجميل العمل، فجازاهم بالهداية إلى سبيله وشرّفهم بالرسالة، والله يثيب كل من فعل فعلهم واتبع طريقهم .

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

وكذلك هدى الله ووفّق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس لسلوك المنهج القويم، والصراط المستقيم، فهم أئمة هدى وأعلام إصلاح، حسنت أقوالهم، وصحت أعمالهم، وصدقت أحوالهم.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وهدى الله للحق إسماعيل واليسع ويونس ولوطًا لمرضاته، وفضلّهم بنبوته وآياته، ورفعهم على سائر الأمة بالإمامة.

(٨٧) ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

والله هدى من أراد من آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم فاصطفاهم للهداية، ومنَّ عليهم بالرعاية، وتفضّل عليهم بالولاية، فهم على نهج قويم، ومذهب كريم من صدق العبودية، وتمام الطاعة.

٨٨ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

هذا الهدى الذي عليه الأنبياء هو هداه وحده – سبحانه – بما أنزل عليهم من وحي ووفقهم به لكل خير، وهو يوفق من أراد من عباده لاتباعه والعمل به ولو أن الأنبياء –وحاشاهم من ذلك– أشركوا بالله لبطل سعيهم ولخسروا أعمالهم ولضلوا الطريق؛ لأن الشرك محبط لكل عمل، مفسد لكل حسنة، فكيف بغير الأنبياء، فيا من ضل من العبيد، هؤلاء الأنبياء يقابلون بالتهديد لو تركوا التوحيد.

٨٩ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾

هؤلاء الرسل الكرام هم الذين شرَّفهم الله بإنزال الكتب عليهم لهداية الناس، وآتاهم السداد في القول والعمل والرشاد، في الظاهر والباطن، وأكرمهم بالنبوة التي فيها العصمة والطهر والصلاح، فإذا كفر المشركون بما أوحاه الله إلى أنبيائه من كتب فقد اخترنا ووفقنا وهدينا غيرهم من المؤمنين الصادقين إلى قيام الساعة، يصدِّقون بالكتاب ويتَّبعون الرسول ويؤمنون بالله وينصرون الحقَّ ويخلصون لله العبادة.

٩٠ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾

هؤلاء الأنبياء الكرام – عليهم السلام – هم الذين وفقهم الله لطاعته، ونيل مرضاته بامتثال أمره، فأصلح أحوالهم، وسدد أقوالهم، وحسّن أفعالهم، فاتبِعْ سبيلهم، واقْتَدِ بهم، واقْتَفِ آثارهم، وقل – يا محمد – للمشركين: لا أطلب منكم على تبليغ الدين مالاً ولا عرضًا دنيويًا زائلاً، فعملي لوجه الله على نور من الله أرجو ثواب الله، وما هذا الدين الذي بُعِثتُ به والرسالة التي حملتها إلا تذكيرًا لكل الناس، تدعوهم إلى الهدى، وتحذرهم من الضلال، فعسى أن تنفعكم الذكرى وتجدي فيكم الموعظة، وفي الآية أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد النهي، وأن الداعية لا يطلب أجرًا على دعوته إلا من الله.

٩١ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾

وما عظَّم اللهَ من أشركوا به حق تعظيمه، ولا وقَّره حق توقيره؛ لأنهم قالوا: إن الله لم يُنْزِل الوحي على أحد من الناس؛ كذبًا منهم وزورًا، فقل لهم: من الذي أنزل التوراة التي بيد اليهود على موسى، وهم يجعلونها مجرد أوراق متفرقة لا ينتفعون منها بشيء، فما ناسبهم أظهروه وقالوا به وأفتوا به، وما لا يعجبهم جحدوه وكتموه وعطّلوا العمل به، فقد كتموا أخبار رسولنا ﷺ وآية الرجم وكثيرًا من الأحكام، وقد علمكم الله – أيها العرب – بالوحي ورسالة محمد ﷺ ما كنتم تجهلونه أنتم ويجهله آباؤكم قبلكم، فالله وحده الذي نزّل الكتاب وهدى من شاء وأقام الحجة وأوضح الدليل، فاترك هؤلاء الجهلاء في باطلهم يخوضون، وفي لهوهم يلعبون، فليسوا على بينة من أمرهم؛ لأن من ترك الحق ضل، ومن أعرض عن الهدى زل، فكلامهم كذب، وحياتهم لعب.

٩٢ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾

هذا القرآن الذي أوحيناه إلى محمد ﷺ مبارك في تلاوته وتدبره والعمل به؛ لأنه سبيل فلاح ويوصل إلى كل نجاح، وهو يصدِّق ما قبله من الكتب السماوية، والله أنزله على رسوله ليخوف ويحذر أهل مكة وما حولها من قرى العالم، ومن يُصَدِّق بيوم القيامة يُصَدِّق بأن القرآن حق من عند الله، وهؤلاء يحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها مثلما شرعها الله وبينها رسول الله ﷺ، فالكتاب مبارك، والرسول معصوم، والدعوة عالمية، والصلاة عمود الإسلام.

(٩٣) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ
فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ
الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

ليس في العالم أشد ظلمًا ممن ابتدع الكذب على الله - عز وجل - مثل من زعم أن الله لم يرسل رسولاً ولم ينزِّل كتابًا، أو زعم أن الله أوحى إليه وأرسله للناس، وهو مفتر فلا وحي عنده ولم يرسل برسالة، أو زعم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن المعجز الباهر المبارك، ولو أبصرت هؤلاء المكذِّبين المستكبرين على آياتنا وهم في سكرات الموت ووقت نزع الروح والملائكة القابضون لأرواحهم يمدون أيديهم نحوهم بالعذاب وشدة النزع ويقولون لهم: هاتوا أنفسكم الشريرة لتخرج من أجسادكم النجسة؛ لتذوقوا الإذلال والألم الموجع؛ جزاءً لافترائكم على الله ونسبة ما يحرم إليه، والسخرية من آياته وتكذيب رسله، وبسبب استكباركم عن الانقياد لشرع الله والاستسلام لدينه واتباع رسله.

(٩٤) ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ
فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

ولقد عدتم إلينا يوم العرض الأكبر فرادى بلا أولاد ولا أموال ولا مَناصب ولا مُناصر ولا جنود ولا خدم ولا حشم، فلا مالٌ ينفع، ولا ولد يدفع، ولا ولي يشفع، بل أتيتم عراة حفاة غرلاً كما خلقتم، وخلفتم ما أعطيناكم من متاع وقوة وجاه وسلطة، وما نرى معكم هذا اليوم آلهتكم المزعومة من الأصنام والأوثان ونحوها التي كنتم تزعمون أنها تجلب لكم النفع وتدفع عنكم الضر، وتشفع لكم عند الله، وأن لها الحق أن تُعبد مع الله، لقد انتهت العلاقة بينكم وبينها، وبطل اعتقادكم فيها أنها تنفع وتضر، وعدتم بالخسران وغضب الرحمن، فما أحد أخسر صفقة منكم، وما أشد حسرتكم، فاجتمع عليهم الندم وشدة الألم وزلة القدم.

(٩٥) ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

الله وحده المستحق للعبودية؛ لأنه يشق الحبَّ فينبت منه الزرع، ويشق النَّوى فيخرج منه الشجر، وهو وحده الذي يخرج الحي من الميت، كالطفل من النطفة، والفرخ من البيضة، ويخرج الميت من الحي كالنطفة من الرجل والمرأة، والبيضة من الطائر، والنواة من النخلة، والحب من الزرع وغير ذلك، فمن يفعل ذلك فهو أهل أن يُعبد وحده - سبحانه - ويُؤلَّه - تعالى - لا سواه؛ لأنه لا شريك له في الخلق، فيجب ألا يكون له شريك في العبودية، فالذي خلق وأوجد يجب أن يُعبد ويوحَّد، فكيف يَصْرِف المشركون العبادة لغيره، ويجعلون معه إلهًا آخر باطلاً وزورًا، وإثمًا وفجورًا.

(٩٦) ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

والله وحده شق الصباح من ظلام الليل فأخرج هذا البياض الوهاج من السواد الداج، وهيأ الليل لسكون كل متحرك، ففيه ينام الناس، وتراح فيه البهائم، وتأوي الطيور إلى وكناتها، والحشرات إلى مستقراتها، وسَيَّرَ الشمس والقمر بحساب لا يضطرب، وإتقان لا يختلف، بأوقات معلومة، وأزمنة محدودة، وبهما يُعرف حساب اليوم والشهر والسنة، ومقدر ذلك العزيز في ملكه، الذي قهر بسلطانه من غالبه، وتفرد بكماله عمن ساماه - جل في علاه - وهو عليم بتدبير الخليقة ومواقع النفع وأبواب المصالح، فبالعزة غلب بأمره فأمضاه، وبالعلم وضع القضاء موضعه الذي ارتضاه، فالعزة للتنفيذ، والعلم لحسن الاختيار.

(٩٧) ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

والله وحده - سبحانه - هو الذي خلق النجوم الباهرة علامات ظاهرة، وجعل هذه العلامات الساطعة دلائل قاطعة، بها يهتدي من ضل في القفار والبحار، ومن أخطأ الطريق في الأسفار، فالسائر في الصحراء يستدل بنجوم السماء،

والملاح في الماء يهتدي بنورها الوضاء، وقد بيّنا البراهين الكونية والشرعية ليتفكر فيها من عنده علم ينفعه ليدله هذا العلم على عبودية ربِّه؛ لأن العلم طريق لمعرفة الله.

٩٨ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾

والله وحده - سبحانه - الذي خلقكم - أيها البشر - من أبيكم آدم - عليه السلام - ثم جعل مستقركم أرحام النساء، ومستودعكم أصلاب الرجال، وقد أوضحنا لكم الأدلة والبراهين في الكون والحياة والإنسان لمن عنده فهم يوصله إلى الحق، وتدبر يدلّه على الرشاد، أما الغافل فلا ينفعه الدليل، ولا يهتدي للسبيل، ففقه الحجة يدل على أوضح محجة.

٩٩ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

والله وحده - سبحانه - الذي أنزل الغيث من الغمام، فأنبت به كل نبت أخضر، وأخرج به كل مزروع، ثم أخرج من الزرع حبًا مرصوصًا بعضه فوق بعض، فكل سنبلة منظومة بحبها في جمال بديع، وخلق متقن، وأخرج من طلع النخل عذوق الرطب الجميلة الدانية، لذيذة الطعم، بهية اللون، منظومة كاللؤلؤة شهية كالشهد، وأنبت بالماء بساتين العنب والزيتون والرمان ملتفة بألوان عجيبة، ومذاقات متنوعة، تدل على حكمة المبدع، وقدرة الصانع - جل في علاه - فألوانها متشابهة، وطعومها مختلفة، وقد تتفق في بعض الأشكال أو الطعوم أو اللون، وقد تختلف؛ حكمة من حكيم خبير، فتفكروا في ثمره إذا أثمر ونوّر وأزهر، من الذي خلق وصوّر؟ وتفكروا فيه إذا نضج واستوى كيف تغيّر طعمه ولونه ومذاقه، وأصبح مهيّأً للأكل، ففي هذا كله علامات على بديع صنع الخالق القدير، والحكيم الخبير، لكن لا ينتفع بهذه الدلالات إلا من آمن بالله وصدق برسالاته، واتَّبع شرعه، أما المعرض فقلبه منكوس، وفطرته خاوية، لا ينتفع بعبرة ولا يتعظ بآية.

١٠٠ ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

أما هؤلاء المشركون فقد اتخذوا مع الله شركاء من الجن، فعبدوهم وخافوهم ورجوهم من دون الله، والله وحده هو الذي خلقهم هم والجن، فحقه أن يُعبد وحده، كما أنه الخالق وحده، ولقد افترى هؤلاء المشركون على الله بنسبة البنين والبنات إليه - تعالى الله عن ذلك - وليس لهم علم بما ينبغي له - سبحانه - فهو ذو الجلال والإكرام الذي لم يلد ولم يولد؛ ولكنهم جهلوا حقه فافتروا عليه وقالوا ما لا ينبغي أن يُقال، فتنزه - سبحانه وتقدس جلَّ اسمه - عن وصفهم القبيح وفريتهم الشنعاء، فهو - سبحانه - لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، بل كان ولم يزل أحدًا فردًا صمدًا، فالله قد وصف نفسه ووصفه رسوله قبل وصف الواصفين، فـ «سبحانه» لنفي النقص و«تعالى» لإثبات الكمال.

١٠١ ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

والله وحده هو الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال بهذا الإتقان والجمال، فكيف يكون له ولد وليس بمحتاج إلى بر الولد وعونه، فهو غني عمن سواه، وسواه محتاج إلى كرمه وعطاياه، ثم إنه - سبحانه - لم يتخذ زوجة ليأتي منها الولد، فهو أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد؛ لأن من أنجبه والداه يكون قبلها عدمًا، والله أولٌ ليس قبله شيء، ومن له ولد فإنه يُوَرِّث، والله يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وهو - سبحانه - خلق كل موجود من العدم فلا يحتاج إلى ولد، فالخلق كلهم عبيده، لا يريد منهم نفعًا ولا يخشى منهم ضرًا، ثم إن علمه واسع شامل كامل محيط بكل شيء، علم به ما في الضمائر، واطلع على ما في السرائر، فبالخلق يصنع ويبدع، وبالعلم يُعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويحكم ويشرّع.

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾

ذلك الذي يوصف بهذه الأوصاف هو الله المستحق للألوهية وحده؛ لأنه ربكم الذي ربّاكم بنعمه وأفضاله، فلا معبود بحق سواه، ولا إله إلا هو، أوجد كل شيء من العدم، وصور فأحسن، وأبدع فأتقن، فاخضعوا لعظمته، وانقادوا لوحدانيته، وأفردوه بالعبادة، ووحدوه بالطاعة، وهو المتوكل بكل شيء خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وتصريفًا لم يوكل أمر عباده لغيره، بل تولى حفظهم ومراقبتهم ومحاسبتهم وكل شؤونهم.

(١٠٣) ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾

لا تحيط به الأبصار ولا تراه في الدنيا، بل تراه في الآخرة، وهو يحيط بالأبصار ويعلم الأسرار، ويطلع على كل ما خفي وظهر من الأخبار، وهو لطيف بأوليائه يوصل إليهم المحاب من حيث لا يحتسبون، ويوفقهم لمصالحهم من حيث لا يشعرون، تلطف بهم في حسن الاختيار، وجنبهم الأخطار، وهو خبير بما دقَّ من الأمر وغمض من الشيء، فهو المحيط بالحقائق العالم بالدقائق.

(١٠٤) ﴿ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾

قد جاءتكم – أيها الناس – براهين ساطعة وأدلة قاطعة، تميِّزون بها بين الحق والباطل، والرشاد والغي، من أدلة الكتاب والسنة، فمن عرف هذه الحجج وعمل بها، فقد نفع نفسه وأنقذها من العذاب، ومن أعرض عن هذه الأدلة، وغفل عن هذه البراهين فضرره على نفسه، فقد حرمها الثواب، وعرّضها للعقاب، وما أنا أي (محمد) بحفيظ أطلع على أحوالكم وأحاسبكم على أعمالكم، بل أنا مبلغ أدلكم على الهدى، وأحذركم من الردى، والجزاء على الله سريع الحساب.

(١٠٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

وكما بيّنا الأدلة الواضحة في مسائل الإيمان والرسالة واليوم الآخر نبيّن الأدلة في كل شأن يهم الإنسان، ليكون كل أمر في غاية البيان، ودعهم يقولون لك بعد هذا كذبًا منهم وزورًا: إنك تعلمت هذا من أهل الكتاب، ولكننا سوف نوضح الحق لمن يعلمه ويتفقه فيه ويفهم معانيه، ويقبله ويعمل به، وهم أتباع الرسل، وطلاب الحق، وعباد الرحمن، وحملة الميثاق، أما الجهلاء المعرضون فبهائم سائمة، لا تقوم لهم في سوق الحق قائمة.

(١٠٦) ﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

اتبع – أيها النبي الأمي – الكتاب الذي أنزلناه إليك، واعمل به واهتد بهداه، ممتثلاً بما أمر، منتهيًا عما نهى، فالمقصود بإنزاله العمل لا مجرد التلاوة؛ لأنه نزل لتزكية النفوس، وإصلاح الحياة، واعلم أنه لا يستحق العبادة إلا الله، فهو الذي لا إله إلا هو، فأخلص الطاعة له، وأفرده بالوحدانية، وما عليك ممن أشرك، فلا تهتم ولا تبال بإعراضهم، فالله كافيك، وهو حسبك وسوف ينصرك عليهم.

(١٠٧) ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾

ولو أراد الله ألا يشرك المشركون ما أشركوا به شيئًا، ولكنه كتب ذلك عليهم، وقدَّره لهم لما علم الله من قبح سرائرهم، وخبث نيّاتهم، فأوكلهم إلى أنفسهم وسوء اختيارهم، فهو – سبحانه – مقدّر هداية المهتدي وضلال الضال والقاضي بالخير والشر في العالم.

ولست عليهم – يا محمد – مراقبًا لأعمالهم تحصيها، ولست بقائم بمصالحهم تدبرها وتصرف أمورهم، بل أنت رسول مبلغ، ونبي مبشر ومنذر، أما محاسبتهم ومراقبتهم ومعاقبتهم فعلى الله وحده.

١٠٨ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۢ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

لا تسبوا – أيها المسلمون – آلهة المشركين فيكون ذلك سببًا لسب المشركين إلهكم – عز وجل– جهلاً منهم واعتداء وزورًا وبهتانًا؛ لأنهم لا يعلمون ما لله من عظمة وجلال وعلو وكمال، وما يجب له من توقير وتقدير ومحبة وخشية، وتنزيه وتقديس، فالأمر المباح إذا أوصل إلى محرم حُرِّم، والمشروع إذا أدى إلى مفسدة منع، فسد الذرائع الموصلة إلى المحرمات واجب، ومثلما حسّنا فعل هؤلاء المشركين في عيونهم حتى صار حسنًا لما اختاروا الضلال، حسّنا أفعال كل أمة، فالمهتدي حسن عنده عمله الصالح، والغاوي حسن لديه فعله القبيح، ثم يعود الجميع إلى عالم الغيب والشهادة فيجازي كلاً بما فعل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر؛ لأنه علم الأعمال وأحصاها، ولديه ثوابها وعقابها.

١٠٩ ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

وقد حلف المشركون بكل يمين: لو أتاهم محمد ﷺ بمعجزة خارقة ليصدقن بها وليتبعنّه عليها، فأخبرهم – يا محمد – أن هذا الأمر ليس إليك، وإنما هو إلى الله متى شاء أنزل الآيات، أنزلها بعلم وحكمة، أما أنت – يا محمد – فما عليك إلا تبليغ الدعوة، وهل عندكم يقين – أيها المسلمون – أن المشركين إذا جاءتهم هذه المعجزات سوف يصدقون بها؟ بل عرف من حالهم أنهم لو شاهدوا كل معجزة ما صدقوا بها؛ فقد طُبع على قلوبهم بالكفر، فعميت عن معرفة الدليل، فلا نفع لبرهان ولا أمل فيهم للإيمان.

١١٠ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

هؤلاء المشركون نحوّل قلوبهم وأبصارهم عن الإيمان بالآيات، والانتفاع بالعِظات؛ جزاء كفرهم بالرسالة أول مرة ما سلف من تكذيبهم بالوحي؛ فجزاء المعصية معصية أخرى، ومن زاغ أزاغ الله قلبه، وسوف نترك هؤلاء المشركين في ظلمات شكهم حائرين، وفي أهوائهم مضطربين، لا يوفقون إلى الرشاد، ولا يلهمون السداد، فهم في ظلام الأوهام، وفي شبه أو شباك الشك، لا نَقْل ينفعهم ولا عقل يزجرهم.

١١١ ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍۢ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

ولو أننا لبَّينا طلب هؤلاء المشركين وأجبنا سؤالهم فأنزلنا من السماء ملائكة عليهم يرونهم عيانًا بيانًا، وأحيينا لهم الموتى فكلموهم، وجمعنا ما سألوه من كل شيء أمام عيونهم ما صدقوك في دعوتك، ولا أجابوك في رسالتك، ولا اتبعوك إلا إذا أراد الله ذلك، وأكثرهم لا يعلمون الحق الذي بعثت به، بل يجهلون أنه من عند الله فهم يردونه بلا علم ويسمعونه بلا فهم.

١١٢ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍۢ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

ومثلما امتحنا سائر الأنبياء بأعداء من الكفار، امتحناك – يا محمد – بطائفة من الفجار، وهؤلاء الأعداء من أشرار الناس ومردة الجن يوصي بعضهم بعضًا بالباطل الذي حسّنوه، والرجس الذي زيّنوه؛ ليصدوهم عن الهدى؛ خديعة يخدعون بها من أنصت لهم، ويغرّون من استمع لباطلهم، ولو أراد الله أن يمنع وقوع هذا لمنعه، لكنها حكمة الابتلاء، ونفوذ القضاء، واستحقاق الغواية لأهل الشقاء، فاتركهم وما يخترعون من زور، ولا تهتم بهم وما اختلقوه من كذب؛ فالباطل على جرف هار ومصيره إلى النار، والحق في عزة من الجبار والعاقبة لأوليائه الأبرار.

١١٣ ﴿ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ﴾

وإذا قبل الكفار الباطل وآثروه على الحق فلتمل إليه قلوبهم؛ لأنهم لا يصدقون بلقاء الله ولا يعملون له، وليحبوا هذا الباطل وليتبعوه، فضرر ذلك عليهم، ومغبة عملهم السيئ واقعة بهم، والله غني عنهم وليس محتاجًا إليهم، وليفعلوا ما أرادوا من الفساد والإعراض عن الهدى والرشاد، فإن ربك لبالمرصاد.

١١٤ ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾

قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: هل أطلب حَكَمًا يفصل بيني وبينكم فيما اختلفنا فيه غير الله إلهي وإلهكم عالم الغيب والشهادة أحكم الحاكمين، الذي يحكم بالعدل ويقضي بالفصل؟! وكذلك النصارى واليهود الذين عندهم التوراة والإنجيل تشهد برسالتي وتقرر نبوتي، وأهل الكتاب يعلمون يقينًا أن القرآن من عند الله وليس من عندي، ثم أَمَرَهُ ربُّه أن يثبت على الحق ويستمر على اليقين، ولا يشك في الحق الذي معه والنور الذي أرسل به، فوثوق الداعية بصحة منهجه من أعظم عوامل ثباته وانتصاره.

١١٥ ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

وتم القرآن بآياته الصادقة في الأخبار، والأقوال العادلة في الأحكام، فلا يستطيع بشر أن يغيّر هذا الكلام المحكم، والقول الصادق، والله وسع سمعه كل مسموع، وأحاط علمه بكل معلوم، فالأقوال والأفعال والأحوال مسموعة معلومة لديه -عز وجل-.

١١٦ ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾

ولو حصل أنك أطَعْتَ الضُّلَّالَ من سكان الأرض لحرفوك عن دين الله وصراطه المستقيم، فأكثر الناس غاوون، وقليل منهم مهتد، والكثير ليس على بينة ولا يقين من أمره، إنما هو على وهم وظن، فخيالهم فاسد، وتصورهم كاذب، فلا يقين في المعتقد، ولا صدق في القول، ولا صلاح في الفعل.

١١٧ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾

وربك الذي تولى أمرك عالم بمن انحرف عن سبيل الهدى، وعالم بمن استقام على أمره واهتدى بهداه، فهو وحده الذي أضل من شاء، وهدى واطلع على أعمال الجميع.

١١٨ ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴾

فيا أيها المؤمنون: خالفوا المشركين، فلا تأكلوا من الذبائح إلا ما ذُبح لله وذُكر عليه اسم الله إن كنتم آمنتم بآيات الكتاب ونصوص السنة، وصدقتم الرسول ﷺ، فالتصديق يقتضي الامتثال بسداد الأقوال وصلاح الأعمال وأكل الحلال.

١١٩ ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾

ما يمنعكم من الأكل مما ذكر اسم الله عليه، والله قد بيّن لكم الحرام من الحلال؟! وقد أباح الله لكم ما حملتكم الضرورة على أكله كشدة الجوع؛ كأكل لحم الميتة بلا بغي ولا عدوان، وكثير من الناس منحرفون عن الجادة يسعون للفساد في الأرض وينشرون الضلال بين الناس، ويحلّون الحرام، ويحرّمون الحلال؛ جهلاً منهم، والله يعلم الفجرة الذين يتجاوزون حدود الله، وسوف يحصي ما فعلوه ويعاقبهم على ما ارتكبوه، وفي الآية أن الهوى أعظم عدو للهدى.

١٢٠ ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾

واهجروا المعاصي جهرًا وسرًا، فالله لا تخفى عليه خافية، فكل ما حرم الله فاتركوه خفي أم ظهر، والذين يعملون السيئات ويرتكبون المحرمات سينالون جزاءهم على ما فعلوه، وفي الآية وجوب المراقبة الدائمة وشؤم المعصية والحذر من عواقبها.

١٢١ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ
لَمُشْرِكُونَ ﴾

ولا تأكلوا ما ذُبح على غير اسم الله كالذبح للصنم وللكاهن والعراف ونحوها، وأكل هذه الذبائح تجاوز لحدود الله، وتعدٍّ وتحدٍّ لشرعه، وعصاة الجن يأمرون أولياءهم من أشرار الإنس بإلقاء الحجج الواهيات، وانتحال الكذب والشبه، مثل كيف تأكلون ما ذبحتم أنتم ولا تأكلون ما ذبح الله -يقصدون الميتة-؛ وإذا اتبعتم ضلالهم في تحليل ما حرم الله فقد اشتركتم في الشرك.

١٢٢ ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

أو ليس الذي كان ميتًا في الكفر، هالكًا في الضلالة، حائرًا في الظلمات فأحييناه بالإيمان، وهديناه بالقرآن، ووفقناه لاتباع الرسول ﷺ، فسلك طريق الهدى واجتنب طريق الردى، وعَمَّرَ قلبه باليقين، وزكَّى نفسه بالتقوى، هل هذا الصالح المصلح مثله كمثل من بغى في ظلمات الضلالة، وفي شبهات الجهالة، لا نورٌ يهديه، ولا وحيٌ يحييه، ولا إمامٌ يدله، فهو في ليل دامس من الكفر والفجور، هل يستوي هذا وهذا؟ والجواب معروف: لا يستويان، وكما أضللنا هذا الكافر وخذّلنا هذا الفاجر بتحسين عمل السوء له لمَّا اختار الضلال، كذلك حسّنا للمشركين أعمالهم القبيحة وأفعالهم السيئة، فَصَارُوا يرونها جميلة لتحق عليهم كلمة العذاب وسنة العقاب.

١٢٣ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

أسوة بما حصل لرؤساء الشرك بمكة من محاربة الرسالة والإعراض عن الحق جعلنا في كل قرية كافرة رؤساء يتزعمون قومهم بالضلال، ويمكرون بالرسل ويسخرون من المؤمنين، ثم تكون الدائرة عليهم والعاقبة لأولياء الله، وما شعر هؤلاء المجرمون أن العاقبة للمتقين، وهي سنة ماضية وحكمة نافذة.

١٢٤ ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾

وإذا أتى كفارَ قريشٍ دليلٌ ظاهرٌ يدل على رسالة الرسول ﷺ قال زعماؤهم: لا نصدق بهذا الدليل حتى يعطينا من المعجزات مثلما أتى به الرسل السابقون؛ لنكون كالأنبياء، فقال الله لهم: الله أعلم بمن يستحق هذا التكريم، ويستأهل هذا الشرف من الناس، فلا ينال الرسالة إلا من اصطفاه الله بعد أن علم أهليته لذلك، أما أنتم أيها المجرمون فويل لكم من ذلّ ينتظركم، وهوان يحل بكم، وعذاب موجع أليم، ونكال مقيم؛ جزاء أفعالكم الشنيعة، ومكركم الدنيء، ومحاربتكم لله ولرسوله ﷺ.

١٢٥ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

من يشأ الله هدايته لدينه ييسره له، ويسهله عليه، ويوسع صدره لقبوله والفرح به، ومن يشأ أن يضله يضيق صدره أشد الضيق؛ فيبغض الهدى، وينفر من الدين. ويكره الرسالة المحمدية، فكأنه يعلو في طبقات الجو من ضيق نفسه

وقلة الهواء حتى يكاد يصاب باختناق شديد، وهذا مثل صدر الكافر والمنافق.. غم وهم وكدر وضيق، وكما عذبهم الله بضيق الصدر وشتات الأمر يحل بهم عذابه الشديد؛ لأنهم ما آمنوا به وما صدقوا برسالته؛ ولذلك من أراد السعادة فعليه بالإيمان؛ ففيه قرة العين وراحة البال واستقرار النفس.

(١٢٦) ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾

وهذا الدين الذي أنزلناه، والشرع الذي أوحيناه، هو الطريق الأسلم، والمنهج الأحكم، فلا اضطراب فيه ولا عوج، وقد أوضحنا علاماته وبيّنا آياته لمن أحب أن يعتبر بحكمه وينتفع بعظاته ويستضيء بنوره من أهل العقول السليمة والفطر القويمة.

(١٢٧) ﴿ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

للمؤمنين المهتدين جنات النعيم في الآخرة وهي دار السلامة من الآفات والأمن من المنغصات، فلا سقم ولا هرم ولا عدم؛ لأنه ليس بها ضراء ولا بأساء ولا فناء، بل صحة وشباب، وغنى وخلود، والله يتولى أمورهم بالحفظ والرعاية والنصرة، والولاية والرزق والكفاية؛ لأنهم أحسنوا العمل، وأخلصوا النيات، واتبعوا الوحي وهجروا الكفر.

(١٢٨) ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾

واذكر يوم يجمع الله الإنس والجن ليوم لا ريب فيه، ويقول للجن: قد أضللتم كثيرًا من الإنس، فرد أولياء مردة الجن من كفار الإنس: يا ربنا قد انتفع بعضنا ببعض في الحياة الدنيا وانتهت أعمارنا التي سميتها؛ لأن لها أجلا معلوما، فأخبرهم – سبحانه – أن مكان إقامتهم الدائمة في النار خالدين مخلدين إلا عصاة الموحدين، فلهم وقت محدود ثم يخرجون؛ لأن الله حكيم في قضائه وقسمته واختياره، يرحم وهو متفضلٌ، ويعذب وهو عادل، عليم بمن يستحق الهدى والضلال، ومن يستأهل الثواب والعقاب، فبحكمته أحسن مواقع قدره، وبعلمه اختار مواضع رحمته وعذابه.

(١٢٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

وكما ولّينا مردة الجن على فسّاق الإنس نولّي ظلمة الإنس بعضهم على بعض لفجورهم، فيُؤدَّب الظالم بأظلم منه؛ ليعذب العصاة بسوط الطغاة، فمن أراد السلامة من بطش الظالمين فليتقِ رب العالمين، فما وقع استبداد إلا بفساد.

(١٣٠) ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

يا معاشر الجن والإنس: ألم نقم عليكم الحجة ونقطع عنكم العذر بإرسال رسلنا إليكم يبيّنون لكم آيات الكتاب وأحكام كل شيء ويخوفونكم عذابي يوم لقائي؟ فقال مشركوهم: نشهد أن الرسل بلغونا وحذّرونا، ولكن خدعتنا الدنيا بزخرفها، وغرتنا بغرورها، وألهتنا بفتنتها، واعترفوا بأنهم أشركوا بربهم وكذبوا رسله.

(١٣١) ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

وإنما أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب لئلا يكون لمكذّبٍ حُجَّة، ولا يكون لكافر عذر، فلا يعذب الله ظالمًا حتى يبلغه النصيحة، ولا يهلك قرية حتى ينذر أهلها العذاب، ومن سنة الله أنه لا يعاقب غافلاً لم تبلغه الرسالة حتى يصله البلاغ وتبلغه الحجة، فالجاهل معذور، والظالم مدحور، والغافل مغرور.

(١٣٢) ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾

لكل عامل من المؤمنين والكافرين منازل يصل إليها سعيهم في الدنيا، يثابون عليها ويعاقبون، وكل ذلك بحساب دقيق من الله لا ظلم ولا هضم، فالمؤمنون درجات في النعيم، والكافرون دركات في الجحيم، فالتفاضل في الثواب والعقاب عدل.

١٣٣ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾

والله ذو الغنى الواسع والخير العميم ليس بحاجة إلى عباده، وهو رحيم، ومن رحمته إمهال من عصاه، ولو أراد لعجّل له العقوبة واستبدل به غيره ممن يعبده ولا يشرك به شيئًا، ولكن حلمه عظيم، فمثلما أوجدكم من أصلاب آبائكم يوجد جيلاً بعدكم من أصلابكم، وغناه - سبحانه - عمن أدبر ورحمته لمن أقبل.

١٣٤ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

ما وعدكم ربكم به -أيها الكافرون- واقع لا محالة، آت لا ريب، ولن تفوتوا ربكم فجمعكم عنده يسير، وبعثكم لديه سهل، فلا مَنْجى ولا ملتجى منه إلا إليه، يَرُد كل هارب، ويدرك كل طالب، ويغلب كل غالب.

١٣٥ ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

اعملوا - أيها الكفار - على منهجكم الفاسد وأنا أعمل على منهجي الصحيح، فسوف ينكشف لكم الأمر إذا وقع العقاب من تكون له العزة والنصرة والثواب إذا بانت الحقيقة، فإن من سنة الله أن لا يفوز أعداء الله ولا ينتصرون؛ لأنهم حاربوه وكذبوا رسله وتعدّوا حدوده وتجاوزوا شرعه.

١٣٦ ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

وَهَبَ المشركون لله -عز وجل- جزءًا مما خلق - سبحانه - فأخذوا بعض الثمار والزروع والأنعام للمساكين والفقراء، وهذه سموها لله، وبعضها الآخر جعلوه للأصنام والأوثان كذبًا منهم وزورًا وعدوانًا، فحصة آلهتهم الباطلة لا تصل إلى الله، ولن يقبلها؛ لأنها شرك، والحصة التي عينوها لله واصلة إلى شركائهم لا إلى الله؛ لأنها شرك، فصار عملهم كله وهباتهم شرك مردود عليهم لا يقبل الله منه شيئًا، وربما أخذوا مما جعلوه للمساكين فأهدوه إلى الأصنام، لكنهم لا يأخذون نصيب الأصنام للمساكين، فقبحًا لهم على هذه القسمة الظالمة، وسحقًا لهم على هذه الحكومة الجائرة.

١٣٧ ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

ومثلما حسّنت الشياطين للمشركين جعل نصيب لله ونصيب للأصنام من الرزق حسّنت لهم - أيضًا - قتل الأبناء خشية البأساء؛ كذبًا وافتراءً؛ ليهلكوا الآباء بقتل النفس المحرمة وسفك الدم المعصوم، وليخلطوا عليهم الأحكام، فلا يميّزون بين الحلال والحرام، ولو أراد الله ألا يقع ذلك ما وقع، لكنه حكيم فيما قدَّر، بصير فيما يسر؛ لأسرار قد لا تظهر، فاتركهم وباطلهم وما اختلقوه من كذب، وفعلوه من زور؛ فغدًا الموعد، وسوف يجمعهم لذاك المشهد.

١٣٨ ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

وافترى المشركون على الله فجعلوا إبلاً وزرعًا محرمةً على الناس لا يأكلها إلا من أباحوا له الأكل من خدمة الأوثان وسدنة الأصنام، وحرّموا ركوب بعض الإبل ونسبوا التحريم إلى الله كذبًا منهم، ومنعوا ذكر الله على بعض الإبل في ركوبها وذبحها وحلبها وادّعوا أن الله أمر بذلك، فحسابهم على الله بسبب كذبهم هذا؛ ليوفيهم سوء صنيعهم وبهتانهم الآثم، فالأنعام والزروع رزق من الله يجب أن تكون باسم الله لا يصرف منها شيء لغير الله.

(١٣٩) ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾

وادعى المشركون أن ما حملته الأنعام من الأجنة في بطونها حلال للرجال حرام على النساء إذا جاء حيًا، وإذا أتى ميتًا فهو للرجال والنساء، كذبًا وتحكّمًا ممقوتًا سوف ينكّل الله بهم بسبب هذا الافتراء والزور، فالأحكام إنما تؤخذ من شرع الله؛ لأن الله حكيم فيما شرع، صَدَرَ حُكْمه عن علم، وأمره عن قدرة، وتدبيره عن إتقان.

(١٤٠) ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾

هلك من قتل ولده لجهله وحمقه وعدم اهتدائه بشرع ربه، وهلك من حرم ما أحل الله ونسب هذا التحريم إلى الله، فالله وحده المشرع على لسان رسله وفي كتابه، أما الإنسان فأضل وأذل وأقل من أن يحلل ويحرم ويشرّع (إن الحكم إلا لله) ومن فعل هذه الأفاعيل فقد ركب مركب الغواية، وأخطأ طريق الهداية؛ لأنه صرف حق الخالق للمخلوق، وهذا فسوق وعقوق.

(١٤١) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾

والله وحده هو الذي خلق الحدائق الغناء، والبساتين الخضر من الشجر المختلف، منه ما هو قائم على وجه الأرض يرفع إلى السماء؛ كالنخل والزرع والزيتون والرمان، ومنه ما هو غير مرفوع، وهو يتشابه في المنظر ويختلف في الطعم، كلوا شاكرين لله من ثماره بعد نضجه، وأدّوا الزكاة منه والصدقة يوم تقطفونه طهرةً ونماءً ومواساةً، ولا تتعدّوا الحد المشروع في الإنفاق أو الإمساك، فلا تقتير ولا تبذير، فالله لا يحب البخيل ولا المبذر، ولكن يحب السخي الجواد المخلص.

(١٤٢) ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

والله خلق لكم ما يحملكم لضخامة جسمه وقوته وارتفاعه كالإبل، وخلق لكم ما فيه منافع غير الركوب كالبقر والغنم، كلوا من الحلال الطيب، ولا تطيعوا الشيطان وأولياءه في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ لأن الشيطان ظاهر بعداوته لكم، يصدكم عن طاعة الله ويدعوكم إلى معصيته من عبادة الأصنام وارتكاب الآثام وأكل الحرام.

(١٤٣) ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

الأنعام التي خلقها الله للناس ثمانية أنواع: من الإبل والبقر والضأن والمعز ذكورًا وإناثًا، فاسأل المشركين، هل الله حرّم الذكرين من الغنم؟ فإن قالوا بالتحريم فقد كَذَبوا؛ لأنهم لا يحرمون ذكران المعز والضأن، واسألهم هل حرّم الله ما حملت به أنثى الضأن والمعز؟ فإن قالوا بالتحريم فقد كَذَبوا؛ لأنهم لا يحرِّمون كل ما حملت به أنثى الغنم، فأخبروني ما دليلكم فيما ذهبتم إليه إن كنتم على يقين من صحة قولكم في تحريم هذه الأنواع، بل هو التخرص والكذب والافتراء على الله؛ لأن المشرك ضال في معتقده وخلقه وطعامه وكل مناحي حياته.

(١٤٤) ﴿ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أربعة أصناف أباحها الله لعباده، اثنان من الإبل واثنان من البقر ذكورًا وإناثًا، فاسأل المشركين هل حرّم الله الذكرين أم الأنثيين؟ أم حرّم الله ما حملت به الأنثيان؟ والجواب: إن هذا كذب منهم وافتراء على الله، فهل حضروا هذا الأمر يوم نهاهم الله عن ذلك؟ أم هل عندهم بيّنة؟ فلا أعظم من إثم من فعل هذا الفعل وافترى على الله ليصرف العباد عن طاعة الله إلى معصيته، والله لا يوفق من خالف الهدى وجانب الحق وأضل الناس، فشرع غير شرع الله باطل، ونسبة هذا الشرع إلى الله أعظم إثمًا وجرمًا.

(١٤٥) ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

أخبرهم - يا محمد -: أنك لا تجد في الوحي المنَـزَّل عليك شيئًا مما حرّمه هؤلاء المشركون الجهلاء غير الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، فإنه قذر، وما كانت ذكاته لغير الله، حيث ذكر عند ذبحه اسم غير اسمه - سبحانه - لأنه خروج عن طاعته لكن من ألجأته الضرورة بجوع شديد إلى الأكل من هذه المحرمات فله ذلك لا للذّة ولا زيادة عما يسد الرمق، فالله غفور لزلات عباده إذا عادوا إليه، رحيم بهم، قد استثنى لهم الأكل عند الضرورة كرمًا منه ولطفًا، ولم يكلفهم شططًا، ولم يحمِّلهم ما لا طاقة لهم به، فهذا شرع الرحمن في المأكول من الأنعام لا شرع عبدة الأصنام مرتكبي الآثام.

(١٤٦) ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

وقد حرمنا على اليهود ذوات المخالب والأظفار من الطير والبهائم تشديدًا، وحرّمنا عليهم شحوم البقر والغنم إلا ما لصق بظهر الذبيحة أو بأمعائها أو بعظامها، وهذا عقوبة من الله لهم لفسقهم وفجورهم وتعديهم حدود الله، وهذا خبر صادق من الله بما حصل من التحريم على اليهود، فانظر لطف الله بأمة محمد ﷺ يُسْرٌ في الأحكام، وتوسعة في الحلال من الطعام، وسماحة يسعد بها الأنام.

(١٤٧) ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

فإن كذبك الكفار - أيها الرسول - فأخبرهم أن الله ذو رحمة واسعة لمن آمن به واتبع رسوله، ومن رحمته إمهال أعدائه وعدم الاستعجال على المذنب حتى يتوب، وهو ذو عقاب عظيم وعذاب أليم لمن عصى ربه وحارب رسوله وكذب بكتابه، فالواجب الرجاء في كرم الله وثوابه، والخوف من غضبه وعذابه.

(١٤٨) ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾

سوف يحاجكم المشركون ويقولون: لو أراد الله أن لا يشركوا ما أشركوا، ولكن الله كتب عليهم ذلك احتجاجًا بالقدر؛ فهم - في زعمهم - محكوم عليهم ألا يؤمنوا هم ولا آباؤهم، وكذلك لو أراد الله أن يمنعهم من تحريم ما حرموا من الحرث والأنعام لحصل المنع لكنه شاء لهم هذا الحلال، فأخبرهم أن هذه الشبهة قديمة قد جادل بها الكفار من قبل، فهل كان عندكم علم من الله ودليل على ما فعلتم من أنَّه أذن لكم بذلك، أم هل عندكم علم ثابت بأن الله قدر لكم ما قلتم من الشرك وتحريم ما أحل لكم؟ فأين الدليل على ذلك؟ ليس عندكم إلا شبهات وظنون فاسدة وكذب واضح وافتراء فاضح، فلا دعوى إلا بحجة، ولا تحريم إلا بدليل، ولا علم إلا بيقين.

(١٤٩) ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

فالحجة القاطعة لله عليكم أيها المشركون، والحق الساطع فيما حكم الله به وليس في حكمكم أنتم من عبادة الأوثان وتحريم الحلال وتحليل الحرام، فالحجة له عليكم وليس لكم عليه - سبحانه - ولو أراد لهداكم للصراط المستقيم، ولكنه ذو حكمة بالغة، وقدر محكم، وقضاء صائب.

(١٥٠) ﴿ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾

قل لهؤلاء المشركين الجهلاء: هاتوا شهداءكم الذين يصدقونكم على باطلكم من أن الله حرّم عليكم ما حرمتم على أنفسكم من الحرث والأنعام، فإن شهدوا لهم زورًا فلا تصدقهم فهم آثمون، ولا توافقهم فهم ظالمون، ولا تتبع سبيل من اتبع الهوى فأنت على الهدى؛ لأنهم كذبوا بالآيات وجحدوا الرسالات وارتكبوا المحرمات، وهم كذبوا باليوم الآخر، مع شركهم بالله وعبادة آلهة أخرى مفضلين إياها على الله، فويل لهم من عذاب شديد.

(١٥١) ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ
نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ
ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

قل للناس: تعالوا أبين لكم ما حرّمه الله عليكم بالدليل لا ما حرمتموه بالجهل والتضليل، فالله حرّم الشرك به - سبحانه - وهو أعظم الذنوب، وأوجب الإحسان إلى الوالدين فحقهما مقرون بحقه تعالى، وحرّم عليكم قتل الأولاد من أجل فَقْرٍ حل بكم، فالرازق الله لكم ولهم وأنتم لا ترزقونهم، واجتنبوا كبائر الذنوب ظاهرها وخافيها، وإياكم وقتل النفس المعصومة إلا بما شرعه - سبحانه - من قتل مرتد أو ثيّب زان أو النفس بالنفس.. وهذا مما أوجبه الله عليكم وألزمكم إياه، فعسى أن تعقلوا الخطاب، وتفقهوا الأمر والنهي لتتقوا الله على بصيرة، فهذا شرع الرحمن لا زور الأوثان.

(١٥٢) ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ
وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾

ولا تأكلوا -أيها الأوصياء- من مال اليتامى إلا إذا كان في ذلك مصلحة لليتيم من تنمية ماله وإصلاح حاله، فيكون ذلك بالمعروف بلا إفساد، حتى إذا بلغ سن البلوغ وظهر حسن تصرفه فادفعوا إليه ماله، وعليكم بالوفاء إذا كِلْتم أو وزنتم، فلا تبخسوا المكيال والميزان، فإنه تطفيف محرّم، وإذا حرصتم على حسن الكيل والوزن فحصل نقص غير متعمد فهذا معفو عنه؛ لأنه فوق الطاقة، واتقوا الله في أقوالكم بحيث تكون عادلة لا جور فيها ولا كذب ولا إثم، سواء في الخبر أو الحكم أو الشهادة أو الرواية أو الشفاعة، ولو كان الحكم والشهادة ضد أحد القرابة فلا محاباة في الحق، وأوفوا بالعهود أو العقود التي بينكم وبين الله، وبينكم وبين الناس، فلا نقض لعهد ولا نكث لعقد؛ وهذه كلها وصايا نافعة من الله أوحاها إلى رسوله؛ لتكون شريعة محكمة، وعسى أن تتعظوا بهذه النصائح وتتدبروا عواقب الأمور ليصلح حالكم وتحسن أعمالكم وتستقيم أقوالكم.

(١٥٣) ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

ومن الوصايا سلوك الصراط المستقيم، الذي هو دين الله القويم، فالزموه ففيه النجاة والفلاح؛ لأنه صراط بيّنه الله ودلّ عليه الرسول ﷺ مقصده الحق وسائقه الصدق وحاديه الإيمان، واحذروا أن تسلكوا سبلاً غيره فتهلكوا في

ظلماتها وتضلّوا في فلواتها، فلا تنصتوا لدعاتها، وهذه النصائح مما أوجبه الله عليكم وألزمكم القيام بها، فهي شرع منزل وفرقان مفصّل، ففعل هذه الوصايا يحملكم على فعل الأوامر واجتناب النواهي .

(١٥٤) ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

والله هو الذي أعطى موسى التوراة تمامًا لنعمته على المحسنين من أمته، إكرامًا لمن استجاب من أهل ملته، فيها بيان أحكام دينهم وإرشاد لهم لما فيه سعادتهم، وسبب لنيل رضوان الله لمن عمل بها، فتغفر ذنوبه وتضاعف حسناته، وهو الهدى والبيان يحملهم على الإيمان بلقاء الملك الديان والتصديق بيوم الوعيد والاستعداد له، فمن علم أنه ملاق ربه جد واجتهد وراقب الواحد الأحد.

(١٥٥) ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم أنزلناه على النبي الكريم، مبارك لمن تلاه وحفظه ووعاه، وعمل به واقتفاه، فامتثلوا ما فيه من العظات، واعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه؛ لتظفروا بالفوز الأكبر، والفلاح الأعظم، والنعيم المقيم بجوار الرحمن الرحيم، فالسعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة رهن باتباع القرآن والسنة.

(١٥٦) ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾

وأنزلنا إليكم هذا القرآن العظيم لئلا تقولوا: إن التوراة نزلت على اليهود والإنجيل نزل على النصارى، ونحن ليس عندنا كتاب، فلم تقم علينا الحجة ونحن لم نَطَّلِعَ على كتبهم حتى نعلم الحق من الباطل، فالآن نزل القرآن، وظهر الحق وبان، وبطل الزور والبهتان.

(١٥٧) ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾

ولأجل ألا تحتجوا بعدم نزول كتاب إليكم وتقولوا: لو أُنْزل علينا كتاب مثل اليهود والنصارى لكنا أرشد منهم وأتقى لله فها هو الكتاب أُنزل، والنبي أُرسل، والحق فُصّل، وها هو الهدى قد ظهر، والدليل قد اشتهر، مع رحمة موعودة لمن استجاب، ولطف كريم لمن أناب، فأظلم الناس من كَذَّب بالحجج التي بعث الله بها رسوله ﷺ؛ لأنه كتم الشهادة، ورد الحق وكذب بالصدق، وكذلك من أعرض عن الهدى استكبارًا وعنادًا فهؤلاء لهم أفظع عقاب، وأشد عذاب؛ لتنكرهم للحق ومجانبتهم للرسالة وإعراضهم عن الوحي، فقبحًا لكل معرض وتبًا لكل مكذب.

(١٥٨) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

ماذا ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون إلا أن تقبض الملائكة أرواحهم، أو يجيء الله يوم القيامة مجيئًا يليق بجلاله لفصل القضاء، أو تأتي بعض علامات الساعة كطلوع الشمس من المغرب، فإذا حصل ذلك لا ينفع الإيمان حينئذ لمن لم يؤمن قبل، ولا يُقبل من النفس المؤمنة عملٌ صالح إذا لم تكن عملت به من قبل، فانتظروا ونحن سننتظر ليظهر الصادق من الكاذب، والمحِقُّ من المبطل، فسوف يبين لكم صدق رسالتي، وصحة دعوتي، ويكشف لكم زوركم وعملكم القبيح، فإذا قامت الساعة أُكْرم أهل الطاعة، وخاب أهل البهتان والشناعة، فأنتم تنتظرون العذاب، ونحن ننتظر الثواب.

(١٥٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

إن الذين اختلفوا في دينهم بعد الاجتماع على التوحيد وصاروا فرقًا مختلفة وأحزابًا متناحرة إنك بريء منهم ومن فعلهم، فأنت على بينة من ربك وصراط مستقيم، أما هم فمردهم إلى الله ليخبرهم بسوء الأعمال، ثم ينكل بهم أقبح نكال، أما أهل التوحيد والاجتماع على الحق فلهم مقعد الصدق، مع اللطف والرفق، والرفعة والسبق.

١٦٠ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

من أتى يوم القيامة بعمل صالح فله على الحسنة عشر أمثالها كرمًا من الله وتفضلاً، ومن أتى بسيئة عُوقب بمثلها بلا زيادة، إلا أن يعفو الله حلمًا وصفحًا، لا ظلم بزيادة سيئات لم تعمل، ولا هضم بنقص حسنات، بل عدل وفضل.

١٦١ ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

قل أيها النبي: إن الله وفقني لدين قويم وصراط مستقيم، هو دين إبراهيم الحنيف الموحد المسلم البريء من الشرك، فأنا على هذا المنهج استقامة بلا اعوجاج، ووحدانية بلا شرك، وسماحة بلا عسر.

١٦٢ ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قل –يا محمد–: إن صلاتي وطاعاتي وذبحي وقُرُباتي وسائر عباداتي وما أقدمه في حياتي، وما ألقى به ربي بعد مماتي كل ذلك أفعله مخلصًا لربِّي لا رياء فيه ولا سمعة، ولا شرك ولا شك، فالحياة كلها لله، والآخرة جميعها لله؛ لأنه الذي ربى الخلق بالرزق، فحقه أن يُعبد ويُوحد.

١٦٣ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

ولن أشرك بربي شيئًا في أي عمل من الأعمال، وقد أمرني ربي بإخلاص التوحيد والعبادة له فامتثلت أمره، وأنا أول من سمع وأطاع من أمتي، فأنا إمامهم وأولهم في الطاعة.

١٦٤ ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

قل – أيها النبي للمشركين –: أتريدون أن أعبد ربًا غير الله الذي خلق الكون ودبَّره ورزق الخليقة؟ فهو المستحق للعبادة وحده، وكل نفس عملت سوءًا فعقابها عليها وحدها، ولا تحمل نفس بريئة ذنب نفس آثمة، فلن يُحاسب أحدٌ بذنب سواه، ومرد الجميع للحساب إلى الله، فيخبركم بأفعالكم ويجازيكم على أعمالكم، فهو العالم بأحوالكم.

١٦٥ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾

الله وحده الذي جعل بعضكم يخلف بعضًا في الأرض للعمار والنماء، وجعل بعضكم أرفع من بعض في مراتب العلم والمال والجاه والقوة ونحوها، ليمتحنكم بما وهبكم، ويعلم الشاكر من الجاحد، والله سريع العقاب لمن عصاه، غفور لمن اتقاه، رحيم بمن التجأ إليه ودعاه، فالمعرض مدحور، والتائب ذنبه مغفور، والصالح عمله مشكور، فالطائع ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء.

مكية

ترتيبها ٧

سورة الأعراف

آياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓصٓ﴾

الله أعلم بمراده من هذه الحروف، مع الاعتقاد أنها لمعان جليلة ومقاصد جميلة.

(٢) ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا القرآن الكريم كتاب منزّل عليك من الله فلا تجد في صدرك ضيقًا من إبلاغه للناس، حتى ولو أُوذِيت وكُذِّبت، فالله يحفظك، وهذا الكتاب تخوّف به العاصين، وتبشر به الطائعين، وتذكر به المؤمنين؛ فوعيده لمن عصى، ووعده لمن اتقى، فالداعية لا يرده الأذى عن تبليغ الهدى.

(٣) ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

اتبعوا أيها المؤمنون ما أنزله الله إليكم من كتاب فيه النجاة والنجاح في الدنيا والآخرة، واتبعوا السنة النبوية المطهرة، فهي وحي من الله إلى رسوله ﷺ، واحذروا أن تتبعوا غير القرآن أنصارًا تتخذونهم من الطواغيت والشياطين وأعوانهم، فأنتم لا تتذكرون هذا الوحي إلا قليلاً، والغالب عليكم الغفلة والنسيان، والواجب دوام التذكر والاعتبار، وهو مذهب الأبرار.

(٤) ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾

ما أكثر القرى التي أهلكناها لما أعرضت عن الإيمان، فلما أردنا بها الهلاك أخذناها ليلاً وأهلها غارقون في نومهم، أو مستريحون في نصف النهار على حين غفلة وغرة، وجاءهم العذاب بغتة وفجأة بلا أهبة منهم ولا توبة ولا حسبان.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

لم يكن لهم حيلة بعد أن وقع بهم العذاب إلا أن استغاثوا وقالوا: نعترف أننا أشركنا بالله وكذبنا رسله فهذا جزاؤنا، ووالله إن هذه زيادة في الحسرة والندامة والأسف في وقت لا ينفع فيه شيء من دون الله.

(٦) ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

فوالله لنسألن الأمم يوم القيامة ماذا كان جوابهم للرسل، ووالله لنسألن الرسل عما أجابهم أقوامهم، وهل بلغوهم الرسالة؟ والله يعلم ذلك، ولكن ليقرر كلاً بعمله؛ ويالهول هذا المشهد وفظاعة المقام.

(٧) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

فوالله لنخبرن الرسل بما أُجِيبوا وأقوامهم ماذا أجابوهم؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية، فما غاب علمه عن أحد، بل له العلم الشامل المطلع الذي علم به السر وأخفى.

(٨) ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وسوف توزن أعمال الناس حسناتهم وسيئاتهم بالعدل بلا ظلم ولا هضم، فمن رجحت حسناته على سيئاته فقد أفلح وفاز، وفوق الصراط اجتاز، فالتفضيل بالأعمال الصالحة هو أعظم الزاد.

٩ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

ومن خفت كفَّة ميزانه من الحسنات ورجحت بها السيئات فهم الذين خابوا في سعيهم، وضل عملهم، ومصيرهم إلى النار بسبب ظلمهم أنفسهم بالشرك، أو بكثرة المعاصي إن كانوا موحدين.

١٠ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

أيها الناس، وطَّأنا لكم الأرض فراشًا، وهيَّأنا لكم فيها الطعام الهنيء و الشراب المريء والمركب الوطيء والمنظر البهي، مع صحة البدن واستقرار في وطن وأمن وسكن، لكن شكركم قليل، وأكثركم يجحد نعمة الجليل.

١١ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

ولقد خلقنا أباكم آدم من طين، ثم صورناه بشرًا، ثم أمرنا الملائكة بالسجود له لفضله بالعلم، فسجدوا طاعةً لله وتكريمًا لآدم لا سجود عبادة، لكن إبليس أبى أن يسجد لما في نفسه من الكِبْر؛ فطُرِد من الرحمة.

١٢ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾

قال الله لإبليس اللعين: ما الذي حملك على ترك السجود لآدم وأنا قد أمرتك وطاعة الله واجبة، فقال الطريد اللعين، أنا أفضل من آدم، وأصْلي خير من أصله؛ لأن عنصر النار أشرف من عنصر الطين.

١٣ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾

قال الله له: انزل من الجنة ذليلاً مهانًا واخرج منها فلا يجوز لك أن تتكبر في دار كرامتي وتأبى طاعتي، فما يستحق التكريم إلا من قابل الأمر بالتسليم.

١٤ ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

قال إبليس: أمهلني يا ربي ولا تقبض روحي ليوم البعث من القبور، وطلبه للبقاء زيادة في الشقاء؛ ليزداد إثمًا ويتكثر جُرمًا.

١٥ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾

فقال له الله: قد أمهلتك، لتتم فيه سنة الابتلاء، وليقوم الصراع بين الخير والشر والحق والباطل.

١٦ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

قال إبليس: فبما أنك أغويتني، فأقسم لأعترضن لهم في كل طريق موصلة إليك، فأغوينهم عن الهداية وأدلهم على الغواية.

١٧ ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾

وقسمًا لأدخلن على العباد من كل جهة من جهاتهم الأربع، ومن مُرَاداتهم من شبهات وشهوات وغضب وغفلة ونحوها؛ ولأمنعن أكثرهم عن شكرك، وأحملنهم على الكفر بك وجحد نعمك.

١٨ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فقال الله لإبليس: اخرج من الجنة مذمومًا مطرودًا ذليلاً حقيرًا، وأقسم أن من أطاعك وعصاني لأحرمنّه رضواني، ولأصلينه نيراني، ولأذيقنّه هواني.

١٩ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وقلنا لآدم بعد إخراج إبليس: ابق أنت في الجنة وزوجك حواء منعمين بأنواع المطاعم وأصناف الشراب، في قرة عين وبهجة قلب، وإياكما من أن تأكلا من هذه الشجرة في الجنة، فهي محرمة عليكما، فإن أكلتما منها فقد ظلمتما أنفسكما وعصيتما ربكما.

(٢٠) ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴾

فحسّن الشيطان لآدم وحواء الأكل من الشجرة المحرمة، وزيّن لهما هذه المعصية ليكشف بسبب الأكل ما سُتر من عورتهما؛ لأنهما لما أكلا سقط اللباس ووقع العري لشؤم المخالفة ولعقوبة الذنب، وغرهما اللعين بقوله: إن سبب تحريم الشجرة عليكما لئلا تكونا ملكين مقربين، أو لئلا تُخلَّدا في الجنة فلا تموتا أبدا، وهذه خديعة منه ومكر بهما، فَصَدَّقاه بهذه الحيلة فوقعت بهما المصيبة.

(٢١) ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

وحلف الشيطان لآدم وزوجه إنه ناصح ومؤتمن وحريص على ما فيه نفعهما. وكذب وافترى فهو العدو المبين.

(٢٢) ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

فقادهما إلى الأكل من الشجرة بالخديعة والمكر، فلما أكلا بدت عوراتهما؛ فأخذا يقطفان من ورق شجر الجنة ويستران العورة، فيالها من عثرة أعقبتها حسرة، ومن زلة قدم أورثت الندم، وأمر الله مقدرٌ وقضاؤه نافذ: فنادى الله آدم وحواء: أما نهيتكما عن الأكل من الشجرة وأنا ربكما الذي خلق وأعلم بمصالحكما وأخبرتكما أن الشيطان ظاهر العداوة لكما، غاش في نصحه، فقد سبق النهي والتحذير ولكن لا حيلة في المقادير.

(٢٣) ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

فقال آدم وحواء بعد الخطيئة: يا ربنا ظلمنا أنفسنا بالأكل من الشجرة فخالفنا نهيك، وأطعنا الشيطان، فاغفر لنا ذنوبنا وإن لم تتداركنا برحمتك لنهلكن، وهذه سُنَّةٌ لكل مذنب ومن تاب تاب الله عليه، ولو لم تكن التوبة أحب شيء إليه ما ابْتَلَى بالذنب أعز الناس عليه.

(٢٤) ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾

فقال الله لآدم وحواء: انزلا من الجنة إلى الأرض وسوف يستمر العداء بينكم يا بني آدم لحكمة أرادها الله، فاستقرار سكناكم في الأرض ومتاعكم من الطعام والشراب واللباس فيها إلى وقت وفاتكم، فالآجال معلومة، والأرزاق مقسومة.

(٢٥) ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾

في الأرض حياتكم،وفيها مماتكم، وبباطنها قبوركم، ومنها تخرجون للحساب، فالأرض أمكم حملاً ووضعًا ومعاشًا.

(٢٦) ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يا بني آدم، قد هيأنا لكم لباسًا لأجسامكم يواري عوراتكم من القطن والوبر والصوف وغيرها، وريشًا للزينة والجمال، ولباس الإيمان والعمل الصالح أحسن من هذا اللباس؛ لأنه باق دائم، وكلا اللباسين علامات على القدرة وجزيل النعمة ووافر المنة وزيادة اللطف، عسى أن تذكروا فضل الله فتشكروه، وتعبدوه ولا تكفروه.

(٢٧) ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

يا بني آدم، احذروا أن يغويكم الشيطان كما أغوى آدم وحواء من قبل حتى أخرجهما من الجنة، فالعداوة مستمرة بينكم وبينه، وهو الذي كان السبب في خلع اللباس عنهما وظهور عورتهما، والشيطان وأعوانه يرونكم ولا ترونهم؛ فاستتروا وتحفظوا واذكروا اسم الله، وقد قضينا أن الشياطين أنصار وأعوان للكافرين فلا يأمرونهم إلا بشر.

٢٨ ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

وإذا عمل هؤلاء المشركون فاحشة كالطواف بالبيت عراة، وتقديم النذور للأوثان ونحو ذلك احتجوا على عملهم بأمرين، بأنه فعل الآباء فقلدوهم، وبأن الله أمرهم بتلك الفاحشة، فسكت عن تقليد الآباء؛ لأن الكلام صحيح، واعترض على كذبهم في أن الله ما أمرهم بها، وبيّن أن الله لا يأمر بهذه الفواحش - جل في علاه - فكيف تنسبون إلى الله ما لم يقل ويأمر به وأنتم لا تعلمون صحة هذا القول بدليل منقول ولا بتوجيه مقبول. وقد نزلت هذه الآية في طوافهم بالبيت عراة.

٢٩ ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾

قل لهم أيها الرسول: إن ربي لم يأمر بالفحشاء وإنما أمر بالعدل والحق، واقصدوا الله إذا توجهتم في الصلاة، وأخلصوا له العبادة، كما أنشأكم من العدم يحييكم من الرمم ليحاسبكم على أعمالكم.

٣٠ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

وأنتم قسمان: قسم وفقهم الله لطاعته واتباع رسوله ﷺ، وقسم أضلهم الله لسوء نياتهم؛ لأنهم جعلوا الشياطين أحبابهم وأنصارهم من دون الله، فأطاعوهم بمعصية الله، ولبّسوا عليهم الأمر فظنوا أنهم على صواب وهم على ضلال مبين.

٣١ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾

يا بني آدم، استتروا باللباس عند العبادة من صلاة وطواف، وتناولوا الحلال الطيب من الطعام والشراب بلا مجاوزة للحد مع شكر المنعم، فإن الله لا يحب من يتجاوز الحد في كل شيء فَيُبَذِّر؛ فالقصد والعدل أساس كل خير.

٣٢ ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

قل للناس: من الذي حرّم الزينة والجمال إذا أباحه ذو الجلال من اللباس والجواهر، ومن الذي حرّم الطيبات من المأكولات والمشروبات، إن هذه النعم من الملبوس والمطعوم والمشروب أحق الناس بها المؤمنون، والكفار يتمتعون بها، فهي عون للمؤمن، ومتاع للكافر في الدنيا، وهي في الآخرة خالصة ومُخَصَّصَةٌ للمؤمنين فحسب، وبمثل هذا البيان في مسائل الزينة والأكل والشرب ونحوها نبيّن الأحكام، ونشرح تعاليم الإسلام؛ ليكون المسلم على بصيرة في كل شأن من شؤونه، وكانت المرأة في الجاهلية تطوف عريانه فنزلت: خذوا زينتكم.

٣٣ ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

قل للناس: الله لم يحرم الطيبات وإنما حرّم الذنوب الشنيعات؛ مما أسر العباد وأعلنوا، وأظهروا وأخفوا، وسائر الإثم كبيره وصغيره، والذنوب كلها، ومجاوزة الحد في كل شيء، والشرك بالله بلا حجة، بل بالزور والبهتان، وأن تنسبوا إلى الله أقوالاً ما قالها، وأحكامًا ما أمر بها، كالكذب في التحليل والتحريم، فالدين كامل، والشرع تام، والحجة قائمة، والابتداع محرم.

٣٤ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾

لكل إنسان وجيل وأمة ودولة عمر محدّد ووقت معلوم، فإذا تم هذا العمر مات الإنسان، وانقرض الجيل، وفنيت الأمة، وسقطت الدولة، حكمة بالغة، وقدرة نافذة، وقضاء مبرم، لا يتأخرون عن ساعتهم ولا يتقدمون.

(٣٥) ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

يا بني آدم، إذا أتتكم رسل من الله يبينون لكم الدين فاتبعوهم واهتدوا بهداهم، فمن ترك ما نهوا عنه وعمل بما أمروا به فلا يخف مما أمامه من أهوال ولا يحزن على ما خلفه من أعمال أو تركه من أموال.

(٣٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

والذين كذّبوا بآيات الله التي أنزلها في كتابه على رسوله ﷺ وأعرضوا عن قبولها كبرًا وعتوًا فجزاء أولئك نار جهنم يمكثون فيها أبدًا؛ فالتكذيب رد وصد، والاستكبار إعراض، وجزاء كل النار.

(٣٧) ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

ليس في العالم أحد أشد ظلمًا ممن افترى الكذب على الله، بأن حلل وحرّم من عنده ونسبه إلى الشرع، أو نسب الولد والصاحبة والشريك إلى الله، أو أنكر القرآن والسنة، أو جحد الرسالة، فهؤلاء لهم حظهم المقدّر من القوت والعمر، حتى إذا أتتهم الملائكة لقبض أرواحهم قالت لهم: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله هل ينفعونكم الآن؟ قالوا: خذلونا فما ندري أين هم، وقد يئسنا من نصرهم وعونهم، والآن نعترف أننا كنا مشركين على ضلال، ولكن بعد فوات الأوان ووقوع الخسران.

(٣٨) ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾

قال الله للكفار: ادخلوا النار ضمن الأمم التي سبقتكم بالكفر سواء كانوا من الجن أو الإنس، فإذا دخلت جماعة من الكفار النار لعنت التي تقدمتها من الأمم؛ لأنها ضلت حينما اتبعتها، والتي سبقتها - أيضًا - لعنت من لحق بها، حتى إذا اجتمعوا جميعًا في النار وتلاحقوا فيها قالت أخراهم دخولاً - وهم الأتباع للأمم التي سبقتها-: يا ربنا هؤلاء هم الذين أغوونا عن صراطك المستقيم، وتسببوا في صرفنا عن هدايتك، فنسألك أن تضاعف لهم العذاب مثلين أو أكثر، فأخبرهم - سبحانه وتعالى - أن لكل منهم العذاب المضاعف، الأتْباع بسبب التقليد والقادة بسبب الإضلال، ولكن لا يعلم بعضهم مقدار هذا التضعيف وهذا العذاب وهذا النكال.

(٣٩) ﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾

وقال المتبوعون لتابعيهم: ليس لكم علينا مزية حتى يخفف عنكم العذاب، فقد ضللتم أنتم بأنفسكم كما ضللنا نحن، فهذا العذاب بسبب كسبكم، فلو كان عندكم عقول تفكرون بها لما اتبعتمونا في الضلال فذوقوا النكال.

(٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

الذين كذبوا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة بما فيهما من الأحكام والأصول والفروع، التي بعث بها الرسول ﷺ وعتوا وتكبروا فلم يقبلوها لا يفتح الله لهم أبواب السماء إذا قُبضت أرواحهم، ولا يصعد لهم عمل طيب ولا سعي صالح ولا دعاء؛ لقبح سعيهم وخبث سرائرهم، ومستحيل عليهم دخول الجنة، كما يستحيل دخول الجمل بضخامته في ثقب الإبرة الضيق، وهذا العذاب جزاء ونكالاً للمجرمين الذين كفروا بالله وكذبوا برسوله ﷺ.

(٤١) ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لهؤلاء الكفار فرش من النار من تحتهم، ومن فوقهم أغطية من النار، فالنار تشملهم من كل جهة، وهذا الجزاء يجزي به الله كل من ظلم نفسه أو ظلم غيره، ظلم نفسه بالكفر وظلم غيره بالإضلال والاعتداء، وهم المشركون.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أما المؤمنون بالله وبرسوله ﷺ الذين أخلصوا السعي لله وأحسنوا عبادة ربهم بقدر استطاعتهم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه على حسب الطاقة فأولئك لهم جنات يخلدون فيها وينعمون أبدًا، ويسرون سرمدًا، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وصفينا صدور المؤمنين في الجنة، فأخرجنا ما فيها من حسد وحقد كان في الدنيا حتى طهرت قلوبهم، وصفت نفوسهم، وزال كل كدر علق بها، ومن النعيم أن الأنهار تجري من تحتهم في مقام آمن وفي قرة عين وبهجة نفس، حينها شكروا الله - سبحانه وتعالى - الذي هداهم ووفقهم للعمل والإيمان بحيث أوصلهم إلى هذه المراتب العالية والمنازل الرفيعة، ولولا فضله - سبحانه وتعالى - ما اهتدوا بأنفسهم، لكن هو الموفق وحده، وهو الذي أرشدهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهم معترفون بأن الرسل جاءت بالحق فاتبعوهم، ومن زيادة النعيم أن الملائكة نادتهم بالأمن والإيمان، وقالوا لهم هذه الجنان دور لكم تخلدون فيها بسبب إيمانكم وعملكم الصالح؛ فادخلوا الجنة برحمة أرحم الراحمين، والنزول في المنازل بعمل العاملين.

﴿٤٤﴾ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ونادى أصحاب الجنة أهل النار بعد نزول كل فريق في منزلهم، المؤمنون في الجنة والكافرون في النار، فقال المؤمنون: نحن قد وجدنا ما وعد الله - سبحانه وتعالى - على ألسنة الرسل من النعيم المقيم والتكريم العظيم، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم بالنكال والعذاب والخزي؟ قالوا: نعم وجدنا ذلك حقًّا؛ فلما اعترف الفريقان أهل النعيم بالنعيم، وأهل العذاب بالعذاب نادى منادٍ بين الفريقين: لعنة الله حقت على كل ظالم كفر بالله وكذب رسله - عليهم الصلاة والسلام - لتزداد الحسرة، ويعمَّ الندم بأهل النار.

﴿٤٥﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾

الذين يعترضون طريق الناس فيردونهم عن أبواب الهداية، ويسعون في أن يكون الصراط معوجًا غير مستقيم، وهم يظنون أو يزعمون أنها خطأ وباطل ولُبّس عليهم أنهم على الهدى، وغيرهم على الضلال، وهم يكفرون بيوم البعث والنشور؛ فهم جاحدون للكتاب؛ مكذبون للرسل، كافرون بالله.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

بين أهل الجنة وأهل النار حاجز عليه سور، وفوق السور رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم يميزون أهل الجنة من أهل النار، فأهل الجنة عليهم سيما النور والبياض والنعيم، وأهل النار عليهم سيما النكال والعذاب والسواد، فنادى هؤلاء الرجال أهل الجنة أن تحية لكم وتكريمًا وقرة عين وطوبى، وهؤلاء الرجال وهم أهل الأعراف يطمعون في دخول الجنة لما رأوا من نعيم أهلها وقرة عينهم وراحتهم وأمنهم فبدؤوا يطمعون في فضل ربهم.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وإذا اتجهت أنظار أهل الأعراف إلى أهل النار ورأوا ما فيها من نكال وعذاب شديد وخزي مقيم استغاثوا بربهم وسألوا الله ألا يجعلهم مع هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك بل ينجيهم سبحانه.

٤٨ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾

ونادى أصحاب الأعراف رجالاً في النار يميزونهم بعلامات واضحة ويعرفونهم في الدنيا فقالوا لهم: أين ما جمعتموه من أموال؟ ما نفعتكم في هذا الموقف العظيم ولا نفعكم اجتماعكم لمحاربة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ولا نفعكم إعراضكم عن دين الله واستكباركم في الأرض.

٤٩ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾

وقال أهل الأعراف للكفار في النار: انظروا إلى هؤلاء المستضعفين الذين آمنوا بمحمد ﷺ كيف دخلوا الجنة، فأين إيمانكم وقسمكم في الدنيا أن رحمة الله لا تنالهم؟ وأن فضل الله لا يدركهم؟ انظروا إليهم الآن وقد قيل لهم: هيا ادخلوا جنات النعيم لا تخافون مما ينتظركم، ولا تحزنون على ما فاتكم أو ما أصابكم في الدنيا.

٥٠ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

وطلب أهل النار من أهل الجنة أن يشركوهم في شيء من النعيم من الماء البارد أو الطعام الطيب أو الظلال الوارفة، فردّ عليهم أهل الجنة: إنّ الله منعكم من ذلك، وحرم ذلك عليكم بسبب كفركم، فليس لكم حق في الماء ولا في الطعام ولا في الظل ولا في النعيم، إنما حقكم العذاب واللعنة.

٥١ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾

وهؤلاء الكفار المستحقون للنار هم الذين جعلوا دينهم سخرية واستهزاء ومخادعة ومحاربة للمؤمنين، واغتروا بالدنيا وزخرفها وزينتها، فهذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا طريق الصواب، وبسبب كفرهم بآيات الله وجحدهم وتكذيبهم لرسوله ينالون النكال والعذاب المقيم في الجحيم.

٥٢ ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

ولقد جئنا هؤلاء الكفار بكتاب، وأنزلناه عليهم فيه كل خير وصدق وحق كما أنه دليل واضح وبرهان صادق وحجة قاطعة، وهو يدل الناس إلى كل فضيلة، ويحذرهم من كل رذيلة، ويدعوهم إلى الهدى، ويحذرهم من الردى، وهو رحمة مهداة، ونعمة مسداة، وعصمة لمن اتبعه، ونجاة لمن آمن به، وفلاح لمن عمل به.

٥٣ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

هل ينتظر هؤلاء الجاحدون المكذبون إلا أن يأتي العذاب الذي يؤول إليه أمرهم، ويوم ينزل بهم العقاب الشديد والعذاب الأليم حينها يظهر لهم صدق الأنبياء وكذبهم هم، ويقولون في حسرة وفي ندم: لقد أتتنا الرسل بالحق فهل هناك أحد ينجينا من هذا العذاب والنكال لنعود إلى الدنيا، لنصدق الكتاب ونتبع الرسول ونعمل خيرًا ونجتنب المعاصي؟ لقد غُبنّا في عملنا، وخسرنا أنفسنا، وضيّعنا حياتنا، فالويل لنا. حينها يذهب عنهم كل ما كانوا يعتقدون نفعه من الأصنام والأوثان ويتلاشى باطلهم ويُمحق كذبهم وزورهم.

٥٤ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

إن الذي رباكم بالنعم وصرف عنكم النقم وتولى أمركم وصرّف شؤونكم هو الله وحده، فهو وحده المستحق للعبادة، وهو وحده الإله بحق، فإنه أنشأ السموات والأرض وأبدعهما في عظمة، وكان هذا الإبداع والإنشاء في ستة أيام، وبعد ذلك استوى - سبحانه - وعلا واستقر وارتفع على العرش استواء يليق بجلاله، وهو - سبحانه وتعالى -

الذي جعل الليل غشاءً للنهار كالغطاء عليه، والليل يطلب النهار، ويجري وراءه ويغشاه في حركة دائبة، وسرعة مستمرة لا فتور فيها ولا تأخر ولا انقطاع، والشمس والقمر والنجوم مذللات مسيرات مسخرات بأمر الله وقدرته - جل في علاه - فالله الخالق - سبحانه وتعالى - فهو الذي برأ وأنشأ وأبدع وصوّر، وله الأمر كالتصرف، ومن أمره - سبحانه وتعالى - كلامه القرآن الذي ليس بمخلوق، فسبحان من هذا صنعه وجل من هذا أمره، وتقدس من هذا إبداعه، اتسع فضله فعمّ كل مخلوق، وعزّ سلطانه فقهر كل ضد، وعظم جبروته فتفرد في الكمال وتنزّه في ملكوته، فتوحد بالجلال والجمال لا إله إلا هو.

(٥٥) ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

إذا دعوتم ربكم فادعوه بذلة وخشوع ومسكنة في السر والخفاء؛ بعيدًا عن الضجيج وعن الرياء والسمعة، فإن إخفاء الدعاء دليل على الإخلاص والإيمان والتجرد؛ وهو أجمع للقلب؛ وأسكن للنفس، وأبعد عن حسد الحاسد وعن التشويش؛ ولا تتجاوزوا الحد في الدعاء برفع الصوت أو الدعاء بما لا يجوز من الإثم وقطيعة الرحم ونحو ذلك.

(٥٦) ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لا تفسدوا في الأرض بالكفر بعد أن أصلحها الله بالإيمان الذي أتى به الرسل ونزلت به الكتب، وادعوا الله - سبحانه وتعالى - وأنتم خائفون من عذابه، طامعون في ثوابه، فرحمته وعفوه وكرمه قريب ممن أحسن عمله، وأخلص نيته، واتبع الرسول ﷺ، واهتدى بالقرآن؛ فعلى العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، في الشدة والرخاء، وأن يخلص لربه العبادة والدعاء.

(٥٧) ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

الله وحده هو الذي يرسل الرياح التي تحمل الخير من الغيث المدرار، والرزق الهنيء، والماء الزلال، حتى إذا حملت الرياح سحابًا مثقلاً بالماء ساق الله - سبحانه وتعالى - هذا السحاب إلى أراضي القحط والجدب؛ فأنزل عليها الماء، وبإذنه ومشيئته تخرج بهذا الماء أنواع الثمار ومختلف الأشجار وبديع الأزهار؛ فكما أخرج بهذا الماء النباتات وأنواع الثمرات، فإن الله يخرج الموتى من القبور للبعث والنشور، لعلكم تذكرون بهذه الصورة ذاك المشهد وقدرة الله على البعث، وتقيسون هذا بالنظر والاعتبار والتدبر والاستبصار، فجلَّ الحكيم في خلقه، القدير في حكمته وأمره.

(٥٨) ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

والمكان طيب التربة الخصب القابل للنماء يخرج نباته - بإذن الله - حسنًا تامًا جميلاً رائعًا، والذي خبث ترابه وفسدت تربته كالأرض السبخة والمالحة لا يخرج النبات منه إلا عسرًا بمشقة، وهو لا جمال فيه ولا نضرة ولا نماء، وهذا المثل مثل قلوب المؤمنين التي قبلت هدى الله واتبعت رسوله ﷺ وأفادت من الحكمة، وانتفعت بالذكر، ومثل الذين أعرضوا عن الهدى وهم الكفار ولم يقبلوا الرسالة ولم يؤمنوا بالنور الذي بعث به محمد ﷺ، فالله - سبحانه وتعالى - يبين الحجج والدلائل، ويضرب الأمثال، ويقص القصص، لقوم يريدون الاستفادة والانتفاع لعلهم يشكرون الله على نعمه ويثنون بها عليه ويخافونه ويرجونه.

(٥٩) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

لقد أرسلنا أول الرسل نوحًا - عليه الصلاة والسلام - إلى قومه بالتوحيد؛ فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الإشراك به، فليس لهم إله غيره، مثلما أنه ليس لهم خالق سواه - جل في علاه - فالذي خلق أولى أن يُعبد، والذي رزق ودبر وصرّف أولى أن يُوحد، ثم أنذرهم عذاب القيامة والخزي في ذاك المشهد إذا لم يؤمنوا بالله ولم يوحدوه، وهذا هو النصح في الدعوة.

(٦٠) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

قال أشراف قومه ورؤساء أمته: يا نوح إنّا نشاهدك في خطأ بيِّن، وفي غلط واضح، وفي انحراف عن الحق، وهذا لسفههم هم، ولضلالهم الذي ارتكبوه.

(٦١) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فرد عليهم وقال: يا قوم، إنني على هدى، وإن عندي رسالة من ربي، وإن الله اختارني لإنذاركم ولنصحكم، ولست ضالاً بعد أن وفقني ربي لعبادته وطاعته؛ فإنه رب العالمين الذي ربانا بنعمه وخلقنا ورزقنا.

(٦٢) ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ومهمتي أن أبلغكم وأنصح لكم وأبين لكم آيات الله - عز وجل - وأهديكم السبيل وأحذركم من الشرك ومن عبادة الطاغوت، وعندي علم من علم الغيب الذي أوحاه الله إليّ - سبحانه وتعالى - أنتم لا تعلمونه؛ لأن الله اختصني بذلك من أخبار الآخرة، وأخبار المستقبل والغيبيات.

(٦٣) ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

هل استبعدتم أن أتاكم وحي من الله وآيات بينات تهديكم إلى سواء السبيل، ونزلت هذه على بشر منكم مهمته أن ينذركم من عذابه الشديد والعقاب الأليم إذا لم تهتدوا، ولعلكم إذا اتبعتم هذا الوحي أن تتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فإذا فعلتم ذلك رحمكم الله رحمة عامة وخاصة، ورضي عنكم وغفر ذنوبكم.

(٦٤) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾

ولكنهم كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله نوحًا، فنجاه الله والذين معه من المؤمنين في السفينة، وأما الكافرون من قومه فإن الله أرسل عليهم الطوفان؛ لأنهم كذبوا بآيات الرحمن، وعصوا الديان، وكانوا عُمْي البصائر، وانطمست قلوبهم وانحرفت فطرهم عن الحق وعن سماع النصح.

(٦٥) ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

والله - سبحانه وتعالى - أرسل إلى قوم عاد النبي هود ﵇، وهو من أنفسهم، فقال لهم قول الأنبياء المشهور: يا قوم، وحِّدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فلا إله إلا هو - سبحانه - ولا يستحق العبادة إلا هو، أفلا تخافون لقاءه وترجون ثوابه وتعملون بأوامره وتجتنبون نواهيه؟ هل هناك خالق غير الله؟ فمن يستحق العبادة إلا هو - جل في علاه -؟.

(٦٦) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فرد عليه الأشراف والزعماء من قومه الذين كذبوا بآيات الله وجحدوا رسالته، قالوا: ياهود، نراك في طيش وحمق وسفه، هذا في عقلك، وأما في نقلك فنظنك من الذين كذَّبوا وافتروا، فلا عقل عندك مكين، ولا نقل متين، وهذا من افترائهم قاتلهم الله.

(٦٧) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فرد عليهم هود وقال: يا قومي: إن عقلي صحيح، وإن ذهني ثابت، وإن الله أرسلني برسالة إليكم، فقد جمعت بين العقل والنقل، وليس بي طيش ولا حمق ولا قلة عقل، فإن الله - سبحانه وتعالى - ألهمني رشدي، ووفقني لطاعته، واجتناب معصيته.

٦٨ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾

ومهمتي أن أبلغكم ما أوحاه الله إليّ من الحكمة وأن أرشدكم إلى ما فيه خيركم في الدنيا والآخرة، فأنا ناصح مخلص لكم النصيحة، وأمين فيما أنقل، فما غششتكم ولا خنتكم ولا كذبت عليكم.

٦٩ ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هل استبعدتم أن أتاكم وحي من الله - سبحانه وتعالى - الذي رباكم بنعمه وخلقكم ودبّركم بواسطة بشر من أنفسكم ليخوفكم لقاء الله ويحذركم من عذابه وغضبه، وتذكروا أن الله استخلفكم بعدما أهلك قوم نوح لما كَذَّبوا، والله - سبحانه وتعالى - قوّى أجسامكم وبسط لكم في صوركم من الجمال وطول الأجسام والنضارة والمتاع الحسن، فتذكروا نعم الله واشكروه عليها، وشكره بتوحيده وعبادته واتباع رسوله؛ فإنكم إن فعلتم ذلك فزتم في الدنيا والآخرة، وأدركتم الظفر، ونجوتم من الخسران.

٧٠ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

فقال الكفار من قومه: يا هود أنت أتيتنا بكلام مُخْتَلَق من عندك لنعبد إلهًا واحدًا فحسب، ونترك ما كان عليه آباؤنا من عبادة الآلهة، وهم أعقل منا وأرشد وأدرى، ونترك تقاليد أجدادنا وآبائنا، فإن كنت صادقًا فنتحداك، تعال بما تهددنا به وعجل بالعذاب الذي تزعم أنه سيحل بنا؛ استبعادًا وتكذيبًا وعتوًا وتمرّدًا.

٧١ ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

قال: قد حلَّ بكم عذابٌ شديد من الله -عز وجل- وغضب منه ماحق ساحق، لا رضوان بعده، أأنتم تحاجوني في آلهة سميتموها أسماء لا حقيقة لها، فهي مجرد أسماء على مسميات، وهذه المسميات لا تنفع ولا تضر ولا تحيي ولا تميت، أين ذهبت عقولكم؟ أين غابت بصائركم؟ أين الحجة لكم من عند الله -عز وجل- أن هذه الآلهة تُعبد وأنها تُوحد؟ ولكن انتظروا نزول العذاب الشديد عليكم بما فعلتم فإني منتظر ما وعدني ربي من تعذيبكم إذا لم تؤمنوا ولم تهتدوا.

٧٢ ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

فأنزل الله عذابه بالكفار وأنجى الله هودًا والذين آمنوا معه برحمته - سبحانه وتعالى - لهم ولطفه بهم وأباد الله الكفار وأهلكهم فلم يُبْق منهم أحدًا وما كانوا مؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر بل كانوا كفرة مكذبين جاحدين بآيات الله.

٧٣ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وأرسل الله - سبحانه وتعالى - إلى قوم ثمود النبيَّ الكريم صالحًا - عليه الصلاة السلام - فنصح قومه ودعاهم إلى الله -عز وجل- وحده وعدم الإشراك به، وأخبرهم أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه، وقال لهم: قد أتتكم حجةٌ واضحة من ربكم - جل في علاه - وهذه الحجة الظاهرة، هي ناقة خلقها الله وأخرجها من الصخرة؛ لتكون لهم علامة على صدق صالح وأنه نبي من عند الله، قال: «فاتركوا هذه الناقة ولا تتعرضوا لها بسوء» وهذا من الابتلاء، ودعوها تأكل من رزق الله في أرض الله وهي من خلق الله، ولا تنالوها بشيء من الأذى، فإن فعلتم ذلك فإن الله سوف يأخذكم بعذاب مؤلم ويزلزلكم بعقاب شديد، وهذا الذي حدث.

٧٤ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

وتذكروا يا قومي فضل الله عليكم في أنه جعلكم تخلفون قوم عاد في الأرض فكانوا عبرة لكم، وقد أنزلكم من الأرض منازل رحبة وسيعة، فأما سهولها فتبنون فيها الدور الواسعة والقصور الشاهقة، وأما جبالها فتصنعون منها وتصورون وتنحتون بيوتًا تدفئكم من البرد وتظلكم من الحر، فتذكروا هذه النعم الجليلة والأيادي الجزيلة، ولا تكثروا الفساد في الأرض، فإن من فعل ذلك فقد باء بالخسران، ومن أعظم الفساد الإشراك برب العباد.

٧٥ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾

قال هؤلاء الرؤساء المتجبرون المنحرفون عن الإيمان للذين آمنوا من قوم صالح: هل تشهدون أن صالحًا قد أرسله الله -عز وجل- إلينا؟! وهذا منهم على سبيل الاستهزاء، فرد المستضعفون، وقالوا: نعم صَدَّقْنا برسالة صالح، وأنه نبي من عند الله، ونحن نتبع أوامر الله، ونجتنب نواهيه ونطيع رسوله.

٧٦ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

فقال هؤلاء الرؤساء الجبابرة الذين تكبروا على رسول الله: لقد كفرنا بما آمنتم به أيها الضعفاء من رسالة صالح وأعرضنا عن ذلك.

٧٧ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

فقتل هؤلاء الجبابرة الناقة، ونسب الله القتل إليهم جميعًا؛ لأنهم رضوا بذلك وشاركوا بالفعل، أو بالرضا، والسكوت، وتجبروا على أمر الله وتكبروا على نبيه، واستهزؤوا بدينه وتحدوا صالحًا وقالوا: إن كنت صادقًا فأين العذاب الذي وعدتنا به؟ وأين العقاب الذي هَدَّدتنا به؟ فإن كنت صادقًا بأن الله أرسلك فهيًّا عجل لنا العذاب.

٧٨ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾

فأرسل الله عليهم زلزالاً شديدًا رجف بهم ودمرهم وأهلكهم وأبادهم، وأزهق أرواحهم، فصاروا ميتين لا حراك فيهم، جثثًا هامدة لا حياة فيها.

٧٩ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

فأعرض عنهم صالح وخرج من ديارهم بعدما عقروا الناقة وقال: لقد نصحت لكم، وقد أخبرتكم برسالة الله، وقد أمرتكم بالمعروف ونهيتكم عن المنكر، وقد بينت لكم شرع الله ولكنكم لا تهتدون بنصح ناصح ولا تسترشدون برأي عاقل، فأنتم أبيتم نصحي وتركتم إرشادي فحق عليكم العذاب.

٨٠ ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

وكذلك أرسلنا لوطًا - عليه الصلاة والسلام - إلى قومه فنصحهم ونهاهم عن فاحشة اللواط، وأخبرهم أنهم هم السابقون إلى هذه الجريمة الشنعاء، وأن الأمم الذين قبلهم لم يفعلوا هذه الفعلة، بل هم الذين ابتدعوها وأتوا بها واقترفوها ولم يسبقهم أحد إليها.

٨١ ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾

وأخبرهم أنهم بفعلهم هذا وهم يأتون الرجال بمجرد الشهوة لا بمقتضى العقل والشرع والفطرة ويتركون النساء الحلال اللواتي هن محل الشهوة بالشرع والعقل والفطرة، فهم متجاوزون لحدود الله، غارقون في العصيان، خارجون عن الطاعة.

٨٢ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

فلما وبّخهم لوط على عملهم الأثيم قالوا: أخرجوا لوطًا ومن آمن معه من قريتكم (واسمها سدوم) فهم ناس أطهار نزهاء شرفاء، وهذا القول منهم للسخرية والاستهزاء والعناد.

٨٣ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

فأنجينا لوطًا وأهله من العذاب الشديد والعقاب الأليم الذي حل بقومه، وأبقينا امرأته لعصيانها وتمردها على زوجها، وبقيت مع الهالكين المعذبين.

٨٤ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

فأمطر الله عليهم مطرًا من الحجارة المحماة المتواصلة الشديدة الغليظة فمزقهم وأهلكهم، فتأمل كيف عاقبة من ارتكب المعاصي والآثام، واستهان بالفواحش العظام.

٨٥ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وأرسل الله إلى قوم مدين النبي شعيبًا، وهو منهم ومن أنفسهم، ونادى قومه لعبادة الله وحده وإلى توحيده وعدم الإشراك به، وأخبرهم أنه لا يستحق العبادة إلا الله، وأنه قد أتته حجة من الله قاطعة، وبرهان ساطع على صحة ما يدعو إليه، وأمرهم بأن يُوَفُّوا الكيل والميزان عند البيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ لأنهم كانوا يطففون المكاييل، ويبخسون الموازين، ونهاهم عن عدم نقصان الناس حقوقهم في البيوع والمعاملات والأخذ والعطاء، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بالمعاصي والظلم والجور بعد أن أصلحها الله بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وأن هذا المنهج السديد والمذهب الرشيد الذي دعاهم إليه هو لإصلاحهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة إن كانوا مصدقين له ومتبعين لرسالته.

٨٦ ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

ولا تكونوا قطاع طرق تقفون على كل سبيل تَرُدُّون من أتى إلى شعيب للإيمان، ومن أقبل للهداية، وتعترضون طريق الناس وتهددونهم وتتوعدونهم بالنكال إذا وحّدوا ذا الجلال، وتريدون أن يتحول الطريق المستقيم إلى طريق ملتوٍ منحرف بأفعالكم المشينة، وزوركم وكذبكم، وتذكروا أن الله - سبحانه وتعالى - قد كثركم بالنسل بعدما كنتم قليلين، وأمدكم بالقوة بعدما كنتم ضعفاء، وبالغنى بعدما كنتم فقراء، ثم اعتبروا بمن أُهلك قبلكم من الأمم كيف أن الله - سبحانه وتعالى - محقهم وسحقهم ومزقهم بسبب كفرهم وإشراكهم بالله وأعمالهم القبيحة.

٨٧ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

وإذا كان جماعة منكم آمنوا بما أُرسلت به وصدقوني واتبعوني، وجماعة كذبوني فعلينا أن نصبر وننتظر جميعًا، أما المصدقون فلينتظروا النصر والفصل من الله بيننا وبين الكافرين، وأما المكذبون فلينتظروا العذاب الأليم على فعلهم الأثيم، فإن الله سوف يحكم بيننا وهو خير الحاكمين، فحكمه حق وعدل وجد وفصل، لا يحابي ولا يهضم ولا يظلم - جل في علاه -.

٨٨ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾

فقال الزعماء من شعب مدين الذين كذبوا وعاندوا الحق ورفضوا الرسالة: يا شعيب إما أن تترك رسالتك وإلا لنخرجنك أنت ومن معك ممن صدقك أو لترجعن في ملتنا وتتركون ما تدعون إليه من الملة، فقال شعيب: أو تفعلون ذلك ولو كنا كارهين لملتكم أو كارهين الخروج من ديارنا.

٨٩ ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

قد اختلقنا على الله كذبًا وادعينا على الله زورًا وبهتانًا إن رجعنا إلى الشرك الأثيم والضلال العظيم الذي أنتم عليه بعد أن خلَّصنا الله - سبحانه وتعالى - من هذا الزور والبهتان، والشرك بالرحمن، وكيف لنا أن نعود إلى الضلالة بعد أن أكرمنا الله بالرسالة؟! لا يمكن أن نختار الردى على الهدى، ولا الغيَّ على الرشد بعد أن وفقنا الله - عز وجل - لطريقه المستقيم وصراطه القويم إلا أن يشاء الله - سبحانه وتعالى - شيئًا فهو الحاكم لما أراد، القاضي بما شاء، لا إله إلا هو، فإنه - سبحانه وتعالى - المطلع على كل شيء، العالم بكل دقيق وجليل، المحيط بكل سر وعلانية؛ فعليه اعتمدنا، وأمرنا إليه فوضنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل؛ فنسألك يا ربنا أن تحكم بيننا وبين قومنا المكذبين الضالين، فتثيبنا على إيماننا بك، وتصديقنا برسولك، وتعاقبهم على كفرهم وتكذيبهم، فأنت خير من حكم وأعدل من فصل.

٩٠ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

وقال أشراف الكفار لأتباعهم: لو أطعتم شعيبًا فيما أمركم به من الوفاء بالكيل والوزن لخسرتم تجارتكم؛ ولو اتبعتموه فيما دعاكم إليه من الإيمان بالله لوقعتم في الهلاك؛ على حد زعمهم؛ جهلاً منهم وكذبًا.

٩١ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

فأنزل الله عليهم الزلزلة الشديدة بسبب كفرهم، فأصبحوا موتى خامدين في منازلهم.

٩٢ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

الذين عصوا شعيبًا وردّوا ما جاءهم به كأنهم بعدما أهلكهم الله لم يقيموا ويعيشوا ويعمروا وينعموا؛ فهم هالكون، وفقدوا كل ما يملكون، وهم في الآخرة معذبون.

٩٣ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

فأعرض شعيب عنهم وقال لهم: لقد أنذرتكم العذاب، وخوفتكم العقاب، وبلغتكم الرسالة، واجتهدت في نصحكم؛ فلن أحزن عليكم، ولن أتأسف على ما أصابكم، فأنتم تستحقون العقوبة لكفركم. والله لا يظلم عباده.

٩٤ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

لم نرسل رسولاً في مدينة من المدن إلا ويُعْرِض أهلها فنبتليهم بالفقر والمصائب والأمراض والكوارث ليتوبوا وينيبوا ويتذلّلوا لربهم ويؤمنوا به.

٩٥ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

ثم وهبناهم غنىً بعد فقر، وصحة بعد سقم، وقوة بعد ضعف، حتى كثروا وزاد عددهم، فكفروا وما شكروا، وجحدوا وما آمنوا، وقالوا: هذه سنة الحياة وعادة الدهر، يوم لك ويوم عليك، ولم يتعظوا، وغفلوا عن أن هذه ابتلاءات من

الله بالخير والشر، والشدة والرخاء، فلما فعلوا ذلك فاجأناهم بالعذاب وباغتناهم بالعقاب دون سابق إنذار، فما شعروا بمجيئه حتى أُخذوا على غرّة ودمّروا على غفلة.

(٩٦) ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

ولو أنَّ أهل القرى آمنوا بالله ورسله وكتبه واتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، لأغدق الله عليهم الرزق بإنزال الغيث المدرار المبارك، وأنبت لهم من الأرض أنواع النباتات بمختلف الثمرات، ولكنهم كذبوا الرسل وعصوا ربهم، فعاقبهم الله بذنوبهم وعذبهم بكفرهم؛ فالطاعات سبب للخيرات، والمخالفات سبب للعقوبات.

(٩٧) ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾

هل عند أهل القرى أمان بأن لا يأتيهم عذاب الله وهم نائمون بالليل وقد كفروا بربهم وكذبوا رسله.

(٩٨) ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

أم هل عندهم أمان أن لا يأتيهم العذاب وهم غافلون في لهوهم ضحى النهار، غارقون في دنياهم.

(٩٩) ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

أم هل أمنوا استدراج الله لهم من حيث لا يحتسبون، وتدبيره هلاكهم من حيث لا يدرون، فلا يأمن أخذ الله على غرة وعقابه فجأة إلا من خسر نفسه، وفقد رشده، وضل عمله وبطل سعيه.

(١٠٠) ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

ألم يتبيّن ويظهر للذين جاؤوا بعد من أهلكهم الله، وخلفوهم أن الله قادر على أن يهلكهم بمعاصيهم كما أهلك الذين من قبلهم، وإذا داوموا على الإعراض أقفلنا قلوبهم فلا تتعظ ولا تعي ولا تفهم ولا تسمع سماع قبول واستجابة.

(١٠١) ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

تلك القرى التي أهلكناها وأخبرناكم كيف عاقبناهم بذنوبهم ليحصل الاعتبار، ولقد أرسل الله لهم الرسل بالمعجزات الظاهرة، والأدلة الباهرة، فما كان لهم أن يؤمنوا بعد مجيء المعجزات، وقد كذبوا من قبلها بالرسالات، ومثلما طبع الله على قلوب من كفر من الماضين يطبع على قلوب الكافرين اللاحقين، سُنَّة ماضية وجزاء عادل؛ لكفرهم بالله ورسالاته.

(١٠٢) ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾

وما وجدنا عند كثير من الناس وفاء بعهد ولا إيمانًا بوعد، ولا شكرًا لنعمة ولا عملاً بوصية، بل وجدنا أكثرهم خارجين عن الطاعة كافرين بالله، جاحدين للنعمة، مكذبين بالرسالة، فالمؤمن قليل والتقي نادر.

(١٠٣) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ثم أرسلنا بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - موسى بالمعجزات الظاهرة والبراهين الباهرة كالعصا واليد إلى فرعون العنيد وأشراف قومه؛ فجحدوا المعجزات وكذبوا الآيات، وأفسدوا في الأرض، فتأمل ماذا كانت نهايتهم، في الدنيا الإغراق وفي الآخرة الإحراق.

(١٠٤) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وقال موسى لفرعون: إن الله أرسلني ولم آت من تلقاء نفسي، وهو رب العالمين لا أنت أيها العبد الفقير، فأثبت لربه الجلالة، ولنفسه الرسالة، ولفرعون الضلالة.

(١٠٥) ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

ألا أفتري على الله ولا أكذب على ربي، بل آتي بالحق، وأخبر بالصدق، وعندي معجزة ظاهرة كاليد والعصا، وهي من الله الذي خلقكم ورزقكم لا منيٍّ، فاترك يا فرعون بني إسرائيل يخرجوا من مصر وأعتقهم من استعبادك، وأطلقهم من استبدادك.

(١٠٦) ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال فرعون لموسى: إن كان معك معجزة من ربك فأظهرها لنا حتى نراها، إن كنت صادقًا أنك مرسل من ربك.

(١٠٧) ﴿ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴾

فطرح موسى العصا من يده فحوّلها الله حية عظيمة داهيةً مخيفة، ظاهرة الحياة وبينة الخلقة.

(١٠٨) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

وأخرج موسى يده من جيب ثوبه، فإذا هي بيضاء تلمع، بها نور يسطع، من غير برص ولا بهق، ولا مرض ظاهر لمن نظر إليها، بيّنة لمن شاهدها لا تخفى على أحد.

(١٠٩) ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴾

قال زعماء قوم فرعون: إن موسى ساحر متمكن من السحر، عالم بأساليبه، خبير بمسالكه.

(١١٠) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾

يريد موسى بسحره أن يخرجكم من أرض مصر ويمكث هو فيها، قال فرعون: فَبِمَ تنصحونني به أيها الأشراف؟

(١١١) ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾

قال الأشراف لفرعون: أمهل موسى وأخاه هارون ولا تعاجلهم بالعقوبة، وأرسل في كل مدن مصر من يجمع الناس ويسوقهم حشدًا إليك ليشاهدوا الاجتماع.

(١١٢) ﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴾

يحضروا لك كل ساحر ماهر متقن لفنون السحر عالم بأسراره.

(١١٣) ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾

فقال السحرة لفرعون: هل تكافئنا بأُجْرة إذا هزمنا موسى وأبطلنا سحره.

(١١٤) ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾

فقال فرعون للسحرة: نعم لكم الأجرة وقرب المنزلة، يعني المال والحظوة.

(١١٥) ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴾

فقال السحرة لموسى: هل تريد أن تبدأ بإلقاء عصاك أو نبدأ نحن بإلقاء ما عندنا.

(١١٦) ﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾

قال موسى: ألقوا أنتم، فألقوا الحبال والعصي، وصرفوا أبصار من حضر بالتمويه والخديعة والمكر، وأوقعوا في القلوب الرعب الشديد والخوف الأكيد، وأتوا بسحر رهيب في عيون الناس، أذهل الحضور وأدهش الحاضرين.

(١١٧) ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾

فأمرنا موسى بإلقاء العصا فألقاها، فابتلعت حبالهم وعصيهم التي خدعوا الناس بها، وزوّروها في عيون الحاضرين.

(١١٨) ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

فظهر الحق مع موسى وظهر باطل سحرة فرعون.

(١١٩) ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾

فانهزم سحرة فرعون في مكان اجتماع الناس، ورجعوا مغلوبين أذلاء فاشلين.

(١٢٠) ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾

وخرَّ السحرة لله ساجدين، ونصر الله رسوله الأمين، وأبطل كيد فرعون اللعين، وإنما بدؤوا بالسجود؛ لأنه أشرف حال للعبد مع خالقه.

(١٢١) ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قال السحرة: آمنا بالله وحده لا شريك له، فهو الذي خلق العالم لا أنت يا فرعون، فمن أوجد أحق أن يُعبد.

(١٢٢) ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

والله - وحده - هو الذي خلق موسى وهارون، فالسجود لله لا لهما.

(١٢٣) ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

قال فرعون للسحرة: كيف تصدقون موسى ولم آذن لكم؟ هذه حيلة وخديعة منكم لتخرجوا الناس من مصر، فسوف تعلمون ما أوقعه بكم من العذاب، وأليم العقاب، والطاغوت إذا عجز عن الحجة لجأ إلى التهديد.

(١٢٤) ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

سوف أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى من كل واحد منكم تشويهًا وتعذيبًا، ثم أصلب الواحد على جذع نخلة حتى يموت؛ ليكون عبرة لمن بعده.

(١٢٥) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

قال السحرة له: سوف نعود ونجتمع وإياك عند ملك الملوك - سبحانه - في يوم العرض الأكبر ليجزي كلاًّ بما فعل.

(١٢٦) ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

وما عبت علينا إلا أن وحّدنا الله بالعبادة وصدقنا بموسى والمعجزات التي أتى بها، يا ربنا صُبَّ علينا صبرًا كثيرًا يعيننا على تعذيب هذا الطاغية، فبالإيمان والصبر يُدرك النصر، ونسألك يا رب أن تثبتنا على دينك حتى نموت عليه غير مفتونين ولا منحرفين.

(١٢٧) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾

وقال رؤساء الكفر لفرعون: أتترك موسى ومن آمن معه أحياء ليصدوا الناس عن عبادتهم لك، ويغيّروا عقائد الناس، ويتركوك وما تعبد من دون إلهيهم؟ قال فرعون: سوف نذبح أولادهم ونترك بناتهم للخدمة، ونحن متسلطون مسيطرون عليهم لا يعجزوننا.

(١٢٨) ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

فقال موسى لما سمع التهديد لقومه: استعينوا بالله، واصبروا في الثبات على دينه وأذى عدوه، فالأرض ليست لفرعون، إنما هي لله وحده، يمكِّن عباده الصالحين من سكناها، وهي واسعة لمن هاجر من الأذى، والخاتمة الجميلة دائمًا والنهاية المحمودة أبدًا لأولياء الله الصادقين وحزبه المفلحين والدائرة على أعدائه الكافرين.

(١٢٩) ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

فقال بنو إسرائيل لموسى: نحن أوذينا من فرعون وجنده من قبل أن تُبعث إلينا رسولاً ومن بعد رسالتك، وكثر علينا العذاب، وضاقت بنا الحيل، فقال لهم موسى: نرجو الله أن يدمر عدوكم فرعون وأعوانه، ويمكّن لكم في الأرض ويجعل الأمر بأيديكم ليمتحنكم، فيرى من يصبر حال البلاء ومن يشكر حال الرخاء؛ لأن لله عبودية في العسر واليسر.

(١٣٠) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

ولقد عاقب الله آل فرعون بجدب الديار، وقلة الأمطار، مع نقص الثمار بالعاهات، وقلة الحبوب بالآفات، وإتلاف الغلات، لعلهم يخافون ربهم ويتوبون من ذنوبهم، فالعقوبات سياط يُحسّ بها من فيه حياة، أما أموات القلوب فما لجرح بميت إيلام.

(١٣١) ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

فإذا أتتهم الخيرات من ثمار ونبات، ونعمة وغلات، قالوا: نحن نستحق هذا وبجهدنا حصل، وإذا أصابتهم المصائب ووقعت بهم النوائب تشاءموا بموسى ومن معه، وشؤمهم إنما هو مكتوب عليهم ومقدر؛ لأن الله هو الذي قدّر لهم الخير والشر، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن كل شيء من النعم والنقم بقضاء مبرم، وقدر محكم.

(١٣٢) ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٖ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال أتباع فرعون لموسى: مهما جئتنا به من معجزات تصرفنا بها عن ديننا وتخدعنا عن ملتنا فنحن ثابتون على ما نحن عليه، ولن نصدقك، وهذا ثبات أهل الباطل على باطلهم فأهل الحق أولى.

(١٣٣) ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمٗا مُّجْرِمِينَ ﴾

فسلطنا على قوم فرعون المطر الجارف المدمر المتلف، والجراد الذي أهلك الزروع والثمار، والقمل الذي آذى الأجسام، والضفادع التي ملأت المساكن وأزعجت كل ساكن، والدم الذي أفسد المياه، ونغص عليهم الحياة، وهذه عقوبات ظاهرة تدل على قدرة الله وعظيم سلطانه، ولكنهم تجبروا وتكبروا ولم يتوبوا وينيبوا؛ لأن الإجرام متمكن منهم، والخبث صفة لازمة لهم.

(١٣٤) ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

ولما أخذ الله قوم فرعون بالعذاب، قالوا يا موسى: ادع الله بما اختصك به من النبوة والحظوة أن يرفع عنا العذاب، ونعاهدك أنه إذا حصل ذلك أن نصدقك ونتبعك ونطلق معك بني إسرائيل من الإقامة الجبرية بمصر؛ ليذهبوا معك إلى حيث شئت، وهذه من وعود العصاة في الشدائد.

١٣٥ ﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾

فلما رفع الله عنهم العذاب مدة من الزمان إلى وقت إهلاكهم بالغرق إذا بهم يخونون العهد، وينقضون العقد، ويعودون إلى التكذيب والصد.

١٣٦ ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾

فلما نقضوا العهد وخالفوا الأمر، انتقمنا منهم، فأغرقناهم في البحر؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأعرضوا عن المعجزات وغفلوا عن العظات.

١٣٧ ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ
عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾

وأورثنا بني إسرائيل المستضعفين المقهورين أرض مصر والشام التي وضعنا فيها البركة بكثرة المياه وجودة الثمار والأشجار، وتم وعد الله لبني إسرائيل بنجاتهم وإهلاك فرعون وجنده وتوريثهم الأرض، لصبرهم على النوائب وتحملهم المصائب، وأهلك الله فرعون وقومه وما كانوا يشيدون من البيوت والقصور، ويعمرون من المساكن والدروع، وكانوا يبنون من عرائش الأعناب والأشجار؛ فسلبهم الله البناء والحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء.

١٣٨ ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ
قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾

وسهّلنا لهم اجتياز بحر السويس بسلام، فمروا بعبدة أصنام، فقالوا: يا موسى نريد أن تكون لنا آلهة كهؤلاء الأقوام، فقال لهم موسى: إنكم جاهلون بما يجب لله من توحيده بالألوهية وإفراده بالعبودية وعدم الإشراك به.

١٣٩ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

إن عبدة الأصنام هؤلاء عبادتهم خاسرة، وعملهم باطل، وسعيهم مردود عليهم، فعمل المشرك كله زائل.

١٤٠ ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

هل أطلب لكم إلهًا غير الله تعبدونه؟ أم هل يستحق الطاعة أحد سوى الله توحدونه؟ وهو الذي فضلكم على عالمي زمانكم فحقه أن يُعبد وحده.

١٤١ ﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم
بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾

وتذكروا يوم حماكم من بطش فرعون وقومه بعد أن أذاقوكم أصناف العذاب، وأنواع العقاب، يذبحون الذكور من الأبناء، ويُبّقون النساء للخدمة، وفي الإنجاء ابتلاء، وفي حمايتكم من هذه الأضرار امتحان واختبار؛ لتشكروه على النعم، وتذكروه بما أنجاكم من النقم.

١٤٢ ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي
وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

وواعدنا موسى قبل تكليمنا إياه ثلاثين ليلة يتعبد فيها ثم زدناه عشر ليالٍ فصارت أربعين ليلة، وأوْصَى موسى أخاه هارون لما ذهب للتكليم أن يكون خليفته على بني إسرائيل، وأن يقوم على شؤونهم بالعدل والرفق والإصلاح، ولا يطاوعهم في المعاصي، أو يعاونهم على الظلم، أو يسكت على منكرهم.

١٤٣ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولما أتى موسى على الموعد وكلمه الله مباشرة طمع موسى في الفضل؛ فطلب من الله أن يريه وجهه الكريم، فأخبر - سبحانه - أنه لن يراه؛ لأنه لا يُرى في الدنيا - سبحانه - وإنما يراه المؤمنون في الآخرة، وأمر موسى أن ينظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف يرى موسى ربه، وإن اندك الجبل وتفتت لتجلِّي الله له فمن باب أولى ألا يستطيع موسى رؤية الله لعظمته - سبحانه - فلما تجلى الله للجبل تفتت الجبل وانبث على وجه الأرض، فلما رأى موسى هذا المشهد المهول خرَّ مغشيًا عليه، فلما أفاق من غيبوبته، قال: أنزهك يا رب عما لا يليق بك من سؤال رؤيتك في الدنيا، وأنا أول مصدق بك من قومي، إنك رب العالمين وإله الأولين والآخرين.

١٤٤ ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

قال الله: يا موسى إني اخترتك على سائر الناس بالرسالة، وأكرمتك بمكالمتي لك، فاقبل هذه النعم قبول شاكر، ولا تطلب سواها مما لا يجمل طلبه؛ كرؤية الله، فعندك نعم جليلة وأياد جزيلة.

١٤٥ ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

وكتبنا لموسى في التوراة كل شيء من الترغيب والترهيب والأحكام، فاقبلها - يا موسى - بجد وعزيمة وعمل وأوصِ بني إسرائيل أن يأخذوا بأفضل ما فيها عند الاختيار كالعفو بدل العقوبة، وكظم الغيظ بدل التشفي، وإنظار المعسر بدل التعجل بأخذ الحق، سأظهر لكم مصارع الظلمة وديار الكفر لتعتبروا بما ترون، وتتعظوا بما تشاهدون.

١٤٦ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

سأحجب الفهم في الآيات والفقه في نصوص الوحي عن كل متكبر، ومهما يرون من آية ويطالعون من دليل يدل على عظمة الله وقدرته وحكمته فإنهم لا يصدقون أبدًا، وإذا شاهدوا طريق الهدى والرشد يعرضون عنه ولا يتخذونه طريقًا لهم، وإذا شاهدوا طريق الغواية والضلالة يسلكونه ويجعلونه طريقًا لهم، وذلك الحجب عن الفهم والصرف عن الاهتداء لتكذيبهم بالآيات وإعراضهم عن المعجزات وغفلتهم عن تدبر العظات.

١٤٧ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

والذين كذبوا بالآيات التي بُعث بها الرسل وكذبوا باليوم الآخر، أبطل الله ما عملوه من حسنات كإكرام الضيف ونصر المظلوم وبر الوالدين ونحوها، ولا يعاقبون إلا على ما فعلوه من جرم وارتكبوه من إثم.

١٤٨ ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾

ولما ذهب موسى إلى الطور للمناجاة، صوَّر بنو إسرائيل من الحلي جسمًا على هيئة العجل له خوار إذا دخلت في جوفه الريح، وهو تمثال جماد صامت لا يكلمهم ولا يستطيع إرشادهم إلى الخير، وجعلوه إلهًا لهم، وهم بذلك ظالمون لأنفسهم بهذا الشرك العظيم.

١٤٩ ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

لما عبدوا هذا الصنم، وزلت بهم القدم، وقعوا في الندم، وتيقنوا أنهم أخطؤوا عادوا تائبين يقولون: إذا لم يتجاوز الله عنا ويسامحنا فيما فعلنا ويمحُ ذنوبنا لنكونن من الهالكين؛ فسُوءُ عملنا يُوجِبُ عظيم العقاب من ربنا.

(١٥٠) ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولما عاد موسى من المناجاة إلى قومه غضبان عليهم، حزينًا لفعلهم في عبادة العجل، قال لهم: بئس ما فعلتم من عبادتكم للعجل حين غيابي عنكم!! هل استعجلتم أمر ربكم وميعاده الذي وعدني وهو أربعون يومًا فلم تنتظروا عودتي إليكم، فلمَّا لم أعد عبدتم غير الله؟ وأمسك بشعر رأس هارون يسحبه ويعاتبه على لينه مع بني إسرائيل، فقال هارون: يا أخي من أمي ترفق بي واحْلم عليَّ، فإن بني إسرائيل وجدوني وحيدًا ضعيفًا فأرادوا قتلي فلا تُفْرِحْهم بإهانتي، فلست مشاركًا لهم في عبادة العجل، فلم أرض فعلهم وقد أنكرته عليهم وأنا بريء منهم.

(١٥١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

فقال موسى: يا ربي اغفر لي فعلي بأخي، واغفر لأخي تقصيره مع قومي، وتغمدنا برحمتك الواسعة وحلمك الكثير، فأنت أرحم الرحماء، وأكرم من تجاوز عمن أساء، فرحمتك ملأت الأرض والسماء.

(١٥٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾

إن الذين عبدوا العجل من دون الله سيصيب الله عليهم غضبه وعذابه وأليم عقابه في الآخرة، وسوف تلحقهم المهانة والذلة والحقارة في الحياة الدنيا، ومثل هذا الجزاء جزاء كل كاذب على الله بعبادة غيره والإشراك معه سواه، ووصفه بما لا يجوز – سبحانه – ونسبة ما لا يحل له تعالى.

(١٥٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ومن ارتكب المعاصي واقترف الذنوب ثم تاب، تاب الله عليه، مع إيمان صادق بالله ورسله وكتبه، فالله من بعد هذه التوبة يغفر لهم ذنوبهم، ويرحمهم برحمته الواسعة؛ لأنه كثير الغفران رحيم رحمن.

(١٥٤) ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾

ولما زال عن موسى الغضب أخذ ألواح الكتب التي رمى بها وهو غضبان، وفيها إرشاد وموعظة وأحكام مفصلة وبشرى ورحمة واسعة لمن خاف ربه وخشي مولاه، وخاف إلهه.

(١٥٥) ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾

واصطفى موسى من قومه سبعين رجلاً ليكونوا معه عند مناجاته لربه؛ ليشهدوا صدقه ويعلموا حاله، فلما حضروا معه: طلبوا رؤية الله جهرًا فأصابهم الله بالزلزلة، والصعقة، فقال موسى آسفًا متحسّرًا: يا رب لو أردت أهلكتنا قبل هذا الميقات، فماذا أقول إذا عدت إلى بني إسرائيل وقد هلك السبعون، فيا رب: لا تعذبنا بفعل الجهلاء الطائشين منا، وهذا امتحان واختبار منك، تضل من أردت وتهدي من أحببت، بيدك الأمر كله، أنت متولي أمورنا، بيدك نفعنا وضرنا، فاغفر يا ربنا ذنوبنا، وارحم ضعفنا برحمتك الواسعة، وأنت خير من غفر الذنب، فأنت تغفر تكرمًا لا لنفع تريده، وتتجاوز فضلاً لا لمصلحة من العباد.

(١٥٦) ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

وقدِّر لنا يا ربنا في هذه الدنيا خيرًا كثيرًا من الصحة والغنى والعزة والعمل الصالح، واجعل لنا في الآخرة الجنة والرحمة والمغفرة من الذنوب، إنَّا عُدنا إليك مستغفرين تائبين نادمين على ما فعلنا، فقال الله لموسى: إن هذا العذاب الذي عذبتُ به بني إسرائيل مثل الرجفة أُعذبُ به من أشاء من العصاة، ورحمتي شملت كل شيء من المكلفين

وغيرهم، وهي الرحمة الواسعة التي سبقت غضبه - سبحانه وتعالى - فهو أرحم الراحمين، ويقدرها - سبحانه - لمن اتقاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولمن اجتنب الشرك وكبائر الذنوب، والذين يؤدون زكاة أموالهم المفروضة عليهم ويتطهرون بها من الدنس، ويزكون أرواحهم بها من المعاصي والذين يصدقون بآيات الله ولا يكذبون رسل الله.

(١٥٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

هؤلاء هم الذين يقتدون بالنبي المعصوم ﷺ الذي شرّفه الله بالرسالة وأكرمه بالنبوة وأيده بالعصمة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب؛ ليكون ذلك أتم للمعجزة، وهذا النبي العربي مكتوب عند اليهود في التوراة وعند النصارى في الإنجيل، وهو يأمر أتباعه بكل خير دلّت عليه الفطرة السليمة والعقل الصريح والنقل الصحيح، ويحذّرهم وينهاهم عن كل منكر استقبحته النفوس وحرّمته الشرائع، ويحل لهم من الطعام والشراب واللباس كل ما طاب وكل حلال مستلذ ليس بخبيث ولا نجس ولا ضار، ويحرّم على أتباعه كل خبيث من قبائح المأكولات والمشروبات والملبوسات التي تنفر منها الطباع السليمة والفطر المستقيمة، وتحرّمها الأدلة الصحيحة وهو يحط عنهم كل ما ضايقهم من الأوامر الشديدة الغليظة، وكل ما يكلّف عليهم ويشق عليهم، فهو بُعث باليسرى وبالبشرى ﷺ، وجاء بما ينسخ كل حكم فيه مشقة على النفوس كان يُعمل به في الشرائع السابقة، فالذين صدّقوا به واتبعوه وآمنوا بما أرسل به وناصروه ووقّروه وحموه من عدوه وجاهدوا معه واهتدوا بالهدى الذي بُعث به وهو القرآن والسنة المطهرة، فهؤلاء هم الذين فازوا في الدنيا والآخرة، فازوا بالهداية والاستقامة والجنة والرضوان.

(١٥٨) ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

قل أيها الرسول للناس جميعًا: إن الله أرسلني إلى الثقلين الجن والإنس وإلى البشر كافة، فدعوتي عامة شاملة لكل إنسان، والله الذي أرسلني هو المستحق للعبودية؛ لأنه الذي ملك السموات والأرض وصرفها ودبّرها، فملكه ملك تام - جل في علاه - فهو المستحق للألوهية، وهو - سبحانه وتعالى - الذي يُوجد من العدم، ويخلق الخلق، وهو يفنيهم، فهو الرب وحده الذي له صفات الربوبية، فحقه أن يُعبد وحده، فعليكم بتصديق ما أنزل الله وما أُرسل به الرسول ﷺ الذي أكرمه الله بالنبوة، والذي جعله - سبحانه وتعالى - أميًا لا يقرأ ولا يكتب؛ ليكون أتم للمعجزة، وهذا النبي مصدق لما أنزل الله من الكلمات الشرعية، فعليكم بتصديقه وامتثال أمره والاقتداء به ﷺ والاتساء بسنته المطهرة، فإن هذا هو الفلاح في الدنيا والآخرة، والفوز الأعظم الذي يوصلكم إلى رضوان الله ورحمته وجنته.

(١٥٩) ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

وهناك طائفة كبيرة من أمة موسى يُرشدون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهم مداومون على الحق يقولون به ويقضون به ويعملون به فأجرهم على الله.

(١٦٠) ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

وقسَّم الله - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل إلى اثني عشر سبطًا، والسبط هو: ولد الولد أو ولد البنت، وهو ما يقارب القبيلة، فقسَّمهم إلى هذه الأقسام، وأوحى الله إلى موسى لما طلب منه قومه السقيا، فأمره - سبحانه وتعالى - أن

يضرب الحجر بعصاه، فلما ضرب موسى - بسم الله - الحجر انفجر هذا الحجر اثنتي عشرة عينا بعدد هؤلاء الأسباط؛ ليعرف كل سبط منهم عين الماء المخَصَّصة له؛ ليقل الزحام وليرتفع الخصام، ولتتميز هذه الأقسام، فأخذوا يشربون الماء البارد، ورزقهم الله - سبحانه وتعالى - الظل الوارف بأن ظلل عليهم الغمام ونجاهم من الحرِّ، وهيأ لهم الطعام من المن وهو الحلوى، والسلوى وهو الطير السمين، ثم أمرهم - سبحانه وتعالى - أن يأكلوا من هذا الحلال الطيب اللذيذ من رزقه - سبحانه - ويشكروه ولا يكفروه، ولكنهم ردوا نعمة الله -عز وجل- وجحدوا معروفه وإحسانه وعصوا أمره، قال سبحانه: وما ظلمونا بهذه المعاصي فالله لا تضره معصية العاصي، ولكنهم ظلموا أنفسهم، فسوف يقع بهم العقاب، وينزل عليهم العذاب.

١٦١ ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم قلنا لبني إسرائيل مع موسى ادخلوا بيت المقدس وتناولوا ما أحل الله لكم من الطيبات واقبلوا رزق الله - سبحانه وتعالى - واستغفروا ربكم، وقولوا: يا ربنا حطً عنا سيئاتنا، واسجدوا سجدة الشكر له - سبحانه وتعالى - فإذا فعلتم ذلك غفر الله لكم خطاياكم وذنوبكم، وستر عيوبكم، وتجاوز عن سيئاتكم، ومن كان منكم محسنًا زاده الله بهذا الاستغفار درجات وكتب له حسنات.

١٦٢ ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾

ولكن لخبثهم ولسوء طبائعهم غيروا الكلمة التي أمرهم الله بها وهي (حطة) فقالوا: (حنطة في شعرة) وكانوا ظالمين متجاوزين في ذلك الحد، فأنزل الله عليهم عذابًا من السماء، وغضبًا ماحقًا، ورجزًا ساحقًا، بسبب معاصيهم وتجاوزهم الحد ومخالفتهم أمر الله.

١٦٣ ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

وأسأل - أيها النبي - ذرية أولئك اليهود عما وقع على أهل القرية «إيلات» على ساحل البحر الأحمر يوم كانوا يتجاوزون حدود الله وقد نهاهم أن يصيدوا يوم السبت فتعرضوا للصيد يوم السبت، وكان من ابتلاء الله لهم أن الأسماك كانت تأتيهم يوم السبت الذي نُهوا عن الصيد فيه، ويوم ينتهي السبت لا تأتي بقية الأيام، وهذا امتحان عظيم واختبار كبير؛ لأنهم عصوا الله -عز وجل- وخالفوا أمره وعصوا رسوله، فجعل الله هذه البلية عليهم.

١٦٤ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

وأتت طائفة كانت تعظهم، ثم يئست من صلاحهم، وقالت لطائفة ما زالت تعظهم وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر: لماذا تنصحون هؤلاء وقد كتب الله عليهم الهلاك؛ لأنهم خالفوا أمره فلا مصلحة من نصحهم ولا خير في وعظهم، فهم متعرضون للمحق وللفناء أو للعذاب الشديد، فقالت هذه الطائفة: نحن ننصحهم ليكون عذرًا لنا عند ربنا - سبحانه وتعالى - لئلا نشاركهم في ذلك، وربما أن الله -عز وجل- يصلحهم بوعظنا، فلعل الله أن يهديهم بما ننصحهم به وهذا مقصد من مقاصد النصيحة فإنها واجبة وإن تيقن الناصح عدم انتفاع المنصوح بها.

١٦٥ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

فلما أعرض عصاة هذه القرية وخالفوا أمر الله ولم يمتثلوا وعظ الواعظين أنجى الله الذين نصحوهم سواء من يئس من نصحهم، أو من استمر في نصحهم، وأهلك العصاة ودمرهم بعذاب شديد وبعقاب أليم لمخالفتهم أمر ربهم والخروج عن طاعته.

(١٦٦) ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

فلما تجبر هؤلاء وتكبروا وتجاوزوا الحد وأعرضوا عن أمر الله -عز وجل- وارتكبوا معاصيه مسخهم الله قردةً أذلة حقَارًا مطرودين من رحمة الله مبعدين من رضوانه، وهذا جزاء من خالف أمر الله وارتكب نهيه.

(١٦٧) ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

واذكر - أيها النبي - حين أعلم ربك إعلامًا ظاهرًا صريحًا ليسلطن على اليهود إلى يوم القيامة من يذلُّهم ويستولي عليهم ويتسلط عليهم بذنوبهم؛ لأنهم خالفوا شرع الله -عز وجل-؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - سريع العقاب لمن عصاه، وهو غفور يتجاوز عن سيئات من أطاعه ويرحم من أقبل عليه وتاب وأناب.

(١٦٨) ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ووزعنا اليهود في الأرض فلا يوجد بلد إلا وفيه يهود في الأكثر، منهم أخيار استقاموا على الشرع وآمنوا بالرسالة، ومنهم كفار فسَّاق خرجوا عن طاعة الله، وامتحنهم الله - سبحانه وتعالى - بالمصائب وبالنعم، وبالخوف والأمن، والشدة والرخاء، لعلَّهم أن يراجعوا أنفسهم ويعودوا إلى ربهم ويتوبوا إلى بارئهم.

(١٦٩) ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

فجاء من بعد هؤلاء الأقوام ذرية وخلْفٌ سيئٌ ورثوا علم التوراة، ولكنهم أخذوا الرشوة في الأحكام، وأكلوا السحت والتعامل بالحرام، وحرَّفوا آيات الله مقابل متاع قليل زائل من الدنيا، ويقولون سيغفر الله لنا بأمانيهم الباطلة، وكلما أتاهم مال آخر من الحرام أكلوه، ويتمنون على الله الأماني بالمغفرة، وقد أخذ الله عليهم في التوراة ألا يقولوا إلا الصدق، ولا يحكموا إلا بالحق، وقد قرؤوا ما في التوراة وفهموا وعلموا، لكنهم عصوا الله على علم، واعلموا أن الآخرة بما فيها من نعيم دائم وخلود مستمر خير وأبقى من هذه الدنيا الزائلة والمتاع الفاني، الذين يبيعون دينهم به ويشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً من أجل دنيا سوف تضمحل عما قريب.

(١٧٠) ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

وأما الذين يلتزمون أوامرَ الكتب المنزلة من عند الله -عز وجل- ويعملون بما فيها ويداومون على الصلاة في أوقاتها، ويحافظون على ما تدعو إليه الصلاة من أوامر ويجتنبون ما تحذِّر عنه من نواه فهؤلاء صالحون مُصلحون، والله لا يضيع ثواب المصلحين، ولا يبطل سعيهم، وسوف يحفظ لهم أجرهم؛ فهم صالحون في أنفسهم مصلحون لغيرهم.

(١٧١) ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

واذكر يوم رفعنا جبل الطور فوق رؤوس بني إسرائيل كأنه سحابة، وهددناهم بإيقاعه عليهم إذا لم يلتزموا أمرَ الله - سبحانه وتعالى - ويُوفُوا بالميثاق ويأخذوا ما آتيناهم من الرسالة بعزم وجد وعمل ويتذكروا ما في التوراة ويعملوا بها؛ لعلَّهم أن يتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

(١٧٢) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾

وإذ أخرج الله من أصلاب بني آدم ذريتهم وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن؛ وحين أخرجهم من أصلاب آبائهم، قررهم بإثبات ربوبيته بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومالكهم، فقالوا: بلى أقررنا بذلك. ذلك لأن الله فطر عباده على الدين الحنيف القيم؛ ولكن الفطرة قد تتغير وتتبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، فالله - سبحانه وتعالى - أقام عليهم هذه الحجة والبرهان؛ لئلا ينكروا يوم القيامة فلا يقروا بشيء من

ذلك ويزعموا أن حجة الله عليهم لم تقم وليس عندهم علم بذلك وغفلوا عنه، فاليوم انقطعت عنهم الحجة وثبتت الحجة البالغة لله الواحد القهار.

١٧٣ ﴿ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾

أو تقولوا: إن الذين أشركوا هم آباؤنا، ونحن جئنا بعدهم فحذونا حذوهم فاتبعناهم واقتدينا بهم، ونحن لم نعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ، فكيف تعذبنا يا ربنا بما فعل هؤلاء الآباء، فإنهم هم الذين سنُّوا الشرك بك ونحن جُهلاء لا نظر عندنا.

١٧٤ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾

ومثل البيان للميثاق السابق نبيِّن الآيات البينات والمعجزات الظاهرات ليتدبرها أهل الفطر السليمة والأنظار المستقيمة؛ وليتوبوا من الشرك ويعودوا إلى التوحيد ويؤمنوا بالله وحده.

١٧٥ ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾

وقص عليهم - يا محمد - وأخبرهم بخبر ذلك الرجل الذي آتيناه علمًا من علم الأنبياء الذي أنزله في كتبه، وهو من علماء بني إسرائيل (بلعم بن باعوراء) فترك العمل بآيات الله وأهملها وتبرأ منها، فاستولى عليه الشيطان وصار قرينه، يتبع أوامره ويقتدي به، وصار من رؤوس أهل الضلالة، ومن أئمة الغواية ومن أكبر المفسدين.

١٧٦ ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ولو شاء الله له الرفعة والمكانة العالية والدرجة السامية؛ لأكرمه وجعله عاملاً بعلمه، متبعًا لآيات ربه مهتدٍ بهداه، ولكنه اتبع هوى نفسه الأمارة بالسوء وآثر الدنيا على الآخرة وركن إليها، وآثر المتاع الزائل الرخيص على النعيم الباقي الدائم في جنات النعيم، فمثله مثل الكلب إن تطرده وتزجره يلهث، وإن تتركه يلهث، فهو مكروب دائمًا، ويركض وراء شهواته، وهذا الرجل يركض وراء الدنيا كركض الكلب وراء ما يريده، وهذا المثل الدنيء الرخيص الخسيس هو مثل القوم الذين يكذبون بآيات الله من اليهود والمشركين وغيرهم بعد أن اتضح لهم أنها من عند الله، فعليك أن تخبر الناس بهذه الأمثال وتقص عليهم هذه القصص؛ لتكون عبرةً وعظةً لعلَّهم يتفكرون ويتدبرون.

١٧٧ ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾

بئس هذا الوصف والمثل، مثل الذين كذبوا بآيات الله وجحدوا رسالته وحاربوا رسله، فهم الذين ظلموا أنفسهم بالتكذيب، وتسببوا في العذاب النازل بهم لكفرهم.

١٧٨ ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

الذي يوفقه الله - سبحانه وتعالى - للخير وللإيمان وللعمل الصالح، فهو المهتدي حقًا، والذي يخذله ولا يهديه سواء السبيل ولا يرشده، فهو الذي خسر الخسارة الكاملة التامة.

١٧٩ ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾

ولقد خلقنا للنار كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لكنهم لا يفقهون بها الحق، ولا يفهمون بها الأدلة، ولا يتبصرون بها النصوص الشرعية، ولهم أعين لا يشاهدون بها قدرة الله ووحدانيته وآيات عظمته في الكون، ولهم آذان لكن لا

يسمعون بها النصائح والمواعظ سماع قبول، وتدبروا عمل هؤلاء إنهم كالبهائم في عدم استفادتهم من الحواس والجوارح التي وهبهم الله، بل هم أضل من البهائم؛ لأن البهائم تعرف بقدر ما أعطاها الله ما ينفعها وما يضرها في معيشتها، أما هؤلاء فلا يميزون بين الحق والباطل، وهم معرضون عن آيات الله -عز وجل- ساهون عنها لاهون.

(١٨٠) ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

وله - سبحانه وتعالى - الأسماء الحسنى التي سمى بها نفسه من التسعة والتسعين اسمًا وغيرها، فالواجب أن يُدْعَى بها، وأن يُناجى بها، ولا يُحَرَّف فيها ولا يُسمى - سبحانه وتعالى - بأسماء لم يَنْزِل بها منه سلطان في الكتاب ولا في السنة، فالواجب التقيد بها؛ لأنها توقيفية، والواجب ترك من مال عن هذه الأسماء وألحد فيها فحرَّفها وسمى الله بغير أسمائه الشرعية، فهؤلاء عقابهم عند الله سيجزيهم وصفهم ويلقون جزاء افترائهم.

(١٨١) ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾

وممن خلق الله - عز وجل - من الأمم والناس فريق كثير هم على خير وهدى وبصيرة، يدعون إلى الحق، وينهون عن الباطل، ويحكمون بالعدل في أحكامهم ويستضيئون به.

(١٨٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

وأما الذين كذبوا بآيات الله الشرعية في كتاب الله وجحدوا بها وكفروا، فهؤلاء مصيرهم إلى الله سوف يأخذهم قليلاً قليلاً إلى الهلاك من حيث لا يعلمون، ويستدرجهم إلى مهاوي الهلاك بنعم لم يشكروا الله عليها، وبنقم مخبأة في نعم، ومحن مستورة في منح، فإن كيده متين سبحانه.

(١٨٣) ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾

ويمهلهم - سبحانه وتعالى - ويؤخر لهم العقوبة لتدبير عظيم خفي محكم قوي لا يُطاق، فإنه - سبحانه وتعالى - له في إهلاك أعدائه من الوسائل التي تَحَار فيها العقول، وتذهل منها الأذهان ما لا يدور بالخيال، فكيده - سبحانه - ذاك الكيد القوي المبرم المحكم الذي لا يستطيع البشر له.

(١٨٤) ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾

أغفلوا ولم يتفكروا في حال نبينا المرسل إليهم الذي رموه بالجنون، والواقع أنه ليس به جنون، وما هو إلا نذير يُبين لهم شرع الله ويحذرهم من عذاب الله وعقابه.

(١٨٥) ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾

لماذا لم يتفكروا وينظروا نظر اعتبار في أجرام السموات والأرض وهذا البناء الشاهق الضخم العظيم، وينظروا في كل ما خلق الله من الآيات الواضحة البينة على قدرته - سبحانه وتعالى - ويمكن أن أجلهم قد اقترب، وأن نهايتهم أوشكت، فلماذا لم يراجعوا أنفسهم؟ وإذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم المعجز المفحم الخالد، فبأي حديث بعده، وبأي كلام يمكن أن يصدقوا ويتأثروا؟.

(١٨٦) ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾

من لم يوفقه الله - عز وجل - للهداية فلا موفق له، ولا مرشد له، وهو مخذول هالك، والله سبحانه وتعالى يترك أعداءه في ضلالهم وفي حيرتهم تائهين، لا هاديَ يهديهم، ولا نصح ينفعهم، ولا موعظة تفيدهم.

١٨٧ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يسألك الكفار - يا محمد - متى الساعة ومتى قيامها ومتى موعد انتهاء العالم؟ فقل لهم: إن علم الساعة سرٌّ لا يعلمه إلا الله لم يُخبر به ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً، ولم يَطَّلِعْ عليه إلا الله - سبحانه - ولا يظهره إلا وقت مجيئه والساعة عظيمة في السموات والأرض، فهي من أعظم الآيات ومن أدهى الأمور، ولا تأتي إلا فجأة دون أن يعلم أحد متى تجيء، فمجيئها يُذهل العقول، وهؤلاء الكفار يسألونك - يا محمد - كأنك أنت مهتم بأخبار الساعة، تسأل عنها وتعرف أخبارها وتحيط بأشراطها، فأخبرهم أن علِمها عند الله وحده، ولا يعلم علمها سواه - سبحانه وتعالى - لكن هؤلاء الجُهلاء لا يعلمون أن الله وحده هو الذي يعلم، فهم في شكِّهم مترددون، ومنهم من هو منكر للساعة، ومنهم ما هو مرتاب فيها.

١٨٨ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

وأخبرهم - أيها النبي - أنك لا تستطيع أن تجلب نفعًا لنفسك لم يُرِدْه الله، ولا تستطيع دفع ضرٍ وقع بك إلا ما أراد الله دفعه، فهو - سبحانه وتعالى - المقدر لكل نفع وضر، فبيده الخير والشر، وهو الذي قضى كُل الأمور، ولو كنت أنت تعلم الغيب لاستكثرت من جلب الخير لنفسك، وحرصت على كل نفع، واقتنصت كل فرصة؛ لأنك قد اطلعت على مناسباتها، ولو كنت تعلم الغيب ما مسَّك الضر، فكنت متحصنًا متحذرًا تتوقاه، لكنك لا تعلم الغيب، ومهمتك أنت إنما هي النِّذَارة، أن تكون نذيرًا لمن عصى الله بالنار، ومبشرًا لمن أطاعه بالجنة، ولكن الذي يستفيد منك من نذارتك وبشارتك هم المصدقون المتبعون لك المؤمنون بما جئت به.

١٨٩ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

الله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلقكم من آدم، ثم خلق من آدم حواء من شكله؛ ليأنس بها ويسكن إليها، فلما غشيها آدم حملت حملاً خفيفًا فذهبت وأتت وهو في بطنها، فلما كبر هذا الحمل دعا آدم وحواء الله - سبحانه وتعالى - وعاهداه لئن أتاهما ولدًا سليمًا من العاهات صالحًا من غير نقص ليشكرنَّ نعمة الله -عز وجل- على هذا العطاء.

١٩٠ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

فلما آتاهما الله -عز وجل- هذا الولد الصالح السليم من العاهات التام الخلقة، أخذا يسميانه عبد الحارث بوسوسة من الشيطان، والعبودية إنما هي له وحده - سبحانه وتعالى - ولا يجوز صرف شيء منها لغيره، فسبحانه أن يكون له شريك، وتقدَّس - سبحانه - أن يكون له ولد، وتعالى أن يكون له ندٌّ أو ضد.

١٩١ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

كيف يشرك الناس بالله معه آلهة أخرى من الأصنام، وهي لا تخلق شيئًا ولا ترزق أحدًا، وإنما الخالق هو الله وحده - سبحانه - فهو أحق بأن يُعبد، والخلق أعظم آية من آياته - سبحانه وتعالى - ولذلك ذُكِرَت عند ذكر الألوهية والشرك كثيرًا.

١٩٢ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

وهذه الأصنام لا تملك لمن عبدها نصرًا، فهي لا تدفع عنه ضُرًا، ولا تجلب له نفعًا، وهم أنفسهم يعجزون عن نصر أنفسهم عند نزول البأس بهم والعذاب، إنما الذي يملك النصر هو الله -عز وجل-، والذي يملك النفع والضر هو وحده تبارك وتعالى.

(١٩٣) ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾

وإن تطلبوا من الأصنام الهداية لا تهتدي لنفسها، فكيف تهدي غيرها، ولجمادها لا تسمع ولا تعي، فسواء خاطبها الإنسان بكلام أو سكت فهي لا تدري ما يُقال لها.

(١٩٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

وهذه الأصنام التي يعبدها الناس من دون الله هي مخلوقة كما أنكم مخلوقون، وهي خاضعة لقدرة الله ومملوكة له، فإن كنتم شاكين في نفعها وضرها فاطلبوا منها أن تنفعكم، أو أن تدفع عنكم ضرًا إن كنتم صادقين أنها تملك ذلك، أو أن لها حياةً، أو أن لها تأثيرًا، فسوف ترون أنها لا تملك نفعًا ولا ضرًا، فالذي يجيب الدعاء ويكشف الضراء، ويدفع البأساء، ويجلب النعماء، ويأتي بالرخاء هو رب الأرض والسماء.

(١٩٥) ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾

ألهذه الأصنام التي عبدتموها وسجدتم لها، ألها حياة؟ ألها جوارح؟ ألها آلات تستخدمها في مزاولة أعمالها؟ هل لها أرجل تمشي بها لأداء أغراضها؟ أم لها أيادٍ تعمل بها وتأخذ وتعطي؟ أم لها أعين تبصر بها وتشاهد؟ أم لها آذان تسمع بها ما ينفعها؟ قل ادعوا شركاءكم من هذه الأصنام واستعينوا بها، ثم كيدوني إن أردتم وحاربوني بها ولا تمهلوني ولا تتأخروا في إضراري إن استطعتم، وهذا غاية التحدي ونهاية الثقة بالله -عز وجل- والتوكل عليه، فهم وأصنامهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا، بل هم أذل وأضل من أن يضروا من خالفهم؛ لأنهم يحاربون ملك الملوك لا إله إلا هو.

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

وليّي وناصري هو الله الواحد الذي نزل الكتاب ليكون نذيرًا للعالمين وهو - جل جلاله - يتولى الصالحين الذين صلُح بالهم - وصلحت أعمالهم.

(١٩٧) ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾

وهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله لا تجلب لكم نفعًا ولا تدفع عنكم ضرًا، وهي عاجزة عن نصر أنفسها، فكيف تنصركم؛ إنها جامدة خامدة هامدة.

(١٩٨) ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾

وإذا طلبتم من هذه الأصنام أن تهتدي وخاطبتموها بالكلام والمواعظ فإنها لا تسمع؛ لأنها حجارة جامدة، وتراها وهي مصورة كأنها تنظر إليك إذا قابلتها، وهي لا تبصر ولا ترى؛ لأنها حجارة منحوتة جامدة.

(١٩٩) ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

خذ - أيها النبي - من أخلاق الناس ما سهل وما تيسر وما جادوا به دون إعنات منهم أو طلب الزيادة منهم، بل ما أتاك من الواحد منهم فاقبله ولا تكلفهم شططًا وتريد منهم أكثر مما يستطيعون، عليك أن تأمرهم بكل مستحسن عقلاً وشرعًا من الأقوال والأعمال، وهو ما يوافق الفطر السليمة، والعقول الصحيحة، وأعرض عن السفهاء والحمقى والجهلاء، فلا تعاملهم بجهلهم وسفههم وترفّع عنهم، فإنك على هدىً مستقيم.

(٢٠٠) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

إذا وسوس إليك الشيطان بشيء من الفساد والأمر بالسوء فاستعن بالله عليه والتجئ إلى الله - سبحانه وتعالى - واسأل ربك أن يدفع عنك مَكْرَه ووسوسته، فإن الله يسمع الدعاء ويعلم بالحال، ويطلع على الأعمال وكفى به حسيبًا.

٢٠١ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾

إن المتقين الذين اتقوا ربهم وخافوا عقابه وعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه إذا أصابهم أو ألمت بهم وسوسة أو نزغ من الشيطان تذكروا ربهم – سبحانه وتعالى – وما أعد لأعدائه، فخافوه واستيقظوا من غفلتهم، وقاموا من كبوتهم، واستغفروا من زلتهم، فإذا هم يبصرون الخطأ ويكتشفون السوء، ويرون الطريق المستقيم فيعودون إلى رشدهم.

٢٠٢ ﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴾

وإخوان الشياطين من الكفار المشركين يعاونونهم في الضلال، أو أن الشياطين يعاونون الكفار على الشرك والفساد في الأرض، وهم لا يكفون عن إفسادهم ودعوتهم إلى الباطل والإمعان بهم في الضلال، ولا يقصرون عن ذلك، بل هم دائمًا وأبدًا في أفعالهم المشينة، وأعمالهم القبيحة، مستمرون منتهكون لمحارم الله.

٢٠٣ ﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

وإذا لم تأت – أيها النبي – هؤلاء المشركين بمعجزة مما طلبوا أو بآية من القرآن، فإنهم يقولون لك: هل اخترعتها أنت من عند نفسك؟ فأجبهم أنك نبي مرسل من عند الله وعبد مأمور تتبع وحي الله – عز وجل –، ولا تستطيع أن تأتي بالآيات من عندك، ولا تستطيع أن تخترع المعجزات، ويكفي هذا القرآن فإنه ينير القلوب في ظلماتها، وفيه براهين صادقة وأدلة واضحة ونور تام يميز بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وفيه هداية يرشد به الله من شاء من عباده، ورحمة لمن اتبعه وآمن به وصدقه وامتثل أوامره.

٢٠٤ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾

وإذا سمعتم كتاب الله سبحانه وتعالى يُتلى عليكم في الصلاة وغيرها فاستمعوا للتفهم والتدبر، وأنصتوا للتَّعقُّل والتفكر والتفقه، ودعوا الشواغل والكلام عند استماع تلاوته لعلّكم تنالون رحمة الله – عز وجل – وتظفرون برضوانه وتمتثلون أمره وتنالون كرمه وتحوزون ما عنده – سبحانه وتعالى – من قبول وحظوة، فإن هذا الكتاب طريق لكل هداية، ومرشد لكل فلاح.

٢٠٥ ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾

وعليك بذكر الله – عز وجل – مداومًا عليه، واستمر على تذكره في نفسك بالدعاء والذكر والابتهال، وتوسط في ذكر الله، فلا تجهر به فيكون سببًا للتشويش على الناس وعلى النفس، ولا تُسِرَّ فلا تسمع نفسك ومن حولك، وعليك بذكر الله – عز وجل – في صباح كل يوم ومسائه، ولا تكن من المعرضين عن ذكره، اللاهين عن عبادته، الصادين عن آياته.

٢٠٦ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾

وعليكم – أيها المؤمنون – أن تتشبهوا بالملائكة، فإنهم خاضعون لله – عز وجل – خاشعون لأمره طائعون له – جل في علاه – يذكرونه كل وقت وآن، لا يسأمون ولا يفترون، مع الخضوع التام والخشوع الكامل والتبتل إليه بالعبادة؛ فكونوا مثلهم في طاعتكم وفي إخباتكم وسجودكم، تنالوا رضوان ربكم وتفوزوا برحمة مولاكم.

مدنية

ترتيبها ٨

سورة الأنفال

آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يسألونك - يا محمد - عن قسمة غنائم المعركة، فأخبرهم أن حكم قسمتها عند الله والرسول، فعليكم أنتم بتقوى الله وطاعته وخشيته والإنابة إليه، تصلح أموركم ويرزقكم من فضله، فحق الله تقواه، وحق الناس صلاح ذات البين بترك الخلاف والشقاق واجتناب البغضاء والشحناء، وأعيدوا كل خلاف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فبهذا تحققون طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فمن أصلح ما بينه وبين الله وما بينه وبين الناس وحكم الكتاب والسنة في حياته أفلح وفاز بخيري الدنيا والآخرة، هذا لمن كان صادقًا في إيمانه مخلصًا في طاعته.

(٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

والمؤمنون الكاملون هم الذين تخاف قلوبهم عند ذكر مولاهم ويزدادون إيمانًا عند سماع آياته، ويفوضون أمرهم إلى ربهم، ويثقون به لا سواه، وفي الآية فضل الخوف من الله والهيبة له عند ذكره، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن التوكل على الله من أجلِّ الأعمال وثمرته العز والقوة.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

هؤلاء المؤمنون الصادقون يؤدون الصلاة على أكمل وجه في وقتها بخشوعها وآدابها، ويعطون زكاة أموالهم لمستحقيها، ويتصدقون بفضول ما رزقهم الله، فهم يؤدون زكاة الروح الصلاة، وزكاة المال الزكاة.

(٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

هؤلاء المؤمنون هم من صدق في إيمانه وأحسن في عمله، فهم الذين وصلوا إلى الحقيقة، ولزموا أجمل طريقة، لهم عند ربهم منازل رفيعة، ومراتب عالية من الإكرام في دار السلام والإنعام، في جوار الملك العلام مع غفران الذنوب، فلا تبعة عليهم ولا عقاب، ولا مؤاخذة، مع رزق لا تنغيص فيه، وعطاء لا كدر معه، ونعيم لا شائبة تشوبه.

(٥) ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾

كما كره بعض المؤمنين قسمة الغنائم يوم بدر كذلك كرهوا الخروج معك للقتال، مع أن خروجك للغزو من بيتك مصلحة ظاهرة، وصواب متيقن، ورشد واضح، أذن الله به وأحبه واختاره لك، وكان بعضهم كارهًا للخروج لقلة العتاد وضعف الاستعداد، فكان عندهم للنصر استبعاد.

(٦) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾

يجادلك هؤلاء المؤمنون في خروجك إلى بدر، وهو أمر مشروع، وخروج موفق، وسفر راشد، فكأنهم لشكهم في النصر يدفعون إلى الموت دفعًا من شدة الخوف ورهبة الموقف وكراهية القتال والحذر من النزال.

٧ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

وتذكروا حين وعدكم الله إما طائفة العير القادمة من الشام بالطعام، وإما طائفة قريش القادمة من مكة بالسلاح، وتريدون أنتم طائفة العير غير المسلحة؛ لتكون غنيمة باردة لكم بلا قتال، لكن الله يريد إعزاز الدين وهزيمة الكافرين وتمحيص المؤمنين والنصر لرسوله ﷺ ولكم؛ ليعلو الحق على الباطل وأهله، ويستأصل الكفار عن آخرهم.

٨ ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

لينصر دينه وعباده ويؤيد أولياءه ورسالته، ويهزم الكفر وأتباعه ويذلهم ويخزيهم ولو كره ذلك أهل الشرك وعبدة الطاغوت، فكلمة الله تامة، ودينه منصور، وحزبه غالب، وعدوه مخذول.

٩ ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾

واذكروا وأنتم تسألون ربكم بإلحاح أن ينصركم على عدوكم فأعانكم بألف من ملائكة السماء يقاتلون معكم المشركين، وهؤلاء الملائكة يتبع بعضهم بعضًا في صفوف متراصّة. وفي الآية فضل الدعاء ونصر الله لأوليائه.

١٠ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وما جعل الله إنزال الملائكة معكم إلا بشارةً بالنصر، ولتسكن قلوبكم من الخوف، والله الناصر وحده لا غيره، فلا أنتم ولا الملائكة من قدَّر النصر في بدر، ولكنه الله الذي يملك الأمر، وإنما قتالكم سبب له، والله قوي لا يُغَالب، قاهر لا يُحَارب، حكيم في أفعاله، يضع كل أمر موضعه للعلم الشامل والحكمة المتناهية، وفي الآية الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب.

١١ ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾

وتذكروا يوم ألقى الله عليكم النعاس ليلة بدر لتشعروا بالأمن والسكينة، ويذهب عنكم الخوف والقلق، ويُنزل عليكم من الغمام ماءً طاهرًا تتوضؤون به من الحدث وتغتسلون به من الجنابة، وليزيل عنكم وسوسة الشيطان، ولتقوية قلوبكم وإنزال الثبات عليها لئلا تصاب بالجبن والجزع، ولتثبت أقدامكم في الأرض بعد نزول المطر؛ لأنه شَدَّ الأرض فتماسكت به بعدما كانت رخوةً لينة، فثبت الله منهم القلوب بالأمن، والأقدام بالغيث.

١٢ ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾

وتذكروا يوم أوحى الله إلى الملائكة أني معكم بنصري وتأييدي فثبتوا المؤمنين في بدر، وبشروهم بالنصر على أهل الكفر، وسوف أجعل الخوف في قلوب الكفار ليولوا الأدبار، فأعملوا سيوفكم في رقابهم لتقطع رؤوسهم، وقَطِّعوا أصابعهم فلا يستطيعوا إمساك السيوف والرماح.

١٣ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

وسبب قتل المشركين؛ أنهم حاربوا الله ورسوله وعَادَوا دينه وجحدوا آياته، وكل من يعادي الواحد الأحد ويحارب ملك الملوك فتبًّا له وهلاكًا وسحقًا ومحقًا، فالله قوي الأخذ شديد البطش سريع العقاب، من حاربه خذله، ومن عاداه أخزاه، ومن قاتله أهلكه.

(١٤) ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

ذلكم العقاب - أيها الكفار - الذي حصل لكم يوم بدر بأيدي الملائكة والمهاجرين والأنصار هو عذاب الدنيا، فذوقوا ألمه وتجرعوا غصصه، ولكم في الآخرة عذاب النار من الأغلال والأنكال وسوء المآل وقبح الحال.

(١٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾

أيها المؤمنون، إذا صففتم أمام الكفار وواجهتموهم في المعركة وهم أمامكم يزحفون إليكم فلا تفروا وقت اللقاء، ولا تنهزموا أمام الأعداء، بل عليكم بالثبات والصبر، وأبشروا بالنصر.

(١٦) ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ومن يفر من مواجهة الكفار، ويولّهم الأدبار، فقد باء بغضب الجبار؛ لأنه آثر الحياة الدنيا على الآخرة، وشك في وعد الله، وأوهن الدِّين، إلا إذا كان قصده الانحراف للكر والفر، والمجاولة والمصاولة وخديعة العدو، أو انضم إلى طائفة من المؤمنين يقاتل معهم، فمن فرَّ بلا عذر من هذه الأعذار فجزاؤه النار، وبئس القرار، مع غضب من الله شديد، فواجب على كل مسلم مصابرة أعداء الملة في كل ساحة من ساحات الجهاد القتالية والعلمية والفكرية والأدبية وغيرها.

(١٧) ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

فأنتم لم تقتلوا المشركين بقوتكم، ولكن الله قتلهم بقوته ونصره، فهو الغالب على كل شيء، وأنت - أيها الرسول - ما رميت وجوه المشركين بالحصى حين رميت، ولكن الله هو الذي رمى وجوههم، فوقع الرمي عليهم، فهو الذي قدَّر وأعان وأيد وسدد ونصر، والله يمتحن المؤمنين بنصره لهم وإعزازهم وتأييدهم، وتمكينهم في الأرض، فهو سامع لكل مسموع، عالم بكل شيء، يسمع الأقوال ويعلم الأحوال؛ فاختياره عن علم، وتقديره عن حكمة. وفي الآية أن الأسباب وحدها لا تكفي بل لابد من التوكل على الله وطلب العون منه.

(١٨) ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ذلكم النصر الذي أيدكم الله به في بدر لامتحان المؤمنين، وإبطال الكافرين، وإفشال تدبير المشركين.

(١٩) ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن كنتم تسألون في دعائكم - أيها المشركون - أن ينصر الله أحق الطائفتين بالنصر قبل بدر فقد جاءكم الحكم في بدر بأن نصر الله أولياءه وهزم أعداءه، وأيّد أهل الحق وخذل أهل الباطل، ومكَّن للمؤمنين وأهان الكافرين، وإذا انتهيتم عن عَدائكم للإسلام وتكذيبكم للرسول - عليه الصلاة والسلام - وعبادتكم للأصنام، فهو خير لكم في الدنيا والآخرة، وإن تعودوا لكيد الدين نعد عليكم بكيدنا المتين، فكلما حاربتم هزمناكم أبدًا، ولن ينفعكم جمعكم مهما كثر، فالله أقوى وأجل، ولن ينصركم أحد من دونه، والله - دائمًا - مع أوليائه المؤمنين بالتأييد والتسديد والنصر والإعانة، ومن كان الله معه فمن يخاف؟ ومن كان الله ضده فمن يرجو؟

(٢٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

أيها المؤمنون، امتثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه، واتبعوا رسوله تسعدوا وتفلحوا في الدارين، ولا تعرضوا عن هُدَى الله وهُدَى رسوله، وأنتم تسمعون القرآن والسنة بما فيهما من نصائح ومواعظ ووعد ووعيد.

٢١ ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

ولا تكونوا كمن كفر بالله وادَّعى سماع الهدى الذي أنزله الله على رسله، وفي الحقيقة أنهم لم يسمعوا سماع قبول واستجابة وعمل وفهم، وفقه ومعرفة، إنما كسماع البهائم للصوت لا للفحوى، وللفظ لا للمعنى.

٢٢ ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

إن شرًّ ما دب على وجه الأرض عند الله الذين صُمَّت آذانهم عن سماع داعي الحق، وخرست ألسنتهم عن النطق بالصدق، الذين لا فقه عندهم في المعاني، ولا فهم في المقاصد، ولا إدراك للنافع والضار، ولا تميز بين الحق والباطل، فهم كالأنعام السائمة، والدواب الهائمة، فطر منكوسة، وبصائر مطموسة، جهل مطبق، وسفه محقق.

٢٣ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

ولو علم الله في قلوب هؤلاء الكفرة حبًا للهداية واستعدادًا لقبول الحق، وفطرة مهيأة للاستجابة، لأسمعهم سماع نفع وفقه يفهمون به الخطاب، ولو فُرِضَ أن الله أسمعهم لصدوا عن الإيمان، وأعرضوا عن الاهتداء بالقرآن، استكبارًا وعتوًا، وعنادًا وفجورًا.

٢٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

أيها المؤمنون، أحسنوا الاستجابة لله باتباع أمره واجتناب نهيه، واستجيبوا للرسول ﷺ بحسن الانقياد له وجميل المتابعة والاقتداء بسنته؛ لأن في الاستجابة لله ولرسوله حياتكم السعيدة وعزتكم الغالية، ونصركم المجيد وفلاحكم الدائم؛ لأنكم بغير هذه الاستجابة أموات أذلة هالكون، وتيقنوا أن الله قدير أن يحول بينكم وبين قلوبكم، فيتصرف فيها كما يشاء فيسلب منها الإيمان ويذهب منها اليقين ويطمس منها الهدى ويحجبها عن النور، ثم إنّ المعاد إليه - سبحانه - والحساب عنده؛ ليجازي كل عامل بعمله، وهذا يوجب الحذر من زيغ القلوب والخوف من الرجوع إلى علام الغيوب، والبعد عن المعاصي والذنوب.

٢٥ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

أيها المؤمنون، احذروا فتنة قد تقع بكم لتقصيركم في الاتباع، وإهمالكم التناصح، فتعم الجميع، وتأخذ الكل، وتنال بضررها الناس كافة؛ لسوء فعل العاصي، وسكوت البريء، كمن شاهد المنكر ولم ينكره مع قدرته على إنكاره، فيعاقب العامة بذنوب الخاصة، وتيقنوا أن الله شديد العذاب قوي العقاب، أليم الأخذ، إذا أخذ القرى أفناها، وإذا عاقب الشعوب أبادها، وإذا غضب أتلف، وإذا بطش أهلك، فيا من يرى سفينة الأمة تغرق بالمعاصي خذ على يد العاصي، وإلا غرقت مع من غرق ولا عاصم - يومئذ - من أمر الله إلا من رحم.

٢٦ ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - قبل الهجرة يوم كنتم في قلة وذلَّة تخافون المشركين وقد أحاطوا بكم وبسطوا عليكم الأذى والتعذيب والإساءة، فهيأ لكم المدينة مأوىً يحميكم، وملجأ يمنعكم منهم، ونصركم عليهم في بدر وغيرها، وهيأ لكم رزقًا حلالاً طيبًا من الغنائم وسواها؛ لتشكروا ربكم بطاعته وحسن عبادته ومتابعة رسوله واجتناب ما نهى عنه، فمن دعائم الشكر تذكر ما مر من البؤس قبل النعم، والتفكر في الشدة التي سبقت الفرج؛ ليصدر الشكر من القلب.

٢٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أيها المؤمنون: لا تخونوا الله بنقض ميثاقه وترك أوامره وارتكاب معاصيه ونكث العهود والعقود التي قطعتموها على أنفسكم في العقائد والعبادات والمعاملات، ولا تخونوا الرسول ﷺ بالخروج عن هديه والبعد عن سنته والوقوف مع

أعدائه والتأليب على أتباعه، ولا تخونوا كل ما اؤتمنتم عليه من حقوق وواجبات وأسرار ومعاهدات، وشروط ومعاقدات، وأنتم تعلمون أن هذا الفعل حرام وأنتم متعمِّدون فعله.

٢٨ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

وتيقنوا أن أموالكم وأولادكم ابتلاء من الله واختبار، ليظهر منكم من يغلِّب طاعته ومراده على مراد نفسه في حبه ماله وأولاده، ويتبيَّن من يقدم محبوبات الله على محبوباته من مال وولد؛ لأن الولد مَجْبنة؛ فلحبه يترك الجهاد، مبخلة، فلحبه يمسك المال، مَحزنةٌ ففقده داعية إلى الحزن، والمال سبب لكثير من الفتن والمعاصي والكبر والخيلاء والعجب، وما عند الله من أجر ومثوبة في الآخرة مع النعيم المقيم في جنات النعيم خير من الأموال والأولاد، فلا تقدموها على طاعة الله ومرضاته، ولا تضيعوا بسببها عبادته.

٢٩ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

أيها المؤمنون: إذا اتقيتم ربكم بفعل طاعته وترك معصيته أكرمكم بنور في قلوبكم تعرفون به الحق فتتبعونه وتعرفون الباطل فتجتنبونه، وتميِّزون بين الخير والشر بنفاذ البصيرة وقوة الإدراك وبراعة التمييز؛ لأن الفاجر مظلم البصيرة أعمى القلب، محجوب الفهم لرين المخالفة على قلبه، واستيلاء المرض على نفسه، وبالتقوى يمحو الله ما سلف من الذنوب، ويتجاوز عما تقدم، وزلت به القدم، مما يوجب الندم، ويستر الخطايا؛ لأنه جزيل العطايا، ففضله عظيم، وعطاؤه عميم، ونواله جسيم.

٣٠ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

وتذكر – أيها الرسول – يوم تآمر عليك أهل الضلالة من قريش يريدون حبسك أو قتلك أو إخراجك من وطنك، والحبس وراء القضبان والإخراج من الأوطان وإعدام الإنسان هذه الثلاث هي من أشد النكال وأفظع العذاب وأمرِّ الأذى، فبهذا كاد كفار قريش للرسول ﷺ، وهم بهذا يعقدون حبل المكر في الخفاء، ويتآمرون في الظلماء، ولكن الله مبطل كيدهم محبط مكرهم، فهو خير من قدر فقهر، ومن إذا حارب غلب، فعدوه مخذول، وخصمه هالك مدحور.

٣١ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

وإذا قرأت – يا محمد – على المشركين آيات الله من كتابه قالوا: سمعنا ما قرأت، وعرفنا ما تلوت، فما الجديد فيه وما العجيب فيما تلوت، هذا كلام الأولين وخرافات السابقين؛ كذبًا منهم وزورًا، ويقولون: نستطيع أن نقول مثله ونتكلم بما يشبهه، فهو كلام عادي، عتوًّا منهم وصدودًا.

٣٢ ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

واذكر – أيها النبي – قول المشركين في دعائهم: يا ألله: إن كان هذا القرآن الذي أتى به محمد وحيًا منزلاً من عندك فارمنا بحجارة من السماء تهلكنا، يقولون ذلك استهزاءً واستبعادًا وتحديًا وتبجحًا، ثم قالوا: أو عذبنا بعذاب شديد من نوع آخر.. وهذا قول المستخف بعقوبة الله، الآمن من مكر الله، المُستهزئ بآيات الله، وقد جاءهم ما كانوا يوعدون.

٣٣ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

ولم يكن الله ليهلكهم وأنت بين أظهرهم إكرامًا لك، فأنت سبب للأمان من عذاب الديان، والأمان الثاني استغفارهم وهو قولهم وهم يطوفون بالبيت: غفرانك، فأما الأمان الأول وهو وجود الرسول ﷺ فقد رفع عن كل مكذب بموته ﷺ، وبقي الاستغفار فمن أراد الأمن من غضب الجبار والبعد عن البوار، والنجاة من عذاب النار، وحسن المتاع في هذه الدار، من صحة وذرية ومال وأمطار، فعليه بالاستغفار.

(٣٤) ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وما السبب الذي يمنع الله من تعذيبهم وقد استحقوه ولم لا يعذبهم على ما فعلوه، وهم يمنعون أهل الإسلام من دخول المسجد الحرام، ولا يصح لهم أن يكونوا أولياء الحرم والمؤتمنين على بيت الله وهم مشركون به مكذبون لرسول الله ﷺ، وإنما يستحق ولاية بيت الله من آمن بالله واتبع رسوله واهتدى بهداه وامتثل أمره واجتنب نهيه، فهذا الذي له حق الولاية وشرف الرعاية.

(٣٥) ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وما كان صلاة المشركين في الحرم إلا تصفيرًا وتصفيقًا، فليس فيها عبادة لله ولا طاعة مشروعة ولا سنة متبعة، وإنما ضلالة وجهالة وسفه، فذوقوا يا أعداء الله عذاب الله في الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة والعقوبات، وفي الآخرة بالنار وغضب الجبار؛ جزاءً على كفركم بالله ومحاربتكم أولياء الله.

(٣٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

إن الكفار ينفقون أموالهم لمحاربة الله بمنع الناس من الدخول في دينه وإيذاء عباده والإفساد في أرضه، فهم ينفقونها ظانين أنها تنصرهم وتنفعهم، بينما هي ندم عليهم وخزي ونار وعار في الدنيا والآخرة، وسوف لا تنفعهم هذه الأموال، بل سوف يهزمون، وفي الآخرة إلى النار يُساقون، فكل من أنفق ماله في حرام وفواحش وآثام عُوقب بالمصائب المقدمة في الدنيا من أمراض وأوبئة وكدر وتنغيص، وفي الآخرة عذاب أليم على فعله الأثيم.

(٣٧) ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

والله - سبحانه - إنما فعل ذلك ليفرق بين أهل الحق وأهل الباطل، ويجعل أهل الباطل بأقوالهم القبيحة وأعمالهم الباطلة وعلومهم الفاسدة وأموالهم المحرمة مركومة متراكبة، ثم يرمي بهم وبها جميعًا في نار جهنم؛ فهم الخاسرون حقا الذين خسروا حياة النعيم المقيم، وأشدهم عذابًا .

(٣٨) ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

قل- يا محمد - لمن كفر بالله: إنهم إذا تركوا الشرك ودخلوا في الإسلام فإن الله سوف يغفر لهم ما سلف من ذنوب وخطايا، وهذا من سعة رحمته وكريم عفوه - سبحانه - حيث عرض التوبة على أعدائه ترغيبًا لهم في دينه، ولكنهم إن عادوا إلى حرب المؤمنين والكفر برب العالمين فسنة الله معروفة، وطريقته بأعدائه معلومة، قد سبقت في الأمم الماضية، وظهرت في القرون الخالية من تدميرهم وإهلاكهم والتنكيل بهم وتعذيبهم.

(٣٩) ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قاتلوا - أيها المسلمون - المشركين حتى تكسروا شوكتهم، وتفلوا سلاحهم، وتهزموا جمعهم، وحتى لا تبقى قوة تحارب الحق، ولا عصابة تصد عن الدين، ولتكون العبادة كلها لله، فلا يُعبد غيره ولا يحكم بغير شرعه، ولا يسيّر الحياة إلا الإسلام، فإذا انتهى أهل الباطل عن حرب الإسلام وألقوا السلاح وتركوا المعاداة بأي بأنواعها فإن الله عالم بعملهم مطلع على سعيهم إن صدقوا وآمنوا أثابهم، وإن أصرُّوا على الكفر عاقبهم، وفي هذا فتح باب الرَّجاء لكل ضال لعلّه يعود إلى رحمة ربه.

(٤٠) ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

فإذا أبى الكفار الاستجابة وأعرضوا عن التوبة والإنابة، فالله معكم بنصره، وسوف يمحقهم؛ لأن من كان الله وليه فلا يخاف، فهو نعم المعين على النوائب، والوكيل في المهمات، والكافي في الأزمات، ونعم النصير على الأعداء، ونعم الظهير على الفتن الدهياء، تبارك اسمه، وتقدّست عظمته، فمن أراد ولايته، فليخلص له طاعته، ومن أحب نصره فليطع أمره.

(٤١) ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾

واعلموا - أيها المسلمون - أن أموال الغنيمة تقسم خمسة أقسام، فأربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين، وخمس لله ورسوله في مصالح المسلمين العامة، وسهم قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للفقراء، وسهم للمسافر المنقطع في سفره، يفعل هذه القسمة من كان مصدقًا بما أتى من عند الله مؤمنًا به، مؤمنًا بالقرآن الذي نَزّل على رسوله ﷺ في بدر، اليوم الذي فرّق الله به بين أوليائه وأعدائه يوم تواجه جمع المسلمين وجمع المشركين، والله على كل شيء قدير، ومن قدرته أنه نصركم مع قلتكم على الكفار مع كثرتهم، وأعزكم وأذلَّهم، وأمكنكم منهم أسرًا وقتلاً.

(٤٢) ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وتذكروا يوم بدر يوم نزلتم بالجانب الأدنى من المدينة، والكفار نزلوا في الجانب الأبعد، وقافلة أبي سفيان أسفل من مكانكم الذي نزلتم به، ولو ضربتم بينكم موعدًا أنتم والكفار لاختلفتم في هذا الموعد، ولما تمَّ هذا اللقاء على هذا الترتيب الذي أراده الله، ولكن الله جمع بينكم على غير ميعاد؛ ليحقق لكم ما قدّر من نصر على الكفار، ويخذلهم ويخزيهم، وهذا التقدير منه - سبحانه - ليكفر من كفر بعد قيام البرهان عليه، ويؤمن من آمن بعد وضوح الحجة له، والله يسمع الأقوال سرًّا وجهرها، ويعلم الأفعال خافيها وعلانيتها، فبسمعه وعلمه أحسن التقدير وأتقن القضاء والتدبير، وعلم العواقب والمصير، فنصر من شاء بعلم، وخذَل من اراد بحكمة.

(٤٣) ﴿ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ومن نِعَم الله عليك -أيها النبي- أن الله أراكم جيش المشركين قبل معركة بدر في المنام وهم قليلون، فتشجعتم على قتالهم وتحمستم للقائهم، ولو أن الله أراكم في المنام كثيرين وأخبرت المسلمين بذلك لاختلفوا وترددوا في قتالهم، ولكن الله سلم من الفشل، وعصم من التخاذل، وأيد بنصره، وأنزل جنده، ولطف تأييده، فحصل الظفر، والله عليم بما أخفت القلوب وأكنَّت الصدور، فصار قضاؤه عن علم، وتقديره عن حكمة، فقضى كل أمر بما يناسبه، ووضع كل شيء موضعه.

(٤٤) ﴿ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾

وتذكروا يوم التقيتم في بدر، فخُيِّل إليكم أن جيش الكفار قليل بالرؤية البصرية، فثبتم وتشجعتم على القتال، - وأيضًا - خُيِّل إلى المشركين أن عددكم أقلُّ من الواقع فتحمسوا لقتالكم، ولو رأوكم كثيرًا لنكصوا؛ لأن الله يريد أن يتم القتال ويحصل النزال وتقوم المعركة لينصر أولياءه ويهزم أعداءه، ويعز دينه، ويخذل الباطل وأهله، فسبحان من

إذا أراد شيئًا سهَّل أسبابه وهيأ وسائله؛ ليتم أمره وينفذ قضاؤه، وإليه وحده تعود عواقب الأمور ومصائر الأعمال؛ فيجازي كلاً بما فعل من حسن وسوء.

(٤٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

أيها المصدقون بما أنزل الله وبرسوله وبوعده ووعيده، إذا لقيتم الكفار في ساحة القتال، وقابلتموهم يوم النزال فالثبات الثبات والصبر الصبر؛ لينجز الله لكم ما وعد من النصر، واستعينوا على ذلك بكثرة ذكر الله، فإنه نعم المعين والزاد، وأقوى سلاح وعتاد، وأفضل عدة للجهاد، فمع ذِكْرِ الله تنزل الرحمات، وتكشف الكربات، وتغمر البركات، فبالصبر والذكر والشكر يحصل الفلاح الأكبر، والفوز الأعظم، وإنما خصَّ الذكر في هذا الموطن؛ لأن الإنسان يذكر حبيبه وقت الأزمات، وحبيب المؤمنين الأعظم هو الله – جل في علاه – وأفضل عمل هو الذكر، وأشق موقف هو الجهاد، فناسبه الذكر لسهولته وجلالته وحسن عوائده وجميل فوائده، ولو لم يكن للذكر إلا هذا لكفى، كيف والذاكرون هم السابقون المفرِّدون الفائزون بخيري الدنيا والآخرة.

(٤٦) ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وعليكم بطاعة الله ورسوله بامتثال الأمر واجتناب النهي، ولا تختلفوا فتضعف قوتكم وتذهب هيبتكم ويفوتكم الظفر، وتحرموا النصر، وعليكم بالصبر على المكاره والتحمل عند الشدائد، فإن الله يؤيد الصابرين بعونه ويقويهم بتأييده، ويكرمهم بنصره. وفي الآية أن الطاعة والجماعة سبب للقوة وطريق للفوز والنصر، وأن الخلاف والوهن سبب للفشل والهزيمة.

(٤٧) ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾

واحذروا – أيها المؤمنون – أن تكونوا كالمشركين الذين خرجوا من مكة إلى بدر فخرًا وتكبرًا وتجبرًا وعتوًا؛ يراؤون الناس بقوتهم لينالوا مدحهم ويمنعوا الناس من الإسلام، والله عالم بكل ما فعلوه، مُطَّلِع على جميع ما صنعوه، قد أحصى أفعالهم وأقوالهم في كتاب لينالوا أشد العقاب، ويذوقوا أقوى العذاب.

(٤٨) ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

وتذكروا يوم حسَّن الشيطان لعبدة الأوثان قتال أهل الإيمان، وضمن لهم النصر مكرًا منه وخديعة، وكثَّر لهم عددهم وقوتهم، وزعم أنه سوف يجيرهم من الأعداء وينصرهم وقت اللقاء، فلما تواجه المؤمنون والمشركون وأبصر كل منهم عدوه، نكث ما عاهدهم عليه، وأخلف ما وعدهم به من النصر، وفرَّ هاربًا وشرد خائبًا، وقال: إني أتخلّى عن نصركم ولا أستطيع جواركم، إني أرى من الملائكة الغلاظ الشداد الأقوياء ما لا يستطاع لقتالهم، ولا يقدر على نزالهم، إني أخاف الله أن يحيق بي عذابه، وأن يهلكني بعقابه، والله شديد العقاب لا يُغالب، قوي العذاب لا يُحارب. وفي الآية أن طريق الشيطان هو تحسين الخطأ وتزيين الضلالة، وأنه إذا ورَّط العبد تخلّى عنه، فالواجب الحذر من تلبيسه والحيطة من تدليسه.

(٤٩) ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

وتذكروا حين يقول المنافقون والشاكون في الإيمان: انخدع هؤلاء المؤمنون بدينهم واغتروا وظنوا أنهم سوف ينتصرون على الناس وهم أذلّة قلة ضعفاء، فأخبر – سبحانه – أن من اعتمد على الله وتوكل عليه وفوَّض أمره إليه نصره وأيده وأعزه ومكَّن له؛ فهزم عدوّه ولو كان أقل منه وأضعف؛ لأن الله عزيز الجانب لا يُغالب، يعز من انتصر به ويؤيد من توكل عليه، حكيم يدبِّر الأمور على أحسن تدبير وأتقن طريقة، فقوته معها حكمة عاصمة.

(٥٠) ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾

ولو ترى - أيها المسلم - مشهد الكفار في سكرات الموت والملائكة يقبضون أرواحهم بعنف وينزعونها بقوة ويضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد؛ تعذيبًا وإذلالاً لهم وتنكيلاً بهم، ويقولون تحقيرًا لهم: ذوقوا عذاب السعير المحرقة وجهنم المتقدة؛ جزاءً لفعلكم الأثيم، وعملكم القبيح من الكفر والتكذيب.

(٥١) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾

ذلك التنكيل بالكفار من ضرب الوجوه والأدبار، بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم رسول الله ومحاربتهم أولياء الله والصد عن منهج الله، والله لم يظلمهم بأن عذبهم بلا ذنب، بل هم مستحقون لهذا العذاب، والله -عز وجل- لا يظلم العباد، بل أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأوضح لهم المحجة، ولم يتركهم هملاً؛ بل بين لهم الحق والباطل، ثم جازاهم بعدل.

(٥٢) ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

عادة هؤلاء المشركين كعادة قوم فرعون والذين من قبلهم، كلهم كفروا بآيات الله وكذبوا رسل الله، وسنة الله في هؤلاء كسنته في من قبلهم يعاقبهم بذنوبهم ويجازيهم بأفعالهم، فالله قوي بأسه، شديد عقابه، أليم عذابه، وهنا كفر العقيدة والتوحيد، فجاء بلفظ الجلالة (الله)، وسوف يأتي كفر النعم والأيادي ليأتي بلفظ (الرب)، وإنما ذكر فرعون وقومه لاشتهاره بالاستكبار والإصرار، ولادِّعائه الألوهية قاتله الله، ولم يسبقه ولم يلحقه بهذا القول الأثيم القبيح أحد.

(٥٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾

ذلك العقاب الذي أنزله بهم بسبب أن سنة الله - سبحانه - أنه لا يبدل النعمة والمنحة بالمحنة إلا إذا بدل هؤلاء الأقوام أعمالهم من حسن إلى سيئ، ومن صالح إلى قبيح، ومن طاعة إلى معصية، حينها يسلب الله منهم النعم، ويصب عليهم النقم، ويبدلهم بالعز ذلاً، وبالقوة ضعفًا، وبالغنى فقرًا، وبالأمن خوفًا؛ لأنه - سبحانه - أحاط سمعه وعلمه بكل شيء، فلا يؤدب إلا من عصى، ولا يعاقب إلا من أبى، فيسمعه سمع الأقوال حسنها وسيئها، وبعلمه اطلع على الأعمال والأحوال طيبها وخبيثها، فوقع جزاؤه بعدل، ونزلت رحمته بفضل.

(٥٤) ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾

عادة هؤلاء المشركين كعادة قوم فرعون ومن سبقهم، طريقتهم في التكذيب واحدة، فهم كفروا بحجج ربهم الذي خلقهم ورزقهم ورباهم بالنعم فأبادهم الله بسبب عصيانهم، وأغرق الله فرعون ومن معه، وكل هؤلاء الكفار كانوا ظالمين لأنفسهم بالعصيان، فاستحقوا الخسران، فلم يهلكوا إلا بعدل من الله على صنيعهم.

(٥٥) ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

إن شر ما دب على وجه الأرض هم الكفار الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله، فهم لا يصدِّقون بوحدانية الله ولا يفردونه بالألوهية، ولا يخلصون له الطاعة، فالكافر شرٌّ من البهيمة؛ لأنه خلق ليعبد، وهي لم تكلف بعبادة فصار أضل منها.

(٥٦) ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴾

هؤلاء القوم من يهود بني قريظة سبق أن عاقدتهم وعاهدتهم - يا محمد - على عدم إعانة المشركين فنقضوا العقد ونكثوا العهد مرات كثيرة، وهم لا يتقون الله فيما عاهدوا عليه ولا يخافون عقاب من غدر، فالجاهل بعظمة الله يتمرَّد على ربه ويعصيه جل في علاه.

٥٧ ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

فإذا لقيتهم في المعركة فنكِّل بهم وخوِّف المشركين من ورائهم ليخافوك ويرهبوك، ويكفوا عن نقض العهود؛ لعلهم يعتبرون بمن فُتِكَ بِهِمْ فلا ينقضون العهد، فإذا أرهبت كفار قريش وخوفتهم خافك يهود المدينة، فلابد للحق من قوة تحميه، ومن صولة ترعاه، ومن دولة تذب عنه؛ ليكون عزيز الجناب، مقدّس العتبات.

٥٨ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

فإذا تيقنت أن عدوك يريد خيانتك بنقض ما بينك وبينه من عهد فاطرح إليه عهده علانية حتى تصير أنت وإياه متساويين في العلم بنقض العهد؛ لأنك لو نقضته سرًا لاتهموك بالغدر، ولو بقيت صار الوفاء فقط من جانبك، فإذا ظهرت لك علامات الخيانة فاخلع العهود علنًا وحارب جهرًا؛ لأن الله لا يحب من خان الأمانة، ونقض الديانة بل يحب الصادق الأمين الوفي.

٥٩ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

ولا يظن من نجا من أعدائك من القتل أنهم أفلتوا من عقاب الله وأخذه، فهم لا يعجزون الله في إدراكهم بل سوف يأخذهم في الوقت المناسب؛ لأن اليهود لـمَّا نجوا مما أصاب المشركين يوم بدر ظنوا أنهم أعجزوا ربهم في أخذهم وهلاكهم، فأخبرهم أن لهم أجلاً معلومًا وللكافرين أمثالهم.

٦٠ ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

وأعدوا – أيها المسلمون – لأعدائكم كل أسباب القوة المادية والمعنوية من سلاح وعتاد ومال وعلم؛ لتخوّفوا بهذه القوة كل عدو لله ولكم من مشركين وملاحدة وأهل كتاب وكل كافر؛ ليُرهَبَ جانب الإسلام، ويُعَزَّ أهله، وتُقَدَّسَ تعاليمه، فحق بلا قوة نهب مشاع، وكيان بلا عزة عرض مضاع، والضعيف مطموع فيه محتقر، والذليل مهان مبتذل، فبذل القوة للإسلام أمر مطلوب من خيل مربوطة، وسلاح معد، وأموال مدخرة، وجيوش مدربة، ومصانع قائمة، وعقول منتجة، وهذه القوة تخوفون بها أعداءكم المعروفين ومن لا تعرفون عداوتهم، فكل مجد لا يراق على جوانب عظمته دم التضحية فإلى سقوط، وما تبذلونه في سبيل الله من مال أو جهد فهو محفوظ لكم عنده، سوف يثيبكم عليه في الدنيا من العز والنصر والمتاع الحسن، وفي الآخرة من النعيم المقيم والمقام الكريم، ولا ينقص من ثوابه شيء، بل الثواب في زيادة تفضلاً من الله وكرمًا.

٦١ ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

وإن مال الكفار للمصالحة والسلم فمل إلى ذلك، صالحهم فيما فيه خير للمسلمين ودفع للحروب، وثق بربك فيما عاهدت، وتوكل عليه فيما عاقدت، فإنه سوف يؤمنك مما تخاف ويحميك مما تحذر؛ لأنه سامع الأقوال، عالم الأحوال، المطلع على النيات، العليم بالخفيات، يعلم من وفّى ومن غدر، ومن صدق ومن خان.

٦٢ ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وإن كان لهم نية في الغدر بك فالله يكفيك كيدهم ويحفظك من مكرهم، فإن الله قد أعانك بنصره وقواك بالمؤمنين من أتباعك، فلما توكل الرسول ﷺ على ربه كان معه فنصره على أعدائه، ثم جعل الله لرسوله جندًا من المؤمنين يقاتلون معه، فالصادق مع ربه منصور، والغادر مدحور، والصابر على الجهاد والتضحية مشكور مأجور.

٦٣ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

وآخى بين قلوب المسلمين بعدما كانت متباغضة قبل الإسلام؛ فصاروا إخوة بالإيمان، متحابين متوادّين، لو أنفقت جميع ما في الأرض من كنوز لتجمع هذه القلوب على المحبة ما اجتمعت؛ لأنه لا يجمع القلوب إلا الإيمان بعلام

الغيوب؛ لأنه بغيره تصبح أنانية متحزبة تغلب عليها العصبية والطمع وحب الذات والميل للقبيلة والأسرة، لكن الله بفضله ورحمته جمع هذه القلوب؛ فله الحمد والمنة؛ لأنه عزيز ينفذ أمره بلا معارض، ويتم مراده بلا مغالب، حكيم فيما فعل، يوقع القضاء بإتقان وإحسان.

(٦٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أيها النبي: الله يحفظك من شر أعدائك ويحميك من كيدهم، ويتولى من يتبعك من المؤمنين الصادقين، فيوفقهم ويرعاهم، فمن كان الله حسبه نصره بلا عشيرة، وقواه بلا مال، وأعزه بلا جاه.

(٦٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

أيها النبي: شجع المؤمنين على قتال أعدائهم المحاربين من الكفار، وحثهم على المصابرة والثبات في المعركة، وبشرهم أن عشرين منهم صابرين يغلبون مئتين من أعدائهم، وإذا وُجدَ مئة مقاتل صابر غلبوا ألف مقاتل كافر؛ لأن الكافر لا فهم عنده في أسرار الحرب ولا فقه عنده في مقاصدها؛ لأنه ترك السبب الأعظم في نيل النصر وهو الإيمان بالله فأظلمت بصيرته، وحقت هزيمته.

(٦٦) ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

فاليوم يسر الله عليكم ورخص لكم بسبب ضعف الواحد منكم عن قتال العشرة من الأعداء، فالواجب عليكم أن يصبر الواحد أمام الاثنين، فإذا وُجِدَ منكم مئة رجل صابر محتسب غلبوا -بإذن الله- مئتين من الأعداء، وألف منهم يهزمون ألفين من الأعداء بحول الله وقوته؛ لأن الله يؤيد الصابرين وينصرهم على عدوهم. وفي الآية عدم مخاطرة أهل الإسلام إذا قل عددهم عن العدد الكثير المدجج من الأعداء. واستخدام الحيلة في عدم المواجهة حتى يقوى جانب جيش المسلمين. وأن القوة ملازمة للتوكل على الله تعالى.

(٦٧) ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لا يحل لنبي أن يتخذ أسرى يأخذ منهم الفدية حتى يبالغ في قتل أعدائه من الكفار المحاربين الصادين عن سبيل الله المقاتلين لعباد الله؛ حتى يقوى جانب دولة الإسلام وتُهاب وتُحْتَرم، وأنتم أيها المسلمون تريدون متاع الحياة الدنيا بما يحصل لكم من فدية الأسرى، والله يريد لكم جنات النعيم والفوز العظيم بالجهاد في سبيل الله والذب عن دينه، والله قوي غالب على أمره، ينصر من نصره، ويمحق من حاربه، حكيم في تقديره وتدبيره، فبعزته ينصركم في القتال، وبحكمته يعلمكم أحكامه من القتل والأسر والغنيمة والصلح وغيرها.

(٦٨) ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

لولا أن الله كتب أن لا يؤاخذ المجتهد المخطئ لأصابكم بعذاب شديد بسبب أخذكم الفداء من أسرى بدر مكان قتلهم؛ لأنهم حاربوا الله ورسوله، وخرجوا للصد عن سبيله، وقد يكون الكتاب ما سبق في علم الله وقضائه من المغفرة لمن حضر بدرًا، فبذلك رحمهم الله، ولم يؤاخذهم .

(٦٩) ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فكلوا – أيها المؤمنون – من الغنائم التي أباحها الله لكم، ومنها فداء الأسرى، فإنها من الحلال الطيب، لا حرمة فيها ولا خبث، واتقوا بامتثال ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، والله كثير المغفرة لمن أذنب وتاب، واسع الرحمة لمن عاد إلى الله وأناب، فمن مغفرته أنه يتجاوز عمن أساء، ومن رحمته أنه يوفق من شاء من عباده لمرضاته.

(٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

أيها النبي: قل لأسرى بدر إن يعلم الله في قلوبكم حبًا للإيمان ورغبةً وتوجهًا إليه واستعدادًا لقبول الحق يعطيكم الله من فضله أعظم مما دفعتم من الفداء للمسلمين، ويرزقكم خيرًا كثيرًا، وفي الآخرة يمنحكم أجرًا عظيمًا ومغفرةً واسعة لذنوبكم؛ لأنه - سبحانه - يغفر الذنب العظيم، إذ هو الرحمن الرحيم، وسعت رحمته كل شيء، وعم فضله كل مخلوق.

(٧١) ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وإن كان الأسرى فعلوا ما فعلوا من الفداء والقول اللين لك خداعًا منهم ومكرًا فقد خدعوا من قبل وخانوا، فمكنك الله منهم في بدر، ونصرك عليهم، والله عالم بالسرائر، مطلع على ما في الضمائر، حكيم في أمره وخلقه، وانظر كيف لم يقابل الخيانة بخيانة؛ لأنه منزّه عن ذلك، وإنما ذكر التمكين منهم؛ لأنه فعل كمالٍ يدل على العلم والحكمة.

(٧٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

إن الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وهاجروا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهم المهاجرون والذين آووهم ونصروهم، وأكرموا نزلهم، وواسوهم بأموالهم وأنفسهم وهم الأنصار، فهؤلاء أعوان إخوان النصرة والجهاد والبر والتقوى، أما الذين آمنوا لكنهم مكثوا في أرض الكفر ولم يهاجروا منها فليس بينكم وبينهم إخاء ولا مودة حتى يتركوا بلاد الكفر ويهاجروا إلى بلاد الإسلام، ولكن إذا طلبوا النصرة منكم على الكفار لدفع أذاهم فأعينوهم لرفع الاضطهاد عنهم، إلا إذا كانوا بين قوم معاهدين لكم فاحترموا العهد ولا تناصروا المسلمين على الكفار المعاهدين، وهم معهم في أرضهم، والله عالم بالسر والجهر، خبير بالخافي والمعلن، محيط بكل شيء.

(٧٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾

والذين كفروا بالله بعضهم يناصر ويوالي بعضًا، فهم لا يناصرون المؤمنين ولا يناصرهم المؤمنون، إن لم تفعلوا هذا من موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين وتمتثلوا أمر رب العالمين تكن فتنة عظيمة، فيتقوى أهل الكفر على أهل الإسلام، ويوهن جانب الدين ويتحالف الأعداء على المؤمنين، ويقع الفساد بانتصار أهل الكفر والإلحاد.

(٧٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾

والذين آمنوا بالله ورسوله، وهاجروا من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فالذين آووهم ونصروهم من أهل المدينة وهم الأنصار هؤلاء الصادقون في إيمانهم المخلصون لربهم، سوف يغفر الله ذنوبهم ويرزقهم رزقًا طيبًا مباركًا كريمًا في جنات النعيم، مع قرة العين وبهجة النفس وراحة البال.

(٧٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾

والذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام وجاهدوا مع أهل الإيمان في سبيل الديان، فهؤلاء منكم في الإخاء والنصرة والموالاة، وأهل القرابة من المؤمنين بعضهم أولى ببعض في الميراث من المهاجرين في حكم الشريعة؛ لأن الله يعلم كل شيء فيه صلاح العباد، وإيفاء الحقوق لأهلها، ومنها المواريث، فيقدرها بقدرها لمستحقها لعلمه وحكمته سبحانه.

مدنية

ترتيبها
٩

سورة التوبة

آياتها
١٢٩

(١) ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

الله يبرأ ورسوله من المشركين، ويسقط عهدهم مع المسلمين؛ لأنهم نقضوا الميثاق مع رب العالمين.

(٢) ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

سيروا في الأرض حيث شئتم مدة أربعة أشهر، من وقت إعلان البراءة عاشر ذي الحجة سنة تسع، وتيقنوا - أيها المشركون - أنكم، لن تفوتوا الله بالهرب، ولن تفلتوا من عقابه، وأن الله مذل الكفار بالخزي والعار في هذه الدار، ثم بعذاب النار.

(٣) ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وإعلان ظاهر عام من الله ورسوله إلى جميع الناس يوم تمام أعمال الحج، وهو يوم النحر بالبراءة من عهود المشركين، فإن تاب الكفار بالدخول في الإسلام وترك عبادة الأصنام فهو خير لهم في الدنيا والآخرة من الاستمرار على الشرك، وإن أعرضوا عن الإيمان وطاعة الرحمن، فتيقنوا أنكم في قبضة الله لن تفلتوا من عذابه، ولن تفوتوا من عقابه، وأخبر -أيها النبي- الكفار بعذاب أليم في دار الجحيم على فعلهم الأثيم.

(٤) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

ويستثنى من مدة تأجيل المشركين إلى مدة أشهر من عاهدتم ولم ينقضوا شرطًا من شروط المعاهدة، ولم يعاونوا الأعداء على حربكم، فأكملوا مدة العهد معهم كما حصل الاتفاق إلى اكتمال زمنه؛ لأن الله يحب من اتقاه في الوفاء بالعهود، والتزام العقود، وعدم نقضها.

(٥) ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فإذا انقضت الأربعة الأشهر وهي مدة المهلة، فقاتلوا الكفار في أي مكان لقيتموهم في الحل والحرم، وخذوهم أسرى، وامنعوهم من التنقل في ديار الإسلام إلا بإذن، وضيقوا عليهم في تحركاتهم، وترصدوهم وتعقبوهم في كل مكان حتى تقبضوا عليهم، فإن تابوا من الكفر وأسلموا وأقاموا الصلاة المكتوبة، وأدوا الزكاة الواجبة فاتركوهم ولا تؤذوهم، فالإسلام حقن دماءهم وأعطاهم حريتهم، والله غفور لمن تاب، رحيم بمن أناب، يهدم بالإسلام ما قبله.

٦ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾

وإذا سأل أحد من المشركين منك الأمان فأمنه حتى تُسمعه ما تيسّر من القرآن ويتفهمه، ثم أوصله المكان الذي يأمن فيه؛ لأن الكفار لا علم لهم بما ينفعهم وما فيه خيرهم، فليس عندهم من حسن الإدراك وجميل التمييز ما يحملهم على اعتناق الإسلام، وانظر للطف الرحمن حتى بعبدة الأوثان عند طلبهم للأمان.

٧ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

لن يكون للمشركين الغادرين عهد عند الله ورسوله؛ لأنهم نقضوا العهد، لكن مَنْ عاهدتم يوم الحديبية قريبًا من المسجد الحرام فأوفوا لهم عهدهم ما داموا مقيمين عليه ولم ينقضوه، إن الله يحب من اتقاه بالوفاء بما التزمه من عهود، وإمضاء عقود.

٨ ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

كيف تلتزمون عهداً مع المشركين وهم لو غلبوكم وتمكنوا منكم لن يراعوا فيكم حِلْفًا ولا قرابة ولا عهدًا، فلن يمنعهم شيء عن أذاكم، يكسبون رضاكم بكلام كالعسل، وقلوبهم كالأسل، حقدًا وعداوةً وبغضًا، وكثير منهم خارجون عن الحق، ناقضون للميثاق يخونون العهود.

٩ ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

استعاضوا بآيات القرآن عِوَضًا حقيرًا تافهًا من عرض الدنيا الزائل، فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام، بئس هذا العمل الذي عملوه، والجرم الذي فعلوه.

١٠ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾

لا يراعون لمؤمن حِلْفًا أو قرابة أو عهدًا، وهم المتجاوزون لحدود الله بالغدر ونقض العهد ونكث الميثاق.

١١ ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

فإن تابوا من الكفر وأسلموا وصَلَوا معكم، وأدوا زكاة أموالهم، فإخوانكم في الإسلام، لهم ما لَكُم وعليهم ما عليكم، والله يبيّن آياته لمن عنده فَهْم للحقائق وفقه في مراد الشرع.

١٢ ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾

فإذا نقض المشركون العهود الموثقة من بعد الاتفاق معكم، وعابوا الدين، وسَبُّوا القرآن والرسولﷺ؛ فقاتلوا زعماءهم؛ لأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق؛ علّهم أن ينتهوا عن الكفر وعن قتال أهل الإيمان، فليس لهم إلا التوبة أو القتال.

١٣ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

ما لكم لا تقاتلون هؤلاء الكفار الذين نقضوا عهودهم معكم، وعزموا على إخراج الرسول ﷺ من مكة، وهم الذين سبقوا إلى قتالكم وبادروكم بالأذى من فجر الرسالة وأول الدعوة، أتخافون المشركين أيها المسلمون؟ فالله وحده أولى بالخوف، فَبِيَدِه كل شيء إن كنتم مصدقين بوعده ووعيده وكتابه ورسوله، فأخلصوا له الخشية وحده.

١٤ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾

قاتلوا - أيها المؤمنون - الكفار يعذبهم الله بأيديكم ويذلهم بالأسر والهزيمة، ويرزقكم النصر عليهم، ويشف صدوركم بالنصر عليهم من الغم والحزن الذي لحق بها من أذى هؤلاء الكفار وكيدهم، فأنتم افعلوا السبب وعلى الله العواقب الحميدة.

١٥ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ويذهب الله بقتل الكفار ما في قلوب المؤمنين من غيظ على أعداء الله، ومن عاد إلى الله من هؤلاء المحاربين فالله واسع يتفضل على من أراد من العباد بقبول التوبة منهم بصدق التائب من عدمه، حكيم في وضع فضله فيمن يشاء، وهداية من أراد أو ضلاله.

١٦ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن يدعكم الله بلا امتحان؛ ليظهر علمه فيكم، فيتبين المخلص في جهاده لوجه ربه، ولم يأخذ غير الله ورسوله وليًّا يخلص له الود والمحبة، والله خبير بجميع الأعمال ظاهرها وباطنها، فيحصيها لكم ويوفيكم إياها يوم لقائه.

١٧ ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾

ليس من شأن الكفار عمارة بيوت الله وهم يظهرون كفرهم ويحاربون من أجله، والله سوف يبطل ما عملوه ويمحق ما كسبوه، ومصيرهم النار في خلود دائم وعذاب مستمر.

١٨ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

لا يعتني بالمساجد وعمارتها بالعبادة والبناء إلا من آمن بربه وأطاع رسوله ﷺ وأقام الصلاة المكتوبة، وأدى الزكاة المفروضة، ولم يخف غير ربه، ولم تأخذه في طاعة مولاه لومة لائم، فهذا تُرجى له الهداية إلى كل ما يُرضي الله من عمارة المساجد وفعل الخيرات.

١٩ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

أجعلتم - أيها المشركون - سقاية الحجيج وبناء المسجد الحرام مساويًا للإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وهما لا يستويان في الأجر والمثوبة؛ لأن ذاك العمل صدر عن كافر حبط عمله، وهذا مؤمن رضي الله سعيه، فلا فضل لعمل بلا إيمان، والله لا يوفق كل كافر للخير، ولا يرشد كل فاجر لطريق الرشد، فلا يهتدي لما ينفعه.

٢٠ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

المؤمنون بالله والمهاجرون والمجاهدون في سبيله بالأموال والأنفس هم الأعلى رتبة، والأرفع منزلة، عندالله، وهم الظافرون بكل مطلوب، الحاصلون على كل مرغوب فيه من الفضل والرضوان وسكنى الجنان.

٢١ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾

يبشرهم ربهم -عز وجل- برحمة منه سابغة تمحو ذنوبهم، ورضوان كامل تام لا يسخط عليهم بعده أبدًا، وهو أجلُّ النعيم، ثم يدخلهم جنات في نعيم دائم، وقرة عين مستمرة.

٢٢ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

وهؤلاء المؤمنون مخلدون في جنات النعيم أبدًا بلا زوال ولا انتقال، والله عنده لأهل طاعته ثواب عظيم، وفضل عميم في جنات النعيم.

٢٣ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أحبابًا وأنصارًا توالونهم وتودونهم إذا اختاروا الكفر دينًا على الإيمان، ومن يتخذهم أولياءَ وأحبابًا من دون الله فأولئك هم المتجاوزون الحد في العصيان، والظالمون لأنفسهم بمعاداة الرحمن.

٢٤ ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

قل – أيها النبي – لمن آثر الدنيا على الآخرة: إذا كان الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال المكتسبة والتجارة التي تخافون عدم رواجها، والبيوت طيبة السكنى، أحبَّ إليكم من طاعة الله والهجرة في سبيله والجهاد لإعلاء كلمته فانتظروا عقوبة الجبار على سوء الاختيار، وتقديم الدنيء الرخيص على الغالي النفيس، وهذه الثمان المذكورات هي مشتهيات النفوس في الدنيا ومحبوبات القلوب، فإذا قُدِّمت على مراد الله فهو الغبن والخسار والنقص والبوار، والله لا يوفق من خرج عن طاعته، ولا يرشد من رغب عن عبادته.

٢٥ ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾

لقد نصركم الله – أيها المسلمون – على المشركين في غزوات عديدة ومعارك كثيرة مع ضعفكم وقلَّتكم وقوة أعدائكم وكثرتهم، ولكن كان الله معكم، وتذكروا يوم نصركم الله في غزوة حنين حين أعجبتكم كثرة جيشكم وقلتم لن نغلب – والله– من قلة، ولكن لما جَدَّ الجدّ هربتم منهزمين، وتركتم الرسول ﷺ مع نفرٍ من أصحابه؛ ليريكم الله أن النصر من عنده لا بكثرة عدد ولا بقوة سلاح.

٢٦ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

ثم أنزل الله الطمأنينة على الرسول الكريم ﷺ، وعلى أتباعه من المؤمنين، فسكنت قلوبهم وعادوا للمعركة وثبتوا أمام العدو، وأنزل الله الملائكة يقاتلون معهم، ونزل النصر، وحصل الظفر، ووقع القتل والأسر في أهل الكفر؛ جزاءً لهم على حربهم لله ولرسوله، ونكالاً بهم على قبح أعمالهم.

٢٧ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

وبعد التنكيل بالكفار في الحرب يمن الله بالتوبة على من يشاء من عباده إذا أسلموا وأنابوا إليه؛ لأنّ الغفران يمحو ما سلف من الذنوب وكان، ويتغمد من عبده بالرحمة؛ لأنه الرحيم الرحمن.

٢٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

أيها المؤمنون: إنما المشركون أنجاس الذات، خبثاء الصفات، معتقدهم قبيح لشركهم وظلمهم، وأجسامهم نجسة لعدم غُسْلهم من الجنابة وعدم وضوئهم، فلا يجوز لهم دخول الحرم المكي بعد العام التاسع الذي أعلن فيه أبو بكر البراءة من المشركين، فلا تسمحوا – أيها المؤمنون – للكفار بدخول الحرم، وإن خشيتم الفقر – أيها المسلمون – بانقطاع تجارة المشركين عنكم، فسوف يعوضكم الله من عطائه الواسع إن شاء أن يغنيكم، وقد حصل هذا الغنى بما فتح الله على المسلمين بعد الغزوات والمعارك، والله – عز وجلَّ – عليم بمصالح العباد، وما فيه لهم من الصلاح والفساد، حكيم في تدبير الأمور، فبالعلم يختار الأصلح، وبالحكمة يقضي الأنفع.

٢٩ ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

أيها المؤمنون: قاتلوا الكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فهم لا يقرون بالعبودية لله، ولا يعترفون بالبعث بعد الموت، ولا يُحَرِّمون الحرام الذي أمر الله بتحريمه كالزنا والربا والخمر والميتة ونحوها، ولا يعتقدون بالإسلام ولا يتحاكمون إليه، من اليهود والنصارى؛ فيقاتلون حتى يلتزموا الجزيةَ عن سَعَة، بحيث يكونون خاضعين لحكم الإسلام منقادين لكم، يباشرون الجزية بأنفسهم، مقهورين بصولة الدولة في ذلّ ومسكَنة.

٣٠ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ
قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

قالت اليهود كذبًا وزورًا: عزير ابن الله، وقالت النصارى كذبًا وزورًا: عيسى ابن الله، وهو قول بلا دليل، وادعاء بلا برهان، وهم شابهوا بهذا الافتراء دعوى المشركين من أن اللات والعزى ومناة بنات، والملائكة بنات الله!! لعنهم الله وأهلكهم وأخزاهم، كيف يصرفون عن الحق مع قيام الشواهد على وحدانية الله وأنه لم يلد ولم يولد.

٣١ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟
إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

جعل اليهود علماءهم وجعل النصارى عبَّادهم آلهة من دون الله، يحلون لهم الحرام فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه، وجعل النصارى عيسى ابن مريم إلهًا معبودًا من دون الله، ولم يأمرهم الله بذلك، بل أمرهم أن يعبدوه وحده لا شريك له، تنزَّه الله وتقدَّس عن شركهم؛ حيث نسبوا إليه البنين، وجعلوا معه آلهة أخرى، وهو أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

٣٢ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

يقصد اليهود والنصارى وسائر المشركين أن يطعنوا في الإسلام، وفي الرسول ﷺ بأقوالهم الباطلة وافتراءاتهم الكاذبة؛ ظنًا منهم أنهم سوف يحجبون هداية القرآن والإيمان عن الناس، ولكن الله - جل في علاه - تولى حفظ هذا الدين، فسوف ينصره ويعليه ويؤيد رسوله ﷺ على رغم أنوف الكفار، ولهم الذلة والصغار.

٣٣ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

الله وحده الذي أرسل رسوله بدين الإسلام، المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح الدال على كل هدى، المحذر من كل ردى؛ ليجعله عاليًا على كل الأديان، مهيمنًا على سائر الملل، غالبًا عليها بالحجة والبرهان، والعدل والإحسان.

٣٤ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

أيها المؤمنون: إن كثيرًا من علماء اليهود وعبَّاد النصارى يأخذون أموال الناس بالحيلة والدجل والتلبيس من الرُّشَى وأثمان الأحكام الباطلة، ويمنعون أتباعهم من الدخول في الإسلام، والذين يَدَّخِرون الذهب والفضة ولا يؤدون زكاتها ولا يتصدقون منها، فبشرهم - تهكمًا بهم - بعذاب لا يُطاق، شديد موجع على فعلهم المشين.

٣٥ ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا
كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

يوم يُوقَد على الذهب والفضة في نار جهنم، ثم تُحْرَق بها الجباه التي أشاحوا بها عن السائل، والجُنُوب التي أعرضوا بها وقت الطلب، والظهور التي أعطوها طالب الحاجة تكبرًا وبخلاً، ويُقال لهم: هذا عاقبة ما كنزتم من الأموال ذوقوه حسرةً وويلاً وأغلالاً وأنكالاً؛ لأنكم منعتم حقه.

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ
ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

عدد شهور السنة في علم الله وتقديره - سبحانه - اثنا عشر شهرًا، محددة لا تزيد ولا تنقص، منها أربعة أشهر معظمة يُحَرَّم فيها القتال، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، وهذا التقسيم من الله للشهور هو شرع مستقيم، ومنهج قويم، فاحذروا أن تظلموا أنفسكم فيها بالقتال، أو تنتهكوا حُرْمتها بالآثام، وعليكم بقتال المشركين جميعًا كما يقاتلونكم جميعًا، وتيقنوا أن الله معكم إذا أخلصتم له التقوى وحفظتم حدوده؛ لأنه ينصر من أطاعه واتقاه، وفي الآية: إباحة قتال المشركين في جميع شهور السنة حتى الأشهر الحرم إذا قاتلوا المسلمين.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ
مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر زيادةٌ في كفر المشركين؛ لأنهم غيّروا في أحكام الله، وبدّلوا في شرعه، وهذا التأخير زاد به الكفار غيًا وضلالاً ممن شرع لهم ذلك، يحلون التأخير عامًا ويحرمونه عامًا آخر؛ لتقع الأشهر المبدلة مكان الأشهر الأربعة الحرم، فيختارون بأهوائهم أربعة أشهر يجعلونها محرمة مكان تلك الحرم، فيحلون الأشهر الحُرم ويستبيحون فيها من القتال وطلب الثأر ما حرَّمه الله - عز وجل - حسَّن لهم الشيطان قبيح ما فعلوه فاستحسنوه، والله لا يرشد كل كافر إلى ما فيه صلاحه، ولا يوفقه لما ينفعه.

﴿٣٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

أيها المؤمنون: ما لكم إذا دُعيتم إلى النفير لإعلاء كلمة الله بالجهاد في سبيله، والخروج للقتال تباطأتم وأحببتم البقاء في دياركم، والتلبُّث بأوطانكم، هل آثرتم شهوات الدنيا على نعيم الآخرة؟ فما التمتع بشهوات الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة إلا وقتٌ قليل مع حقارة الدنيا وتفاهتها وقلة زادها، وقصر عمرها.

﴿٣٩﴾ ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾

إذا لم تخرجوا للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته يعذبكم بالإذلال والهزائم والآفات والمصائب، ويأت بعباد صالحين مجاهدين غيركم يتولونه وينصرونه، وليس في تَوَلِّيكم ضرر على الله - تعالى - فهو الغني عن كل أحد؛ لأنه صمد، وهو عظيم القدرة تنفذ قدرته فيما أراد، ومنها قدرته على استبدال من عصى من العباد بقوم أهلِ طاعة وجهاد.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ
لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إذا لم تنصروا رسول الله ﷺ فالله وحده ينصره ويعزّه ويؤيّده، كما نصره الله يوم أخرجه الكفار من مكة وهو أحد اثنين: الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار، يوم يقول الرسول لصاحبه أبي بكر: «لا تحزن إن الله معنا، فاصبر واطمئن» هذا توكل على الله، حينها أنزل الله الطمأنينة على قلب محمد ﷺ، وأعمى عيون الكفار، ونصره بجند من الملائكة أبرار لا يُشَاهَدون بالأبصار، وصير الله دعوة الكفار هي الذليلة المغلوبة، وكلمة التوحيد ورسالة الله هي المنصورة المرفوعة، والله قوي لا يُغالب، جبار لا يُقهر، حكيم في صنعه وشرعه.

(٤١) ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

اخرجوا للجهاد في سبيل الله - أيها المؤمنون - مشاةً وركبانًا، فرسانًا ورجالاً، نشاطًا وغير نشاط، وابذلوا أموالكم وقدِّموا أرواحكم لإعلاء كلمة ربكم، وهذا العمل فيه الأجر العظيم، والنعيم المقيم، وأفضل من لذائذ الدنيا الفانية ونعيمها الزائل الرخيص.

(٤٢) ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

لو كان المطلب الذي تريده - أيها الرسول - متاعًا دنيويًا، وكان الحصول عليه يسيرًا بلا تعب ولا مشقة، وكان السفر إليه سهلاً متوسطًا لخرج معك المتخلفون، ولكن شق عليهم السفر لما فيه من ضرر زمن الحر، فآثروا البقاء على الجهاد، وإذا رجعت إلى المدينة سوف يأتيك هؤلاء المتخلفون ويقسمون بالله لو تيسرت أمورنا لخرجنا للجهاد معك، وهذا الذي حصل، وهم بقسمهم الكاذب هذا يعرِّضون أنفسهم لأشد العذاب، والله عالم أنهم كاذبون في أيمانهم الفاجرة وأعذارهم الباطلة.

(٤٣) ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

قد سامحك الله أيها الرسول، ولم يؤاخذك، لماذا أذنت لهم في ترك الجهاد والبقاء في المدينة وترك الخروج إلى تبوك، وكان عليك الانتظار حتى يظهر أهل الأعذار من أهل النفاق والإدبار، ويتضح أمر من صدق فيما قال ممن كذب فيما ادعى، فأنت عجلت في قبول أعذارهم.

(٤٤) ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾

لا يطلب منك الإذن والسماح في ترك الجهاد أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، إنما يسارعون إلى امتثال أمر ذي الجلال؛ للبذل والقتال، والله عالم بمن اتقاه واتبع رضاه، يعلم الصادق في نيته البار في عمله.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾

إنما يطلب منك السماح في ترك الجهاد من كفر بالله واليوم الآخر، الشاكّون في وعد الله ووعيده، فهم في هذا الشك مضطربون حائرون بين الكفر والإسلام.

(٤٦) ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾

ولو أحبوا بصدق الخروج معك لإعلاء كلمة الله لتهيؤوا واستعدوا بما يلزم المجاهد في سفره، ولكن الله ما أحبَّ خروجهم معك؛ لنفاقهم فعاقهم عن الخروج، ورماهم بالجبن والكسل والخور والفشل، وقيل لهم: اقعدوا في بيوتكم أذلاء حقراء مع أهل الأعذار من أهل العاهات والفقراء، والأطفال والنساء.

(٤٧) ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

لو ذهب معكم هؤلاء المنافقون للقتال، ما زادكم خروجهم معكم إلا ضررًا وشرًا وفسادًا وفشلاً وهزيمة؛ لأنهم أهل تخذيل وتوهين، ولأسرعوا بالنميمة بينكم، فشقوا صفوفكم، وخالفوا بين قلوبكم بزرع الخلاف وإلقاء العداوات، وإرهابكم من الكفار، وفيكم - أيها المؤمنون - أناسٌ ضعاف يتأثرون بكلام هؤلاء المنافقين، وينخدعون بقولهم، والله عليم بأحوال الظالمين، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، اطلع عليها كلها وسوف يجازيهم بها.

(٤٨) ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾

لقد أثار المنافقون الفتنة وسعوا فيها من قبل غزوة تبوك من تخويف المؤمنين بالعدو والإرجاف والإفساد وإيقاع الخلاف، ودبروا المكائد للرسول ﷺ، وأظهروا غير ما أبطنوا وسعوا في الخديعة والمكر، وقلبوا النظر والرأي في

مكيدة المسلمين، حتى نصر الله دينه ورسوله ﷺ، وأعلى كلمته، وأيد جنده، والمنافقون كارهون لهذا النصر، مبغضون لهذه الرفعة والعلو لدين الإسلام.

(٤٩) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ومن المنافقين من يقول لك - أيها النبي - سامحني في التخلف عن الخروج معكم للقتال؛ لأنك إذا ما أذنت لي وقعتُ في الإثم إذا تخلفت، وقيل: لأن بعضهم قال: أخشى إذا خرجت أن أُفتن بنساء الروم، لكنهم بعملهم هذا وقعوا في أعظم فتنة من حيث لم يشعروا بتخلفهم عن الجهاد ومعصيتهم للرسول ﷺ وكذبهم في الاعتذار، وأن النار محيطةٌ بالكفار وليس لهم منها مهرب ولا فرار.

(٥٠) ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾

إذا جاءتك - أيها الرسول - حسنة من نصر أو غنيمة أحزنت المنافقين، وإذا أصابتك مصيبة من نكبة أو شدة أو هزيمة قال المنافقون قد احتطنا لأنفسنا واستعملنا الحزم ودبرنا أمورنا فنجونا مما أصاب الرسول ﷺ ومن معه، ويُسرّون بهزيمتكم وسلامتهم ويعودون فرحين بما حل بالمؤمنين.

(٥١) ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

قل أيها الرسول: لن يصيبنا من مصيبة إلا بقضاء من الله وقدر، والله يتولى أمورنا في الضراء والسراء، فللشدة صبر، وللرخاء شكر، والمؤمنون يفوضون أمورهم إلى الله من عسر ويسر.

(٥٢) ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

قل - أيها الرسول - للمنافقين: ماذا تنتظرون أن ينزل بنا إلا إحدى العاقبتين الحميدتين، إما نصر وعزة في الدنيا، وإما شهادة وأجر عظيم في الآخرة، وأما نحن فننتظر أن يُنّزِل الله بكم قارعة من السماء، أو نقتلكم ونأسركم بأيدينا، فانتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم.

(٥٣) ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

قل - أيها الرسول - للمنافقين: مهما تصدقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل الله صدقاتكم؛ لأنكم خرجتم عن الطاعة، وفارقتم الجماعة، فأنتم عتاة مردة على أمر الله.

(٥٤) ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

والمانع من قبول صدقاتهم كفرهم بالله وبرسوله ﷺ، وصدقة الكافر مردودة، وصلاتهم بكسل وتثاقل وكره ورياء، والمرائي لا يقبل عمله، ثم إنهم لا يتصدّقون إلا بكره منهم للصدقة، فلا رغبة منهم في الإنفاق لما ران على قلوبهم من النفاق.

(٥٥) ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

فلا تعجب بأموال هؤلاء المنافقين ولا بأولادهم، فإن الله أراد أن يجعلها سببًا لشقائهم وهمهم وحزنهم في الدنيا؛ لتعلقهم بها مع فراغ قلوبهم من الإيمان والرضا وتركهم الشكر عليها، وهي في الآخرة سبب عذابهم في نار جهنم؛ لمنعهم زكاتها وحقوقها الواجبة، ثم إن موتهم يأتيهم وهم كارهون له، فتخرج أرواحهم بمشقة، ويعانون أشد الألم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ.

﴿٥٦﴾ ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾

يقسم المنافقون أنهم مع المؤمنين في الحرب والنصر وكذبوا في ذلك، فهم يظهرون لكم المودة بألسنتهم فحسب، أما قلوبهم فمليئة بالكره لكم وعدواتكم، وما أظهروا لكم الإسلام وأبطنوا الكفر إلا لأنهم يخافون منكم أشد الخوف لو أظهروا الكفر فَيتَّقُونكم بالنفاق.

﴿٥٧﴾ ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

لو يجد المنافقون حصنًا منيعًا أو كهوفًا واقية أو سراديب تحت الأرض لاستتروا فيها مسرعين إليها بوجل واضطراب من شدة خوفهم.

﴿٥٨﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

وبعض المنافقين يعيبك – أيها النبي – في قسمتك للصدقات، ويتهمك بالمحاباة وعدم العدل، فإذا أعطيتهم منها على قدر رغبتهم وطمعهم رضوا عنك وأثنوا عليك، وإذا لم تعطهم ما يرغبون غضبوا منك، وعابوا عليك، وطعنوا في عدلك، وهذه صفة عبيد الدنيا؛ عند المغانم طمع، وعند المغارم جزع.

﴿٥٩﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

ولو أن المنافقين قنعوا بما أعطاهم الله من الرزق على يد رسول الله ﷺ من الغنائم ونحوها وقالوا: الله كافينا ولن يضيعنا وسوف يتولى أمرنا سوف يرزقنا رزقًا واسعًا كثيرًا؛ لأن فضله لا يُحد، وعطاءَه لا يُرد، وسوف يعطينا الرسول ﷺ فيما يستقبل أكثر وأفضل، إننا نطمع في فضل الله ونرغب في عطائه، لو قالوا هذا مع الظن الحسن لكان خيرًا لهم.

﴿٦٠﴾ ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

إنما يُعطى من الزكاة المفروضة ثمانية أصناف: الفقراء المعدمون، والمساكين المحرومون، والجباة العاملون، والكافرون المتألَّفون، أو لعتق المملوكين، أو من عجز عن وفاء الدين، و المجاهدون، والمسافرون المنقطعون، وهذه القسمة حكم من الله لازم، وفرض واجب، فهو عليم بمصالح العباد وأهل الحاجة من غيرهم، حكيمٌ في تدبيره، ولهذا أحسن في قسمه، وعدل فيما أعطى سبحانه.

﴿٦١﴾ ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وبعض المنافقين يعيبون على الرسول الكريم ﷺ أنه يسمع لكل أحد، ويصدق كل خبر، وصارت أذنه متلقية، وقابلة لما يُقال له، فردّ الله عليهم بأن الرسول ﷺ سامع للخير لا الشر، يقبل الصدق لا الكذب، ويُصَدِّق بالله وكتابه، ويصدق المؤمنين فيما أخبروه بما قاله الكافرون المنافقون، وهو رحمة لمن اتبعه، وسبب نجاة وإمام هدى لمن اقتدى به، ومن آذى الرسول ﷺ بقول أو فعل فله العذاب المؤلم الموجع الدائم في نار جهنم.

﴿٦٢﴾ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

يقسم المنافقون بالله لكم – أيها المؤمنون – أنهم ما قالوا ما قيل عنهم؛ حتى يكسبوا رضا المؤمنين، والله ورسوله أحق بالإرضاء لو كانوا مؤمنين حقًا، فالله وحده هو من بيده نفعهم وضرهم، ورسوله الكريم ﷺ مبلغ عن الله، هادٍ إلى سبيله سبب لكل خير.

٦٣ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن من عادى الله وعادى رسوله فأن مصيره نار جهنم خالدًا فيها، وهذا هو الذل العظيم والهوان الشديد والخزي الدائم.

٦٤ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

يخشى المنافقون أن ينزل الله على رسوله ﷺ سورة تفضحهم وتطلع رسوله والمؤمنين على ما في قلوب المنافقين من الكفر والعداوة، قل - أيها النبي على سبيل التهديد-: استهزئوا على طريقتكم كما تشاؤون فالله مظهر ما تخفون وكاشف ما تسرّون.

٦٥ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾

ولئن سألت - أيها النبي - المنافقين عن استهزائهم بالقرآن وبك وبالإسلام في غزوة تبوك لاعتذروا إليك وقالوا: كنا نتحدث للتسلية وإزجاء الوقت فحسب، ونمزح لنقطع الطريق، فقل لهم: أبالله العظيم وكتابه الحكيم ورسوله الكريم تستهزئون، أما وجدتم حديثًا غير هذا؟

٦٦ ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

لا تعتذروا - أيها المنافقون - عن هذا الاستهزاء، فعذركم باطل، وفعلكم آثم، وقولكم كاذب، قد كفرتم بهذا الاستهزاء، فإن تاب الله على جماعة منكم عادوا إلى الإسلام وندموا على ما فعلوا، فإن الله سوف يعذب جماعة أصرَّت على الكفر وأبطنت النفاق ولم تتب مما فعلت.

٦٧ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

المنافقون والمنافقات حزب واحد، متفقون على الكفر بالرحمن، وحرب أهل الإيمان، يدعون إلى كل منكر، ويتواصون بكل قبيح، وينهون عن كل معروف، ويحذرون من كل رشد، ويبخلون بعطائهم، ويمسكون نفقتهم في وجوه الخير، تركوا الإيمان فأهملهم الرحمن من التوبة والغفران، إن المنافقين مردة خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

٦٨ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار أن مصيرهم نار جهنم يخلدون فيها، وهي تكفيهم عقابًا وجزاءً، وحرمهم من جنته وطردهم من رحمته، ولهم عذاب دائم ثابت مهول لا يخفف ولا ينقطع.

٦٩ ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

كما فَعَلَ الذين سبقوا من أهل الكفر فَعَلَ هؤلاء المنافقون، مع أن من سبق كانوا أقوى من هؤلاء، وأكثر أمولاً وأولادًا، فتمتعوا بشهوات الدنيا ولذائذها غاية التمتع، وأنتم تمتعتم بالشهوات والحظوظ الدنيوية والمطالب السفلية كما تمتع السابقون، وخضتم في الباطل والمعاصي والمخالفات كخوض أولئك في باطلهم وكفرهم، فأنتم وإياهم أكثرتم من اللهو واللعب والتنعم والتلذذ مع مخالفة أمر الله، والصد عن سبيله، ومن كان هذا فعله فقد بطل عمله، وخاب سعيه في الدنيا والآخرة، وصار إلى الهلاك، فأبدل الله غناهم فقرًا، وعِزَّهم ذُلاً، وتنعمهم عذابًا أليمًا.

٧٠ ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

أما بلغ المنافقين خبـر الكفار السابقين مثل قوم نوح الذين أُغرقوا بالطوفان، وَعاد الذين أُهلكوا بالريح العاتية، وثمودَ الذين أهلكوا بالصيحة، وقوم إبراهيم الذين سُلِبوا النعم وحلَّت بهم النقم، وأصحاب مدين الذين أُخذوا بعذاب يوم الظُّلة، وقرى قوم لوط المؤتفكات الذين قُلبت عليهم قراهم ورُجموا بالحجارة، جاء الرسل هؤلاء الأقوام بالمعجزات والأدلة القاطعة على وحدانية الله، فكذبوا بها، فالله لم يكن ليعذبهم ظلمًا بلا ذنب، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والطغيان وتكذيب الرسل والعصيان، فاستحقوا العذاب والخسران.

٧١ ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

والمؤمنون والمؤمنات حزب واحد يتعاونون على البر والتقوى، ويتحابون وينصر بعضهم بعضًا، يأمرون بكل معروف مشروع من صالح الأعمال وحسن الأقوال وطيب الأحوال، وينهون عن كل منكر من قول قبيح، أو فعل خبيث، أو حالٍ سيئ، ويؤدون الصلاة على أتم وجه بما تقتضيه من حقوق، ويدفعون الزكاة الواجبة لمستحقيها، ويطيعون الله ورسوله، فيفعلون الأوامر، ويجتنبون النواهي، هؤلاء المتصفون بهذه الصفات سيرحمهم الله بإنجاز ما وعد من ثواب، وسيصرف عنهم كل عقاب، وينجيهم من كل عذاب، فيحقق لهم ما طلبوا ويؤمنهم من كل خوف، إن الله لا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه أمر، فمن عزته إنفاذه وعده ووعيده، وهو حكيم في صنعه وشرعه، فمن حكمته إثابة المحسن، ومعاقبة المسيء.

٧٢ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

وعد الله المؤمنين والمؤمنات دخول الجنات، تجري فيها الأنهار من تحت الأشجار، مع خلود دائم ونعيم ثابت مستمر، في قصور عامرة حسنة، ودور بهية جميلة في جنات الخلد مع إقامة دائمة لا انقطاع فيها ولا خروج منها ولا كدر معها، ورضوان من الله أكبر من كل نعيم، وأعظم من كل محبوب؛ لأن في الرضا غاية السعادة وكمال التنعم والأمن من السخط، وهذا ظفر لا يعادله ظفر، وفلاح لا فلاح بعده؛ حيث راحة النفس، وقرة العين، وبهجة الخاطر، ومتعة الجسم، مع حسن المقام وطيب المقر.

٧٣ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

يا أيها النبي: جاهد الكفار والمنافقين بالمال والنفس واللسان، واغلظ قولك وفعلك عليهم بشدة وخشونة؛ ليصان الحق عن أذاهم، ومردُّهم إلى النار وبئس القرار، خالدين فيها لسوء ما فعلوه، وقبح ما ارتكبوه.

٧٤ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يقسم المنافقون لك: إنهم ما قالوا ما بلغك عنهم من سبٍّ وطعنٍ، ولقد كذبوا، لقد نطقوا بكلمة الكفر من سب الرسول ﷺ والطعن في دينه، فخرجوا بذلك من الإسلام وعزموا على ما لم يستطيعوا الوصول إليه، وهو قتل الرسول ﷺ ليلة العقبة في عودته من تبوك، وما كرهوا إلا ما يوجب عليهم من الله المنة وله الشكر على حسن الصنيع بهم، حيث أغناهم من فقر، وتفضل عليهم بالغنائم بعد حاجة وبؤس، فإن تابوا بالإيمان وطاعة الرحمن كان خيرًا لهم في

الدنيا والآخرة، وإن يعرضوا عن التوبة والإيمان يعذبهم الله في الدنيا على أيدي المؤمنين بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالخلود في النار، وما لهم ولي يحفظهم ويتولاهم ويجلب لهم المنفعة، ولا نصير يدفع عنهم العذاب.

٧٥ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

من المنافقين من عاهد الله: لئن رزقنا الله من فضله لندفعن الصدقة الواجبة وما في المال من حقوق، ولنستقيمن على ما أراد وأحبّ - سبحانه - من فعل الطاعات واجتناب المعاصي.

٧٦ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

فلما تفضل الله عليهم بالرزق وأغناهم بعد الفقر بخلوا بالإنفاق؛ لتمكن النفاق في قلوبهم، وأدبروا عن طاعة الله واتباع رسوله ﷺ، وهم معرضون عن الحق من علم نافع وعمل صالح.

٧٧ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾

فأورثهم البخل بالمال نفاقًا راسخًا في القلوب إلى الموت؛ بسبب نقض العهد مع الله وإخلاف الوعد، وكذبهم في إظهارهم غير ما يبطنون، وقَسَمُهم وهم كاذبون، وتصنعهم وهم مخادعون.

٧٨ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

ألم يعلم المنافقون أن الله مطلع على ما كتموه في الصدور من الكفر والعداوة، وهو - سبحانه - عليم بما يقولونه سرًا فيما بينهم من سب الدين وطعن في النبي الأمين، والله لا تخفى عليه خافية، ولا يكتم عليه سر جل في علاه.

٧٩ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

والمنافقون الذين يعيبون المتطوعين المؤمنين في دفع الصدقات، فإذا تصدقوا بشيء يسير قالوا: ماذا ينفع هذا القليل في تجهيز جيش كبير، وإن تصدقوا بكثير قالوا: هذا هو الرياء. فلا صاحب القليل عذروا، ولا منفق الكثير شكروا، ويعيبون الذين لا يجدون إلا شيئًا قليلاً يتصدقون به فيلمزونهم ويستهزئون بهم ويقولون: إن الله غني عن هذا اليسير الحقير، فالله يسخر منهم كما سخروا من عباده الصالحين سخرية تليق بجلاله جل في علاه كما جاء في كتابه، ولهؤلاء المنافقين في الآخرة عذابٌ مؤلم في نار جهنم.

٨٠ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

استغفر - أيها النبي - لهؤلاء المنافقين أو لا تستغفر لهم فليسوا أهلاً للمغفرة، ولو استغفرت لهم سبعين مرة أو أكثر فالله لن يغفر لهم ذنوبهم أبدًا؛ لأن عندهم الكفر بالله ورسوله الذي يمنع صاحبه غفران ذنوبه، والله لا يوفق للرشد كل متمرد على شرعه خارجٍ عن طاعته.

٨١ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾

فرح الذين تخلفوا من المنافقين عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ؛ لأنهم وجدوا السلامة من مشقة السفر والجهاد، وكرهوا بذل الأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله، وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا للجهاد زمن الحر ووقت القيظ، فقل لهم - أيها الرسول -: نار جهنم أشد حرًا من هذا الحر الذي تخافون الخروج فيه، فأنتم تركتم الخروج هروبًا من الحر، وعاقبة هذا الفعل حر نار جهنم تصلونه، ولو كان المنافقون يفهمون حقائق الأمور ونصوص الشرع وأسرار الأحكام ما أقدموا على هذا الفساد، والتخلف عن الجهاد ومعصية رب العباد.

(٨٢) ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

فليضحكوا في هذه الحياة الدنيا فما أقل بقاءهم فيها، فسوف يبكون كثيرًا في الآخرة على ما فرطوا في جنب الله من استهزاء بالدين، وسخرية من المؤمنين، وهذا الموعود جزاءً لهم على ما اقترفوا من الذنوب وفعلوه من الآثام.

(٨٣) ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴾

فإن أعادك الله - أيها الرسول - من تبوك إلى المدينة وجاءك جماعة من المنافقين يريدون الجهاد معك مرة أخرى فقل لهم: لن آذن لكم بالجهاد معي أبدًا، ولن تقاتلوا معي عدوًا من أعداء الإسلام في أي مكان؛ لأنكم عصيتم الله وخالفتم أمري في غزوة تبوك، فالواجب الحذر وأخذ الحيطة منكم، فابقوا في المدينة أذلاء حقراء مع من تخلف من الضعفاء والنساء.

(٨٤) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾

ولا تصل - أيها الرسول - صلاة الجنازة على أي ميت من هؤلاء المنافقين، ولا تقف على قبره للدعاء له؛ لأنهم كفروا بالله وبرسوله، وقد خرجوا عن طاعة الله وتمردوا على دينه فهم أعداء الإسلام.

(٨٥) ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾

ولا تستحسن ما وهبهم الله من أموال وأبناء، فإن الله أراد أن يجعلها سبب المتاعب والمشاق لهم؛ لكثرة حرصهم وقلقهم، وخروج الرضا من قلوبهم، ثم تخرج أرواحهم من أبدانهم بمشقة وكره، مع الكفر المصاحب لهم الذي يخلدون بسببه في نار جهنم، فحياتهم شقاء، وموتهم عناء.

(٨٦) ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾

وإذا أنزل الله على رسوله سورة من القرآن تدعوهم إلى الإيمان بالله، والجهاد مع رسوله في سبيل الله رأيت الأغنياء منهم والقادرين أهل السعة والفضل يستأذنون الرسول ﷺ في التخلف عن الجهاد، وقالوا: اتركنا مع العجزة أهل الأعذار من الضعفاء والنساء؛ لما في قلوبهم من الجبن والخور والفشل.

(٨٧) ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾

رضي المنافقون بأن يكونوا مع النساء اللواتي خُلِّفن عن الجهاد في البيوت، ففاتتهم صفة الرجال من الشجاعة والثبات وعلو الهمة، وختم الله على قلوبهم بالكفر، فليس للحق وصول إليها، فهم لا يفهمون ما في الجهاد من خير ولا يعقلون ما ينفعهم وما يضرهم.

(٨٨) ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

لكن الرسول ﷺ وأتباعه من المؤمنين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله لإعلاء كلمته، وهؤلاء لهم خيرات الدنيا والآخرة من النصر والعزة والكسب الحلال من الغنائم والشهادة ومغفرة الذنوب، وهم الفائزون بالرضوان وسكنى الجنان، فقد أدركوا الظفر، ونجو من كل خطر.

(٨٩) ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

هيأ الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، في خلود دائم ونعيم مستمر، وهذا هو الفلاح الكبير والفوز العظيم الذي ليس بعده فوز، وهي نيل أشرف المطالب، وأجلُّ الدرجات.

(٩٠) ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

وأتى المعتذرون من الأعراب بأعذار مقبولة إلى الرسول ﷺ ليأذن لهم في التخلف عن غزوة تبوك، وتخلف منافقو الأعراب عن الجهاد بلا عذر، فهم كذبوا الله ما وعدوه، وخالفوا الرسول ﷺ وما اتبعوه؛ لأنهم مكذبون بالإيمان، سيصيب الأعراب الكاذبين في أعذارهم والذين تخلفوا ولم يعتذروا عذاب مؤلم موجع في نار جهنم.

(٩١) ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ليس على من تخلف من أهل الأعذار كالشيوخ والنساء والصبيان والعجزة والمرضى والزمنى والعمي والفقراء الذين قصّرت بهم النفقة عن الجهاد، ليس عليهم ذنب في ترك الخروج للقتال إذا أخلصوا العبادة لله، والمتابعة لرسوله ﷺ وسَلِمُوا من النفاق، لا لوم ولا عتب عليهم، فالله غفور لهم، قابل لعذرهم، متجاوز عن تقصيرهم، رحيم في توسعة الأمر لهم، وعدم تكليفهم بما لا يطيقون.

(٩٢) ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾

ولا ذنب ولا مؤاخذة على من جاؤوك - أيها النبي - يطلبون منك ما يركبونه من الدواب للخروج في سبيل الله فاعتذرت إليهم بعدم وجود ما يركبونه عندك، فمن حبهم للجهاد انصرفوا من عندك يبكون حزنًا؛ لأنهم ما وجدوا ما ينفقونه ليخرجوا معك، فقصرت بهم ذات اليد عن القدرة على الجهاد، فهؤلاء معذورون ومشكورون؛ لأنهم فعلوا ما يطيقون، وصدقوا في نياتهم، وحزنوا على فوت الجهاد.

(٩٣) ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

إنما الإثم والمؤاخذة والعقوبة على أناس يطلبون منك التخلف عن الجهاد، وعندهم النفقة والقدرة على الجهاد، رضوا -من مَهَانَتِهم لأنفسهم- بأن يكونوا مع ربات الحجال في الخدور من النساء، فلا رجولة فيهم، ولا شجاعة لهم، ولا إقدام عندهم، فقد ختم الله على قلوبهم فلا تبصر الحق، وهم لا يعلمون ما ينفعهم مما يضرهم؛ ولهذا تركوا الجهاد وما فيه من فضائل عظيمة، وما يفعل هذا إلا من غطى الجهل عليه، وحرم العلم النافع.

(٩٤) ﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

إذا عدتم إلى المدينة من تبوك سوف يأتيكم المنافقون ويعتذرون إليكم في التخلف وهم كاذبون في أعذارهم، فقل لهم - أيها النبي -: لا تعتذروا فأنتم كاذبون، ولن نقبل لكم أيَّ عذر، فقد كشف الله لنا حالكم بالوحي، وفضح سرائركم وما أضمرتم من النفاق، وسيظهر علم الله فيكم أتتوبون وتصلحون، أم ستبقون على النفاق، وسوف يرى رسوله ﷺ عملكم فيما يستقبل من الأيام، ثم تعودون في الآخرة إلى عالم ما غاب عن الأبصار وما شاهدته الأنظار الذي لا تخفى عليه خافية في السموات والأرض، فيخبركم بما فعلتم ويجازيكم على ما صنعتم.

(٩٥) ﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

يقسم لكم هؤلاء المنافقون إذا عدتم من تبوك إلى المدينة لأجل أن تصفحوا عنهم ولا تلوموهم وتقبلوا عذرهم، فاصفحوا عنهم واتركوهم إنهم خبثاء، أفعالهم قذرة، وأحوالهم قبيحة، ومقرهم نار جهنم يصلونها مخلدين فيها بسبب أعمالهم المشينة.

٩٦ ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يقسم لكم المنافقون أيمانًا كاذبةً آثمةً حتى ترضوا عنهم، ولو حصل رضاكم عنهم وعذركم لهم فإن الله غاضبٌ عليهم؛ لأنهم خرجوا عن طاعته وتمردوا على شرعه، فأنتم قد تغترون بما ظهر لكم، ولكن الله يعلم ما أخفوا من النفاق.

٩٧ ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

سُكَّان البادية من الأعراب أكثر من غيرهم كفرًا بالله ونفاقًا؛ لجهلهم وبعدهم عن العلم وغلظ أخلاقهم وقسوة قلوبهم وجفاء طبيعتهم، وهم أولى وأحرى أن يجهلوا الأحكام الشرعية والآداب المرعية؛ لبعدهم عن مواطن التعليم ولقاء ورثة الأنبياء، والله عليم بأحوالهم، فهذا الوصف لهم من عليم، حكيم فيما قدّر وشرع وقضى وأبرم.

٩٨ ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وبعض الأعراب يرى أن ما تصدق به في سبيل الله خسارة وغرامة؛ لنفاقهم وعدم احتسابهم الأجر في ذلك، وإنما فعل ذلك رياءً وسمعة وتُقْيَة، وهم ينتظرون بكم المصائب والهزائم؛ لبغضهم لكم، عليهم هم وحدهم الدواهي والمصائب من سوء الحال، وقبيح المآل، وغضب ذي الجلال مع الهوان والإذلال، والله سامع لما قالوا، عالم بما فعلوا، وسيحاسبهم على سوء الأقوال، وقبيح الأفعال.

٩٩ ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

بعض الأعراب مؤمنون بالله ورسوله، صادقون في إيمانهم، يحتسبون الأجر من الله فيما يتصدقون به في سبيله، يتقربون بالطاعات إلى الله، وليحصلَ لهم استغفارُ الرسول ﷺ ودعاؤه بالرحمة والرضوان لهم، ألا إن صدقتهم ودعاء النبي لهم نافع مقبول عند الله؛ لإخلاصهم، وجزاؤهم جنات النعيم، يدخلونها برحمة أرحم الراحمين، لأنه يغفر للتائبين ذنوبهم، ويرحم المنيبين، ويتجاوز عمن أساء ثم ندم وعاد.

١٠٠ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

والسابقون الأولون إلى الإيمان بالله والهجرة في سبيله والجهاد والصدقة من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم في العمل الصالح، قَبِل الله طاعتهم ورضي عملهم وغفر ذنبهم ولم يسخط عليهم، ورضوا عن الله بما أنعم عليهم من الفضل، وأفاض عليهم من البر، وهيأ الله لهم في الآخرة جنات تجري تحت أشجارها الأنهار، باقين فيها أبدًا، منعمين فيها سرمدًا، ذلك هو الظفر الأعظم والفلاح الأكبر الذي لا يعادله ظفر ولا يضاهيه فلاح.

١٠١ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

وبعض الأعراب حول المدينة منافقون أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وبعض أهل المدينة أناس استمرؤوا النفاق واعتادوا عليه حتى خفي أمرهم على رسول الله ﷺ، فلم يكتشف أمرهم لمبالغتهم في التخفي بالنفاق، ولكن الله يعلمهم ويكشف أمرهم لرسوله ﷺ، وسيعذبهم الله عذابين؛ عذاب الفضيحة في الدنيا، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم، وعذاب سكرات الموت وما في القبر من أهوال، وفي الآخرة عذاب شديد موجع في الدرك الأسفل في النار.

١٠٢ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وطائفة أخرى من المسلمين تخلفوا عن الخروج معك بلا عذر، وأقروا بخطئهم، عندهم عمل صالح من تمسك بشريعة الإسلام، وعندهم عمل سيئ وهو التخلف عن غزوة تبوك، ثم ندموا واستغفروا من هذا التخلّف لعل الله أن

يغفر لهم ذنوبهم لتوبتهم، فهم في رجاء غفران الله، والله غفور لمن تاب، رحيم بمن أناب، فتح لمن عاد إليه الباب، ورفع لمن رجع عن معصيته الحجاب.

(١٠٣) ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

خذ - أيها الرسول - من هؤلاء التائبين من تخلفهم عن الغزو صدقةً من أموالهم تطهر نفوسهم من الذنب والشح، وتزكي أموالهم فتصلح نفوسهم وتُنَمّى أموالهم، وادع لهم بالغفران؛ لأن دعاءك لهم سبب لنزول الطمأنينة والسكينة على نفوسهم، والله سميع لاعترافهم بالتقصير، ولدعائك لهم بالعفو من اللطيف الخبير، عليم بنية الصادق في توبته من غيره.

(١٠٤) ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

ألم يعلم هؤلاء التائبون أن الله يتوب على من تاب ويرحم من أناب، فيغفر زلاتهم ويتقبل صدقاتهم؛ لأنه كثير الغفران لمن هجر المعصية وأقبل إلى الطاعة وندم على الذنب، رحيم بمن صدق في توبته، فلا يؤاخذه بما سلف ولا يعذبه بما اقترف.

(١٠٥) ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

وقل - أيها النبي - لمن تاب: اعملوا صالحًا، وافعلوا خيرًا، فسيرى الله عملكم من صلاح أو فساد، وسيرى ذلك العمل رسوله الكريم وعباده الصالحون، وهم شهداء الله في أرضه، وستعودون يوم القيامة إلى عالم ما خفي وظهر، وغاب وحضر من الأقوال والأعمال؛ فيخبركم بالأعمال، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشر.

(١٠٦) ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

وطائفة أخرى من المتخلفين عن الجهاد، مؤجلٌ أمرهم إلى الله، وهم: الثلاثة الذين أخَّر الله أمرهم، فإما يعذبهم الله بتخلفهم، وإما يتغمدهم برحمته ويتوب عليهم، والله عليم بما في قلوبهم، حكيمٌ في قضائه، عليم بمصيرهم.

(١٠٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾

والمنافقون الذين بنوا في المدينة مسجدًا لكيد المؤمنين والتآمر على الرسول ﷺ وبث الفرقة والخلاف في صفوف المسلمين، وانتظار لقدوم من حارب الله وحارب رسوله وهو أبو عامر الراهب الذي ذهب إلى قيصر ليستعين به على حرب المسلمين، وسوف يقسم هؤلاء المنافقون الفجار أنهم ما قصدوا بناء هذا المسجد إلا لتيسير حضور الجماعة على الضعفاء والعجزة الذين يمنعهم المطر والحر من الذهاب لأبعد منه، والله يشهد إنهم كذبوا في هذه الأيمان الآثمة. وفيه:- أن بعض طرق الخير في الظاهر قد تُحوَّل إلى وسائل للشر والإضرار بالإسلام وأهله.

(١٠٨) ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴾

لا تصل - أيها النبي - في مسجد المنافقين هذا أبدًا، إن مسجد قباء والمسجد النبوي أولى أن تصلي فيهما من مسجد الضرار؛ لأنه بُني على تقوىً من الله ورضوان من أول ما دخل النبي ﷺ المدينة مهاجرًا، وفي قباء رجال من الأنصار يحبون الطهارة الحسية بالوضوء ونحوه، والمعنوية بالإيمان والتوبة من آثار الذنوب والمعاصي، والله يحب من يتطهر من النجاسات والفواحش والمخالفات؛ لأنه طيب لا يقبل إلا طيبًا.

(١٠٩) ﴿ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لا يستوي من أقام بنيانه على أساس متين من تقوى الله ورضوان، وقصد وجهه والعمل بطاعته، ومن أقام بنيانه على جانب وادٍ منهار أوشك على السقوط؛ لضعف أساسه، فإذا سقط سقط بصاحبه في نار جهنم، وهذا حال أهل

مسجد الضرار الذي بنوه نفاقًا وكمينًا لدسائسهم ومكرهم، والله لا يوفق من ظلم نفسه بالنفاق ومحاربة الإسلام للرشد والصلاح.

(١١٠) ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لا يزال بناء المنافقين لمسجد الضرار شكًا وحَيْرةً ونفاقًا في قلوبهم يلازمهم أبدًا إلى أن يموتوا، أو يمزق الهم والغم والحزن قلوبهم، والله عليم بأحوال عباده، يعلم الصادق من الكاذب، حكيم في صنعه وشرعه وثوابه وعقابه.

(١١١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

إن الله اشترى أنفس المؤمنين منهم، فباعوا أرواحهم واشتروا الجنة ونعيمها، فهم يقاتلون في سبيل الله أعداء الله؛ لإعلاء كلمة الله، فيقتلون الكفار، ويستشهدون هم مع الأبرار، وينفقون أموالهم في سبيل الله وَعَدَهُم الله بالجنة وعدًا لازمًا ثابتًا مُسَطَّرًا في التوراة والإنجيل والقرآن، ولا أحد أوفى بالعهد وإنجاز الوعد من الواحد الأحد، الذي لا يخلف ما وعد، ولا ينقض ما عقد، فلكم البشرى - أيها المؤمنون - بهذا البيع الذي بايعتم ربكم عليه، فإنه والله أعظم صفقة رابحة، وهو الظفر الأعظم والفوز الأكرم، فالمشتري الله، والبائع المؤمنون، والسلعة أنفسهم، والثمن الجنة، ومجلس العقد ساح القتال، فلما قرئ صك العقد الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ قال المؤمنون: ربح البيع والله لا نقيل ولا نستقيل.

(١١٢) ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هؤلاء الأبرار المجاهدون الذين وعدهم ربهم بالجنة هم التائبون من الذنوب ما ظهر منها وما بطن، المخلصون الطاعة لربهم، الحامدون الله في السراء والضراء، الصائمون أو المتفكرون في خلق الله، المداومون على الصلاة، المكثرون من نوافلها، الآمرون بما يحبه الله ورسوله ﷺ، الناهون عما يكرهه الله ورسوله ﷺ، القائمون بحفظ الشرائع والتزام الأحكام وترك النواهي، وبَشِّر - أيها الرسول - المؤمنين بجنات النعيم جزاء أعمالهم الصالحة.

(١١٣) ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

ما ينبغي للرسول ولا ينبغي للمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين، لأن الله لا يغفر أن يُشرك به ولو كانوا أقرباء لهم، من بعد ما ظهر أنهم كفار من أصحاب النار، فمن مات على الشرك حُرِمَ أن يُسْتَغْفَرَ له.

(١١٤) ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾

لم يكن استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك إلا لأن إبراهيم وعد أباه في قوله: لأستغفرن لك، فلما ظهر لإبراهيم عداوة أبيه لربه بالشرك تبرأ منه، وترك الاستغفار له، إن إبراهيم كثير الإنابة إلى ربه والتضرع والخضوع والتوبة، صفوح عن الأخطاء، صبور على الأذى، كظوم للغيظ.

(١١٥) ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وما كان في حكم الله وعدله أن يؤاخذ قومًا على الضلال حتى يتبيّن لهم الحق من الباطل، والحلال من الحرام، ويقيم عليهم الحجة بالرسالة، فإذا بيّن لهم ما يحل وما يحرم أثاب الطائع وعاقب العاصي؛ لأن الله عليم بكل أحوال عباده من حسن وسيئ، وصلاح وفساد، ومن يستحق الثواب والعقاب.

١١٦ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾

الله وحده له ملك السموات والأرض وما بينهما، لا شريك له في ملكهما خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا ورزقًا، وهو المحيي والمميت وحده، وليس لكم - أيها الناس - غير الله يتولى أموركم بالحفظ والرعاية والنصر والولاية؛ فيجلب لكم النفع ويدفع عنكم الضر، بل الله يتولى ذلك كله.

١١٧ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

لقد قَبِل الله توبة نبيه والمهاجرين والأنصار وغفر ذنوبهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ لإيمانهم به وصدقهم معه وجهادهم في وقت الشدة والحرّ والمشقة في غزوة تبوك من بعد ما كاد يزيغ قلوب بعضهم بالتخلف عن الجهاد؛ لقلة الزاد والمزاد، وصعوبة السير والجلاد، ثم تاب عليهم وتجاوز عن همهم بالتخلف، وثبت قلوبهم على الإيمان، إن الله رؤوف بمن تاب لا يعاقبه، رحيم بمن أناب لا يعاتبه.

١١٨ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وليسوا منافقين، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، من بعد ما ضاقت عليهم الأرض الوسيعة الفسيحة، وضاقت أنفسهم من شدة الحزن والهم والغم، وتيقنوا أن لا مفر من الله إلا إليه، ولا نجاة من عذابه إلا برحمته، ولا ملجأ من غضبه إلا بالتوبة إليه، فمنَّ الله عليهم بأنه قَبِل توبتهم؛ ليكونوا من بين التائبين ومع المنيبين، إن الله واسع المغفرة لمن تاب، جزيل الرحمة بمن أناب، يقبل عثرة من زلت به القدم إذا ندم.

١١٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

أيها المؤمنون: راقبوا الله وخافوه بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وتمسكوا بالصدق في الأقوال والأعمال والأحوال فهو أشرف الخلال.

١٢٠ ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

لا يحل ولا يحق لسكان المدينة ومن جاورهم من أعراب البادية أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ولا يؤثروا لأنفسهم الراحة على نفس محمد ﷺ، وذلك النهي عن التخلف سببه أنهم لا يجدون عطشًا أو تعبًا أو جوعًا لإعلاء كلمة الله، ولا ينزلون مكانًا فيه إغضاب للكفار، ولا يأخذون من عدو الله شيئًا من الأنفس بالقتل أو الأسر أو يغنمون منه مالاً، إلا سُجِّل لهم ذلك في صحائف الأعمال الصالحة المقبولة، إن الله حافظ لثواب المخلصين الصادقين، وهم من أحسن في عمله على وَفْق ما شرعه ربه.

١٢١ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

ولا يتصدقون بصدقة قلَّت أو كثرت ولا يتجاوزون واديًا في مرضاة الله لإعلاء كلمته إلا كتب الله لهم ذلك العمل؛ ليثيبهم عليه أحسن الثواب وأعظم الجزاء في دار النعيم المقيم بجوار الرحمن الرحيم.

﴿١٢٢﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

ولا يجب على المؤمنين أن يخرجوا جميعًا للجهاد أو طلب العلم ويتركوا ديارهم خالية، بل يخرج من كل قبيلة جماعة ويبقى آخرون، وتلك الجماعة تتعلم العلم النافع، ثم إذا عادت علَّمت من تخلف وفقَّهتهم في دين الله وحذرتهم معاصيه ومخالفة أمره؛ لعلهم يتقون ربهم بالعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ

﴿١٢٣﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

يا أيها المؤمنون: ابدؤوا بقتال الكفار المحاربين القريبين من داركم؛ لأنهم أشد خطرًا، وكونوا أقوياء أشداء عليهم؛ ليُهاب جانب الحق، ويُحترم الإسلام، واعلموا أن الله ينصر المتقي ويؤيده، وهو من عمل بما أحبَّ الله وترك ما كَرِه سبحانه.

﴿١٢٤﴾ ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

وإذا أنزل الله عليك - أيها الرسول - سورةً من سور القرآن فَمِنَ المنافقين من يقول لأصحابه -استهزاءً-: من منكم زادته هذه السورة إيمانًا بالله ورسوله؟ فأما المؤمنون الصادقون فزادتهم السورة إيمانًا زيادةً على إيمانهم، وهم يفرحون بهذه السورة، وما أتت به من الفوائد الجليلة والفتوحات العظيمة، ويبشر بعضهم بعضًا بها.

﴿١٢٥﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

وأما المنافقون فزادتهم السورة المنزلة شكًا وحيرةً ونفاقًا إلى نفاقهم وخبثًا إلى خبثهم واستمروا على الكفر حتى دخلوا به القبر، فالقرآن يزيد المهتدي هدىً، وأما الضال فلا يزيده إلا عمى.

﴿١٢٦﴾ ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

أولا يتفكر المنافقون أن الله يمتحنهم بالجهاد مع رسوله ﷺ كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون بالاستجابة لله وترك النفاق، ولا يرتدعون ويخافون من انكشاف أمرهم ولا ينتفعون بالعبر.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

وإذا أنزل الله سورة على رسوله تكشف حال المنافقين وتفضح أمرهم وتهتك سترهم، نظر بعض المنافقين إلى بعض ريبةً وتدبيرًا للفرار من مجلس الرسول ﷺ يقولون: هل يراكم أحد من المؤمنين إذا فررتم متسلّلين؟ ثم هربوا إلى منازلهم خوفًا من الوحي أن يفضحهم، صرف الله قلوبهم عن الهدى والرشد؛ لأنهم أناس لا يفهمون ما أنزل الله على رسوله فَهْمَ تعقُّل وتدبر وقبول.

﴿١٢٨﴾ ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

لقد جاءكم - أيها الناس - رسول كريم من جنسكم، تعرفون نسبه الشريف (للقراءة الأخرى أنْفَسِكم أي: أشرفكم)، وأصله وصدقه وأمانته، يَشُقُّ عليه ما يشق عليكم، حريص على إيمانكم ونجاتكم وسعادتكم، رؤوف بالمؤمنين يسعى في إزالة كل شقاء وعناء، رحيم بهم، يوصل إليهم الإحسان والعطاء، فرأفته بالمنكسرة قلوبهم، ورحمته بمن آلمتهم ذنوبهم.

﴿١٢٩﴾ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

فإن أعرضوا عن الاستجابة لك - أيها النبي - فقل: الله يكفيني بولايته ونصره عن كل أحد، فهو المستحق للألوهية المعبود وحده، وهو - سبحانه - رب العرش العظيم، الذي استوى عليه، يدبر أمر هذا العالم، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

مكية

ترتيبها
١٠

سورة يونس

آياتها
١٠٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، ولها معانٍ جليلة، وهذه آيات القرآن الذي أحكمه الله وفصّله وبيّنه لعباده.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾

أكان إنزالنا الوحي على إنسان سببًا لتعجب الناس ودهشتهم، وهذا القرآن المنَزَّل على هذا الرسول ليحذر به العباد من عذاب الله إن عصوه، ويبشرهم بالثواب إن أطاعوه بالإيمان وعمل الصالحات، وأن الأجر العظيم مدخر لهم بما قدموا من خير، فلما نزل الوحي على الرسول ﷺ قال الكفار: هذا سحر أتى به ساحر ظاهر البطلان.

(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما وأتقن بناءهما في مدة ستة أيام، ثم علا واستقر واستوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، وهو على عرشٍ يدبر أمر خلقه ويصرِّف شؤونهم، لا يشفع لديه شافع يوم القيامة إلا إذا أذن له في الشفاعة، ورضي عن المشفوع له، فوحِّدوا الله بالعبودية، وأفردوه بالألوهية، فهو الرب الخالق الرازق المستحق لذلك، أفلا تتعظون بالأدلة على وحدانيته وتعتبرون بالبراهين على ألوهيته؟

(٤) ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾

إلى الله وحده معادكم يوم القيامة - أيها الناس - وهذا موعد ثابت لا شك فيه، وهو الذي ينشئ الخلق أول مرة ثم يعيده بعد الموت، ليثيب الطائع على إيمانه بالله واتباعه رسوله ﷺ أعظم الثواب، وهذا جزاء عدل منه - سبحانه - والذين جحدوا بألوهية الله ورسالة نبيه في نار جهنم مع عذاب أليم موجع؛ بسبب ضلالهم وتكذيبهم.

(٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾

الله وحده الذي جعل الشمس ضياءً للعالم، وجعل القمر نورًا للكون، فالضوء ملتهب حار، والنور مشع بارد، وأنزل القمر منازل في الأبراج معلومة، فبالشمس تُعرف الأيام، وبالقمر تُعرف الأعوام، وما أوجد الله الشمس والقمر إلا لحكمة عظيمة ودلالة واضحة على حسن خلقه وإتقان صنعه، يُوَضِّح البراهين لقوم يعلمون المقاصد في إيجاد الخلق وإنشاء الآيات.

٦ ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾

إن في تعاقب الليل والنهار وكل ما خلق الله من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات وما فيها من جمال وإبداع ونظام وكمال لأدلة بيّنة على عظمة خالقها، يفهم هذه الأدلة من خشي ربه وخاف مولاه واتقى غضبه بفعل ما أحبّ.

٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾

إن الذين لا يطمعون في لقاء الله يوم القيامة ولا يعدّون لهذا اللقاء عدته من الإيمان والعمل الصالح، وأحبوا الحياة الدنيا واتخذوها عرضًا دون الآخرة وآثروها على ما عند الله والذين هم عن آيات الله الكونية والشرعية ساهون لاهون معرضون.

٨ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

هؤلاء مصيرهم النار الحامية، خالدين فيها بسبب عملهم القبيح من كفر وذنوب وعصيان لعلاّم الغيوب.

٩ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

إن الذين آمنوا بالله وبرسوله وعملوا الأعمال الصالحة المشروعة بإخلاص ومتابعة يرشدهم الله بسبب إيمانهم لخيري الدنيا والآخرة، ويدلهم على أقوم السبل، ولهم في الآخرة جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها الأنهار، في دار القرار، محل الأبرار، بجوار العزيز الغفار.

١٠ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

دعاء أهل الجنة في الجنة (سبحانك اللهم) والله يحييهم وتحييهم الملائكة، ويحيي بعضهم بعضًا بكلمة (سلام) لما فيها من الأمان والبِشْر والطمأنينة، وآخر دعائهم (الحمد لله رب العالمين) فالشكر والثناء لمن خلق العالم ودبره بما فيه، وأجزل العطاء لسائليه.

١١ ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

ولو أن الله يعجل إجابة من دعاه بالشر كتعجيل إجابة من دعاه بالخير لهلك هذا الداعي، فنترك الذين لا يطمعون في لقائنا ولا يفكرون في البعث والنشور في ضلالهم يترددون وفي دنياهم يلعبون.

١٢ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

وإذا أصابت الإنسان شدة تضرّع إلى ربه، وشكا إلى مولاه في حال اضطجاعه على جنبه، أو قاعدًا أو قائمًا من قلة صبره وجزعه، فإذا كشفنا كربه، وفرّجنا شدته استمر على لهوه الأول كأنه ما امتحن بشدة، ولا مرّ به كرب، ونسي دعاءه لنا وكَشْفِنا لبلواه، وكما حُسّن لهذا الإنسان بقاءه على هذا العناد والجحود، حُسّن للذين أسرفوا في الذنوب والخطايا ما اقترفوه منها فاستمروا عليها.

١٣ ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

ولقد أهلكنا الأمم السابقة والأجيال الماضية التي كانت قبلكم بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم لرسله، والرسل بُعثوا إليهم من الله بالحجج الواضحة والبراهين القاطعة على صدقهم، فلم تكن هذه الأمم لتصدق الرسل لاستيلاء الكفر على قلوب هؤلاء المكذبين، ومثل هذا الهلاك الذي أوقعناه بهذه الأمم نوقعه بكل فاجر متجاوز لحدود الله.

١٤ ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾

ثم جعلناكم - أيها الناس - خلفاء في الأرض بعدما أهلكنا تلك القرون المكذبة؛ لنرى ماذا تعملون من خير وشر وصلاح وفساد، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء

١٥ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ
أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾

وإذا قرأت آيات القرآن واضحات على الكفار، قال الذين لا يؤمنون بالحساب ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب: أحضر لنا قرآنًا غير هذا القرآن، أو بدّله وحرّف معانيه بأن تجعل الحلال حرامًا والحرام حلالاً: والوعد وعيدًا، والوعيد وعدًا، وامح ما فيه من سب الأصنام وتسفيه الأحلام، فقل لهم أيها الرسول-: أنا لا أستطيع ذلك ولا ينبغي لي هذا، وإنما عملي أن اتبع هذا القرآن في كل أمر ونهي، إني أخشى من ربي إن خالفتُ أمره عذاب يوم القيامة المؤلم الشديد الموجع.

١٦ ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

قل لهم - أيها النبي -: لو أراد الله ما قرأتُ هذا القرآن عليكم ولا أعلمكم الله بما فيه، فتيقنوا أني مرسل من الله لا من عند نفسي، وكما تعلمون، فقد عشت فيكم زمنًا طويلاً من قبل نزول القرآن ومن قبل أن أقرأه عليكم، ثم نزل عليَّ فيما بعد، فكيف لا تتدبرون بعقولكم، هذا الفرق بين حالي قبل نزول الوحي، وحالي بعده لتعلموا أن الأمر ليس إليّ ولا منِّي بل من الله.

١٧ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

لا أشد ظلمًا من إنسان ادعى على الله دعوى كاذبة، أو نسب إلى ربه ما لا ينبغي له، أو جحد آيات الله، إن من يفعل ذلك فاجر وآثم، ومن هذا وصفه فلن ينال الفلاح ولا يَجِدُ الظفر أبدًا.

١٨ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا
لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

ويعبدُ هؤلاء الكفار آلهة غير الله لا تجلب لهم نفعًا، ولا تدفع عنهم ضرًا، ويقول هؤلاء المشركون: إنما نعبد هذه الآلهة لتشفع لنا عند الله، فقل لهم - أيها النبي -: أتخبرون الله تعالى بشيء ما كان يعلمه من أمر هؤلاء السفهاء في السموات أو في الأرض؟ فلو كان هؤلاء الشنعاء ينفعونكم عند الله لكان أعلم بهم منكم، فتنزَّه الله وتقدَّس عما أشرك به هؤلاء معه في ألوهيته، وتعالى عن شركهم معه غيره، وهو الله الذي لا إله إلا هو.

١٩ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ
يَخۡتَلِفُونَ﴾

لم يكن الناس إلا على ملة واحدة، وهي التوحيد، ثم تفرقوا بعد ذلك على ملل شتى، فآمن بعضهم وكفر بعضهم الآخر، ولولا أن الله كتب على نفسه إمهال الفجار وعدم معاقبتهم في هذه الدار لوقع قضاؤه في الدنيا بإهلاك الظلمة ونجاة الطائعين.

٢٠ ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾

ويقول الكفار الفجار: هلاّ أنزل الله على نبيِّه حجة واضحة نعلم بها صدقه فيما ادعى من النبوة، فقل لهم - أيها النبي -: لا يعلم الغيب - غير الله - أحدٌ من خلقه، فإن أراد أنزل حجة، وإن أراد لم ينزل، فالأمر له كله، فانتظروا - أيها الكفار - عاقبة أمورنا وما يقضي الله في شأننا بإهلاك الكاذب المعاند، ونصرة الصادق العابد، إني منتظر ما وعدني ربي من نصره وتأييده.

(٢١) ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾

وإذا أذاق الله الكفار فرجًا بعد شدة، ويسرًا بعد عسر، فإذا هم يكذبون بالرسالة ويستهزئون بآيات الله، قل - أيها النبي لهؤلاء الكفار -: الله أسرع استدراجًا لكم وأشد مكرًا بكم وأقوى عقوبة، والله يرسل الملائكة الحفظة إليكم ليكتبوا ما فعلتموه من مكر وإجرام؛ لنجازيكم عليه يوم القيامة.

(٢٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

والله وحده هو الذي يسيِّر الناس في البر على الخيول والجمال والبغال والحمير وغيرها، ويسيركم في البحر على السفن وغيرها، فإذا ركبتم في السفن وهبَّت ريح رُخاء هادئة وفرح بها الركاب، جاء السفينة ريحٌ عاصف شديدة مدمرة والتف الموج على السفينة من كل جهة، وأيقنوا أن الهلاك نازل بهم، توسلوا إلى الله وألحوا في الدعاء وطلبوا إليه النجاة، وأخلصوا في التضرع، وعاهدوه لئن أخرجهم من هذا الكرب؛ ليكونن من الشاكرين على نعمه بالإيمان به، وعمل الصالحات والتوبة من الذنوب.

(٢٣) ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

فلما أخرجهم الله من الشدائد، وأنجاهم من الأهوال، وعادوا إلى البر إذا هم يفسدون في الأرض بالظلم والمعاصي، يا أيها الناس: إن عاقبة هذا الظلم والعدوان على أنفسكم، وإن وبال الذنوب عليكم، وإنما هي مجرد تمتع في الحياة الزائلة الفانية كأحلام النائم وبعدها تعودون إلى ربكم فيخبركم بما فعلتم، ويجازيكم على ما صنعتم، فأعدوا العدة بالشكر على النعمة والحذر من النقمة فما دُفع البلاء بمثل التوبة والدعاء.

(٢٤) ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

إنما مثل الحياة الدنيا ومتعها الفانية ولذائذها الزائلة كمثل مطرٍ أنزله الله من السماء إلى الأرض، فأنبت الله به زروعًا وأشجارًا يأكل الناس حبوبها وثمارها، وحشائش تأكلها الدواب مختلط بعضه ببعض، حتى إذا بدا حسن الأشجار وجمال الثمار وبهاء الأزهار وصارت الأرض في ثوب بهيج، واعتقد أهل هذه المزارع والحدائق أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها؛ لأنها في ملكهم وتحت تصرفهم، جاء القضاء من الله بهلاك الأشجار وبوار الثمار وذبول الأزهار في ساعة من ليل أو نهار، فصارت محصودة هشيمًا بعد الخضرة والنضرة كأنها لما كانت قائمة، بهيجة مخضرَّة قبل هذا الهلاك، فكذلك يقع الفناء على ما تفتخرون به من دنياكم الغرور، ومن متعها الخداعة، فيحصل الموت للأبناء مع ذهاب الأموال، وتفرُّق الأحباب، وخراب الدور، ودمار القصور؛ لأن الله كتب على الدنيا وأهلها الفناء، وكما وصف الله لكم حال الدنيا ونهايتها، وأوضح لكم مصيرها يوضح لكم - سبحانه - آياته البيِّنات وأدلته الواضحات في كونه وشرعه ليتدبرها أولو الألباب، ويعيها ذوو البصائر.

(٢٥) ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

والله يدعو عباده إلى جناته بإرسال رسله وإنزال كتبه، ويوفِّق للاستقامة على أمره من شاء من خلقه، فيصير عمله خالصًا لوجه الله، صوابًا على سنة رسول الله ﷺ، فيستحق رضوان الله، فدعوة الله عامة، وهدايته خاصة؛ لأن الدعوة إقامة حجة، والهداية إيصال رحمة.

(٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

للمحسنين في إيمانهم وعملهم الصالح الجنة وزيادة عليها، وهي النظر إلى وجه الله الكريم مع مغفرة ورضوان ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذِلة ولا صغار ولا هوان، بل نضرة وسرور ونور وحبور، وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة، الباقون فيها أبدًا في نعيم مقيم وملك عظيم.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

والذين عملوا السيئات وكسبوا المعاصي من الكفر بالله وارتكاب محارمه وانتهاك حدوده يجازيهم الله: بكل سيئة اقترفوها بمثلها من العذاب في الآخرة، وتغشاهم ذِلة وهوان، ولا يمنعهم من عذاب الله مانع ولا يشفع لهم شافع، ولا يدفع عنهم العقاب دافع، كأنما غُطِّيت وجوههم بأجزاء من سواد الليل المظلم الحالك، وهم أهل النار الماكثون فيها مع النكال والصغار وغضب الجبار.

(٢٨) ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾

وتذكر ذلك اليوم، يوم نجمع الناس جميعًا للحساب والجزاء، ثم يقول الله للذين أشركوا به غيره: الزموا مكانكم ومعكم شركاؤكم الذين تعبدونهم في الدنيا من دون الله حتى يقضي الله بينكم، وفرّق الله بين المشركين وما كانوا يعبدون، وتبرأ من المشركين معبودهم، وقالوا لهم: ما كنتم إيانا تعبدون في الدنيا، بل كنتم كاذبين مفترين.

(٢٩) ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾

فكفى بالله شاهدًا على صحة ما نقول، يحكم بيننا وبينكم؛ لأنه يعلم الغيب والشهادة، ولقد كنا لا نشعر بعبادتكم لنا وكنا غافلين عنها؛ لأننا لا نملك نفعًا ولا ضرًا.

(٣٠) ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

في ذلك المقام العظيم يوم الدين تفقد كل نفسٍ ما عملت وما قالت وما قدّمت، وترى حسابها أمامها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وعادوا كلهم إلى الله؛ ليحكم بينهم؛ لأنه ربهم وإلههم ومتولي شؤونهم، وهو الحكم العدل، فالسعداء في الجنة، والأشقياء في النار، وذهب عن الكفار ما كانوا يعبدونه من دون الله، فما نفعوهم ولا شفعوا لهم، ولا دفعوا عنهم العذاب.

(٣١) ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

قل - أيها النبي لهؤلاء الكفرة الفجرة -: من الذي يُنَزِّل عليكم الرزق من السماء بإنزال الغيث الهنيء المريء؟ ومن الذي يخرج لكم من الأرض أنواع الثمار والحبوب والفواكه والخضار متاعًا لكم ولأنعامكم؟ ومن الذي منحكم وهو قادر على سلبكم إياها من الأسماع والأبصار؟ ومن الذي يخرج الأحياء من الأموات، كالفرخ من البيضة، والأموات من الأحياء، كالبيضة من الدجاجة، والثمرة من الشجرة ونحوها؟ ومن الذي يصرِّف كل أمر في السماء والأرض من أمر الملائكة والجن والإنس والحيوان وكل مخلوق؟ اسألهم - أيها النبي - عن هذا كله فسوف يجيبونك، بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله وحده، فقل لهم: أفلا تحذرون من عذاب الله وتخشون عقابه إذا أشركتم به غيره، إذًا فوحِّدوه وأخلصوا له العبادة. وفي الآية استعمال الدليل العقلي، والحوار المنطقي، وذكر الأدلة الظاهرة لا الخفية، والفراغ من المقدمات ثم الوصول إلى النتائج والتدرج في الحجة.

٣٢ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾

فذلكم الذي هذا وصفه من الخلق والرزق والتدبير هو الله ربكم المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإذا كان هذا هو الحق فما سواه ضلال، إذًا فأنتم ضالون في عبادتكم غيره، فكيف تنحرفون من عبادته إلى عبادة سواه من الأوثان والأصنام وغيرها؟ وكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال؟!!

٣٣ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

كما كفر من كفر وأعرض من أعرض حقت كلمة الله الكونية وحكمه العدل وقضاؤه النافذ على من خرج عن طاعته، أنه لا يُصَدِّق بعبوديته ولا يذعن لوحدانيته، ولا يؤمن برسولهﷺ، ولا يتَّبع هداه.

٣٤ ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

قل - أيها الرسول للمشركين -: هل هناك أحدٌ من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله يستطيع أن ينشئ خلقًا من العدم، ثم يعيده على صورته الأولى بعد الفناء؟ يعني يوجد المعدوم ويرد الفاني إلى الوجود!! فهذا شيء لا يستطيعونه، ومحال لا يفعلونه، قل لهم: لكن الله وحده هو الذي يخلق الشيء من العدم، ثم يفنيه بعد الوجود، ثم يعيده كما كان، فكيف تتصرفون عن عبادة من هذا وصفه من القدرة والحكمة في الخلق والإبداع إلى عبادة سواه ممن لا يملك ذلك؟.

٣٥ ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾

قل - أيها الرسول للمشركين -: هل أحد من آلهتكم التي تعبدونها ترشد إلى الطريق المستقيم؟ فهم لا يستطيعون ذلك، ولكن الله وحده يهدي من ضلَّ عن الهدى، ويرشد من انحرف عن الحق، فأيهما أحق بالاتباع؟ من يهدي للحق لتمام علمه وكمال حكمته ونفاذ قدرته؟ أم من لا يستطيع الهداية للحق لجهله وضلاله وعدم علمه؟ وهي آلهتكم المزعومة التي لا تهتدي لشيء، ولا تهدي غيرها، بل هي بحاجة إلى مَنْ يهديها، فهي لا تَهدي ولا تهتدي بل تُهدى، فلماذا سويتم بين الله الهادي - جلَّ في علاه - وبين هذه المخلوقات القاصرة العاجزة الحائرة؟ فهذا حكم باطل، وقضاء جائر.

٣٦ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾

وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في عبادتهم الأصنام واعتقادهم بنفعها وضرها، وأنها تقرِّب من الله إلا ظنًا ووهمًا، بلا دليل واضح ولا برهان قاطع، والظن لا ينفع في إقامة حق أو دفع باطل، بل لابد من اليقين الذي يشفي من الشك، ويعصم من الحَيْرة، إن الله عليم ومطلع على عمل هؤلاء المشركين، وسوف يحاسبهم عليه يوم القيامة.

٣٧ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

ولا يمكن لأحد من البشر أن يأتي بهذا القرآن من عند غير الله، فهو فوق قدرة البشر، ودلائل الإعجاز فيه لا يستطيعها أحدٌ من الناس كائنًا من كان، ولكن الله أنزل القرآن يصدق الكتب التي قبله؛ لأن دين الأنبياء واحد وهو الإسلام، وفي هذا القرآن أتم البيان وأوضح البرهان لما شرعه الله للإنسان، ولا شك في أن هذا القرآن كلام الله أوحاه إلى رسوله ﷺ وليس كلام البشر.

٣٨ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

بل يقول الكفار: إن النبي افترى القرآن من عند نفسه وهو بشر مثلهم، فقل لهم أيها النبي: تعالوا أنتم بسورة واحدة من جنس هذا القرآن في بلاغته وإعجازه، وفصاحته وإيجازه ونظمه وهدايته، وإشراقه وبراعته، واستعينوا على ذلك بكل أحد من الإنس والجن ليعينكم على الإتيان بسورة إن كنتم صادقين في ادعائكم القدرة على معارضته.

(٣٩) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

بل إن الكفار بادروا إلى تكذيب القرآن أول ما سمعوه قبل أن يفقهوه، وردّوه لأنهم جهلوا حقائقه، والإنسان عدو ما جهل، وإلا لو فهموه حق فهمه لوصل التصديق به سويداء قلوبهم، ثم لم يأتهم بعد حقيقة ما وعدوا به في هذا القرآن من بعث وجزاء، وجنة ونار، وثواب وعقاب، ومثل تكذيبهم هذا كذّب مَنْ قبلهم من الأمم بكتب الرسل السابقين، فتأمل - أيها النبي - ماذا كانت عاقبة من كذَّب وظلم نفسه بمعصية ربه، كيف دمَّرناهم بأنواع العقوبات.

(٤٠) ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

ومن الناس من يُصَدِّق بالقرآن ومنهم من يكذّب به حتى يلقى ربه مكذّبًا، والله أعلم بالمفسدين الذين ردوا الحق واتبعوا الباطل، واستكبروا على الهدى وأعرضوا عن الدليل، وسوف يجازيهم على سوء ما فعلوه.

(٤١) ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

وإن كذَّبك هؤلاء المشركون - أيها النبي - فقل لهم: لي ديني وأنا مسؤول أمام الله عن عملي، وليس عليكم منه شيء، ولكم دينكم وسوف تُسألون عن عملكم عند الله، لا تُؤاخذون بما عملتُ ولا أُؤاخذ بعملكم، فكلٌّ بعمله مرتهن فمحاسب.

(٤٢) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾

ومن الكفار مَنْ يستمعون لتلاوتك القرآن، ومواعظك سماعًا لا قبول فيه ولا استجابة، وإنما كسماع الدواب، أفأنت - أيها الرسول - تستطيع إسماع الصم؟! فكذلك لا تستطيع هداية هؤلاء المعرضين، فهم صمٌّ عن سماع الحق، سماع من يعقل، وإنما يسمع الصوت بلا معنى، والنداء بلا اهتداء.

(٤٣) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾

ومن الكفار من ينظر إليك - أيها الرسول - وإلى براهين رسالتك القاطعة، ولكنه لا يبصر ما أعطاك الله من أنوار الهداية، ولا يدرك حقائق ما عندك من علم نافع ووحي مبارك، أفأنت - أيها الرسول - تستطيع أن توجد للعمي أبصارًا يرون بها الطريق؟ فكذلك لا تستطيع أن تهدي عمي البصائر إلى الصراط المستقيم، وإنما ذلك لله وحده، فهو يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

(٤٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

إن الله لا يظلم العباد شيئًا بإضافة سيئات عليهم ما عملوها، أو بنقص حسنة من حسناتهم أتوا بها، فهو لا يظلم ولا يهضم أحدًا، ولكن العباد يظلمون أنفسهم بالتكذيب والعصيان والظلم والعدوان، فالله يريد نجاتهم، وهم يسعون في إهلاك نفوسهم!!

(٤٥) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

ويوم يجمع الله هؤلاء الكفار ليوم لا ريب فيه ليوفيهم أعمالهم، كأنهم قبل هذا الجمع لم يعيشوا في الحياة الدنيا إلا مقدار ساعة من نهار!! يعرف بعضهم بعضًا كأنهم في الدنيا، ثم ذهبت تلك المعرفة بينهم وانتهت تلك الساعة، قد خسر المكذّبون لله ورسله واليوم الآخر، ولم يوفقوا للهداية، ولم يُسدّدوا للإصابة، ولم يلهموا الرشد.

(٤٦) ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾

وإما أن يريك الله - أيها الرسول - في حياتك بعض المصائب التي تحلُّ بأعدائه من العقاب الشديد والبطش القوي، أو يتوفاك الله إليه قبل أن ترى ما يحلُّ بهم من النكال، فإلى الله وحده يعود هؤلاء الكفار، والله شاهدٌ على أعمالهم، مطلع عليها، وسوف يجازيهم بها الجزاء الأوفى.

(٤٧) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ولكل أمة سبقت من الأمم رسول أرسله الله إليهم برسالة من عنده، مثلما أرسل الله محمدًا ﷺ إلى أمته، فإذا جاء الأمة رسولها بالرسالة وأقام عليهم الحجة قضى الله بينهم بالعدل، فالثواب لمن آمن، والعقاب لمن كفر، أو المعنى: إذا جاء رسولهم في الآخرة وقع الجزاء بلا ظلم، فلا يَهلك مؤمن ولا ينجو مكذِّب؛ جزاء وفاقًا.

(٤٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

ويقول الكفار للنبي المختار: متى تقوم الساعة في ليل أو نهار؟ إن كنت - أيها النبي - وأتباعك صادقين أن القيامة ستقوم، فأخبرونا بالوقت المحدّد لها!!

(٤٩) ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

قل - أيها الرسول للكفار-: أنا عبدٌ مأمور لا أستطيع أن أجلب لنفسي منفعة ولا أدفع عنها مضرة، فكل ذلك إلى الله وحده، يقدِّر عليَّ وعليكم ما شاء، لكل جيل وأمة ودولة وشعب أجل، فإذا انتهى أجلهم فني الجيل، وهلكت الأمة، وسقطت الدولة، وباد الشعب بلا تأخير ساعة فيمهلون، ولا تقديم ساعة عن الأجل فيهلكون.

(٥٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: أخبروني إذا أنزل الله بكم العذاب في ليل أو نهار لماذا تريدون تعجيل عذابكم والعذاب مكروه تنفر منه القلوب، وتأباه الطبائع، فما المقتضي لاستعجالكم له؟!!

(٥١) ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

أبعدما يقع بكم العذاب، وينزل عليكم العقاب تصدقون في زمن لا ينفعكم فيه التصديق، ويُقال لكم حينها: الآن تصدِّقون وكنتم قبل نزول العذاب تريدون تعجيله، فأنتم لتكذيبكم بالعذاب واستبعادكم نزوله طلبتم تعجيله عنادًا.

(٥٢) ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

ثم يُقال لمن ظلم نفسه بالشرك والمعاصي: تجرعوا العذاب الشديد الدائم في نار جهنم؛ جزاء على عملكم السيئ من كفر وتكذيب، ومحاربة لله ولرسوله ﷺ.

(٥٣) ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

ويسألك الكفار - أيها الرسول - عن عذاب يوم القيامة: هل هو حق لا شك في وقوعه؟ فقل لهم: نعم وربي إنه لحق لا شك فيه، وأنتم لا تعجزون الله أن يبعثكم بعد الموت فيجازيكم؛ لأنه قديرٌ على ذلك، وأنتم في ملكه وتحت سلطانه وتصرفه.

(٥٤) ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ولو كان لكل نفس كفرت بالله كل ما في الأرض مما له ثمن وقيمة وأمكنها أن تقدمه فديةً من عذاب الله يوم القيامة لفعلت، ولكن لن تقبل للكافر فدية ولا شفاعة ولا تنفعه خلة وليس له نصير، وأخفى الكفار حسرتهم يوم شاهدوا العذاب، وحكم الله تعالى بالعدل، ولم يظلموا شيئًا بزيادة سيئات ما عملوها، أو بنقص حسنات أتوا بها.

(٥٥) ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ألا إن جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض ملك لله تعالى يتصرف فيه كيف يشاء؛ لأنه خالق كل شيء، فلا يشاركه في الملك أحد، مثلما لم يشاركه في الخلق أحد، ألا إن يوم القيامة الذي وعد الله به وما فيه من ثواب وعقاب حق لا شك فيه، ولكن أكثر الناس جاهل بهذا الأمر لا يؤمن به ولا يدرك حقيقته.

﴿٥٦﴾ ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

الله وحده هو الذي يحيي الأموات ويميت الأحياء، ويُوجِد من العدم، كما لا يعجزه الإحياء بعد الإماتة كذلك لا تعجزه الإماتة بعد الإحياء، ثم يعود إليه الأموات ليحاسبهم بعد أعمالهم.

﴿٥٧﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يا أيها الناس، قد أنزل الله لكم القرآن أعظم موعظة، يدلكم على الهدى ويحذركم من الردى، ففي القرآن أجلُّ المواعظ، وأعظم النصائح وأنفع الوصايا لمن صحت بصيرته، واستنار عقله، وفي القرآن دواءٌ من أمراض الشك والشرك والنفاق والشهوات والشبهات، وفيه تمام الرشد لمن اتبعه وتدبر آياته، فإنه يدل على الصواب من أيسر باب، وهو رحمةٌ لمن اهتدى بهداه، يعصمه من الزيغ وينجيه من المهالك، ويمنعه من الضلال، ويبعده عن الشقاء، لكن لمن صدَّق به، وأخذه بقوَّة وأقبل عليه بحب.

﴿٥٨﴾ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

قل -أيها الرسول- لجميع البشر: افرحوا بما أنزل الله من وحي مبارك، وآيات بيِّنات وحِكَم بالغات على سيد ولد آدم ﷺ، فهذا هو الفضل والشرف والعز والنجاة والرحمة العاصمة من الزيغ والهوى والهلاك، فالفضل زيادة وزيادة وسعادة وسيادة، والرحمة عصمة ونجاة وتوبة، فبالفضل تنالون أجلَّ النعم، وبالرحمة تسلمون من كل النقم، وهذا الذي ينبغي أن يفرح به لا بحطام زائل زائف زهيد، ولا بزهرة دنيا فانية ذاهبة يحبها عبيد الدرهم والدينار، ويعشقها الأغبياء ممن جهل حقيقة ما أنزله الله الواحد القهار.

﴿٥٩﴾ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

قل -أيها الرسول- لهؤلاء الكفار الفجار: أخبروني عن الرزق الذي أنزله الله عليكم من حيوان ونبات ومعادن وخيرات، فحلّلتم بعضه وحرّمتم بعضه بلا حجة من الله ولا برهان صحيح، هل أباح الله لكم هذا التشريع من تحليل وتحريم؟ أم أنتم تقولون على الله كذبًا وتنسبون باطلاً وتدعون ذلك بهتانًا وزورًا؟!

﴿٦٠﴾ ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

ماذا يظن هؤلاء الكفرة المجرمون أن الله فاعلٌ بهم يوم القيامة وقد نسبوا إليه - سبحانه - تحريم ما لم يحرم من الأقوات والأرزاق، وادعوا عليه - تعالى - أقوالاً باطلة من التحريم والتحليل بلا دليل قاطع ولا برهان ساطع؟ أيظنون أن الله سوف يسامحهم ويغفر لهم؟ نعم إن الله متفضل بالتوبة على من تاب، وغفور لمن عاد إليه وأناب، وهو متفضل على كل البشر، فلم يعجِّل عقوبته لمن كفر، بل أخَّرها لهم يوم العرض الأكبر، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله من نعم حاصلة، ونقم مصروفة، وعقوبة مؤجلة، وتوبة متقبلة.

﴿٦١﴾ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

وما تكون - أيها الرسول - في أمرٍ من أمورك التعبدية والدنيوية من تلاوة للقرآن ونحوها، وما يعمل عامل من عمل كَبُرَ أو صغر، خفي أو ظهر إلا والله رقيب عليه، مطلع على صاحبه محصيه، إذ يزاوله ويأخذ فيه، وما يغيب عن علم الله من وزن نملة وقدر ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر وأدق ولا أكبر وأجلّ الأشياء إلا في كتاب مسطور واضح الكتابة، يحفظ ما يكتب فيه ليوم العرض على الله، فيراه العبد ويقرؤه بنفسه ويُحَاسَب عليه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

٦٢ ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

ألا إن أولياء الله الذين أخلصوا العبادة له والاتباع لرسوله ﷺ فقدموا مراد الله على مرادهم، وسعوا فيما يحبه الله ورسوله، واجتنبوا كل ما نهى الله عنه ورسوله هؤلاء لا خوف عليهم فيما يستقبلونه في الآخرة، بل لهم الأمن من الله فلا يحزنهم الفزع، ولا يصل إليهم أذى، ولا يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، فقد ضمن الله لهم السعادة والرضا مع النعيم المقيم والأجر العظيم، فمن أراد الحياة الطيبة والفلاح الأبدي والفوز الدائم فعليه بطاعة الله والاهتداء بهدي رسوله النبي الأمي ﷺ؛ ففي ولاية الله كمال العز وتمام الفلاح ونهاية الفوز وغاية الرشد.

٦٣ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾

هؤلاء الأولياء آمنوا بالله ربّاً وإلهًا ومعبودًا، فعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه وصدقوا رسوله ﷺ فاتخذوه أسوةً حسنة لهم في كلٍّ شأن من شؤونهم، وكانوا يتقون الله في كل أمر بامتثال فعله، وفي كل نهي بامتثال تركه، فيعملون الطاعة؛ ابتغاء وجه الله، ويتركون المعصية خوفًا من عذاب الله.

٦٤ ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

لهؤلاء الأولياء المخلصين الصادقين بِشارةٌ من الله عظيمة بما يسرهم في الحياة الدنيا من السعادة، والحياة الطيبة والأمن والرضا والقبول وحسن الذكر واستقامة الحال وصلاح الأمور، ولهم البشرى في الآخرة بغفران الذنوب، وستر العيوب، وجوار علاّم الغيوب في جنات ونهر وقرة عين ومقام آمن وفوز عظيم، وهذا وعد من الله لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، وهذا الذي حصلوا عليه هو أجلٌّ المطالب، وأعظم المقاصد؛ لأن النجاة من كل محذور والفوز بكل محبوب مطلوب مرغوب فيه.

٦٥ ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

ولا يحزنك - أيها الرسول - قول الكفار في الواحد القهار من الافتراء عليه بالإشراك معه غيره لا إله إلا هو، ونسبة الولد والصاحبة إليه - تعالى - عن ذلك، ووصفه بما لا يليق تبارك وتقدَّس، فهو - سبحانه - المتفرد بالألوهية والربوبية، وله الكمال المطلق والغنى التام والقوة الغالبة والقدرة النافذة والحكمة البالغة والرحمة الواسعة، وهو سميع لكل قول، عليمٌ بكل فعل.

٦٦ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾

ألا إن كل من في السموات ومن في الأرض من ملائكة وجن وإنس وحيوان ونبات وجماد خلقٌ الله وملك له تحت تصرفه وتدبيره، لا يخرج عن ملكه أحد، وأي شيء يتبع المشركون؟ وأي شيء يعبدون ويدّعون؟ ما يتبعون إلا الشك؛ لأنهم أهل شرك، وهم يكذبون فيما ينسبونه إلى الله، وفي شركهم مع الله، وفي وصف الله بما ينزّه عنه سبحانه.

٦٧ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾

الله وحده الذي خلق لكم الليل وهيأه لكم للراحة والنوم الهنيء والهدوء التام من تعب الكسب والعمل في النهار، وخلق لكم النهار بنور شمسه لتبصروا فيه، وتعملوا في معاشكم ومصالحكم من طلب علم وبحث عن رزق وذهاب وإياب، إن في آية الليل وآية النهار وما فيهما من عجائب القدرة وتمام الحكمة لأدلة واضحة وبراهين ساطعة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وهذه الآيات يستفيد منها من يسمع الحجج، ويتفكر فيها ويعمل بمقتضى ذلك من العبودية لله وحده.

(٦٨) ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال الكفار: إن الله -جل في علاه- اتخذ ولدًا، كقول المشركين: الملائكة بنات الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، تعالى وتقدَّس عن ذلك وتنزَّه عن هذا الافتراء، فهو الغني عن كل أحد؛ لأنه فردٌ صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فلا يحتاج إلى صاحبة ولا ولد ولا منفعة أحد، غني عما سواه، وما سواه فقير إليه، وكل ما في السموات والأرض خلق وملك له، فكيف يكون له ولد ممن خلق، والكل مملوك له، وليس عند من أشرك به دليل على فريته ولا برهان على كذبته، أتقولون على الله كلامًا باطلاً وتدعون دعاوى كاذبة لا تعلمون حقيقتها ولا صدقها؟!!

(٦٩) ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

قل -أيها النبي-: إن الذين يدَّعون على الله الكذب باتخاذ الشريك أو الولد والصاحبة لا ينجون من عذاب الله ولا يفوزون برضوانه، فلا يدركون المطلوب، ولا يسلمون من المرهوب.

(٧٠) ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

إن هؤلاء الكفار إنما يتمتعون في هذه الحياة الدنيا مثل متاع البهائم؛ لأن من عاش بلا إيمان فقد أشبه الحيوان، فإذا انقضت حياة هؤلاء الفجار فمصيرهم إلى الجبار؛ ليصليهم حرَّ جهنم الشديد المؤلم الموجع الدائم بسبب كفرهم وتكذيبهم للرسل وجحدهم للآيات، فهم في الدنيا تعساء، وفي الآخرة أشقياء.

(٧١) ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾

واقصص - أيها النبي - على الكفار خبر نوح ﷺ مع قومه يوم قال لهم: إن كان عَظُم عليكم قيامي بإنذاركم وتحذيركم من عذاب الله وشَقَّ عليكم تذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه، وضقتم بذلك ذرعًا، فعلى الله وحده أعتمد، وبه أثق، وعليه أتوكَّل، فخذوا العدة وتهيؤوا واطلبوا من شركائكم مساعدتكم، ثم لا تجعلوا أمركم سرًّا مستترًا بل ظاهرًا علنًا، ثم عجِّلوا لي عقوبتكم الموعودة التي تستطيعون عليها، واجتهدوا في كيدي غاية ما تقدرون عليه، ولا تؤخروا حربكم لي، ولا تمهلوني، وهذا غاية التحدي من نوح لقومه ثقةً بربه.

(٧٢) ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

فإن كذَّبتم برسالتي وكفرتم بديني فأنا لم أشق عليكم بطلب أُجْرة من أموالكم على دعوتي، بل كانت خالصةً لوجه الله، والله وحده هو الذي يثيبني على عملي، وأنا مأمور بطاعته والانقياد لأمره، فأنا عبدٌ رسول مأمور من ربي -عز وجل-.

(٧٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾

فكذَّب قوم نوح برسالة نوح وعصوه وخالفوا أمره، فنجاه الله ومن آمن معه من الطوفان في السفينة، وأغرق المكذبين بالطوفان، وجعل الله المؤمنين يخلفون الكفار في الأرض، ويخلف بعضهم بعضًا، كلما ذهب جيل جاء جيل، فتأمل وتفكَّر في مصير المكذبين الذين أنذرهم نوح العذاب فما استجابوا فأُهلكوا.

٧٤ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

ثم أرسل الله بعد نوح رسلاً إلى أقوامهم فأتى الرسل بالحجج الواضحة من الله الدالة على ألوهية الله وصدق هذا الرسول، فما كان لهؤلاء الأقوام أن يُصَدِّقوا رسلهم، ويستجيبوا لما كذَّب به قوم نوح والأمم الماضية الكافرة، فكما ختم الله على قلوب المكذبين من السابقين كذلك يختم الله على قلوب المكذبين اللاحقين، ممن كذب محمداً ﷺ فلا يستجيبون له.

٧٥ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

ثم أرسل الله بعد الرسل السابقين موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى فرعون وقومه بآيات الله البينات، والمعجزات الدالة على قدرة الله كاليد والعصا، فأعرضوا واستكبروا عن الحق، وكذبوا بالصدق، وكانوا فجرة مكذبين، مردة متجبرين.

٧٦ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

فلما أتى موسى وهارون بالحق الدال على صدقهما كذّب فرعون وقومه وقالوا: إن الأدلة التي أتى بها موسى والمعجزات سحر واضح ظاهر، وليست من عند الله -عز وجل-!!

٧٧ ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾

فتعجب منهم موسى من تكذيبهم بالأدلة القاطعة، وقال لهم : كيف تدَّعون أن ما جئتُ به من حق واضح وصدق بيِّن سحر ظاهر ظلمًا منكم وزورًا، ولو كنتُ ساحرًا ما انتصرت ولا ظفرت، فالساحر ينكشف أمره ويظهر كذبه ويبين زوره ويفتضح حاله.

٧٨ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

قال فرعون وقومه لموسى: هل أتيتنا لتردنا عن عبادة الآباء بدين جديد مختلق من عندك وقصدك أنت وأخوك هارون السلطة والمنصب والجاه والملك في الدنيا، ولم تقصد إصلاح عبادة الناس، ولن نصدِّق بما جئتما به ولا نقر لكما. وهي تهمة يقولها كل طاغية لكل داعية إذا دعا إلى الإصلاح قالوا: له مآرب أخرى من جمع المال والشهرة والتصدر، وإنما جعل دعوته غطاءً لمقاصده، فانظر كيف تشابهت قلوبهم.

٧٩ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

وقال فرعون لقومه: احضروا لي كل ساحر متقن للسحر عالم بأساليبه؛ ليحارب به موسى ﷺ.

٨٠ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾

فلما حضر السحرة واجتمع الناس قال موسى لسحرة فرعون: اطرحوا على الأرض ما معكم من حبال وعصي.

٨١ ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

فلما وضعوا على الأرض الحبال والعصي، قال لهم موسى: إن الذي وضعتموه هو السحر، وإن الله سيذهب بما جئتم به وسيحبطه، إن الله لا يصلح عمل من سعى في الأرض خرابًا، ومن بغى وتعدَّى، بل يجعل كيده في ضلال، وعمله إلى وبال.

٨٢ ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾

وينصر الله الحق ويرفع شأنه ويجعل العاقبة له على الباطل بكلماته الكونية القدرية، وبأمره الشرعي، ولو كره ذلك أهل البغي والفساد والزيغ والعناد، فالله غالبٌ على أمره.

٨٣ ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾

فما اتبع موسى ﷺ وصدّق به إلا طائفة من بني إسرائيل، وهم متسترون بإيمانهم، خائفون من بطش فرعون وقومه على حذر أن يصدهم بالعذاب عن طريق الهداية، إن فرعون لجبّار عنيد متكبر مريد، متجاوز للحد في الظلم والعناد والبغي والفساد.

٨٤ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾

وقال موسى لقومه: إن كنتم آمنتم بالله وصدقتموني فثقوا بنصره، واعتمدوا عليه، وفوِّضوا الأمر إليه، فسوف ينصركم إن كنتم صادقين في الإذعان له والانقياد لأمره تعالى وحسن الطاعة له.

٨٥ ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فقال قوم موسى له: على الله وحده لا شريك له فوَّضنا الأمر واعتمدنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ربنا لا تنصر الكفار علينا فيحسبون أنهم على حقٍ، وأنّا على باطل، ويظن الناس أنّا لسنا صادقين.

٨٦ ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

وأنقذنا برحمة منك ورعاية وعنايةٍ من فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا يعذبونهم أشدَّ العذاب.

٨٧ ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وأوحى الله إلى موسى وهارون أن اجعلا لقومكما بيوتًا في مصر للسكن والإقامة، وهيئوا فيها محاريب للصلاة عند الخوف من فرعون، وحافظوا على الصلوات المفروضة، ولا تتركوها للخوف من البطش. وإخفاء العبادة وقت الخطر وارد ومباح، وبشِّر من أطاع ربه وأخلص له العبادة وفوَّض الأمر إليه بالنصر والتمكين والإمامة في الدين، ورضا ربِّ العالمين.

٨٨ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾

ودعا موسى ربَّه فقال: يا ربنا، إنك رزقت فرعون ومنحته وأشراف قومه من زخرف الدنيا ولذائذها وزهرتها فلم يؤمنوا بك ولم يتبعوا رسولك، بل استعانوا بالنعمة على المعصية والصد عن سبيلك، فيا ربنا، اطبع على قلوبهم واختم عليها فلا تقبل الإيمان ولا تنشرح للحق، فلا يصدقوا بالرسالة ولا يؤمنوا بك إلهًا واحدًا حتى يحل بهم الخزي والعذاب، ويقع بهم العقاب جزاءً لقبح أفعالهم وسوء أعمالهم.

٨٩ ﴿ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

قال الله – تعالى – لموسى وهارون: قد أجيبتُ دعوتكما في معاقبة فرعون وقومه، وكان موسى يدعو وهارون يؤمِّن، فنسب الدعاء إليهما، ثم قال – تعالى – لهما: فاستمرا على الاستقامة على طاعة الله والدعوة إلى الإيمان به ولا تفعلا فعل من جهل أمر الله وكفر به، ولا تشابها أعداءه في الصد عن سبيله وترك عبوديته.

(٩٠) ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

وسهَّل الله عبور البحر لبني إسرائيل فخرجوا منه سالمين ظافرين، فسار فرعون وجنوده وراءهم ظلمًا وعدوانًا ومحادةً لله ورسوله، حتى إذا وقع في الهلاك وأحاط به الموج من كل مكان قال فرعون: الآن صدَّقتُ بأن لا إله إلا الله الذي صدَّقت به بنو إسرائيل، وأصبحتُ من الموحِّدين المنقادين الطائعين.

(٩١) ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

الآن أسلمت يا فرعون لما وقعت في الهلاك، وقد كذَّبت قبل هذا وحاربت موسى وأفسدت في الأرض وصددت عن سبيل الله؟ فلا توبة مقبولة لك في ساعة الموت، فقد فات الأوان، وأغلق الباب، ووقع بك موعود الله من النكال والجزاء.

(٩٢) ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

فاليوم نخرج جسمك من البحر سليمًا؛ ليراك الناس وتكون عبرةً لمن اعتبر وعظةً لمن اتعظ، ومصائب قومٍ عند قوم فوائد، وكثير من العباد غافلون عن أدلة الله وحججه لا يتدبرونها ولا يفقهونها بل يمرون عليها معرضين.

(٩٣) ﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

ولقد اختار الله لبني إسرائيل منازل مباركة، وأنزلهم أرضًا صالحة في الشام ومصر، ورزقهم من خيرات الأرض أحسن الثمرات وأطيب المأكولات، فأمن لهم السكنى والطعام والأمن مع النصر والتمكين، فما تفرقوا في أمر دينهم وتباغضوا وتحاسدوا إلا من بعد ما جاءهم الوحي الداعي لإلفتهم واجتماعهم، ومن ذلك نبوة محمد ﷺ في التوراة، فكفروا بها عنادًا وحسدًا، وسوف يحكم الله في أمرهم يوم القيامة فينجي من آمن، ويعذِّب من كفر، فالموعد عنده، والحساب لديه والجزاء عليه.

(٩٤) ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾

فإن كنت - أيها الرسول - في ريب من هذه الأخبار التي أوحيناها إليك فاسأل أهل الكتاب تجد مصداق ذلك في التوراة والإنجيل، فذلك مذكور في كتبهم، لقد جاءك العلم الصادق والدليل القاطع على صدق هذه الأخبار وعلى صحة ما أنزلته إليك، فلا تكن ممن شك في ذلك وداخله ريب وحيرة.

(٩٥) ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

ولا تكن - أيها النبي - ممن كذَّب بالحجج التي أنزلها الله، وحاشاه ﷺ من ذلك، ولكن إذا حُذِّر هو وهو إمام المصدِّقين فكيف بغيره من الشاكين؟ ومن جحد ما أنزل الله من آيات بيِّنات وبراهين ساطعات سخط الله عليه وعذَّبه وطرده من رحمته وأصلاه ناره.

٩٦ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

إن الذين سبق عليهم القضاء بطردهم من رحمة الله وكتب بشقائهم في قدر الله، لن يصدقوا بآيات الله ورسله، ولا يعبدونه ولا يوحِّدونه حتى يحق فيهم قضاء الله فيعذبوا.

٩٧ ﴿ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾

ولو جاءت الكفار كل عِظةٍ ووصلتهم كل عبرة ما آمنوا حتى يشاهدوا العذاب ويعاينوا العقاب، حينئذ لا ينفعهم الإيمان؛ لأنه فات الأوان.

٩٨ ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾

فهلاّ كانت قرية آمنت بربها قبل نزول العذاب فنفعها إيمانها لما عاينت العذاب إلا قوم يونس بن متى، فإنهم صَدَقوا في إيمانهم وتوبتهم من ذنوبهم، فأزال الله عنهم عذاب الخزي بعد أن أوشك أن يقع بهم، وأمهلهم في الدنيا يتمتعون متاعًا حسنًا حتى نهاية أعمارهم في هذه الحياة، وهذه من بركة التوبة، صَرْفٌ للعذاب عنهم وحياة سعيدة في الدنيا، وأجرٌ عظيم في الآخرة.

٩٩ ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾

ولو أراد ربك - أيها الرسول - لآمن كل من في الأرض ولم يكفر أحد، ولكن اقتضت حكمته أن يؤمن قوم ويكفر قوم، وليس في مقدورك أن تُكْرِهِ الناس على الإيمان، فالهداية بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

١٠٠ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾

وما تستطيع نفس وما يحصل لها أن تؤمن بالله إلا إذا شاء الله ووفقها لهذا الإيمان به - جل في علاه - فليست هداية التوفيق إليك، ولكن إلى الله وحده، والله يجعل غضبه وعذابه ونقمته على من لم يعقل أمره ولم يفهم رسالته التي أرسل بها رسله عليهم السلام.

١٠١ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾

قل - أيها النبي- للناس: تفكروا في خلق السموات والأرض وما فيهما من عبر للمعتبرين وآيات للمتدبرين، ولكن الآيات المنزلات والرسل المبعوثين بالمعجزات لا ينتفع بهم من كفر بالله وأعرض عن دينه وصد عن سبيله وتكبر على أمره، وإنما تنفع المعتبر المنقاد لطاعة الله.

١٠٢ ﴿ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾

فهل ينتظر هؤلاء الكفار إلا وقت نزول العقاب وحلول العذاب مثلما وقع بمن كفر قبلهم؟ قل لهم - أيها النبي -: انتظروا عذاب الله إني منتظر معكم حلول هذا العقاب بكم، ومنتظر نصر الله لي عليكم كما وعدني، فأنا أنتظر رحمته وأنتم تنتظرون نقمته.

١٠٣ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

ثم ينجي الله رسله وأتباعهم من المؤمنين وقت نزول العذاب بالكافرين، وهذه سنة الله أن ينجي كل مؤمن من العذاب وممن أنجاهم محمداً ﷺ وأتباعه إلى يوم الدين.

١٠٤ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قل – أيها النبي– للناس: إن كنتم في شك من صدق دعوتي وصحة رسالتي فأنا ثابت على ديني ومبدئي؛ لأني على يقين من استقامة طريقي، وسلامة نهجي، ولا أعبد ما تعبدونه من أصنام وأوثان، ولكنني أعبد الله الواحد الأحد الذي يميتكم مثلما أحياكم، ويبعثكم ليحاسبكم، وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بشرعه العابدين له المنقادين لأمره.

١٠٥ ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يأمرك ربك – أيها النبي – أن تستقيم على دين الإسلام غير مائل إلى دين غيره كاليهودية والنصرانية، بل دين الخليل إبراهيم ﷺ الحنيف المسلم، ولا تشرك – أيها النبي – بالله كمن عبد غيره ودعا سواه فتخسر دنياك وأخراك، وإن كان الخطاب للرسول ﷺ فإنه خطاب لأمته.

١٠٦ ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولا تدعُ غير الله من الأوثان والأصنام والكهنة والعرافين؛ لأنهم لا يجلبون لك نفعًا ولا يدفعون عنك ضرًا بل النافع الضار حقيقة هو الله وحده، فلا تدع سواه، فإن أخطأت ودعوت غيره فقد أشركت وحبط عملك، وظلمت نفسك بالشرك وأوردتها المهالك.

١٠٧ ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن أصابك الله بضراء وشدة وبلاء فلا يزيلها عنك ولا يعافيك منها إلا الله وحده، وإن أراد لك الخير من رخاء ونعماء وعافية وسراء فلا يمنع وصولها إليك أحدٌ كائنًا من كان، والله يصيب بالسراء والضراء من يشاء من العباد، كل شيء فيه بقضاء وقدر، وهو الغفور لذنوب من تاب، الرحيم بمن أناب، يغفر له الذنب فلا يؤاخذه، ويرحمه بأن يوفقه لما فيه صلاحه.

١٠٨ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

قل – أيها النبي – للناس: قد جاءكم الرسول بالقرآن والإيمان وعبادة الرحمن، فمن أجاب وأناب فنفع استجابته وثمرة طاعته له، ومن صدَّ وأعرض وكذَّب وأبى فإنما الضرر عليه وحده، وما أنا موكَّل عليكم أُكرهكم على الإيمان، وإنما أنا رسول أبلغكم دعوة الرحمن، وأقيم عليكم الحجة والبرهان.

١٠٩ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

واتبع – أيها النبي – ما أوحاه الله إليك من الكتاب والسنة، واصبر على أذى من آذاك وعلى إبلاغ رسالة ربك ومولاك، حتى يقضي الله بينك وبين من كذّبك بقضاء الحق فينصرك وأتباعك ويمحق أعداءك، وهو خير من حكم لتمام العدل وعدم الظلم والصواب في الحكم.

* * *

مكية

ترتيبها
١١

سورة هود

آياتها
١٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

الحروف المقطعة: الله أعلم بمراده بها - سبحانه - وهذا القرآن الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ أُحكِمت معانيه، وفصِّلت ألفاظه، فسلمت الآيات من الخلل، وعُصِمت الجمل من العِلل، فهي محكمة بأصول الأحكام، مفصَّلة بفروع الحلال والحرام، من عند الله الحكيم في شرعه وصنعه، الخبير بمصائر الأمور وعواقب الأشياء.

(٢) ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

أنزل القرآن وأحكم وفصِّل من أجل أن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له وهو التوحيد الخالص، وإن الرسول ﷺ نذير، ينذر الكفار العقاب، وبشير يبشِّر المؤمنين بالثواب.

(٣) ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

واطلبوا من ربكم الغفران لذنوبكم، وعودوا إليه تائبين نادمين يحييكم حياةً طيبة مع عافية الأبدان، وأمن الأوطان، ورضا الرحمن إلى أن تنقضي أعماركم في أحسن حال، ويعطي صاحبه كل فضل من علم نافع وعمل صالح أجره بقدر عمله، ويتفضل على من يشاء ببره على عباده، وإن تعرضوا عن الهداية فإني أخاف أن يصيبكم عذاب يوم شديد، وهو يوم القيامة، وهذا تهديد ووعيد لمن صد عن سبيل الله وأعرض عن دينه.

(٤) ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

إلى الله تعودون يوم العرض، الأكبر فاتقوه بطاعته واتباع رسوله ﷺ، وهو - سبحانه - قادرٌ على إحيائكم وإماتتكم وبعثكم وحسابكم لا يعجزه شيء.

(٥) ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ألا إن هؤلاء الكفار يضمرون الكفر في صدورهم ويحسبون أنه يخفى على الله ما أضمروا، ويغيب عنه ما أسروا، أفلا يعلمون أنهم حينما يسترون أجسامهم بثيابهم فإن الله لا يخفى عليه منهم شيء، علم سرَّهم وعلانيتهم، وما ظهر وما بطن من أمرهم، إنه عليمٌ بما تكنُّه الصدور وتخفيه من نيات وأسرار؛ لأنه يعلم السر وأخفى، فهو أولى أن يُخشى ويُتقى وحده.

(٦) ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

رزق جميع ما يدبٌّ على وجه الأرض تكفَّل الله به، فهو الرزّاق وحده لكل مخلوق، ويعلم محل استقرار هذا المخلوق في حياته وبعد موته، ويعلم المكان الذي يموت فيه، كل هذا في كتاب واضح مكتوب، وهو الكتاب السابق في القضاء، والقضاء الذي فرغ منه، وفيه تفصيل كل شيء من الخلق والرزق والحياة والموت.

٧ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

والله وحده الذي خلق السموات والأرض وما فيهن في مدة ستة أيام، وقبل ذلك خلق عرشه على الماء، ليمتحنكم أيكم أحسن طاعةً وعبادة له من حيث إخلاص العمل لله ومتابعة رسول الله ﷺ، ولئن قلت - أيها النبي- للكفار: إنكم سوف تُبعثون بعد موتكم وتعودون إلى ربكم، فإنهم سوف يقولون: ما هذا القرآن الذي تتلوه إلا سحرٌ واضح ظاهر؛ كذبًا منهم وزورًا وصدودًا وفجورًا.

٨ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

ولئن أجَّل الله العذاب عن الكفار مدة معلومة لقالوا -استهزاءً وسخرية-: لماذا لا يقع هذا العذاب الذي تهددنا وتوعدنا به محمد وما سبب تأخيره؟ ألا يوم يحل بهم العذاب فلن يصرفه عنهم صارف، ولا يرده راد، وسوف يحيط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به ويستبطئونه.

٩ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾

ومن عادة الإنسان أن الله إذا منحه نعمةً من مالٍ وثروةٍ وجاه وولد وصحة وأمن ثم سلبها منه إن الإنسان لشديد اليأس من رحمة الله، يجحد نعمه السابقة، فهو قليل الشكر ينسى الجميل ويستبطئ الفرج.

١٠ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

وإذا أعطى الله الإنسان نعمة في دنياه من رزق واسع، وعيش رغيد وصحة وقوة بعد فقر وضيق ومرض وضعف، ليقولن الإنسان ذهب ذاك الشقاء فلن يعود، وزال الضيق فلن يرجع، فهو بطر بالنعم، فخور متعالٍ بها على العباد، يفرح قلبه خيلاء، ويفخر لسانه استعلاء، فرح في نفسه، فخور على غيره.

١١ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

غير أن الذين صبروا على الشدة وعلى صولة النعمة إيمانًا واحتسابًا وسارعوا إلى عمل الخير طلبًا للثواب، فهؤلاء يغفر الله لهم ما فعلوه من الذنوب، ويثيبهم أحسن الثواب على ما فعلوه من الطاعات، فذنبهم مغفور وسعيهم مشكور.

١٢ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾

فلعلك - أيها الرسول - لما تلقاه من الكفار وتجده من الفجار من الكيد والأذى والصد والمحاربة تاركٌ شيئًا مما أنزله الله عليك من القرآن وأمرك بتبليغه، وتضيق ذرعًا من نشره، خوفًا من تعنُّت الكفر وأسئلتهم واعتراضهم مثل أن يطلبوا منك: أن ينزل عليك مالاً كثيرًا، أو يأتي معك ملك من السماء يشهد لك بالرسالة، فما عليك أنت إلا البلاغ المبين فلا تكتم شيئًا، والله سوف يتولى حساب الجميع؛ لأنه متوكل بكل شيء، ومن ذلك ثواب الأبرار وعقاب الفجَّار، وإنزال الآيات وإظهار المعجزات، وليس لك إلا الإنذار بما عندك من وحي.

١٣ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

يقول كفار مكة: إن محمدًا ﷺ افترى القرآن وليس من عند الله تعالى، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: إن كان الأمر كما تزعمون فتعالوا أنتم بعشرِ سورٍ مثل القرآن مفتريات، واطلبوا من كل أحد قدرتم عليه أن يعاونكم على الإتيان بهذه السور العشر إن كنتم صادقين في دعواكم، وهذا غاية التحدّي، فسبحان من أعلى قدر كتابه عن معارضة البشر، وأفحم به الجن والإنس.

١٤ ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

فإن لم يستجب لك الكفار - أيها النبي - ويؤمنوا بما جئت به ويسلِّموا لك ومن آمن معك فاعلموا أن هذا القرآن الحكيم إنما نزل بعلم الله وليس من قول البشر، واعلموا أن لا إله يُعبد بحق إلا الله، فهل أنتم - أيها الكفار الشاكون بعد نزول هذه البراهين - مذعنون ومنقادون لله ولرسوله.

١٥ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

من كان يريد بعمله وسعيه الحياة الدنيا للمفاخرة والحصول على متعها الزائلة ولذائذها الفانية من مال وجاه ومنصب أعطيناهم ثمار أعمالهم التي عملوا لها وافية، وقد يحصلون على ما أرادوا بلا نقص، فتلبى مطالبهم في الدنيا ابتلاءً واستدراجًا.

١٦ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

وهؤلاء ليس لهم ثواب عند الله ولا كرامة، وإنما يستحقون النار في الآخرة؛ لأنهم عملوا للدنيا ونسوا لقاء ربهم وأرادوا بسعيهم غير الله، وذهب عنهم نفع ما عملوا لما فيه من الرياء وتقديم الفاني على الباقي والرضا بالدنيا حظًا ونصيبًا وإغفال ما عند الله من ثواب.

١٧ ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أفمن كان على بصيرة ويقين من ربه فيما يعتقده من الإيمان ويدعو إليه من الخير وينهى عنه من المنكر، ويتلو هذه البيِّنة ويصدقها ويعضدها برهان آخر وشاهد ثان وهو جبريل أو محمد - عليهما السلام - ويؤيد ذلك شاهد ثالث وهو ما ذكر في التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام هدايةً ورشدًا لمن اتبعه، ودليلاً واضحًا لمن اهتدى به، ورحمة لمن اعتصم به، وهؤلاء الذين على بينة من أمرهم يُصَدِّقون بالقرآن ويؤمنون بالرسول ﷺ وما أنزله الله من كتبه على رسله، والذين كفروا بهذا القرآن واجتمعوا ضد الرسول ﷺ وتعاقدوا على محاربته فهؤلاء جزاؤهم نار جهنم، هي مصيرهم ومأواهم، فلا تكن في شك من أمر هذا الدين والقرآن، فإنه حقٌ مبين، بالأدلة والبراهين، من عند الله وليس من عند البشر، كما زعم من كفر، وهذا الدين هو الحق الثابت، واليقين القاطع للشبه من عند الله، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالرسالة والرسول ولا يؤمنون بالحق.

١٨ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق الكذب على الله، وسوف يوقفون للحساب عند الله؛ ليجازيهم على سوء عملهم، ويقول الشهود من الملائكة والمرسلين وغيرهم: هؤلاء هم المفترون على الله، الكاذبون في دعواهم، قد طردهم الله من رحمته، ومنعهم من جنَّته، وحل عليهم غضبه؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم بالشرك، كاذبون في أقوالهم وأعمالهم.

١٩ ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

الذين يمنعون العباد من الهداية، ويعترضون الخلق في طريقهم الموصلة إلى الله، ويريدون أن تكون الطريق ملتوية وفق أهوائهم وما أملَتْه شياطينهم فيتركون الصراط المستقيم، ويسلكون سبيل أهل الجحيم وهم مكذبون بلقاء الله، كافرون بالبعث والجزاء، فهم الظلمة الخاسرون المخلدون في النار.

(٢٠) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾

أولئك الكفار لم يكونوا يفوتون الله هربًا، ولا يعجزونه طلبًا، وليس لهم أنصار يحمونهم من عقاب الله، يضاعف لهم العذاب في نار جهنم؛ لشدة جُرمِهم وعظَم ظلمهم؛ لأنهم في الدنيا ما كانوا يستطيعون سماع الحق الذي أُنزل على الرسول ﷺ سماع استجابة وقبول، فقد منعهم الكبر من الانقياد والإذعان، وما كانوا يبصرون آيات الله في الكون بصر معتبر متعظ؛ لأن الكفر ران على عيون بصائرهم.

(٢١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

أولئك الكفار هم الذين خسروا أنفسهم بالعذاب في النار، مع غضب الجبار، وذهب عنهم ما اختلقوه من عبادة أوثان وافتراء بالشرك على الرحمن، وادعاؤهم أن آلهتهم تشفع لهم وتدفع عنهم العذاب والهوان.

(٢٢) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾

لا شك ولا ريب أنهم أخسر الناس صفقةً في الآخرة؛ لأنهم استبدلوا النعيم المقيم بعذاب الحجيم، والدرجات بالدركات، والرضوان بالهوان.

(٢٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

إن من آمن بالله وعمل بما يحبه ويرضاه من الأقوال والأفعال مع الخضوع والخشية لله، والعمل بأوامره واجتناب نواهيه هم أهل الجنة خالدون فيها، لا يخرجون منها ولا يموتون، حسن لهم المقام في دار السلام مع الأمن والإنعام.

(٢٤) ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

شبَّه الله أهل الكفر وأهل الإيمان مثل الأعمى الذي لا يرى، والأصم الذي لا يسمع، فالكافر لا يبصر الصواب فيتبعه، ولا يسمع الهدى فينتفع به، ومثل المؤمن مثل البصير الذي أبصر طريق الهداية فسلكه، وسمع داعي الله فآمن به، فهذان الفريقان لا يستويان، فلماذا لا يتدبرون الحجج والأدلة، ويعتبرون بالبراهين والأمثلة؟!.

(٢٥) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

ولقد أرسل الله نوحًا ﷺ إلى قومه فقال لهم: إني نذير لكم من الله، أحذِّركم عذاب الله إن كفرتم به، وأبيِّن لكم ما أرسلني الله به من آيات وحجج.

(٢٦) ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

وأدعوكم أن لا تعبدوا إلا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، إني أخشى عليكم إذا لم توحِّدوا الله أن يعذبكم عذابًا أليمًا موجعًا شديدًا.

(٢٧) ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

فقال أعيان الكفار من قوم نوح ﷺ: إنك يا نوح بشرٌ مثلنا لا فضل لك علينا، ولست ملكًا، فلماذا تختص بالرسالة من دوننا؟ ونحن نرى أتباعك من السفلة والضعفاء لا من الأشراف والأغنياء، من غير تفكر ولا روية ولا تأمل في القضية، وليس لكم علينا مزية من مال ولا جاه ولا سلطان لمّا اعتقتم هذا الدين الجديد، بل نعتقد كذبكم في دعواكم وافترائكم فيما جئتم به.

(٢٨) ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

قال نوح: يا قومي، أرأيتم إن كنتُ أنا على يقين من أمري وعلى طريق مستقيم، ومعي دليل ظاهر وبرهان ساطع على ما أدعو إليه، ورحمني ربيّ بالرسالة الربانية، وهداني إلى العبودية الحقة، فخفيت عليكم الحجج وضللتم عن هذه الأدلة لاتباعكم الهوى، وإعراضكم عن الهدى، فلا يستقيم أن نجبركم على الهداية ونكرهكم على الإيمان دون اقتناع منكم واستجابة من أنفسكم، وإنما نقيم عليكم الحجة، ونوضّح لكم المحجة، ونكل أمركم إلى الله تعالى.

(٢٩) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾

يقول نوح ﷺ لقومه: يا قوم، لا أطلبُ منكم أجرًا على دعوتي لكم للإيمان بالله وتوحيده، فالله وحده هو الذي يأجرني على نصحي لكم، فلم أُحمّلكم عبئًا ولم أسألكم مالاً، ولستُ بطارد من مجلسي من آمن بي بحجة أنهم ضعفاء ليسوا أشرافًا أغنياء، فسوف يعودون إلى ربهم والفضل عنده بالتقوى، وسوف يتولى أمرهم، غير أنكم جهلاء بأسباب التفضيل وبما يصلحكم، ومن جهلكم عدم اتباع الحق والإعراض عن الهدى.

(٣٠) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

ويا قوم من يمنعني من عذاب الله إذا طردت من مجلسي أولياء الله، فما لكم لا تفكّرون في صحة ما أقول لكم وتتدبرون الأصلح لكم، فتفعلونه.

(٣١) ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولا أدّعي أني أملك التصرف في خزائن الله، فأعطي من أشاء وأمنع من أشاء، فأرزاق العباد وخزائن السموات والأرض بيد الله - تعالى - وأنا لا أعلم الغيب فلا يعلم غيب السموات والأرض إلا الله وحده، وأنا لستُ مَلَكًا من ملائكة السموات، وأنا عبد رسول أكرمني الله بالنبوة، ولا أقول للبائسين الضعفاء الذين تحتقرونهم: لن يعطيهم الله أجرًا على أعمالهم الصالحة إذا قصدوا بها وجه الله، فالله وحده يعلم سرَّهم وعلانيتهم، والثواب في الآخرة ليس على حسب مكانة العبد في الدنيا ولا ادعيتُ على الله ما لم أعلم، ولا كنتُ ظالمًا لنفسي بالتَّقول على الله، وظالمًا لغيري بالحكم الجائر مني.

(٣٢) ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال قوم نوح لنوح: قد خاصمتنا كثيرًا وحاورتنا طويلاً، فاترك الجدل وأتنا بما تتوعدنا به من العذاب!! وهو تحدٍّ منهم له؛ لأنهم مكذبون بالعذاب، مستبعدون لوقوعه؛ ولذلك قالوا: إن كنت من الصادقين؛ يعني على فرض صدقك جدلاً مع العلم أنهم لا يصدقونه.

(٣٣) ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾

قال نوح لقومه: العذاب يأتي به الله وحده، فهو المقدِّر والحاكم بين العباد، وأنا لا أملكُ تقديم عذاب ولا تأخيره، وإنما أنا نذير لكم من عذاب الله، وإذا أراد الله عذابكم فلا تفوتونه ولن تعجزوه، وأين يهرب العبد الهزيل من الرب الجليل؟!

(٣٤) ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

لا ينفعكم نصحي ولو اجتهدتُ في النصيحة إذا قدَّر الله عدم هدايتكم، فأنا لو فعلتُ السبب في إرشادكم والله ما كَتَبَ صلاحكم فلن تستجيبوا لي، فإذا أراد الله ضلالكم فلن أملك أنا هدايتكم؛ لأن الله هو ربكم المتصرف بأموركم، المدبِّر لأحوالكم، ومردُّكم في الآخرة إليه، يجازيكم على أعمالكم.

(٣٥) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

يقول الكفار من قوم نوح: إن نوحًا افترى على الله هذا القول. فقل لهم يا نوح: إن كنتُ قد افتريتُ هذا القول على ربي فعليَّ وحدي تقع عقوبة هذا الفعل، وأنا مسؤول عند الله عنه، وإن كنتُ صادقًا فأنتم الكاذبون الخاسرون، وأبرأُ إلى الله من عملكم وتكذيبكم.

(٣٦) ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

وأوحى الله - تعالى - إلى نوحٍ أن الله كتب على قومك الكفر فلن يؤمن منهم أحد إلا من سبق له أن آمن من قبل، فلا تحزن عليهم، فليس عليك من ذنوبهم شيء، وقد بلَّغت رسالة الله، ولا تضق ذرعًا بعملهم السيئ، فحسابهم على الله.

(٣٧) ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

واصنع يا نوح السفينة بتأييد الله ورعايته وحفظه ومرأى من الله واطلاع، ولا تشفع في الظالمين برفع عذاب أو تأخير عقاب، إن الله كتب عليهم الإغراق بالطوفان، وفي الآية إثبات صفة العين لله على وجه يليق به -عز وجل-.

(٣٨) ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

ويصنع السفينة لينجو بها من الطوفان، وكلما مرَّ عليه جماعة من أشراف قومه استهزؤوا به، قال لهم نوح: إن تستهزئوا منا لتكذيبكم وعد الله وما أخبرتُ به، فسوف نستهزئ بكم إذا جاء الطوفان وغرقتم كما تستهزئون بنا، وفيه فعل السبب مع التوكل.

(٣٩) ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

فسوف يظهر لكم الحال إذا جاء عذاب من الله مهين لكم، ويقع بكم عذاب في النار دائم لا ينتهي؛ جزاء عملكم السيئ، وفيه الوثوق بوعد الله وأن العاقبة لأوليائه.

(٤٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

حتى إذا وقع أمر الله، وحان هلاك القوم، وبلغ الأمر نهايته، والمقدور غايته، ونبع الماء من التنور الذي يُخبز. فيه؛ إشارة إلى مجيء العذاب، أمر الله نوحًا أن احمل في السفينة من كل نوع من أنواع الحيوانات اثنين ذكرًا وأنثى، وخذ معك أهل بيتك في السفينة إلا من سبق فيه قضاء الله أن لا يؤمن كابنه وزوجته، وأركبْ في السفينة معك كل المؤمنين بك، وما أطاع نوحًا إلا قليل مع اجتهاده في الدعوة وطول المدة وكثرة الأدلة.

(٤١) ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقال نوح لقومه: اركبوا معي في السفينة بسم الله بداية سيرها على الماء، وبسم الله عند انتهائها ورسوُّها متوكلين عليه، إن ربي يغفر ذنب من تاب، ويرحم من أناب، فلا يعذبه بعدما عاد واستجاب، وفيه التوكل في بدء الأمر ونهايته وحسن الظن بالله.

(٤٢) ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

والسفينة تسعى بنوح ومن معه في موج يضطرب كهيئة الجبال في ارتفاعه، ونادى نوح ابنه - وكان معتزلًا في مكان بعيد عن أبيه والمؤمنين - فقال له: يا بني، تبْ وتعال اركب معنا في السفينة ولا تستمر على الكفر فتهلك غريقًا، وفيه أن هداية الدلالة لا تنفع إلا بهداية التوفيق.

(٤٣) ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾

قال ابن نوح لأبيه: سأذهب إلى جبلٍ عالٍ أحتمي به من الغرق، فقال له نوح: لن ينجيك اليوم شيء مما قدّره الله من غرق وموت إلا من شاء الله رحمته ونجاته، وحال الموج العظيم بين الأب وابنه فكان الابن من الهالكين في الماء غريقًا، ولم تنفع القرابة مع اختلاف الدين.

(٤٤) ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

وأمر الله الأرض بعد هلاك الكفار: أن تشرب ماءها فتجف، وأمر السماء أن تمسك المطر، ونقص الماء ونضب، وعاد لحاله قبل الطوفان، وقضى الله أمره بإهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، ورست السفينة على جبل الجودي. وقيل: هلاكًا وسحقًا لمن ظلم بتجاوز حدود الله والكفر به وتكذيب رسوله.

(٤٥) ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾

ودعا نوح ربه -عز وجل- فقال في دعائه: يا رب، إن ابني من أسرتي، وأنت وعدتني بنجاتهم فلتشمله رحمتك وتنجيه كما نجيتهم وأنت لا تخلف وعدك؛ فأتم بفضلك ما سبق الوعد به وأنت أحكم الحاكمين في قضائك وعدلك وشرعك، لا تتهم في القدر والاختيار والمكتوب.

(٤٦) ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

فأخبر الله نوحًا أن ابنه الهالك ليس من أهله المؤمنين الناجين؛ لأنه خالفهم في الدين، وعمله يخالف عمل الصالحين، ونهى الله نوحًا أن يطلب منه أمرًا لا علم له به؛ لأن من سأل ما لا يحل له كان جاهلاً، والله يعظ نوحًا أن لا يكون منهم، وفي الآية أن الكافر لا حق له في حقوق القرابة؛ وتحريم سؤال الله ما لا يجوز، وهو من التعدي في الدعاء.

(٤٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

قال نوح: يا رب، ألتجئ إليك وأستجير بك أن أطلب منك شيئًا لا أعلمه ولا يحل لي أن أسأله، وإذا لم تغفر ذنبي وترحمني بترك مؤاخذتي أكن ممن خسر حظه، وطُرد من الرحمة وأدركه الهلاك، وفيه أن الأنبياء يخافون من آثار الذنوب لو لم يتغمدهم الله برحمته.

(٤٨) ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فأمر الله نوحًا أن ينزل من السفينة إلى الأرض في أمن وسلام وبركة ورضا من الله عليه وعلى طوائف معه من أهل الإيمان، وهناك جماعات من الكفار سوف يمتعهم الله في حياتهم الدنيا كمتاع البهائم إلى نهاية أعمارهم، ثم يعذبهم في جهنم عذابًا شديدًا على كفرهم بالله - تعالى - وفيه أن الدنيا للبر والفاجر، ولا عبرة بتنعم الفجار فيها.

(٤٩) ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

هذه الأخبار التي أوحاها الله إلى رسوله محمد ﷺ هي من أخبار الغيب الماضية، لم يأخذها الرسول ﷺ من الرواة، وإنما هي من عند الله؛ فهو لم يكن عنده علم بها قبل الوحي، وأيضًا العرب لم تصلهم هذه الأخبار في جاهليتهم، ثم أمر الله رسوله بالصبر على أذى الكفار ومصاعب الطريق، فإن العاقبة في نهاية الأمر من الحياة الطيبة والعز والنصر، ثم النعيم في الآخرة، لمن اتقى ربَّه وخاف مولاه وأطاع خالقه، وفيه أنه بالبر والصبر يُنال النصر والأجر، فالبر عمل الطاعات، والصبر ترك المخالفات.

(٥٠) ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾

وأرسل الله إلى عاد النبي هودًا ﷺ، فقال لهم: يا قوم، اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، فليس لكم إله سواه، ولا معبود بحق غيره، فأطيعوه مخلصين له الدين، فأنتم في شرككم هذا كاذبون. وفيه أن التوحيد أول ما يُدعى إليه وهو أصل الأصول.

(٥١) ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

ويا قوم، لا أطلبُ منكم أجرةً وعوضًا على دعوتي لكم بتوحيد الله وإفراده بالعبادة، فأجر دعوتي وثوابي على ربي الذي أرسلني، فما لكم لا تفكرون في هذا فتميزون بين الحق والباطل؛ لأن من يدعو قومه إلى أمر ويلقى في ذلك صنوف الأذى بلا مصلحة منهم دليل على صدقه وتجرده، وفيه أن الداعية لا ينتظر من الناس ثوابًا على عمله، وعليه أن لا يأخذ عوضًا من أحد إلا من الله وحده.

(٥٢) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾

ويا قوم، اسألوا الله أن يغفر ذنوبكم، ثم اهجروا الذنوب، واندموا على ما سلف من المعاصي، فإذا فعلتم ذلك وصحَّت منكم الإنابة أنزل الله عليكم الغيث المدرار؛ فتكثر الخيرات، ويعم الرخاء، وتنعمون برغد في العيش، ويزدكم قوةً إلى قوة بصحة الأجسام، وكثرة الذرية والأموال، وتتابع الأرزاق، ولا تعرضوا عن الاستجابة، ولا تُصِرّوا على الذنوب، وتستكبروا عن قبول الحق، وفي الآية: بركة الاستغفار والتوبة، وأنهما أصل كل خير في النفس والجسم والمال والولد.

(٥٣) ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾

قال قوم هود: ما أتيتنا يا هود بدليل واضح ولا برهان ساطع على صحة رسالتك، وصدق دعوتك، ولن نهجر آلهتنا من أجل قول لا نعلم صحته، وصدق صاحبه، ولن نصدِّقك أبدًا فيما تدَّعيه. انظر كيف يدَّعي المكابر خفاء الحجة الواضحة، ويتعلق بالشبهات عنادًا.

(٥٤) ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾

قولنا فيك: إنك مصاب بجنون أصابتك به آلهتنا!! انتقامًا منها؛ لأنك نهيتنا عن عبادتها، وهذا من أسخف الأقوال وأرذلها، فردَّ عليهم بقوله: أُشهِدُ الله ثم أُشهِدكم أنني بريء مما تشركون. فمن لوازم توحيد الله البراءة من الشرك به.

(٥٥) ﴿ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾

أبرأ من كل ند وضد وشريك سوى الله تعالى، فاجتهدوا ما استطعتم في محاربتي، واستعينوا بمن شئتم من أنصاركم في إدخال الضرر عليَّ، ولا تؤخِّروا ذلك طرفة عين، وهذا غاية التوكل على الله الذي قام به هود ﷺ، فالداعية واثق من نصر الله، يتحدى خصومه بقوة الله، ولا يرهبهم؛ لأن الله معه.

(٥٦) ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

إني توكَّلت على الله ربي وربكم مالك الكون والمتصرف في كل ما فيه والمدبِّر له، فكل شيء بقضاء منه وقدر، فلن أجزع؛ لأنه لا يصيبني إلا ما كُتب لي، لا تدب على وجه الأرض دابة إلا وهي في ملك الله وتحت تصرفه وقهره مسخرة لسلطانه، وربي على صراط مستقيم، حكيم في خلقه وتدبيره، عدل في قضائه وتقديره، بصير في شرعه وحكمه، يجازي كلاً بعمله، للمحسن الثواب، وللمسيء العقاب، وفيه: فضل التوكل وتفويض الأمر إلى الله والالتجاء إليه في كل ملمَّة.

(٥٧) ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾

فإن تعرضوا عن الإيمان بالله وحده، وتصدوا عن سبيله فقد أنذرتكم وأبلغتكم رسالة ربي إليكم من الأمر بتوحيده والنهي عن الشرك به - سبحانه - وقد قامت عليكم الحجة، وإذا كفرتم فسوف يأت الله بقوم يخلفونكم فى أرضكم، ويؤمنون بالله مخلصين له الدين، ولا تضرون الله بكفركم شيئًا، فهو الغني عن كل أحد، إن ربي حافظ لكل شيء، سوف يحفظني من أذاكم، وفي الآية: هوان الخليقة على الله إذا كفروا به، وأن الإعراض عن الله أساس كل دمار في الأمم، وغنى الله عن البشر.

(٥٨) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾

ولما جاء أمر الله بإهلاك قوم هود، نجى الله هودًا ومن آمن معه تفضلاً منه بقبول حسناتهم ورحمة بغفران سيئاتهم، ونجاهم الله من عذاب شديد فظيع، أنزله بمن كفر فأبادهم وأفناهم؛ لأن الإيمان بالله وعمل الصالحات عاصم من كل بلاء.

(٥٩) ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴾

وتلك عاد قوم هود كفروا بآيات الله وعصوا رسله، وأطاعوا أمر كل طاغية متكبر لا يتبع الحق ولا ينقاد للدليل، وإنما حملهم على الردى الهوى وترك الهدى.

(٦٠) ﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾

وأتبعهم الله بعد أن أهلكهم لعنةً وطردًا من رحمته، وغضبًا دائمًا إلى يوم القيامة، ألا إن عادًا كفروا بالله وجحدوا بآياته وكذبوا رسوله، ألا أبعدهم الله وأهلكهم وأخزاهم بسبب التكذيب والعناد، والكبر والفساد، فلا يمحق الدول والشعوب إلا الإعراض عن علاّم الغيوب.

(٦١) ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾

وأرسل الله إلى قوم ثمود النبي صالحًا ﵇ أخاهم في النسب، فنصحهم بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به؛ لأنه المستحق للعبادة دون سواه، فهو الذي ابتدأ خلقهم من تراب الأرض بخلق أبيهم آدم، وجعلهم يعمرون الأرض، ثم أمرهم بطلب المغفرة من الله وصدق التوبة إليه؛ لأن الله قريب لمن صدق في عبادته وأخلص في طاعته، قرب توفيق وحفظ ونصر، مجيبٌ له، إذا دعاه يُلبِّي له ما سأل، فبالتوبة والاستغفار تدوم النعم من الواحد القهار على عباده الأبرار.

(٦٢) ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾

قالت أمة ثمود للنبي صالح: كنّا نأمل منك أن تكون سيدًا فينا محبوبًا مطاعًا، ولكن بعد ما قلت هذا القول الغريب المنكر من الدعوة إلى عبادة الله وحده فقد يئسنا منك، كيف تنكر علينا ما كان يعبده آباؤنا؟ فأنت بهذا تُسفِّه أحلامهم، ونحن نشك في دعوتك ونرتاب في رسالتك؛ لأنك لم تأت بأدلة واضحة، وحجج بيّنة. وهذا منهم مكابرة، وفيه: أن التقليد يعمي البصيرة ويحجب عن الحق، ويمنع من معرفة الصواب.

(٦٣) ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴾

قال صالح لقومه: أخبروني يا قوم إن كنتُ على محجة واضحة، وعندي حجة بينة، وأنا على يقين مما أدعو إليه، والله أكرمني بالنبوة والحكمة، من ذا الذي يمنعني من عقاب الله إن خالفتُ أمره، فلم أبلِّغ رسالته وأنذركم عذابه، فأنا لو أطعتكم ما زادتني طاعتكم والقرب منكم إلا ضلالاً وبعدًا عن الخير، وهلاكًا في الآخرة، فبالبينة يُدرِك الإنسان الصواب، وبالرحمة ينجو من العذاب.

٦٤ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾

ويا قوم، هذه ناقة الله دليل على صدقي، وآية ظاهرة على صحة رسالتي، فاتركوها تأكل في أرض الله، فالله يرزقها لا أنتم، وهو الذي خلقها وحده، فلا تتعرضوا لها بسوء، فإذا فعلتم ذلك حلَّ بكم عذاب الله الذي لا يُطاق، وفيه التلطف بالمدعو وعرض الأدلة في المناظرة.

٦٥ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾

فكفر قوم صالح برسالته وعقروا الناقة، فوقعت بهم الواقعة، وقال لهم صالح: لكم أيام ثلاثة فقط تستمتعون فيها، وهذا وعدٌ صادق من الله لا كذب فيه، وسوف يقع لا محالة فيالشؤم المعصية ماذا جرَّت من الويلات.

٦٦ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾

فلما حان هلاك ثمود أنجى الله صالحًا ومن معه من المؤمنين بلطف منه - سبحانه - وعناية ورعاية، ووقع الهلاك والخزي على قومه، إن الله - جل في علاه - قوي يغلب من غالبه، ويقصم من حاربه، عزيز لا يرام جنابه ولا يُخذل أولياؤه.

٦٧ ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾

وأهلك الله ثمود بالصيحة القوية المدمِّرة، فصاروا هامدين خامدين كورق الشجر اليابس، لا حياة فيهم، جزاءً على كفرهم وقتلهم الناقة وعنادهم، فما أقوى الخالق وما أضعف المخلوق.

٦٨ ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾

كأن ثمود بعد هلاكهم ما عاشوا في الدنيا ولا استمتعوا بها، لقد كفرت ثمود بآيات الله وكذبت الحجج الواضحة التي جاء بها صالح ﷺ، فهلاكًا لثمود ولعنة عليهم ما أفجرهم وأشقاهم، ذهبوا فلا دنيا ولا آخرة.

٦٩ ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴾

ولقد جاءت الملائكة إبراهيم ﷺ يبشرونه بابنه إسحاق وبعده يعقوب؛ فحيوه بالسلام، فرد بمثلها وأحسن؛ فقام مسرعًا وأحضر لهم عجلاً سمينًا مشويًا حنيذًا ضيافةً لهم. وفيه البشرى بالخير، والفرح بالولد، والبدء بالسلام، ورد التحية، وإكرام الضيف.

٧٠ ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴾

فلما شاهد إبراهيم الملائكة لا يمدون أيديهم للأكل من الطعام المقدم لهم أنكر هذه الحال وأضمر الخوف منهم، فقالت له الملائكة: لا تخف منا فنحن ملائكة مرسلون من الله إلى قوم لوط لنهلكهم. وفيه: عرض الأكل على الضيف، وأن الملائكة لا يأكلون الطعام، وطمأنة الخائف بكشف اللبس.

٧١ ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾

وسارة زوجة إبراهيم خلف الستر قائمة تسمع الكلام، فضحكت عجبًا من هذا القول الغريب؛ لأنها عجوز وزوجها شيخ كبير فكيف ينجبان، فبشّرتها الملائكة من الله بولادة إسحاق بن إبراهيم، وسوف ينجب إسحاق يعقوب. وفيه: تكليم المرأة من وراء حجاب، وتبشيرها بالخير، وعظيم قدرة الله في إنجاب الكبير والعجوز.

٧٢ ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾

قالت سارة لمّا بشّرتها الملائكة بإسحاق -متعجبة-: يا ويلتا هل يُعقل أن أنجب ولدًا وأنا عجوز آيسة من الحمل والولادة؟! وزوجي شيخ كبير مثله لا يُولد له ولد، إن هذا مما يثير العجب؛ لأن هذا لم تجر به العادة، ولكن قدرة الله نافذة، وأمره غالب جل في علاه.

٧٣ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾

قالت الملائكة لسارة: كيف تعجبين من أمر الله وقضائه؛ فالله قدير على كل شيء فلا عجب فيما قضى، رحمة الله وبركاته عليكم يا بيت آل إبراهيم، فبرحمته يصرف عنكم العذاب، وببركاته يُضاعف لكم الثواب، فهو - سبحانه - حميد في أسمائه وصفاته وأفعاله كلها لا عيب فيها ولا نقص، ذو مجدٍ وعظمة وكبرياء وجبروت.

٧٤ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾

فلما ذهب الخوف عن إبراهيم من الملائكة؛ لأنهم لم يأكلوا طعامه، وبشَّروه بإسحاق ويعقوب أخذ يحاور الملائكة في شأن عذاب قوم لوط وإهلاكهم يريد إمهالهم لعلَّهم أن يتوبوا.

٧٥ ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾

إن إبراهيم كثير الحلم عن المسيء؛ ولذلك شفع في قوم لوط لإمهالهم وعدم تعجيل العذاب لهم، ثم هو كثير الدعاء واللجوء إلى الله، يتوب إلى الله في كل حال، ويعود إليه في كل أمر، فَحِلْمُه عمن أساء من الخلق، ودعاؤه فيما يريد من الخالق، وتوبته من التقصير.

٧٦ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾

قالت الملائكة: يا إبراهيم، اترك مجادلتنا في تأخير عذاب قوم لوط، فقد حل وقت العذاب وحان نزوله بهم، ولا راد لقضاء الله ولا دافع لما أراده، فقد قَضَى الأمر.

٧٧ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾

ولما أتت الملائكة لوطًا ساءه مجيئهم وأصابه غم من حضورهم، ولم يكن يدري أنهم ملائكة، وخاف عليهم من قومه الأشرار، وقال: هذا يوم كربة، شرُّه مستطير، وبلاؤه شديد.

٧٨ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ
فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾

وأسرع قوم لوط إلى بيته - لما رأوا ضيوفه - يريدون الفاحشة، ومن عادتهم قبل هذا إتيان الرجال شهوة دون النساء، فقال لوط لهم: هؤلاء بناتي تزوَّجوا بهن فهنَّ أطهر لكم مما تريدون فعله من الفاحشة، قيل: هن بنات أمته لأنهنَّ كبناته، والرسول للأمة كالأب، ثم قال لهم: احذروا غضب الله وعذابه، ولا تفضحونِ بالإساءة لضيوفي، أليس منكم رجل عاقل يردعه عقله عن هذا الفعل، وينهاه عن هذا الذنب.

٧٩ ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

قال قومه له: أنت تدري ما لنا حاجة في النساء، وإنما رغبتنا في الرجال!! فلا تعرض علينا نكاح بناتك.

٨٠ ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾

فقال لهم لوط حينما عزموا على الفاحشة: يا ليت لي قوة وأنصارًا معي أو عشيرة مهابة تحميني منكم وأقاتلكم بهم وأمنع ضيوفي منكم.

٨١ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾

قالت الملائكة: لا تخف علينا يا لوط نحن مرسلون من الله وسوف ينصرنا وينصرك، ولن يتمكَّن هؤلاء الأشرار من أذانا، فاخرج من قريتك ليلاً بأسرتك وخذ من آمن معك من أهلك ولا ينظر أحد منكم خلفه فيصيبه العذاب أما

امرأتك الخائنة فسوف يصيبها العذاب مثلما أصاب قومك، إن موعد هلاكهم الصباح، وموعد الصباح بالنسبة إلى الليل قريب لا بُعد فيه.

٨٢ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴾

فلما حلَّ عذاب الله بقوم لوط قلب الله قراهم؛ فجعل أعلاها أسفلها وباطنها ظاهرها، وأنزل الله حجارة متتابعة من طين متصلب قوي.

٨٣ ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾

والحجارة التي رُمي بها قوم لوط معلمة بعلامات تختلف عن سواها، على أن الحجارة التي رُمي بها قوم لوط ليس بعيدا أن ينزلها الله على كفار قريش، وكل عاص مجرم، فالأفعال متقاربة والجزاء متقارب.

٨٤ ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴾

وأرسل الله إلى مدين أخاهم النبي شعيبًا ﷺ فدعاهم أن يعبدوا الله وحده لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه، ونهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن وبخس الناس في البيع والشراء، وكانوا في رغد من العيش، وكثرة من الأموال، وأنذرهم عذابًا شديدًا يحيط بهم من كل جانب بسبب كفرهم وتطفيفهم.

٨٥ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾

وقال لهم شعيب: يا قومي أتموا الكيل والوزن واعدلوا مع الناس في الأخذ والعطاء، ولا تنقصوا حقوق العباد، فإن عاقبة الظلم وخيمة، ولا تذهبوا في الأرض بالظلم والجور والعدوان ونشر الفساد وأذية العباد، فإن الظلم خراب للديار.

٨٦ ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾

ما يبقى لكم من ربح مباح وما يفضل لكم من كسب حلال أفضل مما يدخل عليكم حرامًا بالغش والتطفيف، فقليل طيب ولا كثير خبيث، وإذا كنتم مؤمنين بالله أطعتم أوامره واجتنبتم نواهيه، والله يحاسبكم على أعمالكم، وأنا لستُ مطلعًا وشهيدًا على ما تفعلون، فأنا مبلِّغ فحسب.

٨٧ ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾

قال قومه له -استكبارًا وعنادًا-: أصلاتك هذه يا شعيب التي تحافظ عليها تدعوك أن تنهانا عن عبادة الأصنام التي يعبدها الآباء والأجداد، ونترك التصرف في أموالنا التي كسبناها ولنا الحق أن نفعل ما أردنا من زيادة ونقص وحِيَلٍ ومكر في الأخذ والعطاء، ثم استهزؤوا به وقالوا: إن لك عقلاً رشيدًا دلَّك على هذه الوصايا، ولديك فهم في الأمور ما سمعنا بمثله.

٨٨ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾

قال شعيب ردًا عليهم: أخبروني يا قوم إذا كان الله منحني منه هداية ربانية، ورسالة إلهية، وحجة قوية فيما آمركم به من إخلاص العبادة له وتوحيده، وترك الشرك وهجر الكسب الخبيث من تطفيف وغش، وهو - سبحانه - رزقني رزقًا مباركًا حلالاً طيبًا، وأنا لا أريد أن أدعوكم لأمر وأتركه وأنهاكم عن شيء وأفعله؛ لأن الداعية الصادق أول العاملين بما يدعو إليه، فأنا أريد إصلاحكم وهدايتكم إلى الطريق المستقيم حسب قدرتي، والله الموفق وحده، ومنه

أطلب الرشد والسداد، وعليه وحده توكَّلت، وهذا في بدء كل أمر، وإليه أرجع بالتوبة والإنابة، وهذا في نهاية كل عمل؛ فالتوكل بداية، والإنابة نهاية.

(٨٩) ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾

يا قوم، لا تحملنكم عداوتي على مخالفتي والكفر برسالتي والإصرار على تكذيب دعوتي، فيصيبكم الله بعذاب من عنده مثل ما أصاب به قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وما حلَّ بقوم لوط ليس ببعيد أن يحل بكم؛ فأنتم قريبون منهم في المكان والزمان، ومثلهم في الكفر بالرحمن.

(٩٠) ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

واطلبوا من الله أن يغفر ذنوبكم، وعودوا إليه نادمين من معاصيكم، فالله رحيمٌ بالعباد، يصرف عمن تاب عذابه، ويجزل ثوابه، ودود يتحبب لعباده بأنواع النعم، ويتوصل إلى مسرتهم بألطف أسباب الفضل، يرحم من أساء وعاد، ويتودد لمن أحسن من العباد.

(٩١) ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾

قالوا: يا شعيب ما نفهم أكثر كلامك، وما ندري ماذا تقصد بحديثك؛ تعاميًا منهم وعنادًا. وقالوا: ثم إنك مستضعف لست من الأشراف ولا من الرؤساء، وليست لك ثروة، ولولا أنا نراعي عشيرتك لقتلناك رجمًا بالحجارة - وكانت قبيلته كافرة كأمته؛ فتركوا شعيبًا من أجلهم - وليس لك عندنا احترام ولا تقدير ولا هيبة، ولا منزلة.

(٩٢) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

فأنكر شعيب قولهم، وقال: كيف تكون عشيرتي أكرم وأعز عليكم من الله؟! وهو أحق أن يُتقى ويعظم -عز وجل- وجعلتم أمر الله خلف ظهوركم استهانةً وتجبرًا لا توقرونه ولا تعملون به، إن ربي محيطٌ بكم فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وسوف يحاسبكم بما فعلتم.

(٩٣) ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾

ويا قوم، اعملوا على طريقتكم الجائرة من الكفر والتكذيب فسوف ترون عاقبة أمركم، وسوف أعمل على طريقتي من الهدى والرشد وطاعة الله وإخلاص العبادة له، والعذاب سوف ينال الكاذب منا وسوف يخزيه الله ويذلُّه، وانتظروا العذاب إني منتظر ما وعدني ربي من النصر والتمكين.

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

ولما جاء أمر الله بإهلاك قوم شعيب نجى الله شعيبًا من العذاب ومن معه من المؤمنين بعناية ورعاية منه - سبحانه - وأخذت الصيحة من كفر بالله، فصاروا بعد قوتهم هامدين خامدين، لا حَراك فيهم، الجثو للإنسان كالبروك للبعير من شدة الصيحة.

(٩٥) ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

كأن قوم شعيب بعد هلاكهم ما عاشوا وما تمتعوا في أوطانهم زمنًا من الدهر، ألا هلاكًا لمدين وخزيًا كما أهلك الله ثمود وأخزاها؛ لأنهم اشتركوا في الكفر والتكذيب.

(٩٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

ولقد أرسل الله موسى إلى فرعون بأدلة ظاهرة وحجج بينة وبراهين ساطعة لمن تأملها بقلب واعٍ وبصيرة نيّرة تدل على وحدانية الله عز وجل.

(٩٧) ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾

أرسله الله - سبحانه - إلى فرعون وأشراف قومه، فقلَّد قوم فرعون فرعون في الكفر والتكذيب، وليس في اتباع فرعون رشد ولا هدى، بل ضلال وردى؛ لأنه رأس الفساد، وأصل الفسق والعناد.

(٩٨) ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾

يأتي فرعون يوم القيامة أمام قومه داخلاً النار مثلما تقدَّمهم في الدنيا إلى الكفر والطغيان، وبئس المدخل مدخلهم، وقبح هذا السبيل سبيلاً.

(٩٩) ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾

ولعنهم الله في الدنيا لعنة تلحقهم في قبورهم بعدما أهلكهم بالغرق، ولهم لعنةٌ أخرى بإدخالهم النار مع غضب الجبار، وبئس ما ترادف عليهم من غرق ولعنة وعذاب وغضب، فكل عذاب عليهم يردفه عذاب، وكل سخط يتبعه سخط آخر.

(١٠٠) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

ذلك الذي قصصناه عليك - أيها النبي - من أخبار أهل القرى الهالكين، نخبرك به، ونوحيه إليك؛ فهو الحق واليقين، ومن تلك القرى ما بقيت لها آثار قائمة، ورسوم ماثلة، ومنها ما محيت آثارها وخُرِّبت ديارها.

(١٠١) ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

وما عذَّبناهم ظلمًا بغير حق، لكن جزاءً على سوء أفعالهم، فكان عذابهم عدلاً؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وترك الشكر، فما دافعت عنهم أصنامهم، ولا منعتهم من عذاب الله لما حلَّ بهم، وما زادتهم الأصنام إلا خذلانًا وخسرانًا وهلاكًا، فكانت سبب التنكيل بهم.

(١٠٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

ومثلما أهلك الله القرى الظالمة السابقة، يأخذ كل قرية شابه أهلها أهل القرى الماضية في الكفر والتكذيب، إن إهلاك الله لأعدائه موجع شديد لا يبقي ولا يذر.

(١٠٣) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

إن في إهلاك الله للقرى الظالمة عبرةً للمعتبر، وعظةً للمتعظ إذا كان يخشى ربَّه ويحذر عذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للحساب والجزاء، وتشهده كل الخلائق.

(١٠٤) ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾

وما يؤخِّر الله يوم القيامة إلا لأن الله قدَّر له وقتًا معلومًا، فلا زيادة فيه ولا نقص، وسوف يقع في يوم أراده الله وقضاه فيه.

(١٠٥) ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

إذا وقع يوم القيامة لا تتكلم أي نفس إلا إذا أذِنَ الله لها بالكلام؛ لهول المقام، فمن الناس من شقي لسوء عمله، فله العذاب، ومنهم من سعد لحسن عمله، فله الثواب.

(١٠٦) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾

فأما الأشقياء فمأواهم نار تلظى، خالدين فيها أبدًا، لهم في النار من شدة العذاب زفير وشهيق، وهو أشد صوت للمكظوم المغموم، فالزفير آهات المكروب، والشهيق صيحات المنكوب.

١٠٧ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

يمكثون في النار أبدًا ما دامت السموات والأرض، فلا ينقطع عذابهم ولا ينتهي ولا يخفف عنهم ولا يخرجون منها، إلا إذا شاء الله أن يخرج أحدًا من عصاة أهل التوحيد بعد أن يعذبوا بذنوبهم في النار؛ لأن الله يفعل ما شاء كما شاء إذا شاء.

١٠٨ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

وأما السعداء فمأواهم جنات النعيم في جوار ربٍّ كريم، يمكثون فيها ما دامت السموات والأرض إلا من شاء الله أن يتأخر في دخول الجنة، وهم عصاة الموحدين الذين يعذبون في النار ثم يدخلون الجنة، فإنهم يتأخرون عنها زمنًا، وعطاءُ الله في الجنة لأوليائه غير مقطوع عنهم ولا ممنوع منهم، بل دائم لهم مغدق عليهم، سريع إليهم.

١٠٩ ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾

فلا تكن - أيها النبي - في شكٍ من بطلان عبادة المشركين للأوثان، فإنها باطلة حقًا، وهم إنما يقلدون آباءهم الجهلاء في عبادة الأصنام، وسوف يوفيهم الله جزاءهم على سوء فعلهم بلا نقص ليلقوا وبال ما عملوه.

١١٠ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

ولقد أنزل الله على موسى التوراة فَصَدَّق بها بعض بني إسرائيل وكفر بها بعضهم، ولولا أن الله كتب عنده ألا يعجل للعصاة العذاب - حيث أراد إمهالهم - لحلَّ ببني إسرائيل قضاؤه بإهلاك الكفار ونجاة الأبرار. وإن كفار أمة محمد ﷺ في شك من القرآن وريبة؛ لعدم تصديقهم والزيغ الذي وقع في قلوبهم.

١١١ ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

وكل الأمم المختلفة التي قصها الله على نبيه ﷺ سوف يوفيهم الله -عز وجل- أعمالهم الجزاء الأوفى؛ لينال المؤمنون ثواب ما فعلوه، وينال الكفار عقاب ما صنعوه، والله خبير بأعمال الجميع، لا تخفى عليه من أعمال الخلق خافية.

١١٢ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

فاستقم - أيها النبي - على دين الله كما أمرك الله، واعبد الله بما شرع، أنت ومن تاب معك واهْتَدَى بهداك من المؤمنين، ولا تتجاوزوا حدود الله فإن الله بصير بأعمالكم، يحصيها لكم، وهو مطلع عليها، لا تخفى عليه خافية. وفي قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح، وفعل المشروع وترك البدع، ولزوم الجادة والحذر من المخالفة؛ وهذا أبلغ الكلام.

١١٣ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

ولا تميلوا لكل كافر وظالم بالمحبة والموالاة؛ فتحرقكم نار جهنم، ولن يتولاكم أحد من دون الله أو يدفع عنكم العذاب أحد سواه، فلا يجلب النفع إلا هو ولا يدفع الضر إلا هو.

١١٤ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

وأدِّ الصلاة على أكمل وجه في الصباح والمساء وفي ساعات من الليل، إن فعل الصالحات يكفِّر الخطيئات، ورأس الحسنات الصلوات الخمس، وهذا البيان عظة لمن يتعظ، وعبرةٌ لمن يعتبر.

١١٥ ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

واصبر على طاعة الله وأقداره المؤلمة، وعن معاصيه المحرمة، فإن الله لا يضيع ثواب من أحسن في عمله بفعل المأمور، واجتناب المحذور، والرضا بالمقدور، ومن ذلك اتباع الهدى، وبذل الندى، وكف الأذى.

١١٦ ﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾

فهلا وُجِدَ من القرون السابقة بقايا من أهل الإيمان والصلاح ينهون أهل الباطل والكفر عن عملهم، وينهون الظلمة عن الظلم، لم يوجد من الصالحين إلا قليل، فالله نجاهم وحماهم بسبب صلاحهم ونهيهم عن المنكر، واتبع عامة الكفار وغالبهم من الظالمين لأنفسهم متاع الحياة الدنيا وشهواتها الفانية ولذائذها الزائلة، ونسوا الآخرة، وكانوا عتاة مردة على أمر الله، متجاوزين لحدوده، عاصين لرسوله.

١١٧ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾

وما كان ربك - أيها النبي - ليهلك قرية من القرى أو يدمِّر أمة من الأمم وأهلها مصلحون في الأرض مجتنبون للفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم. وقيل: وما كان الله ليهلك القرى بالشرك وحده إذا كانوا مصلحين فيما بينهم بالعدل وإعطاء الحقوق؛ فالعدل يمنعهم من الهلاك في الدنيا، ويؤخر لهم العذاب على الشرك في الآخرة.

١١٨ ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾

ولو أراد الله لجعل الناس كلهم جماعة واحدة على قلب واحد ودين واحد هو الإسلام، ولكن الله لم يرد هذا لحكمة عظيمة، ولا يزال الناسُ مختلفين في أديانهم لتقوم سنة التدافع وتحصل المجاهدة والابتلاء.

١١٩ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾

لكن الذين رحمهم الله بالإيمان واتباع الرسل - عليهم السلام - لا يختلفون؛ فهم على دين الإسلام، وتوحيد الله الخالص، والله أراد أن يخلقهم مختلفين، أبرارًا وفجارًا، وسعداء وأشقياء، وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له، لتتم حكمة الله ووعده ووعيده، وما أعده من جنة للصالحين ونار للكافرين، فبهدايته لأوليائه يملأ جنته، وبإضلاله لأعدائه يملأ ناره.

١٢٠ ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وكل ما يلزمك من العبر وتستفيده من العظات والتجارب سوف نخبرك به من أخبار الرسل السابقين؛ ليتقوى قلبك في مواجهة الأزمات، وتثبت في الخطوب، وقد وصل إليك في هذه السورة وما فيها من حِكم وأسرار أبلغ العظات وأجلّ العبر، وبيان الحق الذي أنت عليه، وأتتك النصائح التي ترشد إلى الخير، وتحذر من الشر، وذكرى لمن كان له قلب ينتفع بها وتؤثر فيه.

١٢١ ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾

وقل - أيها النبي - للكافرين المكذبين بوحدانية الله -: اعملوا كما كنتم تعملون من محاربة لله ولرسوله ﷺ وصد عن سبيله وكفر به وبكتابه، إنا عاملون على حالنا من الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ والجهاد في سبيله ونشر دينه.

١٢٢ ﴿ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

انتظروا عاقبة أمرنا من النصر والتوفيق، إنا منتظرون عاقبة أمركم من الخذلان والهلاك.

١٢٣ ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

والله وحده - جل في علاه - عالم بكل ما غاب عن سمع البشر وبصرهم مما في السموات والأرض، وإليه يعود كل أمرٍ في الآخرة؛ ليقضي فيه بما يشاء، فأخلص العبادة له، وفوِّض أمرك إليه؛ لِتُحقِّق (إياك نعبد وإياك نستعين)، والله ليس بغافل عن عمل العباد من خير أو شر؛ فهو عالم مطلع على كل صغيرة وكبيرة، وسوف يجازي الجميع، فلمن أحسن الثواب، ولمن أساء العقاب.

مكية

ترتيبها ١٢

سورة يوسف

آياتها ١١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾

الله أعلم بمراده بالحروف المقطعة.

هذه آيات القرآن الواضح البيِّن في أدلته ومعانيه، الساطع في براهينه، الفاصل في أحكامه.

(٢) ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

الله أنزل هذا الكتاب بلغة عربية مفهومة واضحة؛ من أجل أن يفقه الناس معانيه، ويعملوا بهداه، ويفهموا مقاصده.

(٣) ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾

الله يقص عليك – أيها النبي – أحسن القصص لفظًا ومعنى وأسلوبًا ومبنى، وإن كنت – أيها النبي – قبل إنزال القرآن عليك من الغافلين عن هذه الأخبار لا تعلمها ولا تدري بها؛ لأنها لا تحصل إلا بطريق الوحي.

(٤) ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾

واذكر يوم قال يوسف لأبيه يعقوب، إني رأيت في منامي أحد عشر كوكبًا، ورأيت الشمس والقمر كلها ساجدة لي، وهذه أول بشرى ليوسف وقد تحققت بعد البلاء، فحصلت له النبوة والحكمة والملك، ثم جمع الله شمله بأهله، فسجد له أبواه وهما الشمس والقمر في الرؤيا، وإخوته الأحد عشر، وهم الكواكب.

(٥) ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

قال يعقوب لابنه يوسف: لا تحدِّث إخوانك بما رأيت في المنام؛ لأنها رؤيا عظيمة تثير حسدهم، وأخشى أن يحتالوا عليك، ويسعوا في كيدك وهلاكك؛ لأن الشيطان قوي العداوة، ظاهر المكر بالإنسان. وفيه ستر النعم عن عيون الحاسد وكتم السر.

(٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

وكما أراك الله هذه الرؤيا فسوف يختارك ويصطفيك ويعلِّمك تفسير الرؤى المنامية والإخبار بمقاصدها، ويتم عليك النبوة والحكمة وعلى آل يعقوب من أسرتك، كما أتمها وأسبغها على أبويك إبراهيم وإسحاق النبيَّين الكريمين، إن ربك يعلم من يستحق الاصطفاء، حكيم في جعل فضله فيمن يشاء، فبعلمه اطلع، وبحكمته وضع.

(٧) ﴿ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾

لقد كان في قصة يوسف وإخوانه دليل ظاهر وعبرةٌ واضحة على حكمة الله وقدرته لمن سأل من العالم عن أخبارهم، وأحبَّ معرفة قصتهم، وهذه القصة أحسن القصص في التاريخ على الإطلاق.

(٨) ﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾

إذ قال إخوة يوسف بعضهم لبعض: إن يوسف وأخاه الشقيق أحبُّ إلى أبينا منا، فهو يؤثرهما بالإقبال والعناية والحظوة أكثر منا، ونحن أسرة واحدة لا فرق بيننا، إن أبانا وقع في غلط عظيم بيّن؛ حيث لم يعدل بيننا في الحب، ونحن أبناء رجل واحد، ولا فضل لأحد منا على أخيه.

(٩) ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾

اقتلوا يوسف أو ضعوه في ديار مجهولة بعيدة عن القرى، يصفُ لكم ودٌّ وحب أبيكم ويخصكم بالإقبال والحفاوة، ولا يجد من يشغله عنكم، وبعد قتل يوسف وإبعاده تتوبون إلى الله من فعلكم، وباب التوبة مفتوح، أي أنهم حدَّثوا أنفسهم بالتوبة قبل الذنب، وبعد هذه الفعلة يصلح حالكم مع ربكم ومع أبيكم.

(١٠) ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾

قال أحدهم مشيراً عليهم: لا تقتلوا يوسف وضعوه في جوف البئر، علَّ بعض المارة المسافرين يلتقطونه فنستريح منه ولا نتحمَّل قتله إذا عزمتم على هذا الفعل، وهذا أرحمهم بيوسف فكيف بسواه؟!

(١١) ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾

قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب بعد أن اتفقوا على نفي يوسف: يا أبانا، ما لك لا تجعلنا أمناء على أخينا يوسف؟ لماذا تشك في حبنا ونصحنا له وحبنا له الخير ونحن سوف نحفظه ونمنحه المودة ونصدق في رعايته.

(١٢) ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

أرسل يوسف معنا إذا ذهبنا نرعى الغنم غداً ينعم بأكل ما طاب من الثمار، ويرعى معنا الأغنام، ويلعب بالمسابقة والرمي واللعب المباح، ونحن سوف نحفظه من كل ما يخاف. ومن مأمنه يُؤتى الحذر.

(١٣) ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾

قال لهم أبوهم يعقوب: إنه يدخل الألم على قلبي مفارقة يوسف، وأخشى أن يأكله الذئب؛ ففتح لهم هنا باب الاعتذار بالذئب، ثم قال: وأنتم متشاغلون عنه باللعب لاهون بالسباق؛ فالتمس لهم العذر قبل الواقعة.

(١٤) ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

قالوا لأبيهم: والله إن الذئب لو أكله ونحن جماعة قوية وفينا شجاعة فإنه لا خير ولا منفعة ولا رجولة فينا، وهذا لا يكون أبداً، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

(١٥) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

فأرسل يعقوب يوسف مع إخوانه، فلما ساروا به وأبعدوا في الصحراء أزَّهم الشيطان واتفقوا على وضعه في البئر، ولكن الله أوحى إلى يوسف بأنه سوف ينجو ويخبر إخوانه بما فعلوا به، وهم لا يدرون بذلك الأمر، وما أعظم رعاية الله ليوسف، حيث أوحى إليه وآنسه وحده وأنزل عليه السكينة وبشَّره بالفرج وثبته في الامتحان، فإذا كان الله معك فمن تخاف؟ وإذا كان الله ضدك فمن ترجو؟ وإذا لاحظتك عيون الرعاية فنم في كنف العناية، والكربات أمن في كهف الولاية.

(١٦) ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾

وجاء أبناء يعقوب بعد وضع يوسف في البئر إلى أبيهم وقت العشاء يبكون على يوسف ويظهرون الحزن والجزع، وهو مشي القاتل في جنازة المقتول، فيظهر التباكي من البكاء عند الأذكياء، وكم من باك شاكٍ وهو ظالم؟ وكم من ساكت غافل وهو مظلوم فلا يغتر بالظاهر.

١٧ ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾

قال إخوة يوسف: يا أبانا، إنا جرينا وتسابقنا وتركنا يوسف عند طعامنا وثيابنا في محل إقامتنا وفي محل آمن، فليس الخطأ منا وما غبنا عنه كثيرًا، فخلفنا الذئب عليه فأكله وأنت لا تصدقنا أبدًا فيما قلنا ولو كنا معروفين بالصدق؛ لأنك تتهمنا وتغالي في حب يوسف، وهذا التوجس منهم من باب: كاد المريب أن يقول خذوني، ومن ساء فعله ساء ظنه.

١٨ ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

وأتوا بثوب يوسف ولطّخوه بالدم وليس بدم يوسف، وجعلوا ذلك شاهدًا على صدقهم، فكان دليلاً على كذبهم؛ لأن القميص كان سليمًا لم يمزق، فقال يعقوب بعدما أراه الله بنور البصيرة زيف ما قالوا: هذا كذب منكم، ولكن الشيطان زين لكم، وأنفسكم الأمارة بالسوء حسنت لكم أمرًا قبيحًا وتدبيرًا سيئًا في يوسف، فسوف أصبر صبرًا جميلاً لا تَسَخُّط فيه من الخالق ولا شكوى فيه للمخلوق، والله أستعينه على احتمال هذا المصاب الذي دبرتموه، وأتوكل عليه في دفع ما تصفونه من الكذب.

١٩ ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

وأتت قافلة مسافرة، فأرسلوا أحدهم يأخذ لهم ماءً من البئر، فلما أنزل دلوه في البئر تعلق به يوسف، فصاح واردهم: يا بشرى هذا غلام له شأن، وأخفى إخوة يوسف أمره وكانوا قريبين منه، ولم يخبروا أنه أخوهم، وقالوا: هذا غلام للبيع من الرقيق والله عليم بما يعملون لا تخفى عليه خافية.

٢٠ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾

وباع أهل القافلة يوسف بثمن قليل من الدراهم وكانوا زاهدين فيه ليس لهم رغبة في بقائه معهم، يريدون التخلص منه؛ إذ لا يعرفون قدرته ولا يدركون مكانته.

٢١ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وسارت القافلة به إلى مصر فاشتراه العزيز (وزير مصر) منهم، وأوصى زوجته أن تحسن ضيافته وتكرم وفادته، لعله ينفعهم في الخدمة أو يقوم مقام الولد، وكما أنجى الله يوسف وجعل وزير مصر يكرمه، كذلك مكّن الله ليوسف في مصر وجعله يشرف على خزائنها وكنوزها؛ وليعلمه الله تأويل الرؤى فيخبر الناس بما يرون في المنام، والله غالب على أمره لا يرده راد ولا يمنعه مانع، نفذ قضاؤه كما شاء، ووقع حكمه كما أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أسرار القضاء، وبأن الأمر بيد الواحد الأحد؛ فيجهلون أسرار القدرة ومقاصد الحكمة.

٢٢ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ولما وصل يوسف إلى تمام القوة في الشباب منحه الله الفهم والعلم والإصابة في الحكم، ومثل هذا التكريم من الله ليوسف على حسن عمله يكرم الله كل محسن على إحسانه، وفيه تسلية للرسول ﷺ وعزاء فيما يلقاه.

٢٣ ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

ودعت زوجة العزيز يوسف بزينة وإغراء إلى نفسها وهو في بيتها، وهي ذات منصب وجمال ومال، وهو شاب عزب غريب أجمل الناس، ثم إنها أغلقت الأبواب، وهي التي تطلبه، ومع ذلك اعتصم بالله وانتصر على نفسه وهواه، وقالت له: هلم وأقبل إليّ، فردّ عليها بقوله: معاذ الله، ألتجئ إليه، أستجير به من هذا الفعل المشين المحرم الذي فيه

خيانة لله، ثم لسيده في أهله وقصره، فهو أكرم نُزلي، وأحسن وفادتي، فكيف أقابل الجميل بالقبيح؟! هذا ظلم، والظالم لا يوفق ولا يُعان بل يخذل ويخسر.

(٢٤) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

ولقد أرادته ومالت نفسها ليوسف تطلب إليه ما تطلب المرأة من الرجل، وحدَّث نفسه بها وخطرت له خاطرات ولم يعزم، وقد رأى يوسف آية من آيات الله وبرهانًا يزجره عن فعل الفاحشة لطفًا من الله؛ ليحصنه من فعل القبيح وعمل الزنا؛ لأن يوسف من الصادقين في طاعة الله، المخلصين له العبادة، المصطفين للنبوة، المطهرين من الدنس، وفي هذا أعظم انتصار على النفس بتقوى الله.

(٢٥) ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وهرب يوسف إلى الباب يريد الفرار منها، وأسرعت تريد الإمساك به، وسحبت قميصه فمزقته من ورائه لتمنعه من الخروج، وفجأة وجدا زوجها عند الباب، فصاحت متظلمة وهذا من كيدها: ما جزاء من أراد أن يفعل الفاحشة بزوجتك إلا أن تسجنه وتعزره بعذاب موجع يردعه عن فعله المشين؟

(٢٦) ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فردَّ يوسف وقال لسيده: هي التي أرادتني وطاردتني وطلبت إليَّ ذلك، وشهد أحد من الدار، قيل: صبي من أهل المرأة؛ ليكون أبعد للتهمة: إن كان قميصه مُزِّق من الأمام فصدقت في دعواها وكذب هو فيما قال؛ لأنها دليل على أنه كان يطاردها.

(٢٧) ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وإن كان قميص يوسف مُزِّق من خلفه فهذا دليل على أنها كانت تطارده فكذبت في دعواها وصدق هو فيما قال، وانظر كيف يسَّر الله الحكَمَ من أهل الدار بعلامة أظهرت صدق يوسف.

(٢٨) ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

فلما شاهد الزوج قميص يوسف مُزِّق من خلفه علم أنها كانت تطارده وهو يهرب، وهذا دليل على براءة يوسف، فقال لزوجته: هذه الحيلة والشكوى منك ضد يوسف من جملة مكركن أيتها النساء، إن مكركن عظيم لا يُطاق؛ لأنه يقع بخفاء مع البكاء والادعاء.

(٢٩) ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾

وقال العزيز: يا يوسف، لا تتكلم بما حصل ولا تذكره لأحد حفاظًا على سمعة القصر، وأنت - أيتها الزوجة - اطلبي إلى ربِّك الغفران إن كنتِ مذنبة في مراودة يوسف عن نفسه وكذبك عليه، والأسلم دائمًا الإعراض عن الخوض في مسائل الأعراض.

(٣٠) ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

وانتشر الخبر في المدينة، فقالت النساء منكرات على زوجة العزيز: كيف تراود هذه المرأة في شرفها ومنصبها غلامها وتخون زوجها، إنها ما فعلت هذا إلا بعد ما وصل حب يوسف غلاف قلبها واستقر في سويدائه، إنَّا نراها في فعلها القبيح في خطأ ظاهر وفعل شائن بيّن.

٣١ ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾

فلما سمعت امرأة العزيز بأن نساء المدينة يغتبنها ويستعملن الحيلة في نشر ما جرى بينها وبين يوسف دعتهن إلى زيارتها في القصر، وهيأت لهن وسائد يتكئن عليها، وأحضرت فاكهة وأعطت كل امرأة سكينًا بيدها تقطع بها الفاكهة، ثم أمرت يوسف أن يخرج فجأة على النساء، فلما رأين حسنه الظاهر وجماله الباهر، أعظمنه غاية الإعظام، فدُهِشن من حسنه وجرحن أيديهن من شدة الذهول، وقلن من العجب والحيرة والانبهار: معاذ الله، والله لا يكون هذا من جنس البشر، فما رأينا مثله أبدًا!! فجماله غير معهود وحسنه غير موجود، ما هذا إلا ملك من الملائكة شريف مطهر وليس ببشر.

٣٢ ﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾

فقالت زوجة العزيز بعدما رأت ذهول النساء من حسن يوسف الأخاذ وجماله الجذاب: هذا الذي سلب لبي وأذهل قلبي مثلما فعل بكن، فلا لوم علي بعد اليوم، ولقد لاحقته وحاولت إغراءه وأنا التي طلبته، ولئن لم يستجب لي ويوافق على مرادي لأحبسنّه عقابًا لامتناعه، ولأجعلنه ذليلاً مهانًا لإصراره على رأيه في عدم مطاوعتي. وإنها والله فتنة عظيمة عرضت ليوسف ما بين إغراء من امرأة حسناء في شرف باذخ ومنصب عالٍ وطلب منها ملح، ثم تهديد شديد ووعيد أكيد، وهو غلام مستضعف وغريب مضطهد، ومع هذا يعتصم بالواحد الأحد، فيحيطه بالعناية، ويحفظه بالرعاية ويسدل عليه رداء الولاية.

٣٣ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾

قال يوسف معتصمًا بالله: يا رب، دخولي السجن أحب إلى قلبي وأهون عليّ من ارتكاب الفاحشة، وإذا لم تعنِّي على نفسي وتقهر هواي وتمنعني من حبائل النساء أمل إليهن وأقع في هواهن، وأُصبح من السفهاء الذين يرتكبون الحرام، ويقعون في الآثام؛ لجهلهم بالأحكام.

٣٤ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

فأجاب الله دعوة يوسف لإخلاصه وصدقه وحفظه من فتنة امرأة العزيز وصويحباتها؛ إن الله يسمع دعاء الداعي ويعلم صدقه من كذبه، وسامع للأصوات عالم بالأعمال والنيات.

٣٥ ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾

ثم ظهر للعزيز وأعوانه أن من المصلحة سجن يوسف مع عفته ونزاهته منعًا للقيل والقال، وجعلوا مدة السجن زمنًا غير محدد قد يطول وقد يقصر، وهذا من رفعة الله ليوسف بالبلاء؛ ليرفع درجته وتعلن براءته، ويتم الاصطفاء عن طريق المعاناة واللأواء.

٣٦ ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

ودخل مع يوسف في السجن فتيان من فتيان الخدمة عند الملك، فسأله أحدهما عن رؤياه في المنام إذ يعصر عنبًا ليكون خمرًا، وقال الثاني: إني رأيتُ أنني أحمل فوق راسي خبزًا تأكل الطير منه، أخبرنا بتفسير ما رأينا؛ لأننا رأيناك ممن صدق في عبادته وأحسن في طاعته مع كمال الخلق وجمال المروءة.

٣٧ ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾

قال يوسف للفَتَيين: قبل أن يأتيكما أي طعام مما رزقكما الله أخبركما به – بإذن الله – قبل وصوله إليكما، وهذا مما علمنيه ربي من تعبير الرؤى؛ لأنني آمنت بالله وحده وأخلصتُ له العبادة وكفرت بكل ما يُعبد من دون الله،

وهجرت كل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر الذين ينكرون البعث والنشور والحساب والجزاء. وانظر كيف أدْخَلَ يوسف دعوته إلى التوحيد في تعبيره للرؤى؛ لأنها أعظم قضية.

٣٨ ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

واتبعتُ دين آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب (ويسمي الجد أبًا) فأفردتُ ربي بالعبادة وأخلصتُ له الدين، ما ينبغي لنا أن نتخذ مع الله شريكًا آخر، ذلك الدين القيم من توحيده - سبحانه - وعدم الإشراك به مما تفضل الله به علينا وعلى الناس، ولكن غالب الناس لا يشكرون الله على نعمة الهداية للإيمان، وأكثرهم لا يقرون بوحدانية الله.

٣٩ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾

وقال يوسف للغلامين اللذين كانا معه في السجن: أعبادة آلهة مخلوقة متفرقة خير للإنسان، أم عبادة الله الواحد القهار؟ بل عبادة الله؛ لأنه الخالق الرازق المستحق للعبادة، وانظر كيف شرح لهم الإيمان بالله ودعاهم إلى التوحيد قبل تعبير الرؤيا؛ لأنه أجلُّ وأهم.

٤٠ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

ما تعبدون من دون الله إلا أسماء لا حقيقة لها ولا معاني لمدلولها، فهي جامدة لا تنفع ولا تضر، صيرتموها أنتم وآباؤكم أربابًا من دون الله بزعمكم، وهي صماء بكماء، ما أنزل الله على صحة عبادتها من دليل قاطع ولا برهان ساطع، فالحكم في السموات والأرض لله وحده لا شريك له، فهو الذي يقضي بالعدل ويفصل بالحق، أمر أن لا توحدوا غيره ولا تعبدوا سواه، فله الانقياد التام، والخضوع الكامل، وهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم الذي أتت به الكتب، ودعت إليه الرسل، ولكن غالب الناس يجهلون حقيقة ذلك، فلا يخلصون لله العبودية، وانظر كيف بسط الدعوة للتوحيد؛ لأنها الأصل الأعظم في حياة العبد.

٤١ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾

يا صاحبي السجن اسمعا تفسير رؤياكما، أما الأول الذي رأى أنه يعصر العنب في المنام فإنه يفرج عنه من السجن، ويصبح ساقيًا للخمر عند الملك، وأما الثاني الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزًا فإنه يحكم عليه بالإعدام ويقتل ويترك مصلوبًا فتنهش الطير من رأسه وتأكل من لحمه، فرغ وانتهى الأمر الذي تسألان عنه من تفسير الرؤى، وقد وقع الأمر كما أخبر وما تأخر.

٤٢ ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾

وقال يوسف للساقي الذي نجا من القتل وذهب في خدمة الملك: اذكر اسمي عند سيدك الملك واشفع لي وأخبره أني محبوس ظلمًا بلا جرم، عسى أن يأمر بإطلاقي ويكفي السجن عذابًا وكربة، فأنسى الشيطان الغلام أن يذكر ذلك للملك، فمكث يوسف عدة سنوات محبوسًا، وقيل هذا بلاء من الله ليوسف؛ لأنه طلب من الغلام الشفاعة عند ربه وهو الملك، والواجب أن يلتجئ يوسف إلى ربه ملك الملوك سبحانه.

٤٣ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾

وقال ملك مصر: يا قوم، إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات ضعيفات هزيلات، ورأيتُ سبع سنبلات خضر مملوءة حبًا، ورأيتُ سبع سنبلات يابسات، أيها الأشراف: فسِّروا لي الرؤيا إن كان لكم علم بها، والله إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه وسوف تكون هذه الرؤيا سببًا للإفراج عن يوسف ﷺ.

(٤٤) ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾

قال الأشراف: رؤياك هذه أخلاط من الأحلام لا حقيقة لها ولا تفسير، ولسنا نعلم تفسير الأحلام.

(٤٥) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴾

وقال الغلام الذي نجا من القتل وصار ساقيًا للملك وتذكر طلب يوسف إليه بعد مدة وقد نسي: أنا أستطيع أن آتيكم بتفسير هذه الرؤيا، فدعوني أذهب إلى يوسف ليعبرها لي.

(٤٦) ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾

ولما لقي الغلام يوسف قال له: يوسف أيها الصديق عبر لنا رؤيا رجل رأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سنبلات خضر ورأى سبعًا يابسات؛ لعلي أعود إلى الملك وأصحابه فأخبرهم بتفسير الرؤيا؛ لعلّهم ينتفعون بتأويلها ويعلمون فضلك وعلمك.

(٤٧) ﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴾

فأجابه يوسف وفسَّر له الرؤيا، وهي أنكم تزرعون سبع سنين متتابعة مجتهدين في الزراعة ليكثر الإنتاج، فإذا حصدتم الزرع فاتركوا الحب في سنبله ليبقى محفوظًا من السوس وغيره من الآفات إلا قليلاً تأكلونه في طعامكم، وهذه نظرية الادخار ودراسة عوامل التغير الاقتصادية.

(٤٨) ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴾

ثم يأتي بعد هذه السنين الخصبة سبع سنين فيها جدب وقحط لا أمطار فيها ولا ثمار، فكلوا فيها ما ادخرتموه من حبوب السنين الخصبة.

(٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴾

وبعد السنين العجاف المجدبة تأتي سنة الأمطار والثمار، ويأتي الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، وتُعْصَر في هذه السنة الثمار من كثرة الخيرات والثمار.

(٥٠) ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾

فلما سمع الملك بتعبير الرؤيا طلب من أعوانه إحضار يوسف من السجن، فلما جاء رسول الملك إلى يوسف في السجن وطلب منه الحضور للملك، قال له يوسف: عد إلى الملك واسأله لماذا جرحت النسوة أيديهن لما خرجتُ عليهن؟ وما السبب في ذلك؟ لتظهر براءته وتكتشف الحقيقة للناس، إن ربي يعلم بخديعة النساء ومكرهن معي ولا تخفى عليه خافية، وسوف يظهر الحق - سبحانه - وما ابتلي العبد بمثل فتنة النساء، والسعيد من سلمه الله كيوسف ﷺ.

(٥١) ﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال الملك للنساء اللواتي جرحن أيديهن بالسكاكين: ما شأنكن وأخبرنني لماذا راودتن يوسف عن نفسه يوم الضيافة في القصر؟ هل طاوعكن وهل وجدتم منه رغبة فيكن؟ قلن: معاذ الله، وكلا والله، والله ما علمنا منه أدنى ريبة ولا ما يعيبه، عندها نطقت زوجة العزيز بالحق صريحًا فقالت: الآن ظهر الحق بعد الخفاء، وبان الصدق بعد الالتواء، أنا والله حاولت فتنته وأنا حرصتُ على إغرائه وإغوائه؛ فأبى واعتصم بالله، ووالله إنه صادق في كل ما قال وإنه مظلوم.

(٥٢) ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾

وهذا الذي أقوله وأشهد به وأقرُّ به على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالكذب عليه، ولم تقع مني الفاحشة، وأنا أعترف أنني راودت يوسف وأقررت بذلك؛ لتظهر براءتي وبراءته، وقيل: ليعلم يوسف أني لم أخنه وهو غائب وأدعي عليه كذبًا، والله لا يوفق كل خائن ولا يسدد دعواه ولا يلهمه الحجة، ولا يدلُّه على الهدى، فلا رشد لخائن، ولا فلاح لكذاب.

(٥٣) ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

قالت زوجة العزيز: وأنا لا أزكي نفسي ولا أبرئها، فإن النفس تأمر صاحبها دائمًا بعمل السيئات وارتكاب المعاصي، فهي جامحة إلا من ألجمها بلجام التقوى، وهذا يحصل لمن عصمه الله وحفظه، والله كثير الغفران لعباده إذا استغفروه، رحيم بهم لا يعاجلهم بالعقاب، بل يمهلهم ويوفقهم للمتاب.

(٥٤) ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾

فلما بلغت ملك مصر براءة يوسف وتقواه وشرف أخلاقه: قال: عليَّ به أجعله من أهل مودتي ومن أقرب الناس مني؛ لينال حظوتي وأستفيد من مشورته، فلما حضر يوسف وكلمه الملك وعرف رجاحة عقله وحسن أدبه، وعظيم أمانته وطهارة عرضه ونزاهته قال له: إنك يا يوسف، عندنا عظيم المكانة، مؤتمن على كل شيء. وهذا ملك من ملوك البشر جازى يوسف أحسن الجزاء على فضله وورعه وصلاحه، فكيف بملك الملوك -عز وجل- الذي يحب التوابين ويحب المتطهرين والصادقين.

(٥٥) ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾

وأحبَّ يوسف أن يعبد ربه بنفع عباده وإقامة العدل فيما بينهم ودعوتهم إلى الهدى، فقال للملك: اجعلني واليًا على الخزائن فإني أمين على ما استودعت، عليم بالحساب والكتاب، وصاحب بصيرة في الادخار والصرف، وفي الآية طلب المنصب لمن تحققت فيه الأهلية وتجرد عن الهوى وكان أمينًا عالمًا ضابطًا قائمًا بحقوق المسؤولية.

(٥٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

ومثلما منَّ الله على يوسف بالخروج من السجن والبراءة من التهمة وتتابع النعم من العلم والتأويل والأمانة، مكَّن الله له في أرض مصر يتجول فيها حيث يشاء، ويحكم بما أراه الله، والله يهب من شاء من عباده رحمة تهديه، ورعايةً تتولاه، وعنايةً تحرسه إذا اتقاه العبد وخافه، وهو - سبحانه - لا يبطل عمل المخلص الصادق، بل يثيبه أجلَّ الثواب مع حسن العاقبة وطيب العيش والتسديد في كل أمر.

(٥٧) ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾

ولثواب الله في الآخرة لمن أحسن أعظم من ثواب الدنيا؛ لأنه خير وأبقى، وهو حاصل لمن حقق الإيمان بالله، ولزم تقواه بفعل ما أمر واجتناب ما نهى.

(٥٨) ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾

وأتى إخوة يوسف من فلسطين إلى مصر بعد أن مسَّهم الفقر، وحلَّ بهم الجدب لطلب الطعام، فلما دخلوا على يوسف عرفهم ولم يعرفوه لطول الزمن وتغير الحال واختلاف صورته، وهو دليل على تمام فطنته ﷺ، فهم أيضًا تغير حالهم وتغيرت صورهم، ولكنه كان أذكى وأعرف.

(٥٩) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾

ولما أحسن وفادتهم، وأكرم ضيافتهم، وأجزل لهم ما طلبوه، ومنحهم فوق ما أملوا شأن البررة الكرام، وقد أخبروه أن لهم أخًا من أبيهم تركوه في أرضهم، طلب منهم يوسف إحضار أخيهم من أبيهم، وهو شقيقه، وذكّرهم بالجميل من إيفاء الكيل لهم والإكرام، فهو خير من أكرم الضيف، وأتحف الوافد، فمن حقه أن يُجَابَ طلبه.

٦٠ ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾

وقال يوسف لإخوته: فإذا لم تحضروا أخاكم من أبيكم فلن أكيل لكم طعامًا بعدها، وليس لكم عندي ضيافة، فلا تقربوا قصري ولا تدخلوا داري.

٦١ ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾

قال إخوته له: سنحاول كل محاولة، ونبلغ طاقتنا في إقناع أبينا في إرسال أخينا معنا ونجتهد في ذلك.

٦٢ ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وأمر يوسف غلمانه: أن يجعلوا ثمن ما أخذه إخوانه في أمتعتهم سرًا، عسى أن يروا أن الثمن قد أُعيد إليهم مع البضاعة؛ ليُعرف كرم يوسف فيعودوا إليه طمعًا في المزيد؛ وليحرصوا على إحضار أخيهم؛ ولأن الإحسان يقيد الإنسان.

٦٣ ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

فلما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم، وأخبروه بإكرام العزيز وحسن خلقه وكريم شمائله، وأنه لن يكرمهم مرةً أخرى، ولن يبيع لهم طعامًا إلا إذا أحضروا أخاهم من أبيهم، فأرسله معنا إلى مصر لمقابلة العزيز حتى نحضر لكم الطعام، ونعاهدك على حفظ أخينا وحسن القيام عليه.

٦٤ ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

قال لهم أبوهم: كيف آمنكم على (بنيامين) وأنتم غدرتموني في يوسف من قبله وقد أمنتكم عليه فلن أثق بوعدكم، ولن أُصَدِّق كلامكم، ولن أركن لحفظكم، لكن أركن لحفظ الله خير الحافظين، فبرحمته يحفظ يوسف، ويرده عليّ، ومن رحمة أرحم الراحمين أنه يثيب العاصي إذا تاب، ويبدّل سيئاته حسنات إذا أناب.

٦٥ ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾

ولما عادوا إلى أبيهم وفتحوا أوعية الطعام وجدوا ثمن البضاعة الذي دفعوا قد رُدَّ إليهم!! قالوا: يا أبانا، ماذا نطلب أكثر من هذا؟! وماذا نريد فوق هذا الكرم؟ هذه البضاعة والثمن معها قد ردّه العزيز علينا، فثق بوعدنا وأرسل ابنك معنا، لنكتال الطعام لأهلنا، ونحفظ أخانا ويزيدنا العزيز حِملَ بعير له؛ لأن العزيز يوسف ﷺ في الجدب يكيل لكل واحد حِملَ بعير لا يزيد عليه، وهذا يسير عليه سوف يفي به.

٦٦ ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

قال لهم أبوهم يعقوب: لن أتركه يذهب معكم حتى تقسموا لي بالله العظيم أن تعيدوه لي مثلما أخذتموه، إلا أن تغلبوا جميعًا وتهلكوا كلكم فتعذروا، فلما أقسموا له وأعطوه المواثيق المغلظة قال: الله يشهد على ما قلنا، توكلنا عليه، وفوّضنا إليه أمرنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٦٧ ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

وقال يعقوب لأبنائه يوصيهم إذ خاف عليهم من العين لكثرتهم وهيئتهم: يا أبنائي، إذا دخلتم مصر أو دخلتم دار العزيز فلا تدخلوا جميعًا من باب واحد، ولكن تفرقوا على الأبواب وأنا أوصيكم، والمقدر هو الله وحده، فلا راد لقضائه، لكن نأخذ بالأسباب ونتوكل على مسبب الأسباب، فعليه نتوكل وعليه يعتمد كل مؤمن ويثق به كل موحِّد.

(٦٨) ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ولما دخل أبناء يعقوب من عدة أبواب كما أوصاهم أبوهم، ما كان يعقوب يدفع عنهم شيئًا من قضاء الله المحتوم، ولكن كان في نفس يعقوب خوف عليهم من العين، وإن يعقوب لصاحب علم نافع وبصيرة نافذة، وفقه جليل مما أوحاه الله إليه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون عواقب الأمور، وأسرار الأشياء ومقاصد الأحكام، وإنما يعلم ذلك يعقوب ﷺ وأمثاله.

(٦٩) ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

ولما دخل أبناء يعقوب إخوة يوسف على أخيهم يوسف، ضم أخاه بنيامين إليه واختص به عنهم، وقال له سرًا: أنا أخوك من أمك وأبيك، فلا تخف ولا تحزن ولا يصيبك غم بسبب ما صنعوا بي، فالله معنا والعواقب حميدة، واكتم أمرنا فسوف يلطف بنا الله ويتولانا عز وجل.

(٧٠) ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾

فلما جهز يوسف إخوانه للعودة إلى أبيه وحمَّل جمالهم بالطعام، أمر العمال بوضع المكيال في كيس أخيه (بنيامين) من حيث لا يدري أحد!! فلما انطلقوا عائدين صاح صائح يقول: يا أصحاب العير المحمّلة، إنكم لسارقون. والمعنى قفوا لكشف حقيقة ما جرى.

(٧١) ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾

قال أولاد يعقوب وقد عادوا إلى موضع الصوت: ما الذي تفقدونه وتتهموننا بسرقته؟

(٧٢) ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾

قال المنادي من جهة العزيز: لقد فقدنا مكيال الملك، ولمن أحضره لنا جائزة مقدارها حِملُ بعير من الطعام، وأنا أضمن له ذلك وأتكفَّل به جزاء دلالته على المكيال.

(٧٣) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴾

قال إخوة يوسف: أنتم تعلمون علم اليقين مما رأيتموه منا وعرفتموه من حالنا ما أتينا من أرضنا إليكم لعمل الفساد من سرقة ونحوها، وليس من أخلاقنا أن نسرق فنحن من بيت ديانة وأمانة وصيانة.

(٧٤) ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾

قال عمّال يوسف لأبناء يعقوب: فما هي عقوبة السارق عندكم إذا ظهر كذبكم وتبيّن أنكم سارقون؟ ليظهر الحكم على ألسنتهم ليكون أقطع للخصام.

(٧٥) ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

قال إخوة يوسف: جزاء السارق عندنا إذا وُجد المسروق في متاعه أن يسلم بما سرق إلى من سرقه؛ ليكون رقيقًا عنده، فيؤخذ مقابل ما سرق، فجزاء السارق الاسترقاق، وهذا جزاء لكل من ظلم نفسه وغيره فسرق.

(٧٦) ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

وعادوا بإخوة يوسف إلى يوسف وبدأ يوسف يبحث بنفسه في أمتعتهم قبل متاع شقيقه إبعادًا للتهمة وإثباتًا للحجة، وهو من حسن التدبير وذكاء التصرف، حتى انتهى إلى وعاء أخيه فاستخرج الإناء منه، وهذا التيسير من الله، تدبير

محكم ليوسف ليصل إلى أخذ أخيه، وهو مما علّمه الله يوسف، وليس له أن يأخذ أخاه وَفْقَ شريعة ملك مصر؛ لأنه ليس عندهم أخذ السارق وتملكه مقابل ما سرق، لكن الله أراد أن يتم هذا الأمر فهيأ أسبابه، فجعلهم يحتكمون إلى شريعة إخوان يوسف ليأتي الحكم على ألسنتهم، وينتهي الجدال، والله يرفع مكانة من أراد من خلقه، كما رفع مكانة يوسف على إخوانه، وفوق كل صاحب علم أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله - تعالى - فله العلم الكامل المطلق - سبحانه - عالم السرِّ وأخفى، وعالم الغيب والشهادة، فعلى كل عالم أن يتواضع ففوقه أعلم منه.

(٧٧) ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

وقال إخوة يوسف: إن كان أخونا هذا قد سرق فقد سرق قبله أخٌ له شقيق - يقصدون يوسف ﷺ - كذبًا منهم على يوسف، فأخفى يوسف ما سمعه من الكلام في نفسه، وأعرض عن هذا الخبر، وقال في نفسه: أنتم أسوأ منزلة ممن اتهمتم، فأنتم عققتم الوالد، وضيَّعتم الأخ، وعصيتم الخالق، والله أعلم بما تصفون من الزور والكذب والخداع، لا تخفى عليه خافية.

(٧٨) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

فقالوا في انكسار وتذلل: يا أيها العزيز: إن أخانا هذا الذي أخذته له والدٌ كبير طاعن في السن، وهو متعلق بهذا الابن ولا يستطيع أن يفارقه، فاجعل واحدًا منا بدلاً من بنيامين ليكون عوَضًا عنه في السرقة، إنا نراك من أحسن الناس في الأخلاق والتعامل، وقد أحسنت معنا وأكرمت نزلنا.

(٧٩) ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾

قال يوسف: أعوذ بالله وأستجير به وأعتصم أن أظلم أحدًا فآخذه دون ذنب؛ ولذلك لن آخذ إلا من سرق مكيالي على حكمكم أنتم، وهذا هو العدل والإنصاف، وهو على قاعدة: ولا تزر وازرة وزر أخرى.

(٨٠) ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾

فلما أيس أبناء يعقوب من إجابة يوسف لهم على ما سألوه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه، انفصلوا عن الناس وتشاوروا فيما بينهم، فقال أكبرهم سنًا: ألم تذكروا أن أبانا يعقوب قد استحلفنا وأخذ علينا الأيمان المغلظة بأن نعيد بنيامين إلا أن نُغلب جميعًا، وأنتم تعلمون ما فعلنا بيوسف من قبل بالغدر، فالآن اجتمعت مصيبة على أبينا إلى مصيبة، فلن أفارق مصر حتى يأتيني السماح من أبي بالخروج منها والعودة إليه، أو يختار الله لي إما يأذن أبي، أو العودة بأخي، أو الموت، والله خير من حَكَم في كل قضية، وعَدَلَ في كل أمر، وفَصَلَ في كل خلاف.

(٨١) ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾

عودوا إلى أبينا يعقوب وأخبروه بما صار، واكشفوا له حقيقة ما وقع، فابنه بنيامين قد سرق مكيال الملك، ونحن نشهد على ذلك، فقد رأينا المكيال بأعيننا في وعائه، ولم يكن عندنا علم من الغيب أنه سوف يسرق يوم عاهدنا أبانا على ردّه إليه، فالأمر خرج من أيدينا وهو فوق طاقتنا، والذنب ذنب أخينا لا ذنبنا.

٨٢ ﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

واسأل يا أبانا أهل مصر ومن رافقنا في القافلة ممن شهد القصة إذا كنت متهمًا لنا، ووالله إننا صدقنا فيما قلنا، ولكن أقول من سبق منه الكذب لا يُصدَّق، وإن صدق!!.

٨٣ ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

فلما عادوا إلى يعقوب وأطلعوه على ما جرى قال: ليس الأمر كما قلتم!! بل زيَّنت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء مكيدةً أخرى دبرتموها وأنتم أهل المكائد، وقد سبق منكم المكيدة مع يوسف، فلا حيلة لي إلا الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى إلا لِلَّه، عسى الله - وهو الرحمن الرحيم - أن يرحم ضعفي وشيبتي، وأن يردَّ أبنائي الثلاثة وهم: يوسف وشقيقه وأخوهم الكبير الذي تخلَّف من أجل أخيه، إن ربي عليم بحالي وسؤالي، حكيمٌ في قضائه لا يُتهم، وفي حكمه لا يظلم، وفي تدبيره وتصريف شؤون خلقه، وفي الآية: أنه كلما اشتد الخطب قَرُب الفرج، وكلما تكاثف ليل المحنة بدا الصباح، فكن أوثق ما تكون بالفرج آيس ما تكون منه.

٨٤ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾

وأعرض يعقوب عن أبنائه وازداد همُّه وغمُّه وكثر أسفه وبكاؤه، وقال: يا حسرتا على يوسف، وأبيضَّت عيناه من كثرة البكاء وشدة الحزن وكثرة السهر، وذهب سوادهما، ولكنه كتم ذلك تصبرًا لأمر الله وتجلُّدًا أمام الشامتين، وانظر كيف عاد به الحنين والذكرى إلى يوسف وحده؛ لأنه نكئت جرحه القديمة في يوسف بذهاب أخيه.

٨٥ ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾

فقال بنوه: تالله إنك لا تزال تذكر يوسف دائمًا وتعيد وتبدي في خبره ويشتدُّ حزنُك عليه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك فعلاً، فتصبَّر فما مضى قد انقضى، وما فات مات.

٨٦ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

قال يعقوب يجيب أبناءه: أنا لا أرفع شكواي إلا إلى ربي، ولا أخبر بهمي وحزني إلا إلهي وحده، فهو كاشف الضر والبلاء، الذي يأتي بالسراء بعد الضراء، ويعقب بعد الشدة رخاء، وأنا أعلم من قرب رحمة الله وفرجه ولطفه ويسره ما لا تعلمون؛ لثقتي بربي وتمام معرفتي بجلاله وكماله وكرمه وحسن نواله.

٨٧ ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

قال يعقوب لأبنائه: يا أبنائي، عودوا إلى مصر فتتبعوا أخبار يوسف وأخيه ولا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله، فما يقطع الرجاء في رحمة الله إلا من جحد قدرته، وكفر به، فينبغي على الإنسان حسن الظن بربه، بل عليه كلما اشتد الكرب وادلهم الخطب أن يكون أكثر رجاء وأملاً في رحمة الله وقرب فرجه.

٨٨ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾

فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف وقالوا: يا أيها العزيز، أصابنا وأهلنا الجدب والقحط، وانقطع عنا الغيث فلا زرع ولا ضرع، ومعنا أثمان رديئة قليلة، فزد في الكيل على عادتك وهب لنا من الطعام بلا ثمن؛ كرمًا منك، فإن الله يثيب من تفضَّل على خلقه وأعان المحتاجين من عباده. وفيه ما كان عليه الأنبياء من شظف العيش والفقر، فهؤلاء

أبناء يعقوب ﷺ وهذه حالتهم من العوز والحاجة، وهذا من هوان الدنيا على الله حيث يعطيها أعداءه ويمنعها أولياءه.

(٨٩) ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾

فلما سمع يوسف كلام إخوانه دخلته الرحمة بهم والإشفاق على أبيه والحنين إلى أهله، وقال لهم: هل تذكرون الذي فعلتموه بيوسف وأخيه من الأذى في حالة جهلكم، وفيه إعذارهم بالجهل كرمًا من يوسف؛ لأنه كريم، والكريم يلتمس الأعذار، ويقيل العثار.

(٩٠) ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

قال إخوة يوسف له: هل أنت يوسف، فقد شكّوا ولم يتحققوا؛ لأنه لا يعرف ما فعلوه بيوسف إلا الله ثم يوسف، فقال يوسف: نعم أنا يوسف وهذا شقيقي قد رحمنا ربنا واختصنا بفضله، فجمع بيننا بعد الفراق، إنه من يتق الله بفعل المأمور، وترك المحذور، ويصبر على المقدور، فإن الله لا يضيع ثواب المحسن في الدنيا والآخرة؛ فيجعل العاقبة والعز والنصر له في الدنيا والفوز والفلاح والنعيم في الآخرة.

(٩١) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾

قالوا: تالله لقد فضّلك الله علينا ورفعك بالعلم والحلم والفهم فأنت أعلى منا منزلة في أمور الدنيا من الملك والمجد والجاه، وفي أمور الآخرة من الصدق والتقوى وخصال الخير، ونحن كنا خاطئين بما تعمدناه من الأذى بك وبأخيك، وما فعلنا من عقوق الوالد وقطيعة الرحم وعصيان الرب سبحانه.

(٩٢) ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

قال لهم يوسف بمنطق الكريم الحليم: لا لَوْم عليكم، اليوم غفر الله لكم ما فعلتم وسامحكم فيما اقترفتم، فهو أرحم الراحمين لمن تاب؛ لأنه يمحو سيئاته ويعظم حسناته، فيوسف عفا عن حقه، وسأل الله أن يغفر لهم الذنب، فيا له من حلم فاق كل حلم، فيوسف في العفو إمامٌ لمن أتى بعده، وبمثل هذا الخلق يرتفع العبد عند ربه، وينال المجد والسؤدد في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة.

(٩٣) ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وعلم يوسف بذهاب بصر أبيه يعقوب من كثرة البكاء والحزن عليه، فقال لإخوانه: عودوا إلى أبي وخذوا قميصي الذي ألبسه واطرحوه على وجه أبي فسوف يعود بصيرًا بإذن الله، وتعالوا بأهلكم جميعًا؛ ليجتمع الشمل، ويسعد الأهل، ويفرح الكل برحمة الله عز وجل.

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

فلما عادت القافلة من مصر ومعهم قميص يوسف قال يعقوب لأهله إني لأجد ريح يوسف لولا أن تسفهوا في رأيي وتسخروا مني، فهو ذكر ما وجد واحتاط لنفسه؛ حتى لا يسخر منه أحد، وهذه معجزة نبوية ليعقوب، وإذا لم تحتمل أذهان البشر عظمة الخبر لضعف النظر استُحسن التعريض.

(٩٥) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾

قال أهل يعقوب له: تالله إنك مستمرٌ على خطئك القديم في التولّه والتعلق بيوسف وقد انقطع خبره وخفي أمره وأُهمل ذكره.

(٩٦) ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فلما وصل المبشر إلى يعقوب طرح قميص يوسف على وجه يعقوب فأصبح مبصرًا بإذن الله بعدما عمي من البكاء والحزن، فامتلأ البصر بالنور، والقلب بالسرور والبيت بالحبور، وقال يعقوب لمن عنده: أما أخبرتكم أن عندي علمًا من الله لا تعلمونه، وذلك من فضل ربي ورحمته.

(٩٧) ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾

فقال أبناء يعقوب ليعقوب يا أبانا اطلب إلى ربنا أن يغفر ذنوبنا ويستر عيوبنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا، فنحن معترفون بالذنب، مقرون بما فعلنا بيوسف.

(٩٨) ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قال يعقوب لأبنائه: سوف أطلبُ من ربي أن يغفر ذنوبكم، ويتجاوز عن سيئاتكم فإنه كثير الغفران لمن أكثر من الذنوب، يعود بالرحمة على من أناب، ويسدل عفوه على من تاب، وفيه طلب دعاء الرجل الصالح الحاضر وتوخي أوقات الإجابة، فإنه لم يُجبْهم في الحال بل تحرى وقتًا آخر.

(٩٩) ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

وذهب يعقوب وأهله إلى يوسف في مصر، فلما دخلوا على يوسف ضم يوسف إليه أبويه إكرامًا وتبجيلاً، وقال: ادخلوا- بمشيئة الله – أرض مصر وأنتم آمنون لا تخافون من كرب ولا تخشون من خطب، فقد انتهت المخاوف، وانصرمت الأحزان برحمة الرحمن وأمان الملك الديان.

(١٠٠) ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وأجلس يوسف أباه وأمه على سرير الملك الذي يجلس عليه إكرامًا وتوقيرًا ومحبةً وتقديرًا، وحيَّاه أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تبجيلاً وإعزازًا لا عبادة وخضوعًا، وهذا في شريعتهم جائز وهو محرمٌ في الإسلام، فلا يُسجد لغير الله وحده، وقال يوسف لأبيه: قد وقعت الرؤيا وتحققت بهذا السجود الذي رأيته في طفولتي، فقد جعله ربي صدقًا، ومنَّ عليّ وأكرمني بإخراجي من السجن إلى قصر الملك ومن خلف القضبان إلى المجد والسلطان، وأتى بكم من البادية حيث الجدب والقحط إلى مصر حيث رغد العيش وكثرة الخير من بعد أن أفسد الشيطان صلة القربى بيني وبين إخواني، وانظر لكرمه ﷺ حيث لم يعرض بإخوانه؛ لأن المجلس مجلس عفو وصفح ومسامحة، بل جعل الأمر مشتركًا والذنب كله ذنب الشيطان، وهذا شأن الكريم يتناسى الإساءة ويذكر الإحسان، ويتغاضى عن الزلة ويحفظ الجميل، إن الله لطيف في التدبير، يوقع المقدور بأيسر الأمور، إذا شاء أمضى القضاء على الأولياء، وجعل رحمتهم في الابتلاء، وهو عليم بمصالح العباد، حكيم في قضائه وشرعه وخلقه وصنعه.

(١٠١) ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ثم قال يوسف يدعو ربه: يا ربِّ قد أعطيتني من العلم النافع مع فهم الحجة والفصل في الحكم، يا بديع السموات والأرض، أنت الذي تتولى أحوالي وتسمع أقوالي وترى أعمالي، أسألك أن تتوفاني على الإسلام، وتلحقني بالصالحين الأولياء، من المرسلين والأنبياء، والعلماء والشهداء والأصفياء.

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

هذا الذي أنزلناه إليك يا محمد هو من أخبار الغيب، لا يؤخذ إلا عن طريق الوحي، وما كنت أنت حاضرًا مع إخوة يوسف حين دبَّروا له المكيدة لإلقائه في البئر واحتالوا عليه وكادوا له كيدًا عظيمًا، فأنت غائب عن هذه القصة، ولكن أخبرناك بها، وهذا يدل على نبوتك وأن ما يأتيك وحيٌ من عند الله، فلماذا يشك شاك في رسالة محمد ﷺ بعد هذه الشواهد؟

(١٠٣) ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وما أكثر الكفار بمُصَدِّقيك أيها النبي المختار مع وضوح دليلك وصحة نبوتك، فمهما حرصت على إيمانهم فلن يؤمنوا، فلا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون.

(١٠٤) ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

وأنت - يا محمد -، لا تطلب من قومك أجرة على دعوتك لهم إلى الهداية، فالذي أنزله الله عليك إنما هو لهداية البشر جميعًا لا لطلب ثواب منهم أو مصالح، فالله هو الغني الحميد، وإنما الواجب على الناس الامتثال وحسن الاتباع والمسارعة في الاستجابة.

(١٠٥) ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

وكم من علامة واضحة ودليل قاطع على وحدانية الله وعظمته يراها الناس ويشاهدونها ثم لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ولا تزيدهم إيمانًا، ففي كل شيء لله آية على حكيم صنعه وحسن إبداعه وعظيم قدرته - جل في علاه - ولكن المعاصي تمنع القلب من الجولان في فضاء التوحيد.

(١٠٦) ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

وما يقرُّ الكفار ولا يعترفون بأن الله خالقهم ورازقهم ومستحق للعبادة إلا ويشركون بعبادة الأصنام والأوثان، فهم يعترفون بالربوبية وينكرون الألوهية، فأثبتوا لله الخلق، ونفوا عنه توحيده بالعبادة!!

(١٠٧) ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

هل عند المشركين أمان من الله بعدم إنزال عذاب عام مباغت عليهم، أو تأتيهم القيامة فجأة فهم بين أخذ مقدم في الدنيا بعقاب، أو موت وبعده حساب وعذاب، وهم في غفلة عما يُراد بهم لا يشعرون ولا يحسون، ومال لجرحٍ بميت إيلامُ.

(١٠٨) ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قل -أيها النبي- للناس: هذا منهجي وهذه طريقتي، أدعو إلى عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له وإفراده بالوحدانية على علم متين، وهداية ويقين، وحجة قاطعة ودليل ساطع، أنا ومن سار على طريقتي واقتدى بي، مع تنزيه الله عن الشركاء والأنداد، وتقديسه مما لا يليق به، ولا أشرك مع الله غيره، ولا ألحد في أسمائه وصفاته، فمعالم دعوته ﷺ ودعوة من اتبعه إخلاص العبادة لله، والبدء بتوحيده وتنزيهه عن الشرك وكل ما لا يليق به، وطلب العلم والعمل وتعليمه، والصبر على أذى الناس؛ فهذه الدعوة أربع مراتب علم وعمل، وتعليم وصبر، وهي الربانية لمن أرادها، ومن حققها فقد نال أشرف المراتب، وأعظم المنازل بعد النبوة.

(١٠٩) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وما أرسلنا من قبلك -أيها الرسول- إلى البشر إلا رجالاً منهم؛ ليكونوا أعلم بهم من غيرهم، ينزل الله عليهم الوحي، وهم من أهل الحاضرة الأتم خلقًا والأرجح عقولاً والأعرف بما يصلح للناس. فأخرجت الآية من الرسل الملائكة والجن والنساء وأهل البادية، فإذا أرسل الله الرسل صدَّقهم قوم فنجوا، وكذَّبهم آخرون فهلكوا، أفلم يمش الكفار في الأرض فيبصروا عاقبة من كذَّب رسل الله كيف دمَّرهم وأوقع الهلاك بهم، وثواب الآخرة للمتقين في الجنة أفضل من الدنيا بما فيها من متاع ومال وجاه وقوة وزينة، وهذا الثواب لمن اتقى ربه وعمل بشرعه وأطاع رسوله ﷺ، فلماذا لا يعتبر معتبر، ويتفكَّر متفكر في مصير الناجين والهالكين فيحذر.

(١١٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

ولا تعجل -أيها الرسول- بسؤال الهلاك على من كذَّبك، فإن الرسل قبلك صبروا، وكان يتأخر عنهم النصر لحكمة أرادها الله؛ حتى إذا يأس الرسل من تصديق قومهم وأيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم ولا رجاء في صلاحهم ولا أمل في إيمانهم جاء الرسلَ نصرُ الله عند شدة الكرب، فنجى الله من شاء ممن آمن بالرسل واتبعهم، ووقع بأسه الشديد وعذابه الأكيد بالعتاة المردة والمجرمين الفجرة، وفي الآية تسلية للرسول ﷺ وحسن الظن بالله ولو تأخر نصره، فإن ما عنده قريب، وإن الفرج يحصل عند اليأس.

(١١١) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

لقد كان في أخبار المرسلين وأنباء الأنبياء التي ذكرها الله لرسوله ﷺ عظة عظيمة لأهل العقول السليمة، ودروس كريمة لأرباب الفطر القويمة، وليس القرآن كلامًا مكذوبًا مختلقًا ملفَّقًا، ولكنه خبر صحيح ووحي صريح منزَّل من الله على رسوله ﷺ، مصدِّق لما سبقه من الكتب السماوية، وفيه تبيان ما يحتاج إليه البشر من عقائد وأحكام وعلم الحلال والحرام، وآداب وأخلاق، ففيه الخبر الصادق، والحكم العادل، والآية المحكمة، والخُلق الفاضل، والأدب الجم، والموعظة الحسنة، والقصة الجميلة. وفيه إرشاد من الغي، وتحذير من الضلال، ورحمة لأهل الهدى؛ يهتدون بها ويسعدون بها في الدنيا والآخرة، وكل من آمن بهذا القرآن نال من خيره وبركته وهداه ونوره ورحمته بحسب إيمانه واحتفائه وعنايته وإقباله على القرآن.

مدنية

ترتيبها ١٣

سورة الرعد

آياتها ٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

الحروف المقطعة في أول السور نَكِلُ علمها إلى علام الغيوب، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن والتحدي به وهذه آيات القرآن شريفة القدر، عالية المنزلة، عظيمة النفع، وهو القرآن المنزل على رسولنا ﷺ وهو الحق الثابت لا كما قال الكفار: إنه سحر أو شعر أو كهانة، ومع صدق القرآن وثبوت نزوله فأكثر الناس لا يصدقون به ولا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون به.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

الله وحده الذي رفع السموات السبع الشداد بقوته وقدرته وحكمته من غير عمد كما يراها الناس، فهي بناء عظيم هائل، وسقف مرتفع، يمسكها الله دون أن تعتمد على أعمدة، وبعدما بناها - سبحانه - استوى على عرشه استواء يليق بجلاله، وذلل بقدرته الشمس والقمر، لينتفع البشر من الإضاءة والنور، واختلاف الليل والنهار والفصول وإنضاج الثمار، ومعرفة الحساب والسنين، كل منهما يدور في مجراه إلى يوم القيامة بحساب دقيق، يصرف الله أمور الدنيا والآخرة، فكل شأن يجري في الكون بمشيئته وإذنه - جل في علاه -. يبيِّن الله - سبحانه - الأدلة على وحدانيته والشواهد على قدرته سواء من الآيات الكونية أو الشرعية الدالة على أنه الله الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه ولا معبود بحق غيره، فعسى أن تصدقوا بوعده ووعيده، وتؤمنوا بلقائه فتعبدوه وتشكروا له وتطيعوا أمره وتجتنبوا نهيه.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

وهو وحده - سبحانه - الذي وسَّع الأرض وبسطها وجعلها مهادًا للعباد وفراشًا للمعاش، وصيّر فيها جبالاً شواهق تمسكها وتمنعها من الاضطراب، وصيَّر فيها أنهارًا تشربون وتنتفعون منها، وتكون حياة وجمالاً لها، وصيَّر فيها من أنواع الثمار، ومختلف الأشجار وسائر الأزهار ما يبهج العين ويسر النفس ويخلب اللب، فسبحان من خلق فأبدع، وأحسن فيما صنع، وفصل فيما شرع، وصيّر الليل يغطي النهار بظلمته، ففي هذه المخلوقات آيات ودلالات لمن يفقه العظات وتنفع فيه البراهين والمعجزات فيؤمن ويصدق.

(٤) ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وفي الأرض قطع ومساحات يجاور بعضها بعضًا، منها الخصب والجدب، والطيب والسبخ النكد، ومنها الصخرية والترابية بألوان شتى وأشكال مختلفة، وفي الأرض الرخاء الطيبة الخصبة حدائق من أعناب دانية القطاف، وزروع بمختلف الثمار، ونخيل باسقات لها طلع نضيد، تجتمع في مكان واحد وفي تربة واحدة، وتشرب من ماء واحد، ولكنها تختلف ثمارها في طعمها ولونها وحجمها من حلوٍ وحامض، وأبيض وأسود، وأحمر وأخضر إلى غير ذلك من

اختلاف المذاقات وتعدد المطعومات، وفي هذا دلائل واضحة وآيات بيّنة على قدرة القدير وحكمة اللطيف الخبير وإبداع العلي الكبير لمن كان له قلب يعقل فيهتدي لطاعة ربه والإيمان به.

(٥) ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

وإن كنت تعجب - أيها الرسول - من عدم إيمان الكفار برسالتك مع ظهور الأدلة على صدق ذلك فأعجب من ذلك قول الكفار: هل إذا متنا وأصبحنا ترابًا نعود إلى الحياة من جديد؟ استبعادًا منهم واستنكارًا؛ هؤلاء المكذبون الكفرة هم الجاحدون لأدلة الربوبية وبراهين الألوهية، فجزاؤهم أن تكون السلاسل من النار في أعناقهم يوم العرض على ربهم، وهم ماكثون في النار خالدين فيها، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يخرجون من دار العقاب، لا يموتون فيرتاحون، ولا يحيون فيتنعمون، بل عذاب دائم وعقاب مستمر.

(٦) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

يتعجل المكذبون العذاب قبل الإيمان الذي معه الأمان، فهم يريدون تقديم العقوبة قبل استجابتهم للرسالة، وهم لو اعتبروا بمن قبلهم ممن عذبهم الله لتكذيبهم لآمنوا وصدَّقوا، وإن ربك - أيها النبي - لكثير الغفران لمن تاب وأناب من خطاياه من البشر مع كثرة ظلمهم وفجورهم، فهو رحيم لا يعاجلهم بالعقوبة، وهم يصدّون عن التوبة والإنابة، والله شديد العقاب لكل من أصرَّ على ذنبه واستكبر عن الإيمان وكفر بالرحمن.

(٧) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

ويقول الكفار للنبي: لماذا لم يأت بمعجزة ظاهرة محسوسة كعصا موسى وناقة صالح ونحوها، وهذا ليس بيد الرسول ﷺ إنما ذلك لله وحده، ومهمة الرسول ﷺ البلاغ المبين والتحذير الشديد من عذاب الله، ولابد لكل أمة من رسول يرشدهم إلى الإيمان بالله وهجر الشرك به.

(٨) ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾

الله يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها، أذكر هو أم أنثى؟ وهو وحده الذي يعلم أشقي هو أم سعيد؟ ويعلم ما تنقصه الأرحام فيسقط بالإجهاض، أو يولد قبل تسعة أشهر، ويعلم ما يزيد حمله على التسعة، وكل شيء يقدره الله بمقدار من الزيادة والنقصان لا يتعداه، فكل مدة محسوبة بقضاء سابق.

(٩) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾

الله عالم بما غاب عن الأبصار، وما تشاهده محيط بما يراه الناس وما لا يرونه، مطلع على السر والعلن، الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، عظيم قدره قوي قهره، حكيم في نهيه وأمره، العالي على جميع مخلوقاته بذاته وقدرته وقهره.

(١٠) ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾

يستوي عند الله من أخفى قوله ومن جهر به، ويستوي من ستر عمله في ظلمة الليل ومن أظهره في وضح النهار، فالغيب عنده قبل العيان، والسرُّ عنده كالجهر، والخافي لديه كالظاهر، وسع كل شيء رحمةً وعلمًا.

(١١) ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾

لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من أمامه ومن خلفه، يحفظونه بأمر الله ويحصون عمله من حسنٍ وسيئ، إن الله لا يبدل نعمةً وهبها لقوم حتى يبدلوا طاعته بمعصيته، فَيُبدِّل السراء إلى ضراء، والنعماء إلى بلاء، وإذا أراد الله

بطائفة بلاءً أو فتنة فلا راد له ولا مفرَّ من قضائه، وليس لهم والٍ يتولى أمرهم فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، بل الله وحده يتولى أمور العباد.

(١٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾

وهو - سبحانه - الذي يريكم من قدرته البرق والنور اللامع بين الغمام، فتخافون من الصواعق أن تهلككم، وتطمعون في الغيث، وهو الذي يحمل الغمام بالماء الذي ينزل عليكم بالبركات، ويكون سببًا للخيرات، فكما تخافون الصواعق وتطمعون في الغيث فخافوا وعيده بالعذاب، واطمعوا في وعده بالثواب؛ بعمل الصالحات وهجر المنكرات.

(١٣) ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾

والرعد يسبح بحمد الله تسبيحًا بخضوع وانقياد، فسبحان من ينزهه -حتى الرعد- من العيوب، ويثني عليه بالمحامد، والملائكة تسبح الله وتقدِّسه وتثني عليه وتشكره خوفًا من سطوته وهيبته وعظمته، والله وحده الذي يرسل الصواعق المحرقة تسحق وتمحق وتمزق من يشاء من خلقه، ومع هذه الآيات الباهرات تجد الكفار يجادلون بالباطل في صفات الله وآياته ورسالاته، ويشكون في قدرته ويخاصمون رسله، والله شديد الحول والقوة والبطش بأعدائه، قوي الأخذ لهم.

(١٤) ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾

لله - سبحانه - وحده الدعوة الصادقة إلى توحيده وإخلاص العبادة له وإفراده بالطاعة، وهي دعوة الرسل إلى (لا إله إلا الله) فلا معبود بحق سواه، ولا إله غيره، وأما ما سواه من الأوثان والأصنام فلا تجيب دعوة أحد ولا تشعر بأحد ولا تفرِّج كرب مكروب، ومثلهم مثل العطشان المشرف على الهلاك الذي يمد يده إلى الماء من بعيد؛ ليصل إلى فمه الماء فلا يصل، فعبَّاد الأصنام محرومون من نفعها كحرمان العطشان نفع الماء البعيد، وما طلب الكفار من أصنامهم إلا في غاية من البعد عن الصواب، وضلال عن الهدى؛ لأن المشرك أعمى القلب مطموس الفطرة.

(١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾

ولله وحده ينقاد ويخضع ويذعن كل مخلوق في السموات والأرض؛ فالمؤمن يخضع له حبًا وطواعية، والكافر يخضع رغمًا عنه وقهرًا له، فهو معرض عن طاعته، وفطرته تدعوه لعبادته، وتنقاد لعظمته، وتخضع لجبروته ظلال المخلوقات، فتتحرك بإرادته أول النهار وآخره، فسبحان من قهر كبرياؤه أعداءه، وهدى لمحبته أولياءه.

(١٦) ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىۡءٍ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: من الذي خلق السموات والأرض ودبّر أمرهما وتكفَّل برزق من فيهما؟ قل: هو الله وحده الخالق الرازق المدبر، وأنتم تعترفون بهذا، فلماذا تعبدون غيره وتشركون به سواه مع العلم أنهم لا ينفعون أنفسهم بجلب الخير لها، ولا يدفعون عنها الضر، فكيف ترجون منهم جلب خير لكم أو دفع شرٍّ عنكم، قل: هل يستوي الأعمى الذي هو كالكافر، والبصير الذي هو كالمؤمن؟ أم هل تستوي عندكم الظلمات وهي الكفر، والنور وهو الإيمان؟ فلا سواء، فالبصير أفضل وأكمل من الأعمى، وكذلك المؤمن بالنسبة إلى الكافر، والنور أهدى وأحسن من الظلمات، وكذلك الإيمان بالنسبة إلى الكفر، أم إن هؤلاء الأنداد والأضداد الذين عبدهم المشركون من دون الله خلقوا مخلوقات فتشابهت في صورتها وصفاتها بمخلوقات الله فاعتقد الكفار أنها تستحق العبادة فعبدوها، وهذا

ليس موجودًا، فآلهتهم المزعومة لم تخلق شيئًا فهي مخلوقة، فكيف تكون خالقة؟! فقل لهم -أيها الرسول-: الله موجد كل شيء من العدم وخالقه ومصوره ومبدعه، فهو المستحق للعبادة وحده، وهو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن حقه أن لا يُشرك به غيره، وأن يُفرد بالطاعة، وهو الذي قهر سواه بجبروته، وأذلَّ غيره بعظمته وقوته.

(١٧) ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾

ومثل الحق الذي هو الإيمان، والباطل الذي هو الكفر مثل ماء أنزله الله من السماء، فجرت به الأودية على حسب اتساعها وضيقها، فمنه ماء عذبٌ صافٍ نافع للبلاد والعباد، ومنه غثاء عالٍ لا نفع فيه ولا فائدة، وضرب الله مثلاً آخر: وهي المعادن التي يوقد عليها الناس في النار للزينة كالذهب والفضة، أو للمنافع كالنحاس، فيخرج منه خبث لا نفع فيه ولا فائدة، فالنافع المفيد هو مثل الحق. وما لا فائدة فيه ولا نفع هو الباطل، فتجد الباطل كغثاء الماء يذهب سدى، وكذلك خبث المعادن، وأما الحق فتجده كالعذب الزلال الصافي من الماء، وكذلك ما يبقى في الأرض من المعادن الغالية النفيسة، ومثلما بيَّن الله هذا المثل يضرب الله الأمثال للناس ليتضح الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلال، فضرب الأمثال للفهم، أدعى لظهور المعنى، وأثبت في القلب، وهو من الحكمة في التعليم.

(١٨) ﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾

لمن أطاع الله واتبع رسوله وعمل بما يرضيه واجتنب ما يسخطه جنات النعيم مع الفوز العظيم والمقام الكريم، والذين لم يؤمنوا بالله ولم يتبعوا رسوله ويهتدوا بهداه لهم نار جهنم، ولو كانت الدنيا لهم بما فيها من غالٍ ونفيس وضِعفُ ذلك لدفعوه فداءً لأنفسهم من العذاب، أولئك لهم سوء الجزاء على ما قدموا من كفر وتكذيب، ومقامهم في نار جهنم وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم، فهم بقبح ما فعلوا هيؤوا لهم أقبح مقام وأشد نكال في السلاسل والأغلال والهوان والأهوال.

(١٩) ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

هل الذي يعلم ويتيقن ويصدق بما أنزل الله عليك -أيها النبي- من الوحي؛ كالأعمى الذي كذب برسالتك وعصى أمرك؟ إنما ينتفع بالموعظة أهل العقول الراجحة والفطر السليمة، فهم أسرع الناس استجابةً، وأعظمهم تصديقًا للحق.

(٢٠) ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾

هؤلاء المؤمنون يؤمنون بما عاهدوا الله عليه من القيام بحقوقه وحقوق خلقه خير قيام، ولا ينكثون العهود الملزمة المؤكدة بالغدر والاحتيال، بل يؤدونها بأمانة. ويدخل في ذلك العبادات والمعاملات وسائر أنواع الطاعات والعقود والعهود والأيمان والنذور.

(٢١) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴾

وهم أهل صلة لمن أمرهم الله بصلته من برِّ الوالدين، وصلة رحم، وكفالة يتيم، وإعانة فقير، وإعطاء بائس، ويحذرون عذاب ربهم، ويخشون عقابه بعمل ما يرضيه واجتناب ما يكرهه، ويخافون الوقوف عند ربهم يوم الحساب؛ حذرًا من مناقشتهم فيما فعلوا وعدم غفران ما اقترفوا، وإحباط ما عملوا، فهم على حذر وإشفاق.

(٢٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾

وهم صابرون على أداء المأمور واجتناب المحذور، والمر من المقدور، يطلبون ما عند الله من أجور، مع أداء الصلاة على أكمل وجه، فهي قرينة الصبر، ومدده ومَعينه، والناهية عن الفحشاء والمواسية على مرِّ القضاء، وتصدقوا من أموالهم في الزكاة المفروضة، والنفقات المستحبة في حال الخفاء والعلن، وإذا أساؤوا أحسنوا، فإذا بدرت منهم خطيئة أعقبوها بطاعة، ويدفعون إساءة الناس بالإحسان إليهم، هؤلاء لهم المصير المحمود عند الله، والعاقبة الحسنة من الثواب الكريم، والفوز العظيم.

(٢٣) ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴾

فمصيرهم إلى جنات دائمة فهم خالدون فيها أبدًا في قرة عين وراحة بال وحسن حال وخير مآل، ومعهم لزيادة الأنس من آمن من الآباء والأزواج والذريات بنين وبنات، ولزيادة الحبور وإدخال السرور تدخل عليهم الملائكة من كل باب، تحييهم بأجمل التحايا، وأجلِّ التهاني على ما حصلوا عليه من فوز، وما نالوه من رضًا ونعيم، فهنيئًا لهم. وجعلنا الله منهم.

(٢٤) ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾

تقول الملائكة: سلمكم الله من كل سوء، وأنالكم كل خير، وحماكم من كل مكروه؛ لأنكم صبرتم على الطاعة وعن المعصية، فنعم العاقبة عاقبتكم، وهنيئًا لكم هذا المصير الكريم، والفلاح العظيم.

(٢٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

أما أعداء الله المكذبون به وبرسله - عليهم السلام - فهم لا يوفون بأي عهد بينهم وبين ربهم ولا بينهم وبين الناس، فهم يغدرون بعد الالتزام بالعقود، وينكثون العهود، وهم يقطعون كل حق أمر الله بصلته من الوالدين والأرحام وسائر أهل الحقوق بما فيهم الفقراء والمساكين والأيتام، ويعملون المعاصي والفواحش وأنواع الظلم التي فيها فساد الأرض وخراب الدنيا، أولئك مطرودون من رحمة الله، محرومون من جنته، ولهم مقام الذل والهوان مع الهلاك والخسران، وغضب الرحمن في النيران.

(٢٦) ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾

الله وحده يوسع الرزق ويكثِّره ويبارك فيه لمن أراد من عباده، ويقلله ويضيِّقه على من شاء من خلقه؛ لحِكم عظيمة يعلمها - سبحانه - وفرح الكفار بمتاع هذه الدار، دار الفتنة والاغترار، وما نسبة الدنيا إلى نعيم الآخرة إلا شيء حقير، ووقت يسير، ومتاع منقطع قصير، يزول ويحول كلمحة الطرف فما أقل المقام في دار الأسقام.

(٢٧) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾

ويقول الكفار مكابرة منهم: هل أُنزل على الرسول ﷺ معجزة محسوسة ملموسة كمعجزة موسى في العصا واليد، وعيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فقل لهم: إن الله يضل من يشاء من المتكبرين المعاندين عن الإيمان، ولا يهديهم ولا تنفعهم المعجزات، فلو حصل ما طلبتم لكذبتم واستكبرتم، والله يهدي إلى الإيمان به من عاد إلى الهدى وطلب الحق، وحرص على رضوان ربه.

(٢٨) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾

والله يهدي الذين تسكن قلوبهم بذكره فتطمئن وتهدأ وترتاح، فبذكره - جل في علاه - مِنۡ عَمَلِ طاعةٍ، أو ذكرٍ قوليٍ أو قلبيٍ، أو تذكر وعده ووعيده، تسكن القلوب وتستأنس، فيزيل الله عنها كل كدر ونكد وهم وغم وحزن وقلق،

ويبدلها بسرور ونور وحبور وفرح وبهجة، فأسعد الناس من داوم على ذكر الله، فهو السابق المحظوظ، والفائز الموفق طابت حياته، وحفظت أوقاته، وتعاظمت حسناته، وكُفِّرت سيئاته.

(٢٩) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾

المصدقون بالله ورسوله والعاملون بما شرع لهم قرة العين وراحة البال مع الفوز العظيم والنعيم المقيم في جنات الخلد مع عفو الله ورضوانه وكرمه وامتنانه؛ فهم في حياة طيبة في دنياهم، وفي حياة رضية في أخراهم.

(٣٠) ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴾

لما أرسل الله الرسل إلى أقوامهم بتوحيد الله وعبادته وحده، أرسلناك - أيها النبي - إلى قوم قد سبقهم أقوام من قبلهم لتتلو على أمتك القرآن، وتفقههم في العلم النافع، ولكن هؤلاء القوم يجحدون بوحدانية الرحمن، ويشركون معه غيره، فقل لهم - أيها النبي -: إن الرحمن الذي يكفر به عبدة الأوثان هو ربي وحده لا شريك له في ألوهيته وعبوديته، ولا يستحق العبادة سواه، فعليه أعتمد وأفوِّض أمري وأرفع سؤلي، وإليه أعود بالتوبة والإنابة، فيغفر ذنبي ويتجاوز عن سيئاتي ويمحو زللي، فأول الطريق توكل وآخره توبة.

(٣١) ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾

يخبر الله عن المكذبين لرسوله ﷺ والذين يطلبون آيات محسوسة مشاهدة بأنه لو كان هناك قرآن يقرأ فتزول من تأثيره وإعجازه الجبال عن أماكنها، أو تشقق منه الأرض وتفجر بالمياه، أو يحي به الموتى فيكلمون به؛ لكان المتصف بهذه الأوصاف هو القرآن الذي أُنزل عليك دون سواه، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يذعنوا له، فكيف يطلبون معجزة سواه وهو أعظم معجزة؟! أفلم يعلم ويتيقن المؤمنون أن الله لو يشاء لآمن أهل الأرض كلهم من غير معجزة، لأن هداية الخلق لا تتوقف على مجرد المعجزة، ولا تزال المصائب تنزل بالكفار من القتل والأسر والمحن والزلازل، أو تنزل تلك المصائب قريبًا من دارهم حتى يتم النصر لرسوله ﷺ وأتباعه على أعدائه، وهو وعد من الله أكيد، والله لا يخلف وعده.

(٣٢) ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

وإن كان سخر منك الكفار - أيها النبي المختار - فقد سخرت أقوام من رسلهم قبل قومك، فلست الأول في هذا الطريق، فتعزَّ وتأسَّ بمن قبلك، ولقد أمهل الكفار ثم أخذهم بالعقاب الشديد، فذاقوا سوء فعلهم، وعاقبة تكذيبهم.

(٣٣) ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾

أفمن هو قائم بحفظ ومراقبة ومحاسبة كل نفس مخلوقة أحق أن يُعبد وحده ويُوحَّد بالطاعة، أم هذه الأوثان العاجزة والأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضر، وصيَّر الكفار من جهلهم للواحد القهار شركاء، والله هو الذي خلقهم وما يعبدون من دونه، قل لهم - أيها النبي -: اذكروا أسماء هذه الآلهة وصفاتها، ولن يجدوا عندها ما يجعلها تستحق العبادة من دون الله، أم أنتم من جهلكم تخبرون ربكم بشركاء هو خلقهم في أرضه لا يعلمهم؟ أم تسمونهم شركاء بظاهر من اللفظ بلا معنى ولا حقيقة؟ بل لبَّس إبليس على الكفار باطلهم، وحسَّن لهم قبيح فعلهم، ومنعهم من الهداية بخداعه ومكره، ومن لم يرشده الله إلى الإيمان فليس له مرشد غير الله، ومن لم يوفقه للهدى فمصيره للردى.

(٣٤) ﴿ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴾

للكفار الأشرار عذاب في هذه الدنيا من القتل والأسر والذل والإهانة والخزي، ولعذابهم في النار في الآخرة من الأنكال والأغلال والأهوال أثقل وأشد وأفظع، وليس لهم مانع من عذاب الله ولا شافع عنده، ولا مدافع يرد عنهم أو يحميهم، فلا مولى ولا نصير ولا شفيع ولا ظهير.

(٣٥) ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾

صفة الجنة التي وعد بها أولياءه الذين يتقونه ويتبعون رسوله ﷺ أنها جنة تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، فاجتمع السناء والبهاء والماء مع الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء، ثمرها دائم؟!، داني القطاف لذيذ الطعم، ظلها لا يزول ولا يحول، وهذا مقام ومآب من خاف مولاه واهتدى بهداه، وأما مصير الأشرار الفجار فالنار وغضب الجبار، فيا بُعد ما بين المصيرين.

(٣٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾

والمؤمنون من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى يستبشرون بالوحي المنزل على رسوله ﷺ؛ لأنه يصدِّق ما عندهم من كتب، وأما من تحزّب وتعصَّب ضد الحق الذي أرسل به رسولنا ﷺ كالسيّد والعاقب أسقفي نجران، وكعب بن الأشرف من اليهود، فهم يكذبون ببعض القرآن، فأخبرهم - أيها النبي - أن الله أمرك أن تعبده وحده لا شريك له مخلصًا له الطاعة؛ لأن المرجع والمآب إليه والثواب والعقاب عليه.

(٣٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴾

ومثلما أنزل الله الكتب على الرسل بلسان أقوامهم أنزل الله القرآن على محمد ﷺ بلغة العرب أفصح اللغات؛ ليحكم به الرسول ﷺ وأتباعه من الأئمة بين الأمة، وعلى فرض أن النبي ﷺ - وحاشاه - اتبع أهواء المشركين في عبادة غير رب العالمين، أو في الحكم بغير ما أنزل الله في كتابه المبين، فليس له ناصر من دون الله يدفع عنه العذاب، ولا من يحميه من العقاب، فكيف بغيره إذا عبد سوى الله، أو حكم بغير شرع الله؟.

(٣٨) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴾

وإذا قال الأعداء من الكفار والمنافقين البغضاء: إن محمدًا يتزوج النساء، فالرسل الذين قبله كانوا يتزوجون وينجبون، فهذه سنة الله في أنبيائه، وإذا قال الكفار: لو كان محمد ﷺ رسولاً من عند الله لجاءنا بما طلبناه من المعجزات، فلا يستطيع رسول من عند الله أن يأتي بما طلبه قومه من معجزات إلا إذا أراد الله، لكل أمر قدره الله كتاب وأجل، فالكتاب فيه العلم والقضاء والأجل وقت حصوله إذا أراد الله وشاء.

(٣٩) ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾

والله يمحو ما أراد من الأحكام نسخًا؛ لحِكَمٍ علمها سبحانه، ويبقي ما أراد من الأحكام فلا ينسخها، ويمحو السيئات بالحسنات، وأما اللوح المحفوظ الذي فيه الرزق والأجل والسعادة والشقاوة فثابت لا يُمحى، باقٍ لا يُنسخ.

(٤٠) ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾

وإذا أريناك - أيها النبي - بعض ما توعدنا به الكفار من الخزي والذل والصغار في هذه الدار، فهذا المعجّل لهم، وإن متَّ قبل أن تشاهد ذلك فليس عليك إلا إبلاغ الرسالة والدعوة، والله عليه حسابهم وعنده عقابهم.

(٤١) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

أولم يشاهد الكفار أن الله ينقص الأرض من أطرافها بفتح المسلمين بلاد المشركين أو بزيادة الماء على اليابس؛ إيذانًا بقيام الساعة، والله وحده يحكم بالعدل، ويقضي بالفصل، لا معقب لحكمه فينتقض، ولا راد لقضائه فيمنع، وهو سريع الحساب، يحاسب البشر الكثير في الوقت القصير، فحسابه سريع فلا يستعجل، فكل ما هو آت قريب.

(٤٢) ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

ولقد كادت الأمم السابقة رسلهم مثلما كاد الكفار محمدًا ﷺ، فالله وحده صاحب المكر العظيم، والكيد الكبير، يبطل مكر كل ماكر، ويحبط كيد كل كائد، والله وحده يعلم ما تفعله كل نفسٍ من خير أو شر، ومن حسن وسيئ، فيثيب ويعاقب، وسوف يعلم الكفار إذا قدموا على الملك الجبار لمن تكون العاقبة المحمودة والخاتمة الحسنة، إذ إنها بلا شك للمؤمنين أتباع المرسلين، والدائرة على المكذبين أعداء رب العالمين.

(٤٣) ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

ويقول الكفار للنبي المختار: لست مرسلاً من الواحد القهار، فأخبرهم - أيها الرسول - أن الله يشهد على صدق رسالتك، وصحة دعوتك، وكفى به شهيدًا، ويشهد برسالتك - أيضًا - من آمن بك من اليهود والنصارى أهل التوراة والإنجيل فنطق بشهادة الحق، ولم يكتمها كما فعل المكذبون من أهل الكتاب.

مكية

ترتيبها
١٤

سورة إبراهيم

آياتها
٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

الحروف المقطعة الله وحده أعلم بمراده بها، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن والتحدي به.

وهذا القرآن كتاب أوحاه الله إلى رسوله؛ ليخرج به من استجاب له من ظلمات الكفر والجهل والغي إلى نور الإيمان والهدى؛ بتوفيق الله وإلهامه وتسديده لمن شاء من أوليائه، فيدلهم على الطريق المستقيم الذي دعا الله إليه، الغالب على أمره، القاهر على خلقه، العزيز في ملكه، الذي عزَّ فغلب سواه، وقهر فأذلّ من عاداه.

(٢) ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

الله وحده الذي له ما في السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وتصريفًا، فكما أنه لا شريك له في الخلق فكذلك يجب أن لا يشرك به شيء في العبادة، بل يُعبد وحده لا إله إلا هو، ودمار وهلاك وسخط وغضب على من جحد بآياته وكذب رسالاته يوم العرض الكبير من عذاب أليم وهوان مقيم في الجحيم.

(٣) ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

هؤلاء الكفار يؤثرون الحياة الدنيا ويقدمونها على الآخرة ويحبونها ويعملون لها، ويفترون بزينتها وزخرفها، وينسون ما أمامهم من الحساب والجزاء، ويحولون بين الناس وبين دين الله -عز وجل-، بالإيذاء والتهديد والوعيد، ويريدون أن تكون الطريق ملتوية معوجة وَفْقَ أهوائهم، أولئك في بعد عن الحق كبير، وفي غيٍّ وسفه؛ لأنهم اختاروا الضلال على الهدى.

(٤) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وما بعث الله من رسول قبل محمد ﷺ إلا بلغة قومه؛ ليفهموا عنه؛ ولتكون شريعته واضحة ميسرة سهلة، وبعد إقامة الحجة عليهم يضل الله من أراد عن الهدى، ويهدي من أراد إلى الحق، وهو العزيز الذي غلب أمره وارتفع قدره، وظهر قهره، الحكيم فيما خلق وأبدع وصوَّر وصنع وحكم وشرع.

(٥) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

ولقد أرسل الله موسى إلى بني إسرائيل بالآيات البينات والمعجزات الباهرات كالعصا واليد، وأمره ربه أن يدعو الناس فيخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويذكرهم بنعم الله عليهم يوم أنجاهم من فرعون وأعطاهم المن والسلوى، وفجَّر لهم الحجر وغير ذلك، ويذكرهم بأيام النقم كمسخ بعضهم والتنكيل ببعضهم، إن في هذه الذكرى مواعظ بليغة وعبرًا عظيمة لمن صبر على البلاء والضراء، وشكر على السراء والرخاء؛ لأن من هذا وصفه فهو العابد الصادق حقًا الذي حقق مراتب العبودية من صبر وشكر، فاستحق الولاية وانتفع بالحكمة وحاز الفوز وأدرك الفلاح.

(٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

واذكر - أيها النبي - خبر موسى ﷺ يوم قال لقومه بني إسرائيل: يا قومي، تذكروا نعمة الله بالشكر يوم أنجاكم من فرعون وجنوده، وكانوا يذيقونكم أشد العذاب من قتل واستعباد وظلم، فهم يذبحون الذكور من أبنائكم خوفًا منهم إذا كبروا، ويتركون الإناث للخدمة، وفي الابتلاء والإنجاء اختبار لكم بالضراء والسراء؛ ليرى الله صبركم وشكركم.

(٧) ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾

وقال موسى لقومه: لقد كتب الله وقضى وأمضى: لئن شكرتموه على نعمه بطاعته وترك معاصيه ليزيدنكم من فضله الواسع ومن كرمه العميم، فما استُجلبت النعمةُ ودامت إلا بالشكر، ولئن جحدتم نعمة الله وتركتم طاعته وارتكبتم معاصيه فسوف يعذبكم عذابًا شديدًا على فعلكم القبيح.

(٨) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

وقال لهم موسى: لو قدِّر أنكم كفرتم بالله أنتم وجميع من في الأرض فلن تضروا الله شيئًا، فليس الله في حاجة إلى طاعة أحد، ولو كانت الخليقة كلها على أفجر قلب رجل ما نقص ذلك في ملكه شيئًا، فهو غني عن كل أحد؛ لأنه فرد صمد، وهو مستحق للحمد والثناء، محمود في الأرض والسماء، غني عن الخلق، محمود بصفات الحق، غني عمن تولى، يحمد من أقبل إليه.

(٩) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

أما جاءكم يا أمة محمد خبر من قبلكم من الأمم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح والذين جاؤوا من بعدهم لا يحصي عددهم ولا يعلم كثرتهم إلا الله وحده، جاء الرسل هؤلاء الأقوام بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على صدقهم، فعضوا أيديهم غيظًا وحقدًا وتجبرًا عن قبول الحق، وقال من كفر منهم لرسلهم: إنا نكذبكم فيما جئتم به من توحيد الله والإيمان به، ونحن نشك في صدقكم، ونتهكم فيما تدعون إليه، ونرتاب في صحة نبوتكم.

١٠ ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾

فردَّ الرسل على المكذبين لهم بقولهم: أفي وحدانية الله شك وألوهيته -عز وجل- وهو الذي خلق السموات والأرض وأبدع ما فيهما من خلق على غير مثال سابق، وهو يدعوكم إلى توحيده وطاعة رسله ليغفر لكم ذنوبكم ويمتعكم في حياتكم متاعًا حسنًا إلى الأجل المقدر لكم، فلا يعاقبكم في الدنيا بل لكم السلامة والأمان بالإسلام والإيمان، فقالوا لرسلهم: أنتم بشر مثلنا، صفاتكم كصفاتنا، ليست لكم ميزة علينا تجعلكم أهلاً للرسالة، فلماذا تُفضَّلون علينا بلا سبب، وأنتم تريدون منعنا من عِبَادةِ ما كان يعبد الآباء والأجداد من الأنداد والأضداد، فتعالوا بحجة واضحة ودليل ظاهر على صدق دعوتكم وصحة رسالتكم؟

١١ ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

فأجاب الرسل أقوامهم على قولهم: "إنكم بشرٌ مثلنا" بقولهم: نعم نحن بشرٌ مثلكم كما قلتم، ولكن الله فضلنا بالرسالة وميزنا بالنبوة كرمًا منه وفضلاً، وأما ما سألتم من البراهين والمعجزات فنحن عباد مأمورون لا نستطيع أن نأتي بها إلا بإذن الله ومشيئته، وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون فينصرهم على أعدائهم ويتولاهم في كل أمورهم.

١٢ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾

وكيف لا نعتمد على الله ونفوّض الأمر إليه، وهو وحده الذي بصّرنا بالحق وأرشدنا إلى الهدى ودلنا على طريق النجاة، وسوف نصبر على أذاكم لنأمن قبيح الكلام وسوء الفعال، وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون فيكونون أقوياء بالله، أعزاء بدينه منصورين بتأييده.

١٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وألح الكفار في إيذاء الأنبياء الأبرار وتوعدوهم وهدّدوهم وقالوا لهم: لنطردنكم من أوطاننا أو لترجعنَّ إلى ديننا وتتركون دينكم، فأوحى الله إلى الرسل بأنه سوف يهلك الكفار ويمحق الأشرار بالعذاب والدمار.

١٤ ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

ولنمكنن لأوليائنا في الأرض بعد إهلاك أعدائنا فتكون العاقبة الحميدة لمن اتقى الله واهتدى بهداه، وهذا النصر والتمكين لمن خاف الوقوف يوم العرض على الله وخشي الوعيد بالعذاب، فعمل صالحًا، فالعز والمجد والتوفيق كله في طاعة الله عز وجل.

١٥ ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾

واستغاث الأنبياء بربهم وسألوه أن يفتح ويحكم بينهم وبين الكفار بنصر منه لأوليائه على أعدائه، فأجابهم ربهم فأيدهم ونصرهم ومحق عدوهم وأذلَّ كل متكبر لا يقبل الحق ولا يذعن له، معاندًا للدليل لا يقر لربه بالتوحيد ولا لأنبيائه بالرسالة، فهو جبار في نفسه بالفخر والعلو، عنيد لما يعرض عليه من حق وصدق، يجادل بالباطل ويدافع بالكذب.

١٦ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾

من وراء هذا الجبار العنيد نار جهنم يصلى حرَّها، شرابه فيها من القيح والدم الذي تخرجه أجساد الفجار في النار.

(١٧) ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾

يحاول الكافر أن يبتلع الصديد في النار مرة بعد مرة، فلا يبتلعه لنتن القذارة وشدة الحرارة وكثرة المرارة، ويأخذه العذاب بأصنافه وأشكاله من كل جارحة من جوارح جسمه، ومع كل عضو وعرق وعصب، ولا يدركه الموت فيستريح، ولا يحيا حياة رضية فيسعد، وله العذاب المؤلم الموجع الدائم في نار جهنم.

(١٨) ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾

صفة ما يعمله الكافرون في حياتهم الدنيا من صدقة وصلة وبر كصفة الرماد الذي هبت عليه ريح عاصفة شديدة، فبعثرته ونثرته وشتته فلم يبق له أثر، كذلك أعمال الكفار يُذْهِبها الكفر والرياء فلا يبقى لها نفع عند الله، فقد أذهبها الشرك كما أذهبت الريح الرماد؛ لأن عملهم فاته الإيمان والإخلاص، فكل سعي على غير قاعدة من تقوى الله وطاعته هو الضلال البعيد عن الصراط المستقيم، فعمل بلا إخلاص كجسد بلا روح.

(١٩) ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾

ألم تعلم - أيها الإنسان - أن الله وحده هو الذي أوجد السموات والأرض وأنشأهما من العدم في صنعٍ بديع يدل على تمام حكمته وكمال صنعه، ولم يخلقهما لعبًا ولا عبثًا، بل للدلالة على عظمته ووحدانيته؛ ليعبد وحده لا شريك له، وإذا أراد أن يفنيكم - أيها الناس - فعل، ويأتي بقوم غيركم أطوع منكم لله، وأعبد لربهم منكم، فخلقكم وفناؤكم سهل عليه جل في علاه.

(٢٠) ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾

وما إماتتكم وهلاككم وتبديلكم بغيركم بأمر عسير على الله، بل هو يسير، فقدرته نافذة وأمره غالب.

(٢١) ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾

وخرج الناس من قبورهم لملاقاة ربهم يوم العرض الأكبر، ليفصل بينهم ويجازيهم، قال الأتباع للرؤساء: نحن كنا في الدنيا تحت ولايتكم نأتمر بأمركم، فهل تنفعوننا اليوم بدفع العذاب عنا كما وعدتمونا في الدنيا؟ فقال الرؤساء: لو أن الله وفقنا للهداية لكنا أرشدناكم إلى الطريق المستقيم، ولكنه لم يوفقنا - سبحانه - للحق، فضللنا نحن ثم أضللناكم، فلا ينفعنا اليوم نحن وإياكم الصبر؛ لأن العذاب لا يُطاق ولا ينفعنا الجزع؛ لأنه لا جدوى منه، فلا مهرب من عذاب الله ولا منجى ولا مفر؛ لأنه عذاب لا ينقطع ولا يخفف.

(٢٢) ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

وقال الشيطان بعدما فُرِغَ من الحساب، فريق في الجنة، وفريق في السعير: يا أتباعي: إن الله قد وعدكم في الدنيا وعدًا صادقًا من أنه سوف يبعثكم ويحاسبكم، ووعدتكم أنا وعدًا كاذبًا بأنه لا بعث ولا حساب، فتم وعد الله وكذب وعدي، وما كنتُ صاحب قوة أقهركم بها على اتباعي، وما كان معي دليل واضح على ما دعوتكم إليه، ولكن ناديتكم إلى الكفر والغواية فأجبتموني، فليس علي لوم، اللوم عليكم أنتم؛ لأنكم اتبعتم من لا يملك قوة ولا برهانًا على دعوته، فالخطأ خطؤكم، لن أغيثكم اليوم من العذاب، ولن أنقذكم من العقاب، وأنتم لستم مغيثيَّ من غضب الجبار ولا عذاب النار، إني أبرأ من إشراككم مع الله غيره، واتخاذكم إياي شريكًا لله - تعالى عن ذلك - إن الظالمين الذين صرفوا عبادتهم لغير مستحقها وهو الله وحده وتركوا الحق واختاروا الباطل لهم عذاب شديد دائم موجع في نار جهنم.

(٢٣) ﴿ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾

وحكم الله بين العباد، فأدخل الأبرار دار القرار، تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا ما دام الليل والنهار، تحييهم الملائكة الأخيار؛ برضا العزيز الغفار، فهم في أمن وأمان، وروح وريحان، ونخل ورمان، مع رضا الرحمن، وسرور قلوب وراحة أبدان.

(٢٤) ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

أما رأيت وعلمت كيف وصف الله كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؟ كأنها شجرة عظيمة كريمة، وهي النخلة، أصلها راسخ متمكن في الأرض الطيبة، وأعلاها باسق عالٍ مرتفع في السماء، فكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلوب المؤمنين قد آتت أكلها من الطاعات وأنواع العبادات في كل وقت وآن كطلع النخلة الهضيم النضيد الحلو، مع بقاء خضرتها وكثرة منافعها وجمالها وكمالها.

(٢٥) ﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

تعطي هذه النخلة ثمرها اليانع كل وقت بمشيئة الله، وكذلك شجرة الإيمان في القلب تخرج من ثمار الطاعات والخيرات والفضائل والأخلاق ما فيه صلاح للنفس والناس، فيحصل لصاحبها من الثواب العظيم، والثناء الكريم ما الله به عليم، والله يذكر الأمثال للناس تفهيمًا لهم لتتضح لهم المسائل، ويتفقهوا في معاني المثل فيعتبروا ويتعظوا.

(٢٦) ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴾

والله ضرب مثلاً كلمة الكفر القبيحة كشجرة الحنظل الخبيثة، فطعمها مر، ولا نفع لها ولا خير فيها، وليست راسخة، فجذورها قريبة من سطح الأرض ليس لها أصل ثابت، ولا فرع عالٍ، وكذلك الكافر لا مبدأ له ثابت، ولا خير مأمول، ولا نفع منتظر، ولا يرفع له عمل صالح ولا تجاب له دعوة.

(٢٧) ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

الله يثبت المؤمنين على كلمة الحق وشهادة الصدق: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" في الحياة الدنيا وعند سكرات الموت، وعند سؤال الملكين في القبر، وعند القيام لرب العالمين، ولا يوفق الله الكفرة الفجرة لقولها، ولا يلهمهم الصواب، ولا يهديهم للجواب، والله يفعل في خلقه ما يشاء من هداية المؤمنين وإضلال الكافرين، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

(٢٨) ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾

ألم تنظر - أيها المسلم - الرشيد إلى كفار مكة الذين استعاضوا بالكفر مكان الإيمان بالله وشكره على نعمة الأمن ورسالة محمد ﷺ ووجود الحرم بين ظهرانيهم، وقد قادوا أتباعهم يوم بدر إلى دار الهلاك والخزي وهي نار جهنم.

(٢٩) ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴾

نار جهنم يقاسون حرها ويصلون نارها ويذوقون عذابها، وأقبح بها من مستقرٍ لمن كفر واستكبر.

(٣٠) ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

واتخذ الكفار آلهة يعبدونهم من دون الله؛ ليبعدوا العباد عن طريق الهداية، فقل لهم - أيها النبي -: استمتعوا في هذه الدنيا القصيرة الحقيرة الفانية، فإنها سريعة التحول والزوال، وسوف ترجعون إلى نار جهنم في أهوال وأغلال وأنكال.

(٣١) ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾

قل - أيها النبي - لعباد الله المؤمنين المصدقين بوعد ربهم: يؤدوا الصلاة على أكمل وجه، ويتصدقوا ببعض ما وهبهم الله في أبواب الخير في حال السر والعلن حسب المصلحة، من قبل أن يأتي يوم العرض على الله؛ فذاك اليوم لا ينفع فداء ولا صداقة، فلا مال يدفع ولا حبيب يشفع.

٣٢ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾

الله وحده الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما من العدم، وأنزل الغيث من الغمام فأحيا به من كل زوج بهيج؛ بما في ذلك قوت الناس من حبوب وفواكه وخضراوات، وذلل السفن تسعى في مياه البحار؛ بمنافع الناس من سفر وسياحة وتجارة وجهاد، وذلل الأنهار لمصلحة الناس لشربهم وغسلهم ومزارعهم وقيام حياتهم وحياة دوابهم فضلاً منه وكرما.

٣٣ ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

وذلل الله للعباد الشمس والقمر ذهابًا وإيابًا، وفيهما مصالح من النور والإضاءة ومعرفة السنين والحساب وإنضاج الثمار، وذلل الليل للراحة من الأشغال، والنوم بعد الملل والكلال، وسخر النهار لطلب الكسب والمعاش والبناء والإنتاج، فالليل والنهار هما موسم الطاعات وزمن العبادات ومزرعة القربات.

٣٤ ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

والله هو الذي أعطاكم جميع ما طلبتموه من مال وعيال وصحة وعافية وأمن، وإن تعدّوا نعم الله عليكم لا تستطيعوا حصرها من كثرتها وتنوعها، إن الإنسان كثير الظلم لنفسه والمعاصي والذنوب، كثير الجحود لنعم الرب - سبحانه - قليل الشكر، فهو كثير السؤال لذي الجلال فإذا حصل على ما يطلب نسي ما يجب.

٣٥ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

واذكروا يوم دعا إبراهيم ربه بعد أن أسكن إسماعيل وأمه مكة: يا رب، أسألك أن تجعل مكة بلدًا آمنًا يأمن فيه من حل فيه فلا يخاف، واعصمني وأبنائي من عبادة الأصنام، فبالأمن يطيب العيش، وبالإيمان تطيب الدنيا والآخرة.

٣٦ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يا رب: إن الأصنام أبعدت العباد عن عبادة رب العباد، وجعلتهم يشركون بالله غيره من الأضداد والأنداد، فمن استن بسنتي في توحيد الله وإخلاص العبادة له فهو على ديني وملتي، ومن خالفني فيما دون الشرك فإن الله كثير الغفران لصاحب الذنوب إذا تاب إلى ربه، كثير الرحمة يعفو عمن شاء، لا يتعاظمه ذنب أن يمحوه ولو بلغ عنان السماء.

٣٧ ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

يا ربنا: إنني أسكنتُ بعض ذريتي بوادي مكة بجوار بيتك الحرام، وليس فيه زرع ولا ماء؛ امتثالاً لأمرك؛ لكي يؤدوا الصلاة على أتم وجه، فأسألك بأن تهفو قلوب بعض عبادك إليهم شوقًا وتعطف عليهم حبًا، وارزقهم من أنواع الثمار ومن بركات الأرض؛ لكي يؤدوا شكر نعمتك ويستعينوا بها على طاعتك، فاستجاب الله دعاءه ولبى طلبه.

٣٨ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

يا ربنا: إنك تعلم كل ما نخفيه من النيات والعقائد والأسرار، وتعلم ما نظهره من الأقوال والأعمال، ولا يغيب عن علمك شيء من الكائنات في الأرض والسموات، فالغيب عندك ظاهر والسر لديك علانية، أحاط علمك بكل شيء.

٣٩ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

ثم قال إبراهيم شاكرًا ربه على نعمه: الحمد لله الذي أعطاني على كبر سني وشيخوختي ابنيَّ البارين إسماعيل وإسحاق، لما سألته أن يهب لي من الصالحين، فربي سميع الدعاء لمن دعاه، سألته فأعطاني، وطلبت منه فأكرمني وحباني، وفي الآية بيان فضل الدعاء وسؤال الله الذرية الطيبة، وشكر الله على النعم.

٤٠ ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾

يا ربي: أعني على مداومة أداء الصلاة على أتم وجه، ووفق ذريتي للمحافظة عليها في أوقاتها بأحكامها، وخصَّ الصلاة؛ لأنها عمود الدين، يا ربنا: استجب دعوتي وحقق مسألتي.

(٤١) ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

يا ربنا: اغفر لي ما وقع مني من تقصير لا يسلم منه العباد، واغفر لوالدي - وهذا قبل أن يظهر له أن والده عدو لله - واغفر يا ربنا لجميع من آمن بك ذنوبهم يوم تجمع الناسِ للحساب.

(٤٢) ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

ولا تحسب - أيها النبي - أن الله يغفل عن أفعال الظالمين، من محاربة لله وصدٍ عن سبيله، وإيذاء لرسول الله مع الكفر والتكذيب، إنما يؤجل الله معاقبتهم ليوم شديد رهيب، ترتفع فيه عيونهم ولا تغمض من كثرة الأهوال، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وأتباعه مع الإعلان عن سنة الله في الظَّلَمَة أنهم في هلاك ودمار، ولو مدَّ لهم في الأعمار.

(٤٣) ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

يوم القيامة يخرج الظالمون من القبور مسرعين لإجابة الداعي رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئًا لهول القيامة، وقلوبهم خالية ليس فيها شيء من الثبات واليقين لكثرة الخوف والفزع.

(٤٤) ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾

وخوِّف - أيها النبي - الأمة عذاب يوم القيامة، يوم يقول الظلمة لأنفسهم بالكفر: يا ربنا، أمهلنا قليلاً حتى نتوب ونتبع رسولك؛ فيوبخهم الله على كفرهم وتكذيبهم بأنهم حلفوا في حياتهم الدنيا أنهم لا يموتون ولا يفارقون دنياهم، وقد أنكروا البعث بعد الموت.

(٤٥) ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

وحللتم - أيها الظالمون - في منازل الظَّلَمَةِ قبلكم كقوم هود وصالح، ووصلكم نبأ ما فعل الله بهم من الهلاك وضرب الله لكم الأمثال الواضحة فلم تعتبروا بها، بل أعرضتم وكذبتم.

(٤٦) ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾

وقد دبّر الكفار للنبي المختار جميع أنواع الكيد من قتلٍ وحبسٍ وإخراج، والله محيط بهذا الكيد، وقد أبطله وأحبطه بكيده القوي، ولو كان مكرهم تكاد تزول منه الجبال، لكن كيدَ الله أعظم، ومكره أكبر، فغلبهم - سبحانه - ولم يضروا الله شيئًا، بل عاد ضررهم على أنفسهم.

(٤٧) ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

فلا تحسبن - أيها النبي - أن الله يخلف الرسل ما وعدهم من النصر والتمكين وإهلاك المكذبين فهذا لن يكون أبدًا؛ لأن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء، عز فقهر، وحكم فغلب، وهو - سبحانه - ينتقم من أعدائه أشد الانتقام؛ لأن عِزَّه لا يُرام، وركنه لا يُضام.

(٤٨) ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

وهذا الانتقام من أهل الظلم والإجرام يكون يوم القيامة، يوم يبدل الله الأرض هذه بأرض أخرى بيضاء نقية كالفضة لم يسفك عليها دم، ولم يقع عليها ظلم، ويبدل الله السموات بغيرها، ويخرج الله البشر من قبورهم ظاهرين من عرصات الحساب للقاء الواحد القهار، المتفرد بالعظمة، الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، قهر غيره وغلب سواه، وكبت من عاداه، وأخزى من آذاه، له العزة المطلقة والتفرد التام.

(٤٩) ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾

وتبصر يوم القيامة الكفرة المجرمين مقيدين بالقيود، رُبطت أيديهم بالأغلال، وقُيدت أرجلهم بالسلاسل، فهم في غل وذل، وهوان وخسران، ومقت ولعنة.

(٥٠) ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

فُصِّلت ثيابهم عليهم من زيت القطران قوي الاحتراق، شديد الاشتعال، بالغ الحرارة، وتشوي وجوههم نار جهنم وتتمزع وتتقطع.

(٥١) ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾
وهذا الجزاء من الله لأعدائه عدل لا ظلم فيه على ما قدَّموا من الآثام وفعلوا من الإجرام؛ لأن الله يجازي كل عامل بما عمل من حسن وسيء، وهو الذي يحاسب الجمع الكثير في الوقت القصير، فهو اللطيف الخبير.

(٥٢) ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾
هذا القرآن الذي أنزله الله عليك - أيها النبي - هو إعلام للبشر، وتخويف للناس، فيه البشارة لمن آمن، والنذارة لمن كفر، علَّمهم أن يتعظوا، وليوقن من بلغه القرآن أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فيعبدوه وحده بلا شريك، وليعتبر به أصحاب العقول السليمة والفطر القويمة والنفوس الكريمة، فهو أجل موعظة في الدنيا.

مكية

ترتيبها ١٥

سورة الحجر

آياتها ٩٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾
الحروف المقطعة: الله أعلم بمراده بها، وما أنزلها إلا لمعان جليلة.
تلك الآيات الكريمة هي آيات الكتاب العظيم المنزل من الله على رسوله الكريم، وهو كلام الله القرآن، الواضح البين في ألفاظه ومعانيه، نزل بأجمل عبارة، وألطف إشارة، بالبشارة والنذارة، فيه سعادة الدنيا وفلاح الآخرة.

(٢) ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾
سوف يتمنى الكفار إذا شاهدوا خروج عصاة المؤمنين من النار لو كانوا مؤمنين بالواحد القهار؛ لينجوا من غضب الجبار، ولكن هيهات، فات الأوان، ووقع عليهم الخسران.

(٣) ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾
اترك الكفار يأكلوا في دنياهم الفانية، ويتمتعوا بلذائذ عيشهم ونيل شهواتهم وإشباع رغباتهم ونزواتهم، ويشغلهم الطمع والحرص على البقاء في عبادة الله، فإذا انكشف الأمر علموا خسارة ما فعلوا، وتفاهة ما أمَّلوا، وقبح ما صنعوا.

(٤) ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾
وإن استعجل الكفار العذاب في الدنيا استبعادًا له، فإن الله لا يهلك قرية إلا إذا حان أجلها المقدر، ووقت هلاكها المحدد لا وفق رغبتهم وأهوائهم.

(٥) ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾
لا يتجاوز قوم أجلهم المحدد فيزيدون عليه، ولا يتقدم قوم وقتهم المعلوم فينقصون منه، لكل قوم أجل معلوم.

(٦) ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾
وقال الكفار للنبي المختار: أيها الذي ادَّعى نزول القرآن عليه، لقد ذهب عقلك، ولو كنت عاقلاً ما ادعيت النبوة؛ تكذيبًا منهم واستهزاء.

(٧) ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾
هلاَّ جئتنا بملائكة السماء يشهدون لك أنك رسول من عند الله؟! فبغير شهادتهم لا نصدق، ولو شهدت الملائكة ما صدقوا!!

(٨) ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾

فأجابهم الله تعالى: بأنه لا ينزل الملائكة إلا بهلاك المكذبين الذي ما بعده مهلة وانتظار لمن لم يؤمن بالله، فإذا نزل بهم الهلاك فالله لا يمهلهم طرفة عين.

(٩) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

إن الله وحده نزَّل القرآن العظيم على النبي الكريم ﷺ، وتعهد الله بحفظه من الزيادة والنقصان، ومن عبث الإنس والجان، ولغو العرافين والكهان، فهو في حفظ الله طيلة الأزمان.

(١٠) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

ولقد سبقك - أيها النبي - رسل من الله أرسلهم إلى فرق السابقين وطوائف الماضين بتوحيد رب العالمين.

(١١) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وما جاء أولئك الأقوام السابقين من رسول من رب العالمين إلا سخروا منه وآذوه واستهزؤوا برسالته، وهذا عزاء وتسلية لرسول الله ﷺ، فكما حصل لك من إيذاء فقد حصل لمن قبلك، فلك أسوة.

(١٢) ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

كما أدخل الله التكذيب والإنكار في قلوب السابقين من الكفار، كذلك يدخل الله الكفر في قلوب مشركي هذه الأمة الذين استهزؤوا بالرسول ﷺ وكذبوه، فقد فعل الله بهم ما فعل بمن سبقهم لما أعرضوا.

(١٣) ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

لا يصدق الكفار بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، وقد سبقت سنة الله في إهلاك كل من كفر به وكذب رسله.

(١٤) ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾

ولو فتح الله بابًا من السماء لكفار مكة فصعدوا ودخلوا هذا الباب حتى شاهدوا الملائكة لكذبوا واستمروا على الكفر!!

(١٥) ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

ولقال الكفار بعد صعودهم ومشاهدتهم الملائكة إننا مسحورون، وقد تخيَّلنا رؤية الملائكة، والذي سحرنا هو محمد!! فهم مكذبون سواء أشاهدوا آية أم لم يشاهدوا.

(١٦) ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

ومن براهين قدرة الله وبديع صنعه أنه جعل في السماء الدنيا منازل للكواكب تنزل فيها، ودليلاً للمسافرين والمؤرخين وأوقات الغيث والقحط، وجمَّل الله السماء بالنجوم لمن يشاهدها فيستدل بخلقها على حكمة الله وجمال خلقه.

(١٧) ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾

وحفظ الله السماء بالشهب المحرقة من كل شيطان مطرود من رحمة الله؛ كي لا يسترق السمع فيأخذ شيئًا من الوحي.

(١٨) ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾

إلا من اختلس بعض الكلام من الملأ الأعلى أحيانًا، فإن الكواكب المضيئة المحرقة تدركه، وقد يخبر الشيطان أولياءه من العرافين والكهنة ببعض ما استرق قبل أن يُحرق.

(١٩) ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

وبسط الله الأرض وسوَّاها ونصب فيها جبالاً قوية تثبتها لئلا تضطرب، وأنبت في الأرض من كل زوج بهيج من أنواع النباتات بحصص مقدرة مما يحتاج إليه البشر والدواب.

(٢٠) ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾

والله جعل في الأرض مصدر الرزق والمعاش للناس والدواب من الحبوب والفواكه والخضراوات وأنواع المعادن، وهو الرازق وحده تكفَّل بقوت كل مخلوق.

(٢١) ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾

وليس في العالم شيء ينتفع به العباد والدواب إلا عند الله خزائنه بأنواعه وأصنافه، وينزله الله متى ما أراد بمقدار محدد، وحصص معلومة، فهو الذي يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، يغني من شاء ويفقر من شاء بحكمةٍ بالغةٍ ورحمةٍ واسعة.

(٢٢) ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾

وأرسل الله الرياح وجعلها تلقح السحاب فتمطر -بإذن الله- ماءً مباركًا يسقي به العباد والبلاد والدواب والأشجار، فالله الذي يخزن الماء وليس العباد، فإذا قحط الناس ألحوا على الله في سؤال الغيث.

(٢٣) ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾

والله وحده يحيي الأموات بالخلق من العدم وبالإعادة بعد الموت، ويميت الحي إذا انتهى أجله، وهو الوارث للأرض ومن عليها؛ لأنه - سبحانه - الباقي بعد فناء خلقه.

(٢٤) ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴾

ولقد علم الله من مات من المتقدمين، وَعلِمَ الأحياء من الخلق أجمعين، وعلم من سيأتي إلى يوم الدين.

(٢٥) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾

والله وحده يجمع العالم للحساب يوم القيامة، فهو حكيمٌ في تدبيره وتقديره وتصويره، عليم بالأحوال والأقوال والأعمال والبداية والمآل.

(٢٦) ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾

والله وحده هو الذي خلق آدم من طين يابس، له صوت إذا نُقر، من طين أسودَ متغير اللون والريح لطول بقائه، فمن أصله من الطين فلا يتكبر على رب العالمين.

(٢٧) ﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾

وخلق الله أبا الجن -وهو إبليس- من شعلة نار حارة لا دخان فيها، فجاء عجولاً طائشًا سفيهًا مؤذيًا كطبيعة النار، وجاء آدم كريمًا لينًا متواضعًا كطبيعة التراب.

(٢٨) ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾

واذكر يوم قال الله للملائكة: إني خالق إنسانًا من طين يابس، وهذا القول من الله إعلام للملائكة بمنزلة آدم عنده وتهيئةٌ لهم ليسجدوا له.

(٢٩) ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

فلما سوى الله صورة آدم وحسَّن خلقه نفخ فيه الروح، فخر الملائكة لآدم ساجدين تحية وتكريمًا، لا سجود عبادة، فلا يُسجد إلا لله وحده.

(٣٠) ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾

فسجد كل الملائكة ولم يتخلف منهم أحدٌ؛ امتثالاً لأمر الله وإكرامًا لآدم، فنالوا مزيد القرب من الله؛ لأنهم أطاعوا أمره.

(٣١) ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

لكن إبليس عصى أمر الله وامتنع أن يسجد لآدم؛ تكبرًا وحسدًا، فخالف الملائكة في السجود، فلعنه الله وطرده من رحمته.

٣٢ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

فلام الله إبليس وأنكر عليه عدم السجود لآدم مع الملائكة؛ لأن الكبر حمله على عصيان الأمر، فمعصيته من الشبهات، ومعصية آدم في الأكل من الشجرة من الشهوات، وهي أخف.

٣٣ ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾

قال إبليس معاندًا حاسدًا لآدم: لن أسجد لمخلوق صوَّرته من طين يابس أسودَ متغير، وأنا خُلقتُ من النار، والنار أشرف من الطين. وهذا قياس المفسدين.

٣٤ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾

فأمر الله بإخراج إبليس اللعين من الجنة مطرودًا خائبًا؛ لكبره وحسده، فالمتكبر والحاسد محروم من كل خير.

٣٥ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

وجعل الله اللعنة والطرد والإبعاد على إبليس إلى يوم المعاد؛ لأنه عصى الخالق وحسد المخلوق، وهو أول من قاس مع وجود النص.

٣٦ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾

فسأل إبليس ربه أن يؤخره إلى يوم القيامة؛ ليبقى حيًا يفتن العباد لما فيه من زيغ وفساد وحسد وعناد.

٣٧ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾

فأخبره الله أنه قد أخَّر هلاكه إلى الوقت الذي يموت فيه الخلق بعد النفخة الأولى، فالله أمهله لحكمة عظيمة.

٣٨ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾

وكان تأخير الله لإبليس إلى أجل مسمى استدراجًا له وإمهالاً وابتلاءً للثقلين وفتنة للعالمين؛ ليظهر المؤمن من الكافر.

٣٩ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

قال إبليس: يا ربي بما دمت قد أغويتني وأضللتني فسوف أُحسِّنُ المعاصي لبني آدم في حياتهم الدنيا، وأضلّهم بالغواية عن الهداية.

٤٠ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

لكني لا أستطيع أن أغوي الصادقين في إيمانهم المخلصين في طاعتهم، فهؤلاء محفوظون برعاية الله من إضلالي فلا سبيل لي عليهم.

٤١ ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾

قال الله تعالى: هذا طريق الهداية والإيمان المستقيم المعتدل الموصل إليّ وإلى جنتي، وهو طريق الأنبياء والرسل.

٤٢ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾

إن العباد الصالحين المخلصين ليس للشيطان عليهم ولاية، ولا سبيل له إلى إضلالهم وصدهم عن سبيل الله، فهم محفوظون بحفظ الله دائمًا، لكن سلطان الشيطان على من عصى الرحمن وعبد الأوثان، فهو وليهم يغويهم ويضلهم.

٤٣ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

وإن نار جهنم الموقدة الموصدة موعد الشيطان وأتباعه إلى يوم القيامة، يجمعون فيها خالدين في العذاب.

٤٤ ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾

للنار سبعة أبواب، لكل باب قسم من أتباع الشيطان حسب أعمالهم، كل باب أسفل من الآخر.

٤٥ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾

إن الذين اتقوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، مصيرهم إلى بساتين وارفة، وأنهار جارية في قرة عين.

(٤٦) ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾

يقال للمتقين: ادخلوا الجنات سالمين من كل آفة، آمنين من كل مخافة، فالسلام للأبدان والأمن للقلوب.

(٤٧) ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾

وأخرج الله ما في قلوب الأبرار في تلك الدار من حسد وحقد وغش وغل وعداوة، وهم متحابون متوادون، جلوسهم على أسرة مرفوعة، تتقابل وجوههم محبة وألفة؛ لزيادة النعيم وتمام التكريم.

(٤٨) ﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾

لا يصيبهم في الجنة وصب ولا نصب ولا تعب، وهم ماكثون فيها في خلود دائم ونعيم مستمر.

(٤٩) ﴿ ۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أخبر العباد - أيها النبي - أن الله كثير الغفران لمن تاب من أهل العصيان، كثير الرحمة لمن أناب، يغفر الذنوب العظيمة لمن صدق بتوبة كريمة.

(٥٠) ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾

وإن عذاب الله هو أشد العذاب وأقوى العقاب، فهو مؤلم موجع فظيع لا يُطاق لمن لم يتب، فالله واسع المغفرة للتائبين، شديد العقوبة للمصرين، والواجب الجمع بين الخوف من الله والرجاء في عفوه.

(٥١) ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾

وأخبر الناس - أيها النبي - عن خبر ضيوف إبراهيم من الملائكة الذين بشروه بإسحاق وبهلاك قوم لوط.

(٥٢) ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴾

فلما دخل الملائكة على إبراهيم قالوا له: سلامًا تسلم به من كل الآفات، فردَّ عليهم السلام، وقدم لهم الطعام، وبالغ في الإكرام، فلما أبوا أن يأكلوا قال: إنا منكم خائفون.

(٥٣) ﴿ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾

قالت الملائكة لإبراهيم: لا تخف منا، فعندنا لك بشارة بابن عالم بالله وبشرعه وهو إسحاق، فأعظم صفة للعبد بعد الإيمان هو العلم النافع.

(٥٤) ﴿ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾

قال إبراهيم لهم: كيف تبشرونني بولد وقد ذهب غالب عمري، ورقَّ عظمي، ودنا أجلي، وكذلك زوجتي، فبأيِّ أعجوبة تبشرونني ومثلي لا يُولَدُ له.

(٥٥) ﴿ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴾

قالوا: بشارتنا لك يقين لا شك فيه، وهي من رب العالمين الذي لا يخلف الوعد، فلا تيأس من الولد على كبر السن، فقدرة الله نافذة.

(٥٦) ﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

قال: أنا لا أيأس، فلا ييأس من رحمة الله إلا من انحرف عن دينه وأخطأ طريق الهداية.

(٥٧) ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾

قال إبراهيم لهم: ما الخبر العظيم الذي أرسلكم الله به أيها الملائكة الكرام؟

(٥٨) ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾

قالوا: إن الله أرسلنا لتدمير قوم لوط الفجرة الكفرة أهل الأفعال الشنيعة.

(٥٩) ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

لكنْ لوطًا وأهله في أمان من الهلاك فلن يصيبهم شرٌّ فهم في حفظ الله.

٦٠ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

أما زوجته الكافرة فقد قضى الله بإهلاكها مع الهالكين، فلا حسب ولا قرابة تنفع مع الكفر.

٦١ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

فلما جاءت الملائكة إلى لوط لإهلاك قومه ونجاته.

٦٢ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾

قال لوط للملائكة: إنكم قوم غير معروفين فعرِّفوني بكم من أنتم؟

٦٣ ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

قالوا: لا تخف يا لوط، فنحن ملائكة أرسلنا الله بالعذاب الذي كان يشك فيه قومك ويكذبون به.

٦٤ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

وجئناك بالحق الذي فيه نجاتك وهلاك قومك، وقد صدقنا فيما قلنا.

٦٥ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾

فاخرج - يا لوط - ليلاً ومعك من آمن بك، وسر خلف المؤمنين وهم أمامك لئلا يتخلف منهم أحد فيهلكوا، واحذروا أن يلتفت منكم أحد ويتأخر، وسيروا إلى ما أمركم الله به لتأمنوا من العذاب.

٦٦ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾

وأوحى الله إلى لوط أن العذاب سوف يدمر قومك جميعًا ويستأصلهم عن آخرهم مع طلوع الفجر.

٦٧ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

وجاء سكان مدينة لوط لما سمعوا أن عنده ضيوفًا يبشر بعضهم بعضًا؛ لفعل الفاحشة بالضيوف!!

٦٨ ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾

قال لوط لقومه: هؤلاء ضيوفي وهم في حمايتي وحفظي فلا تفضحونِ بما أردتم من عمل شنيع.

٦٩ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾

وخافوا عذاب الله واتركوا ضيوفي ولا تعرضوني للذل والخزي والهوان بإيذاء ضيوفي.

٧٠ ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قال قوم لوط له: أما سبق أن حذرناك أن تمنع أحدًا من العالمين منا؟ فاترك الناس ولا تتدخل في شؤونهم.

٧١ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾

قال لوط لقومه: هؤلاء بناتي فتزوجوهن واكتفوا بالنساء واتركوا فعلكم القبيح من إتيان الرجال.

٧٢ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يقسم الله - تعالى - بحياة محمد ﷺ أن قوم لوط في جهل عظيم وغفلة شديدة، وعمى عن الحق، وفي الحيرة يترددون.

٧٣ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾

فحلَّت بقوم لوط صاعقة العذاب وقت طلوع الشمس بعد أن خرج لوط وأهله في الليلة السابقة.

٧٤ ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

فقلب الله أعلى قراهم وجعلها سافلها، وأنزل عليهم من السماء حجارة من طين متصلِّب متين مزق أجسامهم.

٧٥ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾

إن في ما أصاب قوم لوط لعظةً للمتعظ، وعبرةً للمعتبر، فهي من أعظم النكال، وأشد العذاب.

٧٦ ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾

وإن قراهم على طريق واضح يراها المسافرون ويشاهدها المارُّون، فهل من معتبر؟

٧٧ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

إن في إهلاك قوم لوط دليلاً واضحًا للمصدقين بآيات الله ينتفعون به.

٧٨ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾

ولقد كان قوم شعيب أهل القرية الملتفة ظالمين لأنفسهم بالكفر والإعراض عن سبيل الله.

٧٩ ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

فانتقم الله من قوم شعيب بالرجفة وعذاب يوم الظلة، وإن قرى قوم لوط وشعيب لفي طريق واضح يراها الناس إذا سافروا فيتعظون.

٨٠ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾

ولقد كذَّبت ثمود صالحًا، وهم أصحاب الوادي الذي كانوا به وهو وادي الحجر، فكأنهم لما كذَّبوا صالحًا كذبوا جميع المرسلين.

٨١ ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

وبيَّن الله لقوم صالح آياته الدالة على وحدانيته وعلى صحة ما جاء به صالح من الرسالة، ومنها الناقة، فلم ينتفعوا بهذه الآيات، وكانوا صادين عن الاعتبار، مبتعدين عن الحق.

٨٢ ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾

وكان قوم صالح ينحتون الصخور في الجبال بيوتًا لهم وهم آمنون من أن تسقط عليهم أو تخرب، فما نفعتهم قوتهم وما استمر أمنهم لما كفروا بربهم.

٨٣ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾

فأحرقتهم صاعقة العذاب مع الصباح الباكر فهلكوا جميعًا.

٨٤ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

فما منعهم من عذاب الله ما جمعوا من الأموال وما بنوا من البيوت، فقوة الله أعظم وعذابه أشد.

٨٥ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

وما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق الدال على تمام خلقه وحسن صنعه، وأنه مستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأن يوم القيامة لقادم لا محالة في وقوعه ليجازي كل عبد بما عمل، فيا أيها النبي: اعف عن هؤلاء المكذبين، وتجاوز عن مؤاخذتهم بإساءتهم، فالله سوف يتولى حسابهم.

٨٦ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

إن الله وحده هو الخلاق لكل مخلوق، أنشأه من العدم وصوره على أحسن صورة، العليم بما خفي وظهر وأسر وجهر، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عن علمه غائبة.

(٨٧) ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾

ولقد آتى الله محمداً ﷺ وأكرمه بفاتحة الكتاب الشافية الكافية التي تكرر في كل صلاة، وآتاه القرآن العظيم في لفظه ومعناه وإعجازه وبلاغته، وهي من أعظم النعم وأجل المنن.

(٨٨) ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

لا تنظر بعينيك - أيها النبي - ولا تتمن ما متعنا به الكفار من متع زائلة كمتاع الأنعام وحرموا الهداية للإسلام، ولا تحزن على كفرهم فذنوبهم عليهم، وتواضع للمؤمنين بلين الجناب وحسن الخطاب.

(٨٩) ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

وقل - أيها النبي - للناس أنا المنذر المحذِّر من عذاب الله، الدال على الله، المبين آياته، الناصح الأمين على الوحي.

(٩٠) ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾

مثلما أنزلنا على الذين قسَّموا القرآن وفرقوه فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض قد سبق أن أنزلنا على اليهود والنصارى وغيرهم فاختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض.

(٩١) ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾

وهؤلاء القوم هم الذين تفرقوا في حكمهم على القرآن، فمنهم من قال: سحر أو شعر أو كهانة؛ زوراً من عند أنفسهم ليصدوا البشر عن الذكر الحكيم والرسول الكريم.

(٩٢) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

فوالله العظيم ليحاسبنَّهم الله على ما قالوه وما فعلوه يوم العرض الأكبر.

(٩٣) ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

وسوف يسألهم الله عن افترائهم في القرآن واختلاف قولهم فيه ورميهم الحق بالباطل كذبًا وزورًا .

(٩٤) ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

فاجهر - أيها النبي - بدعوتك إلى الحق التي أمرك الله بإبلاغها، ولا تخف من الكفار، فأنت على الحق وهم على الباطل، وفيه الشجاعة في تبليغ الحق والتقيد بالشريعة وعدم رهبة البشر.

(٩٥) ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾

سوف يحميك الله - أيها النبي - من الساخرين الكافرين بهزيمتهم وإحباط كيدهم، ثم التنكيل بهم في الآخرة.

(٩٦) ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

هؤلاء الكفار الذين اتخذوا شركاء من دون الله ولم يوحدوه بالعبادة، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم إذا عادوا إلى ربهم.

(٩٧) ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

لم يخفَ علينا ما يؤذيك ويؤلم نفسك ويضيق به صدرك بسبب ما يقوله أولئك المستهزئون المشرعون.

(٩٨) ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

فلا يحزنك قولهم وقل: سبحان الله وبحمده وكن من المصلين المتواضعين، والتسبيح والحمد والصلاة شفاء مما تضيق به الصدور في دار الغرور.

(٩٩) ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾

واعبد ربَّك وأطعه طاعة تبقى معك ما بقيت حياتك حتى يأتيك الموت الذي توقن به.

مكية

ترتيبها
١٦

سورة النحل

آياتها
١٢٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قريت القيامة - أيها المنكرون لها - فلا تستعجلوا العذاب استهزاءً به وسخرية منه فسوف يقع، تنزَّه الله وتقدَّس عن شرك المشركين.

(٢) ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

الله ينزل الملائكة بالوحي من أمره على من يشاء من عباده الأنبياء، فيرسلهم بتحذير الناس من الشرك ودعوتهم إلى توحيد الله لا شريك له، والدعوة لتقوى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

الله خلق السموات والأرض بالحق؛ لتكون دليلاً للناس على عظمة الله وحكمته وبديع صنعه، وأنه وحده مستحق للعبادة، تنزَّه الله عن شرك من أشرك به.

(٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

خلق الله الإنسان من ماء مهين، فإذا هو يعادي ربه ويجادل في آياته وينكر البعث ويكذب الرسل، وقد نسي أصله وضعفه.

(٥) ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

والله - سبحانه - خلق لكم الأنعام من إبل وبقر وغنم، وجعل لكم من أصوافها وأشعارها وأوبارها دفئًا لكم في البرد، وتنتفعون بجلودها وتأكلون لحومها وتركبون ظهورها.

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾

ولكم - أيها الناس - فيها زينة تدخل البهجة على نفوسكم حينما تعود أنعامكم في المساء إلى بيوتكم، وحينما تخرج في الصباح من بيوتكم للرعي.

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

وسخَّر الله لكم الأنعام لحمل أمتعتكم إلى البلدان البعيدة التي لا تستطيعون الوصول إليها إلا بمشقة عظيمة، إن ربكم لطف بكم ورحم ضعفكم فسخر لكم ما يعينكم، فبرأفته يجلب لكم المنفعة، وبرحمته يدفع عنكم المشقة.

(٨) ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

وخلق الله لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوا على ظهورها، وجعلها جمالاً لكم في المواكب والأسفار لما فيها من منظر حسن، والله يخلق لكم من وسائل الركوب وغيرها ما لا علم لكم به مثلما جدَّ من وسائل حديثة، فكل ذلك من فضل الله ونعمته.

(٩) ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

وعلى الله وحده بيان الطريق المستقيم لتهتدوا وتسلكوه، وهو طريق الإيمان بالله الذي دعت إليه الرسل، ومن الطريق ما هو مائل منحرف لا يوصل إلى مقصود ولا ينجي من هلاك، وهو كل طريق ضال يخالف طريق الهداية من طريق أهل الكفر والفساد والزيغ والإلحاد، ولو أراد الله أن يهدي جميع الناس لفعل، ولكن لحكمة منه بالغة هدى من شاء، وأضل من شاء.

(١٠) ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾

والله وحده الذي أنزل لكم من الغمام ماءً مباركًا طهورًا تشربون منه، وأنبت لكم به شجرًا وزرعًا ترعى فيه دوابكم وتعود منافعها إليكم.

(١١) ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

والله يخرج لكم بماء الغمام أشجار الزيتون والنخيل والأعناب، ومن سائر أنواع الثمار والأشجار والخضار، إن في إنبات ذلك وسقيه وطلعه وثمره دلالات واضحات لمن يتأمل ويعتبر فيؤمن.

(١٢) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

والله سخر لكم الليل للمنام، والنهار للمعاش، وجعل الشمس مضيئةً لكم والقمر نورًا؛ لتعرفوا السنين والشهور والأيام والحساب، وجعل النجوم في السماء مسخرات لكم لمعرفة الأوقات والاهتداء في الظلمات وإنضاج الثمرات، إن في خلق هذه الأجرام لبراهين ساطعة لقوم يعقلون.

(١٣) ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾

والله وحده سخر لكم جميع مخلوقاته في الأرض من الحيوان والنبات والجماد مما تختلف أشكاله وألوانه ومذاقاته، وهذا الخلق مع اختلاف الأنواع والأصناف فيه عظة للمتعظين، وعبرٌ للمعتبرين، فهو من أعظم الدلالات على توحيد الله، وأنه يستحق إفراده بالعبودية سبحانه.

(١٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

وهو - سبحانه - الذي سخر البحر للبشر ليأكلوا من سمكه لحمًا طريًا ويستخرجوا من لؤلئه ومرجانه زينةً، وهم يشاهدون السفن العظيمة على ظهر البحر تسافر وتعود بمنافعهم، ويسافرون عليها لطلب العلم والتجارة وجميع المصالح؛ لعلهم يشكرون الله على هذه النعم العظيمة بالإيمان به وعبادته وحده عز وجل.

(١٥) ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾

والله وحده ثبت الأرض بالجبال لئلا تضطرب وتتحرك، وجعل فيها أنهارًا عذبة للشرب والغسل وسقي الدواب والنبات، وجعل في الأرض طرقًا لتكون معالم للناس حتى لا يضلوا في فجاج الأرض؛ فيسلكوها في مقاصدهم.

(١٦) ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾

والله جعل أدلة في النهار للناس يستدلون بها على الطرق مثلما جعل النجوم أدلة في الليل يهتدون بها في سفرهم.

(١٧) ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

هل يُعقل أن يستوي من يخلق هذه الأشياء ويسخرها لكم كمن لا يستطيع ذلك في استحقاق العبودية والألوهية؟ أفلا تتذكرون قدرة الله على الخلق وحده فتوحِّدوه ولا تشركوا به آلهةً أخرى.

١٨ ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ومهما اجتهدتم في حصر حساب نعم الله التي أنعم بها عليكم لن تستطيعوا ذلك؛ لكثرة أنواعها وأصنافها ومنافعها، إن الله كثير الغفران لكم على تقصيركم في شكر النعم، واسع الرحمة لا يقطعها عنكم لمعاصيكم ولا يعاجلكم بالعقوبة مع عصيانكم

١٩ ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾

والله وحده يطلع على كل أفعالكم ما خفي منها وما ظهر، وما أُسرَّ وما جهر، وسوف يحاسبكم عليها.

٢٠ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾

والأصنام والأوثان التي يعبدها الكفار لا تخلق شيئًا، فهي مخلوقة صنعها الكفار ثم عبدوها، فكيف يُعبد المخلوق العاجز، ويُترك الخالق الغني القوي جل في علاه.

٢١ ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾

هذه الأوثان والأصنام جمادات لا روح فيها ولا حياة لها، ولا تعلم الزمن الذي يخرج الله عابديها من القبور ليدخلها معهم في نار جهنم.

٢٢ ﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

والإله المستحق للعبادة هو الله الذي لا إله إلا هو الواحد الأحد، لا شريك له ولا رب سواه، فالمكذبون بالبعث بعد الموت ينكرون وحدانية الله ويجحدون ألوهيته سبحانه؛ لعدم خوفهم من العقاب، وهم يتكبرون عن قبول الحق وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

٢٣ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾

حقًا إن الله يعلم ما أخفته سرائرهم، وأسرته ضمائرهم من نيات واعتقادات، وما أظهروه من أقوال وأعمال وأحوال، وسوف يحاسبهم على ذلك، إن الله لا يحب من تكبر على طاعته، وأبى الانقياد لعبادته، وسوف يجازيه على هذا العمل.

٢٤ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

وإذا سئل الكفار ماذا أنزل الواحد القهار على النبي المختار، قالوا كذبًا وزورًا: ما عنده إلا قصص السابقين، وأباطيل القدامى وأخبار من سبق، وليست وحيًا من عند الله.

٢٥ ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

سيجعل الله عاقبتهم يوم العرض الأكبر أن يحملوا ذنوبهم كاملة غير ناقصة، لا يتجاوز الله عنهم شيئًا منها، ويحملوا معها ذنوب من اتبعوهم وكانوا هم سببًا في إضلالهم وصدهم عن الإيمان، ألا قبحًا لهم ولما يحملونه من ذنوب.

٢٦ ﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

قد كاد الكفار السابقون لرسلهم المكايد، فأحبط الله كيدهم وزلزل بنيانهم من أساسه وقواعده، وسقط عليهم السقف من فوقهم، فأتاهم الدمار من حيث لا يشعرون، وباغتهم الهلاك من حيث لا يحتسبون، وصبّحهم العذاب وهم آمنون.

٢٧ ﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

ثم يوم القيامة يفضح الله الكفار ويهينهم في النار، ويقول لهم -توبيخًا-: أين الذين جعلتموهم لي شركاء في العبادة ليمنعوكم من هذا العذاب، وقد كنتم تحاربون الرسل وأتباعهم من أجلهم؟ قال أهل العلم والإيمان: إن الهوان والذل والصغار على الكفار في هذا اليوم العظيم.

(٢٨) ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

الذين تقبض الملائكة أرواحهم من الكفار وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك بالله، فاستسلموا لأمر الله وحده بعدما عاينوا الموت، وجحدوا ما كانوا يشركون به، وأنكروا ما عملوه من الذنوب، فيقال لهم: كذبتم، بل أنتم عصاة مذنبون، إن الله عليم بما فعلتموه من الذنوب وسيحاسبكم عليها.

(٢٩) ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

فادخلوا - أيها الكفار - أبواب النار ماكثين فيها أبدًا، فبئست النار مقرًا لأهل الكبر والعناد، ودارًا لأهل الزيغ والإلحاد.

(٣٠) ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

وإذا سئل المؤمنون بالله ورسوله: ماذا أنزل الله على رسوله ﷺ؟ قالوا: أنزل الله عليه الحق والهدى وكل صلاح وتقوى، للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ويسارعون في الخيرات كرامة عظيمة، وفوز كبير من العز والتمكين في الحياة الدنيا وما يعطونه في الآخرة من النعيم المقيم، والأجر العظيم خير مما يعطونه في الدنيا، ولنعم دار المتقين جنات الخلد عند الله تعالى.

(٣١) ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

جنات خلود واستقرار وأمن وبهجة للأبرار يسكنونها ماكثين فيها أبدًا، تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، أعدَّ الله لهم فيها ما تشتهيه أنفسهم، وبمثل هذه الكرامة العظيمة يثيب الله أولياءه ممن اتقاه وخاف مقامه وأعدَّ العدة للقائه.

(٣٢) ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وهم الأبرار الذين تقبض الملائكة أرواحهم ونفوسهم طاهرة من الشرك، تحييهم الملائكة بقولهم: سلام عليكم من كل آفة، وأمن لكم من كل مخافة، ادخلوا جنات النعيم بما كنتم تعملونه من الإيمان وطاعة الديان ومحاربة أولياء الشيطان.

(٣٣) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ما ينتظر الكفار إلا نزول الملائكة لقبض أرواحهم على الكفر أو يأتي هلاكهم من الله، ومثلما كذَّب هؤلاء الكفار كذَّب الكفار من قبل، فأهلكهم الله ولم يظلمهم بإهلاكهم، وإنما جازاهم على كفرهم، فهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله ومحاربة الرسل.

(٣٤) ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

فأهلكهم الله بالعذاب جزاء أفعالهم الشنيعة التي فعلوها، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه، فلم يبق لهم باقية.

(٣٥) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

وقال الكفار: لو أراد الله أن نعبده وحده ما عبدنا أحدًا غيره لا نحن ولا آباؤنا من قبل ولا حرَّمنا شيئًا لم يُحرِّمه علينا، وبمثل هذا الاعتراض الكاذب اعترض من سبقهم من الكفار، وهذا كذب، فإن الله أمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر، وبيَّن لهم طريق الهداية والغواية، وجعل لكل منهم مشيئة وإرادة يعملون بها فاحتجاجهم بالقضاء بعد إرسال الرسل باطل، وقد قامت عليهم الحجة بالإنذار، وليس على الأنبياء إلا البيان الواضح والإرشاد إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

٣٦ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

ولقد أرسل الله في كل أمة سبقت رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك من عبادة الأصنام والأوثان وغيرها، فمنهم فريق وفَّقهم الله للاستجابة واتباع الرسل، ومنهم فريق أضلَّهم الله فكفروا به وكذبوا رسله، فسافِروا في نواحي الأرض، وشاهدوا آثار المعذَّبين، وانظروا بيوتهم الخاوية لتعتبروا وتتعظوا.

٣٧ ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

مهما اجتهدت - أيها النبي - وحرصت على هداية هؤلاء الكفار فإن الله لا يهدي من آثر الضلالة وقد كتب الله عليه الشقاء، وليس للكفار أحدٌ يدفع عنهم عذاب الله ويمنعهم من عقابه.

٣٨ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وحلف الكفار بكل الأيمان المغلظة: إن الله لا يعيد من يموت حيًا!! بعدما فني في قبره. بلى سيعيدهم الله أحياءً، وعدًا حقًا سبق من الله، والله لا يخلف وعده، ولكن أكثر الناس ممن كذَّب بقدرة الله لا يعلمون قدرته على البعث، فهم ينكرون ذلك جهلاً وعنادًا.

٣٩ ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾

والله يعيد العباد ليوم المعاد؛ ليبيِّن لهم حقيقة الإحياء بعد الموت التي اختلفوا فيها، فيثيب المؤمنين على إيمانهم، ويعاقب الكفار على كفرهم، فيعلم المؤمنون أنهم على حق، ويعلم الكفار أنهم على باطل يوم حلفوا ألاَّ بعث ولا نشور.

٤٠ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

إن البعث بعد الموت أسهل على الله من النشأة الأولى، - والكل عليه هينٌ - فإذا أراد الله شيئًا فإنما يقول له: "كن" فيكون هذا الشيء كائنًا موجودًا.

٤١ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

والذين خرجوا من أوطانهم للنجاة بدينهم في سبيل ربهم بعدما وقع عليهم الأذى ليسكننهم الله دارًا حسنةً، ويزيدهم من النصر والتمكين، والأجر الذي أعدَّه الله لهم في الآخرة أكبر، من الخلود في جنات النعيم مع الثواب العظيم، ولو علم من ترك الخروج في سبيل الله للنجاة بدينه ما عند الله من الثواب العظيم والفوز والنعيم ما تخلف منهم أحد عن ذلك.

٤٢ ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

والمهاجرون في سبيل الله هم الصابرون على فعل الأوامر واجتناب النواهي وتحمل مرِّ القضاء، وهم على ربهم يعتمدون، وإليه يفوِّضون، وبه يثقون، فكان جزاؤهم هذا الفوز الأكبر.

٤٣ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وما أرسل الله قبلك - أيها النبي - من الرسل إلا رجالاً من الناس لا من الملائكة، يوحي إليهم بشريعة من عنده، فإن كنتم شاكينَ فاسألوا أهل الكتب المنزَّلة من قبل؛ كاليهود والنصارى يخبرونكم أن أنبياءهم كانوا رجالاً ولم يكونوا ملائكة، ففي الآية عموم، وعلى كل سائل عن مسألة في الشريعة أن يسأل علماء الملة الراسخين في العلم.

٤٤ ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وأرسل الله الرسل المتقدمين بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة والكتب المنزلة، وأنزل الله عليك - أيها النبي - القرآن الحكيم؛ لتوضح للأمة معانيه وتبيِّن لهم ما أُجمِلَ فيه؛ لعلهم بعد البيان أن يتدبروا ويتفقهوا فيه.

(٤٥) ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

هل أمن الكفار أهل المكائد والحيل أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون، أو ينزِّل الله عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟

(٤٦) ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

أو ينزِّل الله عليهم العذاب وهم يتقلبون في أعمالهم من معاش وسفرٍ وتجارة، فلا يفوتون على الله ولا يهربون من عذابه ولا ينجون من عقابه، بل هم في قبضته وتحت تصرفه.

(٤٧) ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

أو يأخذ الله الكفار بالعذاب وهم في حالة خوف من العقاب، وجلين مما يحل بهم من الأعاصير والموت وذهاب الأموال، ونقصها فإن الله - عز وجل - رؤوف بخلقه، يمهل العاصي ولا يعاجله، ويمتع الكفار في هذه الدار، رحيم بالخلق، يقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، ويمهل لهم في المدة.

(٤٨) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾

لماذا عمي الكفار عن النظر إلى خلق الواحد القهار وما فيه من عبر لأولي الأبصار، كالسماء والأرض والبحار، والشمس والقمر والأنهار، والجبال والنجوم والليل والنهار، والأشجار والثمار وظلها يميل ذات اليمين وذات الشمال مع تحرك الشمس نهارًا، والقمر ليلاً، كل هذه المخلوقات منقادة لأمر الله خاضعة لعظمته، وهي مسخرة مدبرة مقهورة تحت سلطان الله تعالى.

(٤٩) ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

ولله وحده يسجد كل ما في السموات والأرض من كل دابة، والملائكة يسجدون لله في تواضع وذلةٍ وانكسار، وخصهم بالذكر لامتثالهم للأمر وجلالة القدر، ولم يأب السجود لله إلا عصاة الجن، وعصاة بني آدم.

(٥٠) ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

يخاف الملائكة ربهم الأعلى، وهو الذي فوق العباد مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله، ويفعل الملائكة ما يأمرهم الله به فلا يعصون الأمر ولا يتعدونه.

(٥١) ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

وأمر الله عباده على ألسنة رسله أن لا يعبدوا إلهين اثنين، إنما يعبدون الله الواحد الأحد لا إله إلا هو ولا معبود بحقٍ سواه لا شريك له، وعليهم أن يخافوه وحده دون سواه.

(٥٢) ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾

ولله وحده خلقًا وملكًا ورزقًا وتدبيرًا كل ما في السموات والأرض، وله وحده الدين خالصًا دائمًا، أفيصح لكم أن تخافوا غير الله وأن تعبدوا سواه، وهو أحق أن يُعبد، وأولى أن يُوحَّد.

(٥٣) ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾

وما بكم - أيها الناس - من نعم ظاهرة وخفيَّة كبيرة وصغيرة من هداية وأمن وعاقبة ومال وولد وغير ذلك فهي من الله وحده، وهو المنعم المتفضل عليكم لا سواه، وإذا نزل بكم البلاء ومسَّتكم الضراء وحلَّ بكم المرض والفقر والعسر، فأنتم لا تدْعُون إلا الله وحده، تضجون إليه بالدعاء وقت الشدائد.

(٥٤) ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

ثم إذا أزال الله عنكم الشدائد وأبدل بعد العسر يسرًا إذا طائفة منكم تشرك بالله غيره، فتعبد سواه وتجحد نعمه وتكفر بإحسانه.

(٥٥) ﴿ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾

ليجحدوا نعم الله عليهم وأياديه لديهم بإسداء النعماء وصرف البلاء، فليتمتعوا بدنياهم الزائلة الفانية، فسوف يظهر لهم سوء صنيعهم يوم الحساب، يوم يذوقون العذاب.

(٥٦) ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴾

ومن شنيع أفعالهم أنهم يصرفون قسمًا من أموالهم التي رزقهم الله إياها للأصنام التي لا تنفع ولا تضر، تالله ليسألنهم الله يوم القيامة عن هذا الزور والبهتان من صرف عبادة الرحمن للأوثان والشيطان.

(٥٧) ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾

وينسب الكفار البنات إلى الله كذبًا فيقولون: الملائكة بنات الله - تعالى الله عن هذا الكذب - وتقدَّس من هذا الزور، أما هم فينسبون إلى أنفسهم البنين، قاتلهم الله على هذا البهتان.

(٥٨) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾

وإذا جاء الكافر خبرٌ بولادة بنت له اسود وجهه، وضاق صدره، وامتلأ غمًا وهمًا.

(٥٩) ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾

يستتر من أصحابه كراهية أن يلقاهم للعار الذي يجده في نفسه بسبب ابنته، وهو متردد أيترك البنت حية ويصبر على الذل والهوان، أم يدفنها حيةً في التراب خوفًا من العار؟ ألا قبُح الله هذا الحكم الذي حكموه حيث جعلوا البنات لله - جل في علاه - والبنين لهم!!

(٦٠) ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

الأوصاف القبيحة والأمثال الشنيعة للكفار الفجار، أما الواحد القهار فله الصفات العُلى من الكمال والجلال والجمال والغنى والعظمة، وهو الذي عز فلا يغالب، وقهر فلا يحارب، ولا يعجزه فار، ولا ينجو منه هارب، وهو حكيم في شرعه وفي صنعه.

(٦١) ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾

ولو أن الله يؤاخذ من كفر من البشر لأفنى جميع من على الأرض فما تحرك متحرك، لكن يمهلهم ويحلم عليهم إلى أجل وقَّته - سبحانه - فإذا انتهى الأجل أخذهم على عجل، فلا يتأخرون عن الوقت المحدود، ولا يتقدمون على الأجل المعدود.

(٦٢) ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴾

ومن شنيع أفعالهم أنهم ينسبون البنات إلى الله وهم يكرهون نسبتها إلى أنفسهم، ويدعون أن العاقبة الحميدة لهم، حقًا إنهم سوف يُخلدون في النار وإنهم فيها متروكون منسيون.

(٦٣) ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

تالله لقد أرسل الله قبلك - أيها النبي - رسلاً إلى أقوامهم، فزين لهم الشيطان عبادة الأوثان، وصدَّهم عن عبادة الرحمن، فهو متولي أمورهم، يوردهم الغواية، ويمنعهم الهداية، ولهم عذاب النار عذاب موجع شديد لا يُطاق.

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

وما أنزل الله عليك - أيها الرسول - القرآن إلا لتوضح للأمة ما اختلفوا فيه من العقائد والأحكام؛ ليتضح الحق ولتقوم الحجة، ويهتدي من شاء الله هدايته، ويرحم الله بهذا الكتاب من آمن به وتدبره وعمل بما فيه، فالنجاة والسعادة والهداية والرحمة كلها في القرآن.

٦٥ ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾

والله وحده أنزل من الغمام ماءً فأخرج به النبات الأخضر من الأرض الجدباء اليابسة، إن في إنزال الماء من السماء وإنبات الأرض الجرداء برهانًا على قدرة الحكيم الخبير، وعلى وحدانية الواحد الأحد. لقوم يسمعون العظات فيتدبرونها ويعملون بما دلَّت عليه.

٦٦ ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾

وإن لكم - أيها البشر - في الإبل والغنم والبقر، لعبرةً لمن اعتبر، فانظروا كيف يسقيكم الله من ضروعها لبنًا صافيًا أبيض لذيذًا من بين فرث وهو ما في كرش الدابة، وبين دمٍ ومع ذلك يخرج اللبن خالصًا من الشوائب لذةً للشاربين.

٦٧ ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

ومن نعم الله عليكم - أيها الناس - ما تنتفعون به من ثمر النخل والعنب؛ فتجعلونه خمرًا مسكرًا - وهذا قبل التحريم - وطعامًا طيبًا لذيذًا، إن في هذه النعم لبرهانًا على قدرة الله للعباد الذين يعقلون العظات، وينتفعون من العبر.

٦٨ ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾

والله وحده هو الذي ألْهَم النحل بأن تجعل بيوتها في الجبال والشجر وبما يبني البشر من المنازل والأخشاب.

٦٩ ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وأوحى الله إلى النحل أن تأكل من كل ثمرة طيبة تشتهيها وتسلك ذاهبة آيبة في الطرق التي سهلها الله - عز وجل - فلا تضل النحلة في ذهابها وعودتها، يُخرج الله من بطون النحل عسلاً مصفى أبيضَ وأصفرَ وأحمرَ يسرُّ الناظرين، ويلذ طعمه للآكلين فيه شفاء للبشر من المرض والضر، إن في خلق النحل وما يصنعه من بيوت وما يأكله من ثمرات وما يخرجه من عسل؛ برهانًا عظيمًا على قدرة الحكيم لمن له عقل يتفكر ويعتبر ويتدبر.

٧٠ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾

والله وحده سبحانه خلقكم من العدم، ثم يميتكم إذا انتهت آجالكم، وبعضكم يهرم ويُخرِّف ويصبح كالطفل لا يعلم شيئًا مما كان يعلمه، وينسى ما يحفظه، ويجهل ما يعرفه، إن الله عليم أحاط علمه بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، قدير أوجد من العدم، وأمات بعد الإحياء، وأحيا بعد الإماتة جل في علاه.

٧١ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾

والله وحده فضَّل بعض الناس على بعض في الرزق، فمنهم غني وفقير، ورئيس ومرؤوس، وسيد ومسود؛ ولهذا لا يعطي المالكون مملوكيهم ولا الرؤساء مرؤوسيهم ما يصيرون به مثلهم في المكانة والجاه والمال؛ لأنه لا يرضى المالك أن يساويه مملوكه، فلماذا رضوا أن يجعلوا لله شركاء من عبيده يساوونه في الألوهية ويقاسمونه في العبودية، إن هذا ظلم عظيم ونكران لنعمة الله، وجحود لفضله وعطائه عز وجل.

٧٢ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾

والله - سبحانه - خلق لكم من جنسكم زوجات لتستريح نفوسكم معهن، ويتم الأنس والراحة بين الزوج والزوجة، وخلق لكم من الزوجات الأبناء، ومن الأبناء الحفدة، ورزقكم من سائر الأطعمة الطيبة والأشربة اللذيذة من الحبوب والثمار والخضراوات والفواكه واللحوم إلى غير ذلك؛ لتستعينوا بها على طاعة الله، أفبالزور والكذب من ألوهية

الأصنام والأوثان يؤمن الكفار، وبنعم الله الجليلة وأياديه الجزيلة يجحد هؤلاء الأشرار الفجار ولا يشكرون الواحد القهار ولا يفردونه بالألوهية وهو المستحق لها؛ لأنه الملك الجبار؟!

٧٣ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾

ويعبد الكفار أصنامًا وأوثانًا لا ترزقهم شيئًا من السماء كالغيث، ولا تعطيهم شيئًا من الأرض كالحبوب والثمار، فهي لا تملك شيئًا ولا تعطي أحدًا، ولا تقدر على التملك والعطاء، إنها معبودات جامدة عاجزة.

٧٤ ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فإذا تيقنتم - أيها الناس - أن الأصنام والأوثان لا تنفع ولا تضر، فلا تجعلوها مماثلة ومشابهة لله جل وعلا؛ لأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فأنتم لا تعلمون ما فعلتموه من خطأ عظيم وذنب جسيم.

٧٥ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الله يضرب مثلاً يبين فيه قبح عقيدة المشركين برجل رقيق مملوك لرجل آخر لا يستطيع التصرف، ورجل حر له مال يتصرف فيه يتصدق منه في الخفاء والعلن، فهل يستوي الرقيق المملوك المحجور عليه مع الحر المتصرف الذي ينفق ماله؟ فكذلك الله الخالق الرازق المدبر المتصرف في خلقه لا يستوي مع عبيده العاجزين القاصرين الفقراء، فكيف تسوون - أيها الكفار - بين العبيد والواحد القهار؟! الحمد والثناء لله وحده، فأكثر الكفار لا يعلمون أن الحمد والثناء والنعمة لله، وأنه المستحق وحده للعبودية، وأنه لا إله إلا هو.

٧٦ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وضرب الله مثلاً آخر لقبح عقيدة الكفار برجلين: أحدهما أخرس لا يتكلم، أصم لا يفهم، لا يستطيع نفع نفسه ولا نفع غيره، لا خير فيه ولا نفع من ورائه، وهو حمل ثقيل على والي أمره، إذا كلفه بمهمة لا يقوم بها، فهو لا يقضي حاجة ولا تُرجى منه مصلحة، ورجل آخر ممتع بجوارحه، يقوم بنفع نفسه وغيره، وهو منصف في أموره وأحكامه لتمام عدله، ومنهجه منهج قويم، وهو على طريق مستقيم في اعتقاده وأخلاقه، فهل يستوي الرجلان عند أهل البصائر السوية؟ فكيف - أيها الكفار - تسوون بين الأحجار والواحد القهار؟ والحجارة صماء بكماء عمياء، والله - سبحانه - متكلم سميع بصير منعم قادر، خالق رازق، عليم حليم، تقدست أسماؤه.

٧٧ ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

كل ما غاب في السموات والأرض فالله يعلمه ويطلع عليه، ولا تخفى عليه خافية، وما حالة القيامة في سرعة قيامها إلا كخطفة العين إذا نظرت أو أسرع من ذلك، إن الله على كل شيء قدير، ومن ذلك قدرته على إقامة الساعة ونهاية العالم.

٧٨ ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

والله وحده أخرجكم أطفالاً من بطون الأمهات بعد مدة الحمل، لا يدري أحدكم عن شيء مما حوله، وجعل لكم وسائل العلم والإدراك من سمع وبصر وقلوب، عسى أن تشكروا الله بالتوحيد وتفردوه بالعبادة.

٧٩ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أما نظر الكفار نظر تدبر إلى الطير ذللها الله في السماء للطيران بمشيئته وقدرته، مَنْ الذي يمسكها أن تقع من السماء على الأرض إلا الله وحده، إن في خلق الطير وطيرانها وإمساكها في الجو برهانًا واضحًا على قدرة الله لعبادٍ يؤمنون بوحدانية الله ويتفكرون في بديع صنعه.

٨٠ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴾

والله وحده هو الذي هيأ لكم منازل للراحة والسكنى والاستقرار مع أهلِكُم في حالة الحضر والإقامة، وجعل لكم في حالة السفر والارتحال خيامًا وقبابًا من شعر الأنعام وجلودها؛ ليكون حملها عليكم خفيفًا وقت الارتحال، ويسهل عليكم نصبها زمن الإقامة، وجعل لكم من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثًا وأمتعة وأكسية وألبسة وأردية وأغطية وملاحف وبيوت تستخدمونها وتتفعون بها حتى الموت.

٨١ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾

والله وحده جعل لكم ما تستظلون به من حرارة الشمس كالأشجار وغيرها، وجعل لكم الجبال مغارات وكهوفًا تسكنونها وقت الحاجة، وجعل لكم ثيابًا من القطن والصوف وغيرهما من أنواع الأقمشة تلبسونها تمنعكم من أذى الحر والبرد، وجعل لكم دروعًا من الحديد تحميكم في المعارك من الضرب والطعن والرمي، ومثلما أنعم الله عليكم بنعم الأبدان أنعم عليكم بنعمة الأديان من هداية للإيمان وإنزال القرآن؛ حتى تنقادوا لأمر الله وحده وتعبدوه وتطيعوه ولا تشركوا به شيئًا.

٨٢ ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

فإن أعرض الكفار - أيها النبي - عن الإيمان بعد إقامة الحجة عليهم، فلا تحزن من فعلهم، فأنت مأجور على بلاغك، والعذاب واقع عليهم لتكذيبهم، فأنت مبلغ والهادي هو الله وحده.

٨٣ ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

يعرف الكفار نعمة الواحد القهار بإرسال النبي المختار ﷺ، ثم يكذبون بنبوته ويجحدون رسالته، وأكثرهم جاحد معاند، والقليل مؤمن مصدق.

٨٤ ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾

وتذكروا ما يقع يوم العرض الأكبر على الله، حين يبعث الله رسولاً من كل أمة يشهد لمن آمن منهم ويشهد على من كفر، ثم لا يُسمح للكفار بالاعتذار عند الملك الجبار على ما وقع منهم من كفر وإصرار، ولا يُطالبون في تلك الحال بما يرضي الله من استجابة وتوبة وإيمان فقد فات الأوان.

٨٥ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾

وإذا عاين الكفار العذاب في النار فلا يُهوَّن عليهم العذاب ولا يؤخَّر عنهم، ولا يُمهلون بل عذابهم شديد عاجل.

٨٦ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾

وإذا أبصر الكفار يوم القيامة أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها من دون الله، قالوا حينها: يا ربنا، هؤلاء كنا نعبدهم من دونك ورضوا بعبادتنا لهم، فأنطق الله هذه الآلهة بتكذيب عُبَّادها، وقالت: أيها الكفار: إنكم كاذبون حينما عبدتمونا من دون الله ولم نأمركم بذلك، ولم نرض هذا العمل، ولا أخبرناكم أننا نستحق العبادة، فاللعنة والسخط والعذاب عليكم.

٨٧ ﴿ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

وأظهر الكفار للملك الجبار الذل والانكسار والاستسلام والصغار، وغابت الأكاذيب التي كانوا يفترونها في الدنيا من أن آلهتهم تنفعهم وتشفع لهم وتدفع عنهم العذاب.

(٨٨) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾

الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله ﷺ ومنعوا الناس من الإيمان زادهم الله عقابًا على الكفر، وعقابًا على منع الناس من الهداية، فلهم عذاب على الضلال والإضلال؛ لأنهم أهل إفساد وفساد، وكفر وعناد، وغواية للعباد.

(٨٩) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

وتذكروا يوم يبعث الله رسولاً من كل أمة يشهد لمن آمن من قومه ويشهد على من كفر، ويبعث الله محمدًا ﷺ شهيدًا على أمته، فيشهد لمن اتبعه ويشهد على من عصاه، وقد نزَّل الله القرآن على رسوله ﷺ يوضح فيه كل أمر من العقائد والأحكام والأخلاق والآداب والثواب والعقاب، ويهدي به من الضلالة، ويرحم به من آمن به وصدق، ويبشر من اهتدى بخاتمة حميدة وأجر عظيم وثواب كريم في جنات النعيم.

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

إن الله يأمر عباده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بالعدل والإنصاف في حقه - سبحانه - بإفراده بالعبودية وعدم الإشراك به، وفي حق خلقه بإعطاء كل ذي حق حقه وعدم بخس أحد شيئًا مما يستحقه ويجب له، ويأمر بالإحسان - سبحانه - في حقه بإجادة عبادته وإحسان طاعته، بمراعاة الإخلاص واتباع السنة، والإحسان إلى الخلق بإيصال ما ينفعهم إليهم من عون ومال ومساعدة غير الواجب على العبد، ويأمر بصلة القرابة وبرهم والإحسان إليهم، وينهى عن كل قبيح وكل عمل شنيع، وينهى عن كل ما ينكره الشرع من الكفر والمعاصي، وينهى عن ظلم الناس والتعدي عليهم، وهو - سبحانه - يعظ عباده ويذكرهم بهذه الشريعة؛ لكي يعملوا بما شرع، ويتركوا المعاصي والبدع، ويلزموا التقوى والورع.

(٩١) ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

وعليكم بالوفاء بكل عهد وعقد بينكم وبين الله، وبينكم وبين الناس في ما لا يخالف الشرع، ولا تعودوا بإبطال الأيمان بعد أن أكدتموها بقسمكم بالرحمن، وأنتم حين عاهدتم جعلتم الله كفيلاً وضامنًا على ما قلتم ووعدتم، فاتقوه واخشوه، فهو عليم بما تفعلون، مطلع على ما تصنعون، وسوف يجازيكم في يوم عليه تُعرضون.

(٩٢) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

ولا تنكثوا عهودكم ولا تنقضوا عقودكم فيكون حالكم كحال امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم نقضته فذهب جهدها سدى وعملها ضياعًا، ولا تجعلوا أيمانكم التي أقسمتم بها عند العهود والعقود خديعة تخدعون بها من عاهدكم وعاقدكم، ولا تنقضوا عهودكم إذا وجدتم طائفة أكثر مالاً ومنفعة لكم من الذين عاهدتموهم من قبل، فالله يختبركم بما أوجب عليكم من الوفاء بالعهود وعدم نقضها، وهو يبين - سبحانه وتعالى - لكم يوم القيامة ما اختلفتم فيه يوم يظهر ما في السرائر، ويعلم ما في الضمائر، فيجازي كلاً بما فعل من أمانة وخيانة.

(٩٣) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ولو أراد الله لجمع قلوبكم على ملة واحدة، ولم يحصل بينكم خلاف ولا تفرق، وكنتم مسلمين مؤمنين، ولكن أراد الله أن يضل من عباده من اختار الضلال على الهدى، فلا يوفقه للهداية عدلاً منه - سبحانه - وأراد أن يهدي من

عباده من اختار الهدى فيوفقه لقبول الحق فضلاً منه - سبحانه - وسوف يسألكم جميعًا عن أعمالكم يوم القيامة من خير وشر، ثم يحاسبكم عليها فيثيب الطائع، ويعاقب العاصي.

(٩٤) ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

ولا تجعلوا قسمكم خديعة تخدعون به من أقسمتم له فيغتر بهذا القسم، فيصدقكم وأنتم كاذبون، فتهلكوا بعد أن كنتم في نجاة وأمن مثلما زلقت قدم واقف بعد أن كانت ثابتة، وينالكم عاقبة ما فعلتم في الدنيا؛ بسبب صدكم عن سبيل الحق، ولكم عند الله في الآخرة إذا غدرتم عذابٌ أليم في نار جهنم.

(٩٥) ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

ولا تنقضوا العهود وتنكثوا العقود لتأخذوا عِوَضًا منها شيئًا تافهًا حقيرًا من متاع الدنيا، وكل متاع الدنيا حقير، فالذي عند الله من الأجر العظيم على الوفاء أجل وأعظم مما أخذتم من الثمن الزهيد الحقير إذا كان عندكم علم يفرِّق بين النافع والضار، ففرِّقوا بين خيري الدنيا والآخرة.

(٩٦) ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

والذي عندكم من حطام الدنيا الفانية زائل ذاهب، والذي عند الله من الأجر العظيم والثواب الكريم ثابت لا يزول، وسوف يثيب الله من صبر على أداء الطاعات واجتناب المحرمات أعظم الثواب وأجل العطاء، فيعطيهم على أدناها كما يعطيهم على أعلاها تفضلاً وكرمًا.

(٩٧) ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

من عمل من العباد سواء من الرجال أو النساء عملاً صالحًا بإخلاص ومتابعة وهو مؤمن بالله ورسوله ووعده ووعيده فإن الله يحييه في هذه الدنيا حياةً سعيدةً مطمئنة هنيئة في أمن وراحة ولو كان قليل المال لا جاه له، وسوف يثيبه الله في الآخرة الثواب الجزيل والأجر الجميل في فلاح كبير، وفوز عظيم بجوار رب كريم في جنات النعيم.

(٩٨) ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

فإذا أردت - أيها المسلم - أن تقرأ كتاب الله فاستعذ في بدء التلاوة من شرِّ الشيطان المطرود من رحمة الله قائلاً: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" وفيه أن من بدأ من أثناء السورة يلزمه الاستعاذة ولا تلزمه البسملة.

(٩٩) ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

إن الشيطان لا يسلطه الله على أولياء الرحمن المعتمدين عليه المفوِّضين أمرهم إليه.

(١٠٠) ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾

إنما يسلطه على من اتبعوا سبيله وأطاعوه في معصية الرحمن، والذين يشركون بالله في أقوالهم.

(١٠١) ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

وإذا جعل الله آية من القرآن مكان آية أخرى بالنسخ ونحوه - والله الذي خلق العباد أعلم بمصلحة عباده فيما يثبته من الأحكام وينسخه وفق الأحوال والأزمان - حينها يقول الكفار: إنما أنت - أيها الرسول - كاذب على الله، تقول شيئًا لم تُؤمر بقوله، وقد صانه ربه عن ذلك ﷺ فليس كما يزعمون، بل أكثرهم لا علم له بما يستحقه ربه من تعظيم، وما يستحقه رسوله من تكريم، فهم جاهلون بالمرسل والرسالة.

(١٠٢) ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

قل لهم - أيها الرسول -: أنا لم أقل إن القرآن من عند نفسي، بل هو وحي من عند الله نزل به جبريل من رب العالمين بالصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام تثبيتًا للمؤمنين، وهداية للضالين، وبشارةً طيبةً للمتقين، ورحمةً للأبرار المفلحين.

(١٠٣) ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

والله يعلم أن الكفار يقولون: ليس القرآن وحيًا وإنما يتعلمه الرسول ﷺ من إنسان مثله من الناس، وليس من الله، وقد كذبوا في ذلك، فالإنسان الذي نسبوا إليه تعليم الرسول ﷺ القرآن أعجمي ليس عربيًا فصيحًا، والقرآن غاية في الفصاحة والبيان، فكيف يقول مثله العجمي الألكن!!

(١٠٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إن الكفار الذين يكذبون بآيات الواحد القهار لا يرشدهم الله إلى الهداية، ولهم في النار عذاب أليم موجع وبئس القرار.

(١٠٥) ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

إنما يختلق الباطل ويقول الزور من لا يؤمن بالله وآياته ولقائه، وهم الكاذبون فيما قالوا في حق الرسول ﷺ والقرآن، أما الرسول ﷺ فهو الصادق المصدوق، بلَّغ الرسالة بأمانة وما كتم وما كذب.

(١٠٦) ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

الذي يفتري الكذب ومن قال كلمة الكفر فكفر بعد الإسلام فعليه غضب الله وسخطه ولعنته، وله في الآخرة عذاب أليم في نار جهنم، لكن يُعذر من أُرغِم على النطق بالكفر، فنطق ليدفع الهلاك عن نفسه وقلبه ثابت على الإيمان فلا لوم عليه ولا إثم.

(١٠٧) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

لأن من آثر الكفر على الإيمان إنما فعل ذلك؛ لحبه للدنيا وزينتها وتفضيله إياها على الآخرة وثوابها، والله لا يوفق من كفر ولا يهدي من أعرض وفجر.

(١٠٨) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

هؤلاء الكفار قد أغلق الله منافذ الهداية إلى قلوبهم؛ لإيثارهم الدنيا على الآخرة، فلا يصل إليها نور الإيمان، وأغلق أسماعهم فلا تسمع آيات القرآن سماع استجابة وإذعان، وأعمى أبصارهم فلا تشاهد البراهين الدالة على وحدانية الله، فهم غافلون عن الحجج الواضحة، وغافلون عن وعد الله ووعيده.

(١٠٩) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

حقًا إن الكفار لفي خسار؛ لأنهم خالدون في النار؛ لأنهم تركوا طريق الهدى وسلكوا سبيل الردى.

(١١٠) ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم إن ربك للمستضعفين من المؤمنين في مكة الذين عذبهم الكفار حتى نطقوا بكلمة الكفر في الظاهر وقلوبهم ثابتة على الإيمان، ولما استطاعوا الفرار بدينهم إلى المدينة، فعلوا ثم جاهدوا مع الرسول ﷺ لإعلاء كلمة الله وصبروا على أداء الطاعات واجتناب المنهيات، إن الله كثير الغفران لهم على ما أسلفوا من الذنوب، رحيم بهم حيث وفقهم للتوبة ولم يعجل لهم العقوبة.

(١١١) ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

وتذكروا يوم العرض الأكبر يوم تقوم كل نفس تخاصم عن ذاتها وتعتذر عما فعلت وتتكر ما عملت، حينها تجازى كل نفسٍ بما قدمت من خير وشر؛ فللمحسن الثواب، وللمسيء العقاب بلا ظلم ولا هضم.

(١١٢) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

وضرب الله مثلاً قرية مكة كانت في أمان من الأعداء حيث حماها الله - عز وجل - مطمئنة في عيش رغيد يأتي رزق أهلها هنيئًا يسيرًا من كل جهة، فلما جحدوا نعمة الله وأشركوا به وكذبوا رسوله ابتلاهم بالجوع والفقر والخوف والفتن والمحن بسبب أفعالهم القبيحة وأعمالهم الشنيعة.

(١١٣) ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولقد أرسل الله إلى كفار مكة محمداً ﷺ يعرفون صدقه وأمانته، ونسبه، فردوا ما جاء به ولم يتبعوه، فابتلاهم الله بالشدائد والنكبات من جوع وخوف وقتل وأسرٍ وذلٍ وهوان، وقُتل أشرافهم في بدر وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك.

(١١٤) ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾

فكلوا - أيها المسلمون - مما أباحه الله من الرزق الحلال الطيب واجتنبوا الحرام والخبيث، واشكروا نعمة الله بطاعته واتباع رسوله إن كنتم صادقين في إيمانكم مخلصين في عبادتكم.

(١١٥) ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

إنما حرم الله عليكم أكل من مات من الحيوان بلا تذكية، وحرم الدم المسفوح من الذبيحة عند ذبحها، وحرم لحم الخنزير وما ذُبح لغير الله، كالذبح للأصنام والأوثان والعرافين والكهنة، لكن من وصل إلى حالةٍ خاف على نفسه فيها الموت من الجوع، غير ظالم في الأكل بلا ضرورة، وغير متجاوز حد الضرورة، فإن الله غفورٌ له رحيم به، لا يعاقبه على ما فعل، فالضرورات تبيح المحظورات.

(١١٦) ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾

ولا تقولوا - أيها الكفار - لما تفترونه من أباطيل: هذا حلال والله قد حرمه، وهذا حرام والله قد أباحه؛ لتنسبوا إلى الله ما لم يشرعه من تحليل الحرام وتحريم الحلال، إن الذين ينسبون إلى الله ما لم يقله لا ينالون خير الدنيا ولا خير الآخرة، ولا ينجون من عذاب الله.

(١١٧) ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

بقاؤهم في الدنيا يتمتعون بمتاعها الحقير الزهيد قليل، ولهم في الآخرة عذاب أليم في نار الجحيم.

(١١٨) ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

وقد حرم الله على اليهود ما أخبر به رسوله ﷺ من قبل، وهو كل ذي ظفرٍ كبعض الطيور، وحرم عليهم الشحوم إلا ما حملته ظهور البهائم أو وُجد في أمعائها أو كان مختلطًا بالعظم، وما ظلمهم الله بتحريم ذلك عليهم لكنهم بغوا واعتدوا فاستحقوا عقوبة الحرمان، فما وقعت عقوبة إلا بذنب.

(١١٩) ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ثم إن الله - سبحانه - يغفر للذين فعلوا المعاصي وهم جاهلون بعاقبتها وإيجابها لغضب الله (فكل عاصٍ أخطأ أو تعمّد فهو جاهل بهذا المفهوم وإن كان يعلم التحريم)، ثم عادوا إلى ربهم نادمين، وتابوا إليه مما فعلوا، وأصلحوا أنفسهم بأنواع البر والطاعات، فالله يتجاوز عنهم بعد التوبة والإصلاح، ويرحمهم بتكفير السيئات وقبول الطاعات ومضاعفة الحسنات.

(١٢٠) ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

إن إبراهيم الخليل ﷺ كان إمامًا في الخير وقدوة في الصلاح، وكان مطيعًا لربه كثير الخشوع والخضوع، مستقيمًا على دين التوحيد لا يميل عنه إلى غيره، لم يشرك بالله أبدًا، ولم يتخذ من دون الله إلهًا آخر، فهو إمام الموحدين وأسوة العابدين.

(١٢١) ﴿ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

وكان إبراهيم كثير الشكر لربه على نعمه الجزيلة بالقلب واللسان والجوارح، اصطفاه الله للرسالة ووفقه لسلوك الطريق المستقيم، وهو التوحيد مع عمل الصالحات واجتناب المنكرات.

(١٢٢) ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وأعطى الله إبراهيم في الدنيا الإمامة والذكر الحسن والعلم والنبوة والحكمة، وهو عند الله يوم القيامة في منزلة رفيعة وفي مرتبة عالية مع عبادة الأبرار وأوليائه الأخيار.

(١٢٣) ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

ثم أوحى الله إلى محمد ﷺ وأمره أن يتبع دين الإسلام كما كان عليه إبراهيم، وأن يلزمه ويستقيم عليه ولا يميل عنه، فإن إبراهيم كان موحدًا ولم يشرك بالله غيره.

(١٢٤) ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

إنما فرض الله تعظيم يوم السبت ببعض العبادات على اليهود الذين اختلفوا فيه على رسولهم، واختاروه بدل يوم الجمعة الذي هدى الله فيه محمدًا ﷺ، وإن الله سوف يحكم بين المختلفين يوم القيامة، فيثيب الطائعين ويعاقب العاصين، فهو الحكم العدل سبحانه.

(١٢٥) ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾

ادع - أيها النبي - أنت وأتباعك إلى دين الإسلام وأحكامه وأخلاقه بأحسن الطرائق وألطف الوسائل، وأجمل الأساليب من لين في الخطاب، ورفق في الكلام على منهج الكتاب والسنة، بلا غلظة ولا فظاظة ولا شره، بل بالتيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، ورغّبهم في الخير وحذّرهم من الشر، وانصح لهم بإشفاق، وجادلهم بأحسن أساليب المجادلة من حيث الرفق واللين والتجرد في الحوار، والبعد عن السب والإيذاء والاستعلاء والكبر، فليس عليك إلا البيان التام والنصح الصادق، فأنت مبلغ والله هو الهادي، يعلم من حاد عن الاستقامة، ويعلم من سلك الطريق المستقيم، وسوف يجازي كلاً بما فعل.

(١٢٦) ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾

وإذا أحببتم القصاص من المعتدين فاقتصوا كفافًا مثلما اعتدي عليكم بلا زيادة، وإن صبرتم وعفوتم فهو أفضل لكم بالنصر في الدنيا والأجر في الآخرة، فمع العفو العز، ومع الصبر النصر.

(١٢٧) ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾

واصبر - أيها النبي - على أذى الكفار ومشقة الدعوة والنوائب، ولن تستطيع الصبر إلا بعون من الله، فهو الذي يلهمك الصبر، ويعينك ويؤيدك ويسهل عليك كل صعب، ولا تحزن على من عصاك وأبى الاستجابة لك، ولا تغتم وتهتم من كيد الكائد ومكر الماكر، فإن العاقبة لك والدائرة على أعدائك، والله وليك وناصرك، ولن تغلب أو تُهزَم، والله معك، وهذا للنبي ﷺ وكل من اتبعه واهتدى بهداه.

(١٢٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾

إن الله - سبحانه - يؤيد من اتقاه بفعل ما أمر، وترك ما نهى عنه من ذنوب وآثام ومنكرات ويحفظه ويتولاه، وهو مع من أحسن في أداء الطاعات وسارع في الخيرات وتقرب إلى ربه بأنواع العبادة المشروعة مع إحسان أدائها بالإخلاص والمتابعة.

مكية

ترتيبها
١٧

سورة الإسراء

آياتها
١١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾

ينزّه الله نفسه ويعظم شأنه ويقدس ذاته بأنه - سبحانه - ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، له الكمال المطلق - جل في علاه - لا إله غيره ولا رب سواه، وهو - سبحانه - الذي أسرى بنبيه وعبده محمد ﷺ وقتًا من الليل بجسمه وروحه يقظةً لا منامًا من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي جعل الله حوله من بركات الأرض من ثمار وحبوب وفواكه وغير ذلك، وفيه منازل كثير من الأنبياء، أسرى به ليرى عجائب قدرة الله وبراهين عظمته وأدلة وحدانيته، إنه - سبحانه - سميع للأقوال ولكل مسموع، بصير بالأعمال والأحوال، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عن علمه غائبة.

(٢) ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾

وكما فضل الله نبيه بالإسراء تفضل على موسى بإنزال التوراة عليه، وجعل فيها البيان الكافي والإرشاد التام لبني إسرائيل، تنهاهم عن الشرك، وتدعوهم إلى توحيد الله بالعبادة والتوكل عليه وحده لا على سواه من الأنداد والأضداد.

(٣) ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾

يا سلالة من أنجاهم الله من الطوفان وحملهم في السفينة مع نوح أخلصوا لربكم العبادة ولا تشركوا به شيئًا، واشكروه على نعمه كشكر نوح لربه، فإن نوحًا كان كثير العبادة لله، دائم الشكر له بالقلب واللسان والجوارح، والشكر من أعلى منازل العبودية.

(٤) ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾

وأخبر الله اليهود في التوراة التي أنزلت على نبيهم موسى أنه مكتوب عليهم أنهم سوف يفسدون في بيت المقدس مرتين من قتل للأنبياء وسفك للدماء، وجور واعتداء.

(٥) ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾

فإذا حصل من اليهود الإفساد الأول سلّط الله عليهم جيشًا ذا بطش شديد، وعدة وعديد يهزمونهم ويأسرونهم ويقتلونهم ويطردونهم، فيطوف هذا الجيش في مواطن اليهود يبيدهم ويجتاحهم، وهذا وعد أكيد لابد أن يحصل بسبب عصيان اليهود.

٦ ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾

ثم يعيد الله الكرة لليهود بالنصر والغلبة على العدو، ويكثِّر أموالهم وأبناءهم، ويزيد قوتهم، ويبارك في عددهم بسبب إحسانهم وتوبتهم وعودتهم إلى ربهم.

٧ ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾

إن أحسنتم - يا بني إسرائيل - مع ربكم بطاعته، ومع الخلق بحسن التعامل، واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم فأجر ذلك عائدٌ إليكم، وإحسانه راجع إليكم، فالله غني عنكم وعن أعمالكم، وإن أسأتم بالمعاصي والذنوب فالعقاب عليكم، والنكال نازل بكم، فإذا أفسدتم -أيها اليهود - مرة ثانية سلَّط الله عليكم عدوًا كثيرًا عدده، قويًا بأسه، فيقتلكم ويذلكم ويخزيكم ويقهركم فتبقون في هوان وعار ومسكنة وهزيمة، وسوف يفتح أعداؤكم بيت المقدس فيهدمونه كما هدموه في المرة الأولى، ويدمر كل بناء تدميرًا كاملاً فتصبح أرضكم بهذا العدو لكم خرابًا.

٨ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾

عسى ربكم - يا بني إسرائيل - أن يرحمكم إن رجعتم إليه وندمتم على ما فعلتم من الإفساد والظلم، وبدلتم السيء بالحسن، وإن عدتم إلى المعاصي وظلم الناس والإفساد في الأرض عاد الله إلى عقابكم وإذلالكم، أما في الآخرة فقد جعل الله النار سجنًا للكفار لا يخرجون منه أبدًا، وفي الآية تحذير للناس من الذنوب، وبيان لعواقبها في الدنيا والآخرة من الذل والهوان والعذاب في النيران.

٩ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا ﴾

إن هذا القرآن المنزل على رسول الله ﷺ الذي أنزله الله - تعالى - فيه السعادة والفلاح والفوز والنجاة لمن آمن به واهتدى بهداه، فهو يرشد أهل الإيمان إلى كل خير وصلاح وينهى عن كل قبيح ومنكر، وهو بشرى لمن آمن وعمل صالحًا؛ لأن الله قد أعد له ثوابًا عظيمًا في جنات النعيم، فالقرآن يرشد إلى أقوم السبل في العقائد والعبادات والأخلاق والسلوك مما يناسب الفطرة القويمة والعقول السليمة، فلا تجد خيرًا إلا وقد سبق القرآن إلى الدعوة إليه، ولا شرًا إلا وقد حذَّر القرآن منه.

١٠ ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾

والذين يكذبون بيوم القيامة والبعث بعد الموت، أعدَّ الله لهم في نار جهنم عذابًا موجعًا أليمًا جزاءَ تكذيبهم.

١١ ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾

والإنسان في بعض الأوقات من غضبه وعجلته يدعو على نفسه أو ولده أو ماله بالشر مثلما يدعو بالخير، ولكن الله رحيم لا يستعجل بالإجابة للإنسان حينما يدعو بالشر، وإنما يستجيب للعبد إذا دعا بالخير لطفًا منه ورحمةً، والإنسان من طبيعته العجلة وعدم تقدير العواقب وقلة الصبر أمام الشهوة والغضب.

١٢ ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾

والله جعل الليل والنهار برهانين واضحين على وحدانيته وقدرته - جل في علاه - فمحا القمر الذي هو علامة الليل، وجعل الشمس مضيئةً ساطعةً وهي علامة النهار؛ ليرى الإنسان في النهار طرق الكسب والمعاش والذهاب والإياب والتصرف في مصالحه، ويعود في الليل إلى منامه ليستريح وتتقطع أشغاله وأعماله، وليستدل العباد من تعاقب الليل والنهار على عدد السنين وحساب الأشهر والأيام، والله قد بين كل شيء ووضحه توضيحًا كافيًا شافيًا.

(١٣) ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾

والله يُلزِم كل عبد بعمله من خير أو شر فلا يجازيه على عمل غيره ولا يجازي غيره بعمله، ويريه الله يوم الحساب كتاب الأعمال من الحسنات والسيئات معروضًا أمام بصره ليقرأه بنفسه.

(١٤) ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

ويُقال للعبد: طالع كتاب الحسنات والسيئات التي عملتها في الدنيا؛ فيقرأ ولو كان أميًا، وكفى بنفسه مطلعةً على أعماله، محصيةً لحسناته وسيئاته، وليعلم أن الله عدل لا يظلم أحدًا.

(١٥) ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

من لزم الصراط المستقيم واتبع الحق فأجر ذلك له وحده، ومن ضل عن الهداية واتبع الغواية فإثم ذلك عليه وحده، ولا تتحمل نفس مسيئة ذنوب نفس أخرى مسيئة، فلن يُعذب أحد بذنب أحد ما لم يكن سببًا في إضلاله، والله لا يعاقب إنسانًا إلا إذا وضَّح له الحجة وبيَّن له المحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

(١٦) ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾

وإذا أراد الله أن يهلك مدينة بذنوبهم أمر أغنياءهم ورؤساءهم بالطاعة، فإذا عصوه اقتدى بهم الناس في ذلك العصيان، فحل عقاب الله بالجميع، فاستأصل أهل المدينة جميعًا وأهلكهم هلاكًا تامًا.

(١٧) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

والله قد أفنى بالعذاب أممًا سابقة متقدمة كانت كافرة مكذبة من بعد نوح، وكفى بالله عالمًا بأفعال العباد من خير وشر، فيجازي كلاً بما فعل بلا ظلم ولا هضم.

(١٨) ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾

من أراد من الناس بعمله الدنيا الفانية الزائلة ومتاعها وزخرفها ولا يعمل للآخرة أعطاه الله من الدنيا ما أراد على ما قدر له وقضى؛ لهوان الدنيا على الله، ثم يكون مرده يوم الحساب إلى النار يدخلها ملومًا على ذنوبه مطرودًا من رحمة ربه؛ لأنه عصى الأمر وقدم الفانية على الباقية، وما أعد العدة للقاء الله.

(١٩) ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

ومن أراد من الناس بعمله الصالح ما عند الله في دار البقاء وعمل للآخرة بطاعة الله على نور من الكتاب والسنة يرجو ثواب الله، قَبِلَ الله عمله وأثابه على فعله وأكرم نزله في جنات النعيم.

(٢٠) ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

كل طائفة ممن يعمل للدنيا الزائلة والآخرة الباقية يمنحه الله من رزقه، فيرزق عباده الصالحين رزقًا حلالاً طيبًا يعينهم على الطاعة، ويعطي الفجار الأشرار من متاع الدنيا ما يقتاتون به ويتمتعون مثلما يعطي البهائم، فإن عطاء الله من الدنيا لأحد ليس دليلاً على صلاحه ولا فساده، فهو يعطي المؤمن والكافر ولا يمنع عطاءه عن أحد.

(٢١) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

تدبر كيف يفضل الله بعض العباد على بعض في عطاء الدنيا، فيغني بعض الناس ويفقر بعضهم، والتفضيل في الآخرة أعظم وأكبر، فالمؤمنون أجل ثوابًا وأحسن مآلاً وأكرم نزلاً من غيرهم، ثم هم يتفاضلون فيما بينهم في الثواب.

٢٢ ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾

لا تجعل - أيها الإنسان - شريكًا مع الرحمن، من الأصنام والأوثان، فتعود بالخزي والندامة والذم والخذلان.

٢٣ ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾

وأوجب الله على العبد أن يوحِّده بالعبودية ويفرده بالألوهية ولا يشرك به شيئًا، وأن يحسن إلى والديه كل الإحسان، وبخاصة عند الشيخوخة، فلا يملُّ من برِّهما ولا يستثقل الإحسان إليهما، وألا يسمعا منه إلا كل جميل حتى لا يجوز له التأفف منهما الذي هو أقل مراتب القول السيء، ولا يجوز أن يلقاهما بأي فعل أو قول قبيح، بل بالإكرام والاحترام والحفاوة واللطف واللين والرحمة.

٢٤ ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

وكن - أيها الإنسان - لأبيك وأمك طائعًا ذليلاً متواضعًا ترحم ضعفهما، وتدخل المسرة عليهما، واسأل الله دائمًا لهما الرحمة الواسعة في حالة الحياة والموت؛ جزاء على ما قدما لك وتعبا من أجلك وسهرا على راحتك.

٢٥ ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

الله وحده أعلم بما في الضمائر والسرائر، وهو مطلع على الخوافي، يعلم النيات وما تضمره من إرادات، إن كان قصدكم - أيها العباد - مرضاة الله وما يقربكم منه وأخلصتم له العمل فإنه يغفر ذنوب من رجا عفوه وطلب ما عنده وأراد وجهه، فالله يعفو لمن علم منه الإنابة والمحبة له ولرسوله ولكتابه، ويتجاوز عمّا يحصل منه من آثام لا يسلم منها البشر.

٢٦ ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

وأدِ حقوق القرابة إليهم من الصلة والبر والإكرام والإحسان والصبر على الأذى، وأعط المسكين ما يحتاج إليه مما أعطاك الله، وأكرِم من انقطع به سفره عن أهله وماله، وأخلص لوجه الله في إنفاق مالك ولا تضيعه في غير حقوقه أو تسرف في العطاء، بل الزم الوسط والعدل في الإنفاق وغيره.

٢٧ ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

إن الذين يسرفون في إنفاق أموالهم في الذنوب وفي الزيادة عن الحق وتجاوز العدل يشابهون الشيطان في العصيان والاعتداء والطغيان، ومن طبيعة الشيطان أنه يكفر نعمة الرحمن وينسى الإحسان.

٢٨ ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾

وإن أعرضت عمن سألك العطاء ولم تعطه شيئًا لعدم وجوده لديك وأنت تنتظر الرزق من الله، فقل للسائل قولاً طيبًا سهلاً لطيفًا، كالدعاء له بقضاء حاجته وتسهيل أمره، وعده فيما يُستقبل أن الله إذا سهَّل رزقًا فليستبشر بخير.

٢٩ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾

ولا تقبض يدك عن العطاء وتبخل بمالك ولا تسرف في الإنفاق والبذل، فإنك بالبخل يلومك الناس وبالإسراف تتحسر على ذهاب المال.

٣٠ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

إن الله يوسع رزقه على بعض عباده، ويضيق الرزق على بعضهم؛ لعلمه وحكمته، فهو يصرِّف العباد كما يشاء لمصلحة يعلمها؛ لأنه مطلع على خفايا العباد لا تخفى عليه - سبحانه - خافية من أحوال عباده.

٣١ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾

وإذا تيقنتم أن الله وحده هو الرّزاق فلا تقتلوا أبناءكم خوفًا من الفقر، فليس رزقهم عليكم بل على الله وحده، فهو الذي يرزق الأبناء والآباء والأجداد والحفدة؛ لأن قتل الأبناء جرم كبير وإثم خطير، وفي تقديم رزق الأبناء على رزق الآباء تأكيدٌ على عدم قتلهم؛ لأن الله يتولى شؤونهم.

(٣٢) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

ولا تقربوا الزنا ودواعيه فتقعوا فيه، واجتنبوا أسبابه، مثل: النظرة والخلوة والخضوع بالقول، فالزنا شديد القبح، عظيم الشناعة وبئست هذه الفاحشة طريقا فإنها تجلب من شؤم المعصية ما يلوث المجتمع والضمير، وفي الآية قال: ﴿ولَا تَقْرَبُوا﴾ بدلاً من «لا تفعلوا» لحث الإنسان على البعد عن كل سبب يؤدي إلى الزنا.

(٣٣) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

ولا تقتلوا النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بحكم الشرع، كالقصاص وقتل الثيب الزاني، والمرتد، ومن قتل بغير حق شرعي فقد جعل الله لولي أمر المقتول من الورثة أو الحاكم حقًا في المطالبة بدم المقتول قصاصًا أو دية، وليس له أن يتجاوز الحد في القصاص، فإن الله مع ولي المقتول بالتأييد على القاتل؛ لأنه مظلوم بقتل وليه حتى يتمكن من أخذ حقه قصاصًا أو دية أو عفوًا.

(٣٤) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾

ولا يجوز لكم التصرف في مال اليتيم إلا بأحسن المنافع وأصلحها لما له، من تثمير ماله وتنميته لا بإتلافه والمخاطرة به حتى يبلغ اليتيم سن الرشد، حينها يسلم له المال، وعليكم بالوفاء بكل عهد التزمتموه، فإن الله سوف يسأل العبد عند كل عهد، فإن وفَّى به أثابه وإن غدر وخان عذَّبه.

(٣٥) ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

وأتموا الكيل ولا تبخسوه إذا اكتال أحد منكم، وزنوا بميزان العدل إذا وزنتم للناس، إن في إتمام الكيل والوزن خيرًا في الدنيا من البركة والنماء، وحسن عاقبة في الآخرة من الأجر والمثوبة.

(٣٦) ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

ولا تتبع ما لا تعلم وتتيقن منه، بل كن متثبتًا في أمورك، فلا تذهب وراء الظنون والشائعات؛ لأن الإنسان محاسب عند الله على سمعه وبصره وفؤاده، فإن جعلها في الخير أثابه الله، وإن سَخَّرها في الشر عاقبه.

(٣٧) ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾

ولا تمش – أيها الإنسان – مشية الكبر والخيلاء، فإنك مخلوق ضعيف لا تستطيع خرق الأرض بمشيك عليها، ولن تستطيع أن تكون كالجبال من طولها، فأنت بالنسبة إليها قصير ضئيل.

(٣٨) ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾

كل ما ذُكر في الآيات السابقة من أوامر ونواه يكره الله سيئها ولا يرضاه لعباده؛ ولذلك حرَّمه.

(٣٩) ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾

ذلك الذي بَيَّنَهُ الله لك – أيها النبي – وأنزله عليك من الأحكام النافعة والأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة والنهي عن كل قبيح، هي مما يزكي الإنسان ويهذبه، ولا تتخذ مع الله إلهًا غيره وتشرك معه سواه، فتُرمى في نار جهنم. تلومك نفسك و يلومك الناس، مطرودًا من رحمة الله، محرومًا من كل خير، يذمّك الخلق ويعذبك الخالق.

(٤٠) ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

أفخصَّكم الواحد القهار – أيها الكفار – بإعطائكم الذكور من الأبناء واتخذ – سبحانه – لنفسه بنات من الملائكة؟ إن قولكم هذا غاية في القبح والبشاعة والشناعة، حيث نسبتم إلى الله ما لا يليق به عز وجل.

(٤١) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

ولقد بيّن الله في القرآن ووضح الأحكام والقصص والأمثال؛ لينتفع الناس بها؛ وليستفيدوا من عظاتها وعبرها، وما يزيد هذا البيان في القرآن أهل الظلم والطغيان إلا بعدًا عن طاعة الرحمن، وإمعانًا في اتباع الشيطان.

٤٢ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

قل – أيها الرسول – للكفار: لو كان مع الله آلهةٌ أخرى غيره لطلبت تلك الآلهة طريقًا إلى مغالبة الله ذي العرش العظيم، ولحاولت محاربته والاستيلاء على بعض ملكه، ولكنه واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته.

٤٣ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

تنزَّه الله عن أقوال الكفار وما ينسبونه إليه، فهو الواحد القهار، وعلا على خلقه علو ذات وقدر وقهر، علوًا عظيمًا يليق بجلاله.

٤٤ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

تسبح لله السموات السبع والأراضين وما فيهن من مخلوقات، وكل موجود يقدس ربه وينزهه ويثني عليه ويحمده ويمجده بما هو أهله، فله الحمد كله، والملك جميعه، والثناء أوله وآخره، لكنكم – أيها الناس – لا تفهمون تسبيح المخلوقات، فكلٌّ يسبح بلغته وطريقته، والله حليم لا يعاجل بالعقوبة من عصاه بل يمهله، كثير المغفرة لمن عاد وأناب واستغفر وتاب.

٤٥ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

وإذا قرأت – أيها النبي – القرآن فسمعه الكفار، جعل الله بينك وبينهم حجابًا ساترًا يحجب عقولهم عن الفهم لكفرهم بالآخرة؛ عقابًا من الله لهم، فهم يسمعون الصوت ولا يدركون المعنى، فبحسب ذنب العبد يحرم الفقه في الدين.

٤٦ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾

وجعل الله على قلوب الكفار أغطية لئلا يفهموا معاني القرآن، وجعل في آذانهم صممًا عن سماعه، وإذا ذكرت الله – أيها الرسول – في القرآن بأسمائه وصفاته داعيًا إلى عبادته وحده ناهيًا عن الإشراك به، عادوا على أعقابهم منكرين لقولك كارهين لما جئت به، عنادًا واستكبارًا لئلا ينقادوا للحق.

٤٧ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

الله يعلم بالذي يستمعه الكفار، فهم يستمعون إليك – أيها النبي – ومقاصدهم سيئة، فليس سماعهم لقبول الحق والانتفاع به، والله يعلم تناجيهم فيما بينهم حين يقول بعضهم لبعض: إن هذا الرجل الذي تتبعونه أصابه سحر أذهب عقله كذبًا منهم وزورًا.

٤٨ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

تأمل متعجبًا من كذبهم في قولهم: محمد ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون فأخطؤوا وكذبوا وانحرفوا عن الصواب، ولم يوفقوا للحق.

٤٩ ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

وقال الكفار وهم ينكرون البعث والنشور: كيف نحيا حياةً جديدة ونُبعث بعد الموت وقد صرنا عظامًا بالية وتفتّتت أجسامنا؟! فلا أمل في إعادتنا أحياء.

٥٠ ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾

قل لهم – أيها الرسول على وجه التحدي والتعجيز –: إن استطعتم فكونوا حجارة أو حديدًا في الصلابة والشدة وصعوبة الاستحالة، فإن الله سوف يعيدكم كما بدأكم، ويحييكم بعد الموت مثلما خلقكم من العدم؛ وهذا سهل يسير عليه سبحانه.

٥١ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾

أو إذا استطعتم فتحولوا إلى خلق عظيم أشد من خلقكم هذا، مستبعد في عقولكم، فإن الله لابد أن يبعثكم كما أماتكم، ويحييكم كما خلقكم، وإذا غلبتهم بالحجة على أن الله قادر على إعادتهم بعد الموت، فسوف يردّون عليك

منكرين ويقولون: من الذي يعيدنا إلى الحياة بعد أن متنا؟! فأجبهم بقولك: يعيدكم إلى الحياة بعد الموت الذي أوجدكم من العدم أول مرة، حينها سوف يسخرون ويهزون رؤوسهم من الإنكار والتعجب، ويقولون: متى هذا البعث؟! فقل لهم: هو واقع لا محالة، قريب لا شك في مجيئه وكل آتٍ قريب.

(٥٢) ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

ويوم يناديكم الله وأنتم أموات في قبوركم، فتجيبون النداء وتذعنون وتطيعون لأمر الله، وله الحمد وحده على كل حال، وتحسبون من كثرة أهوال يوم القيامة أنكم ما عشتم في الدنيا إلا عمرًا قصيرًا لطول الآخرة.

(٥٣) ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾

وقل - أيها الرسول لعباد الله المتقين -: إذا خاطبوا غيرهم أو تحاوروا فيما بينهم فليختاروا الكلام الطيب والكلام الحسن اللين، وليبتعدوا عن الإساءة في القول وما يجلب الغضب ويثير النفس؛ لأن الشيطان حريص على إلقاء العداوة والبغضاء والشحناء بين المؤمنين، والأقوال السيئة تهيج هذه العداوة، ويتبعها سوء الظن والقطيعة والانتقام؛ والشيطان عدو للإنسان لا يريد صلاحه واستقامته، ولا يريد إخاءه لإخوانه المؤمنين.

(٥٤) ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾

ربكم أعلم بما في نفوسكم وأحوالكم إن يشأ الله يرحمكم بأن يهديكم للإيمان وإن يشأ يضللكم فيعذبكم، وما أرسلناك يا محمدُ موكلا عليهم فما عليك إلا البلاغ.

(٥٥) ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾

وربك - أيها النبي - يعلم بكل ما في السموات والأرض، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة، وقد فضَّل الله - سبحانه - بعض أنبيائه على بعض في المنزلة من حيث اختصاص بعضهم بنزول كتابٍ عليه أو كثرة علمه وفقهه وحكمته، أو كثرة أتباعه ومعجزاته، وتفضَّل الله على داود بكتاب الزبور يتلوه في كل حال.

(٥٦) ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: إن هذه الأصنام والأوثان التي تدعونها وقت ضركم وحاجتكم لا تكشف ضرًا ولا تحوله عنكم إلى سواكم، ولا تحول البلاء من حال إلى حال، فالذي يكشف الضراء ويزيل البلاء ويجلب النعماء ويأتي بالسراء هو رب الأرض والسماء، وهذه الآية تعم كل ما يُعبد من دون الله من حي وميت، وغائب وحاضر، وصالح وفاسد، وصنم ووثن، ونجم وكوكب، وساحر وكاهن وغير ذلك، فلا ينفع ولا يضر إلا الله وحده.

(٥٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾

أولئك المدعوّون لكشف الضر من الأنبياء والملائكة والصالحين هم أنفسهم يتسابقون في طاعة ربهم ويتنافسون في عبادته والقرب منه، وينتظرون عفوه ورضوانه ويخافون عقابه وانتقامه، وإن عذاب الله يجب أن يُخاف منه، وأن يُحذر من وقوعه، وأن لا يأمن العبد نزوله، فعليه أن يفرَّ من غضب الله إلى رضوان الله بطاعة الله.

(٥٨) ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾

لا توجد قرية كفَر أهلها بالله وكذَّبوا رسله إلا سيعذبهم الله بالهلاك والدمار قبل يوم القيامة، أو يعذب أهلها بالبلاء والضراء والبأساء وأنواع النقم، وهذا قضاء الله وأبرمه وفرغ منه، وحتَّم وقوعه، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ.

(٥٩) ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾

وما منع الله من إنزال المعجزات التي طلبها الكفار من الرسل إلا لأن الذين تقدموهم من الأمم قد كذبوا بتلك المعجزات فأهلكهم الله، وأعطى الله ثمود قوم صالح الناقة، وهي معجزة بينة ظاهرة، فكذبوا بها فدمَّرهم الله، وما

أرسل الله الأنبياء بالمعجزات والآيات البينات التي وقعت على أيديهم إلا ليخوِّف العباد لعلَّهم يعودون إلى طريق الرشاد ويجتنبون الكفر والفساد.

(٦٠) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم أوحى الله إليك بأن الله أحاط بالناس علمًا وقدرةً، وما جعل الله الرؤيا التي أراك إياها عيانًا لا منامًا ليلة الإسراء والمعراج من عجائب الخلق إلا امتحانًا للعباد؛ ليظهر المصدق من المكذب، وما جعل الله شجرة الزقوم الملعونة المذكورة في كتاب الله إلا امتحانًا للعباد أيضًا، والواحد القهار يخوف الكفار بأصناف العذاب وأنواع المعجزات، ومع ذلك لا يزيدهم هذا التخويف إلا إمعانًا في الكفر والعصيان.

(٦١) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

واذكر يوم أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم احترامًا وتقديرًا فامتثلوا الأمر وسجدوا إلا إبليس، فإنه عصى وتمرَّد وأبى أن يسجد، وقال مُستكبرًا: كيف أسجد لآدم وهو مخلوق ضعيف من طين؟

(٦٢) ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وقال الشيطان متكبرًا على أمر الله وعاصيًا له لما أمره بالسجود لآدم: أرأيت هذا المخلوق من طين الذي فضلته عليَّ؛ لئن أطلت في عمري إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته بالإفساد والإغواء حتى أصدَّهم عن سبيل الله، إلا من أخلص في إيمانه وعمله وهم قليل فلا سبيل لي عليهم.

(٦٣) ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾

فقال الله يتوعَّد إبليس اللعين وأتباعه إلى يوم الدين: اذهب فافعل ما بدا لك، فمن أطاعك من ذرية آدم فعذابك وعذابهم كبير مدخر في نار جهنم ينتظركم.

(٦٤) ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

واستخف - أيها الشيطان - بالعصيان كل من استطعت من الإنس والجان، واجمع كل ما تستطيع أن تجمعه من أتباعك من راكب وراجل، واجعل لنفسك نصيبًا في أموالهم لكسب الحرام، وفي أولادهم بالزنا والمعاصي والفجور والفساد، وعد من اتبعك وأطاعك الوعود الكاذبة والأماني الباطلة من الزور والشرور والمكر والغرور.

(٦٥) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

إن عباد الله المؤمنين الصادقين المخلصين الذين أطاعوه واتبعوا رسوله ﷺ لا يستطيع الشيطان إضلالهم، فهم في حفظ الله ورعايته وتسديده وتأييده، فمولاهم الله يحفظهم من الشيطان ومكره وكيده.

(٦٦) ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

ربكم - أيها العباد - هو الذي تفضل عليكم فسيَّر لكم السفن في البحار؛ لتتاجروا وتسافروا على متنها وتطلبوا الرزق بها، وهذا من رحمة الله بكم، فهو رحيم بعباده يجلب لهم ما ينفعهم ويصرف عنهم ما يضرهم.

(٦٧) ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾

وإذا نزلت بكم - أيها الناس - شدة في البحر وأشرفتم على الموت والغرق نسيتم من كنتم تشركون به من الآلهة، وتذكرتم الله وحده، فدعوتموه واستغثتموه ليغيثكم وينجيكم، فلما أخرجكم سالمين من البحر إلى البر أعرضتم عن الإيمان وتوحيد العبادة لله، وعدتم إلى الشرك والمعاصي، وهذا من جهل الإنسان وغفلته.

(٦٨) ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

هل عندكم أمن أن يزلزل الله الأرض من تحت أقدامكم فتنهار بكم؟ أم عندكم أمن أن يَصُبَّ الله عليكم حجارة من السماء تمزِّقكم ثم لا تجدوا أحدًا يدفع عنكم العذاب ويرد عنكم العقاب.

(٦٩) ﴿ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾

هل عندكم أمن - أيها العباد - أن يعيدكم الله مرةً ثانية إلى البحر فيرسل عليكم ريحًا شديدة تكسِّر مراكبكم وتغرق سفنكم؛ لأنكم كفرتم بالله، وبعد هلاككم لا تجدون على الله أيّ تبعة أو مطالبة؛ لأن الله عادل في عقوبتكم ولم يظلمكم شيئًا.

(٧٠) ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾

ولقد كرم الله ذرية آدم عن سائر المخلوقات بالعقل وإنزال الكتب وإرسال الرسل والمعرفة والعلم، وسخَّر لهم كل ما في الكون، وسخَّر لهم الدواب في البر والسفن في البحر لتتقلهم في أسفارهم ومعاشهم، ورَزَقَهم - سبحانه - من أنواع المأكولات وأصناف المشروبات وأشكال الملبوسات، وفضَّلهم على سائر المخلوقات، ورفعهم درجات على كل الكائنات، فالإنسان أشرف مخلوق حتى يكفر، فإذا كفر فهو في أسفل سافلين.

(٧١) ﴿ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴾

وتذكر يوم القيامة حين يجمع الله الأولين والآخرين، وينادي كل طائفة من الناس مع إمامهم الذي يقتدون به في الخير والشر، فالصالح يعطيه الله كتاب حسناته بيمينه فهو يقرؤه فرحًا مسرورًا، ولا ينقص من أجر عمله شيئًا، ولو كان مقدار الخيط الذي في شق النواة.

(٧٢) ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾

ومن كان في الدنيا أعمى البصيرة عن براهين التوحيد وأدلة قدرة الله فكفر بما جاء به محمدﷺ فهو يوم القيامة أعمى عن طريق الجنة، وأكثر ضلالاً عن الهداية والرشد والفلاح.

(٧٣) ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾

ولقد حاول الكفار أن يصرفوك - أيها الرسول - عن القرآن المنزل عليك لتختلق على الله غير ما أنزل، ولو فعلت ما طلبوا ولبيت ما سألوا لجعلوك صديقًا لهم وحبيبًا خالصًا؛ لموافقتك لما أرادوا.

(٧٤) ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾

ولولا أن الله ثبتك - أيها الرسول - على الحق وعصمك من الباطل لأوشكت أن تميل إلى قولهم وتتنازل عن بعض الشيء؛ رغبةً منك في هدايتهم، وحرصًا منك على استجابتهم.

(٧٥) ﴿ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴾

ولو وافقت الكفار - أيها الرسول - ولو موافقة قليلة فيما طلبوا، إذًا لأذاقك الله مثلي عذاب الحياة في الدنيا، ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ وذلك لأن الله رفع منزلتك بالنبوة وأعلى قدرك بتمام المعرفة وكمال العلم، فمن عصى المنعم ابتلي بالنقم بحسب ما كان عنده من النعم، وبعد ذلك لا تجد - أيها الرسول - أحدًا يمنعك من عذاب الله ويدفع عنك عقابه.

(٧٦) ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

ولقد حاول الكفار أن يخرجوك - أيها النبي - من مكة؛ لكثرة الإيذاء، ولو فعلوا ذلك لم يبقوا بعدك إلا مدة يسيرة، ثم ينزل الله بهم العقوبة والنكال أو الموت والارتحال.

(٧٧) ﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴾

تلك سنة الله - تعالى - في إهلاك الأمم التي تُخرج أنبياءها من بين أظهرها، وسنة الله لا تتغير ولا تتبدل، فهي ثابتة مطردة لا تختلف باختلاف الزمان أو المكان.

(٧٨) ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾

أدِّ الصلاة تامة كاملة من وقت زوال الشمس في منتصف النهار إلى ظلمة الليل، ومنها صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأدِّ صلاة الفجر وأطل قراءة القرآن فيها، فإن الملائكة تحضر القراءة في صلاة الفجر ببركة القرآن وشرف الزمان.

(٧٩) ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾

وقم بعد نومك فصلِّ بعض الوقت من الليل تاليًا لكتاب الله؛ لتكون زيادة لك في الحسنات، ورفع الدرجات، عسى أن يبعثك الله - أيها النبي - شافعًا للناس يوم القيامة؛ ليخفف الله عنهم بفصل القضاء وتقف موقفًا يثني عليك فيه الأولون والآخرون، وهو موقف الشفاعة الكبرى.

(٨٠) ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾

وادع ربك فقل: يا ربي، أدخلني فيما هو صلاح وخير لي مدخل صدق، وهو مدخل الهداية والرشد والتوفيق، وأخرجني مما هو شرٌّ لي من الأقوال والأعمال مخرج صدق، وهب لي من لدنك حجة ثابتة تصرني بها على جميع من خالفني، فإن الدليل الصحيح الثابت يعد من أعظم السلاح على الأعداء عند الجدال والاختلاف.

(٨١) ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾

وقل أيها النبي للكفار جاء الإسلام وذهبت عبادة الأصنام، وذهب باطلكم الزائف المفترى وانتصر عليه الحق؛ لأن الحق ثابت غالب منتصر.

(٨٢) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾

وينزل الرحمن الرحيم من آيات القرآن الكريم ما ينقي كل قلب سقيم من أمراض الشبهات كالكفر والنفاق والشك، وأمراض الشهوات وحب الزنا وأنواع الفواحش، وما ينقي الأجسام من الآلام برُقْيَتِها بهذا الكلام، وما يكون سببًا لنيل رحمة الله من الإيمان والحكمة والفقه في الدين، ولا يزيد هذا القرآن أهل الكفر عند سماع تلاوته إلا كفرًا وضلالاً؛ لكثرة تكذيبهم وجحودهم، فالقرآن يزيد المؤمنين إيمانًا والكافرين طغيانًا.

(٨٣) ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾

وإذا أنعم الله على من كذب بآياته وكفر بنعمه عصى أمره وارتكب معاصيه، وإذا أصابه بلاء من فقر أو مرض أيس من رحمة الله في الغنى والعافية، فهو لا يثق بفضل الله ولا يصدق وعده باليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدة.

(٨٤) ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾

قل - أيها الرسول - للناس: كل واحد منكم يعمل على ما يناسبه من الأحوال وما يقدر له من الأعمال، فالله يعلم عمل كل عامل، وسوف يجازيه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وفيه تهديد ووعيد للعصاة.

(٨٥) ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

ويسألك الكفار - أيها النبي - عن حقيقة الروح تعجيزًا ومكابرة، فأجبهم بأن أسرار الروح وحقيقتها مما استأثر الله بعلمه لا يعلم ذلك إلا الله وحده، وما أُعطي الناس من العلم بالنسبة إلى علم الله تعالى إلا شيئًا قليلاً، وهذا القليل هم درجات فيه.

(٨٦) ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾

ولو أراد الله أن يمحو القرآن من قلبك - أيها الرسول - لفعل ذلك، فهو قدير على كل شيء، ثم لا تجدُ من ينصرك فيمنعك من ذلك المحو والنسيان، أو يحفِّظكَ القرآن بعدما نسيته.

٨٧ ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾

لكن الله رحمك - أيها النبي - فحفظ عليك كتابه في صدرك، إن فضله كان عليك عظيمًا، فقد اختارك للنبوة وأكرمك بالقرآن العظيم، وشرَّفك بالمقام المحمود، وأعطاك الحوض المورود وغير ذلك من المراتب العالية والمنازل الرفيعة.

٨٨ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾

قل لو اجتمع جميع الإنس والجن وحاولوا معارضة القرآن والإتيان بمثله في البلاغة والفصاحة؛ لما استطاعوا لذلك، ولو أعان بعضهم بعضًا واتفقوا كلهم على هذا التحدي لعادوا مغلوبين.

٨٩ ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾

ولقد نوَّع الله - سبحانه وتعالى - في كتابه من سائر الأمثال ومختلف العبر والعظات؛ لينتفع الناس بذلك، وليهتدوا بهدي القرآن، فأبى أكثرهم إلا تكذيبًا للحق، وإنكارًا للصدق، وإصرارًا على الباطل.

٩٠ ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾

ولما أفحم القرآن الكفار وغلبهم ببيانه وبلاغته، ذهبوا يلتمسون معجزات أخرى، فقالوا: لن نصدقك - أيها الرسول - ونتبع ما جئت به حتى تخرج لنا من بطحاء مكة عينًا جارية نشرب منها!!

٩١ ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾

أو ترينا حديقة لك فيها من أنواع الأشجار ومختلف الثمار تجري وسطها الأنهار بغزارة وكثرة.

٩٢ ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾

أو تسقط علينا قطعًا كما زعمت، أو تأتي بالله وبملائكته فنراهم بأعيننا ظاهرين أمامنا.

٩٣ ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾

أو تملك - أيها النبي - بيتًا من الذهب أو تصعد في سلم إلى السماء، ولن نصدقك في صعودك حتى ترجع إلينا ومعك كتاب منشور من الله، مكتوب فيه أنك محمد رسول الله، فقل لهم متعجبًا من هذا الجحود والتعنت والاستكبار والإنكار: سبحان ربي ما أنا إلا عبد من عباد الله أمره بإبلاغ رسالة منه، لا أقدر على الإتيان بالمعجزات، فمهمتي البيان والتبليغ.

٩٤ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾

والذي منع الكفار من الإيمان بالواحد القهار واتباع النبي المختار بعدما جاءهم القرآن والبيان من الرحمن هو قولهم كبرًا وعنادًا: كيف يبعث الله الرسول من جنس الناس ولم يجعله ملكًا من الملائكة؟!

٩٥ ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾

قل لهم - أيها النبي -: لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون عليها مطمئنين في سكون وهدوء؛ لأرسل الله إليهم ملكًا من جنسهم؛ ليكون أعلم بأحوالهم، ولكن أهل الأرض بشر، فالمناسب لهم أن يرسل الله بشرًا مثلهم من جنسهم ليستطيعوا مخاطبته وفهم كلامه والاقتداء بأحواله وجعله أسوةً لهم.

٩٦ ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾

قل - أيها النبي - للكفار يكفي الله وحده شاهدًا على صدقي وصحة ما جئت به من الرسالة، إنه - سبحانه - خبيرٌ بأحوال العباد، بصيرٌ بأعمالهم، وسيجازيهم على أفعالهم إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشرٌ.

٩٧ ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ
مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾

والذي يهديه الله - عز وجل - لطاعته واتباع رسوله، فهو المهتدي إلى الحق والطريق المستقيم، ومن يكتب الله عليه الضلال ولا يوفقه للهداية ويخذله ويكله إلى نفسه، فلن يهديه أحدٌ بعد الله، وهؤلاء الضُّلال يجمعهم الله ليوم لا ريب فيه، ويحضرهم إلى المحشر على وجوههم لا يرون ولا يتكلمون ولا يسمعون، ودار خلودهم في نار جهنم لابثين فيها أبدًا، كلما هدأ اشتعالها، وسكن لهيبها، وخمدت نارها زادهم الله نارًا تتقد وتلتهب عليهم.

٩٨ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

هذا العذاب الشديد لأعداء الله الكفار بسبب تكذيبهم للرسالة وخروجهم عن طاعة الله وقولهم -مستكبرين معاندين- إذا حُدثوا عن البعث والنشور: كيف نخلق خلقًا جديدًا ونعود ثانية إلى الحياة بعدما صرنا عظامًا بالية، وأجزاءً متفتتة، وأكل أبداننا الدود والتراب.

٩٩ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

كيف أعرض هؤلاء الكفار فلم يتفكروا في قدرة الله الذي خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات العجيبة على غير مثال سابق، أليس هو - سبحانه - قادرًا على أن يخلق أمثالهم بعد فنائهم، وقد وقَّت الله لهؤلاء الكفار أجلاً معلومًا ووقتًا معدودًا لموتهم وعذابهم سوف يقع لا محالة، ومع ظهور البراهين ووضوح الأدلة أبى الكفار إلا الجحود والاستكبار والتكذيب والإنكار.

١٠٠ ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾

قل -أيها النبي- لهؤلاء الكفار لو كانت خزائن الله من الرحمة والعطاء التي لا نهاية لها ولا نفاد بأيديكم تملكون التصرف فيها لبخلتم بها ولمنعتم غيركم منها؛ شحًا بالعطاء وخوفًا أن تصبحوا فقراء، ومن طبيعة الإنسان الشح والإمساك إلا من وفَّقه الله بالإيمان للعطاء والسخاء.

١٠١ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾

ولقد أعطى الله موسى تسع معجزات واضحات شاهدات على صدق رسالته، وصحة ما جاء به، وهي العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فاسأل - أيها الرسول - اليهود عن هذه المعجزات التي جاء بها موسى سؤال تقرير، حينها قال فرعون لموسى: إني أعتقد أنك يا موسى قد خُدعت بالسحر، وغُلِبت على عقلك بأفعال السحرة، فلست رسولاً وإنما أنت ساحر.

١٠٢ ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾

فردَّ موسى على فرعون بقوله: أنت تعلم أن الله وحده هو الذي أنزل هذه المعجزات الدالة على صدق نبوتي وصحتها؛ لتكون براهين لمن عنده بصيرة يستدل بها على وحدانية الله وربوبيته وألوهيته، وإني متيقن أنك - يا فرعون - مغلوب هالكٌ مدحورٌ ملعون مخذول.

١٠٣ ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾

فعزم فرعون على إخافة موسى ومن معه وإخراجه مع قومه من مصر، فأغرق الله فرعون وجنده في البحر، وأنجى موسى ومن معه، وظهر الحق وزهق الباطل.

١٠٤ ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

وأوحى الله من بعد هلاك فرعون وجنده إلى بني إسرائيل أن اسكنوا أرض الشام، وكلوا من الطيبات مع عمل الصالحات، فإذا حان موعد القيامة جمعكم الله من قبوركم للبعث والنشور؛ ليوفي كل نفسٍ ما كسبت.

(١٠٥) ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

وبالحق أنزل الله هذا الكتاب على رسوله ﷺ لهداية الناس وتعليمهم ما ينفعهم، وتحذيرهم من سبل الشيطان ووسائل الغواية، وبالصدق والعدل وحفظ الله لكتابه من التغيير والتبديل نزل، وما أرسل الله رسوله ﷺ إلا مبشرًا بالجنة لمن أطاعه، ومخوفًا بالنار لمن عصاه.

(١٠٦) ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾

وأنزل الله كتابه على رسوله ﷺ مبيّنًا مفصلًا محكمًا فارقًا بين الحق والباطل والهدى والضلال، ليقرأه الرسول على أمته على مهل وتؤدة بلا عجلة، ونزل موزّعًا تبعًا للحوادث والوقائع وما يناسب أحوال الناس.

(١٠٧) ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: آمنوا بكتاب الله أو لا تؤمنوا، فإن إيمانكم لا يزيد القرآن كمالاً وتمامًا وفضلاً، فقد تم وكمل، وتكذيبكم للقرآن لا يُلحِق به نقصًا وبخسًا وعيبًا، فهو بريء منزَّه عن ذلك، إن العلماء الربانيين الذين عرفوا الكتب السماوية المتقدمة كالتوراة والإنجيل إذا قُرئ عليهم القرآن يتأثرون ويخافون ويسجدون على وجوههم؛ تعظيمًا لمنزلته جل في علاه.

(١٠٨) ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾

ويقول العلماء عند سماع كتاب الله: تنزَّه الله وتقدَّسه عما وصفه به أعداؤه الكفار، فوعده بالثواب لمن أطاعه، والعقاب لمن عصاه واقع لا محالة.

(١٠٩) ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾

ويخرُّ هؤلاء العلماء الربانيون عند سماع القرآن على وجوههم ساجدين لله، يبكون من شدة تأثرهم بسماع آيات الله، ويزيدهم سماع القرآن ذلاً لربهم واستكانة وخضوعًا.

(١١٠) ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار الذين أنكروا عليك دعاءك لربك بقولك: «يا ألله يا رحمن» ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فإنه ربٌّ واحد له أسماء حسنى كثيرة يُدعى بها، ولا تجهر بالتلاوة في الصلاة فيسمعك الكفار، ولا تسرَّ بها فلا يسمعك المصلون معك، وتوسط في القراءة بين الجهر والإسرار.

(١١١) ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾

وقل - أيها النبي - لله الحمد؛ لأن له الكمال المطلق، والثناء الحسن، وله كل المحامد والمدائح، ولم يكن له ولد - سبحانه -؛ لأنه لم يلد ولم يولد، ولا شريك له في ربوبيته ولا ألوهيته، وليس له ولي من خلقه يدفع عنه ضرًا ويجلب له نصرًا، فهو القوي الغني، وهم الأذلاء له الخاضعون لربوبيته الفقراء لفضله، وعظِّم ربك بأنواع الثناء عليه، وقدِّسه بشتى المحامد وأخلص العبودية له.

* * *

مكية

ترتيبها
١٨

سورة الكهف

آياتها
١١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾

الثناء الحسن، والحمد الجزيل، والشكر التام أوله وآخره لله وحده، الذي أكرم عبده ورسوله محمدًا ﷺ بإنزال القرآن عليه، ولم يجعل فيه ميلاً عن الحق، ولا انحرافًا عن العدل والصدق.

(٢) ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾

والله جعل القرآن كتابًا مستقيمًا لا تعارض فيه ولا تناقضَ بل هو محكم تام كامل؛ ليخوِّف الكفار عذاب النار وعقاب الواحد القهار، ويبشِّر من آمن وعمل صالحًا بالثواب الجزيل والأجر الجليل في جنات النعيم.

(٣) ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾

ليبقى المؤمنون في نعيم الجنة دائمًا خالدين مخلدين في دارٍ كريمة ونعم عميمة.

(٤) ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾

ويخوِّف القرآن الكفار ويحذِّرهم عذاب الله وغضبه، وهم القائلون بأن لله ولدًا، تعالى الله عن ذلك وتقدَّس وتنزَّه.

(٥) ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

ليس عند هؤلاء الكفار علم بما نسبوه إلى الله من اتخاذ الولد تقدَّس عن ذلك، مثلما لم يكن عند أسلافهم الذين اتبعوهم علم بذلك، عظمت هذه الكذبة الفظيعة الشنيعة التي قالوها بأفواههم، ما قالوا إلا كذبًا وافتراءً وزورًا.

(٦) ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

فلعلك - أيها الرسول - تهلك نفسك بالغم والحزن بسبب إعراض قومك وتكذيبهم بهذا القرآن.

(٧) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

إن الله جعل ما على وجه الأرض من مخلوقات شتى من جبال ووهاد، وأشجار وأنهار ونحوها جمالاً للأرض ومنفعة لأهلها؛ ليمتحن الله شكرهم بذلك، أيهم أحسن طاعة لله وأصوب عملاً صالحًا بإخلاصه لله، ومتابعته لرسول الله ﷺ.

(٨) ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

وإن الله سوف يُصيِّر ما على وجه الأرض بعد انتهاء العالم ترابًا لا نبات فيه ولا زينة ولا جمال.

(٩) ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾

لا تظن - أيها النبي - أن قصة أصحاب الكهف واللوح الذي سُطِّرت فيه أسماء الفتية عجيبة وغريبة على قدرة الله، فقدرة الله أكبر والله لا يتعاظمه شيء.

(١٠) ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

وتذكر يوم دخل الشبان المؤمنون إلى الغار هربًا من أذى قومهم لئلا يردوهم عن الإيمان إلى عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، فدعوا ربهم وقالوا: يا ربنا أعطنا رحمة من عندك تثبتنا على الإيمان وتحفظنا من شر الإنس والجان،

ووفقنا لطريق الاستقامة والسداد في كل الأمور؛ لنعمل لطاعتك ونجتنب معصيتك، فنكون راشدين مهديين غير غاوين ولا ضالين.

(١١) ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾

فألقى الله على الفتية النوم الثقيل، فبقوا سنين كثيرة في الغار في هيئة الرقود.

(١٢) ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾

ثم أيقظ الله الشبان من النوم؛ ليعلم - سبحانه - أي الجماعتين المختلفتين في عدد بقائهم أيها أعرف بالحساب؟ وهل بقوا في الغار يومًا أو بعض يوم، أو مدةً طويلة؟

(١٣) ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾

الله يخبرك - أيها النبي - بقصة أهل الغار بالصدق واليقين، فهم شبان وحَّدوا ربهم وأطاعوه فزادهم هدىً ويقينًا وثباتًا على الحق.

(١٤) ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾

وقوى الله قلوب الشبان بالإيمان وثبَّتهم بالعزيمة حين وقفوا أمام السلطان الجبار وهو يلومهم على ترك عبادة الأوثان وعبادتهم للرحمن، فردوا عليه بقولهم: الله ربنا الذي نوحِّده هو الذي خلق السموات والأرض، لن نعبد سواه ولن نوحِّد غيره، ولو قلنا غير هذا القول لكنا كذبنا فيما قلنا وخالفنا الصواب وضللنا عن الحق.

(١٥) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾

وقال بعض الفتيان المؤمنين لبعض: قومنا هؤلاء عبدوا غير الله وأشركوا معه غيره في العبادة فلماذا لم يأتوا بدليل واضح على فعلهم المشين هذا؟ فليس عندهم برهان ولا حجة، فهم كاذبون مفترون، ولا يوجد أشد ظلمًا ممن اختلق الكذب على ربه بالإشراك به وعدم توحيده، والخروج عن طاعته.

(١٦) ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

وما دمتم فارقتم قومكم ومعبوديهم جميعاً إلا الله، ففارقوهم بأبدانكم والتجئوا إلى الغار للعزلة بدينكم والفرار من الفتن، يوسع الله عليكم من رحمته ما تنالون به خيري الدنيا والآخرة، وييسر لكم كل عسير، ويسهل ما تحتاجون إليه من أسباب الحياة.

(١٧) ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾

فلما امتثلوا أمر الله ألقى الله عليهم النوم فناموا، فلو رأيتهم لرأيت الشمس إذا طلعت من المشرق مالت عنهم ناحية اليمين، وإذا غربت مالت عنهم إلى ناحية اليسار، وهم في سعة من الغار فلا يتأذون بحرارة الشمس ولا ينقطع عنهم الهواء، وهذا الذي سخَّره الله لهؤلاء الشبان دليل على تمام قدرته، فإن من يرشده الله إلى الحق فهو الراشد حقًّا، ومن يكتب عليه الغواية فلن تجد له معينًا يدله على سبيل الهداية؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله وحده.

(١٨) ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾

وتظن يا من يرى أهل الغار أنهم أيقاظ وليسوا بنيام، والله - سبحانه - يتولاهم بالرعاية فيقلبهم وهم رقود مرة للجنب الأيمن، ومرةً للجنب الأيسر حتى لا تأكل أجسامهم الأرض، وترى كلبهم الذي كان معهم في خارج الغار قد مدَّ ذراعيه، لو أبصرتهم حقيقة لأدبرت هاربًا من الخوف، ولمُلئت نفسك فزعًا وجزعًا من هول ما شاهدته.

(١٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴾

ومثلما أنامهم الله وحفظهم هذا الزمن الطويل أيقظهم على حالتهم ولم يتغير منهم شيء حتى يسأل بعضهم بعضًا: كم من الزمن قضيناه هنا راقدين؟ فردَّ بعضهم: بقينا يومًا أو جزءًا من يوم، وقال بعضهم: ردوا العلم لله - عز وجل - وحده فهو الأعلم بالزمن الذي بقيناه، فأرسلوا واحدًا منا بدراهمنا من الفضة إلى مدينتنا فليتحرَّ الطعام الطيب الحلال فيشتري لنا قوتًا منه، وليحسن التعامل مع البائع بلطف؛ حتى لا ينكشف أمرنا ولا يخبر من لقي بحالنا.

(٢٠) ﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾

إن قومنا إذا علموا بحالنا رمونا بالحجارة فيقتلوننا أو يردوننا إلى دينهم الباطل، ولن ننال ما أردنا من الفوز بالجنة والنجاة من النار إذا عدنا لدين الكفار.

(٢١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾

ومثلما ألقى الله عليهم النوم سنين كثيرة، وحفظهم على حالهم ولم يتغير منهم شيء وأيقظهم من نومهم، أطلع عليهم قومهم لحكمة أرادها؛ لأن البائع عرف الدراهم التي جاء بها المشتري من أصحاب الكهف؛ حتى يتيقن قومهم أن الله قدير على بعث الناس بعد الموت، وأن القيامة واقعة لا محالة، إذ يختلف قومهم من الكفار في مسألة القيامة بين مصدق ومكذب، فجعل الله إيقاظ أهل الكهف دليلاً للمصدق بالبعث على المكذب به، وبعد أن ظهر أمر أصحاب الكهف وأيقظهم الله، أماتهم الله في مكانهم، حينها قالت جماعة من قومهم أغلقوا باب الغار ببناء عليهم فالله وحده يعلم حالهم، وقال أهل السلطة والأمر والنفوذ: سوف نبني على مكانهم مسجدًا للعبادة، ولقد صح عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله من اتخذ القبور مساجد». ونهى أمته عن ذلك، كما نهى عن البناء على القبور مطلقًا، وعن تجصيصها والكتابة عليها، ولعن اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ لما فيه من الغلو المحرم المذموم الموصل بصاحبه إلى الشرك بالله وعبادة غيره.

(٢٢) ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾

سوف يقول بعض الناس الذين اختلفوا في عدد أهل الكهف: هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول بعضهم: هم خمسة سادسهم كلبهم، والقولان لا دليل عليهما، فهما مبنيان على الظن فحسب، ومنهم من يقول: هم سبعة وثامنهم كلبهم، قل - أيها النبي -: الله وحده أعلم بعددهم، ما يعلم عددهم إلا القليل من الناس من أهل العلم، فلا تجادل أهل الكتاب في عددهم إلا جدالاً يسيرًا ظاهرًا لا عمق فيه يورث الخلاف، ويكفي أن تقص عليهم ما جاءك من أخبارهم عن طريق الوحي، ولا تسأل أهل الكتاب عن قصة أصحاب الكهف وحالهم وعددهم، فإنهم جهلاء لا علم عندهم، أو عند بعضهم علم لكنه يكتمه.

(٢٣) ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾

وإذا أردت أمرًا وعزمت على فعله فلا تقل سوف أفعله غدًا حتى تعلّقه بمشيئة الله.

(٢٤) ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴾

فتقول إن شاء الله، فإنه إذا لم يشأ الله لا يكون هذا الأمر، واذكر ربك عند النسيان بقول: إن شاء الله، وعليك بذكر الرحمن، فإنه يذهب النسيان عن الإنسان، وادعُ ربك عسى أن يهديك إلى أقرب وأيسر السبل الموصلة إلى الحق والهدى والفلاح.

(٢٥) ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾

وبقي الشبان نيامًا في الغار ثلاث مئة وتسع سنين لم تغيرهم الأرض، وهي من أعظم الأدلة على قدرة الله ونفوذ مشيئته.

(٢٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾

وإذا سألك سائل – أيها النبي – عن مدة بقاء الشبان في الغار وليس عندك وحيٌ من الله فلا تتقدم بجواب حتى يخبرك الله، بل قل: الله وحده أعلم بمدة بقائهم في الغار، فهو المطلع على غيب السموات والأرض، وأَعْجَبْ من كمال بصر الله وسمعه وعظيم اطلاعه، وتمام علمه بكل شيء، ليس للخلق أحدٌ يتولى أمورهم ويرعى شؤونهم غير الله وحده لا شريك له في حكمه وشرعه، كما أنه لا شريك له في ألوهيته وربوبيته سبحانه وتعالى.

(٢٧) ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾

واتل – أيها النبي – ما أوحاه الله إليك من القرآن، واتبع ما جاء فيه فإنه الكتاب الذي لا تبدل كلماته ولا تتغير آياته، ولا تبطل معجزاته؛ لصدقه في الأخبار، وعدله في الأحكام، ولن تجد من تلجأ إليه وقت الأزمات والملمات غير الله أحدًا، فبه فاعتصم وعليه فتوكل.

(٢٨) ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾

واصبر نفسك – أيها النبي – مع الفقراء من المسلمين الذين يخلصون لربهم العبادة ويذكرونه ويدعونه في الصباح والمساء، يبتغون ما عنده من الثواب ويحذرون ما لديه من العذاب، والزم مجالسهم، وعليك بصحبتهم؛ فالخير والبركة معهم، ولا تحوِّل نظرك وحفاوتك عنهم إلى غيرهم من أعداء الله الكفار من أجل حطام الدنيا الزائل وزينتها الفانية، ولا تطاوع من جعل الله قلبه غافلاً عن ذكره وشكره لاهيًا عن عبادته مصروفًا عن طاعته وآثر الهوى، على الهدى وأصبحت كل شؤون حياته ضياعًا وباطلاً.

(٢٩) ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾

وقل – أيها الرسول – للكفار: إن الذي أتيت به من عند الله من وحي هو الحق الذي لا باطل فيه، فمن أراد التصديق والاتباع فليفعل، فله الثواب العظيم والنعيم المقيم، ومن أراد التكذيب والإعراض فليفعل فما ضرَّ إلا نفسه بإيرادها موارد الهلاك، إن الله هيأ للكفار نارًا محرقة تحيط أسوارها بالكفار، وإذا طلب الكفار الماء في النار للشرب من شدة العطش يعطون ماء كالزيت المغلي، يحرق وجوههم من شدة حرارته، قُبِّحَ هذا الزيت الحار شرابًا للكفار في النار، وقبحت النار منزلاً للأشرار ودارًا للفجار.

(٣٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾

إن المؤمنين الصالحين لهم الثواب الجزيل من الرب الجليل، لا يذهب ثواب ما عملوه ولا يضيع أجر ما كسبوه، بل لهم الأجر كاملاً بأحسن ما عملوا.

(٣١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾

هؤلاء المؤمنون لهم عند الله جنات خالدون فيها منعمون أبدًا، تجري فيها الأنهار من تحت القصور والدور والأشجار، يتجملون فيها بأساور الذهب في أيديهم، ولباسهم ثياب خضرٌ جميلة من رقيق الحرير وغليظه، وهم متكئون في

الجنة على المجالس الوثيرة والفرش الناعمة، نعم الأجر أجرهم عند ربهم، وحسنت الجنة لهم مقامًا في نعيم وأمان، وفي جوار الرحمن.

(٣٢) ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾

واضرب - أيها النبي - للكفار مثلاً برجلين فيما سلف من الأيام، مؤمن وكافر، وقد جعل الله للكافر حديقتين من أعناب، وسوَّرهما بنخل ملتف كثير، وأنبت الله وسط الجنتين زروعًا بأنواع الثمار والحبوب.

(٣٣) ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾

كل واحدة من الحديقتين أطلعت بثمرها ولم ينقص من ثمرها شيء، وجعل الله بين الحديقتين نهرًا عذبًا للشراب، وسقي الحديقتين.

(٣٤) ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾

وكان للكافر صاحب الحديقتين ثمر وأموال أخرى، فقال لصاحبه المؤمن في أثناء محاورته له بكبر وغرور: مالي أكثر من مالك، وأنصاري وأتباعي أقوى وأشرف من أنصارك وأتباعك.

(٣٥) ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

ودخل الكافر حديقته وهو ظالم لنفسه بالشرك بالله والتكذيب بيوم القيامة، فأعجب بالحديقة وقال: ما أعتقدُ أن تهلك حديقتي مدة الحياة، تكذيبًا منه بقدرة الله تعالى.

(٣٦) ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾

وما أعتقد أن الساعة آتية، ولو حصل أنها قامت وعدتُ إلى الله بعد الموت فسوف ألقى عند الله أفضل من حديقتي لشرفي وارتفاع قدري.

(٣٧) ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾

فردَّ عليه الرجل المؤمن ناصحًا له قائلاً: كيف تكفر بالله وهو الذي خلق أباك آدم من تراب، ثم صورك من ماء مهين، ثم سواك في أحسن تقويم على صورة إنسان حسن القامة، معتدل الخلق، والقادر على إنشاء الخلق قادرٌ على إعادتهم بعد الموت.

(٣٨) ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

وأنا لا أقول بما تقوله من تكذيب بالبعث والنشور، وكفران النعم وإنما أقول الله وحده الخالق الرازق المتفضل المنعم لا أشركُ به شيئًا ولا أعبدُ سواه.

(٣٩) ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

وهلاَّ يوم رأيت حديقتك فأعجبك جمالها وحسنها قلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فبمشيئة الله حصلت لك، وبقوته استطعت تحصيلها والقيام عليها، وإذا كنت أنا أقلَّ منك في المال والأبناء.

(٤٠) ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾

فالله قادرٌ على أن يرزقني أكثر مما أعطاك؛ لشكري له، وقادر أن يسلب ما أنعم به عليك؛ لكفرك، وينزِّل من السماء على حديقتك نارًا تحرقها وتصبح يابسة جرداء صحراء لا تثبت فيها قدم.

(٤١) ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾

ولا ينبع فيها ماء ولا تستطيع إخراجه من باطنها، فقد جف الماء من ظاهرها، وغار من باطنها.

٤٢ ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

ووقع ما حذر منه المؤمن، فأهلك الله الحديقة، وأحرق ما فيها، فقلَّب الكافر كفيه متحسرًا متندمًا على ما صرف فيها من أموال وقد تهدَّم بعضها على بعض، وقال: يا ليتني شكرتُ ربي بتوحيده وإفراده بالعبادة وعدم الإشراك به، وقد فات وقت الندم بعد ما زلَّت به القدم.

٤٣ ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

ولم توجد للكافر طائفة تنصره ممن كان يفتخر بهم ويعدهم للأزمات ليمنعوه مما نزل به وبحديقته تخلوا عنه، ولم يستطع هو أن يدافع عن نفسه لضعفه وعجزه.

٤٤ ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

وعند وقوع المحن وحلول الكوارث تكون القوة والقدرة والولاية والنصرة لله وحده، وهو خير من يثيب الطائعين، وعاقبته لأوليائه أفضل عاقبة من النصر والتمكين.

٤٥ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

واضرب - أيها النبي - للبشر حال الدنيا التي انخدعوا بزخرفها واغتروا بلهوها ولعبها، فمثلها في حالها وسرعة زوالها وجفائها وعدم وفائها وغدرها لأصفيائها؛ كمثل ماء أنزله الله من السماء فأنبت به نباتًا مخضرًا نضرًا زاهيًا بهيجًا، وما هو إلا زمن قليل حتى تحول إلى عيدان وحطامٍ يابسٍ متكسِّر تنثره الرياح، وتعبث به في كل جهة، والله على كل شيء قادر، غلب بأمره على ما أراد، فلا مانع لحكمه ولا راد.

٤٦ ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

الأموال والأولاد حسن وجمال للحياة الدنيا الزائلة ولكن المال يفنى والأولاد يموتون والدنيا تنتهي وتبقى الأعمال الصالحة ومن أفضلها التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وهي أفضل أجرًا عند الله من الأموال والأولاد وهي أحسن ما ينتظره الإنسان وما يرجوه من الثواب عند الله فيحصل له بها النعيم المقيم في الآخرة.

٤٧ ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

واذكر للناس يوم يزيل الله جبال الدنيا عن مواقعها وتشاهد الأرض وهي بادية ليس عليها ما يحجبها عن الأنظار، وجمع الله الخليقة يوم القيامة فلم يترك منهم أحدًا بل أحضرهم جميعًا.

٤٨ ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

وعُرض الخلق كلهم على الله وهم صفٌّ لا يستر بعضهم بعضًا، لقد عادوا إلى الله يوم القيامة كما خرجوا من بطون أمهاتهم لا مال ولا ولد معهم، ولا شيئًا من متاع الدنيا بل ظنوا أن الله لن يجعل لهم موعدًا يبعثهم ويحاسبهم فيه.

٤٩ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

ووضع الكتاب الذي فيه أعمال كل إنسان من حسن وسيء فآخذ كتابه بيمينه أو بشماله، وتشاهد الفجار العصاة خائفين وجلين؛ لأجل ما فعلوه من شرور وآثام، ويقولون حين يبصرون الكتاب: يا خيبةً لنا ويا حسرتنا ما لهذا الكتاب لم يترك صغيرة مما عملناه، ولا كبيرة إلا حفظها وسطرها، وأبصروا فيه كل عمل عملوه في الدنيا مكتوبًا محفوظًا ولا يظلم ربك عبدًا من عباده مثقال ذرة، فلا ينقص من حسنات المطيع ولا يزيد من سيئات العاصي.

(٥٠) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾

واذكر يوم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية لا عبادة، وأمر الله إبليس بذلك أيضًا فامتثل الملائكة وأطاعوا وسجدوا كلهم، وعصى إبليس أمر الله ولم يسجد لآدم وكان إبليس من الجن فخرج عن طاعة الله وأبى السجود كِبْرًا وحسدًا أفترضون به أيها الناس هو وذريته أولياء لكم من دون الله تطيعونهم وتتبعونهم وهم أعظم عدو لكم قبحًا لطاعة إبليس وأعوانه بدلاً من طاعة الله عز وجل.

(٥١) ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

لم يُحْضِر الله إبليس وأعوانه خلق السموات والأرض، ولم يستعن بهم على إنشائهما ولا أشهد الله بعضهم على خلق بعض، بل تفرد الله بالخلق والإنشاء وحده، ولم يستعن بأحد ولم يشاور أحدًا، وما كان الله ليتخذ أهل الضلال من الشياطين وأعوانهم أعوانًا ومساعدين له - جل في علاه - فهو المتفرد الغني القوي فكيف تصرفون لهم شيئًا من العبادة وتتولونهم من دون الله، والله هو الخالق وحده دونما سواه.

(٥٢) ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾

واذكر يوم يقول الله للكفار يوم الدين: نادوا الذين كنتم تشركونهم معي في العبادة ليدفعوا عنكم العذاب، ولينصروكم هذا اليوم، فنادوهم فلم يجيبوهم، وجعل الله بين المشركين وبين آلهتم التي عبدوها من دون الله مهلكًا في نار جهنم يهلكون فيه كلهم.

(٥٣) ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾

وشاهد الفجار النار فعلموا علم اليقين أنهم داخلون فيها لا محالة، ولم يجدوا عن النار طريقًا يصرفهم عنها.

(٥٤) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾

ولقد بيّن الله في كتابه لعباده أمثلة كثيرة من كل ماينفعهم ليعتبروا بهذه الأمثال ويتعظوا بها، وكان الإنسان أكثر الخليقة مخاصمةً ومجادلة.

(٥٥) ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

وما صرف الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ وطلب المغفرة من الله لذنوبهم إلا مكابرة للرسول ﷺ وعنادًا له وسؤالهم أن يصيبهم الله بما أصاب من كان قبلهم من المكذبين، أو يوقع بهم عقاب الله عيانًا وهذه سنة الله في كل من كذب بالرسل.

(٥٦) ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾

وما يبعث الله الرسل إلى العباد إلا ليبشروا من آمن بالجنة، وينذروا من كفر بالنار، والكفار مع وضوح الأدلة وظهور البراهين، يخاصمون بالباطل عنادًا وبغيًا ليردوا بباطلهم الحق المنزل على الرسول ﷺ، واتخذ الكفار كتاب الواحد القهار وحجج العزيز الغفار وما خُوِّفوا به من عذاب الجبار سخرية واستهزاءً.

(٥٧) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

وليس في العالم أحدٌ أشد ظلمًا ممن نُصح ووُعظ بآيات الله البينة فأبى الامتثال وأعرض عن الاستجابة ونسي ما فعل وما اقترفته يداه من الأعمال الشنيعة فلم يتب منها، إن الله جعل على قلوب الكفار أغطية فلم ينتفعوا بالقرآن،

ولم يفهموه، وجعل الله في آذانهم صممًا فلم يسمعوا الهدى، ولم ينتفعوا بالموعظة، وإن تَدْعُ الكفار -أيها الرسول- إلى الإيمان فلن يستجيبوا لك، ولن يتبعوك أبدًا؛ لأن الله كتب عليهم الضلال.

٥٨ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴾

وربك الغفور لذنوب العباد إذا عادوا إليه وتابوا من ذنوبهم، وهو ذو الرحمة الواسعة يمهل العصاة، ويقبل من عاد إليه ودعاه، ولو يعذب الله الكفار بما فعلوه من الآثام والسيئات لعجَّل لهم في الدنيا العذاب، ولكن الله يمهل ولا يهمل، حليم لا يعجل بالعقوبة بل للكفار موعد يوم القيامة يحاسبون فيه على أعمالهم لا راد لذاك اليوم، ولا محيد عنه ولا مندوحة منه.

٥٩ ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾

وهذه القرى المجاورة لكم كقرى قوم هود وصالح ولوط وشعيب دمَّرهم الله وأبادهم حين كفروا به، وكذبوا رسله، وجعل الله لعذابهم وقتًا محددًا وأجلاً معلومًا فلما حان الوقت وحل الأجل أخذهم الله بالعذاب.

٦٠ ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾

واذكر حين قال موسى - عليه السلام - لخادمه يوشع بن نون: لا أزالُ أسير في الأرض وأواصل السير حتى أصل إلى ملتقى البحرين، أو أسير دهرًا طويلاً حتى ألتقي بالعبد الصالح؛ لأطلب العلم عنده، وهو علم عند الخضر ليس عند موسى مما علمه الله تعالى.

٦١ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴾

وواصل موسى ويوشع السير فلما وصلا ملتقى البحرين قعدا عند صخرة ونسيا الحوت الذي وصى موسى يوشع أن يأخذه معه زادًا لهما فجعله يوشع في مكتل فإذا الحوت يصبح حيًا بإذن الله، وينطلق من المكتل إلى البحر ويسبح في البحر فيشق له في الماء طريقًا مفتوحًا.

٦٢ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾

فلما مشيا وتركا المنزل الذي نسيا فيه الحوت جاع موسى فطلب الغداء من يوشع؛ لأنه تعب من عناء السفر.

٦٣ ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴾

قال يوشع لموسى: لقد أنساني الشيطان أن أخبرك بأن الحوت لما جلسنا عند الصخرة قد دبت فيه الحياة وخرج من المكتل إلى البحر وشق له في الماء طريقًا، وهذا مما يثير التعجب.

٦٤ ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾

قال موسى: إن هذا ما كنتُ أطلبه فإن ضياع الحوت علامة لي على منزل الرجل الصالح وقد وقعت العلامة، فعادا يلتمسان آثار أقدامهما حتى وصلا الصخرة.

٦٥ ﴿ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾

فوجد موسى ويوشع الرجل الصالح وهو الخضر ﷺ جمع الله له بين الرحمة وبين العلم النافع، فالرحمة معها الرفق والحلم واللين والصبر، والعلم معه القوة ونفاذ البصيرة وتمام الحكمة.

٦٦ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾

فبعدما حيَّاه موسى قال له: أطلب إليك أن تأذن لي بمصاحبتك لأنتفع بعلمك وأسترشد به.

٦٧ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾

فقال الخضر لموسى: إنك لا تستطيع أن تصبر على صحبتي والتعلم مني؛ لأنه سوف يظهر لك أمور لها أسرار لن تسكت عنها!

٦٨ ﴿ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴾

وكيف تستطيع الصبر على أمور باطنها غير ظاهرها، وأنت لا تعلم مقاصدها.

٦٩ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾

فقال له موسى: بل سوف أصبر إن شاء الله ولا أعصيك فيما أمرتني به، فلك مني الصبر وطاعة الأمر.

٧٠ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾

فقبل الخضر من موسى الصحبة، وأوصاه بأن لا يسأله عما أشكل عليه حتى يبيّن له الخضر ما خفي عليه من أمور دون أن يسأل موسى.

٧١ ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾

فمشى موسى والخضر على الساحل فوجدا سفينة فركبا فيها بلا أجرة تفضلاً من أهل السفينة عليهما، فأخذ الخضر لوحًا من السفينة فصار فيها ثقب كادت السفينة أن تغرق بسبب دخول الماء منه، فأنكر عليه موسى وقال: قوم حملونا بلا أجرة ثم خرقت سفينتهم؛ لتغرق من بها هذا فعل منكر لا يُصبر عليه!!

٧٢ ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾

فذكَّره الخضر وقال له: أما قلتُ لك في بدء الأمر: إنك لن تستطيع صحبتي، ولن تصبر على مرافقتي؟!

٧٣ ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾

فاعتذر موسى وقال: اعف عني فقد نسيت الشرط الذي بيننا وارفق بي في التعليم ولا تشق عليَّ في الإنكار، وأريد منك الصبر والعذر.

٧٤ ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴾

فعذر الخضر موسى ثم واصلا السير في السفينة، ولما وقفا على الساحل شاهدا غلامًا يلعب مع أقرانه، فقتله الخضر، فقال موسى منكرًا على الخضر فعله: كيف تقتل نفسًا بريئة طاهرةً لم ترتكب ما يوجب القتل؟! لقد فعلت منكرًا عظيمًا، وإثمًا شنيعًا.

٧٥ ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾

قال الخضر لموسى يذكره بما اشترط عليه: ألم أقل لك من قبل إنك لن تستطيع أن تصبر على ما ترى من أفعالي التي لا تعلم أسرارها؟!

٧٦ ﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾

فقال موسى للخضر: إن سألتك عن أمر من الأمور بعد هذه المرة فلا تصحبني فلم تقصر في شأني وأنت معذور؛ لأنك أخبرتني من قبل أنني لا أستطيع الصبر معك.

٧٧ ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾

فواصل موسى والخضر السير حتى دخلا على أهل قرية فسألا أهل القرية طعامًا من طعام الضيافة، فامتنع أهل القرية من إطعام موسى والخضر، ثم وجد موسى والخضر جدارًا يوشك أن يسقط، فبناه الخضر فسوى ميله، فتعجب موسى من هذا الصنيع، وقال للخضر: ليتك أخذت أجرةً على عملك في الجدار لنشتري بها طعامًا وقد منعونا الضيافة.

٧٨ ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

قال الخضر لموسى: حان وقت الفراق وانتهت الصحبة، وقبل أن تذهب سوف أخبرك بما أنكرته عليَّ من أفعال لم تدرك مقاصدها، ولم تعلم أسرارها، فلم تصبر على السكوت!! وترك السؤال عنها والإنكار عليَّ فيها.

٧٩ ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

أما خبر السفينة التي نزعتُ منها لوحًا فإنها كانت مُلْكًا لقومٍ من المساكين يبحثون عن الرزق عليها في البحر، فأردتُ أن أُظهر فيها عيبًا؛ لأن أمامهم ملكًا ظالمًا يستولي على كل سفينة سليمة من العيوب غصبًا، فإذا رأى هذه السفينة معيبة تركها.

٨٠ ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾

وأما الغلام الذي قتلته فقد نشأ كافرًا، وأبوه وأمه مؤمنان، فلو تركتُ الغلام حيًا لتسبب في كفر والديه؛ لمحبتهما إياه أو إنهما محتاجان إلى منفعته.

٨١ ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

فأردنا أن يعوِّض الله والديه خيرًا منه في الصلاح والاستقامة وبرهما.

٨٢ ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

وأما الجدار الذي بنيته وقوَّمتُه حتى استقام فإنه كان ملكًا لغلامين يتيمين من أهل تلك القرية، وكان تحت الجدار ذهب وفضة لليتيمين، وأبوهما كان من الأتقياء الصالحين، فأراد الله أن يكبر الغلامان ويبلغا سن الرشد ثم يستخرجا الذهب والفضة من تحت الجدار؛ لطفًا من الله بهما، وأنا لم أفعل ما فعلته من عند نفسي، ولكن بإذن من الله وأمر، وهذا الذي ذكرته هو بيان ما خفي عليك من أسرار تلك الأفعال، ومقاصد الأمور التي لم يظهر علمها لك، فلم تصبر على ترك السؤال ولم تترك الإنكار عليَّ.

٨٣ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾

ويسألك الكفار - أيها النبي - عن قصة الملك الصالح ذي القرنين، فأجبهم بأنك ستخبرهم عنه بخبر صحيح يكون عبرةً وعظةً لهم.

٨٤ ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾

إن الله مكَّن لذي القرنين في الأرض، وأعطاه مما يحتاج إليه في مملكته من الأسباب والوسائل والأساليب التي يدبر بها شؤون بلاده ويفتح بها المدن وينتصر على الأعداء.

٨٥ ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

فأخذ بتلك الوسائل واستعمل تلك الطرق بجد وقوة وهمة واجتهاد.

٨٦ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

فلما وصل ذو القرنين إلى مغرب الشمس وجدها بالنسبة إلى رؤية العين كأنها تغرب في عين حارة ذات طين أسود، ووجد عند مغرب الشمس بشرًا، فأمره ربه إما أن يعذبهم بالقتل أو بالأسر والسبي إذا لم يؤمنوا بالله، وإما أن يأخذهم بالتي هي أحسن من الدعوة إلى الهدى بالرفق والحلم.

٨٧ ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

قال ذو القرنين: أما من كفر بالله فسوف أعاقبه في الدنيا ثم إذا عاد إلى الله يوم القيامة عذبه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها.

(٨٨) ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

وأما من آمن بالله واتبع رسله وأطاع أمره واجتنب نهيه فله عند الله جنات النعيم، وسوف نكرمه في الدنيا، ونرفق به ونسدي إليه خيرًا.

(٨٩) ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

ثم عاد ذو القرنين إلى المشرق آخذًا لما أعطاه الله من وسائل وأسباب بجد واجتهاد.

(٩٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾

فلما وصل ذو القرنين إلى مطلع الشمس وجد هناك قومًا ليس لديهم ساترٌ يحجب عنهم حرارة الشمس ولا شجر يظلهم منها.

(٩١) ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

وكذلك قد اطلع الله على ما عند ذي القرنين من الوسائل والأسباب، وعلم - سبحانه - بكل ما عنده، لا تخفى عليه خافية سبحانه.

(٩٢) ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

ثم واصل ذو القرنين المسير مستعملاً ما وهبه الله من قوة وعدة وعتاد، بهمة وصبر.

(٩٣) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾

فلما وصل ذو القرنين إلى ما بين الجبلين الحاجزين لما خلفهما وجد من دون الجبلين أناسًا لهم لغة خاصة بهم، لا يكادون يفهمون كلام سواهم.

(٩٤) ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

فقالوا له: يا ذا القرنين، إن قبيلتي يأجوج ومأجوج يفسدون في الأرض بالقتل والأسر والظلم والاستيلاء على أموال الناس غصبًا، ويقطعون السبيل، فهل نجمع لك من عندنا مالاً أجرةً لك مقابل بناء حاجز عظيم يحول بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

(٩٥) ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

قال ذو القرنين: الذي رزقنيه الله من الملك والمال أفضل مما عندكم، لكن ساعدوني بقوة أيديكم لأبني بينكم وبينهم سدًا منيعًا يمنع أذاهم عنكم.

(٩٦) ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

هاتوا لي قطع الحديد واجمعوها لي، فلما أحضروا الحديد ووضعوا بعضه على بعض وحاذوا به جانب الجبلين، قال لأعوانه: أشعلوا نارًا عظيمة فلما ذاب الحديد قال لأعوانه أعطوني نحاسًا أفرغه عليه ليكون أصلب وأقوى.

(٩٧) ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾

فما قدرت يأجوج ومأجوج أن تعلو فوق السد؛ لارتفاعه، وما قدرت أن تخرق السد من أسفله؛ لقوته ورسوخه في الأرض.

(٩٨) ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾

قال ذو القرنين: هذا الحاجز الذي جعلته مانعًا من أذى يأجوج ومأجوج من رحمة الله بي وبالناس الذين طلبوا مني ذلك؛ لما فيه من الخير ودفع الشر، فإذا حان وقت القيامة فسوف يهدمه الله ويسويه بالأرض، ووعد الله واقع لا محالة، والله لا يخلف الميعاد.

(٩٩) ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾

وترك الله يأجوج ومأجوج يختلط بعضهم ببعض؛ لكثرتهم، فإذا نُفخ في القرن للبعث والنشور، جمع الله الخليقة بأسرها للحساب والجزاء.

(١٠٠) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

وأبرز الله نار جهنم للكفار في العرصات، وأظهرها ليشاهدوا مصيرهم وعاقبة كفرهم.

(١٠١) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾

هؤلاء الكفار كانت أعينهم في الدنيا في غطاء عن ذكر الله، فلا تنظر إلى آياته نظر تدبر واعتبار، ولا تطيق أن تسمع آيات الله الدالة على الإيمان به وبرسله.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾

أفيظن الكفار أنهم سوف يتخذون عباد الله آلهةً يعبدونها من دون الله؛ ليكونوا أولياء لهم يجلبون لهم النفع، ويدفعون عنهم الضر، إن الله هيأ نار جهنم للكفار منزلاً لا يبرحون منه.

(١٠٣) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾

قل - أيها النبي - مبينًا: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً يوم القيامة، وأشدهم غبنًا وندامة؟

(١٠٤) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

أخسر الناس أعمالاً يوم القيامة هم من كفر بالله في الدنيا فانحرف عن الصراط المستقيم، وسلك سبيل أهل الجحيم، وهو يظن أنه محسن فيما عمل، مصيب فيما فعل، في حين أنه في غي وضلال حيث حُرِمَ الرشد والهدى.

(١٠٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾

هؤلاء الخاسرون هم الذين كذبوا بآيات الله، وجحدوا بالبعث بعد الموت، فأبطل الله أعمالهم بسبب كفرهم، فليس لهم عند الله يوم القيامة قدر ولا قيمة.

(١٠٦) ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾

وبسبب كفرهم وضلالهم أحبط الله أعمالهم، وجعل جزاءهم نار جهنم خالدين فيها، فقد كذبوا بالآيات وأنكروا المعجزات، واستهزؤوا بالبينات.

(١٠٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾

إن الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا الأعمال الصالحة المشروعة بإخلاص ومتابعة لهم أرفع المنازل في الجنة، وأعلى المراتب في الفردوس.

(١٠٨) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾

هؤلاء الأبرار باقون في تلك الدار في جوار العزيز الغفار، ومن حسن الإقامة وطيب المحل، لا يريدون تحولاً عنها ولا خروجًا منها؛ لعظيم ما وجدوه من النعيم المقيم، والثواب العميم.

(١٠٩) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

قل - أيها النبي - لو أن ماء البحر كان حبرًا، وجُعِل الشجر أقلامًا ليكتب بها الله كلامه لانتهى ماء البحر قبل أن تنتهي كلمات الله؛ لكثرتها وبركتها، ولو جعل الله مع البحر بحارًا أخرى تمد البحر الأول لانتهت أيضًا قبل انتهاء كلمات الله.

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

قل - أيها النبي - للكفار إنما أنا إنسان مثلكم في البشرية ولستُ ملكًا، وإنما أنا عبد الله ورسوله، أوحى الله إليَّ وحيًا أنه لا إله إلا هو لا شريك له ولا رب سواه، فمن كان يخاف عقاب الله ويرجو ثوابه ويؤمن بلقائه فعليه أن يعمل عملاً صالحًا خالصًا لربه على سنة الرسول ﷺ، ولا يشرك في العبادة مع الله غيره فيتركه الله وشركه.

مكية

ترتيبها ١٩

سورة مريم

آياتها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾

الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، مع علمنا أن لها مقاصد جميلة وأسرارا عظيمة.

(٢) ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾

هذا ذكر رحمة الله لعبده ونبيه زكريا، سوف يخبر الله بها لما فيها من العبر والعظات بالحكم والفوائد.

(٣) ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾

حين دعا زكريا ربه سرًّا؛ لما في ذلك من كمال الإخلاص وتمام الرجاء في الإجابة.

(٤) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

قال زكريا: يا ربي تقدمت بي السن ورقَّ عظمي وشاب رأسي وما سبق أن منعتني من إجابة الدعاء، بل كنت تلبي طلبي كلما دعوتك.

(٥) ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾

وقد خِفْتُ من أقاربي وعشيرتي إذا متُّ أن يقصروا في القيام بالدعوة إلى سبيلك وحمل أمانة الرسالة من بعدي، وزوجتي عاقر لا تلد، فارزقني ولدًا يخلفني بخير ويحمل الرسالة من بعدي، فقدرتك نافذة.

(٦) ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

هذا الولد يرث نبوتي من بعدي ونبوة آل يعقوب، وأسألك أن تصلح هذا الولد؛ ليكون مقبولاً عندك وعند الخلق.

(٧) ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

فأوحى الله إليه يا زكريا إن الله يبشرك بأنه قد أجاب دعوتك، ووهب لك ولدًا اسمه يحيى تفاؤلاً بحياته، لم يُسبق أن سُمي باسمه غلام قبله.

(٨) ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

فتعجب زكريا وقال: يا ربي، كيف يولد لي ولد وزوجتي عاقر لا تلد، وأنا شيخ كبير مثلي لا ينجب؟!

(٩) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾

قال الله: كذلك الأمر متعجب منه هنا ولكنه سهل على ربّك يا زكريا إيجاد ما يشاء بأسباب وبلا أسباب، وقد خلقك من قبل من العدم، فربك لا يعجزه شيء.

(١٠) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

فسأل زكريا ربه ليطمئن إلى وعد الله قائلا: يا ربي، أريد علامةً أعرف بها حقيقة ما بشَّرتني به الملائكة، فأوحى الله إليه أن العلامة أنك لا تستطيع أن تكلِّم الناس مدة ثلاث ليالٍ وأيامها وأنت صحيح معافى.

(١١) ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

فظهر زكريا للناس من محل عبادته وهو الموطن الذي جاءته البشرى فيه بالغلام، فأشار إلى الناس أن سبحوا الله صباحًا ومساءً شكرًا له وعبودية.

(١٢) ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾

يا يحيى: أقبِل على التوراة بهمَّة وعزيمة واجتهاد بحفظها وفهمها والعمل بها، والدعوة لما فيها، وقد أعطى الله الحكمة والفهم في العلم يحيى مع صغر سنِّه.

(١٣) ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾

ووهب الله يحيى رحمة ومحبةً من عنده وطهرةً من الخطايا، وكان مراقبًا لربه يعمل بأوامره ويجتنب نواهيه.

(١٤) ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾

كان يحيى طائعًا لأبيه وأمه يبرهما ويشفق عليهما، ولم يكن متكبرًا على الخلق ولا عاصيًا للخالق، بل متواضعًا مع الناس طائعًا لربه.

(١٥) ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

وسلام من الله على يحيى وأمان من الرحمن له يوم أتت به أمه، ويوم وفاته، ويوم يُبعث من قبره حيًا في الآخرة.

(١٦) ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾

واذكر - أيها النبي - في القرآن قصة مريم يوم ابتعدت عن أهلها جهة الشرق وأقامت فيه.

(١٧) ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾

فأقامت مريم ستارًا يسترها من أهلها ومن الناس، فأرسل الله إليها جبريل فجاءها في صورة إنسان كامل الخلق تام الشكل.

(١٨) ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾

فلما رأت مريم جبريل قالت: أستجير بالرحمن منك أن يأتيني منك سوء أو أذى إن كنت تخاف الله وتتقيه.

(١٩) ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾

فقال لها جبريل: أنا مرسل من الله بعثني إليك لأهب لك غلامًا طاهرًا من الخطايا، نقيًا من الآثام.

(٢٠) ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

قالت مريم لجبريل: كيف أنجبُ ولدًا وأنا لم يقربني إنسان بنكاح حلال، ولم أقترف حرامًا، وإنما يأتي الولد عن لقاء الرجل بالمرأة؟!

(٢١) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾

قال لها جبريل: الأمر كما ذكرتِ فلم يقربك إنسان ولم تفعلي حرامًا صانك الله من ذلك، ولكن مجيء ابن بلا أب سهل يسير على الله، فقدرته نافذة؛ وليكون هذا الابن علامة على قدرة الله؛ وليكون عيسى رحمةً من الله على والدته وعلى أمته، وقد كتب الله ذلك وقدَّره فلا راد لحكمه ولا مانع لقضائه.

(٢٢) ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾

فحملت مريم بعيسى بعدما نفخ جبريل في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها فحملت فذهبت إلى محل بعيد عن أعين الناس.

٢٣ ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

فألجأها طلق النفاس إلى جذع النخلة فقالت: يا ليتني متُّ قبل هذا اليوم ولم أُوجد، ولم أُعرف ولم أُذكر ولم يُعلم من أنا؛ خوفًا من كلام الناس.

٢٤ ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾

فناداها عيسى ابنها: لا تحزني فهذا أمر الله وقضاؤه وقد جعل الله تحتكِ جدول ماء عذب.

٢٥ ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾

فحركي بيدك جذع النخلة يسقط عليك من أعلاها رطب لذيذ جُني من وقته، وفيه بذل السبب لطلب الرزق.

٢٦ ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

فكلي من الرطب واشربي من الماء وطيبي نفسًا بابنك، فإن رأيتِ أحدًا من الناس فسألك عن هذا الأمر فقولي: لقد ألزمت نفسي الصمت طاعةً لله، فلا أتكلم مع أحد من البشر، وكان الصمت عبادة في شرعهم لا في شرعنا، وفي الآية الاعتزال والصمت أيام الفتن.

٢٧ ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾

فجاءت مريم قومها وهي تحمل ابنها عيسى بعد أن ذهبت إلى مكان بعيد، فلما شاهدوها وابنها قالوا لها: يا مريم، ارتكبت فريةً عظيمة.

٢٨ ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

يا أخت الرجل الصالح هارون: لم يكن أبوك عاصيًا يرتكب الفواحش، ولم تكن أمكِ امرأة سيئة تزاول البغاء.

٢٩ ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

فلم تكلمهم مريم وأشارت إلى ابنها عيسى وهو طفل في المهد؛ ليسألوه، فأنكروا عليها وقالوا: كيف نكلم هذا الطفل وهو صغير في مهده، لا يستطيع الكلام ولا يفهم ما نقول؟!

٣٠ ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾

فأجاب عيسى وهو يرضع في مهده: إني عبدالله، قدَّر الله أن ينزل عليَّ الإنجيل وأن يجعلني نبيًا لبني إسرائيل.

٣١ ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

والله جعلني كثير الخير عامَّ النفع في أي مكان كنت، أنفع الناس بالعلم والحلم والحكمة، وأوصاني ربي بإقام الصلاة والمحافظة على أوقاتها، وأوصاني بإيتاء الزكاة ما بقيت على قيد الحياة، فالصلاة طهارة الروح، والزكاة طهارة المال.

٣٢ ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

والله جعلني طائعًا لأمي حنونًا عليها رفيقًا بها، ولم يجعلني متكبرًا فظًا غليظًا عاصيًا لله، بل تقيًا صالحًا.

٣٣ ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

وعليَّ أمان من الله من كل خوف وسلامة من كل آفة يوم مولدي ووفاتي، ويوم أُبعث حيًا يوم القيامة.

٣٤ ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

هذا الذي أخبر الله عنه هو عيسى بن مريم حقيقة ويقينًا، وهذه قصته الثابتة الصحيحة لا كما ادعى اليهود والنصارى من أباطيل وافتراءات.

﴿٣٥﴾ ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

لا يليق بالله - تعالى - ولا ينبغي له ولا يصح أن يجعل لنفسه ولدًا من خلقه، تعالى عن ذلك ،إذا قدَّر أمرًا وأراده تم هذا الأمر وحصل بكلمة: "كن" لا راد لما أراد.

﴿٣٦﴾ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾

وقال عيسى لبني إسرائيل: اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا، فإنه ربي وربكم لا رب لنا سواه، وهو الطريق القويم، والصراط المستقيم، وما سواه ضلال وباطل.

﴿٣٧﴾ ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾

فاختلفت الطوائف من بني إسرائيل في شأن عيسى ﷺ، فقالوا: عيسى ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله!! واليهود عادوه وقالوا: ساحر أو ابن يوسف النجار، فعلى من كذَّب وكفر الهلاك والدمار في يوم شديد الهول، عظيم الخطر، هو يوم القيامة.

﴿٣٨﴾ ﴿ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

ما أشد سماع الكفار لأخطار يوم القيامة، وما أشد بصرهم لأهوالها، يوم يعودون إلى الله؛ ليحاسبهم بما فعلوا، ولكن من ظلم نفسه بالكفر في بُعد ظاهر عن الحق، وفي انحراف واضح عن الهدى.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

وحذِّر - أيها النبي - الناس يوم الندامة على التقصير حين يُقضى الأمر ويُحاسب الناس، فللسعداء الثواب، وللأشقياء العقاب، والكفار في هذه الدنيا في غفلة عن ذاك اليوم؛ لأنهم أعرضوا عن الحق واتبعوا الباطل، وليس عندهم إيمان صحيح ولا عمل صالح.

﴿٤٠﴾ ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾

إن الله وحده يرث الأرض ومن عليها، حيث يفني الخليقة جميعها، ويبقى وحده؛ لأنه حيٌّ لا يموت - سبحانه - ومرد العباد إليه وحسابهم عليه، وسوف يجازيهم بأفعالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿٤١﴾ ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾

واذكر - أيها النبي - للناس في هذا القرآن خبر إبراهيم ﷺ، فإنه كان من أعظم الأولياء الصادقين المخلصين، وقد اصطفاه الله بالنبوة وأكرمه بالخُلة.

﴿٤٢﴾ ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾

يوم قال لأبيه آزر: لماذا يا أبتِ تعبد الأصنام الجامدة وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تدفع عنك ضرًا ولا تجلب لك نفعًا؟ فالله وحده الذي يجلب النفع ويدفع الضر.

﴿٤٣﴾ ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾

يا أبتِ: إن الله أكرمني بالعلم النافع الذي أوحاه إليَّ فاقبل مني النصيحة وتعال معي إلى طريق الهدى أدلُّك على طريق مستقيم لا عوج فيه ولا ضلال.

﴿٤٤﴾ ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾

يا أبتِ: لا تتبع الشيطان بأن تعبد الأوثان وتترك عبادة الرحمن، فإن إبليس عدوٌّ لله قد استكبر على عبادته، وعصى أمره.

(٤٥) ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾

يا أبتِ، أخشى أن تموت وأنت كافر فيخلِّدك الله في النار، فتكون مصاحبًا للشيطان في الجحيم.

(٤٦) ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴾

فقال آزر لابنه إبراهيم: أتريد أن تعبد غير آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تترك سبَّها وشتمها لأرمينَّك بالحجارة حتى تموت، فارقني فلا أراك ولا تراني، ولا تكلمني ولا تلقاني.

(٤٧) ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾

قال إبراهيم لأبيه: لك السلامة مني فلا يأتيك مني ما يؤذيك، فللوالد إحسان الصحبة ولو كان كافرًا، لا الطاعة في المعصية، ثم قال إبراهيم: سوف أدعو الله أن يهديك إلى الإيمان وأن يغفر ذنبك، فإن ربي عوَّدني ألا يخيِّب رجائي فيه، بل يكرمني بإجابة دعائي دائمًا.

(٤٨) ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾

وسوف أفارقك يا أبي أنت وقومك وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله، وأستمر على دعائي وعبادتي لربي؛ مخلصًا له ديني، فربي لا يشقيني بردِّ سؤالي.

(٤٩) ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾

فلما فارق إبراهيم أباه وقومه وأصنامهم رزقه الله إسحاق، ومن بعد إسحاق ابنه يعقوب وجعلهما نبيين كريمين.

(٥٠) ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾

وتفضَّل الله على الجميع إبراهيم وأبنائه بالفضل العظيم من النبوة والرسالة والحكمة والذكر الحسن، والثناء الجميل الباقي.

(٥١) ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾

واذكر - أيها النبي - في القرآن خبر موسى ﷺ فإن الله قد اختاره نبيًا واصطفاه رسولاً، وكان من أولي العزم عليهم السلام.

(٥٢) ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴾

ونادى الله موسى من الجهة اليمنى من جبل طور سيناء، وقرَّب الله موسى بكلامه -سبحانه - له، وشرَّفه بمناجاته واصطفاه برسالته، وفي هذا إثبات صفة الكلام لله - تعالى - على وجه يليق بجلاله وكماله سبحانه.

(٥٣) ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴾

وأعطى الله موسى أخاه هارون مؤيدًا وناصرًا وجعله نبيًا؛ رحمةً من الله وتفضلاً ليتعاونا على البلاغ.

(٥٤) ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾

واذكر - أيها الرسول - في هذا القرآن قصة إسماعيل ﷺ فإنه كان صادقًا في وعده، إذا وعد وفَّى، فلم يخلف أبدًا، وكان مرسلاً من الله شرَّفه بالنبوة.

(٥٥) ﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾

وكان إسماعيل يأمر أهله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكان الله راضيًا عن إسماعيل؛ لحسن فعله وتمام طاعته.

(٥٦) ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾

واذكر - أيها الرسول - في هذا القرآن قصة إدريس ﷺ فإنه كان عظيم الصدق في قوله وعمله، نبيًا يُوحى إليه.

(٥٧) ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

ورفع الله ذكره في العالمين، ورفع منزلته في المقربين، فذكره مرفوع، ومنزلته عالية.

(٥٨) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾

هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله لرسوله ﷺ هم الذين تفضل الله عليهم بالهداية والنبوة والتوفيق لكل خير، وهم من ذرية آدم، ومن ذرية من حمل الله مع نوح في السفينة، ومن ذرية إبراهيم، وذرية يعقوب، وممن هداهم الله للإيمان واختارهم للرسالة، إذا سمعوا آيات الله تُتلى عليهم، سجدوا خاضعين خائفين باكين من خشية الله لتمام عبوديتهم وانقيادهم لربهم.

(٥٩) ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾

فجاء من بعد هؤلاء الأبرار أتباع سوء لم يُصَلُّوا أو ضيعوا أوقات الصلاة أو أهملوا واجباتها وأركانها ووقعوا فيما يوافق شهوات نفوسهم من المحرمات، فسوف يلقون شقاءً وخيبةً وندامة في نار جهنم.

(٦٠) ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾

لكن من عاد إلى ربِّه وندم على ذنبه وهو مؤمن صادق الإيمان عاملٌ للصالحات، فالله يقبل توبتهم ويمحو ذنوبهم ولا ينقصون شيئًا من ثواب أعمالهم بل تكمل لهم وافية.

(٦١) ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾

يدخل هؤلاء الأبرار جنات خلد في إقامة دائمة، وهي التي وعد الله بها الصالحين من عباده بالغيب، فصدقوا بها ولم يشاهدوها من قبل، إن وعد الله متحقق حاصل لا راد له.

(٦٢) ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾

لا يسمع أهل الجنة في الجنة كلامًا لاغيًا لا خير فيه، وإنما يسمعون تحية لهم بالسلام من كل آفة والأمن من كل خوف، ويطعمون فيها أول النهار وآخره كلما أرادوا الطعام مع حسن المقام والأمن والسلام.

(٦٣) ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾

تلك الجنة التي ذكرها الله يهيئها الله للأتقياء من عباده، وهو كل من عمل بأوامر الله واجتنب نواهيه.

(٦٤) ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾

ويقول جبريل للرسول ﷺ: وما تنزل الملائكة من السماء إلى الأرض إلا بإذن من الله، له كل شيء أمامنا من أمر الآخرة، وله كل شيء من خلفنا مما مضى من أمر الدنيا، وما بين الدنيا والآخرة، فله كل ما وقع في الزمان والمكان، والله لا ينسى جل في علاه.

(٦٥) ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾

الله وحده رب السموات والأرض، وهو خالقهما ومدبر ما فيهما، وهو رب ما بينهما، ومالك ذلك كله، فأخلص له العبادة وحده، ولا تشرك به شيئًا، واصبر على أداء طاعته والقيام بعبوديته، فليس له شبيه ولا مثيل في أسمائه وصفاته وأفعاله.

(٦٦) ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴾

ويقول الكافر مكذبًا بالبعث بعد الموت: كيف أعود حيًا بعد ما متُّ وفنيت، إن هذا مستحيل.

٦٧ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾

وهذا الكافر المكذب ما تذكر أن الله خلقه من العدم ولم يكن موجودًا من قبل، فإعادته بعد الموت أهون على الله - تعالى - والكل عليه هين.

٦٨ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

فقسمًا بربك - أيها النبي - ليجمعن الله المكذبين بالبعث مع الشياطين، ثم ليأتين بهم حول نار جهنم باركين على الركب من شدة الخوف وعظيم الهول.

٦٩ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾

ثم ليبدأنَّ الله بعذابِ من هو أشد طغيانًا وتكبرًا وأكثرهم تمردًا وكفرًا.

٧٠ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾

ثم إن الله أعلم بالذين هم أولى بدخول النار ومعاناة عذابها ومقاساة حرِّها.

٧١ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾

وما من الناس أحد إلا وارد على النار بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، وهم متفاوتون في الإسراع على حسب الأعمال، وهذا أمر لا بد منه ولا محيص عنه.

٧٢ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾

ثم ينجي الله من اتقاه بالعمل بشرعه، ويترك من ظلم نفسه بالكفر في نار جهنم باركين على ركبهم.

٧٣ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

وإذا تُتلى آيات القرآن البينة الواضحة قال الكفار للمؤمنين: أي الطائفتين منا ومنكم أكرم منـزلاً وأفضل مجلسًا؟

٧٤ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾

وكم أهلك الله بالعذاب قبل كفار مكة من القرون السابقة، وكانوا أجمل متاعًا وأحسن منظرًا من هؤلاء الكفار.

٧٥ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾

قل - أيها النبي - من كان معرضًا عن الهدى فالله يمهله ويملي له في غوايته، حتى إذا أبصر ما توعد الله به الكفار، إما هلاك الدنيا العاجل، وإما قيام الساعة، فسوف يتيقن حينها من هو أسوأ منـزلةً ومقامًا، ومن هو أضعف ناصرًا ومعينًا.

٧٦ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾

والله يزيد من آمن به وعمل صالحًا إيمانًا إلى إيمانهم بسبب طاعتهم وتمام اتباعهم لرسوله ﷺ، والأعمال الصالحة المشروعة هي أعظم أجرًا عند الله في الآخرة، وأحسن عاقبة، يجدها العبد إذا احتاج إليها يوم الفقر.

٧٧ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾

ألم تعجب - أيها النبي - لهذا الكافر العاص بن وائل وأشباهه، الذي كذَّب بآيات الله، وكفر بدينه، وأقسم أنه ينال في الآخرة أموالاً وأولادًا.

٧٨ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾

هل اطلع على علم الغيب حتى يدَّعي لنفسه ما ادعى، أم أن له عهدًا عند الله بحصول ذلك له، والحق أنه لا علم عنده ولا عهد له؟

٧٩ ﴿ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴾

ليس الأمر كما زعم، فليس له علم ولا عهد، وإنما هو كذاب وسوف يكتب الله ما افتراه ويزيده الله من أصناف العذاب، وأنواع النكال مثلما ازداد من التكذيب والكفر.

٨٠ ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴾

نسلب جميع ما يملك بموته ونتركهُ وحيدًا فريدًا لا مال له ولا ولد ولا عضد ولا سند.

٨١ ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴾

واتخذ الكفار أصنامًا يعبدونها من دون الله، يطلبون عندها العزة، ولكن العزة لله وحده.

٨٢ ﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾

لا ينال الكفار العزة أبدًا بعبادة آلهة من دون الله، بل سوف تنكر آلهتهم يوم القيامة عبادة هؤلاء الكفار لها، وتكون خصومًا لهم عند الله تكذبهم فيما قالوا.

٨٣ ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾

ألم ترَ - أيها النبي - أن الله سلَّط الشياطين على الكفار تغريهم بالمعاصي وتدفعهم إلى الذنوب.

٨٤ ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴾

فلا تستعجل - أيها النبي - بسؤال العقوبة من الله للكفار، إن الله يحسب أعمارهم وأعمالهم بلا إهمال ولا تفريط، فكل شيء بأجل وحساب وقدر.

٨٥ ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴾

يوم يجمع الله الأبرار لرحمته الواسعة وفودًا مكرمين منعَّمين.

٨٦ ﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾

ويسوق الله بملائكته الكفار سوقًا عنيفًا إلى جهنم وهم يمشون عطاشًا.

٨٧ ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾

لا يستطيع هؤلاء الكفار الشفاعة لأحد؛ لأنهم ليس لهم عهد عند الله من الإيمان به وبرسوله ﷺ.

٨٨ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴾

وزعم الكفار -كاذبين- أن الله اتخذ ولدًا من عباده، تعالى وتنزَّه عن ذلك؛ لأنه واحد أحد لم يلد ولم يولد.

٨٩ ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾

لقد أتى الكفار بقولهم هذا منكرًا فظيعًا وأمرًا شنيعًا.

٩٠ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴾

توشك السماء أن تتشقق من فظاعة هذا القول وشناعته، وتتصدع الأرض، وتسقط الجبال وتندك؛ غضبًا لله وإجلالاً له عن هذا البهتان، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

٩١ ﴿ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾

لأنهم نسبوا إلى الله - سبحانه - الولد زورًا وبهتانًا منهم.

(٩٢) ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾

لا يليق بعظمة الله وجلاله أن يكون له ولد؛ لأنه غني عن كل أحد لم يلد ولم يولد.

(٩٣) ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾

كل من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن سوف يعودون إلى الله يوم القيامة أذلاء خاضعين مقرين بالعبودية له وحده، خائفين منه تعالى.

(٩٤) ﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴾

لقد أحصى الله الخليقة وعلم عددهم، فلا يفوته منهم أحد، ولا يغيب منهم فرد.

(٩٥) ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾

وسوف يعود كل إنسان من الناس إلى الله يوم القيامة فريدًا وحيدًا، لا مال له ولا ولد ولا سلطان.

(٩٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾

إن الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ وعملوا الصالحات المشروعة سوف يجعل لهم الله برحمته محبة ومودة في قلوب عباده، ومنه القبول والثناء الحسن والذكر الجميل.

(٩٧) ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾

فإنما سهَّل الله القرآن بلسانك العربي - أيها النبي - لتبشر الصالحين الأتقياء برضوان الله وجنته، وتخوِّف الفجار شديدي الجدل بالباطل والمخاصمة في الضلال بنار جهنم.

(٩٨) ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾

وكثيرًا من الأمم السابقة أهلكهم الله، لا تشاهد منهم أحدًا ولا تسمع لهم صوتًا، وسوف يقع الهلاك على كفار هذه الأمة كما وقع على من قبلهم، سنة ماضية لا تبديل لها.

مكية

ترتيبها ٢٠

سورة طه

آياتها ١٣٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ طه ﴾

من الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

(٢) ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾

ما أنزل الله عليك القرآن - أيها النبي - لتكلف نفسك ما لا تطيق، بل نزل باليسر والسعادة والفلاح.

(٣) ﴿ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾

لكن الله أنزل القرآن عليك لتعظ به من يخاف عذاب الله، فيراقبه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

٤ ﴿ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴾

الله الذي خلق السموات العالية والأرض هو الذي نزَّل عليك القرآن وحيًا من عنده.

٥ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾

الرحمن على عرشه علا وارتفع عن خلقه واستوى استواء يليق بجلاله.

٦ ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾

لله وحده كل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الأرض، خلقًا وتدبيرًا وملكًا وتصريفًا لا شريك له في ذلك.

٧ ﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾

وإن ترفع صوتك بالقول أو تخفيه فإن الله يعلم الجهر والسر، وما تحدث به النفس الذي هو أخفى من السر.

٨ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾

الله وحده لا معبود بحق إلا هو، لا شريك له ولا رب سواه، له الأسماء المتضمنة لصفات الكمال البريئة من النقص.

٩ ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾

وهل أتتك - أيها النبي - قصة موسى ﷺ العظيمة العجيبة.

١٠ ﴿ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾

ليلة أبصر موسى نارًا تتقد فقال لأهله: انتظروا هنا؛ فقد أبصرتُ نارًا سوف أذهب إليها حتى آخذ منها شعلة لدفئكم، وإنضاج طعامكم، أو أجد عندها من يدلنا على الطريق.

١١ ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾

فلما وصل موسى إلى النار ناداه الله عز وجل: يا موسى، وأكرمه بالتكليم وشرَّفه بالنبوة.

١٢ ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾

ناداه - سبحانه - بأنه ربُّه وإلهه، وأمره بأن يخلع نعليه لقدسيَّة وادي طوى وطُهْرِه وبركته؛ بسبب الوحي الذي حصل فيه، وتهيأ لمناجاة الله، فخلع موسى نعليه وألقاها.

١٣ ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾

والله اختارك يا موسى واصطفاك لتبليغ رسالته، فاستمع لما يوحيه الله إليك بقلب حاضر.

١٤ ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾

إن الله لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه ولا شريك له، فاعبده وحده وأخلص له الطاعة، وأقم الصلاة لتذكر الله فيها.

١٥ ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾

إن قيام الساعة واقع لا محالة، لابد من حصوله، يكاد يخفيها الله من نفسه، فكيف يعلمها غير الله؛ وهي آتية لتجزى كل نفس بما فعلت من خير وشر.

١٦ ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾

فلا يصرفنك عن الإيمان بيوم القيامة والعمل لها، من كذَّب بوقوعها، وترك الهدى واتبع الهوى فإن أطعته هلكت.

(١٧) ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾

وما الذي تمسكه بيدك اليمنى يا موسى.

(١٨) ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾

قال موسى لربه: هذه عصاي أعتمدُ عليها إذا مشيت وأخبط بها وَرَق الشجر لتأكل منه غنمي، ولي فيها حاجات أخرى ومنافع كقتل الثعبان والعقرب.

(١٩) ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾

أمر الله موسى أن يلقي العصا من يده.

(٢٠) ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾

فألقى موسى عصاه على الأرض فحوَّلها الله حية تسعى، فهال موسى ما شاهد فولَّى هاربًا.

(٢١) ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾

فأمر الله موسى أن يأخذ الحية ولا يخافَ منها فإنها لا تضر، فسوف يعيدها عصًا كما كانت بمجرد أخذه لها.

(٢٢) ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾

واضمم يدك يا موسى تحت عضدك على جنبك تخرج بيضاء من غير برص ولا عيب.

(٢٣) ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾

أمر الله موسى بذلك حتى يشاهد موسى من براهين الله الكبرى الدالة على قدرة الله وعظمته ووحدانيته.

(٢٤) ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾

أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون يدعوه إلى توحيد الله والإيمان به، فقد تجاوز الحد في البغي والظلم والكفر، وتمرد وأفسد في الأرض.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾

فدعا موسى ربه فقال: رب وسِّع لي صدري؛ لأستطيع تبليغ الرسالة.

(٢٦) ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾

وسهِّل يا رب لي أمري حتى أقوم بالرسالة.

(٢٧) ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾

وأسألك يا رب أن تطلق لساني بالكلام فلا أتلعثم.

(٢٨) ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾

حتى يفهم مني الناس ما أقوله لهم.

(٢٩) ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾

واجعل لي مساعدًا من أهلي يعينني.

(٣٠) ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾

اجعل هذا المساعد والمعين أخي هارون.

٣١ ﴿ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴾

قوِّني بهارون وشدَّ به ظهري؛ لأقوى على حمل الأمانة.

٣٢ ﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾

وأدخله معي في النبوة وتبليغ الدعوة معي.

٣٣ ﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴾

حتى ننـزِّهك ونقدسك بالتسبيح الكثير.

٣٤ ﴿ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴾

ونكثر من ذكرك الذي هو أعظم عون لنا على الرسالة.

٣٥ ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾

فأنت بصير بأحوالنا لا تخفى علَيك منا خافية.

٣٦ ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

فأجاب الله موسى وأعطاه ما سأله.

٣٧ ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴾

ولقد أنعم الله على موسى قبل هذه النعمة بنعمة أخرى لما نجاه من فرعون، وكان موسى طفلاً.

٣٨ ﴿ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾

إذ ألهم الله أم موسى إلهامًا يحفظ به ابنها موسى.

٣٩ ﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾

فألهمها الله أن تضع ابنها موسى في التابوت، ثم تطرحه في النيل، فسوف يحمله النيل إلى الساحل فيقع في يد فرعون عدوي وعدوّ موسى. وألقى الله الحب على موسى، فصار محبوبًا عند الناس، مقبولاً عند العباد، وربَّاه الله على عين منه وحفظ ورعاية، وفي الآية إثبات العين لله كما يليق بجلاله سبحانه.

٤٠ ﴿ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴾

ومن لطيف تدبيرنا وحفظنا لك ما صنعناه حين كانت أختك تمشي تبحث عنك وتقول لمن أخذك: ألا أدلكم على من يكفله ويرضعه لكم؟ فأعادوك إلى أمك - ولم يعلموا بذلك - لترضعك أمك وترعاك وتطيب نفسها برؤيتك وسلامتك ولا تحزن على فقدك، ونجيناك يا موسى من الغم الذي حصل لك بقتل القبطي والخوف من القتل، وامتحنك الله امتحانًا لتمحيصك واصطفائك، فخرجت من مصر خائفًا إلى أهل مدين، فبقيت عندهم سنين، ثم جئت إلى مدين على موعد قدَّره الله وقضاه.

٤١ ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾

واختار الله موسى لرسالته واصطفاه لتبليغ دعوته والقيام بشرعه.

٤٢ ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴾

أمر الله موسى أن يذهب هو وأخوه هارون بآياته الدالة على ألوهيته ووحدانيته سبحانه وعظيم قدرته، وأمرهما أن لا يضعفا في الدوام على ذكره سبحانه؛ لأن الذكر يشرح الصدر ويسهل بسببه كل أمر.

(٤٣) ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾

وأمر موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون؛ لأنه بغى وطغى وتجاوز الحد في الكفر والظلم والفساد.

(٤٤) ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾

وأمرهما الله بالقول اللين اللطيف الحسن مع فرعون بلا غلظة ولا فظاظة؛ ليكون أدعى للقبول، وهذا القول اللين من خير الناس لشر الناس، فالواجب على كل داعية الرفق واللين في دعوته.

(٤٥) ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾

فقال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف من فرعون أن يعاجلنا بالعقوبة، أو أن يرد الحق فلا يقبله، فالخوف أن يعذبنا أو يكذِّبنا.

(٤٦) ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

فأوحى الله إلى موسى وهارون أن لا يخافا من فرعون، فإن الله معهما بحفظه ونصره وتأييده، يسمع كلامهما ويرى أفعالهما.

(٤٧) ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

وأمرهما أن يأتيا فرعون ويخبراه بأنهما مرسلان من الله ربه، أن أطلق بني إسرائيل من مصر ولا تشق عليهم في الأعمال أو تؤذيهم، وأتى موسى وهارون بمعجزة ظاهرة عظيمة إلى فرعون تدل على صدقهما في دعوتهما، والسلامة من عذاب الله لمن اتبع هداه وترك هواه.

(٤٨) ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾

إن الله أوحى إلينا أن عذابه على من كذَّب رسله وأعرض عن شرعه.

(٤٩) ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾

قال فرعون لهم معاندًا جاحدًا: من ربكما يا موسى؟ وهذا إنكار في الظاهر.

(٥٠) ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

فأجابه موسى بقوله: ربنا الذي خلق كل شيء خلقًا لائقًا به في حسن الصنع والتركيب، ثم وفَّق كل مخلوق للانتفاع بما خلقه الله له، ودله على أسباب الحياة.

(٥١) ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾

قال فرعون لموسى: فما شأن من تقدم من الأمم وسبق من الأقوام، فقد سبقوا إلى التكذيب والجحود.

(٥٢) ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾

قال موسى لفرعون: خَبَرُ تلك الأمم وما فعلته عند الله وحده، مكتوب في اللوح المحفوظ، لا يضل الله في أفعاله وأحكامه، ولا ينسى من علمه شيئًا، فأحكامه وأفعاله بحق وصدق وعلم.

(٥٣) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾

الله وحده الذي صيَّر الأرض سهلة ذلولاً للانتفاع بها والعيش على ظهرها، وصيَّر فيها طرقًا كثيرة يسيرة لتنقل المخلوقات فيها، وأنزل ماء من السماء أنبت به أنواعًا مختلفة ونباتات متنوعة؛ رزقًا للعباد والحيوان.

(٥٤) ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾

كلوا - أيها العباد - من طيبات ما أخرج الله من الأرض، وارعوا في الأرض ببهائمكم، إن فيما أنبت الله لبراهين على قدرته - سبحانه - واستحقاقه للألوهية وحده.

(٥٥) ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

من الأرض خلق الله الناس، وفي الأرض يعيدهم أمواتًا في قبورهم، ومن الأرض يخرجهم أحياءً مرةً أخرى؛ ليجازيهم على أفعالهم.

(٥٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾

ولقد أرى الله فرعون أدلة الوحدانية وبراهين القدرة في المعجزات والمخلوقات والآيات البينات، ولكن كذب بها وامتنع عن قبول الحق، كذب بقوله وعصى بفعله.

(٥٧) ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾

قال فرعون: هل أتيت إلينا يا موسى بسحرك تريد إخراجنا من ديارنا؟

(٥٨) ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾

فسوف نأتيك يا موسى بسحر مثل سحرك، فوقِّت لنا موعدًا محددًا نلتقي فيه لا نختلف عنه نحن ولا أنت في مكان مستو معتدل وسط بيننا وبينك.

(٥٩) ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾

فوعدهم موسى يوم اجتماعهم في عيد من أعيادهم يوم يتجمَّلون للعيد؛ ليجتمعوا من كل مكان وقت الضحى.

(٦٠) ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾

فأعرض فرعون عن الحق وجمع السحرة وجاء للموعد محاربًا لله ولرسوله موسى ﷺ.

(٦١) ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾

فنصح موسى السحرة وخوَّفهم من اختلاق الكذب على الله؛ لأن الله سوف يستأصلهم بعذاب من عنده فيدمرهم، وقد خسر من كذَّب على الله وضل سعيه.

(٦٢) ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾

فاختلف السحرة فيما بينهم وكتموا حديثهم عن الناس.

(٦٣) ﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾

قال السحرة: إن موسى وهارون ساحران يريدان إخراج فرعون وقومه من ديارهم، ويفسدان سحركم العظيم عليكم.

(٦٤) ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾

فأبرموا أمركم وأحكموا مكركم ولا تختلفوا وتتفرقوا، وأقبلوا عليهما صفًا واحدًا وألقوا ما في أيديكم بعزم؛ لتدهشوا العقول وتنتصروا على موسى وهارون، وقد فاز ونجح من قهر خصمه وعلا على عدوه هذا اليوم.

(٦٥) ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾

قال السحرة لموسى: اختر أيهما شئت إما أن تبدأ أنت بإلقاء عصاك أو نبدأ نحن بإلقاء ما عندنا.

(٦٦) ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾

قال لهم موسى: بل أنتم ابدؤوا بالإلقاء ما معكم، فلما ألقوا ما معهم خُيِّل إلى موسى أن حبالهم وعصيهم ثعابين تمشي.

(٦٧) ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾

فشعر موسى بالخوف والوجل مما شاهد.

٦٨ ﴿ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾

فأوحى الله إلى موسى أن اثبت ولا تخف مما رأيت فأنت المنتصر هذا اليوم وستغلبهم بإذن الله تعالى.

٦٩ ﴿ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾

واطرح عصاك التي في يدك اليمنى تبتلع عصيهم وحبالهم، فإن الذي فعلوه أمامك إنما هو مكر ساحر وخديعة سحر، ولن يفوز الساحر ولن يظفر حيثما كان.

٧٠ ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾

فطرح موسى عصاه فابتلعت الحبال والعصي وانتصر الحق وقام الدليل على صدق موسى، فسجد السحرة على الأرض لله وقالوا: آمنا بالله ووحدناه رب هارون وموسى، فلو كان الذي عند موسى سحرا لما قهرنا هذا اليوم.

٧١ ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾

قال فرعون للسحرة: هل صدَّقتم بما جاء به موسى واتبعتموه ولم آذن لكم بذلك، إن موسى معلمكم هذا السحر وهو إمامكم في هذا العمل، فسوف أقطِّع أيديكم وأرجلكم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو الضد، ولأربطن أجسامكم بعد التمثيل بكم على جذوع النخل تشهيرًا بكم، وهذه غاية العقوبة، وسوف تعلمون هل أنا أو إله موسى أشد عذابًا وأكثر دوامًا واستمرارًا، وخاب اللعين وخسر، بل الله أشد عذابًا وأبقى.

٧٢ ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾

قال السحرة لفرعون: لن نفضِّل باطلك على الحق الذي جاء به موسى، ولن نفضِّل ربوبيتك الكاذبة على ربوبية الله الواحد الأحد الذي خلقنا، فافعل ما بدا لك، إنما قدرتك علينا في هذه الدنيا القصيرة الفانية، وعذابك لنا سوف ينقضي بانقضاء الدنيا.

٧٣ ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾

إننا صدَّقنا بألوهية ربنا وبما جاء به رسوله موسى، لعل الله يعفو عن ذنوبنا وما أكرهتنا عليه يا فرعون من مزاولة السحر، والله خير ثوابًا لمن أطاعه، وأبقى عذابًا لمن عصاه.

٧٤ ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾

إن من جاء ربه وهو كافر فإن موعده النار خالدًا فيها لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيا حياة سويَّة.

٧٥ ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾

ومن يعود إلى ربِّه يوم القيامة وهو مؤمن قد عمل الأعمال الصالحة المشروعة فله المراتب العالية، والمنازل الرفيعة في الجنة.

٧٦ ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

جنات إقامة دائمة تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدًا، وهذا النعيم المقيم والثواب العظيم لمن طهَّر نفسه من المعاصي بالطاعات والتوبة، وأخلص عبادة ربِّه وصدق في اتباع الرسول ﷺ.

٧٧ ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾

ولقد أوحى الله إلى موسى أن اذهب ليلاً بعبادي من بني إسرائيل من مصر فاجعل لهم في البحر طريقًا يابسًا جافًا لا تخشى أن يدرككم فرعون ولا تخف من الغرق.

٧٨ ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴾

فخرج موسى ببني إسرائيل ليلاً، وعبر البحر، فسار فرعون خلفهم بجنوده، فعلاهم الماء وغمرهم بما يفوق الوصف.

٧٩ ﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾

وأغوى فرعون أتباعه وزيَّن لهم الضلالة، وما أرشدهم إلى الحق ولا دلَّهم على الصواب.

٨٠ ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾

أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا نعمه حين أنجاهم من فرعون وجنوده وجعل موعدهم بجانب الطور الأيمن لينزِّل التوراة على موسى هناك، وأنزل الله عليهم في التيه الحلوى كالعسل، والطير كالسمان لذيذ الطعم.

٨١ ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾

وأمر الله بني إسرائيل أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله بلا تجاوز للحد في الأكل ولا تعد إلى المحرم، ولا فعل معصية، فإن فعلوا ذلك حل بهم غضب الله، ومن حل به ذلك فقد خاب وخسر.

٨٢ ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾

والله كثير الغفران لمن صدق في توبته من ذنبه، وصدَّق بما جاء عن الله وعمل الأعمال الصالحة المشروعة، ثم اهتدى إلى سلوك الطريق المستقيم، واستقام على الحق.

٨٣ ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

وما الذي جعلك يا موسى تستعجل فتسبقهم إلى الطور الأيمن وتتركهم بعدك.

٨٤ ﴿ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾

قال موسى: يا رب، تركتُ قومي بعدي وسوف يلحقون بي، وإنما استعجلتُ المجيء إليك لتزداد عني رضا.

٨٥ ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾

فأخبر الله موسى أنه قد ابتلى قومه بعبادة العجل بعد أن فارقهم وقد أغواهم السامري.

٨٦ ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴾

فعاد موسى إلى قومه غضبان عليهم بسبب عبادتهم العجل، وهو حزين مما جرى، ولامهم وقال لهم: يا قوم، أما سبق أن الله وعدكم وعدًا حسنًا بإنزال التوراة عليَّ، فهل تأخر عليكم الزمن فاستبطأتم الوعد، أم فعلتم ما فعلتم من الشرك لينزل عليكم غضب الله وعذابه فنقضتم عهدي، وأخلفتم ما وعدتموني عليه فعبدتم العجل وأهملتم ما جئت به؟

٨٧ ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾

قال بنو إسرائيل: يا موسى، ما نقضنا العهد ولا أخلفنا الموعد معك برغبة منا، ولكنَّا نقلنا معنا أحمالاً ثقيلة من حلي قوم فرعون، فوضعناها في حفرة ثم صهرناها بالنار وطرح السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل على الحلي والنار.

٨٨ ﴿ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾

فصنع السامري لبني إسرائيل من الذهب المنصهر على هيئة العجل يخور خوار البقر، فقال من افتتن بهذا العجل وانخدع به لغيرهم: هذا العجل هو إلهكم فاعبدوه، ولكن موسى نسيه وغفل عنه؛ كذبًا منهم وزورًا.

(٨٩) ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

أفلا يرى من عبد العجل وافتتن به أن هذا العجل جامد صامت لا يبتدئ بكلام ولا يجيب من سأله، ولا يدفع عمن عبده ضرًا، ولا يجلب لهم نفعًا، فكيف يكون إلهًا يُعبد.

(٩٠) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾

ولقد حذر هارون بني إسرائيل من قبل أن يعود لهم موسى، وقال: إنما هذا العجل اختبار وامتحان ليتميز الصادق من الكاذب، وإن ربكم الذي يستحق العبادة هو الرحمن لا إله إلا هو فاقتدوا بي في عبادة الله وحده، وأطيعوني فيما آمركم به من توحيد الله تعالى.

(٩١) ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾

قال من عبد العجل من بني إسرائيل: سوف نبقى على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى.

(٩٢) ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾

فلما عاد موسى قال لأخيه هارون: من الذي منعك من اللحاق بي وتركهم لما رأيتهم يعبدون العجل من دون الله تعالى؟

(٩٣) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾

لماذا لم تتبعني وترجع إليَّ، هل خالفتني فيما أمرتك به من إصلاح بني إسرائيل بعدي وحسن خلافتي فيهم؟

(٩٤) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾

ثم أخذ موسى من الغضب بلحية هارون ورأسه يسحبه إليه، قال له هارون: يا ابن أمي لا تجرني بلحيتي ولا بشعر رأسي، إني خفت إن لحقت بك وتركتُ بني إسرائيل أن تقول لي: تركت بني إسرائيل مختلفين متفرقين، وأتيت إليَّ ولم تصلح شأنهم وتخلفني فيهم بخير، ولم تحفظ وصيتي بجميل ولايتهم.

(٩٥) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾

قال موسى للسامري: ما الذي حملك على ما فعلت من إضلال بني إسرائيل بعبادة العجل؟

(٩٦) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾

قال السامري: رأيتُ ما لم يره غيري، إذ رأيت جبريل ﷺ على فرس بعدما غرق فرعون وجنوده، فأخذتُ كفًا من تراب حافر فرس جبريل فطرحتُ هذا التراب على الحلي الذي صنعتُ منه العجل، وكذلك سوَّلت لي نفسي الأمارة بالسوء هذا الفعل.

(٩٧) ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾

قال موسى للسامري: فاذهب فجزاؤك على ما فعلت أن تعيش طريدًا شريدًا منبوذًا تقول لكل أحد: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ، ولك ميقات عند الله يعذبك على جرمك العظيم من اتخاذ العجل، وهذا وعد متحقق، وانظر إلى هذا العجل الذي عبدته من دون الله، سوف نحرقه بالنار ثم نسحقه ثم ننسفه في ماء البحر نسفا، أي تذرية في ماء اليم.

(٩٨) ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾

إنما إلهكم - أيها الناس - المعبود بحق هو الله وحده لا إله إلا هو لا شريك له، وسع علمه كل شيء، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

٩٩ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾

كما قصَّ الله عليك - أيها النبي - أخبار موسى وفرعون يقص عليك أخبار الأمم السابقة، وقد أنزل الله عليك هذا القرآن الذي هو عظة وعبرة وذكرى لمن يتذكر.

١٠٠ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾

من أعرض عن القرآن ولم يتبعه ويعمل به فإنه يتحمل إثمًا عظيمًا لإعراضه وإهماله.

١٠١ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾

باقين في العذاب الأليم أبدًا، وساء ذلك الحمل الثقيل من الذنوب وقبح هذا الذي خلدهم في جهنم.

١٠٢ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾

يوم ينفخ الملك في القرن لقيام الساعة والبعث بعد الموت، وتسوق الملائكة الكفار الأشرار وهم زرق العيون والألوان من هول ما شاهدوا.

١٠٣ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾

يتهامس الكفار فيما بينهم بصوت خافت، يقول بعضهم لبعض: ما بقيتم في الدنيا إلا عشرة أيام لقصر المدة وسرعة مرور الزمن.

١٠٤ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾

والله أعلم بما يقولون ويخفون فيما بينهم، حين يقول أسدهم رأيًا وأكثرهم علمًا: ما بقيتم في الدنيا إلا زمنًا يسيرًا، لما عاينوا من طول يوم القيامة.

١٠٥ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾

ويسألك الكفار - أيها النبي - عن مصير الجبال، فأجبهم بأن الله سوف يصيرها هباءً منبثًا، ويزيلها من على وجه الأرض.

١٠٦ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾

فيجعل الله الأرض مستوية منبسطة ملساء.

١٠٧ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾

لا يشاهد الإنسان فيها ارتفاعًا ولا انخفاضًا بل على هيئة واحدة.

١٠٨ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

في يوم القيامة يسرع الناس إلى صوت الداعي لموقف الحشر، ليس لهم محيد ولا مفر من ذلك، وصمتت أصوات الخلائق خضوعًا ورهبةً من الرحمن، فلا تسمع إلا صوتًا خفيًّا.

١٠٩ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾

يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أحدًا من الناس إلا إذا أذنَ الله لشافع، ورضي عن المشفوع له، وهذا للمؤمن الصادق.

١١٠ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾

يعلم الله ما بين أيدي العباد من أمور الآخرة وما خلفهم من أمور الدنيا، ولا يحيط العباد بالله علمًا، بل علمه محيط بهم.

١١١ ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾

وخضعت وجوه العباد لله الحي الذي لا يموت وذلَّت له، القائم على تدبير الكون، وقد خسر وهلك يوم الحساب من أشرك بالله شيئًا.

١١٢ ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴾

ومن يعمل الأعمال الصالحة مع الإيمان بالله، فلا يخشى من ربه أن يظلمه بزيادة سيئاته أو يهضمه بنقص حسناته.

١١٣ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾

وكما دعا الله أهل الإيمان إلى البر والإحسان، وحذَّر الكفار من المعاصي والآثام أنزل هذا القرآن على نبيه محمد ﷺ بلسان عربي مبين؛ ليفقهه الناس، وبيَّن - سبحانه - في كتابه أنواع الوعيد عسى أن يتقي الناس ربهم بالعمل بشرعه، أو لعل القرآن يحدث لهم خشية واتعاظًا فيعتبروا.

١١٤ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾

فتنزَّه الله الواحد القهار، وتقدَّس - سبحانه - من عزيز غفار، الملك الحق الذي قهر كل جبار، فهو الحق وكتبه ورسله حق، ووعده ووعيده حق، ولا تستعجل - أيها النبي - بتلاوة القرآن قبل أن ينتهي جبريل من تلاوته عليك، واطلب إلى ربك أن يزيدك علمًا إلى علمك، فإن العلم أفضل مطلوب، وأكرم محبوب.

١١٥ ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾

ولقد وصَّى الله آدم من قبل أكل الشجرة ونهاه أن يأكل منها، وأخبره - سبحانه - أن الشيطان عدو له ولزوجه، ونصحه أن لا يخرجهما الشيطان من الجنة فيصيبهما الشقاء، ولكن الشيطان وسوس لهما فنسيا وصية الله لهما، ولم يبق لآدم حفظ للوصية ولا عزيمة على العمل والصبر.

١١٦ ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، فسجدوا غير أن إبليس عصى الله، وأبى أن يسجد لآدم.

١١٧ ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾

فأخبر الله آدم أن الشيطان عدو له ولزوجته حواء، فاحذر أن يخرجكما من الجنة فيصيبكم الشقاء بعد النعماء.

١١٨ ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴾

إن لك - يا آدم - عهدًا من الله أن لا تجوع في الجنة لوفرة الطعام، ولا تعرى لكثرة اللباس.

١١٩ ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾

وأن لك - يا آدم - في الجنة أن لا تعطش لوجود الماء العذب البارد، ولا يصيبك حرّ الشمس لتمام الظل الظليل.

١٢٠ ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾

فوسوس الشيطان لآدم وغرَّه وخدعه ومنَّاه وقال له: هل تريد أن أرشدك يا آدم إلى شجرة إذا أكلت منها بقيت في الجنة خالدًا أبدًا، وصرت ملكًا بلا انتهاء ولا انقطاع.

١٢١ ﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

فأكل آدم وحواء من تلك الشجرة التي حذَّرهما الله منها، فظهرت عورتهما؛ لشؤم المعصية وكانت مستورة من قبل، فأخذ آدم وحواء يقطعان من أوراق شجر الجنة ويستتران به بعد انكشاف العورة، وخالف آدم أمر الله فغوى عن الرشد بمعصية الأكل من الشجرة.

(١٢٢) ﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾

ثم اصطفى الله آدم واختاره واجتباه وقرَّبه وقبل توبته وغفر خطيئته، ووفقه للهداية بعد الغواية.

(١٢٣) ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾

أمر الله - تعالى - آدم وحواء أن يهبطا من الجنة إلى الأرض مع الشيطان، فأنتما وإبليس أعداء على الدوام، فإذا جاء بني آدم هدىً عن طريق رسل الله - عليهم السلام - فإن من آمن بهدى الله وصدق رسله فإنه راشد في الدنيا موفَّق، سعيد في الآخرة منعَّم.

(١٢٤) ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾

ومن ترك ذكر الله والإيمان به فإن الله يجعل حياته ضيقة عسيرة شاقة لا تُطاق ولو ملك الدنيا!! ويحضره الله للحساب أعمى عن المشاهدة لا حجة له.

(١٢٥) ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴾

قال هذا المعرض المتولي عن ذكر الله: يا ربِّ، كيف أحضرتني إلى موقف الحساب وأنا أعمى وقد كنتُ أبصر قبل ذلك في الدنيا.

(١٢٦) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾

فأخبره - سبحانه - أنه أحضر هذا المعرض إلى الحشر أعمى؛ لأنه أعرض عن الإيمان والقرآن وطاعة الرحمن، فكما ترك الانقياد لطاعة الله في الدنيا فكذلك يُترك في جهنم.

(١٢٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾

وهكذا يعذب الله من أكثر من العصيان ولم يؤمن بالرحمن وهجر القرآن، وعذاب الآخرة أفظع وأشنع وألزم وأدوم؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي.

(١٢٨) ﴿ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾

أفلم يبيِّن للكفار كم أهلك الله من الأمم السابقة لما كذبوا، والكفار يمشون في ديار وآثار أولئك المكذبين المعذبين وآثارهم، إن في هلاك أولئك الأقوام وما بقي في ديارهم من آثار لعبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين من أهل العقول السليمة والبصائر النيِّرة.

(١٢٩) ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴾

ولولا أن الله كتب في السابق وقدَّر لهم أجلاً معلومًا لعاجلهم بالعقوبة؛ لأنهم مستحقون لها.

(١٣٠) ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾

فاصبر - أيها النبي - على كيد الكفار وأذاهم، وسبح بحمد الله في صلاة الفجر والعصر والعشاء والظهر والمغرب؛ لأن منها ما هو قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها وفي أثناء الليل وطرفي النهار كي يأجرك الله على هذه الصلوات بما ترضى به، ويسعد خاطرك بذكره سبحانه.

(١٣١) ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾

ولا تنظر برغبة وإعجاب إلى ما متع الله به الكفار والفجار من متاع زائل، وزخرف منقض في دار الغرور، فهو امتحان لهم وفتنة وبلاء، ورزق الله الطيب الحلال وثوابه أفضل وأعظم وأدوم؛ لأنه لا ينقطع ولا يفنى.

(١٣٢) ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾

وأمر أهلك - أيها النبي - بإقامة الصلاة واصبر على أدائها والمحافظة على أوقاتها، فإن الله لا يطلب منك مالاً، فهو الذي يرزقك، والخاتمة الصالحة والعاقبة الحسنة في كل أمر لمن اتقى ربه.

(١٣٣) ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾

وقال الكفار: هلاَّ يأتينا النبي بعلامة ظاهرة تدل على رسالته، أوما كفاهم أن الله أنزل هذا الكتاب المعجز على النبي الأمي مصدقًا لما قبله من الكتب السماوية.

(١٣٤) ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴾

ولو أن الله أفنى هؤلاء الكفار بعذاب قبل أن يقيم عليهم الحجة بإرسال الرسول ﷺ وإنزال القرآن عليه لقالوا: يا ربنا، هلاَّ بعثت إلينا رسولاً من عندك فنؤمن بما جاء به ونهتدي بهداه من قبل أن نذل بعذابك، ونخزى بعقابك.

(١٣٥) ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: نحن وإياكم منتظرون عواقب الأمور وتبدل الأحوال، فسوف يظهر لكم لمن العاقبة الصالحة والنصر المبين والفتح العظيم، وسوف تعلمون مَنْ أهل الهداية الذين اتبعوا الحق، ووفِّقوا للصواب.

مكية

ترتيبها
٢١

سورة الأنبياء

آياتها
١١٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾

دنا موعد حساب الناس على ما فعلوه في الدنيا، ومع دنو الحساب فالكفار غافلون عن الاستعداد لهذا اليوم، وهم في إعراض ولهو.

(٢) ﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾

ما يتلى عليهم من القرآن شيء يجدد لهم التذكير إلا استمعوا له بلعب واستهزاء لا بإنصات وقبول.

(٣) ﴿ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾

غافلة قلوب الكفار عن القرآن، شغلت بالباطل وملئت بالهوى، وقد اجتمع كفار قريش وأخفوا قولهم من أن الرسول ﷺ بشر كسائر الناس؛ ليصدوا الناس بهذا الكلام عن اتباعه والإيمان به، ثم ادَّعوا أن القرآن الذي معه سحر، وقالوا: كيف تؤمنون بالسحر وتتبعونه وهو بشر وأنتم تبصرون ذلك؟

(٤) ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

قال النبي ﷺ: الأمر لله، فهو الذي يعلم القول في السماء والأرض، ويعلم ما أخفاه الكفار من حديثهم، والله السميع لما قالوه، العليم بما فعلوه، وهو تهديد للكفار ووعيد.

(٥) ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

بل كذب الكفار بالقرآن، فمنهم من قال: إن القرآن أخلاط من الأحلام لا حقيقة لها، ومن قائل: إنه كذب مفترى وليس وحيًا، ومن قائل: إن الرسول ﷺ شاعر، والقرآن شعر، ونريد أن يرينا معجزة على صدقه كناقة صالح وعصا موسى، ومثل ما جاء به الرسل من آيات محسوسات.

(٦) ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

القرى التي جاءها الرسل بالمعجزات لم يصدق أهلها ولم يؤمنوا، فكيف يصدق كفار مكة إذا جاءهم محمد ﷺ بمعجزة محسوسة، كلا، فهم مثل من سبقهم مكذبون جاحدون.

(٧) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وما أرسل الله قبل النبي ﷺ إلا رجالاً من الناس وليسوا ملائكة أنزل عليهم الوحي، فاسألوا يا كفار مكة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إذا جهلتم ذلك وأنكرتموه.

(٨) ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾

وما خلق الله الرسل أجسادًا خارجة عن طبيعة البشر حتى لا تحتاج إلى طعام وشراب، بل الرسل في البشرية كسائر الناس، وما كتب الله للرسل الخلود في الدنيا بل يموتون كما يموت البشر.

(٩) ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

ثم أنجز الله وعده لأنبيائه من نصر أوليائه وإهلاك أعدائه الذين أسرفوا في الذنوب، وتجاوزوا الحد في الطغيان.

(١٠) ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

لقد أنزل الله إليكم أيها المسلمون هذا القرآن فيه عزكم وشرفكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة إذا تذكرتم ما فيه وعملتم به، فلماذا لا تعقلون هذا الفضل العظيم وتتفكرون فيه؟!

(١١) ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾

وكم أهلك الله من قرية كان أهلها ظالمين لأنفسهم بالكفر، وخلق الله بعدهم قومًا سواهم خلفوا من سبقهم.

(١٢) ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾

فلما شاهد الكفار عذاب الواحد القهار قد نزل بهم ولَّوا هاربين من مساكنهم يفرون من عذاب الله.

(١٣) ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾

فنودوا بسخرية واستهزاء: إلى أين تهربون، تعالوا إلى دنياكم ولهوكم وترفكم ودوركم المشيدة، عسى أن تُسألوا لماذا فررتم وماذا دهاكم؟

(١٤) ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

فأجابوا معترفين بذنوبهم: يا هلاكنا فقد ظلمنا أنفسنا بالكفر وعدم الشكر والغفلة عن الذكر.

(١٥) ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾

فما زال دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك عادتهم، واعترافهم بالكفر ديدنهم، حتى جعلهم الله بالعذاب كالزرع المحصود، خامدين بالموت لا حياة فيهم، فاحذروا - أيها الكفار - أن يقع بكم ما وقع بهم.

(١٦) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾

وما خلق الله السماء والأرض عبثًا وباطلاً، بل لحكمةٍ عظيمة من إقامة الحجة ونصب البرهان على قدرته ووحدانيته؛ ليعلم أن لا إله إلا الله ولا معبود بحقٍ سواه.

(١٧) ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

لو أراد الله أن يتخذ لهوًا ولعبًا لاتخذه من عنده - سبحانه - لا من عند الخلق، وما كان الله فاعلاً ذلك لاستحالة اللهو واللعب عليه، فإنه حق، وكل ما صدر عنه حق.

(١٨) ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

بل يصدم الله الباطل بالحق فيذهبه ويمحقه ويزيله فإذا هو متلاش مضمحل، وللكفار سوء العذاب في النار بسبب سوء وصفهم للواحد القهار.

(١٩) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

ولله وحده ملك كل من في السموات والأرض؛ لأنه الخالق المدبر، والملائكة المقربون عند الله لا يأنفون من عبادة الله ولا يتعاظمون من الخضوع له، ولا يملون من عبادة الله ولا ينقطعون عنها.

(٢٠) ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

يعبدون الله ويذكرونه ويشكرونه ليلاً ونهارًا بلا انقطاع، لا يصيبهم ضعف ولا سأم لقوتهم في الطاعة ونشاطهم في العبادة.

(٢١) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾

كيف يحق للكفار اتخاذ آلهة من دون الواحد القهار، وهي لا تستطيع إحياء الموتى، فالمحيي والمميت هو الله وحده.

(٢٢) ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

ولو كان في السموات وفي الأرض آلهة غير الله - تعالى - تسيِّر أمورهما لوقع الاختلاف واختل النظام واضطرب الكون، فتقدَّس الله وتنزَّه عن أن يكون معه آلهة أخرى، - وتعالى - وهو رب العرش العظيم - عما وصفه به أعداؤه الكفار من كذب وافتراء.

(٢٣) ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾

من براهين وحدانية الله - سبحانه - بالربوبية والألوهية أنه لا يسأل عن قضائه في خلقه، وجميع الخلق يسألون عما يفعلون ويحاسبون على ذلك.

(٢٤) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

هل اتخذ الكفار من غير الله آلهة تخلق وترزق وتحيي وتميت؟ قل لهم - أيها النبي -: تعالوا بدليل صحيح على صدق ما ادعيتم من ألوهية هذه الأصنام، فهذا القرآن الذي نزل عليَّ والكتب السابقة ليس فيها دليل على صحة ذلك، فمن أين لكم هذا الادعاء؟ لكن ما أشرك الكفار إلا بجهل وتقليد، فهم معرضون عن الحق، منكرون له، ومن جهل شيئًا عاداه، ومن قلَّد جاهلاً آذاه.

(٢٥) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

وما أرسل الله من قبلك - أيها النبي - من رسول، إلا أوحى إلى هذا الرسول أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له، فاعبدوه مخلصين له الدين.

(٢٦) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾

وقال الكفار: إن الرحمن اتخذ ولدًا؛ لأنهم يقولون: إن الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فالملائكة عباد لله وليسوا بنات، وهم قريبون من الله، لهم المنزلة الرفيعة والمرتبة العالية.

(٢٧) ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾

والملائكة طائعون لربهم لا يتكلمون إلا بإذن من الله، ولا يعملون عملاً دون أمر الله لهم بذلك.

(٢٨) ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾

والله يعلم أعمال الملائكة السابقة واللاحقة ويحصيها عليهم، ولا يشفعون عند الله لأحد من العباد حتى يأذن لهم بالشفاعة ويرضى عن المشفوع له، والملائكة خائفون من ربهم لا يأمنون مكره.

(٢٩) ﴿ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وإذا ادعى ملك من الملائكة -فرضًا- أنه إله مع الله فالله يعذبه في نار جهنم، وهذا جزاء كل ظالم لنفسه بالشرك، مدع ما ليس له.

(٣٠) ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

أو لم يعلم الكفار أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين لا يفصل بينهما فاصل، لا تمطر السماء ولا تنبت الأرض، ففصل الله بينهما بقدرته، وأنزل الغيث من السماء، وأخرج النبات من الأرض، وجعل الله من الماء كل شيء حي، أفلا يصدق هؤلاء المنكرون من الكفار بقدرة الله ووحدانيته فيؤمنوا به ويخلصوا له العبادة؟

(٣١) ﴿ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾

وأوجد الله في الأرض جبالاً ثابتة تمسك توازنها حتى لا تضطرب، وأوجد فيها طرقًا واسعة فسيحة، عسى أن يهتدي الخلق إلى ما تقوم به حياتهم ويهتدون إلى الإيمان بربهم.

(٣٢) ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾

وجعل الله السماء سقفًا للأرض قائمة بلا عمد مع ضخامتها، وقد حفظها الله من السقوط ومن اختراق الشياطين لها، والكفار غافلون عن هذه الآيات الباهرات والبراهين الساطعات.

(٣٣) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾

والله - تعالى - هو خالق الليل؛ لينام فيه الناس ويرتاحوا، وخلق النهار لينتشروا فيه ويعملوا، وخلق الشمس ضياءً في النهار، والقمر نورًا في الليل، ولكل من الشمس والقمر مدار يسير فيه لا يتعداه بحساب دقيق لا يحيد عن مجراه.

(٣٤) ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴾

وما جعل الله لأحد قبل الرسول ﷺ البقاء الدائم في الدنيا، فإن مات الرسول ﷺ فهل يخلد أعداؤه الذين يتمنون موته بعده؟ وفيه دليل على موت الخضر؛ لأنه بشر.

(٣٥) ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾

كل نفس لابد أن تموت مهما طال بها العمر في الحياة، وما بقاؤها في الدنيا إلا امتحان واختبار بالأحكام الشرعية أمرًا ونهيًا، وحلالاً وحرامًا، وبأحكام القدر خيرًا وشرًا، ويسرًا وعسرًا، ثم الرجوع إلى الله وحده يوم القيامة ليجازي كل عامل بعمله.

(٣٦) ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾

وإذا شاهد الكفار رسول الله ﷺ سخروا منه وقالوا: انظروا إلى هذا الرجل الذي يسب آلهتكم، وكذبوا بآيات الرحمن، وأعرضوا عن الإيمان وجحدوا القرآن.

(٣٧) ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾

خلق الله الإنسان عجولاً يستعجل وقوع الأشياء، قليل الصبر والانتظار، ولهذا استعجل الكفار عذاب الله، فأخبر - سبحانه - بأنه سوف يريهم العذاب الذي يستعجلونه، وكل ما هو آت قريب، فلا داعي للاستعجال.

٣٨ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

ويقول الكفار المستعجلون للعذاب استهزاءً منهم: متى يقع ذاك اليوم الذي تعدنا به يا محمد ومن معك من المؤمنين إن كنتم صادقين بأنه سوف يقع؟

٣٩ ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

لو يعلم الكفار ما أمامهم من أهوال وأنكال وأغلال حين لا يقدرون دفع النار عن وجوههم لما استمروا على تكذيبهم وعنادهم، ولما استعجلوا وقوع ذاك اليوم.

٤٠ ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

وسوف تبغتهم الساعة فجأة فيقعون في حيرة وذهول، فلا يقدرون دفع العذاب ولا يمهلون حتى يتوبوا ويستغفروا.

٤١ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

ولقد سخر الكفار من رسلهم قبل الرسول ﷺ فوقع بالمستهزئين عذاب الله الذي كانوا يستهزؤون به.

٤٢ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

قل - أيها النبي - للمستعجلين عذاب الله: لا يحفظكم غير الله حافظٌ لكم يحرسكم في الليل والنهار، والنوم واليقظة من عذاب الرحمن إذا حلَّ بكم، ولكن الكفار عن عذاب الواحد القهار في إعراض وإدبار.

٤٣ ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾

هل للكفار آلهة تمنعهم من عذاب الله، إن هذه الآلهة لا تدفع الضر عن أنفسها، فكيف تدفعه عن غيرها، وهم لا يُجَارون من عذاب الله ولا يمنعون عقابه.

٤٤ ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

لقد اغتر الكفار بطول الأعمار وفتنة الجاه والسلطان والدرهم والدينار، فأصرّوا على التكذيب والإعراض، ونسوا عقاب الله وأخذه، وسنته الماضية في أنه - سبحانه - ينقص الأرض من جوانبها بما يوقعه بالكفار من عقوبة وبأس في كل جهة من هزيمة، فهل يستطيع الكفار الخروج عن قضاء الله والامتناع من قدرته والفرار من الموت ولقاء الله عز وجل؟ هذا لا يكون أبدًا.

٤٥ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: ما أُخَوفكم بعذاب الله إلا بوحي من الله، وهو كتابه العظيم، غير أن الكفار لا يسمعون الوحي سماع قبول واستجابة، فلا يؤمنون به.

٤٦ ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

لو أصاب الكفار نصيب من عذاب الجبار لعلموا عاقبة التكذيب والإنكار، ولدعوا على أنفسهم بالهلاك والدمار؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بعبادة الأصنام والأحجار.

٤٧ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾

وينصب الله يوم القيامة للحسنات والسيئات الميزان العادل، ولا يظلم الله أحدًا من العباد شيئًا بزيادة السيئات أو نقص الحسنات، ولو كان عمل العامل قدر ذرة من خير أو شر، حفظه الله لصاحبه وجازاه به، وكفى بالله محصيًا عمل الناس، ومثيبًا ومعاقبًا لهم.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

ولقد أعطى الله موسى وهارون حجة بيِّنة ونصرًا مبينًا، وأعطاهما التوراة فرَّقَ به بين الحق والباطل ونورًا يستضيء به من اتقى ربه واتبع هداه.

﴿٤٩﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴾

الذين يراقبون ربهم ويخافون عقابه وهم على حذر من يوم العرض على الله، يوم تقوم الساعة هم آمنون.

﴿٥٠﴾ ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

وهذا القرآن الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ ذكر لمن اهتدى به، وهو عظيم النفع كثير البركة، أفتنكرونه وهو كامل البيان، واضح البرهان.

﴿٥١﴾ ﴿ ۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾

ولقد أعطى الله إبراهيم هداه، ووفقه لرضاه، وكان قبل موسى وهارون، وكان الله يعلم أن إبراهيم أهل للاصطفاء والاجتباء.

﴿٥٢﴾ ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾

حين قال إبراهيم لأبيه وقومه: ما هذه الأصنام التي صنعتموها والأوثان التي نحتموها ثم لزمتموها للعبادة، وأدمتم العكوف عندها؟!

﴿٥٣﴾ ﴿ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾

قال قوم إبراهيم: نشأنا فوجدنا آباءنا يعبدون الأصنام فعبدناها كما عبدوها.

﴿٥٤﴾ ﴿ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

قال إبراهيم لقومه: أنتم وآباؤكم ضُلَّال غاوون بعبادتكم هذه الأوثان من دون الرحمن، وهذا خذلان وخسران.

﴿٥٥﴾ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾

قال قوم إبراهيم له: هل هذا الكلام الذي تقوله لنا حق وصدق، أم باطل وكذب تريد أن تستهزئ بنا وتلعب بعقولنا؟!

﴿٥٦﴾ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

فقال لهم إبراهيم: بل ربكم الله الذي لا إله إلا هو الذي خلق السموات والأرض، وأنا أشهد على صدق ذلك وصحته.

﴿٥٧﴾ ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾

وتالله لأحارِبَنَّ أصنامكم في خفاء، وأمكر بها وأكسرها بعدما تذهبون عنها وتغيبون.

﴿٥٨﴾ ﴿ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴾

فكسَّر إبراهيم الأصنام وجعلها قطعًا صغيرة، وأبقى كبيرها ليعود القوم إليه فيسألوه؛ ليظهر عجزهم وخطؤهم، ويقوم الدليل العملي على قبح ما فعلوه من شرك.

﴿٥٩﴾ ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وعاد قومه ووجدوا الأصنام مكسرة محطَّمة، فتساءلوا فيما بينهم: من الذي حطَّم أصنامنا؟ إنه متعدٍ ظالم؛ لأنه في نظرهم أهان ما حقه التعظيم.

﴿٦٠﴾ ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴾

قال بعض من سمع إبراهيم وهو يتوعد الأصنام: سمعنا شابًا يُسمَّى إبراهيم يسبُّ الأصنام، فالتهمة لاصقة به.

(٦١) ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾

قال أشرافهم: فتعالوا بإبراهيم على مشهد من الناس ليعترف أمامهم بما فعل؛ لتقوم عليه الحجة بشهادة الشهود.

(٦٢) ﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾

وأحضروا إبراهيم وسألوه منكرين لفعله: أأنت الذي حطَّمت أصنامنا؟

(٦٣) ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾

وفضحهم إبراهيم على رؤوس الأشهاد وعرَّض بحمقهم وغباوتهم وقال: بل الذي حطَّم أصنامكم هو هذا الصنم الكبير!! فاسألوا أصنامكم عن ذلك إن كان فيها حياة تستطيع أن تتكلم، فبُهتوا وغُلبوا.

(٦٤) ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

فوقعوا في حَيْرة وظهر لهم ضلالهم وسفههم إذ كيف يُعبد صنم لا يدفع الضر عن نفسه فضلاً عن أن يدفعه عن غيره، وهي لا تجيب سائلاً، فكيف يطلب منها قضاء الحاجات؟

(٦٥) ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾

ثم عادوا إلى الباطل وكابروا وقلبوا الأمر واحتجوا على إبراهيم بحجة باطلة هي عليهم لا لهم، وقالوا: كيف نسأل الأصنام وهي لا تتكلم؟

(٦٦) ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾

قال إبراهيم منكرًا فعلهم: كيف تعبدون من دون الله أصنامًا لا تنفع إذا عُبدت، ولا تضر إذا تُركت؟!

(٦٧) ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قبحًا وخيبة لكم ولأصنامكم التي اتخذتموها آلهةً من دون الله، أفلا تفكرون بعقولكم، فُبْحَ فعلكم فتعودوا إلى رشدكم؟!

(٦٨) ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

لما غلبهم إبراهيم بالحجة والبرهان استعملوا ضده القوة والسلطان، وقالوا: أحرقوا إبراهيم بالنار انتقامًا لأصنامكم وانتصارًا لها، فأشعلوا نارًا عظيمة، وألقوا إبراهيم في النار فقال: "حسبنا الله ونعم الوكيل".

(٦٩) ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

فأنجى الله إبراهيم من النار، وقال للنار: كوني بردًا بلا حرارة، وسلامًا بلا أذى، فلم يصبه مكروه!!

(٧٠) ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾

وأراد الكفار بإبراهيم هلاكًا فأبطل الله مكرهم، وقهرهم وأذلَّهم.

(٧١) ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾

ونجى الله إبراهيم ولوطًا الذي صدَّق به واتبعه ونقلهما من العراق إلى الشام المباركة بكثرة الثمار ووفرة الخير، وهي أرض الأنبياء عليهم السلام.

(٧٢) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾

ورزق الله إبراهيم ابنًا هو إسحاق، وحفيدًا هو يعقوب بن إسحاق، وكل من الجد والأب والابن صالحون طائعون لربهم، أخيار أبرار.

(٧٣) ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾

وجعل الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب قدوة لعباده، يدعون إلى طاعته ويعملون بشرعه، وأوحى الله إليهم فعل الخيرات من الأعمال الصالحات، وإقام الصلاة على أتم وجه، وإيتاء الزكاة، فقاموا بذلك خير قيام، وكانوا طائعين لربهم منقادين لأمره تعالى.

(٧٤) ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾

وآتى الله لوطًا النبوة، والعلم النافع والحكمة في القول والعمل والفصل بين الناس، وأنقذه الله من قرية سَدُوم التي كان يعمل أهلها الخبائث، فكانوا بهذه الفواحش والمنكرات أهل قبح وفجور وشر، خارجين عن طاعة الله تعالى.

(٧٥) ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

واجتباه الله وأتم نعمته عليه فأنجاه من العذاب؛ لأنه كان طائعًا لربه عاملاً بما يحبه ويرضاه.

(٧٦) ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

واذكر - أيها النبي - نبي الله نوحًا حين دعا ربه من قبلك وقبل إبراهيم ولوط فاستجاب الله دعاءه ونجاه هو والمؤمنين من أهله من الغم الكبير والخطر العظيم.

(٧٧) ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

ونصر الله نوحًا على قومه المكذبين بآيات الله، إنهم كانوا أهل قبح وفجور، فأغرقهم الله بالطوفان أجمعين.

(٧٨) ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾

واذكر - أيها النبي - داود وابنه سليمان - عليهما السلام - إذ حكما في قضية غنم رجل عَدَت على مزرعة رجل آخر، حيث أتلفت زرعها ليلاً، فحكم داود أن الغنم لصاحب الزرع عوضًا مما أتلفته الغنم من زرعه، وكان الله شاهدًا على حكمهم.

(٧٩) ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

ففهَّم الله سليمان حكمًا عادلاً لا ضرر على صاحب الغنم فيه، ولا ضرار بصاحب الزرع، فحكم على صاحب الغنم أن يسلم غنمه لصاحب الزرع لينتفع بغنمه، ويأخذ مزرعة الرجل ليصلحَ ما أتلفته غنمه، فإذا عادت المزرعة كحالها قبل التلف ردَّ المزرعة على صاحبها وأخذ غنمه بعدما انتفع صاحب الزرع من لبنها وصوفها تلك المدة، وكل من داود وسليمان أعطاهما الله علمًا نافعًا وفصلاً بين الخصومات ونظرًا سديدًا، وطوَّع الله الجبال لداود تسبح معه إذا سبَّح، وكذلك الطير، وكان الله فاعلاً لذلك بقدرته ومشيئته تعالى.

(٨٠) ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾

وعلَّم الله داود صناعة الدروع، فعرف كيف يجعل المسمار على قدر الحلقة؛ لتقيكم هذه الدروع أذى الأعداء عند القتال، فهل تشكرون نعمة الله عليكم حيث وفق داود لهذا العمل، ثم انتشرت هذه الصناعة في الناس بفضل الله تعالى؟

(٨١) ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾

وطوَّع الله الريح شديدة الهبوب لسليمان تأتمر بأمره وتنقله ومن معه إلى بيت المقدس بالشام، حيث الأرض الخصبة الطيبة كثيرة الخيرات، وقد أحاط علم الله بكل الأشياء لا تخفى منها خافية.

(٨٢) ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾

وطوَّع الله لسليمان الشياطين يعملون في أعمال يعجز عنها غيرهم، كالغوص في البحر واستخراج اللؤلؤ، وهم ينفذون أمره، والله يحفظهم بقوته وقدرته لهذه المهمة.

٨٣ ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

واذكر - أيها الرسول - نبي الله أيوب ﷺ إذ ابتلاه الله بفقد الأهل ومرض الجسم وذهاب المال، فصبر واحتسب، ولجأ إلى ربه ودعا مولاه إن الضُّرَّ قد أصابني فاكشف ما بي، وأنت أرحم الراحمين.

٨٤ ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾

فاستجاب الله دعوته وفرَّج كربته وردّ عليه أهله وعافاه من البلاء، ورزقه مالاً كثيرًا مضاعفًا تفضلاً من الله ومنَّة، وليكون أيوب أسوة لكل مبتلى أن يصبر ويدعو وينتظر الفرج؛ ليكشف الله ما به.

٨٥ ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

واذكر - أيها النبي - إسماعيل وإدريس وذا الكفل حيث صبروا على الطاعات، وصبروا عن المعاصي، وصبروا على مرِّ القضاء، فاستحقوا الأجر وحسن الذكر.

٨٦ ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وأدخل الله هؤلاء الأنبياء في رحمته وفي كنف رعايته؛ لأنهم أصلحوا ما بينهم وبينه بالعمل بطاعته وترك معاصيه.

٨٧ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

واذكر ذا النون: يونس بن متى إذ خرج من بين ظُهْراني قومه لما ردوا دعوته ولم يقبلوا منه، وظن أن الله لن يضيّق عليه ولن يؤاخذه بهذه المخالفة، فضيّق الله عليه في بطن الحوت، فدعا ربه في ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت تائبًا مستغفرًا قائلاً: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين".

٨٨ ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

فاستجاب الله دعوته وأنقذه وخلّصه من الغم والشدة، وهذه سنة الله في كل مؤمن صادق يجعل له بعد كل عسر يسرًا، وبعد كل كرب فرجًا.

٨٩ ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

واذكر زكريا النبي الكريم إذ دعا ربه أن لا يتركه وحيداً بلا ولد يرث العلم والحكمة والنبوة، وأنت خير الباقين، وخير من يخلف كل ميت، فالله الباقي بعد فناء خلقه.

٩٠ ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

فاستجاب الله دعاء زكريا وأعطاه على الكِبَرَ يحيى، وجعل زوجته صالحة تستطيع أن تحمل وأن تلد وكانت عاقرًا، إنهم كانوا يسابقون إلى الخير، ويبادرون إلى البر والمعروف، ويدعون الله راغبين في ثوابه خائفين من عقابه، وكانوا خاضعين لله منقادين لأمره متواضعين لعباده.

٩١ ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

واذكر قصة مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها من الحرام، فأمر الله جبريل أن ينفخ في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها فحملت بعيسى ﷺ من غير زوج، فكانت هي وابنها علامة بينة على قدرة الله - تعالى - يعتبر بها الناس أمة بعد أمة.

٩٢ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

جميع الأنبياء دينهم الإسلام، والله وحده هو الخالق الرازق المدبر، فأخْلِصُوا له العبادة ولا تشركوا به شيئًا.

﴿٩٣﴾ ﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾

وتفرَّق الناس على الأنبياء، واختلف أتباعهم شيعًا وأحزابًا، وكثير منهم أشرك بربه، والجميع سيعود إلى الله ليحاسبهم على ما فعلوا.

﴿٩٤﴾ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾

فمن تمسك بالإيمان بالله ورسله وعمل ما استطاع من عملٍ صالح يريد به الله، فلن يبطل الله عمله، ولن يحبط سعيه، بل عمله مكتوب محفوظ عند الله، يجده يوم القيامة.

﴿٩٥﴾ ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

ومستحيل على أهل القرى التي أهلكها الله بسبب الكفر أن يعودوا إلى الدنيا قبل يوم القيامة؛ ليتوبوا ويندموا على ما فعلوا.

﴿٩٦﴾ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾

فإذا فتح سد يأجوج ومأجوج خرجوا من كل مكان مرتفع ينتشرون في بقاع الأرض.

﴿٩٧﴾ ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

وحان يوم القيامة، فلشدة هوله أصبحت أبصار الكفار مفتوحة لا تطرف، يقولون: يا ويلنا يا حسرتنا كنا نلهو ونلعب في دنيانا فكنا بذلك ظالمين لأنفسنا بالإعراض عن دين الله تعالى.

﴿٩٨﴾ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾

إنكم - أيها الكفار - أنتم وما تعبدونه من أخشاب وأحجار وقود للنار أنتم فيها داخلون مع الفجار.

﴿٩٩﴾ ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

لو كانت الأصنام التي عبدتموها - أيها الكفار - آلهة تستحق العبادة ما دخلت معكم النار، وأنتم وآلهتكم التي عبدتموها من دون الله خالدون في نار جهنم.

﴿١٠٠﴾ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾

لهؤلاء الكفار المعذبين في النار آهات وأنين من شدة العذاب، تتردد من صدورهم لشدة الكرب والضيق، وهم في النار لا يسمعون شيئًا من شدة الأنكال وكثرة الأهوال.

﴿١٠١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

إن الذين سبقت لهم من الله السعادة في قضاء الله وقدره أولئك ناجون من النار لا يدخلونها ولا ينالهم من الله الأذى، فقد وفَّقهم الله لأسباب النجاة، وهداهم إلى طريق الفوز.

﴿١٠٢﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

لا يسمعون صوت لهيب النار وأصوات المعذبين فيها، فقد فازوا بالرضوان في الجنان بجوار الرحمن، عندهم ما تحبه أنفسهم من كل ما لذَّ وطاب من لباس ومنظر ومتعة ولذة وطعام وشراب مع الإقامة الدائمة.

﴿١٠٣﴾ ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

لا يخافون من الهول العظيم، ولا يفزعون يوم يفزع الناس، نالوا الثواب وأمنوا من العذاب، وتستقبلهم الملائكة بالبشرى، هذا هو اليوم الذي وعدكم فيه ربكم الفوز العظيم والفلاح الكبير.

﴿١٠٤﴾ ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

يوم يطوي الله السماء كطي الصحيفة على ما سُطِّر فيها، ويبعث الله الناس على صورتهم الأولى التي أنشأهم عليها مثلما أتت بهم أمهاتهم، وهذا وعد من الله لا يخلف الله وعده؛ لأنه فاعل ما وعد لا رادَّ لما أراد.

(١٠٥) ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

ولقد كتب الله وقدَّر في الكتب المنزَّلة بعدما كتب في اللوح المحفوظ: أن الأرض يرثها الصالحون من عباد الله، الذين أطاعوه وعبدوه حق عبادته، فاستحقوا الاستخلاف في الأرض.

(١٠٦) ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾

إن في هذا المتلو من كتاب الله في هذا الشأن لموعظة كافية لمن عبد ربه بما شرعه، ففعل المأمور، وترك المحذور.

(١٠٧) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

وما أرسل الله نبيه محمداً ﷺ إلا رحمة للخلق جميعًا، فمن اتبعه وآمن بما جاء به سعد سعادة لا شقاء بعدها، ونال خيري الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بما جاء به خاب وخسر وشقي وضل ضلالاً مبينًا.

(١٠٨) ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

قل - أيها النبي -: إن الله أوحى إليّ أنما الإله الذي يستحق العبادة وحده هو الله الذي لا إله إلا هو لا شريك له، فأسلموا لله وانقادوا لدينه واتبعوا رسوله ﷺ.

(١٠٩) ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾

فإن أعرض الكفار عن الإسلام فقل لهم: أبلغكم كلكم ما أنزله الله إليَّ، وأقيم عليكم الحجة حتى أستوي أنا وإياكم في العلم بهذا البلاغ من عند الله، ولا علم لي هل العذاب الذي وعدتم به قريب نزوله أم بعيد؟ فالعلم عند الله، فأنا مُنْذِرٌ بالعذاب، مُخْبِرٌ عن وقت العقاب.

(١١٠) ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

إن الله وحده يعلم ما تعلنونه من أقوال وما تسرونه، لا تخفى عليه خافية، وسوف يجازيكم على ذلك.

(١١١) ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

ولا أعلم لعل تأجيل عقوبتكم استدراج لكم لزيادة إثمكم وتمتعكم بشهوات الدنيا الزائلة إلى أجل معلوم.

(١١٢) ﴿ قَٰلَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

قال الرسول ﷺ: يا رب، اقض بيننا وبين الكفار بالعدل، فأكرم الصادق، وعاقب الكاذب، وربّنا وحده هو الرحمن الذي نستعين به على افترائكم وكيدكم وعذابكم.

مدنية

ترتيبها ٢٢ | سورة الحج | آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

يا عباد الله: خافوا عذاب الله بتقوى الله، فإن ما سوف يقع من أهوال القيامة كاضطراب الأرض وحركتها الشديدة شيء يفوق الوصف، ويذهل العقل، لا يعلم هَوْلَه إلا الله وحده.

(٢) ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

يوم يشاهد الناس قيام الساعة تنسى الأم رضيعها الذي يلقم ثديها لما رأت من الهول، وتذهل عقول الناس كأنهم سكارى من شدة الخوف والهلع وليسوا بسكارى من الخمر، ولكن شدة العذاب أذهبت عقولهم وأزالت إدراكهم.

(٣) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾

وبعض الكفار يخاصمون بالباطل في قدرة الله على إعادة الناس بعد الموت، وليس لهم علم بهذه القدرة، وإنما يقتدون بأئمة الضلال من كل شيطان عاصٍ لله متمرد على طاعته.

(٤) ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

قدَّر الله على هذا الشيطان أنه يغوي كل من اقتدى به ويصرفه عن الهداية ويسوقه إلى النار الموقدة نكالاً له على ضلاله.

(٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

يا أيها الناس: إن شككتم في قدرة الباري على إحياء الموتى فإن الله خلق أباكم آدم من طين، ثم خلق ذريته من نطفة من ماء الرجل وماء المرأة، ثم يجعله - سبحانه - علقة من دمٍ أحمر غليظ، ثم قطعة لحم صغيرة مثل المضغة من الطعام، فمرة تكون كاملة الخلق تخرج جنينًا حيًا ومرة تكون ناقصة الخلق فتسقط قبل الولادة الكاملة، ليظهر الله لعباده كمال قدرته في أحوال خلق الإنسان، ويبقي الله - سبحانه - النطفة في الرحم ما شاء من الزمن، ويكمل الله خلق الإنسان في بطن أمه طفلاً، ثم بعد ولادته يربيه حتى يبلغ تمام قوته وهو سن الفتوة والقوة وتمام العقل، وبعض الناس يموت في طفولته وبعضهم يبقيه إلى سن الشيخوخة والهرم، فينسى هذا المعمر ما كان يحفظه من قبل، ويجهل ما كان يعلمه، وأنت تشاهد الأرض يابسة قاحلة ميتة لا شجر فيها ولا نبات، فإذا أنزل الله عليها الماء من السماء تشققت بالنبات وارتفع على وجه الأرض نباتها واكتمل حسنها، وظهرت نضرتها وخضرتها حتى صارت في صورة بهية ومنظر بهيج يسر الناظرين.

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذه الآيات والعلامات برهان قاطع على أن الله هو الرب المعبود بحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يجوز أن يُشرك به غيره؛ لأنه الذي يحيي الأموات وهو قادر على كل شيء لا يعجزه أمر أراده سبحانه.

(٧) ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾

وأن قيام الساعة واقع لا محالة ولا شك في ذلك، وأن الله سوف يخرج الأموات أحياءً من قبورهم للحساب.

(٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾

وبعض الكفار يخاصم بالباطل في الله وتوحيده وقدرته، والبعث بعد الموت، والقرآن والرسول ﷺ؛ وليس عنده دليل ولا برهان، وإنما بالجهل والكذب، فلا علم عند هذا المجادل يبصر به الحق، ولا حجة يغلب بها من خالفه، ولا كتاب من الله عند هذا المخاصم يفرق به بين الحق والباطل.

(٩) ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

يلوي عنقه من الكبر، يعرض عن الهدى، فسوف يفضحه الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة لكذبه وكفره وضلاله، ويحرقه في نار جهنم جزاءً على قبيح عمله.

(١٠) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

ويُقال لهذا الكافر المتجبر: هذه العقوبة بسبب عملك القبيح، وفعلك السيء، والله لا يعاقب عبدًا بلا إثم.

(١١) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

وبعض الناس يعتنق الإسلام وعنده شك وحَيْرة، وليس عنده يقين في دينه، فيعبد الله وهو متردد كالقائم على طرف الجدار قلقًا متذبذبًا، ودينه تبع لدنياه، فإن حصلت له العافية والمال والبنون ثبت على طاعة الله، وإن وقعت له مصيبة أو مكروه أو فقر تشاءم من الإسلام وارتد إلى الكفر، كالذي ينقلب من وجهه على قفاه، فهو بهذا العمل خسر دنياه وأخراه، إذ إنّ رِدّته لا تكشف كربته ولا تفرج شدته، وفي الآخرة مصيره النار، وهذا غاية الخسران والخذلان.

(١٢) ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

هذا الكافر الجاحد المتردد يعبد غير الله مما لا يضره إذا ترك عبادته، ولا ينفعه إذا عبده، وهذه نهاية الغواية والانحراف عن الطريق المستقيم.

(١٣) ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾

هذا الكافر يعبد ويسأل من ضرره وشرُّه أقرب من نفعه وخيره، قبَّح الله ذلك المعبود من نصير يُنتصر به، وقبَّح الله ذلك العشير من صاحب يُرجى عونه.

(١٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

إن الله يدخل المؤمنين الصالحين جنات النعيم التي تجري أنهارها من تحت أشجارها، إن الله يفعل ما يشاء من ثواب الصالحين فضلاً، وعقاب الفجار عدلاً.

(١٥) ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾

من كان يعتقد أن الله – تعالى – لن ينصر نبيه ﷺ ويظهر دينه ويؤيد أولياءه في الدنيا ويرفع درجاتهم في الآخرة، فليربط حبلاً بسقف بيته، ثم يخنق نفسه بهذا الحبل، ثم لينظر هل يذهبن ذلك ما يجد في نفسه من الغيظ؟ والله سوف ينصر رسوله ﷺ ويظهر دينه على رغم أنف من شك أو كره.

(١٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾

وكما أن الله أظهر البرهان للكفار على قدرته بإحياء الموتى أنزل القرآن واضح الآيات، ميسَّر الفهم، يهدي الله بكتابه من شاء من عباده، فلا هادي غيره تعالى.

(١٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

إن من آمن بالله واتبع رسوله ﷺ واليهود والصابئين (وهم الذين بقوا على فطرتهم بلا دين معلوم عنهم، وقيل فرقة من النصارى) وكذلك النصارى والمجوس عبدة النار، والمشركون عبدة الأصنام، إن الله سوف يحكم بينهم يوم القيامة، فيدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكفار النار، إن الله شاهد على كل نفس بما كسبت، عالم بجزاء كل أحد على حسب عمله الذي اطلع عليه، وحفظ وشهد عليه به.

(١٨) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

ألم تعلم أن الله يخضع له وينقاد ويذل له ويخشع كل مخلوق في السموات من الملائكة وفي الأرض من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب، وكثير من الناس، وهم المؤمنون أتباع الرسل، وكثير من الناس كتب الله عليهم العذاب فهم في خسران ومهانة، وإذا أهان الله أحدًا فلن يكرمه أحد، إن الله يفعل في خلقه ما أراد، لا معارض في مشيئته ولا راد.

(١٩) ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾

هاتان طائفتان اختلفوا في ربهم: المؤمنون والكفار، كلٌّ يدعي أنه مصيب في عبادته، فالكفار فُصِّلت لهم ثياب من نار جهنم يلبسونها، تحرق أجسامهم، وتشوي وجوههم، ويصب على رؤوسهم الماء شديد الحرارة.

(٢٠) ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾

يذيب ما بداخل بطون الكفار، ثم يصل إلى الجلود فيشويها فتتقطع وتتمزَّع.

(٢١) ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾

وتضرب الملائكةُ الكفارَ على رؤوسهم بعِصِيٍّ غليظة مصنوعة من حديد على رؤوسهم.

(٢٢) ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾

كلما حاول الكفار الخروج من النار لشدة الأنكال والأغلال والأهوال رُدّوا إليها، وقيل لهم تبكيتًا: ذوقوا عذاب النار المحرق لأجسامكم.

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾

إن الله يدخل المؤمنين الصالحين جنات تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها ودورها، في نعيم دائم، يزين الله فيها أهل الجنة بأساور الذهب واللؤلؤ في أيديهم، ويلبسون الحرير الناعم، يشترك في ذلك الرجال والنساء.

(٢٤) ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾

والله أرشد عباده الصالحين في الدنيا إلى أحسن الكلام من توحيد وتسبيح وعلم نافع وأمر بمعروف ونهي عن منكر ونحوه، وأرشدهم في الجنة إلى حمده وشكره على حسن الثواب وعظيم الأجر، وقد أرشدهم إلى الصراط المستقيم من الإيمان به واتباع رضوانه والعمل بكتابه وسنة رسوله ﷺ.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾

إن الكفار الصادين عن طريق الهداية المحاربين لله ولرسوله ﷺ، والذين يمنعون المؤمنين من المسجد الحرام كما حصل عام (الحديبية) والمسجد الحرام هو قبلة لجميع المسلمين سواء المقيم فيه والقادم إليه، ومن نوى في المسجد الحرام الميل عن الحق وتجاوز حدود الله بمعصية ربه يذيقه الله عذابًا شديدًا موجعًا.

(٢٦) ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

واذكر حين مهَّد الله لإبراهيم مكان الكعبة وهيأه له ودلَّه عليه، ولم يكن معروفًا، وأمره ربه أن يؤسسه على تقوى منه ورضوان وتوحيد له وإيمان به، وأن يطهره من الكفر والنجاسات؛ ليكون مهيأً للطائفين والقائمين والراكعين والساجدين في حال صلاتهم.

(٢٧) ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴾

وأعلن - يا إبراهيم - لعموم الناس بالحج إلى بيت الله، يجيبوا دعوتك مشياً على الأقدام وركوباً على كل ضامر من الإبل (وهو خفيف اللحم لنشاطه) يأتين من كل طريق بعيد.

(٢٨) ﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴾

ليحضر الناس منافعهم من تكفير سيئات، وكسب حسنات وربح في تجارات وأداء طاعات وغير ذلك من الخيرات، وليذكروا اسم الله عند نحر وذبح الإبل والبقر والغنم في أيام محددة معلومة، وهي العاشر وثلاثة أيام بعده، شاكرين لله ما أنعم به عليهم. ويستحب لهم الأكل من هذه الذبائح، وإطعام الفقير شديد البؤس.

(٢٩) ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾

ثم يكمل الناس ما بقي عليهم بالتحلل من الإحرام وإزالة وسخ البدن وتقليم الأظافر وحلق الشعر؛ وليوفوا ما ألزموا به أنفسهم من حج أو عمرة أو هدي أو قربة، وليطوفوا ببيت الله، القديم بناؤه، الذي أعتقه الله من استيلاء الجبابرة عليه.

(٣٠) ﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾

ذلك المذكور من إكمال ما بقي من النسك وقضاء التفث والوفاء بالنذر والطواف بالبيت هو ما شرعه الله للحج، فالواجب تعظيمه، ومن يعظم حرمات الله بأدائها على أكمل وجه متبعًا فيها الرسول ﷺ فهو خير له في دنياه وأخراه، وأباح الله لعباده أكل الأنعام إلا ما استثناه كالميتة وغيرها، فالواجب اجتنابها، فابتعدوا عن قذارة الأوثان، وعن الافتراء على الله والكذب على عباده؛ لأن الرجس فساد العمل، والزور فساد القول.

(٣١) ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾

مستقيمين على ملة التوحيد، ثابتين على الإسلام دين الفطرة من إخلاص العبادة لله ومتابعة رسوله ﷺ، لا يشركون بالله شيئًا قد كفروا بما سواه من المعبودات والطواغيت، فمثل المشرك بالله في بعده عن الحق وفي هوانه وسقوطه من قمة الإسلام إلى حضيض الشرك مع اجتذاب الشياطين له من كل جهة، كمثل من سقط من علو شاهق مرتفع، فإما أن تخطفه الطير فتقطع جسمه، وإما أن تحمله رياح عاتية عاصفة فترمي به في محل ناءٍ قاص.

(٣٢) ﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾

ذلك الذي ذُكِرَ هو ما أوجبه الله على عباده من التوحيد وإخلاص العبادة له، والذي يستجيب لربه ويعظم ما عظّمه الله من أعمال الطاعات كمناسك الحج فهذا التعظيم يدل على خشية قلب صاحبه وتقواه ومراقبته لمولاه.

(٣٣) ﴿ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴾

لكم - أيها الناس - انتفاع بالهدي الذي تسوقونه إلى الحرم من ركوبها وصوفها ولبنها حتى تذبح عند البيت العتيق، وهو كل الحرم.

(٣٤) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴾

ولكل طائفة من المؤمنين السابقين جعل الله مناسك من الذبائح تقربًا إليه - سبحانه - لكي يذكروا اسم الله وحده عند الذبح ويشكروه؛ لأنه رزقهم هذه البهائم للانتفاع بها، فإلهكم المعبود بحق - أيها العباد - هو الله وحده،

فأطيعوه وأخلصوا له العبادة، واتبعوا هدي رسوله ﷺ، وبشر - أيها النبي - المؤمنين المتواضعين الخاضعين لربهم بكل خير من سعادة الدنيا والفوز بجنات النعيم.

(٣٥) ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾

هؤلاء المتواضعون إذا ذكر الله - تعالى - خشعت قلوبهم وخافوا من عذابه ومكره وأخذه، فاجتنبوا معاصيه، وإذا أصابهم مكروه وحلَّت بهم مصيبة صبروا امتثالاً لأمر الله واحتسابًا للثواب من الله، مع المحافظة على الصلاة بأدائها على أكمل وجه، وهم يتصدقون مما أعطاهم الله في النفقات الواجبة والمستحبة من زكاة ونفقة على أهل وقريب وفقير ومسكين وغير ذلك من أبواب الخير.

(٣٦) ﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

وجعل الله نحر البُدْن من علامات الدين ونسك المسلمين؛ لتكون قربة إلى الله، ولمن يتقرب بها إلى الله خير في الدنيا من الأكل والصدقة، وفي الآخرة الثواب العظيم والأجر الجزيل، وليقل الذابح عند ذبحه: "بسم الله" والإبل تنحر وهي واقفة، تُصف ثلاث من قوائمها وتقيد الرابعة، فإذا سقطت البدن على جنوبها أرضًا فقد أباح الله أكلها، فيأكل منها من تقرب بها إلى الله عبادةً، ويُطعم الفقير الذي لا يسأل الناس تعففًا، والفقير الذي يسأل لفقره، والله هو الذي ذلّل لكم البدن في منافعكم حتى تشكروا الله على هذه النعم.

(٣٧) ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

لن يصل إلى الله من لحوم هذه الذبائح ولا من دمائها شيء، فهو - سبحانه - غني عمن سواه، ولكن يصله الإخلاص منكم وقصد وجهه وحده، والله قد جعل هذه البدن ذليلة لكم لتعظموا الله بالتقرب بها إليه؛ لأنه الذي وفقكم للاستقامة وأرشدكم إلى الهدى، ولتشكروه - سبحانه - على نعمه، وبشر - أيها النبي - من أحسن من أمتك بإحسان عبادة الخالق والإحسان للمخلوق بكل أجر عظيم وفوز كريم.

(٣٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾

إن الله يدفع عن الأبرار أذى الأشرار وكيد الفجار وعداوة الكفار؛ لأنه لا يحب الخائن للأمانة، الجحود لنعمة ربه؛ لأنه أساء في الأمانة وفي الإيمان.

(٣٩) ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾

لم يأذن الله للمسلمين في أول الأمر بقتال الكفار، بل أمرهم بالصبر والصفح عن الأذى، فلما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة وأصبح للإسلام قوة أذِن الله للمسلمين بقتال الكافرين؛ لأن الظلم وقع على المسلمين من أذى وإخراج من الديار، وقد وعدهم الله بنصره، وهو قدير على إعزاز أوليائه وإذلال أعدائه.

(٤٠) ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

الذين طُردوا من أوطانهم طردًا لا لجرم فعلوه، وإنما قالوا: ربنا الله وحده، ولولا أن الله أمر بدفع الظالم وصاحب الباطل بالجهاد بأنواعه لساد الباطل وهُزم الحق، وعلا الكفار وذلَّ الأبرار، وخربت الديار، وهُدمت مواطن العبادة من صوامع الرهبان، وكنائس النصارى، ومعابد اليهود، ومساجد المسلمين المعدة للصلاة ولذكر الله تعالى. ومَنْ نَصَرَ دين الله وجاهد في سبيله بلسانه وقلمه ويده ونفسه وماله نصره الله وأعزه في الدنيا والآخرة، فإن الله قوي لا يُغالب، يقهر من حاربه، عزيز لا يُرام، أخذ بنواصي الخلائق وتفرَّد بالعظمة والجبروت.

(٤١) ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾

الذين وعدهم الله بنصره هم الذين إذا مكَّن الله لهم وأظهرهم على عدوهم واستخلفهم في الأرض أقاموا الصلاة على الوجه الذي شرعه الله من محافظة على وقت وأداء على السنة، ودفعوا زكاة المال لمستحقيها، وأمروا الناس بكل حق لله، وحق لعباده مشروع، ونهوا عن كل ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، ومرجع كل أمر إلى الله، ومنتهى كل شيء إليه وحده، - سبحانه - والعاقبة للمتقين.

(٤٢) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴾

وإن كان قومك - أيها النبي - كذبوك فلك أسوة في الأنبياء مثلك، فقد كذب قوم نوح وعاد وثمود.

(٤٣) ﴿ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴾

وكذَّب قوم إبراهيم وقوم لوط وحاربوا الرسولين الكريمين.

(٤٤) ﴿ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

وكذَّب أصحاب مدين شعيبًا، وكذب فرعون وقومه موسى، فأمهل الله لهؤلاء المكذبين، ثم أهلكهم بالعذاب، فانظر ما أعظم إنكار الله عليهم لما كذبوا كيف أبادهم ونكَّل بهم؟

(٤٥) ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴾

فكم من قرية أهلكها الله ودمَّرها، فالمنازل خراب لا سكان فيها، والآبار لا يستقى منها؛ لأنه لا أنيسَ ولا حيًّا حولها، والقصور الشاهقة المشيدة المزخرفة لم تمنع أهلها من إهلاكنا.

(٤٦) ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾

أفلم يسر الكفار في الديار ليشاهدوا الآثار، فقد أهلك الله المكذبين، فلماذا لا يعتبر هؤلاء بمصارع أولئك فيفكروا بعقولهم ويسمعوا أخبار الماضين بتدبر فيتعظوا، فالعمى ليس عمى البصر لكن عمى البصيرة إذا أصيبت بالزيغ والحيرة.

(٤٧) ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

ويستعجلك الكفار - أيها النبي - بعذاب الله لجهلهم، والله لن يخلف ما وعد به من عذاب واقع بالكفار لابد منه، وإن يوم القيامة -وهو يوم من أيام الله- كألف سنة من سني الدنيا، وليس بعيدًا وقوعه.

(٤٨) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

وكم من قرية كان أهلها ظالمين لأنفسهم بالكفر أمهلهم الله مدة من الزمن فلم يعاقبهم فاغتروا، ثم أخذهم الله بعذابه بغتة في الدنيا، وعنده المعاد؛ ليجازي كل نفس بما عملت.

(٤٩) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾

قل أيها النبي: يا أيها الناس: ما أنا إلا منذر لكم أحذِّركم عذاب الله إن كفرتم، وأبلغكم رسالة الله البيان البليغ الشافي.

(٥٠) ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾

فالمؤمنون الصالحون المتبعون لرسول الله ﷺ، يغفر الله ذنوبهم، ويمحو سيئاتهم، ويرزقهم رزقًا حسنًا مباركًا في الجنة.

(51) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

والذين جدّوا واجتهدوا في محاربة الله ورسله والكيد لأوليائه ومحاولة إبطال آيات الله بالمشاقة والمغالبة هؤلاء ماكثون في نار جهنم الموقدة لهم المؤصدة عليهم.

(52) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

وما أرسل الله قبلك - أيها النبي - من رسول إلا إذا تلا كتاب الله شوَّش الشيطان عند قراءته بإلقاء الوساوس والشبهات؛ ليمنع وصول القرآن إلى الناس؛ خوفًا من إيمانهم وتصديقهم، ولكن الله يذهب وساوس الشيطان، ويبقي آياته المنزلة، والله عليم ما سبق وما لحق وما ظهر وما بطن، حكيم في صنعه وشرعه وقدره وأمره.

(53) ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ﴾

والله جعل هذا العمل من الشيطان امتحانًا لأهل الريبة والنفاق، ولأهل القلوب القاسية من الكفار الذين لا ينتفعون بالمواعظ، وإن هؤلاء الظالمين من المنافقين والكفار في حرب مستمرة وعداوة دائمة وخلاف شديد لله ولرسوله ﷺ.

(54) ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

وليتيقن أهل العلم النافع الذين لديهم فرقان بين الهدى والضلال أن القرآن هو الحق الذي لا شك فيه، وهو وحي من الله إلى رسوله ﷺ، ولا طريق للشيطان إليهم، فيزدادوا إيمانًا بالله وخشية له، وإن الله وحده هو الذي يهدي عباده المؤمنين إلى طريق الرشد وسبيل الحق، وهو دينه الذي اختاره من بين الأديان وهو الإسلام.

(55) ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾

ولا يزال الكفار في شك من كتاب الله -عز وجل- إلى أن تأتيهم القيامة فجاة وهم على باطلهم، أو يأتيهم عذاب يوم شره دائم لا خير فيه لهم.

(56) ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

الملك والحكم يوم القيامة لله وحده، يفصل بين الأبرار والفجار، فالمؤمنون الصالحون في جنات منعمون خالدون.

(57) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾

والكافرون الجاحدون بواحدنية الله ورســالة الرســول ﷺ لهم عذاب يفضحهم ويخزيهم في نار جهنم.

(58) ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

ومن خرج من وطنه فارًا بدينه في سبيل ربه ثم قتل مجاهدًا، أو مات مؤمنًا فسوف يثيبه الله بنعيم الجنة الذي لا يزول ولا يحول، وهو - سبحانه - خير من يرزق؛ لأن رزقه طيب كثير مبارك دائم، يعطي مع غناء عمن أعطاه.

(59) ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾

ليدخلن عباده المهاجرين والمجاهدين في سبيله مدخلاً يحبونه من العطاء الجزيل والثواب الجميل، والله عالم بمن يخرج لمرضاته، حليم على من عصاه، يمهله ولا يؤاخذه بما جناه.

(60) ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾

ذلك الذي أخبرك الله به من إكرام عباده الصالحين في جنات النعيم، ومن أصاب أذى من ظالم له فقد أذنَ الله له أن يقتصَّ من الظالم بمثل مظلمته، فإن زاد ظلم الظالم فإن الله سوف ينصر المظلوم؛ لأنه لا يجوز أن يعتدي عليه؛

لأنه اقتص لنفسه ممن ظلمه، إن الله يعفو عن المسيء فلا يعاجله بالعقوبة، ويغفر لمن أذنب فلا يؤاخذه بالذنب.. وفي هذا بيان لفضل الله بالعفو والغفران.

(٦١) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾

ذلك الله الذي سن هذه الأحكام العادلة، وهو القدير على كل ما شاء، ومن قدرته أنه يدخل ما نقص من وقت الليل في النهار، ويدخل ما نقص من وقت النهار في الليل، وهو سميع لكل صوت بصير بكل فعل، فالسمع يقابل آية الليل، والبصر يقابل آية النهار.

(٦٢) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾

ذلك بأن الله لا إله غيره، هو المستحق للألوهية وحده، عبادته حق وعبادة ما سواه باطل، فعبادة المشركين لغيره زور وبهتان؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، والله هو العلي على خلقه علو ذات وقدر وقهر، وهو الكبير الذي دونه كل مخلوق، فلا أكبر ولا أعظم منه جل في علاه.

(٦٣) ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

ألم تر أن الله أنزل الغيث من السماء، فإذا وقع على الأرض صارت خضراء بأنواع النبات، إن الله لطيف بخلقه، حيث تكفل برزقهم، فأنزل الماء وهيأ لهم الغذاء، خبير بما ينفعهم فيسَّره لهم بأسهل الطرق.

(٦٤) ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾

لله وحده كل ما في السموات والأرض خلقًا وملكًا وتصرفًا، كل مخلوق تحت سلطانه لا يخرج من ملكه، وهو - سبحانه - غني عما سواه، وما سواه محتاج إليه لا غنًى له عنه، وهو المحمود في كل حال، الذي جمع صفات المحامد وتفرد بالكمال والجلال والجمال.

(٦٥) ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾

ألم تر أن الله ذلَّل المخلوقات من بهائم ودواب ونحوها، وخلق النبات والجماد لمصلحة الإنسان ونفعه، وذلَّل السفن على سطح البحر تسعى بما ينفع الناس من ركوب وتجارة وسفر، والله وحده يمسك السماء حتى لا تسقط على الأرض فتُهْلك من عليها إلا بإذنه تعالى، إن الله بالناس لرؤوف يوصل بره بألطف الأسباب، ويتحبب إلى عباده بأنواع المحاب، رحيم يفيض كرمه على أوليائه فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر.

(٦٦) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾

والله وحده الذي أوجدكم من العدم، ثم يتوفاكم عند حلول آجالكم، ثم يبعثكم من القبور أحياءً لمحاسبتكم، إن الإنسان لجحود بآيات الله، جاحد لنعمه.

(٦٧) ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

لكل أمة من الأمم السابقة جعل الله لهم شريعة يتعبدون الله بها، فلا ينازعك الكفار - أيها النبي - في دين الله الذي أنزل عليك من العقائد والعبادات والأحكام، وادع إلى وحدانية الله وطاعته وإخلاص العبادة له، إنك لعلى طريق بيِّن واضح قويم لا اعوجاج فيه.

(٦٨) ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

فإن خاصمك الكفار وخالفوك فيما أنزل عليك فدع جدلهم وقل: الله أعلم بتكذيبكم، وسوف يجازيكم؛ لأن المصر المعاند لا يُجادَل؛ لأنه لا نفع في مجادلته.

(٦٩) ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

الله وحده يفصل بين المسلمين والكفار يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

(٧٠) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

ألم تعلم أن الله قد أحاط علمًا بكل ما في السموات الأرض، قد سُطِّر علمُ ذلك في اللوح المحفوظ، إن علم ذلك على الله هين سهل لا يثقله ولا يعجزه سبحانه.

(٧١) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

ويستمر الكفار على عبادة غير الله مع أنهم مفترون على الله بهذه العبادة، فلم يأت دليل قاطع عن طريق الوحي بصحة هذه العبادة، وليس لهم علم بهذا الافتراء، وإنما هو تقليد أعمى للآباء الجهلاء الضُّلَّال، فإذا أراد الله عذابهم فليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب.

(٧٢) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

وإذا قُرئ القرآن على الكفار شاهدت الكراهة والعبوس على وجوههم، يَهُمُّون بضرب من يقرأ عليهم القرآن؛ لشدة بغضهم للحق، قل لهم - أيها النبي -: ألا أخبركم بما هو أشد كراهة إليكم من سماع الحق؟ هي نار جهنم التي هيأها الله لكم في الآخرة، ولبئس المرجع والمعاد الذي تعودون إليه.

(٧٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾

يا أيها الناس: ضرب الله مثلاً فأنصتوا لسماعه وتدبروا معناه، إن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله لو اجتمعت على خلق ذبابةٍ مع حقارتها ما استطاعت، فكيف بما هو أعظم خلقًا من الذبابة؟! وهي لا تستطيع أن تعيد شيئًا أخذه الذباب، وهذا غاية العجز، فالأصنام والذباب ضعيفان، ضعف الطالب الذي هو المعبود من دون الله أن يسترد ما أخذه الذباب، وضعف المطلوب الذي هو الذباب، فكيف تعبدون هذه الأصنام وهي بهذا الضعف والهوان؟!

(٧٤) ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

هؤلاء الكفار لم يَقْدُروا الله حق تقديره من المحبة له والخوف منه والذل له، بل أشركوا معه غيره، وهو القوي الذي لا يغالب، قهر غيره بجبروته، العزيز الذي تفرَّد بالعظمة وتوحَّد بالكبرياء والمجد.

(٧٥) ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

والله يختار من ملائكته رسلاً إلى أنبيائه ويختار من عباده رسلاً إلى خلقه، وهو سميع بكل قول، بصير بكل فعل، فلهذا أحسن اختياره واصطفاءه لرسله.

(٧٦) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

يعلم - سبحانه - ما بين أيدي ملائكته ورسله قبل خلقهم، ويعلم ما خلفهم بعد فنائهم، وإليه منتهى كل أمر ومرجع كل مخلوق ومعاد كل شيء.

(٧٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ ۩ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون: بالله وبرسوله، اركعوا واسجدوا لله في صلاتكم، وأخلصوا له العبادة وحده، ولا تشركوا به شيئًا، وقدموا العمل النافع لأنفسكم، وهو كل نفع يرضاه الله؛ لتنالوا سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

٧٨ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾

وجاهدوا أعداء الله بكل أنواع الجهاد كجهاد النفس والمال واللسان والقلم، قاصدين وجهه وحده؛ لأنه الذي اختاركم لشرف حمل الرسالة، ويسَّر لكم شريعته، حيث جعلها سمحةً ليس فيها ضيق ولا مشقة ولا عنت في عقائدها وأحكامها وأخلاقها، بل سهلة ميسَّرة وهي ملة إبراهيم ﷺ، وقد سبق أن سماكم الله المسلمين في الكتب المتقدمة وفي القرآن، وقد شرَّفكم بهذه المنزلة ليكون الرسول ﷺ شاهدًا عليكم بأنه بلَّغ الرسالة إليكم، وتكونوا أنتم شهداء على جميع الأمم أن رسلهم قد بلَّغوهم رسالة الله، فقدروا هذه النعمة حق قدرها، واشكروا الله عليها وقوموا بالدين الخالص خير قيام من إقامة الصلاة على الوجه الذي يحبه الله خير قيام، وإخراج الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم مع التوكل على الله والاعتصام به والاعتماد عليه، وتفويض الأمر إليه، فهو نعم المولى لمن تولاه، ينصره ويجيره ويستره، وهو الناصر لأوليائه، يدلهم على الهدى ويجنبهم الردى، ويدفع عنهم الأذى.

مكية

ترتيبها
٢٣

سورة المؤمنون

آياتها
١١٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

قد فاز من آمن بالله وبرسوله ﷺ وعمل بما شرعه الله واجتنب ما نهى عنه.

٢ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾

وهم يؤدون الصلاة كما شُرعت على أكمل وجه، تخشع قلوبهم في الصلاة، وتسكن جوارحهم من حلاوة المناجاة.

٣ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾

وهم يتركون كل ما لا نفع فيه في الدنيا والآخرة من الأقوال والأفعال.

٤ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾

والذين يؤدون زكاة أموالهم فيطهرون أنفسهم وأخلاقهم بدفعها لمستحقيها.

٥ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾

والذين يحفظون فروجهم مما حرَّمه الله من الفواحش والمنكرات.

٦ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾

إلا على نسائهم وإمائهم فلا إثم عليهم ولا حرج من الاستمتاع بهن؛ لأنهن حلال لهم.

٧ ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾

فمن أراد الاستمتاع بغير زوجته أو جاريته فهو من المتعدين لحدود الله، المتُعرِّضين لغضب الله.

٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾

والذين يؤدون الأمانات ويوفون بالعهود والعقود فلا يخونون ولا يغدرون.

٩ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾

والذين يؤدون الصلاة على أكمل وجه كما شُرعت في هيئاتها وأوقاتها ولا يضيعونها.

١٠ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾

هؤلاء يسكنون جنات النعيم خالدين فيها أبدًا.

١١ ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

سكناهم أعلى درجات الجنة وأرفع منازلها وأوسطها في نعيم لا يزول ولا يحول.

١٢ ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾

ولقد خلق الله آدم وصوَّره من طين أخذه من تراب الأرض.

١٣ ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴾

ثم جعل الله ذريته متناسلين من مني الرجل والمرأة، فتوالدوا وتكاثروا.

١٤ ﴿ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾

ثم خلق الله النطفة علقة وهو الدم الأحمر، ثم جعل من العلقة بعد أربعين يومًا مضغةً، وهي قطعة لحم على قدر اللقمة الصغيرة، ثم جعل - سبحانه - المضغة عظامًا، ثم كسا العظام لحمًا، ثم جعله الله خلقًا آخر حيث نفخ فيه الروح؛ فتبارك الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

١٥ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾

ثم إنكم - أيها الناس - بعد بقائكم في حياتكم الدنيا وانتهاء الآجال ميتون لا محالة.

١٦ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾

ثم إنكم بعد موتكم وبقائكم في قبوركم تُبعثون للحساب في عرصات القيامة.

١٧ ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾

ولقد خلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض وما غفل عن الخليقة، بل أحصاهم واطَّلع على أعمالهم لا تخفى منهم عليه خافية.

١٨ ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾

وأنزل الله من السماء بقدر حاجة الخليقة ماءً مباركًا، وجعل لهم مستقرًا في الآبار والعيون، وهو - سبحانه - قادرٌ على أن يذهب بهذا الماء، بأن يجعله غائرًا في الأرض أو ملحًا أُجاجًا أو ينتهي من أماكنه.

١٩ ﴿ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾

فخلق الله بالماء حدائق النخيل وبساتين الأعناب، فيها فواكه بأصناف كثيرة وأشكال عديدة وأنواع مختلفة تأكلون منها.

٢٠ ﴿ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴾

وخلق الله شجرة الزيتون وأنبتها حول جبل طور سيناء، يؤخذ منها الزيت فيؤتدم به ويدهن منه.

٢١ ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾

وإن لكم - أيها العباد - في خلق الإبل والبقر والغنم لعبرة تعتبرون بها، وتتفكرون فيما يسقيكم الله مما في بطونها من اللبن، ولكم منافع كثيرة منها: الصوف والجلود والوبر والركوب وحمل الأثقال، وأكل لحمها.

٢٢ ﴿ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴾

وتركبون وتحملون أمتعتكم على الإبل والسفن في البر والبحر.

٢٣ ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

ولقد أرسل الله نوحًا إلى قومه بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به وحذّرهم من عذاب الله وأنذرهم بطشه.

٢٤ ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

فكذب نوحًا ساداتُ قومه وقالوا للعامة: إن نوحًا إنسان مخلوق مثلكم ليس له فضل عليكم، وإنما هو يريد أن يتميز بهذه الدعوة؛ ليكون شريفًا فيكم، ولو أراد الله أن يبعث إليكم رسولاً لجعله من الملائكة، لقد أتى نوح بشيء غريب جديد ما سمعنا بمثله فيمن سبق من الأمم الماضية.

٢٥ ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾

ونوح ليس إلا رجلاً أصابه مس من الجن، فانتظروا حتى يفيق من جنونه فيترك دعوته أو يلقى منيته فترتاحوا منه.

٢٦ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾

ودعا نوح ربَّه أن ينصره على قومه؛ لأنهم أنكروا رسالته وكذبوا دعوته وأيس من استجابتهم.

٢٧ ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾

فأوحى الله إلى نوح أن يصنع سفينة عظيمة بأمره - سبحانه - ومعونته وحفظه، فإذا حلَّ العذاب بأمته وفار الماء من تنور النار فاحمل في السفينة من كل جنس من الأحياء ذكرًا وأنثى؛ ليبقى أصل النسل، واحمل فيها كذلك المؤمنين من أهلك، أما الكفرة الفجرة فلا تشفع فيهم، فإن الله مهلكهم بالغرق، وقد حق عليهم العذاب.

٢٨ ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فإذا ارتفعت على السفينة أنت ومن آمن معك ونجوتم من الغرق فقل: الحمد لله الذي نجانا من القوم الكافرين من أذاهم ومما أصابهم.

٢٩ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴾

وقل: يا ربِّ سهِّل لي نزولاً مباركًا آمنًا وأنت خير المنزلين؛ لأن الله يختار لعباده أحسن المنازل، وإذا قالها العبد عند نزوله مكانًا فحسنٌ.

٣٠ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴾

إن في نصرة الله لأوليائه وإهلاك أعدائه براهين ظاهرة على صدق دعوة الرسل وقدرة الله -سبحانه - والله يمتحن العباد بإرسال الرسل، فمن آمن أثابه، ومن كفر عاقبه.

٣١ ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾

ثم أنشأ الله من بعد هلاك قوم نوح قومًا آخرين، وهم قوم عاد.

٣٢ ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

فأرسل الله هودًا ﷺ إلى قومه عاد، فقال لهم: اعبدوا الله وحده وأخلصوا له الطاعة، ولا تشركوا به شيئًا، ألا تحذرون عذابه وتخافون عقابه؟

٣٣ ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾

وقال السادة من قوم هود الذين كفروا بالله وأنكروا البعث بعد الموت وأعطاهم المال والجاه: إن هذا الذي يدعوكم إلى التوحيد ما هو إلا إنسان مثلكم يأكل الطعام ويشرب الماء فأيّ ميزة له؟

(٣٤) ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾

وإذا صدقتم إنسانًا مثلكم إنكم لفي ضلال وجهل بتوحيدكم الله وترك آلهتكم.

(٣٥) ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾

كيف يكون صحيحًا ما يقوله هود من أنكم بعد الفناء وتحول أجسامكم في القبور ترابًا وعظامًا بالية تعودون أحياء من جديد، هذا أمر بعيد.

(٣٦) ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾

ما أبعد إعادتكم إلى الحياة بعد الموت كما وعدكم هود، وهذا من المستحيل.

(٣٧) ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾

ليس الأمر إلا حياة واحدة، يموت آباؤنا ويحيا أبناؤنا ولن نبعث من جديد.

(٣٨) ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾

ما هو إلا إنسان اختلق كذبًا على الله، ولن نصدق ما قاله أبدًا، صان الله هودًا ﷺ عن قولهم.

(٣٩) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾

فدعا هود على عاد قائلاً: ربِّ انصرني عليهم بإهلاكهم ونجِّني ومن معي، فقد كذبوا رسولك وكفروا بك.

(٤٠) ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾

فأجاب الله هودًا بأن عليه أن يصبر قليلاً من الزمن فسينـزل العذاب بقومه ويندمون على كفرهم.

(٤١) ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وبعد قليل جاءتهم صيحة العذاب الشديدة، فأبادهم الله ودمَّرهم جميعًا وأصبحوا كمخلفات السيل التي تظهر على سطح الماء، فهلاكًا وسحقًا لهؤلاء المكذبين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله.

(٤٢) ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾

ثم خلق الله بعد قوم هود أقوامًا آخرين، كقوم لوط وشعيب وأيوب ويونس عليهم السلام.

(٤٣) ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾

لا يتقدم قوم من هؤلاء الأقوام المكذبين الأجل المسمى الذي وقَّته الله لهلاكهم ولا يتأخرون عن هذا الأجل.

(٤٤) ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

ثم أرسل الله الرسل يتلو بعضهم بعضًا كلما دعا رسول قومه إلى التوحيد كذبوه؛ فأتبع الله بعضهم بعضًا بالهلاك والعذاب، ولم يبق إلا أخبارهم وتاريخهم، وصاروا أحاديث سَمَرٍ في المجالس لمن بعدهم، فهلاكًا وسحقًا لمن كفر بالله وكذَّب رسله.

(٤٥) ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾

ثم أرسل الله موسى وأخاه هارون بآياته التسع، وهي: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، برهانًا واضحًا يقهر النفوس فتنقاد له قلوب المؤمنين ويقمع الله به المكذبين.

(٤٦) ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾

أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقومه في مصر، فاستكبروا عن الحق وكذبوا بالصدق وظلموا العباد وأفسدوا في البلاد.

(٤٧) ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾

فقال فرعون وقومه: كيف نصدق رجلين مثلنا في البشرية مع العلم أن قوم موسى وهارون وهم بنو إسرائيل عبيد عندنا وخدم لنا.

(٤٨) ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴾

فكذب فرعون وقومه موسى وهارون فدمَّرهم الله بالغرق في البحر.

(٤٩) ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾

ولقد أكرم الله موسى بكتاب التوراة فيه هداية وبيان لمن اهتدى به.

(٥٠) ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴾

وجعل الله عيسى ابن مريم وأمه دليلاً واضحًا وبرهانًا ساطعًا على قدرة الله؛ لأنه خلقه من غير أب، وجعل له ولأمه منـزلاً عاليًا من الأرض سهلاً للاستقرار والسكنى في تربة طيبة وماء عذب جارٍ.

(٥١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾

يا أيها الرسل: كلوا من رزق الله الطيب الحلال، واجتنبوا الخبيث الحرام، واعملوا الأعمال الصالحة المشروعة، واتركوا البدع والمعاصي، إن الله يعلم عمل كل عامل لا يخفى عليه شيء، وهذا الأمر للرسل - عليهم السلام - ولأتباعهم إلى يوم القيامة.

(٥٢) ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾

وإن ملتكم - أيها الأنبياء - هي ملة الإسلام التي شرعها ورضيها، وربكم واحد تقدست أسماؤه، فاتقوه بعمل طاعته وترك معصيته.

(٥٣) ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾

فاختلفت الطوائف في الدين، وتوزعت إلى جماعات وأحزاب، واخترعوا أديانًا غير ما شرعه الله، كل جماعة معجبة بمذهبها ترى أنه الحق وما سواه الباطل، وتعادي وتوالي عليه وتتعصب له، وفي هذا تحذير من الاختلاف في الدين والافتراق في الملة.

(٥٤) ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

فدعهم - أيها النبي - في غوايتهم وبعدهم عن الهدى حتى ينـزل الله عليهم العذاب.

(٥٥) ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾

أيحسب الكفار أنما أعطاهم الواحد القهار من المال والأبناء لمنـزلتهم عند الله وحبه لهم.

(٥٦) ﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾

إنما قد عجل الله لهم هذا المتاع امتحانًا لهم واستدراجًا، ولكنهم لا يعلمون هذا المكر الخفي.

(٥٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾

إن المؤمنين الذين يخافون الله ويراقبونه ويحذرون غضبه ويخشون عذابه.

(٥٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾

والذين يوقنون بآيات الله المنـزلة في كتابه والمعروضة في الكون.

(٥٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾

والذين أخلصوا الطاعة لله ولم يشركوا في العبادة معه أحدًا واجتنبوا الرياء والسمعة.

(٦٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾

والذين يعملون الصالحات ويسارعون في الخيرات وهم مع ذلك خائفون ألا تُقْبلَ منهم أو أن تُرد عليهم فهم معتمدون على رحمة الله لا على أعمالهم، ويحذرون ألا تنجيهم أعمالهم يوم لقاء الله تعالى.

(٦١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾

هؤلاء الأبرار العاملون للصالحات عادتهم المبادرة إلى كل خير، والمسارعة إلى كل بر.

(٦٢) ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

والله لا يكلِّف إنسانًا فوق طاقته، بل يوجب عليه من العمل ما يستطيع القيام به، وأعمال العباد كلها مسجلة عند الله في كتاب ينطق بالحق عليهم ولا يظلمهم شيئًا.

(٦٣) ﴿ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾

لكن قلوب الفجار في غشاوة وعمى عن هذا القرآن العظيم، ولهم مع شركهم أفعال قبيحة، يمد الله لهم في الأعمار ليتكثَّروا من الأوزار؛ لينالوا غضب الواحد القهار.

(٦٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾

حتى إذا أهلك الله أهل النعيم والبذخ بذنوبهم إذا هم يصيحون من شدة العذاب، مستغيثين متضرعين.

(٦٥) ﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾

فيقال لهؤلاء الأشرار: لا تصرخوا من غضب الملك الجبار، فلن تدفعوا عن أنفسكم العذاب، ولن يدفعه عنكم غيركم، فلا قوة من أنفسكم ولا ناصر لكم من سواكم.

(٦٦) ﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴾

قد كانت آيات القرآن تقرأ عليكم في الدنيا لتصدقوا بها وتهتدوا بهداها، فكنتم تعرضون عن سماعها وتأبون العمل بها وتصدون غيركم عن سماعها.

(٦٧) ﴿ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴾

تتكبرون على العباد وتكفرون بيوم المعاد، وتفتخرون بالمسجد الحرام على بقية العرب، وأنكم أفضل الناس بسببه، مع العلم أنكم تتسامرون حول البيت بالفاحش من الكلام.

(٦٨) ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

لماذا لم يتدبروا آيات القرآن ليعلموا أنها من عند الله، أم أن الذي صدهم عن الإيمان بالله أنه جاءتهم رسالة من عند الله لم يسبق لآبائهم الأولين أن أتاهم مثلها فأنكروها.

(٦٩) ﴿ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

أم أن الذي حملهم على تكذيب الرسول ﷺ أنه غير معروف عندهم، فهم ينكرون اسمه ونسبه وصدقه وأمانته، وهذا غير صحيح.

(٧٠) ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

أم حملهم على الكفر زعمهم أن الرسول ﷺ مجنون؟ - صانه الله عن ذلك - بل كذبوا والله، إنما جاءهم بالهداية والحكمة والرشد والفلاح، ولكن أكثرهم يكرهون الحق حسدًا وعنادًا.

(٧١) ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾

ولو أنزل الله الوحي وفْق أهواء الكفار لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ لأنهم أهل باطل وزور، بل إن الله أنزل القرآن شرفًا وعزًا لهذه الأمة، ولكن الكفار عن هذا الشرف معرضون.

(٧٢) ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

هل ردَّ الكفار عن الإيمان أنك - أيها الرسول - تسألهم أجرةً من أموالهم على رسالتك فبخلوا بهذه الأجرة؟ وأنت لم تفعل ذلك، فخزائن العطاء والأرزاق والثواب عند الله وحده، وهو خير الرازقين، يرزق من سأل ومن لم يسأل، ويعطي بلا مقابل ولا ينتهي عطاؤه.

(٧٣) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

وإنك - أيها النبي - لتدل الأمة على دين قويم وهدى مستقيم، هو دين الإسلام العظيم.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾

وإن المكذبين بيوم الدين ولا يعملون له لمائلون عن الهدى، منحرفون عن الرشاد.

(٧٥) ﴿۞وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

ولو رحم الله الكفار وأبدلهم بعد القحط والجدب الخير والأمطار؛ لاستمروا في العناد والفساد، وهم يتخبطون في الضلالة ويتحيرون من الجهالة.

(٧٦) ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾

ولقد نوَّع الله عليهم أصناف العقوبات وأشكال النكبات، فما خضعوا للرب وما تابوا من الذنب.

(٧٧) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾

حتى إذا فتح الله على أعدائه في الآخرة باب العذاب الأليم والعقاب المقيم أيسوا من رحمة الله، وأصبحوا في حيرة لا يدرون ما المخرج منها، فاختلط عليهم أمرهم.

(٧٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾

والله وحده الذي خلق لكم السمع لتسمعوا به الأصوات، وخلق الأبصار لتشاهدوا بها المرئيات، وخلق الأفئدة لتفهموا بها المعلومات، ومع هذه النعم المتواليات والأيادي المترادفات فشكركم قليل وعبادتكم قليلة!!

(٧٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾

والله وحده خالق البشر على وجه الأرض، وإليه يعود الجميع للحساب.

(٨٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

وهو - سبحانه - الذي أوجد من العدم، ويميت بعد الحياة، ويبعث بعد الموت، وله تعاقب الليل بظلامه والنهار بضيائه مع اختلاف الأوقات، أفلا تعقلون عظمة الله وقدرته؟!

(٨١) ﴿بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾

لكن أعداء الله كذَّبوا رسول الله وأنكروا كتاب الله، وأجابوا بجواب الكفار نفسه من قبلهم.

(٨٢) ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾

وقال الكفار منكرين: هل يُعقل أنا إذا متنا ودُفِنا وتفتت أجسامنا في الأرض، وأصبحت عظامنا بالية أن نعود أحياءً بعد الوفاة؟! هذا لا يُعقل أبدًا.

(٨٣) ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

لقد كُرر هذا الحديث على آبائنا من قبل مثلما تقوله لنا يا محمد، فلم يظهر لنا صدقه، ما هذا الكلام إلا خرافات الأمم السابقة.

٨٤ ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قل لهم - أيها النبي -: من الذي خلق الأرض وله ملكها وملك من فيها، وهو رازق الجميع ومدبر الكل إن كان عندكم علم؟

٨٥ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

سوف يشهدون حقًّا أن خالقها ومالكها هو الله وحده، فقل لهم - أيها النبي -: أفليس في هذا عِبْرة ودليل على أن الله قادر على الإحياء بعد الإماتة؟

٨٦ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: من هو الخالق والمالك والمدبر والمتصرف في السموات السبع والعرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات وأعلاها؟

٨٧ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

سوف يشهدون أنه الله وحده، فقل لهم: أفلا تخافون عذابه إذا عبدتم غيره؟ فمع كثرة نعمه لا ترجونه، ومع قوة بأسه لا تخافونه.

٨٨ ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قل - أيها النبي لهم -: مَن المالك والمدبر والمصرف لكل شيء؟ ومَنْ بيده الخزائن ومقاليد الأمور؟ ومَن الذي يجير من استجار به، ولا يستطيع أحد أن يجير أحدًا أراده الله بسوء إن كان عندكم علم به؟ لكنكم جهلتم قدره فعصيتم أمره وتركتم شكره.

٨٩ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

فسوف يشهد الكفار بأن هذا الملك لله وحده، فاسألهم: كيف سُلبت عقولكم وذهب تفكيركم وصُرفتم عن توحيد الله وعن الإيمان برسوله وبكتابه وباليوم الآخر، كأنه أصابكم سحر.

٩٠ ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

بل أتى الله الكفار بالحق المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهم كاذبون في شركهم بالله وإنكارهم يوم الدين.

٩١ ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

الله وحده ليس له ولد، فلم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وليس معه إله غيره لا شريك له، ولا رب سواه، فلو كان هناك أكثر من إله لانفرد كل إله بمخلوقاته، ولحصل بينهم صراع وتضاد كما يحصل بين سلاطين الأرض، حينها يختل نظام الكون، وتضطرب أحوال المعمورة. فتقدَّس الله وتنزَّه وتعالى عما نسبه إليه أعداؤه من الولد والشريك.

٩٢ ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

والله يعلم ما غاب عن العيون وما تشاهده، لا تخفى عليه خافية فتنزَّه عن أن يكون له شريك، لا إله إلا هو.

٩٣ ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴾

قل - أيها الرسول -: ربِّ إما تريني في الكفار ما وعدتهم به من العذاب وما أنذرتهم من عقاب.

٩٤ ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ربِّ فلا تهلكني إذا أهلكت الكفار، وسلِّمني من عذابك وغضبك، فلا تجمعني في العقوبة مع الأشرار، لكن اجعلني ممن رضيت عنهم مع الأبرار.

٩٥ ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾

وإن الله قادر على أن يريك - أيها النبي - ما وعد الكفار به من العذاب في الدنيا.

٩٦ ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

لا تقابل - أيها النبي - السيئة من الناس بسيئة من عندك، لكن اصبر واحلم واصفح وقابل الإساءة بالإحسان؛ لتنال رحمة علام الغيوب، مع تكفير الذنوب وإقبال القلوب، فالله أعلم وحده بما يصفه الكفار من الفساد والعناد وسيعاقبهم عليه.

٩٧ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾

وقل - أيها النبي -: أحتمي بك يا رب من وساوس الشياطين وإغوائها، ودعاويها المغرية إلى الذنب والفاحشة والمنكر.

٩٨ ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

وأحتمي بك يا ربِّ أن يحضر الشياطين شيئًا من أموري فيفسدوها عليَّ.

٩٩ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾

إن الكافر إذا أشرف على الموت وأبصر ما أمامه من الأهوال قال يا ربِّ: أعدني إلى الدنيا.

١٠٠ ﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

عسى أن أتوب وأستدرك ما فات مني من إيمان وصلاح، فيُقال له: ليس ذلك لك قد فات الأوان، إنما هذه الأمنية الباطلة مجرد كلمة يقولها لا نفع فيها له، وبينه وبين الرجوع إلى الدنيا حاجز من الزمن يعذب فيه وهو عذاب القبر، ولن يعود إلى الدنيا أبدًا إلى يوم الحساب.

١٠١ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

فإذا قامت القيامة ونفخ الملك في القرن وخرج الناس من قبورهم فلا تنفع الأحساب ولا تفيد الأنساب والتفاخر بها، فهذا موقف حسنات وسيئات لا دعاوى باطلات، وفي الموقف لا يسأل أحدٌ أحدًا؛ لأن كلاً منهم له شأن يغنيه.

١٠٢ ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

فمن كثرت حسناته من الأعمال الصالحة ووضعت في كفة الميزان يوم الحساب ورجحت بالسيئات، فقد فاز بالنعيم الأبدي والخلود السرمدي.

١٠٣ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

ومن قلَّت حسناته في الميزان؛ لكثرة العصيان واستوجب غضب الديان فقد باء بالخسران والخلود في النيران.

١٠٤ ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾

تحرق النار وجوه الكفار من شدة الحريق والاستعار، وقد عبست وجوههم وأظلمت طلعاتهم، واسود محياهم، وقلصت شفاههم، وبرزت أسنانهم.

١٠٥ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

يقال للكفار يوم القيامة: ألم تكن آيات الله في كتابه تُقرأ عليكم في الحياة الدنيا فكذبتم بها؟

١٠٦ ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾

لما قامت عليهم الحجة وتيقنوا أنهم هلكوا قالوا: ربنا غلبت علينا معاصينا وذنوبنا المقدرة علينا منك، وكنا في انحراف عن الهدى والرشاد.

(١٠٧) ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾

ربنا أنقذنا من النار لنعود إلى الدنيا ونهتدي، فإن رجعنا إلى الغواية فقد ظلمنا ووجب علينا العذاب.

(١٠٨) ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

فقال الله لهم مبكتًا: ابقوا في النار أذلاء حقارًا ولا تخاطبوني، فأيسوا عندها من رحمة أرحم الراحمين.

(١٠٩) ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

إنه كانت جماعة من عباد الله المؤمنين يدعون ربهم أن يستر خطاياهم، وأن يغفر ذنوبهم، وأن يرحمهم برحمته وهو خير من رحم.

(١١٠) ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾

فجعلتم الاستهزاء بالمؤمنين شغلكم الشاغل حتى نسيتم ذكر الله وعبادته، وبقيتم على الكفر، وكنتم تضحكون منهم ساخرين مستهزئين.

(١١١) ﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾

إن الله أثاب هذه الطائفة من عباده المؤمنين بجنات النعيم؛ لأنهم صبروا على أداء الطاعة واجتناب المعصية.

(١١٢) ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾

ويُسأل الفجار في النار: كم عشتم في الحياة الدنيا من الأعوام؟ ومع ذلك أسرفتم في الآثام.

(١١٣) ﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴾

فأجابوا وهم ذاهلون في دهشة من شدة الهول: عشنا في الدنيا يومًا واحدًا أو بعض يوم؛ فاسأل الحُسَّاب الذين يعدون الشهور والأيام فهم أعلم منا.

(١١٤) ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

قال لهم: ما بقيتم في الدنيا إلا زمنًا يسيرًا، فلو صبرتم على أداء الطاعة وترك المعصية لفزتم بالرضوان والجنان، لو كان عندكم علم نافع يدلكم على الصواب؛ لأن عمر الدنيا قصير بالنسبة إلى الآخرة.

(١١٥) ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾

أظننتم - أيها العباد - أن الله خلقكم مهملين لا أمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، وأنكم لا تعودون إلى الله ليجازي كل عامل بما عمل.

(١١٦) ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾

فتنزَّه الله وتقدَّس أن يخلق خلقًا للهو والعبث، فما خلق الخلق إلا بالحق؛ لحكمة عظيمة هي عبادته - تعالى - لا إله غيره ولا ربَّ سواه، رب العرش الكريم.

(١١٧) ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

ومن يعبد مع الله إلهًا غيره لا دليل له على استحقاق هذا الإله للعبادة مع الله، فجزاؤه على فعله القبيح العذاب الشديد من ربِّه، إن الكافر لا ينجو ولا يفلح يوم القيامة.

(١١٨) ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

وادعُ ربَّك وقل: رب اغفر الذنب وتجاوز عن الخطيئة، وارحم الحال يا ذا الجلال؛ لأنك خير الراحمين، تقبل التوبة وتعفو عن المذنب.

مدنية

ترتيبها ٢٤

سورة النور

آياتها ٦٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

هذه سورة عظيمة كريمة أنزلها الله بالحق، وأوجب العمل بأحكامها وأنزل فيها دلالات واضحات؛ لعلكم - أيها المؤمنون - تتفكرون في معانيها فتعملوا بأحكامها.

(٢) ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

حكم الزانية والزاني اللذين لم يسبق لهما زواج صحيح هو عقوبة كل منهما مئة جلدة بالسوط، وجاء في الحديث الصحيح: التغريب مدة عام مع الجلد، ولا تحملكم - أيها المؤمنون - الرحمة بالزانيين على ترك إقامة الحد إن كنتم مصدقين بآيات الله تنفذون أحكام الله، وليحضر إقامة الحد جماعة من المؤمنين للتشنيع والزجر والتعزير.

(٣) ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

الزاني لا يتزوج إلا بزانية أو مشركة لا تعترف بحرمة الزنا، والزانية لا تتزوج إلا بزانٍ أو مشرك لا يعترف بحرمة الزنا، وحرَّم الله هذا النوع من الزواج على المؤمنين، فيحرمُ الزواج من الزانية أو تزويج الزاني حتى يتوبا.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

والذين يتهمون العفيفات وليس معهم شهود عدول أربعة على صدق ما قالوا فاجلدوا كل واحد حدًّ القذف ثمانين جلدة، ولا تقبلوا شهادتهم بعدها أبدًا؛ لأنهم قد عُرف عنهم الكذب، وهم خارجون عن طاعة الله.

(٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

غير أن من تاب إلى الله من قذف المحصنات وندم على ما فعل وعاد عن اتهامه وأصلح ما أفسد، فإن الله يغفر ذنبه ويستر عيبه؛ لأن الله يستر الخطيئة ويتجاوز عن السيئة.

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

والرجال الذين يتهمون زوجاتهم بالزنا وليس معهم شهداء عدول على اتهامهم لزوجاتهم بالزنا، فعلى الزوج منهم أن يشهد أمام القاضي أربع مرات بقوله: «أشهد أني صادق فيما رميتها به من الزنا».

(٧) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

ويزيد في الشهادة الخامسة ويدعو على نفسه أن لعنة الله عليه إن كان كاذبًا.

(٨) ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

وبشهادة الزوج على زوجته بالزنا تستوجب الحد وهو: الرجم حتى الموت، ولا يدفع عنها هذا الحد إلا أن تشهد أربع شهادات بالله إن زوجي كاذب في اتهامه لي بالزنا.

(٩) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

وتزيد في الشهادة الخامسة بأن تقول: «أن غَضَبَ الله عليّ إن كان صادقًا في اتهامه لي بالزنا»، وعندها يُفرق بين الزوج والزوجة وجوبًا.

(١٠) ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

ولولا أن الله تفضل عليكم - أيها المؤمنون - بهذه الشريعة وهذه الأحكام للأزواج والزوجات لأوقع الله بالكاذب من المتلاعنين ما دعا به على نفسه، والله يتوب على من تاب من عباده مهما أذنب، وهو - سبحانه - حكيم في شرعه وصنعه وتدبيره وتقديره.

(١١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

إن الذين جاؤوا بالفرية الشنعاء وهو اتهام أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سماوات (عائشة زوجة الرسول ﷺ في الدنيا والآخرة - رضي الله عنها وعن أبيها - اتهموها بالفاحشة وهم طائفة من المنافقين ومرضى القلوب، فلا تظنوا - أيها المؤمنون - أن قولهم شرٌّ لكم، بل هو خير لكم من تبرئة أم المؤمنين وطهارتها والثناء عليها ومعرفة العدو من الصديق، وظهور المنافقين ومرضى القلوب وغير ذلك من الحِكَم العظيمة، فلكل إنسان تحدَّث بهذه التهمة نصيب من الإثم، والذي تحمَّل أكثر الذنب والجرم هو رأس المنافقين عدو الله عبدالله بن أبي بن سلول عليه لعنة الله، له عذاب شديد في نار جهنم، وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

(١٢) ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾

لماذا لا يظن المؤمنون والمؤمنات بعضهم ببعض خيرًا عند سماع هذه التهمة الشنيعة والفرية القبيحة، وهو أن الأصل في المؤمن والمؤمنة السلامة والبراءة من ذلك، والواجب أنهم قالوا: هذا كذب ظاهر وافتراء واضح على أمِّنا عائشة رضي الله عنها.

(١٣) ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾

لماذا لم يأت هؤلاء القاذفون الآثمون بأربعة شهداء عدول؟ ما دام أنهم لم يأتوا بالشهود، فهم كذبة فجرة عند الله.

(١٤) ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ولولا أن الله تفضل عليكم بمغفرته ورحمته وستره فلم يعجِّل لكم العذاب بل تاب على من تاب؛ لنزل بكم عذابه الشديد بسبب خوضكم وتحدثكم في هذا الإفك المبين.

(١٥) ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴾

حين تتلقفون الكذب بألسنتكم وتقولونه بأفواهكم وهو قول باطل ولا علم لكم به ولا دليل عليه، وقد حُرِّم عليكم التحدث بالباطل والقول بلا علم، وتظنون أن هذا العمل شيء سهل يسير ولكنه عند الله عظيم كبير، وفي هذا تحريم إشاعة الزور والتكلم بالتهمة.

(١٦) ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴾

لماذا لم تقولوا عند سماع هذا الزور والبهتان: لا يجوز لنا التحدث بهذا الكذب وهذه التهمة في حق زوجة نبينا ﷺ وأم المؤمنين - رضي الله عنها - فهو إثم عظيم وجُرم كبير؟

(١٧) ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

يحذِّركم الله وينهاكم أن يقع منكم مثل هذا العمل من الاتهام الكاذب والزور المبين إن كنتم مؤمنين بالله حقًّا.

(١٨) ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

والله يبين لكم آياته التي فيها صلاحكم واستقامة حالكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة، والله عليم بأعمالكم وأقوالكم، حكيم فيما شرع وصنع ودبَّر وقدَّر.

(١٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

إن الذين يحبون انتشار الفاحشة بين المسلمين لهم في الدنيا عقوبة إقامة حد القذف عليهم وغيرها من مصائب الدنيا، ولهم عند الله في الآخرة عذاب النار إن لم يتوبوا، والله يعلم كذبهم وأنتم لا تعلمون ذلك، ومطلع على ما أسرُّوا وأخفوا وأنتم لا تدرون به.

(٢٠) ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾

ولولا أن الله تفضَّل على مَنْ وقع منه حديث في مسألة الإفك فرحم ولطف - سبحانه - لعاجله بالعقوبة الشديدة، ولكنه - سبحانه - أمهل وشرع الحد على القاذف وقَبِلَ توبة من تاب.

(٢١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾

يا أيها الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله، لا تقتدوا بالشيطان وتسلكوا سبيله، ومن يسلك سبيل الشيطان فإن من عادته أنه يأمر بقبيح الأفعال ومنكرات الأعمال، ولولا أن الله تفضَّل عليكم وأحسن بكم ورحمكم ما طهَّر منكم أحدًا أبدًا من دنس الذنب ورجس الخطيئة، ولكن الله بفضله يطهِّر من أراد من عباده، وهو سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم، سمع الأصوات وعلم النيات.

(٢٢) ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

ولا يُقْسِم أهل الإحسان في الدِّين والسعة في الدنيا على حرمان القرابة والمحتاجين والمهاجرين، وليغفروا زلَّاتهم ولا يؤاخذوهم بعقوبة، ألا تريدون أن يتجاوز الله عنكم؟ فتجاوزوا عنهم، والله غفور لزلات العباد رحيم بهم، يقبل توبة من عاد، وفيه الحلم على من أساء، والغفران لمن أخطأ.

(٢٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

إن الذين يقذفون بالزنا العفيفات البريئات المؤمنات الغافلات اللاتي لم يجر ذكر الفاحشة في قلوبهن، هؤلاء طردهم الله من رحمته، وأوجب لهم العذاب الشديد في نار جهنم، فمن اتهم أو سبَّ إحدى زوجاته ﷺ فقد كفر.

(٢٤) ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

يوم القيامة تشهد عليهم ألسنتهم بما قالت من البهتان، وتتكلم أيديهم وأرجلهم بما فعلت من العصيان.

(٢٥) ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾

يوم القيامة يوفيهم الله جزاءهم تامًّا غير منقوص على ما عملوا عدلاً منه - سبحانه - ويعلمون يوم الحشر أن الله وحده الحق المبين في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، فلا يظلم ولا يهضم.

(٢٦) ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾

كل خبيث من الرجال والنساء والأقوال والأعمال له ما يوافقه من الخبيث من كل هذه الأصناف، وكل طيب من الرجال والنساء، والأقوال والأعمال له ما يوافقه من الطيب من كل هذه الأصناف، والطيبون والطيبات مبرؤون مما يرميهم به الخبيثون والخبيثات من السوء والفاحشة ومنزَّهون عنها، لهم عند الله مغفرة تمحو الخطايا، ورزق كريم في جوار ربٍّ رحيم في جنة النعيم.

٢٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾

أيها المؤمنون: إذا أردتم دخول بيوت غيركم فاستأذنوا قبل الدخول وسلموا على أهل البيوت بمثل ما جاء في السنة من قول: «السلام عليكم أأدخل؟»؛ لأن الاستئذان خير لكم وأبعد عن التَّعرُّض للريبة وأطهر للقلوب وأحفظ للأعراض، لعلكم تتذكرون أوامر الله فتعملوا بها فتنالوا سعادة الدنيا والآخرة.

٢٨ ﴿ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾

فإن لم تجدوا في البيوت أحدًا يأذن لكم بالدخول فلا تدخلوها، وإن قال لكم صاحب البيت: ارجعوا فارجعوا ولا تكثروا الإلحاح فالرجوع أطهر لكم؛ لأنه أبعد عن الاطلاع على الأحوال التي يحب الإنسان سترها، والله عليم بكل ما تفعلون، وسوف يحاسبكم على ما تصنعون.

٢٩ ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾

لكن لا إثم عليكم إذا دخلتم بيوتًا عامة ليست لسكنى أناس بذاتهم، بل هي لراحة ومتعة من يرتادها ببعض المسافرين والمنقطعين والمحتاجين، فهذه لا بأس بدخولها بلا مشقة؛ لأنها هُيِّئت للوفود، وفي الاستئذان مشقة والله يعلم كل أحوالكم ما ظهر منها وما خفي.

٣٠ ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾

قل - أيها النبي - للمؤمنين يغضوا من أبصارهم عما يحرم عليهم من النساء والعورات، ويحفظوا فروجهم عن الوقوع في المحرمات من سائر الفواحش وكشف العورة للأجنبي؛ لأن في هذا طهارة لنفوسهم وحفظًا لأعراضهم، إن الله خبير بكل ما يصنعه العبد، فعليه أن يراقب ربَّه ويخاف مولاه.

٣١ ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

وقل - أيها النبي - للمؤمنات يغضضن من أبصارهن عما حُرِّم عليهن من النظر إلى العورات، ويحفظن فروجهن عن الحرام، ولا يظهرن زينتهن للرجال، بل يتسترن بالثياب والخمار والجلباب ونحوها مما يغطي جمال المرأة، وعليهن أن يلقين أغطية الرؤوس على الصدور بما في ذلك تغطية الوجوه؛ ليحصل الحجاب، ولا يظهرن الزينة والجمال إلا لأزواجهن؛ لأن للزوج أن يرى من زوجته ما لا يراه غيره، وبعض أعضاء الجسم من المرأة كالوجه والعنق واليدين والساعدين فإنها تجوز رؤيتها من قبل آبائهن وآباء أزواجهن وأبنائهن وأبناء أزواجهن وإخوانهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن ونسائهن المسلمات دون الكافرات، أو ملك اليمين من الموالي أو التابعين من الرجال الذين لا شهوة لهم في النساء كالأبله الذي يدخل البيت للطعام والشراب فحسب، أو الأطفال الصغار الذين لا تنبُّه لهم إلى العورات ومفاتن المرأة وليس لهم شهوة، ولا تضرب المرأة عند مشيها برجلها ليُسمع صوت ما خفي من زينتها كالخلخال وغيره، وعودوا - أيها المؤمنون - إلى طاعة الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتحلوا بالخصال الحميدة والخلال المجيدة، واجتنبوا أفعال الجاهلية من الرذيلة والفاحشة والمنكر، عسى أن تنالوا رضوان الله وجنته ويتغمدكم برحمته.

٣٢ ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾

وزوِّجوا من يريد الزواج من الأحرار والحرائر والصالحين من الموالي والجواري إن كان الذي يريد منهم الزواج يرغب أن يعف نفسه، فإن الله يغنيه من واسع فضله، والله واسع كثير الخير، عام البر، عظيم الفضل، يعلم الأحوال، ويطلع على السرائر.

(٣٣) ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

وعلى من لم يستطع الزواج لفقره أو غير ذلك أن يعفَّ نفسه عن الحرام حتى يغنيه الله بالحلال ويسهل له أسباب الزواج، ومن رغب في الحرية من الموالي والإماء بمكاتبة السيد على مالٍ يعطونه إياه فعلى السيد أن يكاتبهم إن علم فيهم خيرًا من صلاح واستطاعة على الكسب، وعلى ساداتهم وغيرهم إعانتهم على المكاتبة بالمال وغيره، ولا يحل للسيد إكراه جاريته على الزنا طلبًا للمال، وكيف يحصل هذا والجارية تريد العفة وسيدها يأبى ذلك؟ وفي هذا نهاية التبكيت والتوبيخ على فعلهم المنكر، ومن أكره جاريته على الزنا فإن الله من بعد إكراهها غفور لها رحيم بها، والذنب على من أكرهها.

(٣٤) ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

ولقد أنزل الله في القرآن آيات واضحات الدلالة، ظاهرة البرهان على الحق، ومثلاً من قصص السابقين، وموعظة ينتفع بها المتقون ممن يعملون الصالح ويتجنبون السوء.

(٣٥) ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾

الله نور السموات والأرض يصرف شؤونهما ويهدي من فيهما، فهو - سبحانه - نور وحجابه نور، بنوره استنار من في السموات والأرض، وكتابه نور، ورسوله نور، وهداه نور، فبنوره تنكشف الظلمات، وتشرق الأرض والسموات، وتبصر الكائنات، مثل نور الله الذي يهدي به وهو الإيمان والقرآن في قلب المؤمن مثل الكوة في الحائط غير النافذة وفيها مصباح، حيث تجمع الكوة نور المصباح فلا يتفرق، فيكون قويًا شديد الإضاءة، وهذا المصباح في زجاجة كأنها لشدة صفائها كوكب مضيء كالدر، ووقود المصباح من زيت شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون لا شرقية فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربية فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، بل هي متوسطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، قد اكتمل نماؤها واعتدل ظلها وطابت ثمارها، يوشك زيتها لشدة صفائه أن يضيء من نفسه قبل أن تمسه النار، فإذا مسَّته النار اشتد توهُّجه واكتمل ضياؤه، نور على نور، فهو نور من ضوء الزيت على نور من اشتعال النار، فهذا مثل هدى الله الذي يضيء في قلب المؤمن بنور الفطرة ونور الوحي، والله يهدي للإيمان ولفهم القرآن من أراد من عباده، ويضرب الأمثال للناس ليفهموا الأحكام ويفقهوا القضايا، والله عليم بكل ما ظهر وما خفي، وما أُعلن وما أُسر.

(٣٦) ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾

هذا النور المشع شديد الإضاءة هو في مساجد أمر الله أن يرفع شأنها وبناؤها بعمار الإيمان والبنيان، ويذكر فيها اسمه وحده بتلاوة القرآن والصلاة والذكر وأنواع العبادة، يُصلَى لله فيها في الصباح والمساء، ويُكثر من ذكره في هذين الوقتين.

(٣٧) ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾

رجال مؤمنون لا تشغلهم التجارة ولا البيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة بخشوعها، وإعطاء الزكاة لمستحقيها، يحذرون أهوال يوم القيامة التي تتقلب بسببها القلوب بين الرجاء في النجاة، والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار بين طريق الجنة وطريق النار، فاضطربت الأفئدة وزاغت العيون.

(٣٨) ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

ليثيبهم الله على أحسن الأعمال ويزيدهم من كرمه بأجلِّ النوال، والله يعطي من يشاء من عباده أحسن العطاء، ويجزيه أفضل الجزاء بلا عد ولا حدٍ ولا كيل ولا وزن؛ لأنه الجواد الماجد الذي يعطي على العمل ما لا يبلغه العمل.

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

والذين كفروا بالله وكذبوا أنبياءه أعمالهم في الدنيا التي ظنوا أنها تدفع عنهم عذاب الله كالجود والعتق والصلة تصبح كالسراب، وهو ما يشاهده الإنسان كالماء من بعيد على وجه الأرض في الظهيرة، يظن العطشان أنه ماء، فإذا وصل عنده لم يجده ماءً، فالكافر يظن أن ما قدَّم من أعمال تدفع عنه الأهوال، فإذا قام يوم الحساب لم يجد الثواب بل وجد الله - سبحانه - قد أعدّ له العقاب وشديد العذاب فوفاه جزاء ما فعل، والله سريع الحساب، يحاسب العدد الكثير في الوقت القصير، ولا يتأخر وعده فإنه واقع لا محالة.

(٤٠) ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

أو تصبح أعمال الكفار مثل ظلمات في بحرٍ عميق، من فوقه موج ومن فوق الموج موج آخر، ومن فوقه غمام كثيف، اجتمعت ظلمات كثيرة بعضها أصبح فوق بعض، إذا أخرج الإنسان يده لا يكاد يراها من شدة الظلام، فالكفار تراكمت عليهم الأوزار من الكفر والغواية والظلم والإفساد في الأرض وغيرها من الأعمال القبيحة، ومن لم يجعل الله له نورًا يهديه به من كتابه وسنة رسوله ﷺ فلن يهتدي أبدًا ولن يجد أحدًا يهديه من دون الله.

(٤١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

ألم تعلم - أيها الرسول - أن الله يسبح له كل من في السموات والأرض من المخلوقات، والطير تسبح في السماء لله - سبحانه - قد صفَّت أجنحتها، كل مخلوق قد علَّمه الله كيف يصلي لمولاه ويذكر ريه ويسبح خالقه على طريقته، وهو - سبحانه - عليم لا تخفى عليه خافية، يعلم عبادة العابد وتسبيح المسبح، لا تغيب عنه غائبة من أعمالهم وسيجازيهم بما عملوا.

(٤٢) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ولله وحده ملك وتصريف وتدبير السموات والأرض، لا ينازعه في الملك أحد، فهو فرد صمد له الحكم المطلق والسلطان العام، إليه المآب، وعليه الحساب.

(٤٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

ألم تنظر إلى السحاب كيف يسوقه الله إلى حيث أراد، ثم يجمعه بعدما تفرَّق، ثم يصيِّره متراكمًا فينزل المطر - بإذن الله - من هذا السحاب المتراكم، وينزل الله من السحاب المتراكم الذي يشبه الجبال في عظمته وضخامته بَرَدًا، فيصيب الله بهذا الغيث الذي نزل من السحاب من أراد من العباد والبلاد ويصرفه عمن أراد بحكمة وتقدير، يكاد ضوء البرق من شدة لمعانه وسط الغمام أن يذهب بأبصار من نظر إليه ويخطفها.

(٤٤) ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

ومن براهين قدرة الباري - تعالى - أنه يعاقب بين الليل والنهار، فيأتي بأحدهما بعد الآخر، ويغاير بين مدتهما من حيث الطول والقصر، إن في هذا دلالة واضحة لكل من له بصيرة نيرة على عظمة الملك الحق تعالى.

(٤٥) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

والله خلق كل ما يدب على وجه الأرض من إنسان وحيوان وطير وحشرات وغيرها، وأصل خلقها من الماء، فمنها ما يزحف على بطنه كالحيات ونحوها، ومنها ما يمشي على رجلين كالإنسان، ومنها ما يمشي على أربع كالبهائم، والله يخلق ما أراد كما أراد، فهو على كل شيء قادر، لا يعجزه شيء أراده.

(٤٦) ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

لقد أنزل الله في القرآن دلائل واضحات وبراهين ساطعات تدل على الهدى، والله يوفق للهداية من أراد من العباد فيدلهم على الرشاد.

(٤٧) ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ويدَّعي المنافقون كذبًا أنهم آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ وأطاعوا ما شُرع في الكتاب والسنة، ثم تعرض جماعات منهم عن الهدى فتأبى حكم الرسول ﷺ، وليسوا بمؤمنين كما زعموا، فالإيمان يقتضي الطاعة والمتابعة.

(٤٨) ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

وإذا طُلب من المنافقين التحاكم إلى الكتاب والسنة عند الخصومة والاختلاف إذا جماعة منهم تأبى حكم الله وحكم رسوله ﷺ مع أن فيه الحق والعدل.

(٤٩) ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾

وإذا كان الحق لهم وتأكدوا من كسب القضية أذعنوا للتحاكم للكتاب والسنة وانقادوا للشرع؛ لأن مصلحتهم تقتضي ذلك.

(٥٠) ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

هل سبب الإعراض عن الشرع ما في قلوب المنافقين من الريبة والنفاق، أم شكوا في رسالة النبي المعصوم – عليه الصلاة والسلام–، أم أنهم خافوا من الجور والظلم إذا تحاكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كلا، فهم يعلمون أن العدل كله في الشرع، لكن لأنهم ظلمة فجار يتبعون الهوى.

(٥١) ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

أدبُ المؤمنين الصادقين وعادتهم إذا دُعوا إلى التحاكم عند الخصومة إلى الكتاب والسنة أن يذعنوا لحكم الشرع ولا يعترضوا، ويقولوا: سمعنا ما قيل لنا وأطعنا من دعانا إلى ذلك، وهؤلاء هم الذين نالوا الفوز وأدركوا الفلاح في الدنيا والآخرة.

(٥٢) ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

ومن يطع الله ورسوله فيعمل بالأمر ويجتنب النهي، فهؤلاء يفوزون برضوان الله وجنته.

(٥٣) ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

أقسم أهل النفاق بالله مجتهدين في اليمين، مؤكدين قسمهم بأغلظ الأيمان: لئن أمرهم الرسول ﷺ بالخروج معه للجهاد في سبيل الله ليخرجنَّ، قل لهم – أيها النبي –: لا تحلفوا فأنتم كاذبون، فطاعتكم معروفة أنها بالقول لا بالعمل، إن الله خبير بأعمالكم وأحوالكم ومرجعكم إليه وسوف يحاسبكم عليها.

(٥٤) ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

قل – أيها النبي – أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بامتثال الكتاب والسنة، فإن أعرضتم عن الامتثال وعصيتم الأمر فقد أدى الرسول ﷺ رسالته وليس عليه إلا البلاغ، فكلٌّ عليه فعل ما وجب عليه، وإن تطيعوا الرسول ﷺ تُوفَّقوا للهدى، وليس على الرسول ﷺ إلا البيان الواضح الشافي لرسالة الله – تعالى – أما حساب الناس فعلى الله.

(٥٥) ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

وعد الله بالنصر والتمكين للمؤمنين الصالحين بأن يجعلهم مستخلفين في الأرض مثلما استخلف - سبحانه - من سبقهم من أهل الإيمان والصلاح، ووعدٌ على الله أن يجعل دين الإسلام دينًا مهيمنًا عزيزًا، وأن يغير خوف عباده إلى أمن متى ما أخلصوا له الطاعة وأفردوه بالعبادة واستقاموا على دينه ولم يشركوا به شيئًا، ومن كفر بعدما أعزه الله ومكَّن له واستخلفه وأمَّنه من الخوف وعصى أمره، فهؤلاء هم الخارجون عن طاعة الله المتجاوزون حدوده.

(٥٦) ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾

وأقيموا - أيها المؤمنون - الصلاة على الوجه الشرعي، وآتوا زكاة أموالكم لمستحقيها، وأطيعوا الرسول ﷺ بامتثال سنته؛ ليدخلكم الله في رحمته التي وسعت كل شيء.

(٥٧) ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

لا تظنن أن الكفار يُعجِزون الواحد القهار، فإنه لا يعجزه شيء، فهو قدير على إبادتهم وتدميرهم، ومردهم في الآخرة إلى نار جهنم، وقبح هذا المرد والمرجع ملاذًا ودارًا.

(٥٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

أيها المؤمنون: مُرُوا مواليكم وأطفالكم دون البلوغ أن يستأذنوا إذا أرادوا الدخول عليكم في أوقات العورات الثلاثة: من قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت القيام من النوم ولبس الثياب، ووقت القيلولة حين تخلعون ثيابكم للراحة، ومن بعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت الخلود للنوم؛ لأن هذه الأوقات الثلاثة يقل فيها الاحتياط والتستر، أما بقية الأوقات فلا إثم عليكم إذا دخلوا بلا إذن؛ لأنهم يحتاجون إلى الدخول من أجل خدمتكم، ومثلما بيَّن الله أحكام الاستئذان بين لكم الحجج والبراهين وشرائع الدين، والله عليم بمصالح العباد وما ينفعهم وما يضرهم، حكيم في تدبير أمور الخليقة، يشرِّع لهم ما تقوم به حياتهم على أكمل وجه.

(٥٩) ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

وواجب على أطفالكم إذا بلغوا سن الاحتلام أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول عليكم في أي وقت مثلما يستأذن الكبار، ومثلما بين الله في كتابه آداب الاستئذان، يبين لكم آياته التي فيها ما يصلحكم؛ لأنه - سبحانه - عليم بما فيه نفعكم، حكيم في صنعه وشرعه وتقديره وتدبيره.

(٦٠) ﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾

والعجائز من النساء التي أقعدهن كبر السن عن الشهوة والاستمتاع وليس لهن رغبة في الزواج، ولا تميل قلوب الرجال إليهن، فلا إثم عليهن أن يتخففن من اللباس كالرداء الذي يكون فوق الثياب ولا يظهرن الزينة، وإذا لبسن الثياب وما يسترهن فوق الثياب عفافًا وسترًا فهو أحسن لهن، والله سميع للأقوال، عليم بالأحوال والأعمال، لا تخفى عليه خافية فراقبوه.

(٦١) ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

يعذر العميان وذوو العرج والمرض في التخلف عن الجهاد وغيره من الواجبات التي لا يستطيعون القيام بها لوجود هذه العاهات، وليس عليكم - أيها المؤمنون - إثم أن تأكلوا من بيوتكم، أو من بيوت الأبناء وبيوت الآباء والأمهات والإخوان، والأخوات والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، أو من البيوت التي تتوبون عن أصحابها في حفظها، أو بيوت الأصدقاء، ولا إثم عليكم أن تجتمعوا وقت الأكل أو تتفرقوا، فإذا دخلتم بيوتًا فيها سكان أو خالية من السكان فليسلم بعضكم على بعض بتحية الإسلام وهي: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، أو كما رُوي إذا لم يوجد أحد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، والله شرع هذه التحية وهي مباركة تثمر المحبة والألفة بين المؤمنين، وهي طيبة فيها البِشْرُ والود للسامع، ومثلما بيَّن الله هذه الأحكام يبيِّن لكم معالم الدين وما يصلح دنياكم وأخراكم لتعقلوا هذه الأحكام وتعملوا بها فتنالوا السعادة والفوز في العاجلة والآجلة.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

إنما المؤمنون حقيقة هم الذين أطاعوا الله واتبعوا رسوله ﷺ وعملوا بالكتاب والسنة، وإذا كانوا مع النبي ﷺ على أمرٍ من الأمور التي يلزم اجتماع كلمة المسلمين عليها لم يذهب أحد منهم حتى يستأذن الرسول ﷺ، ولا يفعل ذلك إلا من كان إيمانه بالله ورسوله صادقًا، فإذا استأذنك - أيها الرسول - بعض المسلمين لبعض حاجاتهم فأذن لمن أردت منهم أن يذهب لحاجته، واطلب من الله أن يغفر لهم، فإن الله كثير الغفران لعباده، يعود عليهم بالرحمة والرضوان.

(٦٣) ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

لا تنادوا الرسول - أيها المؤمنون - باسمه مجردًا مثل مناداة بعضكم لبعض فتقولوا: يا محمد، ولكن وقِّروه واحترموه - عليه الصلاة والسلام - وبجِّلوه، وقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، والله يعلم أهل النفاق الذين يذهبون على وجه الخفية بلا إذن من الرسول ﷺ يتخفى بعضهم في بعض، فليحذر المخالفون لأمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يصيبهم بلاء أو فتنة في دينهم، وهي الزيغ والانحراف عن الهداية، أو يصيبهم عذاب شديد مؤلم في نار جهنم.

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾

ألا إن لله ملك كل ما في السموات والأرض وتعريفه وتدبيره، أحاط علمه بكل شؤونكم الخفية والظاهرة، لا تخفى عليه خافية من أعمالكم وأحوالكم، ويوم يعود الناس إليه يوم الحساب يخبرهم بما عملوا ويجازيهم على ما قدموا، والله بكل شيء عليم، علم السر والجهر، والظاهر والغائب، وأحاط علمه بكل شيء سبحانه.

⁂

مكية

ترتيبها ٢٥

سورة الفرقان

آياتها ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

كثرت خيرات الله وعظمت بركاته وجلَّت فضائله وكمُلت أوصافه وعمَّ برُّه - سبحانه وتعالى - الذي نزَّل الكتاب الكريم فارقًا بين الحق والباطل والهدى والضلال على عبده النبي الأمي محمد ﷺ؛ ليكون رسولاً خاتمًا للثقلين (الجن والإنس)، ويخوِّفهم من عذاب الله وغضبه وأليم عقابه.

(٢) ﴿ الَّذِي لَهُۥ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

الله له ملك السموات والأرض خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا، وليس له ولد - سبحانه -؛ لأنه لم يلد ولم يولد، وليس له شريك في ملكه، وهو الذي خلق الخلق وحده لم يشاركه أحد في ذلك، فاستحق بذلك العبودية، لا إله غيره، هو الذي خلق - سبحانه وتعالى - الخليقة على أتم وجه وأكمل حال من التصوير والتقدير والتدبير بحكمة وإتقان، فليس في خلقه وصنعه ولا في قضائه وشرعه عيب أو نقص أو خلل؛ سبحانه من إله عظيم!

(٣) ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾

وعَبدَ الكفار آلهة من دون الواحد القهار لا تقدر على خلق شيء، والله هو الذي خلقها، ولا تدفع ضُراً ولا تجلب نفعًا لها ولمن عبدها، ولا تميت حيًا ولا تحيي ميتًا، ولا تبعث أحدًا من قبره، فهي جامدة عاجزة.

(٤) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾

وقال الكفار: إن القرآن كذب وافتراء اختلقه الرسول ﷺ وساعده على هذا الاختلاق جماعة أخرى، فقد أتوا بظلم كبير وخطأ فاحش وغلط بين، فالقرآن حق من عند الله، تكلم به وأنزله على رسوله ﷺ.

(٥) ﴿ وَقَالُوٓا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

وقال الكفار عن القرآن: إنه قصص مختلقة وأحاديث منمقة مسطرة في كتب المتقدمين، استنسخها الرسول ﷺ، فهي تكرر عليه في الصباح والمساء.

(٦) ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

قل - أيها النبي - لهؤلاء الكفار: إن الله وحده هو الذي أنزل القرآن على نبيه، وهو الذي أحاط علمه بكل شيء، فلا تغيب عنه غائبة في السموات ولا في الأرض، وهو غفور لمن تاب، رحيم بمن أناب، يمهل العاصي ولا يعاجل بالعقوبة، ويعود برحمته على من عاد إليه.

٧ ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾

وقال الكفار: لماذا هذا الرجل الذي يدعي النبوة - يقصدون محمداً ﷺ - يأكل الطعام مثلما نأكله نحن، ويذهب في الأسواق للبيع والشراء كحالنا، فهلاً بعث الله معه ملكًا يصدقه على ما قال.

٨ ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

أو يأتيه كنزٌ من السماء من مال يغنيه عن التكسب، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها، وقال الكفار للمؤمنين: أنتم لا تتبعون إلا رجلاً أصابه سحر ذهب بعقله!!

٩ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

انظر متعجبًا كيف افترى الكفار في حقك هذه الأقوال الكاذبة الغريبة التي كأنها أمثالٌ لبعدها عن الحق، ولغرابتها يريدون تكذيبك في دعوتك، فهم أبعد شيء عن الحق، ولا يجدون طريقًا إليه ليخرجوا من ظلمة الكذب الذي افتروه.

١٠ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾

عظمت بركات الله وتقدس اسمه وعمَّت فضائله وكثر خيره وجلَّ جلاله الذي إذا أراد جعل لك - أيها النبي - أفضل مما تمناه لك الكفار، فيجعل لك إذا شاء حدائق غناء، وبساتين فيحاء يتخللها الماء، ويكسوها الجمال والبهاء، ويجعل لك فيها قصوراً فسيحة ودورًا وسيعة.

١١ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

وما كذبك الكفار - أيها النبي -؛ لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، بل كذبوا بالحساب ويوم المآب، والله قد هيأ لمن كذَّب بالقيامة نارًا مستعرة موقدة تحرق أجسامهم وتشوي وجوههم.

١٢ ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾

إذا أبصرت النارُ الكفارَ يوم العرض الأكبر من مكان بعيد، سمع الكفار غليانها وزفيرها؛ بعضها يأكل بعضًا من شدة غضبها على أعداء الله.

١٣ ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾

وإذا وضع الكفار في محل شديد الضيق في النار وقد شُدَّت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل صاحوا من شدة الهول: وا ثبوراه وا ويلاه.

١٤ ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

فيبكون في النار، ويُقال لهم لا تدعوا بالويل مرة واحدة، بل مرات كثيرة، فلن يفرَّج كربكم ولن يزول همّكم وغمّكم.

١٥ ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: أنار جهنم التي وصفها الله لكم أفضل من جنة النعيم المقيم التي وُعد بها عباد الله الصالحون المخلصون المنيبون، كانت لهم ثوابًا على حسن العمل ومرجعًا للخلود الدائم والنعيم الأبدي.

١٦ ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾

لهؤلاء الأبرار المخلصين ما يريدون في جنات النعيم مما تشتهيه أنفسهم وتلذُّ أعينهم، ودخول هؤلاء الأبرار الجنة وعدٌ من الله، يسأله - سبحانه - عباده الأخيار الأتقياء هذا الوعد، والله لا يخلف وعده.

١٧ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾

ويوم الحساب يجمع الله الكفار وما كانوا يعبدونه من أشجار وأحجار، فيسأل الله هذه المعبودات بالباطل: أأنتم أغويتم عبادي عن الهدى ودعوتموهم إلى الضلال والردى، أم هم الذين انحرفوا عن الهداية فعبدوكم دون أن تأمروهم بذلك؟!

(١٨) ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾

قالت هذه الآلهة المزعومة: ننـزِّهُك يا ربنا ونقدِّسُك عن فعل هؤلاء المشركين المشين القبيح، تعاليت أن نعبد سواك، أو أن نتولى غيرك، ولكنك - سبحانك - متَّعتَ هؤلاء الكفار بأنواع النعم من المال والجاه والبنين والصحة، فتشاغلوا بها حتى نسوا دينك وغفلوا عن ذكرك، وكانوا قومًا هلكى أدركهم الخذلان عن طاعة الرحمن فباؤوا بالخسران.

(١٩) ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴾

فيُقال للكفار: هذه آلهتكم التي عبدتموها بالباطل قد كذَّبتكم في دعواكم وافترائكم، فأنتم الآن لا تقدرون على حماية أنفسكم من العذاب ولا تجلبون لها نصرًا، ومن يمت كافرًا ظالمًا لنفسه بالشرك فله العذاب الشديد في نار جهنم.

(٢٠) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾

وما أرسل الله قبلك - أيها النبي - رسولاً إلا كان من الناس وليس ملكًا، وكل الرسل يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كغيرهم من البشر، والله جعل بعض الناس لبعض ابتلاءً واختبارًا بالإيمان والكفر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والعافية والبلاء، فهل تصبرون على ما قدَّر الله فتعبدونه حق عبادته وتعملون بأوامره وتتركون نواهيه، فطوبى لعبد إذا أُنعِمَ عليه شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فهذا الذي قام بحقوق العبودية، ونال شرف الولاية، وكان ربك بصيرًا بمن يجزع أو يصبر، وبمن يكفر أو يشكر.

(٢١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾

وقال الكفار الذين لا يصدقون بلقاء الله - عز وجل - يوم القيامة ولا يؤملون ذاك الموعد: هلاَّ أنزل الله علينا الملائكة فتشهد للرسول ﷺ بأنه صادق، أو نرى ربنا رأي العين فنسمع منه الرسالة، لقد أعجب هؤلاء الفجرة بأنفسهم كثيرًا، وتجاوزوا الحد في الطغيان، وطلبوا لأنفسهم منزلة لا يستحقونها.

(٢٢) ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾

وسوف يرى الكفار الملائكة يوم القيامة كما سألوا ذلك، ولن يبشروا بالجنة، ولكن يُخبرون بأن الجنة مكان محرم عليهم لا يُدخلونها.

(٢٣) ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾

وقدمنا إلى ما عملوه من المظاهر التي تدل على الخير والصلاح والبر والتقوى فجعلناها باطلة مضمحلة لا أثر لها ولا نفع ولا فائدة كالهباء المنثور في الهواء، وهو ما تشاهده في ضوء الشمس من دقيق الغبار؛ وذلك أن العمل لا يُقبل إلا بشرطين وهما: الإخلاص والمتابعة، بحيث يكون خالصًا لوجه الله وعلى سنة رسول الله ﷺ.

(٢٤) ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴾

أصحاب الجنة في الآخرة أفضل مكانًا من أهل النار، وأحسن منزلة في الجنة في نعيم وسرور وبهجة وحبور، لا تعب ولا نصب ولا خوف ولا حزن.

(٢٥) ﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾

واذكر يوم القيامة الذي تتشقق فيه السماء ويخرج من شقوقها السحاب الأبيض الرقيق، وينزل الله الملائكة فيحيطون بالناس في عرصات القيامة.

٢٦ ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾

الملك الحق يوم القيامة للرحمن وحده – جل في علاه –، وهو مالك الدين والحاكم في ذاك الموقف، وليس معه غيره، وكان يوم القيامة على الكفار صعبًا شديدًا لكثرة أهواله وعظيم خطره.

٢٧ ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾

وتذكر يوم يعض الكافر الذي ظلم نفسه بالشرك على يديه ندمًا وتأسفًا وغبنًا وتحسرًا وهو يقول: يا ليتني اتبعت الرسول ﷺ واهتديت بهداه وآمنت بما جاء به ولزمت طريقه.

٢٨ ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾

ويقول الكافر متحسرًا: يا ليتني لم أتخذ فلانًا الكافر صاحبًا لي أخلص له الود وأمنحه الحب.

٢٩ ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾

لقد أغواني هذا الصديق الكافر عن القرآن بعد أن بلغني عن الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن عادة الشيطان وصفته أن يخذل الإنسان في كل حال، وفي هذا التحذير من مصاحبة الأشرار ومصادقة الفجار؛ لأنهم قد يوردون صاحبهم النار وغضب الجبار.

٣٠ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾

وقال الرسول وهو يشكو فعل الكفار من قومه: يا رب إن قومي أعرضوا عن القرآن وهجروه تصديقًا وتلاوةً وتدبرًا وعملاً وتحاكمًا إليه وتبليغًا له، وفي هذا تحذير من هجر القرآن، والناس في ذلك متفاوتون كلٌّ بحسبه.

٣١ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

وكما جعل الله للرسول ﷺ أعداء من أشرار قومه سبق أن جعل لكل رسول قبله أعداء من أشرار أقوامهم، فعلى الرسول ﷺ أن يصبر كما صبروا، وكفى بالله لأوليائه هاديًا يدلهم على الصواب، ومعينًا لهم على الأعداء، فبالهداية تنال الولاية، وبالنصر تحصل الرعاية.

٣٢ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

وقال الكفار: هلاَّ أُنْزِل القرآن على الرسول ﷺ جملة واحدة كالكتب السابقة، ولكن الله أنزل القرآن على نبيه مفرقًا ليقوي قلبه ويربيه على مهل، ويزيده طمأنينة وتدبرًا لكتاب مولاه، وقد بيَّن الله كتابه لرسوله في تثبت وتمهل، وفي هذا تدبر القرآن والعناية به وأخذه شيئًا فشيئًا؛ ليرسخ في القلب وينتفع به الإنسان.

٣٣ ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

ولا يأتيك الكفار – أيها النبي – بقول أو حجة إلا فتح الله عليك بجواب سديد أحسن من قولهم بيانًا، وأقوى دليلاً، وأصدق برهانًا.

٣٤ ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

هؤلاء الكفار يُسحبون على وجوههم إلى النار؛ لأنهم كفروا بالواحد القهار، وهم شر الخليقة عند الله، وأبعدهم عن الرشد وأكثرهم غوايةً وانحرافًا.

٣٥ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾

ولقد أعطى الله موسى التوراة وجعل معه أخاه هارون يعينه على أعباء الرسالة.

٣٦ ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾

وأمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون وقومه، فكذبوا بالصدق وكفروا بالحق وأنكروا براهين الربوبية وأدلة الألوهية، فأهلكهم الله وأبادهم وجعلهم عبرة للمعتبرين.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

وأغرق الله قوم نوح بالطوفان لما كفروا، ومن كذَّب برسوله فكأنما كذَّب بكل الرسل، وجعل الله إغراق قوم نوح عظةً للمتعظين، وهيأ الله لهم في الآخرة عذابًا مخزيًا موجعًا في نار جهنم.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾

وأهلك الله عادًا قوم هود، وثمود قوم صالح وأصحاب البئر، وأممًا كثيرة بين هذه الأمم المذكورة لا يعلمهم إلا الله، طغوا وبغوا فحاق بهم سوء العذاب.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾

وكل الأمم السابقة واللاحقة أوضح الله لهم الأدلة وأقام لهم البراهين ونصب لهم الحجج؛ لئلا يعتذر معتذر، ومع كل هذا البيان من الرحمن كذبوا بالحق واتبعوا الشيطان، فأبادهم الله ونكَّل بهم.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾

ولقد كان كفار قريش يمرون في سفرهم للتجارة على قرية قوم لوط وهي قرية: (سَدُوم) التي مُزِّق أهلها بالحجارة، فلم يتعظوا بما رأوا، بل كانوا لا يصدقون بالبعث بعد الموت؛ ولذلك تجاوزوا الحد في الطغيان.

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾

وإذا رآك الكفار - أيها النبي - سخروا منك قائلين: أهذا الذي يَدَّعي أن الله أرسله إلينا؟

(٤٢) ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

لقد أوشك أن يحولنا من عبادة الأصنام والأوثان لقوة البرهان وسطوع البيان، ولكن ثبتنا على عبادتها، وسوف يظهر للكفار إذا حل بهم عذاب الجبار من المهتدي من الضال، والغاوي من الراشد، أهم أم الرسول ﷺ؟

(٤٣) ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾

انظر - أيها النبي - وتعجب ممن أطاع هواه كطاعة الله، وترك عبادة مولاه واتبع الشيطان الذي أغواه، أفأنت تستطيع حفظه من الضلالة وحمايته من الغواية حتى ترده إلى الهداية؟

(٤٤) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

أم تحسب أن أكثر الكفار يسمعون آيات القرآن سماع قبول وانتفاع، أو أنهم يفهمون ما فيها من العبر والعظات، ما هم إلا كالدواب في عدم الاستفادة والفهم لما يسمعونه، بل هم أكثر غواية منها؛ لأن عندهم عقولاً عطلوا الانتفاع بها بخلاف البهائم!!

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾

ألم تشاهد كيف أن الله مدَّ ظل كل شيء من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؟ ولو أراد الله تثبيته فلا يغيره طلوع الشمس، ثم جعل الله الشمس علامة يُستدل بها على أحوال الظل.

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾

ثم يتقلص الظل ويصغر قليلاً قليلاً، فكلما ارتفعت الشمس ازداد نقصان الظل، وهذا برهان على قدرة الرحمن، وأنه المستحق وحده بأن يُعبد من الإنس والجان.

(٤٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾

والله وحده الذي خلق الليل لكم تستترون بظلامه كما تستترون باللباس، وخلق النوم راحة لأبدانكم وقطعًا لأشغالكم، وخلق النهار لتنتشروا فيه للعمل وطلب الرزق.

(٤٨) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴾

والله هو الذي أرسل الرياح تحمل الغمام وتبشر بمقدمها العباد بالغيث، وأنزل الله من الغمام ماءً يُتَطَهَّرُ به الناس غسلاً ووضوءًا.

(٤٩) ﴿ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾

ليخرج الله بالماء نباتًا أخضر متاعًا للناس والحيوان بعد أن كانت الأرض قبل ذلك ميتة لا نبت فيها، فالله هو الذي يحوِّل الجدب بالماء إلى نبات أخضر، ويسقي بالماء الخلق الكثير من الناس والحيوان.

(٥٠) ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾

ولقد حوَّل الله الغيث من أرض إلى أرض، فأسقى بعضها ومنع بعضها، ليذكر العباد نعمة الله عليهم بإنزال الماء فيشكروه، ويذكروه بالتوبة والاستغفار إذا منع منهم الغيث، لكن أكثر العباد أبى إلا الجحود والكفران بآيات الله ونعمه، كنسبتهم المطر إلى نوء كذا وكذا.

(٥١) ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴾

ولو أراد الله لأرسل في كل قرية رسولاً يدعوهم إلى التوحيد ويخوفهم عقاب الله، ولكن الله أرسل محمدًا ﷺ إلى العالمين.

(٥٢) ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾

فلا تطع الكفار – أيها الرسول – في ترك شيء مما أمرك الله به من التبليغ، ولا تكتم شيئًا، بل اجتهد في الدعوة والنصح، وجاهد الكفار بهذا القرآن جهادًا كبيرًا لا فتور فيه ولا انقطاع ولا كسل.

(٥٣) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾

والله هو الذي خلط البحرين: العذب الزلال الذي يشرب منه الناس، والملح شديد الملوحة الذي لا يُشرب منه، وخلق بين البحرين حاجزًا يمنع كل واحد أن يختلط بالآخر، فلا يصل هذا إلى هذا، ويبقى كل بحر على طبيعته.

(٥٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴾

والله الذي خلق من مني الرجل والمرأة أناسًا من الذكور والإناث، فصار بينهم قرابة النسب وقرابة المصاهرة، والله قدير على أن يخلق ما يشاء لا راد لحكمه.

(٥٥) ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴾

ومع ظهور هذه البراهين وكثرتها ودلالتها على قدرة الله فإن الكفار عبدوا من دون الواحد القهار ما شاؤوا من أشجار وأحجار، لا تجلب المنافع ولا تدفع المضار، والكافر يعين الشيطان على معاداة الله وعبادة غيره بالإشراك به، ويساعد غيره من شياطين الإنس والجن على معصية الله تعالى.

(٥٦) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾

وما أرسل الله نبيه ﷺ إلا ليبشر عباده الصالحين بجنات النعيم وينذر أعداءه الكفار بعذاب الجحيم.

(٥٧) ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾

قل – أيها النبي للناس –: لا أريد منكم أجرةً على دعوتي فأجري على الله، لكن من أراد أن يؤمن بالله ويتبع رسوله ﷺ ويتصدق في سبيل الله فثواب ذلك له عند الله وخيره يعود إليه.

٥٨ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾

واعتمد في كل أمورك على الواحد الأحد وفوِّض الأمر إليه وثق بولايته ونزِّهه عن العيب والنقص ومجِّدهُ بصفات الكمال وكفى به - سبحانه - مطلعًا على سيئات العباد، لا يخفى عليه شيء، فقد أحصى أعمال الخليقة وسوف يحاسبهم عليها.

٥٩ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾

الله وحده الذي خلق السموات والأرض وما بينهما فله التدبير المطلق، وهو المالك وحده لكل مخلوق، وهذا الخلق كان في ستة أيام، ثم استوى - سبحانه - على عرشه، أي علا وارتفع استواءً يليق بجلاله، وهو الرحمن الذي عمَّت رحمته وفاض خيره وسحَّ جوده، فاسأل - أيها الرسول - بذلك الخبير وهو الله - سبحانه - وحده، فهو العالم بما يجب له - سبحانه - من صفات الكمال والعظمة والجلال.

٦٠ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

وإذا طُلب من الكفار أن يسجدوا لله وحده الذي هو الرحمن ذو الرحمة العامة الشاملة حينها ينكر الكفار ذلك ويأبون السجود والعبودية لله، ويقولون: ما نعرف الرحمن، كيف تأمرنا بالسجود طاعةً لأمرك؟ ويزيدهم طلب الرسول ﷺ منهم السجود لله كِبْرًا وعتوًا.

٦١ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾

عَظُمَتْ بركات الله، وتقدس اسمه، وجلَّ جلاله، وكثُر خيره، فهو الذي خلق في السماء نجومًا عظيمةً في منازلها، وجعل في السماء شمسًا مضيئةً وقمرًا منيرًا تدل على عظمته وقدرته ووحدانيته.

٦٢ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

فهو - سبحانه - خالق الليل والنهار، كل واحد منهما يخلف الآخر ويأتي بعده بنظام دقيق، وحكمة متناهية، وفي هذا دلالة على عظمة الخالق وحكمته لمن أراد أن يتعظ ويتدبر أو يشكر الله على آلائه ويحمده على نعمه.

٦٣ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾

وعباد الله الأتقياء الأبرار إذا مشوا على الأرض مشوا بتواضع وسكينة وإخبات، وإذا تكلم معهم السفهاء الجهلاء بسوء ردّوا عليهم باللين واللطف والقول الجميل، وأجابوهم بجواب حسن يسلمون فيه من الذنب، ومن أذى الجاهل، فقد أحسن الله أدبهم في المشي والقول والخطاب ومعاملة الناس، وفي سائر أحوالهم.

٦٤ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾

والذين يقومون الليل في صلاة وتلاوة ودعاء وبكاء متضرعين خاشعين أذلاء في حالة السجود والقيام.

٦٥ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

وهم مع كثرة عبادتهم وإخلاصهم واجتهادهم في الطاعة يخافون عذاب الله؛ لأن عذاب الله يلازم من يستحقه كما يلازم الغريم غريمه ليستوفي حقه.

٦٦ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

قبُحَتْ نار جهنم دار إقامة وساءت دار قرار، ما أشد عذابها، وأقسى نكالها - نعوذ بالله منها-.

٦٧ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

وهؤلاء المؤمنون الأتقياء إذا أنفقوا من أموالهم لزموا العدل والقصد ولم يبذِّروا في الإنفاق ولم يبخلوا في العطاء، بل هم وسط بين الإسراف والشح، جمُلت سيرتهم واعتدلت طريقتهم ولزموا الصراط المستقيم في كل حال.

٦٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾

والذين لا يشركون بالله ولا يعبدون غيره ولا يدعون سواه بل يفردونه بالعبودية والوحدانية، ولا يقتلون النفس المعصومة التي حرَّم الله قتلها إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل نفسٍ بالعدوان، وهم

يحفظون فروجهم عن الزنا إلا بالحلال مع زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم، ومن يُقْدِم على شيء من هذه الكبائر يعاقبه الله في الآخرة عقابًا مؤلمًا موجعًا.

(٦٩) ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾

يضاعف الله لصاحب هذه الكبائر العذاب يوم القيامة ويمكث في العذاب زمنًا طويلاً وهو ذليل حقير.

(٧٠) ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

لكن من تاب إلى الله من الخطايا والذنوب توبة نصوحًا وآمن إيمانًا راسخًا وأتبع ذلك بعمل الصالحات فالله يتجاوز عن خطاياه، ويعفو عن سيئاته ويبدلها حسنات إذا أقلع عن ذنوبه وندم على ما سلف منه، والله كثير الغفران لمن تاب، واسع الرحمة بمن أناب.

(٧١) ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾

ومن تاب من فِعْل المعاصي وعاد إلى ربه بالإنابة وأكثر من عمل الصالحات فرجوعه إلى الله صحيح، وتوبته صادقة، والله يقبل توبته ويغسل حوبته.

(٧٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾

والذين لا يشهدون كذبًا ولا يحضرون مجالس الكذب، فهم لا يقولونه ولا يسمعونه ولا يرضون به، وإذا مرّوا بأهل الباطل والعبث والسفاهة أعرضوا عن ذلك وتنزَّهوا عن هذه الأفعال، فلا يخالطون أهلها ولا يرضون بأفعالهم.

(٧٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾

والذين إذا خُوِّفوا بكلام الله وكلام رسوله ﷺ اتقوا وخشعوا وخافوا ولم يعرضوا ولم يتغافلوا كأن في آذانهم صممًا عن السماع، وكأن في أبصارهم عمى عن الرؤية، بل قلوبهم واعية، وآذانهم سامعة، وبصائرهم حية، يسجدون لربهم مطيعين مخبتين.

(٧٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

ويدعون الله قائلين: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا الصالحين البررة، واجعلنا أسوةً للأخيار، وقدوة للأبرار يقتدي بنا غيرنا في الخير.

(٧٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾

هؤلاء الذين اتصفوا بالصفات الجميلة التي ذُكرت في هذه الآيات من عباد الله الصالحين يكرمهم الله بأرفع الدرجات في الجنة بسبب صبرهم على الطاعات، وصبرهم عن المعاصي والمخالفات، وصبرهم على أقدار الله المؤلمة، وسوف يُقابلون في الجنة بالترحاب والتحايا والتسليم والبشرى من الملائكة، مع حياة الأمن والسلامة، والبهجة والسرور الدائم.

(٧٦) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾

هؤلاء الأولياء الأبرار ماكثون في الجنة أبدًا من غير موت ولا خروج منها، طابت -والله- منزلاً، وحسنت مستقرًا، من حسنها لا يريدون عنها انتقالاً، ومن طيبها لا يبغون عنها ارتحالاً، فما أحسن المقام في دار السلام بجوار الملك العلام.

(٧٧) ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴾

يخبر الله أنه لا يبالي بالخلق ولا يعبأ بالعباد لولا أنهم يعبدونه ويسألونه، فبدعاء العبادة ودعاء المسألة يُرفع العذاب ويُنَزَّلُ الثواب، وقد كذبتم - أيها الكفار - بآيات الواحد القهار، فسوف يلزمكم العذاب كما يلزم الغريم غريمه لا يفارقكم ولا تفارقونه.

مكية

ترتيبها ٢٦

سورة الشعراء

آياتها ٢٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ طسٓمٓ ﴾

هذه الحروف الله أعلم بمرادها، ولها مقاصد جليلة ومعانٍ نبيلة.

(٢) ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾

هذه آيات القرآن الذي بيَّن كل أمر وأوضح كل شيء، وفصل بين الحق والباطل والرشد والغي.

(٣) ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾

لعلك - أيها النبي - تهلك نفسك من كثرة شفقتك على هداية قومك وشدة حرصك على إيمان أمتك؛ لأنهم لم يؤمنوا بما أرسلت به، ولم يفعلوا ما دعوتهم إليه، فلا تهلك نفسك وكِل الأمر إلى ربك.

(٤) ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾

لو أراد الله نَزَّل على الكفار من السماء آية باهرة ومعجزة خارقة تضطرهم إلى التصديق، وتخضع لها أعناقهم ذليلة، ولكن الله ما أراد ذلك؛ ليكون التصديق بعلم الغيب اختيارًا.

(٥) ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴾

وما يُنَزل على الكفار من قرآن من الرحمن حديث في إنزاله، يأتي شيئًا بعد شيء، يعظهم ويذكرهم ويبين لهم ويخبرهم إلاَّ صدوا عنه ولم يقبلوه؛ عنادًا واستكبارًا.

(٦) ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

لقد كذَّب الكفار بالقرآن وسخروا منه، فسوف يعلمون إذا وقع بهم العذاب عاقبة ما فعلوا وجزاء ما صنعوا.

(٧) ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾

كيف كفروا بالله وما نظروا إلى الأرض التي خلقها الله، كيف أنبت فيها من أنواع النباتات وأصناف الثمرات مع تعدد الألوان وتباين الأشكال، وهذا دليل على قدرته - سبحانه - واستحقاقه للعبودية وحده.

(٨) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

إن في إخراج النبات من الأرض برهانًا ساطعًا على تمام قدرة الله ووحدانيته؛ تقدَّس اسمه، وما أكثر الناس بمؤمنين بآيات الله بل غالبهم كفار.

(٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المدبر المتصرف لهو العزيز على كل أحد، الغالب لكل مخلوق، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ إحسانه سائر البرية.

(١٠) ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

واذكر - أيها النبي - للناس يوم نادى الله كليمه موسى - عليه السلام - وقال له: اذهب إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر.

(١١) ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾

وهم قوم فرعون، وقل لهم: ألا تخشون عذاب الله وتحذرون غضبه، وتتركون ما أنتم عليه من غواية وفساد؟

(١٢) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

قال موسى لربه: يا ربِّ أخشى أن يكذبني فرعون وقومه ويردون ما جئتُ به.

(١٣) ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾

وأخشى إذا كذبوني أن يَمْتلئ صدري غمًا وهمًا ويُحبس لساني عن دعوتهم إلى التوحيد، فأرسل يا ربي جبريل بالوحي إلى أخي هارون؛ ليكون عونًا لي في أداء الرسالة وتبليغ الدعوة.

(١٤) ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾

وسبق أنني قتلتُ منهم نفسًا فهم يطالبونني بدم، فأنا مذنب عندهم، فأخشى أن يقتلوني بالرجل الذي قتلته.

(١٥) ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾

قال الله لموسى: لن يكون هذا، ولن يصلوا إليك ولن يقتلوك، ومن كان في رعاية الله فلا يخاف أحدًا، وأمر الله موسى أن يذهب هو وهارون بالمعجزات إلى فرعون وقومه، فإن الله معهم بالعلم والنصر والتأييد والحفظ، يسمع كلامهم ويعلم حالهم.

(١٦) ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وأمر الله موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون، وأن يخبراه بأنهما مرسلان من عند الله رب العالمين الذي له الخلق والأمر، جل في علاه.

(١٧) ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

وطلب موسى وهارون من فرعون أن يترك بني إسرائيل ويعتقهم من عبوديته واستبداده؛ ليخرجوا من مصر.

(١٨) ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾

قال فرعون لموسى بكبر وصلف ومنة: أنسيت يا موسى أنك كنت طفلاً في قصرنا وقد ربيناك وبقيت في نعمتنا سنين من عمرك؟

(١٩) ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وارتكبت جُرمًا عظيمًا يوم قتلت القبطي وهربت وأنت ممن جحد نعمتي، وأنكر ربوبيتي، وكفر جميلي.

(٢٠) ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

فأجاب موسى فرعون قائلاً: نعم قتلت ذاك الرجل قبل النبوة وقبل ما يُوحِي إليَّ ربي ويكرمني بالرسالة.

(٢١) ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

فهربتُ من أرضكم إلى أرض مدين؛ لأنني خفتكم على نفسي فأكرمني ربي بالنبوة والعلم وشرَّفني بالرسالة.

(٢٢) ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

وأنت – يا فرعون – تمنُّ عليّ تربيتك لي في بيتك وأنت الذي جعلت بني إسرائيل عبيدًا لك في خدمتك تذبح الأبناء وتستحيي النساء.

(٢٣) ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فسأل فرعون موسى عن رب العالمين الذي يدعو إلى توحيده بالعبادة، ما صفته سبحانه؟

٢٤ ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

فأجاب موسى: ربي هو المالك المتصرف في الخلق المدبر لشؤون الكون، الحاكم لكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، فإن أيقنتم بذلك فآمنوا.

٢٥ ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾

فسأل فرعون من حوله من السادة والأعيان: ألا تسمعون معي؟ متعجبين من قول موسى المنكر الغريب!

٢٦ ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

قال موسى: إن ربي الذي أدعو إلى عبادته وطاعته هو الخالق لكم ولآبائكم المتقدمين، فكيف تعبدون فرعون وهو مخلوق له آباء قد ماتوا؟

٢٧ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

قال فرعون مغضبًا من موسى يخاطب قومه: إن موسى الذي يدعي أنه رسول قد جُن وذهب عقله، فهو يتحدث بأحاديث المجانين.

٢٨ ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قال موسى متابعًا الأدلة والبراهين: إن ربي الذي أرسلني هو خالق المشرق والمغرب وما بينهما وما فيهما من نور وظلام وهو مدبرهما، فحقه - سبحانه - أن يُعبد وحده ولا يُشرك به شيء إن كانت لكم عقول تفكر وتعتبر.

٢٩ ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾

فهدّد فرعون موسى قائلاً: لئن عبدت إلهًا غيري لأحبسنك؛ نكالاً لك على مخالفتك أمري.

٣٠ ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾

قال موسى: كيف؛ أتسجنني وأنا قد جئت بأدلة قاطعة، وبراهين ساطعة على صحة رسالتي وصدق دعوتي؟!!.

٣١ ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال فرعون: إن كنت يا موسى صادقًا فأرنا تلك البراهين التي ذكرتها.

٣٢ ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾

فرمى موسى بالعصا من يده فتحولت بإذن الله ثعبانًا عظيمًا يمشي على الأرض حقيقة وليست خيالاً كما يفعل السحرة.

٣٣ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع من غير برص ولا بهق تبهر من نظر إليها.

٣٤ ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

قال فرعون لسادة قومه حوله مكذبًا لموسى: إن موسى ساحرٌ ماهرٌ في السحر حاذق فيه وليس برسول كما يدعي.

٣٥ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

ومقصود موسى أن يخرجكم من أوطانكم بهذا السحر الذي أتى به ويستولي على أرضكم، فماذا تشيرون عليَّ به في شأنه لآخذ برأيكم.

٣٦ ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾

فقال السادة من قوم فرعون له: أجِّل أمْرَ موسى وهارون وأرسل في جميع المدن جنودًا يجمعون السحرة.

(٣٧) ﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴾

وسوف يأتي الجنود بكل ساحر حاذق في سحره، ماهرٍ في فنِّه ليواجه موسى بسحر مثل سحره.

(٣٨) ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾

فجمع فرعون السحرة ووقَّت لهم يومًا معلومًا وهو وقت الضحى من يوم زينتهم في الاحتفال الذي يجتمعون من أجله ويفرحون فيه ويتجملون.

(٣٩) ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴾

وأُمر الناس أن يجتمعوا لمشاهدة الصراع بين موسى والسحرة؛ لأن في اجتماعهم قوة لسحرة فرعون.

(٤٠) ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾

عسى أن نقتدي بالسحرة إذا غلبوا موسى، ونَثْبُتَ على ديننا.

(٤١) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾

فلما وصل السحرة إلى فرعون سألوه: هل لنا أجرة عندك من مال أو سلطة إذا غلبنا موسى وقهرناه.

(٤٢) ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾

قال فرعون: نعم، إن انتصرتم على موسى أكرمتكم بالأجرة، وشرفتكم بالقرب مني، فأغراهم بالمال والجاه.

(٤٣) ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾

قال موسى للسحرة: ألقوا على الأرض ما تحبون إلقاءه من العصي والحبال؛ لتكونوا البادئين بالإلقاء.

(٤٤) ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

فطرح السحرة على الأرض ما عندهم من حبال وعصي، وخُيِّلَ إلى الناظرين أنها ثعابين تسعى، وحلفوا بعزة فرعون إنهم يغلبون موسى هذا اليوم.

(٤٥) ﴿ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾

فطرح موسى عصاه من يده فحوَّلها الله حية عظيمة داهية ابتلعت في بطنها كل ما زوَّروا من سحر.

(٤٦) ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾

فلما أبصر السحرة عصا موسى وما فعلته بسحرهم علموا أنه صادق وأنهم كاذبون، فآمنوا بالله وسجدوا له وحده سبحانه.

(٤٧) ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وقالوا بلسان الاعتراف: آمنا برب العالمين الذي خلقنا، فهو يستحق العبادة وحده لا إله إلا هو.

(٤٨) ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

وهو – سبحانه – رب موسى وهارون، فالسجود له وحده، وموسى وهارون رسولان عبدان كريمان.

(٤٩) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

فأنكر فرعون وتعجب مما حصل، وقال للسحرة: كيف صدقتم بنبوة موسى ولم آذن لكم؟ وقال مكابرًا: إن موسى هو كبيركم وإمامكم في تعلم السحر، فهو الذي علمكم إياه، فسوف يظهر لكم ما ينتظركم من عذاب عندي، ثم أقسم الفاجر للسحرة ليقطعن أيديهم وأرجلهم من خلاف: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو الضد، وبعد أن يقتلهم ويقطعهم سوف يصلبهم كلهم نكالاً لهم على متابعة موسى وتصديقه!!

(٥٠) ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

فردَّ السحرة على فرعون وقالوا: ليس علينا ضرر فيما تهددنا به من عذاب الدنيا، فالخطب يسير في جنب ما ينتظرنا من نعيم أبدي وخلود سرمدي عند الله الواحد الأحد.

(٥١) ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إنا نأمل ونرجو أن يعفو الله عنا ما فعلناه من شرك وسحر، وأن يتجاوز عن سيئاتنا؛ لأننا أول من آمن من قوم فرعون.

(٥٢) ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾

وأوحى الله إلى موسى: أن اخرج بمن آمن معك من بني إسرائيل ليلاً، ليكون أستر لكم، وسوف يتبعكم فرعون وجنوده قبل أن تصلوا إلى البحر.

(٥٣) ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾

فلما سمع فرعون بخروج موسى وقومه أرسل جنودًا يجمعون الجيش من مدن مصر كافة؛ ليدرك موسى وقومه.

(٥٤) ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

قال فرعون لقومه: إن موسى ومن خرج معه جماعة حقيرة صغيرة قليلة العدد.

(٥٥) ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾

وإن موسى وقومه قد أغضبونا غاية الغضب، وملؤوا صدورنا عليهم حقدًا وغيظًا؛ لأنهم عصوا أمرنا وعبدوا غيرنا.

(٥٦) ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾

وإنا لكلنا منتبهون ومستعدون لهم وعلى يقظة تامة لأفعالهم.

(٥٧) ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

فأخرج الله فرعون وقومه من أرض مصر بحدائقها الغناء وبساتينها الفيحاء وعيونها العذبة.

(٥٨) ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾

وترك فرعون وقومه وراءهم خزائن الذهب والفضة والأموال المكدسة والبيوت الجميلة.

(٥٩) ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

وكما أخرج الله فرعون وقومه من أرضهم جعلها من نصيب بني إسرائيل يتمتعون بخيراتها.

(٦٠) ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾

فأدرك فرعون وجيشه موسى ومن آمن معه وقت إشراق الشمس وكان صباحًا مباركًا نجى الله فيه موسى وأهلك فرعون. وهو يوم عاشوراء.

(٦١) ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

فلما أبصرت كل طائفة من قوم موسى وقوم فرعون الأخرى قال أصحاب موسى: إن فرعون وجنوده قد لحقوا بنا وقد دنا هلاكنا.

(٦٢) ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

فردَّ موسى على قومه وقال: ليس الأمر كما ظننتم فلن يدركنا فرعون وجنده؛ فالله معي بنصره، وسوف يهديني لسبيل النجاة.

(٦٣) ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

وأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانقسم البحر اثني عشر طريقًا بعدد قبائل بني إسرائيل، فأصبحت كل قطعة من البحر كالجبل الكبير.

٦٤ ﴿ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾

وقرَّب الله فرعون وقومه حتى عبروا البحر ليتم إغراقهم فيه.

٦٥ ﴿ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴾

وأنجى الله موسى وقومه من الغرق فلم يهلك منهم أحد حتى اجتازوا البحر.

٦٦ ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾

ثم أغرق الله في البحر فرعون وقومه بعدما اكتمل دخولهم فيه.

٦٧ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

إن في نجاة موسى وهلاك فرعون دليلاً قاطعًا وبرهانًا ساطعًا على قدرة الله، وما أصبح أكثر أتباع فرعون مؤمنين مع رؤية هذه العلامات العظيمة.

٦٨ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المدبر لهو العزيز، فبعزته أهلك فرعون ومن معه، وبرحمته نجى موسى ومن معه.

٦٩ ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾

واذكر لقومك - أيها النبي - قصة إبراهيم لما فيها من العبر.

٧٠ ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾

يوم قال إبراهيم لقومه -منكرًا عليهم كفرهم بالله-: ما هذا الشيء الذي تعبدونه من دون الله عز وجل.

٧١ ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾

قال قوم إبراهيم له: نحن نعبد هذه الأصنام ونعكف على عبادتها معتقدين أنها تنفع وتضر.

٧٢ ﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴾

قال إبراهيم -منكرًا عليهم جهلهم في عبادة الأصنام-: هل الأصنام تسمعكم إذا دعوتموها وهي جامدة لا تسمع ولا تعي؟!

٧٣ ﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴾

وهل الأصنام تجلب لكم نفعًا بعبادتكم لها أو يحدث لكم منها ضرر إذا تركتم عبادتها؟!

٧٤ ﴿ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾

قالوا: لا نفع من عبادتها ولا ضرر من ترك هذه العبادة، ولكننا قلدنا الآباء في عبادتهم لها وفعلنا فعلهم.

٧٥ ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴾

قال إبراهيم لقومه: هل تدبرتم فعلكم في عبادة أصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر.

٧٦ ﴿ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴾

وقد أخطأتم أنتم وآباؤكم السابقون في عبادة أصنام لا تجلب نفعًا لكم ولا تدفع عنكم ضرًا.

٧٧ ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

فإن كل ما تعبدونه غير الله أعداء لي سوف أحاربهم، أما رب العالمين - سبحانه - فسوف أعبده وحده لا أشرك به شيئًا.

٧٨ ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴾

والله وحده هو الذي خلقني في أحسن صورة، وهو الذي يوفِّقني لطريق الخير في الدنيا والآخرة.

٧٩ ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴾

وهو الذي خلق لي الطعام والشراب، فهو الرازق وحده المنعم بكل نعمة.

٨٠ ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾

وإذا أصابني مرض فلا يعافيني منه إلا الله وحده، فهو الذي قدر الداء وأنزل الدواء.

٨١ ﴿ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴾

وهو الذي يتوفى نفسي إذا حان أجلي ثم يبعثني من قبري حيًا، لا يحيي ولا يميتُ غيره.

٨٢ ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾

والله وحده الذي أرجوه أن يعفو عن سيئاتي ويتجاوز عن ذنبي يوم الحساب والجزاء.

٨٣ ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ثم دعا إبراهيم ربه فقال: ربِّ تفضل عليَّ بعلم وفهم لأعبدك على بصيرة، واجمع بيني وبين الأتقياء في جنات النعيم، فسأل خيري الدنيا والآخرة.

٨٤ ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾

وقدِّر لي يا ربِّ ذكرًا جميلاً وثناء حسنًا في كل جيل يأتي من بعدي إلى يوم القيامة فحقق الله له ما سأل، فعليه الصلاة والسلام دائمًا وأبدًا.

٨٥ ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

وأسألك يا ربِّ أن تجعلني من العباد الأتقياء الذين تورثهم الإقامة في الجنة.

٨٦ ﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

وتجاوز يا ربِّ عن أبي المشرك الضال، وهذا قبل أن يظهر لإبراهيم عداوة أبيه لله، فلما ظهر له ذلك تبرأ من أبيه.

٨٧ ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴾

ولا تفضحني على رؤوس الأشهاد يوم المعاد، يوم يخرج الناس من القبور ليوم النشور.

٨٨ ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴾

يوم القيامة لا ينفع المال صاحبه، ولا الأبناء آباءهم إذا لم يكونوا من الصالحين.

٨٩ ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾

ولا ينجو في ذاك اليوم إلا من جاء ربَّه بقلب سليم من الكفر والنفاق، وكل ما يكرهه الله.

٩٠ ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

وقرِّب الله الجنة لأوليائه الأتقياء الذين أطاعوه واجتنبوا معصيته.

٩١ ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴾

وأظهر الله النار للكفار الذين أخطؤوا سبيل الهداية وسلكوا طريق الغواية.

٩٢ ﴿ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴾

ويقال لهم يوم القيامة -تبكيتًا-: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها في الدنيا؟!

٩٣ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴾

هذه الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله وتدعون أنها تجلب لكم النفع وتدفع عنكم الضر، هل تنصركم هذه الآلهة فتدفع عنكم العذاب؟ أو تنتصر هي فتدفع عنها العقاب؟ فهي لا ناصرة ولا منصورة.

٩٤ ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾

فجمع الله عبَّاد الأصنام وأصنامهم وكبهم على وجوههم في النار، فأئمة الضلال وأتباعهم يُجمعون في نار جهنم.

٩٥ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾

وأعوان الشيطان يدخلون مع عبدة الأوثان في نار جهنم لا ينجو منهم أحد.

٩٦ ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾

فقال الكفار الفجار في النار وهم مختلفون فيما بينهم يتنازعون أمرهم.

٩٧ ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

تالله إننا كنا في الدنيا في غواية واضحة؛ حيث عبدنا غير الله وكفرنا به سبحانه.

٩٨ ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

كيف نسوي في العبادة ونشرك في الطاعة الأوثان مع الله - عز وجل - المستحق العبادة وحده، وهو الخالق الرازق.

٩٩ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

وما أغوانا وحرفنا عن الهداية إلا أهل الإجرام من عبدة الأصنام الذين زينوا لنا الباطل.

١٠٠ ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴾

فليس لنا اليوم أحدٌ يشفع لنا عند الله لينجينا من العذاب؛ لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة.

١٠١ ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾

وليس لنا هذا اليوم أحدٌ صادق في محبتنا يحنو علينا ويواسينا فيما أصابنا.

١٠٢ ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

فياليت لنا عودة إلى الحياة الدنيا فنصدق بما جاءت به الكتب وما بُعث به الرسل، ولكن هيهات.

١٠٣ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

إن في قصة إبراهيم المتقدمة لعظة للمتعظين، وما أصبح أكثر من سمع هذه القصة بمصدق ولا مهتدٍ.

١٠٤ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك لهو العزيز الذي عزَّ فانتقم من أعدائه، الرحيم الذي لطف بأوليائه.

١٠٥ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

وقد كذبت قوم نوح دعوة نبيهم نوح ولم يؤمنوا به، فكأنهم كذبوا كل الرسل؛ لأن دعوة الرسل واحدة.

١٠٦ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال نوح لقومه وهو أخوهم في النسب: ما لكم لا تخافون الله بتوحيده وترك عبادة غيره.

١٠٧ ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

إن الله أرسلني لكم رسولاً أمينًا على حمل الرسالة وتبليغ الدعوة.

١٠٨ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فخافوا الله باتباع أمره واجتناب نهيه، وأطيعوني بتصديق ما بُعثتُ به.

١٠٩ ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

ولا أطلب منكم أجرة على تكاليف دعوتي وتعب رسالتي، فأجري وثوابي على الله مالك أمري.

(١١٠) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فخافوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وأطيعوني باتباعي وتصديقي فيما أُرسلتُ به.

(١١١) ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾

قال قوم نوح له: كيف نصدقك فيما أُرسلت به، والذين آمنوا بك هم سقط الناس وضعفاؤهم.

(١١٢) ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

فرد عليهم نوح قائلاً: لست مسؤولاً عن نسب الناس والمهن التي يعملونها، إنما أمرني ربي بدعوتهم للإيمان، فالعبرة بالعمل لا بالحسب والنسب والمهن.

(١١٣) ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾

جزاء كل عامل على الله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فهو يعلم ما ظهر وما بطن، ولو كنتم تدركون صحة هذا لما تكلمتم بالباطل.

(١١٤) ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولن أطرد من مجلسي من صدّق برسالتي بسبب فقرهم أو المهنة التي يعملونها من أجل أنكم طلبتم ذلك.

(١١٥) ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

ما أنا إلا مرسل من الله أخوف الكفار غضب الجبار وعذاب النار، وأنذرهم غاية الإنذار.

(١١٦) ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾

فترك قوم نوح الحوار إلى التهديد والوعيد، وهي عادة صاحب الباطل المغلوب على أمره، وقالوا له: لئن لم تترك –يا نوح– هذه الرسالة التي تدعو إليها لنرمينك بالحجارة حتى نقتلك.

(١١٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾

فلما سمع نوحٌ هذا التهديد دعا على قومه وقال: يا ربِّ إن قومي كذبوا دعوتي وردوا رسالتي.

(١١٨) ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

فاحكم بيني وبينهم بحكمك العادل الذي تنجي به الصادق الموحد، وتهلك به الكافر الملحد، وأسألك أن تخلصني ومن آمن معي من العذاب.

(١١٩) ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾

فأنجى الله نوحًا ومن ركب معه في السفينة التي ملأها بأنواع المخلوقات.

(١٢٠) ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾

ثم أغرق الله – عز وجل – من كفر بنوح ولم يركب معه في السفينة بعدما نجاه ومن آمن معه.

(١٢١) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

إن في قصة نوح ونجاته ومن معه وإهلاك الكفار لعلامة واضحة وعظةً عظيمة للناس، وما أصبح الذين سمعوا هذه القصة مؤمنين بالله متبعين لرسله، فالأكثر كافر.

(١٢٢) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المتصرف المدبر عزيز في انتقامه ممن كفر، رحيم بمن آمن به وشكر.

(١٢٣) ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾

كذبت قبيلة عاد رسولهم هودًا – عليه السلام –، فكأنهم كذبوا كل الرسل؛ لأن دعوة الرسل واحدة، وكلهم يدعون إلى التوحيد.

﴿١٢٤﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال هود لقومه عاد وهو أخوهم في النسب: ألا تخافون الله بإفراده بالعبودية وإخلاص الطاعة له؟

﴿١٢٥﴾ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

إن الله أرسلني إليكم لأرشدكم إلى الطريق المستقيم وأنا أمين على حمل الرسالة وتبليغها لا أزيد فيها ولا أنقص.

﴿١٢٦﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاحذروا عذاب الله بطاعته واجتناب معاصيه، واتبعوني أدلكم على طريق الهداية.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وما أطلب منكم أجرةً على دعوتي لتبليغ رسالتي لا مالاً ولا جاهًا ولا عَرَضًا من عَرَضِ الدنيا، فأجري على ربي الذي خلق الكون وتصرف فيه.

﴿١٢٨﴾ ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾

ما لكم تبنون بكل محلٍ عالٍ مرتفع منزلاً تشرفون منه على الناس كبرًا وبذخًا وإسرافًا وليس في ذلك نفع في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿١٢٩﴾ ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾

وتبنون قصورًا شاهقة وحصونًا منيعة كأنكم لن تموتوا ولن تنتقلوا من هذه الدنيا، وهي لا تمنعكم من الفناء.

﴿١٣٠﴾ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾

وإذا نكَّلتم بأحد وبطشتم به قتلاً أو ضربًا فعلتم ذلك بقسوةٍ وظلم وشدة.

﴿١٣١﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاحذروا عذاب الله بعبادته والعمل بمرضاته، واتبعوني بتصديق دعوتي واتباع رسالتي

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾

واحذروا غضب الله بطاعته، فهو الذي منحكم ما تعلمون من أنواع النعم التي لا تعد ولا تُحصى.

﴿١٣٣﴾ ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾

منحكم الأنعام من إبل وبقر وغنم للأكل والركوب وشتى المنافع، ومنحكم الأولاد زينةً وقوةً لكم وقرة عين.

﴿١٣٤﴾ ﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

ومنحكم البساتين الغناء، والحدائق الفيحاء بمختلف الأشجار وشتى الثمار، وفجَّر لكم عيونًا جارية عذبة للشرب والاغتسال والسقي.

﴿١٣٥﴾ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

إني أخشى عليكم إن كفرتم بالله عذابًا شديدًا لا يُطاق يوم العرض الأكبر؛ جزاءً لكم على كفركم وتكذيبكم.

﴿١٣٦﴾ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾

فقال قوم هود له: يستوي عندنا إن أنذرتنا وإن تركت ذلك، فلن نسمع لكلامك، ولن نصدق قولك، ولن نؤمن بما أرسلت به، فنطقك وصمتك سواء، وهذا غاية العناد والاستكبار.

﴿١٣٧﴾ ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾

وقالوا: إن المعتقد الذي نعتقده هي العقيدة التي اعتقدها الآباء والأجداد، فنحن مقلدون لهم لا نترك دينهم.

(١٣٨) ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾

ولن يعذبنا الله على فعلنا، ولن يقع ما حذرتنا منه من عقاب.

(١٣٩) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

فأصروا على تكذيب هود، فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية مدمرة، وقد كان في إهلاكهم عبرة لمن اعتبر، وما أكثر من سمع أخبار عاد بمؤمنين برب العباد، وبمصدقين بيوم المعاد.

(١٤٠) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المدبر لهو العزيز حيث أهلك أعداءه، الرحيم حيث أكرم أولياءه.

(١٤١) ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

كذبت قبيلة ثمود النبي صالح - عليه السلام - حيث دعاهم إلى إخلاص العبادة لله، فكأنهم كذبوا جميع الرسل؛ لأن دعوة الرسل - عليهم السلام - واحدة، وهي الدعوة إلى التوحيد.

(١٤٢) ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ دعاهم صالح إلى تقوى الله بالعمل بطاعته وترك معصيته وإفراده بالعبودية.

(١٤٣) ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾

وأخبرهم أن الله أرسله برسالة التوحيد، وأنه أمين في حمل الرسالة وفي تبليغها لا يزيد فيها ولا ينقص ولا يكتم.

(١٤٤) ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فخافوا الله بفعل ما يحب وترْك ما يكره، واتبعوني فيما دعوتكم إليه، واهتدوا بالدين الذي بُعثت به.

(١٤٥) ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وما طلبت منكم أجرة على دعوتي ولا جزاءً على رسالتي، فأجري وجزائي على من بيده ملكوت كل شيء، تبارك اسمه.

(١٤٦) ﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴾

أتظنون أن الله سوف يغفل عنكم ويترككم بلا انتقام على ما فعلتم، ولا عذاب على ما أسأتم، وأنتم في النعيم آمنون وفي شهوات الدنيا راتعون؟!

(١٤٧) ﴿ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾

في حدائق غناء وبساتين فيحاء، في خضرة ونماء وثمار يانعة وماء.

(١٤٨) ﴿ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴾

وزروع كثيرة بهيجة المنظر، ونخل باسقة طيبة الطلع، يانعة الرطب ناضجة الثمرات.

(١٤٩) ﴿ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴾

وأنتم تبنون بيوتكم من الصخور فتنحتونها بمهارة وتبنونها بجدارة في أشر وبطر وكبر وعتو.

(١٥٠) ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاحذروا عذاب الله بطاعته وإخلاص العبادة له، واقبلوا ما أرسلت به إليكم وتابعوني في دعوتي.

(١٥١) ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾

ولا تتبعوا المتجاوزين لحدود الله المتمردين عليها، الصادين عن منهج الله.

١٥٢ ﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾

هؤلاء الفجار تمادوا في الإفساد في الأرض من القتل والبطش والظلم، فعملهم كله فاسد لا صلاح فيه.

١٥٣ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾

قالت ثمود لصالح - عليه السلام -: أنت مسحور مغلوب على عقلك، أثَّر السحر فيك وجعلك تتكلم بما لا يُعقل.

١٥٤ ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وأنت إنسان مثلنا لست ملكًا من السماء فلا يميزك علينا شيء، فنحن وإياك سواء في البشرية، فتعال بدليل ظاهر وبرهان باهر يثبت لنا أنك صادق، وأن الله أرسلك.

١٥٥ ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾

فقال لهم صالح - وقد أيده الله بآية عظيمة وهي الناقة التي أخرجها من الصخرة له -: هذه ناقة الله كما ترونها لها قسم من الماء في يوم معيَّن، ولكم قسم من الماء في يوم آخر محدد، لا تشرب في يومكم ولا تشربون في يومها.

١٥٦ ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾

واحذروا أن تنالوا الناقة بأذى كالضرب والقتل فيعجل الله لكم العقاب ويهلككم بالعذاب الذي لا يُطاق من شدته.

١٥٧ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾

فقام شقي منهم فنحر الناقة، فلما رأوا الناقة معقورة تأسفوا على ما فعلوا وتحسروا على ما صنعوا، فما نفعهم الندم بعد زلة القدم.

١٥٨ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

فأهلكهم الله بالعذاب الشديد، وكان في إهلاك ثمود عظة للمتعظين من أهل الفِطَرِ القويمة والبصائر المستقيمة، وما أكثر من سمع هذه القصة العجيبة بمصدق بها.

١٥٩ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك المتصرف المدبر لعزيز قهر من حاربه وغلب من غالبه، وهو رحيم لطف بمن أطاعه وتولى من تولاه.

١٦٠ ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

كذبت قوم لوط برسالة لوط وكفروا بدعوته، فكأنهم لما كذبوه كذبوا جميع الرسل؛ لأنهم كلهم يدعون إلى توحيد الله وحده لا شريك له.

١٦١ ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال لهم أخوهم لوط في النسب: ألا تحذرون عقاب الله بتقواه وتعملون ما أمر به وتجتنبون ما نهى عنه وتخلصون له الطاعة.

١٦٢ ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾

إن الله أرسلني إليكم وأنا أمين على حمل الرسالة وتبليغها، لا أزيدُ فيها شيئًا ولا أنقص منها شيئًا ولا أكتمُ شيئًا.

١٦٣ ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

فاعملوا لما يحبه الله واجتنبوا ما يبغضه الله، واتبعوني فيما أُرسلتُ به بإفراد الله بالعبودية وعدم الإشراك به.

١٦٤ ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وما أطلبُ منكم على دعوتي أجرةً ولا أرجو منكم جزاءً على تبليغ الرسالة، فجزائي وثوابي على خالق الكون الذي بيده خزائن السموات والأرض.

١٦٥ ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

أتعملون الفاحشة في الذكور من الناس فتخالفون الفطرة والعقل والنقل؟!!

١٦٦ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾

وتتركون الزواج بالنساء اللواتي خلقهن الله للاستمتاع الحلال والذرية الطيبة والسكنى، إنكم قوم تجاوزتم الحد في المعصية وتركتم الحلال إلى الحرام، فاستوجبتم غضب الله.

١٦٧ ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾

فردَّ قوم لوط عليه قائلين: يا لوط، إذا لم تترك زجرنا عما نفعل بالذكور والإنكار علينا فسوف نطردك من ديارنا وننفيك من بيننا.

١٦٨ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾

فردَّ عليهم لوط قائلاً: إني أشهد الله على بغضي عملكم القبيح أشد البغض، وأبرأ إلى الله تعالى من فحش عملكم.

١٦٩ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾

فلما أصرَّ قوم لوط على فعلهم دعا لوطًا فقال: ربِّ خلصني وخلِّص أهلي من هذا العمل القبيح الذي يعمله قومي، وأنقذني من عقوبة هذا الفعل المشين.

١٧٠ ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾

ونَجَّى الله لوطًا وأهله الذين آمنوا بالله، واتبعوا لوطًا وسلمهم من العذاب.

١٧١ ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾

لكن الله أهلك من أهله امرأته العجوز التي كفرت وأيّدت قومها في هذه المعصية، فكانت مع الباقين في العقاب المستحقين للعذاب.

١٧٢ ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾

ثم أهلك الله سواهم من قوم لوط، فاستأصلهم بالعذاب وعمهم بالهلاك.

١٧٣ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾

وأنزل الله على قوم لوط حجارة من السماء كالمطر من كثرتها وتتابعها، فقبح هذا المطر من مطر حمل العذاب ونزل بالدمار على قوم كفار عصوا الواحد القهار.

١٧٤ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

إن في عذاب قوم لوط لعظةً لمن أتى بعدهــم وعبرةً لمن بلغتــه أخبارهــم، وما أكثر من بلغته هذه القصة بمصدقٍ ولا مهتدٍ.

١٧٥ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

وإن ربك المالك المدبر المتصرف لهو العزيز الذي غلب فقهر، وحكم فقدر، وهو الرحيم الذي لطف بمن تاب وغفر لمن أناب.

١٧٦ ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

كذب أصحاب الشجرة العظيمة رسولهم شعيبًا - عليه السلام - وردوا دعوته، فكأنهم كذبوا كل الرسل؛ لأن الرسل بُعثوا بإفراد الله بالعبادة وعدم الإشراك به.

١٧٧ ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

إذ قال شعيب لقومه: ألا تحذرون عذاب الله وتعملون بطاعته وتتركون معصيته؟

(١٧٨) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

إن الله أرسلني إليكم بالتوحيد، وأنا مؤتمن على الرسالة أبلغها كما سمعت، وأؤديها كما أُمرت، لا أزيدُ ولا أنقص.

(١٧٩) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

فاعملوا بطاعة الله واتركوا مخالفة أمره، واستجيبوا لدعوته، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، لتنالوا من الله الهداية والولاية.

(١٨٠) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وما أطلبُ منكم أجرةً على أتعاب دعوتي ولا جزاءً على أعباء رسالتي، فثوابي على مالك أمري الذي بيده ملكوت كل شيء.

(١٨١) ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾

أتموا الكيل للناس إذا بايعتموهم ولا تنقصوا من الكيل شيئًا، فإن من خاف الله اتقاه في عباده بإيفائهم حقوقهم وعدم ظلمهم.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾

وزنوا إذا بايعتم الناس بالوزن العدل، فلا تنقصوا حقوق الناس إذا وزنتم لهم.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

ولا تنقصوا الناس وتغشوهم في الكيل أو الوزن أو العدد أو النقد أو غير ذلك، ولا تفسدوا في الأرض بالكفر والقتل والنهب والسلب والظلم والفواحش والمنكرات والعقوق وقطيعة الرحم وغيرها.

(١٨٤) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾

واحذروا عذاب الله وذلك بطاعته وترك معصيته، فهو الذي خلقكم أنتم والأقوام المتقدمين من القرون السابقة.

(١٨٥) ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾

فردَّ قوم شعيب عليه فقالوا: أنت رجل مسحور أصابك سحر فأذهب عقلك، فصرت تتكلم كلامًا لا يُعقل لا سداد فيه ولا رشد.

(١٨٦) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

وما أنت إلا إنسان مثلنا ولست ملكًا من ملائكة السماء، فما ميزتك علينا؟ ونحن نحسبك كاذبًا على الله لم يرسلك إلينا برسالة، وإنما ادعيت ذلك من عندك.

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

فإن كنت يا شعيب صادقًا أن الله أرسلك فاطلب إلى ربك أن يسقط علينا قطعًا من الغمام الأسود يهلكنا، قالوا ذلك عنادًا واستبعادًا.

(١٨٨) ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

فردَّ عليهم شعيب قائلاً: الله مطلع على أعمالكم قد علم ما فعلتموه من الكفر والتكذيب، وهو يعلم متى ينزل عليكم العذاب وإنما أنا مبلغ لرسالته.

(١٨٩) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

فثبتوا على كفرهم وإصرارهم، فسلَّط الله عليهم الحرَّ الشديد الذي مزَّق أجسادهم، وأخذوا يفرون منه إلى كل ظل يستظلون به، فرأوا سحابة فاستظلوا بها، فلما اجتمعوا تحتها اشتعلت عليهم نارًا فأحرقتهم جميعًا، فكان ذلك اليوم من أشد الأيام هولاً ونكالاً وهلاكًا.

(١٩٠) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

إن في العذاب الذي نزل بقوم شعيب لعظةً لمن كان له بصيرة، وما أكثر من سمع به بمصدقٍ ولا مؤمن.

(١٩١) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وإن ربك المالك الغني القوي لهو العزيز في انتقامه من أعدائه وشدة بطشه بمن حاربه، وهو الرحيم لمن أطاعه اللطيف بمن تقرب إليه.

(١٩٢) ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وإن القرآن العظيم الذي أنزله الله على النبي الكريم وحيٌّ تكلم به الرحمن الرحيم، خالق الكون وموجد السموات والأرض.

(١٩٣) ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾

نزل بالقرآن من عند الرحمن روح القدس جبريل الأمين فيما حمله من الوحي وبلغه إلى النبي ﷺ.

(١٩٤) ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾

فأوحاه جبريل على قلب الرسول ﷺ فحفظه وفهمه، وأتقنه وبلّغه، وخوَّف به من عذاب الله، وأنذر به الإنس والجن.

(١٩٥) ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾

أتى جبريل بالقرآن إلى الرسول ﷺ باللغة العربية الفصحى جميلة اللفظ، مشرقة المعنى واضحة البيان، يفهمه الحاضر والبادي والقارئ والأمي.

(١٩٦) ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾

وإن هذا القرآن العظيم ثابتٌ ومذكور في كتب الرسل السابقين - عليهم السلام - قد أخبروا به وبشروا به أقوامهم.

(١٩٧) ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

أولم يكف الكفار برهانًا على أن القرآن حق من عند الله وأن الرسول مرسل من الله، علْمُ علماء اليهود بصدق ذلك وثبوته، وكذلك شهادة من آمن منهم كعبد الله بن سلام.

(١٩٨) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾

ولو أنزل الله القرآن على بعض العجم الذين لا يجيدون لغة العرب قطعًا لاحتجاج الكفار بكون الرسول عربيًا.

(١٩٩) ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

فقرأ هذا الأعجمي القرآن على الكفار قراءة عربية فصيحة لما آمنوا به أيضًا وبحثوا عن حجة أخرى لتكذيبه.

(٢٠٠) ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

كذلك أدخل الله في قلوب المجرمين التكذيب بالقرآن فصار راسخًا في قلوبهم بسبب شركهم وعتوهم.

(٢٠١) ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

لن يصدقوا بالقرآن حتى يروا العذاب الذي وعدهم به الرسول ﷺ رأي العين.

(٢٠٢) ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

فينزل الله العذاب على الكفار فجأة دون سابق إنذار فلا يعلمون بمجيئه حتى يقع.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾

فيقول الكفار عندما يبصرون العذاب: هل لنا مهلة لنراجع أنفسنا ونؤمن بربنا، فلو أُخِّرنا قليلاً لتُبْنا وأَنَبْنا.

(٢٠٤) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾

أغرَّ الكفار إمهال الواحد القهار؟، فهم يستعجلون نزول العذاب من الله استبطاءً له وتكذيبًا به.

(٢٠٥) ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ﴾

أفرأيت - أيها النبي - إن أمهلنا الكفار سنين طويلة يتمتعون بحياتهم وبشهواتهم؟

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

وبعد تمتعهم بالحياة يحل بهم العذاب ويقع بهم العقاب الذي وعدهم به الرسول ﷺ لتكذيبهم برسالته.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾

ما أغنى عن الكفار تمتعهم بطول الأعمار، وعمار الديار، وحسن المعيشة إذا لم يؤمنوا بالله؟ فسوف يعذبهم الله في العاجل أو الآجل.

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾

وما عذَّب الله قرية من قرى الأرض إلا بعدما يقيم على أهلها الحجة بإرسال رسول إليهم ينذرهم عذاب الله إن كفروا.

(٢٠٩) ﴿ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

وهذه النذارة تذكير ونصح لهم ليؤمنوا بالله قبل أن يحل بهم العذاب، والله لا يظلمهم بإهلاكهم قبل أن يبعث فيهم رسولاً.

(٢١٠) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾

وما تنزَّلت الشياطين بالقرآن على سيد ولد عدنان، بل هو كلام الرحمن.

(٢١١) ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾

ولا يصح للشياطين أن تفعل ذلك ولا يستطيعون فعله، فهؤلاء لا يحل لهم فعله ولا يقدرون عليه.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾

إن الشياطين عن استماع القرآن ممنوعون مصروفون بالشهب المحرقة.

(٢١٣) ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴾

فلا تشرك بالله شيئًا ولا تدعُ غيره، فإن فعلت ذلك عذَّبك الله، ولا يمنعك من عذابه أحد، فكيف بغيره ﷺ لو فعل ذلك؟!

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾

وحذِّر - أيها النبي - الخاصة من أهلك، وابدأ بالأقرب فالأقرب فهم أولى بالنصح من غيرهم.

(٢١٥) ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

وتواضع وألن جانبك وأحسن خطابك للذين صدقوا دعوتك واتبعوا رسالتك، فباللين تكسب قلوبهم، وبالرفق تنال مودتهم.

(٢١٦) ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

فإن خالفك مخالف ولم يهتد بهداك ولم يأتمر بأمرك فتبرأ من أعماله من كفر ومعاصٍ، فليس عليك تبعة من معصية من عصى.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

واعتمد في كل شأنك وفوِّض أمرك إلى العزيز الذي عزَّ بجبروته، وقهر من عانده، والذي غلب بحكمه فخذل من ضادَّه، الرحيم الذي لا يخذل من والاه، ولا ينصر من عاداه.

(٢١٨) ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾

وهو- سبحانه - الذي يراك - أيها النبي - وأنت تقوم للصلاة في ظلام الليل وحدك حيث لا يراك غيره.

(٢١٩) ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

ويرى - سبحانه - تقلُّبَكَ - أيها النبي - في حالة صلاتك مع المصلين، مرة وأنت قائم أو راكع أو ساجد أو جالس.

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

إن الله - سبحانه - يسمع الأقوال، ويعلم الأحوال والأفعال، لا تخفى عليه خافية، فالسرُّ عنده علانية.

(٢٢١) ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾

هل أخبركم - أيها البشر - بمن تأتيه الشياطين فتوحي إليه الزور والبهتان والدجل والكذب؟

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾

تنزل الشياطين على الكذّاب كثير الآثام، المرتكب للفواحش والمنكرات، ولا تأتي المؤمن الصادق.

(٢٢٣) ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾

يسترق الشياطين السمع فيسمعون الكلمة الواحدة من الملأ الأعلى فيخبرون بها الكهان والعرافين وغالبهم كذّاب، يصدق في كلمة ويزيد عليها مائة كذبة!!

(٢٢٤) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾

والشعراء ينظمون شعرهم في الغالب على الباطل والكذب والمبالغات والخيالات البعيدة عن الحقيقة والواقع، ويقتدي بهم كل زائغ غاوٍ من أمثالهم.

(٢٢٥) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ﴾

أما تعلم أن هؤلاء الشعراء يخوضون في كل فنٍ كالهائم على وجهه، فيكذبون وينمِّقون المبالغات ويدبِّجون العبارات ويجرحون الأحساب، ويطعنون في الأنساب، ويقذفون المحصنات، ويهجون أهل المروءات.

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾

وهؤلاء الشعراء يقولون ما لا يفعلون، فيمتدحون بأعمال ما عملوها، ويفتخرون بصفات ليست فيهم، فهم يسبون الأخيار، ويمدحون الأشرار.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾

ويُستثنى ممن ذمَّ الله من الشعراء شعراء الدعوة والرسالة من أهل الإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله والذَّب عن دين الله، وهجاء أعداء الله، وقول الحكمة، والموعظة الحسنة، والحث على الفضائل، والنهي عن الرذائل، والتنويه بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى معالي الأمور، مع كثرة ذكر الله، وتلاوة كتابه وتعلم العلم النافع، وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والذنوب ومحاربة الله وظلم الناس والتعدي على أعراضهم واتهامهم بالباطل وقذفهم بالزور، أي معاد يعودون إليه من الذل والهوان، والهلاك والخسران إذا بُعثِرَ ما في القبور، وحصِّلَ ما في الصدور، وانكشف المستور عند من يعلم ما في الصدور، فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته، وأن يسبلَ علينا عافيته، وأن يسدل علينا ستره.

مكية

ترتيبها
٢٧

سورة النمل

آياتها
٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، ولها معانٍ ومقاصد نَكِلُ علمها إلى الله.

وهذه آيات القرآن واضحة المعنى فصيحة المبنى، مشرقة في دلالتها قاطعة في حجتها، حوت أصول العلوم والأحكام والشرائع والأخلاق والآداب.

(٢) ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وهي تهدي للحق وتدل على طريق الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة، وتبشر من آمن وعمل صالحًا بالسعادة في الدنيا والفوز بالنعيم المقيم بجنات النعيم.

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

هؤلاء المؤمنون يؤدون الصلاة المفروضة على أكمل وجه، ويعطون زكاة أموالهم لمستحقيها طيبةً بها نفوسهم، وهم موقنون بقيام الساعة ويوم الحساب والجزاء، حيث يثيب الله أهل الطاعة ويعاقب أهل المعصية.

(٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾

إن الذين كذبوا بالآخرة وأنكروا قيام الساعة ولم يعدوا لها عملاً صالحًا حسَّن الله لهم أعمالهم القبيحة فرأوها جميلة، فهم يزدادون منها؛ ليعظم إثمهم عند الله، فهم مترددون حائرون.

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾

هؤلاء لهم أشد العذاب في الدنيا من القتل والأسر والخزي والذل والعار، ولهم في الآخرة عذاب النار وغضب الجبار.

(٦) ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

وإنك - أيها النبي - لتتلقَّى آيات القرآن من عند الله، فهو وحي موحى إليك من ربك تكلم به - سبحانه -، وهو الحكيم في خلقه وصنعه، وفي حكمه وشرعه الذي أحاط بكل شيء علمًا، فلا تخفى عليه خافية.

(٧) ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

واذكر خبر موسى - عليه السلام - يوم قال لأهله وهو في طريقه من مدين إلى مصر: إني شاهدتُ نارًا على بُعد أريدُ أن أذهب إليها لآتي بخبر يرشدنا إلى طريقنا، أو آتي بشعلة من النار نوقد عليها ما ندفع به البرد عنا.

(٨) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فلما وصل موسى إلى النار ناداه الله - سبحانه - وأخبره أن هذا المكان مبارك مطهر حيث جعله محلاً كلَّم الله فيه موسى وأرسله إلى فرعون، وقد بارك الله من في النار ومن حولها من الملائكة، والله منزَّه سبحانه عما لا يليق بجلاله من العيب والنقص ومما نسبه إليه بعض خلقه.

(٩) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

ونادى الله موسى وأخبره أنه - سبحانه - المستحق للألوهية وحده لا شريك له، العزيز الذي غلب أعداءه ونصر أولياءه، الحكيم الذي أحسن التدبير وأتقن التقدير.

(١٠) ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

وأمر الله موسى أن يُلْقي عصاه فألقاها فتحولت حية بإذن الله، فلما رآها موسى تضطرب أمامه فرَّ خائفًا وتركها ولم يعد إليها، فناداه الله بقوله له: لا تخف فإن الرسل ليس عليهم خوف؛ لكرامتهم على الله ومنزلتهم عنده.

(١١) ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

لكن من أذنب وظلم نفسه بالخطايا ثم عاد إلى ربه وتاب إلى مولاه فإن الله يغفر له ما سلف منه ويعفو عما أخطأ فيه؛ لأن الله كثير الغفران، واسع الرحمة.

(١٢) ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

وأمر الله موسى أن يدخل يده في جيبه تحت يده من جهة إبطه فخرجت بيضاء شديدة البياض من غير برص، وهي إحدى تسع معجزات باهرات أيد الله بها موسى أمام فرعون وقومه؛ لأنهم خرجوا عن طاعة الله وتعدوا حدوده.

(١٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

فلما أتى موسى بهذه المعجزات إلى فرعون وهي معجزات واضحة الدلالة، بيِّنة الحجة يبصر بها من رآها الحق، ردَّ فرعون وقومه بأن هذه المعجزات سحر واضح لا يمتري فيه أحد، وهذا منهم كذب وزور.

(١٤) ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

وكذب فرعون وقومه بالمعجزات التي أتى بها موسى، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنها من عند الله وأنها حق، لكن حملهم على التكذيب العدوان وإنكار الدليل والتكبر على عباد الله مع البطر والأشر، فانظر كيف كان مصيرهم بعدما أفسدوا في الأرض بالكفر والقتل والظلم، لقد أغرقهم الله في البحر ولهم في الآخرة عذاب النار.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

ولقد تفضل الله على داود وسليمان - عليهما السلام - بعلم نافع من الوحي والحكمة والفهم، فعملا بعلمهما وعلماه الناس، وشكرا الله على تفضيله إياهما على الكثير من الناس، وفي هذا برهان على فضل العلم وشرفه وعلو منزلة حملته.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾

وورث سليمان أباه داود في الرسالة والحكمة والملك، فصار خليفة من بعده، وقال سليمان للناس شاكرًا نعم ربه: أيها الناس، إن الله علَّمنا وفهمنا كلام الطير، وتفضل علينا بكل شيء نحتاج إليه في إقامة الملك وقوة الدولة، وهذه المواهب التي منحنا الله إياها هي من الفضل والخير الذي رفعنا الله به وخصَّنا به على غيرنا من البشر.

(١٧) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

واجتمع جنود سليمان من سائر المخلوقات جنًا وإنسًا وطيرًا في يوم احتفال لهم، وكانوا مع كثرتهم وتنوعهم على نظام دقيق كلٌ عرف مكانه ومهمته.

(١٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

حتى إذا وصل سليمان وجنوده إلى واد النمل قالت نملة تحذر سائر النمل: يا أيها النمل، ادخلوا مساكنكم خوفًا من سليمان وجنوده إذا مرّوا عليكم أن يهلكوكم بأقدامهم، إنهم لا يقصدون ذلك، لكنهم قد لا يعلمون بوجودكم.

(١٩) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وضحك سليمان من كلام النملة كيف عرّفها الله بسليمان وجنوده وفهمها وأرشدها إلى تحذير النمل، وعلم نعمة الله عليه وسأل ربه أن يعينه على شكره - سبحانه - على ما أنعم به عليه وعلى والديه من الهداية والإيمان والحكمة، وسأل ربه أن يوفّقه لعملٍ صالح يرضى الله عنه، وأن يدخله برحمة منه في جنات النعيم مع الأبرار في دار القرار بجوار العزيز الغفار.

(٢٠) ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾

وتفقد سليمان الطيور التي سخرها الله له وما غاب منها وما حضر، فلم ير الهدهد في مكانه المعد له، فقال سليمان منكرًا غياب الهدهد: ما لي لا أرى الهدهد حاضرًا هل هو مختبئ أم غائب؟

(٢١) ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

فلما تيقن سليمان غياب الهدهد توعده بالعذاب الشديد تنكيلاً به وتأديبًا له أو الذبح عقوبةً له على تأخره وإهماله مهمته، إلا إذا جاء بعذر قائم يعذره به سليمان عن غيابه.

(٢٢) ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

فبقي الهدهد وقتًا غير طويل ثم جاء، فلامه سليمان على الغياب، فأجاب الهدهد: لقد علمت بأمرٍ لا تعلمه وأدركته تمام الإدراك، وقد أتيتُ إليك من سبأ في أرض اليمن بخبر عظيم، وأنا متيقن مما أقول صادق فيما أنقل.

(٢٣) ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

يقول الهدهد: إني وجدت في اليمن امرأة تحكم أهل سبأ وأعطاها الله كل شيء مما يقوم به الملك، ولها سرير كبير عظيم القدر تجلس عليه في وقت الحكم.

(٢٤) ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

وجدتُ هذه الملكة هي ورعيتها يعبدون الشمس ولا يعبدون الله - تعالى - الذي خلقهم ورزقهم، والذي خدعهم بذلك هو الشيطان؛ حيث حسَّن لهم الشرك بالله والمعاصي، فصرفهم عن التوحيد وعبادة الله - عز وجل -، فلم يُوفَّقوا للإيمان بالله وإخلاص الطاعة له وإفراده بالعبودية، فكأن الهدهد أنكر أمرين على أهل سبأ: الشرك بالله، وكون المرأة تحكمهم.

(٢٥) ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

صرفهم الشيطان عن عبادة الرحمن لئلا يسجدوا للواحد الديان الذي يطلع على كل مخبوء مستور في السموات والأرض من سر وكنز ونبات ومطر وغير ذلك، ويعلم ما أسرَّ العباد وما جهروا به وما أخفوه وما أظهروه.

(٢٦) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

والله وحده لا إله إلا هو لا شريك له، لا معبود بحقٍ سواه، ولا إله يستحق العبودية غيره، وهو رب العرش العظيم الذي هو أعظم وأكبر من كل عرش سواه من عروش الملوك.

(٢٧) ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فقال سليمان للهدهد: سنمهلك ونتثبت ممّا جئتنا به حتى يظهر لنا الأمر أصدقت فيما قلت أم كذبت فيما نقلت، وقدم الصدق تفاؤلاً.

(٢٨) ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

اذهب - أيها الهدهد - بكتابي هذا إلى بلقيس ملكة سبأ وقومها وسلِّم الكتاب إليهم، ثم انصرف عنهم وكن قريبًا منهم؛ لتسمع كلامهم وتنقل أخبارهم وما يدور بينهم.

(٢٩) ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾

فسار الهدهد برسالة سليمان وألقاها على الملكة، فجمعت أعيان الدولة وسادة قومها وأنصتوا لها وهي تقول: لقد جاءتني رسالة جليلة القدر نفيسة المضمون من ملك عظيم الشأن شديد البأس.

(٣٠) ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وقرأت عليهم نصَّ الرسالة وفيها: إن الكتاب من سليمان مفتتحة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

(٣١) ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾

ألا تتكبروا عليَّ، وتعالوا خاضعين بالعبودية لله مقرين بالوحدانية له.

(٣٢) ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾

ثم قالت بلقيس لقومها: أشيروا عليَّ - أيها الأعيان - في هذا الشأن وفي رسالة سليمان، فأنا دائمًا أستشيركم ولا أبرم أمرًا دونكم.

(٣٣) ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾

فردَّ الأعيان على الملكة بلقيس قائلين: أنت تعرفين أنا أصحاب قوة في العدد والعتاد، وأصحاب شجاعة وإقدام في المعارك وصبرٍ على اللقاء، والأمر يعود إليك فلك الرأي فتأملي الأصلح والأصوب ونحن سامعون لقولك مطيعون لأمرك.

(٣٤) ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾

قالت بحصافة وحنكة وتجربة محذرةً من مغبة محاربة الملوك: إن من عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة بالقوة والقهر أذلوا أشرافها، وقتلوا رجالها، وخربوا بيوتها، وأفسدوا فيها بالقتل والأسر والظلم، وهذه عادتهم في كل زمان ومكان.

(٣٥) ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

وسوف أبعث لسليمان وقومه هدية تستجلب ودهم وتدفع الأذى عنا، وهي هدية نفيسة وثمينة، وسوف أنتظر عودة الرسل من عند سليمان لأرى كيف قابلهم وكيف أخذ الهدية.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾

فلما جاء الوفد من عند الملكة بلقيس إلى سليمان بالهدية الثمينة، أنكر سليمان ذلك؛ لأن الله أعطاه من أسباب الدنيا ومن وسائل الملك ما لم يعطه أحدًا من الناس، وقال: كيف تعطوني شيئًا من عرض الدنيا الزائل والله قد أعطاني النبوة والحكمة والملك والعلم والفهم والأموال والجاه وهي أعظم مما عندكم وأفضل، بل أنتم أحق أن تفرحوا بما يُهدى إليكم من أسباب الدنيا؛ لأنكم تحبون أموالها وجاهها والفخر بها والمكاثرة فيها.

(٣٧) ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾

وقال سليمان للرسول الذي وفد من عند الملكة سبأ: عد إلى الملكة وقومها وأُقسم بالله لنغزونهم بجيش لا يستطيعون مقاومته ولا مواجهته ولنخرجنهم من ديارهم أذِلاء صغراء مهانين إن لم يُسْلِموا ويوحدوا الله ويفردوه بالعبودية ويتركوا الشرك به سبحانه.

(٣٨) ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾

ثم قال سليمان لمن حوله من جنده: من منكم يذهب فيأتيني بسرير ملكة سبأ قبل أن تأتي هي وقومها خاضعين مستسلمين؟

(٣٩) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

قال أحد الجن المردة الأقوياء شديد البأس: أنا سوف أحضر لك سريرها قبل أن تنتهي من مجلسك هذا، فإني قوي على حمله، أمين على ما فيه، أحضره على حاله بلا نقص ولا تبديل ولا تأخير.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾

قال الذي عنده علم من الكتاب –وهو شيء من علم النبوة الذي أُوحي إلى سليمان–: أنا سوف أحضر لك السرير قبل أن تغمض أجفانك على عيونك إذا سرَّحت النظر إلى شيء، فأمره سليمان فدعا الله فَحَضَّر السرير بإذن الله، فلما أبصر سليمان السرير العظيم أمامه في لمحة الطرف قال: هذا من فضل ربي الخالق المالك المدبر المتصرف، وهو امتحان لي هل أشكر نعمه وأخلص الطاعة له أم أكفر نعمه وأترك شكره، ومن شكر الله على ما أنعم فإن فائدة شكره تعود إليه بزيادة النعيم ودوام الخير، ومن أنكر نعم الله وترك شكره فالله غني عنه وعن شكره، كريم شمل بفضله الشاكر والكافر والموحد والجاحد، وسوف يحاسب الجميع ويجزي كلاً بعمله.

(٤١) ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾

قال سليمان لجنده: غيروا في معالم سرير الملكة لنشاهد مدى معرفتها وذكائها هل تهتدي لمعرفته أم تتكره؟

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

فلما جاءت بلقيس ملكة سبأ إلى سليمان وحضرت مع أعيان قومها، سألها سليمان أهذا سريرك الذي تجلسين عليه للحكم؟ قالت: إنه يشبه سريري، وهذا من ذكائها فلم تجزم بالإقرار أو الإنكار، بل جعلت الأمر محتملاً، فعلم سليمان أنها سُددت في الجواب وتيقنت من صدق سليمان في نبوته، وقال: الله أعطانا العلم به – سبحانه – وبقدرته من قبل أن يعطيها، ونحن خاضعون له – سبحانه – مستسلمون لأمره على دين الإسلام.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

ومنعها من توحيد الله وإخلاص العبادة له ما كانت عليه من شرك وعبادة للشمس، أنها عاشت بين قوم كفار فقلدت الآباء والأجداد في الشرك، ومع أنها حصيفة ذكية تميزُ بين الخطأ والصواب، لكن التقليد الأعمى والعادات الباطلة تطمس البصيرة.

(٤٤) ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قيل لبلقيس: ادخلي قصر سليمان، وكان بهو القصر من زجاج أملس صافٍ وتحته ماء، فلما رأت هذا المنظر ظنت أن المكان ماءٌ تتردد أمواجه وليس فوقه زجاج وخافت أن تبتل بالماء، ورفعت الثياب عن ساقيها، لتعبر الماء، فقال لها سليمان: هذا البهو سطح أملس من زجاج شفاف صافٍ تحته ماء ولن يصل إليك الماء، فدُهشتْ من عظمة ما أوتي سليمان من أسباب الملك وأبَّهة السلطان، وقالت: ربي إني ظلمتُ نفسي بالشرك والآن أعلنتُ لك التوحيد وانقدتُ لأمرك باتباع سليمان النبي – عليه السلام –؛ لأدخل معه في دين ملك الملوك رب العالمين أجمعين وإله الأولين والآخرين.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾

ولقد أرسل الله إلى قوم ثمود أخاهم صالحًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له وعدم الإشراك به، فلما جاءهم صالح بالتوحيد انقسم قومه إلى طائفتين: طائفة مؤمنة، وطائفة كافرة، وكل يخاصم الآخر على دينه الذي هو عليه.

(٤٦) ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾

قال صالح لمن كفر به: لماذا تبادرون إلى المعاصي والإقدام على الذنوب التي تورث لكم عقاب الله وغضبه وتؤجلون الإيمان بالله وعمل الصالحات التي تورث لكم رضوان الله وثوابه؟ لماذا لا تسألون الله المغفرة ابتداءً وتستغفرونه من الذنوب؛ لعل الله أن يرحمكم بغفران الخطايا والعفو عما كان منكم؟

(٤٧) ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴾

وقال قوم صالح له: إننا متشائمون منك وممن اتبعك على دينك، فردَّ عليهم صالح: إنما وقع بكم من خير أو شر فالله قدره وقضاه، ولكن الله يمتحنكم بالعسر واليسر والشدة والرخاء.

(٤٨) ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾

وكان في مدينة صالح - وهي الحجر شمال غرب جزيرة العرب - تسعة رجال أشرار يفسدون في الأرض بظلم الناس وعمل السيئات وليس فيهم صلاح أبدًا.

(٤٩) ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

فتشاور هؤلاء التسعة فيما بينهم، وحلف بعضهم لبعض: لنفاجئن صالحًا وأهله بالقتل غيلة في الليل، ثم نقول لولي الدم من أسرته: ما حضرنا قتلهم وقد كنا غائبين، ونحن صادقون في قولنا.

(٥٠) ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

وحبكوا حيلة لقتل صالح وأهله خفية في ظلام الليل، فحمى الله نبيه صالحًا وأهله، وفجأ الله هؤلاء الأشرار بالعقوبة الماحقة في غفلة منهم، وهم كانوا لا يتوقعون نزول عذاب الله بهم.

(٥١) ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

فاعتبروا بما حصل لهؤلاء كيف كانت نتيجة عملهم السيء، كيف أبادهم الله وأهلكهم كافة ولم يبق منهم أحدًا.

(٥٢) ﴿ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

فهذه دُوْرهم أصبحت خرابًا خالية ليس فيها أنيس بعدما أهلكهم الله بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك والإفساد في الأرض ومحاربة صالح، إن فيما فعل الله بهم من الإبادة والإهلاك لعبرةً عظيمةً لمن عنده علم نافع يستفيد من العبر، وهذه سنة الله فيمن كفر به وحارب رسله عليهم السلام.

(٥٣) ﴿ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾

وأنجى الله من العذاب الذي نزل بقوم ثمود نبيهم صالحًا وأهله الذين كانوا يعملون بطاعة الله ويتركون معاصيه.

(٥٤) ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾

واذكر النبي لوطًا إذ أنكر على قومه الفعلة الشنيعة القبيحة وهي إتيان الرجال عِوضًا من النساء، وهم يتنكرون لأمر الله لهم بالصلاح ونهيه لهم عن الفساد.

(٥٥) ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾

فعصوا أمر الله وارتكبوا نهيه، وفعلوا فعلاً قبيحًا لم يسبق لأمة من الأمم أن فعلت هذا الفعل، وهي إتيان الرجال دون النساء.

(٥٦) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

فما وجد قوم لوط جوابًا على إنكار لوط لهم إلا أن قالوا فيما بينهم: أخْرِجوا لوطًا وأهله من قريتكم؛ لأنهم طاهرون متطهرون من هذه الفواحش، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً.

٥٧ ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾

فسلّم الله لوطًا وأهله من العذاب المعد لقومه الكفار، لكن امرأته الكافرة بقيت مع الهالكين فنالها العذاب؛ لأنها كانت تعين قومها على فعل الفاحشة.

٥٨ ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾

وأرسل الله من السماء حجارةً من طين رجمهم بها فمزقهم وأبادهم، فقبح ذاك المطر من مطر، فقد أهلك الله به قومًا قد أنذرهم نبيهم عذاب الله.

٥٩ ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

قل - أيها النبي -: الثناء كله والشكر أوله وآخره لله الواحد الأحد، وسلام من الله وأمان من كل الآفات والمخاوف لعباده الذين اختارهم لإبلاغ رسالته، ثم اسأل الكفار: هل الله الخالق الرازق الذي يجلب الخير ويدفع الشر خير لكم أم آلهتكم التي لا تخلق ولا ترزق ولا تجلب خيرًا ولا تدفع عن أنفسها ضرًا.

٦٠ ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾

واسأل الكفار: من الذي خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبت به حدائق جميلة ذات منظر بهي حسن، وأنتم لا تستطيعون إنبات شجرها لولا أن الله أنبتها وحده - سبحانه -، هل هناك إله آخر مع الله يفعل هذه الأفعال من الخلق والرزق وإنزال الماء وإخراج النبات حتى يستحق شيئًا من العبادة؟ بل إن الكفار أناس ينحرفون عن الهداية وتوحيد الله إلى الضلالة والإشراك به، فيسوون بين الله وبين من لا ينفع ولا يضر.

٦١ ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

هل عبادة الآلهة التي لا تجلب خيرًا ولا تدفع شرًا أفضل أم عبادة من سوّى الأرض حتى جعلها مهدًا وفراشًا ومستقرًا، وفجر وسطها أنهارًا وثبتها بالجبال الرواسي، وجعل حاجزًا بين البحرين العذب والمالح فلا يختلط هذا بهذا، هل يستحق العبادة أحدٌ فعل فعله - سبحانه - حتى يُشرك به معه؟ بل أكثر الكفار لا يقدّرون الله حق قدره، ولا يعلمون ما له من عظمة؛ ولذلك قلَّدوا آباءهم في الإشراك بالله سبحانه.

٦٢ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

أعبادة آلهتكم المزعومة أفضل أم عبادة من يكشف الكرب عمن سأله، ويزيل البلاء عمن وقع به، ويفرج الشدة عمن حلَّت به، ويجعلكم تخلفون من تقدمكم في عمارة الأرض، هل هناك إله آخر يسدي إليكم النعم ويصرف عنكم النقم غير الله فتشركوا به مع الله؟ ما أقل تذكركم واعتباركم، فلهذا كفرتم بربكم فجهلكم حملكم على سوء فعلكم.

٦٣ ﴿ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

أعبادة آلهتكم المزعومة أفضل أم الذي يدلكم إذا سرتم في ظلمات البر والبحر وضللتم الطريق، فهو وحده الذي يرشدكم إلى سبيل النجاة، وهو - سبحانه - الذي يرسل الرياح تبشر برحمته وبقدوم الغيث على عباده فيحيي به الأرض بعد موتها، هل هناك إله غير الله يفعل فعله فيُشرك به معه في العبودية، تنزَّه الله عن فعل المشركين، وتقدَّس أن يكون معه إله آخر، فهو الله الذي لا إله إلا هو لا رب سواه ولا معبود بحق غيره.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

واسأل الكفار: من الذي ابتدأ إنشاء الخلق دون مثال سابق ثم يفنيه متى أراد، ثم يعيده بعد الفناء، ومن الذي يرزق الخليقة من السماء بإنزال الماء ومن الأرض بإخراج الثمرات والزروع وغيره، هل هناك إله يفعل ذلك غير الله سبحانه؟ قل لهم: أين دليلكم على زعمكم الباطل أن لله شريكًا في ملكه وحكمه وعبادته؛ إن كنتم صادقين في هذا الزعم فقدموا الحجة؟

(٦٥) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: ليس في الكون أحدٌ يعلم ما غاب عن الأبصار إلا الواحد القهار، ولا يعلم الناس متى يُبعثون من القبور ليوم الحساب والنشور.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾

بل تكامل علمهم في اليوم الآخر فأيقنوا بالبعث بعد الموت بعدما شاهدوا الأهوال بعيونهم، حينها أصبحوا على يقين من ذلك اليوم، وكانوا في دنياهم في شك وريبة منه، بل عميت بصائرهم فكذبوا به.

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾

وقال الكفار: هل نُبعث بعد الموت ونعود أحياءً بعدما فنينا نحن وآباؤنا؟! إن هذا لبعيد بل مستحيل.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

لقد سبق أن وُعدنا بالبعث بعد الموت نحن وآباؤنا، فما وقع شيء من ذلك، وما رأينا أحدًا عاش بعدما مات، ما هذا الوعد إلا من خرافات المتقدمين ومن أكاذيب الأولين.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

قل - أيها النبي - لهؤلاء الكفار: اذهبوا في الأرض للاعتبار، وتفكروا في ديار المجرمين كيف أهلكهم الله وأبادهم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حلَّ بهم.

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

ولا تحزن - أيها النبي - من تكذيب الكفار، ولا يضق صدرك من كيد الفجار، فإن الله سوف ينصرك، ولك ولأتباعك عاقبة الدار.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

ويقول الكفار: متى يقع العذاب الذي تعدنا به يا محمد؟ إن كنتم صادقين أنه واقع فأين هو؟

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾

قل - أيها النبي - ربما دنا منكم العذاب الذي تستعجلونه من الله وأنتم لا تشعرون فهو قريب وأنتم عنه في غفلة.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

وإن ربك -أيها النبي- متفضل على الناس حيث أمهلهم ولم يعاجلهم بالعذاب على ذنوبهم وخطاياهم، ولكن أكثر البشر لا يشكرون الله على هذا الإمهال، ولا يخلصون له الطاعة ويفردونه بالعبودية.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

وإن ربك لمطلع على ما في السرائر وما تكِنُّ الضمائر وما تخفيه الصدور، عالم بكل خافٍ ومستور.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

وليس هناك أمر يغيب عن عيون البشر في السماء والأرض إلا في كتاب مسطر واضح عند الله، فالله علم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

إن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ يقص على بني إسرائيل ويبين لهم ما اختلفوا فيه، ويوضح لهم كل شبهة لُبِّست عليهم، الحق والعدل والفصل.

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

وهذا القرآن هداية لمن تمسك به من الضلال، وفيه الرُّشد من الغي، فهو رحمة من الله لمن اتبعه، فهو يوصل صاحبه إلى رضوان الله ويدله على سبيل الفوز والفلاح.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾

إن ربك وحده يفصل بين المتخاصمين من اليهود وغيرهم في كل ما اختلفوا فيه، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وهو العزيز الذي عزَّ في ملكه فقهر عدوه، وغلب بجبروته فقصم من حاربه، العليم الذي اطلع على كل كائنة، وعلم كل سر وجهر، وظاهر وباطن، فلا يلتبس عليه خطأ من صواب.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾

ففوِّض أمرك إلى الله - أيها النبي - ومن اتبعك، واعتمد عليه، وكِلِ الأمر كله له، فإنه سيكفيك ويحميك ويهديك؛ لأنك على طريق صحيح وسبيل قويم وهداية عظيمة.

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾

إنك - أيها النبي - لا تستطيع أن تُسْمِع الهدى لمن أمات الله قلبه بالكفر والمعاصي، ولا تستطيع أن تسمع صوتك بالحق من أصمَّ الله سمعه، فلا يسمع الهدى عند إدباره كارهًا للهداية معرضًا عن الحق.

(٨١) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

وما أنت - أيها النبي - بهادٍ من أضله الله فأعماه عن سبيل الحق، ولا تستطيع أن تسمع صوتك بالحق إلا من صدق بآيات الله وهو منقاد لأمره، خاضع لطاعته.

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

وإذا أوجب الله عليهم العقاب لكفرهم وعصيانهم وتماديهم في الطغيان أخرج الله لهم من الأرض دابةً -وهي من علامات الساعة الكبرى- تقول لهم: إن الناس كذبوا بالبعث بعد الموت وكانوا بآيات الله وبرسالة الرسول ﷺ لا يصدقون ولا يؤمنون.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

ويوم يجمع الله يوم القيامة من كل أمة طائفة ممن كذب بآيات الله وأنكر براهينه يوقف أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا جميعًا ثم يساقون إلى موقف الجزاء.

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

حتى إذا حضر من كل أمة طائفة من الذين أنكروا آيات الله وكذبوا رسله فاجتمعوا سألهم الله: لماذا كذبوا بآياته التي بعث بها رسله، وبالأدلة التي نصبها الله للناس في الكون من بديع الخلق وجميل الصنع الدالة على قدرته ووحدانيته - سبحانه - ولم يحيطوا علمًا ببطلانها حتى يردوها وينكروها؟ أم أي شيء كنتم تعملون في الدنيا؟ والله أعلم بما كانوا عاملين.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾

وأوجب الله عليهم كلمة العقاب لكفرهم وعصيانهم فهم لا يتكلمون بعذر صحيح ينفعهم عند الله، ولا يستطيعون النطق بحجة صادقة تدفع عنهم عذاب الله.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾

ألم ير الكفار أن الله جعل الليل مستقرًا للعباد يستريحون فيه من الأعمال وينامون فيه راحةً للأبدان، وجعل النهار مضيئًا بالشمس يبصرون فيه فيقومون لطلب الرزق وكسب العيش فيه، إن في تعاقب الليل والنهار لبرهانًا ساطعًا على قدرة الله وعظمته ووحدانيته لقوم يصدقون بالآيات ويتبعون الرسل عليهم السلام.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم ينفخ الملك إسرافيل في القرن فيخاف كل مخلوق في السموات وفي الأرض خوفًا عظيمًا من شدة النفخة إلا من استثناه الله ممن سلمه الله من هذا الفزع، وكل مخلوق يعود إلى ربه صاغرًا ذليلاً.

(٨٨) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾

وتشاهد الجبال تظنها أنها واقفة مكانها مستقرة في موضعها وهي تمشي مشيًا سريعًا كمشي الغمام الذي تسوقه الرياح، وهذا من صنع الله اللطيف الخبير الذي أحسن في خلقه وأبدع في صنعه، إن الله خبير بما يعمل الناس من حسن وسيء، وسيحاسبهم على ذلك.

(٨٩) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٞ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾

من جاء بالتوحيد مع العمل الصالح فصدق في عبادة الله وأخلص له الطاعة فالله يدخر له من الثواب أعظم من عمله وأجل من سعيه، وهي جنة عرضها السموات والأرض، وهم في أمن من الخوف العظيم؛ لأن الله أنزل عليهم السكينة وبشرهم بالفوز.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ومن أتى إلى ربه يوم القيامة بالشرك والمعاصي الكبيرة، فإن الله يكبه على وجهه في نار جهنم، ويُقال له -تبكيتًا-: هل هذا العذاب إلا جزاءٌ لك على فعلك القبيح من شرك وعصيان.

(٩١) ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٖۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

قل - أيها النبي للأمة -: إن الله أمرني أن أعبده وحده، فهو رب هذه البلدة -وهي مكة- التي شرّفها الله بأن حرمها على الناس، فلا يسفك فيها دم حرام أو يصاد صيد أو يقطع شجر، والله يملك كل شيء فيتصرف في ملكه كما يريد، والله أمرني أن أعبده وحده دون غيره وأن أكون من الخاضعين لحكمه المنقادين لشرعه المسابقين لطاعته.

(٩٢) ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾

وأمرني ربي أن أقرأ كتابه على العباد، لأقيم عليهم الحجة، فمن صدق وعمل صالحًا فثواب ذلك ونفعه يعود إليه وقد أحسن في نفسه، ومن كذب وأعرض فأخبره - أيها النبي - أنك منذر من الله تقيم الحجة على العباد ولا تملك هداية الناس، فالهادي والمضل هو الله وحده.

(٩٣) ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قل - أيها النبي -: الثناء كله والحمد جميعه والشكر أوله وآخره لله وحده، وسوف يريكم - أيها الناس - الآيات التي تدل على ألوهيته وقدرته في الآفاق وفي أنفسكم، فتعرفون هذه الأدلة معرفةً يظهر لكم بها الرشد والغي والحق والباطل، والله ليس بغافل عن أعمالكم، بل هو مطلع عليها يحصيها لكم وسوف يحاسبكم عليها.

مكية

ترتيبها
٢٨

سورة القصص

آياتها
٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿طسٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

هذه آيات القرآن المنزل على الرسول ﷺ الذي أوضح الله فيه كل أمر يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم.

(٣) ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

سوف يخبرك الله - أيها النبي - في هذه السورة بقصة موسى وفرعون بخبر صادق لمن يؤمن بهذا القرآن ويصدق بما جئت به، ويتبعك ويعمل بطاعة الله.

(٤) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

إن فرعون تكبر وتجبر وعتا وتمرد وتجاوز الحد في الظلم من قتل وبطش واستعباد وبغي، وجعل أهل مصر جماعات مختلفة، يستعبد جماعة منهم ويذلهم ويسخرهم لخدمته وهم بنو إسرائيل، فيقتل الرجال ويترك النساء للخدمة، إنه أفسد في الأرض فسادًا عظيمًا.

(٥) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

ويريد الله أن ينعم على من استعبدهم فرعون وأذلَّهم في مصر من بني إسرائيل، ويجعلهم قادةً في البر والصلاح، ودعاةً إلى الهدى والفلاح، ويجعلهم ورثة للأرض بعد أن يهلك فرعون وجنده؛ لتكون العاقبة لمن اتقاه.

(٦) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾

ويمكن الله للمستضعفين من عباده في الأرض، ويري فرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء المستضعفين المؤمنين ما كانوا يخشونه من استيلاء على ملكهم وذهاب لدولتهم وإخراجهم من أوطانهم أذلاء صاغرين.

(٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

وألهم الله أم موسى حين ولدته وخافت عليه أن يقتله فرعون أن ترضعه وهي واثقة بوعد الله، فإذا خافت أن ينكشف أمرها فلتضعه في صندوق وتلقيه في النيل ولا تخف من فرعون وجنده أن يذبحوه، ولا تحزن على فراقه، فقد وعدها الله أن يرد ولدها إليها سالمًا غانمًا، وأن يبعثه رسولاً.

(٨) ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾

فأغلقت عليه في صندوق وألقته في الماء، فوجده جند فرعون وأخذوه، ليكون عوناً لهم وولداً يربونه ولكنه صار عدواً لهم وسببًا لحزنهم وذهاب ملكهم، إن فرعون وهامان وأعوانهما كانوا ظالمين عتاة مجرمين.

(٩) ﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

وقالت امرأة فرعون له: إن موسى سوف يكون مصدر أنس وسرور لي ولك فلا تقتله، فقد تعود علينا حياته بفائدة أو يكون ابنًا لنا، ولم يكن لهما ولد، وفرعون ومن معه لم يعلموا بأن نهايتهم على يد هذا الطفل.

(١٠) ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وصار قلب أم موسى خاليًا من كل شيء إلا من تذكر موسى والتفكر في حاله، وأوشكت أن تظهر للناس أنه ولدها لولا أن ثبتها الله وصبَّرها فسكنت لموعود الله ووثقت بكفايته - سبحانه - فكانت مصدقة موقنة بما أوحى الله إليها به.

(١١) ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

وقالت أم موسى لأخت موسى حين وضعته في الماء: تتبعي آثار موسى، ماذا يُعمل به، فتتبعت آثاره فعرفته عن بُعد ولم يعلم قوم فرعون أنها أخته وأنها تريد معرفة أخباره.

(١٢) ﴿ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾

وحرَّم الله على موسى الرضاعة من أيّ امرأة غير أمه؛ لطفًا به وبأمه، فقالت أخته: ألا أدلكم على امرأة في بيت تحسن رضاعته وتربيته والقيام عليه، وهي حافظة له حريصة عليه؟ فأجابوها إلى ما طلبت.

(١٣) ﴿ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

فأعاد الله موسى إلى أمه؛ ليتم سرورها، ويهدأ بالها، ولينجز الله لها ما وعد، فعاد سالمًا محفوظًا برعاية الله، فذهب خوفها عليه وحزنها من فراقه، ولتعلم أم موسى أنما وعدها الله به حق لا شك فيه، حيث رده إليها، والله لا يخلف ما وعد به، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن وعد الله واقع لا محالة.

(١٤) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

ولما بلغ موسى تمام قوته وكمال عقله، أعطاه الله الحكم والعلم، وفقهه في دينه، ومثلما جزى الله موسى على عبادته وتقواه يجزي الله كل من أطاعه وتولاه.

(١٥) ﴿ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾

ودخل موسى المدينة مستخفيًا عن العيون في زمن غفلة من أهلها لئلا يشعروا به، فوجد فيها رجلين يقتتلان: أحدهما من قومه بني إسرائيل، والآخر قبطي من قوم فرعون، فطلب الإسرائيلي من موسى المساعدة على قتل القبطي، فضرب موسى القبطي بمجمع كفه فمات، فندم موسى على ذلك وقال: هذا العمل من تزيين الشيطان حيث استثارني بضرب القبطي، إن الشيطان عدو للإنسان يضله عن الهدى ويورده موارد الردى، وكان هذه الفعل من موسى قبل النبوة.

(١٦) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قال موسى بعدما قتل القبطي: ربّ إني ظلمتُ نفسي بقتل النفس المعصومة التي لم تأمرني بقتلها فاغفر لي هذه المعصية، فغفر الله له ذنبه، إن الله كثير الغفران لمن تاب من أهل العصيان، واسع الرحمة لمن أناب وتاب.

(١٧) ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

قال موسى: ربّ بسبب إنعامك عليَّ بالعفو والرحمة والعلم والحكمة فلن أكون مساعدًا لأحدٍ على ظلمه وجوره.

(١٨) ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴾

فأصبح موسى في مدينة فرعون خائفًا يترقب ويستمع الأنباء عنه وعمن قتله من أهل مصر، فرأى الإسرائيلي الذي طلب مساعدته بالأمس على قتل القبطي يطلب منه الإعانة على قتل قبطي آخر، فردَّ عليه موسى بقوله: إنك شديد الغواية كثير الظلم والطغيان.

(١٩) ﴿ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾

فلما عزم موسى على قتل القبطي، ظن الإسرائيلي أنه يريده، فقال لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت قبطياً بالأمس؟ (فسمع القبطي كلامه فسعى بالخبر لفرعون) ما تريد إلا أن تكون ظالمًا مستبدًا وما تريد أن تكون من أهل الإصلاح والخير والاستقامة.

(٢٠) ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

وأتى رجل يسعى من آخر المدينة فأخبر موسى أن أعيان البلد يتشاورون في قتلك، فاهرب من المدينة فإني ناصح لك مشفق عليك.

(٢١) ﴿ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فهرب موسى وهو خائف ينتظر الأخبار ويتوقع أن يدركه أحد لأخذه، ودعا ربه أن ينجيه من الظلمة ومن بطشهم.

(٢٢) ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

ولما قصد موسى ديار مدين وهرب من فرعون قال: عسى ربي أن يدلني على أفضل طريق إلى مدين وأن يرشدني إلى أحسن سبيل.

(٢٣) ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴾

ولما وصل موسى ماء مدين وجد عليه طائفة من الناس يسقون دوابهم، ووجد من دون تلك الطائفة فتاتين على انفراد من الجمع قد حبستا الغنم عن الماء؛ عجزًا ووهنًا عن مزاحمة الرجال، وتنتظران فراغ الناس من السقي لتسقيا غنمهما، فلما شاهد موسى ضعف الفتاتين رحمهما وقال: ما خبركما؟ فأجابتا: لا نستطيع مزاحمة الرجال ولا نسقي حتى ينتهي الناس من سقيهم، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على سقي غنمه ومزاحمة الناس.

(٢٤) ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾

فسقى موسى غنم الفتاتين ثم ذهب إلى ظل شجرة فجلس تحتها وقال: ربِّ إني في فقر إلى رزقك وفضلك من طعام ونحوه.

(٢٥) ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فعادت إحدى الفتاتين تسير وهي مستحية فقالت لموسى: إن أبي يدعوك ليعطيك ثواب سقي غنمنا، فسار موسى مع الفتاة، فلما التقى بأبيها وأخبره ما جرى له في مصر مع فرعون وقومه وهربه منهم قال له أبو الفتاة: لا تخف قد نجاك الله من الظلمة، فلا سلطان لهم علينا ولن يصل أذاهم إلينا.

(٢٦) ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

قالت إحدى الفتاتين لأبيها: يا أبتِ استأجر موسى لرعي الأغنام، إن أفضل من تستأجره القوي على حفظ الغنم، الأمين الذي لا يخون من ائتمنه، فلا خير في الضعيف الخائن.

(٢٧) ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

قال أبوهما لموسى: إني أريدُ أن أزوجك إحدى هاتين الفتاتين على أن تقوم برعي غنمي ثماني سنين فإن أكملت عشر سنين فهذا الفضل منك، ولن أشق عليك باشتراط العشر، فسوف تجدني - إن شاء الله - من الصالحين في حسن المعاملة، واللطيف بالأجير والوفاء بالوعد.

(٢٨) ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

قال موسى: هذا اتفاق بيني وبينك، فأي المدتين قضيتهما في الرعي أكن وافيًا، وليس عليَّ لوم في ترك الزيادة، والله شاهدٌ على ما اتفقنا عليه، مراقب لأعمالنا، مطلع على سرِّنا وعلانيتنا، وهو خير الشاهدين.

(٢٩) ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

فلما أتم موسى - عليه السلام - عشر سنين وهي أكمل المدتين وذهب بأسرته إلى مصر رأى في جانب الطور نارًا، فقال لأهله الزموا مكانكم وانتظروني فإني شاهدتُ نارًا لعلي آتيكم منها بنبأ يدلنا على الطريق، أو خبر من أهلها، أو آتي بقبس من النار تستدفئون به من البرد.

(٣٠) ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فلما وصل موسى إلى النار ناداه الله من جهة الوادي الأيمن لموسى في المكان المبارك من جانب الشجرة وقال له عن نفسه سبحانه: ﴿أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

(٣١) ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾

وأمره بإلقاء عصاه فتحولت - بإذن الله - إلى ثعبان عظيم يتحرك بشدة كأنه جان من الحيات، فلما رأى موسى ذلك المشهد فر هاربًا ولم يلتفت إلى الثعبان من شدة الخوف، فناداه الله أن يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين من كل ما يؤذيك؛ لأن من كان في رعاية الله أمن من كل مكروه.

(٣٢) ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

وأدخلْ يا موسى يدك في فتحة قميصك تخرج بيضاء من غير مرض ولا برص، وضم يدك إلى صدرك لتسكن نفسك ويهدأ قلبك، فهاتان العلامتان وهما: تحويل العصا إلى ثعبان وكون اليد بيضاء من غير مرض ولا برص دليلان عظيمان إلى فرعون وسادة قومه على قدرة الله ووحدانيته وصدق موسى، إن فرعون وأعيان قومه كانوا خارجين عن طاعة الله متجاوزين حدوده.

٣٣ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾

قال موسى لربه سبحانه: يا رب، إني قتلت من قوم فرعون نفسًا لم أُومَرْ بقتلها فأخاف أن يقتلوني بتلك النفس.

٣٤ ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا وأقدر مني على الكلام فأرسل -يا ربِّ- معي هارون؛ ليكون نبيًا مثلي يعاونني في الرسالة؛ علَّ فرعون أن يصدقني فإنني أخشى أن يكذب بما أُرسلتُ به.

٣٥ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

قال الله لموسى: سنقوي جانبك ونعينك بأخيك هارون، وننصركما على فرعون وقومه بالبرهان الظاهر والحجة القاطعة، فلا ينالونكم بأذى، أنت يا موسى وهارون ومن اتبعكما من المؤمنين منصورون ظاهرون على فرعون بأدلتنا الصادقة.

٣٦ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

فلما جاء موسى فرعون ومن معه بالبراهين المنزلة من الله والحجج الصادقة التي توضح الحق من الباطل، قالوا لموسى: ما هذا الذي بُعثت به إلا نوع من السحر الذي زورته واختلقته، وهو باطل وكذب وما سبق لنا أن سمعنا مثل هذا الزور فيما تقدم من القرون.

٣٧ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

وقال موسى لفرعون: إن ربي يعلم الصادق الذي جاء بالحق من الكاذب الذي يخاصم بالباطل، وهو - سبحانه - أعلم بمن سوف تكون له العاقبة المحمودة والنهاية الحسنة عنده في الآخرة، إن الظالمين لا يفوزون بخير ولا يوفقون لرشد.

٣٨ ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾

وقال فرعون لأعيان قومه: يا أيها الأشراف: أنا لا أعلم إلهًا لكم غيري فاعبدوني وحدي، وأوقد لي يا هامان على الطين نارًا حتى يقوى ويشتد، ثم ارفع عليه بناءً عاليًا، لعلي أرى الإله الذي يعبده موسى من دوني، وإني أظن أن موسى كاذب في دعواه؛ بأن له إلهًا غيري.

٣٩ ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾

وتعاظم فرعون وتجبر هو وجنوده في مصر بالباطل والفساد في الأرض والظلم، وحسب فرعون وقومه أن لا معاد ولا رجوع إلى رب العباد.

٤٠ ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فأهلك الله فرعون وجنوده وأبادهم وأغرقهم في البحر، فانظر كيف كانت مصارع الطغاة، ونهاية الظلمة الذين كفروا بالله وحاربوا رسله.

٤١ ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾

وجعل الله فرعون وقومه دعاةً إلى النار وقادة إلى الجحيم، يقتدي بهم الضلال والجبابرة، وهم يوم القيامة لا ينصرون أنفسهم وليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم.

(٤٢) ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾

وأتبع الله فرعون وقومه في الحياة الدنيا سخطًا وعارًا وخزيًا وغضبًا منه، ويوم القيامة هم ممن قُبِّحت أعمالهم فساء مصيرهم وخاب سعيهم.

(٤٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

ولقد أعطى الله موسى التوراة من بعد ما أفنى الأقوام السابقين كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، وفي التوراة براهين ساطعة وأدلة قاطعة لبني إسرائيل يهتدون بها إلى الحق ويجتنبون بنورها الباطل إذا عملوا بها، وفيها أسباب الرحمة والمغفرة، لعلهم يتذكرون فضل الله عليهم فيؤمنوا به ويتبعوا رسوله - عليه السلام - ويهتدوا بهداه.

(٤٤) ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

وما كنت - أيها النبي - بجانب الجبل الغربي مع موسى إذ كلمه الله، ولم تحضر ذلك المشهد.

(٤٥) ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾

ولكن الله خلق أجيالاً فمر عليهم زمن طويل فنسوا توحيد الله وعبادته وأعرضوا عن دينه، وما كنت نازلاً في أهل مدين تقرأ عليهم كتاب الله، فتدرك أخبارهم وتطلع على أمورهم، ولكن هذه القصة التي أخبرت بها قومك عن موسى دليل على رسالتك وبرهان على نبوتك.

(٤٦) ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

وما كنت - أيها النبي - حاضرًا بجانب جبل الطور حين كلم الله موسى، ولكن الله أوحى إليك بخبر ذلك رحمة من الله بك ولطفًا، لتخوف أمة ما سبق أن جاءهم رسول من عند الله لعلهم يتذكرون ما أنزل الله إليك؛ فيعملوا به ويتركوا ما سواه من أعمال الشرك والجاهلية.

(٤٧) ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولولا أن ينزِّل الله بالكفار عذابًا بسبب كفرهم، فيقولوا: يا ربنا لماذا لم ترسل إلينا رسولاً من قبل أن تعذبنا، فنعمل بالآيات التي أنزلتها ونكون ممن صدق بكتابك وبرسولك ﷺ.

(٤٨) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾

فلما جاء الرسول ﷺ كفار مكة يخوفهم عذاب الله قالوا معترضين: لماذا لم يعطه الله من المعجزات الحسية الظاهرة مثلما أعطى موسى كعصاه ويده البيضاء؟ قل لهم - أيها النبي -: أما كفر بنو اسرائيل بمعجزات موسى من قبل؟ وقالوا: إن التوراة والقرآن سحران تعاونا في سحرهما، وقالوا: كفرنا بالتوراة والقرآن.

(٤٩) ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

قل - أيها النبي لهم -: تعالوا بكتاب منزّل من الله هو أعظم هدايةً وأحسن رشدًا من التوراة والقرآن، أهتدي به وأعمل بما فيه إن كنتم صادقين في دعواكم.

٥٠ ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

فإن لم يأتوا بما سألتهم إياه من كتاب غير القرآن والتوراة، وانقطع عذرهم وبارت حجتهم، فاعلم أنهم أهل هوى ليسوا بأهل دليل، ولا أحد أشد ضلالاً وأكثر غيًا من صاحب الهوى التارك لشرع الله، إن الله لا يرشد إلى الصواب المتجاوزين لحدوده العاصين لأمره المحاربين لدينه.

٥١ ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

ولقد بيَّن الله القرآن وفصّله رحمة بالناس، لعلهم يعتبرون بما فيه ويتعظون بآياته.

٥٢ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى ولم يحرِّفوا ولم يبدلوا يصدّقون بالقرآن أيضًا كعبد الله بن سلام وغيره.

٥٣ ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾

وإذا قُرئت آيات القرآن على المؤمنين به من أهل الكتاب، قالوا: صدَّقنا بصحة ما فيه وأنه من عند الله واتبعناه، إنه حق نزل من الله - تعالى - إنا كنا من قبل أن ينزّل القرآن على محمد ﷺ موحدين على دين الإسلام الذي هو دين الرسل جميعًا.

٥٤ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

هؤلاء المصدقون بكتابهم السابق وبالقرآن يضاعف الله لهم الأجر مرتين لإيمانهم بالكتابين؛ ولأنهم صابرون على أداء الطاعة واجتناب المعصية، وهم يدفعون السيئة بالحسنة، أي يعملون الطاعة بعد المعصية تكفيرًا لها، أو يقابلون الإساءة بالإحسان، وهم يتصدقون لوجه الله مما أعطاهم الله.

٥٥ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

وإذا سمع هؤلاء الأبرار باطلاً من القول لم يصغوا إليه بل نزهوا أسماعهم عن الإنصات له، وقالوا: لنا أعمالنا فنحن مسؤولون عنها، ولكم أعمالكم وإثمها عليكم، فلن نجيبكم على باطلكم ولا نشارككم في معاصيكم، ولكم السلامة من أذانا فلن نتشاغل بالرد على الجهلاء ومعاملة السفهاء بالمثل، فأعظم رد على السفيه السكوت والإعراض.

٥٦ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

إنك - أيها النبي - لا تهدي هداية توفيق من أحببته من الناس وأحببت هدايته، ولكن الهادي وحده هو الله، فهو الذي يوفق من شاء من عباده للهدى، وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيشرح صدره لها ويدله عليها.

٥٧ ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وقال الكفار للرسول ﷺ: إن نتبع الهدى الذي بعثت به والتوحيد الذي أُرسلت به وترك عبادة الأصنام والأوثان يتخطفنا الناس من ديارنا بالقتل والأسر والنهب والسلب. أولم يهيئ الله لهم بلدًا آمنًا مطمئنًا وهو مكة البلد المحرم منذ خلق الله السموات والأرض، يجلب إليها خيرات الأرض وثمرات كل من الفواكه والحبوب والزروع رزقًا من عند الله؟ ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن المنعم حقيقة هو الله، فلا يشكرونه بتوحيده وإخلاص العبادة له.

(٥٨) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾

وكثير من أهل القرى أهلكهم الله ودمرهم حين أشغلتهم معيشتهم وألهتهم شهواتهم عن الإيمان بالله وطاعته واتباع رسله، فكذبوا وأعرضوا، فهذه مساكنهم كما ترى خاوية بعد فنائهم لم يسكنها أحد بعدهم إلا القليل، والله الوارث لعباده، الباقي بعد فناء خلقه، يعود إليه الجميع فيجزي كل عامل بما عمل.

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾

ولم يكن الله - سبحانه - بمهلك ولا مدمِّر القرى التي حول مكة في زمن الرسول ﷺ حتى يرسل في أم هذه القرى وأكبرها وأشرفها وأوسطها وهي مكة رسولاً هو محمد ﷺ يقرأ آيات القرآن على الناس، ولم يكن الله بمهلك القرى إلا بعد ما يظلم أهلها أنفسهم بالكفر بالله ومحاربة رسله وعصيان أمره، فيستحقون الهلاك والدمار، فكل قرية لا يعذب الله أهلها حتى يقيم الحجة عليهم بإرسال رسول إليهم.

(٦٠) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

وما أعطاكم الله - أيها العباد - من أموال وأولاد فإنما هو للمتعة في هذه الحياة الفانية والدنيا الزائلة، وجمال لكم أمام الناس، والذي عند الله لأوليائه وعباده الصالحين خير وأبقى؛ لأنه مبارك هنيء دائم لا نهاية له، أفلا تتفكرون في هذا الأمر فتميزوا بين الصالح وغيره؟

(٦١) ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾

أفمن وعده الله - سبحانه وتعالى - من عباده على عمله الصالح جنات النعيم فهو حاصل على هذا الوعد؛ لأن الله سوف ينجزه له ويفي به كما وعد، فهل مثله كمثل من متعه الله في الدنيا القصيرة بشهوات منقضية ولذائذ زائلة فآثر الدنيا على الآخرة ونسي لقاء الله ثم يحضر عند الله يوم القيامة ليجازيه بما فعل، فهل هذا مثل هذا؟ فليفكر الإنسان في أي الأمرين أصلح وليختر لنفسه الأرشد.

(٦٢) ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾

ويوم ينادي الله - تعالى - المشركين فيقول لهم: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دوني وَتدَّعُون أنها مشاركة لي في ألوهيتي؟

(٦٣) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾

قال الكفار الذين وجب عليهم عذاب الله: ربنا هؤلاء الذين أضللنا، قد أضللناهم بغوايتنا لهم كما ضللنا نحن، فاليوم نبرأ إليك من نصرتهم وولايتهم، وهم لم يكونوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون الشياطين التي أوحت إليهم بالشرك.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾

وقيل للكفار يوم الدين: نادوا آلهتكم المزعومة التي كنتم تعبدونها من دون الله، فنادوهم فلم يجدوا عندها جوابًا، وشاهدوا العذاب بعيونهم، ولو أنهم كانوا في الدنيا على هدى وطاعة لله لما عذبهم الله.

(٦٥) ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

ويوم ينادي الله الكفار يوم القيامة فيسألهم: ما جوابكم لرسلنا حينما أرسلناهم إليكم بالإيمان والعمل الصالح؟

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾

فغابت عنهم الحجج واختفت منهم البينات، ووقعوا في حيرة ماذا يقولون؟! فهم لخوفهم واضطرابهم لا يسأل بعضهم بعضًا عن حجة مقبولة يجيبون بها عن سؤال الله لهم.

(٦٧) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴾

فأما من تاب من الكفر وصدق في طاعة الله وعمل بما شرعه واتبع رسوله ﷺ فهو ممن نال المطلوب، ونجا من المرهوب، وحاز الرضوان والجنان.

(٦٨) ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

وربك الخالق المبدع المصور يخلق ما أراد أن يخلقه، لا راد لقضائه، ويصطفي لرسالته ولعبادته ما أراد من خلقه، وليس للعباد شيءٌ من الخلق والاصطفاء والقضاء، بل الله وحده المالك لكل ذلك، تعالى عن ما أُشرك به، وتنزه عما وصفه به المبطلون.

(٦٩) ﴿ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴾

وربك العالم بما أخفته الصدور وما أظهرته الألسن، فالغيب عنده شهادة، والسر لديه علانية.

(٧٠) ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

وهو الله الذي لا يستحق العبادة غيره، ولا يستأهل الألوهية سواه، له المحامد كلها والمدائح أجمعها، والثناء الجميل أوله وآخره، وله الشكر على نعمه، وهو الحاكم وحده في أمور عباده، يشرِّع لهم ما ينفعهم، وإليه يعود العباد يوم المعاد؛ ليحكم بينهم.

(٧١) ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴾

قل أيها النبي: أخبروني - أيها العباد -: لو صيَّر الله عليكم الليل دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة بلا نهار، هل هناك إله غيره - سبحانه - يخلق لكم ضياءً تستضيئون به في هذه الظلمة المتصلة؟ أفلا تسمعون العظات سماع من استفاد وانتفع وقبل وعمل؟!

(٧٢) ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

قل - أيها النبي للعباد -: أخبروني إن صيَّر الله عليكم النهار دائمًا مستمرًا بلا ليل إلى يوم القيامة، هل هناك إله غير الله - سبحانه - يخلق لكم ليلاً تنامون فيه وتستريحون وتهدؤون؟ أفلا تنظرون آيات الله في تصريف الليل والنهار نظر اعتبار؟

(٧٣) ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

ومن رحمة الله بعباده أن خلق الليل والنهار فغاير بينهما، فجعل الليل وقت راحة لأبدانكم وزمن انقطاع لأعمالكم، تستريح فيه الأجسام وتنام فيه العيون، وجعل النهار ضياءً لتقوموا بأعمالكم وكسب معيشتكم، ولتشكروا الله على فضله بإخلاص العمل له ولزوم طاعته.

(٧٤) ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾

ويوم القيامة ينادي الله الكفار، فيقول لهم: أين آلهتكم التي كنتم تدَّعون ألوهيتها معي ، والمعنى هل تجلب لكم نفعًا أو تدفع عنكم ضرًا؟

(٧٥) ﴿ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

وأخذ الله من كل أمة من الأمم الكافرة شاهدًا عليهم منهم يشهد بما عملوه في الدنيا من كفر وتكذيب، وأمر الله تلك الأمم الكافرة أن تأتي بأدلتها وبراهينها على صحة ما ادعته من الشرك، حينها علم الكفار أن الحجة البالغة

للواحد القهار، وأن الله مستحق وحده للعبودية لا شريك له، وذهب عن الكفار كل دعوى باطلة وحجة كاذبة، فلم يجدوا من يشفع لهم أو يدفع عنهم العذاب، فلا عذر يُقبل ولا صديق ينفع ولا ولي يشفع ولا ناصر يدفع.

(٧٦) ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾

إن قارون كان من بني إسرائيل قوم موسى - عليه السلام - وليس مصريًا، فعلا في الأرض وتكبر على العباد وطغى بماله، وأعطاه الله من الكنوز الهائلة والأموال الطائلة ما يفوق الوصف، إلى درجة أن مفاتيح الخزائن لا يستطيع حملها الكثير من الرجال الأقوياء، إذ نصحه قومه وقالوا له: لا تكن أشرًا بطرًا متكبرًا فرحًا بالدنيا الزائلة، فإن الله لا يحب من عباده البطرين المتكبرين المتجبرين الذين لا يشكرون النعمة، ولا يعبدون الخالق، ولا يتواضعون للمخلوق.

(٧٧) ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

واقصد بهذا المال ما عند الله من الثواب والتمس مرضات الله فيما أعطاك من النعم والخيرات، ومع عملك للآخرة فلا تترك حصة الدنيا من التمتع بالطيب الحلال بلا تقتير ولا تبذير، وأحسنْ إلى العباد بالنفع والإعانة مثلما أحسن الله إليك بالعطايا الجزيلة، ولا تقصد الفساد من القول والعمل بالزور والظلم وعمل الفواحش والمنكرات، واحذر أن تلتمس ما يغضب الله من الكبر والعدوان، إن الله لا يحب المفسدين الذين لا صلاح في أقوالهم ولا أعمالهم، وإنما هم أهل أذى وشر وظلم.

(٧٨) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

قال قارون لمن نصحه: إنما أُعطيت هذا المال والثراء؛ لأن عندي علمًا فُضِّلْتُ به وقدرة على اكتساب المال، أولم يعلم قارون أن الله قد أهلك كثيرًا ممن سبقه ممن كان أقوى منه وأكثر مالاً؟ ولا يسأل الله المجرمين عن ذنوبهم؛ لعلمه بها واطلاعه عليها، وإنما يُسألون تبكيتًا وتقريرًا، ويعذبهم الله على علمه بذنوبهم.

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾

فخرج قارون على قومه وهو متجمل بلباسه، فخور بماله معجب بنفسه، فلما أبصره أهل الدنيا العاملون لها تمنوا أن يكون لهم من الأموال والجمال والجاه مثلما لقارون؛ لأنه محظوظ عندهم لما حصل له من متاع الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

وقال أهل العلم النافع الذين عرفوا الله وأدركوا الفقه في دينه والعلم بشرعه يردون على أهل الدنيا: الويل لكم والخيبة، إن الأجر الموعود به عند الله لمن اتقاه وعمل بشرعه أفضل وأرفع من أموال قارون وجاهه، ولا يقبل هذه الموعظة وينتفع بها إلا من صبر على طاعة الله وصبر عن معاصيه، ورضي بحُكْمه وجاهد نفسه للعمل بما يحبه الله.

(٨١) ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾

فخسف الله بقارون وبداره الأرض فغاصت به داره وهو بها، فلم يكن له أعوان يدفعون عنه العذاب، وما كان يستطيع الدفاع عن نفسه لضعفه أمام قوة الله عز وجل.

٨٢ ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

وصار من تمنى مثل حاله وأعجب به وبأمواله يقولون في ندم وتأثر واعتبار: إن الله يوسع العطاء لمن أراد من الناس ويضيقه على من أراد، لولا أن تفضل الله علينا فلم يعذبنا مثل قارون لخسف بنا معه لإعجابنا بماله وحاله، ألم تعلم أنه لا يفلح الكفار بنيل مطلوب ولا بالنجاة من مرهوب.

٨٣ ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

تلك هي الدار الآخرة يجعل الله النعيم فيها لمن تواضع له وخضع لجبروته ولم يتكبر على الخالق ولا على الخلق، ولم يفسد في الأرض بالظلم والمعاصي، والنهاية الحسنة في الجنة لمن اتقى الله وعمل بأوامره واجتنب نواهيه .

٨٤ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

من أتى إلى الله يوم القيامة بالتوحيد الخالص والعمل الصالح مع اجتناب المحرمات فله ثواب جزيل أفضل مما عمل، وهو رضوان الله والخلود في جنته، ومن عاد إلى ربه بالشرك والمعاصي فلا يُجزى إلا بمثل عمله السيء من العذاب والإهانة والنكال.

٨٥ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

إن الله الذي أنزل عليك القرآن - أيها النبي - وفرض عليك تبليغه للعباد والعمل به والتحاكم إليه سوف يعيدك إلى المحل الذي هاجرت منه وهو مكة، قل - أيها النبي للكفار -: ربي الله وحده أعلم بالمهتدين منا ومن أتى بالحق البيِّن ممن هو في بُعد عن الصراط المستقيم وانحراف عن الطريق القويم.

٨٦ ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

وما كنت - أيها النبي - تنتظر ولا تؤمِّل أن ينزل الله عليك القرآن، ولكن الله رحمة بك وبأمتك أكرمك بهذا الكتاب العظيم، فاشكر مولاك على ما أعطاك، واحمده على ما منَّ به عليك واجتباك، ولا تكونن عونًا للكفار على محاربة الواحد القهار.

٨٧ ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

ولا يصرفنك الكفار - أيها النبي - عن تبليغ الرسالة وتوضيح الشريعة بعدما أكرمك الله بالنبوة، وادعُ الناس إلى عبادة الله وحذرهم عذابه، واحذر أن توافق المشركين في شيء من أعمالهم، بل ابرأ منهم ومن فعلهم.

٨٨ ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ولا تعبد مع الله إلهًا آخر، فلا إله إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، فكل شيء غير الله هالك وميت وفانٍ والبقاء لله وحده، له الحكم يقضي في كل شيء بما أراد؛ لأنه المالك المتصرف، وإليه رجوع العباد يوم القيامة؛ ليجازي كلاً بما فعل، وفي الآية إثبات صفة الوجه لله - سبحانه وتعالى - على ما يليق به - سبحانه وتعالى - من جلال وكمال وعظمة.

* * *

مكية

ترتيبها ٢٩

سورة العنكبوت

آياتها ٦٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

① ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، ولها معان جليلة استأثر بعلمها سبحانه.

② ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

أظنَّ العباد أنهم إذا قالوا: آمنا تُركوا على هذه الدعوى ولم يُختبروا ويُبتلوا؟ بلى سوف يُختبرون بالبلاء ليظهر الصادق من الكاذب.

③ ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

ولقد امتحن الله الأقوام السابقين بإرسال الرسل إليهم، فظهر علم الله في صدق الصادق في إيمانه، وكذب الكاذب في دعواه.

④ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

بل ظن أهل الكفر والمعاصي أن يفوتوا على الله فلا يقدر عليهم ولا تدركهم قوته؟ لا والله بل هم في قبضة الله، فبئس حكمهم وتصورهم إن ظنوا أن الله عاجز عن مجازاتهم على أعمالهم.

⑤ ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

من كان يرجو أن يلقى ربه غدًا ويطمع فيما عنده من الأجر، فإن الأجل الذي وعد الله به العباد للبعث والنشور والثواب والعقاب حاصل لا محالة، وهو السميع للأقوال العليم بالأعمال، ولذلك يقضي بينهم بعلم وحكمة.

⑥ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

ومن جاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وجاهد نفسه للعمل بما يرضي الله فثواب جهاده لنفسه، ونفع ذلك عائد إليه؛ لأنه ما فعل ذلك إلا طلبًا للأجر؛ لأن الله غني عن إحسان من أحسن في عمله وصلاح من صلح في حاله، فهو - سبحانه - لا يحتاج إلى أحد من خلقه؛ فله وحده الغنى المطلق والملك كله والخلق جميعه.

⑦ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

والذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا الصالحات من الأعمال المشروعة سوف يغفر الله ذنوبهم، ويمحو خطاياهم، ويثيبهم على أعمالهم الصالحة أحسن ما كانوا يعملون؛ فيجعل الأجر على أجود عمل فعلوه.

⑧ ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

ووصى الله الإنسان بالإحسان بوالديه برًا ولطفًا ورحمةً في طاعة الله، وإذا حاول الوالدان أن يشرك الولد بالله أو أمراه بالكفر فلا طاعة لهما في ذلك، ومرجع العباد إلى الله ليحاسبهم على ما فعلوا إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

والذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا الأعمال المشروعة الصالحة فسوف يثيبهم الله على ذلك بدخول جنات النعيم .

(١٠) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وبعض الناس يقول: آمنا بالله بألسنتهم، فإذا آذاه الكفار سخط من ذلك وضاق وجزع كما يجزع من عذاب الله وانتهى صبره، فترك الإسلام، ولئن نصر الله الرسول ﷺ والمسلمين ليقولن هؤلاء المتذبذبون للمسلمين: إنا كنا معكم – أيها المسلمون – على محاربة الكفار، أوليس الله بعالم ومطلع على ما تكنه الصدور، ويعلم الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق؟

(١١) ﴿ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾

وليعلمن الله الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا دينهم واتبعوا الرسول ﷺ وناصروه، وليعلمن من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، وسوف يفصل الله بين الفريقين فيثيب الصادق ويعاقب الكاذب.

(١٢) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾

وقال الكفار للمؤمنين: اتركوا دين الإسلام وادخلوا في ديننا فإنا نتحمل عنكم عقاب ذنوبكم وآثار سيئاتكم، وهم كاذبون في ذلك، لن يحملوا منها مثقال ذرة، فدعواهم دعوى باطلة.

(١٣) ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

وسوف يحمل هؤلاء الكفار عاقبة ذنوبهم وأوزار خطاياهم مع أوزار كل إنسان أضلوه وكانوا سببًا في غوايته دون أن ينقص من أوزار سيئاتهم شيئًا، وسوف يسألهم الله يوم القيامة عن هذا الافتراء.

(١٤) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولقد أرسل الله نوحًا إلى قومه بتوحيده والدعوة إلى عبادته، فبقي يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فكذبوه فأغرقهم الله بالطوفان، وما ظلمهم الله بل كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والتكذيب.

(١٥) ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

فأنجى الله نوحًا ومن آمن معه في السفينة، وجعل الله ذلك عبرةً لمن جاء بعدهم من الأجيال وعظةً لجميع الناس.

(١٦) ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

واذكر إبراهيم – عليه السلام – يوم دعا قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون سواه مع العمل بما شرعه واجتناب معاصيه، ففي ذلك الخير كله من السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، والفوز بالجنة لمن ميز بين الخير والشر.

(١٧) ﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

وأخبرهم إبراهيم أن الذي يعبدونه من دون الله من أصنام وأوثان إنما هو اختلاق وكذب وافتراء؛ لأن هذه الآلهة المزعومة لا ترزق من عبدها وإنما الرازق وحده هو الله – سبحانه وتعالى –، فعلى العبد أن يطلب الرزق منه لا من

سواء، مع إخلاص الطاعة له وإفراده بالعبودية وشكره بالعمل بطاعته وترك معاصيه، وإليه المرجع يوم القيامة فيحاسب الخلق على أعمالهم.

(١٨) ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

وإن تكذبوا - أيها العباد - الرسول الكريم محمدًا ﷺ بدعوته لكم بتوحيد الله ولزوم طاعته وإخلاص العبادة له فقد سبقكم أقوام كذبوا رسلهم وحاربوهم فأهلكهم الله، وليس على الرسول إلا تبليغ أمته بدعوته التبليغ الواضح البيّن، ولا يحمل من آثار عصيانهم شيئًا.

(١٩) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

أولم يعلم هؤلاء المكذبون كيف ينشئ الله الخلق ويبدعه على غير مثال سابق، ثم يعيده - سبحانه وتعالى - بعد أن يفنيه مثلما كان أول مرة لا يصعب عليه شيء من ذلك، بل الكل بكلمة: (كن) فيكون، هذا يسير عليه - سبحانه وتعالى -؛ لكمال قدرته وتمام قوته وحكمته.

(٢٠) ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: اذهبوا في الأرض وانظروا نظر اعتبار وتفكروا كيف أنشأ الله الكون، وخلق الخلق ولم يصعب عليه شيء من ذلك، فإعادته بعد الفناء أيسر وأهون عليه، والله قدير على كل شيء، لا يعجزه شيء أراده ولا يصعب عليه أمر.

(٢١) ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾

والله يعذب من شاء من العباد على ما فعله من جُرم وفساد، ويرحم من شاء من عباده إذا تاب وأناب وعمل بطاعته واجتنب معاصيه، والمرجع إليه - سبحانه - وحده؛ ليثيب الطائع ويعاقب العاصي.

(٢٢) ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

وما أنتم - أيها العباد - بمعجزي ربكم في الأرض ولا في السماء، فتخرجون من قبضته أو تفوتون من عذابه إن عصيتموه، وما لكم ولي من دون الله يرعى شؤونكم ويتولى أموركم، وليس لكم نصير ينصركم من عذاب الله، فيدفع عنكم ما يحل بكم من عقوبة ونكال.

(٢٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ومن كذَّب وكفر بالبراهين التي أنزلها الله على رسوله في كتابه وجحد بأدلة الوحدانية والألوهية هؤلاء ليس لهم أمل أبدًا ولا مطمع في رحمة الله إذا رأوا عذابه، وإذا أبصروا ما وعد الله به أعداءه من العقاب، وسوف يذوقون العذاب الشديد المؤلم الموجع في نار جهنم.

(٢٤) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

فلم يكن جواب قوم إبراهيم له إلا أنهم تشاوروا فيما بينهم أن يقتلوا إبراهيم أو يحرقوه بالنار، ووضعوه في النار، فأنقذه الله منها وجعلها عليه بردًا وسلامًا، إن في إنقاذ الله لإبراهيم ونصره على عدوه لبراهين واضحة لعبادٍ يصدقون أخبار الله ويعملون بأوامره.

(٢٥) ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

ونصح إبراهيم قومه فقال: إن الذين تعبدونهم من دون الله من أصنام وأوثان إنما هي عبادة باطلة، وقد جعلتموها أنتم سببًا للمودة بينكم في هذه الدنيا الزائلة، تتحابون على عبادتها وتتوادون على نصرتها، فإذا كان يوم القيامة وقعت العداوة بينكم، وتبرأ بعضكم من بعض، ولعن بعضكم بعضًا، ثم يكون مردكم جميعًا إلى نار جهنم، فلا يدفع عنكم أحد عذابها ولا يمنعكم أحد من عقاب الله.

(٢٦) ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

فصدَّق لوطٌ إبراهيمَ وآمن بما أُرسل به واتبعه، وقال إبراهيم: إني ذاهب إلى الشام الأرض المباركة، وسوف أهجر أرض قومي؛ لأنها دار كفر، إن الله هو العزيز الذي عزَّ فقهر، وحكم فقدر يقهر من غالبه ويذل من حاربه، الحكيم في تدبيره وصنعه وفي تقديره وشرعه.

(٢٧) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ورزق الله إبراهيم بإسحاق ابنًا نبيًا، ومن بعده بالحفيد يعقوب نبيًا، وجعل الله في ذرية إبراهيم الأنبياء الكرام الذين أتوا بالكتب المنزلة من الله، وأعطى الله إبراهيم أجر عمله في الدنيا من الثناء الجميل والذكر الحسن والذرية الصالحة، وهو في الآخرة من الفائزين برضوان الله الناجين من عذابه.

(٢٨) ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

واذكر نبي الله لوطًا يوم نصح قومه وأنكر عليهم الفعل القبيح من إتيان الرجال دون النساء، وأخبرهم أنه ما تقدمهم بهذه الفعلة الشنيعة أحد من الأمم السابقة؛ لأنها تخالف الفطر والعقول والشرائع.

(٢٩) ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وأنكر عليهم لوط إتيان الرجال وقطع الطريق على المسافرين بأفعالهم القبيحة، ويزاولون في مجالسهم أقبح الأفعال من السخرية ورجم المارة بالحجارة وكشف العورات والتكلم بالفحش مما يخالف الدين والمروءة، فلم يكن لقوم لوط جواب عليه إلا أن قالوا: جئنا بعذاب الله الذي توعدتنا به إن كنت صادقًا أن الله أرسلك إلينا، وأنك سوف تنجز ما توعدت به.

(٣٠) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

فدعا لوط على قومه وقال: يا ربِّ أسألك أن تنصرني بإنزال عقابك على من أفسد في الأرض بفعل الأعمال القبيحة من فاحشة ومنكر، فاستجاب الله دعاءه وأهلك قومه.

(٣١) ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾

ولما جاء الملائكةُ إبراهيمَ تبشره بإسحاق ابنًا نبيًا ومن بعد إسحاق ابنه يعقوب نبيًا أيضًا، وأخبرت الملائكة إبراهيم أن الله أمرهم بتدمير قرية قوم لوط وهي (سدوم)؛ لأن سكانها ظلموا أنفسهم بالشرك والأعمال المنكرة.

(٣٢) ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

قال إبراهيم للملائكة: كيف تهلكون هذه القرية وفيها نبي الله لوط وهو لا يستحق العذاب، فردت الملائكة بأن الله أطلعهم على من في القرية وهم يَعلَمون الصالحين من المفسدين، وسوف يُنَجُّون لوطًا وأهله المؤمنين من الهلاك الذي سوف يحل بالمفسدين، إلا امرأة لوط فإنها سوف تبقى مع قومه وتهلك معهم؛ لأنها وافقتهم في أعمالهم القبيحة.

٣٣ ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

ولما جاءت الملائكة لوطًا ساءه مجيئهم؛ لأنه ظنهم من البشر، وهو يعرف خبث قومه وما يريدون من فعل القبيح، فقالت الملائكة للوط: لا تخف علينا فلن يصلوا إلينا، فالله يحمينا منهم، ولا تحزن من خبر إهلاكهم وتدمير قريتهم فسوف ينجيك الله من العذاب أنت وأهلك إلا امرأتك الهالكة مع قومك.

٣٤ ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

إن الله سوف ينزل على قرية قوم لوط عذابًا من السماء، حيث يُمطرون بحجارة تمزقهم بسبب فعلهم القبيح وفاحشتهم المنكرة.

٣٥ ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ولقد أبقى الله في قرية قوم لوط آثارًا واضحة وعلامات ظاهرة يُستدل بها على هلاكهم لمن تدبر آيات الله.

٣٦ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

وأرسل الله إلى مدين آخاهم النبي شعيبًا فدعاهم إلى عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له، وأن يطلبوا بعملهم الثواب من عند الله في اليوم الآخر، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والمنكرات وعدم الإقامة على الذنب، وطالبهم بالتوبة النصوح وصدق الإنابة إلى الله.

٣٧ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

فكذب أهل مدين نبيهم شعيبًا وردوا ما جاء به، فسلط الله عليهم زلزلة شديدة فدمرت ديارهم وأهلكتهم فصاروا في منازلهم صرعى هالكين.

٣٨ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾

وأهلك الله قوم عاد وقوم ثمود وقد ظهر للناس من آثار منازلهم وما فيها من خراب ما أوقع الله بهم من عقاب شديد، وقد حسَّن لهم إبليس فعلهم القبيح من الشرك والمعاصي فصدهم عن الهداية وعن عبادة الله - عز وجل - واتباع رسله - عليهم السلام -، وكانوا مستبصرين في غوايتهم معجبين بها مستحسنين لما يفعلون، يظنون أنهم على رشدٍ بينما هم في أشد ضلال وأكبر غواية.

٣٩ ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾

وأهلك الله قارون وفرعون وهامان بسبب كفرهم وعلوهم في الأرض، ولقد جاء الجميعَ موسى بن عمران بالبراهين الساطعة والحجج الدالة على صدقه؛ فتكبروا على عباد الله بما عندهم من سلطان ومال، وأفسدوا في الأرض، وما كانوا فائتين الله بل كان مقتدرًا عليهم وهم في قبضته.

٤٠ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

والجميع أخذهم الله بسبب خطاياهم: فبعضهم أنزل الله عليه حجارة من طين منضود كقوم لوط، وبعضهم أهلكه الله بالصيحة كقوم صالح وشعيب، وبعضهم خسف الله به الأرض كقارون، وبعضهم أغرقه الله كقوم نوح وفرعون

وجنده، والله لن يعذبهم بذنوب غيرهم بل أهلكهم بذنوب عملوها، فهم ظلموا أنفسهم بالكفر وترك الشكر ومحاربة الله ورسله.

٤١ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

صفة الذين عبدوا أصنامًا وأوثانًا من دون الله يرجون فيها النفع ودفع الضر مثل صفة العنكبوت التي بنت بيتًا ضعيفًا هشًا لتسكن فيه فلم ينفعها عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء الكفار ما نفعتهم معبوداتهم الباطلة من أوثان وأصنام من دون الله، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت، فإنه لا يستر من المطر، ولا ينفع وقت الخطر، ولا يصمد أمام الريح، وتقتل الأنثى فيه الذكر فلا يهنأ به. ولو كان يعلم هؤلاء الجهلاء بضعف آلهتهم ما عبدوها من دون الله.

٤٢ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

إن الله يعلم بما يعبد الكفار من دونه من سائر الأنداد، ويعلم أن هذه الآلهة عاجزة لا تنفع ولا تضر، وهي أسماء مجردة لا تجلب خيرًا ولا تدفع شرًا، والله العزيز ينتقم ممن عصاه ويذل من عاداه ويعز من والاه، وهو الحكيم في تدبيره وصنعه وفي حكمه وشرعه.

٤٣ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

وهذه الأمثال المذكورة يضربها الله للعباد لتكشف لهم حقائق الأمور، وينتفع بما فيها العالمون بالله وأسمائه وصفاته وشرعه.

٤٤ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

خلق الله السموات والأرض بالعدل والقسط لا للهو ولا للعب، إن في هذا الخلق العظيم دلالة واضحة وحجة قاطعة لمن صدق بكتاب الله وبرسوله ﷺ.

٤٥ ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

اقرأ - أيها النبي - على الناس ما أوحاه الله إليك من هذا القرآن العظيم، واعمل به، وأقم الصلاة كما شرعها الله على أتم وجه، إن المحافظة على الصلاة بحدودها وآدابها تمنع صاحبها من اقتراف الخطايا والوقوع في الفواحش والمنكرات؛ لأن من أحسن أداءها عمَّر الله فؤاده بالإيمان، وأنار قلبه باليقين، فتزداد تقواه وينكسر شيطانه وتشرق نفسه، ويحب الفضيلة ويكره الرذيلة، وتموت شجرة الشر فيه، ولذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء سواه، أو إن إقامة ذكر الله في الصلاة أعظم من نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، والله مطلع على ما يعمل العباد من حسن وسيء، وسوف يحاسبهم على ذلك بالثواب والعقاب.

٤٦ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

ولا تجادلوا - أيها المسلمون - اليهود والنصارى إلا بالقول اللين والخطاب الجميل والأسلوب الأمثل والرفق في الدعوة ليكبر الحق ويذعن للدليل، إلا من كابر وعاند وحاربكم ورفض الحوار والبرهان فله أسلوب آخر غير المجادلة من المجابهة والجهاد ونحو ذلك، كلٌّ بحسبه، وقولوا - أيها المسلمون - لليهود والنصارى: نحن آمنا بالقرآن الذي

أُنزل على محمد ﷺ وبالتوراة التي نزلت على موسى - عليه السلام - وبالإنجيل الذي نزل على عيسى - عليه السلام -؛ والله وحده هو إلهنا وإلهكم لا شريك له، ولا رب سواه، ولا معبود بحق غيره لا يشبهه شيء في ذاته وأسمائه وصفاته، ونحن منقادون أذلاء لطاعته والعمل بشرعه واتباع رسوله ﷺ.

(٤٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

ومثلما أنزلنا الكتب على من سبقك من الأنبياء - أيها الرسول - أنزلنا إليك هذا القرآن العظيم الذي صدق الكتب التي قبله، فالذين آتاهم الله التوراة من اليهود والإنجيل من النصارى فآمنوا بكتبهم وعملوا بها يؤمنون بالقرآن، ومن هؤلاء العرب الأميين من يصدق بما أنزل إليك، ولا يكذب بالقرآن أو يشك في حججه إلا مَنْ عادته التكذيب والجحود والعناد.

(٤٨) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

وما كنت - أيها الرسول - قبل أن يُنزَّل عليك القرآن تقرأ كتابًا سابقًا ولم تكتب حرفًا بيمينك، بل كنت أميًا لا تقرأ ولا تكتب، وقومك يعلمون ذلك، ولو كنت تقرأ الكتب وتكتب الحروف قبل أن ينزل عليك القرآن لشك في ذلك الكفار وقالوا: أخذ ذلك من الكتب المتقدمة أو نقله منها كتابةً، فهذا من أعظم الأدلة على رسالتك.

(٤٩) ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

بل إن القرآن آيات بينات واضحات في دلالتها على الصدق وهدايتها للحق، وهذا القرآن يحفظه العلماء في صدورهم، أو أنه بيّن المعنى لهم، وما يكذب بالقرآن ويجحد آياته إلا كل ظالم متكبر جاحد معاند.

(٥٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

وقال الكفار: هلاَّ أنزل الله على محمد آيات محسوسات مشاهدة بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى؟ قل لهم: إن هذه العلامات والآيات تحت مشيئة الله وفي تصرفه، إن شاء أنزلها وإن شاء منعها، وأنا عبد مرسل لأنذركم العذاب الشديد، وأوضح لكم الهدى من الضلال، ولا أستطيع أن آتي بالآيات من عندي.

(٥١) ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أو لم يكف الكفار علمًا بصدقك - أيها النبي المختار - أن الله أنزل عليك القرآن يُقرأ عليهم في كل آن؟ إن في إنزال القرآن على النبي لرحمة بمن آمن به واتبعه وعمل بما فيه وذكرى ينتفع بها من تدبرها وفقهها.

(٥٢) ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

قل - أيها النبي -: يكفي بيني وبينكم الله شاهدًا على صدقي في رسالتي، وشاهدًا على تكذيبكم لي وكفركم بما أرسلت به، وهو يعلم - سبحانه - كل أمر في السموات والأرض، فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة، والذين صدقوا بالكفر والطاغوت وهم المشركون وكذبوا بما أنزل الله على رسوله ﷺ وكفروا بآياته هم الخاسرون في دنياهم وأخراهم؛ لأنهم حُرِموا الثواب واستحقوا العقاب.

(٥٣) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

ويستعجلك الكفار - أيها النبي - بالعذاب استهزاءً منهم واستبعادًا لنزوله، ولولا أن الله قدَّر لعذابهم زمنًا لا يتعداه لحل بهم العذاب حين سألوه، وسوف يأتيهم العذاب فجأة وعلى حين غِرة وهم غافلون عنه لا يحسون بوقت وقوعه.

(٥٤) ﴿ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

يستعجلك الكفار - أيها النبي - بالعذاب في الدنيا وهو نازل بهم، وإن عذاب النار لمحيط بهم ليس لهم منه فرار ولا هروب.

(٥٥) ﴿ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

يوم القيامة يغشى العذاب الكفار من فوق رؤوسهم ومن تحت أقدامهم؛ فالنار تحيط بهم من كل جهة، ويقول الله لهم ذاك اليوم: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا؛ لأنهم كفروا بالله وعصوا رسوله، وحاربوا أولياءه.

(٥٦) ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

أيها العباد المؤمنون الصالحون: إذا ضاقت بكم أرض فلم تستطيعوا إظهار دينكم والقيام بعبادتكم فهاجروا إلى أرض أخرى؛ لتقيموا بها شعائر دينكم، فإن أرض الله واسعة، وأخلصوا العبادة لربكم.

(٥٧) ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾

كتب الله على كل نفس حية أن تذوق الموت، وقضى على العباد أن مرجعهم إليه ليحاسبهم على ما فعلوا.

(٥٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾

الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا بشرعه سوف ينزلهم الله في جنات النعيم في غرف عالية تجري من تحتها الأنهار، وهم باقون فيها أبدًا في نعيم مقيم وثواب عظيم، ونعم الجزاء لمن عمل بما يحبه الله وترك ما يكرهه واتبع رضوانه.

(٥٩) ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

إن تلك الغرف العالية في جنات النعيم لمن صبروا على فعل الأوامر واجتناب النواهي ولزموا طاعة ربهم، وهم معتمدون على الله في كل شأن من شؤون حياتهم، ومفوضون إليه الأمر سبحانه.

(٦٠) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

وكم من دابة من دواب الأرض لا تحفظ طعامها لغدها ولا تدخر رزقها كما يفعل الإنسان، ولكن الله يرزقها كما يرزق الناس، وهو السميع للأقوال العليم بالأفعال، سمع الأصوات وعلم النيات.

(٦١) ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

ولئن سألت الكفار - أيها النبي -: من الذي خلق السموات والأرض في إتقان عجيب وصنع بديع وذلل الشمس والقمر لمصالح العباد؟ فسوف يجيب الكفار: إن الذي خلق ذلك كله هو الله الواحد القهار، فكيف ينصرف هؤلاء الكفار عن عبادة الله إلى عبادة من سواه مع علمهم أنه الخالق الرازق المدبر وحده، فما أعجب كفرهم وافتراءهم على ربهم!

(٦٢) ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

الله يوسع الرزق لمن أراد من عباده، ويضيق على من أراد؛ لمصلحة علمها - سبحانه - في خلقه، فلحكمة جليلة يعطي ويمنع، إن الله بكل شيء من أحوال العباد وشؤونهم عليم، مطلع عليها، لا تغيب عنه غائبة، وسع الخلق رحمة وعلمًا.

(٦٣) ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾

ولئن سألت الكفار - أيها النبي -: من الذي نزل من الغمام ماءً مباركًا فأنبت به من الأرض نباتًا أخضر بعد اليبس والقحط؟ فسوف يجيب الكفار بأن الذي نزل ذلك هو الله وحده، قل: الحمد لله الذي أظهر الحجة عليهم وألزمهم

بالرد على أنفسهم، بل أكثر الناس لا يعرفون ما ينفعهم ولا ما يضرهم، ولو عقل العباد ما لله من جلال وعظمة ما أشركوا به غيره جل في علاه.

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو للقلوب ولعب للأبدان؛ لما فيها من زخرف وفتنة وزينة وشهوة، فهي تشغل القلوب عن عبادة علام الغيوب، وتنسي الآخرة ببريقها الفتان، وإن الدار الآخرة لهي الحياة الحقيقية الدائمة لمن آمن بالله واتبع رسوله، فلا موت فيها ولا نصب ولا وصب ولا خوف ولا حزن، ولو علم الناس ذلك حق العلم لما قدموا العمل للدنيا على العمل للآخرة، ولما آثروا الفانية على الباقية.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

فإذا ركب الكفار السفن في البحر وأدركهم الغرق دعوا الله وحده وأخلصوا في المسألة، ونسوا آلهتهم المزعومة في حال الشدة، فلما نجاهم الله من البحر إلى البر وأنقذهم من الغرق، عادوا إلى الإشراك به – سبحانه –، فانظر كيف يعبدون الله في الشدة ويشركون به في الرخاء؛ فقبحًا لهم على تناقضهم.

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

ليكون عاقبة إنقاذ الله لهم من الغرق الكفر به – سبحانه – وبما أنعم عليهم به من الأموال والأولاد والصحة وغيرها، فليتمتعوا متاعًا قليلاً قصيرًا في هذه الدنيا، فسوف يظهر لهم قبح فعلهم وفساد عملهم وما هيأ الله لهم من عذاب أليم في نار جهنم.

(٦٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾

أولم يبصر كفار مكة أن الله صيَّر مكة لهم حرمًا آمنًا يعصم بها الدم ويحفظ فيها المال، فالواحد منهم آمن على نفسه وماله، والناس في خارج الحرم من حولهم يُتخطفون بالقتل والأسر والنهب والسلب، وهم خائفون غير آمنين؟ أفبإشراكهم بالله والكفر بنعمه يؤمنون، وبنعمة الله عليهم في الحرم الآمن يكفرون ويجحدون فيعبدون معه آلهة أخرى؟!

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

لا أحد في العالم أشد ظلمًا ممن كذب على الله فنسب إليه ما لا يليق به سبحانه من شريك وولد وزوجة، تعالى الله عن ذلك، ولا أحد أظلم ممن كذب بالحق الذي أُرسل به محمد ﷺ: إن في النار منزلاً ومستقرًا لمن كفر بالله وكذب رسوله ﷺ وحارب دينه وأولياءه .

(٦٩) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

يقسم الله – سبحانه – أن من جاهد في سبيله لإعلاء كلمته ونصر دينه وجاهد نفسه وشيطانه وهواه وصبر على الفتن والمغريات والأذى في سبيل الله فسوف يوفقه الله لطريق الهداية ويزيده رشدًا، ويشرح صدره للحق وينير قلبه بالإيمان، ومن فعل ذلك فقد أحسن غاية الإحسان في اعتقاده وعبادته، والله – سبحانه – مع من أحسن من العباد يحفظهم ويسددهم ويرعاهم ويتولاهم، وهي معية خاصة لأوليائه الأبرار.

* * *

مكية

ترتيبها ٣٠

سورة الروم

آياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

① ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة .

② ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾

غلبتْ فارسُ الرومَ.

③ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾

في أقرب أرض الشام إلى أرض فارس، وسوف ينتصر الروم على الفرس قريبًا.

④ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

وهذا النصر سوف يقع في سنوات لا تزيد على العشر ولا تنقص عن ثلاث، ولله وحده الأمر كله قبل انتصار فارس على الروم وبعد انتصار الروم على فارس، ويوم ينتصر الروم على فارس يفرح المؤمنون بهذا النصر؛ لأن الروم أهل كتاب وفارس وثنيون، فالروم أقرب إلى الحق.

⑤ ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

والله سبحانه ينصر من يشاء من عباده ويخذل من شاء، وهو العزيز الذي عز فقهر وحكم فقدر، لا يعز من غالبه ولا ينتصر من حاربه، الرحيم بمن استرحمه من خلقه، وسعت رحمته كل شيء، وقد وقع ما وعد الله به، فانتصر الروم على فارس بعد سبع سنين، وفرح عباد الله المؤمنون بذلك.

⑥ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

وعد الله عباده المؤمنين وعدًا أكيدًا بنصر الروم النصارى أهل الكتاب على الفرس الوثنيين، غير أن أكثر كفار قريش لا يعلمون أن ما وعد الله به عباده حق.

⑦ ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾

والكفار إنما علمهم بظاهر الدنيا وزينتها وزخرفها، أما حقائق الآخرة وما أعد الله فيها من النعيم لأوليائه والعذاب لأعدائه فهم في غفلة عن ذلك، لا يتذكرونه ولا يفكرون فيه.

⑧ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾

أولم يتفكر الكفار في خلق الله لهم بعد العدم وأنه سبحانه ما خلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات إلا لإقامة العدل والقسط وإثابة المحسن ومعاقبة المسيء، ولتكون برهانًا على قدرته وألوهيته سبحانه، وأن مدة الحياة

الدنيا إلى أجل معلوم تنتهي إليه وهو يوم القيامة، وأكثر الناس جاحدون بيوم القيامة منكرون للقاء الله، لا يؤمنون بأن الله سوف يحاسبهم على أعمالهم؛ فهم في لهو ولعب.

(٩) ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

أولم يذهب الكفار في أنحاء الأرض فينظروا نظر اعتبار وتأمل ويتفكروا كيف كان مصير الأقوام الذين سبقوهم ممن كذب الأنبياء وجحد الرسالات كعاد وثمود؟ وقد كان أولئك أعظم قوة وأقوى أجسامًا وأكثر على التمتع بلذائذ الحياة، حيث زرعوا أرضهم وشيدوا فيها الدور وبنوا فيها القصور أكثر من عمار أهل مكة لدنياهم فلم تنفع أولئك المكذبين عمارتهم لدورهم وزراعتهم لأرضهم وكثرة تمتعهم، وقد أتتهم أنبياؤهم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على ألوهية الله سبحانه وتعالى؛ فردوا ما جاءت به الرسل وكذبوهم وحاربوهم فأهلكهم الله ودمرهم، وما ظلمهم الله بذلك الإهلاك فهم مستحقون للعقاب، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب.

(١٠) ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

ثم كان مصير أهل الإجرام من الطغاة والمفسدين في الأرض أسوأ مصير وأقبح عاقبة؛ لأنهم كفروا بالله وسخروا من رسله وآياته فاستحقوا العقاب.

(١١) ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

الله وحده الذي أنشأ كل المخلوقات ولم يشاركه في الخلق أحد، وهو الذي يعيدها بعد الفناء لحالتها الأولى، وسوف يعود جميع الناس إليه يوم القيامة فيثيب الطائع ويعاقب العاصي .

(١٢) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

وإذا قامت القيامة وحان الحساب يئس الكفار من النجاة، وأيقنوا بالهلاك، فلا حجة لهم ولا عذر عندهم مقبول.

(١٣) ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾

وليس للكفار شفعاء من آلهتهم المزعومة التي كانوا يشركون بها في الدنيا، بل إن هذه الآلهة تتبرأ إلى الله منهم، وهم إذا عاينوا العذاب تبرؤوا من آلهتهم؛ لأنه لا يشفع عند الله أحد إلا إذا أذن سبحانه ورضي عن المشفوع له.

(١٤) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

وإذا كان يوم القيامة يفترق المسلمون والكفار.

(١٥) ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾

فمن آمن بالله واتبع رسوله ﷺ وعمل صالحًا فمصيره إلى جنات النعيم، يُنعمون فيها ويُكرمون ويُسرون.

(١٦) ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

وأما الكفار المكذبون بما أنزل الله على أنبيائه فقد كذبوا بيوم القيامة فهم مقيمون في عذاب النار لا يخرجون منها ولا يخفف عنهم عذابها.

(١٧) ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون: إذا أمسيتم وإذا أصبحتم فسبحوا ربكم وقدسوه ومجدوه ونزِّهوه عن الشرك وعن الزوجة والولد، وأثنوا عليه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وأثبتوا له ما أثبت لنفسه من صفات الكمال والجلال.

(١٨) ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

فلله الثناء الحسن والحمد أوله وآخره، والشكر جميعه في جميع السموات والأرض، وفي آناء الليل وأطراف النهار.

(١٩) ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

الله يخرج الحي من الميت كالفرخ من البيضة، ويخرج الميت من الحي كالبيضة من الدجاجة، ويحيي الأرض بعد ما مات نبتها باليبس والقحط، ومثلما أحيا الله الأرض الميتة سوف يحييكم من قبوركم بعد موتكم ويخرجكم منها للحساب.

(٢٠) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الله وعظمته أنه خلق آدم أبا الخليقة من تراب، ثم تناسل ذريته من بعده وانتشروا في الأرض لطلب الرزق.

(٢١) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على عظمة الله وقدرته وجلاله واستحقاقه للعبودية أنه أوجد لكم من جنسكم - أيها الرجال - نساءً وجعلهن زوجات لكم تسكن نفوسكم إلى العيش معهن، وجعل سبحانه بين الرجل وزوجته محبة وشفقة، إن في إيجاد الله لذلك برهانًا ساطعًا على تفرد الله بالألوهية وعلى كمال القدرة لمن يتفكر في الآيات ويتدبر الأدلة.

(٢٢) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

ومن البراهين الظاهرة على قدرة الله الباهرة وعلى عظمته وكمال مجده: خلق السموات في هذا الجرم الهائل والبناء العجيب وارتفاعها على الأرض بغير عمد، ومن ذلك خلق الأرض وبسطها وجعلها فراشًا ومهادًا للخلق، ومن تلك البراهين اختلاف لغات الناس وتعدد لهجاتهم وتباين أشكالهم من بيض وحُمرٍ وسود، إن في هذه الأدلة لعبرةً لمن عنده علم نافع يوصله إلى فهم الحقائق ويبصره بأسرار الخلق.

(٢٣) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

ومن براهين قدرة الله وعظيم خلقه أنه سبحانه خلق النوم راحةً للعباد من الأعمال وقطعًا لهم عن الأشغال، فليس بحياة ولا موت، وكذلك خلقه سبحانه للنهار وجعله زمنًا لطلب الرزق والعمل والكدح، إن فيما ذُكر أدلة واضحة وبراهين ساطعة على عظيم قدرة الله وكمال مجده واستحقاقه للألوهية لمن يسمع العبر سماع استجابة وقبول وتدبر، وهو المنتفع .

(٢٤) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الباري سبحانه وحكمته في خلقه وقدرته على إنفاذ أمره أنه يُري عباده البرق فيخافون عندها من الصواعق ويطمعون في نزول المطر، وهو سبحانه ينزِّل من الغمام ماءً مباركًا فيحيي به الأرض بالنبات والزروع والثمار بعد القحط والجدب، إن في هذا لبرهانًا واضحًا على قدرة الله وحكمته وإتقانه لخلقه وبديع صنعه، ينتفع بهذا البرهان كل من عنده عقل يفكر به ويفقه عن الله حججه.

(٢٥) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الله ووحدانيته ثبات السموات والأرض وقيامهما واستقرارهما بأمر الله فلم تزولا ولم تسقطا، ثم إذا دعاكم الله إلى يوم الجزاء والحساب خرجتم من قبوركم مسرعين إلى عرصات القيامة.

(٢٦) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

والله وحده يملك كل من في السموات والأرض من المخلوقات؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم؛ فهو يتصرف فيهم ويدبرهم، والجميع خاضعون لجبروته منقادون لأمره.

(٢٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

والله وحده الذي ينشئ الخلق من العدم ثم يعيده بعد الفناء، وإعادة الفاني إلى الحياة أهون على الله من الإنشاء من العدم، وكلاهما الإنشاء والإعادة هين على الله، وله -تبارك اسمه- الوصف الأعلى في كل ما يوصف به، فله من كل صفة أجلُّها وأعظمها وأرفعها، وهو العزيز الذي لا يغالب، قهر من حاربه وأذل من غالبه، الحكيم في خلقه وصنعه وفي حكمه وشرعه.

(٢٨) ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

ضرب الله مثلاً لكم - أيها الكفار - وهذا المثل من أنفسكم: هل لكم من العبيد والإماء من يشارككم في الرزق ويتساوون معكم فيه وأنتم تخافون منهم كخيفتكم من الأحرار الشركاء في مقاسمة الأموال؟ أنتم لا ترضون بذلك فكيف ترضون بذلك لله فتجعلون له من عباده شركاء في ربوبيته وألوهيته؟ وبمثل هذا المثل الواضح الجلي يبين الله البراهين الساطعة والحجج القاطعة لأهل الفطر القويمة والعقول السليمة.

(٢٩) ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

بل اتبع الكفار الهوى في شركهم بالله، فقلدوا الآباء بلا دليل، وفعلوا فعلهم جهلاً وضلالاً، ولا أحد يستطيع أن يرشد إلى الهداية ويوفق لها مَنْ كتب الله عليه الضلالة، وليس للكفار من أنصار يدفعون عنهم عذاب الواحد القهار.

(٣٠) ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

فأقم - أيها النبي - ومن معك من المؤمنين وجهك واتجاهك للدين الخالص الذي هو الإسلام مائلاً عن الشرك للتوحيد ومتبعًا ملة إبراهيم عليه السلام، فإن الإسلام هو الدين الذي فطر الله الناس عليه، لا يستطيع أحد أن يبدل خلق الله ودينه؛ لأنه الطريق المستقيم والنهج القويم الموصل إلى رضا الرحمن الرحيم وجنات النعيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، إن الذي أمرك الله به هو دين الإسلام وليس سواه من الأديان .

(٣١) ﴿ ۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

وكونوا عائدين إلى الله بالتوبة من الذنوب وإخلاص العمل والصدق والطاعة مع تقوى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، وأدوا الصلاة المشروعة على أكمل وجه، تامة الأركان والواجبات والشروط، ولا تكونوا مع من أشرك بالله غيره، بل كونوا موحدين مخلصين لله العبادة وحده.

(٣٢) ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾

ولا تكونوا من أهل الكفر والهوى والبدع الذين حرفوا دينهم وبدلوا كتابهم وسنة نبيهم ﷺ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وذلك وفق أهوائهم، وصاروا طوائف وجماعات مختلفة متنازعة يتشيعون لقادتهم ويتعصبون لآرائهم ويتعاونون على الإثم والعدوان، كل جماعة بما عندها من المذاهب فرحة مسرورة، تحسب أن الحق معها وحدها وأن ما سواه على الباطل.

(٣٣) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾

ومن طبيعة الناس أنهم إذا أصابتهم شدة ومحنة وبلاء تضرعوا إلى الله مخلصين له في الدعاء؛ ليرفع عنهم الشدة، فإذا رحمهم الله وكشف عنهم البلاء إذا طائفة منهم يشركون به غيره في العبادة وينسون ما أنعم الله به عليهم من كشف البلاء.

٣٤ ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

ليكفروا بما تفضل الله به عليهم ورحمهم من رفع الشدة، فليتمتع الكفار في هذه الدار باللذائذ الفانية والشهوات الزائلة، فسوف يعلمون يوم القيامة سوء ما فعلوه إذا أبصروا العذاب.

٣٥ ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾

أم أنزل الله على هؤلاء الكفار برهانًا ساطعًا ودليلاً قاطعًا يؤيدهم على شركهم ويشهد بصحة كفرهم؟

٣٦ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾

وإذا أذاق الله الناس نعمة من رزق وصحة وعافية ورخاء فرحوا بذلك فرح بطرٍ وأشرٍ وعلو وكِبْر لا فرح شكر، وإذا أصابت الناس ابتلاءات من فقر ومرض وجوع وخوف وشدة بسبب آثامهم وسيئاتهم أيسوا من زوال الشدة، وهذه عادة أكثر الناس في حالة الشدة والرخاء.

٣٧ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أو لا يعلم الناس أن الله يوسع الرزق لمن أراد من العباد ابتلاءً له ليرى هل يشكر أم يكفر؟ ويضيق الله الرزق على من أراد من العباد ابتلاءً له ليرى هل يصبر أم يجزع؟ إن في توسيع الرزق وفي تضييقه على الناس لأدلة واضحة لأهل الإيمان على حكمة الله واطلاعه ورحمته بعباده .

٣٨ ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

فأعط القريب ما يستحقه من الصلة والصدقة والبر، وأعط الفقير والمحتاج الذي انقطع به السبيل من الزكاة والصدقة، فإن هذا العطاء لوجه الله خيرٌ وثواب عظيم لمن قصد بذلك وجه الله، ومن عمل هذه الأعمال الصالحة وسواها من أعمال البر فهم الذين أدركوا المطلوب من نيل رضوان الله والفوز بجناته والنجاة من غضبه وعذابه.

٣٩ ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

وما أعطيتم - أيها الناس - من قرض تريدون به الربا ليزيد ذلك القرض وينمو في أموال الناس فإنه لا يزيد عند الله، بل يذهب الله بركته ويمحقه، وما أعطيتم - أيها الناس - من زكاة وصدقة لمن يستحق ذلك تريدون وجه الله بذلك والأجر من عنده فهذا هو العمل المتقبل المضاعف عند الله أضعافًا كثيرة، فالصدقة نماءٌ وبركة، والربا محقٌ وخسارة.

٤٠ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

الله وحده هو الذي خلقكم - أيها العباد - من العدم ثم رزقكم بأنواع النعم، ثم يميتكم بعد استكمال الآجال، ثم يبعثكم من القبور إلى عرصات القيامة للحساب، فهل أحدٌ من شركائكم الذين تشركون بهم مع الله من يفعل هذه الأفعال من الخلق والرزق والإماتة والإحياء؟ تنزه الله وتقدس وتعالى عن شرك من أشرك به لا إله إلا هو.

٤١ ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ظهر الفساد في البر والبحر كالقحط والمرض والأوبئة والفقر والجوع والمصائب والكوارث بسبب ذنوب الناس؛ ليبتليهم الله بأسباب ذنوبهم التي اقترفوها كي يعودوا إلى ربهم بالتوبة النصوح، ويجتنبوا الآثام والذنوب، فتدوم عليهم النعمة وتُصرف عنهم النقمة، ويصلح الحال، ويطيب المآل.

٤٢ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: اذهبوا في الأرض وسافروا في أنحائها وانظروا نظر تأمل واعتبار، وتفكروا كيف كان مصير من كذب من الأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود، تجدوا آثار الهلاك والدمار الذي حلَّ بهم لما كفروا بالله وكذبوا رسله.

(٤٣) ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾

فوجِّه وجهك جهة الصراط المستقيم والدين القويم وهو دين الإسلام؛ عاملاً بما أمر الله به، تاركًا ما نهى الله عنه، وتمسك بهذا الدين قبل يوم الحساب الذي لا يستطيع أحدٌ أن يمنع وقوعه، حينها يتفرق الناس أشتاتًا مختلفين؛ ليروا أعمالهم، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

(٤٤) ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾

من كفر بالله فهو يتحمل وحده وبال كفره وعاقبة تكذيبه، ومن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحة المشروعة فقد هيأ لنفسه بعمله منزلا في الجنة ومقعد صدق فيها.

(٤٥) ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

ليثيب الله المؤمنين الصالحين أحسن ثواب؛ رحمةً منه وإحسانًا، إن الله لا يحب من كفر به وكذب رسله، بل يسخط ويغضب عليه.

(٤٦) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ومن البراهين الدالة على ألوهية الله وعظمته وقدرته إرساله -سبحانه- الريح أمام المطر تبشر بنزول الغيث وتثير السحاب؛ فيستبشر بذلك العباد، ويذوقوا رحمة ربهم بإنزال الماء الزلال المبارك من السماء فيحيي به العباد والبلاد، ولتبحر السفن في البحر بقدرة الله ومشيئته؛ ليطلب التجار رزقهم على ظهورها ذهابًا وإيابًا، فتحملهم وبضائعهم؛ رجاء أن يشكر العباد ربهم ويوحدوه ويخلصوا له العبادة.

(٤٧) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولقد أرسل الله من قبل الرسول ﷺ رسلاً إلى أقوامهم يبشرونهم برحمة الله إن آمنوا وينذرونه عذابه إن كفروا ويدعون للتوحيد وينهون عن الشرك، فجاؤوهم بالأدلة القاطعة والحجج الساطعة، فكثير من أقوامهم كفروا، وما آمن إلا القليل، فانتقم الله من المكذبين، وأهلك الكافرين، ونصر عباده الموحدين، ونصرُ أوليائه -سبحانه- حق عليه لما لهم من منزلة وزلفى.

(٤٨) ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

الله سبحانه وحده هو الذي يرسل الرياح فتثير الغمام المحمل بالماء فينشره الله في السماء مثلما أراد ويصيره قطعًا متفرقة، فترى الماء يخرج من بين الغمام، فإذا ساق الله السحاب بالرياح إلى من يشاء من الناس استبشروا وفرحوا بقدوم الغيث.

(٤٩) ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾

وإن كان العباد قبل نزول الماء من الغمام في يأس من الرحمة وقنوط من نزول الغيث، لطول احتباسه عنهم، فإن الله يأتي بالفرج وينزل المطر.

(٥٠) ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

فتأمل - أيها المتدبر - باعتبار، وتفكر في آثار الغيث في الأرض المخضرة والحدائق الغناء والبساتين الفيحاء، كيف أحيا الله بالماء الأرض بعد الجدب والقحط فأصبحت معشبة مخضرة؟ إن الذي أحيا الأرض بالنبات بعد موتها قادر على إحياء الناس من قبورهم بعد موتهم؛ لأن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء ولا يتمنع عليه أمر.

(٥١) ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

ولئن أرسل الله ريحًا على النبات الأخضر والزروع والثمار فأفسدتها فشاهدوها بعد الخضرة مصفرة لمكثوا من بعد مشاهدة هذا المنظر على كفرهم بالله، فلا يردعهم هذا الأمر المشاهد عن الكفر.

(٥٢) ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾

فإنك – أيها النبي – لا تُسمعَ المواعظَ من أمات الله قلبه، ولا تُسمعُ النصائحَ من سد أذنه عن سماع الحكمة، فلا تحزن على كفرهم ولا تجزع على عدم استجابتهم لك، فإنهم كالصم، والموتى لا يسمعون ولا يفقهون، فحضورهم كالغياب، وحياتهم كالموت، قد أعرضوا عن الاستجابة وأدبروا عن الهدى.

(٥٣) ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

وما أنت بمرشد من طبع الله على قلبه وأعمى بصيرته عن الحق، وأنت لا تسمع دعوتك سماع قبول واستجابة إلا من آمن بالقرآن واستسلم للرحمن وأذعن للبرهان.

(٥٤) ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

الله وحده هو الذي خلقكم – أيها الناس – من ماء مهين ضعيف وهو النطفة فلا تتكبروا، ثم صيَّر من بعد ضعف الطفولة قوة الرجولة، ثم جعل من بعد قوة الرجولة ضعف الشيخوخة والهرم، يخلق الله ما يشاء من ضعف وقوة وطفولة وشباب وكهولة وهرم، وهو العليم بالخلق، القادر على كل شيء، فبالعلم أحكم الله ما خلق، وبالقدرة نفذ الله ما شاء .

(٥٥) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾

الدنيا غير زمن يسير كالساعة من الوقت، وقد كذبوا في هذا الحلف كما كذبوا على الله في الدنيا ومثلما أنكروا ما أتت به الأنبياء.

(٥٦) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وقال العلماء المؤمنون بالله العاملون بعلمهم المتقون لربهم للمكذبين المنكرين: لقد بقيتم فيما كتب الله مما سبق في علمه من يوم خُلقتم إلى أن بُعثتم فهذا يوم البعث، ولكنكم كنتم لا تعلمون بصدق ذلك، فكذبتم به وأنكرتموه في الدنيا حتى وقع.

(٥٧) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

فيوم القيامة لا تنفع الكفار الأعذار ولا يطلب منهم إرضاء الله بالعبادة والتوبة والاستجابة؛ لأنه فات الأوان وهذا زمن عقابهم وتعذيبهم.

(٥٨) ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

ولقد بيَّن الله للعباد في هذا القرآن من كل مثل لإقامة الدليل على قدرته وألوهيته ووحدانيته، ولئن أتيت الكفار – أيها النبي – بأي دليل وبأي برهان يدل على صحة رسالتك لقال الكفار: ما أنت يا محمد ومن معك من المؤمنين إلا مفترون فيما ادعيتم من النبوة.

(٥٩) ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ومثل ذلك الختم الذي ختمه الله على قلوب الكفار يختمه سبحانه على قلوب الذين لا يعلمون حقائق القرآن ورسالة الرسول ﷺ، فلا ينتفعون بعظة ولا يستفيدون من آية.

(٦٠) ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

فعليك بالصبر – أيها النبي – على أذى الكفار وتكذيب الفجار، إن وعد ربك الذي وعدك به من النصر والتأييد والتمكين وحسن العاقبة واقع لا محالة، فلا يستفزنك عن الحق الذي أنت عليه من لا يؤمن بيوم القيامة، ولا يوقن بالبعث ولا يصدق بيوم الدين.

مكية

ترتيبها ٣١

سورة لقمان

آياتها ٣٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

٢ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

هذه آيات القرآن التي أحكمها الله وفصلها وبينها للناس.

٣ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾

وآيات القرآن هدى للمؤمنين ترشدهم إلى الحق وتدلهم على الخير، وهي رحمة لمن أحسن في عمله بتقوى ربه واتباع رسوله ﷺ.

٤ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

هؤلاء المحسنون يؤدون الصلاة على أكمل وجه كما شرعها الله، ويعطون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم لمستحقيها، وهم يصدقون أكمل التصديق بيوم الدين وما فيه من حساب وجزاء.

٥ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

هؤلاء الأبرار أهل الصفات السابقة الكريمة على هدى وبيان من الله ونور من الحق الذي عندهم، وهم الذين فازوا بمطلوبهم ونجوا من عذاب ربهم.

٦ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

وبعض الناس يشتري لهو الحديث وهو كل ما ألهى عن طريق الهداية والرشد، ويسخر من آيات الله لكفره وفجوره، فله عند ربه عذاب خزي وهوان وذل يقابل كِبْرَه وعناده.

٧ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وإذا قُرأت آيات القرآن على هذا المجرم أدبر وهو متكبر معاندٌ لا يقبل الحق ولا يصغي إلى الرشد كأنه ما سمع شيئًا، وكأن في سمعه صممًا عن دعوة الحق قد عطَّل حواسه عن الانتفاع بها، ومن هذا وصفه فبشره - أيها النبي - بعذاب شديد موجع في نار جهنم.

٨ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾

إن المؤمنين الصالحين وهم كل من عمل بما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله، أولئك لهم جنات النعيم بجوار رب رحيم في مقعد كريم.

﴿٩﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وهم باقون في الجنة ما دامت السموات والأرض في نعيم لا يحول ولا يزول، وعدٌ من الله صادق سوف ينجزه لهم، وهو سبحانه لا يخلف إذا وعد، فلا أصدق منه قيلاً ولا أوفى منه وعداً، وهو عزيز يقهر من غالبه ويذل من حاربه، حكيم في تدبيره وصنعه وحكمه وشرعه.

﴿١٠﴾ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

والله خلق السموات ورفعها عن الأرض بغير عمد كما يبصرها الناس، وأرسى في الأرض جبالاً راسخة تحفظ توازن الأرض لئلا تميل وتهتز فيختل توازنها، ونشر الله في الأرض أنواع الحيوان وأصناف الدواب، وأنزل الله من الغمام ماءً عذبًا مباركًا فأنبت به الأرض بعد القحط والجدب، وجعل فيها من كل زوج بيهج في منظره، يختلف في لونه وطعمه من أشكال النباتات وأنواع الشجر وسائر الثمار.

﴿١١﴾ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

وكل ما تبصرونه - أيها الناس - هو من خلق الله لا من خلق غيره، فأروني - أيها الكفار - ماذا خلق غيره - سبحانه - من الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله؟ بل الكفار في غيٍّ وسفه وفي بُعدٍ عن الرشد والصواب؛ لأنهم تركوا الهداية وسلكوا طريق الغواية.

﴿١٢﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

ولقد أعطى الله العبد الصالح المنيب لقمان الفقه في الدين، والسداد في الرأي، والصواب في القول، وأمره سبحانه أن يشكر نعمه بالعمل بطاعته وترك معصيته، ومن يفعل ذلك فإنما ينفع نفسه وتعود فائدة ذلك إليه، فإن الله غني عن العالمين لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، ومن جحد النعم وكفر بالمنعم فإنَّ الله غني عن عبادته، له الثناء الجميل والحمد كله على كل حال، وهو غني عمن كفر ويشكر من عباده من شكر.

﴿١٣﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

واذكر يوم وصى لقمان ابنه ناصحًا له فنهاه عن الشرك بالله وأخبره أن الشرك أعظم الذنوب وأشنع الخطايا وأقبح السيئات.

﴿١٤﴾ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

وأوجب الله على الإنسان برَّ والديه والإحسان إليهما فإن أمه حملت به في حالة ضعف على ضعف؛ لشدة المشقة وكثرة الآلام، وحمل الطفل وفطامه عن الرضاع في مدة عامين، وأوجب الله عليه أن يشكر ربه بالعمل بطاعته، ويشكر لوالديه بالبر والإحسان، إلى الله المعاد فيجازي كل العباد بما فعلوا من صلاح وفساد.

﴿١٥﴾ ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وإن حاول والداك - أيها الإنسان - وحرصا على أن تكفر بالله وتشرك به غيره، أو أمراك بالمعصية فلا طاعة لهما في ذلك، إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا يحملك عصيان أمرهما على الإساءة إليهما، بل أحسن إليهما الصحبة وتلطف بهما، واقتد بمن تاب إلى ربه من ذنبه وعاد من خطئه ورجع إلى مولاه بالعمل بطاعته وترك معصيته، فإن بعد الحياة المعاد إلى الله والرجوع إليه؛ ليخبر كلاً بفعله ويجازيه على عمله.

١٦ ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾

ثم يقول لقمان في نصيحته لابنه: يا بني: لو كانت السيئة والحسنة في صغرها قدر حبة خردل في وسط حجر أو في أي موضع في السموات والأرض فإنها لا تغيب عن علم الله، وسوف يأتي بها يوم القيامة؛ ليجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، والله لطيف بعباده يوصل لهم المحاب ويدفع عنهم المكاره بألطف الوسائل، وهو خبير -سبحانه- لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة.

١٧ ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

وأمر لقمان ابنه بإقامة الصلاة على أكمل وجه كما شُرعت؛ لأنها عمود الدين والناهية عن الفحشاء والمنكر، وأمره بأن يأمر بالمعروف؛ وهو كل خير ورشد دلَّ النقل والعقل على استحسانه، وأوصاه بأن ينهى عن المنكر؛ وهو كل ما نهت عنه الشرائع الحكيمة والفطر القويمة لكن بلطف ورفق وحكمة ولين، وإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فتحمل ما يصيبك من الناس من أذية، فإن هذا طريق الأنبياء والرسل، والقيام بهذه الأعمال الصالحة من الأمور التي ينبغي أن يحرص عليها الإنسان ويعزم على فعلها، فإنها من أشرف المنازل وأجل المراتب.

١٨ ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾

ولا تحوّل وجهك عن الناس احتقارًا لهم وتكبرًا عليهم، بل ابسط لهم وجهك وتبسم لهم، وألن جانبك لعباد الله، ولا تمش في الأرض مشية الخيلاء والتكبر والتبختر، فإن الله لا يحب كل مختال بقلبه فخور بلسانه، تعجبه نفسه فيتعاظم على الناس، بل يحب -سبحانه- المتواضع القريب من عباده.

١٩ ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾

وتواضع إذا مشيت فلا تمش مشية الخيلاء والكبر، واخفض من صوتك إذا تكلمت، فإن هذا من حسن الأدب وتمام العقل، إن أبشع الأصوات وأشنعها وأقبحها صوت الحمير، فلا تشابه أصواتها برفع صوتك لغير حاجة.

٢٠ ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾

ألم تروا - أيها العباد - أن الله ذلل لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وكواكب وسحاب وغير ذلك، وذلل لكم ما في الأرض من حيوان ونبات وماءٍ وغير ذلك، وشملكم بأياديه الجليلة ونعمه الكثيرة من عافية وصحة وولد ومال وأمن ونعم ظاهرة في الأبدان والجوارح، وباطنة في القلوب والعقول، وبعض الناس يجادل في عبودية الله وأسمائه وصفاته وإخلاص الطاعة له بغير برهان صحيح ولا حجة واضحة ولا بيان ولا كتاب يسند دعواه ويقوي قوله.

٢١ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

وإذا قيل لهؤلاء الكفار الذين يجادلون بالباطل في عبودية الله: اتبعوا ما أنزله الله في كتابه على رسوله ﷺ واهتدوا بذلك، ردوا معترضين وقالوا: لا، بل نتبع ما سبقنا عليه الآباء والأجداد من الشرك وعبادة الأصنام، كيف يفعلون ذلك حتى ولو كان الشيطان يحسن لهم قبح أفعالهم وشركهم بربهم ويدعوهم بتزيينه إلى نار جهنم الموقدة المحرقة للكفار.

٢٢ ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾

ومن يخلص طاعته لريه ويفرده بالألوهية وقد أحسن في أقواله وأجاد في أعماله وأصلح من أحواله فقد التزم أوثق سبب واعتصم بأعظم وسيلة موصلة إلى رضوان الله ورحمته، وإلى الله وحده تعود كل القضايا وتنتهي كل الأمور ويرجع إليه كل الناس، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

٢٣ ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ومن كفر برسالتك - أيها النبي - وكذب دعوتك فلا تأسف عليه ولا تحزن من فعله؛ لأنك أديت الرسالة وبلغت الأمانة ونصحت الأمة وإلى الله معاد من كفر به فيخبره بأفعاله القبيحة التي فعلها في الدنيا، ثم يعاقبه عليها في نار جهنم، إن الله مطلع على ما تكنه الصدور وتخفيه الضمائر، لا تخفى عليه خافية.

٢٤ ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

يمتع الله الكفار في هذه الحياة الدنيا الزائلة القصيرة كما يمتع الأنعام، ثم يوم الحساب يلجئهم ويسوقهم إلى عذاب النار الموجع المؤلم.

٢٥ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ولئن سألت - أيها النبي - الكفار عن خالق السموات والأرض، لقالوا لك: إنه الله وحده، فقامت عليهم الحجة بألسنتهم، فالخالق أولى أن يُعبد وحده، فقل لهم حينها: الحمد لله الذي أظهر الحجة عليكم من قولكم، بل أكثر الكفار لا يفكرون من الذي يستحق الحمد على نعمه والشكر على عطائه بتوحيده وعبوديته؛ ولذلك أشركوا به غيره.

٢٦ ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

لله وحده كل ما خلق في السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وتصريفًا وملكًا وتقديرًا، فهو المعبود بحق لا إله إلا هو ولا رب سواه، وهو -سبحانه- غني عن خلقه لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ولا يحتاج إلى أحد، وله الثناء الجميل والشكر الجزيل والحمد أوله وآخره في كل مكان وزمان وعلى كل حال.

٢٧ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ولو أن الأشجار التي في الأرض صارت أقلامًا وتحول البحر إلى حبر ويمده سبعة أبحر غيره، وكُتبت كلمات الله بتلك الأقلام وذاك الحبر لفنيت الأقلام وانتهى الحبر ولم تنته كلمات الله المباركة العظيمة التي لا يحصيها أحد ولا يحيط بها بشر، إن الله عزيز في ملكه، يذل من عاداه ويعز من والاه، حكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه، وفي هذا إثبات صفة الكلام لله على وجه يليق بجلاله تقدست أسماؤه.

٢٨ ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

ما خلقكم - أيها البشر - ولا إحياؤكم بعد الموت على الله إلا مثل خلق نفس واحدة وبعثها في السهولة واليسر، إن الله يسمع كل الأقوال ويبصر كل الأعمال، ويعلم كل الأحوال، وسوف يحاسب الخلق على كل هذا.

٢٩ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

ألم تر أن الله يدخل الليل في النهار فتطول ساعات الليل وتقصر ساعات النهار، ويدخل النهار في الليل فتطول ساعات النهار وتقصر ساعات الليل، وذلل الشمس والقمر لمصالح العباد، ليسعى كلٌّ في مساره ويجري في مداره إلى وقت محدد لا يتعداه، وأن الله عالمٌ بأفعال البشر من حسن وسيئ لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء.

٣٠ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

ذلك الخلق العظيم والآيات الباهرة جعلها الله لتعلموا أن الله وحده هو الحق في ألوهيته وذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأن ما يعبده الكفار من دون الله باطلٌ مختلق، وأن الله هو العلي علو قدر وعلو قهر عالٍ في ذاته، فهو مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله، عالٍ في أسمائه وصفاته جل اسمه، وهو الكبير على كل شيء، فمن هذه صفاته فهو أحق أن يُعبد وأن يُوحَّد.

(٣١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

ألم تشاهد - أيها الإنسان - كيف أن السفن تسعى في البحر بتقدير من الله وتسخير؛ نعمةً من الله ورحمةً بعباده ليسافروا عليها ويطلبوا عليها الرزق؛ ولتظهر للناس البراهين الدالة على قدرة الله وعظمته؟ إن في سعي السفن على ظهر البحر لدليلاً قاطعًا وبرهانًا ساطعًا على عظمة الله وتفرده لكل من صبر على أداء الطاعة واجتناب المعصية وصبر على أقدار الله وشكر الله على نعمه.

(٣٢) ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

وإذا ركب الكفار السفن وارتفعت الأمواج فوقهم كأنها الغمام والجبال وأصاب الناس الفزع والهلع والخوف من الهلاك حينها يلتجئون إلى الله ويخلصون له في الدعاء، فإذا أخرجهم سالمين إلى بر الأمان فبعضهم المقتصد في عبادته الذي لم يشكر الله حق شكره الشكر التام، فهو موحد مقصر، ومنهم الكافر بنعم الله المشرك في عبوديته، وما يكذب بآيات الله ويكفر بدينه إلا كل غدّار فاجر ينقض العهد وينكث العقد ويخلف الوعد ويجحد النعم وينسى الإحسان.

(٣٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

يا أيها الناس: اتقوا ربكم بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، واحذروا شر يوم مستطير هو يوم القيامة، يوم لا يغني فيه الوالد عن الولد ولا المولود عن الوالد، فلا قرابة تنفع، ولا وليٌّ يشفع، ولا ناصر يدفع، إنما وعدكم الله به من قيام الساعة حق لا شك فيه، فلا تتخدعوا بالحياة وغرورها وزخرفها. فإنها باطل مضمحل ومتاع قليل، ولا يخدعنكم بريكم خادع من شياطين الإنس والجن فيصرفوكم عن الهداية إلى الغواية .

(٣٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾

إن الله وحده لا سواه هو العالم متى تقوم القيامة، وهو الذي ينزل الماء من الغمام لا يفعل ذلك غيره، وهو وحده الذي يعلم ما في أرحام الحوامل، ويعلم ما تكسبه كل نفس وتفعله في غدها وهي لا تعلم ذلك، ويعلم سبحانه بأي أرض تموت كل نفس وهي لا تعلم ذلك، إن الله عليم بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه غائبة، علم الظاهر والباطن والسر والعلن، تقدست أسماؤه.

مكية

ترتيبها ٣٢

سورة السجدة

آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

هذا القرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ لا شك أنه وحي من عند الله رب العالمين

(٣) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾

بل يقول الكفار: إن محمدًا ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه وليس وحيًا من الله، كذبوا فيما زعموا، بل القرآن وحي منزَّل من الله أتى به الروح الأمين على الرسول الكريم ﷺ؛ ليخوف به أناسًا ما سبق أن أرسل إليهم رسول من قبل محمد ﷺ لعلهم يهتدون إلى الإيمان ويسلمون وينقادون للحق.

(٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

الله وحده الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في مدة ستة أيام؛ لحكمة علمها الله، وهو قادر أن يخلقها بكلمة (كن)، وبعدما خلقها علا وارتفع على عرشه استواءً يليق بجلاله بلا تكييف ولا تشبيه، ليس للعباد من ولي يدبر أمورهم ويصرِّف شؤونهم غير الله، وليس لهم شفيع يشفع لهم عند الله فيرفع عنهم العذاب إلا بإذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له، أفلا تتدبرون في الآيات وتتعظون بالنصائح وتؤمنون بالله وحده وتخلصون له الطاعة؟

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

يدبر الله تعالى أمر الكائنات من السماء إلى الأرض ثم يصعد ذلك الأمر والتدبير إلى الله تعالى في مدة يوم، مقدار هذا اليوم ألف سنة من أيام الدنيا التي يعدها الناس.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

ذلك هو الله الخالق المتصرف في الكون، العالم بكل ما غاب عن العيون، المطلع على ما تُكِنه الضمائر وتخفيه السرائر، والعالم بما تراه العيون، وهو العزيز في ملكه وحكمه، يذل من غالبه ويخذل من حاربه، الرحيم بعباده، حيث أمهلهم ودعاهم إلى التوبة.

(٧) ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾

الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأحسن في صنعه وأنشأ خلق آدم أبي البشر من طين.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾

ثم خلق ذرية آدم يتكاثرون من المني الضعيف الرقيق المهين.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾

ثم أكمل خلق الإنسان وقواه وأحسن صورته ونفخ فيه من روحه بإرسال الملك له ينفخ فيه الروح، وخلق لكم - أيها البشر - الأسماع والأبصار والأفئدة، وهي نعم جليلة تدركون بها الصوت واللون والأشياء والعلوم والمعارف، وتميزون بها بين النافع والضار والحسن والقبيح، ولكن شكركم قليل على هذه النعم، وقليل منكم من يستعملها في طاعة الله.

(١٠) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾

فقال الكفار المنكرون للحياة بعد الموت: أإذا تحولت أجسامنا إلى تراب في القبور أنبعث خلقًا جديدًا؟! منكرين هذا الأمر مستبعدين وقوعه، فهم لا يطلبون البرهان على ذلك لكنهم مكذبون معاندون.

(١١) ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: يقبض أرواحكم ملك الموت الذي وكَّله الله بذلك عند انتهاء أعماركم بلا تقديم ولا تأخير، ثم تعودون يوم القيامة إلى ربكم فيحاسبكم على أعمالكم للطائع الثواب وللعاصي العقاب.

(١٢) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

ولو تشاهد يوم القيامة المجرمين منكري الحساب قد خضعوا برؤوسهم أذلاء خائفين غشيهم الخزي والمهانة والعار يقولون: ربنا أبصرنا سوء أعمالنا، وسمعنا منك الحق الذي كان يدعونا إليه الأنبياء، وقد علمنا خطأنا، وها نحن تبنا إليك، فأعدنا إلى حياتنا الدنيا نتزود بالصالحات، إنا قد علمنا علم اليقين الآن أنا كنا كافرين بدينك مكذبين برسولك وبالبعث بعد الموت، فلو شاهدت ذلك الأمر يوم العرض الأكبر، لشاهدت أمرًا مهولاً وخطبًا عظيمًا.

(١٣) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

ولو شاء الله لهدى هؤلاء الكفار للحق ووفقهم للإيمان، ولكن الله سبق منه قول الحق وأوجب وقوعه ليملأنَ النار من عصاة الجن والإنس؛ لأنهم آثروا الباطل على الحق.

(١٤) ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يُقال للكفار يوم القيامة عند دخولهم جهنم: تذوقوا العذاب بسبب غفلتكم عن الحساب والجزاء، واشتغالكم بشهوات الدنيا الفانية، إن الله قد ترككم في عذاب جهنم لا يخرجكم منها ولا يخفف عنكم من عذابها، وتذوقوا عذاب النار الباقي عليكم أبدًا بسبب أعمالكم القبيحة من كفر وتكذيب وظلم.

(١٥) ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

إنما يصدق بآيات الله في كتابه ويتبعها الذين إذا أُنذروا بها ونُصحوا أو قُرِئت عليهم سجدوا لربهم أذلاء خائفين مخبتين، وسبحوا بحمد الله في السجود، ولم يتكبروا عن السجود لله وعبادته والتذلل له وحده لا شريك له.

(١٦) ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

تتجافى جنوب هؤلاء الأبرار عن فرشهم في حالة نومهم خوفًا من ربهم، فلم يناموا نوم المنافق الذي هو جيفة هامدة، وإنما يتهجدون في صلاة الليل ويذكرون الله كثيرًا، ويسألون الله أن يصرف عنهم العذاب وهم خائفون، ويطلبون منه الثواب وهم يرجون ذلك، ويتصدقون في سبيل الله مما أعطاهم الله من الأموال والرزق الحلال.

(١٧) ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

فلا تتطلع نفس ولا تعلم ما أعده الله لهؤلاء الأبرار في جنات النعيم من رزق كريم في جوار ربٍ رحيم مع قرة العين وبهجة النفس وانشراح الصدر في عافية وأمان، ثوابًا لهم على إيمانهم وتقواهم.

(١٨) ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾

أفمن كان تقيًا مؤمنًا بالله متبعًا لرسوله ﷺ مصدقًا بوعد الله ووعيده، فهل حاله كحال من كذب رسول الله ﷺ وكفر بما أنزل الله وخرج عن طاعة الله.

(١٩) ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

أما المؤمنون الصالحون الأتقياء فمصيرهم إلى جنات النعيم، يؤون إليها ويُنعمون فيها، لهم فيها وفادةٌ كريمة؛ ضيافةً لهم وثوابًا على ما قدموه في الدنيا من عمل صالح مقبول.

(٢٠) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾

وأما من عصى الله وخرج عن طاعته وخالف رسوله ﷺ فمصيرهم إلى النار، كلما حاولوا أن يخرجوا منها أعادهم الله فيها، وقيل لهم - تأنيبًا وتبكيتًا -: تذوقوا عذاب جهنم الذي كذبتم به في الحياة الدنيا.

٢١ ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وليذيقنَّ الله الكفار من عذاب الدنيا الأقرب من المصائب والكوارث والفتن والزلازل والمحن وأنواع الأسقام والآلام قبل العذاب الأكبر في نار جهنم؛ لعلهم يراجعون أنفسهم بالتوبة إلى الله من كفرهم وتكذيبهم ويُنيبوا إليه بالطاعة وإخلاص العبادة.

٢٢ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾

لا أحد أظلم ممن وُعظ بآيات الله المنزَّلة على رسوله ﷺ ثم هجرها وأعرض عنها ولم يؤمن بها ولم يعمل بها، إن الله منتقم من أعدائه المجرمين الفجرة بالعذاب الشديد.

٢٣ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

ولقد أنزل الله التوراة على موسى كما أنزل القرآن على محمد ﷺ، فلا تكن - أيها النبي - في شك من لقاء موسى ليلة الإسراء والمعراج، وقد جعل الله التوراة هدايةً وبيانًا لبني إسرائيل تدعوهم إلى الهدى وتدلهم على الخير.

٢٤ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

وجعل الله من بني إسرائيل هداةً ودعاةً إلى الحق وقادةً إلى الخير يقتدي بهم الناس في البر والإحسان ويدعون إلى طاعة الله والصلاح والاستقامة بسبب أنهم صبروا على أداء الطاعات وترك المخالفات، وكانوا يوقنون بآيات الله وبراهينه، ويصدقون بها أتم التصديق، فبالصبر قاوموا الشهوات، وباليقين قاوموا الشبهات، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

٢٥ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

إن ربك - أيها النبي - يحكم بين المؤمنين والكفار من اليهود وغيرهم من الأمم يوم القيامة بالعدل فيما وقع فيه الخلاف في الشرائع والأديان فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

٢٦ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

أولم يتبين لهؤلاء الكفار: كم أهلك الله من الأقوام السابقة، وهؤلاء الكفار يمشون في مساكن أولئك المكذبين بعدما دُمِّرت فيرون آثارهم ويسمعون أخبارهم كقوم هود وصالح ولوط؟ إن في هذا الهلاك والتدمير وبقاء الآثار لبراهين واضحة يستدلَ بها على صدق الأنبياء وما جاؤوا به من عند الله وعلى قبح عمل الكفار، أفلا يسمع الكفار براهين الواحد القهار التي أنزلها على الرسل الأبرار؟

٢٧ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

أولم يشاهد الكفار الذين كذبوا بالحياة بعد الموت أن الله يسوق الماء إلى الأرض الجدباء المقفرة فيخرج بالماء زرعًا أخضر يأكل منه الناس والدواب وهو غذاء للحيوان والأبدان؟ فلماذا لم يتفكروا في قدرة وعظمة من هذا فعله، وأن من فعل ذلك - سبحانه - قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم.

٢٨ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يستعجل الكفار بيوم القيامة، فيقولون - مستبعدين لذلك - متى هذا الحكم الذي يفصل الله به بين المؤمنين والكفار على زعمكم - أيها المسلمون - إن كنتم صادقين فيما تقولون؟

٢٩ ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

قل لهم - أيها النبي -: لا ينفعكم في يوم الفصل والحكم بين الناس الإيمان بالله ورسوله ﷺ؛ لأنه قد فات الأوان، ولا تُؤخرون ساعة واحدة لاستدراك ما فات بالتوبة والإنابة فالوقت وقت حساب لا عمل.

٣٠ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾

فأعرض - أيها الرسول - عن الكفار وما عليك من كفرهم، ولا تبال وانتظر ما سوف يقع بهم، إن الكفار ينتظرون بالمؤمنين ويتربصون بهم دوائر السوء.

ترتيبها ٣٣ مدنية آياتها ٧٣

سورة الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

يا أيها النبي، الزم تقوى الله بالعمل بما يحبه ويرضاه وترك ما يكرهه، والأمر للرسول ﷺ أمر لأمته، ولا تطع الكافرين وأهل النفاق في ترك شيء من الدين أو مداهنتهم، إن الله يعلم كل شيء، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة، حكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه.

(٢) ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

واتبع - أيها الرسول - ما أوحاه الله إليك من كتاب وسنة، إن الله مطلع على عمل كل عامل وسوف يحاسبه عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٣) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

واعتمد على الله في أمورك وفوِّض الأمر إليه، وحسبك بالله حافظًا لمن اعتمد عليه وناصرًا لمن استنصر به، فهو نعم المولى ونعم الوكيل.

(٤) ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾

ما جعل الله لأحد من الناس من قلبين في صدره فيحب بهذا ويبغض بهذا، وما جعل الله نساءكم اللاتي تظاهرون منهن في التحريم كحرمة أمهاتكم، والظهار أن يقول الرجل لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي. وهذا من عمل الجاهلية، فإن الزوجة لا تصير أمًا بحالٍ من الأحوال، وما جعل الله الأبناء المتبنين مثل الأبناء من النسب الصحيح، فالظهار والتبني لا صحة لهما في التحريم الأبدي، فالمرأة المظاهر منها ليست كالأم في الحرمة، والابن المتبنى ليس كالابن الشرعي، والظهار والتبني إنما هما مجرد كلام باللسان لا حقيقة لهما ولا يُعتد بهما، والله -سبحانه- يقول الحق ويحكم به ويعلِّم عباده ويدلهم على العدل في الأقوال والأعمال.

(٥) ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

انسبوا الأبناء إلى الآباء ولا تخلطوا في الأنساب، هذا هو الأعدل والأصوب عند الله، فإن كنتم لا تعلمون الآباء الحقيقيين للأبناء فنادوهم بالأخوة الدينية التي اجتمعتم تحت رابطتها، فإنهم إخوان وموالٍ في الدين، وليس عليكم ذنب إذا حصل منكم خطأ لم تتعمده قلوبكم، إنما يؤاخذكم الله بالعمد لا بالخطأ، والله يغفر للمخطئ غير المتعمد ويرحم التائب غير المصر.

(٦) ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾

النبي الكريم محمد ﷺ أولى بالمؤمنين وأقرب لهم من أنفسهم في مسائل الدين والدنيا، وزوجات النبي ﷺ أمهات للمؤمنين في الحرمة، فيحرم نكاح نساء الرسول ﷺ من بعده، وذوو القرابة من المسلمين أولى بالميراث بعضهم من بعض من الإرث بالإيمان والهجرة وكان هذا في أول الإسلام ثم نُسخ، فالتوارث بالنسب هو المشروع لا بالأخوة في الدين، إلا إذا أراد المسلمون أن يفعلوا خيرًا إلى غير الورثة من صدقة وصلة وبر وإحسان ووصية، وهذا الحكم الذي شرعه الله كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ، فامتثلوا أمر الله بالعمل بما شرع. وفي الآية: أنه يجب على المسلم أن يحب الرسول ﷺ أكثر من نفسه، ويجب عليه اتباعه في كل ما شرع واحترام زوجاته ﷺ وعدم التعرض لهن بالأذى، ومن فعل ذلك فعليه الغضب واللعنة .

(٧) ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم أخذ الله من النبيين العهد الوثيق على تبليغ الرسالة، وأخذ الله الميثاق منك - أيها النبي - ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وأخذ الله منهم عهدًا وثيقًا بأن يبلغوا رسالته ويؤدوا أمانته ولا يكتموا شيئًا مما أُمروا بتبليغه وبعضهم يصدق بعضًا في دعوته.

(٨) ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾

وقد أخذ الله ذلك العهد من الأنبياء؛ ليسأل الله المرسلين عن جواب أقوامهم لهم فيثيب من آمن بدخول الجنة ويعذب من كفر بنار جهنم .

(٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

أيها المؤمنون: تذكروا فضل الله عليكم يوم غزوة الأحزاب حين تحزَّب عليكم أهل الكفر من المشركين واليهود والمنافقين وأحاطوا بكم من كل جانب، فأرسل الله على معسكرهم ريحًا شديدة عاصفة اقتلعت خيامهم ورمت قدورهم وحثت التراب في وجوههم، وأرسل الله ملائكة من السماء لم تبصروهم، وأنزل الله الرعب في قلوب الكفار فلاذوا بالفرار وعادوا بالخيبة والخسار، وكان الله بما تعملون بصيرًا مطلعًا على أحوالكم لا تغيب عنه من أموركم غائبة.

(١٠) ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

تذكروا يوم جاءكم الكفار من أعلى الوادي من ناحية الشرق ومن أسفل الوادي من ناحية الغرب فشخصت أبصاركم من الذهول والحيرة والدهشة، ووصلت قلوبكم إلى حناجركم من كثرة الهول وشدة الرعب، وغلب القنوط على أهل النفاق، وكثرت الشكوك، وتظنون بالله ما لا ينبغي له - سبحانه - من أنه لا ينصر رسوله ﷺ ولن يعلي دينه.

(١١) ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾

في ذلك المقام العسير أُمتحنَ أهل الإيمان ومُحِّص المسلمون، وبان الصادق من الكاذب، وحلَّت بالمسلمين نازلة هائلة اضطربت لها القلوب ووجلت لها الأنفس؛ ليزداد أهل الإيمان إيمانًا ويعظم يقينهم وثقتهم بربهم.

(١٢) ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾

في ذلك اليوم قال المنافقون وأهل الريبة والشك: إن الذي وعدنا الله ورسوله ﷺ به من النصر والعزة والغلبة لا حقيقة له بل خداع لا يُصدق.

(١٣) ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآيِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

وتذكر قول جماعة من أهل النفاق يوم نادوا في أهل المدينة: يا أهل يثرب - وهو اسم المدينة السابق - لماذا تقيمون في معركة خاسرة؛ فعودوا إلى بيوتكم في داخل المدينة، وجماعة من المنافقين تستأذن الرسول ﷺ بالعودة إلى بيوتهم بحجة أنها غير آمنة وليست محصنة، فيخافون على أهلهم وذراريهم فيها، والصحيح أن هذا كذب، ومقصودهم الهروب من الجهاد وترك الرسول ﷺ وأصحابه.

(١٤) ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾

ولو دخل الكفار من أهل الأحزاب المدينة من نواحيها، ثم طُلب من المنافقين الكفر بالله والردة عن الإسلام لأجابوا إلى ذلك وأسرعوا في هذا الأمر وما تأخروا عن اعتناق الكفر إلا زمنًا قليلاً.

(١٥) ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾

وسبق لهؤلاء المنافقين أنهم أعطوا الله العهد والميثاق أن لا يهربوا من ساحة المعركة ولا يتركوا القتال في سبيل الله، ولكنهم خانوا الميثاق ونقضوا العهد، وسوف يسألهم الله عن هذا العهد، فإن عهد الله يحاسب عليه، فيُثاب من وفى ويُعاقب من نقض.

(١٦) ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قل - أيها النبي - للمنافقين: لا يفيدكم الهروب من القتال خوفًا من الموت أو القتل، فإن ذلك الهروب لا يزيد في أعماركم ولا يؤخر الموت عنكم، وإن هربتم من الموت فلن تبقوا في هذه الحياة الدنيا إلا زمنًا يسيرًا وهو الزمن الذي قُدِّر لكم فيه الحياة، فلابد من الموت إذن فموتوا مؤمنين شرفاء لا منافقين جبناء.

(١٧) ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

قل - أيها النبي للمنافقين -: من الذي يحميكم من الله، ويمنعكم من عذابه إن أراد بكم عذابًا أو أراد بكم ثوابًا، فإنه وحده الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع؟ ولا يجد المنافقون من دون الله من يتولى أمورهم ولا من ينصرهم ولا من يدفع عنهم العذاب.

(١٨) ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآيِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

إن الله يعلم المثبطين عن القتال في سبيله الذين يقولون لإخوانهم: أقبلوا إلينا وكونوا معنا واتركوا الرسول ﷺ وأصحابه فلا تقاتلوا معهم فإنا نخشى عليكم القتل والأسر، وهم مع تخذيلهم لإخوانهم لا يقاتلون إلا نادرًا سمعةً ورياءً وخوفًا من انكشاف أمرهم.

(١٩) ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

بخلاء على الرسول ﷺ وأصحابه بالمال والنفس والمحبة والموالاة والنصيحة؛ لما في نفوسهم من النفاق والمرض، يحبون حياة الذل ويكرهون موت الشرف، فإذا حضر الجهاد خافوا من الموت ورأيتهم من شدة الهلع والجزع تدور عيونهم من الحيرة والاضطراب؛ خائفين من القتال كحالة من حضره الموت فعيناه تدوران لهول ما وقع به، فإذا انتهى القتال وذهب الفزع أخذوا يسبُّونكم بألسنة حادة مؤذية كالسكاكين، وهم عند قسمة الغنائم بخلاء حسدة يمنعون الخير ولا يحبونه لغيرهم، فهم لم يدخل الإيمان قلوبهم فأذهب الله أجورهم بسبب نفاقهم، والانتقام منهم، وتعذيبهم سهل على الله سبحانه.

(٢٠) ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يظن المنافقون أن الأحزاب الذين أذلَّهم الله وأخزاهم لم يغادروا المدينة من شدة رعب المنافقين وخورهم، ولو رجع الأحزاب مرة ثانية إلى المدينة لقتال المؤمنين لتمنى المنافقون أنهم كانوا غائبين عن القتال في أعراب البادية يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان من مكان بعيد، ولو كان المنافقون معكم - أيها المؤمنون - في ساح الجهاد ما شاركوا في القتال إلا قليلاً؛ لشدة ما أصابهم من الرعب والذل والخور.

(٢١) ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في رسول الله ﷺ قدوة صالحة وأسوة حسنة تلزمون سنته، وتمتثلون أمره، وتجتنبون نهيه، وتحكمون شريعته في حياتكم، وتقتدون بأقواله وأفعاله وأحواله في كل شأن من شؤونكم، ولا يتبع الرسول ﷺ ويهتدي بهداه ويستن بسنته إلا من كان يرجو ثواب الله ويتهيأ ليوم القيامة بعمل صالح فأكثر من ذكر الله؛ ليبرأ من النفاق، ويسلم من مرض القلوب؛ فعلامة المؤمن الصادق الناصح اتباعه ﷺ ولزوم سنته، بخلاف المنافق مريض القلب فإنه يكره السنة وأهلها.

(٢٢) ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

ولما أبصر المؤمنون الأحزاب الذين أحاطوا بالمدينة علموا أن وعد الله بالنصر قد دنا، وقالوا: هذا الذي سبق أن وعدنا الله به ورسوله ﷺ من الابتلاء والتمحيص ثم النصر والتمكين فقد أنجز الله ما وعد، وصدق رسوله ﷺ فيما أخبر، وما زادتهم معاينة الأحزاب إلا تصديقًا لموعود الله وتسليمًا بقضائه ورضًا بحكمه وانقيادًا لأمره.

(٢٣) ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾

من المؤمنين رجال أوفوا بعهودهم مع ربهم -تعالى- فأخلصوا له الطاعة وجاهدوا في سبيله وصبروا على البأساء والضراء وحين البأس، فبعضهم وفَّى بنذره فاستشهد في سبيل الله، ومنهم من ينتظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وما غيروا العهد ولا أخلفوا الوعد كما فعل المنافقون، بل ثبتوا وصدقوا.

(٢٤) ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ليأجر الله أهل الصدق على صدقهم في أقوالهم وأعمالهم، ويعذب المنافقين على كذبهم وخداعهم إن شاء معاقبتهم بأن لا يهديهم إلى الإيمان فيموتوا على النفاق ويدخلوا النار، إن الله يغفر خطايا من أسرف على نفسه إذا تاب وأناب، ويرحم من عاد إليه مقرًا بذنبه معترفًا بخطئه.

(٢٥) ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

ورد الله الكفار عن المدينة يجرُّون أذيال الخيبة والخزي والهزيمة ولم ينالوا خيرًا من النصرة والغنيمة أو الأجر والثواب في الآخرة، وكفى الله المؤمنين القتال بالأسباب التي قدرها كهبوب الريح العاتية ونزول ملائكة السماء، وكان الله قويًا يذل من حاربه، ويخذل من غالبه، عزيزًا في ملكه وجبروته سبحانه.

(٢٦) ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

وأنزل الله يهود بني قريظة من حصونهم؛ لأنهم أعانوا الكفار على قتال المؤمنين، وأنزل في قلوبهم الهلع فانهزموا خائبين، يقتل المؤمنون طائفة منهم ويأسرون طائفة أخرى.

(٢٧) ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

وسلطكم - أيها المسلمون - على دورهم ومزارعهم وأموالهم كالسلاح والدواب، وسلطكم على أرض لم تفتحوها من قبل لامتناعها بأهلها وكثرة حصونها، وكان الله على كل شيء قديرًا لا يعجزه ما أراد ولا يفوته أمر.

٢٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

يا أيها النبي: قل لنسائك اللاتي طلبن منك زيادة النفقة: إن كان مقصودكن الحياة الدنيا وزخرفها ومظاهرها فاقبلن ما أعطيكن مما أستطيع من متاع الدنيا، وأُفارقكن فراقًا بإحسان لا ضرر فيه ولا أذى.

٢٩ ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

وإن كان مقصودكن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وما عند الله من ثواب في دار النعيم المقيم، فعليكن بالصبر على حالكن معي والقناعة والرضا بما قسم الله، فإن الله هيأ للمحسنات منكن الأجر الكبير والثواب العظيم، فاخترن طاعة الله ورسوله وما عنده من ثواب على زينة الدنيا، فرضي الله عنهن وأرضاهن.

٣٠ ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾

يا نساء النبي، من يأت منكن بذنب كبير ظاهر يضاعف الله لها العذاب مرتين بالنسبة إلى غيرها من النساء؛ لأن الله شرَّفهنّ وأكرمهنَّ بالمنزلة العظيمة والمرتبة الكريمة بأن جعلهن زوجات لسيد الخلق ﷺ، وكان هذا التغليظ في العقوبة حمايةً لبيت الرسول ﷺ، وكان ذلك العقاب على الله سهلاً إذا أراد وقوعه.

٣١ ﴿ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴾

ومن تخلص لربها العبادة وتتبع رسوله ﷺ وتلتزم أوامر الشريعة يكرمها الله على عملها مثلي أجر غيرها من سائر النساء، وهيأ الله لها رزقًا هنيئًا مباركًا في جنات النعيم.

٣٢ ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾

يا نساء النبي: لستن في الفضل والمرتبة كسائر النساء؛ فإن الله أكرمكن بكونكن نساء سيد ولد آدم ﷺ، فإن كنتن تخفن الله وتراقبنه فلا تتكلمن مع الرجل الأجنبي بصوت رقيق لين يغري من في قلبه شهوة وفجور، وهذا الأمر يعم كل امرأة مسلمة، وإذا تكلمتن فتكلمن بكلام لا ريبة فيه ولا مخالفة للشريعة، فليس بالقول اللين ولا اللفظ الغليظ.

٣٣ ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾

والزمن بيوتكن ففيها الستر والعفاف، ولا تخرجن منها إلا لحاجة، ولا تظهرن المفاتن والمحاسن كفعل نساء الجاهلية قبل الإسلام من عدم الاحتشام وترك الحجاب، وقد شابهت نساء الجاهلية في عصرنا هذا من خرجت على تعاليم الدين وأصبحت كاسيةً عارية، سافرة متبرجة، خلعت جلباب الحياء فانسلخت من حجاب التقوى، وعليكن بأداء الصلاة على أكمل وجه كما شُرعت، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتصدقن طهرةً للنفس والمال، وعليكن بطاعة الله وطاعة رسوله بفعل الأوامر واجتناب النواهي، إنما أوجب الله عليكن هذه التعاليم ليزكيكن وليصونكن من المعاصي وأوضار الذنوب وجميع المعائب يا أهل بيت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، والله يريد أن يطهر نفوسكن تمام الطهارة؛ ليكون بيته ﷺ أزكى وأطهر وأشرف بيت في العالم؛ لأنه إمام الناس في الخير.

٣٤ ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

واذكرن ما يُقرأ عليكن ويتنزل في بيوت الرسول ﷺ من القرآن الكريم والسنة المطهرة وذلك بالعمل بأوامر الشرع واجتناب نواهيه، فاشكرن الله على هذا المجد العظيم والشرف الكبير، وذلك بتقواه -سبحانه وتعالى- ولزوم طاعته، إن الله كان لطيفًا بكن إذ اختاركن لرسوله الكريم ﷺ، خبيرًا -سبحانه- بهذا الاختيار؛ لأنه يعلم -سبحانه- أين يجعل كرامته.

(٣٥) ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ
وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ
وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

إن الخاضعين والطائعين لشرع الله والخاضعات الطائعات، والمؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر والمؤمنات، والمطيعين لله ولرسوله والمطيعات، والصادقين في أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم والصادقات، والصابرين على الطاعات وعن المحرمات وعلى المكاره والصابرات، والخائفين من عذاب الله وغضبه والخائفات، والمتصدقين بالواجب والمستحب والمتصدقات، والصائمين فرضًا ونفلاً والصائمات، والحافظين فروجهم عن الحرام والحافظات، والذاكرين الله كثيرًا بقلوبهم وألسنتهم والذاكرات، أعد لهم الله في الآخرة مغفرة لذنوبهم وثوابًا على طاعتهم لا يقدر قدره إلا الله من النعيم المقيم والأجر العظيم في جوار رب كريم.

(٣٦) ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴾

ولا يحل لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله فيهم حكمًا أن يخالفوه بأن يختاروا غير حكم الله، بل يرضون، ويسلمون، ومن يخالف أمر الله ورسوله فقد أخطأ خطأ بيِّنًا وخالف الرشد وجانب الصواب.

(٣٧) ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى
ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا
قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

وإذ تقول - أيها النبي - لمن تفضل الله عليه بالإسلام، وهو زيد بن حارثة الذي أعتقه النبي ﷺ وتبناه وتفضلت عليه بالعتق -: أمسك امرأتك زينب بنت جحش ولا تفارقها واتق الله يا زيد؛ وتخفي - أيها النبيُّ - في نفسك - ما أخبرك الله به من طلاق زيد لامرأته وزواجك منها، والله تعالى معلن ما أسررت، وتخاف أن يقول الناس: تزوج النبي امرأة من نسبه إلى نفسه بالتبني، والله أولى أن تخافه، فلما قضى زيد من زينب حاجته وفارقها وانتهت عدتها زوج الله زينب بنت جحش من رسول الله ﷺ؛ لتكون سنة متبعة في إبطال تحريم النكاح بامرأة المُتَبنى بعد فراقها، ولا يكون على المؤمنين ذنب وخطيئة في أن ينكحوا نساء من كانوا يتبنونهم بعد فراقهن إذا قضوا من نسائهم حاجتهم، وكان أمر الله مفعولاً فهو نافذ لا يمنعه مانع ولا يعيقه عائق.

(٣٨) ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

ما كان على النبي ﷺ من إثم فيما أباح الله له من نكاحه بامرأة من تبناه بعد فراقها كما أحل الله ذلك للرسل قبله، وقد أباحه الله في الشرائع السابقة، وكان أمر الله مقدرًا لابد من حصوله؛ لأنه لا راد لما أراد.

(٣٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

والأجر والثواب لمن بلَّغ رسالة الله إلى عباده ودعا إلى ربه ونصح الأمة وخاف الله وحده ولم يخف أحدًا سواه، وكفى بالله محاسبًا للناس على جميع أفعالهم، وهو الرقيب على كل أعمالهم.

(٤٠) ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

ما كان الرسول ﷺ أبًا لواحد منكم حتى يُمنع من نكاح امرأة ابنه من النسب إذا طلقها، ولكن محمدًا ﷺ شرفه الله وأعلى قدره بأن جعله رسولاً وخاتمًا للأنبياء فلا نبي بعده، وكان الله عليمًا بكل ما تعملونه لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

(٤١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾

أيها المؤمنون الصادقون: أكثروا من ذكر الله بألسنتكم وقلوبكم وكافة جوارحكم، واملؤوا به ليلكم ونهاركم، فإن الذكر أفضل عمل بعد الفرائض.

(٤٢) ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾

وأكثروا من ذكر الله في أول النهار وآخره، إذا أصبحتم وإذا أمسيتم، والزموا ذكره عند كل مناسبة، فبذكر الله تسبقون غيركم وتنالون رحمة ريكم وتدركون أرفع المنازل عند مولاكم.

(٤٣) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾

والله – سبحانه – المستحق أن يُذكر وحده؛ لأنه يرحمكم ويثني عليكم في الملأ الأعلى وتستغفر لكم الملائكة؛ ليخرجكم بالإسلام من ظلمة الجاهلية إلى نور الحق الذي بُعث به الرسول ﷺ، وكان الله بالمؤمنين رحيمًا في الدنيا والآخرة، يتوب على من تاب، ويرحم من أناب، ولا يعاجلهم بالعقاب.

(٤٤) ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴾

تحية المؤمنين يوم يلقون ربهم في جنات النعيم سلام، ولهم الأمن من العقاب والفوز بالثواب، وقد هيأ لهم نعيمًا مقيمًا وأجرًا جزيلاً في جنات النعيم.

(٤٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾

يا أيها النبي، إن الله أرسلك شاهدًا على أمتك لتبليغ الرسالة إليهم، ومبشرًا لمن آمن منهم بالجنة ونذيرًا لمن عصى بالنار.

(٤٦) ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾

وداعيًا بأمر الله إلى إخلاص العبادة له وتوحيده وعدم الإشراك به، وسراجًا منيرًا لمن اتبعك، تهديه في ظلمات الضلال إلى الطريق المستقيم، ورسالتك واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لا ينكرها إلا جاحد ولا يكذبها إلا معاند.

(٤٧) ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾

وبشر – أيها النبي – المؤمنين بأن لهم عند الله الثواب الجزيل والأجر العظيم في جنات النعيم.

(٤٨) ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾

ولا تطع – أيها النبي – قول الكفار والمنافقين في ترك شيء من دعوتك، واترك أذاهم ولا يحملك أذاهم على ترك شيء من الرسالة، واعتمد على الله وثق به وكل الأمر إليه، فإن الله كافيك ما تخاف، ناصرك على عدوك، وتوكل عليه في كل شأن من شؤونك.

(٤٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

أيها المؤمنون: إذا عقدتم على النساء ولم تدخلوا بهن ثم فارقتموهن من قبل الجماع فليس لكم عليهن عدةٌ تحسبونها لهن، فأعطوهن متعةً على حسب أحوالكم تجبر الخاطر وتمحو التقصير، وفارقوهن مع الستر وعدم ذكر العيوب، ولا تصدر منكم أذية لهن.

(٥٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

يا أيها النبي: إن الله أباح لك الزواج من اللاتي أعطيتهن مهورهن، وأباح لك ملك اليمين من الإماء مما تفضل الله به عليك، وأباح لك الزواج من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك من مكة إلى المدينة، وأباح لك امرأة مؤمنة منحتك نفسها دون مهر إن كنت ترغب في النكاح منها خاصة بك، وليس لأحد غيرك أن ينكح امرأة بالهبة، قد علم الله ما أوجب على المؤمنين في نسائهم وإمائهم في ألاّ يتزوجوا إلا أربعة نسوة وما شاؤوا من الإماء مع وجوب الولي والمهر والشهود، ولكن الله رخص لك - أيها النبي - في ذلك وجعل في الأمر سعة لك وحدك لئلا تتحرج من الزواج بما ذُكر من هذه الأصناف، وكان الله كثير الغفران لذنوب عباده، رحيمًا بمن تاب منهم وأناب. واسع التفضل والإحسان عليهم.

(٥١) ﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴾

تؤجل من تشاء من زوجاتك في قسمها من المبيت، وتضم إليك من تشاء من زوجاتك، وإذا رغبت فيمن أجّلت قسمها من زوجاتك فلا حرج عليك في ذلك، وذلك التخيير أدعى إلى سرورهن وعدم حزنهن ورضاهن بقسمتك بينهن، والله يعلم بما في قلوب الرجال من حب زائد لبعض الزوجات دون بعض، وكان الله عليمًا بما في القلوب والضمائر، حليمًا لا يؤاخذ العصاة حتى يعرض لهم التوبة، ولا يعاجل بالعقوبة حتى يقيم الحجة.

(٥٢) ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾

لا يُباح لك - أيها النبي - أن تتزوج فوق ما عندك من النساء، ومن كانت زوجة لك مما سبق ذكره من النساء فلا يجوز لك فراقها واستبدال غيرها بها ولو أعجبك جمالها، وأما ما ملكته يمينك من الإماء فالأمر واسع فالاستبدال والفراق، وكان الله على كل شيء رقيبًا، يعلم الخفيات ويطلع على النيات ولا يعزب عن علمه شيء من الكائنات.

(٥٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾

يا أيها المؤمنون الطائعون لربهم المتبعون لرسوله ﷺ، لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ حتى يأذن لكم لتناول الطعام غير منتظرين نضجه، ولكن إذا أذن لكم فادخلوا البيت، فإذا تناولتم الطعام فاذهبوا غير مستمعين لحديث النبي ﷺ وأهله، فإن انتظاركم للطعام وتصتكم للحديث يؤذي النبي ﷺ ويضايقه فيستحي ﷺ أن يأمركم بالخروج من بيته، ومن حقه أن يفعل، ولكنه لكريم شمائله لم يقابلكم بذلك، والله لا يستحيي من توضيح الحق وإظهاره وبيانه، وإذا طلبتم من زوجات النبي ﷺ حاجةً من أواني المنزل ونحوها فاطلبوها من وراء ستر؛ بُعدًا عن الريبة وسلامة العرض، فهذا أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الواردات التي تقع في نفوس الرجال ونفوس النساء، فالحجاب طريق العفاف والحشمة ووسيلة للطهارة والرؤية سبب للفتنة، ولا يجوز لكم أن تؤذوا النبي ﷺ، ولا يجوز لكم أن تتزوجوا نساءه

عليه الصلاة والسلام من بعد وفاته على التأبيد؛ لأنهن أمهات للمؤمنين، ولا يجوز للرجل أن يتزوج أمه، إن أذيتكم للنبي ﷺ أو الزواج من نسائه بعده إثمٌ عظيم وجُرم كبير عند الله عز وجل.

(٥٤) ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

إن تظهروا أمرًا من الأمور - أيها الناس - بأقوالكم مما فيه أذية للنبي ﷺ أو تخفوه في قلوبكم فإن الله يعلم ما خفي وما ظهر وما أُسر وما أُعلن، وسيجزي كلاً بما فعل.

(٥٥) ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

ليس على النساء ذنب في عدم التستر من الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات والنساء المؤمنات والموالي من ملك اليمين؛ لشدة الحاجة إلى الموالي في الخدمة، وراقبن الله - أيتهن النساء - في العمل بطاعته واجتناب معصيته، واحذرن من السفور والتبرج والخلوة بالأجنبي وإبداء الزينة والتعرض للفتنة، إن الله كان على كل شيء شهيدًا، يشهد على أعمال العباد يوم المعاد بما فعلوه من صلاح وفساد.

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾

إن الله يثني على رسوله ﷺ في الملأ الأعلى وينوه بذكره عند الملائكة المقربين، وملائكته الأبرار يثنون على النبي المختار ويدعون له، يا أيها المؤمنون: أكثروا من الصلاة والسلام عليه ﷺ في كل وقت وآن ما تعاقب الليل والنهار وما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وأكمل صلاة وأتمها عليه ﷺ هي: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

(٥٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

إن الذين يؤذون الله بالكفر والسب ونسبة الولد والزوجة إليه والإشراك به ووصفه بالنقائص تعالى الله عن ذلك وتقدس وتبارك وتنزَّه، والذين يؤذون الرسول ﷺ بالتكذيب والمحاربة والاستهزاء وردِّ شيء من سنته والسخرية من شرعه أبعدهم الله من رحمته، وطردهم من جنته، وحلَّ عليهم غضبه، ووقع عليهم سخطه في الدنيا والآخرة، وأعد لهم في النار عذابَ الخزي والهوان والعار.

(٥٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالسب والشتم والظلم والأذى بأنواعه من غير جُرم فعلوه فقد قالوا أعظم الكذب وأفحش الزور وأتوا بجُرمٍ قبيح يستحقون عليه العذاب والنكال.

(٥٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يا أيها النبي: مر نساءك وبناتك وزوجات المؤمنين أن يرخين على رؤوسهن ووجوههن من الملاحف والأردية والحجاب حتى تُستر الرؤوس والوجوه والصدور، وفي هذا ترجيح تغطية وجه المرأة المسلمة، ذلك أقرب أن يميزن بالحجاب والعفاف والستر والصون فلا يتعرض لهن سفيه بأذى ولا مضايقة، وكان الله كثير الغفران لمن أساء واستغفر من ذنبه، واسع الرحمة بما بيَّن لعباده من شريعة .

(٦٠) ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لئن لم يرتدع المنافقون ومرضى القلوب وأهل الشائعات الباطلة وأصحاب الأخبار الكاذبة في مدينة الرسول ﷺ عن أذاهم وفجورهم ومحاربتهم للحق ليسلِّطنَّك الله عليهم - أيها النبي - ثم لا يبقون معك في المدينة إلا وقتًا يسيرًا.

(٦١) ﴿ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴾

طرد الله المنافقين من رحمته وحرمهم جنته، في أي محل كانوا فإنهم يؤسرون ويُقتلون تقتيلاً؛ لأنهم أعداء لله ولرسوله ﷺ، ومحاربون للملة، وهم أهل فتنة وفساد.

(٦٢) ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾

سنة الله وطريقته المثلى الدائمة في الأقوام السابقين من أهل الكفر والتكذيب أنهم يُؤسرون ويُقتلون في أي مكان كانوا، ولن تجد لطريقة الله في شرعه وخلقه تحويلاً ولا تغيرًا بل هي دائمة ثابتة مستقرة؛ لأنها صدرت عن علم وحكمة.

(٦٣) ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

يسألك الناس - أيها النبي - عن وقت القيامة مستبعدين وقوعها، قل لهم: إن علم الساعة مما استأثر الله به، لا يعلم وقت قيامها إلا الله وحده، وما يدريك - أيها النبي - لعل وقت قيامها دنا فكل آت قريب، وكل ما وعد الله به حاصل لا محالة.

(٦٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴾

إن الله طرد الكفار من رحمته وجنته، وحلَّ عليهم غضبه وسخطه، وهيأ لهم نارًا موقدة تحرق أجسامهم وتشوي وجوههم.

(٦٥) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾

والكفار ماكثون في نار جهنم أبدًا لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، وليس لهم ولي يتولى شؤونهم ويدفع عنهم العذاب، ولا نصير ينصرهم فيخرجهم من نار جهنم.

(٦٦) ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾

يوم تُقلب في النار وجوه الكفار في ذلّ وخسار، يقولون من شدة الحسرة والندم: يا ليتنا أطعنا الله فاتقيناه وأطعنا الرسول فاتبعناه.

(٦٧) ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾

وقال الكفار يوم العرض على الواحد القهار: ربنا، إنا اتبعنا قادتنا في الشر وأئمتنا في الغواية وأكابرنا في الكفر فحرفونا عن طريق الهداية وحرفونا عن الحق المنزل على الرسول ﷺ.

(٦٨) ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾

ربنا ضاعف العذاب لمن أضلنا من أئمتنا واطردهم من رحمتك ومن جنتك طردًا شديدًا، وفي هذا برهان على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وأن من أطاع غير الله وغير رسوله ﷺ طاعة تخالف الشرع فإنه مستوجب لغضب الله وسخطه ولعنته وعذابه، فليحذر المسلم.

(٦٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾

يا أيها المؤمنون: لا تؤذوا رسولكم ﷺ بقول أو فعل فتفعلوا فعل اليهود الذين آذوا رسولهم موسى -عليه السلام- بالسب والانتقاص وقول الزور، فبرأ الله موسى مما قالوا، وكان موسى عند الله عظيم الجاه كبير القدر رفيع المنزلة.

(٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾

يا أيها المؤمنون: اتقوا الله بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه، وإخلاص الطاعة لله وصدق المتابعة لرسوله ﷺ، وقولوا القول الصائب الصادق المستقيم السليم من الكذب والزور والإثم والباطل في جميع أموركم وفي سائر شؤونكم.

(٧١) ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

فأنتم إذا اتقيتم الله حق تقواه ولزمتم القول الصائب السديد أصلح الله لكم أعمالكم وغفر لكم سيئاتكم، وفي هذا عظيم أثر القول على العمل ووجوب حفظ اللسان، ومن يطع الله بالعمل بشرعه ويطع الرسول ﷺ باتباع سنته فقد نال العز وفاز بالكرامة وحاز الرضوان وأدرك النعيم.

(٧٢) ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

إن الله عرض الأمانة - وهي كل ما أوجبه على عباده من أمر ونهي وحلال وحرام، وذلك مجموع ما أُرسل به الرسول ﷺ - عرض ذلك على السموات والأرض والجبال فامتنعت أن تحمل هذه الأمانة خوفًا من عدم الوفاء بحملها وعجزًا عن القيام بأدائها، والتزم الإنسان -على ضعفه- حبها وقبل تحمل هذه الأمانة، إنه كان ظلومًا لا يعدل، جهولاً لا علم عنده، فبالعلم والعدل يحوز العبد كمال الولاية.

(٧٣) ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾

وحمل الإنسان الأمانة فيظهر عند حملها المسلم من الكافر، والصادق من المنافق؛ ليعذب المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام والمنافقات والذين يشركون مع الله في عبادته والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بقبول الحسنات وغفران السيئات والنجاة من العذاب، والله كثير الغفران لمن تاب، رحيمٌ بمن أناب، يدعو إلى التوبة ولا يستعجل بالعقوبة.

مكية

ترتيبها
٣٤

سورة سبأ

آياتها
٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

الثناء الجميل، والشكر الجزيل، والمجد الجليل، لله وحده تقدست أسماؤه، الذي له ملك كل ما في السموات وما في الأرض وتدبيره، فله الثناء الكامل، والمجد التام يوم القيامة، وهو الحكيم في قوله وفعله، الخبير بأمره وخلقه.

(٢) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾

الله يعلم كل ما يدخل في الأرض من ماءٍ ودواب، وغير ذلك، ويعلم ما يخرج من الأرض من ماء ومعدن ونبات، ويعلم ما ينزل من السماء من الملائكة والكتب والأمطار، ويعلم ما يصعد إلى السماء من الملائكة وأعمال العباد، وهو الرحيم بخلقه فلا يعاجل العقوبة لمن عصاه، كثير الغفران لذنوب من عاد إليه وطلب عفوه.

(٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

وقال الكفار المكذبون بيوم الحساب: لن تقوم القيامة أبدًا، قل لهم - أيها النبي -: بلى لتقومنَّ، وأقسم بربي لتأتينكم الساعة، ولا يعلم زمن قيامها إلا الله وحده الذي لا يغيب عنه وزن نملة صغيرة في السموات والأرض ولا دون ذلك ولا أكبر من ذلك إلا هو مكتوب في اللوح المحفوظ بوضوح وبيان.

٤ ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾

ليثيب الله المؤمنين الصالحين أعظم الثواب، مع غفران الذنوب ونيل الكرامة والفوز بالخلود في جنات النعيم .

٥ ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾

والذين سعوا واجتهدوا في محاربة الله ورسوله ﷺ والصد عن سبيل الله والكيد لأوليائه وهم مشاقون لله مغالبون لشرعه فأولئك لهم أفظع العذاب وأشد العقاب يوم الحساب.

٦ ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾

وأهل العلم العارفون بالله وبأمره يعلمون ويتيقنون أنّ القرآن المنـزل من الله على رسوله ﷺ حقٌّ لا شك فيه ولا ريب، وأنه يدل على سبيل النجاة ويرشد إلى طريق السعادة ويهدي إلى صراط الله العزيز الذي يذل من غالبه ويخذل من حاربه الذي قهر سواه، وأعز من تولاه، مستوجب الحمد والمدح على جميل أقواله وكريم أفعاله وحسن شرعه.

٧ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾

وقال الكفار فيما بينهم – سخريةً منهم واستهزاءً بالرسول-: هل نرشدكم إلى رجل (يقصدون الرسول ﷺ) يخبركم أنكم إذا متم وأكلت الأرض أجسامكم أنكم بعد ذلك تعودون إلى الحياة من جديد وتُبعثون من قبوركم؟ قالوا ذلك منكرين مستبعدين وقوعه.

٨ ﴿ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴾

اختلقَ النبيُّ ﷺ -على زعمهم- كذبًا على الله وادعى أن الله أرسله -وحاشاه-، بل به جنون فهو لا يعقل ما يقول؟ وقد كذبوا، فيما قالوا بل نبي الله ﷺ مرسل من عند ربه، لكنهم يكذبون بالبعث بعد الموت، وينكرون الآخرة، وسيكونون في عذاب دائم في نار جهنم، وهم بعيدون عن الرشد لم يوفقوا للهدى والصواب.

٩ ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾

أفلم يشاهد الكفار خلق الواحد القهار وبديع صنعه فيما أمامهم وما وراءهم من خلق السماء والأرض الذي يدهش العقول ويحير الأفكار؟ ولو أراد الله لخسف بالكفار الجاحدين الأرض كما فعل بقارون، أو نزَّل عليهم قطعًا من العذاب كما عذب قوم شعيب يوم أنزل الله عليهم نارًا من السماء أحرقتهم، إن في خلق الله وبديع صنعه لبرهانًا ساطعًا ودليلاً واضحًا لكل عبد يعود إلى ربه تائبًا ويرجع إليه منيبًا يخلص له العبادة ويفرده بالألوهية.

١٠ ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴾

ولقد أعطى الله داود -عليه السلام- نبوةً وعلمًا وزبورًا وملكًا عظيمًا، وأمر الله الجبال والطير أن تسبح معه، وألان الله له الحديد فأصبح كالعجين في يده، يحوله على أي شكل أراد .

١١ ﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

وأمر الله داود أن يصنع دروعًا واسعات محكمات، وأن يجعل المسامير على حجم فتحات الدروع، فلا تكون الحلقة ضيقة فيضعف المسمار فلا تحمي الدروع لابسها، ولا يجعل الحلقة كبيرة فتثقل الدروع على حاملها، وأمر الله داود وأهله أن يخلصوا له العبادة ويتقوه حق تقواه، فإنه سبحانه مطلع على ما خفي وما ظهر من الأعمال، لا تخفى عليه خافية.

١٢ ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

وسخر الله الريح لسليمان تجري من أول النهار إلى نصفه مسيرة شهر، ومن نصف النهار الثاني إلى الليل مسيرة شهر بسير الناس المعروف، وأذاب الله النحاس وأصبح سائلاً كالماء يتحكم فيه بما أراد ويصنع به ما أحب، وسخر

الله لسليمان الجن، منهم من يعمل بين يديه طائعًا ذليلاً بإذن الله وتسخيره، ومن يعص أمر الله منهم ولا يأتمر بأمر سليمان يصليه الله عذاب جهنم الموقدة.

(١٣) ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾

يعمل الجن لسليمان ما أراد من مساجد للصلاة وصور من نحاس وزجاج ويعملون له أشكالاً عجيبة مما أحب، وقصاعًا واسعة عظيمة كالأحواض الكبيرة التي يجتمع فيها الماء، وقدورًا للطعام ثابتات لا تضطرب لسعتها وضخامتها، وأمر الله آل داود أن يشكروا نعمه بلزوم طاعته وامتثال أمره واجتناب نهيه، وقليل من الناس من يشكر الله على نعمه الجليلة، والكثير منهم جاحد مقصر في الشكر، وداود من القليل الشاكر.

(١٤) ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

فلما كتب الله على سليمان الموت وحان أجله وتمت مدته مات عليه السلام واقفًا معتمدًا على عصاه، وما علم الجن أنه مات وهم يعملون بين يديه حتى أتت الأرضة فأكلت عصاه فوقع -عليه السلام-، عندها تيقن الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما مكثوا في الشغل الشاق المذل والعمل المضني لسليمان؛ لأنهم كانوا يحسبونه حيًا ينظر إليهم وهو قد مات!! وفي الآية الرد على من ادعى أن الجن يعلمون الغيب فلا يعلم الغيب إلا الله وحده.

(١٥) ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

لقد كان لقبيلة سبأ في اليمن برهان عظيم على قدرة الله وعظمته سبحانه، هذا البرهان هو بستانان عن يمين وشمال الوادي، أو أن كل بيت من بيوتهم يحفه بستانان، وأمرهم ربهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروا نعمه ويستعينوا بها على طاعته، فإن أرضهم كريمة التربة عذبة الماء، حسنة الهواء، وربهم الله غفار للذنوب ستار للعيوب.

(١٦) ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾

فأعرض أهل سبأ عن طاعة الله واتباع رسله وشكره على نعمه، فأرسل الله على قراهم السيل الجارف القوي، فخرَّب سدهم ودمَّر قراهم واقتلع شجرهم وأغرق دوابهم، وبدلهم الله مكان البساتين الخُضْر والحدائق الغناء، جنتين دون الأولى، لشجرها ثمر مُرٌّ كريه الطعم، وأثل لا ثمر فيه، وقليل من شجر النبق كثير الشوك.

(١٧) ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾

ذلك التبديل من الأحسن إلى الأسوأ بسبب إعراضهم وكفرهم وعدم شكرهم، وما يعذب الله ولا يعاقب إلا من كفر النعم وأعرض عن الحق؛ جزاءً على فعله القبيح.

(١٨) ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

وجعل الله بين أهل سبأ في اليمن وقرى الشام التي بارك الله في أرضها مدنًا متصلة بعضها ببعض، وجعل الله السفر في هذه القرى معلومًا محددًا من مكان إلى مكان لا مشقة فيه، وأمرهم الله أن يسافروا في تلك القرى في أي ساعة من ليل أو نهار وهم في أمن وفي نعمة، قد أطعمهم الله من الجوع، وأرواهم من العطش، وآمنهم من الخوف.

(١٩) ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

ولكنهم تجاوزوا الحدود وطغوا وبغوا وسئموا النعيم وملوا رغد العيش والراحة والأمن، وقالوا في بطرٍ وأشر: يا ربنا، اجعل بين قرانا مسافات متباعدة حتى لا يفد إليهم محتاج ولا يصل إليهم فقير، وحتى لا تبقى في طريقهم أرض عامرة فينقطع المسافرون، وقد ظلموا أنفسهم بالشرك وكفر النعم والاعتداء في الدعاء، فأهلكهم الله ودمَّرهم وأباد

خضراءهم وشتت شملهم ومزقهم في الديار، وخرَّب بلادهم، إن فيما وقع بأهل سبأ لعظةً عظيمة لكل من صبر على أقدار الله المؤلمة، وصبر على أداء الطاعات وصبر على اجتناب المعاصي، وأكثر من شكر ربه بطاعته وامتثال أمره.

(٢٠) ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولقد ظن الشيطان ظنًا غير يقين أنه سيغوي كل البشر، وأنهم سوف يتبعونه في غوايته، فصدقوا ظنه فاتبعوه واقتدوا به في معاصي الله إلا طائفةً من أهل الإيمان بالله ورسله، فإنهم أخلصوا لله العبادة وأفردوه بالتوحيد.

(٢١) ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

وما كان للشيطان على الكفار من وسيلة يقهرهم بها ويجبرهم على الكفر، ولكن قدر الله أن يفتن الناس به ويمتحنهم بتزيينه وتسويله؛ ليظهر الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، ولو لم يكن هناك ابتلاء لما تميز الأبرار عن الأشرار، وربك على كل شيء حفيظ، يطلع عليه ويحصيه ويحاسب عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(٢٢) ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: ادعوا من زعمتموهم شركاء لله في خلقه وعبادته فصرفتم لهم شيئًا من العبادة فاقصدوهم في حوائجكم فلن تجدوا عندهم إجابة؛ لأنهم عاجزون عن تلبية أي سؤال، فهم لا يملكون وزن نملة صغيرة في السموات ولا في الأرض، وليس لهم أي حصة أو قسم من هذا الخلق، فالله خالقه ومالكه ومدبره وحده، والله لم يستعن حين خلق السموات والأرض بأحدٍ من المشركين ولا من آلهتهم المزعومة، بل هو المتفرد بالخلق والرزق، فحقه أن يُعبد وأن يُوحَّد وأن يُفرد بالعبادة ولا يُجحد.

(٢٣) ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

ولا تنفع شفاعة من يشفع عند الله إلا إذا أذن الله للشافع بالشفاعة ورضي عن المشفوع له، والله عز وجل إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه وَجِلُوا من عظمته وخافوا من هيبته حتى يغشاهم مثل الإغماء من شدة الفزع، فإذا زال عنهم الخوف قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فتجيب الملائكة: قال الحق وهو العلي علو ذاتٍ وقدرٍ وقهرٍ، الكبير على كل شيء الذي له العظمة والكبرياء.

(٢٤) ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

سل - أيها النبي- الكفار: من الذي يرزقكم من السموات بإنزال الغيث ومن الأرض بالثمار والزروع والكنوز وغير ذلك؟ فإنهم يعترفون أن الله هو الرازق وحده، فإن أنكروا فقل لهم: الله -سبحانه- هو الرازق لا سواه، وإن إحدى الطائفتين منا ومنكم لراشدة صائبة، أو أنها ضالة منحرفة.

(٢٥) ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قل - أيها النبي- للكفار لا تُسألون عن خطايانا ولا نُسأل عن أعمالكم؛ لأننا نبرأ إلى الله منكم ومن شرككم.

(٢٦) ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: الله يجمع بيننا وبينكم يوم الحساب، ثم يفصل بيننا بالعدل فيما اختلفنا فيه، وهو الفتاح الذي يحكم بين الناس بالعدل ويقضي بالفصل، فقضاؤه يصدر عن عدل؛ لأنه علم أعمال خلقه لا تغيب عنه غائبة .

(٢٧) ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قل- أيها النبي - للكفار: أروني بالبرهان الواضح الذين صيَّرتموهم شركاء لله في العبادة، هل خلقوا شيئًا؟ بل أنتم كاذبون في دعواكم، فالخالق الرازق هو الله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له، العزيز ينتقم ممن عاداه ويعز من والاه، الحكيم في خلقه وصنعه وفي تدبيره وشرعه.

(٢٨) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

وما أرسلك الله - أيها النبي - إلا رسولاً للبشر جميعًا، فدعوتك عامة للثقلين تبشر من آمن بالأجر العظيم وتنذر من كفر بالعذاب الأليم، ولكن أكثر البشر لا يعلمون الحق الذي بُعثت به ولا يصدقون رسالتك، فهم معرضون عن الهداية.

(٢٩) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

ويقول الكفار في استبعاد واستنكار: متى موعد القيامة الذي تَعِدوننا به والذي يحصل فيه القضاء بين الخلق إن كنتم صادقين بأن هذا الوعد واقع لا محالة.

(٣٠) ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: لكم وقت محدد وواقع لا محالة، هو يوم الحساب لا تتأخرون عن موعده ساعة من الزمن فتتوبون، ولا تتقدمون إليه ساعة من الزمن فتُعذبون، بل هو موعد معلوم، فخافوا ذلك اليوم وخذوا حذركم منه بطاعة الله.

(٣١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴾

وقال الكفار: لا نصدق بالقرآن ولا بالكتب التي سبقته كالتوراة والإنجيل والزبور، فهم كذبوا كل الرسل وأنكروا كل الكتب، ولو ترى - أيها النبي - إذ الكفار محبوسون عند الله للجزاء، يتكلم بعضهم مع بعض، كلٌّ يلقي باللوم على الآخر؛ لرأيت أمرًا هائلاً ومشهدًا فظيعًا، يقول المستضعفون من الرعاع والسفلة والأتباع للمستكبرين من القادة والأعيان والرؤساء الذين دلّوهم على الضلالة: لولا أنكم أغويتمونا عن طريق الحق لآمنا بالله وصدقنا رسوله ﷺ.

(٣٢) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴾

قال السادة والكبراء للضعفاء: هل نحن منعناكم من الإيمان بعدما جاءكم الهدى؟ بل كنتم أشرارًا فجارًا بقبولكم الغواية مختارين، ولم يجبركم أحد.

(٣٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

وقال الضعفاء للرؤساء: بل خداعكم وتزيين الشر لنا أوردنا المهالك، فقد عرضتم لنا الباطل ليل نهار، ودعوتمونا للكفر بالله والإشراك به، وكتم كلٌّ من الطائفتين ندمهم وحسرتهم وخيبتهم حين شاهدوا العذاب أمامهم، وجعل الله الأغلال في أعناق الكفار، ولم يُعذبوا هذا العذاب إلا لكفرهم بالله وصدهم عن سبيله، وفي الآية تحريم اتباع دعاة الضلالة وأئمة الطغيان ورؤوس المبتدعة.

(٣٤) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

وما أرسل الله في قرية من رسول يدعو إلى الإيمان بالله وعدم الإشراك به، إلا قال أهل البطر والأشر المنغمسون في البذخ والترف: إنا بما أتيتم به - أيها الرسل - من عند الله جاحدون منكرون.

(٣٥) ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾

وقال المترفون المتكبرون: نحن أكثر منكم - أيها المؤمنون - أموالاً وأولادًا، فرضى الله عنا ميَّزنا عليكم بهذه النعم، وسوف ننجو من العذاب في الدنيا والآخرة .

(٣٦) ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

قل - أيها النبي- للمتكبرين والمترفين: إن الله يعطي الدنيا من يشاء من عباده ويوسع عليه رزقه، ويمنعها من يشاء فيضيق عليه رزقه، لا لمحبة ولا لبغض ولا لهداية ولا لضلالة، بل يفعل الله ذلك ابتلاءً، فلا يظن الموسع عليه أنه

محبوب، ولا يظن المضيق عليه أنه مبغوض، ولكن أكثر الناس لا يعلمون مراد الله وأسراره في خلقه وحكمته في اختياره وابتلائه.

٣٧ ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾

وليست الأموال ولا الأولاد بالتي تقرب صاحبها من الله فتعلي منزلته وترفع درجته، لكن المؤمنون الصالحون لهم ثواب مضاعفة الحسنات، فالحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله، وقد تكون أموالهم وأولادهم إذا صدقوا مع الله من أسباب المضاعفة، وهؤلاء المؤمنون في أرفع منازل الجنة وأعلى مراتبها آمنون من العذاب والموت وأنواع الهموم والغموم والأحزان.

٣٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾

والذين يجتهدون في إبطال حجج الله والرد على براهينه التي أنزلها على رسله ويحاربون أولياءه مشاقين لله ولرسوله ﷺ معادين للحق، هؤلاء في نار جهنم تحضرهم الزبانية وتسحبهم على وجوههم سحبًا إلى النار.

٣٩ ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

قل - أيها النبي - للمتكبرين المترفين المغترين بالدنيا: إن الله يوسع على من يشاء من عباده في الرزق ويضيِّق على من يشاء من عباده؛ لسر يعلمه ولحكمةٍ أرادها؛ ابتلاءً منه لخلقه، وما بذلتم في سبيل الله من مال أو نفع فإن الله سوف يعوضه لكم في الدنيا بزيادة الرزق وفي الآخرة بالأجر العظيم، وهو سبحانه خير الرازقين، يعمُّ نواله الجميع ويعطي البر والفاجر، ولا يرجو من العبد بإعطائه نفعًا، فاطلبوا الرزق من الواحد الأحد، وابذلوا الأسباب الشرعية في الكسب.

٤٠ ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم يجمع الله المشركين وآلهتهم التي عبدوها من دون الله من الملائكة، ثم يقول الله للملائكة - مبكتًا المشركين -: أهؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم من دوننا؟ فهل رضيتم بذلك؟ والله يعلم حقيقة الأمر.

٤١ ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾

فأجابت الملائكة: ننزِّهك يا ربنا عن شرك من أشرك بك في العبادة، فأنت وحدك إلهنا ولينا الذي نخلص له الطاعة ونفرد له العبادة، بل كان المشركون يعبدون الشياطين ويصدقونهم فيما يقولون ويطيعونهم فيما يأمرون.

٤٢ ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

وفي يوم القيامة لا يستطيع المعبودون جلب النفع لمن عبدوهم أو دفع الضر عنهم، ويقول الله للكفار الظالمين لأنفسهم بالشرك والذنوب: ذوقوا ما كنتم تكذبون به في الدنيا من عذاب النار.

٤٣ ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾

وإذا قرئ القرآن على الكفار وصارت آياته معلومة واضحة لديهم، قالوا: ما محمد إلا إنسان يرغب في منعنا من عبادة أصنامنا وأوثاننا التي كان يعبدها آباؤنا، وقالوا: ما هذا القرآن الذي جئت به يا محمد إلا زور وبهتان، وقال الكفار: إن القرآن سحرٌ ظاهر واضح لا يشك في ذلك أحد.

٤٤ ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴾

وما أنزل الله على الكفار قبل القرآن كتبًا ترشدهم إلى أن ما جاء به الرسول ﷺ سحر، وما بعث الله للكفار رسولاً قبل محمد ﷺ يخوفهم عذاب الله.

(٤٥) ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

وكذب الذين سبقوا كفار مكة كعاد وثمود بآيات الله ورسله، وما بلغ كفار مكة عشر ما أعطى الله الأقوام السابقين من القوة والثراء والبأس وتتابع النعم والبسطة في الأجسام ونحو ذلك، فكذبت تلك الأمم رسلهم ودمر الله المكذبين، فانظر وتفكر ما أشد عقوبة الله لـمَّا أنكر عليهم، وما أقوى بأسه لـمَّا انتقم منهم.

(٤٦) ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾

قل - أيها النبي - لهؤلاء الكفار: إنما أنصح لكم بطريقة واحدة، أن تنهضوا لإجابة داعي الله اثنين اثنين وواحدًا واحدًا، ثم تتفكروا وتتأملوا حالة الرسول ﷺ وما ادعيتم عليه من جنون، فالرسول ﷺ ليس إلا منذرًا لكم بعذاب جهنم إن كفرتم بالله وكذبتم رسوله ﷺ، وإنما دعاهم للتفكر اثنين وواحدًا؛ ليكون ذلك أدعى لصفاء الذهن والبعد عن ضوضاء الناس.

(٤٧) ﴿ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: ما طلبتُ منكم أجرة على تبليغ رسالتي ودعوتي لكم، فهي لكم ولا أطلبُ منكم شيئًا، إنما أجري على تبليغ دعوة ربي على الله وحده، وهو مطلع على عملي وعملكم، لا تغيب عنه غائبة، وسيحاسب الجميع على ما فعلوا، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(٤٨) ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾

قل - أيها النبي - لمن جحد الإيمان وكذبك: إن ربي يرمي الباطل بحجج من الحق فيسحقه ويمحقه، والله يعلم ما غاب عن الأبصار، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عن علمه غائبة.

(٤٩) ﴿ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: جاء الحق من الله والهداية الربانية، وغرب الباطل واضمحل الكفر وانهزم أصحابه، ولم يبق للباطل نصيرٌ يبدؤه ويعيده ويحميه وينصره.

(٥٠) ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾

قال - أيها النبي -: إن انحرفتُ عن الهدى فذنب انحرافي على نفسي، وإن استقمتُ على الطريق المستقيم فبسبب ما أنزل الله عليَّ من كتاب وسنة، إن ربي سميع لكل الأقوال، يسمع من دعاه، قريب ممن ناجاه وناداه.

(٥١) ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾

ولو شاهدت - أيها النبي - إذ خاف الكفار أشد الخوف حين أبصروا العذاب لشاهدت أمرًا مهولاً، فلا نجاة لهم من العذاب ولا مهرب لهم منه، وأُخذ الكفار إلى النار من محل دانٍ قريب الأخذ ليس ببعيد.

(٥٢) ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾

وقال الكفار - بعدما أبصروا عذاب جهنم -: آمنا بالله وصدقنا رسوله ﷺ، وكيف يستطيعون الإيمان في هذا الوقت وقد فات الأوان وقد بعُد المكان والزمان بهم عن الإيمان، فقد حيل بينهم وبينه؛ لأن وقت الإيمان ومكانه في الحياة الدنيا لا في الآخرة.

(٥٣) ﴿ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾

وقد كذب الكفار برسالة الرسول ﷺ وكفروا بالله، وهم يرمون بالظنون الخاطئة من محل بعيد عن إصابة الحق، وليس لهم دليل على ظنهم ولا برهان على حسبانهم الباطل، ولا يصيب الحقَّ إلا من كان على بينة من ربه ولديه حجة من الله، كما أن رامي الهدف إذا ابتعد عنه لا يصيبه وإنما يرمي على الظن.

(٥٤) ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾

وحيل بين الكفار والإيمان بالله الواحد القهار والتوبة والاستغفار والرجوع إلى هذه الدار، مثلما فعل الله بمن يشبههم من القرون المتقدمة، إن الكفار كانوا في الحياة الدنيا في شكٍ من الإيمان بالله ورسله والبعث بعد الموت والحساب، وهذا الشك أحدث لهم قلقًا وريبةً فكفروا وكذبوا.

مكية

ترتيبها
٣٥

سورة فاطر

آياتها
٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الثناء الجميل والشكر الجزيل والحمد الجليل لله وحده الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما وأنشأهما على غير مثال سابق، الذي جعل الملائكة رسلاً من عنده بالوحي إلى من أراد من الناس، يتنزلون بأمره ونهيه، ومن قدرة الله العظيمة أن جعل للملائكة أجنحة متعددة، منهم من عنده جناحان أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر من ذلك يطير بها في السماء؛ ليؤدي رسالة الله إلى عباده، إن الله على كل شيء قدير لا يصعب عليه أمر، ولا يستعصي عليه شيء.

(٢) ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

ما يفتح الله للناس وما يعطي العباد من النعم الظاهرة والباطنة كالمال والولد والصحة والعلم والهداية والفهم والقبول وغير ذلك فلا أحدَ من البشر يستطيع أن يمنع هذا العطاء أو يرد هذه الرحمة، وما يمنع الله عن أحد من عباده هذه النعم لا يستطيع أحد من خلقه أن يوصلها إلى أحد من عباد الله إذا أراد الله حرمانه منها، فلا يجلب الخير إلا الله، ولا يدفع الشر إلا الله، فمن أراد العزة والنصر والرزق والتأييد والرفعة والهداية فليطلبها ممن يملكها وحده -سبحانه- ولا يطلبها من الناس، فإنهم لا يعطون ولا يمنعون، ولا ينفعون ولا يضرون، ولا يحيون ولا يميتون، ولا يعزون ولا يذلون، فإنما المعطي والمانع والنافع والضار والمحيي والمميت، والمعز والمذل هو الله وحده لا إله إلا هو ولا رب سواه، فلتُخلص له العبادة وليفرد بالطاعة، وهو العزيز الذي يعز من والاه ويذل من عاداه ويقهر من غالبه ويخذل من حاربه؛ الحكيم في خلقه وصنعه وتدبيره وشرعه.

(٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

يا أيها الناس، اذكروا نعمة الله عليكم بشكرها بالقلوب والألسن والجوارح، فمن أطاعه فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره، هل تعلمون لكم – أيها الناس – خالقًا غير الله يرزقكم من السماء بالغيث ومن الأرض بالماء والثمار والزروع والمعادن وغير ذلك، لا يستحق العبادة بحق إلا الله لا شريك له ولا رب سواه، فكيف تُصرفون عن طاعته وتوحيده وعبادته بعدما عرفتم فضله وإحسانه.

(٤) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

وإن يكذبك الكفار – أيها النبي – فقد سبق للأمم التي قبلهم أن كذبوا رسلهم، فاصبر كما صبر أولئك الرسل، فإلى الله تعود كل الأمور؛ ليحاسب الجميع على ما فعلوا فيثيب المؤمن ويعذب الكافر.

(٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

يا أيها الناس إن ما وعدكم الله به من البعث بعد الموت وقيام الساعة حق لا شك فيه، فأعدوا العدة لذلك اليوم بالتزود بالعمل الصالح، ولا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخرفها وبريق زينتها ومراتع شهواتها، ولا يخدعنكم عن الله وعن طاعته الشيطان الرجيم؛ فإنه خدّاع يحبب إليكم المعاصي ويكره لكم الطاعات.

(٦) ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

إن الشيطان عدوٌّ لكم - أيها الناس - فتهيؤوا لعداوته واحذروا من فتنته وخالفوه ولا تطيعوه، إنما يدعو الشيطان أتباعه إلى الغواية ليكونوا من أصحاب نار جهنم الموقدة.

(٧) ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾

الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وحاربوا أولياءه لهم عذاب شديد في نار جهنم، والمؤمنون الصالحون لهم عند الله غفران الذنوب وستر العيوب والثواب الجزيل في الجنة دار الأمن والنعيم المقيم.

(٨) ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾

أفمن حسَّن له الشيطان أفعاله القبيحة من الكفر والتكذيب وسائر الذنوب فرأى هذا الفعل القبيح حسنًا جميلاً، هل مثله كمن هداه الله فرأى الجميل جميلاً والقبيح قبيحًا وميَّز بين الحق والباطل؟ فإن الله يضل من أراد من العباد، ويهدي من أحب إلى طريق الرشاد، فلا تهلك نفسك - أيها النبي - حزنًا على تكذيب الكفار، إن الله عليم بسوء أفعالهم وسوف يحاسبهم على ذنوبهم.

(٩) ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

والله سبحانه هو الذي أرسل الرياح فتحرك الغمام، فيسوقه الله بها إلى بلد جدب أصابه القحط؛ فيحيي الله نباته بالماء، فتصبح الأرض مخضرة بالنبات بعد اليبس، فكما أن الله أحيا الأرض الميتة بالماء كذلك يخرج الله الأموات من القبور أحياء.

(١٠) ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

من كان يطلب من الناس العزة في الدنيا والآخرة فليطلبها إلى الذي يملكها وهو الله وحده بطاعته واتباع رسوله ﷺ؛ فلله العزة جميعًا، والله المعز لمن أطاعه والمذل لمن عصاه، فمن اعتز به أعزه ونصره، ومن اعتز بغيره أذله وخذله، إليه - سبحانه - يصعد ذكره، والعمل الصالح يرفع الذكر إليه؛ أو أن الله - سبحانه - هو الذي يرفع العمل الصالح ويتقبله، والذين يعملون الخطايا لهم عند الله عذاب شديد، ومكرهم يضمحل ويبطل ولا ينفعهم شيئًا؛ لأن الله خير الماكرين يبطل مكر من مكر.

(١١) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾

والله خلقَ أباكم آدم - أيها الناس - من تراب، ثم خلق ذريته من سلالة من المني الماء الضعيف المهين ثم أخرجكم رجالاً ونساءً، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا والله يعلم حملها، وما يطول عمر معمر ولا ينقص من عمر إنسان إلا مسطور عند الله في اللوح المحفوظ، قد علم الله ذلك كله وأحصاه واطلع عليه وقدره بالزيادة والنقص قبل أن يخلق الخلق، إن خلقكم ومعرفة آجالكم وقدر أعماركم وجميع أحوالكم سهلٌ يسير على الله تعالى.

١٢ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً
تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وما يستوي البحران: بحر عذب ماؤه شديد العذوبة يسيرٌ نزوله في الحلق، يُذهِبُ الظمأ ويأتي بالري، وبحر شديد الملوحة، ومن كلا البحرين تأكلون سمكًا لذيذًا طريًا، وتستخرجون من البحرين لؤلؤًا ومرجانًا تلبسونها للزينة والتجمل، وتشاهد السفن العظيمة تشق الماء لتطلبوا عليها الرزق من تجارة ونحوها، وفي هذا كله برهان على قدرة الله وعظمته ووحدانيته، ولعلكم تشكرون الله على نعمه بلزوم طاعته وإخلاص العبادة له.

١٣ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ
لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾

والله يدخل من وقت الليل في وقت النهار فيطول النهار بقدر ما نقص الليل، ويدخل من وقت النهار في الليل فيطول الليل بقدر ما نقص من النهار، والله ذلل الشمس والقمر كلٌّ منهما يسعى إلى وقت محدد وزمن معلوم، والذي فعل ذلك كله هو الله ربكم الخالق الرازق المدبر الذي يستحق العبادة وحده، والذين تعبدونهم من دونه من الشركاء والأولياء ما يملكون في السموات والأرض قطميرًا؛ وهي القشرة الرقيقة التي على النواة.

١٤ ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

إن تدعوا - أيها العباد - هذه المعبودات من دون الله لتطلبوا منها جلب خير أو دفع ضر فهي لا تسمع دعاءكم، ولو سمعت فرضًا ما أجابت سؤالكم، ويوم القيامة تتبرأ هذه المعبودات ممن عبدها من دون الله، ولا أحد يخبرك عن أي أمر أصدق وأعلم من الله العليم الخبير.

١٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

يا أيها الناس، أنتم المحتاجون إلى الله في كل شيء، لا تستغنون عنه طرفة عين، فرزقكم وتدبير أموركم وتصريف شؤونكم بيده وحده لا بيد غيره، والله سبحانه غني عنكم وعن كل أحد، لا يحتاج إلى مخلوق ولا تنفعه طاعة طائع ولا تضره معصية عاصٍ، وهو المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، له الكمال المطلق - سبحانه - وتنزَّه عن العيب والنقص.

١٦ ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

إذا أراد الله أهلككم - أيها العباد - وأفناكم إذا عصيتموه وخلق قومًا آخرين يطيعونه فيما أمر ويجتنبون ما عنه نهى وزجر.

١٧ ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

وما إهلاككم - أيها الناس - إن عصيتموه والإتيان بخلق غيركم أطوع لله منكم بعسير صعب على الله، بل هو سهلٌ يسير؛ لكمال قدرته سبحانه.

١٨ ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ولا تحمل نفس عاصية إثم نفس أخرى، فالبريء لا يتحمل خطايا العاصي، بل كلٌّ يُسأل عما فعل، وإن تطلب نفسٌ محملةٌ بالذنوب من يحمل عنها من ذنوبها فَلَنْ تجد من يحمل من ذلك شيئًا، ولو كان الذي طلبت منه ذلك الطلب من أهل القرابة والصلة فإنها لا تنفع في الآخرة، فالنجاة بالأعمال لا بالأنساب، إنما تحذر - أيها النبي - بهذا القرآن من خاف عقاب الله بالغيب قبل أن يراه، وأدى الصلاة على أكمل وجه كما شُرِعت، ومن تطهر من الكفر وسائر

الذنوب، فإنما نفع ذلك لنفسه، وإلى الله وحده يرجع الخلائق يوم القيامة فيحاسب كلاً على ما فعل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

١٩ ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾

وما يستوي الأعمى عن الحق الذي لا يبصر طريق الرشاد، والبصير الذي أبصر الحق وسلك طريق الهدى واتبع الرسول ﷺ.

٢٠ ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾

وما تستوي ظلمات الكفر والضلالة والمعاصي ونور الإيمان بالهدى والطاعة.

٢١ ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴾

وما يستوي ظل الإيمان الوارف البارد ولا ريح الكفر الحارة المحرقة.

٢٢ ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾

وما يستوي من أحيا الله قلبه بالإيمان وأنار بصيرته بالتقوى ولا من أمات الله قلبه بالكفر وأعمى بصيرته عن الهدى، إن الله يُسمع الحق من أراد من عباده سماعَ قبول وفقه واستجابة، ولا تستطيع - أيها الرسول - إسماع الأموات في المقابر، فكذلك لا تستطيع إسماع الكفار الحق الذي بُعثت به؛ لأن قلوبهم ميتة وبصائرهم مطموسة.

٢٣ ﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾

ما أنت - أيها الرسول - إلا مخوِّف للكفار من غضب الله وعذابه.

٢٤ ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾

إن الله أرسلك - أيها النبي - بالحق تدعو إليه وتعمل به، وتبشر المؤمنين بجنات النعيم وتنذر الكافرين بنار الجحيم، وما من أمة من الأمم إلا قد أرسل الله لها رسولاً يحذرها من عذاب الله والكفر به وتكذيب رسله، ويأمرها بعبادة الله وحده.

٢٥ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾

وإن يكذبك الكفار - أيها النبي - فقد كذبت الأمم السابقة أنبياءهم بعدما جاءتهم الرسل بالبراهين الواضحة والمعجزات الظاهرة الدالة على وحدانية الله وصدق الأنبياء، وأتوا إلى أقوامهم بالكتب المجموع فيها الحق والشريعة، وأتوا بالكتاب المنير البيّن الواضح الذي يدل على الحق ويحذر من الباطل.

٢٦ ﴿ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

ثم أخذ الله الكافرين بشتى العقوبات، فتأمل كيف كان إنكار الله لفعلهم وكيف حلّت عقوبته بهم فانتقم منهم أشد الانتقام.

٢٧ ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴾

ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسقى به الأرض فأنبتت نباتًا وأثمرت ثمرًا مختلف الألوان والطعوم والأشكال، وخلق الله من الجبال طرائق منها الأبيض والأحمر مختلف ألوانها، وخلق الله من الجبال جبالاً سودًا شديدة السواد، فسبحان من نوّع الألوان وخالف بين الأصناف بقدرته.

(٢٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

وخلق الله من البشر وكل ما دبَّ على وجه الأرض، ومن الإبل والبقر والغنم ما هو مختلف الألوان أيضًا كالأبيض والأحمر والأسود وغير ذلك مثل اختلاف ألوان النبات والثمار والجبال؛ فسبحانه من مبدع عظيم، إنما يتقي الله حق تقاته ويخشاه حق خشيته ويقدره قدره أهل العلم الراسخون فيه؛ لأنهم العالمون بأسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه وما له من تعظيم جل في علاه، وذكر العلماء بعد تلك المخلوقات؛ لأنهم أكثر الناس تفكرًا وتأملاً في مواقع القدرة وعجائب الخلق؛ فهم أهل تدبر وفقه لآيات الله الكونية والشرعية، إن الله عزيز يعز من والاه ويذل من عاداه ويخذل من غالبه ويقهر من حاربه، كثير الغفران لعباده، يتجاوز عن سيئاتهم ويعفو عن زلاتهم.

(٢٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

إن الذين يقرؤون القرآن ويتدبرون معانيه ويعملون به، ويداومون على أداء الصلاة على أكمل وجه وأتم هيئة كما شُرعت ويتصدقون في سبيل الله مما أعطاهم الله سواءً صدقة الواجب أو النفل، سرًا بحيث لا يراهم أحد وجهرًا بإخلاص حيث يقتدي بهم الناس، يؤملون من وراء تلك الأعمال الصالحة مكاسب عند الله لا تكسد ولا تضمحل، يحفظها لهم ليوفيها إياهم يوم يلقونه.

(٣٠) ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

يجزل الله لهم على ما قدموا من أعمال البر أعظم الجزاء وأرفع الثواب، ويتفضل عليهم بمضاعفة الحسنات، فإنه غفور لسيئاتهم يعفو عن زلاتهم، شكور لحسناتهم يأجرهم عليها بالفوز برضوانه وسكنى جناته.

(٣١) ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾

والذي أوحى الله إليك - أيها النبي- من القرآن الكريم هو الحق المصدق لما نزل قبله من الكتب كالتوراة والإنجيل، إن الله مطلع على أحوال العباد بصير بأقوالهم وأفعالهم، لا تخفى عليه خافية، يعلم ما أسروا وما أعلنوا.

(٣٢) ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

ثم أعطى الله القرآن - بعدما أهلك القرون السابقة - من اختارهم من أمة الرسول ﷺ وهداهم إلى سبيله، ووفقهم لطاعته، فمن هؤلاء من يظلم نفسه بترك بعض الواجبات وارتكاب بعض المحرمات، ومنهم السابق بالخيرات؛ وهو من يؤدي الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات ويسارع إلى الصالحات، وهذا الإعطاء والاختيار لهذه الأمة هو الفضل الكبير من الله؛ لأنه يحقق سعادة الدنيا والآخرة، وكل صنف من هذه الأصناف ينال من السعادة والفوز على قدر عمله.

(٣٣) ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

يدخل الله هذه الأصناف الثلاثة جنات النعيم في إقامة دائمة ونعيم مستمر، يتجملون في الجنة بأساور من ذهب ولؤلؤ، ويلبسون فيها الثياب الرقيقة من الحرير، الظالم لنفسه يدخل الجنة بالتوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة.

(٣٤) ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

ويقول هؤلاء الأخيار حين يدخلون الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا كل حزن حيث غمرهم الفرح والسرور والبهجة والحبور، إن ربنا لكثير الغفران، حيث غفر سيئاتنا وعفا عن زلاتنا، وهو شكور سبحانه حيث قبل حسناتنا وضاعفها.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾

الله وحده هو الذي أدخلنا دار الإقامة الدائمة والخلود تفضلاً منه وكرمًا، لا يمسنا في الجنة تعب ولا إعياء ولا نصب ولا وصب ولا صخب.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾

والكفار لهم في الآخرة النار الموقدة المستعرة، تشوي وجوههم وتحرق أجسامهم، لا يكتب الله عليهم الفناء فيرتاحوا، ولا يخفف عنهم من عذابها فيستريحوا، وبمثل هذا العذاب والنكال يعاقب الله كل كافر به مكذب لرسوله جاحد بآياته.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

والكفار في النار يصيحون ويستغيثون من شدة الأهوال والأنكال والأغلال، ويقولون: يا ربنا أخرجنا من النار وأرجعنا إلى الحياة الدنيا حتى نتوب ونتزود بالصالحات ونترك الأعمال التي كنا نعملها من الكفر والتكذيب والمعاصي، فيقال لهم: أولم يمهلكم الله في الحياة الدنيا وقتًا كافيًا من العمر يعتبر فيه من اعتبر، ويتعظ من اتعظ، وجاءكم الرسول الكريم محمد ﷺ بالبينات من عند ربه فلم تستجيبوا ولم تؤمنوا؟ فذوقوا عذاب النار وبئس القرار، وما لكم من دون الله من أنصار يدفعون عنكم عذاب الواحد القهار.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

إن الله يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض وهو مطلع على السرائر، لا تخفى عليه خافية، وهو عليم بما تخفيه الصدور، فاحذروا عذابه بطاعته؛ فإنه لا تخفى عليه خافية من عملكم ولو أضمرتموه في أنفسكم.

(٣٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾

الله وحده هو الذي جعلكم - أيها البشر - في الأرض يخلف بعضكم بعضًا في عمارتها، فمن كفر بالله فضرر كفره عليه ولن يضر الله شيئًا، ولا يزيد الكفار كفرهم عند الله إلا بغضًا وكرهًا، ولا يزيدهم كفرهم إلا ضلالاً وهلاكًا وخزيًا وندامة.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أخبروني ما الشيء الذي خلقه في الأرض شركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله؟ أم أن لهؤلاء الشركاء حصة ونصيب مع الله في خلق السموات؟ أم أن الله أنزل إليهم كتابًا فهم يتكلمون بدليل منه؟ بل ما يعد الكفار بعضهم بعضًا إلا غرورًا لا حقيقة له وخداعًا لا صدق فيه.

٤١ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾

إن الله سبحانه هو الذي يمسك السموات والأرض لئلا تزولا عن مكانهما، فهو الذي يثبتهما ويحفظهما وحده، ولئن زالت السموات والأرض عن مكانهما فإنه لا يستطيع أحد أن يمسكهما ويحفظهما غير الله سبحانه، إن الله كان حليمًا في إمهال عقوبته على العصاة، غفورًا لمن تاب من خطاياه.

٤٢ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾

وحلف الكفار أعظم الحلف بالأيمان المغلظة: لئن جاءهم رسولٌ من عند الله يحذرهم عذاب الله ليكونن أكثر إيمانًا وهداية واستقامة من اليهود والنصارى وغيرهم، فلما أرسل الله إليهم محمدًا ﷺ ما زادهم ذلك إلا غيًا وضلالاً وبُعدًا عن الهداية!!

٤٣ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾

وليس حلف الكفار لمقصد حسن ولا لحرصهم على الهداية وإنما هو معاندة واستكباراً، ويقصدون بحلفهم المكر السيئ وخداع الناس؛ لأنهم بهذا الحلف - في الظاهر - كأنهم حريصون على الحق، ولكن الحقيقة أنهم أهل باطل وزور، ومكرهم السيئ لا يقع إلا بهم لا بغيرهم، فماذا ينتظر هؤلاء المعاندون المتكبرون إلا العقاب الذي حل بأمثالهم من القرون الماضية، وهذه سنة الله في كل معاند متكبر، ولن تجد لطريقة الله تبديلاً ولا تحويلاً، فلا يستطيع أحد أن يبدلها عن مجراها ولا يحولها عن طريقتها؛ لأنها ثابتة مستقرة دائمة.

٤٤ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾

أولم يسافر الكفار في الديار فيشاهدوا كيف عاقب الله من سبقهم من المكذبين كعاد وثمود وأمثالهم كيف دمَّر الله ديارهم وخرَّب دورهم حين حاربوه وصدوا عن سبيله، مع أن أولئك المكذبين السابقين كانوا أشد قوةً وأقوى أجسامًا وأكثر عدة من كفار مكة، وما كان الله - تعالى - يستصعب عليه أمر ويفوته شيء في السموات والأرض، بل إن قدرته - سبحانه - نافذة ولا راد لقضائه، إنه كان عليمًا بأفعالهم وأقوالهم، قديرًا على إهلاكهم وإذلالهم.

٤٥ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾

ولو أن الله يعاقب العباد بسبب ما فعلوا من خطايا وسيئات لما سلم من عذابه دابة تدب على وجه الأرض، ولكن الله يؤخِّر العذاب عن العصاة، ويمهل أهل الذنوب إلى زمن محدد في علمه - سبحانه -، فإذا حل زمن العذاب فإن الله كان بعباده بصيرًا، علم أفعالهم وأحصى أعمالهم، لا يخفى عليه منهم شيء، فيعذبهم وهم مستحقون العذاب، يعلم الطائع من العاصي وسيجازي كلاً بما فعل.

* * *

مكية

ترتيبها ٣٦

سورة يسٓ

آياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يسٓ﴾
الله أعلم بمعاني هذه الحروف المقطعة مع علمنا أن لها معانيَ جليلة.

(٢) ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾
أقسم الله تعالى بالقرآن الذي أحكم ألفاظه ومعانيه وشرّفه بما فيه من الحكمة والأحكام والبراهين.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾
إنك – أيها النبي محمد – لمن المرسلين بوحي من الله إلى عباده.

(٤) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾
وأنت – أيها النبي – على طريق قويم وصراط مستقيم لا اعوجاج فيه؛ وهو طريق الإسلام.

(٥) ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾
هذا القرآن أنزله الله العزيز في ملكه وحكمه، الذي يقهر من غالبه، ويخذل من حاربه، والذي ينتقم ممن عاداه، الرحيم بمن تاب إليه ووالاه.

(٦) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾
أنزل الله القرآن إليك – أيها النبي – لتخوف به الكفار الذين لم يسبق لآبائهم الأقدمين أن جاءهم منذر من عند الله يخوفهم عقابه، فهم لاهون ساهون عن الإيمان والعمل الصالح، وكل طائفة أو جماعة تفقد الدعوة إلى الله تقع في الغفلة، فواجب على العلماء بالله والدعاة إلى سبيله تذكير الناس وتعليمهم ووعظهم.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
لقد أوجب الله العذاب على أكثر الكفار بعد أن قامت عليهم الحجة ووضحت لهم المحجة، فهم لم يذعنوا للحق ولم يقبلوا الصدق، وإنما كفروا بالله وكذبوا رسوله ﷺ.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾
إن الله جعل هؤلاء الكفار الذين ردوا ما بُعث به الرسول ﷺ وعاندوا الحق، كمن جُعل في أعناقهم أغلالٌ فجمعت أيديهم مع أعناقهم تحت أذقانهم، فرفعوا رؤوسهم إلى السماء، هؤلاء الكفار غلَّ الله أيديهم عن كل خير، وأعمى الله بصائرهم عن كل رشد، فلا يفعلون خيرًا ولا يبصرون حقًا.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾
وجعل الله من أمام الكفار سدًا من الظلمات، ومن ورائهم سدًا؛ فمثلهم كمثل من حُجب بسدٍ من أمامه ومن خلفه فلا يبصر شيئًا ولا يهتدي لسبيل، قد أعمى الله أبصارهم وطمس بصائرهم، وكل عدوٍ للإسلام واقع في هذه العقوبة بلا شك، فتجده حائرًا مترددًا ضالاً.

١٠ ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

والأمر سيان عند أهل الكفر والطغيان، تخويفك إياهم - أيها النبي - بالعذاب وعدم تخويفك، فلن يؤمنوا ولن يستجيبوا.

١١ ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾

إنما ينفع تخويفك - أيها النبي - من آمن بكتاب الله واتبعه وعمل بما فيه وخاف الرحمن وهو لم يره، وراقبه حيث لا يراه الناس، فبشر من هذا فعله بمغفرة تمحو ذنوبه وثواب عظيم على حسناته بالفوز برضوان الله ودخول جنته.

١٢ ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾

إن الله يحيي الموتى ويبعثهم من قبورهم للحساب، ويكتب ما عملوا من حسن وسيئ، ويكتب لهم ثواب ما تسببوا فيه من خير كالعلم النافع والولد الصالح والصدقة الجارية، ويكتب عقاب ما تسببوا فيه من شر كالكفر والبدعة والذنوب، وكل شيء من صلاح وفساد قد سطَّره الله في اللوح المحفوظ ببيان ووضوح، فليخف العبد ربه وليخش ذنبه، وليعلم أن أقواله وأفعاله محصاة عليه.

١٣ ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾

واضرب - أيها النبي - للكفار الذين كذبوك مثلاً يتفكرون فيه، وهو خبر أهل قرية حين أرسل الله إليهم رسلاً يدعونهم إلى عبادة الله وحده وينهونهم عن الإشراك به.

١٤ ﴿ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾

إذ أرسل الله إلى أهل القرية رسولين يدعونهم لإفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، فكذب أهل القرية الرسولين، فأيد الله الرسولين وقواهما برسول ثالث، فأخبر الثلاثة أهل القرية أن الله أرسلهم إليهم بدعوة التوحيد.

١٥ ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾

فردَّ أهل القرية على الرسل وقالوا لهم: ما أنتم إلا أناس مثلنا ولا فضل لكم علينا، والله لم ينزل وحيًا على أحدٍ من الناس، وأنتم - أيها الرسل - تكذبون على الله، صان الله رسله - عليهم السلام - عن هذا البهتان.

١٦ ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾

قال الرسل لقومهم: الله ربنا الذي أرسلنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، ولم نكذب على الله ولم ندَّع ذلك من أنفسنا.

١٧ ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

والواجب علينا تبليغ رسالة الله بالبيان التام، وهذا عملنا، أما هدايتكم فعلى الله إذا شاء وليست علينا.

١٨ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

فردَّ أهل القرية على الرسل قائلين: إنا متشائمون منكم ومما جئتم به، لئن لم تتركوا دعوتنا وإنذارنا لنرمينَّكم بالحجارة حتى نقتلكم، ولينالنَّكم منا عذابٌ شديد موجع.

١٩ ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾

قال الرسل لقومهم: شؤمكم أنتم من أنفسكم ومن أعمالكم القبيحة كالشرك والمعاصي ولا تحيط إلا بكم، أإذا نصحتم لما فيه صلاحكم وفلاحكم تشاءمتم منا وتوعدتمونا بالرجم والنكال؟ بل أنتم متجاوزون للحدود في العصيان والطغيان.

٢٠ ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

وجاء من محل بعيد في المدينة رجل مسرع لما بلغه أن أصحاب القرية عزموا على قتل الرسل والتنكيل بهم، فحذر قومه وقال: يا قومي، صدقوا الرسل واتبعوهم فإنهم على بينة من ربهم.

٢١ ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

اتبعوا يا قومي رسل الله الذين لا يطلبون منكم أجرةً على رسالتهم ودعوتهم، وهم على صواب ورشد فيما يدعون إليه من إخلاص العبادة له والنهي عن الإشراك به، وفي هذا فضل الداعية إلى الله، وأما مرتبة الدعوة إليه -سبحانه- فهي من أشرف مراتب العبودية.

٢٢ ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وماذا يمنعني من عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له وعدم الإشراك به، وهو الذي خلقني وإليه يعود الناس أجمعون.

٢٣ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

كيف أعبد من دون الله آلهة أخرى من الأصنام والأوثان لا تملك لي نفعًا ولا تدفع عني ضرًا، إن يردني الرحمن بسوء فلن تدفع عني الآلهة هذا السوء ولا تنجيني مما أنا فيه.

٢٤ ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

إني لو اتخذت آلهة من دون الله لفي ضلال بيّن وخطأ ظاهر وانصراف عن الحق.

٢٥ ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾

إني آمنت بربكم الذي لا إله إلا هو وأخلصتُ العبادة له، فاستمعوا لما أقول لكم سماع قبول واستجابة، وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له، فلما انتهى من كلامه قاموا إليه فقتلوه فتقبله الله شهيدًا وأدخله الجنة.

٢٦ ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾

قيل له بعدما قُتل في سبيل الله من أجل إعلاء كلمته: ادخل الجنة مكرمًا في حبور وسرور وقرة عين، قال - وهو في الجنة -: يا ليت أن قومي يعلمون ما أنا فيه من السعادة والكرامة.

٢٧ ﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾

وليتهم يعلمون بأن ربي غفر ذنبي وأكرمني ورفع منزلتي؛ لأني آمنت به وأخلصت العبادة له واتبعتُ رسله، فلعلهم إذا علموا ذلك أن يستجيبوا لرسل الله فيدخلوا الجنة مثلما دخلتها، فجزاه الله خيرًا، ما أنصحه لقومه حيًا وميتًا، وهكذا فليكن الداعية يحب الخير للجميع.

٢٨ ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾

وما استدعى الأمر إنزال جنود من السماء لتقابل هؤلاء الكفار لما كذبوا وقتلوا الداعية إلى الله، فالأمر أيسر من ذلك وهم أهون وأضعف من أن ينزل عليهم جندٌ من السماء، وما كان الله لينزل الملائكة على المكذبين لإهلاكهم بل يبعث عليهم عذابًا يبيدهم به.

٢٩ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴾

ما كان أخذهم وتدميرهم إلا بصيحة واحدة فإذا هم ميتون لا حركة لهم ولا أثر.

٣٠ ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يا حسرة الناس ويا ندامة العباد يوم العرض الأكبر إذا شاهدوا تلك الأهوال، ما يأتي الناس من رسول من عند الله يدعوهم إلى توحيده إلا سخروا منه واستهزؤوا به.

٣١ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

ألم يشاهد الكفار فيعتبروا كم من القرون أهلكهم الله، ولم يعودوا إلى هذه الحياة الدنيا؟

٣٢ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

وكل هذه القرون التي أهلكها الله والأمم التي أبادها، سوف يحضرون كلهم ليوم الحساب ليجازيهم الله على ما فعلوا.

٣٣ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾

وبرهان لهؤلاء الكفار على قدرة الله على إحياء الموتى: هذه الأرض الجدباء اليابسة التي لا نبت فيها، يحييها الله بالنبات الأخضر بعد إنزال الماء من السماء عليها، فيخرج من الأرض بالماء أنواع الثمار والحبوب، يأكل منها الإنسان والحيوان، ومن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد الممات.

٣٤ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾

وجعل الله في الأرض بساتين خضراء وحدائق غناء من نخيل وأعناب، وفجر فيها من عيون الماء ما يسقيها.

٣٥ ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

والله خلق ذلك كله ليأكل الناس من ثمره ويستعينوا بها على شكره، وهذا رحمة منه - سبحانه - وفضل منه لا بسبب سعي الناس ولا بحولهم ولا بقوتهم ولا بكدهم، فلماذا لا يشكرون الله على نعمه بطاعته وإخلاص العبادة له وعدم الإشراك به، وشكر المنعم واجب والمنعم حقيقة هو الله وحده.

٣٦ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

تنزه الله الماجد وتقدس الله العظيم وتبارك اسمه الذي خلق الأنواع والأصناف جميعها من الأشجار والثمار والحبوب ومن الناس ذكورًا وإناثًا، ومما لا يعلم الناس من سائر المخلوقات ومختلف أنواع الكائنات، فلما انفرد الله بالخلق استحق أن يُعبد وحده لا يُشرك به شيء.

٣٧ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾

وبرهان للكفار على قدرة الواحد القهار: آية الليل كيف ينزع الله منه النهار بغروب الشمس فإذا الناس في ظلمة حالكة.

٣٨ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

وبرهان للكفار على قدرة الواحد القهار: هذه الشمس تسعى إلى مستقر قدره الله لها فلا تتعداه ولا تقف دونه، هذا التقدير والتوقيت هو من حكمة العزيز الذي يعز من والاه ويذل من عاداه، عزيز لا يغالب، وهو العليم الذي يقدر الأشياء بعلم وحكمة.

٣٩ ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الواحد القهار: هذا القمر؛ قدر الله سيره منازل ينزلها كل ليلة، يبدأ هلالاً ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يصبح بدرًا منيرًا مستديرًا، ثم يعود شيئًا فشيئًا حتى يصغر مثل عذق النخلة المنحني في الرقة والضعف والصفرة بجفافه ويبسه.

٤٠ ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

لا يمكن للشمس أن تلحق بالقمر فتمحو نوره؛ لأن لها مجرى غير مجراه ومنازل غير منازله؛ فهي تسير بتوقيت من الله محدد والقمر كذلك، ولا يمكن لليل أن يسبق النهار فيدخل عليه قبل أن ينتهي وقته وتكتمل ساعاته، فوقت النهار معلوم محدد يزيد وينقص بحساب من الله، وكذلك الليل، وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب في مدارات معلومة تجري لا تصطدم ببعضها، قد علم الله مسارها وقدر منازلها جل في علاه.

٤١ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾

وبرهان لهم على تفرد الله بالربوبية والألوهية واستحقاقه للعبودية، أنه - سبحانه - حمل من نَجًّى من ولد آدم في سفينة نوح المملوءة بأصناف المخلوقات؛ ليبقى نوع الخلق بعد الطوفان، فحمايتهم من الغرق وهدايتهم للإيمان فضل من الله تعالى.

(٤٢) ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾

وخلق الله للبشر مثل سفينة نوح كثيرًا من السفن والمراكب؛ لتقلهم وحمل أرزاقهم وتسهيل أسفارهم.

(٤٣) ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾

وإذا أراد الله أغرق السفن بمن عليها، فلا يجدون منقذًا لهم من الغرق ولا منجدًا لهم من الهلاك، ولا هم ينجون بأنفسهم.

(٤٤) ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

إلا أن يرحمهم الله فيحميهم من الغرق والهلاك، ويمتعهم بنعمه إلى وقت محدد، هو انتهاء أعمارهم لعلهم يتوبون ويؤمنون.

(٤٥) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وإذا قيل للكفار: خافوا عذاب الآخرة بالإيمان والعمل الصالح، واحذروا تقلبات الدنيا ومصائبها، لعل الله أن يرحمكم بصرف العذاب عنكم، حينها يعرضون ولا يستجيبون.

(٤٦) ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

وما يجيء هؤلاء الكفار من برهان واضح من عند الله يدلهم على الحق ويبين لهم الرشد إلا أهملوا النظر فيه وغفلوا عنه.

(٤٧) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

وإذا قيل للكفار: أنفقوا مما تفضل الله به عليكم من النعم، ردوا على المؤمنين معاندين: كيف نطعم أناسًا لو أراد الله أن يطعمهم أطعمهم وهم خلقه وهو غني؟ ما أنتم - أيها المؤمنون - إلا في بُعد عن الحق وذهاب عن الرشد لأمركم لنا بذلك.

(٤٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ويقول الكفار - مستبعدين منكرين -: متى تقوم القيامة إن كنتم - أيها المؤمنون - صادقين في قولكم بقيامها فأخبرونا بوقتها؟

(٤٩) ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾

ما ينتظر الكفار الذين يستبعدون القيامة إلا نفخة الهول الأكبر عند قيام الساعة فتهلكهم على غرة وهم يختصمون في أمور الدنيا.

(٥٠) ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾

فلا يستطيع الكفار عند النفخ في الصور أن يوصوا ذريتهم وقرابتهم بشيء لضيق الزمان وهول الواقعة، ولا يستطيعون العودة إلى أسرهم في بيوتهم، بل يدركهم الموت وهم في طرقاتهم وأسواقهم.

(٥١) ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾

ونفخ المَلَكُ في القرن النفخة الثانية فعادت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم إلى موقف الحشر مسرعين.

(٥٢) ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾

قال الكفار - وقد أصابتهم الحسرة والندامة -: يا خيبتنا ويا هلاكنا، ما الذي أخرجنا من قبورنا؟ فيقال لهم: هذا ما سبق أن وعد به الرحمن الذي لا يخلف الميعاد، وسبق أن أخبر به الرسل، وقد صدقوا فيما أخبروا.

(٥٣) ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

ما احتاج بعث الناس من القبور إلا إلى نفخة واحدة في القرن، فإذا كل البشر واقفون للجزاء والسؤال.

(٥٤) ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

في هذا اليوم يكون الجزاء بالعدل، ولا تظلم نفس بنقص الحسنات ولا بزيادة السيئات، ولا يقع الجزاء إلا بما عمل العبد أو كان سببًا في هذا العمل من خير أو شر.

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾

إن أهل الجنة مشغولون عن غيرهم بالتنعم بألذ عيش وأجل نعمة وأتم سعادة، وهم مسرورون في قرة عين وأمن وبهجة وحبور.

(٥٦) ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾

أهل الجنة يتنعمون هم وزوجاتهم تحت ظلال وارفة على أسرَّة جميلة مريحة.

(٥٧) ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾

لأصحاب الجنة في الجنة أصناف الفواكه الشهية من كل نوع، ولهم فيها كل ما يشتهون ويسألون من سائر الطيبات.

(٥٨) ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾

ولهم فوز أعظم وكرامة أجل حين يكلمهم الرحمن الرحيم، فيحييهم بالسلام عليهم من الله الذي أنعم عليهم ورحمهم وصرف عنهم العذاب، فيا قرة عيونهم.

(٥٩) ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

ويقال للكفار في يوم الحشر: انفصلوا عن المؤمنين ولا تختلطوا بهم، فلكم حال ولهم حال.

(٦٠) ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾

ويقول الله لمن كفر من عباده - يلومهم ويبكتهم -: ألم أوجب عليكم لما أنزلت من كتبي على رسلي ألا تعبدوا الشيطان ولا تطيعوه؟ إنه عدو لكم بيِّن العداوة شديد البغض.

(٦١) ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

وأوجبت عليكم توحيدي وإفرادي بالعبودية وإخلاص الطاعة لي، وهذا هو الطريق القويم والصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله وجنته.

(٦٢) ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾

ولقد أغوى الشيطان عن الإيمان بشرًا كثيرًا، أفما كان لهم من عقول يفكرون بها وتنهاهم عن الغواية.

(٦٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾

هذه النار الموقدة أمامكم التي سبق أن وُعدتم بها في الدنيا إذا كفرتم وكذبتم.

(٦٤) ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾

ادخلوا النار واصلوا جحيمها وذوقوا حرَّها؛ عقابًا لكم على تكذيبكم وكفركم.

(٦٥) ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

يوم القيامة يطبع الله على أفواه الكفار فلا يتكلمون، وإنما تتكلم أيديهم بما اجترحت، وتشهد عليهم أرجلهم بما مشت إليه وعملته من خطيئة.

(٦٦) ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾

ولو شاء الله لأعمى أبصار الكفار مثلما ختم على أفواههم فتسابقوا وأسرعوا إلى الصراط ليمروا من فوقه، فكيف يستطيعون المرور وقد أعمى الله أبصارهم؟

(٦٧) ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾

ولو شاء الله لغيَّر خلق الكفار وبدل أشكالهم وأقعدهم في أماكنهم، فلا يستطيعون المشي إلى الأمام ولا الرجوع إلى الخلف، وإنما يبقون حائرين مبهوتين.

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾

ومن أطال الله عمره حتى يدركه الهرم والخرف رده إلى أول مراحل العمر في ضعف العقل وضعف الجسم كأنه طفل، أفلا يفكرون بعقولهم فيعلموا أن من فعل ذلك بخلقه قادر على إحيائهم من قبورهم؟

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾

وما علم الله رسوله ﷺ الشعر وليس له أن يكون شاعرًا؛ لأن الشاعر يهيم في أودية الباطل ويبالغ ويذهب وراء الخيال وقد يكذب، أما الرسول ﷺ فهو نبي معصوم صادق مصدق زكى الله سمعه وبصره وقلبه، فلا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يُوحى، وما الوحي الذي أتى به إلا ذكر لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة، والقرآن الذي نزل عليه مبين لأحكام الشريعة وآدابها وأخلاقها.

(٧٠) ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

ليخوف النبي بالقرآن من كان حي القلب نيِّر البصيرة مستقيم الفطرة، ويكتب الله عذابه على من كفر به؛ لأن الله أقام عليهم الحجة بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ﷺ فانقطع عنهم العذر.

(٧١) ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾

أولم ير الناس أن الله خلق لهم أنعامًا سخرها لمصالحهم؟ فهم مالكون أمرها متصرفون فيها تفضلاً منه وإحسانًا.

(٧٢) ﴿وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾

وسخر الله للعباد هذه الأنعام، فمنها ما يأكلونه، ومنها ما يحلبونه، ومنها ما يركبونه، ومنها ما يحملون عليه أمتعتهم؛ فسبحان من أنعم بها على عباده وذللها لهم.

(٧٣) ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾

وللناس منافع كثيرة في الأنعام، كالانتفاع باللحم واللبن والصوف والوبر والشعر، أفلا يشكرون الله على هذه النعم بإخلاص العبادة له ولزوم طاعته؟

(٧٤) ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾

واتخذ الكفار من دون الله أصنامًا وأوثانًا يعبدونها رجاء نصر هذه الآلهة لهم والدفاع عنهم.

(٧٥) ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾

لا تقدر هذه الأصنام والأوثان على نصرة من عبدها كما أنها لا تنتصر لنفسها، والكفار مع ما يعبدون من الأصنام والأوثان محضرون عند الله للعذاب وعندئذ يتبرأ بعضهم من بعض.

(٧٦) ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾

فلا يحزنك - أيها النبي - قول الكفار من التكذيب والاستهزاء والسخرية، إن الله يعلم ما أخفوا وما أظهروا وما أسروا وما أعلنوا، وسوف يحاسبهم على ذلك.

(٧٧) ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾

أولم ير الإنسان الجاحد ليوم القيامة والبعث بعد الموت كيف ابتدأ الله خلقه من نطفة، ثم ترقت به أحوال الخلق حتى صار رجلاً فتحول إلى جاحد معاند كثير الخصومة شديد الجدال؟

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾

وضرب المنكر الجاحد لله ولرسوله ﷺ مثلاً لا يجوز له أن يضربه؛ لأنه جعل قدرة الرحمن كقدرة الإنسان، وأغفل أصل نشأته هو، فقال - منكرًا للبعث - من يحيي العظام إذا بليت وتفتت؟

٧٩ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

فأجب هذا الجاحد (وهو العاص بن وائل - أيها النبي -) وقل له: يحيي هذه العظام بعدما تبلى وتتفتت الذي أنشأها أول مرة، والإحياء بعد الموت أهون من الإنشاء من العدم، وهو - سبحانه - عالم بجميع خلقه لا يخفى عليه من أقوالهم ولا أعمالهم شيء.

٨٠ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

الله الذي أخرج من الأشجار الخضر الطرية الندية الرطبة نارًا محرقةً موقدة، فانظر كيف جمع بين الضدين جل في علاه، فإذا الناس يوقدون النار من الشجر الأخضر، فمن هذا فعله فهو قادر على إخراج الضد من الضد، وفي هذا برهان على قدرة الله في إحياء الموتى من قبورهم.

٨١ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

أوليس الله الذي خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما بقادر على أن يخلق مثلهم فيعيدهم كما أنشأهم أول مرة؟ بلى إنه - سبحانه - قادر على ذلك، وهو الخلاق لكل مخلوق بحكمة وإتقان، العليم بخلقه المطلع على سرهم وعلانيتهم لا تغيب عنه غائبة.

٨٢ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

إنما أمر الله إذا أراد أن يفعل شيئًا أو ينفذ أمرًا أو يخلق خلقًا أن يقول له: (كن) فيكون، ومن ذلك الخلق والتقدير والحياة والموت والبعث والنشور.

٨٣ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

فتنزه الله عن أقوال المشركين وتقدس عن العيوب وتعالى عن العجز والإشراك به، فهو المالك لكل الكائنات، المصرف لكل المخلوقات، المقدر لكل الحادثات، فلا ينازعه في الخلق أحد ولا يشاركه في الحكم بشر، بهرت معجزاته، وظهرت آياته، وكملت قدرته، وتمت نعمته، وإليه يعود العباد يوم المعاد؛ ليجازيهم على كل صلاح وفساد.

مكية

ترتيبها ٣٧

سورة الصافات

آياتها ١٨٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾

يقسم الله - عز وجل - بالملائكة تصف في عبادتها لربها صفوفًا مستوية متراصة.

٢ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾

وأقسم الله تعالى بالملائكة تزجر السحاب وتسوقه بإذن الله من بلد إلى بلد.

٣ ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾

وأقسم الله تعالى بالملائكة تتلوا كتابه الكريم وذكره العظيم.

٤ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾

إن إلهكم - أيها العباد - إله واحد لا إله إلا هو لا رب سواه ولا شريك له، فوحدوه وأخلصوا له العبادة.

٥ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾

الله وحده هو خالق السموات والأرض وما بينهما، وهو خالق مشارق الشمس والقمر والنجوم والكواكب.

٦ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾

إن الله جمَّل السماء الدنيا وزينها بالنجوم وسائر الكواكب.

٧ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾

وجعل سبحانه النجوم تحفظ السماء من كل شيطان عفريت غاوٍ متمرد يسترق السمع.

٨ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾

منع الله الشياطين أن تستمع كلام الملأ الأعلى؛ ليحفظ وحيه الذي أنزله على رسله، وتُرمى الشياطين بالشهب المحرقة من كل ناحية من نواحي السماء؛ لئلا يلتقطوا شيئًا من الوحي فيزيدوا فيه وينقصوا.

٩ ﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾

يُطرد الشياطين طردًا عن استماع الوحي، ولهم في النار عذاب موجع دائم شديد.

١٠ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

إلا من سرق من الشياطين الكلمة من الوحي بسرعة، فيخبر بها من دونه ويلقيها الثاني إلى الثالث وهكذا، فربما أحرقه الشهاب قبل أن يبلِّغها إلى الذي بعده، وربما أخبر بها قبل أن يحترق بالشهاب، فيخبر بها الكهان فيكذبون معها مئة كذبة.

١١ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾

فاسأل - أيها النبي - جاحدي البعث والنشور، هل هم أقوى خلقًا أم سائر المخلوقات الأخرى كالسموات والأرض؟ إن الله خلق أباهم آدم من طين لين رخو يلتصق بعضه ببعض.

١٢ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾

بل عجبت - أيها النبي - من جحدهم للبعث، وأعجب من ذلك استهزاؤهم بك وبرسالتك.

١٣ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾

وإذا وُعظ الكفار بالوحي لا ينتفعون به ولا يتدبرون معانيه؛ لأنهم في إعراض وغفلة.

١٤ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾

وإذا رأى الكفار برهانًا ومعجزة تدل على صدق الرسول ﷺ استهزؤوا بها وسخروا منها.

١٥ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

وقال الكفار: ما هذا الذي أتيت به - يا محمد - إن هو إلا سحر واضح لا يخفى على أحد.

١٦ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

ويقول الكفار: أإذا متنا يا محمد وتحولت أجسادنا إلى تراب وبليت عظامنا وتفتت أنعود أحياء ونُبعث من قبورنا؟!

١٧ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

وحتى آباؤنا الأولون بعدما ماتوا هل يبعثون من جديد؟ إن هذا الأمر بعيد!

١٨ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾

قل لهم - أيها النبي -: نعم سوف يبعثكم الذي خلقكم أول مرة وأنتم أذلاء صاغرون حقراء.

١٩ ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾

فإنما بعثكم بعد الموت بنفخة واحدة فإذا أنتم خارجون من القبور تنتظرون أهوال القيامة.

٢٠ ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾

وقال الكفار: يا هلاكنا ويا خيبتنا هذا يوم الحساب الذي وُعدناه في الدنيا فكذبنا به.

٢١ ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

فيقال لهم: هذا اليوم هو يوم الفصل بين الخلائق والحكم بين الناس بقضاء عدل من الله، وقد كنتم تكذبون به في الدنيا وتنكرونه.

٢٢ ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾

اجمعوا الكفار وأمثالهم وأشباههم وآلهتهم المعبودة من دون الله.

٢٣ ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾

فسوقوا - أيها الملائكة - الكفار وأمثالهم وآلهتهم إلى النار سوقًا عنيفًا غليظًا.

٢٤ ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾

واحبسوا - أيها الملائكة - الكفار وآلهتهم قبل أن يدخلوا النار، إن الله سوف يسألهم عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الحياة الدنيا سؤال إنكار وتوبيخ.

٢٥ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾

ويقال لهم وهم في العذاب: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا في هذا اليوم العصيب؟

٢٦ ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

بل الكفار في يوم القيامة خاضعون لأمر الله منقادون لحكمه لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا.

٢٧ ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾

وعاد بعض الكفار في يوم القيامة بعضهم على بعض يلومونهم ويخاصمونهم .

٢٨ ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾

وقال الضعفاء للسادة: إنكم كنتم تأتوننا من قِبَل الخير والحق وتوهموننا بأنكم ناصحون لنا، فتحسِّنون لنا الغواية وتكرهوننا في الهداية.

٢٩ ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

قال السادة للضعفاء: ليست المسألة كما ادعيتم، بل كانت نفوسكم قابلة للضلال كارهة للإيمان.

٣٠ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾

ولم يكن لنا عليكم من حجة أو سلطة فنمنعكم عن الهداية، بل كنتم متجاوزين للحدود مسرفين على أنفسكم بالكفر.

٣١ ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾

فشملنا جميعًا العذاب من الله، فنحن نذوقه وإياكم، سواء بما قدمناه من كفر وتكذيب.

٣٢ ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾

وكنا سببًا في ضلالكم وكفركم بالله، إنا كنا ضالين من قبل ضلالكم فاتبعتمونا على الكفر فخسرنا جميعًا.

٣٣ ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

فإن الضعفاء والسادة متقاسمون العذاب، كلٌّ له حصة من النكال، كما تقاسموا الكفر في الدنيا واشتركوا في الضلال.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

إن سنة الله في الفجار عقابهم والانتقام منهم؛ جزاءً على سوء أفعالهم.

(٣٥) ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾

إن الكفار كانوا إذا دُعوا إلى لا إله إلا الله وتحقيق معناها والعمل بمقتضاها عصوا وعاندوا وأبوا ذلك.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾

ويقول الكفار إذا دُعوا إلى التوحيد: كيف نترك عبادة الأصنام والأوثان من أجل قول رجل شاعر مجنون؟ -يقصدون بذلك الرسول ﷺ صانه الله عن قولهم- انظر كيف اضطربوا في قولهم فلم يثبتوا على وصف.

(٣٧) ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

بل إن الرسول ﷺ نبي معصوم جاء بالقرآن والإيمان وليس بشاعر ولا مجنون ولا ساحر ولا كاهن، وإنما أتى بشرع يوافق ما جاء به الأنبياء قبله.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾

إنكم - أيها الكفار - على كفركم وتكذيبكم ومحاربتكم لله ورسوله سوف تذوقون عذاب جهنم المؤلم الفظيع.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

والعذاب الذي تذوقونه إنما هو على أعمالكم القبيحة في الدنيا ولم يظلمكم الله شيئًا.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

لكن عباد الله الصادقين المخلصين في عبادتهم ناجون من عذاب الله، وهم في النعيم مقيمون.

(٤١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾

وهؤلاء المخلصون الصادقون لهم في جنات النعيم رزق معلوم لا ينقطع؛ لأنه من عند الله تعالى.

(٤٢) ﴿فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾

هذا الرزق المعلوم فواكه متنوعة وثمار متعددة في مقام كريم آمن وفي سرور وحبور.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

وهؤلاء الأبرار خالدون في جنات النعيم الدائم المقيم، في مقعد كريم بجوار الرحمن الرحيم.

(٤٤) ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

وهؤلاء الأبرار جالسون على سرر يقابل بعضهم بعضًا بالوجوه زيادة في الأنس والنعيم.

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾

يُدار على هؤلاء الأبرار في مجالس الأنس والرضا بكؤوس خمر من أنهار جارية لا تنقضي ولا تنقطع.

(٤٦) ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

وهذه الخمر ليست كخمر الدنيا بل هي بيضاء في لونها، لذيذة في شربها.

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾

وهذه الخمر لا تغتال العقل كخمر الدنيا، فهي لا تذهب الوعي ولا تؤذي الجسم.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ﴾

وعند الأبرار في جنات النعيم نساء جميلات عفيفات واسعات الأعين حسانها، لا ينظرن إلى غير الأزواج.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾

كأن نساء الجنة كالبيض المصون المحفوظ الذي لم تمسه الأيدي ولم تبتذله العيون.

(٥٠) ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

فأقبل بعض الأبرار في الجنة بالحديث على بعض، يتساءلون عن أيامهم الماضية في الدنيا وكيف نجاهم الله من العذاب وأكرمهم بالفوز العظيم، وهذا من تمام الأنس.

(٥١) ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾

قال قائل من هؤلاء الأبرار وهو في الجنة: إنه سبق أن كان لي صديق ملازم لي في الدنيا.

(٥٢) ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾

وهذا الصديق كان ينكر يوم القيامة والبعث بعد الموت ويقول لي منكرًا: هل تصدق بهذا الكلام؟

(٥٣) ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

كيف نُبعث بعد الموت لنحاسب على أعمالنا بعدما صارت أجسامنا ترابًا وتفتت وتلاشت؟

(٥٤) ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾

قال المؤمن لأصحابه في الجنة: هل تريدون النظر لمصير هذا الصاحب الذي كان معي في الدنيا؟

(٥٥) ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

فنظر المؤمن فرأى قرينه الكافر في وسط النار يصلى حرَّها.

(٥٦) ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾

قال المؤمن لقرينه الكافر: والله لقد أوشكت أن تضلني وتدخلني معك النار بتزيينك الباطل لي.

(٥٧) ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

ولولا أن الله رحمني بالهداية وتفضل عليَّ بالإيمان لكنتُ ممن أحضره الله للعذاب يوم القيامة.

(٥٨) ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾

أحقًا أننا باقون في جنات النعيم لا نموت فيها وإنما ننعم أبدًا وهذا هو الفوز الكبير.

(٥٩) ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾

ولا نموت غير الموتة الأولى التي ذقناها في الحياة الدنيا.

(٦٠) ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

إن النعيم الذي نحن فيه لهو الكرامة العظمى والظفر الأكبر والسعادة الأبدية.

(٦١) ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾

لمثل هذا الظفر العظيم والفوز الكريم والنعيم المقيم في جوار رب كريم فليعمل العاملون في الحياة الدنيا؛ لينالوا هذه المراتب العالية.

(٦٢) ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾

أذلك النعيم والفوز والكرامة والنجاة أفضل أم شجرة الزقوم المرة الطعم القبيحة المنظر الخبيثة المنشأ التي هي طعام الكفار في النار؟

(٦٣) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾

إن الله جعل شجرة الزقوم فتنة للكفار؛ لأنهم يتساءلون منكرين: كيف يخبر محمد أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر.

(٦٤) ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

إن شجرة الزقوم شجرة أنبتها الله في قعر جهنم؛ لأنه – سبحانه – قادر على الجمع بين الضدين الخضرة والنار.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

ثمر شجرة الزقوم في النار قبيح شنيع المنظر كأنه رؤوس الشياطين، فإذا كان هذا هو شكل الثمر فما أقبح طعمه وما أخبث مذاقه.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾

فإن الكفار في النار يأكلون من الشجرة الملعونة الخبيثة فيملؤون منها بطونهم تنكيلاً بهم.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾

ثم إن الكفار بعد الأكل من الزقوم في النار لشاربون شرابًا خبيثًا حارًا مرًا، فالطعام زقوم، والماء حميم، والهواء سموم.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾

ثم إن مرد الكفار بعد هذا العذاب إلى نار جهنم فلا مخرج لهم منها.

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾

إن الكفار وجدوا آباءهم الضلّال على الشرك فقلدوهم في الضلالة.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾

فهم يتبعون آثار الآباء بلا حجة ولا دليل، شأن الجاهل المقلد الذي يسرع في اتباع من ضلّ.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

ولقد ضل عن الهداية قبل كفار قومك - أيها النبي - أكثر القرون الماضية.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾

ولقد أرسل الله في تلك القرون أنبياء يخوفونهم النار وغضب الجبار فكذبوهم.

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾

فتأمل كيف كانت نهاية تلك القرون الكافرة لما كذبت رسل الله كيف هلكت وصارت مثلاً للعالمين.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

لكن عباد الله الذين أخلصوا له العبادة وأفردوه بالطاعة خصهم الله بفضله ورحمته وأكرمهم بجنته.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾

ولقد دعا نوح وهو في الكرب ربه واستغاث به لينصره على قومه، فلنعم المجيب الله، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾

ونجّى الله نوحًا والمؤمنين من أهله من أذى الكفار والهلاك والدمار، فنال الفوز في الدنيا والآخرة.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

وأكرم الله نوحًا بأن جعل ذريته هم الباقين في الأرض بعد هلاك قومه بالطوفان.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾

وأبقى الله لنوح في الدنيا ذكرًا جميلاً وثناءً حسنًا يمدحه الأخيار ويثني عليه الأبرار.

(٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

أمان من الرحمن وسلامة من الديان لنوح من أن يذكر بسوء في الآخرين، بل يُثنى عليه بالمحامد في العالمين.

(٨٠) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

مثلما أثاب الله نوحًا وأكرمه يُثيب - سبحانه - ويُكرم كل من أحسن في طاعة مولاه وصدق في عبادة ربه.

(٨١) ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

إن نوحًا من عباد الله الصادقين المخلصين.

(٨٢) ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾

ثم أغرق الله من كفر من قوم نوح فأبادهم جميعًا.

(٨٣) ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾

وإن من أنصار نوحٍ وأشياعه على طريقته ونهجه وملته خليل الله إبراهيم عليه السلام.

(٨٤) ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ﴾

حين جاء إبراهيم ربه بقلب بريء من كل اعتقاد باطل وخُلق ذميم، ليس فيه إلا الله وطاعته ومحبته.

(٨٥) ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾

إذ قال إبراهيم لقومه - منكرًا عليهم -: ما هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله وهي لا تنفع ولا تضر؟!

(٨٦) ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾

أتعبدون آلهةً مزعومة مختلقة وتتركون عبادة الله الذي لا إله إلا هو وهو المستحق للعبادة وحده؟!

(٨٧) ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

فماذا تظنون بالله - سبحانه - رب العالمين أن يفعل بكم إذا كفرتم به وعبدتم غيره؟

(٨٨) ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾

فنظر إبراهيم في النجوم نظرة المتأمل الذي يريد عذرًا يتعذر به من الخروج معهم إلى أعيادهم.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾

فقال إبراهيم لقومه: إني مريض، وهذا عذر فيه تعريض.

(٩٠) ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾

فتركوا إبراهيم خلف ظهورهم وذهبوا إلى أعيادهم.

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾

فمال مسرعًا بفأسه إلى أصنام قومه فقال مستهزئًا بها: ألا تأكلون هذا الطعام الذي وضعه لكم المشركون؟!

(٩٢) ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾

ما لكم لا تتكلمون فتجيبون سؤالي إن كنتم تستطيعون النطق.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾

فتقدم إبراهيم إلى الأصنام يضربها ويكسرها بيده اليمنى ليثبت للكفار أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تدافع حتى عن ذواتها.

(٩٤) ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾

فعاد قوم إبراهيم إليه يعدون في سرعة وغضب وقد هالهم ما فعل.

(٩٥) ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾

فسألهم إبراهيم في شجاعة وثبات: كيف تعبدون أصنامًا تنحتونها أنتم بأيديكم، فكيف يكون المصنوع إلهًا معبودًا؟!

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾

وتتركون عبادة الله وهو الذي خلقكم وخلق ما تعملونه بأيديكم.

٩٧ ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾

فلما غلبهم بالحجة مالوا إلى القوة، وقالوا: ابنوا لإبراهيم بنيانًا واملؤوه حطبًا وأوقدوه نارًا وضعوا إبراهيم فيه.

٩٨ ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

فأراد قوم إبراهيم مكيدة يهلكونه بها فجعلهم الله الأذلين الأخسرين، حيث غلبهم بالحجة وبار كيدهم وفشل مكرهم.

٩٩ ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

وقال إبراهيم: إني مهاجر إلى الله من وطن الكفار إلى وطن أستطيع فيه عبادة الله وطاعته، وفي هذا مشروعية الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا لم يستطع المسلم القيام بعبادة الله، ثم قال إبراهيم: فإن ربي سيرشدني إلى أهدى الطرق في أمر ديني ودنياي.

١٠٠ ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ثم دعا إبراهيم ربه أن يرزقه ولدًا صالحًا ليقوم بميراث العلم والدعوة من بعده.

١٠١ ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾

فأجاب الله دعوة إبراهيم ورزقه إسماعيل حيث كان عاقلاً في صغره مباركًا في كل أمره.

١٠٢ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

فلما شبَّ إسماعيل وذهب مع أبيه قال له أبوه: إن الله أراني في المنام وأمرني بذبحك، فما رأيك؟ (ورؤيا الأنبياء حق)، فأجاب إسماعيل مستسلمًا لأمر الله طائعًا لأبيه راضيًا عن ربه: أقدم على ما أمرك الله به من ذبحي فسوف تجد مني الصبر على قضاء الله والطاعة لأمره واحتساب ما عنده من الثواب.

١٠٣ ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾

فلما انقاد إبراهيم وإسماعيل لأمر الله وطرح إبراهيم إسماعيل على جبينه وهو جانب الجبهة ووضعه على الأرض ليذبحه.

١٠٤ ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾

نادى الله إبراهيم في ذلك المقام الهائل العظيم.

١٠٥ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

أن يا إبراهيم قد فعلت ما أمرك الله به في الرؤيا، إن الله كما أثابك على تصديقك وامتثال أمر ربك كذلك يثيب الله من أحسن الاستجابة وأطاع ربه فينجيهم من الكربات ويسلمهم من الأزمات.

١٠٦ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾

إن أمر الله لإبراهيم بذبح ابنه إسماعيل بلاء عظيم وامتحان كبير لا يصبر عليه إلا أولو العزم.

١٠٧ ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾

وفدى الله إسماعيل من الذبح بكبش عظيم ذبحه إبراهيم مكان ابنه فكانت سنة الهدي في عيد الأضحى.

١٠٨ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾

وأبقى الله على إبراهيم في القرون التي بعده ذكرًا حسنًا وثناءً جميلاً.

١٠٩ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

تحية مباركة وسلامة من كل آفة وأمنًا من كل خوف على إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

١١٠ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وكما أثاب الله إبراهيم على حسن استجابته يثيب الله كل من أحسن الاستجابة له من عباده.

١١١ ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن إبراهيم من عباد الله الصادقين المخلصين الذين أطاعوا الله حق طاعته.

١١٢ ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وبشر الله إبراهيم بابنه إسحاق وجعله نبيًا من الصالحين؛ ثوابًا لإبراهيم على صبره وامتثال أمر ربه ورضاه بقضاء مولاه.

١١٣ ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾

وأنزل الله البركة واليمن على إبراهيم وعلى إسحاق، وجعل من ذريتهما مَنْ هو صالح يتقي ربه ومَنْ هو ظالم لنفسه بالشرك والمعاصي والذنوب.

١١٤ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

ولقد تفضل الله وأنعم على موسى وهارون بالنبوة والرسالة والنصر والتأييد.

١١٥ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

ونجّى الله موسى وهارون ومن معهما من بني إسرائيل من الغرق والاستعباد الذي كان يلحقهم من فرعون.

١١٦ ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

ونصر الله موسى وهارون وقومهما، فكان لهم النصر والتمكين وعلو الكلمة على فرعون وقومه.

١١٧ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾

وأعطى الله موسى وهارون التوراة الواضحة البينة فيها العقائد والأحكام.

١١٨ ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

وأرشد الله موسى وهارون إلى الصراط المستقيم الذي هو دين الإسلام الذي بُعث به كل الأنبياء عليهم السلام.

١١٩ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾

وأبقى الله لموسى وهارون في القرون القادمة ذكرًا جميلاً وثناءً حسنًا أبد الدهر.

١٢٠ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

تحية من عند الله مباركة طيبة وسلامة من كل آفة على موسى وعلى هارون مع الرضا والإكرام.

١٢١ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وكما أثاب الله موسى وهارون الثواب العظيم على حسن عملهما كذلك يثيب الله كل من أحسن من عباده في طاعته.

١٢٢ ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن موسى وهارون من عباد الله الموقنين الراسخين في الإيمان.

١٢٣ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

وإن النبي الكريم إلياس – عليه السلام – من أنبياء الله الذين شرَّفهم بالرسالة وأكرمهم بالنبوة.

١٢٤ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

إذ قال إلياس لقومه من بني إسرائيل: اتقوا الله بإخلاص العبادة له وعدم الإشراك به وإفراده بالتوحيد.

١٢٥ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

كيف تعبدون صنمًا لا ينفع ولا يضر وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين؛ الذي يخلق من العدم ويحيي بعد الإماتة، ويتقن في خلقه ويحسن في صنعه؟

١٢٦ ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

والله وحده هو ربكم الخالق الرازق وهو الذي خلق آباءكم السابقين ورزقهم فلا إله لكم غيره.

(١٢٧) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾

فكذب قوم إلياس رسولهم فسوف يجمعهم الله يوم القيامة ليجازيهم على أفعالهم.

(١٢٨) ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾

إلا عباد الله الذين أخلصوا له العبادة وصدقوا في طاعته، فإن الله سوف ينجيهم من العذاب فضلاً منه وكرمًا.

(١٢٩) ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾

وجعل الله لإلياس ذكرًا حسنًا وثناءً جميلاً فيمن بعده من الأجيال.

(١٣٠) ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾

تحية من الله وثناء جميل وأمان من كل خوف وحزن على إلياس.

(١٣١) ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

وكما أثاب الله إلياس وأكرمه يثيب ويكرم كل من أحسن في عبادة ربه واتقى مولاه.

(١٣٢) ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن إلياس من عباد الله الذين صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في دينهم، وكانوا على يقين من ربهم.

(١٣٣) ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

وإن نبي الله لوطًا - عليه السلام - اختاره الله لرسالته وأكرمه بنبوته.

(١٣٤) ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾

إن الله نجى لوطًا وأهله كلهم من عذابه الشديد وسلمهم من العقاب.

(١٣٥) ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾

لكن الله أهلك مع المعذبين زوجة لوط العجوز الهرمة؛ لأنها شاركتهم في الغواية والفساد.

(١٣٦) ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾

ثم أهلك الله المكذبين من قوم لوط وأبادهم وجعلهم عبرة للعالمين.

(١٣٧) ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾

وإنكم - يا كفار مكة - لتمرون وأنتم مسافرون على ديار قوم لوط ومساكنهم وقت الصباح.

(١٣٨) ﴿ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وتمرون على ديارهم أيضًا ليلاً أفلا تتفكرون فيما حل بهم فتخافون عذاب الله.

(١٣٩) ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

وإن نبي الله يونس - عليه السلام - لمن الأنبياء الذين اصطفاهم الله لرسالته وأكرمهم بنبوته.

(١٤٠) ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾

إذ هرب يونس من ديار قومه ولم يأذن له الله بذلك، فركب في السفينة المملوءة بالمسافرين والبضائع.

(١٤١) ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾

وأدرك الغرق السفينة في البحر، فعمل أهل السفينة قرعةً فَمَنْ وقعت عليه أُلقي في البحر؛ تخفيفًا لحمولة السفينة، فكان يونس ممن وقعت عليه القرعة.

(١٤٢) ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

فرُمي بيونس من السفينة في البحر فابتلعه الحوت، ويونس قد فعل بهروبه بلا إذن ما يُلام عليه.

١٤٣ ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾

فلولا ما سبق ليونس من الصلاح وكثرة العبادة ودوام الذكر إضافة إلى تسبيحه وهو في بطن الحوت بقوله: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين».

١٤٤ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾

لبقي في بطن الحوت إلى قيام الساعة.

١٤٥ ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾

فأخرجه الله وطرحه من بطن الحوت وألقاه في أرض صحراء مقفرة لا شجر فيها ولا عمار، وهو ضعيف البدن معلول الصحة من هول ما مر به.

١٤٦ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾

وأنبت الله على يونس وهو في الصحراء شجرة القرع يتظلل بها ويأكل من ثمرها.

١٤٧ ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾

وأرسل الله يونس بعدما أخرجه من بطن الحوت إلى مئة ألف من قومه بل يزيدون على هذا العدد.

١٤٨ ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾

فصدقه قومه واتبعوه فمتعهم الله بالنعم إلى انتهاء أعمارهم.

١٤٩ ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾

فاسأل - أيها النبي - قومك: كيف ينسبون البنات اللاتي يكرهونهن إلى الله، وينسبون البنين الذين يحبونهم إلى أنفسهم، ما هذا التحكم الباطل والجور في الحكم.

١٥٠ ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾

واسأل الكفار - أيها النبي -: هل هم حاضرون يوم خلق الله الملائكة إناثًا فهم يشهدون بما يعرفون.

١٥١ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾

ومن كذبهم القبيح وفريتهم العظيمة.

١٥٢ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

أنهم يزعمون أن الله له ولد، تنزه عن ذلك فهم كاذبون فيما قالوا، فالله لم يلد ولم يولد.

١٥٣ ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾

لماذا يختار الله البنات دون البنين فيجعل على زعمهم الملائكة بناتٍ له؛ تعالى الله، عن ذلك.

١٥٤ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾

قبحًا لحكمكم هذا وسوء اختياركم حيث نسبتم إلى الله ما تكرهونه من البنات، ونسبتم إلى أنفسكم ما تحبونه من البنين!!

١٥٥ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

أفلا تعلمون أنه لا يجوز أن يكون لله ولد فإنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

١٥٦ ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾

ألكم برهان واضح على صحة قولكم وزعمكم الباطل بأن البنات لله.

١٥٧ ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

إن كان لكم برهان واضح في كتاب من الله فأطلعوني عليه إن كنتم صادقين.

١٥٨ ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾

وجعل الكفار بين الله والملائكة نسبًا ورحمًا، ولقد علمت الملائكة أن الكفار سوف يحضرهم الله للعذاب عنده يوم القيامة، وقيل: إن الجِنَّة هم الجن، فيكون المعنى: ولقد علم الجنُّ أن الله سوف يحضرهم للحساب عنده يوم القيامة.

١٥٩ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

تنزه الله وتقدس وتعالى عن كل وصف وصفه به أعداؤه من الكفار، وإنما يوصف بما وصف به نفسه ووصفه رسوله ﷺ.

١٦٠ ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

لكن عباد الله الذين أخلصوا له بريئون مما يصفه به الكفار المشركون.

١٦١ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾

فإنكم - أيها الكفار - وما تعبدونه من دون الله من أصنام وأوثان.

١٦٢ ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴾

ما تستطيعون أن تضلوا أحدًا إلا إذا شاء الله تعالى.

١٦٣ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

ممن قدر الله أن يصلى الجحيم فاتبع أهل الضلالة.

١٦٤ ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾

تقول الملائكة: ما منا من أحد إلا له مقام خاص به معلوم له في السماء، كل له مهمة.

١٦٥ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾

وإنا نحن الملائكة نصف صفوفًا في عبادة ربنا وطاعته في ترتيب ونظام.

١٦٦ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾

وإنا نحن الملائكة لنقدس الله وننـزهه عما لا يليق، ونثني عليه بأوصافه الجليلة سبحانه.

١٦٧ ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾

وإن كان الكفار ليقولون بلا علم قبل مبعث الرسول ﷺ.

١٦٨ ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

لو جاءنا مثل ما أتى القرون السابقة من الكتب والرسل.

١٦٩ ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

لآمنا وأصبحنا مخلصين في عبادة ربنا وطاعة مولانا.

١٧٠ ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

فلما أتاهم الذكر الحكيم والنبي الكريم وهداهم إلى الصراط المستقيم كفروا بالله العظيم، فسوف يعلمون ما لهم من العقاب إذا دخلوا نار الجحيم .

١٧١ ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

ولقد سبقت كلمة الله التي لابد من وقوعها ولا راد لها لرسل الله عليهم السلام.

١٧٢ ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾

إن العاقبة لهم، وإن النصر معهم، وإن الظفر والفوز حليفهم، وإن الله يؤيدهم بالحجة والقوة.

(١٧٣) ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

وإن جند الله المجاهدين في سبيله لإعلاء كلمته لهم النصر والغلبة بإذن الله على أعداء الله في كل موقف، سواء في باب الحجة أو القوة؛ لأن العاقبة للمتقين.

(١٧٤) ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾

فأعرض - أيها النبي - عمن كفر وأبى الانقياد حتى يمر الزمن الذي أمهلهم الله، ويحين وقت عذابهم وأخذهم.

(١٧٥) ﴿ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾

وانتظر وارتقب ماذا سوف يفعل الله بهم، فإنهم سوف يرون عاقبة عملهم وجزاء كفرهم.

(١٧٦) ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾

أفبوقوع عذاب الله عليهم يستعجلونك - أيها النبي - ويستبطئون هذا العذاب النازل بهم لا محالة؟!

(١٧٧) ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾

فإذا أنزل عذاب الله بأعداء الله فبئس الصباح صباحهم فما أقبحه من صباح!

(١٧٨) ﴿ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾

وأعرض - أيها النبي - عن الكفار حتى يمر زمن المهلة لهم ويحين وقت عذابهم.

(١٧٩) ﴿ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾

وانتظر وترقب ماذا سوف يفعل الله بهم من النكال، فإنهم سوف يرون عاقبة فعلهم ونتيجة عملهم.

(١٨٠) ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

تنزه الله وتعالى وتقدست أسماؤه رب العزة والمجد والجبروت عن كل وصف لا يليق به وصفه به أعداؤه.

(١٨١) ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

وثناء الله المبارك وتحيته الدائمة وأمانه على رسله المجتبين الأخيار.

(١٨٢) ﴿ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

والحمد أوله وآخره لله رب العالمين، فهو المستحق للحمد وحده؛ لكثرة صفات المدح والكمال فيه، ولكثرة أياديه الجليلة ونعمه الجزيلة، والشكر والثناء له في الدنيا والآخرة.

مكية

ترتيبها
٣٨

سورة ص

آياتها
٨٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، مع علمنا أن لها معانٍ جليلة، وأقسم - سبحانه - بكتابه العظيم الذي فيه عظة العباد وتذكيرهم بيوم المعاد، ونصحهم بالاستعداد وأخذ الزاد.

(٢) ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾

لكن الكفار في كبر وإعراض عن الهدى إذ خالفوا الله ورسوله وتعدوا حدوده وأعرضوا عن شرعه.

(٣) ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

كم أفنى الله بالعذاب من أمة سبقت هذه الأمة بسبب كفرهم فاستغاثوا لما نزل بهم العقاب وأذعنوا لله وأعلنوا التوبة، ولكن الزمن ليس زمن توبة ولا مهرب فلا مفر مما أصابهم.

(٤) ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

وعجب الكفار من إرسال النبي محمد ﷺ وقالوا: لماذا يكون بشرًا منا وليس مَلَكًا؟! إنما هو كاذب في قوله ساحر لقومه وليس برسول من عند الله.

(٥) ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾

كيف ادعى هذا الرسول أن الآلهة الكثيرة صارت إلهًا واحدًا؟! إن هذا الوحي الذي أتى به ودعوته إلى الله لشيء عجيب لا يقبله العقل لغرابته.

(٦) ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾

وانطلق سادة الكفار وأعيانهم يحرضون إخوانهم من أهل الكفر والتكذيب على الشرك والصبر على دينهم الباطل وعبادة عدة آلهة دون الله، إن ما دعا إليه النبي ﷺ أمر مقصود مدبر يريد به العلو في الأرض والصدارة.

(٧) ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾

ما سمعنا بمثل ما دعا إليه من الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة عند من سبقنا من آبائنا وأجدادنا ولا في ملة النصرانية، ما هذا إلا زور وبهتان وافتراء.

(٨) ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾

كيف يختص محمدًا بالرسالة من دوننا وهو بشر مثلنا لا ميزة له علينا؟ بل الكفار في حيرة وريب من إنزال الوحي من الله على الرسول ﷺ؛ إنما قالوا ذلك لأنهم لم يذوقوا عذاب الله فهان عليهم أمره، ولو ذاقوا العذاب لما كذبوا بالكتاب.

(٩) ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾

هل عند كفار قريش خزائن الله من الفضل والرحمة الذي عزَّ في ملكه وقهر من غالبه، وهو الوهاب الذي يعطي مَنْ أراد من العباد من الفضل والإحسان بلا حساب، ولو كانوا يملكون الخزائن لبخلوا بها.

(١٠) ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾

أم أن هؤلاء الكفار مسيطرون على ما في السموات والأرض وما بينهما فيتحكمون في الرحمة والرزق فيعطون من أرادوا ويمنعون من أرادوا؟ فليصعدوا في الطرق الموصلة إلى السماء وليمنعوا الملائكة من إنزال القرآن على الرسول ﷺ.

(١١) ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾

هؤلاء الكفار جند مكذبون للرسالة مهزومون في مواجهة الحق مثلما غُلبت الأمم المكذبة التي سبقتهم.

(١٢) ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾

وكذبت قبل تكذيب كفار قريش قوم نوح وعاد وفرعون صاحب الجنود الأقوياء والبأس الشديد.

(١٣) ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾

كذبت قبلهم ثمود قوم صالح وقوم لوط وأصحاب الشجرة العظيمة قوم شعيب، وهؤلاء الأقوام تعاونوا على الكفر وتساعدوا على حرب رسلهم ومعاداة الحق.

(١٤) ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾

كل قوم من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم فاستحقوا العقاب من الله على كفرهم فنـزل بهم العذاب.

(١٥) ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾

وما ينتظر الكفار لنـزول الهلاك بهم إن استمروا على كفرهم إلا نفخة واحدة ما لها من رجوع، فليس لهم بعدها من توبة ولا إقالة.

(١٦) ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾

وقال الكفار - استهزاءً وسخرية -: يا ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل قيام الساعة؛ لأنهم يستبعدون ذلك.

(١٧) ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

اصبر - أيها الرسول - على ما يقوله الكفار فيك وفي دعوتك كقولهم: إنك شاعر ساحر كاهن مجنون - صانه الله عن ذلك - واذكر وتعز بعبد الله النبي الصالح داود صاحب القوة في أمر الله والشجاعة في مقابلة أعداء الله والصبر على طاعة الله، وقد كان كثير الرجوع إلى ربه ومولاه والتوبة من ذنوبه.

(١٨) ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾

إن الله طوع الجبال مع داود فكانت تسبح بتسبيحه كل صباح ومساء.

(١٩) ﴿ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾

وطوَّع الله الطير مع داود تجتمع عنده للتسبيح وتأتمر بأمره.

(٢٠) ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾

وقوّى الله ملك داود بالتمكين والهيبة والعدة والجند وأكرمه الله بالنبوة والعلم والفصل في الكلام بحسن الخطابة في الحكم بالعدل.

(٢١) ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴾

وهل بلغك - أيها النبي - قصة الاثنين المتخاصمين اللذين صعدا على سور محراب داود وكان يعبد ربه.

(٢٢) ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾

حيث دخلا فجأة على داود فارتاع منهما؛ لأنهما لم يستأذنا، فقالوا لداود: لا تخف منا فلسنا نريد شرًا ولا أذى بك، وإنما نحن خصمان مختلفان جار أحدنا على الآخر، فاقض بيننا بالعدل ولا تظلم في الحكم وأرشدنا إلى أحسن الطرق وأقوم السبل.

(٢٣) ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾

وقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون شاة وليس عندي سوى شاة واحدة فطمع فيها ليضمها إلى شياهه وقال لي: أعطني إياها وغلبني في الكلام.

(٢٤) ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ﴾

فقال داود: لقد ظلمك أخوك يوم سألك أن تعطيه شاتك إلى شياهه، وإن أكثر الشركاء ليظلم بعضهم بعضًا ويجور عليه ولا ينصفه إلا من آمن بالله وخاف مولاه، فهو عادل لا يجور ولا يظلم، وهذا الصنف قليل في الناس والكثير ظالم معتد، وتيقن داود أن الله ابتلاه بهذه الخصومة ليستدل بها على غيرها، عندها استغفر داود ربه وسجد لمولاه وعاد نادمًا مخبتًا منيبًا.

(٢٥) ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

فغفر الله لداود ذنبه وتاب عليه واصطفاه وقرَّبه وهيأ له حسن المأوى عنده في جنات النعيم.

(٢٦) ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾

يا داود، إن الله استخلفك في الأرض وولاك الحكم على الناس، فاحكم بين عباد الله بشرع الله، واعدل في الحكم، وإياك واتباع الهوى في الأحكام فتحابي القريب على البعيد والصديق على العدو، ولكن عليك بشرع الله، فإنك إن اتبعت الهوى مال بك عن الصراط المستقيم وحرفك عن الصواب، إن الضالين المضلين عن سبيل الله وطاعته وهداه لهم عذاب شديد موجع في نار جهنم؛ لأنهم نسوا لقاء الله وغفلوا عن يوم القيامة وأهملوا مراقبة الله، وفي هذه الآية توجيه للحكام أن يتقوا الله وأن يحكموا بشريعة الله، ولا يجوروا في أحكامهم فيصبحوا من أهل الضلال والغواية.

(٢٧) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

وما خلق الله السماء والأرض وما بينهما إلا لحكمة عظيمة وليس للهو واللعب والعبث كما يظن الكفار، فويل لهم على هذا الظن من النار؛ لأنهم ظنوا بالله ظن السوء وكفروا بآياته وكذبوا رسوله ﷺ.

(٢٨) ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

كيف يجعل الله المؤمنين الصالحين كالفجار المفسدين في الأرض؟! أم كيف يجعل الله الأتقياء الأبرار كالفجار الأشرار؟! كلا لن يكون هذا، فهذه التسوية بينهم ليست عادلة، بل العدل أن يُثاب الأتقياء ويعاقب الأشقياء على حسب أعمالهم.

(٢٩) ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

هذا القرآن الذي نزل على الرسول ﷺ كتاب من عند الله مبارك في تلاوته وتدبره والعمل به، كثير النفع غزير الفائدة، أنزله الله ليتفكر العباد في آياته ويهتدوا ببيناته، وليتفكر أهل العقول السليمة والفطر القويمة في آيات هذا الكتاب المبارك الدال على كل خير.

(٣٠) ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

وأعطى الله داود ابنه سليمان تفضلاً منه عليه وإكرامًا وقرة عين، نعم العبد الصالح والنبي الكريم سليمان، إنه كان كثير العودة إلى الله والاستغفار والتوبة والإنابة.

(٣١) ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾

وتذكر يوم عُرضت الخيل الأصيلة المسومة على سليمان وقت العصر وهي قائمة على ثلاث قوائم رافعة الرابعة لرشاقتها ولطافتها واستعدادها للجري، فما زال مشغولاً بها حتى غابت الشمس في الأفق.

(٣٢) ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾

فقال سليمان: إني قدمتُ حب الخيل والمال على الصلاة لربي حتى غابت الشمس وفات وقت الصلاة.

(٣٣) ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾

فأمر سليمان أن تُعاد إليه الخيل التي عُرضت عليه ومرت، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها وجعلها وقفًا في سبيل الله، وقيل: ذبحها وتصدق بلحومها.

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

ولقد امتحن الله سليمان فطرح على سريره شق ولد وُلد له من امرأته حين أقسم ليطوفن على نسائه، وكلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد، ثم استغفر سليمان من نسيانه ذكر المشيئة وتاب إلى ربه.

٣٥ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾

قال سليمان: ربِّ اغفر لي ذنبي وأعطني ملكًا عظيمًا خاصًا بي لا يشاركني فيه أحد ولا يكون لأحد من الناس بعدي ملك مثله، إنك واسع العطاء عظيم الإحسان كثير الجود.

٣٦ ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

فاستجاب الله دعاء سليمان، وأعطاه ما طلب من الملك، وذلل الله له الريح يأمرها فتجري سريعة طيِّعة مع قوتها وشدتها وسرعتها حيث أراد من البلاد.

٣٧ ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾

وذلل الله لسليمان الشياطين في ملكه، يسخرهم لما أراد من الأشغال، فمنهم البنَّاء للدور والقصور، والغواص في البحور.

٣٨ ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾

وصنف آخر من الشياطين وهم المردة العتاة مربوطون في الأغلال موثوقون في السلاسل.

٣٩ ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

هذا السلطان الكبير والملك الهائل والعطاء الخاص هبة من الله لسليمان، فأعط يا سليمان من شئت من الناس وامنع من شئت فلن تُحاسب على العطاء؛ لأن المعطي – سبحانه – كريم جواد.

٤٠ ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

وإن لسليمان عند الرحمن أحسن المراتب وأقرب المنازل في الجنان وفي دار الرضوان.

٤١ ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

واذكر – أيها النبي – العبد الصالح والنبي الكريم أيوب الذي صبر على البلاء ودعا ربه بإخلاص وقال: يا ربِّ إن الشيطان كان سببًا في أذيتي ومرضي وأوصل الضرر إلى جسمي وأهلي ومالي.

٤٢ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾

فأمر الله أيوب أن يضرب الأرض برجله فنبع منها ماء باردٌ زلالٌ؛ ليشرب منه أيوب ويغتسل، فأذهب الله ما به من داء وأبدله بعد السقم شفاء وأعقبه بعد الضراء السراء.

٤٣ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

فلما عافى الله بدنه وأزال سقمه أعطاه فأكرمه ووهب له أهله من نسائه وأبنائه وزاده مثلهم من البنين والحفدة والأسباط، كل هذا العطاء رحمة من الله ولطف بأيوب وجزاء له على صبره وإكرام له على رضاه بالقدر، وعظة وعبرة لأهل العقول السليمة والفطر القويمة؛ وليتيقنوا أن الفرج يأتي بعد الشدة وأن مع العسر يسرا.

٤٤ ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

وأمر الله أيوب أن يأخذ بيده حزمةً من عذق النخل، وهي الشماريخ – فيضرب بها زوجته؛ ليبر قسمه السابق ولا يحنث؛ لأنه حلف بذلك لخطأ صدر عنها، إن الله امتحن أيوب فوجده صابرًا على البلاء مؤمنًا بالقضاء، نعم العبد هو في تقواه والعمل بطاعة مولاه، وكان عائدًا إلى الله بالتوبة والإنابة وتفويض الأمر لله.

٤٥ ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

واذكر – أيها النبي الرسول – عباد الله الصالحين وأنبياءه الصادقين: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فإنهم كانوا أصحاب قوة في الطاعة وبصيرة في الدين، فلهم قوة في إنكار المنكر وبصيرة في فعل المعروف.

٤٦ ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾

إن الله اجتباهم واختارهم باصطفاء عظيم، حيث جعل ذكر الآخرة نصب عيونهم وفي قلوبهم لا يفارقهم ذكرها، فهم مستعدون لها بالعمل الصالح.

(٤٧) ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾

وإن هؤلاء الأنبياء الأبرار عند الله من أفضل الناس وأكرم البشر على الله، قد اصطفاهم للنبوة واختارهم للرسالة.

(٤٨) ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾

واذكر - أيها النبي - عباد الله الأبرار والأنبياء الأخيار: إسماعيل واليسع وذا الكفل، فذكرهم أحسن الذكر، وسيرتهم أجمل السير، فكلٌّ منهم كان خيّرًا بارًا رشيدًا، قد اختارهم الله لتبليغ الرسالات واختار لهم أحسن الصفات.

(٤٩) ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

هذا القرآن العظيم ذكر وشرف للرسول ﷺ ولأمته، وإن لمن اتقى ربه فعمل بطاعته وترك معصيته لأحسن معاد في جنات النعيم.

(٥٠) ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾

هذه الجنات فيها الإقامة الدائمة والخلود الأبدي والنعيم السرمدي، أبوابها مفتحة لاستقبالهم والاحتفاء بهم.

(٥١) ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾

والأبرار في الجنة متكئون فيها على الأرائك المريحة لزيادة النعيم، يطلبون في الجنة ما تشتهيه أنفسهم من ألذ الطعام وأحسن الشراب وأحلى الفاكهة.

(٥٢) ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾

وعند الأبرار في الجنة نساء جميلات فائقات الحسن، قاصرات أبصارهن على أزواجهن، متساويات في السن، جمعن بين العفاف والحسن.

(٥٣) ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾

ونعيم الأبرار هذا قد وُعدوا به وهم في الدنيا، والله منجز وعده، فهذا ما ينتظركم - أيها المتقون - عند الله يوم القيامة.

(٥٤) ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾

وهذا العطاء المبارك الكريم لأولياء الله الأبرار رزق من عند الله لا ينتهي ولا ينقطع ولا ينقص.

(٥٥) ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾

هذا النعيم هو للأتقياء، أما المعتدون المتجاوزون للحدود في الكفر والذنوب فلهم شر معاد وأسوأ منقلب.

(٥٦) ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

ولهم عند الله عذاب النار، يُحرقون فيها فبئس الفراش النار، تصهرهم من فوقهم ومن تحتهم.

(٥٧) ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾

هذا العذاب المؤلم الموجع سوف يذوقونه، فهو ماءٌ شديد الحرارة، ومعه صديد وقيح يسيل من أجسام الكفار في النار يشربونه كرهًا.

(٥٨) ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾

وللفجار في النار عذاب آخر من هذا النوع، وهو أشكال وأصناف متعددة من النكال والقيد والأغلال وأنواع المكاره.

(٥٩) ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾

وعندما يزدحم الفجار على أبواب النار تسب كل طائفة الأخرى، فيقول بعضهم لبعض: هذه جماعة من أهل النار تدخل معكم وتزاحمكم، فيردون عليهم لا مرحبًا بهم ولا تتسع لهم دورهم ولا تحميهم منازلهم، إنهم سوف يذوقون حرَّ جهنم ويصلون سعيرها كما ذقناها.

٦٠ ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾

قالت طائفة الأتباع للسادة الطغاة: بل أنتم لا مرحبًا بقدومكم ولا كرامة لكم، أنتم كنتم سببًا لإغوائنا وصدنا عن الهداية، فبئس دار الاستقرار والسكنى نار جهنم.

٦١ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾

فقال السادة الطغاة للأتباع: ربنا من كان سببًا في إضلالنا وصرفنا عن الحق فضاعف له العقوبة في نار جهنم، وفيه تبرأ أهل الضلال من الأتباع والمتبوعين من بعض يوم العرض.

٦٢ ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾

وقال السادة الطغاة: لماذا لا نرى معنا في نار جهنم رجالاً كنا نحسبهم في الدنيا من الأشرار الفجار؟

٦٣ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

هل كنا مخطئين في السخرية منهم وازدرائهم، أم أن هؤلاء الفجار معنا في النار لكن لم تقع عليهم الأبصار؟

٦٤ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾

إن هذا الذي يحصل من الخصومة والجدل بين أهل النار حق حاصل لا محالة.

٦٥ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: إنما أرسلتُ مخوِّفًا لكم بين يدي عذاب شديد وليس هناك إله إلا الله الواحد الأحد لا شريك له ،فهو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، الذي قهر غيره وغلب سواه فلا تنبغي العبودية إلا له.

٦٦ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾

خالق السموات والأرض وما بينهما مالكهما ومدبر شؤونهما، العزيز في ملكه الذي أعز من اتقاه وأذل من عاداه، الغفار لذنوب من تاب، والذي ستر خطايا من أناب.

٦٧ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: إن هذا الكتاب العظيم هو القرآن الكريم خبر عظيم الشأن جليل القدر.

٦٨ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾

أنتم - أيها الكفار - غافلون عن القرآن، معرضون عن الإيمان به والعمل بما فيه.

٦٩ ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

ما كان عندي علم بما جرى بين الملائكة من اختصام واختلاف في خلق آدم، لكن الله أطلعني على ذلك بالوحي المنزل عليّ.

٧٠ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

وإنما أوحى الله إليَّ بعضًا من علم الغيب وعلَّمني ما لم أكن أعلم بسبب أنني نذير لكم من عذاب الله، ومبيِّنٌ لكم دين الله.

٧١ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم قال ربك للملائكة: إني خالق آدم من طين.

٧٢ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾

فإذا سويت أعضاء آدم وقوَّمت جسمه وحسَّنتُ خلقه ونفختُ فيه الروح وصار حيًّا، فاسجدوا - أيها الملائكة - سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة وتعظيم، فالعبادة لا تكون إلا للرحمن الرحيم، وقد جاء الإسلام بتحريم السجود لغير الله وحده.

(٧٣) ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾

فسجد الملائكة لآدم طاعةً لله وتكريمًا لآدم، ولم يتخلف من الملائكة أحد.

(٧٤) ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

لكن إبليس أبى أن يسجد لآدم تكبرًا وعنادًا وأنفةً وحسدًا، وسبق في علم الله أنه من الكافرين العاصين لأمر الله.

(٧٥) ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾

قال الله لإبليس: ما الذي حملك على ترك السجود لآدم الذي خلقته بيدي وشرّفتهُ بذلك؟ هل تكبرت على آدم أم كنت من المتكبرين على أمر الله؟ وفي الآية إثبات صفة اليدين لله - سبحانه - على وجه يليق بجلاله وكماله تقدست أسماؤه.

(٧٦) ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾

فردَّ إبليس - عاصيًا أمر ربّه - بقوله: إن ما منعني من السجود لآدم هو أنني أفضل وأشرف منه، فأصلي أكرم من أصله؛ حيث خلقتني من نار وخلقت آدم من طين، والنار خير من الطين.

(٧٧) ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾

فقال الله لإبليس: اخرج من الجنة فإنك مطرود من الرحمة محروم من الجنة.

(٧٨) ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

وإن عليك - يا إبليس - لعنات الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ فتبقى مطرودًا مرجومًا.

(٧٩) ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾

قال إبليس لربه: يا ربِّ، لا تميتني وأخِّر وفاتي حتى يخرج الناس من قبورهم؛ لأفتنهم.

(٨٠) ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾

قال الله لإبليس: فإني قد أخَّرتُ أجلك وهذا التأخير ابتلاء من الله لعباده بإبليس؛ ليظهر الصادق من الكاذب.

(٨١) ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾

وتأخير إبليس إلى وقت محدد هو وقت النفخة الأولى عندما يموت الأحياء.

(٨٢) ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

قال إبليس: فأقسم بعزتك يا رب وعظمتك لأصرفن الناس جميعًا عن طاعتك ولأضلنهم عن سبيلك.

(٨٣) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾

لكن من أخلصته منهم للطاعة وحفظته من الغواية وعصمته بالهداية فلن أستطيع إضلاله.

(٨٤) ﴿ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴾

قال الله: فالحق أقوله، وقولي الحق، ووعدي الحق، ولا أقول إلا الحق.

(٨٥) ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

ليملأن الله نار جهنم من إبليس ومن ذريته ومن أغواهم من بني آدم أجمعين.

(٨٦) ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: لا أطلبُ منكم أجرةً أو ثوابًا على تبليغ الرسالة ونصحي لكم، ولا أدعي أمرًا ليس لي، ولا أتكلف ما لا أستطيع، بل أفعل ما أومر به من ربي، ولا آتي بشيء من عندي تكلفًا وافتراءً.

(٨٧) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

ما هذا القرآن العظيم إلا ذكر وعظة للإنس والجن، يدلهم على ما فيه نجاتهم ويحذرهم من أسباب الهلاك.

(٨٨) ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينِۭ ﴾

وسوف تعلمون - أيها الكفار - علو هذا القرآن وصدقه وصحة ما جاء به إذا انتصر الإسلام وهوت الأصنام، وسوف تعلمون ذلك أيضًا حين يحل بكم العقاب، وينالكم العذاب يوم الحساب.

مكية

ترتيبها ٣٩

سورة الزمر

آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

تنزيل القرآن الحكيم إنما هو وحي من الله تكلم به - سبحانه -، العزيز في ملكه يعز من أطاعه، ويذل من عصاه، الحكيم في خلقه وصنعه، وفي تدبيره وشرعه.

(٢) ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾

إن الله أنزل إليك القرآن - أيها النبي - بالحق والعدل، فوحِّد ربك وأخلص له العبادة ولا تشرك به غيره.

(٣) ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾

ألا لله وحده العبادة الخالصة من الشرك، السالمة من الرياء والسمعة، والذين يشركون مع الله غيره، الذين عبدوا من دونه أولياء يقولون: إنهم لا يعبدون تلك الآلهة المزعومة مع الله إلا من أجل أنها سوف تشفع لهم عند الله وتزيدهم منه قربًا؛ فكذبوا في دعواهم وافتروا على الله فيما قالوا؛ فالعبادة والشفاعة له وحده، إن الله سوف يفصل بين المؤمنين والكفار فيما اختلفوا فيه من العبادة، فيثيب المؤمن المخلص الذي عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا؛ ويعاقب المشرك الذي اتخذ مع الله آلهة أخرى، إن الله لا يرشد إلى الصواب ولا يوفق للهدى من كان كاذبًا في قوله وفعله، كافرًا بآيات ربه، فالمفتري الكافر محروم من الهداية.

(٤) ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

لو أراد الله أن يتخذ ولدًا ويكون له ابنٌ من عباده لاختار هو ما أراد لا ما نسب إليه العباد، ولكن تعالى الله وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، القهار الذي غلب غيره وأذل من حاربه وخذل من عاداه؛ فكل شيء مقهور بعظمته خاضع لسلطانه.

(٥) ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾

خلق الله السموات والأرض وما بينهما وما فيهما بالحق والعدل؛ لحِكَم عظيمة، ولم يخلقهما لهوًا ولا عبثًا - تنزه عن ذلك وتقدس -، يجيء الله بالليل ويذهب بالنهار، ويجيء بالنهار ويذهب بالليل بنقص وقت هذا من وقت ذاك، ويأتي

كلٌّ في وقته لا يسبق أحدهما الآخر، وذلل الله الشمس والقمر، فجعل كلاً منهما يسعى في مداره لا يتعداه بانتظام وحساب حتى تقوم الساعة، فلا الشمس يحق لها أن تدرك القمر، كل ينزل منازله بنظام، ألا إن الله الذي أحسن في خلقه، وأبدع في صنعه، وتفضل على عباده وسخر ما شاء من خلقه هو العزيز في ملكه، قهر من حاربه، وغلب من غالبه، الغفار لذنوب من تاب.

(٦) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾

خلقكم الله - أيها العباد - من أبيكم آدم، وخلق من آدم زوجه حواء، وخلق لكم من الأنعام ثمانية أصناف ذكرًا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز، يخلقكم أجنة في بطون الأمهات حالاً بعد حال، نطفة فعلقة فمضغة وهكذا في ظلمة البطن والرحم والمشيمة، هذا الذي خلق هذا الخلق وأحسن فيما خلق هو الله ربكم الواحد الأحد لا إله إلا هو، المستحق للعبادة دون سواه، فلماذا تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره وهو الخالق الرازق وغيره لم يخلق ولم يرزق؟!

(٧) ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

إن تكفروا بالله - أيها العباد - وتكذبوا رسله وتعصوا أمره فالله غني عنكم لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، وأنتم الفقراء إلى فضله ورحمته، والله لا يرضى لعباده الكفر ولا يأمرهم به، وإنما يرضى الله لعباده شكر نعمته بعبادته وإخلاص الطاعة له، ولا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، فكل نفس لها برها وعليها فجورها، ثم إلى الله معادكم - أيها الناس - للحساب عند الله يوم القيامة، فيخبركم بما فعلتم ويجازيكم بما صنعتم، إنه خبير بأسرار السرائر، ومكنونات الضمائر، وما تخفيه الصدور.

(٨) ﴿ ۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾

ومن طبيعة الإنسان أنه إذا أصابته شدة من مرض أو فقر أو بلاء لجأ إلى الله وسأله وتذلل له واستغاث به، فإذا أجابه الله وفرّج عنه وكشف ضره وأزال همه وأعطاه من فضله نسي معروف ربه وإحسانه، وتمرد وعتا وأشرك بالله؛ ليسعى في إغواء غيره وصرفه عن الهداية، قل - أيها النبي - لهذا الصنف الجاحد المعاند: تمتع في حياتك الفانية بكفرك، فإن مصيرك إلى جهنم مخلدًا فيها.

(٩) ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

هل هذا الجاحد المعاند أفضل أم المخبت لربه المطيع لمولاه، الذي قطع ساعات الليل صلاة وتلاوة وذكرًا في قيام وسجود، يخشى عقاب الله يوم القيامة، ويأمل الرحمة من الله، قد جمع بين الخوف والرجاء؟ قل - أيها النبي -: هل يستوي أهل العلم النافع الذين أوصلهم علمهم إلى طاعة الله، وحسن عبادته، والتهجد له ومن ليس عنده علم نافع فهو في جهله صريع لشهواته غافل في لذاته، لا يستويان، إنما يتفكر ويميّز بين الصنفين أهل العقول السليمة والفطر القويمة.

(١٠) ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

قل - أيها الرسول - لعباد الله الأبرار المخلصين: اتقوا عذاب الله بالعمل بطاعته وترك معصيته، لمن أحسن في عبادة الله واتباع رسوله والتزود بالصالحات حسنة، وهي جنات النعيم مع حسنة الدنيا وصلاح الحال، وطيب العيش،

وسعة الرزق والثناء الحسن والقبول عند الناس، وأرض الله متسعة لمن أراد عبادة ربه، فلا يبقى في أرض لا يتمكن فيها من عبادة مولاه بل يهاجر إلى أخرى، إنما يعطي الله يوم القيامة الصابرين عطاء بغير حساب لكثرته، وغيرهم يعطى بحساب، وما ذاك إلا لعظم مرتبة الصبر.

(١١) ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾

قل - أيها النبي - للناس: إن الله أمرني وأتباعي أن أخلص العبادة له ولا أُشرك به شيئًا، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا على سنة رسوله ﷺ.

(١٢) ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

وقل - أيها النبي -: إن الله أمرني أن أكون أول من أسلم من أمتي فأنقاد لعبادته وأستسلم لأمره وأفوِّض الأمر إليه وأتوكل عليه.

(١٣) ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

قل - أيها النبي - للناس: إني أخشى إذا عصيتُ الله بترك ما أمرني به أو فعل ما نهاني عنه أن يعذبني في ذاك اليوم الذي عظم هوله، واشتد بأسه وهو يوم القيامة.

(١٤) ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾

قل - أيها النبي -: إنني أعبد الله ربي وحده لا إله إلا هو، ولا يستحق العبادة سواه، قد أخلصت له طاعتي، ولم أشرك به غيره في عبادتي.

(١٥) ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

فاعبدوا - أيها الكفار - ما أردتم من أوثان وأصنام؛ فضرر ذلك عليكم، ولن يلحقني من ذلك ضرر ولا أذى، وأخبرهم - أيها النبي - أن الخاسرين حقيقة هم الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم الحساب إذا نزل بهم العذاب وحل بهم العقاب؛ لأنهم كانوا سببًا في إغواء أهلهم وإضلالهم، ألا إن خسران الكفار يوم القيامة هو الخسران الذي ما بعده خسران، فإنه هلاك محقق وخلود في نار تحرق.

(١٦) ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾

للكفار في النار قطع من العذاب تغطيهم وتظلهم، كأنها ظلل فوق رؤوسهم مرفوعة، ويفترشون تحتهم قطعًا من النار أيضًا، ذلك العذاب الشديد يذكره الله تخويفًا لعباده ليحذروه بطاعته وترك معصيته، فيا عباد الله: اتقوا الله بالإيمان به واتباع رسوله وامتثال أمره واجتناب نهيه.

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾

والذين هجروا طاعة الشيطان وأتباعه وأعوانه واجتنبوا الشرك بالله وعادوا إلى الله بإخلاص الطاعة له وحسن عبادته لهم البشرى في الحياة الدنيا بالقبول عند الخلق، والمحبة من الناس والثناء الحسن والتوفيق للطاعة والسداد في كل الأمور، ولهم في الآخرة الرضوان الأكبر والفوز الأعظم والنعيم الدائم، فبشر - أيها النبي - عباد الله الصالحين بهذا الفضل.

(١٨) ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

هؤلاء العباد الأبرار هم الذين ينصتون للقول الرشيد من الكتاب والسنة والعلم النافع فيتبعون أرشده، هؤلاء هم الذين وفَّقهم الله للطريق القويم وألهمهم رشدهم وثبتهم على الهدى، وأولئك هم أصحاب العقول الراجحة والفطر القويمة.

(١٩) ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾

أفمن كتب الله عليه العذاب فارتضى الغواية وجانب الهداية فهل تستطيع - أيها النبي - أن تهديه وقد آثر الكفر؟ أم هل تستطيع أن تنقذه من عذاب النار؟ لن تستطيع؛ لأن لك هداية الإرشاد؛ أما هداية التوفيق فلله وحده.

٢٠ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

لكن الأتقياء البررة الذين عملوا بطاعة الله وتركوا معاصيه لهم في الجنة غرف مرفوعة البناء بعضها فوق بعض في جمال وبهاء، تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وهذا وعد من الله لأوليائه لابد من وقوعه، والله لا يخلف وعداً وَعَدَهُ سبحانه.

٢١ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

ألم تر كيف أنزل الله من الغمام ماءً مباركًا فأدخله في مسارب الأرض، وجعل منه العيون المتدفقة والأنهار الجارية، ثم ينبت بهذا الماء زرعًا متعدد الألوان والأصناف، ثم يجف هذا الزرع بعد الخضرة والنضارة فيصبح يابسًا ذاويًا مصفرًا، ثم يصير هشيمًا مكسرًا مفتتًا، إن في هذه المخلوقات التي قدرها الله وأبدعها لعبرةً عظيمةً وموعظة لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة.

٢٢ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾

أفمن وسع الله صدره فانشرح بقبول الإسلام والعمل به واتباع هدي النبي ﷺ فهو على بصيرة من أمره، وهدى من ربه قد عرف الحق فعمل به وعرف الباطل فاجتنبه كمن ليس كذلك؟ لا يستويان؛ فالمهتدي مشروح الصدر عامر الفؤاد بالطاعة على يقين ورشدٍ وهدى، والضال المنحرف الزائغ في ضلال وغي وحيرة، فالهلاك كله لقَاسي القلب المعرض عن ذكر الله الصاد عن سبيله؛ فهذا الصنف في بُعد عن الرشد لا يوفق لصواب ولا يُسدد لخير.

٢٣ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

الله - سبحانه وتعالى - هو الذي أنزل على رسوله ﷺ أحسن الحديث لفظًا ومعنىً وبركةً ورشدًا، وهو القرآن الكريم، يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإتقان والحكمة والرشد وعدم التضاد والاختلاف، تُثنى فيه الأخبار والبراهين والأدلة والأحكام، تقشعر جلود الأتقياء عند سماعه لما فيه من رهبة ووعيد وتخويف وإنذار، ثم تلين جلود هؤلاء الأبرار وقلوبهم لما في القرآن من بشرى ووعد حسن وترغيب في الخير وذكر للرحمة، ذلك الذي يحصل للأتقياء البررة من التأثير هو هداية من الله لهم، فإن الله يهدي من أراد من العباد، ومن أراد الله صرفه عن الحق والإيمان فلن يهديه أحد غير الله فيبقى في ضلاله وغَيِّه.

٢٤ ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾

أفمن يُرمى به في نار جهنم على وجهه قد غُلَّت يداه خلف ظهره فلا يحتمي من النار إلا بوجهه لتكذيبه وكفره، هل هذا الضال خير وأفضل أمَّن فاز برضوان الله وبجنته لإيمانه وصلاحه؟ لا يستويان، وقيل ذاك اليوم للكفار الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والذنوب: ذوقوا نتيجة عملكم السيء في الحياة الدنيا من الإجرام والآثام.

٢٥ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

كذبت القرون السابقة كمن كفر من أمتك - أيها النبي -، فأنزل الله عليهم العذاب من حيث لا يتوقعون نزوله، فأتاهم بغتة على غفلة منهم.

٢٦ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾

فأذاق الله الأمم الكافرة المكذبة عذابه الشديد مع الهوان والإذلال في حياتهم الدنيا، وهيأ الله لهم في نار جهنم أفظع العذاب وأشنع العقاب، ولو كان هؤلاء الكفار يعلمون أن ما نزل بهم من العذاب إنما هو بسبب تكذيبهم لآمنوا وصدقوا، ولكن غلب عليهم الجهل والهوى فضلوا.

(٢٧) ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾

ولقد ضرب الله للكفار في كتابه العظيم من كل مثل من أمثال الأمم السابقة عظةً واعتبارًا لعلَّهم يرتدعون عن كفرهم ومعاصيهم.

(٢٨) ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾

وأنزل الله كتابه العظيم بلغة العرب بيِّنة الألفاظ سهلة المعاني لا تعقيد فيها ولا غرابة؛ لعلَّهم إذا قرؤوا القرآن العربي الواضح انتفعوا به فاتقوا ربهم بعمل الطاعة وترك المعصية.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

ضرب الله مثلاً للمؤمن الموحد والكافر المشرك بعبد مملوك لشركاء مختصمين، فهو في حَيرة من إرضاء كل واحد منهم، فرضى هذا يغضب ذاك؛ وعبد آخر خالص لسيده فهو يسعى فيما يرضيه، قد جمع همَّه وشمله في العمل له، هل يستوي هذا وهذا؟ لا يستويان، فهذا مثل المشرك المتذبذب المحتار، ومثل المؤمن المطمئن المتيقن، فلله الثناء الجميل والشكر الجزيل على بيانه الأمثال لعباده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق فيهتدون به، وإنما هم جهلاء ضلّال.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾

إنك - أيها النبي - ميت لا محالة ولست خالدًا، وكذلك أعداؤك ميتون وليسوا بخالدين، فأنتم تشتركون في عدم الخلود في الدنيا فلماذا يتربص بك الكفار الموت وهو آتٍ على الجميع.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾

ثم إنكم - أيها العباد - يوم المعاد مختلفون عند الله، فأهل إيمان وصلاح، وأهل كفر وفساد، وسوف يحكم الله في ذلك اليوم بين عباده بالعدل فينجي الأتقياء ويعذب الأشقياء.

(٣٢) ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

ليس في العالم أحد أظلم ممن اختلق الكذب على الله بأن ادعى أن لله شريكًا أو ولدًا أو زوجة أو شبه الله بأحد من خلقه أو وصفه بغير ما وُصِف - سبحانه - في الكتاب والسنة، وكذلك من ادعى أن الله أنزل عليه وحيًا ولم يُنزل عليه، ولا أحد أظلم ممن كذّب برسالة الرسول ﷺ ورد ما جاء به، أليس في نار جهنم مأوى وسكنى للكفار؟ بلى فهي دارهم وقرارهم.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾

والذي أتى بالصدق من الله وهو الوحي المبارك كان صادقًا في قوله وعمله وحاله، وهم الرسل وأتباعهم إلى يوم القيامة، وكذلك من صدَّق بهذا الوحي واتَّبعه حق الاتباع اعتقادًا وقولاً وعملاً أولئك هم الأتقياء البررة، وإمام الصادقين وسيدهم هو رسول الهدى النبي المصطفى محمد ﷺ وكذلك أصحابه الأبرار ومن تبعهم من الأخيار إلى يوم القيامة.

(٣٤) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

لهؤلاء الأبرار الصادقين ما أرادوا عند الله من أنواع المسرات وأصناف اللذائذ والمشتهيات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا جزاء من أحسن في عبادة ربه وأخلص له الطاعة، فجمع بين إفراد الله بالعبودية وتجريد المتابعة لرسوله ﷺ.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

ليكفِّر الله عن هؤلاء الأتقياء أسوأ الذي فعلوه في الدنيا من الذنوب والخطايا لإيمانهم وتوبتهم وفعلهم الحسنات بعد السيئات، ويكرمهم الله على عبادتهم بأجلِّ الثواب وأحسنه؛ بحيث يجعل الأجر على مستوى أفضل عمل عملوه، ثم يلحق بقية الأعمال بهذا العمل.

٣٦ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

أليس الله بحافظ رسوله الكريم محمدًا ﷺ من أذى الكفار وشرهم ومكرهم فلا يصله منهم أذى؟ بلى سوف يحفظه ربه وينصره مولاه في الدنيا والآخرة، ويدفع عنه الأذى ويرد عنه السوء وينصره نصرًا عزيزًا، ويكبت أعداءه ويخذل خصومه، ويخوفك الكفار - أيها النبي - بآلهتهم المزعومة التي اعتقدوا أنها سوف تضرك؛ كذبًا منهم وزورًا، ومن يصرف الله قلبه عن الهداية ويكتب عليه الغواية فليس له هادٍ غير الله يهديه لطريق الرشاد.

٣٧ ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾

ومن يرشده الله إلى الهدى ويدله على الصراط المستقيم فيتبع الكتاب والسنة ويحكم الشرع في نفسه ظاهرًا وباطنًا فلا يستطيع أحد صرفه عن الهدى، أليس الله بعزيز في ملكه وأخذه لأعدائه، فهو يعز من والاه ويذل من عاداه، من حاربه خذله ومن غالبه غلبه، وهو - سبحانه - المنتقم من أعدائه وممن خالف أمره بإنزال العقوبة بهم.

٣٨ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

ولئن سألت المشركين - أيها النبي -: من خلق هذه السموات والأرض؟ فسيجيبونك بأن الذي خلقهن هو الله وحده، فكيف يعبدون معه آلهة أخرى؟ فاسأل هؤلاء المشركين: هل تدفع عني هذه الآلهة التي عبدتموها من دون الله شرًا قدره الله عليّ، أو ترفع عني ضرًا نزل بي؟ وهل تستطيع أن تمنع خيرًا كتبه الله لي أو تحجب رحمةً قضاها الله لي؟ فسوف يجيبون بقولهم: لا تستطيع ذلك، قل لهم: الله يكفيني وهو حسبي وحده، عليه يعتمد كل موحِّد صادق مخلص في جلب المصالح ودفع المضار ونيل الخير وصرف الشر، فهو الذي بيده مقاليد الأمور ويملك النفع والضر وحده، إليه فوّضتُ أمري وعليه توكلتُ فهو حسبي ونعم الوكيل.

٣٩ ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

قل - أيها النبي للكفار -: اعملوا على طريقتكم التي أنتم عليها من الكفر والتكذيب، فسوف أعمل على ما هداني الله إليه من إخلاص العبادة له وإفراده بالطاعة واعتقاد الحق وقوله والعمل به، فسوف يظهر لكم من الهالك ومن الناجي، ومن الصادق ومن الكاذب إذا حكم الله بيني وبينكم.

٤٠ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

فسوف تعلمون من يحل به عقاب من الله يذله ويهينه، وينزل به في نار جهنم عذاب موجع أبدي لا ينقطع عنه ولا يخفف منه.

٤١ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

إن الله أنزل عليك القرآن بالصدق والعدل هدايةً للناس وتبيانًا لكل شيء، فمن انتفع بالقرآن واتبعه وعمل بما فيه وتحاكم إليه فإنما أحسن إلى نفسه ونفع ذلك عائد عليه، ومن آثر الغواية وترك الهداية فضرر ذلك عائد عليه، وعقوبته واقعة به، فالله لا تنفعه طاعة طائع ولا تضره معصية عاصٍ، وما أنت - أيها النبي - بوكيل على الناس تحصي أعمالهم وتحاسبهم على أفعالهم وتجبرهم على الهداية، فما عليك إلا تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله بالحكمة.

٤٢ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الله وحده هو الذي يقبض الأرواح وقت موتها، وهذه هي الموتة الكبرى عند اكتمال العمر وانقضاء الأجل، والنفس التي لم تمت الموتة الكبرى يمسكها الله عندما تنام وهي الموتة الصغرى، فيحبس - سبحانه - النفس التي ماتت الموتة الكبرى ويرسل التي ماتت الموتة الصغرى حتى اكتمال الأجل، فتعود إلى الجسم بعد النوم، إن في قبض روح الميت، وإمساك روح النائم وإرسالها، لبراهين ظاهرة على قدرة الله وحكمته لمن تأمل واعتبر.

(٤٣) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾

أم اتخذ الكفار شفعاء لهم عند الله في رفع حوائجهم والله لم يرض بذلك ولم يأذن؟ قل لهم - أيها النبي -: كيف تتخذون هؤلاء الشفعاء وهم لا يملكون جلب نفع ولا دفع ضر، وهذه الآلهة المزعومة لا تشعر بالعبادة فهي جامدة لا عقول لها.

(٤٤) ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: إن الذي يملك الشفاعة ويأذن بها هو الله وحده فله ملك السموات والأرض وما بينهما، وما فيهما فالأمر أمره، والحكم حكمه، والخلق عبيده، وهو الخالق المدبر المتصرف في الكون، فلا تُطلب الشفاعة إلا ممن يملكها سبحانه، فالواجب إفراده بالعبادة وإخلاص الطاعة له، أما الآلهة المدّعاة فلا تنفع ولا تضر، وإلى الله المعاد يوم القيامة؛ ليوفي كلاً بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٤٥) ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾

وإذا أُفرد الله وحده بالذكر ولم يشرك معه غيره كرهت ذلك قلوب الكفار، ونفرت منه نفوس الفجار الذين يكذبون بيوم الدين، وإذا ذُكر من دون الله من معبوداتهم الباطلة فرحوا بذلك واستبشروا؛ لأن الشيطان زين لهم الشرك وكرَّه إليهم التوحيد، وأصبح الحق باطلاً والباطل حقًا.

(٤٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

قل: اللهم يا خالق السموات والأرض ويا منشئهما ويا مبدعهما على غير مثال سابق، يا من يعلم ما غاب عن العيون وما تشاهده الأبصار، أنت تفصل بين الخليقة يوم المعاد فيما اختلفوا فيه من الربوبية والألوهية والرسالة وغير ذلك من مسائل الإيمان، أسألك ربي أن تهديني لما اختلف فيه الناس، ودلني على الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. وكان ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيرًا.

(٤٧) ﴿ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾

ولو أن للكفار كل ما في الأرض من أموال وخزائن ومدخرات وأضعافًا مضاعفة معه لجعلوه فدية لهم يوم الدين لينجوا من عذاب رب العالمين، ولو فعلوا ذلك وبذلوا ما عندهم لرُدّ عليهم ولم يُقبل منهم ولا يُدفع عنهم من العذاب شيء، وظهر لهم يوم القيامة من عذاب الله وأخذه ما لم يكن يدور في حسبانهم ولا يخطر ببالهم من شدة الأهوال والأنكال والأغلال.

(٤٨) ﴿ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

وظهر للكفار يوم القيامة عقاب آثامهم التي فعلوها حيث أشركوا بالله، ونسبوا إليه الصاحبة والولد، وألحدوا في أسمائه وصفاته، وكذبوا رسله وحاربوا أولياءه، وأحاط بهم من كل جهة عذاب مؤلم موجع؛ جزاءً لهم على سخريتهم من شرع رب العالمين، واستهزائهم بالدين.

(٤٩) ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

فإذا أصاب الإنسان بلاء ومحنة لجأ إلى ربه وأخلص له الدعاء وسأله الفرج من هذه الشدة، فإذا أزال الله عنه ما أغمه وكشف عنه ما أهمّه وأنعم عليه بالرخاء بعد الشدة واليسر بعد العسر قال هذا الإنسان - معاندًا مكابرًا -: إن الذي أُعطيتُه من الرخاء واليسر إنما هو لأجل علم الله بأنني أهلٌ لذلك ومستحق له، أو على علم مني بوسائل تحصيله والصحيح أن ذلك فتنة وابتلاء من الله يمتحن بها عباده؛ ليظهر الشاكر من الكافر، والصادق من الكاذب، ولكن أكثر الناس لغفلتهم وجهلهم وضلالهم لا يدركون هذه الحِكَم ولا يعلمون هذه الأسرار.

(٥٠) ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

قد سبق للقرون الماضية أن قالوا مثل هذه المقالة الخاطئة التي قالها الكفار، فما دفع عنهم عذابَ اللهِ ما عندهم من الأولاد وما جمعوه من الأموال.

(٥١) ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

فأصاب أصحاب هذه المقالة الآثمة من القرون الماضية عاقبة معاصيهم وجزاء ذنوبهم، فلحقهم الهوان والذل في الدنيا، وفي الآخرة العذاب الأليم في النار، والكفار من هذه الأمة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك سينالهم أيضًا عاقبة ذنوبهم وجزاء ما فعلوه من السيئات كما حصل للأمم السابقة، ولن يفوتوا الله، ولن يعجز الله عن عذابهم، بل هم في قبضته وتحت قهره.

(٥٢) ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أولم يعلم هؤلاء الكفار أن الله يعطي الدنيا من مال وولد وجاه وسلطان من أراد من عباده فيوسع له في رزقه، ويضيق على من أراد فيكون فقيرًا مملقًا، فلا يدل العطاء والرزق على حسن عمل ذاك وصلاحه، ولا يدل التضييق والفقر على فساد عمل هذا وفجوره، إنما هو ابتلاء واختبار من الله لعباده، إن في سعة الرزق وضيقه على العباد لبراهين ساطعة على قدرة الله وحسن تدبيره لعباده وحكمته في تصريف خلقه، وهذه البراهين ينتفع بها من صدَّق بكتاب الله واتبع رسوله ﷺ.

(٥٣) ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قل – أيها النبي – لعباد الله الذين أكثروا من الذنوب وأسرفوا في المعاصي: لا تيأسوا – أيها العباد – من رحمة الله لكثرة آثامكم وعظيم ذنوبكم، فإن رحمة الله واسعة، وجوده عظيم، وهو – سبحانه – يغفر كل الذنوب ويعفو عن جميع السيئات لمن تاب إليه وندم على ما فعل، بل يفرح الله بتوبته ويبدِّل سيئاته حسنات، ولو لم تكن التوبة أحبَّ شيء إليه لما ابتلى بالذنب أعز الناس عليه وهو آدم عليه السلام؛ فالله كثير الغفران للعبد مهما اقترف من الآثام، توَّاب يعود بفضله وستره وعفوه على عباده، رحيم بهم يتلطف إليهم بإيصال أنواع المحاب بأحسن الأسباب، ويصرف عنهم المكاره، فحري بالمسلم أن يفرح بهذه الآية وأن يحسن الظن بربه، ولا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمة مولاه، بل مهما فعل من الذنوب واقترف من المعاصي فليتب وليعد إلى ربه وليستغفر إلهه وخالقه، فهنيئًا للتائبين وقرة عين للمنيبين بهذا الفضل العظيم والثواب الكريم، ويا بشرى للموحدين بهذا النداء من الرحمن الرحيم، ويا سعادة العباد بهذا الكرم والجود من الواحد الأحد؛ فنسأله – سبحانه – بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتوب علينا وأن يغفر ذنوبنا، وهذه أرجى آية في القرآن عند الكثير.

(٥٤) ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

وعودوا إلى ربكم – أيها العباد – بالاستغفار والتوبة والندم وانقادوا لأمره واخضعوا لحكمه قبل أن يقع بكم عذابه ويدرككم عقابه ولا يدفع عنكم أحد بأس الله فلا راد لقضائه جل في علاه.

(٥٥) ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

واتبعوا – أيها العباد – أحسن ما أنزله الله من الوحي على رسوله المعصوم ﷺ وهو القرآن العظيم، وكله حسن؛ والسنة النبوية المطهرة، وكلها حسنة؛ وذلك بفعل ما أمر الله به ورضيه، وترك ما نهى الله عنه وكرهه، وهذا الامتثال يكون في الحياة الدنيا بإخلاص العمل لله تعالى وحسن المتابعة لرسوله ﷺ قبل أن يحل بمن أعرض وعصى وأبى عذاب الله فجأة وهو لا يشعر بوقت مجيئه، بل يأخذه على غرة وهو في غفلة عن شرع ربه وسنة نبيه ﷺ.

(٥٦) ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾

واتقوا الله وأطيعوه واتبعوا رسوله ﷺ حتى لا تندم النفس المقصرة على ذنوبها، وتأسف على ما تصرم من عمرها وتقول: يا حسرتي على ما أهملتُ من أمر الله، وضيعتُ من العمل الصالح، وغفلت عن الواجبات وتناولت المحرمات

في وقت لا ينفع فيه الندم ويجدي فيه التحسر، وتقول هذه النفس وقد كنت في الحياة الدنيا أسخر من شرع الله وكتابه وسنة رسوله ﷺ وأستهزئ بالدين وأهله لاستيلاء الغفلة على عقلي والانهماك في الذنوب، ومطاوعة الشيطان، وغلبة الهوى والانقياد للنفس الأمارة بالسوء.

٥٧ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

أو تقول النفس النادمة: يا ليت أن الله وفّقني لطريق الهداية لكنت من المتقين العاملين بأوامره - سبحانه - المجتنبين لنواهيه، ولكن هيهات لا ينفع الندم بعد زلة القدم.

٥٨ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

أو تقول هذه النفس النادمة بعدما تشاهد ما أعده الله للعصاة: يا ليت لي عودة أخرى إلى الدنيا فأحسن عبادة ربي وأهتدي بهداه وأتبع رسوله؛ وهذا كلام لا ينفع؛ لأنه تحسر المفرط.

٥٩ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

لقد أخطأت هذه النفس فيما قالت، فقد فات الأوان، وقد أتت هذه النفس آيات الله البينات عن طريق رسوله ﷺ فكذب بها هذا المعاند الجاحد، واستكبر عن قبول الحق واتباع الرسول ﷺ، وكفر بالله وبآياته وبالرسول وسنته.

٦٠ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

ويوم القيامة تشاهد الكفار الذين افتروا على الله كذبًا وادعوا أن لله شريكًا وولدًا وصاحبة ووصفوه - سبحانه - بغير أوصافه، تشاهد وجوههم سودًا كالحة شوهاء؛ لقبح ما افتروه وبشاعة ما ادعوه، أليس في النار قرار للكفار ومسكن لكل معاند متكبر صدَّ عن سبيل الله وأعرض عن شرعه؟

٦١ ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وينجي الله من النار الأتقياء الأبرار الذين عملوا بطاعة الواحد القهار، واجتنبوا معاصي الكبير الجبار؛ فيحصلون على فوزهم وفلاحهم الذي أمّلوه في الدنيا وعملوا له، ويدركون الظفر برضوان الله وجنته، لا ينالهم عذاب النار، ولا يصيبهم شيء من الأخطار، ولا يحزنون على ما ذهب منهم من متاع الدنيا الفاني، فهم في سرور وحبور.

٦٢ ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

الله - تعالى - هو خالق المخلوقات جميعها ومبدعها، وهو مدبرها والمتصرف فيها، وهو متوكل بحفظها لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

٦٣ ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

بيده - سبحانه - مفاتيح خزائن السموات والأرض، ومقاليد الأمور، يعطي ويمنع، ويرفع ويضع، ويقدم ويؤخِّر، ويولي ويعزل، ويعافي ويبتلي، ويهدي ويضل، فلا يقع في الكون شيء إلا بأمره ومشيئته - سبحانه -، والذين أنكروا آيات الله البينات وبراهينه الواضحات أولئك الذين ضل سعيهم وخاب عملهم وخسروا آخرتهم ودنياهم، ففي الدنيا لهم الهوان والخذلان، وفي الآخرة لهم الخلود في النيران.

٦٤ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أتأمرونني - أيها الجهلاء - أن أعبد غير الله ربي الخالق الرازق المحيي المميت، هو المستحق للعبادة وحده الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه، فلا أجهل من المشرك ولا أشد حمقًا من الجاحد المعاند.

٦٥ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

ولقد أوحى الله إليك - أيها النبي - فيما أنزله عليك من الوحي، وأوحى إلى من سبقك من الأنبياء، فكان فيما أوحى إليك أنك لو أشركت مع الله أحدًا غيره في العبادة ليبطلنَّ الله عملك، وليذهبنَّ الله سعيك، ولتكونن من الهالكين الضالين، فتذهب عليك دنياك وأخراك، ولن يقبل الله منك عملاً؛ لأنه لا يُقبل من المشرك أي عمل.

(٦٦) ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

بل الله وحده الذي لا إله إلا هو المستحق للعبادة، فأخلص له طاعتك واشكره على نعمه بتحقيق توحيده وحسن عبادته ودوام ذكره وشكره.

(٦٧) ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وما عظَّم الكفارُ الواحدَ القهارَ حقَّ تعظيمه؛ لأنهم أشركوا معه في العبادة غيره من الأنداد والأضداد، فصرفوا شيئًا من عبادتهم للأصنام والأوثان، ولم يخلصوا الطاعة للواحد الديان، فما أجهلهم وأكثر حمقهم كيف سووا بين المخلوق العاجز المقصر المحتاج وبين الخالق الغني القوي العظيم، فمن عظمته أن جميع الأرض في قبضته يوم القيامة، والسموات السبع مطويات مثل طي السجل للكتاب بيمينه، سبحانه تقدس الله وتعالى وتبارك وتنزَّه عن وصف المشركين له وعن شركهم به، وعن كل وصف ألحقه به أعداؤه، بل هو كما وصف به نفسه - سبحانه - ووصفه رسوله ﷺ، وفي الآية إثبات القبضة، وإثبات اليمين لله سبحانه وتعالى، وكلتا يديه يمين، وإثبات الطي على وجه يليق بعظمة الله وجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل.

(٦٨) ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

ونفخ إسرافيل في القرن فمات كل حي في السموات والأرض إلا من شاء الله أن لا يموت، ثم نفخ إسرافيل نفخة ثانية فأحيا الله من أماته بالنفخة الأولى فإذا هم وقوفٌ للحساب عند الله ينظرون ماذا يُفعل بهم، وهذا المقام من أصعب وأشد المقامات على الإنسان.

(٦٩) ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

وأضاءت الأرض يوم العرض الأكبر إذا تجلى الله للحساب، ونشرت صحف الحسنات والسيئات، وحضر الرسل والشهداء على أعمال الناس، ليسأل الله الرسل ماذا أُجيبوا به من أممهم وهو أعلم، ويسأل الأمم ماذا أجابوا به المرسلين، ويستشهد الله أمة محمد ﷺ على كل الأمم، وحكم الله بين العباد فيما اختلفوا فيه، واقتص لبعضهم من بعض، وقضى بينهم بالعدل بلا ظلم، فلا ينقص من حسنات محسن ولا يُزاد في سيئاته.

(٧٠) ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

ووفى الله كل عاقل جزاء عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهو - سبحانه - عالم بعمل كل عامل من صلاح وفساد وحسن وسيء.

(٧١) ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وساقت الملائكة الكفار إلى النار جماعات حتى إذا وقفوا على أبواب جهنم أذلاء مهانين أمر الخزنة بفتح أبواب النار، وقالوا للكفار يوبخونهم: أما أتاكم في الدنيا رسل من الله يقرؤون عليكم آيات كتب الله ويخوفونكم يوم القيامة، وينهونكم عن الشرك بالله والإعراض عن دينه؟ فرد الكفار معترفين نادمين: بلى أتتنا الرسل وأنذرونا ودعونا إلى الإيمان، ولكن وجبت كلمة أن العذاب على من كذَّب وتولى.

(٧٢) ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

قيل للكفار - توبيخًا وإهانة -: ادخلوا أبواب النار باقين فيها دائمًا بلا خروج منها ولا تخفيف من عذابها، فقبح مقام من تكبر على الحق وأعرض عن الهداية وعاند الرسل وكذب الكتب.

(٧٣) ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾

وسيق الأتقياء الأبرار الذين عملوا الصالحات واجتنبوا المحرمات إلى جنات النعيم، وهم جماعات، فوجدوا أبوابها مفتحة من قبل؛ احتفاءً بقدومهم وإكرامًا لهم، وحيَّاهم الملائكة بالبشر والسرور والتهنئة قد طابوا وطاب عملهم ومثواهم؛ لطهارتهم من الآثام، فلهم السلامة من كل أذى، والأمن من كل مخوف، ولهم الخلود الدائم في مقعد الصدق ودار الفوز.

(٧٤) ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

وقال المؤمنون بعدما دخلوا الجنة: الحمد لله والثناء كله لله الذي أنجز لنا ما وعد على ألسنة رسله من الوعد بثواب الأبرار في دار القرار، وأورثنا الجنة ونعيمها، ننتقل فيها كما أردنا خالدين في أمن وقرة عين ولذة وسرور، فنعم هذا الثواب ثواب المحسنين الذين أدوا طاعتهم على أكمل وجه بإخلاص لله ومتابعة لرسوله ﷺ.

(٧٥) ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وترى الملائكة يحيطون بعرش الرحمن، يقدسون الله عن كل عيب ويسبحون بحمده وجلاله، وقضى الله بين العباد بالعدل فلم يظلم أحداً، فنزل الأبرار جنات النعيم، ودخل الفجار النار، وقيل بعد أن تم القضاء والحساب ووقع الثواب والعقاب: الحمد لله رب العالمين على حسن قضائه والعدل في جزائه، فحمد على تفضله وإحسانه بأوليائه، وحمد على عدله في عقاب أعدائه.

مكية

ترتيبها ٤٠

سورة غافر

آياتها ٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ حم ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

(٢) ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

تنزيل القرآن وحيًا من الله على رسوله ﷺ، والله هو العزيز الذي عزَّ من تولاه، وذلَّ من عاداه، العليم فلا تخفى عليه خافية، فبعزته قهر ما سواه، وبعلمه أحسن فيما قضاه.

(٣) ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

الله غافر ذنوب المستغفرين، وقابل توبة التائبين، الذي يرحم المنيبين، وهو شديد العقاب على من تجاوز حدوده واستهان بأمره وأصر على ذنبه، وهو صاحب التفضل على العباد وصاحب الإنعام على الخليقة، لا معبود بحق سواه، ولا إله غيره ولا شريك له، إليه يعود الخلق لإحقاق الحق ومجازاة كلٍّ بما يستحق.

(٤) ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾

ما يخاصم في براهين الله ويجحدها ويشك في أدلة الوحدانية إلا كلُّ مكذب معاند جاحد، فلا يغررك - أيها النبي - ترددُ الكفار في الأسفار لجمع الدرهم والدينار، والاشتغال بالكسب والعقار، والتلذذ بمتاع هذه الدار، فسعيهم إلى بوار ومأواهم النار، وبئس القرار.

(٥) ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

كذب قبل كفار مكة قوم نوح ومن جاء بعدهم من القرون، وتحزبوا وتآمروا وعزموا على الوقيعة برسلهم تعذيبًا وقتلاً، وعارضوا الحق بالهوى، وردّوا البراهين بالتكذيب والجحود، وقصدهم إطفاء نور الله ورد الحق، فنكَّل الله بهم وعذبهم ودمَّرهم، فانظر كيف كان انتقام الله من أعدائه وعذابه الذي حلَّ بهم.

(٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

وكما وجب العذاب على القرون الماضية المكذبة وجب أيضًا عذاب الله على هؤلاء الكفار واستحقوا عذاب النار؛ لكفرهم بالواحد القهار.

(٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

حملة العرش من الملائكة - وهم من أفضل الملائكة وأكرمهم على الله - ومن يحف بالعرش ويحيطون به أيضًا من الملائكة الكرام يمجدون الله ويقدسونه وينزِّهونه عن كل عيب ونقص، ويثبتون له المحامد كلها، وصفات الكمال التي أثبتها لنفسه - سبحانه -، ويؤمنون بالله إيمانًا راسخًا يقينيًا، ويسألون ربهم أن يغفر لعباده المؤمنين، ويقولون: ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلمًا، فاغفر للذين تابوا من الكفر والذنوب واهتدوا بهدى الله وسلكوا الصراط المستقيم، وهو دين الإسلام، واصرف عنهم عذاب النار، ونجِّهم منها برحمتك. وفي الآية إكرام الله لعباده المؤمنين، حيث جعل الملائكة تستغفر لهم، وفضل التوبة، وأن سبيل الله واحد، وهو دينه الذي ارتضاه.

(٨) ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ربنا وأدخل عبادك المؤمنين جنات عدن التي وعدتهم بها في الدنيا على إيمانهم وعملهم الصالح، وأدخل معهم المؤمن الصالح من آبائهم وأزواجهم وأولادهم، إنك أنت العزيز الذي لا يرد قضاؤه القاهر لما سواه، والمنتقم ممن عاداه، الحكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه.

(٩) ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

واصرف عنهم سوء عاقبة ذنوبهم؛ فاعف عنهم ولا تعذبهم، ومن تصرف عنه عاقبة الذنوب فقد رحمته بالفوز بجناتك، ونيل رضوانك، والنجاة من نيرانك، وذلك هو الظفر بأجلِّ المطالب، ونيل أعلى المراتب.

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾

إن الكفار الفجار تناديهم خَزَنة النار حينما يمقتون أنفسهم على تركهم الإيمان لما أدركهم الخسران: لمقت الله لكم في الحياة الدنيا حينما عصيتم أمره وكذبتم أنبياءه أشد من لومكم لأنفسكم حينما أبصرتم العذاب وتيقنتم بعدل الله في عقابكم حينما دعيتم إلى توحيده فأبيتم ذلك.

(١١) ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾

قال الكفار: يا ربنا قد أمتنا مرتين: مرة يوم كنا أجنة في بطون الأمهات قبل نفخ الروح، والثانية يوم تمت أعمارنا في الحياة الدنيا، وأحييتنا مرتين: مرة في الحياة الدنيا يوم ولدتنا أمهاتنا، والثانية يوم بعثنا من القبور، فقد اعترفنا بذنوبنا، فهل لنا من حيلة نخرج بها من نار جهنم، ونعود إلى الدنيا فنؤمن بك ونتبع رسلك؟ ولكن هيهات فقد فات الأوان، فالزمان ليس زمان إيمان.

(١٢) ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾

ذلكم العقاب الذي حلَّ بكم - أيها الكفار - بسبب أنكم إذا نصحتم بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به كفرتم بذلك وأعرضتم عنه، وإذا أُشرك به معه غيره قبلتم ذلك وعملتم به، فالله - عز وجل - هو الحاكم بين العباد بالعدل لا

يظلم أحدًا، يهدي من أراد من العباد ويضل من أراد، ويرحم من شاء ويعذب من شاء، حكيم فيما قدَّر، محسن فيما فعل، له علو الذات والقدر والقهر، وله الكبرياء والجلال والعظمة.

١٣ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾

الله الذي يطلعكم - أيها البشر - على براهينه التي تدل على بديع صنعه وتمام قدرته في الآفاق وفي الأنفس، وينزل من الغمام ماءً مباركًا يكون سببًا للخضرة والإنبات والنماء والحياة بإذن الله، وما ينتفع بهذه البراهين ويتفكر فيها إلا كل عائد إلى الله بالطاعة، مخلص له العبادة، كثير التوبة.

١٤ ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

فاعبدوا الله - أيها الناس - وادعوه بإخلاص العبادة والمسألة له وحده ولا تشركوا معه غيره، ولو غضب من ذلك أعداؤه الكفار، فما عليكم منهم، بل اثبتوا على إخلاص العبادة لله.

١٥ ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾

الله - سبحانه - الذي علت درجاته من خلقه وعلا قدره، فله علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، وهو ذو العرش العظيم، الذي لا يقدر قدره إلا الله، وهو مستوٍ عليه استواءً يليق بجلاله، ومن لطفه - سبحانه - بالخلق أن يرسل الأنبياء إليهم، فيوحي إلى هؤلاء الأنبياء من الحكمة والعلم النافع والهدى ما هو بمنزلة الروح التي يحيا بها الإنسان، بل حياة النفس بالوحي والهدى أعظم من حياة الإنسان بروحه. وبهذا الوحي يخوِّف الرسل الناس يوم العرض الأكبر ويحذرونهم من كل ما يوجب لهم العذاب يوم القيامة، يوم يلتقي فيه السابق واللاحق.

١٦ ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

يوم يظهر الناس ويبدون أمام الله للحساب في عرصات القيامة، لا يغيب عن الله من الناس ولا من أعمالهم شيء، قد علمها واطلع عليها وأحصاها وسوف يحاسبهم عليها، يقول - عز وجل - يوم القيامة: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ فيجيب نفسه سبحانه يقول: المُلْك لله المستحق للعبودية وحده القهار الذي قهر ما سواه، وأعز من تولاه، وأذل من عاداه، واحد له صفات الألوهية، وقهار له صفات الربوبية.

١٧ ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يوم القيامة تثاب كل نفس بما فعلت في الدنيا من حسن وسيء، لا يُظلم عبد يوم الحساب بزيادة سيئاته أو نقص حسناته، إن الله سريع الحساب، فلن يتأخر عنكم يوم الحساب بل هو قريب فتهيَّؤوا له.

١٨ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

وخوِّف العباد - أيها الرسول - من يوم المعاد الذي اقترب ودنا، إذ قلوب الناس من هوله قد علت في صدورهم واقتربت من حلوقهم، وهم في همٍّ عميق وحزن شديد، وليس للكفار من قريب ينفع ولا ولي يشفع ولا نصير يدفع.

١٩ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾

يعلم الله تعالى ما تختلسه الأبصار من نظر، وما تضمره الصدور من سر، فحركات العين وخوافي الصدور معلومة لديه سبحانه.

٢٠ ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

والله - تعالى - يحكم بين العباد يوم المعاد بالعدل، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، والمعبودات من دون الله لا تنفع ولا تضر ولا تقضي شيئًا؛ لعجزها عن ذلك. إن الله السميع لكل الأصوات، البصير بكل الأفعال والنيات، سمع الأقوال وبصر بالأفعال.

(٢١) ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾

أولم يذهب الكفار في الديار فيشاهدوا آثار الفجار وماذا فعل الله بهم لما كفروا به وكذبوا رسله، كان السابقون من الكفار أشد بطشًا من هؤلاء الكفار وأعظم قوة في الأبدان والعتاد، وأبقى في الدنيا آثارًا من البناء والصناعات، فلم تدفع عنهم قوتهم عذاب الله، بل أهلكهم الله بخطاياهم من كفر وسيئات، ولم يكن لهم أحد يحميهم من عذاب الله ويدفعه عنهم.

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

ذلك العقاب الذي أنزله الله بأعدائه بسبب كفرهم وتكذيبهم للرسل بعدما أتوا بالبراهين على صحة نبوتهم والدعوة إلى توحيد الله تعالى، فنكَّل الله بهم ودمَّرهم، إن الله - تعالى - قوي يقهر من حاربه ويذل من غالبه، شديد العقوبة لمن عصاه، عظيم الأخذ لمن عاداه.

(٢٣) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾

ولقد أرسل الله موسى بالبراهين الدالة على وحدانيته، وجاء موسى بحجة واضحة ودليل ظاهر على صحة نبوته وعلى كذب دعوى فرعون وقومه.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾

أرسل الله موسى بالبراهين إلى فرعون طاغية مصر ووزيره هامان، وصاحب الكنوز قارون، فكفروا برسالة موسى وكذبوه وقالوا عنه: ساحر ذاهب العقل، كذاب في النقل، ومثل هذا لا يكون رسولاً للناس.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَٰلٖ﴾

فلما أتى موسى بالبراهين إلى فرعون وهامان وقارون كفروا وكذبوا بها وزادوا على ذلك بقتل الأبناء واستبقاء النساء للخدمة، وما مكر الكفار وتدبيرهم إلا في بُعد عن الحق وغياب عن الرشد، ومصيره هلاك أصحابه.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾

وقال فرعون لسادة قومه: اتركوني اقتل موسى وليسأل موسى ربه الذي ادعى أنه أرسله إلينا ليحميه منا، إني أخاف أن يغير موسى ديننا إلى دين آخر يدعو إليه، أو أن ينشر موسى الفساد في أرض مصر، وهذا من قلب الحقائق؛ فالمصلح أصبح مفسدًا والمفسد مصلحًا.

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾

وقال موسى لفرعون وقومه: إني أعوذ بالله ربي وربكم من كل متكبر جاحد معاند مكذب بالرسالة لا يصدق بيوم القيامة، ومن هذا شأنه فلن يردعه عن فعل ما أراد إلا رب العباد.

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن
يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾

وقال أحد المؤمنين بالله المصدقين لموسى في الباطن وهو من أسرة فرعون: كيف تريدون قتل رجل ليس له إثم إلا أنه يقول: ربي الله، وهو المستحق للعبادة، وقد أتى بالأدلة الصحيحة على صدق رسالته؟ وإن كان موسى كاذبًا فيما ادعاه فضرر كذبه يرجع عليه، وهو الذي يتحمل تبعة ذلك، وإن كان موسى صادقًا نالكم بعض ما توعدكم به إذا كذبتموه، إن الله لا يرشد إلى الهدى من تجاوز الحدود في الكفر والذنوب؛ لأنه آثر الغواية عن قصد وأراد الباطل عن عمد، ولا يَرْشدُ كذابٌ بسبب ما فعله من الكفر والذنوب إلى الله؛ لأن الكذاب موَّه على الناس فموَّه عليه الحق فلا يهتدي.

(٢٩) ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

يا قومي: لكم سلطان مصر في هذا الزمن، وأنتم سادة بني إسرائيل، فمن يحمينا من عقاب الله إن وقع بنا؟ قال فرعون رادًا عليه يخاطب قومه: ما أشير عليكم ولا أنصح لكم - أيها الناس - إلا ما أشير وأنصح به نفسي وما أدلكم إلا على النهج الصحيح والرأي السديد.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

وقال مؤمن آل فرعون مُذكِّرًا ومنذرًا: يا قومي، إني أخشى عليكم يومًا أسود يحل بكم فيه العذاب إن قتلتم موسى، مثلما حلَّ بالأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسلهم.

(٣١) ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾

مثل عادة وطريقة قوم نوح وعاد وثمود ومن أتى بعدهم من القرون في الكفر والتكذيب فعذبهم الله بذنوبهم غير ظالم لهم، والله يعذب عدلاً ويرحم فضلاً، وتعالى الله عن ظلم العباد، بل يعاقب على الكفر والفساد.

(٣٢) ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾

ويا قومي: إني أخاف عليكم العذاب الذي يحل بكم إن كفرتم يوم ينادي البشر بعضهم بعضًا مما حلَّ بهم من الخطر؛ وهو يوم القيامة.

(٣٣) ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾

يوم القيامة تهربون ولا مهرب لكم من هول الموقف، وليس لكم من يدفع عنكم العذاب ولا من ينصركم إذا وقع العقاب، ومن يصرفه الله عن الهداية ولا يوفقه للصواب فلن تجد أحدًا يستطيع هدايته من الناس.

(٣٤) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾

ولقد أتاكم يوسف نبيًا رسولاً من عند الله بالبراهين الباهرة الواضحة على صحة رسالته، يدعوكم إلى توحيد الله وطاعته، فما زلتم في حيرة وريبة من رسالته في حياته، فلما توفاه الله تعاظمت حيرتكم وريبتكم، وقلتم: لن يرسل الله إلى الناس بعد وفاة يوسف رسولاً. مثل هذه الغواية التي أنتم فيها يكتبها الله ويقدرها على كل متجاوز للحدود، وشاكٍّ في ألوهية الله، فهو متكبر على الحق، شاكٌّ في الصدق؛ فكيف يوفق للصواب؟!

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾

الذين يخاصمون بالباطل ويردون البراهين التي أرسل الله بها رسله بالهوى وليس عندهم علم ولا دليل على ما ذهبوا إليه، عظمت هذه المخاصمة عند الله لقبحها، وعظمت عند المؤمنين، ومثلما ختم الله على قلوب من جادل بالباطل من الأمم السابقة يختم على قلب كل مستكبر معاند جاحد ظالم مستبد، فلكبره ردّ الحق، ولجبروته عمل بالباطل ودعا إليه.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾

وقال فرعون متحديًا ومهددًا موسى بعد ما كذبه وردّ ما جاء به: يا هامان، ارفع لي بناءً طويلاً شاهقًا لأصعد عليه وأصل إلى أبواب السموات.

(٣٧) ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾

فإذا صعدت ووصلت إلى أبواب السموات نظرت إلى إله موسى بنفسي، لأعلم صدق موسى من كذبه، مع غلبة ظني قبل الصعود والنظر أن موسى كاذبٌ فيما ادعاه من الرسالة، وهكذا حُسِّن لفرعون القبيح من فعله فرآه حسنًا،

وصرف عن الهدى بسبب الباطل الذي حسن له، وما مكر فرعون وتدبيره واحتياله لرد رسالة موسى إلا في خسار وبوار وهلاك ودمار؛ لأن سوء مكره يحيق به وبقومه.

(٣٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

وقال مؤمن آل فرعون يعيد دعوته وموعظته: يا قومي، اتبعوني فيما أدعوكم إليه من الحق أدلكم على طريق الهدى وأجنبكم طريق الردى.

(٣٩) ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾

يا قومي: إن هذه الحياة الدنيا قصيرة زائلة، أيام التنعم واللذة فيها قليلة منصرمة، فلا تغتروا بها ولا تثقوا بالبقاء فيها، وإن الدار الآخرة لمن آمن وأصلح هي دار النعيم المقيم، والسرور الدائم، والحياة الآمنة الرضية الأبدية؛ فقدموا العمل للآخرة من الإيمان بالله وحسن عباداته على العمل للدنيا والاغترار بها.

(٤٠) ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

من فعل ذنبًا في حياته جازاه الله بمثل ذنبه من العقوبة، ومن فعل خيرًا من طاعة الله وأعمال البر وترك المعاصي رجالاً أو نساء مع توحيد الله والإخلاص له فلهم جنات النعيم، يدخلونها خالدين فيها، يرزقهم الله فيها مما لذَّ وطاب من الطعام والشراب، ونساء أتراب، وحُليٍّ وثياب بغير حساب.

(٤١) ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾

ويا قومي: كيف أدعوكم إلى توحيد الله واتباع رسوله موسى عليه السلام - وهو ما سوف ينجيكم من عذاب الله ويحقق لكم الفوز بجنات النعيم - وأنتم تدعونني إلى الكفر بالله وتكذيب موسى، وهو ما يوصل إلى الخلود في نار جهنم؟!

(٤٢) ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾

تدعونني للكفر بالله والإشراك به والإعراض عن طاعته وليس لي علم بأن ما دون الله يستحق العبادة، وأنا أدعوكم لعبادة الله العزيز في ملكه وأمره، القوي في انتقامه، الغفار لذنوب من تاب وأناب، فهو عزيز يعز من والاه، غفور لمن تاب إليه ودعاه.

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

لا أشك أن الذي تدعونني لعبادته من دون الله لا يستحق أن يُدعى إلى عبادته ولا يُسأل من دون الله، ولا يلجأ إليه لا في حوائج الدنيا ولا في مسائل الآخرة، وأن مرجع الناس جميعًا إلى الله ليحاسبهم على ما فعلوه، وأن من تجاوز حدود الله وكفر به وسفك الدماء وظلم الناس فمصيره إلى نار جهنم.

(٤٤) ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾

فلما وعظهم وأنذرهم ويئس من استجابتهم أخبرهم أنهم سوف يندمون حين لا ينفع الندم بعد زلة القدم، وسوف يعتمد هو على ربه ويتوكل على مولاه ويلجأ إلى خالقه؛ لأن الله عالم بأعمال وأقوال الناس، لا تخفى عليه منهم خافية، ولا يغيب عليه من عملهم شيء.

(٤٥) ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾

فحمى الله مؤمن آل فرعون من انتقام الكفار وعاقبة مكرهم؛ لأنه توكل على الله وحده، وحل بالكفار سوء العذاب في هذه الدار، ثم بالخلود في النار.

(٤٦) ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾

فأغرق قوم فرعون في الدنيا وعذبوا في الآخرة بنار جهنم، يعرضون عليها صباح مساء - وهذا دليل على عذاب القبر - ويوم القيامة يدخل آل فرعون نار جهنم خالدين فيها؛ جزاء على كفرهم وتكذيبهم.

(٤٧) ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

وإذ تقع الخصومة بين الكفار في النار، فيقول الأتباع والرعاع المقلدون للكبراء والسادة: إنا تبعناكم وقلدناكم في معتقدنا في الحياة الدنيا فهل تتحملون عنا نصيبًا من عذاب النار لأنكم كنتم السبب في ضلالنا وكفرنا؟!

(٤٨) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾

قال الكبراء والسادة للأتباع: لا نستطيع تحمل شيء من العذاب عنكم، فكلنا في النار لا مخرج لنا منها، إن الله قد قضى بين الناس، فأعطى كلاً ما يستحقه من العذاب والثواب بعدل لا ظلم فيه.

(٤٩) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

وقال الكفار الذين في النار من السادة والأتباع لخزنة النار: ادعوا الله أن يخفف عنا من عذاب النار يومًا واحدًا لكي نستريح ولو وقتًا قصيرًا من العذاب.

(٥٠) ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾

فردّ خزنة النار على الكفار بقولهم: لن يخفف عنكم العذاب، أما جاءتكم الرسل من عند الله بالبراهين الدالة على وحدانية الله وصدق الأنبياء فكفرتم وكذبتم، فأقر الكفار بأنهم كذبوا بآيات الواحد القهار، فقال الخزنة: فلن ندعو لكم ولن نشفع فيكم، فادعوا أنتم، ودعاؤكم لا ينفعكم ولن يستجاب لكم؛ لأن دعاء الكفار لا ينفعهم ولا يستجيب الله لهم؛ بل هو ضياع وهباء.

(٥١) ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

إن الله ينصر رسله وعباده المؤمنين، ويجعل العاقبة لهم على من حاربهم في حياتهم الدنيا، ويوم القيامة الذي تشهد فيه الملائكة والرسل والصالحون بين عباد الله على الأمم الكافرة فتشهد أن الأنبياء بلغوا وأن الكفار كذبوا.

(٥٢) ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

يوم القيامة لا تنفع الكفار الأعذار وهم مطرودون من رحمة العزيز الغفار، ولهم أقبح قرار في تلك الدار، وهو الخلود في النار.

(٥٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

ولقد أنزل الله التوراة على موسى فيها رشد وبيان وأحكام تدل على الخير والهدى، وجعل الله بني إسرائيل يتوارثون التوراة جيلاً بعد جيل.

(٥٤) ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

والتوراة مرشدة إلى الصراط المستقيم قبل أن تحرَّف وتنسخ بشريعة محمد ﷺ، وفيها عبرة وعظة وتذكير لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة.

(٥٥) ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

فاصبر - أيها الرسول - على تكذيب الكفار وأذى الفجار، فإن الله وعدك بالنصر والتمكين والرفعة، وهو - سبحانه - لا يخلف ما وعد، بل ينجزه لك وقد حصل هذا، وعليك بالاستغفار من الذنوب، فبالاستغفار تنال رضى الواحد القهار وتنجو من الأخطار، ونزِّه ربك ومجده بالتسبيح الذي تنتفي فيه النقص عن الله المقرون بالحمد الذي هو إثبات الكمال له - سبحانه - في كل مساء وكل صباح.

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

إن الذين يخاصمون في البراهين الدالة على وحدانية الله وعظمته، ويخلطون الحق بالباطل وليس عندهم دليل صحيح على ما خالفوا فيه وعلى صدق دعواهم، هؤلاء حملهم على ذلك الكبر والعناد والعجب الذي انطوت عليه

صدورهم، وهم يحسدونك على ما عندك من الفضل الذي منحك الله إياه، ولن يبلغوا هذا الفضل ولن يصلوا إلى الإضرار بك فالله حاميك، فالجأ إلى الله واطلب منه الحماية من أذاهم، فإنه يسمع أقوالهم ويبصر أحوالهم وأفعالهم، وهو محيط بهم.

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

لخلق الله للسموات والأرض أعظم وأكبر من خلقه - سبحانه - للناس وإحيائهم بعد الموت، فلماذا يشكون في قدرة الله على بعث الناس من القبور؟ وأكثر الناس لا يعلمون حقيقة أن الخلق سهل يسير على الله، وأن خلق السموات والأرض أعظم من خلق البشر.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾

وما يستوي الأعمى والبصير في تمام الرؤية وتمييز الأشياء، كذلك لا يستوي المؤمنون الصالحون ولا الكفار المعاندون، ما أقل تذكركم - أيها الناس - براهين الله وتدبرها والانتفاع بها والفقه فيها.

(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

إن يوم القيامة واقع لا محالة، فاعملوا له بإخلاص العبادة لله والتزود بالصالحات، ولكن أكثر البشر لا يصدقون بيوم القيامة ولا يعملون له، بل هم في غفلة وإعراض.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

وقال ربكم - أيها الناس -: ادعوني دون سواي، وأخلصوا العبادة لي أستجب لكم، فأقضي حاجاتكم وأكشف كرباتكم، إن المتكبرين عن العبودية لله وإفراده بالألوهية سيدخلون نار جهنم أذلاء خائبين.

(٦١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

الله وحده - سبحانه - هو الذي خلق لكم الليل تسكنون فيه وتنامون وتستريحون من أعمالكم، وخلق لكم النهار مضيئًا بالشمس لتطلبوا فيه رزقكم وتؤدّوا فيه أعمالكم، إن الله لذو إنعام كبير على العباد، ولكن أكثر البشر لا يشكرون الله بإخلاص العبادة له وإفراده بالطاعة.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

الله وحده الذي تفضل عليكم بهذه النعم، إنما هو ربكم الخالق الرازق الذي أوجد كل شيء من العدم، لا معبود بحق سواه ولا شريك له فكيف تنحرفون عن توحيده إلى الإشراك به وعبادة ما سواه، جل في علاه ولا رب لكم غيره.

(٦٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

كما انحرفتم وأعرضتم عن عبادة الله وتوحيده ينحرف عن ذلك كل جاحد معاند لا يقبل الدليل ولا يتبع الحق.

(٦٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

الله وحده - سبحانه - هو الذي خلق لكم - أيها الناس - الأرض ومهّدها وسواها لكم لتستقروا على ظهرها، وسهّل لكم العيش عليها، وخلق السماء فوق الأرض سقفًا لها، وخلق لكم في السماء علامات هي نعَم لكم كالشمس والقمر والنجوم والسحاب، وخلقكم - أيها الناس - على أجمل صورة وأتم هيئة، وتفضل عليكم بما لذّ وطاب من الطعام والشراب والمراكب الوطية والرزق الهنيء كافة، مع مباهج الحياة ولذائذ المعيشة، والذي أنعم عليكم بذلك هو الله وحده جل في علاه، فتكاثر برّه، وعمّ فضله، واتسع جوده، وتقدس عن كل وصف لا يليق به، وهو رب الخليقة كلها وخالق العالم بأسره.

٦٥ ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

هو الله الحي حياة كاملة تامة لا تشابه حياة المخلوق الناقصة المنتهية، فهو المستحق للعبادة وحده دون سواه، فاعبدوه واسألوه وأخلصوا له الطاعة ولا تشركوا به شيئًا، فالحمد الجزيل والثناء الجميل والشكر الجليل لله خالق الكون وما فيه.

٦٦ ﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: إن الله نهاني عن عبادة ما تعبدونه من دونه من أوثان، وأوصاني لما أتتني البراهين الواضحة الصحيحة على وحدانية الله، وأمرني ربي أن أطيع أمره وأنقاد لحكمه، وأذعن له وحده، خالق الخليقة ورب الكون كله.

٦٧ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

الله وحده الذي أوجد أباكم آدم وأنشأه - أيها البشر - من تراب، ثم خلقكم أنتم متناسلين من ماء مهين، وبعد ذلك إلى دم غليظ، ثم قطعة لحم، ثم يولد الواحد من بطن أمه طفلاً صغيرًا، ثم يصل الواحد منكم إلى مرحلة اكتمال نموه وقوة جسمه، ثم يذوي إلى أن يصبح شيخًا كبيرًا هرمًا إذا طال عمره، وبعضكم يموت قبل ذلك، ولتصلوا بما قدره الله لكم من أعمال إلى وقت معلوم تموتون فيه، ولعلكم تتدبرون براهين الله وعجيب خلقه ونفاذ قدرته، وتتفكرون في بديع صنعه فتوحدوه وتخلصوا له العبادة.

٦٨ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

هو - سبحانه - الذي يوجد الخلق من العدم ويتوفاهم ثم يبعثهم بعد موتهم، فإذا أراد قضاء أمر قضاه بكلمة «كن» فيكون، هذا الأمر بإذن الله.

٦٩ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾

ألا تعجب - أيها الرسول - من الكفار الذين يخاصمون في براهين الله الصادقة الصحيحة، وهي يقينية على وحدانية الله، كيف ينحرفون عن الإيمان بها مع صحتها وصدقها، وكيف يضلون بعد إقامة الحجة البينة.

٧٠ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

هؤلاء الكفار الذين كذبوا بالقرآن وبكتب الله المنزلة على رسله، سوف تظهر لهم نتيجة كفرهم إذا أنزل الله بهم أشد العقوبة على تكذيبهم يوم القيامة.

٧١ ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴾

يوم توضع الأغلال في أعناق الكفار وتوضع السلاسل في أرجلهم.

٧٢ ﴿ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴾

وتجرّ الزبانية الكفار في الماء الحار شديد الحر والغليان، ثم يحرقون في نار جهنم الموقدة.

٧٣ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾

ثم قيل للكفار في النار - تبكيتًا -: أين معبوداتكم المزعومة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟

٧٤ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

هل تنصركم هذه المعبودات من دون الله؟ وهل تدفع عنكم اليوم عذاب الله؟ قال الكفار: إن هذه المعبودات غابت اليوم عن عيوننا وخذلتنا ولم تنفعنا بشيء، ويقرون بخطئهم وجرمهم في عبادة غير الله وفي الإشراك به، وأنهم كانوا على سفه وباطل، كما أضل الله هؤلاء الكفار بعبادة غيره مما لا ينفع ولا يضر يضل الله كل جاحد معاند يرد الحق ويكذب بالصدق.

(٧٥) ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾

ذلكم العقاب الذي حلَّ بكم - أيها الكفار - بسبب غفلتكم عن طاعة ربكم وفرحكم بمعاصيكم وشهواتكم ومظاهر دنياكم الخدّاعة وما كنتم عليه من الأشر والبطر والكبر والعلو.

(٧٦) ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

ويقال للكفار: ادخلوا أبواب النار باقين فيها أبدًا معذبين فيها دائمًا، فقبحت جهنم مقامًا لكل متكبر معاند، وساءت وساء أهلها.

(٧٧) ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

فاصبر - أيها الرسول - على أعباء الدعوة، واصبر على كل أذىً ينالك في سبيل الله، واثبت على نهجك، إن الله وعدك بالنصر والتمكين، وسوف ينجز لك ما وعد، فإما أن ترى في حياتك بعض ما وعد الله به الكفار من العذاب والنكال، أو تموت قبل أن تحل بهم العقوبة، فمعاد الكفار إلى الله يوم القيامة، وسوف يعذبهم على ما فعلوا من كفر وتكذيب، فإنما عليك الدعوة والصبر والثبات.

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك - أيها النبي - إلى أقوامهم، بعضهم أخبرك الله عنه، وبعضهم لم يخبرك عنه، وجميعهم بلَّغ رسالة الله إلى قومه، ولا يستطيع أحد من الرسل أن يأتي قومه بمعجزة أو آية شرعية أو كونية إلا بمشيئة الله وحده، فإذا حان نزول العذاب بالكفار، حكم الله بالعدل بين الرسل ومن كذَّبهم، وهلك المكذبون المفترون على الله وحل بهم العقاب لسوء فعلهم.

(٧٩) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

الله وحده هو الذي خلق لكم الأنعام - أيها الناس - وجعل لكم فيها منافع؛ منها ركوب ظهور بعضها وأكل لحوم بعضها، وهذه نعَمٌ يجب شكر الله عليها.

(٨٠) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

ولكم منافع كثيرة في الأنعام، كالانتفاع بالجلود والشعر والوبر والصوف، ولتحققوا على بعضها أغراضًا في صدوركم مثل السفر إلى الديار البعيدة، وعلى هذه الأنعام تحملون أمتعتكم في البر، وعلى الفلك تحملونها في البحر.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾

ويريكم الله البراهين الدالة على وحدانيته وعظمته وحسن صنعه، فما هو البرهان الذي تنكرونه وقد خفي عليكم ولم تعرفوه؟ فالكل واضح بيِّن.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

أفلم يذهب الكفار في الأقطار فيتفكروا في آثار الفجار الذين أهلكهم الواحد القهار، وكان أولئك المكذبون السابقون أكثر من هؤلاء الكفار عدة وعددًا وبأسًا وآثارًا في البناء والصناعة والزراعة ونحوها، فما دفع عنهم عذابَ الله ما عندهم من القوة والآلات والمواهب، بل أهلكهم الله وقطع دابرهم.

(٨٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فلما أتت الرسل هؤلاء الكفار بالبراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته، فرح هؤلاء الكفار بما عندهم من العلم المعارض لبراهين الرسل؛ جهلاً منهم وغرورًا، ونزل بهم من عقوبة الله ومن بأسه ما كانوا يستحقونه على سخريتهم من الرسل واستهزائهم بآيات الله، وفي هذا دليل على أن كل علم يناقض ما جاء به الرسول ﷺ هو علم ضار مذموم.

(٨٤) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾

فلما شاهد الكفار عقاب الواحد القهار أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار، وقالوا: آمنا بالله العزيز الغفار، وكفرنا بكل معبود سواه من الأشجار والأحجار.

(٨٥) ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

فلم ينفع الكفار هذا الإيمان بعد فوات الأوان حين شاهدوا الخزي والهوان، وهذه سنة الله وطريقته في كل زمان ومكان: أن العذاب إذا نزل بالكفار فلا ينفعهم إيمانهم بعد نزوله؛ لأنه إيمان اضطرار لا اختيار، وهلك عند حلول نقمة الله أعداؤه من الجاحدين المعاندين.

مكية

ترتيبها
٤١

سورة فصلت

آياتها
٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

(٢) ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

هذا الكتاب الحكيم هو وحي من الله أنزله على رسوله الكريم، ومُنَزِّله هو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، الرحيم الذي اختص برحمته من شاء من عباده.

(٣) ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

هذا القرآن كتاب بُيِّنت آياته ووُضِّحت أحكامه وظهرت معجزاته، أنزله الله بلغة العرب أفصح اللغات؛ ليكون مفهومًا سهلاً واضحًا عند تلاوته وسماعه.

(٤) ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

هذا القرآن يبشر المؤمنين بالثواب، وينذر الكفار بالعقاب، فأعرض أكثر الناس عن القرآن وهجروه، فهم لا يسمعونه سماع فهم وقبول واستجابة.

(٥) ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾

وقال الكفار للرسول ﷺ: إن قلوبنا أصبحت في حجب وأغطية من فهم ما جئت به من رسالة، وفي أسماعنا صمم فلا نسمع ما تقول، وأصبح بيننا وبينك حجاب يسترنا عن اتباعك وإجابتك، فاعمل أنت على ملتك وما جئت به، واتركنا نعمل على ملتنا ودين آبائنا.

(٦) ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: إنما أنا إنسان مثلكم ولستُ ملكًا، ولكن الله أنزل علي وحيًا جعلني نبيًا، وأنا أدعوكم إلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فاسلكوا الصراط المستقيم الموصل إلى الله وهو التوحيد الذي دعت إليه الرسل، واستغفروا الله من ذنوبكم. وهلاك للكفار الذين أشركوا بالله غيره.

(٧) ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾

هؤلاء الكفار تركوا الصلاة والزكاة فلم يعبدوا الخالق ولم ينفعوا الخلق، وقد كذبوا بالبعث بعد الموت.

(٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾

إن المؤمنين الصالحين لهم ثواب عظيم ونعيم مقيم لا ينقطع عنهم ولا يمنع منهم.

(٩) ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار منكرًا عليهم: أإنكم لتكفرون بالله وقد خلق الأرض في مدة يومين وتشركون بالله غيره من المعبودات الباطلة، والله وحده هو خالق الكون ومن فيه وما فيه، تقدست أسماؤه؟!

(١٠) ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾

وجعل الله - تعالى - في الأرض جبالًا راسية ثابتة على سطح الأرض تمسكها لئلا تضطرب، وبارك في الأرض بسائر أنواع الخيرات والثمار والأرزاق، وقدر الله في الأرض أقوات المخلوقات من غذاء وماء وكساء وهواء ودواء في مدة أربعة أيام: يومان لخلق الأرض، ويومان لخلق الجبال وتقدير الأقوات، وهذا جواب لكل سائل عن ذلك، فمن سأل فهذا جواب سؤاله ليكون على علم.

(١١) ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾

ثم استوى - عز وجل - أي: قصد إلى السماء وكانت من قبل دخانًا، فقال - سبحانه - للسماء وللأرض: انقادا لأمري مختارتين أو مجبرتين، قالتا: بل ننقاد لأمرك طائعتين ذليلتين، فليس لنا قوة على مخالفة أمرك ولا إرادة تخالف إرادتك. فيا سبحان الله، هذه السماء والأرض أطاعتا وأذعنتا مع الضخامة والقوة، فكيف لا يذعن الإنسان مع الضعف والعجز.

(١٢) ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾

فقضى الله خلق السموات السبع وأتمهن وأحكم صنعهن في يومين، فصار مدة خلق السموات والأرض ستة أيام، والله قدير أن يخلقها في طرفة عين بكلمة «كن»، وأوحى في كل سماء ما شاء أن يوحيه ويأمر به - سبحانه -، وزيّن الله السماء الدنيا بالنجوم اللامعة، زينة لها، ولتحفظها من الشياطين التي تسترق السمع؛ ذلك الخلق المتقن المحكم قدره العزيز في ملكه، المعز من أطاعه والمنتقم ممن عصاه، العليم الذي لا تخفى عليه خافية، فهو قوي بعزه وعليم بحكمه.

(١٣) ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾

فإن كذب الكفار بعد بيان الحق لهم، فأنذرهم - أيها الرسول - بعقاب هائل يدمرهم مثلما أهلك الله قوم عاد وثمود لما كذبوا الرسل وكفروا بالله.

(١٤) ﴿ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

يوم أتت الرسل إلى عاد وثمود يتبع بعضهم بعضًا بلا انقطاع، يدعونهم إلى توحيد الله وطاعته، قال المكذبون للرسل: لو أراد الله أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا لأنزل علينا من السماء ملائكة يدعوننا إلى توحيده، ولم يرسل إلينا بشرًا مثلنا، فإنا مكذبون بما تدعوننا إليه ولا نصدقكم فيما تقولون.

(١٥) ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾

فأما عاد قوم هود فقد تكبروا على الناس وعلوا في الأرض بالباطل، وقالوا في عتو وعناد: لا أحد أقوى منا، أو لم يعلم هؤلاء الجهلاء أن الله الذي أوجدهم من العدم أشد منهم بطشًا وأعظم منهم بأسًا، وكانوا ينكرون براهين الله، ويردون أدلة وحدانيته.

(١٦) ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾

فأرسل الله على عاد ريحًا قوية عاصفة لها صوت مرتفع في أيام شؤم ونكال؛ ليذوقوا عذاب الهوان والذل والخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة عند الله في نار جهنم أشد هوانًا وذلاً وخزيًا، ولا ناصر لهم يدفع عنهم عذاب الله.

(١٧) ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

وأما ثمود قوم صالح فقد وضح الله لهم الصراط المستقيم، ودلّهم على النهج القويم، فاختاروا الغواية على الهداية، فدمَّرتهم صاعقة العذاب المهين المخزي؛ بسبب أعمالهم القبيحة من كفر وذنوب.

(١٨) ﴿ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾

ونجى الله من العذاب الذي حل بعاد وثمود من كان مؤمنًا به متبعًا لرسله ممن يخافه ويتقيه ويطيعه سبحانه.

(١٩) ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾

ويوم القيامة يُساق الكفار إلى النار، ترد الزبانية الكفار أولهم على آخرهم.

(٢٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

حتى إذا أتى الكفار النار، وجحدوا ما فعلوه من سوء، شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما فعلوه.

(٢١) ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

وقال الكفار لجلودهم لـمَّا شهدت عليهم: لماذا شهدتم علينا بما فعلنا من ذنوب؟ قالوا: الله الذي أنطقنا هو الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة، ولم تكونوا شيئًا، وإليه تعودون بعد الموت للحساب.

(٢٢) ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

وما كنتم تستخفون عند اقترافكم الذنوب خوفًا من أن يشهد عليكم السمع والبصر والجلود يوم الحساب، ولكن ظننتم أن الله لا يخفى عليه كثير من عملكم القبيح.

(٢٣) ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

وذلكم الظن السيء الذي ظننتموه بالله من عدم علمه بكثير من أعمالكم هو الذي أهلككم، فأصبحتم يوم القيامة ممن خسر نفسه وأهله.

(٢٤) ﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾

فإن يصبر الكفار على العذاب فالنار مأواهم ومستقرهم، ولا صبر عليها، وإن يطلبوا الرجوع إلى الدنيا للتوبة فلن يجابوا إلى ذلك ولن تقبل لهم توبة أو عذر.

(٢٥) ﴿ ۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

وهيأ الله للكفار قرناء غاوين من شياطين الإنس والجن فحسّنوا لهم قبائح ذنوبهم في الدنيا، وأوقعوهم في المحرمات والشهوات وصدوهم عن الطاعات، وحسنّوا لهم ما خلفهم من مسائل الآخرة، فأنسوهم ذكرها وحملوهم على الكفر بالبعث بعد الموت والحساب، وأوجب الله على هؤلاء الكفار دخول النار بسبب كفرهم ومعاصيهم مع أمم سابقة من كفار الجن والإنس، إن هؤلاء الكفار خسروا أنفسهم وأهليهم وأعمالهم يوم المعاد.

(٢٦) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾

وقال الكفار يوصي بعضهم بعضًا: لا تسمعوا لهذا القرآن ولا تتبعوه ولا تقبلوه، وإذا قُرئ عليكم فارفعوا أصواتكم بالصياح والصفير على محمد لعلكم تغلبونه فلا يقرأ القرآن، وتنتصرون عليه بإسكاته ومنعه من التلاوة والدعوة.

٢٧ ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

فسوف يذيق الله الكفار على قبيح ما فعلوه عذابًا شديدًا في الدنيا بالقتل والأسر والنكبات، وفي الآخرة بدخول النار، وسوف يعاقبهم أسوأ عقاب على سوء ما اقترفوه .

٢٨ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

هذا العقاب الذي يعاقب به الكفار هو نار جهنم باقين فيها أبدًا، عقابًا على تكذيبهم بآيات الله وإنكارهم البراهين الشرعية، وكل من سعى في صرف الناس عن الكتاب والسنة بأيِّ وسيلة دخل في هذا الوعيد.

٢٩ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

وقال الكفار في النار: ربنا أرنا اللذين أضلانا من شياطين الجن والإنس لنجعلهم تحت أقدامنا في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم كانوا سببًا في إغوائنا.

٣٠ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

إن الذين قالوا: ربنا الله فوحّدوه وأخلصوا له العبادة ولم يشركوا به شيئًا ثم استقاموا على دينه بفعل الأوامر واجتناب النواهي وحسن متابعة الرسول ﷺ، هؤلاء الأبرار تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند سكرات الموت، يقولون لهم: أبشروا بما يسركم عند ربكم، فلا تخافوا من الموت وما وراء الموت من أهوال، ولا تحزنوا على ما تركتموه في الدنيا من أموال وأولاد، وأبشروا بالخلود في الجنة بلا انتقال ولا زوال، مثلما وعدكم رب العزة والجلال.

٣١ ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾

وتقول الملائكة للمؤمنين: نحن أنصاركم وأحبابكم في حياتكم الدنيا فنحفظكم بأمر الله من كل مكروه، ونحن معكم في الآخرة فنطمئنكم من كل مخوف، ولكم في جنات النعيم كل ما تهواه أنفسكم وتقر به عيونكم، فكلما سألتم أُجِبْتُم فوجدتم كل مطلوب محبوب بين أيديكم حاضرًا بلا عناء بل بالهناء والشفاء.

٣٢ ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

وهذا النعيم ضيافة من الغفور للذنوب الرحيم بالعباد، فهو الذي غفر لكم السيئات وقَبِلَ منكم برحمته الطاعات.

٣٣ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

لا أحد في العالم أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وعمل الصالحات ودعا إلى سنة رسوله الكريم ﷺ وقال: إنني من المسلمين الخاضعين الطائعين المنقادين لحكم الله وشرعه. وفي الآية فضل الدعوة إلى الله - سبحانه -، وأنها أشرف مقامات العبودية، وأن العلماء بالله الداعين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هم من خيار الناس وأفضل الأمة وأحب العباد إلى الله تعالى، وكفى الدعاة شرفًا هذه التزكية والثناء من رب الأرض والسماء.

٣٤ ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

ولا تستوي حسنة الأبرار وسيئة الأشرار، وكذلك لا يستوي العمل الصالح والعمل الفاسد، ولا تستوي الحسنة مع الناس من البر والعفو والحلم ولا السيئة معهم من الأذى والإضرار بهم، ادفع بحلمك - أيها المؤمن - سيئة من أساء إليك من الناس، وقابل القبيح بالجميل، والإساءة بالإحسان، حينها يتحول عدوك إلى صديق محب موال كأنه قريب شفيق عليك.

٣٥ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

وما يمتثل هذا الخلق ويوفق لهذا العمل من العفو والحلم والإحسان إلى من أساء إليه إلا من صبر على ما يكرهه، وحبس النفس عن التشفي والانتقام، وقوَّمها على شرع الله وعملت بما يرضي الله ويوافق كتابه وسنة رسوله ﷺ، وما يقوم بذلك ويوفق له إلا من هو ذو نصيب كبير من السعادة والرشد والسداد، فهو الموفق المبارك أينما كان.

٣٦ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

وإما يوسوس لك الشيطان بوسوسة من دواعي السوء وقبيح الفعل وأذية الناس، ومجازاة المسيء بالإساءة، فاستجر بالله من الشيطان والتجئ إلى ربك بطاعته وترك معاصيه، واعتصم بذكر الله، فإن الله سميع لكل قول وصوت، عليم بكل فعل وحال، فلسمعه وعلمه يجيب من سأله، ويعيذ من استعاذ به.

٣٧ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

ومن براهين الله في الكون الدالة على وحدانيته وقدرته، اختلاف الليل والنهار، ومجيء هذا وذهاب ذاك، واختلاف الشمس والقمر وجريانهما بتوقيت وحكمة، وتسخير من الله تعالى، فلا تسجدوا - أيها العباد - للشمس ولا للقمر فإنهما مخلوقان مدبران، بل اسجدوا لله واعبدوه الذي أوجد هذه المخلوقات وأبدعها إن كنتم تعبدونه حق عبادته وحده لا شريك له، فهذه عبادته.

٣٨ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾

فإن تكبر الكفار عن السجود للواحد القهار، فإن الملائكة الأبرار يسبحون له بالليل والنهار، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملّون، فالواجب على العبد أن يفعل فعل الملائكة في الاستمرار على الأذكار.

٣٩ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

ومن البراهين الدالة على وحدانيته وعظمته جل في علاه أنك - أيها الإنسان - تشاهد الأرض المجدبة اليابسة لا خضرة فيها، فإن أنزل الله عليها الماء من السماء أنبتت بإذن الله وتحركت بالاخضرار والأزهار والأشجار، وارتفع فيها العشب والنبات وعلا، إن الله الذي أحياها قادر على إعادة الخلق بعد إماتتهم وبعثهم من قبورهم؛ لأنه قادر على كل شيء لا يعجزه - سبحانه - أمر.

٤٠ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

إن الذين يجحدون آيات الله ويميلون عن الإيمان، ويكفرون بالرحمن ويكذبون القرآن لا يخفون على الواحد الديان، بل هو عالم بعملهم، مطلع على أفعالهم، فهل هذا المكذب الجاحد الذي يُطرح في النار على وجهه، أفضل أم المؤمن المصدق الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله داخلاً رحمته مستقرًا في جنته؟ اعملوا - أيها الكفار - الجاحدون ما أردتم من أعمال فإن الله عالم بعملكم مطلع عليه، لا تغيب عنه غائبة وسوف يجازيكم بفعلكم.

٤١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾

إن الذين كذبوا بآيات القرآن وأنكروه ولم يؤمنوا به معذبون هالكون، وإن القرآن عزيز المحل شريف الموضع عالي المكانة، محفوظ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بحفظ الله له.

٤٢ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

لا يصل الباطل إلى القرآن من أيّ ناحية من نواحيه لا في براهينه ولا أحكامه ولا مواعظه ولا قصصه ولا أمثاله، ولا يحرَّف ولا يبدل، نزله الله على رسوله ﷺ، والله هو الحكيم في خلقه وصنعه، الحميد في صفاته وأفعاله، المحمود على نعمه وأفضاله.

٤٣ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾

ما يقول لك هؤلاء الكفار - أيها الرسول - إلا مثلما قال من سبقهم من الكفار لرسلهم من التكذيب والاستهزاء، فاصبر على أذاهم واصبر على مشقة التبليغ، إن ربك لكثير الغفران لمن تاب من العصيان، وذو عقاب شديد لمن أصر على الكفر والتكذيب.

(٤٤) ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

ولو أنزل الله هذا القرآن على رسوله ﷺ بلغة أعجمية لقال الكفار: لماذا لم تبيّن لنا آيات القرآن بلغة عربية، كيف يكون القرآن أعجميًا والرسول عربي؟ قل - أيها الرسول - للكفار: هذا القرآن هداية للمؤمنين به من الضلالة، وشفاء لما في صدورهم من الشك والقلق والشبهات، والمكذبون بالقرآن في أسماعهم صمم عن فهم القرآن، والقرآن على قلوبهم عمىً؛ لأنهم كلما سمعوا كذبوا فزاد ضلالهم، أولئك الكفار عندما يُدعَونَ إلى لإيمان كمن ينادى من مكان بعيد، فلا يسمع داعيًا، ولا يجيب مناديًا.

(٤٥) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

ولقد أعطى الله موسى التوراة كما أعطى محمدًا القرآن، فاختلف بنو إسرائيل في التوراة، فمنهم من صدق ومنهم من كذّب، ولولا أن الله كتب وقضى بتأجيل عذاب الكفار لحكم بينهم - سبحانه - بإهلاك الكفار في الحال ولم يمهلهم، وإن الكفار لفي شك وحيرة وريبة من القرآن؛ لما خالط قلوبهم من التكذيب.

(٤٦) ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

من اتقى الله وعمل صالحًا وهو مخلص متبع سنة رسول الله ﷺ فنفع ذلك وأجره عائد إليه، ومن عصى الله ورسوله فضرر ذلك وعقابه واقع عليه، وما ربك بظالم للناس بأن ينقص المحسن من حسناته، أو يزيد المسيء في سيئاته.

(٤٧) ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى
قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾

إلى الله وحده يعود علم، يوم القيامة وخبره متى يقع وما يحصل فيه، وما من ثمرة تخرج من وعائها، ولا أنثى تحمل ولا حامل تضع ما حملت إلا بعلم الله وقدره، لا يغيب عنه شيء من علم ذلك، ويوم ينادي الله الكفار يوم القيامة - تبكيتًا لهم -: أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتي؟ فيجيب الكفار بقولهم: أعلمناك الآن أنه ليس منا أحد اليوم يشهد أن معك إلهًا غيرك، فأنت وحدك المعبود بحق لا شريك لك، وهذه شهادة بعد فوات الأوان.

(٤٨) ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

وذهب عن هؤلاء الكفار معبوداتهم الباطلة من دون الله، وتخلَّوا عنهم، وتيقنوا أن لا فرار من عذاب الله، وأنه لا منجى من الله ولا ملتجأ إلا إلى الله.

(٤٩) ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾

لا يمل العبد من سؤال خير الدنيا من ربه لحبه الحياة وحرصه على الخير، وإذا أصابته ضراء أو بأساء يئس من روح الله وقنط من رحمته وساء ظنه بربه واستبطأ الفرج.

(٥٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ
فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

وإذا أنعم الله على العبد بفرج بعد شدة ويسر بعد عسر لم يعترف بإحسان الله إليه، بل يدعي أنه أعطي هذا؛ لأنه مستحق له جدير به، وما اعتقد أن القيامة سوف تقوم، وعلى فرض قيام الساعة ظن أن له عند الله جنات النعيم، فسوف يُخْبِرُ الله الكفار يوم القيامة بما فعلوه من ذنوب، وسوف يذيقهم العذاب الشديد، على ما اقترفوه من تكذيب بالوعد والوعيد.

(٥١) ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾

وإذا أنعم الله على الإنسان بعافية أو مال أو جاه ونحو ذلك، تكبر وتجبر على طاعة ربه والانقياد للحق، وإذا أصابته الضراء والبأساء أكثر من الإلحاح في الدعاء والتجأ إلى ربه ليفرج شدته ويزيل كربته؛ فهو يعرف ربه في الضراء ولا يعرفه في السراء.

(٥٢) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أخبروني إن كان هذا القرآن وحيًا من عند الله ثم كذبتم به، لا أحد أظلم وأضل منكم؛ لأنكم خالفتم الحق وجانبتم الصواب وابتعدتم عن الهدى بعدًا كبيرًا.

(٥٣) ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

سيُطْلِع الله الناس على براهين وحدانيته وقدرته في أقطار السموات والأرض، ويريهم بديع صنعه وعجيب خلقه، ويكشف لهم ما في أنفسهم من أسرار القدرة وعجائب التكوين ما يبهر العقول، حتى يتبين لكل شاك أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ صادق، أو لم يكف الكفار برهانًا على أن القرآن وحي من عند الله، وأن محمدًا ﷺ رسول من ربه، شهادة الله على ذلك ولا أكبر من شهادته - سبحانه - شهادة، وهو خير الشاهدين، وقد شهد بأن القرآن حق والرسالة صدق.

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾

ألا إن الكفار في شك وريبة من إحياء الموتى والحساب، ألا إن الله - تعالى - قد أحاط بكل شيء علمًا وحفظًا وتقديرًا وإحصاءً؛ لا تغيب عنه غائبة ولا يخفى عليه أمر عز وجل.

مكية

ترتيبها
٤٢

سورة الشورى

آياتها
٥٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

القول فيها كالقول في بقية الحروف المقطعة.

(٢) ﴿ عٓسٓقٓ ﴾

هذه الحروف المقطعة نكِلُ علمها إلى من أنزلها ولا نتكلف لها معنى.

(٣) ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

كما أُنزل عليك القرآنُ - أيها الرسول - فقد أُنزل على من قبلك من الرسل كتب أوحاها الله إليهم، والله هو العزيز فلا يغالب ولا يحارب، قهر من سواه وأعز من تولاه، وأذل من عاداه، وهو الحكيم في خلقه وصنعه وتدبيره وشرعه.

(٤) ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

لله وحده كل ما في السموات وكل ما في الأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا، والله - سبحانه - العلي بذاته وقدره وقهره، قد استوى على عرشه، وهو العظيم في أسمائه وصفاته، له العظمة والكبرياء والعزة.

(٥) ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

تكاد السموات السبع من عظمة الله تتشقق، كل سماء فوق التي بعدها على ضخامتها وقوة بنائها، والملائكة ينزهون الله عما لا يليق به، ويثنون عليه بكل المحامد، ويسألونه أن يغفر سيئات بني آدم من المسلمين، ألا إن الله كثير الغفران لمن أناب، رحيم بمن تاب، يصرف عنهم العقاب ويجزل لهم الثواب.

٦ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

والمشركون الذين عبدوا غير الله، الله - تعالى - مُطَّلِعٌ على أعمالهم قد أحصاها وحفظها ليحاسبهم عليها يوم الدين، وما أنت - أيها الرسول - بحفيظ على أعمالهم ولا محص لها حتى تجازيهم عليها، إنما أنت مبلغ عن الله رسالته لتقيم الحجة عليهم، فعليك البلاغ وعلى الله الحساب.

٧ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

وكما أوحى الله إلى الرسل قبلك - أيها الرسول - فقد أوحى الله إليك قرآنًا بلغة العرب، لتنذر أهل مكة ومن حولها من قرى العالم، وتخوف الناس إن لم يؤمنوا بعذاب يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وهو واقع لا محالة، والعباد في ذلك اليوم طائفتان أهل إيمان في جنات النعيم، وأهل كفر في نار جهنم الموقدة، فمن نصح لنفسه فلينقذها من النار بطاعة الله واتباع رسوله ﷺ والتزود بالصالحات.

٨ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

ولو أراد الله أن يجمع العباد على الإسلام لفعل ذلك وجعلهم أمة واحدة مهتدية، ولكنه أراد أن يختص من أطاعه واتبع هداه برحمته تفضلاً، وأن يعذب من كفر به وكذب رسله عدلاً، وليس لهم يوم القيامة من يتولى شؤونهم ويدفع عنهم العذاب، فلا شفيع ولا نصير ولا صديق حميم.

٩ ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

بل اتخذ الكفار آلهة يعبدونها من دون الله تتولى أمورهم بزعمهم، فالله وحده هو الولي، يتولاه المؤمنون بالعبادة، ويتولاهم بالرعاية والهداية، وهو وحده الذي يحيي الأموات للحساب، وهو على كل شيء قدير، لا يصعب عليه أمر ولا يعجزه شيء سبحانه.

١٠ ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

وكل أمر اختلفتم فيه - أيها العباد - من أمور الدين ومسائل الشرع فالله يحكم فيه ورسوله ﷺ بالرد إلى الكتاب والسنة، ذلكم الحاكم العدل ربي وربكم وخالقنا ورازقنا ومدبر أمورنا، عليه أعتمد، وبه أعتصم، وإليه أفوض أمري، وإليه أعود في كل شأن من شؤوني، فمنه بدايتي وإليه نهايتي وله حياتي ومماتي.

١١ ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

الله وحده هو خالق السموات والأرض، وقد أحسن في خلقهما وأتقن صنعهما، جعل - سبحانه - للرجال نساء من جنسهم البشري ليحصل الاستقرار النفسي والسكون الروحي بين الرجل والمرأة، وجعل - سبحانه - للناس من الأنعام أزواجًا من الذكور والإناث، فبسبب الذكورة والأنوثة يكثر نسلكم ويبقى نوعكم، والله - سبحانه - لا يشبهه شيء من خلقه ولا يماثله لا في ذاته ولا في أسمائه ولا صفاته ولا في أفعاله، فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته جميعها عُلا، وأفعاله كلها حكيمة، وهو السميع لكل صوت وقول، والبصير بكل حال وفعل.

١٢ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لله وحده ملك السموات والأرض، وبيده مفاتيح خزائن الرزق والرحمة والعلم، يوسع على من أراد من العباد في الرزق، ويضيق على من أراد، إنه سبحانه عليم بكل شيء، ومن ذلك علمه بمن يستحق الغنى والفقر، والهدى والضلال، والعلم والجهل؛ فيضع كلاً في محلِّه بحكمة.

(١٣) ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾

شرع الله لعباده من الدين ما أوحاه إلى رسوله ﷺ وهو دين الإسلام، وقد وصى الله بذلك نوحًا من قبل أن يدعو إليه ويعمل به، ووصى بذلك إبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء الرسل الخمسة - عليهم السلام - هم أولو العزم من الرسل، وأمرهم الله - سبحانه - أن يقيموا شعائر الدين بامتثال أوامره واجتناب نواهيه من توحيد وعبادة، ونهاهم - سبحانه - عن الاختلاف في الدين والتتازع؛ لأن في ذلك الفرقة والعداوة، عظم على الكفار ما تدعوهم إليه - أيها الرسول - من التوحيد وإخلاص الطاعة لله، والله يختار للإيمان من عباده من يشاء، ويوفق للهداية من يعود إليه بالتوبة والاستغفار.

(١٤) ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

وما تفرق الكفار إلى طوائف وأحزاب في معتقداتهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وقامت عليهم الحجة بذلك بسبب بغي بعضهم على بعض وحسد بعضهم لبعض، ولولا أن الله قدر في قضائه السابق تأخير العذاب عن الكفار إلى يوم القيامة لقضى الله بتعجيل العقوبة للكفار في الدنيا، وإن الذين ورثوا علم التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى لفي شك من الإيمان ورسالة الرسول ﷺ، أوصلهم هذا الشك إلى الريبة والتتازع المحرم والاختلاف المذموم.

(١٥) ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

فإلى دين الإسلام الذي هو دين الرسل - عليهم السلام - فادع الناس - أيها الرسول -، واستقم على دينه بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه كما أمرك الله ووصاك، فهو العمل بالعلم والاتباع لا الابتداع، ولا تتبع آراء الكفار المضلة، بل اعتصم بالوحي المنزل، فالتمسك بالأثر واطِّراحُ كل رأي يخالفه أصل عظيم، وقل - أيها الرسول -: صدَّقت بكل الكتب التي أنزلها الله على رسله، والله أمرني أن أعدل بينكم في الحكم، فأحكم بشرع الله ولا أجور، الله ربنا وربكم، فالواجب صرف العبادة له وحده، لنا أجر أعمالنا الحسنة، ولكم عقاب أعمالكم السيئة، لا جدال ولا خصومة بيننا وبينكم بعد قيام الحجة وظهور الحق، الله سوف يجمع بيننا جميعًا ليحكم بيننا يوم القيامة فيما وقع فيه الخلاف، إليه نعود فيحاسب كل عامل بما عمل ويجازيه بما فعل.

(١٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴾

والذين يخاصمون في وحدانية الله التي جاء بها رسوله ﷺ من بعد ما استجاب العباد لله وآمنوا به ووحدوه، حجتهم باطلة، ودليلهم كاذب مردود عند الله، وعليهم غضب من الله لكفرهم وصدهم عن سبيل الله، ولهم في النار عذاب مؤلم موجع.

(١٧) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴾

الله الذي أنزل القرآن والكتب المنزلة على الرسل من قبل بالصدق، وأنزل الميزان وهو العدل في كل شيء؛ ليتحاكم الناس إليه، وماذا يدريك؛ لعل القيامة دنت واقترب قيامها.

(١٨) ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾

يستعجل بقيام الساعة الكفار المكذبون بها سخرية واستهزاءً، والمؤمنون خائفون من قيام الساعة لما سمعوا من أهوالها، ويعتقدون أنها حق لا شك في ذلك، ألا إن من شك في قيام الساعة وجادل في ذلك في ضلال بعيد عن الحق.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾

الله لطيف بعباده يوصل لهم المحاب ويصرف عنهم المكاره ويوسع الرزق على من أراد من العباد، ويضيق على من أراد لحِكَم عظيمة. وهو القوي الذي لا يغالب ولا يحارب، ومن قوته خذلانه لمن عاداه، وهو العزيز الذي لا يُضام ملكه، يعز بعزته من والاه ويذل بعظمته من عصاه.

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾

من أراد بعمله ما عند الله من أجر في الآخرة فأخلص له العمل وقصده بالسعي فإن الله يزيد له في عمله ويوفقه للطاعات ويضاعف له الحسنات إلى عشرة أمثالها إلى أضعاف كثيرة، ومن أراد الدنيا بعمله ونسي الآخرة ولم يطلب ما عند الله من ثواب فإن الله يعطيه ما قسم له من متاع الدنيا، وليس له عند الله أجر، فقد أعطاه في الدنيا، وهذا هو الخاسر المحروم المخذول.

(٢١) ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

ألهؤلاء الكفار شركاء في كفرهم وضلالهم، ابتدعوا لهم من الدين ما لم يشرعه الله؟ ولولا أن الله كتب إمهال الكفار لعاجلهم بالعقوبة في الدنيا وقدم لهم العذاب، وإن الكفار لهم عذاب موجع أليم في نار جهنم.

(٢٢) ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

ترى الكفار يوم الحساب خائفين وجلين من عقاب ما فعلوه من أفعال قبيحة من كفر ومعاص، والعذاب ينالهم ويمسهم بسوء، والمؤمنون الصالحون المطيعون لربهم المتبعون لرسوله ﷺ في بساتين جنات الخلد منعمون مسرورون، لهم في جنات النعيم ما أرادوا مما تشتهيه أنفسهم، والله سوف يغدق عليهم فضله وكرمه؛ ذلك الإكرام والنعيم هو الفوز الذي لا يوصف والظفر العظيم؛ لأنهم حصلوا على كل محبوب مطلوب مرغوب، ونجوا من كل مكروه مبغوض.

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾

ذلك النعيم الذي وعد الله به عباده الصالحين في الجنة هو البشرى التي يبشر الله بها أولياءه الذين أخلصوا له الطاعة ولرسوله ﷺ المتابعة، قل - أيها النبي - للكفار: لا أطلب منكم على تبليغ رسالتي إليكم أجرة ولا ثوابًا، فأجري على الله وحده، لكن أطلب منكم المودة لقرابتي وصلة الرحم بيني وبينكم، فقرابته - عليه الصلاة والسلام - لهم حق البر والإكرام والتقدير إكرامًا له - عليه الصلاة والسلام -، ومن يعمل صالحًا يضاعف الله له ثواب عمله بعشرة أضعاف فأكثر، إن الله كثير الغفران لذنوب من تاب، شكور يثيب من أحسن وأصاب، فلغفرانه يمحو السيئات ولشكره يضاعف الحسنات.

(٢٤) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

بل يقول الكفار: إن الرسول ﷺ اختلق الكذب على الله فادعى أن الله أوحى إليه وأرسله ولم يوح إليه ولم يرسله، ولو فعلت ذلك - أيها الرسول - لطبع الله على قلبك إذا شاء، ويذهب الله الباطل ويزيله ويمحقه، ويحق الحق ويثبته بكلماته التي لا تتبدل ولا تتغير، وبوعده الذي لا يختلف؛ فالباطل مضمحل مهما طال وصال، والحق مؤيد من الله منصور مهما حُورب ورد، والله يعلم ما في قلوب العباد ويطلع على ما تخفيه النفوس وتضمره الضمائر لا يغيب عنه شيء.

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾

والله تعالى هو الذي يتوب على من تاب وعاد إليه وأناب، فيقبل حسناته ويعفو عن سيئاته، والله يعلم ما يعمل العباد من خير وشر، لا يغيب عنه شيء، وسوف يحاسبهم على ذلك.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

ويستجيب المؤمنون الصالحون لربهم فيعملون بأوامره ويجتنبون نواهيه، والله يزيدهم من فضله، فيزيدهم لصلاحهم في الهداية والعلم والتوفيق والرزق، ويضاعف لهم الحسنات، والكفار لهم عند الواحد القهار عذاب النار وسوء الدار.

(٢٧) ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾

ولو أن الله وسَّع الرزق على بعض الناس لتجبروا وتكبروا وأفسدوا في الأرض وبغى بعضهم على بعض؛ أشرًا منهم بسبب الغنى وبطرًا، ولكن الله يعطيهم ما يكفيهم بتقدير وحكمة، فهو العالم بما يصلح عباده، الخبير بما يناسب كل واحد منهم من غنىً وفقر وصحة وسقم، وهو - سبحانه - بصير برعاية شؤونهم وتدبير أحوالهم وتصريف حياتهم.

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

والله وحده هو الذي ينزل الماء من السماء إغاثة للعباد والبلاد من بعد ما يئس الناس من نزول المطر، وينشر الرحمة في خلقه وأرضه، فيغيثهم جميعًا، وهو الولي الذي يرعى شؤون عباده بلطفه ويتولاهم بإحسانه، المحمود في ولايته ورعايته، له صفات المدح والحمد والكمال.

(٢٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرته ووحدانيته وعظمته خلق السموات والأرض على غير مثال سابق، بهذه السعة والضخامة والإتقان، وما نشر فيهما من أنواع المخلوقات التي تدب فيهما، وهو على جمع الخلق وإعادتهم إليه للحساب يوم الدين إذا أراد قدير، لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه أمر.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾

وما أصابكم - أيها العباد - من مصيبة في الدين والدنيا فبسبب ما عملتم من خطايا وكسبتم من ذنوب، ويعفو - سبحانه - عن كثير من ذنوب عباده فلا يؤاخذهم بل يستر ويغفر.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

وما أنتم - أيها العباد - بفائتين على الله ولا معجزينه ولا هاربين من سلطانه، بل أنتم تحت قهره وفي ملكه، وما لكم غير الله ولي يتولى شؤونكم ويصرِّف أموركم، وليس لكم غيره ناصر يدفع عنكم المكاره ويكشف عنكم الكربات.

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾

ومن البراهين الدالة على قدرة الله الباهرة وقوته القاهرة: السفن الكبار التي تجري على ظهر الماء كالجبال.

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

إذا أراد الله أن يسكن الريح فلا تهب بقوة لتدفع السفن فتقف السفن على ظهر الماء راكدة لا تتحرك، إن في حركة السفن ووقوفها وهبوب الريح وسكونها لبراهين واضحة على قدرة الله ووحدانيته لكل صبار على الطاعات، صبار عن المخالفات، وعلى الأقدار المؤلمات، شكور لربه على الخيرات والهبات.

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

وإذا أراد الله دمَّر السفن بالغرق في البحر بذنوب الناس، ويتجاوز عن كثير من السيئات، فلا يؤاخذ بها بل يعفو ويصفح.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

وسوف يتيقن كل من خاصم وجادل في براهين وحدانية الله إذا حلَّ بهم العذاب أنه لا مهرب لهم، ولا محيد ولا ملجأ من هذا العذاب.

(٣٦) ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

فما رزقكم الله - أيها العباد - من مال وأبناء وجاه ونحو ذلك فهو متاع زائل في حياتكم الدنيا لا دوام له، ولكن الذي عند الله لعباده الصالحين خير وأبقى، فهو أفضل من متاع الدنيا لكرامته ونفاسته، وأبقى لدوامه واستمراره في جنات الخلد ومقعد الصدق، وهو ما أعده الله لمن آمن به واتبع رسوله ﷺ واعتمد على ربه واعتصم به وفوَّض الأمر إليه.

(٣٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾

وهذا النعيم المقيم لمن ترك كبائر الذنوب وهو ما خبث من الآثام وقبح من المعاصي، وهؤلاء إذا أغضبهم أحد سامحوه وحلموا عليه وصفحوا عنه، فهم أحسنوا مع الخالق ومع المخلوق، فاجتنبوا السوء وغفروا الإساءة.

(٣٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

ومن صفات هؤلاء الأبرار أنهم أجابوا دعوة الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ لما دعاهم إلى الإيمان وإخلاص العبادة لله وأدوا الصلاة الواجبة على أتم وجه كما شُرعت، وهم يتشاورون فيما بينهم في أمورهم ولا يستبد أحدهم برأيه عن إخوانه المؤمنين، فهم وصلوا ما بينهم وبين الله بالصلاة، وما بينهم وبين المسلمين بالشورى والنصيحة، ويتصدقون مما تفضل الله عليهم به من رزق ومنه العلم والمال والجاه ونحو ذلك.

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾

وهؤلاء المؤمنون إذا وقع عليهم ظلم ظالم انتصروا منه وأخذوا بقدر مظلمتهم ولم يخنعوا ويستكينوا شأن الجبناء.

(٤٠) ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وجزاء سيئة المسيء أن يعاقب بمثل إساءته لا يزاد على ذلك، فمن عفا عن المسيء وحلم وصفح ولم يعاقبه، وأصلح العلاقة وأقام الود مع المسيء فثوابه على ربه، فالله جزيل العطاء يضاعف له الأجر ويعظم له الجزاء، إن الله لا يحب من يظلمون الناس فيعتدون عليهم بلا حق، وإذا انتقموا زادوا على حقهم في الانتقام.

(٤١) ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

وأما من انتصر ممن ظلمه وأخذ بحقه فأولئك لا يؤاخذهم الله؛ لأنهم اقتصوا بقدر المظلمة.

(٤٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إنما يؤاخذ الله من يعتدي على الناس ويهضم حقوقهم ويتجاوز الحق إلى الباطل في معاملتهم ويفسدون في الأرض بلا حق لهم في ذلك، فهؤلاء لهم العذاب الموجع في نار جهنم.

(٤٣) ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

والصابر على الأذى والساتر للسيئة من أهل الهمم العالية والمناقب الحميدة والخصال الشريفة، والله سوف يجعل له ذكرًا حسنًا وثناءً جميلاً وأجرًا عظيمًا.

(٤٤) ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾

ومن يُغْوِ الله عن الهداية ويصرفه عن الرشد بسبب كفره وبغيه فليس له من يتولى أموره ويرعى شؤونه ومن ينصره على عدوه ويدفع عنه الضرر، وترى الكفار لما شاهدوا عذاب النار، يقولون: هل من طريق إلى النجاة من النار والعودة إلى الدنيا لنؤمن ونعمل صالحًا؟ وهذا مستحيل فقد فات الأوان.

(٤٥) ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾

وترى الكفار يوم القيامة يُعْرَضون على النار أذلاء خاضعين ينظرون إلى النار من طرف ذليل ضعيف بنظرة عين خاشعة من شدة الخوف والهوان، وقال المؤمنون لما دخلوا الجنة وشاهدوا الكفار في النار: إن الهالكين الخائبين حقًا

هم من خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلود في نار جهنم، ألا إن الكفار في عذاب مستمر وهوان دائم لا يزول ولا يحول.

(٤٦) ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾

وما كان للكفار في النار من أنصار يدفعون عنهم عذاب الجبار، ومن يكتب الله عليه الغواية والشقاء فلا طريق إلى الهداية والنجاة، فقد أغلق الله عليه بسبب كفره كل طريق موصلة إلى جنته ورضوانه.

(٤٧) ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾

استجيبوا لله - أيها الكفار - بتوحيد الله وإخلاص العبادة له واتباع رسوله ﷺ من قبل أن تقوم الساعة التي لا يمكن ردها ولا تأخيرها عن وقتها، ما لكم - أيها الكفار - من عذاب الله من مهرب ولا مفر ولا مكان ساتر يمكن أن تتنكروا فيه فلا تُعرفوا. وفي الآية وجوب المبادرة إلى التوبة والعمل الصالح وترك التسويف، فإن البقاء ليس مضمونًا، والأيام تتصرف وللتأجيل آفات.

(٤٨) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾

فإن أعرض الكفار عن الإيمان وأبوا الاستجابة، فالله لم يرسلك - أيها النبي - لتحفظ أعمالهم وتجازيهم عليها فأنت مبلغ عن الله رسالته، والله إذا وهب الإنسان منه رحمة من صحة وجمال ومال وعيال ورزق ونحو ذلك فرح بذلك وسُرَّ أخذًا بظاهر الحال، وإذا أصاب الله الإنسان بمحنة من مرض وفقر ومصيبة ونحو ذلك بسبب ذنوبه فإنه جاحد لما مر من النعم، لا يذكر إلا النقم، وينسى في الشدة أيام الرخاء.

(٤٩) ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾

لله وحده ملك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، يخلق ما أراد من المخلوقات، يرزق بعض عباده إناثًا من الذرية بلا ذكور، ويرزق من أراد ذكورًا بلا إناث،.

(٥٠) ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

وإذا شاء - سبحانه - رزقه الذكور والإناث، وبعضهم يجعله عقيمًا لا ذرية له، إن الله عليم بخلقه ولماذا يخلقه، قدير على خلق ما أراد، لا يتعاظمه شيء ولا يعجزه شيء.

(٥١) ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾

وما ينبغي لإنسان أن يكلمه الله مباشرة بلا حجاب ولا واسطة، إلا أن يوحي الله وحيًا عن طريق الملائكة، أو يكلمه الله من وراء حجاب، مثلما كلم موسى - عليه السلام -، أو يرسل رسولاً مثلما أرسل جبريل - عليه السلام - إلى رسولنا ﷺ، فيوحي الملك إلى الرسول ما أراد الله أن يوحيه لا بمجرد هوى الملك، إن الله عليٌّ على خلقه بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، علا قدرًا وقهرًا، حكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه، وفي هذه الآية إثبات الكلام لله تعالى على وجه يليق بجلاله سبحانه.

(٥٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وكما أوحى الله إلى الرسل قبلك - أيها النبي - فقد أوحى إليك قرآنًا من عند الله هو في إحيائه للقلوب كالروح للأبدان، ما كنت - أيها الرسول - قبل الوحي تعلم شيئًا من الكتب السابقة ولا الإيمان ولا أمور الشريعة، لكن الله

علمك عن طريق الوحي وأنزل هذا القرآن نورًا يهدي به الله من عباده من أراد، فيخرجهم به من ظلمات الكفر والجهل والشبهات، وإنك - أيها الرسول - لتدل من شاء الله هدايته وترشده إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام، وهذه هداية الدلالة له ﷺ، أما هداية التوفيق فلله وحده.

(٥٣) ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾

والطريق الذي يرشد إليه الرسول ﷺ هو طريق الله وصراطه المستقيم الذي هدى إليه أنبياءَه والصالحين من عباده، والله الهادي عباده وهو مالك السموات والأرض وما فيهما ومدبرهما على أكمل تدبير، وإليه تعود أمور الخلائق من صلاح وفساد فيحاسبهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

مكية

سورة الزخرف

ترتيبها ٤٣ | آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده سبحانه بها.

(٢) ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

يقسم الله تعالى بكتابه القرآن واضح اللفظ والمعنى، بيّن الدلالة على ما أراد الله سبحانه.

(٣) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

إن الله أنزل القرآن على الرسول ﷺ بلغة العرب لعل الناس يفهمونه ويتدبرونه ويفقهون معانيه.

(٤) ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾

وإن القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ، وهو عَليٌّ في قدره وشرفه، محكم في لفظه ومعناه، ليس فيه اختلاف ولا تناقض.

(٥) ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾

أفنهملكم ونترككم في ضلالكم وغيكم ولا ننزل إليكم القرآن، ولا نرسل إليكم الرسول؛ لأجل إعراضكم عن الهداية وتجاوزكم للحدود بالكفر والذنوب، هذا لا يكون، بل لابد من إقامة الحجة.

(٦) ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

وكم أرسل الله في القرون السابقة من نبي يقيم عليهم الحجة، فقد سبقك - أيها الرسول - أنبياء.

(٧) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وما يأتي الكفار السابقين من رسول من عند الله إلا سخروا منه واستهزؤوا به كما فعل قومك معك أيها الرسول.

(٨) ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فأهلك الله المكذبين السابقين وكانوا أشد قوة وبأسًا من قومك أيها الرسول، ومضى عقاب الأولين بأن أهلكوا؛ لأنهم كفروا وكذبوا، وفي هذا تهديد لكفار هذه الأمة بأن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

(٩) ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

وإذا سألت الكفار - أيها النبي -: من الذي خلق السموات الأرض؟ لأجابوك بأن الخالق لهن الله العزيز في ملكه، العليم بخلقه وأمره، المطلع على كل شيء؛ فالكفار يؤمنون بربوبية الله، ويشركون في ألوهيته سبحانه.

(١٠) ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾

الله وحده الذي جعل لكم الأرض - أيها الناس - كالفراش ومهدها وسواها لتعيشوا على ظهرها، وشق لكم فيها طُرقًا ويسّر السير فيها لكسب المعيشة وطلب الرزق؛ لكي تهتدوا بهذه الطرق إلى مطالب الدين والدنيا من علم وتجارة وسياحة ونحوها.

(١١) ﴿ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴾

الله الذي نزَّل من السماء غيثًا فقدره بحساب وحكمة، فلم يجعله طوفانًا يغرق ولا نزرًا قليلاً لا يسد الحاجة، فأنبت الله به الأرض اليابسة وأخرج به من كل الثمرات متاعًا لكم ولأنعامكم، وكما أحيا الله الأرض الميتة بالنبات، يحيي - سبحانه - الأموات فيخرجون من قبورهم للحساب.

(١٢) ﴿ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴾

والله الذي أوجد الأنواع كلها من إنسان وحيوان ونبات وهيأ لكم السفن والأنعام كالإبل والخيل والبغال والحمير ما تركبونه في البر والبحر لمصالحكم.

(١٣) ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾

لكي تستووا في ركوبكم على هذه السفن والأنعام وغيرها، ثم تتذكروا فضل الله عليكم بتسخير هذه المخلوقات والمصنوعات، وتقولوا: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مطيقين، ولا نستطيع لولا تسخير الله لنا هذه المراكب أن نذللها.

(١٤) ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

وتقولوا - أيضا -: وإنا إلى ربنا يوم القيامة عائدون إليه للحساب.

(١٥) ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾

وجعل الكفار لله من خلقه نصيبًا وهو الغني عن كل أحد، فقالوا: الملائكة بنات الله زورًا وبهتانًا، ومن طبيعة الإنسان التنكر لنعم الله وجحود أياديه، فهو يعدد النقم وينسى النعم.

(١٦) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴾

بل تدَّعون - أيها الكفار - أن الله اتخذ مما خلق بنات، وهو الله الأحد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنتم لا ترضون بنسبة البنات إليكم، وترون أن الله خصكم بالبنين إكرامًا لكم، وهو كذب منكم وافتراء.

(١٧) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

وإذا أُخبر أحد الكفار بولادة بنت له تغير وجهه واسودَّ من قُبح البشارة بالبنت وتراه محزونًا مهمومًا كئيبًا، فكيف تنسبون إلى الله ما لا ترضونه لأنفسكم، تعالى الله عن قولكم علوًا كبيرًا.

(١٨) ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴾

كيف تنسبون الأنثى إلى الله وهي تربى في الزينة وتجمّل بالحليّ، وهي لا تستطيع أن تظهر حجتها وقت الجدل والخصام لضعفها؟

(١٩) ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴾

وجعل الكفار الملائكة وهم عباد للرحمن - سبحانه - إناثًا وقالوا: هم بنات الله، تعالى الله عن ذلك، أحَضَر الكفارُ خلق الله للملائكة فيشهدون بعلم ويحكمون أنهم إناث؟! سيكتب الله شهادة الكفار الكاذبة الآثمة ويسألهم عنها يوم القيامة.

٢٠ ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

وقال الكفار: لو أراد الله أن لا نعبد أحدًا غيره لفعل ولقدّر ذلك علينا، وهذه حجة باطلة وقول كاذب، فهم لم يطلعوا على علم الغيب ولم يعرفوا القضاء والقدر، والله أقام الحجة على الناس بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وليس للكفار برهان على قولهم ولا نقل صحيح يؤيد كلامهم، إنما يقولون ذلك ظنًا ووهمًا وكذبًا.

٢١ ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾

هل أنزل الله على الكفار كتابًا قبل القرآن يحتجون به على الرسول ﷺ فهم على بينة مما يقولون، والله لم ينزل عليهم كتابًا، وما عندهم علم وما لديهم دليل، بل هم كاذبون واهمون.

٢٢ ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

بل قال الكفار: إنا وجدنا آباءنا على دين ومذهب سابق فنحن مقلدون لهم سائرون على ملَّتِهم لا نخالفهم وسوف نتبع آثارهم.

٢٣ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

وكذلك ما أرسل الله قبلك - أيها الرسول - في قرية من رسول يخوفهم عذاب الله، ويدعوهم إلى طاعته وعدم مخالفة أمره إلا قال السادة المترفون وأهل النعم المتجبرون: إنا وجدنا آباءنا على دين سابق ومذهب ثابت فنحن متمسكون بدينهم ومذهبهم لا نتركه لغيره.. وهذا هو التقليد الأعمى المذموم!!

٢٤ ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾

قال الرسول ﷺ ومن سبقه من الرسل عليهم السلام لأقوامهم لما ردّوا ما جاؤوا به وتمسكوا بدين الآباء: أتتمسكون بدين آبائكم الباطل، ولو أن ما جئنا به أدلّ على طريق الهداية وأرشد إلى سبيل النجاة من دينكم الباطل؟ فردّوا عليهم عنادًا وكبرًا: إنا بما أرسلكم الله به إلينا مكذبون جاحدون، فهم قلدوا الآباء في الكفر، وردوا الدين الحق وكذبوا رسل الصدق.

٢٥ ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

فانتقم الله من هؤلاء المكذبين خسفًا ومسخًا وتدميرًا وغرقًا وغير ذلك، فتأمل نهاية هؤلاء الجاحدين المكذبين، وليحذر كل مكذب أن يناله ما نالهم فالعمل واحد.

٢٦ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾

واذكر يوم قال إبراهيم - عليه السلام - لأبيه الضال وقومه الكفار: إنني أبرأ إلى الله من كل ما تعبدونه من دونه من آلهة مزعومة باطلة، وهذه البراءة واجبة على كل مسلم، وهي التبرؤ من الكفار وعبادتهم، وعدم موالاتهم والرضا بكفرهم.

٢٧ ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾

ولا أعبد إلا الله وحده الذي خلقني وأوجدني من العدم، وهو الذي سوف يرشدني إلى الصراط المستقيم والدين القويم.

٢٨ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وجعل إبراهيم كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) كلمة باقية متوارثة فيمن جاء بعده، وهي أعظم رابطة تجمع كل مؤمن بأخيه، لعل الناس يرجعون إلى ربهم بتحقيق كلمة التوحيد وإخلاص العبادة لله والعودة إلى الله بالتوبة والاستغفار وهجر الكفر والذنوب.

٢٩ ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾

بل متَّع الله بالحياة والنعم كفار هذه الأمة وآباءهم ولم يعاجلهم بالهلاك، بل أخَّرهم حتى بعث فيهم رسوله الكريم ﷺ بكتاب الله والسنة يبين لهم الهدى ويدعوهم إلى الإسلام.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

ولما جاء الكفارَ القرآنُ وحيًا من عند الله على رسوله ﷺ قالوا: هذا القرآن سحر وليس بوحي، وإنا نجحد بالقرآن ولا نؤمن به.

(٣١) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾

وقال الكفار: إن كان هذا القرآن حقا من عند الله فلماذا لم ينزله الله إلى رجل عظيم وجيه ثري من قرية مكة أو الطائف؛ لأن الرسول ﷺ لم يكن صاحب مال وثروة، والتفاخر عندهم والفضل بالدنيا فحسب.

(٣٢) ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾

أهؤلاء الكفار يقسمون النبوة ويقترحون وضعها عند من أرادوا، والله أعلم حيث يجعل رسالته؟! وهو الذي يَصْطَفي لها من يشاء من عباده، وهو سبحانه الذي يقسم بين العباد أرزاقهم وأقواتهم وقد يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أما الرسالة فيختص الله بها من يستحق هذه المنزلة العظيمة والمرتبة العالية، وكذلك الهداية يعطيها الله من أحب من عباده الصالحين، والله يرفع في أمور الدين والدنيا بعض الناس على بعض درجات؛ فعالم وجاهل وغني وفقير وقوي وضعيف وأمير ومأمور وتابع ومتبوع؛ ليكون بعضهم سببًا لبعض في المعاش، ولتقوم الحياة بين الناس، ولو كانوا على طبقة واحدة لاختلَّ النظام، ورحمة الله بالهداية والتوفيق للطاعة والعلم النافع والعمل الصالح أفضل مما يجمعه الناس من حطام زائل فانٍ من المال ومتاع الدنيا.

(٣٣) ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾

ولولا أن يكون الناس كلهم على ملة الكفر لجعل الله لبيوت من يكفر به سقفًا من فضة وسلالم من فضة يصعدون عليها لتفاهة الدنيا وحقارة شأنها، ولكن لئلا يغتر الضعفاء والجهلاء بما يرون من مظاهر وزينة بيوت الكفار فيقلدوهم في الكفر، فلم يجعل الله للكفار هذه الميزة.

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾

ولجعل الله لبيوت الكفار أبوابًا من فضة، ولجعل لهم سررًا يتكئون عليها.

(٣٥) ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

ولجعل الله للكفار ذهبًا كثيرًا، وكل ذلك متاع زائل منتهٍ في هذه الدنيا الفانية، أما نعيم الآخرة فَمُعَدٌّ ومُدَّخَرٌ لأولياء الله المتقين الذين عملوا بطاعته وتركوا معاصيه.

(٣٦) ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾

ومن يعرض عن ذكر الله، وهو كتابه وسنة الرسول الكريم ﷺ فلم يهتدِ بهما ويعمل بما فيهما، يجعل الله له شيطانًا يضله ويحبب إليه المعاصي ويكرِّه إليه الطاعات، فهو مرافق له ومصاحب يلازمه في ليله ونهاره، ولا يتخلّص من الشيطان إلا بذكر الرحمن.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾

وإن الشياطين ليمنعون المعرضين عن ذكر الله طريق الهدى، ويحسِّنون لهم الغواية، ويحببون إليهم المعاصي، ويكرهون لهم الطاعة، ويظن المعرضون أتباع الشيطان أنهم على بصيرة من أمرهم وعلى رشد، وهم على غيٍّ وضلالة.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾

حتى إذا عاد إلى الله من أعرض عن ذكره وغرَّه الشيطان الذي لازمه في الدنيا وشاهد مواقف الحساب قال هذا المعرض: يا ليت أن بيني وبينك يا قرين السوء مثلما بين المشرق والمغرب في البعد، فبئس القرين أنت؛ لأنك زيّنت لي الباطل، وقبحت الحق وأغويتني.

(٣٩) ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾

ولن ينفعكم - أيها الكفار - اشتراككم في العذاب مع قرنائكم من الشياطين، فلكل واحد منكم نصيبه الكامل من عذاب الله، ولن يُقَسَّمَ العذاب على عددكم فيخف عليكم.

(٤٠) ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

أفأنت - أيها الرسول - تستطيع إسماع من أصم الله سمعه عن الحق، أو إرشاد من أعمى الله قلبه عن الرشد، أو هداية من كان في غي واضح الغواية، وضلال بيِّن الضلالة؟ لا تستطيع ذلك، إنما عليك البلاغ وليس عليك الهدى.

(٤١) ﴿ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾

فإن توفاك الله - أيها الرسول - قبل أن ينصرك على الكفار فسوف ينتقم منهم بالعذاب في الآخرة.

(٤٢) ﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴾

وإن أراك الله ما وعدك من نصر عليهم وخزي لهم كيوم بدر فإن الله قدير على ذلك لا يعجزه شيء... وهذا الذي حصل، فقد نصر الله عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

(٤٣) ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

فاستمسك - أيها الرسول - بما أوحاه الله إليك من الكتاب والسنة، واعمل به وادع إليه، فإنك على هدى قويم هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره.

(٤٤) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾

وإن القرآن شرف لك - أيها الرسول - ولقومك من قريش، وهو عز ورفعة ومجد لكل من اتبعه وعمل بما فيه، وسوف يسألكم الله يوم القيامة عن العمل بما أنزله إليكم وشكر ما أنعم به عليكم.

(٤٥) ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾

واسأل - أيها الرسول - أتباع الرسل الذين أرسلهم الله قبلك في الأمم السابقة: هل دعتهم رسلهم إلى عبادة غير الله؟ بل إن جميع الرسل كانوا يدعون إلى توحيد الله وأن لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

(٤٦) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

ولقد أرسل الله موسى - عليه السلام - بالبراهين القاطعة إلى فرعون وسادة قومه، كما أرسل الله محمداً ﷺ إلى قومه، فقال موسى لفرعون وقومه: إن الله رب العالمين أرسلني إليكم لأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الطاعة له.

(٤٧) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴾

فلما أتى موسى إلى فرعون وقومه بالبراهين الدالة على قدرة الله ووحدانيته وصدق موسى في دعوته إذا فرعون وسادة قومه يضحكون سخرية مما جاء به موسى واستهزاءً بالمعجزات والعبر.

(٤٨) ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾

وما يري الله فرعون وقومه من برهان إلا كان أعظم مما قبله وأكثر دلالة على صدق ما جاء به موسى، وأخذ الله فرعون وقومه بأنواع العقوبات كالجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان وغيرها، لعلهم يعودون إلى توحيد الله وطاعته ويرجعون عن كفرهم ومعاصيهم.

٤٩ ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾

وقال فرعون وسادة قومه لموسى: يا أيها الساحر (يقصدون تبجيله بذلك؛ لأن وصف السحر عندهم وصف معظم وليس وصف ذم) ادع ربك الذي اختصك وآثرك واجتباك أن يزيل عنا العذاب فإننا مصدقون بما أُرْسِلت به مؤمنون بالله.

٥٠ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾

فلما دعا موسى ربه أن يرفع العذاب عن فرعون وقومهُ رفعه الله عنهم لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الغدر ونكث العهد والعودة إلى الكفر والضلال.

٥١ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

ونادى فرعون في سادة قومه - متكبرًا متجبرًا متفاخرًا بملك مصر -: أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ وقصد اللعين أن من هذا حاله فهو جدير أن يُعبد، وقال لقومه: ألا تبصرون عظمة ملكي وقوة سلطاني وضعف موسى وقلة ذات يده؟

٥٢ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

بل أنا أفضل من موسى الذي لا مكانة له ولا شرف ولا سيادة، فهو يمتهن نفسه في معيشته وكسب رزقه، وإذا تكلم لم يفهم منه السامع لعجمة في لسانه، فتبجح فرعون بأمور الدنيا الظاهرة من المكانة والفصاحة، ونسي أن نبوة موسى وعلمه النافع وعمله الصالح أصدق وأنفع مما يقول.

٥٣ ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

فلماذا لا يُعطى موسى - إن كان صادقًا أن الله أرسله - أسورة من ذهب يستغني بها عن الفقر والحاجة؟ ولماذا لم يأت معه الملائكة قد اقترن بعضهم ببعض يتتابعون فيشهدون بصدقه وينصرونه؟

٥٤ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾

فاستخف فرعون بكلامه عقول قومه فأغواهم فوافقوه على ضلالته وكفروا بما جاء به موسى، إن قوم فرعون كانوا خارجين عن طاعة الله وعبادته فلفجورهم، قبلوا دعوة الضال المضل فرعون.

٥٥ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فلما أغضبوا الله بكفرهم وتكذيبهم موسى انتقم منهم بأشد العقوبة، وعاجل العذاب، فأغرقهم كلهم في البحر وسلبهم ملكهم.

٥٦ ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾

فجعل الله فرعون وقومه بعدما أغرقهم سلفًا متقدمًا لمن يعمل مثل عملهم ممن يأتي من القرون، فيكون جزاؤه كجزائه، وجعلهم عبرة وعظة لكل جيل قادم إلى قيام الساعة.

٥٧ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾

ولما ضرب الكفار مثلاً بعيسى بن مريم حين جادل الرسول ﷺ بأن النصارى يعبدون عيسى عليه السلام ففرح الكفار بهذا المثل وظنوه حجة لهم، وارتفع لهم صوت وجلبة وضجيج؛ لأنه لما أنزل الله قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال الكفار: فعيسى مع آلهتنا في النار؛ لأن النصارى عبدوه مثلما عبدنا آلهتنا، وأنزل

الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فالذي يعذب بالنار هم الآلهة ومن عبدوهم وعيسى لم يرض أن يكون إلاهًا من دون الله.

(٥٨) ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

وقال الكفار: هل آلهتنا التي عبدناها أفضل من عيسى الذي يعبده قومه؟ فإذا كان عيسى يُعذب في النار فنحن راضون أن نكون مثله نعذب بالنار، وهذا جدل عقيم وكلام فاسد باطل.

(٥٩) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

ليس عيسى بن مريم - عليه السلام - إلا عبدًا من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة وفضله بالرسالة، وجعله آية وعبرة لبني إسرائيل يستدلون بها على قدرة الله وعظمته.

(٦٠) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

ولو أراد الله لجعل مكان الناس ملائكة يعيشون في الأرض يعمرونها يخلف بعضهم بعضًا.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

وإن نزول عيسى - عليه السلام - في آخر الزمان لبرهان على دنو القيامة، فلا تشكوا في قيام الساعة واتبعوا الرسول ﷺ فيما دعاكم إليه وأخبركم به، هذا هو الطريق القويم والصراط المستقيم الموصل لرضوان الله وجنته.

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

ولا يمنعكم الشيطان بتزيينه للغواية والباطل عن طريق الهداية، فإن الشيطان عدو لكم بيّن العداوة، يحبب إليكم الشر ويكره إليكم الخير.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

ولما أتى عيسى إلى بني إسرائيل بالبراهين الظاهرة قال لهم: قد آتيتكم بالرسالة ولأوضّحَ لكم بعض ما اختلفتم فيه من أمور الدين، فاتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه، وأطيعوني فيما بينته لكم ودعوتكم إليه .

(٦٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

إن الله وحده هو ربي وربكم، وهو خالقنا جميعًا ورازقنا، فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالوحدانية، ولا تشركوا به شيئًا، هذا الذي دعوتكم إليه ونصحتكم به هو الطريق القويم إلى خيري الدنيا والآخرة.

(٦٥) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

فاختلفت الطوائف في شأن عيسى، وصاروا مذاهب شتى: منهم من يرى أنه عبد ورسول من عند الله وهو الصحيح، ومنهم من يرى أنه ابن الله، ومنهم من يرى أنه الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فاللعنة والعذاب والغضب على من وصف عيسى بغير ما وصفه الله به، وعذاب أليم لكل من خالف الصراط المستقيم.

(٦٦) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

هل تنتظر الطوائف المخالفة في عبودية عيسى ونبوته إلا أن تاتيهم القيامة فجأة على غرة غير مستعدين لها لا يدرون متى قيامها؟

(٦٧) ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

الأصدقاء المتحابون على معصية الله في الدنيا يتبرأ بعضهم من بعض يوم الحساب، لكن إذا تصادقوا وتحابوا على طاعة الله بقيت هذه المحبة ونفعتهم في الدنيا والآخرة.

٦٨ ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾

يُقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله: يا عبادي، لا تخافوا من عذابي ولا تحزنوا على ما ذهب منكم من متاع الدنيا، فلا خوف من المستقبل ولا حزن على الماضي.

٦٩ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾

وهؤلاء المتقون هم من آمن بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وانقاد لحكم الله وخضع بقلبه وجوارحه لشريعة الله.

٧٠ ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾

يُقال لهم يوم القيامة: ادخلوا الجنة منعمين مسرورين مع الزوجات والذرية والأصدقاء، منعمين غاية النعيم في قرة عين وراحة بال.

٧١ ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يُطاف على هؤلاء المؤمنين في جنات النعيم بأوان من ذهب فيها ألذ الطعام وأهنؤه وأمرؤه، ويُطاف عليهم بالأكواب من الذهب فيها أحلى الشراب وألذه، وفي الجنة ما تشتهيه النفوس ويلذ منظره العيون، ويبهج الأرواح مع الإقامة الدائمة والبقاء المستمر.

٧٢ ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

وهذه الجنة التي أورثكم الله إياها وأسكنكم فيها بسبب ما عملتموه من الطاعات وقدمتموه من الصالحات، فالله جعل الجنة جزاءً لكم، تفضلاً منه ورحمة، ولولا رحمته ما دخل الجنة أحد بعمله.

٧٣ ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾

لكم - أيها الأبرار - في جنات النعيم فاكهة مختلفة الأنواع من شتى الأصناف تأكلون منها ما تشتهون.

٧٤ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

إن الفجار الكفار خالدون في عذاب النار؛ لأنهم عصوا الجبار وخالفوا النبي المختار.

٧٥ ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾

لا يخفف عن المجرمين العذاب وهم آيسون في النار من رحمة الواحد القهار، فلا أمل لهم في النجاة ولا طريق لهم إلى الرحمة.

٧٦ ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وما ظلم الله هؤلاء الفجار حين عذبهم ولكن ظلموا أنفسهم بكفرهم لربهم.

٧٧ ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾

ونادى الفجار في النار بعد أن أدخلهم فيها الملك الجبار: يا مالك - وهو خازن النار - اسأل ربك أن يميتنا فنستريح من العذاب، فرد عليهم مالك: إنكم باقون في العذاب لا خروج لكم، ولا تخفيف عنكم، ولا رحمة تنالكم.

٧٨ ﴿ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

لقد أرسل الله إليكم رسوله ﷺ بالحق وبيّن لكم الهدى، ولكن أكثركم أبى، وأكثركم كره الحق ورده.

٧٩ ﴿ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴾

بل أحكَم الكفار أمرًا يكيدون به الرسول والحق الذي بُعث به، فالله محكم الكيد لهم ومدبر العذاب الذي ينتظرهم.

(٨٠) ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾

أيظن الكفار أن الله لا يسمع ما يسرونه في أنفسهم وما يتناجون به فيما بينهم من كلام؟ بلى، فالله يسمع ويعلم ويطلع، لا تخفى عليه خافية، ورسله من الملائكة الكرام يكتبون أقوالهم وأعمالهم ليحاسبهم الله عليها يوم القيامة.

(٨١) ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾

قل - يا محمد - للكفار المدعين كذبًا وزورًا أن الملائكة بنات الله: ما كان له - سبحانه - من ولد، فإنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأنا أول عابد له - عز وجل - وأول منكر لما تَدَّعُونه من كذب، فتعالى الله عن الصاحبة والولد والشريك والظهير.

(٨٢) ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

تنزه الله وتقدس وتعالى، فهو رب السموات والأرض وخالقهن ومدبرهن، وهو رب العرش العظيم، تنزه عما وصفه به الكفار من نسبة الصاحبة والولد إليه، وجعل الشريك معه، ووصفه بالوصف الباطل تقدس اسمه.

(٨٣) ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾

فاترك - أيها الرسول - هؤلاء الكفار يخوضوا في الباطل، ويلعبوا في الدنيا حتى يلاقوا يوم الحساب الذي وعدهم الله فيه بأشد العذاب، أو ما وعدهم الله في هذه الدنيا من عقوبة وذل وهزيمة .

(٨٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

والله وحده المعبود بحق لا إله إلا هو ولا رب سواه في السماء والأرض، وهو مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله، حكيم في خلقه وصنعه وتدبيره وشرعه، عليم بما خفي أو ظهر وما أسر به العبد أو جهر.

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

وتكاثرت بركات الله وعم خيره وعظم مجده وتقدس اسمه الذي له وحده ملك السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وهو المدبر المصرف المتفرد بالخلق والرزق، وعنده وحده علم الساعة متى يحين وقتها وإليه تعود الخليقة؛ فيحاسبهم ويجازيهم بما عملوا إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

ولا تملك الآلهة الباطلة التي تُعبد من دون الله شفاعة لمن عبدها، إنما الشفاعة لمن شهد بالحق وأخلص التوحيد لله واتبع رسوله ﷺ، وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به وأقروا عليه.

(٨٧) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾

ولئن سألت الكفار - أيها الرسول -: من الذي خلقكم؟ لقالوا: الله خلقنا، فكيف يعبدون غير الله وهو خالقهم وكيف يشركون به سواه وهو الذي أوجدهم وحده؟!

(٨٨) ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

وقال الرسول ﷺ داعيًا ربه شاكيًا الكفار الذين كذبوه: يا ربِّ إن هؤلاء الكفار كذبوني ولم يؤمنوا بما أرسلت به وردوا دعوتي.

(٨٩) ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾

فاصفح - أيها الرسول - عنهم وأعرض عن أذاهم وواجههم بالسلام الذي هو ترك الانتقام منهم والموادعة لهم، وهو فعل الأبرار العقلاء مع الجهلاء السفهاء، فإنهم لا يقابلونهم بالسوء ولا يَسْفهون كَسَفَهِهِم، وسوف يعلم الكفار ما ينتظرهم من عقاب يوم الحساب.

مكية

ترتيبها ٤٤

سورة الدخان

آياتها ٥٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

(٢) ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾

أقسم الله بالقرآن البينة معانيه، الفصيحة ألفاظه، الفاصل في أحكامه، الصادق في وعده ووعيده.

(٣) ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾

إن الله أنزل القرآن في ليلة القدر التي بارك الله فيها من كثرة الخيرات ومضاعفة الحسنات والعفو عن السيئات، وهي في العشر الأواخر من رمضان، إن الله ينذر العباد لما فيه نفعهم وصلاحهم ويحذرهم مما فيه الضرر عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لئلا يحتج المكذب بأن لا رسالة ولا رسول.

(٤) ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾

في ليلة القدر يُفرض في اللوح المحفوظ كل أمر محكم ثابت من الآجال والأرزاق في تلك السنة، وكذلك ما يجري فيها من الحوادث بلا تغيير ولا تبديل.

(٥) ﴿ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴾

وهذا الأمر المحكم والقضاء النافذ بأمر من عند الله، فكل شيء بقضاء الله وقدره، وكل ما يوحيه إلى رسله فبإذنه وعلمه، إن الله يرسل الرسل إلى الناس مبشرين ومنذرين.

(٦) ﴿ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

وإرسال الرسل من الله رحمة لمن أرسلهم إليهم من العباد؛ لأن الرسل يرشدون الناس إلى أقوم السبل، ويزكُّونهم من الآثام والذنوب، والله - سبحانه وتعالى - سميع لكل الأصوات والحركات، عليم بكل الأقوال والأفعال والأحوال.

(٧) ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

والله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، فإن كنتم موقنين بذلك معتقدين صحته من أنه الرب الخالق المدبر فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا.

(٨) ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

لا إله يستحق العبادة إلا الله وحده لا شريك له، وإلى هذا دعا الرسل جميعًا وهي كلمة التوحيد، وهو - سبحانه - المحيي المميت، وهو خالق الناس وخالق آبائهم الأولين، فهو المستحق للعبادة الذي يجب إخلاص الطاعة له واتباع رسوله والاهتداء بكتابه.

(٩) ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴾

بل الكفار في شك من القرآن وفي ريبة من الرسول، وهم في غفلة يلعبون في دنياهم ويلهون في شهواتهم ولا يدرون ماذا ينتظرهم.

(١٠) ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾

فانتظر - أيها الرسول - لهؤلاء الكفار يومًا تُغطى السماء فيه بدخان منتشر كثيف واضح يراه الناس.

(١١) ﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

هذا الدخان يغشى الناس ويقال لهم: هذا عذاب مؤلم موجع بسبب ذنوب العباد.

(١٢) ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾

فإذا رأى الناس الدخان الكثيف قد غطاهم نادوا ربهم: ربنا اكشف عنا العذاب، فإذا كشفته عنا صدقنا برسولك وآمنا بكتابك.

(١٣) ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾

كيف يكون لهم الاتعاظ والاعتبار بعد نزول العذاب وقد كَذَّبوا الرسول ﷺ وقد جاء بحجة بينة ومعجزة ظاهرة وهو القرآن.

(١٤) ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾

ثم أعرض الكفار عن تصديق الرسول ﷺ وقالوا: أخذ علمه من الناس أو من الكهان أو من الشياطين، وهو مجنون ولم يرسله ربه.

(١٥) ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾

إن الله سوف يرفع العذاب عن الكفار قليلاً، وسوف يرجع الكفار إلى ما كانوا فيه من التكذيب والكفر والعناد وهذا في الدنيا.

(١٦) ﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

يعذب الله الكفار أشد العذاب يوم القيامة بإدخالهم النار، إن الله سريع الانتقام شديد الأخذ قوي البطش.

(١٧) ﴿ ۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴾

ولقد امتحن الله قبل كفار هذه الأمة قوم فرعون، فأرسل إليهم موسى - عليه السلام - الوجيه عند ربه الكريم على مولاه، وكذبوه وحاربوه وآذوه، فأهلكهم الله، وهذه سنة الله في كل من كذب رسله.

(١٨) ﴿ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾

وقال موسى لفرعون وقومه: سلموا إليَّ قوم بني إسرائيل وأرسلوهم معي ليستطيعوا عبادة الله وحده؛ لأنهم كانوا مضطهدين في مصر، وقال موسى: إن الله أرسلني برسالته، أمينا على وحيه لأبلِّغكم دعوة التوحيد.

(١٩) ﴿ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾

ولا تتكبروا على الله وتخالفوا أمره وتكذبوا رسوله، إني جئتكم بدليل واضح ومعجزة ظاهرة على صحة ما أرسلت به.

(٢٠) ﴿ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴾

وقال موسى: وإني اعتصمت بالله واستجرت به وهو الذي خلقني وخلقكم أن تقتلوني رميًا بالحجارة.

(٢١) ﴿ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴾

وإذا لم تصدقوني وتؤمنوا بما أرسلت به فاتركوا إيذائي وخلوا سبيلي وكفوا عن محاربتي.

(٢٢) ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾

فدعا موسى ربه لما رد فرعون وقومه دعوته فقال: يا ربي، إن هؤلاء قوم كفار فجار فانتقم منهم.

(٢٣) ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾

فأمره ربه أن يسري بعباده بني إسرائيل في ظلام الليل؛ ليكون أستر لهم، فإن فرعون وجنوده سوف يتبعونهم، وسوف ينجي الله المؤمنين ويغرق الكافرين.

(٢٤) ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾

واترك يا موسى البحر ساكنًا على حالته التي كان عليها حين عبرته لا يضطرب ولا يتحرك؛ ليدخله فرعون وقومه فيغرقهم الله فيه.

(٢٥) ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

كم ترك فرعون وقومه بعد هلاكهم من بساتين خُضْر وحدائق غناء وعيون جارية بالماء .

(٢٦) ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

وكم ترك فرعون وقومه بعد الهلاك زروعًا وأشجارًا مثمرة وقصورًا شاهقة ودورًا جميلة.

(٢٧) ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾

وكم تركوا وراءهم من عيشة رغيدة كانوا فيها منعمين مترفين ولكنهم كفروا فدُمروا، والذنوب تزيل النعم وتحل بسببها النقم.

(٢٨) ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

بمثل هذه العقوبة يعاقب الله كل كافر مكذب، وأورث الله النعيم الذي تركه فرعون وقومه قومًا آخرين من بني إسرائيل.

(٢٩) ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾

فما بكت السماء والأرض حزنًا على فراق فرعون وقومه وقد كانوا أتفه وأحقر من ذلك، وما كان الله ليؤخرهم عن العقوبة التي قدرها لهم بل وقعت في وقتها.

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

ولقد نجّى الله بني إسرائيل من عذاب فرعون الذي سامهم به من قتل الأبناء واستخدام النساء.

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾

وعذاب بني إسرائيل كان صادرًا عن فرعون الجبار المتجاوز لحدود الله، المسرف في الذنوب، صاحب العدوان والطغيان.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

ولقد اصطفى الله بني إسرائيل على الأمم في زمانهم، فجعل النبوة فيهم والعلم والحكمة.

(٣٣) ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾

وأعطى الله بني إسرائيل من المعجزات الباهرة على يد موسى ما فيه اختبار وامتحان لهم بالرخاء والشدة والعسر واليسر؛ ليعلم الشاكر من الكافر.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾

إن هؤلاء الكفار من قومك - أيها الرسول - ليقولون:

(٣٥) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾

ما هي إلا هذه الموتة التي نموتها وهي الأولى والأخيرة، ولا بعث بعدها ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب؛ كذبًا منهم وزورًا.

٣٦ ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

ويقول الكفار: إن كنتم صادقين - أيها المؤمنون - أن الله يبعث من في القبور فأحيوا لنا آباءنا الذين ماتوا.

٣٧ ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

أهؤلاء الكفار أفضل أم قوم تبع الحميري والذين سبقوهم من الأمم المكذبة أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم، فليس هؤلاء الكفار أفضل من أولئك فينجون من عقوبة الله، ويسلمون من عذابه، بل مصيرهم واحد.

٣٨ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾

وما خلق الله السموات والأرض وما بينهما لعبًا ولهوًا بل لحكمة عظيمة ولمقصد جليل.

٣٩ ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق الذي سنه في الخلق والتدبير والإحياء والإماتة، ولم يخلقهما عبثًا، فهو منزه عن ذلك - سبحانه -، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق في ذلك، فهم جهلاء معرضون لا يتدبرون ولا يعتبرون بما يرونه من الآيات ويسمعونه من العظات.

٤٠ ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

إن يوم القيامة الذي يقضي الله فيه بين الخلائق فيثيب المحسن ويعاقب المسيء موعد للخليقة سوف يقع لا محالة.

٤١ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

يوم لا ينفع صاحب صاحبه ولا ينصر صديق صديقه ولا يدفع قريب عن قريبه ضرًا.

٤٢ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

إلا من رحم الله من أوليائه فإن بعضهم قد يشفع لبعض إذا أذن الله للشافع ورضي عن المشفوع له، إن الله هو العزيز في ملكه وحكمه، القوي في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه الذي يصرف عنهم المكاره ويتحبب إليهم بالنعم.

٤٣ ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾

إن شجرة الزقوم وهي شجرة تخرج في أصل النار.

٤٤ ﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾

إن ثمر هذه الشجرة طعام للفاجر الكافر كثير الآثام.

٤٥ ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴾

وثمر شجرة الزقوم كالقطران أو النحاس أو الفضة التي أوقد عليها حتى ذابت، يغلي في بطون الكفار، ويقطع أمعاء الفجار.

٤٦ ﴿ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾

وغلي ثمر الزقوم في بطون المجرمين كغلي الماء شديد الحرارة.

٤٧ ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

خذوا - أيها الزبانية - هذا الكافر الفاجر فادفعوه إلى النار، وسوقوه إلى غضب الجبار، وضعوه في وسط جهنم مع الأشرار.

٤٨ ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾

ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر الماء المغلي شديد الحرارة يشوي جسمه ويمزق جلده.

(٤٩) ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾

يقال لهذا الفاجر الكافر: ذق هذا العقاب الشديد والعذاب الأليم إنك أنت العزيز في قومك، الكريم في مكانتك؛ تهكمًا وسخرية منه.

(٥٠) ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾

إن هذا العذاب الذي حل بالكفار في النار هو العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا.

(٥١) ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾

إن الذين اتقوا الله بطاعته واجتناب معصيته في مقعد صدق يأمنون فيه من الآفات ويجدون فيه جميع أنواع المسرات.

(٥٢) ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

في جنات خُضْر وبساتين فيحاء مع قرة عين وسرور ونعيم وحبور، وعيون بالماء العذب الزلال تجري من تحت الأشجار.

(٥٣) ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾

هؤلاء الأبرار يلبسون رقيق الديباج وغليظه، قد تقابلوا بوجوههم، ينظر بعضهم إلى بعض، يجري بينهم أحسن الحديث وأنفع الكلام.

(٥٤) ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

ومثلما أنعم الله على هؤلاء الأبرار بالكرامة بالجنات بأنواع المسرات والخيرات، أكرمهم بالزواج من الحسناوات الجميلات ذوات العيون الواسعات.

(٥٥) ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾

يطلب الأبرار في الجنة ما أرادوا من شتى الفواكه وأصناف الثمار، وقد أمنوا من انقطاع النعيم وفنائه، وأمنوا من كل خوف وآفة.

(٥٦) ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

لا يذوق الأبرار في دار القرار الموت، فهم خالدون أبدًا في نعيم الجنة، فليس لهم إلا موتة واحدة، وهي الموتة التي ذاقوها في الدنيا، وحمى الله هؤلاء الأبرار من عذاب النار.

(٥٧) ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

وهذا النعيم الذي أنعم الله به على أوليائه في الجنة تفضلاً منه وإحسانًا وكرمًا ومنّة، وهو الظفر الذي ما بعده ظفر، وهو نيل أشرف المطالب وأرفع المراتب.

(٥٨) ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

فإنما سهَّل الله لفظ القرآن ويسَّر معانيه بلغة العرب التي هي لغة الرسول ﷺ لعلهم يفهمون هذا الكلام فيفقهون معانيه ويتعظون بزواجره وينتفعون بأحكامه.

(٥٩) ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾

فانتظر - أيها الرسول - ما وعدك الله به من نصر على الكفار وعقاب للفجار، إن الكفار ينتظرون موتك ويتربصون بك الدوائر، وسوف يعلمون لمن يكون النصر والظفر والتأييد والتمكين، وقد ظهر ذلك كله وحصل لرسولنا ﷺ ولأتباعه إلى يوم القيامة جعلنا الله منهم.

مكية

ترتيبها ٤٥

سورة الجاثية

آياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿حمٓ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

هذا القرآن أنزله الله وحيًا على رسوله ﷺ والله هو العزيز في ملكه وحكمه، يعز من والاه ويذل من عاداه، الحكيم في خلقه وصنعه وفي تدبيره وشرعه.

(٣) ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

إن في خلق السموات السبع وخلق الأرض لبراهين واضحة يتفكر فيها المؤمنون بالله ورسوله فيزدادون إيمانًا.

(٤) ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

وفي خلق البشر وما خلق الله من كل دابة تدب على وجه الأرض براهين ظاهرة لكل من أيقن بوحدانية الله وآمن برسوله واتبع شرعه.

(٥) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما على العالم، وما أنزل الله من السماء من ماء جعله سببًا لإحياء الأرض بعد الجدب بأنواع الثمار والأزهار والزروع، وفي تصريف الله للرياح من كل النواحي والتي جعلها الله سببًا لمنافع الناس من تلقيح الثمار وسوق السحاب في ذلك كله براهين ظاهرة لقوم يعقلون عن الله آياته؛ فيتدبرون ويفقهون.

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

هذه البراهين يتلوها الله على رسوله ﷺ بالحق والصدق؛ لتقوم الحجة وتبطل أعذار الكفار، فبأي كلام بعد الكلام الذي أنزله الله على رسوله ﷺ وبأي براهين بعد البراهين الساطعة التي أقامها الله في الكون وأنزلها في الكتاب يؤمن الكفار ويصدق الفجار إذا لم يؤمنوا بها ولم يصدقوا؟!

(٧) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾

هلاك ودمار ولعنة ونار لكل كذاب مفتر كثير الذنوب مرتكب للآثام.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

هذا الكذاب المفتري يسمع آيات القرآن وهي تُقرأ عليه، ثم يستمر في طغيانه وفي تكذيبه متعاظمًا في نفسه، يأبى الخضوع لله، ويعرض عن الإيمان واتباع الرسول ﷺ، كأنه ما سمع الآيات التي تُتلى عليه سماع قبول واستجابة، فحاله قبل سماع القرآن وبعده سواء فبشر - أيها الرسول - هذا الأفاك الأثيم بعذاب أليم في نار الجحيم.

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

وإذا علم هذا الكذاب المفتري من آيات الله شيئًا جعلها سخرية منه واستهزأ بها وضحك منها؛ لانطماس بصيرته وفجوره، ومَنْ هذا شأنه فله عذاب الخزي والهوان والعار جزاءً على استهزائه بآيات الواحد القهار.

(١٠) ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

من أمام الكفار المستهزئين بالقرآن النار تنتظرهم بعذابها وأنكالها وأغلالها، ولا يدفع عنهم العذاب ما جمعوه من مال ولا ما خلّفوه من أولاد، ولا تشفع لهم ولا تنفعهم أصنامهم التي عبدوها من دون الله، ولهم أشد العذاب في نار جهنم.

(١١) ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ يهدي به الله من الضلالة، ويعلم به من الجهالة، ويُبَصِّر به من العمى، وهو يهدي إلى صراط مستقيم، فمن اتبعه وعمل بما فيه نال الهدى والنجاة، وأدرك الفوز والفلاح، والذين كذبوا بالقرآن واستهزؤوا بآياته ولم يقبلوا هداه لهم عذاب من أشد أصناف العذاب ومن أفظع أنواع النكال في نار جهنم.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

الله وحده هو الذي سخر للناس البحر لتسعى السفن بركابها وحمولتها على ظهر البحر بأمر الله، وليطلب الناس أرزاقهم وتجارتهم بهذه السفن في البحر لعلهم يشكرون الله بطاعته وحسن عبادته، فيفردوه بالألوهية ويخلصوا له الوحدانية مع طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

وسخر الله لعباده كل ما في السموات من شمس وقمر ونجوم وكواكب وسحاب، وسخر كل ما في الأرض من حيوان ونبات وجماد لمنافع العباد، وكل هذه الخيرات تفضل الله بها على الناس ليشكروه ويخلصوا له العبادة، إن فيما سخره الله لبراهين ظاهرة على قدرته - سبحانه وتعالى - ووحدانيته وعظمته لكل من تفكر واعتبر بهذه البراهين وانتفع بها.

(١٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قل - أيها الرسول - لمن آمن بالله واتبع رسوله واهتدى بهداه يعفون عن الكفار الذين لا يريدون ثواب الله ولا يرجون رحمته ولا يخافون عذابه، وليحلم هؤلاء المؤمنون على أولئك الفجار إذا نالوهم بأذى أو مكروه، فإن الله سوف يتولى حسابهم وعذابهم على ما فعلوه بالمؤمنين من كيد ومكر وأذى.

(١٥) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

من عمل من المؤمنين عملاً صالحًا خالصًا لوجه الله على سنة رسول الله فنفع ذلك عائد إليه، ومن أساء العمل وعصى الله وخالف رسوله ﷺ فضرر ذلك عائد إليه لا إلى غيره، وسوف يعود العباد جميعا إلى الله يوم المعاد؛ ليجازيهم على ما فعلوا إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ولقد أعطى الله بني إسرائيل التوراة التي أنزلها على موسى والإنجيل الذي أنزله على عيسى وأعطاهم الحكم بين الناس ومعرفة الأحكام، وبعث أكثر الأنبياء منهم، ورزقهم من خيرات الأرض من أنواع الثمار وأصناف الأقوات ومختلف الأطعمة، وفضلهم الله على عالم زمانهم.

(١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

وأعطى الله بني إسرائيل براهين ظاهرة من الأحكام المنزلة في الحلال والحرام والمأمور والمنهي عنه مع بيان الحق والباطل، فما اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم وتنازعوا إلا بعد ما جاءهم العلم ووضح لهم البرهان وأُرسلت إليهم الرسل؛ وسبب ذلك أن بعضهم بغى على بعض وحسده وترفع عليه؛ طلبًا للجاه في الدنيا والتصدر والرئاسة؛ فعلماء

الدنيا يتحاسدون وعلماء الآخرة يتحابون، إن الله - سبحانه - سوف يحكم بين المختلفين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فينجي الأبرار ويهلك الفجار.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ثم جعلك الله - أيها الرسول - خاتمًا للأنبياء والرسل على دين قويم ومنهج عظيم وصراط مستقيم، فاتبع ما أوحاه الله إليك واعمل به وادع إليه، ولا تتبع أهواء الجهلاء والضالين المعرضين عن الكتاب والسنة الذين لا يعلمون الحق ولا يعملون به ولا يدعون إليه. وفي هذه الآية برهان على كفاية الشريعة لكل مسلم ووجوب اتباعها والاستغناء بها عن كل ملة ونحلة تخالفها.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

إن الكفار لن يدفعوا عنك شيئًا من عذاب الله إذا وافقتهم في باطلهم واتبعتهم في ضلالهم، وإن الكفار المعتدين المسرفين في الذنوب من المنافقين واليهود وغيرهم بعضهم يوالي بعضًا ويحبه وينصره ويدافع عنه، والله ولي الأتقياء، ينصرهم ويدافع عنهم ويتولاهم في الدنيا والآخرة، فلا تُنال ولاية الله إلا بطاعته.

(٢٠) ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

هذا القرآن الموحى إلى الرسول ﷺ بصائر يهتدي بها العباد إلى الحق، ويستدلون بها على كل خير، ويميزون بها الرشد من الغي، وهي رحمة لمن صدق بها وعمل بمقتضاها واتبع هداها.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

هل يظن من اقترف المعاصي وأكثر من الذنوب وخالف الرسول ﷺ أن يجعله الله كمن آمن بالله وعمل صالحًا وأخلص الطاعة لله وصدق في عبودية ربه، وهذا ظن باطل، فلن يجعل الله المؤمن كالكافر، والبار كالفاجر في الدنيا ولا في الآخرة، قبح هذا الحكم في المساواة التي حكم بها هؤلاء الفجار الأشرار.

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وخلق الله السموات والأرض بحق لا باطل فيه، وحكمة لا لعب فيها، وليعمل كل عامل في الدنيا بما كُتب له من خير وشر؛ ثم يحاسب الله كل نفس يوم القيامة بما فعلت من صلاح وفساد، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي، ولا يظلم أحدًا بالنقص من حسناته أو الزيادة في سيئاته.

(٢٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

أفرأيت - أيها الرسول - إلى من جعل هواه إلهه الذي يعبده فلا يهوى شيئًا إلا عمله ولو خالف الشرع، وأضله الله بعد أن بَلَغَهُ العلم وقامت عليه الحجة، وعلم أن ما يفعله ضلال، فلا ينتفع بنصيحة ولا يعتبر بموعظة، وطبع الله على قلبه فلا يفقه شيئًا ولا يفهم دليلاً، وغطى الله بصره بحجاب فلا يبصر براهين القدرة والوحدانية، فمن الذي يرشده إلى الهدى ويوفقه للحق بعدما أضله الله؟ أفلا تعتبرون - أيها العباد - أن من كتب الله عليه الضلال لكفره وبغيه فلن يهتدي أبدًا؟ وفي الآية: النهي عن اتباع الهوى وتحكيمه على الشرع والعقل.

(٢٤) ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

وقال الكفار: ليس هناك حياة إلا هذه الحياة التي نعيش فيها، وهم ينكرون الآخرة والبعث بعد الموت، وما يفنينا إلا كر الليالي والأيام وتعاقبهما، مكذبين بأن الله هو المحيي المميت، وما للكفار علم ولا برهان على صحة ما قالوا: إنما يتكلمون بالاحتمال والخيال والوهم والظن.

(٢٥) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

وإذا تُتلى على الكفار آيات الله البينات في كتابه الحكيم ما كان لهم حجة في معارضة القرآن إلا قولهم للرسول ﷺ أعد لنا أنت وأتباعك من مات من آبائنا لنراهم أحياء إن كنتم صادقين أن الله يبعث من في القبور ويحيي الأموات.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

قل - أيها الرسول - لهؤلاء الكفار: الله تعالى يحييكم في الدنيا ما كتبه لكم من عمر ثم يميتكم ثم يبعثكم ليوم الجمع ليحاسبكم على ما فعلتم، ولكن أكثر العباد لا يعلمون حقيقة البعث بعد الموت.

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾

ولله - سبحانه - ملك السموات السبع والأرضين وتدبيرهن وتصريفهن، لا شريك له في الخلق والأمر والعبودية، ويوم تقوم الساعة التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين يهلك الكفار وتذهب أعمالهم ويبطل سعيهم؛ لأنهم جحدوا البراهين وكذبوا بآيات الله.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

وترى يوم القيامة كل أهل دين جاثين على ركبهم من شدة الخوف وعظم الهول، وكل أمة يدعوها الله إلى كتاب أعمالها من حسنات وسيئات ويجازيهم على ما فعلوا من خير وشر.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

هذا كتاب الله الذي كُتبت فيه الحسنات والسيئات ينطق بما فعله الناس من صلاح وفساد بلا زيادة ولا نقصان، إن الله يأمر الملائكة أن تسطر أعمال بني آدم حسنها وسيئها.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾

فأما المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، الصالحون الذين عملوا بالطاعة وانتهوا عن المعصية؛ فيدخلهم الجنة برحمته، ودخولهم الجنة ظفر كبير وفلاح عظيم؛ لأنهم نالوا المطلوب ونجوا من المرهوب.

(٣١) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾

وأما الكفار المكذبون فيقال لهم - تبكيتًا وتعنيفًا -: ألم تكن آيات الله في كتابه تُقرأ عليكم وقد قامت بها عليكم الحجة فأعرضتم وتكبرتم عن قبولها والاستجابة لها، وكنتم قومًا مسرفين في الخطايا، مكثرين من الآثام لا تؤمنون بالحساب ولا بالثواب ولا بالعقاب.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾

وإذا قيل للكفار: إن ما وعد الله به من البعث بعد الموت حق وصدق، وأن الساعة سوف تقع لا شك في وقوعها، قلتم: ما ندري عن الساعة شيئًا ولا نصدق بقيامها إلا توهمًا، وما عندنا يقين قاطع بصدق وقوعها.

(٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

وظهر للكفار يوم القيامة قبح ما فعلوه في الدنيا من تكذيب وذنوب، وحل بهم عاقبة ما كان يسخرون منه ويستهزئون به.

(٣٤) ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

وقيل للكفار يوم القيامة: هذا اليوم نترككم في عذاب النار كما تركتم الإيمان بالواحد القهار واتباع النبي المختار، ومقركم نار جهنم دار إقامتكم، وليس لكم ناصر يدفع عنكم العذاب.

(٣٥) ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾

هذا العذاب الذي نزل بكم؛ لأنكم سَخِرتُم من آيات الله وبراهينه ولم تأخذوها بجد وقوة وقبول، وخدعكم زخرف الدنيا الزائل، وافتتنتم بمظاهرها، فاليوم لا تخرجون من النار، ولا تعودون إلى الدنيا لتؤمنوا وتتوبوا من الكفر والتكذيب.

(٣٦) ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

فلله وحده الثناء الجميل والشكر الجزيل على صفات كماله وجزيل أفضاله وجميل أفعاله، وهو خالق السموات والأرض ومن فيهما ومالكهما ومدبرهما، وهو خالق جميع المخلوقات والمتصرف في الكائنات.

(٣٧) ﴿ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

ولله وحده العزة والجبروت، والعظمة والسلطان والجلال والكمال في السموات والأرض، وهو العزيز الذي يقهر من غالبه ويخذل من حاربه، الحكيم في خلقه وصنعه وحكمه وشرعه.

مكية

ترتيبها
٤٦

سورة الأحقاف

آياتها
٣٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ حمٓ ﴾

هذه الحروف المتقطعة الله أعلم بمراده بها.

(٢) ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾

هذا القرآن أنزله الله وحيًا منه على رسوله ﷺ، والله هو العزيز يعز من تولاه ويذل من عاداه، الحكيم في خلقه وتقديره وفي شرعه وتدبيره.

(٣) ﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾

ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وما خلقهما لهوًا ولا لعبًا ولا عبثًا، تعالى الله عن ذلك، بل يُعبد وحده ويُطاع دون سواه ولا يشرك به شيئًا، ويقام العدل في العالم إلى وقت محدّد عند الله، والذين كذبوا بآيات الله وجحدوا ألوهيته عما خوفهم به القرآن والرسول ﷺ معرضون، لا يؤمنون ولا يستجيبون.

(٤) ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أرأيتم الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله، أروني شيئًا خلقوه من الأرض أم لهم قسم من خلق السموات حتى يصرف لهم شيء من العبادة ويشرك بهم مع الله في ألوهيته، تعالوا بكتاب يبين ذلك من عند الله ويشهد بصحة ما قلتم، أو تعالوا ببقية علم ممن سبق تؤيد ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم.

(٥) ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴾

لا أحد في العالم أضل ولا أجهل ممن عبد غير الله ودعاه من آلهة باطلة لا تستجيب دعاءه أبدًا ولا تعلم ما يقول؛ لأنها جامدة ميتة عاجزة، إنما هي أحجار وأشجار، وهي غافلة عن دعاء من يعبدها لا تعلم شيئًا ولا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًا.

٦ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾

وإذا جُمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الآلهة التي تعبد من دون الله أعداء لمن عبدها تتبرأ منهم وتلعنهم وتنكر عبادتهم.

٧ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

وإذا قرئت آيات الله في كتابه واضحة الدلالة بينة الحجة على الكفار قالوا بعدما سمعوا القرآن: هذا سحر ظاهر لا يشك فيه أحد.

٨ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

أم يقول الكفار: إن الرسول اختلق القرآن من عنده وليس وحيًا من عند الله؟ قل لهم - أيها الرسول -: إن اختلقته من عندي فلن تستطيعوا دفع عذاب الله عني، إذا أراد أن يعذبني، والله يعلم ما تقولونه وتخوضون فيه من كلام عن القرآن وعن الرسول ﷺ. كفى بالله شاهدًا علي فيما بَلّغتُ وشاهدًا عليكم فيما أجبتم به، وهو - سبحانه - الغفور لمن تاب والرحيم بمن أحسن واستجاب.

٩ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: ما كنت أنا أول رسول أرسله الله إلى عِبَاده بل سبقني رسل، وما أدري ما يفعل الله بي ولا بكم في الدنيا، فعلم الغيب لله وحده إنما علي البلاغ، ما أتبع في كل أموري إلا الوحي الذي نَزَّله الله عَلَيَّ، وما أنا إلا نذير من الله يخوف من خالف أمر الله عذاب الله، وهذا الإنذار بيِّن واضح فيما أدعو إليه.

١٠ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أخبروني إن كان القرآن وحيًا من عند الله وأنتم كذبتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره على أن القرآن من عند الله كما جاء في التوراة، فَصَدَّق بالقرآن وعمل به وأنتم كذبتم وكفرتم فما أشد كفركم وأعظم ظلمكم لأنفسكم، إن الله لا يرشد إلى الصواب من كفر بالكتاب، ولا يهدي للحق من كذب بالصدق.

١١ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾

وقال الكفار للمؤمنين: لو كان إيمانكم بالرسول ﷺ واتباعكم إيَّاه خيرًا وفضيلة كنا سبقناكم إلى الإيمان والاتباع، وإذ لم يهتدوا بالقرآن ولم يؤمنوا به فسيقولون: هذا كذب منقول عمن سبق، وهو من خرافات الأولين.

١٢ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

ومن قبل القرآن أنزل الله التوراة على موسى إمامًا لبني إسرائيل يتبعون ما فيها من الهدى، ورحمة لمن عمل بما فيها، وهذا القرآن يصدق ما قبله من الكتب التي أنزلها الله على رسله، أنزله الله بلغة العرب ليكون مفهومًا على أهل اللسان؛ لينذر الكفار عذاب النار ويبشر المحسنين بجنات الخلد في مقعد صدق أمين.

١٣ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

إن الذين قالوا: ربنا الله فشهدوا بالربوبية والألوهية لله، ثم استقاموا على طاعته واجتنبوا محارمه، فلا خوف عليهم مما أمامهم من أهوال، ولا حزن عليهم من تبعة الأعمال ولا ما خلفوه من أولاد وأقوال.

١٤ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

هؤلاء الأبرار هم أهل جنة النعيم، باقين في الجنة أبدًا بلا موت ولا خروج منها، ثوابًا من الله وكرامةً لهم؛ لأنهم أحسنوا العمل وأخلصوا لله العبادة.

(١٥) ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

ووصى الله الإنسان ببر والديه وألزمه ذلك، يرفق بهما في حياتهما ويحسن إليهما بعد موتهما بالدعاء والتصدق وأنواع البر إذا كانا مسلمين، فأمه حملته في بطنها على تعب ومشقة وآلام وأوجاع، وولدته على مشقة شديدة وتعب وألم، وزمن حمله وفطامه ثلاثون شهرًا، فالأم أعظم حقًّا على الابن من الأب، حتى إذا وصل هذا المولود من تمام القوة وكمال الاعتدال، وبلغ أربعين سنة من عمره دعا ربه قائلاً: ربي ألهمني شكر نعمتك التي تفضلت بها علي وعلى والدي، ووفقني لعمل صالح ترضاه، وهو ما صاحبه الإخلاص وموافقة السنة، وأصلح ذريتي باستقامتهم على الدين، إني تبتُ إليك من سيئاتي، وإني انقدتُ لأمرك وخضعتُ لسلطانك واستسلمت لشرعك.

(١٦) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾

أولئك الصالحون الأبرار يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا من الصالحات، فيجعل ثواب أعمالهم على مقدار ثواب أحسن ما فعلوه، ويعفو عن سيئاتهم ويتجاوز عن ذنوبهم، يدخلون في جملة من يدخل الجنة، وهذا وعد من الله الذي لا يخلف وعده، وهو وعد الصدق الذي لا شك فيه ولا ريب.

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

والذي قال لوالديه لما دعواه إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر: قبحًا لكما أتخبرانني بأنني سوف أبعث من قبري حيًا وقد هلك من قبلي من الأمم ولم يعد أحد منهم إلى الحياة، ووالداه يدعوان الله له بالهداية ويقولان: ويل لك، آمن بالله وصدق رسوله واتبع دينه، فإن ما وعد الله به صدق لا شك فيه، فيرد عليهما بأن ما أخبراه به إنما هو خرافات السابقين، وما نقل من كتب المتقدمين من حكايات كاذبة.

(١٨) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾

هؤلاء الفجار الذين سبقت أوصافهم هم الذين وجب عليهم عذاب الله، ووقع بهم عقاب الله وسخطه في جملة أقوام سبقوهم من الجن والإنس في الكفر والتكذيب، إنهم كانوا خاسرين بأخذهم الكفر بالإيمان والعذاب بالنعيم.

(١٩) ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ولكل طائفة من الأبرار والفجار منازل عند الله في الجنة والنار، بحسب ما عملوا من خير وشر، كل له منزلة على حسب عمله، وليجازيهم الله على حسب ما فعلوه، فلا يزاد في سيئاتهم بل قد يعفو، ولا ينقص من حسناتهم بل قد يزيد، كرمًا وتفضلاً.

(٢٠) ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

ويوم القيامة يعرض الكفار على النار، ويقال لهم - تبكيتًا -: لقد أذهبتم طيباتكم واستعجلتم شهوات نفوسكم وتمتعتم بها في الحياة الدنيا، فيوم القيامة تُعاقَبُون - أيها الكفار - بعذاب الخزي والذل والعار، بسبب تكبركم عن قبول الحق وعنادكم وخروجكم عن طاعة الله وتجبركم على عباد الله.

(٢١) ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

واذكر - أيها النبي - نبي الله هودًا أخا قوم عاد من النسب لا في الديانة، يوم خوَّف قومه عذاب الله، وهم في ديارهم بالأحقاف جنوب جزيرة العرب، وقد تقدمت الرسل على هود بتخويف أقوامهم عذاب الله إن لم يؤمنوا،

ودعوتهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وقال لهم هود: إني أخاف عليكم عذاب الله في يوم شديد الكرب عظيم الهول إن لم تؤمنوا به وتوحِّدوه.

٢٢ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قالت عاد لرسولهم هود: هل جئت إلينا برسالتك لتصرفنا عن عبادة آلهتنا من دون الله؟ فإن كنت صادقًا فيما تدعونا إليه فتعال بعقاب الله الذي تتوعدنا به.. قالوه سخرية منهم واستبعادًا للعذاب.

٢٣ ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ ﴾

فرد هود عليهم بقوله: إن علم مجيء العذاب عند الله وحده ولا علم لي بذلك، إنما أنا مبلغ عن الله رسالته، أقيم الحجة عليكم وأنذركم بالعذاب، ولا أعلم متى يقع، ولكني أراكم قومًا جهلاء في عنادكم وتكبركم واستخفافكم بأمر الله.

٢٤ ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فلما رأى قوم عاد العذاب معترضًا في السماء قد سد الأفق كأنه سحاب، قالوا: هذا السحاب سوف يمطرنا ماءً نغاث به، فرد عليهم هود وقال: ليس هذا سحاب غيث ورحمة لكنه عارض عذاب ونقمة، وهو الذي استعجلتم نزوله بكم فذوقوه، وهو ريح شديدة مؤلمة قاتلة.

٢٥ ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

تدمر كل ما مرت به مما أمرت بتدميره بإرادة الله - عز وجل -، فأصبحوا بعد هلاكهم وتدميرهم لا يشاهد في ديارهم إلا بيوتهم خاوية على عروشها، وبمثل هذا العقاب يعاقب الله كل مجرم كافر مكذب.

٢٦ ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعًا وَأَبۡصَٰرًا وَأَفۡـِٔدَةً فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

ولقد سهل الله لقوم عاد وسائل التمكين في ديارهم من أهل ومال وولد وقوة وجاه مثلما سهل الله لكفار هذه الأمة، وخلق لهم آذانًا لتسمع وعيونًا لتبصر وقلوبًا لتفقه، فما انتفعوا بها بل استعملوها في كل ما يغضب الله؛ لأنهم كانوا ينكرون براهين الله ويكذبون آياته ويحاربون رسله، وحل بهم من العقاب ما كانوا يسخرون منه ويستبعدونه، وهذا وعيد وتهديد لكل جبار عنيد.

٢٧ ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾

ولقد أهلك الله ما حول مكة من القرى كعاد وثمود وعذبها، فأباد أهلها ودمر قراهم، وقد أوضح الله لهم البراهين ونصب لهم الأدلة التي تدل على وحدانيته وقدرته؛ لعلهم يعودون إلى الله بإخلاص العبادة له.

٢٨ ﴿ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

فهلَّا دافع عن هؤلاء المعذبين آلهتهم التي عبدوها من دون الله، اتخذوها قربانًا يتقربون بها إلى ربهم طلبًا للشفاعة عنده، بل ذهبت عنهم تلك الآلهة وخذلتهم فلم تنصرهم ولم تدفع عنهم عذاب الله، وهذا كذب الكفار وفريتهم في عبادتهم غير الله واتخاذهم آلهة من دونه؛ فليذوقوا نتيجة هذا الكذب والافتراء.

٢٩ ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾

واذكر - أيها النبي - إذ أرسل الله إليك جماعة من الجن يستمعون إلى تلاوتك للقرآن، فلما اجتمعوا عندك وأنت تتلو القرآن قال بعضهم لبعض: أنصتوا لسماع القرآن. فلما انتهيت من تلاوتك وقد آمنوا بالقرآن وصدقوا بما فيه، عادوا إلى قومهم يخوفونهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

(٣٠) ﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

وقالوا لقومهم: يا قومنا: إنا سمعنا قرآنًا نُزِّل على محمد ﷺ من بعد موسى - عليه السلام -، وهذا القرآن يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها الله على رسله، وهو يرشد من آمن به إلى طريق الهدى وسبيل النجاة.

(٣١) ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾

يا قومنا استجيبوا لرسول الله ﷺ واتبعوه واهتدوا بهداه الذي بعث به، يغفر الله لكم من ذنوبكم وينجيكم من عذاب شديد مؤلم في نار جهنم.

(٣٢) ﴿ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾

ومن لا يستجب للرسول ﷺ ويتبعه فليس بفائت على الله في الأرض ولن يعجز ربه إذا أراد عقوبته، وليس له من دون الله من ينصره فيدفع عنه عذاب الله، أولئك الذين لم يجيبوا داعي الله في بعد كبير عن الحق وذهاب عن الرشد.

(٣٣) ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

أجهلوا قدرة الله وعظمته وهو الذي خلق السموات والأرض ولم يعجز عن خلقهن ولم يصبه تعب ولا نصب سبحانه؟ وهو قادر على إحياء الموتى من قبورهم وإخراجهم أحياء للحساب عنده، بلى ذلك سهل هين على من لا يتعاظمه شيء ولا يعجزه أمر، إنه على كل شيء قدير يفعل ما أراد.

(٣٤) ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾

ويوم القيامة يعرض الكفار على النار، ويقال لهم: أليس هذا العذاب الذي كنتم توعدون حقًا كما تشاهدونه؟ فيقولون: بلى وربنا هذا العذاب حق، فيقال لهم: فذوقوا هذا العذاب واصلوا النار التي كنتم تجحدون بها في الدنيا.

(٣٥) ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

فاصبر - أيها الرسول - على أذى الكفار وتكذيب الفجار كصبر أولي العزم الأبرار وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأنت منهم، ولا تستعجل نزول العذاب بكفار قومك، فإنه إذا نزل بهم وشاهدوه كأنهم لم يعيشوا في الدنيا إلا ساعة من نهار لقصر الأعمار. هذا القرآن بلاغ للعالمين أجمعين، ولا يهلك بعذاب الله إلا من جحد وحدانية الله وخرج عن طاعته.

مدنية

آياتها		ترتيبها
٣٨	## سورة محمد	٤٧

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

الذين جحدوا وحدانية الله، وصدوا الناس عن عبادة الله أذهب الله ثواب أعمالهم ومحقها وأبطلها، فلا نفع لها بل عذبهم بها.

(٢) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

والمؤمنون بالله ورسوله ﷺ العاملون بطاعته المجتنبون معاصيه والذين يصدقون بالقرآن ويعملون بما فيه - وهو الحق الذي لا شك ولا ريب فيه - ستر عليهم ذنوبهم، وعفا عنهم، ولم يؤاخذهم بها وأصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة وشرح صدورهم للحق وتولى شؤونهم.

(٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾

ذلك الإضلال للكفار، والهداية للأبرار، سببه أن الكفار اتبعوا الشيطان، وأن الأبرار أطاعوا الرحمن واتبعوا سيد ولد عدنان ﷺ، وكما فصّل الله أحوال الكفار والأبرار يضرب الله لعباده الأمثال لإزالة الإشكال، أو ليعرِّفَ كلاً منهم ما يناسبه من أهل الهدى والضلال.

(٤) ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

فإذا لقيتم - أيها المؤمنون - الكفار في أرض المعركة فجدّوا في قتالهم، واقصدوا أعناقهم بضرب السيوف، حتى إذا أكثرتم القتل فيهم وضعفت قوتهم وقلّت شوكتهم فشدوا قيد الأسرى؛ فإمّا أن تمنوا على الأسير بإطلاقه بلا عوض وإما أن تقبلوا الفداء بمال أو أسير مسلم عندهم واثبتوا على هذا حتى ينتهي القتال، هذا هو حكم الله في ابتلاء المؤمنين بالكفار وأحكام القتال التي شرعها الله، ولو أراد الله لانتصر من الكفار وقهرهم بلا قتال من المؤمنين، ولكن كتب قتال الكفار على المؤمنين، وشرع الجهاد ليظهر الصادق من الكاذب، ويتخذ من المؤمنين شهداء، وليعلم من ينصر دينه، ولتتم سنة المدافعة، وليتخذ من عباده أنصارًا لدينه، ومن قتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فأجره محفوظ عند الله، ولن يبطل الله ثواب عمله.

(٥) ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾

سيرشدهم إلى عمل ما يرضيه ويوفقهم لكل خير، ويصلح لهم أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم فيسعدون في الدنيا والآخرة.

(٦) ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

ويدخل من قتل في سبيله جنة النعيم، وقد بينها لهم وعرفهم بها في الوحي، وعرّفهم بأماكنهم إذا دخلوها.

(٧) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله: إن تنصروا الله بطاعته واتباع رسوله ﷺ والعمل بشرعه والجهاد في سبيله بالمال والنفس واللسان والقلم وغير ذلك، ينصركم الله على أعدائكم، ويجعل العزة لكم، ويثبت أقدامكم عند القتال بإنزال السكينة عليكم والثبات فلا تفروا.

(٨) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

أما الكفار فهلاك لهم وغضب من الله وسخط عليهم، وقد أبطل الله أجور أعمالهم.

(٩) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

لأن الكفار كرهوا ما أنزله الله على رسوله ﷺ من الوحي في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وكذبوا به وأعرضوا عنه، فأبطل الله ثواب عملهم؛ لأنها كانت بلا إخلاص ولا متابعة ولا إيمان.

(١٠) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾

أفلم يسافر الكفار في الديار فيشاهدوا الآثار ليستدلوا بها على ما نزل بأهلها من عذاب ودمار فيتعظوا بذلك، لقد دمّر الله مساكن الكفار، ولكل كافر مثل ذلك عند الله إذا استمر على كفره، فالجزاء واحد.

⑪ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

ذلك الذي فعله الله بأوليائه المؤمنين من نصر وتمكين وكرامة ونعيم، وما فعله بأعدائه الكفار من هزيمة وإذلال وعذاب في نار الجحيم؛ لأن الله ولي المؤمنين ونصيرهم، وأما الكفار فلا ولي لهم يرعى شؤونهم ولا نصير لهم يدافع عنهم.

⑫ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾

إن الله يدخل المؤمنين الصالحين الذين عملوا بطاعة الله وتركوا معاصيه جنات تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار؛ جزاء على عملهم الحسن، أما الكفار فمثلهم كمثل البهائم يتمتعون في الدنيا ويأكلون، وليس لهم عمل صالح ولا مقصد حسن، إنما همهم شهواتهم ولذائذهم، كأنهم الدواب التي لا عقل لديها ولا همة، ونار جهنم مستقر لهم يخلدون فيها.

⑬ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

وكم من قرية سابقة كانت أكثر قوة وبأسًا من مكة قرية الرسول ﷺ التي أخرجته، منها قد أهلك الله تلك القرى ودمَّرهم فلم يجدوا من يدفع عنهم العذاب.

⑭ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾

أفمن كان على برهان واضح، ودليل ظاهر من الله فهو يعبد الله على بصيرة ويجتنب ما نهى الله عنه، كمن حسَّن له شيطانه قبيح فعله، وأطاع نفسه الأمارة وهواه المضل، فعصى ربه بالإشراك به واقتراف الذنوب فليس عنده برهان ولا دليل؟ لا يستويان.

⑮ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾

صفة الجنة التي وعد الله عباده الأتقياء الأبرار بأن فيها أنهارًا جارية من ماء زلال عذب لم يتغير بطول المكث، وأنهارًا من لبن صاف لذيذ لم يتغير طعمه، وأنهارًا من خمر يلتذ بها شاربها بلا صداع ولا سكر، وأنهارًا من عسل قد صفي من القذى فهو الغاية في حسن الطعم وتمام النفع، وللأبرار في الجنة من كل أنواع الثمار ومختلف الأطعمة، وأرفع من ذلك غفران الله لسيئاتهم والعفو عنهم، هل من هذا حاله في النعيم كمن بقي أبدًا في النار لا خروج له منها، وسقوا في نار جهنم ماءً حارًا بلغ الغاية في الحرارة، فلما استقر في بطونهم قطّع أمعاءهم من شدة حرارته؟ لا يستويان.

⑯ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾

ومن المنافقين من يستمع إليك - أيها النبي - بغير فهم ولا فقه ولا قبول، معرضين عن الإيمان، غير مبالين بالوحي، حتى إذا خرجوا من مجلسك قالوا لمن حضر المجلس من أهل العلم والفقه في الدين - على سبيل السخرية - ماذا قال محمد قبل قليل؟ أولئك الذين ختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم فلا يفقهون ولا يعون، واتَّبعوا ما تهواه نفوسهم من الكفر والفسوق.

⑰ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾

والذين اهتدوا برسالة الرسول ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه زادهم الله هدى، فثواب الحسنة الحسنة بعدها، ووفقهم لأعمال البر وخصال الخير وسهلها عليهم، ويسر لهم عمل الصالحات وترك المنكرات.

(١٨) ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾

ما ينتظر الكفار إلا القيامة التي وعدهم الله بها تفجؤهم وهم لا يشعرون بها على غرة منهم، وقد ظهرت علامات الساعة ولم يستعدوا لها بإيمان وتوبة، فكيف يمكنهم التذكر إذا فجأتهم الساعة وقد فات الأوان؟!

(١٩) ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾

فاعلم - أيها الرسول - أنه لا يستحق العبادة إلا الله، وأنه لا شريك له، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم حركتكم بالنهار في الأعمال واستقراركم بالليل للراحة من الأشغال، وفي الآية الجمع بين التوحيد والاستغفار والعلم والعمل.

(٢٠) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾

ويقول المؤمنون بالله ورسوله ﷺ: هلاَّ أنزل الله على رسوله ﷺ سورة من القرآن تأمرنا بقتال الكفار، فإذا أنزل الله سورة محكمة بذكر ما بينه الله لعباده وما فرضه عليهم وذكر فيها الجهاد رأيت الذين في قلوبهم مرض النفاق من الشك والريبة والتكذيب ينظرون إليك - أيها النبي - نظر الذي أغمي عليه خوفًا من الموت؛ لشدة جزعه، والأولى بل الواجب على هؤلاء المنافقين أن يستجيبوا لله ولرسوله ﷺ.

(٢١) ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾

الأجدَر لهم أن يطيعوا الله ويتبعوا رسوله ﷺ وأن يقولوا قولاً صوابًا موافقًا الكتاب والسنة، فإذا وجب قتال الكفار وأمر الله عباده المؤمنين بذلك فلو أن المنافقين حينها صدقوا الله بالاستجابة لأمره والمسارعة لما أحبه الله لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة من مخالفة أمر الله وترك الجهاد.

(٢٢) ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾

لعلكم إن أعرضتم عن العمل بالكتاب والسنة أن تعصوا الله في الأرض وتتعدوا حدوده بالكفر وسفك الدماء وقطيعة الرحم.

(٢٣) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

ومن فعل هذا الفعل فهو ممن طردهم الله من رحمته فأصم أسماعهم عن سماع ما ينفعهم، وأعمى أبصارهم عن رؤية الحجج الواضحة والأدلة النافعة، فهم في ضلال وغي.

(٢٤) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

أفلا يتدبر المنافقون القرآن فينتفعوا بأحكامه ويتعظوا بمواعظه ويفقهوا براهينه؟ بل قلوبهم مغلقة مقفلة لا تقبل الحق ولا تنتفع به، ولا يصل إليها نور الإيمان.

(٢٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾

إن المرتدين عن الإيمان الذين رجعوا على أعقابهم تكذيبًا للرسول ﷺ من بعد ما ظهر لهم الحق وبان لهم الدليل، ووضح لهم الهدى الشيطان زيّن لهم عملهم القبيح، ومد لهم في الأمل ومنّاهم بطول البقاء.

(٢٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾

ذلك التزيين من الشيطان والإمداد في الأمل بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزل الله على رسوله حسدًا وبغيًا: سنوافقكم في بعض ما تدعوننا إليه من معصية الله ورسوله، والله يعلم ما يخفونه وما يسرونه من التكذيب والمكر، وفي الآية: التحذير من طاعة غير الله في معصية الله.

(٢٧) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

فكيف حال المنافقين في سكرات الموت إذا قبضت الملائكة أرواحهم، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم؟

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

ذلك العقاب الذي حل بهم؛ لأنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم من متابعة الشيطان ومخالفة أمر الله؛ ولأنهم كرهوا ما يرضي الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله، فأبطل الله أجر ما عملوه من صدقة وبر وصلة رحم وغير ذلك ومحق ثوابها.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾

بل ظن المنافقون أن الله لا يكشف لرسوله والمؤمنين ما في قلوب المنافقين من حسد وحقد على الإسلام وأهله؟ بلى إن الله قادر على ذلك ليظهر المؤمن من المنافق.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

ولو أراد الله لأراك - أيها الرسول - أشخاص المنافقين فلعرفتهم بعلامات ظاهرة فيهم، وسوف تعرفهم وتستدل على أحوالهم فيما يظهر لك من كلامهم حتى تعرف مقاصدهم، والله يعلم جميع أعمال عباده من خير وشر، وسيجازيهم بها.

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾

وسوف يختبركم الله - أيها المؤمنون - بجهاد الكفار حتى يظهر من صدق في جهاده وصبر، وسوف يختبر الله أقوالكم وأفعالكم بما يقدره عليكم من عسر ويسر؛ ليظهر الصادق من الكاذب.

(٣٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

إن الذين أنكروا توحيد الله، ومنعوا الناس من الإيمان، وحاربوا أولياء الله، وكذبوا رسوله وحاربوه من بعد ما ظهرت لهم البراهين الصادقة على رسالته لن يضروا الإسلام شيئًا، وسوف يذهب الله أجور أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ لأنهم لم يخلصوا فيها.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

يا أيها المؤمنون: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول بامتثال الأمر واجتناب النهي واتباع الشرع، ولا تبطلوا أجور أعمالكم بالشرك والرياء.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾

إن الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله ومنعوا الناس من الدخول في الإسلام ثم ماتوا على الكفر، فلن يغفر الله ذنوبهم وسيعاقبهم على معاصيهم وينكل بهم في نار جهنم.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

فلا تضعفوا - أيها المؤمنون - عن الجهاد ولا تطلبوا المصالحة والمسالمة مع أعداء الله وأنتم أعلى منهم وأعز وأقوى؛ لأن الله معكم، ومن كان الله معه فالنصر حليفه والعاقبة له والتوفيق معه، ولن يذهب الله أجور أعمالكم وينقص من ثوابكم شيئًا.

(٣٦) ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو تشغل عن الطاعات، وتلهي عن الصالحات وتخدع بمظاهرها الناس، وإن تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ وتتقوا بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه، فسوف يثيبكم على أعمالكم الصالحة بأنواع الكرامات من المحبة والقبول والذكر الحسن والنجاة من النار والفوز بالجنة، والله لا يطلب منكم التصدق بجميع أموالكم بل أمركم بإخراج بعضها تزكية لكم ولأموالكم.

٣٧ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾

إن يطلب الله منكم إنفاق كل أموالكم فيشق عليكم بذلك، وتبخلوا بالإنفاق وتمسكوا عن العطاء، فيكشف ما في قلوبكم من الحقد إذا أمركم الله بالتصدق بما يشق عليكم.

٣٨ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾

ها أنتم - أيها المؤمنون - تدعون للصدقة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، فبعضكم يبخل بالصدقة، ومن يبخل بالإنفاق فإنما يبخل على نفسه بحرمانها من الأجر والثواب، والله الغني عن عباده ليس بحاجة إلى نفقاتهم، فهو الذي خلقهم ورزقهم، والعباد هم الفقراء إليه، وإن تعرضوا - أيها الناس - عن الإيمان والجهاد في سبيل الله يعذبكم ويأت بقوم آخرين مؤمنين ينصرون دينه، ثم لا يشابهونكم في الإعراض عن الإيمان والجهاد، بل يؤمنون ويجاهدون ويطيعون الله ورسوله.

مدنية

ترتيبها ٤٨

سورة الفتح

آياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

إن الله فتح لك - أيها الرسول - فتحًا مبينًا ظاهرًا عظيمًا نصرك به على أعدائك، ومكَّن لك في الأرض، وأعزك به، وأعلى قدرك وهو صلح الحديبية؛ لأنه كان الطريق لفتح مكة والفتوح التي بعدها، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

٢ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

فتح الله لك هذا الفتح العظيم - أيها الرسول - ليكون سببًا لغفران ما سبق من ذنبك وما لحق لكثرة من أسلم وجاهد وعبد الله، فحصل لك بذلك الأجر والمغفرة؛ لأنك الدال لهم على الإيمان والخير، فكتب لك بقدر أجور من اتبعك؛ ولأنك صبرت على مشقة الأذى والجهاد والدعوة فصارت كفارة لكل ذنوبك، والله - بهذا الفتح - أتمَّ عليك النعمة بنصرك وإظهار دينك وكبت أعدائك، ووفقك ربك لسلوك الطريق المستقيم الموصل لرضوان الله والجنة.

٣ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

وينصرك بهذا الفتح نصرًا عزيزًا يهاب فيه جانبك ويرهب منك أعداؤك ويمكن لك بسببه من إعلاء كلمة الله.

٤ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

الله هو الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فوثقوا بنصر الله، وسكنوا إلى وعده، وثبتوا في المحن، وصدقوا في مواقف الابتلاء، وازدادوا يقينًا في دينهم ورسوخًا في تصديقهم بربهم وبرسولهم، والله له جنود السموات والأرض، ينصر من يشاء من أوليائه ويذل من يشاء من أعدائه، وليس بحاجة إلى نصرة أحد من الناس، ولكن ليبتلي المؤمنين بجهاد الكافرين، ويتخذ من عباده شهداء ويمحص قلوب الأتقياء في مواطن اللقاء، وكان الله عليمًا بما يصلح للعباد، حكيمًا فيما قدره ودبره من أمر الدنيا والمعاد.

(٥) ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

ليدخل الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، وهم باقون في الجنة أبدًا لا يموتون ولا يخرجون منها، ويعفو الله عن خطاياهم فلا يعذبهم بها، وكان هذا الثواب من الله نجاة من كل كرب وظفرًا بكل محبوب.

(٦) ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين يظنون بالله ظنًا سيئًا أنه لن ينصر أولياءه على أعدائه ولن ينجز لعباده ما وعدهم به من الفوز والفلاح، فعليهم تدور دوائر الخزي والهلاك والذل والصغار، وغضب الله عليهم مع طرده إياهم من رحمته وجنته، وهيأ لهم نارًا تلظى يصلون سعيرها خالدين فيها أبدًا.

(٧) ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

ولله - تعالى - جنود السموات والأرض، ينصر بهم من أراد من عباده، وكان الله عزيزًا في انتقامه وسلطانه، حكيمًا في خلقه وصنعه، وتدبيره وشرعه.

(٨) ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

إن الله أرسلك - أيها الرسول - شاهدًا على الأمة بالبلاغ، تقيم الحجة عليهم وتبين المحجة لهم، وتبشر من أطاعك بالجنة وتحذر من عصاك بالنار.

(٩) ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

فبإرسال الله لرسوله ﷺ يؤمن بذلك عباده الصالحون، وينصرون ربهم بنصر دينه في الأرض، ويعظمون الله بالعمل بطاعته وترك معصيته، ويسبحون الله قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

إن المؤمنين الذين يبايعونك - أيها الرسول - في الحديبية على القتال كأنهم يبايعون الله، ويعطون الله العهد على نصرة دينه طلبًا لرضاه ورحمته، يد الله فوق أيديهم، فهو معهم بعلمه - سبحانه - ونصره ورعايته، يسمع أقوالهم ويرى أفعالهم، ويعلم ما تكنه صدورهم، ومن صدق وأوفى بما بايع عليه من الصدق والصبر والجهاد في سبيل الله، فسيمنحه ربه الثواب الجزيل من الفوز بالجنة والنجاة من النار. وفي الآية إثبات اليد لله بما يليق بجلاله سبحانه.

(١١) ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾

سيقول لك - أيها النبي - الذين تخلفوا عنك في الخروج إلى مكة إذا سألتهم عن سبب التخلف: شغلتنا أموالنا وأهلونا من النساء والذرية فاطلب من الله أن يعفو عنا، وهذا القول يقولونه باللسان، وليس له حقيقة في قلوبهم، فهم كاذبون في قولهم، فقل لهم - أيها الرسول - لا أحد يستطيع صرف خير كتبه لكم ولا دفع شر قدره الله عليكم، وليس الأمر كما تظنون من أن الله لا يطلع على ما أخفته صدوركم، بل هو عالم بما خفي وبما ظهر، لا تخفى عليه خافية، وسوف يحاسبكم بما أعلنتم وأسررتم.

(١٢) ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

وليس بصحيح عذركم من أن الأموال والأهل شغلتكم عن الخروج مع الرسول ﷺ، بل الصحيح أنكم ظننتم أن الرسول ﷺ والمؤمنين معه لن يعودوا إلى أهليهم وسيهلكون، وحسَّن إبليس لكم هذا الظن الكاذب فاعتقدته قلوبكم،

وظننتم أسوأ الظن من أن الله لا ينصر رسوله، ولا يعلي كلمته، ولا يعز دينه، وكنتم قومًا خاسرين فاشلين لا خير فيكم ولا صلاح يُرجى منكم.

(١٣) ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾

والذي لا يؤمن بالله ولا برسوله ولا يعمل بشرع الله فإنه كافر، وقد هيأ الله للكفار عذاب النار مع الخزي في الدنيا، والعار والذل والصغار.

(١٤) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ولله ملك السموات والأرض وله تدبيرهما، يعفو عمن أراد من العباد كرمًا وفضلاً، ويعذب من أراد منهم جزاءً وعدلاً، وكان الله كثير العفو والغفران لمن تاب من العصيان، واسع الرحمة لمن أناب إليه.

(١٥) ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

سوف يقول لك الذين تخلفوا عنك - أيها الرسول -: إذا خرجت أنت ومن معك من المؤمنين إلى غنائم خيبر التي وعدكم الله بها، دعونا نخرج معكم إلى خيبر لنصيب معكم من الغنائم، يريدون أن يغيروا ما وعدكم الله به، وما قدره من عدم خروجهم معكم، فقل لهم أيها الرسول: لن تخرجوا معنا لغنائم خيبر؛ لأن الله أخبرنا قبل عودتنا إلى المدينة أن غنائم خيبر لمن شهد الحديبية مع الرسول ﷺ وليس لمن غاب عنها شيء منها فسوف يقول لكم المخلفون: ليس الأمر كما قلتم من أن الله قضى بذلك، لكنكم منعتمونا من الخروج معكم حسدًا منكم لنا لئلا يحصل لنا من غنائم خيبر شيء، وقد كذبوا في ذلك، فهم لا يفقهون في أحكام الله ودينه، ولا يفهمون ما يحل لهم وما يحرم عليهم إلا أمورًا يسيرة ظاهرة سمعوا بها.

(١٦) ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

قل - أيها الرسول - للبدو الذين تخلفوا عن الخروج معك: ستدعون إلى قتال قوم أهل بأس شديد في المعارك، تقاتلون هؤلاء القوم أو يدخلون في الإسلام، فإن تطيعوا الله وتقاتلوا مع رسوله يثبكم على ذلك ثوابًا عظيمًا وهو الجنة، وإن تعرضوا عن الاستجابة وتعصوا الله كما عصيتموه يوم تركتم الخروج مع الرسول ﷺ إلى مكة يعذبكم عذابًا مؤلمًا موجعًا.

(١٧) ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

ليس على الأعمى إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض إثم إذا تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله، فهم معذورون لهذه العاهات، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، ومن يعرض عن طاعة الله وطاعة رسوله ويترك الجهاد في سبيله يعذبه عذابًا مؤلمًا موجعًا.

(١٨) ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

لقد رضي الله عن المؤمنين الذين بايعوك بيعة الرضوان تحت الشجرة، فاطلع على ما في قلوبهم من الإخلاص والصدق والإيمان، فأنزل الله على قلوبهم طمأنينة الإيمان وثبتهم وزادهم يقينًا ورسوخًا في الدين، وأخلف عليهم عما فاتهم بصلح الحديبية فتح خيبر وهو قريب من صلح الحديبية.

١٩ ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾

وعوضهم مغانم كثيرة من أموال اليهود في خيبر، وكان الله عزيزًا في انتقامه ممن عاداه، وهو المعزّ لمن والاه، حكيمًا في خلقه وصنعه، وتدبيره وشرعه.

٢٠ ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾

وعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة تأخذونها في زمانها الذي كتبه الله؛ فقدم الله لكم غنائم خيبر، وحماكم من أذى الناس فلم يصبكم شيء مما أعده الكفار من الحرب والمكيدة، وحفظ أهلكم وأموالكم في المدينة من شر أعداء الإسلام؛ وليكون نصركم وهزيمة أعدائكم وما حصل لكم من الظفر والغنيمة علامة تهتدون بها على نصر الله لكم وحسن ولايته وجميل رعايته لكم، ويوفقكم للهدى القويم والصراط المستقيم في أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم.

٢١ ﴿ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾

وقد هيأ الله لكم غنيمة أخرى لم تستطيعوا الحصول عليها، والله وحده الذي قدرها ويسرها لكم، وهي في حكمه وتصرفه، وسوف ينجز لكم ما وعدكم به في جنته؛ لأنه قادر على كل شيء لا يعجزه أمر، ولا يصعب عليه شيء.

٢٢ ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾

ولو قاتلكم الكفار في مكة لهزمهم الله ونصركم عليهم، ولفرّوا من المعركة وأعطوكم ظهورهم، وليس لهم من دون الله من يتولى أمورهم ويرعى شؤونهم، وليس لهم ناصر يدافع عنهم، فهم مخذولون خاسرون.

٢٣ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾

وهذه طريقة الله التي سنّها فيمن سلف من الأمم من أنه ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، ولن تجد لسنة الله تغييرًا، بل هي ثابتة دائمة مطردة.

٢٤ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

والله هو الذي منع أيدي الكفار من أن تصل إليكم بأذى، ومنع أيديكم من أن تتناولهم بأذى ببطن مكة، من بعدما أظهركم الله عليهم ومكّنكم منهم، فأصبحوا تحت قهركم، وهؤلاء جماعة من الكفار قرابة ثمانين، أرادوا المكيدة بالرسول ﷺ، فأمسك بهم الصحابة ثم عفا عنهم الرسول ﷺ. وكان الله مطلعًا على أحوال وأعمال عباده لا يغيب عنه من علمها شيء.

٢٥ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

هؤلاء الكفار هم الذين كفروا بالله وأنكروا وحدانيته، وكذبوا رسوله، ومنعوكم يوم الحديبية من الوصول إلى المسجد الحرام، ومنعوا الهدي وحبسوه أن يصل إلى مكان نحره من الحرم، ولولا أن بين الكفار رجالاً مؤمنين ضعفاء ومؤمنات يخفون إيمانهم خوفًا من الكفار، وأنتم لا تميزون بين هؤلاء وهؤلاء فينالكم بهذا القتل ذنب وحرج وغرامة بغير تعمد منكم لسلطكم الله على الكفار؛ ليدخل الله في رحمته من أراد من عباده فيهديهم بعد الضلال، لو تميّز المؤمنون عن كفار مكة وانحازوا عنهم لعذب الله الكفار بأيدي المؤمنين أو بهلاك من عنده، ولكنهم اختلطوا بالمؤمنين.

٢٦ ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾

إذ حمل الكفار أنفة الجاهلية وكبرها في قلوبهم فلم يتواضعوا للحق ويتبعوا الرسول ﷺ، بل حملهم العناد على الكفر والتكذيب، وأبوا أن يكتبوا في صلح الحديبية «بسم الله الرحمن الرحيم» فأنزل الله الثبات واليقين والطمأنينة

على الرسول وأصحابه فَثَبَّتوا على الحق وثبتوا على لا إله إلا الله، وتمسكوا بها وقاموا بحقها، وهي أصل كل تقوى، والرسول ﷺ أحق بهذه الكلمة وأولى وأجدر من الكفار، وكان الله عالمًا بكل شيء، مطلعًا على كل صغيرة وكبيرة، لا تخفى عليه خافية.

(٢٧) ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

لقد صدق الله رسوله ﷺ في رؤياه التي رآها في المنام؛ فكانت رؤيا حق وقعت كما أراه الله إياها من أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وهم آمنون لا يخافون الكفار، فمنهم المحلّق لشعر رأسه، ومنهم المقصر، فاطلع الله على الخير والمصلحة في تأخير فتح مكة هذا العام وفتحها فيما بعد ذلك، وهو - سبحانه - يعلم ما لا يعلم العباد؛ لأنه عالم ما خفي وما ظهر، فهيأ الله ويسر من قبل فتح مكة فتح خيبر، وكان صلح الحديبية أول هذا الفتح المبين.

(٢٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

الله وحده الذي أرسل محمدًا ﷺ بالبيان الشافي، والهدى الواضح، والبرهان الساطع، ودين الإسلام؛ ليعلي دينه على سائر الأديان، ويكفيك الله - أيها الرسول - ومن اتبعك شاهدًا على صدق رسالتك، وأنه ناصرك ومظهر دينك وقاهر عدوك.

(٢٩) ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

محمد رسول الله ﷺ، وأصحابه ومن اتبعه أشداء على الكفار، أهل اعتزاز بدينهم، أقوياء بعقيدتهم، وهم رحماء فيما بينهم، بعضهم يعطف على بعض، تراهم ركعًا سجدًا لله في صلاتهم، يحافظون عليها في أوقاتها كما شُرعت، يؤدونها على أكمل وجه، يَطْمَعُون في فضل الله وكرمه ورحمته وثوابه فيخلصون العمل له، علامة عبادتهم لربهم، بادية على وجوههم من الخشية والخشوع والصدق من آثار سجودهم وطاعتهم لربهم وهذه صفتهم المذكورة في التوراة، وصفتهم في الإنجيل كالزرع الذي أخرج من الطين ساقه وفرعه، ثم تكاثرت فروعه، واشتد ساقه، وقوي وصلب واستوى قائمًا على سيقانه، أخضر جميل المنظر، يعجب بشكله ولونه وبهائه الزراع، ليغيظ الله الكفار بهؤلاء المؤمنين في كثرة عددهم وقوة إيمانهم والتفافهم حول الرسول ﷺ وجمال منظرهم، فلا يبغض الصحابة إلا كافر؛ لأن الله لا يغيظ بالصحابة إلا كل عدو لهم، وعد الله المؤمنين الصالحين عفوًا عن سيآتهم وثوابًا جزيلاً على أعمالهم مع خلودهم في جنات النعيم في جوار رب كريم؛ وهذا وعد من الله محقق، والأولى به صحابة الرسول ﷺ، ثم من سار على منهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

* * *

مدنية

ترتيبها
٤٩

سورة الحجرات

آياتها
١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله ﷺ: لا تفعلوا أمرًا من أمور الدين إلا بإذن من الله ورسوله بحيث يكون موافقًا لشرعه، ولا تبتدعوا بل اتبعوا، ولا تقضوا في شيء إلا بما قضاه الله ورسوله، وراقبوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، إن الله سامع لكل قول، عليم بكل فعل، مطلع على كل سر.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

يا أيها المؤمنون: إذا خاطبتم الرسول ﷺ فتأدبوا، ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، ولا تجهروا عنده بالكلام كما يجهر أحدكم لصاحبه، بل وقروه وقدروه وتأدبوا عنده؛ لأن الله شرفه بالنبوة وأكرمه بالرسالة وميزه عن الناس بالاصطفاء، وجعله خاتم الرسل وأكرم الخلق على ربه، وهو إمام الأولين والآخرين، وسيد الناس أجمعين، وهذا الأدب منكم معه واجب لئلا يبطل الله ثواب أعمالكم، ويُذْهِب أجوركم وأنتم لا تحسّون بذلك.

(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

إن الذين يتأدبون مع الرسول ﷺ بخفض أصواتهم إذا خاطبوه أولئك الذين محَّص الله قلوبهم واختبرها وأخلصها لطاعته، لهم من الله العفو عن ذنوبهم، والصفح عن خطاياهم، مع الثواب الجزيل والأجر التام على طاعتهم لربهم.

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

إن الذين ينادونك - أيها الرسول - من وراء الحجرات وهي غرف بيته - عليه الصلاة والسلام - وكان في وقت الظهر - من أناس رفعوا أصواتهم بجفاء وقالوا: يا محمد: اخرج إلينا؛ فهؤلاء أكثرهم لا يعقلون الأدب معه ﷺ، ولا يفقهون حقوقه على الأمة ووجوب توقيره على كل مسلم.

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ولو أن من ناداك - أيها الرسول - من وراء الحجرات صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم عند ربهم؛ لأن الله أوجب عليهم التأدب معك، والله غفور لما حصل منهم من سوء أدب، لجهلهم بما يجب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقاب على ما فعلوا من إخلال بالآداب.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾

يا أيها المؤمنون بالله وبرسوله: إذا أتاكم فاسق في دينه، ونقل إليكم خبرًا فتثبتوا من صحته، ولا تصدقوه حتى تعرفوا صحته وتتأكدوا من صدقه، خوفًا من أن تؤذوا أحدًا وهو بريء بناءً على خبر الفاسق فتندموا على التسرع في أذية البريء.

(٧) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

واعلموا أن الرسول ﷺ يعيش معكم فوقروه واعرفوا حقه، فإنه يسعى فيما ينفعكم وأنتم قد تقعون فيما فيه ضرر عليكم؛ جهلاً منكم والرسول ﷺ يمنعكم من ذلك، ولو وافقكم في كثير مما تريدونه لوقعتم في المشقة، ولكن الله حبب إليكم الإيمان فسهلت عليكم طاعة الرسول ﷺ، وحسَّن الإيمان في قلوبكم فامتثلتم أمر الله، وكرَّه إليكم الكفر بالله فآمنتم به، وكره إليكم الفسوق فهجرتم معاصيه، وكره إليكم العصيان فكرهتم الذنوب وتبتم منها، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم الراشدون الذين أدركوا الهدى ونجوا من الردى؛ لأنهم عرفوا طريق الحق.

(٨) ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وتوفيق الله لكم للإيمان به وهجر معاصيه، هو فضل من الله تفضل به عليكم، ونعمة منه جاد بها عليكم، والله عليم بمن يشكر النعم ويطيع المنعم، حكيم في تدبير الخليقة على أحسن طريقة.

(٩) ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

وإن حصل أن جماعتين من المؤمنين اقتتلوا فيما بينهم فأصلحوا - أيها المؤمنون - بينهم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن أصرت إحدى الجماعتين ولم تستجب لحكم الشرع واستمرت في القتال، فقاتلوها حتى تعود إلى الامتثال لحكم الله وحكم رسوله، فإن عادت فأصلحوا بينهما بالإنصاف الموافق لشرع الله ولا تجوروا في الحكم، وعليكم العدل في الحكم واجتناب الظلم، إن الله يحب العادلين في الأحكام بين الأنام الذين يقضون بين العباد بالإنصاف بلا جور ولا فساد، وفي هذه الآية إثبات المحبة لله - عز وجل - بما يليق به سبحانه.

(١٠) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

إنما المؤمنون إخوة في دين الله، فهم أسرة واحدة كأبناء رجل واحد في المودة والنصر، فإذا حصل بينهم خلاف وجب على المؤمنين الصلح بينهم مع تقوى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، فمن فعل ذلك رحمه الله بغفران ذنوبه وإعطائه مطلوبه من الأجر العظيم والنعيم المقيم.

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

يا أيها المؤمنون: لا يستهزئ مؤمن بمؤمن، فقد يكون من استهزئ به خيرًا وأفضل عند الله من المستهزئ، ولا تستهزئ امرأة بامرأة، فربما تكون المستهزأ بها خيرًا وأفضل عند الله من المستهزئة، ولا يسب بعضكم بعضًا ولا يعب أحدكم الآخر، ولا ينادي بعضكم بعضًا بما لا يحب من الألقاب المعيبة، بئس اسم الفسوق اسمًا؛ لأنه قبيح، وبئس الوصف وصفًا؛ لأنه شنيع، وهو وصف سيء بعد الإيمان بالله، ويدخل في الفسوق، الاستهزاء بالمسلمين واللمز والغمز والتنابز بالألقاب، ومن لم يتب إلى الله من هذه الأوصاف القبيحة والأخلاق الذميمة فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بفعل هذه الذنوب وارتكاب هذه الخطايا.

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله: اتركوا كثيرًا من الظن السيء في عباد الله الصالحين، فالأصل في المؤمن الخير، إن بعض الظن السيء إثم؛ لأنه مبني على الشك والاحتمال، ولا تبحثوا عن سقطات الناس، ولا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا يتكلم مسلم في مسلم في غيابه بما يكرهه، أيحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه وهو ميت؟ فما دمتم

تكرهون ذلك فاكرهوا غيبته؛ لأن عرضه كلحمه، وخافوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، إن الله يتوب على من تاب من عباده وأناب، ويرحم من أطاعه واستجاب.

(١٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يا أيها الناس: إن الله خلقكم من أبٍ واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فأصلكم واحد، فلماذا يفخر بعضكم على بعض بالنسب؟ والله جعلكم بانتشار الذرية شعوبًا متفرقة وقبائل متعددة؛ ليتعرف بعضكم إلى بعض، إن أكرمكم عند الله أكثركم تقوى له، فالتفاضل بين الناس بتقواهم لربهم، إن الله عليم بمن اتقى، خبير بالأتقى منكم.

(١٤) ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قالت الأعراب من أهل البادية: آمنا بالله وبرسوله إيمانًا كاملاً، قل لهم - أيها الرسول -: لستم مؤمنين إيمانًا كاملاً، ولكن قولوا: أسلمنا ولم يدخل الإيمان إلى الآن في قلوبكم، فإذا رسخ الإيمان في القلب استكمل صاحبه الإيمان، وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقص شيئًا من أجور أعمالكم، إن الله غفور لمن تاب إليه، رحيم بمن استقام على أمره، وفي الآية العناية بأعمال القلوب، وأن الإيمان يتفاضل، وأنه يجب موافقة الباطن الظاهر.

(١٥) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

إنما المؤمنون الصادقون هم كل من صدق في إيمانه بربه واتبع رسوله ﷺ وعمل بطاعته، ثم لم يَشكُّوا في الإيمان بل اعتقدوا اعتقادًا جازمًا، وصدقوا ذلك بالجهاد بالنفس والمال في سبيل الله لإعلاء كلمته، وهؤلاء هم الذين صدقوا في الإيمان واتبعوا رضوان الرحمن.

(١٦) ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قل - أيها النبي - للأعراب: أتخبرون الله باعتقادكم وما أسررتموه وهو يعلم السر وأخفى وهو العالم بكل ما في السموات وما في الأرض، والله يعلم كل شيء لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية، فهو العالم بالمؤمن والمسلم والكافر والفاسق والمنافق والبر والفاجر.

(١٧) ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يمنّ عليك - أيها الرسول - هؤلاء الأعراب بإسلامهم وطاعتهم لله وتصديقك في نبوتك، كأن لهم الفضل على الله - سبحانه -، فقل لهم: المنّة لله وليست لكم فلا تمنوا على الله اعتناقكم للإسلام، فإن مصلحة إسلامكم تعود إليكم، والله لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، فهو الغني عما سواه - سبحانه - ولله المنة عليكم، فهو الذي وفّقكم للإيمان وهداكم للصراط المستقيم، فإن كنتم صادقين في إيمانكم فلا تمنوا به على الله ولا على رسوله ﷺ.

(١٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

إن الله وحده يعلم ما غاب عن العيون في السموات والأرض، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية، وهو - سبحانه - بصير بأقوالكم وأحوالكم وأعمالكم، وسوف يحاسبكم عليها، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء.

* * *

مكية

ترتيبها ٥٠

سورة ق

آياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، وقد أقسم الله تعالى بهذا القرآن ذي المجد والشرف والرفعة، فمن عمل به شرفه الله ورفعه.

(٢) ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾

بل عجب الكفار من النبي المختار لما جاء بالإنذار من الواحد القهار، فقالوا: هذا شيء عجيب غريب ما سمعنا بمثله.

(٣) ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾

كيف نُبعث إذا متنا وأصبحنا ترابًا؟! هذه عودة للحياة بعيدة الحصول لن تكون أبدًا.

(٤) ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾

قد علم الله ما تأكله الأرض وتفنيه من أجسامهم، وعنده - سبحانه - كتاب محفوظ من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل في هذا الكتاب، كل ما هو مقدر عليهم في الدنيا والآخرة.

(٥) ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾

بل كذب الكفار بالقرآن والرسول ﷺ فهم في أمر مضطرب مختلط، لم يثبتوا على شيء ولم يستمروا على حال، يقولون: إنه سحر أو شعر أو كهانة أو مختلق.

(٦) ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾

لماذا أنكر الكفار البعث بعد الموت؟ أفلم يشاهدوا السماء فوقهم كيف رفعها الله فسوى بنيانها وأحكم صنعتها وزينها بالنجوم، وليس فيها شقوق ولا فتوق، فلا عيب فيها ولا خلل، بل هي سليمة محكمة متقنة؟!

(٧) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾

ولماذا لم يتفكر الكفار في خلق الأرض كيف بسطها الله وفرشها وسواها ومهدها لعباده، ونصب فيها جبالاً راسخة ثابتة تمنعها من الاضطراب والميل، وأنبت الله في الأرض من كل شكل بهي حسن المنظر من النبات يبهج العين ويسر القلب بجماله.

(٨) ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾

والله خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات الدالة على عظمته وقدرته عبرة لمن لديه بصيرة تدل على وحدانية الله، وتخرجه من ظلمة الجهل والغفلة، وتَذْكرةً يتذكر بها كل عبد تائب إلى الله منيب إلى طاعته خاضع لأمره، منقاد لحكمه خائف من عذابه.

(٩) ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾

ونزل الله من السماء مطرًا نافعًا للخلق، هو سبب الخير والنماء والقوت والحياة؛ فأنبت الله به حدائق ملتفة وبساتين غناء، وحب الزرع المحصود، وفي ذلك متاع للإنسان والحيوان.

١٠ ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾

وأنبت الله النخيل طويلاً في حسن، فارعًا في جمال، له ثمر بهي حسن الشكل، منظم متراكب بعضه فوق بعض.

١١ ﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾

خلق الله ذلك طعامًا وقوتًا لعباده من حبوب وثمار وفواكه وخضراوات ما بين مأكول ومشروب، وأحيا الله بالمطر الذي أنزله من السماء بلدة مجدبة يابسة قد مات نبتها وذبلت أشجارها، وكما أحيا الله بالماء الأرض الميتة فإنه - سبحانه - سوف يحيي الأموات ويخرجهم من قبورهم للحساب.

١٢ ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾

كذبت قبل كفار مكة قوم نوح وأصحاب البئر التي تسمَّى «الرَّس» وثمود، فقد سبقوا في الكفر بالله ومحاربة رسله.

١٣ ﴿ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴾

وكذبت قبلهم أيضًا قوم عاد وفرعون وقوم لوط، كلهم ردّوا رسالة أنبيائهم.

١٤ ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾

وكذب كذلك أصحاب الشجرة العظيمة وهم قوم شعيب، وكذبت حِمْير قوم تبع كلهم توافقوا في الكفر بالله ومعاندة الرسل - عليهم السلام -، فنزل بهم عذاب الله الذي توعدهم به، ووجب عليهم العقاب، وحل بهم الهلاك بالحق والعدل.

١٥ ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾

أفعجز الله عن إنشاء الخلق الأول من العدم حتى يعجز عن إعادة الخلق بعد فنائه؛ لأن إعادة الخلق بعد الفناء أيسر من الإنشاء، وكل ذلك يسير هيّن على رب الأرض والسماء، ولكن الكفار في اضطراب وشك وريبة من مسألة الإحياء بعد الموت والنشور من القبور.

١٦ ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾

ولقد خلق الله الإنسان وعلِمَ ما تحدِّثه به نفسه وما يضمر في صدره، والله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد الواصل بين العنق والقلب.

١٧ ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴾

إذ يكتب الملكان الحافظان عن يمين الإنسان وعن شماله أعماله، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، كل ملك مترصد يحصي أعمال العبد.

١٨ ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾

ما يتكلم الإنسان بكلمة إلا وعنده ملك يحصي قوله ويكتبه له أو عليه؛ لأنه يراقبه وهو حاضر عنده.

١٩ ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾

وحضرتك - أيها الإنسان - شدة الموت وكربه بالحق الذي لا مهرب منه ولا مفر، ذلك الموت الذي كنت تروغ منه وتهرب فلا مرد ولا مناص منه.

٢٠ ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾

ونفخ الملك في القرن لبعث الناس من قبورهم؛ ذلك النفخ في يوم القيامة الذي وعد الله به وهو لا يخلف الميعاد.

٢١ ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾

وأتت كل نفس إلى يوم القيامة معها ملك يسوقها إلى الحساب عند الله، وملك آخر يشهد عليها بما عملته في الدنيا من حسن وسيء.

(٢٢) ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾

لقد كنت في الدنيا - أيها الإنسان - غافلاً عن يوم القيامة وما فيه من أهوال فلم تتهيأ له، فأزال الله عنك اليوم غطاءك الذي غطى على بصيرتك فلم تبصر الهدى، فالآن ذهبت عنك الغفلة، فبصرك اليوم فيما تراه قوي نافذ شديد.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾

وقال الملك الرقيب على الإنسان الملازم له الذي يكتب حسناته وسيئاته: هذا ما عندي بما كتبته عليه في الدنيا، وهو جاهز معد حاضر مكتوب.

(٢٤) ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾

قال الله للملكين (السائق والشاهد): ارميا في جهنم كل مكذب كافر معاند للحق جاحد للرسالة مصر على الذنوب.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾

مناع للخير والحق، معتد على الخلق، فهو مانع لما أوجبه الخالق، مؤذٍ للمخلوق، أمسك عن الخيرات وتعدى الحدود والحرمات، شاك في الوعد والوعيد، غير موقن بالتوحيد.

(٢٦) ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾

وهو مشرك بالله يعبد معه إلهًا غيره، فارميا به - أيها الملكان - في نار جهنم شديدة العذاب.

(٢٧) ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

قال شيطانه الذي كان قرينًا له في الدنيا: ربنا ما أغويته ولكنه كان بعيدًا عن الهدى محبًا للغواية، فضلَّ عن الحق ولم أُجْبِره على الكفر.

(٢٨) ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾

فقال الله تعالى: لا تختصموا عندي اليوم، فلا نفع في هذه الخصومة الآن وقد سبق أن أنذرتكم عن طريق الرسل عذاب هذا اليوم وما فيه من أهوال.

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

ما يُغيَّر القول عندي، فقوله صدق ووعده حق، ولا يعذب الله عبدًا بسيئات عبد آخر، ولا يعاقب أحدًا إلا بما فعل من ذنب بعد أن يقيم عليه الحجة، ولا ينقص من حسنات محسن ولا يزيد في سيئات مسيء.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾

وتذكر يوم يقول الله لنار جهنم: هل امتلأت؟ وتقول نار جهنم: هل من زيادة من كفار الجن والإنس؟ فيضع الجبار - سبحانه - قدمه فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قط.

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

وقُرِّبت الجنة لمن اتقى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، فكانت غير بعيدة منهم فهم يرونها ليتمتعوا برؤيتها.

(٣٢) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾

يقال للأتقياء: هذا النعيم هو الذي كنتم توعدون به في الدنيا، وهو لكل تائب عائد إلى الله من سيئاته، حافظ لعمله الصالح من الضياع، وحافظ لحدود الله من الاعتداء، وحافظ لما أوجبه الله عليه.

(٣٣) ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾

هو الذي يخاف الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، ويعبد الله كأنه يراه، وأتى إلى الله يوم الحساب بقلب تائب من المعاصي سليم من الذنوب.

(٣٤) ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴾

ويقال لهؤلاء الأتقياء: ادخلوا الجنة - وأنتم سالمون - من الآفات والأخطار، ناجون من الأهوال والعذاب، ولكم الأمن من كل مخوف ومكروه، ذلك هو يوم الخلود في جنات النعيم، فلا يموتون فيها ولا يخرجون منها ولا ينقطع نعيمهم.

(٣٥) ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴾

لهؤلاء الأتقياء في جنات النعيم ما يريدون وما تشتهيه أنفسهم، وعند الله لهم زيادة على ما تفضل به عليهم من نعيم وتكريم، فهم أبداً في حبور وسرور، ومن هذه الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم عز وجل.

(٣٦) ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴾

وكم أهلك الله قبل كفار مكة من أمم سابقة مكذبة، كانوا أشد من كفار مكة في البأس وأقوى في الأجسام، فساروا في البلاد، وبنوا وشيدوا، فهل كان لهم من مهرب أو ملجأ من عقاب الله لما حل بهم؟

(٣٧) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾

إن في إهلاك الأمم السابقة الكافرة لعظة لمن كان له قلب يفقه به عن الله آياته وحججه، أو أصغى بسمعه وهو حاضر بقلبه غير غافل ولا ساه.

(٣٨) ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾

ولقد خلق الله السموات السبع والأرض وما بينهما من سائر الموجودات في مدة ستة أيام، وما أصاب اللهَ من ذلك الخلق تعبٌ ولا نصب، - تعالى عن ذلك - فهو القوي العظيم، فمن باب أولى قدرته - سبحانه - على البعث بعد الموت.

(٣٩) ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾

فاصبر - أيها الرسول - على قول الكفار من التكذيب والاستهزاء، فإن الله سوف يجازيهم على ذلك، وصل لله مع حمده صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل غروبها.

(٤٠) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾

وصل لله من الليل صلاة العشاء وصلاة الفجر، وسبح بحمد الله بعد كل صلاة، وجاء ذكر الصلاة مع الصبر؛ لأنها أعظم ما يعين العبد على المصائب والمحن.

(٤١) ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾

واستمع يوم ينادي الملك بالنفخ في القرن من مكان قريب من كل أحد .

(٤٢) ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾

يوم يسمع الناس صيحة البعث بعد الموت بالحق الذي لا ريب فيه ولا شك، ذلك هو يوم خروج العباد من قبورهم للحساب.

(٤٣) ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾

إن الله يحيي الخلق بعد الموت، ويميتهم في الدنيا بعدما أحياهم، وإليه - سبحانه - يعودون ليحاسبهم على أعمالهم.

(٤٤) ﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾

يوم تتصدع قبور الموتى ليخرجوا منها للحساب، فيسرعوا إلى الداعي في موقف الحشر، ذلك الجمع والحساب سهل على الله يسير عليه؛ لتمام قدرته.

(٤٥) ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

الله أعلم بما يقول الكفار من تكذيب وسخرية، وما أنت - أيها الرسول - بمسلَّط عليهم لتجبرهم على الإيمان، وإنما أنت مبلغ عن الله رسالته، فذكِّر بالقرآن من يخشى الله ويحذر لقاءه؛ لأن الذي لا يخاف الوعيد لا تنفعه الموعظة.

مكية

ترتيبها ٥١

سورة الذاريات

آياتها ٦٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾

أقسم الله - تعالى - بالرياح التي تثير التراب وتنشر السحاب.

(٢) ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾

وأقسم - سبحانه - بالسحب التي تحمل حملاً ثقيلاً كثيرًا من الماء.

(٣) ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾

وأقسم - سبحانه - بالسفن التي تسعى على ظهر البحر بسهولة ويسر.

(٤) ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾

وأقسم - سبحانه - بالملائكة التي تقسم أمر الله ورزقه بين عباده.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾

إن الذي وعدكم الله به - أيها الناس - من البعث بعد الموت والحساب على الأعمال واقع لا محالة، لا شك فيه ولا ريب.

(٦) ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾

وإن يوم الجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب لحق لا شك فيه سوف يقع كما وعد الله به.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾

وأقسم الله بالسماء ذات الشكل الجميل المحكم المتقن.

(٨) ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾

إنكم - أيها الكفار - لفي قول متناقض في كتابه وفي رسوله ﷺ فلم تثبتوا على قول.

(٩) ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾

يُصرف عن الانتفاع بالقرآن واتباع الرسول من صرف الله قلبه عن الإيمان بكتابه ورسوله ﷺ وصُرِفَ عن فهم براهين الله والانتفاع بحججه فلم يهتدِ.

(١٠) ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾

قتل الكذابون أهل الظن والريب والوهم في الحق.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾

الذين هم في لجة وظلمة من التكذيب والكفر، مستمرون في الغفلة، متمادون في الغواية.

(١٢) ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾

يسأل الكفار - تكذيبًا واستبعادًا -: متى يوم القيامة الذي يقع فيه حساب الناس؟

(١٣) ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾

يوم الحساب هو يوم يعذب الكفار بالنار ويحرقون فيها.

١٤ ﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾

ويقال للكفار في النار: ذوقوا هذا العذاب الذي كنتم تستعجلون به في الدنيا وتستبطئونه.

١٥ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴾

إن الذين اتقوا ربهم بفعل طاعته واجتناب معاصيه في بساتين كريمة، وحدائق عظيمة، وعيون ماء عذب جارية.

١٦ ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾

تفضل عليهم بأنواع المسارّ وأصناف النعيم ومختلف ما أحبوا: إنهم كانوا قبل هذا النعيم والتكريم محسنين في الدنيا بعمل الطاعات وترك المحرمات.

١٧ ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾

كان هؤلاء الأبرار لا ينامون من الليل إلا قليلاً، يصلون لربهم ويدعونه ويستغفرونه وهو التهجد.

١٨ ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾

وفي وقت السحر قبل الصبح يستغفرون الله لذنوبهم، والأسحار أفضل وقت لاستغفار الأبرار.

١٩ ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾

وفي أموال الأبرار حق وصدقة نافلة لمن سأل من المحتاجين، ولمن منعه الحياء من السؤال.

٢٠ ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾

وفي الأرض براهين ظاهرة وآيات باهرة يستدل بها الموقن على قدرة الله ووحدانيته فيزداد يقينًا.

٢١ ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

وفي خلق الإنسان براهين على عظمة الله وقدرته وحسن إتقانه، تدل على وحدانيته، فإن من تفكر في خلقه انبهر من عجيب قدرة الباري وازداد إيمانًا.

٢٢ ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾

وفي السماء رزق الناس مما كتبه الله وقدره في اللوح المحفوظ، ومما وعد الله عباده من ثواب وعقاب وخير وشر، وسراء وضراء، كل ذلك مسطر مقدر.

٢٣ ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾

أقسم الله بذاته الجليلة تقدست أسماؤه أن ما وعد الله به حق لا شك فيه، وواقع لا راد له، فهو مثل نطقكم بالكلام الذي لا تشكون فيه.

٢٤ ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾

هل جاءك - أيها الرسول - خبر ضيوف إبراهيم - عليه السلام - الكرام على الله، الذين وجدوا الكرامة عند إبراهيم.

٢٥ ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾

يوم دخلوا على إبراهيم في بيته فسلموا عليه فرد عليهم بالسلام، ولم يعرفهم فهم غرباء عليه.

٢٦ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾

فمال إلى أهله مستخفيًا فأخذ عجلاً سمينًا فذبحه وأنضجه .

٢٧ ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾

فأتى بالعجل فوضعه بين أيديهم ورحب بهم متلطفًا وقدمهم على الطعام قائلاً: ألا تأكلون؟!

(٢٨) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾

فلما أبصرهم إبراهيم لا يأكلون طعامه وجد في نفسه خوفًا منهم، قالوا له: لا تخف فنحن رسل من الله، وبشروه بولد سوف يكون عالمًا بدين الله، وهو إسحاق من زوجة إبراهيم (سارة).

(٢٩) ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

فلما سمعت سارة بشارة الملائكة لإبراهيم بولد منها جاءت إليهم وصاحت صيحة وضربت وجهها تعجبًا من هذه البشرى، وقالت: كيف أنجب ولدًا وأنا عجوز كبيرة وعقيم لا ألد؟!

(٣٠) ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

قالت الملائكة لسارة: هكذا قال ربك وقدَّر ذلك كما بشرناك، والله قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر، إنه حكيم في تدبيره وقضائه، يضع الشيء في موضعه، عليم بمصالح العباد وما ينفعهم.

(٣١) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾

قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة: ما خبركم وما سبب إرسالكم إليَّ؟

(٣٢) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾

قالت الملائكة: إن الله أرسلنا إلى قوم قد كفروا بالله وتعدوا حدوده.

(٣٣) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾

لنرميهم بحجارة من طين، نُضِّج بالإحراق، متحجر وصلب.

(٣٤) ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾

على كل حجر علامة عند الله لمن تعدى حدوده بالذنوب والخطايا.

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

فأخرج الله من قرية قوم لوط أهل الإيمان بالله لئلا يصيبهم العذاب.

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

فما كان في هذه القرية إلا بيت واحد ممن أسلم، وهم بيت لوط عليه السلام.

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

وأبقى الله في هذه القرية علامة ظاهرة تدل على قدرة الله وعظمته وقهره لأعدائه، وهذه عظة لمن خشي العذاب الموجع المؤلم من الله.

(٣٨) ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

وفي إرسال الله موسى إلى فرعون، وإتيان موسى بالبراهين الظاهرة والمعجزات الباهرة عبرة لمن خاف عذاب الله وعظمة لمن اتقاه.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

فأدبر فرعون متكبرًا وأعرض متجبرًا مغترًا بما عنده من القوة وقال عن موسى: إنه ساحر غُلِب على عقله، أو مجنون ذاهب العقل.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

فأخذ الله فرعون وجنوده فأغرقهم في البحر، وقد جاء فرعون بما يلام عليه من الكفر والتكذيب والطغيان.

(٤١) ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾

وفي خبر عاد وتدميرهم عبر وعظات لمن تدبر، إذ أرسل الله عليهم الريح التي لا خير فيها ولا نفع، لا تحمل مطرًا ولا تلقح شجرًا.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾

ما تترك شيئًا مرت عليه إلا حولته إلى حطام وهشيم.

(٤٣) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾

وفي قصة ثمود وتدميرهم عظة للمعتبر، إذ قيل لهم: تمتعوا بما أنعم الله به عليكم طيلة أعماركم.

(٤٤) ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾

فأعرضوا عن دين الله وعصوا رسوله فأهلكهم الله بصاعقة العذاب، وهم يرون الموت يحصدهم.

(٤٥) ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾

فما قدروا أن ينهضوا مما أصابهم من عذاب الله، وما قدروا على الفرار من أمرهم، وما استطاعوا الدفاع عن أنفسهم.

(٤٦) ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾

وعذب الله قوم نوح من قبل من تقدم من الأمم؛ لأنهم كانوا متعدين لحدود الله مسرفين في المعاصي.

(٤٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

والسماء رفعها الله وسواها وأتقن مبناها باقتدار وقوة، وقد وسع الله خلقها وأطرافها.

(٤٨) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾

وجعل الله الأرض فراشًا للخليقة؛ فمهدها وسواها ليستقر عليها كل مخلوق، فنعم الباسط لها والممهد الله عز وجل.

(٤٩) ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾

وخلق الله من كل أنواع المخلوقات نوعين مختلفين ذكرًا وأنثى، لتتذكروا وحدانية الله وعظمته، فالمخلوقات زوجان، والله واحد بلا ثان لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد.

(٥٠) ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

فاهربوا - أيها العباد - من عذاب الله إلى رحمته بطاعته، إني - أي الرسول ﷺ - لكم - أيها الناس - نذير من عذاب الله، واضح الإنذار، ظاهر الحجة، صادق القول.

(٥١) ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

ولا تشركوا بالله شيئًا فتعبدوا إلهًا غيره، إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد، وإنذاري بيّن لا يخفى على أحد لتمام الحجة.

(٥٢) ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾

كما كذب الكفار محمدًا رسول الله ﷺ فقد سبقهم في التكذيب أمم كثيرة كانوا يقولون لرسلهم: هذا ساحر خيل إليه، أو مجنون ذاهب العقل، كما فعلت قريش مع رسولنا ﷺ.

(٥٣) ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾

هل أوصى الأولون الآخرين بتكذيب الرسل؛ لأنهم اتفقوا كلهم على التكذيب؟ بل هم قوم متجاوزون للحد في العصيان، تشابهت قلوبهم وتوافقت أعمالهم على التكذيب والكفر، فقال الآخر كما قال الأول.

(٥٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾

فأعرض - أيها الرسول - عن الكفار حتى يحل بهم ما أنذرتهم به، فقد بلّغْتَ الرسالة ولا يلومك أحد.

(٥٥) ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ومع إعراضك عن الكفار وعدم المبالاة بتكذيبهم فاستمر في الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته، فإن الموعظة يستفيد منها المؤمن فيزداد يقينًا وخشية، وتقوم الحجة على العاصي.

(٥٦) ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

وما خلق الله الجن والإنس إلا لعبادته - سبحانه - وحده دون سواه وعدم الإشراك به، وهي دعوة الرسل جميعًا.

(٥٧) ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾

ما خلق الله الجن والإنسان ليرزقوه - سبحانه -، فهو رزاق كل المخلوقات، ولا يريد أن يطعموني، فهو يُطعِم ولا يُطعَم، وهو غني عن الخلق، والخلق فقراء إليه.

(٥٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾

إن الله وحده هو الذي يرزق كل المخلوقات، قد ضمن رزقهم، وهو ذو القوة المتين، يقهر من حاربه ويخذل من غالبه، قدير لا يعجزه شيء، قوي لا يُقهر ولا يُغلب.

(٥٩) ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾

فإن للظالمين أنفسهم بالكفر بالله وتكذيب رسوله نصيبًا من عذاب الله سوف يحل بهم مثل نصيب من وافقهم من الأمم السابقة المكذبة، فلا يستعجلون العذاب ولا يستبطئوه فالعذاب نازل بهم بلا شك.

(٦٠) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾

فدمار وهلاك وسوء عاقبة للكفار من يوم القيامة الذي وعدهم الله به في الدنيا.

مكية

ترتيبها ٥٢

سورة الطور

آياتها ٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾

أقسم الله بالطور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى - عليه السلام - وهو في سيناء.

(٢) ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾

وأقسم الله بالقرآن المكتوب في الصحف المسطر في الأوراق.

(٣) ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾

والقرآن كُتب في صحف منشورة، وسطر في جلود رقيقة .

(٤) ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾

وأقسم الله بالبيت المعمور بالملائكة في السماء الذين يطوفون به كل وقت.

(٥) ﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾

وأقسم الله بالسماء التي هي على الأرض سقف مرفوع.

(٦) ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾

وأقسم الله بالبحر المملوء بالمياه أو المشتعل نارًا عند قيام الساعة.

(٧) ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴾

إن عذاب الله لواقع بأعدائه الكفار لا محالة.

(٨) ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴾

لا يستطيع أحد أن يمنع نزول هذا العذاب بالكفار.

(٩) ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴾

يوم تضطرب السماء وتتحرك فيختل نظامها وتتقطع أجزاؤها.

(١٠) ﴿ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴾

وتذهب الجبال هباءً في الهواء وتزول عن أماكنها.

(١١) ﴿ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾

فهلاك ودمار للكفار إذا حل بهم ذاك اليوم.

(١٢) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴾

هؤلاء الكفار يخوضون في الباطل ويلعبون بالحق، فحياتهم لهو وسخرية.

(١٣) ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾

يوم يدفع الكفار إلى النار دفعًا بغلظة مهانين أذلاء.

(١٤) ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

ويقال للكفار - تبكيتًا -: هذه نار جهنم أمام عيونكم، ذوقوا عذابها، وقد كنتم تكذبون بها في الحياة الدنيا.

(١٥) ﴿ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴾

فهل هذا العذاب سحر كما كنتم تزعمون أن القرآن في الدنيا سحر، أم أنتم لا ترون رؤية حقيقية.

(١٦) ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

ذوقوا حرَّ النار - أيها الكفار - فاصبروا على حر النار وسمومها وحميمها أو لا تَصْبِروا فلن يرفع عنكم العذاب ولن تخرجوا من النار، فصبركم وعدمه سيان، وهذا عقاب ما فعلتموه في الدنيا من كفر وتكذيب، وما الله بظلام للعبيد.

(١٧) ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴾

إن الأتقياء في جنات ونعيم، ومسرة وتكريم، بجوار رحمن رحيم.

(١٨) ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

يتفكهون بما منَّ الله عليهم من سائر أنواع المسار والمحاب واللذائذ، وأنقذهم الله من عذاب النار؛ لأنهم آمنوا بالواحد القهار، واتبعوا النبي المختار.

(١٩) ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

كلوا - أيها الأبرار - في الجنة طعامًا هنيئًا، واشربوا شرابًا لذيذًا؛ ثوابًا على أعمالكم الصالحة في الدنيا.

٢٠ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴾

والأبرار متكئون في الجنة على سرر متقابلة لزيادة النعيم، وزوجهم الله نساء جميلات بيضًا واسعات العيون في حور وحسن.

٢١ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾

والمؤمنون ومن اقتدى بهم ووافقهم من ذريتهم في الأعمال جمعهم الله في الجنة بذريتهم، ورفعهم معهم في درجتهم، وإن لم يصلوا إلى عمل آبائهم؛ لينعم الجميع بالاجتماع في منـزل واحد، وما بخس الله أحدًا منهم من ثواب عملهم، بل وفاهم وزادهم، وكل إنسان مرهون بما عمل، لا يحاسب على جرم غيره.

٢٢ ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾

وزادهم الله على ما سبق من النعيم فواكه ولحوم طرية شهية لذيذة مما تحبه النفوس وتستلذ به.

٢٣ ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾

ومن إنعام الله لعباده في الجنة أنهم يتداولون بينهم كأس الخمر يدور عليهم في أنس وبهجة؛ ليعظم تنعمهم، وهذا الخمر لا يزيل العقل ولا يحصل به لغو في الكلام وهذر في القول، ولا معصية في شربه كخمر الدنيا.

٢٤ ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴾

ويطوف على الأبرار في الجنة غلمان يقومون على خدمتهم كأنهم في البهاء والصفاء والتناسب والبياض لؤلؤ مصون في الأصداف محفوظ من الأيدي.

٢٥ ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

واقبل الأبرار المنعمون في الجنة بعضهم على بعض يتساءلون فيما بينهم لزيادة النعيم عن سبب هذا التكريم.

٢٦ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴾

قالوا: إنا كنا من قبل هذه الحياة في حياتنا الدنيا ونحن بين أهلنا نخاف من الله ونشفق من عذابه، فنعمل بطاعته ونترك معصيته.

٢٧ ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾

فتفضل الله علينا بمنّه وكرمه فحمانا من عذاب سموم جهنم، وهو سعيرها وشدة حرّها.

٢٨ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾

إنا كنا في الدنيا قبل هذا اليوم ندعو الله وحده ولا نشرك به شيئًا، ونعبده مخلصين له الدين، أن ينقذنا من الجحيم ويدخلنا جنات النعيم، فاستجاب الله لنا وأعطانا ما سألنا، إن الله هو البر المتفضل على عباده بأنواع الألطاف الذي سح جوده على عباده، الرحيم بهم، الذي وفقهم لدخول جنته ونجاهم من النار.

٢٩ ﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴾

فذكر - أيها الرسول - قومك بالقرآن وعظهم به، فما أنت بما أنعم الله عليك به من الرسالة والحكمة والعلم النافع ورجاحة العقل بكاهن يخبر الناس بما سوف يأتي بلا علم بل بالظن، وما أنت بمجنون ذاهب العقل لا يدري ما يقول.

٣٠ ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾

أم يقول الكفار إن النبي المختار شاعر ننتظر به الموت لتموت معه دعوته.

٣١ ﴿ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴾

قل لهم - أيها الرسول -: انتظروا موتي وأنا أنتظر موتكم، وترقبوا وفاتي فأنا أترقب عذاب الله فيكم، وسوف تعلمون لمن العاقبة الحميدة.

(٣٢) ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

بل إن عقول هؤلاء الكفار تأمرهم بهذا القول المتناقض، فكيف تجمع الكهانة والشعر والجنون في شخص واحد في وقت واحد، ولكنهم مسرفون في الطغيان، متجاوزون الحد في العصيان.

(٣٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

بل يقول الكفار: إن الرسول ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه، بل القوم مكذبون لا تصديق لديهم، ولو صدقوا بالرسالة ما قالوا هذا القول.

(٣٤) ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾

فليأت الكفار بكلام مثل القرآن في بيانه وفصاحته إن كانوا صادقين أن الرسول ﷺ افترى القرآن.

(٣٥) ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾

هل خُلِق الكفار من غير خالق وموجِد لهم، أم أنهم هم خلقوا أنفسهم؟ وهذا ليس بصحيح، فلم يخلقهم العدم، ولم يخلقوا أنفسهم، والصحيح أن الله وحده هو الذي خلقهم، فيجب أن يُعبد وحده لا شريك له.

(٣٦) ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾

أم خلق الكفار السموات والأرض على هذا الإتقان العجيب؟ بل الكفار لا يوقنون بقدرة الله ووحدانيته فكفروا بالله.

(٣٧) ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾

أم عند الكفار خزائن الله من الأرزاق والمواهب فهم يتصرفون فيها؟ والواقع أنهم لا يملكون شيئًا أم هم أهل القوة والسلطة في العالم فلهم الغلبة والجبروت؟ وليس هذا بصحيح، بل هم عاجزون ضعفاء والله القوي الجبار.

(٣٨) ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

أم للكفار سلم يصعدون فيه يستمعون إلى الوحي فيجدون ما يؤيد باطلهم من الوحي؟ فليأت من يدعي ذلك من الكفار بدليل قاطع يصدق دعواه.

(٣٩) ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾

أم لله - تعالى - البنات وأنتم لكم الأبناء كما تدعون ذلك كذبًا وزورًا.

(٤٠) ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾

أم تسأل - أيها النبي - الكفار أجرة على تبليغ دعوتك فهم في حرج ومشقة من تكاليف دفع الغرامة التي تطالبهم بها؟

(٤١) ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾

أم عند الكفار علم الغيب فهم يكتبون ذلك ويسطرونه لإعلام البشر به؟ وهذا كذب منهم فلا يعلم الغيب إلا الله.

(٤٢) ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾

بل يريد الكفار الكيد للرسول ﷺ والمكر به، فسوف يعود مكرهم وكيدهم على أنفسهم.

(٤٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

أم للكفار إله يستحق العبادة غير الله؟ تقدس الله وتعالى عن شرك الكفار، فليس له شريك في الخلق، ولا شريك في الألوهية، فهو المعبود وحده.

(٤٤) ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾

وإذا شاهد الكفار قِطَعًا ساقطًا عليهم بالعذاب من السماء فلن يتوبوا من شركهم، وإنما يقولون: هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض وليس بعذاب.

(٤٥) ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾

فاترك - أيها الرسول - الكفار حتى يلاقوا يوم القيامة وهو يوم هلاكهم وتعذيبهم.

(٤٦) ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وفي يوم القيامة لا ينفع الكفار كيدهم ولا تدبيرهم، ولا يدفع عنهم عذاب الله ولا ينصرهم ناصر من دونه.

(٤٧) ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وإن للكفار عذابًا يذوقونه في حياتهم الدنيا قبل يوم القيامة من القتل والأسر والذل والمصائب وعذاب القبر وغير ذلك، ولكن أكثر الكفار يجهلون ذلك.

(٤٨) ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

واصبر - أيها الرسول - لما حكم الله وأمر به من إرسالك إلى هؤلاء الكفار وما تجده من أذى وسخرية وكيد، فإنك بمرأى من الله وحفظ ورعاية وتأييد، وَسَبِّحْ بحمد ربك حين تقوم إلى الصلاة وحين تقوم من النوم.

(٤٩) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾

وسبحه أيضًا من الليل في التهجد وغيره، وعند اختفاء النجوم، وهو وقت صلاة الفجر، فإن التسبيح وعموم الذكر يعينان الإنسان على أعباء الحياة.

مكية

ترتيبها ٥٣

سورة النجم

آياتها ٦٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾

أقسم الله بالنجم إذا سقط من مكانه، وفارق محله أو غاب بعد طلوعه.

(٢) ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾

ما انحرف الرسول ﷺ عن الهدى وحاد عن الرشاد، فهو على الحق ومع الحق، فهو على استقامة تامة، وعلى صراط مستقيم، وسداد عظيم.

(٣) ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾

وما يتكلم من عند نفسه ما يشتهي أن يقول، بل كلام وحي من الله تعالى.

(٤) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾

وما القرآن والسنة إلا وحي أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ وليس كلام بشر.

(٥) ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾

علَّم جبريل - عليه السلام - رسول الله ﷺ، وجبريل ملك عظيم القوة شديد البطش.

(٦) ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾

وجبريل صاحب منظر حسن وصورة بهية، وقد بدا للرسول ﷺ وظهر واستوى على صورته التي خلقه الله عليها.

٧ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾

استوى جبريل وظهر في أفق السماء الأعلى عند طلوع الشمس.

٨ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾

ثم اقترب جبريل من الرسول ﷺ وزاد في القرب.

٩ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾

فصار قرب جبريل من الرسول ﷺ مسافة قوسين أو أقرب من ذلك.

١٠ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾

فأوحى الله إلى عبده ورسوله ﷺ ما أوحاه من القرآن عن طريق جبريل - عليه السلام -. وفي هذا تعظيم الوحي المنزَّل.

١١ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾

ما كذَّب قلبُ الرسول ﷺ ما رأته عيناه .

١٢ ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾

أتجادلون الرسول ﷺ وتردّون ما جاء به على ما أبصره وشاهده من آيات الله؟

١٣ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾

ولقد شاهد الرسول ﷺ جبريل مرة ثانية على هيئته الملائكية عند سدرة المنتهى، وهي شجرة النبق في السماء السابعة.

١٤ ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾

وهي نهاية ما يصعد من الأرض إلى السماء وما ينـزل من فوقها إليها.

١٥ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾

عند سدرة المنتهى جنة المأوى التي يأوي إليها الأبرار.

١٦ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾

إذ يعلو على السدرة من أمر الله شيء عظيم لا يصفه الواصفون، ولا يعرف عظمته إلا الله وحده.

١٧ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾

ما مال بصر الرسول ﷺ عن محل نظره، وما تجاوز المحل الذي نظر إليه، بل كان بصره نافذًا وقلبه ثابتًا.

١٨ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾

لقد شاهد ﷺ ليلة المعراج آيات كبيرة تدل على قدرة الله وعظمته مثل: الجنة والنار وغير ذلك.

١٩ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾

أخبروني - أيها الكفار - عن هذه الأصنام التي تعبدونها مثل اللات والعزى هل تنفع أم تضر؟ وهو سؤال إنكار.

٢٠ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾

وكذلك صنم مناة الثالثة بعد اللات والعزى هل لها نفع أو ضر حتى تُعبد من دون الله؟ وهذا إنكار على من عبدها.

٢١ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾

أتجعلون - أيها الكفار - الذكر من الأولاد لكم ومن نصيبكم وتنسبون الأنثى إلى الله بزعمكم وأنتم لا ترضونها لأنفسكم.

٢٢ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾

هذه القسمة منكم في جعل البنين لكم والإناث لله قسمة جائرة ظالمة.

٢٣ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

ما هذه الأصنام والأوثان إلا أسماء ليس لها حقيقة، فليس فيها من أوصاف الكمال والقدرة والعظمة شيء، إنما هي مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ظلمًا وزورًا بدافع الهوى وتزيين الشيطان، ما أنزل الله بها من برهان يصدق ما ذهبتم إليه من الدعوى الباطلة، وما يتبع هؤلاء الكفار إلا الظن الكاذب، وهوى النفس الأمارة بالسوء المنحرف عن الهدى، ولقد جاءكم الهدى من الله عن طريق رسوله المعصوم محمد ﷺ فاتبعوه تهتدوا.

٢٤ ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾

هل للإنسان ما تمنته نفسه وأملاه هواه من مثل شفاعة هذه الأصنام والأوثان وغير ذلك؟ إنما الأمر لله.

٢٥ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾

فأمر الدنيا والآخرة لله، وهو الذي يحكم ويفصل بما أراد؛ فيثيب المصيب ويعاقب الكافر الكاذب.

٢٦ ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾

وكثير من ملائكة السماء مع ارتفاع مرتبتهم وعلو قدرهم لا تنفع شفاعتهم أحدًا إلا إذا أذن الله لهم في الشفاعة، ورضي عن المشفوع له.

٢٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾

إن الذين لا يصدقون بيوم القيامة ولا يعملون لهذا اليوم من الكفار، هؤلاء يسمّون الملائكة تسمية الإناث؛ لاعتقادهم أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، وهذا من جهلهم وسفههم.

٢٨ ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾

وليس للكفار علم ولا دليل بما ادعوه من أن الملائكة إناث، ولكنهم يتبعون الظن الكاذب الذي لا يدل على هدى، ولا يوصل إلى علم ولا يقوم مقام الحق.

٢٩ ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾

فاهجر من أعرض عن الهدى وهجر القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه، وليس له مراد ولا مقصد إلا الحياة الدنيا الفانية.

٣٠ ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾

وحبهم للدنيا واشتغالهم بها هو غاية مقصودهم ومنتهى مطالبهم؛ لسقوط هممهم وانحطاط نفوسهم، إن الله أعلم بمن انحرف عن الهدى، وهو أعلم بمن اهتدى ولزم طريق الاستقامة واتبع الحق.

٣١ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾

ولله وحده ما في السموات والأرض؛ فهو المدبر المتصرف فيهما، وهو الذي يعاقب المسيئين على أعمالهم القبيحة، ويثيب المحسنين على إحسانهم بجنات النعيم.

٣٢ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾

وهؤلاء المحسنون هم من يتركون كبائر الذنوب والمعاصي والفواحش إلا اللمم وهي الذنوب الصغار التي لا يصر عليها من اقترفها أو يلم بها الإنسان على سبيل الندرة، فإذا أتى العبد بالواجبات واجتنب المحرمات غفرها الله له وتجاوز عنه وسترها عليه، فإن الله كثير العفو والصفح، واسع المغفرة، وهو أعلم بطبيعة العباد حين خلق أباهم آدم من تراب، وحين كانوا أجنة في بطون الأمهات، وهذا يدل على ضعف الإنسان ومظنة صدور الذنب عنه والتقصير، فلا تزكوا - أيها الناس - أنفسكم فتثنوا عليها بالتقوى وتصفوها بالاستقامة، والله وحده هو العالم بالمتقي حقيقة المطلع على ما أسره العبد وأظهره، فالواجب ترك تزكية النفس ولزوم الانكسار والاستغفار بين يدي العزيز الجبار.

٣٣ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾

أفرأيت - أيها الرسول - الذي أدبر عن الإيمان وأعرض عن طاعة الرحمن، ما أجهله وما أشد غفلته.

٣٤ ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾

وانظر إلى هذا المعرض كيف أعطى القليل من المال، ثم قطع عطاءه وبخل بمعروفه وأمسك عن الإحسان ما أشد شحه.

٣٥ ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾

هل لدى هذا البخيل المعرض المانع معرفة من علم الغيب يدل على أنه سوف ينتهي ما عنده من الخير حتى يمنع الناس إحسانه، فهو يشاهد ذلك بعينيه؟ وهذا ليس بصحيح، فهو لم يطلع على علم الغيب، وإنما منعه البخل من الإنفاق وحمله الشح على الإمساك.

٣٦ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾

أم لم يخبر بما جاء في التوراة التي أتى بها موسى .

٣٧ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾

أم لم يُخبر بما جاء في الصحف التي أتى بها إبراهيم الذي وفّى بما أمره الله به ودعا إليه وبلغه الناس.

٣٨ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

أنه لا تحاسب نفس بذنب سواها، ولا يحمل أحد جرم غيره، فكلٌّ مسؤول عما فعل لا ما فعل الآخر.

٣٩ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾

وأنه لا يكتب للعبد من الثواب إلا ما فعله أو تسبب في فعله كالولد والعلم والصدقة الجارية ونحوها.

٤٠ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾

وأن سعي الإنسان سوف يظهر يوم القيامة فيبدو الخير من الشر، فيثاب على الحسن ويعاقب على السيء.

٤١ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾

ثم يجازي الله الإنسان على عمله الجزاء التام الكامل على كل ما عمل.

٤٢ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾

وأن إلى ربك - عز وجل - نهاية كل مخلوق وخاتمة كل عمل وعودة كل شيء.

٤٣ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾

وأنه - سبحانه - أضحك من أراد من عباده بإسعاده، وأبكى من شاء من الناس بالأحزان والغموم، فهو خالق أسباب الانبساط والانقباض.

٤٤ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾

وأن الله - سبحانه - أمات من حان موته من عباده بقبض روحه، وأحيا من أراد حياته بنفخ الروح فيه وهو في بطن أمه وإعادته بعد الموت، فله وحده الإحياء والإماتة.

٤٥ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾

وأن الله خلق الزوجين من كل الأحياء الذكر والأنثى؛ ليبقى النوع وتستمر الحياة ويعمر الكون.

٤٦ ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾

خلق الزوجين من نطفة من مني الذكر يصب في رحم الأنثى.

(٤٧) ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾

وأن على الله إعادة الخلق بعد الموت بإحيائهم وإخراجهم من قبورهم وهي النشأة الأخرى.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾

وأنه أغنى - سبحانه - من شاء من العباد بالأموال وملّكهم إياها وأرضاهم بها وأقناهم بما رزقهم.

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾

وأنه - سبحانه - رب الشعرى النجم البعيد العالي المضيء، وكان الكفار يعبدونه من دون الله.

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾

وأن الله دمَّر عادًا الأولى لما كذبوا فأبادهم وأفناهم.

(٥١) ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾

وأهلك - سبحانه - ثمود قوم صالح وأخذهم بعذاب شديد.

(٥٢) ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾

وأهلك الله قوم نوح من قبل هؤلاء الأقوام، فقد كانوا أشد عصيانًا وأعظم ذنوبًا وتمردًا ممن أتى بعدهم.

(٥٣) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾

وقرى قوم لوط المنقلبة دمَّرها الله وأبادها وأهلك أهلها وقلبها عليهم.

(٥٤) ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾

فأمطرها ما أمطرها من الحجارة، وألبسها ما ألبسها من العذاب.

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾

فبأي نعمة من نعم الله عليك - أيها الإنسان - تشك، وكل نعمة صغيرة أو كبيرة؟ فمن الله وحده؛ فله الحمد على نعمه.

(٥٦) ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾

هذا الرسول محمد ﷺ نذير من عند الله برسالة مثل المرسلين قبله؛ فليس ببدع من الرسل بل سبقه كثيرون.

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾

قربت الساعة ودنت القيامة وحان وقتها.

(٥٨) ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾

لا يردها أحد من دون الله، ولا يعلم قيامها إلا الله، ولا يَكْشِفُ هولها عن أحد إلا الواحد الأحد.

(٥٩) ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾

أفمن هذا القرآن تعجبون - أيها الكفار - وتشكون في صحته وهو حق من عند الله؟

(٦٠) ﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ﴾

وتضحكون - أيها الكفار - من القرآن استهزاءً وسخرية، ولا تبكون من وعده شوقًا، ولا من وعيده خوفًا.

(٦١) ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾

وأنتم لاهون في دنياكم، معرضون عن التذكر، غافلون عن الموعظة.

(٦٢) ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾

فاسجدوا لله وأخلصوا له الطاعة وانقادوا لأمره، واخضعوا لعظمته سبحانه.

مكية

ترتيبها ٥٤

سورة القمر

آياتها ٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾

قربت القيامة ودنا وقتها وانفلق القمر فلقتين، وذلك حينما طلب الكفار من الرسول ﷺ أن يريهم علامة فدعا ربه فشق له القمر.

(٢) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾

وإن يشاهد الكفار علامة وبرهانًا على صدق الرسول ﷺ يعرضوا عن الإيمان والقرآن ويقولوا: هذا سحر باطل ذاهب لا يستقر سوف يضمحل ويتلاشى.

(٣) ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾

وكذب الكفار الرسول ﷺ، واتبعوا هوى نفوسهم الأمارة بالسوء فضلوا عن الهدى، وكل أمر من صلاح أو فساد نازل بأهله يوم الحساب من ثواب وعقاب.

(٤) ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾

ولقد أتى الكفار من أخبار من سبقهم من المكذبين وما وقع بهم من عقاب، ما فيه عظة لهم وعبرة لو انتفعوا بها.

(٥) ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾

هذا القرآن حكمةٌ بلغت غايتها في البيان والبرهان والزجر، ولن تنفع النذُرُ قومًا أعرضوا عن العظة ولم ينتفعوا بالدليل.

(٦) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾

فاهجر الكفار - أيها النبي - وارتقب يوم القيامة، يوم يدعو الداعي إلى موقف عصيب، وأمر مهول فظيع ومقام منكر مخيف.

(٧) ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

ذليلة أبصار الكفار، من الذل والصغار، يخرجون من قبورهم كأنهم الجراد المنتشر في انتشارهم وسرعتهم للحساب.

(٨) ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾

مسرعين إلى الموقف الذي دعاهم الله إليه يقول الكفار: هذا يوم عصيب عسير مخيف.

(٩) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾

كذبت قبل كفار مكة قومُ نوح نوحًا عبد الله ورسوله وقالوا عن نوح: إنه مجنون ذاهب العقل وزجروه وانتهروه وتوعدوه وهددوه.

(١٠) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾

فدعا نوح ربه أني - يا رب - ضعيف أمام تهديد الكفار فانتصر لي منهم بإنزال النكال بهم على ما فعلوه.

(١١) ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾

فأجاب الله دعاء نوح: وفتح أبواب السماء بماء غزير يتدفق في قوة وانصباب.

(١٢) ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

وشقق الله الأرض عيونًا تنبع بالماء، فاجتمع ماء السماء وماء الأرض على تدميرهم الذي قدره الله وكتبه عقابًا على كفرهم.

(١٣) ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾

وحمل الله نوحًا ومن معه على سفينة لها ألواح ومسامير شدت بها، فصارت قوية متماسكة.

(١٤) ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾

تسعى السفينة بمرأى من الله وحفظه ورعايته، وأهلك الله الكفار؛ عقابًا على كفرهم وانتصارًا لنوح الذي كذبه قومه، وفيه إثبات صفة العينين لله تعالى كما يليق به سبحانه.

(١٥) ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

ولقد أبقى الله قصة نوح وقومه علامة وبرهانًا على عظمة الله وتمام قدرته ووحدانيته، يتفكر فيها كل من جاء بعد نوح، فهل من متعظ ومعتبر ينتفع بالعظات والعبر؟

(١٦) ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

فكيف كان عذاب الله وإنذاره لمن حاربه وكذب أنبياءه ولم يؤمن بما أرسل به رسله؟ لقد كان عذابًا شديدًا وإنذارًا عظيمًا.

(١٧) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

ولقد سهَّل الله القرآن لفظًا ومعنى للحفظ والتلاوة والتدبر والفهم والعمل، فهل من متعظ بمواعظه ومعتبر بما فيه؟

(١٨) ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

كذبت عاد رسولها هودًا فأهلكهم الله، فانظر كيف كان عذاب الله لهم على كفرهم وتكذيب رسولهم؟ لقد كان عذابًا شديدًا مؤلمًا.

(١٩) ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾

إن الله أرسل على عاد ريحًا قوية شديدة البرودة في يوم نحس وشقاء دائم العذاب مستمر الهلاك.

(٢٠) ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾

تقتلع الناس من أماكنهم، وترمي بهم على رؤوسهم فتفلق هاماتهم، وتدق أعناقهم، وتفصل الجماجم عن الأكتاف؛ فتدعه كالنخل المنقلع من أصله المنطرح.

(٢١) ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

فكيف كان عذاب الله لعاد ونذره لمن كذب رسله؟ لقد كان شديدًا مؤلمًا موجعًا .

(٢٢) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

ولقد سهَّل الله القرآن لفظًا ومعنى للحفظ والتلاوة والتدبر والفهم والعمل، فهل من متعظ بزواجره منتفع بعبره؟

(٢٣) ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾

كذبت ثمود رسولهم صالحًا وبالآيات التي أرسل بها.

(٢٤) ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾

فقالت ثمود: كيف نتبع إنسانًا مثلنا لا ميزة له علينا وهو منًّا يساوينا، وهو واحد ونحن جماعة كثيرة؟ إنا لو اتبعناه لفي بعد عن الحق، وجنون يذهب العقول.

(٢٥) ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾

كيف أنزل الوحي على صالح وامتاز بالنبوة علينا وهو بشر مثلنا؟ بل هو كذاب في قوله متجبر في فعله، يقول الكذب ويفعل الشر، وقد كذبوا بل هو نبي كريم وهم كذبة أشرار.

(٢٦) ﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾

سوف يظهر لهم إذا حل بهم العقاب في الدنيا والآخرة من الكذاب الشرير المتجبر.

(٢٧) ﴿ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾

إن الله مخرج الناقة التي طلبوها من الصخرة، امتحانًا لهم، فانتظر يا صالح ما سوف يقع بهم من العقاب، واصبر على إبلاغ الرسالة وعلى ما يؤذونك به.

(٢٨) ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴾

وأخبر قومك أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة: للناقة يوم ولهم يوم، كل يوم يحضره من له شرب الماء، ويُحْظَرُ على من ليس له شرب في ذلك اليوم فلا يحضر.

(٢٩) ﴿ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾

فدعا قوم ثمود صاحبهم وحضوه على عقر الناقة، فتناول الناقة بيده، فنحرها.

(٣٠) ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

فعذبهم الله بسبب عقر الناقة.. فانظر ما أشد عذاب الله وما أقساه حين نزل بالعصاة.

(٣١) ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾

إن الله أرسل على ثمود صيحة واحدة فدمرتهم وأبادتهم جميعًا؛ فكانوا بعد الهلاك كالزرع اليابس الذابل الذي جعل حاجزًا على البهائم.

(٣٢) ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾

ولقد سهَّل الله القرآن لفظًا ومعنى، حفظًا وتلاوةً وتدبرًا وفهمًا وعملاً، فهل من متعظ بزواجره ومنتفع بأحكامه؟

(٣٣) ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴾

كذبت قوم لوط نبي الله لوطًا وقد جاءهم بآيات الله وأنذرهم بها فكفروا بتلك الآيات.

(٣٤) ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴾

إن الله أرسل على قوم لوط حجارة قذفهم بها فمزقتهم، ونجى الله منها آل لوط في آخر الليل.

(٣٥) ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴾

فضلاً من الله على آل لوط حينما نجاهم من العذاب، وكما أنعم الله على آل لوط ومن آمن من أهله، ينعم الله على كل من يشكره بعبادته وحده سبحانه.

(٣٦) ﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾

ولقد خوَّف لوط قومه أخْذَ الله وانتقامه، فشكّوا في ذلك واستهانوا بما قال.

(٣٧) ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

ولقد حاولوا أن يفعلوا الفاحشة بضيوف لوط من الملائكة، فطمس الله أبصارهم مثلما أعمى بصائرهم، فذوقوا - أيها الكفار - عذاب الواحد القهار.

(٣٨) ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

ولقد أتاهم وقت الصباح الباكر عذاب عظيم استقر فيهم ودام حتى أوصلهم إلى عذاب النار، وهو قذفهم بالحجارة واقتلاع قراهم.

(٣٩) ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

فذوقوا - أيها الفجار - عذاب الواحد القهار؛ لأنكم قابلتم دعوة لوط بالإنكار وكذبتم بالإنذار.

(٤٠) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

ولقد سهل الله لفظ القرآن ومعناه للتلاوة والحفظ والفهم والعمل والتدبر لمن أراد أن يتذكر، فهل من متعظ بالقرآن؟

(٤١) ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾

ولقد جاء فرعونَ وقومَه تخويفُ الله لهم بالعذاب على تكذيبهم على لسان موسى عليه السلام.

(٤٢) ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

لقد كذب فرعون وقومه ببراهين الله والمعجزات التي أتى بها موسى كلها فعاقبهم الله أشد العقاب، عقاب عزيز يذل من حاربه ويقهر من غالبه مقتدر على ما أراد، لا مانع لحكمه ولا راد.

(٤٣) ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾

أكفار مكة أفضل ممن تقدم من الكفار حتى لا ينالهم عذاب الله أم أن الله أنزل براءة لهم من عذابه في الكتب السابقة فهم في أمان من أخذه عز وجل؟

(٤٤) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾

بل يقول الكفار: نحن أصحاب رأي وعزيمة وحزم في الأمور، وأمرنا مجتمع ومنتصرون على من حاربنا، نغلب من غالبنا.

(٤٥) ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾

سيُغلب جمع الكفار أمام جند الله من الملائكة والمؤمنين، وسوف يفرون من المعركة ويعطون ظهورهم جند الله. وقد حصل هذا في غزوة بدر.

(٤٦) ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾

يوم القيامة موعدهم الذي يحاسبون فيه على ما عملوا، ويوم القيامة أعظم عذابًا وأشد ألمًا، وأقسى عقوبة من عذاب يوم بدر.

(٤٧) ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾

إن الفجار بعيدون عن الصواب، وفي تِيه عن الرشاد وفي عناء وشقاء وبأساء.

(٤٨) ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾

يوم يُجر الفجار في النار على وجوههم، ويقال لهم: ذوقوا حرارة الجحيم وشدة العذاب الأليم.

(٤٩) ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾

إن الله خلق كل شيء وقدره بقضاء سابق وعلم وكتابة، فلا يقع في الكون شيء إلا بتقدير الله عز وجل.

(٥٠) ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾

وما أمر الله لأمر أراده وما قضاؤه لشيء قضاء إلا أن يقول مرة واحدة "كن" فيكون بإذن الله كلمح البصر في سرعته لا يتأخر طرفة عين لتمام القدرة.

(٥١) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

ولقد أهلك الله بالعذاب أشباه الكافرين من الأمم السابقة.. فهل من معتبر بما نزل بهم من العذاب فيؤمن ويعود إلى ربه بطاعته؟

(٥٢) ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾

وكل شيء عمله من تقدم من الأقوام محفوظ مكتوب من حسن وقبيح في كتب سطرتها الملائكة الحفظة.

(٥٣) ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴾

وكل أمر صغير أو كبير من أفعال العباد مكتوب في صحائف الأعمال، وسوف يجزون به إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(٥٤) ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴾

إن الأتقياء في بساتين غناء، وحدائق فيحاء، وأنهار عذبة جارية تحت القصور والأشجار.

(٥٥) ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾

في مجلس حق لا لغو فيه ولا إثم، ولا صخب فيه ولا نصب، بل أمان وسلام، وسرور وإكرام، عند الله الملك العظيم، البر الرحيم، القدير على كل شيء، لا يعجزه أمر ولا يفوته مطلوب.

مدنية

ترتيبها ٥٥

سورة الرحمن

آياتها ٧٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾

الرحمن - سبحانه - الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

(٢) ﴿ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾

علّم الإنسانَ القرآنَ فسهل عليه حفظُه وتلاوته وفهمه والعمل به.

(٣) ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾

خلق الله الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا إذ خلق آدم من تراب.

(٤) ﴿ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾

والله علم الإنسان البيان باللسان عما يدور في الجنان، فميَّزه عن غيره.

(٥) ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾

والله خلق الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق وتوقيت متقن، لا يختلف ولا يضطرب.

(٦) ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾

ونجوم السماء وشَجَرُ الأرض تعرف ربها، وتسجد له سجود طاعة وانقياد وخضوع، وهي مسخرة بإذن الله لمصالح الناس ومنافعهم.

(٧) ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾

والله رفع السماء وأعلى سقفها فوق الأرض، وأنزل في الأرض العدل الذي أمر الناس به وفرضه على عباده في الحقوق والحدود والأشياء والعلوم وغير ذلك.

٨ ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾

لأجل أن لا تتجاوزوا الحدود وتعتدوا على الناس وتجوروا إذا وزنتم لأحد، بل لتعدلوا.

٩ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾

وأقيموا الوزن بالعدل، فخذوا الحق وأعطوه لا ضرر ولا ضرار، ولا تنقصوا الوزن إذا وزنتم لغيركم.

١٠ ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾

والله سوّى الأرض وبسطها ومهّدها لخلقه لتقوم الحياة على ظهرها.

١١ ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴾

والله خلق في الأرض فاكهة لذيذة ونخلاً ذا أوعية، فيها طلعه وثمره من رطب وتمر.

١٢ ﴿ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴾

وخلق الله الحب في قشره من زرع أخضر يحصد قوتًا لكم ولأنعامكم، وخلق كل نبت طيب الرائحة من أنواع الأزهار والورود.

١٣ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكم الدينية والدنيوية والظاهرة والباطنة يا معشر الجن والإنس تكذبان؟ وما أجمل جواب الجن لما سمعوا هذه السورة من الرسول ﷺ، فكلما سمعوا هذه الآية: قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فعلى المسلم إذا سمع بنعم الله وتذكرها أن يحمد ربه عليها.

١٤ ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾

خلق الله آدم أبا الناس جميعًا من طين يابس كالفخار الذي طبخ طينه وعملت منه الآنية.

١٥ ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴾

وخلق الله إبليس وهو من الجن من لهب النار، وهو مزيج من شعلة النار ودخانها.

١٦ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ ولا شيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

١٧ ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴾

والله هو رب مشرقي الشمس صيفًا وشتاءً، ورب مغربيها فيهما، فالكل تحت حكمه وتصرفه جل شأنه، فهو رب الزمان والمكان.

١٨ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان، وهو المنعم وحده له الحمد؟

١٩ ﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴾

مزج الله ماء البحرين العذب والمالح يلتقيان.

٢٠ ﴿ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴾

بينهما حاجز لا يغلب أحدهما على خصائص الآخر، بل كل واحد منهما محتفظ بما أودع الله فيه، فيبقى العذب عذبًا والمالح مالحًا ولو تلاقيا.

٢١ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما أيها -الثقلان- تكذبان؟ ولا شيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٢٢ ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾

يخرج من البحرين العذب والمالح بقدرة الله اللؤلؤ والمرجان، وفيهما زينة للناس ومنافع.

٢٣ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما أيها -الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٢٤ ﴿ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾

وله وحده السفن الكبيرة التي تسعى على ظهر الماء بما ينفع الخلق، مرتفعة قلاعها، منصوبة أشرعتها كالجبال.

٢٥ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما أيها -الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٢٦ ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴾

كل من على وجه الأرض من الأحياء ميت.

٢٧ ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾

ويبقى وجه ربك ذو العظمة والمجد والكبرياء والجبروت والجلال، فهو حي لا يموت - سبحانه -، وفي الآية إثبات صفة الوجه لله بما يليق بجلاله سبحانه.

٢٨ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما أيها -الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٢٩ ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾

يسأل كل من في السموات والأرض من المخلوقات حاجاتهم من الله وحده؛ فهم فقراء إليه، ورزقهم على الله، فلا يستغني أحد منهم عن الله طرفة عين، كل يوم هو في شأن، يرفع ويضع، ويعز ويذل، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضل.

٣٠ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان - تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٣١ ﴿ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾

سيفرغ الله لحسابكم على ما فعلتموه في دنياكم أيها -الثقلان- فيثيب الطائع ويعاقب العاصي، وسوف يجد كل عامل ما عمل أمامه.

٣٢ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما أيها -الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٣٣ ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾

يا معشر الجن والإنسان إن قدرتم على النفاذ من أمر الله، والهروب من حكمه ففروا من أقطار السموات والأرض، ولستم بمستطيعين، فالكل في حكمه وتحت سلطانه وتصرفه، ولا تقدرون على النفاذ إلا بقوة وحجة وإذن من الله، وكيف يحصل لكم ذلك وأنتم عباد ضعفاء مقهورون.

٣٤ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما أيها -الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٣٥ ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾

يرسل الله عليكم - أيها الجن والإنس - لهبًا من نار ونحاس مذاب يصب على رؤوسكم فلا يدفع بعضكم عن بعض العذاب؛ لتمام قوة الله وسلطانه وعجزكم وضعفكم.

(٣٦) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٣٧) ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾

فإذا تصدعت السماء وتفتحت أبوابًا يوم القيامة فصارت حمراء كلون الورد الأحمر، كالزيت الحار المغلي والرصاص المذاب المنصهر من شدة الهول ومن عظيم الكرب وفداحة الخطب.

(٣٨) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٣٩) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾

ففي يوم القيامة لا تَسألُ الملائكةُ الفَجَرةَ من الإنس والجن عن سيئاتهم، أو أنه موقف من مواقف الحشر لا يُسأل فيه أحد، وإنما يسأل في موقف آخر.

(٤٠) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٤١) ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾

تعرف الملائكةُ الفجارَ بعلامات الفجور الظاهرة عليهم فتأخذهم بمقدمة رؤوسهم وبأقدامهم فترميهم في نار جهنم.

(٤٢) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٤٣) ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

يقال للفجرة في النار - توبيخًا لهم -: هذه هي جهنم التي كان يكذب بها الفجار في الدنيا.

(٤٤) ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾

مرة يعذبون في الجحيم، ومرة يسقون من الحميم، وهو شراب بلغ الغاية في الغليان، يقطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء.

(٤٥) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٤٦) ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾

ولمن اتقى الله فعمل بطاعته واجتنب معصيته جنتان.

(٤٧) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٤٨) ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾

من اتقى ربه له جنتان ذواتا أغصان لينة خضرة نضرة من الفواكه والثمار.

(٤٩) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نعم ربكما - أيها الثقلان - تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

(٥٠) ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾

في الجنتين عينان من الماء العذب الزلال الجاري تحت القصور والأشجار.

(٥١) ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

فبأي نِعَم ربكما - أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٥٢) ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾

في هاتين الجنتين من كل صنف من أصناف الفواكه نوعان.

(٥٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نِعَم ربكما – أيها الثقلان– تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٥٤) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۢ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾

ولمن اتقى الله جنتان، أهلها متكئون على فرش مبطنة من غليظ الديباج، وثمر الشجر في الجنتين قريب لمن يتناوله من أهل الجنة.

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما –أيها الثقلان– تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٥٦) ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾

في هذه الفرش نساء قاصرات عيونهن على أزواجهن، لا يتطلعن إلى سواهم، وإنما تعلقهن بأزواجهن، لم يجامعهن إنس قبل أزواجهن ولا جان.

(٥٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نِعَم ربكما – أيها الثقلان – تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٥٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾

مَثَلُ هؤلاء النساء في الحسن والجمال مَثَلُ الياقوت والمرجان، حيث جَمَعْنَ مع البهاء صَفَاء.

(٥٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما – أيها الثقلان – تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٦٠) ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾

هل جزاء من أحسن في عمله في دنياه إلا الإحسان له من ربه يوم يلقاه، بأن يجعل الجنة مأواه.

(٦١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما – أيها الثقلان – تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٦٢) ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾

ومن دون الجنتين السابقتين جنتان أخريان أقل منهما في الجودة والحسن، مع أن موطن سوط فيهما خير من الدنيا وما عليها.

(٦٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما – أيها الثقلان – تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٦٤) ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾

هاتان الجنتان شديدة النضرة والاخضرار، قد عظم هذا الاخضرار حتى شابه السواد.

(٦٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما – أيها الثقلان – تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

(٦٦) ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾

في الجنتين عينان جاريتان فوّارتان تتدفقان بالماء العذب لا تَجِفَّان.

(٦٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما – أيها الثقلان – تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٦٨ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾

في الجنتين صنوف الفواكه مع النخل الباسق بطلعه النضيد والرمان اللذيذ.

٦٩ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٧٠ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾

في هذه الجنات نساء حسان الأخلاق جميلات الوجوه طيبات فاضلات.

٧١ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٧٢ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾

نساء جميلات واسعات العيون مصونات في خيام الجنة، لا ينظرن لغير أزواجهن.

٧٣ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٧٤ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾

لم يطأ هؤلاء النساء الجميلات إنس قبل أزواجهن ولا جان، بل هن أبكار.

٧٥ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٧٦ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾

أصحاب الجنة متكئون على وسائد ذوات أغطية خضر، وفرش وثيرة لينة جميلة.

٧٧ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

فبأي نعم ربكما -أيها الثقلان- تكذبان؟ ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد.

٧٨ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾

تكاثرت نعم الله، وكثر فضل الله، وعم خيره، ذو العظمة الباهرة والقوة الظاهرة والمجد العظيم والجلال الدائم والإكرام لأوليائه.

مكية

ترتيبها ٥٦

سورة الواقعة

آياتها ٩٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

إذا حانت الساعة وقامت القيامة، وهي أكبر واقعة تقع في الكون.

٢ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾

ليس لوقوع القيامة أحد يكذب بها إذا وقعت، فإنها تغشى الأبصار وتضطرب لها النفوس .

٣ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾

والقيامة تخفض أعداء الله في الجحيم، وترفع أولياءه في النعيم.

(٤) ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴾

إذا اضطربت الأرض اضطرابًا قويًا، واهتزت بمن عليها، وتحركت تحركًا شديدًا.

(٥) ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴾

وفتتت الجبال تفتيتًا ونسفت واندكت.

(٦) ﴿ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾

فأصبحت غبارًا دقيقًا متطايرًا في السماء تحمله الريح في كل جهة.

(٧) ﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴾

وأصبحتم - أيها الناس - يوم القيامة ثلاثة أنواع.

(٨) ﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾

فأصحاب اليمين أهل الرتبة الرفيعة، ما أرفع منـزلتهم وأعظم قدرهم؛ لحسن ما عملوه في الدنيا.

(٩) ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾

وأصحاب الشمال أهل الرتبة السافلة، ما أقبح حالهم وأخسر صفقتهم؛ لسوء عملهم.

(١٠) ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾

والسابقون إلى الصالحات في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات العلا في الجنة؛ ثوابًا على أعمالهم.

(١١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾

أولئك المقربون عند الله؛ تكريمًا لهم.

(١٢) ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

مأواهم جنات النعيم في ثواب عظيم بجوار رحمن رحيم.

(١٣) ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

يدخل الجنة طائفة كبيرة من الأمم السابقة ومن صدر أمة محمد ﷺ من هؤلاء المقربين السابقين.

(١٤) ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾

ويدخلها قليل من آخر هذه الأمة. من المقربين السابقين.

(١٥) ﴿ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴾

جلوسهم في الجنة على أسرة منسوجة بالذهب لينة مرتفعة جميلة.

(١٦) ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾

يتكئ أهل الجنة على هذه السرر يقابل بعضهم بعضًا بوجهه؛ للأنس والحديث وزيادة النعيم.

(١٧) ﴿ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴾

يطوف على أهل الجنة في الجنة غلمان يخدمونهم، باقون أبدًا، يدوم شبابهم لا يهرمون ولا يموتون.

(١٨) ﴿ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴾

يطوف هؤلاء الغلمان على الأبرار في الجنة بأقداح وأباريق وكأس من عين الخمر الجارية في الجنة.

(١٩) ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾

وهذه الخمر لا تصيب شاربها في الجنة بصداع وألم في رأسه، ولا تذهب عقل شاربها كخمر الدنيا.

٢٠ ﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾

ويطوف الغلمان على أصحاب الجنة بما يشتهون ويختارون من أنواع الفواكه اللذيذة.

٢١ ﴿ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾

وبلحم طير مشوي لذيذ مما تشتهيه نفوس أهل الجنة.

٢٢ ﴿ وَحُورٌ عِينٞ ﴾

ولأصحاب الجنة نساء جميلات واسعات العيون، شباب في بهاء، وحور في حسن.

٢٣ ﴿ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾

كأن نساء الجنة في الصفاء والحسن لؤلؤ مصون محفوظ عن الأيدي والعيون.

٢٤ ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

أعد الله هذا النعيم لأهل الجنة ثوابًا على ما عملوه في الدنيا من عمل صالح وبر وإحسان.

٢٥ ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴾

لا يسمع أهل الجنة في الجنة باطلاً من القول ولا ما يلحقهم إثم بسماعه.

٢٦ ﴿ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾

لكنهم يسمعون قولاً جميلاً يبشرهم بسلامتهم من كل مخوّف وأمنهم من كل آفة وخطر، فالملائكة تسلم عليهم ويسلم بعضهم على بعض.

٢٧ ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾

وأصحاب اليمين ما أرفع منـزلتهم وما أعلى مقامهم وما أحسن ثوابهم عند ربهم.

٢٨ ﴿ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴾

معهم في الجنة سدر لا شوك فيه، لين الأغصان داني الأفنان.

٢٩ ﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾

ولهم موز قد صف بعضه فوق بعض، فهو منظوم كالعقد في الحسن والبهاء.

٣٠ ﴿ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴾

ولهم ظل دائم لا يتغير ولا يزول ممتد يسيرون فيه تكريمًا لهم.

٣١ ﴿ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴾

وماء زلال عذب مستمر متدفق لا ينقطع .

٣٢ ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴾

وفواكه متنوعة بأصناف شتى في كل وقت وآن، حاصلة لهم بيسر وهناء.

٣٣ ﴿ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾

لا مقطوعة عن أهل الجنة في زمان عن زمان، ولا يمنعهم منها مانع، بل هي عندهم متى ما اشتهوها.

٣٤ ﴿ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴾

وفي الجنة فرش عالية على السرر وثيرة وفيرة.

٣٥ ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾

إن الله أنشأ النساء في الجنة للأبرار نشأة جديدة غير التي كانت في الحياة الدنيا، فالحياة هنا كاملة دائمة لا موت فيها.

٣٦ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾

فجعل الله نساء الجنة أبكارًا جميعهن، صغارًا وكبارًا.

٣٧ ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾

متحببات إلى الأزواج متساويات في الأعمار.

٣٨ ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾

جعل الله النساء الأبكار المتحببات زوجات لأصحاب اليمين.

٣٩ ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

وهم جماعة كثيرة من السابقين في الأمم المتقدمة وصدر الإسلام.

٤٠ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾

وجماعة كثيرة ممن جاء بعدهم داخلون في أصحاب اليمين.

٤١ ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾

وأصحاب الشمال ما أسوأ مصيرهم وأقبح عقابهم على أفعالهم.

٤٢ ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾

في ريح شديدة الحرارة تلفح وجوههم بحرها، وماء حار يغلي يشوي أجسادهم.

٤٣ ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾

وظل من دخان شديد السواد، كريه الرائحة، حار موجع.

٤٤ ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾

لا بارد على الأجسام، ولا كريم في المنظر، قد مزق الجلود بحره، وآلم العيون بقبحه.

٤٥ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾

إن هؤلاء الفجار كانوا في الدنيا متنعمين بما نهى الله عنه من الحرام والآثام، معرضين عن الإسلام.

٤٦ ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

وكانوا مصرين على الكفر والذنوب، لا يتوبون إلى علام الغيوب.

٤٧ ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

وكانوا يقولون - تكذيبًا بيوم القيامة -: كيف نبعث بعد الموت إذا صرنا عظامًا نخرة وتحولت أجسامنا إلى تراب؟ هذا بعيد ولن يقع.

٤٨ ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

أنُبعثُ بعد الموت نحن وآباؤنا الذين تقدمونا إلى الموت وأصبحوا ترابًا في القبور؟!!!

٤٩ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴾

قل - أيها النبي -: إن الأولين من الناس والآخرين منهم من آدم إلى قيام الساعة.

٥٠ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

سوف يجمعهم الله الذي خلقهم في يوم محدد مسمًّى، علم الله متى هو لا يتقدم ولا يتأخر.

٥١ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴾

ثم إنكم - أيها الضالون عن الصراط المستقيم، المكذبون لرسول الله الكريم ﷺ ولكتابه العظيم.

٥٢ ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾

لآكلون في النار من شجر الزقوم كريه الريح مر المذاق قبيح المنظر.

٥٣ ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾

وسوف تملؤون بطونكم من شجر الزقوم؛ كرهًا لا شهوة منكم له ولا حبًا فيه.

٥٤ ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾

وسوف تشربون على الزقوم ماءً حارًا بلغ النهاية في الحرارة والغليان لا يروي من الظمأ .

٥٥ ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾

وسوف تكثرون من شراب الحميم كشرب الإبل العطاش التي لا تروى أبدًا لمرض ألم بها .

٥٦ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾

هذا العقاب والنكال هو ما هيأه الله زادًا لأعدائه في النار؛ جزاءً على قبيح أعمالهم.

٥٧ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾

الله خلقكم - أيها العباد من العدم - فلماذا لا تصدقون بالبعث بعد الموت؛ الذي هو أسهل من النشأة الأولى؟

٥٨ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾

أخبروني عن المني الذي تضعونه في أرحام نسائكم.

٥٩ ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾

هل أنتم الذين تخلقون هذا المني وتصورونه وتنفخون فيه الروح أم الله - تعالى - وحده الذي يفعل ذلك.

٦٠ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

الله قضى عليكم الموت وقدره بينكم، وليس بعاجز - سبحانه - أن يبدل خلقكم إلى خلق آخر في أيِّ صورة شاء سبحانه.

٦١ ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

وقادر - سبحانه - على تغيير خلقكم يوم القيامة وإنشائكم فيما لا تعلمونه من الصور والصفات والأحوال.

٦٢ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾

ولقد علمتم أن الله هو الذي خلقكم أول مرة فلماذا لا تستدلون بهذا على قدرته على إحيائكم مرة ثانية، هو البعث بعد الموت.

٦٣ ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾

أفرأيتم - أيها الناس - بذر الحب الذي تضعونه في الأرض اليابسة وهو حب يابس.؟

٦٤ ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾

هل أنتم الذين تنبتونه وتخرجونه زرعًا، بل الله وحده الذي يخرجه بقدرته زرعًا .

٦٥ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾

لو أراد الله لصيّر الزرع هشيمًا محطمًا لا نفع فيه ولا فائدة، فأصبحتم تعجبون مما حل بهذا الزرع.

٦٦ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾

وتقولون: إننا خسرناه وذهب منا، وهذا عذاب حل بنا .

٦٧ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

بل الله حرمنا الرزق بإهلاك هذا الزرع.

٦٨ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾

أفرأيتم الماء العذب الزلال الذي تشربونه ليذهب ظمؤكم .

٦٩ ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾

هل أنتم - أيها الناس - أنزلتم الماء من الغمام إلى العيون والآبار والأنهار أم الله الواحد القهار أنزله بحكمة واقتدار؟ بل الله عز وجل؛ رحمة بالعباد.

٧٠ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

لو أراد الله لصير هذا الماء العذب مالحًا لا يستساغ ولا يُطاق شرابه، لا نفع فيه لإنسان ولا حيوان ولا نبات، فلماذا لا تشكرون الله - أيها الناس - على أن جعل الماء عذبًا زلالًا؟!

٧١ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾

أفرأيتم النار التي توقدونها لدفئكم، ولإنضاج طعامكم.

٧٢ ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾

هل أنتم خلقتم الشجر الذي توقد منه النار أم الله الذي خلقه؟ بل الله جل في علاه.

٧٣ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

الله الذي جعل هذه النار تذكرة بنار جهنم ومنفعة للمسافرين والجائعين، فهلا شكرتم الله على هذه النعم.

٧٤ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

فنزه ربك عن صفات النقص، وأثبتْ له صفات الكمال التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، فالله عظيم في ذاته وأسمائه وصفاته، له الملك والجبروت.

٧٥ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾

يقسم - سبحانه - بمساقط النجوم ومهاويها إذا سقطت أو غربت، وفيها دلالة على عظيم القدرة وبديع الخلق.

٧٦ ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

وإن في قسم الله بمواقع النجوم قسم عظيم القدر كبير المنزلة.

٧٧ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾

إن هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ عالي المنزلة كثير النفع جليل القدر مبارك.

٧٨ ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾

في كتاب مستور عن العيون، مصون عن الظنون، محفوظ في اللوح محترم مكنون.

٧٩ ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾

لا يمس القرآن الذي في اللوح المحفوظ إلا ملائكة كرام مطهرون من الآفات والخطايا، منزهون عن الآثام.

٨٠ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

والقرآن وحي من الله خالق الكون وما فيه، نزله على رسوله ﷺ.

٨١ ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾

أفبهذا القرآن الكريم أنتم - أيها الكفار - مكذبون وهو حق من الله تعالى؟

٨٢ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾

وتجعلون شكركم على النِّعَم أنكم تكفرون وتصرفون الشكر لغير مهديها وتكذبون بها؟

٨٣ ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾

فهل قَدِرْتم إذا بلغت روح الواحد منكم حلقومه من حنجرته عند سكرات الموت أن تردوها في جسمه؟

٨٤ ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾

وأنتم شهود تنظرون إلى المحتضر عند الموت ولا تدفعون عنه المنية.

٨٥ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾

والله أقرب إليه بملائكته وعلمه واطلاعه ممن عنده من البشر، ولكن لا تشاهدون الملائكة.

٨٦ ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾

وهل تَقْدرون إن كنتم غير محاسبين على أعمالكم ولا مجزيين بأفعالكم.

٨٧ ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

رُدُّوا الروح في الجسم إن كنتم صادقين على إعادتها؟ ولن تستطيعوا.

٨٨ ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

فأما إن كان المحتضر من السابقين في الخيرات أهل المراتب العالية في الولاية والتقوى.

٨٩ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾

فللعبد الصالح من المقربين السابقين عند موته رحمة واسعة وفرح وبشرى وسكينة وطمأنينة، وله سكنى جنات النعيم خالدًا فيها أبدًا.

٩٠ ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين وهو دون السابقين لكنهم من المفلحين.

٩١ ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾

فيقال له عند السكرات: سلام لك من الآفات، وأمن لك من الأخطار لحسن عملك.

٩٢ ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحساب الضالين عن الصواب الكافرين بالكتاب.

٩٣ ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾

فله ضيافة في جهنم، حيث يُسقى من شراب حار مغلي، بلغ الغاية في الحرارة.

٩٤ ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾

والله يصليه نار جهنم ويحرقه بها ويذوق عذابها.

٩٥ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾

إن هذا الذي ذكره - سبحانه - في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ لهو حق اليقين الذي لا شك فيه ولا ريب.

٩٦ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾

فنزه الله عما لا يليق به، وعما وصفه به أعداؤه، وعما يقول الظالمون والجاحدون، فإنه العظيم في ذاته وأسمائه وصفاته.

مدنية

ترتيبها ٥٧

سورة الحديد

آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾
نزّه الله ومجّده وقدّسَه عما لا يليق به كلُّ ما في السموات والأرض من خلقه على اختلاف أنواعهم وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه وشرعه.

(٢) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
لله وحده ملك السموات والأرض وما فيهما، فله التدبير والتصريف، يحيي من العدم، ويعيد الخلق بعد الموت، ويميت الأحياء، وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، ما أراد كان وما لم يرده لم يكن، ولا يكون إلا ما أراد.

(٣) ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا تغيب عن علمه غائبة وسع علمه كل شيء؛ فعلم السر وأخفى وما ظهر وخفي.

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
الله وحده الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في مدة ستة أيام، ثم علا وارتفع على عرشه فوق سمواته استواء يليق بجلاله، يعلم ما يدخل في الأرض من حيوان ونبت وماء وكنز وغير ذلك، وما يخرج منها من نبات وزرع وثمر ونحوها، وما ينزل من السماء من ماء وغيره، وما يصعد في السماء من ملائكة وأقوال وأعمال، والله - عز وجل - مع خلقه بعلمه أينما كانوا، وهو بصير بأقوال الخلق وأعمالهم وأحوالهم، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة، وسوف يحاسب الجميع على ما عملوا.

(٥) ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾
لله وحده ملك السموات والأرض خلقًا وتدبيرًا، وإليه مصير الخلائق يوم القيامة؛ ليحاسبهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(٦) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾
يدخل الله في ساعات الليل ما نقص من ساعات النهار، ويدخل في النهار ما نقص من ساعات الليل، فيزيد في هذا ما نقص من هذا، وهو - تعالى - يعلم بما تخفيه صدور العباد من الأسرار والنيات.

(٧) ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾
آمنوا - أيها الناس - بالله، واتبعوا رسوله ﷺ، وتصدقوا مما رزقكم الله وجعلكم مستخلفين فيه، فإن المتفضل والمنعم حقيقة هو الله وحده، فالذين آمنوا منكم - أيها العباد - وصدقوا في إيمانهم وتصدقوا من أموالهم فلهم الجزاء الموفور من الأجر العظيم والنعيم المقيم.

(٨) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

ومـا عُـذْركم إن لم تؤمنوا بالله فتوحدوه، وإن لم تؤمنوا بالرسول فتتبعوه، والرسول يدعوكم إلى الإيمان بالله وبالرسول، والله قد أخذ عليكم الميثاق السابق بذلك إن كنتم صادقين في إيمانكم بربكم؟!

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

الله الذي ينزل على عبده ورسوله محمد ﷺ آيات مفصلات تبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام؛ ليخرجكم بها من ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وإن الله بإخراجكم من الظلمات إلى النور رؤوف يريد بكم الخير واليسر، رحيم يتغمدكم برحمته، فيقبل التائب ويمهل العاصي.

(١٠) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

وما عذركم في الإنفاق في سبيل ربكم، وهو الذي أنعم عليكم بما أعطاكم، وله ميراث السموات والأرض يرث كل ما فيها ولا يستطيع أحد أن يبقى وارثًا لما عنده، بل سوف يتركه ويرحل عنه، لا يستوي في الثواب والجزاء منكم من تصدق قبل فتح مكة وقاتل الكفار، أولئك أرفع رتبة عند الله وأعلى منزلة من الذين تصدقوا في سبيل الله من بعد فتح مكة وقاتلوا الكفار، وكلتا الطائفتين وَعَد الله الجنة، والله عالم بما تعملونه من أعمال، لا تغيب عنه غائبة، وسوف يثيب المحسن ويعاقب المسيء.

(١١) ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

من الذي يتصدق لوجه الله وفي سبيله مخلصًا في إنفاقه، لا يُتْبِع ما أنفق منًّا ولا أذى، فالله يضاعف له المثوبة ويعظم له الأجر، ويجعل الجنة مأواه.

(١٢) ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

يوم القيامة تشاهد أهل الإيمان من الرجال والنساء يسعى نورهم أمامهم وعن أيمانهم على الصراط على حسب أعمالهم، ويقال لهم: بشراكم هذا اليوم دخول جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها الأنهار، باقون فيها أبدًا؛ ذلك الجزاء هو الظفر الأعظم والفوز الأكبر.

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾

في يوم القيامة يقول المنافقون والمنافقات للمؤمنين وهم على الصراط: أمهلونا حتى نستضيء بنوركم، فترد عليهم الملائكة: عودوا وراءكم فابحثوا عن النور، توبيخًا لهم واستهزاءً بهم، ففرّق بين المؤمنين والمنافقين بسور كالحائط العظيم، له باب باطنه من جهة أهل الإيمان رحمة، وظاهره من جهة أهل النفاق عذاب.

(١٤) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

ينادي المنافقون المؤمنين قائلين: أما كنا معكم في الدنيا نؤدي العبادة من صلاة وصيام وحج ونحوها مثلما تؤدونها؟ قال المؤمنون لهم: بلى كنتم تؤدونها معنا في ظاهر الأمر ولكنكم أبطنتم الكفر والنفاق، فأهلكتم أنفسكم، وتربصتم بالرسول ﷺ الموت والمحن، وبالمؤمنين المصائب، وشككتم في القيامة والحساب، وخدعتكم أمانيكم الباطلة وأهواؤكم المضلة، وما زلتم في الغواية حتى فاجأكم الموت، وخدعكم عن عبادة الله عدو الله إبليس.

(١٥) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

فاليوم لا يقبل الله من المنافقين عوضًا يفتدون به من عذاب الله، ولا يقبل الله من الكفار شيئًا، ومرجع المنافقين والكفار إلى نار جهنم، هي أولى بهم من كل محل سواها، وبئس المرجع والمآب، فهي دار الهوان والنكال والعقاب.

١٦ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾

أما حان الزمان لأهل الإيمان أن تلين قلوبهم لذكر الرحمن، وتخشع عند سماع القرآن، ولا يشابهوا في قسوة قلوبهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين لما طال عليهم الزمان بدلوا وغيروا وانحرفوا عن دين الله فقست قلوبهم، وأكثرهم خارج عن طاعة الله، متجاوز حدوده. وفي الآية دعوة لخشية الله والخشوع عند سماع كتابه والرقة عند ذكره - سبحانه -، والتنفير من مشابهة أهل الكتاب في القسوة والغفلة والعصيان.

١٧ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

تيقنوا - أيها العباد - أن الله يحيي الأرض الميتة بالغيث فتخضرُّ بإذن الله، فالله قادر على بعث الناس بعد موتهم وجمعهم ليوم الحساب، وهو قادر على أن يلين القلوب القاسية، قد بيّن الله براهين القدرة بضرب الأمثال للناس كي يتدبروا أو يعقلوا عن الله ما أنزله على رسوله ﷺ.

١٨ ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾

إن المتصدقين مما آتاهم الله والمتصدقات، وأنفقوا في سبيل الله من طيبات ما عندهم من رزق؛ طلبًا للأجر من الله، بلا منّ ولا أذى، يُضاعف الله لهم ثواب الأعمال، ويزيدهم التفضل عليهم بدخول جنات النعيم بجوار رب كريم.

١٩ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

والمؤمنون بالله والمصدقون لرسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك هم الصديقون أهل درجة الإحسان والشهداء في سبيل الله، وكذلك الشهداء على عباده بإبلاغهم العلم النافع، لهم الأجر الجزيل والثواب العظيم عند الله، مع النور التام يوم الحساب، والذين كفروا بالله وكذبوا ببراهينه وأدلته المنزلة على رسله أولئك خالدون في النار في الذل والصغار وسخط الجبار، فلا أجور ولا نور ولا أمن ولا سرور.

٢٠ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾

تيقنوا - أيها الناس - أنما هذه الحياة الدنيا لعب تشغل الأبدان، ولهو تذهل القلوب، وزينة تخدع العيون، وتفاخر بين الناس يتطاول بعضهم على بعض بها مدحًا وفخرًا، وتكاثرٌ بأعداد الأولاد وحساب الأموال، وصفتها صفة المطر الذي يعجب الزراع نباته الأخضر، ثم يذبل ويذوي ويجف، فتراه بعد الخضرة والنضرة مصفرًا، ثم يصبح فتاتًا يابسًا متحطمًا، فهذا مَثَلُ الدنيا تخدع ببريقها وزينتها واجتماع شمل أهلها وكثرة أموالها ورغد عيشها، ثم يقع الفراق والرحيل وانقلاب الحال وتغير الزمان، وفي يوم القيامة عذاب شديد للكفار؛ زيادة على ذهاب دنياهم، ومغفرة من الله لذنوب أوليائه ورضوان منه لأهل طاعته، وما هذه الحياة الدنيا لمن آثرها وعمل لها ونسي العمل للآخرة إلا متاع الغرور، وهو تمتع المخدوع بها المغتر بزخرفها.

٢١ ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

سابقوا - أيها الناس - بالعمل الصالح والاجتهاد في الخير والتشمير في الطاعة وطلب أسباب المغفرة من التوبة وهجر الذنوب؛ ليجعل الله مصيركم جنة عرضها كعرض السماء والأرض، هيأها الله لمن آمن به واتبع رسوله وعمل بطاعته واجتنب معاصيه، ذلك الفضل من الله يمنحه من أراد من العباد بتوفيقه للسداد والرشاد، فالجنة لا تُدخل إلا برحمة أرحم الراحمين لا بمجرد عمل العاملين، والله ذو الفضل الواسع العظيم على عباده الصالحين، حيث خلقهم ورزقهم ووفقهم ثم أثابهم.

٢٢ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

ما أصابكم - أيها العباد - من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم من المرض والفقر والسقم وتلف الأموال وسائر النكبات إلا وقد كتبها الله قبل أن تقع، إن كتابته وتقديره سهل على الله؛ لأنه لا يعجزه شيء.

٢٣ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

كتب الله المقادير حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا؛ لأن من آمن بالقدر سلم الأمر لله ورضي بحكمه، وكيلا تفرحوا بما تفضل الله عليكم فرح كبر وبطر وأشر، والله لا يحب كل معجب بنفسه متكبر على غيره، يختال بقلبه ويفخر بلسانه، بل يحب الله المتواضع المخبت المتذلل له سبحانه.

٢٤ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

وهؤلاء أهل الخيلاء والفخر الذين يبخلون بما آتاهم الله ولا يصرفونه في حقوقه الواجبة والمستحبة، ويدعون غيرهم إلى البخل ويزينون الإمساك والشح للناس، ومن يعرض عن عبادة الله ويهجر طاعته فالله غني عنه ولن يضر إلا نفسه؛ فالله غني عن العباد لا تنفعه طاعة الطائع ولا تضره معصية العاصي، وهو - سبحانه - الحميد الذي له كل صفات الحمد والمدح، وله كل فعل جميل يحمد عليه، فهو غني عمن تولى، يحمد ويشكر من أطاعه وشكره.

٢٥ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

ولقد أرسل الله رسله بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، وأنزل معهم الكتاب بالعقائد والأحكام والأخلاق والآداب، وأنزل الميزان ليحكم الناس به ويعدلوا في أخذ الحقوق وإعطائها، وأنزل الله الحديد فيه قوة وبأس شديد في الحروب وفوائد كثيرة في الصناعة والزراعة، وليعلم الله من الذي ينصر دينه وينصر رسله بالغيب، وذلك بحمل السلاح في سبيل الله لحماية دينه والدفاع عن عباده، إن الله قوي لا يحارب ولا يغالب، عزيز يقهر من عاداه ويعز من والاه.

٢٦ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

ولقد أرسل الله نوحًا وإبراهيم برسالة التوحيد إلى أقوامهما، وجعل الله في ذرية نوح وإبراهيم النبوة وعلم الكتب المنزلة، فمن ذريتهما من اهتدى إلى الحق وأطاع الله، وكثير من ذريتهما متجاوزون لحدود الله خارجون عن طاعته.

٢٧ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

ثم أتبع الله بعد نوح وإبراهيم برسله الكرام، وأنزل معهم الأدلة والبراهين الواضحة، وأتبع بعيسى بن مريم وأنزل عليه الإنجيل، وجعل الله في قلوب النصارى أتباع عيسى لِينًا وشفقة، فغلوا في دينهم وابتدعوا رهبانية ما كتبها الله عليهم، بل فعلوها بلا دليل شرعي وقصدوا بها الناس ولم يخلصوا لله ولم يؤدوها على وجهها ولا قاموا بها حق القيام لكنهم غيروا المشروع بالبدعة، فآتى الله المؤمنين منهم ثوابهم على حسب أعمالهم، وأكثرهم تجاوزوا الحد وخرجوا عن طاعة الله، وكذبوا رسوله محمدًا ﷺ، وهذه ثمرة البدعة المرة، وعاقبة من ترك الشريعة.

٢٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يا أيها المؤمنون: راقبوا الله واخشوه بعمل طاعته واجتناب معصيته، يكتب لكم ضعفين من رحمته، وهذا يشمل من آمن بعيسى من أتباعه وآمن بمحمد ﷺ فله أجران عند الله، ويجعل الله للمؤمنين نورًا يهتدون به فيبصرون الحق، ويغفر لهم ذنوبهم، والله غفور لمن أساء من العباد، رحيم بمن تاب إليه وعاد.

٢٩ ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

تفضل الله عليكم بهذا الأجر المضاعف والثواب العظيم؛ ليعلم أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ أنهم لا يستطيعون أن ينالوا شيئًا من فضل الله ورحمته لأنفسهم، ولا يعطونه غيرهم، وأن الفضل كله بيد الله وتحت تصرفه، يعطي من أراد من العباد، ويمنع من أراد منهم، والله - عز وجل - ذو الفضل الواسع، والنعم الكثيرة على عباده.

مدنية

سورة المجادلة

ترتيبها ٥٨

آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

قد سمع الله قول (خولة بنت ثعلبة) التي تراجعك في شأن زوجها (أوس بن الصامت) لما ظاهر منها بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمي، في حرمة النكاح، وهي تسأل ربها أن يفرِّج كربها، والله يسمع تحاوركما - أيها النبي - وهو السميع البصير سمع تحاورهما من فوق سبع سموات ورآهما.

(٢) ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

الذين يظاهرون من المسلمين من نسائهم فيقول الرجل لزوجته: «أنت عليّ كظهر أمي» في الحرمة، والصحيح أنهنَّ لسن أمهاتهم، وإنما هن زوجاتهم، وأما الأمهات فهن اللواتي ولدنهم، فالمظاهرون يقولون كذبًا عظيمًا، وبهتانًا شنيعًا، والله يعفو عمن زل، ثم يعود ويغفر لمن ارتكب محرمًا ثم تاب، فهو واسع المغفرة سبحانه.

(٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

والذين يحرمون زوجاتهم بالمظاهرة، ثم يعودون عن قولهم وينوون جماع نسائهم، فعلى المُظاهر كفارة وهي: أن يعتق رقبةً مؤمنة عبدًا أو أمة قبل الجماع، وهذا الحكم من الله الحكيم الخبير لمن ظاهر من زوجته، وهذا مما يعظكم الله به ويرشدكم إليه، وهذه الكفارة لمن صدر عنه الظهار، والله لا يخفى عليه شيء، ولا تغيب عنه غائبة، وسيجزي كلاً بما فعل.

(٤) ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فإذا لم يجد ثمن رقبة يعتقها فعليه صيام شهرين متتالين قبل أن يجامع زوجته، فإذا عجز عن الصيام بعذر شرعي أطعم ستين مسكينًا ما يشبعهم، وهذه الأحكام المبينة لأجل أن تؤمنوا بالله بعمل ما أمر واجتناب ما نهى، وتؤمنوا برسوله ﷺ بالمتابعة له، وهذه حدود حدها الله لا يجوز تجاوزها، فمن تعداها باء بإثم عظيم، ولمن جحد بها عذاب أليم مقيم في الجحيم.

(٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

إن المحاربين لله وزسوله ﷺ، والمخالفين لشرع الله، والصادين عن منهج الله، خُذلوا وأُهينوا كما أُهين مَنْ قبلهم ممن حارب الله ورسوله، وقد أنزل الله آيات محكمات وحججًا واضحات، ودلالات بيِّنات فيها صلاح العباد والبلاد، ولمن جحد بها وردها عذاب مذل يُهان به في نار جهنم.

(٦) ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

واذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين ليوم الفصل، فيطلعهم على كل ما عملوه من خير وشر، حفظه الله مكتوبًا في صحائف الأعمال، ونسوا ما عملوا لما رأوا من أهوال عظام، والله مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، علم السرائر، وأحاط بما في الضمائر.

(٧) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

ألم تعلم أن الله يعلم كل شيء في السموات والأرض، لا يتناجى ثلاثة من الناس بسر إلا علمه، فكان رابعهم، لا يخفى عليه مما قالوا شيء، ولا خمسة إلا هو سادسهم بعلمه، لا تغيب عنه غائبة مما أسروا وأعلنوا، ولا أقل من هذا العدد ولا أكثر منه إلا وهو معهم بعلمه مع أنه مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه - جل في علاه -، ويوم القيامة يخبر الله الجميع بما عملوا من خير وشر، وهو مطلع على كل شيء، عليم بكل سر.

(٨) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ألم تر - أيها النبي - إلى اليهود الذين نهاهم الله عن الكلام سرًا بما يثير الشك عن المسلمين، ويورث الريبة منهم، ثم يرجعون إلى ما نهاهم الله عنه، ويتكلمون سرًا بالسوء، متجاوزين الحد في الظلم والاعتداء، وإذا أتاك اليهود - أيها النبي - حيَّوك بتحية أخرى غير ما سنه الله لك من تحية، وهو قولهم: «السَّام عليك» أي: الموت عليك، ثم يقولون: لماذا لا يعاقبنا الله بهذا الكلام إنْ كان محمد رسولاً من عند الله؟ فأخبر الله أنه أجَّلَ عذابهم لنار جهنم شديدة الحر، فهي بئس الدار، وأقبح بها من قرار للكفار.

(٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

أيها المؤمنون: إذا تكلمتم سرًا فإياكم وما حرم الله من القول، سواء بما هو فاحش في نفسه، أو ما فيه ظلم للناس، أو مخالفة للرسول ﷺ، وتكلموا بما فيه صلاح وخير ونفع، والبر: ما فيه طاعة، والتقوى: ترك المعصية، وخافوا الله باتباع رسوله ﷺ وفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالله وحده - سبحانه - مرجعكم تعودون إليه؛ ليجازيكم على أعمالكم.

(١٠) ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

إن التكلم سرًا بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان ومعصية للرحمن؛ لِيُدْخِلَ الحزن على أهل الإيمان، ولن يؤذي المؤمنين ذلك إلا بإرادة الله وحده، وعليه دون سواه، فليعتمد من آمن به، وعليه فليفوض أمره كل مسلم، وكفى به وكيلا.

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

أيها المؤمنون: إذا أُمرتم بالتوسعة لبعضكم في المجالس فليوسع المسلم لأخيه في المجلس، يوسع الله عليكم في الرزق والثواب، وإذا طُلب منكم القيام من المجلس لسبب من الأسباب فقوموا، فالله يرفع محل المؤمنين منكم على حسب إيمانهم، ويرفع أهل العلم درجات كثيرة في الفضل والثواب لفضل العلم، وجاء ذلك العلم بعد آداب المجلس؛ لأن أهل العلم أفقه من غيرهم في الآداب والأخلاق، والله عليم بكل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه أمر، وسوف يحاسب كلاً بما عمل .

(١٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون بالله ورسوله: إذا أردتم الحديث مع رسول الله سرًا فتصدقوا قبل ذلك بصدقة، فهو خير لكم بزيادة الحسنات، وأطهر لكم بتكفير السيئات، فإذا لم تستطيعوا التصدق فلا إثم عليكم، فقد تجاوز الله عنكم؛ لأنه واسع المغفرة، كثير الرحمة، فمن غفرانه لا يثرِّب، ومن رحمته لا يعاقب.

١٣ ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

أخفتُم من الفقر إذا تصدقتم قبل مناجاة الرسول ﷺ، فإذا لم تتصدقوا - وقد سامحكم الله في ذلك - فداوموا على الصلاة المفروضة، وأدوا الزكاة المكتوبة، واجتهدوا في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والله مطلع على كل أعمالكم، وسوف يحاسبكم عليها فراقبوه.

١٤ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ألا تتعجب من المنافقين حينما اتخذوا اليهود أولياء من دون الله ورسوله؟! والمنافقون ليسوا من المسلمين ولا من اليهود، ويقسمون إنهم منكم، وهم كاذبون ويعلمون أنهم يكذبون فيما يقولون وعليه يقسمون.

١٥ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

هيأ الله لهؤلاء المنافقين عذابًا مؤلمًا وموجعًا في نار جهنم؛ لأن عملهم قبيح وفعلهم شنيع، فهم في الدرك الأسفل من النار .

١٦ ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

جعل المنافقون أيمانهم وقاية لهم من القتل بحلفهم أنهم مؤمنون في الظاهر، ولكنهم كفار في أنفسهم وقد صدوا غيرهم عن الإسلام، فلهم عذابُ الخزي في نار جهنم؛ فهم خابوا وخسروا في الدنيا والآخرة.

١٧ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

لن يُدَافع عن المنافقين يوم القيامة مال ولا ولد، ولن يمنعهم من العذاب ذلك، وهم خالدون في النار في سوء القرار، ملازمون للنكال والمهانة والصغار.

١٨ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

يوم القيامة يحيي الله المنافقين من القبور، فيقسمون لله أنهم مؤمنون مثلما أقسموا لكم في الدنيا، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم، ولكنهم واهمون في ذلك، مفترون على الله، كذبوا في الأيمان عند الرحمن.

١٩ ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

استولى عليهم الشيطان حتى تركوا طاعة الرحمن، وأعرضوا عن الإيمان والقرآن، فهم أتباع إبليس، ومن تبعه خسر وخاب، وباء باللعنة والعذاب، والمقت والعقاب.

٢٠ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾

إن الذين يعصون الله ورسوله ويحاربون دينه هم مع أهل الذل والصغار، ومع الأشقياء والأشرار في هذه الدار، ويوم القيامة في النار.

٢١ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

كتب الله وقدّر وقضى أن النصر له ولرسله؛ لأنه قوي لا يعجزه شيء، فلا يحارب ولا يغالب، عزيز قهر ما سواه وأذل من حاربه.

٢٢ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

لا تجد قومًا يؤمنون بالله ويعبدونه حق عبادته، ويؤمنون بلقاء الله يوم القيامة يخلصون محبتهم، ويمنحون مودتهم لمن حارب الله وحارب رسوله، ولو كان هؤلاء المحاربون آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم؛ لأن صلة الدين أعظم من صلة القربى، والولاء لله ولرسوله وليس للنسب، وهؤلاء الذين يوالون في الله ويعادون فيه كتب الله في قلوبهم الإيمان وجعله مكينًا راسخًا في نفوسهم، وَقوَّاهم بنصرهم، وحماهم برعايتهم، وخصّهم بولايته، ويدخلهم جنات النعيم في أحسن دار وأجمل قرار في جنة كثيرة الأنهار، مصطفة الأشجار، طيبة الثمار، خالدين فيها، وأحل عليهم الرضوان، فلا يسخط عليهم الرحمن طيلة الأزمان، ورضوا عن ربهم؛ لحسن الثواب، وكريم المآب، في أجزل عطاء، وأجل نعماء، هؤلاء الفائزون هم عباد الله المخلصون، وحزبه الفائزون، وهم الذين أدركوا أعظم الظفر في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

مدنية

ترتيبها ٥٩

سورة الحشر

آياتها ٢٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

قدَّس اللهَ بأوصاف الكمال، ومجَّدهُ بكل المحامد، ونزَّههُ عما لا يليق به، كلُّ ما في السموات والأرض من سائر المخلوقات، وهو العزيز في ملكه وحكمه الذي لا يغالب، يقهر غيره ولا يساميه أحدٌ، وهو حكيم في صنعه وتصويره وملكه وتدبيره، حكيم في شرعه يضع كل شيء مواضعه بإتقان وإحسان.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾

وهو - سبحانه - وحده الذي أخرج الكافرين المكذبين برسوله ﷺ من يهود بني النضير، وكانوا حول المدينة من جزيرة العرب إلى الشام، ما كان يظن المسلمون أنهم سوف يخرجون بهذا الخزي والهزيمة والذل والهوان؛ لقوة بأسهم، وشدة منعتهم، وظنوا أن الحصون سوف تحجبهم من بأس الله على يد جند الله، فسلَّط الله عليهم أولياءه من حيث لم يخطر لهم على بال، ولا يدور في خيال، وألقى في قلوبهم الجبن والخور، وبدؤوا عند خروجهم يهدمون منازلهم ويهدمها معهم المؤمنون، فاستفيدوا من هذه العظة والحادثة يا أصحاب الفطر السوية، والبصائر الحية، والعقول الراجحة، فمصائب قومٍ عند قوم فوائد، والأخبار للأبرار اعتبار؛ لأنها إنذار وإعذار.

(٣) ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾

ولولا أن الله قدّر عليهم الخروج من ديارهم حول المدينة إلى الشام لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي بأيدي المؤمنين، ولهم في الآخرة عذاب النار وغضب الجبار؛ لأنهم لما حاربوا الله سلبهم الأمان، وأخرجهم من الأوطان مع غضب الرحمن.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

ذلك الذل والخزي الذي أصاب اليهود في الدنيا وما أعدَّ الله لهم في الآخرة بسبب أنهم عصوا الله، وخالفوا أمره وأمر رسوله ﷺ، ومن يخالف الله ويعصِ أمره ويحاربه فإن الله أعدَّ له أشد العقاب، وأبلغ العذاب.

(٥) ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

ما قطعتم - أيها المسلمون - من نخلة أو تركتموها قائمة على ساقها، فالله أذن لكم بذلك وأمركم به، وأنتم طائعون لله غير مسرفين في القطع، وليذل بهذا اليهود؛ لأنه سلطكم على قطع نخيلهم وتحريقها ولم يستطيعوا الدفاع عنها.

(٦) ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ما وهب الله وأعطى رسوله من أموال بني النضير، فما أسرعتم إليه وأنتم على خيل ولا إبل، ولكن الله يسلّط رسله على من يشاء من أعدائه فينهزمون ويسلمون ما بأيديهم بلا قتال، والله على كل شيء قدير، ومن ذلك خذلان الكفار في محاربتهم لأولياء الرحمن.

(٧) ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

ما وهب الله رسوله من أموال أهل القرى من غير قتال على خيل وجمال، فهو لله ولرسوله، ينفق في وجوه الخير العامة التي تنفع المسلمين، ولقرابة الرسول ﷺ ولأطفال المسلمين الذين فقدوا آباءهم، ولأهل الحاجة والبؤس، وللغريب المنقطع بلا نفقة، حتى لا يكون المال حكرًا يدور بين الأغنياء، ويُحرم منه الفقراء، وما أعطاكم الرسول من مال أو شَرَعَ لكم من حكم فاقبلوه واعملوا به، وما نهاكم عن أخذه أو العمل به فلا تأخذوه ولا تقربوه، واحذروا عذاب الله بطاعته وترك معصيته، إن الله شديدٌ عقابه لمن عصاه، قويٌّ بطشه لمن خالف شرعه، والآية أصل عظيم في وجوب اتباع السنة قولاً وعملاً وتقريرًا.

(٨) ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

ويُعطى من هذا المال فقراء المهاجرين الذين طُردوا من مكة، وحُرموا من الأوطان والأموال، وخرجوا في سبيل الله ابتغاء رضوانه نصرةً له ولرسوله ﷺ، وهم الذين صدقوا قولهم بفعلهم، وأتبعوا القول العمل فصار شاهدًا لصحة إيمانهم.

(٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

والذين استوطنوا المدينة من الأنصار قبل مجيء المهاجرين يفرحون بمن جاء من المهاجرين، ولا يحسدون المهاجرين على ما أعطاهم الله من الفيء وغيره، ويقدمون المهاجرين في العطاء والطعام ونحوه على أنفسهم، ولو كانوا محتاجين إليه أشد الحاجة، والذي يسلّمه الله من البخل ومنع الفضل، ويجعله سخيًا جوادًا فهؤلاء هم الفائزون برضوانه، الحائزون كل ظفر، الناجون من سقر.

(١٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

والذين جاؤوا بعد المهاجرين والأنصار من المؤمنين يدعون ربهم بالغفران لهم ولمن سبقهم في الإيمان، وألا يجعل الله في قلوبهم حسدًا أو حقدًا على المؤمنين؛ لأن الله متلطف بعباده بإيصال المحاب لهم، وصرف المكاره عنهم، رحيم يغفر الخطأ، ويجبر الكسر، ويعفو عن الزلة، وفي الآية وجوب حبِّ الصحابة، والكف عما شجر بينهم، وعدم حمل الضغينة عليهم.

(١١) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

ألا تتعجب من المنافقين، يقولون لإخوانهم في الكفر من بني النضير لئن أخرجكم الرسول ﷺ من المدينة لنخرجن معكم تضامنًا ومواساة، ولا نخذلكم من أجل أحد من الناس كائنًا من كان، ولئن قاتلكم المسلمون لنقاتلنهم معكم، والله شاهد على كذب المنافقين في وعدهم لبني النضير، فهو ادعاء وافتراء.

١٢ ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

والله لئن أُخْرِجَ الرسول ﷺ اليهود من المدينة لا يخرج معهم المنافقون، ووالله لئن قاتل المسلمون اليهود لا يقاتل معهم المنافقون ولا يدفعون عنهم، ولو فُرِضَ أن قاتلوا معهم ليَهربُنَّ وليَفِرُنَّ أذلاء مهزومين مخذولين.

١٣ ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

لخوف المنافقين منكم - أيها المؤمنون - أشدُّ من خوفهم من رب العالمين؛ لأنهم أناسٌ لا يفهمون ما لله من عظمةٍ وكبرياء، فلا يعرفون حقه وماله من هيبةٍ وتعظيم.

١٤ ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

لا يقاتلكم اليهود - أيها المسلمون - في ساح القتال وجهًا لوجه، ولكنهم يتحصَّنون في البيوت، أو وراء الحيطان، وهم مختلفون فيما بينهم، متخاصمون أشدَّ الخصام، تظنهم طائفة واحدة، وهم شيع وأحزاب؛ لأنهم لا يعقلون أمر الله، فيجتمعون على دينه ويطيعونه.

١٥ ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

مثل اليهود كمثل كفار قريش ويهود بني قينقاع؛ حيث وجدوا عاقبة عصيانهم من النكال والهزيمة في الدنيا، ولهم في الآخرة أشد العذاب، وأفظع العقاب.

١٦ ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

مثل هؤلاء المنافقين في خديعتهم لليهود على محاربة المسلمين ووعدهم بالنصر كذبًا وزورًا مثل الشيطان حين زين للإنسان معصية الرحمن، ثم خذله أشد الخذلان، وتركه وقت الامتحان، وقال له: أبرأ منك وأتخلى عنك؛ لأني خائف من رب الخليقة جل في علاه.

١٧ ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

فكانت نهاية الشيطان والإنسان في معصية الرحمن أنه أدخلهما دار الخزي والهوان، خالِدَين فيها مدى الأزمان، وهذا جزاء كل معتدٍ آثم، فجور ظالم.

١٨ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يا أيها المؤمنون: خافوا الله وراقبوه وافعلوا ما أمر، واجتنبوا ما نهى عنه، ولتتفكر كل نفسٍ فيما قدمت أمامها من أعمال ليوم القيامة، واحذروا غضب الله بطاعته، فإنه -سبحانه- خبير بكل ما تعملون، لا تخفى عليه خافية، وسوف يجازيكم على أعمالكم من خير وشر.

١٩ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

ولا تشابهوا الذين تركوا طاعة الله، وأهملوا عبادته فأنساهم ما فيه صلاحهم من عمل الطاعات، واجتناب المحرمات حتى وقعوا في المهلكات، أولئك هم الخارجون عن طاعة الله، المطرودون من رحمته المستحقون لعذابه.

(٢٠) ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

لا يستوي أهل النار في الأنكال والأغلال وسوء الحال، ولا أهل الجنة أهل النعيم المقيم والأجر العظيم، والمقام الكريم، أهل الجنة ظفروا بأجَلِّ مطلوب، وحازوا كل مرغوب، ونجوا من كل مكروه.

(٢١) ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

لو خاطبنا بهذا القرآن جبلاً من الجبال ففهم معناه، وفقه فحواه لأصبح ذليلاً مخبتًا مشفقًا خوفًا من الله على صلابته وشدته، فكيف لا يخشع الإنسان عند تلاوة هذا الكتاب؟! وكيف لا يتدبر معانيه وينقاد لأحكامه؟!! وهو من لحم ودم وليس من صخر كالجبل، وهذه أمثال نسوقها للبشر لعلهم يفكرون في عظمته، ويتدبرون آياته، ويتأملون معجزاته.

(٢٢) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وهو الله - جل في علاه - المستحق للعبودية المستأهل للألوهية وحده لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، عالم السرِّ والجهر، والحاضر والغائب والظاهر والخافي، وهو الرحمن بكل أحد، الرحيم لأهل طاعته، عمّت رحمته حتى العصاة، وخصّ بمزيدها من اتبع رضاه.

(٢٣) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

هو الله - سبحانه - المعبود بحق لا إله إلا هو، ولا يجوز أن يُعبد غيره ولا يؤلّه سواه، ملك كل موجود، المدبر للكون، المتصرف في الخليقة، المبرأ من كل عيب، المنزّه عن كل نقص، السالم من كل شين، الجامع لصفات الكمال والمدح والحمد، المصدق أنبياءه بما أرسلهم بالمعجزات والآيات البينات، الذي قهر سواه، وقصم من عاداه، الرقيب على ما أظهره العبد وأخفاه، العزيز الذي لا يُغالب ولا يعجزه أحد، الجبار الذي سخّر من أراد لما أراد، وعمّ سلطانه على خلقه بتمام قهره وعلو قدره، المتكبر فله صفات الكبرياء والعظمة في المحامد والأسماء، تقدّس عن كل عيب، وتنزّه عن كل شريك، وجلّ عن كل نقص.

(٢٤) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وهو - سبحانه - الإله الحق وحده، أوجد من العدم، وأنشأ الخليقة على مقتضى حكمته، صوّر خلقه على ماشاء، له كل اسم حسن، جمع الكمال والجلال والجمال، يقدّسه وينزِّهه ويمجده كل مخلوق في السماء والأرض، وهو العزيز في تفرّده بالملك عن الأنام، شديد الانتقام، قاهر فيما قدر من الأحكام، وهو الحكيم فيما قضى وقدَّر، وخلق وصوَّر، وقدَّم، وأخَّر.

مدنية

ترتيبها ٦٠

سورة الممتحنة

آياتها ١٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

يا أيها المؤمنون: لا تجعلوا عدوي وعدوكم من الكفار والمنافقين أحبابًا لكم تخلصون لهم المودة، فتطلعوهم على أسرار المسلمين، وقد كفروا بالرسالة وهم طردوا الرسول ﷺ وطردوكم من مكة بسبب إيمانكم بالله، فإن كنتم - أيها

المؤمنون - هاجرتم لوجه الله وطلب مرضاته فلا توالوا أعداء الله، ولا تُحبُّوا من حارب الله وتخلصوا لهم الود، والله مطلع على نياتكم وما ظهر من أعمالكم، فاحذروه، ومن يتولهم من دون المؤمنين فقد ضلَّ طريق الهدى، ووقع في الردى.

٢ ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾

إن يجدكم هؤلاء الأعداء يكونوا لكم محاربين، ويمدّوا إليكم أيديهم بالقتل، وألسنتهم بالشتم، ويتمنوا لو ترتدون عن الإسلام فتصبحوا مثلهم في الضلالة والكفر بالرسالة.

٣ ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

لن تنفعكم الأحساب والأنساب يوم الحساب إذا واليتم الكفار من أجل الأقارب والأولاد، ويوم القيامة يفرق الله بين أهل الإيمان وعبدة الأوثان، فأولئك في الجنان، وهؤلاء في النيران، والله مطلع على كل خافية من أعمالكم وأقوالكم، خبير بأحوالكم.

٤ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

قد كانت لكم قدوةٌ حسنةٌ في إبراهيم ﷺ وأتباعه لما تبرؤوا من قومهم الكفار، ومن عبادتهم من دون الواحد القهار، وأنكروا عليهم غاية الإنكار، وأظهروا لهم العداوة بالأقوال والأفعال والبغضاء بالقلوب ما داموا على الكفر، حتى يوحدوا الله بالعبادة، لكن لا تقتدوا بإبراهيم في استغفاره لأبيه، فإن ذلك قبل أن تظهر لإبراهيم عداوة أبيه لربِّه - تعالى -، فلما ظهرت له تلك العداوة تبرأ منه، وعليكم بدعاء الله والتوكل عليه، وصدق التوبة له والإنابة إليه، فإن المرجع والمنتهى إليه يوم القيامة.

٥ ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يا ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا بارتدادنا عن الإسلام، فلا يثقون بالدين، أو لا تسلطهم علينا وتنصرهم، فيقولوا: لو كانوا على حقٍ ما غلبناهم، واستر خطايانا وامحُ زلاتنا فإنك عزيز لا يُغلب جندك، ولا يُهزم حزبك، حكيم فيما قدَّرته وقضيته، أحسنت كل شيء خلقته، وأتقنت كل شيء صوَّرته.

٦ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في إبراهيم ومن معه قدوة صالحة تفعلون فعلهم في البراءة من أهل الضلالة، يفعل هذا من أراد الخير من الله في دنياه وآخرته، ومن صدّ عن الطريق المستقيم فالله غني عنه، وليس بحاجةٍ لأحد من عباده، محمود في ذاته وصفاته، يحمد من أقبل عليه فيثيبه، ويحمد في الضراء والسراء معًا.

٧ ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

عسى الله أن يجعل بينكم - أيها المؤمنون - وبين الكفار حبًا بعد بغض، وصلحًا بعد حرب؛ بأن يسلموا، والله قادر على شرح صدورهم للإسلام، غفور لما سلف منهم من آثام، رحيم لمن تاب إلى الله ودخل في دينه بعد عبادة الأصنام.

٨ ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

لا ينهاكم الله عن إكرام من لم يقاتلوكم على الإسلام، ولم يخرجوكم من الأوطان، بل تعاملوا معهم بالعدل والإحسان؛ لأن الله يحب العادل في معاملته وأحكامه، وفيه التفريق في المعاملة مع الكفار بين المحارب والمسالم.

٩ ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

لكن ينهاكم – سبحانه – عن إكرام من قاتلكم على الإيمان، وأخرجكم من الأوطان، وعاون عليكم عبدة الأوثان، فلا تصالحوهم ولا تَلِينوا لهم، ومن أحبهم وتولاهم فهو ظالم؛ لأنه جعل الأمر في غير موضعه، وتعدّى الحدود في المواثيق والعهود.

١٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يا أيها المؤمنون: إذا أتى إليكم النساء المؤمنات مهاجرات من ديار الكفر إلى ديار الإسلام فاختبروا إيمانهن؛ لتعلموا صدقهن، الله أعلم بالنيات وحقيقة الأمر، فإذا تأكدتم من إيمانهن بما ظهر منهن فلا تعيدوهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأنهن محرّمات عليهم لاختلاف الدين، وسلموا لأزواجهن مثلما دفعوا من المهور على نسائهم، ولا حرج عليكم أن تتزوجوهن إذا دفعتم لهن المهر، ولا تتمسكوا بنكاح زوجاتكم الكافرات، وخذوا من الكفار المهور التي سلمتموها زوجاتكم اللاتي ذهبن لديار الكفر، وللكفار أن يطلبوا مهور نسائهم اللاتي أسلمن، وهذا حكم الله وشرعه، فاتبعوه واعملوا به، والله عليم بالخوافي مطلع على كل صغيرة وكبيرة، حكيمٌ فيما يقول ويفعل ويحكم. وفي الآية غاية العدل والإنصاف حتى مع العدو الكافر.

١١ ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

وإذا ذهبت زوجاتكم إلى بلاد الكفر ولم يسلم لكم الكفار مهورهن، فانتصرتم على الكفار فخذوا من الغنائم بقدر ذاك المهر، وراقبوا الله واخشوه، فلا تأخذوا ما ليس لكم ولا تَدَّعوا باطلاً؛ لأنكم آمنتم بالله وصدقتم كتابه ورسوله ﷺ.

١٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يا أيها النبي: إذا وفد إليك النساء ليبايعنك على الإسلام، ويعاهدنك على ترك الشرك، واجتناب السرقة، والزنا، وقتل الأبناء، ولا يلحقن الأزواج أولادًا من الزنا، ولا يخالفنك في خير دعوت إليه، فعاهدهن واطلب إلى الله أن يغفر لهن ما سلف، فإن الله غفّار الذنوب، ستّار العيوب، رحيم بمن يتوب، ودود بمن يؤوب.

١٣ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾

يا أيها المؤمنون: لا تتخذوا من غَضِبَ الله عليهم أحبابًا وأنصارًا وأخلاء، قد يئسوا من رحمة الله يوم القيامة كما يئس الكفار المقبورون من رحمة الله في الآخرة، أو كما يئس الكفار من بعث أهل المقابر.

* * *

مدنية

ترتيبها ٦١

سورة الصف

آياتها ١٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

قَدّسَ الله عن المعائب، ونزَّهَهُ عن النقائص، ومجَّدَهُ بأنواع المحامد، كلٌّ من في السموات والأرض من مخلوق، وهو عزيز يقهر غيره، لا يغالبه أحد، حكيمٌ في خلقه وأمره وأحكامه وشرعه.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾

أيها المؤمنون: لم تقولون أقوالاً لا تصدقها الأفعال؛ كوعد بلا وفاء، أو قول بلا صدق، أو تحمل بلا أداء.

(٣) ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾

عَظُمَ سخطًا وكَبُرَ غضبًا إذا قلتم بألسنتكم ما لم تفعلوه، فلم تتبعوا القول العمل.

(٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾

إن الله يحب المؤمنين الذين يقاتلون لإعلاء كلمته صفًا متراصًا متلاصقًا محكمًا يدل على القوة والتعاون، لا ينفذ منه عدو، فهم شجعان منظمون، لا جبناء متفرقون. وفي الآية إثبات محبة الله، وفضل الجهاد في سبيل الله.

(٥) ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

واذكر يوم قال موسى ﷺ لقومه لماذا تؤذونني بالشتم ومخالفة أمري وعصيان ربي، وأنتم عالمون أن الله أرسلني؟ فلما تركوا الهدى بعدما علموه، واستمروا على الغواية صرف الله قلوبهم عن الهداية وخذلهم عن الرشد، ولم يوفقهم للصواب، والله لا يسدد من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، وترك منهج الحق، وأبى الهدى.

(٦) ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

واذكر حينما قال عيسى ابن مريم - عليه السلام - لقومه: إن الله أرسلني إليكم أصدق ما نزل في التوراة على موسى قبلي، وأشهد بصدق رسول يأتي بعدي اسمه (أحمد)، وهو الرسول محمد ﷺ، وأدعو إلى الإيمان به، فلما جاء محمد ﷺ المشركين بالآيات البينات والمعجزات الواضحات قال المشركون: هذا الذي جئت به سحرٌ ظاهر، كذبًا منهم وزورًا.

(٧) ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

لا أحد أظلم من الذي يختلق الكذب، وهو الذي يدعي لله شركاء وصاحبة وولدًا، تعالى الله عن ذلك، ويُدْعَى هذا المفتري إلى اعتناق الإسلام فيأبى، والله لا يوفق للهدى من ظلم نفسه بالكفر، ولا يرشده إلى صواب؛ لأنه تعدى الحدّ في الكفر والصدّ.

(٨) ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

يريد هؤلاء الكفار أن يبطلوا هذا الهدى الذي بُعث به الرسول ﷺ بأقوالهم الآثمة، وأوصافهم الكاذبة، مثل: أنه سحر، وشعر، وكهانة، ولكن الله سوف ينصر دينه، ولو كره هذا الدين الجاحدون من أعدائه، فعلى رغم أنوفهم سوف يعلو.

(٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

الله وحده الذي أرسل محمدًا ﷺ بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو دين الإسلام؛ ليرفعه على كل دين، ولو كره هذه الرفعة المشركون، فأمر الله واقع لا محالة.

(١٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

أيها المؤمنون: هل أرشدكم إلى تجارة عظيمة، وربح بيِّن تنجون به من العذاب المؤلم الموجع، فكأنهم قالوا: نعم نريد ذلك.

(١١) ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

فكان الجواب: تثبتون على الإيمان بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته بأنواع الجهاد من بذل المال والنفس. وكل هذا أفضل لكم من تجارة الدنيا الزائلة إن كنتم تعلمون التمييز بين المنافع والمضار والمصالح والمفاسد.

(١٢) ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

فإذا قمتم بهذا غفر الله لكم السيئات، وحطَّ الخطيئات، وأدخلكم الجنات التي تجري فيها الأنهار تحت الأشجار، ومساكن من الدور والقصور، مريحةً آمنة طاهرةً زكيةً في إقامةٍ دائمة، ونعيم مستمر، ذلك هو الظفر لا ظفر بعده، وهو أعلى نجاح، وأكرم فلاح.

(١٣) ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وأمنية عظيمة أخرى تودّون حصولها وهي: نصر الله لكم على الكفار، وفتحٌ عاجل لكم، وبشِّر - أيها النبي - من آمن بك بكل خير في الدنيا والآخرة من الانتصار والرفعة والسؤدد، والحياة الطيبة والعاقبة الحميدة، ثم الجنة.

(١٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾

أيها المؤمنون: كونوا أنصارًا لدين الله كما كان أصفياء عيسى - عليه السلام - أنصارًا لدين الله حينما سألهم عيسى: من يكون منكم ناصرًا ومعينًا لي فيما يقربني من الله؟ فقالوا: نحن هؤلاء الأنصار، فاستقامت جماعة من بني إسرائيل على منهج الله، وانحرفت جماعة عنه، فنصر الله من استقام على أعدائهم من كل فرقة خالفتهم من النصارى، فصاروا عالين عليهم، منصورين بنصر الله.

* * *

مدنية

ترتيبها ٦٢

سورة الجمعة

آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

يُنـزِّه الله عن كل عيب، ويقدِّس الله عن كل نقص وعما لا يليق به كلُّ ما في السموات، وكلُّ ما في الأرض، وهو وحده مالك كل شيء، ومدبره والمتصرف فيه، لا ينازعه في سلطانه أحد، وهو المنـزّه عن كل نقصٍ، الذي عَزَّ فغلب، وعلا فقهر، وله الحكمة المطلقة في الصنع والتقدير، والحكم والتدبير.

(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

الله وحده الذي أرسل في العرب الذين لا يقرؤون، وليس عندهم كتب ولا رسالة سابقة، أرسل إليهم محمدًا ﷺ، وهو منهم نسبًا ودارًا، يقرأُ عليهم القرآن ويزكيهم بالحكمة والقرآن، ويطهرهم من كل دنس وعصيان، ويعلمهم الآيات البينات، والأحاديث المباركات، وقد كانوا قبل البعثة في انحراف عن الهدى، وانغماس في الردى.

(٣) ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وأرسل الله محمداً ﷺ إلى أناس آخرين لم يأتوا بعد سيولدون من العرب وغيرهم، وهو وحده العزيز في ملكه، فلا يُغالب، قوي في حكمه، قاهر لسواه، حكيم في قوله وفعله وشرعه وصنعه.

(٤) ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

هذه البعثة المحمدية الكريمة العظيمة منَّة من الله وفضل منه على الخليقة، يعطي الله هذا الفضل من الرسالة والهداية من أراد من عباده، وهو ذو الإحسان العظيم والخير العميم، فضله لا يرد، وجوده لا يُعد، وعطاؤه لا يُحد.

(٥) ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

شبَّه الله اليهود الذين تعلموا التوراة ثم لم يعملوا بها؛ كالحمار الذي يحمل على ظهره كتبًا لا يعلم منها شيئًا، ولا ينتفع بها، قُبِّحَ والله هذا التشبيه للذين كذّبوا بآيات الله وخالفوا رسوله، ولم ينتفعوا بالعلم النافع، والله لا يوفق كل ظالم لطريق الصواب، ولا يرشده إلى الهدى؛ لأنه آثر الغي، واختار الضلال.

(٦) ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

قل - أيها النبي - لليهود: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم أحباب الله، فتمنوا لقاء الله عن طريق الموت؛ لأن الحبيب يشتاق إلى لقاء حبيبه، والمحب لا يعذّب من أحبّ.

(٧) ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولكن هؤلاء اليهود لا يتمنون الموت أبدًا من شدة حبهم للحياة الدنيا، وشهواتها، وخوفًا من عقاب الله بسبب ما قدموا من سوء الفعال، وقبيح المعاصي، والله عليم بأحوال الظالمين المتعدين لحدوده، لا يخفى عليه من عملهم شيء، وسوف يحاسبهم.

٨ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

قل لليهود: إن الموت الذي تهربون منه واقعٌ بكم لا محالة إذا تم الأجل، فهل من الموت مفر؟ وبعد الموت تعودون إلى الله، عالمٌ بما خفي وما ظهر، وما أسرَّ وما أعلن، لا تغيب عنه غائبة، ولا يعزب عن علمه شيء، فيخبركم بما صنعتم، ويجازيكم بما فعلتم.

٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

يا أيها المؤمنون: إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة فتعالوا لسماع الخطبة، وحضور الصلاة، واتركوا البيع والشراء وكل ما يلهيكم، وهذا الذي أمركم الله به خير لكم لما فيه من الثواب العظيم، والمغفرة لذنوبكم، إن كنتم تعلمون ما ينفعكم، فتفعلون ما فيه صلاحكم من العمل، كما أن حضور الجمعة واجب عليكم.

١٠ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

فإذا استمعتم للخطبة وحضرتم الصلاة فاذهبوا في أنحاء الأرض لطلب المعاش، وأكثروا من ذكر الله في كل زمان ومكان، ففيه الفوز والفلاح والظفر والنجاح في الدنيا والآخرة.

١١ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

وإذا رأى بعض الناس تجارةً أو لهوًا تفرقوا وتركوك - أيها النبي - قائمًا تخطب، وآثروا الفاني على الباقي، فأخبرهم أن ما عند الله من الأجر العظيم والنعيم المقيم أفضل من كل ما يلهي من زينة الدنيا، وزخرفها وتجارتها، وهو - سبحانه - خير من وهب وأعطى، ومنح وأسدى.

مدنية

ترتيبها ٦٣

سورة المنافقون

آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

إذا حضر عندك - أيها النبي - المنافقون وقالوا لك بألسنتهم كذبًا: نشهد إنك لرسول من عند الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما أظهروه من الكلام وأخفوه من الكفر بك وبالإسلام، فهم أعلنوا التصديق وأسروا التكذيب.

٢ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

جعل المنافقون حلفهم سترةً ووقاية من العقاب والتعزير، وأعرضوا عن الحق ومنعوا غيرهم من الدخول في الإسلام، فَقَبُح فعلهم وساء تصرفهم، فألسنتهم كاذبة، وقلوبهم كافرة.

٣ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

وسبب ذلك أنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم، فحرمهم الفَهْمَ عنه وعن رسوله ﷺ، فأصبحوا لا يفقهون ما يُقال لهم.

٤ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

وإذا شاهدت هؤلاء المنافقين أعجبتك أشكالهم وهيئتهم؛ فعندهم فصاحة، لكن في قلوبهم فقر من الإيمان، وفي نفوسهم وحشة من الحق، مع سخف عقولهم، وانعدام فهمهم، فتراهم كالخشب المعتمدة على الجدران، يابسة لا حياة فيها ولا نماء، يظنون كل صوت من حادث أو نازلة واقعًا بهم لسوء ظنهم، ومعرفتهم بقبح عملهم، ولجبنهم وهلعهم، فهم أشد الأعداء، وألدُّ الخصوم، فخذ الحيطة من مكرهم، واحذر من خداعهم، أخزاهم الله، وأهلكهم وأذلَّهم كيف ينحرفون عن الهداية، وينصرفون عن الحق إلى الغواية والباطل.

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

وإذا قال المؤمنون للمنافقين: أَقْبِلوا إلى رسول الله ﷺ وتوبوا من أقوالكم المشينة وأفعالكم القبيحة ليطلب الرسول إلى ربه الغفران لكم، فإن المنافقين حينها يحركون رؤوسهم بالمنع استخفافًا واستهزاءً، وتراهم يعرضون عن الهدى، ويستكبرون عن الحق، فهم لا يتبعون رشدًا، ولا يقبلون نصحًا؛ لفساد القلوب وعمى البصائر.

(٦) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

سواء على هؤلاء المنافقين: أطلبت إلى ربك الغفران لهم أم لم تطلب - أيها النبي - فلن يسامحهم الله، ولن يعفو عنهم، ولن يتجاوز عن ذنوبهم؛ لأنهم مصرون على الكفر، معتقدون التكذيب، والله لا يوفق من كفر به وخرج عن طاعته، وحارب رسوله وشرعه.

(٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

هؤلاء المنافقون هم الذين يقولون لأهل المدينة من الأنصار لا تتصدقوا على المهاجرين حتى يمسهم الفقر ويتفرقوا عن الرسول ﷺ ويتركوه وحده، أفلا يعلم هؤلاء المنافقون أن عند الله وحده خزائن الأرزاق، وعليه رزق ما في السموات والأرض، فهو الرازق وحده، أجود من أعطى، وأكرم من سُئل؟ غير أن السبب في فعل هؤلاء المنافقين أنهم لا يفهمون ما لله من جلال، وما عنده من قدرة، وما لديه من أرزاق.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول هؤلاء المنافقون: إذا رجعنا من الغزو إلى المدينة فسوف يُخْرِج الأعز منا - يقصدون أنفسهم - الأذل - يقصدون المهاجرين -، فأخبرهم الله أن العزة المطلقة له ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من أتباع محمد، ولكن المنافقين لا يعلمون هذا؛ لما استحكم عليهم من الجهل، وسوء الفعل وسخف العقل.

(٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

أيها المؤمنون: لا تشغلكم الأموال والأولاد كما أشغلت المنافقين عن طاعة رب العالمين، ومن شغله ماله وولده عن عبادة ربه فهذا هو المغبون حظه من الله، المضيع نصيبه من الثواب، المفرط فيما ينفعه، خسرت صفقته، وخاب سعيه.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

وتصدقوا - أيها المؤمنون - مما وهبكم الله إياه من مال في سبيله -سبحانه- قبل أن يهجم عليكم الموت بغتة، حينها لا وقت للإنفاق، ولا زمن لعمل الصالحات، فإذا وقع الموت قال الإنسان متحسِّرًا متأسفًا: يا رب لماذا لم تمهلني قليلاً من الزمن؟ فأُنفق فيما يرضيك، وأسعى في مراضيك، وأجاهد فيك، وأكون مع الأبرار الأخيار.

(١١) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

والله لا يؤجل نفسًا حان موتها، وانقضى عمرها، فلا تتقدم ساعة عن الأجل ولا تتأخر ساعة، وهو وحده -سبحانه- الخبير بالأعمال والأحوال، المطلع على الخوافي، العالم بالنيات، وسوف يحاسبكم على ما فعلتم فأعِدّوا العدة.

مدنية

ترتيبها ٦٤

سورة التغابن

آياتها ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾

ينزه الله عما لا يليق به ويقدسه عن المعايب والنقائص، ويمجده بالمحامد ما في السموات والأرض، له الخلق والتدبير والتصرف والتقدير، وله الثناء الحسن الجميل المتضمن لأجَلِّ المدائح وأشرف المجد، وهو الذي لا يعجزه شيء أن يفعله، ولا يتعاظمه أمر، قدرته نافذة ومشيئته ماضية.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤْمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الله وحده الذي أوجدكم من العدم، ففريق منكم كفر بألوهيته، وفريق آمن به واتبع رسله، وهو مطلع على أعمالكم، عالم بأسراركم لا يخفى عليه منكم خافية، وسوف يحاسبكم بما فعلتم.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

أوجد السموات والأرض وسواهما بحكمة بالغة، وإتقان جميل، وخلقكم - أيها الناس - فحسَّن صوركم، وأبدع خلقكم، وإليه تعودون، فيجازي كل عامل بما عمل بالعدل.

(٤) ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، قد علم ما فيهما وما بينهما، فلا تغيب عنه غائبة، ويعلم ما تضمرونه - أيها الناس - وتخفونه، ويعلم ما تضمّه الصدور من نيات وما تخفيه النفوس.

(٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

ألم يأتكم أخبار الكفار على مر الأعصار أذاقهم الله عاقبة سوء أفعالهم ومغبة كفرهم بالرسل، هذا في الدنيا، ولهم عند الله في الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾

ذلك الذي عاقبهم الله به في الدنيا والآخرة لأجل أنهم كذبوا الرسل لما جاؤوهم بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، فأنكروها وردوها وقالوا: كيف ينصحنا أناس مثلنا؟ فكذبوا وكفروا بربهم وأعرضوا عن الهدى، ولم يقبلوا الحق، بل صدوا عنه، واستغنى الله عنهم، فليس بحاجة إليهم وإلى إسلامهم؛ لأنه الغني غنى مطلقًا عامًا شاملاً، فهو محمود في ذاته وصفاته وأفعاله وأقواله، وهو غني عمن تولى، يحمد عمل من أقبل، يعاقب الكافر، ويثيب الشاكر.

(٧) ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾

ادعى الكفار أنهم لن يعودوا بعد الموت أحياء، قل لهم - أيها الرسول -: بلى والله ليعيدنكم من خلقكم، وليبعثكم من أماتكم أحياء تحاسبون، يخبركم بما عملتم، ويجزيكم بما فعلتم؛ وهذا سهل هيِّنٌ عليه؛ لأنه قدير على كل شيء، فهو الذي بدأكم، وهو قادرٌ على إعادتكم أحياءً، والإعادة أهون من الابتداء، والكل عليه هيِّنٌ.

٨ ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

فصدقوا بما أنزل الله، وصدقوا رسول الله، واتبعوا هدي القرآن الذي نزل على رسوله ﷺ؛ لأن الله مطلع على أعمالكم لا يخفى عليه شيء من أحوالكم، وسيحاسبكم على أفعالكم.

٩ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

واذكروا يوم الفصل يوم يأت الله بالأولين والآخرين، وذلك اليوم يوم ندامة الإنسان، وأسف أهل الطغيان، وغبن من وقع في العصيان، ومن يؤمن بربه ويعمل بطاعة مولاه، فالجنة مصيره أنهارها من تحت أشجارها، ونورها ملءُ قصورها، وسرورها عمَّ دورها، فهم في النعيم خالدون، وهذا هو الفلاح الأبدي والفوز السرمدي.

١٠ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

والذين جحدوا بالآيات وكذبوا بالرسالات هم أهل النار، المستحقون لغضب الجبار ما دام الليل والنهار، وساءت والله دار القرار.

١١ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

ما أصاب البشر من ضرر بقضاء وقدر، ومن يصدق بقضاء ربه يُنَزِّل السكينة على قلبه، والله عليم بمن صدق واستسلم وأذعن لأمر ربه المحكم، وقضائه المبرم.

١٢ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

وأطيعوا الله – أيها العباد – بفعل ما أمر به من الرشاد، وترك ما نهى عنه من الإثم والفساد، وأطيعوا الرسول ﷺ باتباع سنته واقتفاء سيرته ونصر ملته، فإن أعرضتم عن الهداية، واخترتم الغواية، فليس على الرسول من كفركم ضرر، فقد أنذر وأعذر، وحذَّر وبشَّر، وإنما عليه البلاغ المبين وتوضيح السبيل للسالكين.

١٣ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

الله وحده المستحق للعبودية الذي لا تصح إلا له الألوهية، فعليه فليعتمد كل مؤمن، وبه يثق كل مسلم، وإليه يتجه كل موحد.

١٤ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أيها المؤمنون: إن بعض أزواجكم وبعض أولادكم أعداءً لكم يشغلونكم عن الطاعات، وقد يوقعونكم في المحرمات، ويثبطونكم عن الواجبات، فخذوا الحذر منهم وقدموا مراد الله على مرادهم، وإن تتجاوزوا عن سيئاتهم وتعرضوا عن مؤاخذتهم بها، وتستروهم ولا تفضحوهم فإن الله يجازيكم بالمثل؛ فيغفر ذنوبكم، ويستر عيوبكم، ويمحو خطاياكم، ويُسَدِّدُ خللكم.

١٥ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

ما أموالكم ولا أولادكم في الحقيقة إلا اختبار لكم في مسألة الشكر والكفر، والجزع والصبر، والطاعة والمعصية، وما عند الله أعظم وأكرم لمن آثر شكره وصبر لحكمه، وأطاع أمره، ولم يقدم على دين الله أحداً.

١٦ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

فاجتهدوا في الطاعة على قدر الاستطاعة، واسمعوا الوحي سماع تقبل واستجابة، وأطيعوا الله ورسوله بفعل المأمور وترك المحذور، وتصدقوا مما أعطاكم الله لوجه الله، فخيره عائد إليكم من الزيادة والطهارة والثواب، ومن سلم من البخل، وأعطى الفضل، استحق العطاء الجزل، فظفر بأجلِّ مطلوب، وحصل على كل مرغوب.

(١٧) ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾

إن أنفقتم الأموال لوجه ذي الجلال بإخلاصٍ من كَسْبٍ حلال، ضاعف الله لكم ثواب ما أنفقتم، وأجزل لكم أجر ما تصدقتم، وغفر بالصدقة ذنوبكم، وستر بالجود عيوبكم، والله شكور بحسن الثواب لمن أعطى، حليم على من أخطأ، لا يعجل العقوبة لمن عصى.

(١٨) ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

الله وحده عالم بما غاب وما حضر، وما خفي وما ظهر، عزيز لا يغالب، حكم فقهر، له الحكمة المطلقة في أقواله وأفعاله.

مدنية

ترتيبها
٦٥

سورة الطلاق

آياتها
١٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾

يا أيها النبي: إذا أردت أنت وأتباعك من المؤمنين أن تطلقوا نساءكم فليقع الطلاق في طهر لم يجامع فيه مستقبلات للعدة، واحفظوا العدة، لتعرفوا متى تكون المراجعة إذا أردتم إعادة النساء إليكم، وراقبوا الله في كل ما تأتون وتذرون، لا تخرجوا نساءكم إذا طلقتموهن من بيوت إقامتهن حتى تكتمل العدة، وهي ثلاث حِيَضٍ لغير الصغيرة والآيسة من الحيض والحامل، ولا يحل لهن الخروج من البيوت إلا إذا ارتكبن معصية كبيرة ظاهرة كالزنا، وتلك أحكام الله في الكتاب والسنة، ومن يتجاوزهن بمخالفة فقد أورد نفسه المهالك، وحمّلها ما لا تطيق، لا تعلم أيها المطلق لعل الله يقدِّر أمرًا لا تتوقعه بعد الطلاق فتراجعها.

(٢) ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾

فإذا أوشكت المطلقات على اكتمال العدة فراجعوهن مع جميل العشرة الزوجية والإنفاق بالحسنى، أو فارقوهن مع إعطائهن حقوقهن بلا نقص، وأشهدوا رجلين عدلين مسلمين على الطلاق والرجعة، واتقوا في الشهادة أن تكون خالصة لله لا لغرض آخر، هذه الأحكام ينصح بها من آمن بالله وصدق بلقائه، ومن يخش الله فيمتثل أمره ويجتنب نهيه يجعل له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا.

(٣) ﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾

ومن يتق ربه يسهِّل رزقه من حيث لا يدور بباله، ولا يخطر بخياله، ومن يعتمد على ربه في كل أمر كفاه ما أهمَّه، وكشف عنه ما أغمه، وأنجاه من كل ملمّة، إن أمر الله بالغ نافذ لا يفوته شيء ولا يعجزه مطلوب، قد جعل الله لكل أمر أجلاً، ولكل نازلة حدًا.

٤ ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾

والمطلقات اللواتي انقطع عنهن الحيض؛ لكبر السن، فإذا شككتم في عدتهن فاجعلوها ثلاثة أشهر، وكذلك الصغيرات اللاتي لم يحضن، وكل حامل عدتها أن تضع حملها، ومن يخش ربه بعمل ما شرع، وترك ما نهى عنه، يسهِّل أمره، ويشرح صدره.

٥ ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾

ذلك المذكور من أحكام العدة والطلاق حكم الله أنزله على رسوله لكم - أيها المسلمون - لتعملوا به، ومن يراقب ربه ويؤد ما أوجبه عليه ويجتنب ما حرّم يغفر ذنبه، ويستر عيبه، ويجزل ثوابه، ويدخله جنته.

٦ ﴿ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴾

أسكنوا زوجاتكم المطلقات المعتدات في بيوتكم على قدر طاقتكم وسعتكم من الغنى والفقر، ولا تؤذوهن بالمضايقة في البيوت ليخرجن منها، وإن كن حوامل فعليكم النفقة من أجل الحمل حتى يضعن حملهن، فإن أرضعن أبناءهن منكم فادفعوا إليهن أجرة الرضاعة، وليذكر بعضكم بعضًا بكل خير من سماحة وحلم وطيب نفس، وإن لم تعطوا الأم أجرها أو امتنعت من الرضاعة فغيرها من النساء سوف ترضع الطفل بأجرة.

٧ ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾

وعلى الزوج النفقة على امرأته وعلى ولده إذا كان ماله كثيرًا، والفقير بقدر ما لديه من رزق الله، ولا يكلف الفقير في الأجرة كأجرة الغني، فكلٌّ بقدر ما أعطاه الله، والله سوف يجعل بعد كل ضيق مخرجًا، وبعد كل هم فرجًا، فبعد الفقر غنى، وبعد البلاء عافية.

٨ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾

وكم من قرية خالف أهلها أمر الله وعصوا رسله فعاقبهم الله بذنوبهم في الدنيا بالمحن والابتلاءات العظيمة، والكوارث الشديدة، ثم عذبها الله في الآخرة عذابًا مؤلمًا موجعًا فظيعًا على سوء العمل وقبيح الفعل.

٩ ﴿ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴾

فتجرع أهلها عاقبة ما فعلوا وذاقوا جزاء ما صنعوا، فصار مصيرهم الهوان والخذلان وغضب الجبار في النار.

١٠ ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴾

هيأ الله لهؤلاء الفجار عذابًا أليمًا في النار؛ لأنهم كفروا به وكذبوا رسله، فاعتبروا يا أهل العقول الراجحة والفطر السليمة بما أصابهم، وخذوا حذركم بتقوى ريكم، فقد أنزل الله عليكم ما يذكركم بما ينفعكم وينبهكم على ما فيه هلاككم.

١١ ﴿ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴾

وهذا الذكر هو الرسول ﷺ الذي أتى بالآيات البينات والحكم البالغات، حتى يخرج المؤمنين أصحاب الطاعات من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن يؤمن بربه، ويطعْ أمره، ويجتنب نهيه يدخله جنات تجري أنهارها تحت أشجارها، مقيمين في نعيمها أبدًا بلا تحول ولا زوال، قد أحسن الله لهم ما أعطاهم من نعيم مقيم في مقعد كريم، ومقام عظيم.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾

الله وحده الذي خلق سبع سموات، وخلق سبعًا من الأرضين لم يشرك في خلقهن غيره، ولم يستعن بسواه، وأنزل الوحي على رسوله ﷺ وكل ما فيه تصريف خلقه، وتدبير شؤونهم، حتى تتيقنوا - أيها العباد - أنه - سبحانه - على كل شيء قدير، لا يعجز عن شيء ولا يتعاظمه أمر، قدرته نافذة، وحكمه غالب، وأن علمه -سبحانه- شمل كل شيء، فلا تغيب عن علمه غائبة، ولا يخفى عليه أمر؛ لأنه الخلاق العليم، فالخلق قدرة وإتقان، والعلم اطلاع وإحسان.

مدنية

سورة التحريم

ترتيبها ٦٦

آياتها ١٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

يا أيها النبي: لماذا تمنع نفسك من الحلال الذي أحله الله لك؟ وتقسم على تركه إرضاء لزوجاتك، والله يغفر ذنب من تاب، ويرحم من أناب إليه برحمته. وقد جعل لليمين كفارة.

(٢) ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

قد شرع الله لكم كفارة لليمين إذا أردتم عدم إمضائها، والله يتولى أموركم برحمته، فخفف عليكم بالكفارة، وهو عليم بما يصلحكم، حكيم في شرعه الذي أنزله عليكم، فاحتكموا إلى شرعه، وارضوا بحكمه.

(٣) ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾

وإذ أسرَّ النبي إلى زوجته (حفصة) بحديث مخصوص، فأخبرت (عائشة) فأخبر الله رسوله ﷺ بإفشاء (حفصة) سرَّه، فأخبر (حفصة) ببعض ما أخبرت به، وترك بعضًا تكرمًا، فقالت: من أخبرك بهذا وهو سرّ قال: أخبرني الله الذي لا تخفى عليه خافية، عليم بما خفي وظهر، حكيمٌ فيما شرع وقدّر.

(٤) ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾

إن تتوبا يا عائشة ويا حفصة إلى الله من الميل إلى ما كرهه الرسول ﷺ حيث حصل إفشاء سر الرسول ﷺ، وإن تتعاونا على الرسول ﷺ بما يكرهه فإن الله يتولاه وينصره وجبريل معه وكل صالح من المؤمنين في صفه، والملائكة أعوان له على من يؤذيه ويعاديه.

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾

عسى رب الرسول ﷺ أن يعوِّضه إذا طلقكن زوجات طائعات له، منقادات لأمره، عائدات إلى الله بالتوبة والإنابة، كثيرات التعبد لله، صائمات، منهن ثيبات ومنهن أبكار.

٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾

أيها المؤمنون: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، واحفظوا أهلكم كأنفسكم؛ بأمرهم بطاعة الله وترك معاصيه، واحذروا النار التي وقودها الكفار والأحجار، عليها ملائكة الملك الجبار، أقوياء في أنفسهم قساة في معاملاتهم، لا يخالفون أمر الله، ولا يرتكبون نهيه، يطيعون ولا يعصون.

٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

أيها الكفار: ذهب وقت الاعتذار، وقد سبق منكم الكفر في الدنيا، فلكم النار، جزاءً على فعلكم المشين من معصية الجبار، مع التكذيب والاستكبار.

٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

أيها المؤمنون: توبوا من كل ذنب توبة لا رجوع بعدها للمعاصي خالصة لوجه الله، عسى ربكم أن يغفر لكم السيئات، ويمحو الخطيئات، ويدخلكم الجنات التي أنهارها من تحت أشجارها، ونورها ملء قصورها في يوم القيامة الذي لا يخزي فيه الله نبيه ولا عباده الصالحين، ولا يفضحهم ولا يعذبهم، بل يسعدهم ويثيبهم ويعلي شأنهم، نورهم يسعى أمامهم، وفي أيمانهم يدعون ربهم بدوام هذا النور حتى يتم المرور على الصراط إلى دار الحبور، مع غفران الذنوب، وستر العيوب، ورضوان علام الغيوب؛ لأن الله على كل شيء قدير، غلب أمره على غيره، ونفذ حكمه بما أراد، لا يردّه راد.

٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

أيها النبي: جاهد من أظهر الكفر وأعلنه، ومن كتمه وأبطنه، وأظهر الإسلام بالألسنة، جاهدهم باليد واللسان، والسيف والسنان، والقلم والبيان، واستعمل - أيها النبي - الشدة مع هؤلاء ليعز أمر الإسلام، ويرهب جانبه، ومسكن هؤلاء الفجار النار وبئس دار القرار.

١٠ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾

شبَّه الله هؤلاء الكفار في مخالطتهم للأبرار مع عدم الانتفاع بذلك لكفرهم بالواحد القهار؛ مثل زوجة (نوح) وزوجة (لوط)، كانتا في عصمة عبدين صالحين ورسولين كريمين، فخانتاهما في الدين؛ حيث كانتا مكذبتين، فلم يدفع هذان الزوجان عن هاتين الزوجتين عذاب الله، وقيل: ادخلا النار مع من دخلها من الفجار. وفيه دليل على أن القرب من الصالحين بالأبدان لا ينفع إذا لم يكن هناك إيمان وطاعة لله وحده.

١١ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وشبَّه الله المؤمنين في مخالطتهم الكفار ومعاملتهم الفجار وأنها لا تضرهم؛ لأنهم آمنوا بربهم واتبعوا رسوله ﷺ مثل زوجة (فرعون) التي كانت في عصمة هذا الطاغية، لكنها لما آمنت بالله ما ضرَّها القرب من هذا الكافر، وقد دعت ربها بحسن جوار العزيز الغفار، مع الأبرار في تلك الدار، مع البعد عن عمل الأشرار ودار الفجار.

١٢ ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾

وشبَّه الله المؤمنين في صدقهم وعفافهم وصبرهم؛ بمريم البتول الطاهرة التي صانت عرضها، وحفظت فرجها، واتقت ربها، فعوضها الله؛ فنفخ جبريل في جيب قميصها، ووصلت النفخة إلى رحمها، فحملت بعيسى عبد الله ورسوله ﷺ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وصدَّقت مريم بكلمات ربها ورسالاته، وعملت بشرعه، واتبعت هداه، وكانت عابدة مطيعة منقطعة إلى ربها، ومن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه، فهي لما تركت الحرام رزقها الله بنبيٍّ إمام.

مكية

ترتيبها
٦٧

سورة الملك

آياتها
٣٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾
تعالى الله عن الأنداد، وتنزّه عن الأضداد، وتقدّس عما سواه في الذات والأسماء والصفات، وتكاثر خيره، وعمّ برّه على جميع خلقه، بيده ملك الدنيا والآخرة، وله السلطان المطلق، أمره نافذ، وقضاؤه ماضٍ، وحكمه فصل، لا يعجزه أمر ولا يتعاظمه شيء؛ لأنه قدير.

٢ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾
الذي خلق الموت والحياة، فأحيا من العدم، وأفنى الأمم، ليختبر الناس أيهم أخلص عملاً وأصوبه، فالإيمان امتحان الإنسان، فإما أن يطيع الرحمن، أو أن يتبع الشيطان، والله عزيز لا يعجزه شيء لا يغالب، عز فقهر، وحكم فقدر، وهو يغفر جميع الذنوب لمن تاب، ويتجاوز عن خطايا من أناب. وفيها ترغيب في الطاعة وزجر عن المعصية.

٣ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾
وهو الذي خلق سبع سماوات شداد بناها بقوة، وزينها للناظرين، ورفعها بلا عمد، وجعل بعضها فوق بعض، ومن رحمته سوّاها وأحسن مبناها وجمّلها وأعلاها، لا ترى فيها اختلافًا ولا تباينًا، فأعد البصر وتأكد بتكرير النظر هل ترى فيها من شقوق أو صدوع؟ بل بناء محكم، وصنع منظم.

٤ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾
ثم كرِّر النظر مرة بعد مرة، يرجع إليك البصر ذليلاً صاغرًا عن أن يرى نقصًا، عجز والله أن يبصر عيبًا، فصار مُتْعَبًا كليلاً، مُرْهَقًا ذليلاً.

٥ ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾
ولقد جملنا السماء الدنيا بنجوم باهية، وكواكب زاهية، وصيّرناها شهبًا محرقة لمسترقي السمع من الشياطين، وتحفظ السماء من المرَدَة؛ ليبقى الوحي محفوظًا من النقص والزيادة، وهيأنا للشياطين وأتباعهم نارًا موقدة، وجحيمًا مؤصدة، في عمد ممددة .

٦ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾
ولمن كفر بالله – وهو الذي خلقهم ورزقهم – عذاب دائم في جهنم، وساء معادهم وقبح مردهم، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها، ولا يزحزحون عنها.

٧ ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾
إذا طُرح الكفار في النار سمعوا لها شهيقًا وزفيرًا؛ لأنها تضطرم اضطراماً شديداً، أكل بعضها بعضًا، وغلت غليانًا شديدًا ذاب من حرّها الحجر فكيف بالبشر.

٨ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾
تكاد النار تتمزق من شدة غيظها على الكفار، فهي تتوقد وتحترق، كلما طرح في النار جماعة من الكفار سألتهم الملائكة الموكلون بالعذاب، موبخين لهم: أما جاءكم في الدنيا رسول ينذركم هذا العذاب، ويحذركم هذا العقاب؟!

٩ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾

قال الكفار لخزنة النار: بلى قد جاءنا رسول من الله فحذرنا وأنذرنا، وبيّن لنا الحق من الباطل، لكننا كذبناه وحاربناه، وقلنا: ما نزّل الله على بشر من شيء، وما أوحى الله إلى أحد وحيًا، ما أنتم - أيها الرسل - إلا بعيدون عن الصواب، ضالون عن الحق واهمون.

١٠ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

وقالوا - مقرين بضلالهم معترفين بجرمهم -: لو كنا نسمع سماع قبول واستجابة، ونفكر تفكير فقه وإصابة ما كنا في أهل النار مستوجبين لغضب الجبار، فلم نسمع القول، ولم نفكر في المعنى.

١١ ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

فأقروا بالكفر واعترفوا بالذنب الذي استحقوا به غضب الرب، فبعدًا وهلاكًا لهم وخزيًا وخسرانًا لمن هذا حاله، وإلى النار مآله.

١٢ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

إن الذين يخافون الله فيعبدونه ولا يعصونه، ويطيعونه وهم لا يرونه، ويخلصون له وهم غائبون عن عيون الناس، ويخشون عذاب النار قبل معاينتها بالأبصار، فلهم العفو من الله عن الذنوب، والستر على الخطايا، والثواب العظيم والأجر الكريم في جنات النعيم.

١٣ ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

وسواء أخفيتم الأقوال أم أعلنتموها فهي سواء عند الله، فإنه يعلم السر وأخفى، فالجهر والعلانية عنده سواء؛ لأنه يعلم مضمرات الصدور، فكيف يخفى عليه ما ظهر من الأمور؟

١٤ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾

ألا يعلم سبحانه الأقوال والأعمال خفيها وظاهرها، سرها وعلانيتها، وهو الذي لطف علمه حتى علم الدقيق، واطلع على الخفي، وأحاط بكل شيء علمًا حتى علم ظاهره وباطنه، ولم يفته من علمه شيء.

١٥ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

والله وحده الذي صيّر لكم الأرض فراشًا ومهادًا للاستقرار والعمار، وبسطها وسوّاها للحياة والمعاش، وجعلها ذلولاً، فسيروا في نواحيها، واطلبوا الرزق في أطرافها، وتناولوا ما أباحه الله لكم من خيراتها، وليست دار مقر، إنما دار عبور وممر؛ فسوف تموتون ثم إلى الله تبعثون، وعنده تحاسبون، فأعدوا العدة وأصلحوا الزاد.

١٦ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾

هل أمنتم - أيها الناس - الله - سبحانه - الذي هو في السماء مستوٍ على عرشه أن يغضب عليكم بمعاصيكم؛ فيخسف بكم الأرض ويزلزلها عليكم فيهلككم ويدمركم.

١٧ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾

هل أمنتم الله الذي في السماء عالٍ على خلقه مستوٍ على عرشه أن يرسل عليكم ريحًا شديدة ترميكم بالحجارة؛ فإذا رأيتم العذاب وعاينتم العقاب علمتم صحة تحذير الله لكم، وتيقنتم صدق تخويفه لعباده على ألسنة رسله.

١٨ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

ولقد كذب بالرسل أقوام من الأمم قبل كفار مكة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود وغيرهم، فانظر كيف كانت نهايتهم؟ وكيف أنكرتُ عملهم بتدميرهم وإنزال أقسى العقوبات بهم؟ فصاروا لمن بعدهم عبرةً، وفي الدهر مثلاً.

١٩ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾

لماذا لا يتفكر الناس في خلق الطير وهي فوق رؤوسهم في السماء؟ تبسط أجنحتها عند الطيران، وتقبضها عند الوقوف، سابحة في الهواء، من الذي أمسكها من الوقوع وحفظها من السقوط إلا الله الذي برحمته عَمَّ خلقه برعايته ومنها الطير، إنه بصير بالخليقة في الخلق والتقدير والإبداع والتصوير.

٢٠ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾

بل من هو الذي ينصركم في زعمكم إذا أراد الله بكم سوءًا؟ ومن هو حزبكم الذي يدافع عنكم، ويصرف عنكم الأذى غير الرحمن، لكن الكفار في زعمهم هذا في خديعة واغترار.

٢١ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾

من هو الرزاق لكم غير الله إذا أمسك الله رزقه عنكم؟ غير أن الكفار مستمرون في الطغيان، دائبون في معصية الرحمن، مستكبرون عن قبول الحق، نافرون من سماع الصدق، لا سماع استجابة، ولا عمل إصابة.

٢٢ ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

أفمن يسير منكوسًا على وجهه رأسه أسفل ورجلاه أعلى لا يبصر طريقًا ولا يهتدي لسبيل، انقلبت عليه الأمور، هل هذا أهدى وأبصر ممن يمشي على طبيعته منتصب القامة، عارفًا طريقه، سالكًا السبيل الواضح في رشد وسداد، وهذا مثل الكافر والمؤمن في الغواية والهداية.

٢٣ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

قل لهؤلاء الكفار: الله وحده الذي أنشأكم من العدم، وغذّاكم بالنعم، ومنحكم السمع لسماع الأصوات، والبصر لمشاهدة المرئيات، والقلوب لتدبر المعلومات، فما أقل شكركم على نعم ربكم، قابلتم الإحسان بالكفران، والامتنان بالنكران.

٢٤ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

والله وحده الذي خلقكم من العدم، وبثكم في الأرض، وإليه وحده تعودون؛ ليوفي كل عامل ما عمل، فمنه البدء وإليه النهاية، وأعاد وتكفل برزق العباد، وإليه المعاد.

٢٥ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ويقول الكفار: متى البعث والنشور؟ ومتى خروجنا من القبور؟ تكذيبًا واستبعادًا، أخبرونا بهذا الأجل إن كنتم صادقين فيما تدّعون، مصيبين فيما تزعمون.

٢٦ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

قل لهم – أيها النبي –: إن موعد قيام الساعة لا يعلمه إلا الله، قد اختص الله بعلمه لم يطلع عليه أحدًا من خلقه، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً، فليست مهمتي الإخبار بل الإنذار، فما جئتُ لأخبركم متى قيام الساعة، لكن أتيت أحذركم أهوالها.

٢٧ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾

فلما رأى الكفار عذاب الملك الجبار قد اقترب منهم وعاينوه، ودنا منهم وأبصروهم، شاهت وجوههم، وقبحت مناظرهم، وعلاهم الذل والصغار والكآبة والغبار، وقيل لهم – تقريعًا –: هذا ما كنتم تستعجلون من العذاب، وتستبعدونه من العقاب، نزل بكم يوم الحساب.

٢٨ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قل – أيها النبي – لهؤلاء الكفار: أخبروني إن توفاني ربي وتوفى من معي من المؤمنين، أو رحمنا فأخَّر موتنا إلى أجل معلوم، وصرف عنا عذابه وردَّ عنا عقابه، فمن يحميكم أنتم من أخذ الله، ومن يمنعكم من غضب الله إذا أرادكم بعذاب موجع وعقاب فظيع.

(٢٩) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

قل للكفار: ربي الله الذي عمت رحمته، وعظم حلمه، صدقنا قوله واتبعنا تنزيله، واعتمدنا عليه، وفوضنا أمرنا إليه، فستعلمون - أيها المكذبون - هل نحن أو أنتم في ضلال ظاهر، وغواية عظيمة، وانحراف عن الحق كبير؟

(٣٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: أخبروني لو اختفى ماؤكم في قعر الأرض، ورسب في باطنها ولم تقدروا على إخراجه، فمن غير الواحد الأحد يعوضكم بماء عذب زلال يجري على ظاهر الأرض تبصرونه بالعيون في الآبار والأنهار والعيون؟!

مكية

ترتيبها
٦٨

سورة القلم

آياتها
٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

(نون)، الله أعلم بمراده به، مع العلم أن له معاني جليلة ومقاصد نبيلة، وأقسم قسمًا بالقلم الذي يكتب به الملائكة والبشر، فإن القلم جليل القدر، عظيم النفع، شريف المحل، وأقسم بما يكتبون به من أخبار نافعة، وأحكام مفيدة، وعلوم مباركة، وآثار خالدة.

(٢) ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

ما أنت - يا محمد - بما أنعم الله عليك به من الرسالة بذاهب العقل، أو طائش الفكر، أو فاقد الرأي، بل أنت المعصوم الملهم، والمحفوظ المسدد، تام الإدراك، كامل الرشد على هداية ربانية وعناية إلهية .

(٣) ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾

وإن لك عند الله أجرًا عظيمًا، وثوابًا كريمًا، على تبليغك الرسالة، وهدايتك للناس من الضلالة، أجرًا غير منقوص وغير مقطوع.

(٤) ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

ووالله إنك - يا محمد - على خُلُقٍ عظيم من كريم الشمائل، وجميل الفضائل، وأشرف المناقب، وأجل المواهب، فهو ﷺ مَضْرِب المثل في كل خُلُق نبيل وكل نهج جليل، فقد كان خُلُقه القرآن، يتمثل أوامره وينتهي عن نواهيه.

(٥) ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾

فسوف يظهر لك - أيها النبي - ويظهر لأعدائك الكفار أيكم أهدى سبيلاً، وأقوم طريقًا، وأحسن نهجًا، إذا بدت عواقب الأمور وخواتم الأحداث.

(٦) ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾

وسوف تعلم - يا محمد - ويعلم أعداؤكم أيكم الخاسر في دينه، المصاب في عقله، حينها يُعرف المفتون ويبين المجنون.

(٧) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

إن الله يعلم الشقي من التقي، والضال من المهتدي؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء، علم ما حوته الضمائر، واطلع على ما أكنَّته السرائر.

(٨) ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

فاستمر على هداك واثبت على دينك، فأنت على الحق وهم على الباطل، فلا تطعهم في آرائهم، ولا تتبع أهواءهم.

(٩) ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾

تمنوا أن تلاينهم بترك شيء من دينك، وتصانعهم بموافقتهم على بعض ما يرون، وهم أيضًا يلينون لك ببعض الموافقة لتلتقي معهم على أمر موافق؛ لأنهم على غير بيّنة ولا برهان.

(١٠) ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾

ولا تطع - أيها النبي - كل فاجر كثير الأيمان بالزور والبهتان، كذّاب هانت عليه نفسه، حقيرٍ لا مروءة له.

(١١) ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾

مغتاب للناس يلمز الأعراض، ويطلب المعايب، ينقل الكلام البين الآثام؛ لزرع الفتنة والإفساد بينهم، فهو فاسد في نفسه، مفسدٌ لغيره، حريص على قطع الأواصر والتفريق بين المؤمنين.

(١٢) ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾

بخيل بالخير عن غيره من مال وجاه وخلق، يعتدي على حقوق الله وحقوق خلقه، لا تردعه تقوى، كثير الآثام من خصام، وأكل حرام، وأذية الأنام.

(١٣) ﴿ عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾

شديد في كفره، قوي في مكره، ممعن في فجوره، فاحش في أفعاله، لئيم في خصاله، غير منسوب إلى أب، فلا مروءة، ولا حسب، ولا شهامة، ولا أدب.

(١٤) ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾

لأجل أنه صاحب مال وأولاد، يمعن في الفساد والكفر برب العباد، وكان الأولى به أن يشكر ولا يكفر، ويتواضع ولا يتكبر.

(١٥) ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

إذا قُرئ عليه القرآن قال: هذه أساطير، وخرافات الأولين القدماء، ولا قيمة لها.

(١٦) ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾

سنجعل على أنفه علامة من الخزي والعار والملامة، يفتضح بها أمام الناس.

(١٧) ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾

إنا اختبرنا هؤلاء الكفار، بالجوع والقحط ونقص الثمار، كما اختبرنا أصحاب البستان الذين حلفوا ليقطعن ثماره في الصباح الباكر، وعلى حين غفلة من المساكين؛ حتى لا يعطوهم شيئًا.

(١٨) ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾

أقسموا ولم يستثنوا في الأيمان، وجزموا ولم يجعلوا ذلك تحت مشيئة الرحمن.

(١٩) ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾

فأنزل الله على الحديقة حريقًا وهم مستغرقون في نومهم، فأُخِذت على غفلة منهم جزاء قصدهم قطعها على حين غفلة من الفقراء.

(٢٠) ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾

فأصبحت بعد الحريق مثل الصريم أي القطعة من الليل البهيم، هامدة سوداء، لم تبق فيها شجرة خضراء.

(٢١) ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾

فصاح بعضهم ببعض وقت الصباح، ليبادروا النهار قبل أن يراهم مسكين، أو يحس بهم فقير، وهذا شأن البخيل يستتر عن الناس.

(٢٢) ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾

وطلب بعضهم من بعض أن يبكروا إلى بستانهم لحصده قبل أن يطرقهم صاحب حاجة بخلاً منهم بثمار الزروع، فعجلوا بالإبكار لقطع الثمار.

(٢٣) ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾

فأسرعوا إلى بستانهم يُسِرون حديثهم لئلا يسمعهم أحد من أهل البلد، وهذا شأن الشحيح، يخفي شخصه وصوته؛ بخلاً بماله وطعامه.

(٢٤) ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾

اتفقوا على منع أيِّ مسكين من دخول البستان، فقد أجمعوا على ذلك فبكَّروا وأخفوا أشخاصهم بالظلام، وأسروا الكلام، وعجَّلوا بالصرام.

(٢٥) ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾

وذهبوا مبكرين مع حقدهم على المساكين، وقصدهم السيء من البخل على المحتاجين، واعتقدوا بقدرتهم على تنفيذ إرادتهم في منع الفقراء من ضيافتهم.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾

فلما رأوا الحديقة في حريقة مسودة هامدة، قالوا: ربما أخطأنا طريقنا فهذه ليست حديقتنا بعدما تغيرت معالمها.

(٢٧) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

فلما عرفوا أنها حديقتهم قالوا: بل حُرِمنا خيرها بقصدنا السيء في منع المساكين من ثمارها، وهذا جزاؤنا حل بنا.

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾

قال أعدلهم وخيرهم: ألم أنصحكم بالاستثناء في اليمين، وردِّ المشيئة لربِّ العالمين.

(٢٩) ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

فقالوا - بعدما راجعوا أنفسهم وندموا على فعلهم -: تنزَّه الله عن ظلمنا فيما أصابنا، بل نحن ظلمنا أنفسنا بسوء فعلنا بترك الاستثناء ومنع الفقراء، والبخل بالعطاء.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾

فرجع بعضهم على بعض بالملامة بعد الأسف والندامة، فتحسروا من سوء صنيعهم، وقبح مقصدهم في البخل.

(٣١) ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾

قالوا: يا ويلنا إنا تجاوزنا الحد في معصيتنا لربنا بمنعنا الفقراء من الصدقة وما أصابنا إلا بذنوبنا. والطغيان منع الحق أو مجاوزة الحد.

(٣٢) ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾

عسى ربنا أن يعوضنا أفضل من حديقتنا بسبب توبتنا من خطيئتنا، إنا إلى الله وحده راغبون، نطمع في ثوابه، ونخاف من عقابه.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

مثل عقابنا لأهل الحديقة نعاقب في الدنيا كُلَّ مَنْ مَالَ عن الطريقة، فكل من بخل بالنعم عاقبناه بأنواع النقم، ولعذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون هذه الحقيقة؛ لتركوا كل سبب يوجب العقاب، ولكن الجهل يورد صاحبه المهالك.

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

إن للذين اتقوا ربهم بفعل ما أمر واجتناب ما عنه زجر، جنات فيها نعيم مقيم، وأجر عظيم، في جوار رب كريم.

٣٥ ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

أفنجعل من أطاع ربه وانقاد لأمره كمن كفر به وتجاوز حدوده، هذا لا يكون، فالمسلم مأجور مشكور، والمجرم مخذول مدحور.

٣٦ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾

ما لكم في حكمكم الجائر تساوون بينهم في الفضل والثواب، وهم ليسوا سواء في عملهم.

٣٧ ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾

أم عندكم كتاب منزَّل من الله تقرؤون فيه هذا الحكم الجائر الذي يساوي بين التقي والشقي، فأنتم تدرسون فيه هذا الحكم، فلا العقل وافقتم، ولا النقل اتبعتم.

٣٨ ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾

إن لكم إذًا في هذا الكتاب ما تشتهون، فهو مع أهوائكم في سوء اختياركم، والصحيح أن هذا ليس موجودًا، فلا كتاب لديكم ولا دليل يؤيدكم.

٣٩ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾

أم لكم عهود علينا موثقة مثبتة في أنه سيحصل لكم ما تحبون وتشتهون، بل هذه أمانٍ لا تُحقَّق.

٤٠ ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾

سل - أيها النبي - الكفار أيهم بهذا الحكم كفيل وضامن أن الأمر يحصل كما أرادوا؟ وليس لهم على الزعم كفيل، وعلى الدعوى دليل.

٤١ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾

أم لهم آلهة تضمن لهم ما ادعوه، وتعينهم على ما طلبوه، فليحضروهم إن كانوا صادقين فيما قالوه.

٤٢ ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾

يوم القيامة يشتد الخطب، ويعظم الكرب، ويأتي الله -تعالى- لفصل القضاء بين الناس، ويكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ويأمر الناس بالسجود في العرصات، فالمؤمنون الذين سجدوا له في الدنيا يستطيعون السجود في الآخرة، والكفار والمنافقون يصعب عليهم السجود، ويصبح ظهر أحدهم طبقًا واحدًا لا ينحني؛ لأنهم رفضوا السجود في الدنيا.

٤٣ ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾

منكسرة أبصارهم من الخوف تغشاهم ذلة شديدة، وقد كانوا في الدنيا يُؤمرون بالسجود لله في الصلاة مستطيعين أصحاء، فلا يسجدون؛ كبرًا وعتوًا، فعوقبوا بحرمانهم السجود يوم القيامة.

٤٤ ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

فذرني - أيها النبي - والمكذبين بهذا القرآن، فسوف أنتقم منهم وأعذبهم، وسنمدهم بالنعم ونصب عليهم الدنيا ونسوقهم إلى الهلاك من حيث لا يشعرون بالخطر ولا يدرون بسبب الهلاك، فيؤخذون على غرة.

٤٥ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾

وأمْهلهم ليزدادوا إثمًا، وأطيل أعمارهم في الدنيا، فينغمسون في لهوهم، إن كيدي بأعدائي قوي شديد؛ لأنه لا يظهر للعاصي حتى يقع فيه.

٤٦ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾

هل تسأل - أيها النبي - الكفار أجرة دنيوية على تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله؟ فهم مثقلون بغرامة الأجرة، قد كلَّفتهم بهذه الأجرة حملاً ثقيلاً، والصحيح: أنك تدعوهم لوجه الله وأجرك على الله، فلماذا يتبرمون من دعوتك؟!

(٤٧) ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾

هل اطلعوا على علم الغيب فهم يكتبون عن علم ويحكمون عن عدل حينما يرون أنهم أفضل من أهل الإيمان؟ وهم في الحقيقة جاهلون عبدة أوثان، لا علم عندهم ولا برهان.

(٤٨) ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾

فاصبر - أيها النبي - لما حكم ربك وقدّر من إمهاله لمن كفر وتأخير النصر والظفر، ولا تكن كيونس ﷺ لما استعجل أمر ربه وغضب على قومه وهرب منهم، فالتقمه الحوت، فدعا ربَّه بعد أن امتلأ غمًا وهمًا وكربًا، فنادى بكلمة الفرج مستغفرًا تائبًا فنجاه ربه.

(٤٩) ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾

لولا أن الله أنقذه بلطفه وأدركه برعايته بعدما أعلن توبته؛ لطرح من بطن الحوت في البيداء المهلكة بلا غذاء، ولا ماء، ولا كساء، مع الملامة على تقصيره.

(٥٠) ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

فاصطفاه الله برسالته إلى قومه، وأعاده إلى وطنه داعيةً إلى سبيله؛ صالحًا مصلحًا حسن منه الحال والفعال والمقال.

(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾

ولقد أوشك الكفار أن يسقطوك بالأبصار؛ عداوةً لك وبغضًا لما سمعوا كلام الواحد القهار، ويتهمونك بالجنون؛ ليقدحوا في شخصك الكريم، فيبطلوا دعوتك إلى الصراط المستقيم.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

وما القرآن إلا موعظةٌ للبشر، وتذكير لمن ادكر، ونصائح لمن اعتبر، فمن شاء آمن، ومن شاء كفر.

مكية

ترتيبها ٦٩

سورة الحاقة

آياتها ٥٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾

الحاقة هي القيامة التي يحق فيها الحق ويبطل الباطل، ويتحقق فيها الوعد والوعيد، والثواب والعقاب.

(٢) ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾

ما القيامة الواقعة حقًا في صفتها وأهوالها وأخطارها وأحوالها. والاستفهام للتفخيم، والإبهام للتعظيم.

(٣) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾

وما أعلمك - أيها النبي - بحقيقة القيامة، فهي فوق الوصف وأعظم من التصوّر، خبرها هائل، ونبؤها عظيم.

(٤) ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾

كذبت ثمود، قوم صالح، وعاد، قوم هود بالقيامة التي تقرع القلوب بهولها، فقد سبق هؤلاء الأقوام قومك في التكذيب، فاصبر كما صبر الرسل من قبلك.

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾

فأما ثمود فأهلكهم الله بصيحة خلعت قلوبهم، وأزهقت أرواحهم، ودمّرت مساكنهم من شدتها.

٦ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

وأما عاد فأهلكهم الله بريح شديدة قوية، تدمر كل شيء بأمر الله، لها صوت عظيم، وسرعة هائلة.

٧ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

سلّطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة بلا فتور ولا انقطاع، فأهلكتهم فصارت جثثهم بعد الموت كأصول النخل المقطوع المطروح على وجه الأرض.

٨ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾

فهل تبصر لهم بقية بعد الهلاك، أو نفسًا حية بعد الدمار، بل قطع دابرهم ولم يُبق منهم أحدا.

٩ ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾

وأتى فرعون ومن قبله من الأمم المكذبة: قوم لوط بالفعلة الشنيعة والخطيئة الفظيعة من الكفر بالله تعالى والخطايا والسيئات.

١٠ ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾

فكل أمة عصت رسولها فكذبوه وآذوه فأخذهم الله أخذةً قويةً، وعاقبهم عقوبةً شديدة.

١١ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾

إنا لما زاد الطوفان وتجاوز حده في عهد «نوح» حملنا أجدادكم في السفينة مع نوح، وأنقذناكم من الغرق.

١٢ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾

لنجعل تلك الواقعة التي أهلكنا فيها الكافرين ونجينا المسلمين عبرةً وعظةً، وتحفظها كل أُذن حافظة لما يقال، وتعقل ما تسمع .

١٣ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾

فإذا نفخ الملك في القرن النفخة الأولى عند هلاك العالم وهي نفخة واحدة تفني الأحياء، وتتغير بسببها الأرض والسماء.

١٤ ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾

واقتلعت الأرض والجبال، ثم رفعتا فزلزلتا ودكتا وصارت هباءً في الهواء بهزة واحدة قوية هائلة.

١٥ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾

حينها تقوم القيامة وتقع الساعة التي هي أعظم حدث سيعرفه الإنسان في الأكوان.

١٦ ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾

وتصدّعت السماء وتشققت، فإذا هي بعد القوة والسمك مسترخية لينة ضعيفة البناء والتماسك.

١٧ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾

والملائكة على أطراف السماء واقفون على جوانبها، ويحمل عرش الله -عز وجل- ثمانية من الملائكة العظام، لا يعلم قوتهم إلا الملك العلاّم.

١٨ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

حينها تُعرضون على الله للحساب من ثواب وعقاب، لا يخفى على الله من أسراركم شيء، قد علم السرائر، واطلع على ما في الضمائر.

١٩ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾

فأما من أعطاه الله كتابه بيمينه لإيمانه ويقينه فيا قرة عينه وقتها، يقول من الفرح والسرور: خذوا طالعوا كتابي، إني أيقنت بحسابي، فأحسنت عملي ليحسن الله ثوابي.

٢٠ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾

إني آمنت بلقاء ربي للحساب، وتيقنت بالبعث بعد الموت، فأخذت للعرض عدته.

٢١ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾

فهو في عيشة هنيئة، حياة رضية، من بهجة النفس وقرة العين، نعيم دائم، ومقام كريم.

٢٢ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾

في جنة مرتفعة المكان، فيها كل ما يشتهيه الإنسان في جوار الرحمن، وفي سرور ورضوان وروح وريحان.

٢٣ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾

ثمارها قريبة دانية، وأغصانها لينةٌ متدلية، تصل إلى أهل الجنة في سهولة ويسر.

٢٤ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾

كلوا واشربوا بلا منٍّ وأذى، ولا تكدير ولا تنغيص، مع الأمن والسلام، في أحسن مقام، وأطيب إكرام، وأجزل إنعام؛ جزاءً لأعمالكم الصالحة في أيام الدنيا السالفة.

٢٥ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾

وأما من أُعطي كتابه بشماله لسوء أعماله، وقبح أفعاله فينادي من التحسُّر: ليتني لم أُعطَ كتابي لسوء حسابي.

٢٦ ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾

ليتني لم أعلم بجزائي هذا؛ لأنه عذاب أليم، وعقاب فظيع على سوء العمل.

٢٧ ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾

يا ليت الموت الذي ذقته كان نهاية أمري، ولم أُبعث من قبري، ولم أقف في حشري.

٢٨ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾

ما نفعني مالي الذي جمعته وللأزمات ادخرته، وقد خزنته وخدمته، فخذلني اليوم.

٢٩ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾

ذهبت حجتي ولم يعد لي حجة أحتج بها، وفُقِد جاهي وسلطاني وجندي وأعواني، وخذلني إخواني.

٣٠ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾

يقول الجبار - سبحانه - لخزنة النار: خذوا هذا المجرم العنيد والفاجر المريد، فاجمعوا يديه إلى عنقه مغلولاً، وألقوه في جهنم مدحورًا مخذولاً.

٣١ ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾

ثم أدخلوه النار يصلى حرها، ويذوق آلامها، ويقاسي نكالها، ويعاني أغلالها.

٣٢ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾

ثم أدخلوا في جسمه سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعًا تدخل مع فمه وتخرج مع دبره، وهذه غاية العقوبة، ونهاية العذاب.

٣٣ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾

إنه كان لا يصدق بألوهية الله، ولا يذعن لعبوديته، ولا يعترف بوحدانيته، والله المستحق للعبادة عظيم الذات والصفات.

٣٤ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾

ولا يحث غيره على إطعام المساكين والمحتاجين، فهو بخيل ويأمر الناس بالبخل.

٣٥ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾

فليس له يوم القيامة قريب ينفعه، ولا ولي يشفع له، ولا ناصر يدافع عنه.

٣٦ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾

ولا طعام له إلا من صديد أهل النار، وقيح الفجار، ونتن الكفار.

(٣٧) ﴿لَا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾

لا يأكل هذا الطعام إلا من أصرَّ على الآثام، ولم يتب من الإجرام، وكفر بالإسلام.

(٣٨) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾

فلا أقسم بما تبصرون من المرئيات، وتشاهدونه من المخلوقات.

(٣٩) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾

وأقسم بما لا تبصرونه من الكائنات، وما غاب عنكم من سائر الموجودات.

(٤٠) ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

إن القرآن العظيم يتلوه رسول كريم، صادق في قوله، بار في فعله، شريف في فضائله.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾

وما هذا القرآن بقول شاعر كما تزعمون، وتصديقكم بالحق قليل، فما أقل إيمانكم وما أكثر كفركم.

(٤٢) ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

وليس القرآن بسجع كهان، بل هو كلام الرحمن، قليلاً ما يكون عندكم تفكر، وتأمل الفرق بين القرآن وسجع الكهان.

(٤٣) ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ولكن القرآن كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد؛ ليكون من المنذرين.

(٤٤) ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾

ولو ادعى علينا محمد شيئًا لم نقله، ونسب إلينا كلامًا لم نتكلم به - وحاشاه ﷺ - وهذا تنزلٌ عقلي في الجدل، وافتراض في النظر.

(٤٥) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾

لانتقمنا منه وأخذنا منه باليمين، وهذا وعيد شديد، وترهيب بعذاب رهيب، لو حصل أن تقوَّل علينا محمد ﷺ وحاشاه أن يفعل.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾

ثم لقطعنا منه نياط قلبه الذي هو مصدر الوعي والحياة، فلا يعيش بعده، فالحياة والموت بيد الله تعالى.

(٤٧) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾

فلا يقدر أحد منكم أن يحجز عقابنا عنه ولا يمنعه منًّا، فلا يحول بين الله وعباده أحدٌ من خلقه.

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

وإن هذا القرآن لعظةٌ عظيمةٌ لمن اتقى الله وخافه، وامتثل أمره، واجتنب نهيه.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾

وإنا لنعلم أن منكم من يكذّب بهذا القرآن بعد سطوع بيانه، وظهور برهانه، وجلالة سلطانه.

(٥٠) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

وإن التكذيب بالقرآن لندامة على الكفار عبدة الأوثان حينما يدخلون النيران، ويرون المؤمنين في الجنان.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾

وإن القرآن لحق ثابت، ويقين لا شك فيه، منـزَّل بالحق، موحى إلى محمد ﷺ بالصدق.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

فنزِّه الله -عز وجل- عما لا يليق به فما نسبه إليه أعداؤه أو كذبوا بكتابه أو رسوله، فإنه عظيم -عز وجل- في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالتسبيح نفي للنقص، والتعظيم إثبات للكمال.

مكية

ترتيبها ٧٠

سورة المعارج

آياتها ٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾

دعا داعٍ من الكفار على نفسه وقومه بعذاب الجبار وهو واقع بهم في النار، فلماذا يستعجلونه في هذه الدار؟!!

(٢) ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾

وهذا العذاب الشديد هو للكفار بالوعد والوعيد، فليس لهذا العذاب مانع يمنعه من الله، ولا راد يرده من الواحد الأحد.

(٣) ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾

والعذاب من الله -جل جلاله- ذي العلو والجلالة، وهذا دليل على عظيم قهره، وعلو قدره، وقوة أمره.

(٤) ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾

تصعد الملائكة وجبريل إليه -سبحانه- في يوم قدره خمسون ألف سنة من سني الدنيا، وهو يوم القيامة الذي هو على المؤمن مثل الصلاة المكتوبة.

(٥) ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾

فاصبر - أيها النبي - على أذى الكفار صبرًا لا جزع فيه من الأذى، ولا تبرمًا، ولا شكوى.

(٦) ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾

إن الكفار يستبعدون عذاب يوم الحساب، فهم يرونه غير واقع، فلا يؤمنون به.

(٧) ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾

ونحن نرى يوم الحساب واقعًا قريبًا لا محالة كائنًا لا شك فيه، قد قرب حصوله، وأوشك وقوعه.

(٨) ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾

إذا قامت القيامة تكون السماء سائلة مثل حثالة الزيت ذابت من الحر، وسالت من الهول.

(٩) ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾

وحينها تصبح الجبال كالصوف المنفوش الذي هبت به الريح فانتشر مثل الهباء في الهواء.

(١٠) ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾

ويوم القيامة لا يسأل القريب عن قريبه، ولا يعتني بشأن غيره، كلٌّ مشغول بنفسه، دهاه ما أذهله عن كل أحد.

(١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾

يرونهم بالأبصار ويعرفونهم بالقلوب، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينفع أحدًا، ذهبت المعرفة، وبطلت القرابة، ويتمنى الكافر لو يفدي نفسه من عذاب القيامة بأبنائه، وهم أحبُّ الناس إليه، لكن هول الكرب ذهب بالحب، ولكن هيهات ذلك.

(١٢) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾

ويتمنى الكافر لو يفتدي من العذاب بزوجته بعد المودة والرحمة والمحبة، لكن الخوف أنساه، ويريد لو يفتدي بأخيه بعد رابطة القربى.

١٣ ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾

ويتمنى الكافر لو يفتدي من العذاب بعشيرته التي تضمه، وقبيلته التي ينتمي إليها، فقد ضاع الحسب والنسب.

١٤ ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾

ويتمنى أن يفتدي من العذاب بكل ما في الأرض من الناس وغيرهم حتى ينجو من العذاب، فالهم عنده نفسه فحسب.

١٥ ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾

ليس الأمر كما تمناه، فلا بد له من ورود النار التي تلتهب من شدة حرِّها، وتضطرِم بأهلها.

١٦ ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾

ومن شدة حرِّها تنزع جلدة الوجه والرأس، وتشوي أطراف البدن، حتى يصير الجسم كالفحم.

١٧ ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾

تنادي من أعرض عن الإيمان، وطاعة الرحمن، واتبع الشيطان، وانغمس في دنياه وهواه.

١٨ ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾

جمع المال ومنع حق الله فيه، وصار خازنًا وخادمًا له، صرف في تحصيله الأوقات، واشتغل به عن الطاعات.

١٩ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾

إن الإنسان جُبل على الجشع، وطُبع على الطمع، فهو شديد الحرص، قوي التعلق بالدنيا.

٢٠ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾

إذا أصابه المكروه كثُر جزعه، وإذا مسَّه البؤس اشتد أسفه، فلا يصبر على العسر، ولا يحتمل الضُّر.

٢١ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾

وإذا مسَّه الخير منعه عن غيره، يمسك معروفه، ويمنع إحسانه، فمن طبيعة الإنسان الطمع فيما لم ينل، والبخل بما نُنِل.

٢٢ ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾

إلا من أقام الصلوات وحافظ على الأوقات، فالصلاة تعينه على الجود والصبر والقناعة.

٢٣ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾

وهم مستمرون على إقام الصلاة لا يشغلهم عنها شاغل، معلقةٌ قلوبهم بالمساجد، جُعلت الصلاة قرة عيونهم.

٢٤ ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾

وفي أموالهم نصيب معروف، وهي الزكاة المفروضة يؤدونها بطيبة نفسٍ وامتثال أمر.

٢٥ ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾

يعطونها من سألها ومن تعفف عنها، ومن طمع ومن قنع، فخيرهم مبذول لباغيه والمتجافي عنه.

٢٦ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

والذين يصدقون بيوم النشور فيعملون بالمأمور، ويتركون المحذور، ويستعدون له بعمل مبرور.

٢٧ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾

والذين هم من عذاب الله خائفون لا يأمنون مكر الله، ولا يستهينون بعقابه، قد عملوا الصالحات، واجتنبوا المنهيات؛ طلبًا للنجاة.

٢٨ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾

إن عذاب الله لا يأمنه مؤمن، بل تجده حذرًا خائفًا وجلاً؛ لأنه صدّق بوقوعه، أما الفاجر فقد أمِنَ العذاب فأساء العمل.

٢٩ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾

والذين يحفظون فروجهم من الحرام، ويصونونها عن الفاحشة؛ خوفًا من ربهم.

(٣٠) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

إلا على أزواجهم وإمائهم، فالله لا يؤاخذهم على ذلك، بل أباحه لهم، فهم يحلون ما أحلَّ الله ويحرِّمون ما حرَّم.

(٣١) ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾

فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات فقد اعتدى في المحرمات، وتجاوز الحد في المنهيات.

(٣٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾

والذين يحفظون ما ائتمنهم الله على أدائه من حقوق لله ولخلقه، ويحفظون العهود فلا ينقضونها، والعقود فلا ينكثونها، بل يوفون بها.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾

والذين يؤدون شهاداتهم بالصدق، ويقولونها بالحق بلا تغيير ولا كتمان ولا تأثر فيها، محاباة للأقرباء أو شنآن للأعداء.

(٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

والذين يحافظون على الصلاة كما شُرعت فلا يخلّون بواجباتها ولا يضيِّعون أوقاتها، بل يؤدونها على أكمل وجه صفةً ووقتًا.

(٣٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾

أولئك الأبرار – الذين اتصفوا بتلك الأوصاف الجميلة – خالدون في جنات النعيم مع الفوز العظيم، والمقام الكريم.

(٣٦) ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾

فما للكفار أمامك – يا محمد – قد أقبلوا مسرعين مدّوا إليك أعناقهم، وقصدوك بأبصارهم ذاهلين متعجبين؛ علمًا أن الذي جئت به لا يدعو إلى العجب؛ لأنه حق ظاهر.

(٣٧) ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾

يجتمعون عن يمنيك وعن شمالك جماعات متفرقة يتساءلون متعجبين مما جئت به؛ لأنه خالف ما عليه آباؤهم من شرك.

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾

هل يطمع كل واحد من هؤلاء الكفرة الفجرة أن يدخله الله جنة النعيم وقد خالف الصراط المستقيم، وكذَّب القرآن العظيم، وحارب النبي الكريم؟!

(٣٩) ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾

ليس الأمر كما يطمعون، فالجنة عليهم حرام، وقد خلقناهم من ماء حقير مهين كغيرهم من البشر، فلا يؤهلهم ذلك لدخول الجنة، إلا من عمل عملاً صالحًا، أما مجرد الأصل فإن أصلهم كسواهم لا مزية لهم.

(٤٠) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾

يقسم الله بنفسه –جل جلاله– وهو الذي خلق مشارق الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، ومغاربها، وفيها آيةٌ على بديع صنعه، وعظيم خلقه على أنه –سبحانه– قادر على ما أراد لا يعجزه أمر.

(٤١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾

أقسم – سبحانه – على أنه قادر على أن يستبدل بالكفار قومًا أفضل منهم وأطوع، وأكرم على الله من هؤلاء المشركين الذين كفروا به، وكذّبوا رسوله ﷺ، وليس هناك أحد يفوت الله أو يعجزه أو يخرج على حكمه أو يتحصن من قضائه إذا أراد به شيئًا.

(٤٢) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾

فاترك – أيها النبي – الكفار يخوضوا في الباطل، ويلعبوا في الدنيا، فأقوالهم لاهية، وأفعالهم عابثة، وأعمارهم ضائعة؛ حتى يلاقوا يوم الحساب؛ ليذوقوا فيه العذاب، فجزاؤهم ليس في الدنيا وإنما في الآخرة.

(٤٣) ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾

ذاك اليوم يخرجون فيه من القبور مسرعين كسرعتهم في الدنيا إلى آلهتهم التي عبدوها من دون الله، يهرولون إليها ليجدوا هناك جزاءَهم المنتظر، وعقابهم المعد.

(٤٤) ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

ذلَّت من الكفار الأبصار، وعلاها المهانة والعار، لما عاينوا النار، ذلك يوم القيامة الذي وعُدوا به في الدنيا، فاستهزؤوا وكذبوا، فالآن يرونه رأي العين.

مكية

ترتيبها ٧١

سورة نوح

آياتها ٢٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

يخبر الله - سبحانه - أنه أرسل نوحًا ﷺ برسالة التوحيد إلى قومه، وأمره أن يُحَذِّر قومه عذاب الله المؤلم إن لم يؤمنوا بالله ويتبعوا نوحًا.

(٢) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾

وقال لهم نوح: يا قوم إني نذير لكم من عذاب شديد، لا لبس في دعوتي بل هي واضحةٌ مفهومة.

(٣) ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾

أن وحِّدوا الله، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، وهذا منهج الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ، وهما عمودا الفلاح والنجاة.

(٤) ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

يصفح عن ذنوبكم، ويتجاوز عن خطاياكم، ويمد في أعماركم، ويبارك في أوقاتكم، ويؤخر الأجل إلى وقت معين في علم الله؛ لأن الأجل إذا نزل فلا تأخير فيه، لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان وطاعة الرحمن، ولكن الجهل أوردكم موارد العصيان.

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾

قال نوح: يا رب إني اجتهدتُ في دعوة قومي إلى الإيمان طيلة الليل والنهار، وهذا دليل على شدة الحرص، واستفراغ الوقت في الدعوة .

(٦) ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾

فما زادتهم دعوتي إياهم إلى الإيمان إلا هروبًا وإعراضًا، وكان الواجب عليهم الاستجابة والقبول، ولكنهم رفضوا الحق.

(٧) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾

وإني كلما دعوتهم إلى الإيمان بالرحمن ليغفر لهم آثار الذنوب والعصيان جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحق زيادة في الإعراض، وغطَّوا وجوههم بثيابهم لئلا يروا نوحًا، واستمروا على الكفر، وأقاموا على الضلالة، واستكبروا عن قبول الحق استكبارًا شديدًا، فهم عطَّلوا الأسماع والأبصار والقلوب عما خلقت له.

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾

ثم إني رفعت صوتي لهم بالدعوة، وأعلنت رسالتي في مجامعهم ومجالسهم، فلم يأتِ النقص من قِبَلِي في التبليغ، وإنما من جهتهم في الإعراض.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾

ثم إني أخفيت صوتي بدعوتي، فمرة أرفع الصوت إذا كثر الجمع، وبُعدَ المخاطب، ومرةً أخفضه إذا قربت منهم، أو كان المدعو واحدًا، والمعنى ما تركت طريقةً تصلح للدعوة إلا سلكتها.

(١٠) ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾

وأمرتهم باستغفار الواحد القهار، فإنه غفّار الذنوب، ستّار العيوب، يقبل من تاب، ويرحم من أناب. والاستغفار هنا يتضمن التوحيد والتوبة.

(١١) ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾

ومع الاستغفار ينزل الله الأمطار؛ لأن الغيث من آثار رحمته -سبحانه- التي تتنزل على المستغفرين؛ لأن الذنوب تمنع القطر.

(١٢) ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾

ومع الاستغفار والتوبة يرزقكم الله الذرية الصالحة، والأموال الكثيرة والرزق الواسع، وينبت لكم الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء، لتنعموا بفوائد الأشجار والثمار والأزهار، ويهيئ لكم العذب الغزير من الأنهار.

(١٣) ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾

ما لكم - أيها الفجار - ليس عندكم وقار للواحد القهار، فلا تخافون عذابه ولا ترجون ثوابه.

(١٤) ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾

وقد خلقكم على مراحل، نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا ولحمًا، فهو الذي تولى وحده الخلق والتصوير والرزق، فحقه أن يُعبد.

(١٥) ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾

ألم تنظروا في السماء وخلقها البديع؟ كيف جعلها الله سبعًا شدادًا بعضها فوق بعض في إحكام وإتقان، تدل على تمام القدرة، وكمال القوة.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾

والله جعل القمر في هذه السموات نورًا لأهل الأرض، يستضيئون بنوره في الظلام، وهو برهان على روعة هذا البناء والنظام وجعل الشمس كالسراج الوهاج تسطع على العالم بنورها وتكشف الظلام بضيائها.

(١٧) ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾

والله أنشأ أصلكم، وخلق أباكم آدم من التراب ونفخ فيه الروح، فمادتكم من الطين، وأصلكم من الثرى.

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾

ثم يعيدكم بعد الموت مدفونين في الأرض، ثم يبعثكم من القبور إلى يوم النشور للحساب، فإما ثواب أو عقاب فمن الأرض الأصل وإليها العود ومنها البعث.

(١٩) ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾

والله مهّد لكم الأرض للعيش عليها وفرشها لمزاولة الحياة على ظهرها، وبسطها للناس.

(٢٠) ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾

لتسلكوا في الأرض طرقًا واسعة للذهاب والإياب في منافعكم، وكسب رزقكم وحلّكم وترحالكم.

٢١ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾

قال نوح: يا رب، إن قومي خالفوا أمري وبالغوا في تكذيبي، وأكثروا من عصياني واتبع الفقراء منهم الأغنياء في الضلال، واقتدى الضعفاء بالرؤساء في التكذيب، فلا صاحب المال والولد نفعه ماله لما كذب، ولا نجاه ولده من العذاب.

٢٢ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾

ومكر الكبراء بالضعفاء مكرًا عظيمًا، وخدعوهم بجاههم ومالهم عن الهداية، ولبّسوا عليهم بفتنة المال حتى صدوهم عن الحق.

٢٣ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

وقال الرؤساء للضعفاء: لا تتركوا عبادة أصنامكم إلى عبادة الله وحده التي دعا إليها نوح، ولا تتركوا عبادة الأصنام ود ولا سواع ولا يغوث ولا يعوق ونسرًا التي هي أسماء قوم صالحين سموها بأسمائهم، ثم عبدوها من دون الله.

٢٤ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾

وقد أضل الرؤساء الضعفاء وزينوا لهم الباطل وأغروهم بالغواية، فيا ربنا لا تزد هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالفساد إلا بعدًا عن الحق والرشاد؛ لأنهم أضلوا العباد.

٢٥ ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾

فبسبب ذنوبهم أُغرِقوا بالطوفان، ثم أُحرقوا بالنيران؛ لإمعانهم في العصيان والطغيان فلم ينصرهم أحدٌ من دون الرحمن.

٢٦ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾

فلما يئس نوح من قومه دعا عليهم فقال: يا رب، أهلك الكفار ولا تترك منهم أحدًا حيًا يدور على وجه الأرض ويتحرك على البسيطة؛ ليقطع منهم الأثر، وينتهي عقبهم من الدنيا.

٢٧ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

إنك يا ربنا إن تركت الكفار دون إهلاك صدوا عبادك عن الحق، وأضلوهم عن الرشد، وفتنوهم في دينهم، ولا يلد الآباء من الأصلاب إلا كل كافر كذاب، ولا تنجب النساء من الأرحام إلا كل مرتكب للآثام.

٢٨ ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾

يا رب اغفر لي ذنوبي، واغفر لوالدي، واغفر لمن اعتنق ديني، ودخل بيتي وهو مؤمن، واغفر لكل مؤمن ومؤمنة مدى الدهر، وقد شملتنا دعوته عليه السلام، فجزاه الله خيرًا، ثم قال: ويا ربنا لا تزد الكافرين إلا هلاكًا في الدنيا، وعذابًا في الآخرة، قال هذا بعد تجربة طويلة، وعمر مديد، فيه تَعِبَ من عتاة الكفار.

مكية
ترتيبها ٧٢

سورة الجـن

آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾

قل - أيها النبي -: إن الله أوحى إليَّ أن جماعة من الجن قد استمعوا وأنصتوا للقرآن، فلما سمعوه تأثروا به وقالوا لقومهم: إنا سمعنا قرآنًا بديعًا في بلاغته وفصاحته، عجيبًا في نسقه وسياقه، جميلاً في عرضه وإشراقه، يأخذ بالألباب، وينفذ إلى النفوس، ويخترق حُجُب الضمير.

٢ ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾

وهذا القرآن يدل على الحق، ويدعو إلى البر، فصدقنا به واتبعناه، ووحدنا ربنا ولن نشرك به أحدًا في ألوهيته.

٣ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾

وأن الله تقدّس وتنزّه وتعالت عظمته ما اتخذ زوجةً ولا ولدًا، بل هو أحدٌ صمد، لم يلد ولم يولد.

٤ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾

وأن الجاهل بالله منا كان يفتري على الحق وينسب إليه الصاحبة والولد؛ سفهًا وظلمًا تعالى الله عن ذلك.

٥ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾

وأنا كنا نعتقد أن أحدًا من الجن والإنس لا يستطيع أن يفتري على الله من نسبة الولد والصاحبة.

٦ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾

وقد كان رجال من الإنسٍ يستجيرون برجال من الجن، فزاد هؤلاء الرجال باستجارتهم الجن طغيانًا وسفهًا وعتوًا، وهذا شرك، ومثله إتيان السحرة والكهان.

٧ ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾

وقد اعتقد كفار الإنس كما اعتقدتم - أيها الجن - أن الله - تعالى - لن يبعث أحدًا بعد الموت، فهم كفروا بالله واليوم الآخر.

٨ ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾

وأننا صعدنا إلى السماء لاستماع حديث أهلها، فوجدناها تغيرت علينا بعد البعثة المحمدية، فقد امتلأت بالملائكة الحراس، والنجوم المحرقة التي يُرمى بها من يستمع منا.

٩ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾

وقد كنا قبل البعثة نتخذ من السماء مقاعد لسماع الحديث، أما الآن فمن يقترب للسماع يحرقه الشهاب، وفيه إبطال دعوى الكهان والعرّافين من نسبة كلامهم إلى خبر من السماء.

١٠ ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾

ونحن لا ندري هل يُراد بأهل الأرض بهذا التغير هلاك ودمار؟ أم يريد الله بهم خيرًا وهدى، فما ندري ماذا حدث؟

١١ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾

ومنا معشر الجن أولياء وأتقياء، ومنّا فسقة أشقياء، فنحن مذاهب شتى، لسنا على صفة واحدة.

١٢ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾

وأنّا نعتقد أن الله محيط بنا، ونحن تحت سلطانه، فلن نفوته إذا شاء أن يهلكنا في الأرض، ولن نقدر على الهرب في السماء من بطشه.

١٣ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾

وأننا لما أنصتنا للقرآن صدقنا به أنه من عند الله، فمن يؤمن بألوهية ربه، فلا يخشى نقصًا من حسناته، ولا زيادة في سيئاته، فالله لا يظلم أحدًا.

١٤ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾

وأنّا منّا المنقادون لطاعة الله، الخاضعون له، ومنّا الجائرون الذين حادوا عن الصراط المستقيم، فمن أطاع الله واتبع رضوانه، فهؤلاء سلكوا طريق الحق، وهم الذين اهتدوا بهدى الله، وآمنوا به واتبعوا رسله، فهم الأبرار؛ لأنهم اجتهدوا في حسن الاختيار.

(١٥) ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

وأما الجائرون عن الطريق المستقيم، فهم من أصحاب الجحيم، يصلون حَرّها ويعانون عذابها، فالعدل أن من كذَّب في النار يُعذّب.

(١٦) ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾

ولو أن كفار الإنس والجن استقاموا على طاعة الله، وأخلصوا له العبادة، وأحسنوا الاتباع لرسوله ولم يحيدوا عن سبيله؛ لأنزل الله عليهم من السماء غيثًا مدرارًا، ولرزقهم رزقًا هنيئًا، فعاشوا في عيش رغيد، وعمر سعيد.

(١٧) ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

لنختبرهم ولنعلم من يشكر ومن يكفر، فمن صدَّ عن طاعة الله وغفل عن عبادته ونسي ذكره أدخله الله العذاب الشديد، وأهانه في الآخرة بإدخاله نار جهنم.

(١٨) ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾

وأن المساجد يُعبد فيها الله وحده، فلا تجوز عبادة غير الله، ولا صرف شيء من العبادة لغيره، فأخلصوا له الطاعة من عبادة ومسألة وخوف ورجاء، فإن المستحق لها هو الله وحده.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾

وأن رسول الله ﷺ لما قام ليلة الجن يصلي لربه اجتمع الجن حوله صفوفًا متراصة حتى أوشكوا أن يلتصقوا بالرسول ﷺ من شدة حرصهم على السماع.

(٢٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾

قل لهؤلاء الكفار: إنني أعبد الواحد القهار، ولا أُشرك في عبادته أحدًا، بل أُوحِّد له الطاعة أبدًا، فهو أحق أن يُعبد، وهو أهل أن يُوحَّد.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

قل للكفار: أنا لا أستطيع أن أجلب لكم نفعًا ولا أدفع عنكم ضرًا، ولا أضلكم ولا أهديكم، فكل ذلك لله وحده، إنما أنا نذيرٌ بعذاب، وبشير بثواب.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾

قل: لن يمنعني من عذاب الله أحدٌ إن عصيته، ولا أجد ملجأ أفرُّ إليه من العذاب غير الله، فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فليفر العبدُ إليه، وليعتمد عليه.

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

ولكن الذي أقدرُ عليه وأستطيعهُ هو الدعوةُ إلى الله، وتبليغ دينه، وإيصال رسالته التي ائتمنني على تبليغها، ومن عصى الله وخالف الرسول، فمأواه جهنم في العذاب المؤبّد جزاءً على جُرمه.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾

حتى إذا أبصر الكفار النار التي وُعِدوا بها في هذه الدار، حينها يعلمون من هو الضعيف الذي لا ناصر له، والقليل الذي لا جند معه، فهم الأضعف والأذل والأقل، والله الأقوى والأعز والأكثر.

(٢٥) ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾

قل - أيها النبي - للكفار: ما عندي علم بوقت العذاب الذي وُعدتم به، أقريب نزوله بكم أم بعيد وقوعه، فأنا منذرٌ بوقوعه ولستُ مخبرًا بوقته.

٢٦ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾

وهو - سبحانه - الواحد القهار عالم ما غاب عن الأبصار، فلا يُطْلِع على الغيب أحدًا من البشر، وعلم ما ظهر وما استتر، وما أعلن وما أسر.

٢٧ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾

إلا من اصطفى من خلقه لرسالته فإنه يطلعه على بعض علم الغيب، ويحفظ ما أمام الرسول ﷺ وما خلفه من الجن بملائكة؛ لئلا يسترق الجن شيئًا من الوحي فيوحونه إلى أوليائهم من الكهنة والعرافين.

٢٨ ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾

ليعلم النبي أن الأنبياء قبله قد أُوحي إليهم مثلما أُوحي إليه، وبلّغوا الرسالة بصدقٍ وأمانة، وأن الله حفظه مثلما حفظهم من الجن، وأن الله علم علمًا تامًا، سرًا وجهرًا، ما عندهم من الشرائع والأحكام وغيرها، وأنه - سبحانه - أحصى كل شيء بعدده، لا يعزبُ عنه شيء، فهو عالم كل معلوم، وأحصى كل معدود، علم الكيفية، وأحصى الكميّة.

مكية

ترتيبها ٧٣ آياتها ٢٠

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾

يا أيها المتغطي بثيابه، وهو النبي ﷺ لما جاءه جبريل بغار حراء، فرجع إلى أهله خائفًا يقول: زمّلوني زمّلوني.

٢ ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

قم للصلاة في الليل إلا يسيرًا منه؛ لأن صلاة الليل عون على أعباء الدعوة ومتاعب الحياة، وهي من أعظم القربات إلى الله.

٣ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾

قم - أيها النبي - نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً حتى تصل إلى الثلث؛ ليبقى وقت للنوم والراحة، فقيام الليل كله متعبٌ وهو خلاف الأولى.

٤ ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾

أو زد - أيها النبي - على نصف الليل حتى تصل إلى الثلثين، وتمهَّل في قراءة القرآن تمهّلاً يوصلك إلى تدبر القرآن وتفهُّمه.

٥ ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾

إنا سنوحي إليك - أيها النبي - قرآنًا عظيمًا حاويًا أوامر ونواهيَ وأحكامًا جليلة، وآدابًا شريفة.

٦ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾

إن الصلاة التي تنشأ بعد نوم من الليل هي أقوى تأثيرًا في القلب، وأكثر موافقةً بين السمع والقلب لفراغ القلب من هموم الحياة.

٧ ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾

إن لك في النهار فراغًا طويلاً لطلب المعاش والقيام بالدعوة والإصلاح، فاجعل الليل خالصًا لربك مخصوصًا لنفسك في العبادة.

٨ ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾

وأكثر من ذِكر ربِّك بالأذكار والأدعية الشرعية، وانقطع إليه انقطاعًا تامًا في العبادة بإخلاص العمل وصدق التوجه، وعظيم المراقبة.

٩ ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾

هو خالق المشرق والمغرب ومالكهما، لا معبود بحقٍ سواه، ولا يستحق العبادة إلا هو، ففوِّض الأمر إليه، واعتمد عليه.

١٠ ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾

واصبر - أيها النبي - على ما يقوله الكفار من الأقوال الآثمة الكاذبة فيك وفي دعوتك، وأعرض عنهم، ولا تنتقم منهم، ولا تشتك لغير الله.

١١ ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾

ودعني - أيها النبي - ومن كَذَّبَ برسالتك من أهل الترف والبذخ وانتظر قليلاً من العمر عذابًا يحل بهم، فكل ما هو آت قريب، وسوف يقع بهم عذاب الله.

١٢ ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾

إن عندنا للكفار في النار قيودًا ثقيلة، وأغلالاً شديدة، ونارًا محرقة؛ جزاءً على فعلهم الشنيع.

١٣ ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾

وعندنا لهؤلاء الفجار طعامًا منغصًا يعلق في الحلق، ويصعب ابتلاعه، ولا يُستساغ، ومعه عذابٌ موجع لا يُطاق ولا يُستطاع.

١٤ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾

يوم تهتز الأرض والجبال اهتزازا عنيفًا، وتزلزل زلزالاً قويًا، وتصير الجبال من الهول ترابًا متناثرًا، وهباءً منتثرًا بعد صلابتها، هذا كله يوم تقوم الساعة.

١٥ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾

إنا أرسلنا إليكم محمداً ﷺ يشهد على أعمالكم من كفرٍ وإيمان، وطاعةٍ وعصيان، مثلما أرسلنا موسى إلى فرعون يدعوه ويشهد عليه.

١٦ ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾

فكذّب فرعون موسى ولم يؤمن به، فأهلكنا فرعون وقومه ودمَّرناهم تدميرًا بإغراقهم في اليم، وفيه تهديد لكفار مكة.

١٧ ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾

فكيف تقون أنفسكم - إذا كفرتم - بالله عذاب الله يوم القيامة، الذي من هوله يصبح الأطفال الصغار شيباً، فهذا الرضيع يشيب بلا ذنب، فماذا يفعل الفاجر يوم الكرب؟!!

١٨ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾

السماء يوم القيامة متشققة من هوله، كان وعد الله به كائنًا لابد منه، حاصلاً لا راد له.

١٩ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

إن هذه العظات من التخويف والترهيب عبرةٌ للبشر، فمن أراد اعتبر وازدجر، واتخذ الطاعة طريقًا، والعمل الصالح وسيلةً للنجاة من غضب الله والفوز برضوانه.

٢٠ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾

إن ربك - أيها النبي - مطلع على تهجدك بالليل أقل من ثلثيه، وتقوم نصفه حينًا، وتقوم ثلثه حينًا آخر، ويقوم معك نفرٌ من أصحابك، والله وحده يعلم حساب ساعات الليل والنهار ما مضى وما بقي، وعلم الله أنكم لا تستطيعون قيام كل الليل فيسَّر عليكم بقيام ما تيسر، فاقرؤوا وصلوا على قدر طاقتكم، وعلم الله أنه سوف يقعد بعضكم المرض عن قيام الليل، وعلم بوجود جماعة منكم مسافرين في الأرض للتجارة، ويشق عليهم قيام الليل، وجماعة مجاهدين لإعلاء كلمة الله يرهقهم الجهاد عن التهجد، فعليكم بما تطيقون من صلاة وتلاوة؛ فالدين يسر، وداوموا على الصلاة المكتوبة، وأدّوا الزكاة المفروضة، وأنفقوا في وجوه الخير، وكل شيء تفعلون من البر لوجه الله تجدونه في صحائف الأعمال يوم القيامة، وهو خيرٌ مما أنفقتم في شهوات الدنيا، وأعظم ثوابًا وأجلُّ نفعًا، فاسألوا الله مغفرته، واطلبوه رحمته، فإنه يغفر الذنوب، ويرحم من يتوب ويتجاوز عن الخطايا لمن عاد إليه صادقًا.

مكية

ترتيبها
٧٤

سورة المدثر

آياتها
٥٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾

يا أيها المتغطي بثيابه، وهو النبي الكريم ﷺ بعدما عاد من غار حراء خائفًا فدثروه بالملابس.

(٢) ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾

قم من مرقدك وحذِّر قومك عذاب ربِّك وادعهم إلى التوحيد، وخوِّفهم العذاب الشديد إن هم خالفوك وعصوا أمرك.

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾

وعظِّم ربَّك وحده بتوحيده وتنزيهه عن الأضداد والأنداد، وداوم على ذكره، ووصفه بما وصف به نفسه والذل له.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾

وطهِّر ثيابك من النجاسات، ودينك من المعاصي والمخالفات، وتوحيدك من الشركيات؛ لتكون نقيًا من كل ذنبٍ وعيب.

(٥) ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾

واهجر الشرك كله من عبادة الأصنام والأوثان وكل ما عُبد من دون الرحمن، وأخلص توحيدك للواحد الديان.

(٦) ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾

لا تهب الهبة لتُعطى أكثر منها، ولا تمنَّ بالعطية فتؤذي صاحبها وتظهر كثرة عطائك وكرمك على الناس.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾

واصبر لوجه الله على أداء الطاعة واجتناب المعصية، وتحمَّل المصيبة طالبًا الثواب من الله وحده.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾

فإذا نُفخ في القرن نفخة البعث والنشور حينها يشتد الخطب، ويعظم الكرب؛ لأن الأمر صعب.

(٩) ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾

فذاك اليوم يوم عسر، وموقف خطر؛ لكثرة أهواله، وشدة فزعه، وعظيم ما يحصل فيه من أمور.

(١٠) ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

فهو يوم شديد على الكفار لما يشاهدونه من أخطار، حينها يناقشون الحساب، ويذوقون العذاب، وينـزل بهم العقاب.

(١١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

دعني أنا ومن أوجدته من بطن أمه وحيدًا فريدًا فقيرًا، لا مال ولا ولد، والمراد به الوليد ابن المغيرة المكذب بالرسالة.

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾

ووهبته مالاً كثيرًا وفيرًا واسعًا بعدما خرج إلى الحياة مملقًا معدمًا، فأغنيتُه بما أعطيته.

(١٣) ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾

ورزقته أولادًا حضورًا معه في مكة، لا يغيبون عن خدمته، قد أعطيتهم ما أغناهم عن السفر للمعاش.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾

وسهَّلتُ له طرائق الرزق تسهيلاً، ويسَّرتُ له أسباب المعاش حتى كثُر ماله وعظم جاهه.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

ثم يأمل بعد هذا العطاء زيادة الغنى من المال والنعم، والخدم والحشم، فهو كثير الطمع والجشع، لا يشبع.

(١٦) ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾

ليس الأمر كما يظن هذا الكافر الأثيم لا أزيده على ما أعطيتُ؛ لأنه عاند الحق، وجحد الصدق، وحارب الرسالة.

(١٧) ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

سأكلفه المشاق من النكال والإرهاق، وأبتليه بأشد المصاعب من كربات وأزمات لا راحة له منها.

(١٨) ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

إنه فكَّر في نفسه وهيأ كلامًا يطعن به في القرآن، فهو معدّ للسوء، متعمد له، مترصِّد للإثم.

(١٩) ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

فلعن وهلك وغلب وقهر كيف هيأ في نفسه هذا الطعن؟ وكيف أضمر هذا السوء وما حمله على ذلك؟

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

ثم لعن وهلك كيف هيأ هذه الإساءة، وحَبَكَ هذا الطعن، وما الذي جرَّأه على هذا الطعن؟

(٢١) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾

ثم نظر فيما قدّر، وفكَّر فيما أضمر، فهو أجال رأيه ليبحث عن مطعن، وأعمل فكره ليلتمس عيبًا.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾

ثم قطَّب وجهه وكلح به لما عجز أن يجد مغمزًا، فقبح وجهه وساء لما ضاقت به الحيلة في العثور على عيب.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾

ثم أعرض عن الصواب، واستكبر عن الحق، فهو مُدْبرٌ عن الهدى، متعاظم أن يعترف به، رفضه لمَّا أتاه، وكرهه وأباه.

(٢٤) ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾

وقال عن القرآن: هذا سحر يتعلم من الأوائل وينقل عمن سبق، فهو مأخوذ بالتلقي، متعلَّم بالتلقين.

(٢٥) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

ما هذا القرآن إلا كلام الناس أخذه الرسول ﷺ من أفواه الرجال، وليس وحيًا؛ كذبًا منه وزورًا.

(٢٦) ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾

سأُدخله النار تحرقه بلهبها وتصليه بحرِّها يتقلب على وقودها، ويُشوى في جحيمها.

(٢٧) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾

وما أعلمك أي شيء هذه النار؟! إنها فوق الوصف عذابًا وألمًا، وإنها فوق الخيال نكالاً وضنكا.

(٢٨) ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾

لا تُبقي لحمًا ولا تترك عظمًا، لا تبقي بشرًا ولا تترك أثرًا، تحرق الأجسام، وتذيب الأجرام.

(٢٩) ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾

تغير البشرة، وتسوِّد الجلود، تحرق الجسم وتشوي اللحم، يصبح فيها الإنسان فحمًا والبشر حممًا.

(٣٠) ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾

يتولى أمرها ويشرف على شأنها تسعة عشر ملكًا من الزبانية الأشداء، والجبابرة الأقوياء.

(٣١) ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۚ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾

وما جعلنا خزنة النار إلا كل ملك غليظ جبار، وما جعلنا ذلك العدد إلا امتحانًا لمن كذَّب وجحد، ليقع اليقين لليهود والنصارى أن ما جاء به القرآن موافق لما نزل عليهم في كتبهم من الرحمن، فيعظم لديهم الإيمان، ويزداد المؤمنون بذلك تصديقًا ورسوخًا في اليقين وتحقيقًا، ولا يشك في صحة ذلك الذين نزل عليهم الكتاب من اليهود والنصارى ولا من آمن بالله ورسوله، وليتحدث أهل الكفر والنفاق والريبة والشقاق عن سرِّ العدد المتعجب منه، وماذا أراد الله باختيار هذا الرقم؟ وبمثل هذا الذي نزل يضل الله من أراد ضلاله، ويهدي من أراد هدايته، فالقرآن هداية لأهل الإيمان، وخسار لأهل الكفر والطغيان، وما يعلم ذاك العدد من الملائكة إلا الواحد الأحد، وما النار إلا تذكرةٌ لأولي الأبصار، وعبرةٌ لأهل الاعتبار، وموعظةٌ لمن خاف الواحد القهار.

(٣٢) ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾

ليس الأمر كما ذكروا من التكذيب، وأُقسم قسمًا بالقمر وهو آيةٌ باهرة على حسن الصنع، وبديع الإتقان.

(٣٣) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾

وأقسمُ قسمًا بالليل إذا ذهب بظلامه، وولَّى بسواده بعد أن غطَّى العالم بجلبابه، وستر الدنيا بثيابه.

(٣٤) ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾

وأقسمُ قسمًا بالفجر إذا أضاء، وانبلج بالسَّناء، وأقبل بطلعته البهيَّة، وإشراقه الزاهي، ووجهه الأغر.

(٣٥) ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾

إن النار لإحدى الدواهي الكبار، فهي من عظائم الأمور، ذِكْرُها يقصم الظهور، وتضيق من هولها الصدور.

(٣٦) ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾

وهي تخويف للعباد؛ ليتهيؤوا ليوم المعاد، ففي ذِكر النار من الإنذار ما يخلع قلب كل مستكبرٍ جبار.

(٣٧) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾

لمن أراد أن يتقرب بفعل الطاعات، أو يتأخر بعمل المحرمات، فالمصدق يتقدم بصلاحه، والمكذب يتأخر بفساده.

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾

كل نفسٍ محبوسة بما عملت، مرهونةٌ بما اكتسبت، لا تُطلَق حتى تؤدي الحقوق، ولا تُفك حتى تتخلص من الواجبات والتبعات.

(٣٩) ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾

إلا الصادقين من المؤمنين، فكوا الرقاب باتباع السنة والكتاب، وأعتقوها بفعل ما صلح من الأسباب.

(٤٠) ﴿ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

نزلوا جنّات النعيم، في خير حالٍ وأحسن مآل، وراحة بال، يسأل بعضهم بعضًا زيادةً في الإيناس والبهجة.

(٤١) ﴿ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

يسأل المؤمنون في الجنة أصحاب النار من الكفار، وهذا زيادةٌ في غبطة أصحاب الجنة ممن رأى المعذب وهو سالم اغتبط، وبضدها تتميز الأشياء.

(٤٢) ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴾

ما العمل الذي أُدخلتم بسببه النار؟!! وهذا زيادة في إيلام الفجار، فإن المُعذَّب إذا سُئل عن سبب عذابه زاد ألمه.

(٤٣) ﴿ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾

قال المجرمون للمؤمنين: دخلنا النار لأننا لم نكن نصلِّي في الدنيا.

(٤٤) ﴿ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴾

وما كنَّا نتصدق على الفقراء، ولا نعطي المساكين، فهم مع ترك الصلاة منعوا الزكاة التي أمر الرسول ﷺ بقتال الناس حتى يقوموا بهما.

(٤٥) ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴾

وكنَّا في الدنيا نتحدث بالآثام في كل كلام حرام، من باطل وزور وكذب وفجور وغواية وضلالة.

(٤٦) ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

وكنا ننكر يوم القيامة يوم الجزاء والحساب، ونرى أنه لا يقع، وأن كل خبر بحصوله كذب.

(٤٧) ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾

حتى جاء الموت بالسكرات، ونحن في تلك الضلالات، جاحدين بالبعث والنشور، حتى فاجأنا قاصم الظهور.

(٤٨) ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾

فما تمنعهم من العذاب شفاعة الأنبياء والملائكة والصالحين؛ لأن الله لم يأذن لأحد أن يشفع لهم، والله لا يرضى عن هؤلاء الفجار.

(٤٩) ﴿ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴾

فما لهؤلاء الفجار الكفار انصرفوا عن الاتعاظ بالقرآن، وأعرضوا عن تدبر الفرقان.

(٥٠) ﴿ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴾

كأنهم في فرارهم من سماع القرآن حمر وحشية؛ لجامع البلادة والبهيميّة، وطيش الأحلام، وسفه العقول، ووجود الجموح والإعراض.

(٥١) ﴿ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴾

هربت من أسد كاسر، وفرَّت من ليث غادر، فأخذت تفرُّ أمامه في غاية السرعة، فهؤلاء لما سمعوا بالرسالة نفروا من قبولها.

(٥٢) ﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴾

بل يطمع كل واحدٍ من المشركين أن ينزل عليه قرآن من السماء منشورًا مثلما نزل على الرسول ﷺ، وأنَّى لهم ذلك، فالرسالة اصطفاء، والوحي اجتباء، وليس بالتشهي.

(٥٣) ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾

ليس الأمر كما ادعوا، ولكن الصحيح أن سبب كفرهم أنهم لا يخافون عذاب الآخرة، ولا يؤمنون بالبعث والنشور، فحملهم هذا على الكفر والفجور.

٥٤ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾

حقًا إن القرآن موعظة عظيمةٌ، وحجةٌ بالغة، وذِكرٌ لمن كان له قلبٌ يوقظه أجلُّ النصائح، وأشرف الوصايا.

٥٥ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

فمن أراد الانتفاع به انتفع، ومن أحبَّ أن يتعظ بمواعظه فعل، فلا إكراه في الهدى، فمن شاء اهتدى، ومن شاء تردى.

٥٦ ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾

وما ينتفعون بمواعظ القرآن إلا بمشيئة الرحمن، ولا يهتدون بهداه إلا إذا أراد الله، فالله وحده أهلٌ أن يُتقى ويُطاع، وأهلٌ أن يغفر لمن أطاع، فحقه أن يُوحَّد، وأن يُعبد، وحق الموحِّد عليه ألا يعذبه بل ينعم ويسعد.

مكية

ترتيبها ٧٥

سورة القيامة

آياتها ٤٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾

أقسم قسمًا بيوم الجزاء والحساب، وزمن الثواب والعقاب، يوم تقوم الساعة ويقع الفصل بين الناس.

٢ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾

وأقسم بالنفس المؤمنة التقية التي تلوم صاحبها على التقصير في الطاعة وفعل المعصية، فيندم ويتحسر لتأنيبها له.

٣ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾

أيظن الكافر إذا تفتت عظامه في المقابر، أن الله على جمعها ليس بقادر، استبعادًا منه لليوم الآخر؟

٤ ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾

بلى سيجمعها الذي خلقها أول مرة، وسيعيدها كما بدأها، والله قادرٌ على أن يجمع بنان الأصابع وهو أصغر الأعضاء الدقيقة، فكيف بالكبار، فإعادتها أيسر، والكل عليه يسير سبحانه.

٥ ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾

ولكن الإنسان يريد أن يبقى على الجحود فيما يستقبل من أيام عمره، ويستمر على الفجور حتى أمام ما ينتظره من أهوال.

٦ ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾

يسأل الكافر المنكر: متى هذه القيامة؛ استبعادًا وجحودًا وهي قريبة النزول، وشيكة الوقوع، وهم في غفلة عنها.

٧ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾

إذا تحيَّر البصر، ودهش الفكر، وأصاب الإنسان ذهول، وغطَّى على الرؤية ما حجبها من مشاهد الفزع.

٨ ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾

وذهب نور القمر، وانطمس ضياؤه، واسود سناؤه، فأظلم وجهه إيذانًا بقيام الساعة.

٩ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾

وألّف بين الشمس والقمر، فطلعا من الغرب مظلمين أصابهما الخسوف، ومحقهما الكسوف ساعة الفزع والخوف.

١٠ ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾

حينها يصيح الإنسان لما شاهد تغير الأكوان، أين المهرب من العذاب؟ أين المفر من يوم الحساب؟

(١١) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾

ليس هناك مفر - أيها الإنسان - ولا ملجأ ولا منجى مما قدَّره الرحمن، فالمفر إلى الله، والجمع عنده والحساب لديه .

(١٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾

إلى الله وحده منتهى الخليقة، ومصير البشر، ومرد الجميع؛ ليحاسب كلاً بما فعل من خير وشر.

(١٣) ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

حينها يُخبر الإنسان بما عمل في الدنيا من صلاح وفساد، وما قدّمه أمامه من أعمال وما خلفه بعده من أولاد ومال.

(١٤) ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾

بل الإنسان يشهد على نفسه، فجوارحه تنطق بما فعل، فهو خصيم نفسه، وعلمه حجيجه، وأعضاؤه خصومه.

(١٥) ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾

ولو حضر واعتذر بكل ما يقدر عليه من المعاذير فلن تنفعه؛ لأن الحجة قامت عليه، فلن يُقبل عذره.

(١٦) ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾

لا تحرك - أيها النبي - بالقرآن لسانك؛ لتتعجل حفظه، وتبادر النسيان خوفًا أن يضيع منك القرآن.

(١٧) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾

فالله متكفل لك بجمع القرآن في صدرك، وأن تقرأه بلسانك في ليلك ونهارك بلا نسيان.

(١٨) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾

فإذا تلا جبريل عليك القرآن فاستمع لتلاوته، وأنصت لقراءته. وفيه أن القرآن يؤخذ بالتلقين من العالم.

(١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

ثم إن الله تكفل بتوضيح ما أشكل من القرآن على الرسول ﷺ، وتفهيمه ما أُبهم، وبيان ما أجمل من المعاني والأحكام.

(٢٠) ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾

ليس الأمر كما ادعيتم؛ لكنكم تحبون الدنيا وزينتها، وتؤثرون شهواتها، وهي عاجلة لسرعة انقضائها وتصرُّمها وقصر عمرها.

(٢١) ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾

وتتركون العمل للآخرة، وتغفلون عن الاستعداد لها بالعمل الصالح، متشاغلين باللهو واللعب.

(٢٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾

وجوه المؤمنين يوم القيامة مشرقة مسفرة، حسنة ناعمة، قد سطع عليها النور، وجللها السرور .

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

ترى الله - سبحانه - بالأبصار إكرامًا منه -سبحانه- لهم على حسن الأعمال، فلا يجدون لذةً أعظم، ولا سرورًا أتم من رؤيتهم لربهم جل في علاه.

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾

ووجوه الكفار في ذاك اليوم عابسة مسودة كالحة، غشيتها غبرة الذل والصغار، وغطتها قترة الخوف والعار.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

تتوقع أن تنزل بها داهية من الدواهي تقصم فقار الظهر؛ لهول ما تشاهد ولسوء أفعالها، فهي تنتظر أشد العذاب وأفظع العقاب.

(٢٦) ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾

حقًا إذا بلغت الروح أعلى الصدر وهي الترقوة، حينها يشتد الكرب، ويعظم الخطب، وهي لحظة السكرات والكربات.

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ﴾

وقال بعضهم ممن حضر الميت وهو في النزع: هل من راقٍ يرقيه، وطبيب يشفيه مما هو فيه؟ والحقيقة أن لا راقيًا ينفع، ولا طبيبًا يدفع.

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾

وأيقن المُحْتَضَرُ وهو في سياق الموت بالفراق والفوت، وتأكد من الرحيل لما بارت الحيل في دوائه، وبطلت الوسائل في علاجه.

(٢٩) ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾

وتتابعت عليه الشدائد، وتوالت عليه المصائب، واتصلت شدة الدنيا بشدة الآخرة، واصطكت ساقاه عند نزول الموت.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾

إلى الله المعاد، وإليه يُساق العباد؛ ليقع الحساب، ويكون الفصل، ويتم الجزاء العادل لكل عامل.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾

فلا صدَّق بكتاب الله، ولا صلى لله، فأضمر التكذيب، وأظهر العصيان، فمعتقده باطل، وعمله فاسد، فهو قبيح الباطن والظاهر.

(٣٢) ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان، فردُّه أقبح رد، وفعله أسوأ فعل، جحد بالرسالة، واختار الضلالة.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾

ثم سار إلى أهله في الدنيا متكبرًا متجبرًا مغتبطًا بدنياه، تبختر في مشيته، وعظم في نفسه؛ لعدم الخوف من ربه.

(٣٤) ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾

ويلٌ لك ثم ويلٌ، وهلاك بعده هلاك، وهو تهديد ووعيد بالعذاب الشديد والعقاب الأكيد.

(٣٥) ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾

ثم ويل لك بعد ويل، وهلاك يتبعه هلاك، ودمار وعار وشنار، وخلود في النار لكل كافر جبار.

(٣٦) ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾

أيظن الإنسان أنه سوف يُترك هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يُعاقب، بل لابد له من شريعة يعمل بها، ودين يتحاكم إليه.

(٣٧) ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾

أما كان الإنسان في أول النشأة نطفةً ضعيفة من ماء مهين، فلماذا لا يتفكر في هذا الأصل؟ ويتدبر ويشكر ولا يكفر ويدع التكبر.

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾

ثم جعله الله علقة من دم جامد مخلقة بقدرته وتمام حكمته، وسوى صورته وأبدع شكله في أحسن تقويم.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾

فجعل الله من الإنسان صنفين: الذكر والأنثى ليدوم التوالد، ويحصل النماء، وتستمر الخليقة في البقاء.

(٤٠) ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾

أليس الله الذي خلق الإنسان وصوَّره في أطوار بقادر على إعادته بعد موته، وبعثه بعد فنائه؟ بلى والله، إنه لقادر، ونحن على ذلك من الشاهدين.

مدنية

ترتيبها
٧٦

سورة الإنسان

آياتها
٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾

أما مرَّ على الإنسان زمن طويل قبل أن تنفخ فيه الروح، لم يكن خلقًا يُذكر ولا شيئًا يُعرف، ولا يوصف، فلا خبر له ولا أثر؛ لأنه في عالم العدم.

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾

إن الله خلق الإنسان من نطفة مختلطة من ماء الرجل والمرأة، وهذا الماء هو أصله، فامتحناه بالشريعة واختبرناه بالأمر والنهي، فهيأناه لذلك بالسمع لسماع الآيات، وبالبصر لرؤية الدلالات، فصار مستعدًا للفهم قابلاً للعلم.

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

والله وضّح له طريق الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر؛ ليكون شاكرًا لنعم الله بالإيمان، أو كافرًا جاحدًا معرضًا عن الهدى والقرآن.

(٤) ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾

والله هيأ للكفار قيودًا من حديد تُربط بها أرجلهم مصفَّدين، وأغلالاً تُشد بها أيديهم إلى أعناقهم مغلولين، ونارًا تحرقهم مقيدين، فلكل عضوٍ حصته من العذاب، وحقه من العقاب.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾

إن الصادقين المخلصين الطائعين لرب العالمين يشربون من خمرٍ ممزوجة بالكافور، وهي من أحسن الطيب؛ ليكون له لذةٌ، ولطعمه مذاقٌ؛ زيادةً في النعيم.

(٦) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

وهذا الشراب الممزوج بالكافور من عين تفور، يتصرف فيها الأبرار، ويجرونها لكل قصرٍ ودار، تطاوعهم في الانسياب معهم في كل مسار.

(٧) ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾

ومن أوصاف هؤلاء الأبرار أنهم يؤمنون بما أوجبوه على أنفسهم من طاعة الله، ويؤدون ما التزموه من النذور، ويخافون العقاب يوم الحساب، يوم يكون الهول خطيرًا، والكرب كبيرًا، فشا شرُّه وانتشر، وعظُم خطبه وكبُر على من جحد وكفر.

(٨) ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

ويُطعمون المساكين والأيتام والأسرى طعامهم مع حبهم الشديد لهذا الطعام؛ لجودته وحاجتهم إليه، ولكن آثروهم على أنفسهم طلبًا لمرضاة ربهم.

(٩) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾

ويستحضرون في أنفسهم النية الخالصة، فهم إنما يُحسنون لهؤلاء ابتغاء ما عند الله من الأجر العظيم، ولا يريدون منهم ثوابًا على هذا الطعام، ولا حمدًا ومدحًا على هذا الجميل.

(١٠) ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾

إنا نفعل الخير خوفًا من يوم عظيم، عذابه شديد، تعبس فيه الوجوه، وتتقطَّب فيه الجباه؛ لهوله فالمناظر كالحة، والطلعات مسوّدة إلا من رحم الله.

(١١) ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾

فحماهم الله شدائد ذاك اليوم، وجنبهم أهواله، ونجاهم من كرباته، ومنحهم جمالاً وبهاءً في المنظر، وسرورًا في المخبر، فالوجوه بهيجة، والقلوب مسرورة.

(١٢) ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

وأثابهم بسبب صبرهم على الطاعات والمكاره، وصبرهم عن المعاصي، جنةً راضية، ومقعد صدقٍ آمن، آكلين شاربين منعمين يلبسون الحرير، ويتكئون عليه ويفترشونه.

(١٣) ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾

متكئين على الأسرة الوثيرة الناعمة المزينة بأجمل الألوان، وأبهى الصور، لا يجدون في الجنة حر الشمس، ولا برد الزمهرير، بل هو جو معتدل، وهواء لطيف، وظلٌّ وارف.

(١٤) ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾

وقريبة منهم أغصان الأشجار، يستظلون بها تتعطف عليهم الأفنان، وسهلت لهم الثمار في التناول على أي حالٍ أرادوا من اضطجاع أو قعود أو قيام.

(١٥) ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾

ويطوف عليهم الغلمان بأواني الطعام، وأكواب الشراب، فالخادم منعَّم مهذب قريب، والطعام لذيذ شهي، والشراب ماتع، والآنية فاخرة جميلة من زجاج الفضة.

(١٦) ﴿ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾

وهذه الآنية من زجاج الفضة على قدر شرب الشارب قدرها الساقي بحسبان، لا زيادة ولا نقصان، وهذا ألذُّ شيء لدى الإنسان.

(١٧) ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾

ويُسقى هؤلاء البررة كأس خمر، مُزجت بالزنجبيل، يأخذ طعمها بالألباب، سُرت بها النفوس، وفاحت في الأنوف، وضُوعت في المكان.

(١٨) ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾

يشرب الأبرار من عين اسمها سلسبيل؛ لسهولة الشراب، وسلامته من الكدر، ويُسّر تناوله، وسرعة مساغه.

(١٩) ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾

ويدور على الأبرار غلمان دائمون في النعيم، إذا أبصرت حسنهم وجمالهم ظننتهم اللؤلؤ البرّاق المضيء؛ لصفاء الألوان، وإشراق البشر، وبياض الأجسام.

(٢٠) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾

وأينما نظرت في أي مكان من الجنة رأيت النعيم المقيم، والملك العظيم، خلود دائم، وسرور مستمر، وبهجة وقرة عين.

(٢١) ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

على أبدانهم ثياب من حرير رقيق أخضر يلي الأجسام، وظاهرها حرير سميك، وفي أيديهم أسورة من فضة، وشرابهم طاهر لا رجس فيه ولا نجس ولا دنس، كمل اللباس، وجمل المكان، وحسن الشراب ولذ.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾

ويهنؤون، فيُقال لهم: هذا ما أُعدّ لكم ثوابًا على أعمالكم الصالحة، وكان سعيكم مقبولاً مرضيًا، فطوبى لكم بهذا الإنعام ومزيد الإكرام، وطيب الكلام.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾

أخبر - سبحانه - أنه نَزَّل كتابه القرآن الحكيم على نبيه الكريم، وأنه وحي من عنده، وهو كلامه المحكم، وقد نزلّه منجمًا.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾

فعليك بالصبر على ما حكم الله به، وقدر من قضاء قدري وشرعي ولا تتبع من انغمس في الشهوات، وتهالك في المحرمات، وكفر بالرسالات والآيات البينات.

(٢٥) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

وداوم على ذكر الله أول النهار وآخره؛ لأنها البداية والنهاية، ففي أوله قوة وعون، وفي آخره استغفار وتوبة.

(٢٦) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾

وصل لربك متنفلاً واذكره كثيرًا في وقت طويل من الليل، فتطوع الليل أفضل من تطوع النهار، وهذا هو الزاد في طريق المصاعب والمشاق.

(٢٧) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾

إن هؤلاء الكفار يحبون الدنيا ويقدمونها على الآخرة، ويعملون لها فحسب، ويتركون خلف ظهورهم الاستعداد للآخرة، ولا يسعون إلى النجاة من أهوال ذاك اليوم العظيم.

(٢٨) ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾

والله وحده هو الذي خلقهم من العدم، وصوّرهم وأحكم خلقهم، وإذا أراد هلاكهم لا يمنعه من ذلك أحد، ويأتي بأطوع له منهم وأعبد لربه من هؤلاء الفجرة.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

إن هذه السورة الكريمة فيها موعظة عظيمة، فمن أراد النجاة سلك طريق الطاعة إلى الله ليصل إلى رضوانه والفوز بجنانه.

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

ولا يريد العباد أمرًا من الأمور إلا بقضاء من الله وقدره، ولا تتم مشيئتهم إلا بمشيئة الله، إن الله عليم بالأعمال والأحوال والأقوال، حكيم في التدبير والتصوير والتقدير.

(٣١) ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾

يدخل من أراد من العباد في رحمته بعمل ما يحبه، وفعل ما يرضاه، أما الظالمون المتجاوزون للحدود العاصون للمعبود، فقد هيأ لهم عذابًا موجعًا ونكالاً شديدًا.

مكية

ترتيبها
٧٧

سورة المرسلات

آياتها
٥٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾

أقسم الله - تعالى - بالرياح إذا هبت بعضها يتبع بعضا؛ كعرف الفرس في التتابع، وهو الذي أرسلها.

٢ ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾

وأقسم - سبحانه - بالريح شديدة الهبوب، عنيفة السير التي تعصف بما يقابلها وتهلكه وتدمره، وهي أعتى الريح.

٣ ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾

وأقسم بالرياح التي تنشر السحاب وتسوقه وتفرقه ليُسقَى به بلد ميت، وهي تنشر الأمطار في الأقطار.

٤ ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾

وأقسم - تعالى - بالملائكة التي تأتي بالوحي تفرِّق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والإيمان والكفر.

٥ ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾

وأقسم - سبحانه - بالملائكة التي تلقي الوحي من الله إلى الأنبياء، وسُمي ذكرًا لشرفه؛ ولأنه يذكر الغافل واللاهي والناسي.

٦ ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾

والذكر فيه إعذار من الله إلى الخليقة، وقطع احتجاجهم بعدم الإرسال، وإنذار لهم من عذاب شديد إن لم يؤمنوا.

٧ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾

إن الذي تُوْعَدُونه من القيامة وما فيها من مشاهد وأحداث، كائن لا محالة، وحاصل لا راد له.

٨ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾

فإذا النجوم أظلمت، وذهب ضياؤها فأصبحت مسودة إيذانًا بقيام الساعة.

٩ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾

وإذا السماء تصدَّعت وتشققت فصارت أبوابًا، وذهب هذا السقف المحكم والبناء الشديد.

١٠ ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾

وإذا الجبال دُكَّت وتناثرت في الهواء كالهباء، وتطايرت في السماء كالسراب في الصحراء.

١١ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾

وإذا الرسل وقِّت أو قُرِّر أو عُيِّن لهم أجل معلوم للحكم بينهم وبين الأمم، فأي يوم عظيم هذا اليوم الذي صار وقتًا للرسل؟!!

١٢ ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾

يا له من يوم عظيم أُخِرت فيه الرسل ليفصل الله بينهم وبين أقوامهم، فيومٌ هذا شأنه يوم كبير جليل.

١٣ ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾

أُخرت الرّسل ليوم يفصل الله فيه بينهم وبين أقوامهم، فمن أطاع نجا، ومن عصى هلك.

١٤ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾

وما أنبأك - أيها الإنسان - بهذا اليوم وشدته وهوله، أنت لا تعلم شأنه ولا تدري بما يحصل فيه!!

١٥ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك عظيم وعذاب أليم لمن كذّب بهذا اليوم، وجحد هذا المشهد الذي وعد الله به.

١٦ ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

أما أهلكنا من سبقهم بالتكذيب؛ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود، فقطعنا دابرهم وأبدنا خضراءهم.

١٧ ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾

ثم نهلك الآخرين، فمن أتى بعدهم وكذَّب المرسلين فنجعلهم كالسابقين بجامع التكذيب.

١٨ ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

وهذه سنة الله في كل مجرم، وعادته في كل مكذِّب، ويشمل هذا كفار مكة فعقابهم كعقاب من قبلهم.

١٩ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن كذَّب بألوهية الواحد القهار ورسالة النبي المختار ﷺ، في الدنيا خزي وفي الآخرة نار.

٢٠ ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾

أما خلقناكم من ماء حقير في أصله ومكانه، وهو النطفة، فلماذا التجبر والتكبر والجحود؟

٢١ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾

فوضعنا هذا الماء في محلٍ حصين وهو رحم المرأة، محفوظ من الآفات، مصون عن التلف.

٢٢ ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾

إلى أجل مسمى ووقت معلوم، وهو وقت الحمل بحساب دقيق دال على الحكمة.

٢٣ ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾

فقدرنا على الخلق والتصوير مع حسن التدبير في الحمل والولادة، فما أعظم المقدر، وأنعِم به من مدبِّر.

٢٤ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن كذَّب بقدرة الواحد القهار في خلق الإنسان ونقله في جميع الأطوار.

٢٥ ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا﴾

أما جعلنا الأرض ضامة للأحياء على ظهرها، والأموات في باطنها، أحياء لا يُحصون، وأموات لا يحصرون.

٢٦ ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾

أحياء على ظهرها لم يتضح لي معناها، يشربون ويسرحون ويمرحون، وأمواتا في جوفها يُنعَّمون أو يُعذَّبون، ويُحاسبون ويُسألون.

٢٧ ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾

وجعلنا في الأرض جبالاً ثابتةً في الأعماق، طويلةً في الآفاق، رست أصولها وطالت رؤوسها، وجعلنا لكم ماءً عذبًا زلالاً تشربونه، فمن الصخر تفجَّر النهر.

٢٨ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن كذّب بقدرتنا في خَلْقِ الأرض بطبقاتها من الأحياء والأموات، وخَلْقِ الجبال الرواسي والماء العذب.

٢٩ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

سيروا إلى نار جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، اليوم ترونها رأي العين، وتصلون حرَّها.

٣٠ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾

سيروا إلى ظل من دخان جهنم العظيم قد انقسم ثلاثة أقسام، فاستظلوا به، وهو حرٌّ شديد ولهبٌ رهيب.

٣١ ﴿لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾

لا يُظِلُّ من الحر، ولا يغني من اللهب، فالحرُّ يشوي الوجوه، واللهب يحرق الأجسام، والدخان يسد الأنفاس ويخنق الناس.

٣٢ ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾

إن جهنم ترمي في سمائها بشرر، كل شرارة مثل القصر العظيم في البناء الشاهق في السماء، فهذا الشرر، فكيف النار!!!

٣٣ ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾

كأنه إبلٌ عظيمة سود تميل إلى الصفرة، قد اسودّت النار من غضب الجبار، فقذفت بالمسود من الشرار.

٣٤ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن كذّب بهذه النار وما فيها من دخان وشرار؛ كأنه القصور أو الإبل الكبار.

٣٥ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾

هذا يوم القيامة الذي لا ينطق فيه الكافر بكلام ينفعه، فليس له حجة تُقال، ولا عذر يُقبل.

٣٦ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾

ولا يسمح لهم بالكلام في ذلك المقام، فيعتذرون؛ لأنه ليس لهم عذر، إذًا الكلام غير نافع والإذن به غير وارد.

٣٧ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن يكذب بما جاء في هذا اليوم من عدم نطق الكافرين ، وعدم السماح لهم بالعذر فيعتذرون.

٣٨ ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾

هذا يوم يفصل الله فيه بين الخلائق، جمعنا اللاحقين والسابقين والأولين والمتأخرين؛ ليوفي الله كلاً بما فعل.

٣٩ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾

إن كان لكم حيلة فاحتالوا الآن، وإن كان عندكم مخرج من العذاب فاسلكوه؛ لتنجوا من بطش الله وعذابه، بل لا قوة لكم ولا منعة.

٤٠ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن كذّب بما ذكر من جمع الأولين والآخرين، وعدم قدرة الكافر على الاحتيال على الواحد القهار.

٤١ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾

إن المتقين لربهم بفعل أوامره واجتناب نواهيه في ظلال الأشجار الباسقة، والبساتين الغناء، والحدائق الفيحاء، ولهم عيون صافية عذبة جارية.

٤٢ ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾

ولهم في الجنة فواكه كثيرة لذيذة، يشتهونها بمذاقات شتى، وطعوم مختلفة، مع الأمن والسرور والنعيم والحبور.

٤٣ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يُقال لهم: كلوا من أطيب الطعام وأحسنه، واشربوا من ألذّ الشراب وأحلاه معه الهناء والرضا؛ بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا، فهذا ثوابٌ لذاك السعي المشكور.

٤٤ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

بمثل هذا الجزاء من النعماء والأمن والرخاء والسلامة والسراء يُجَازَى كل محسن في عمله، متبعٍ لرسوله، خائف من ربه.

٤٥ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن أنكر ما ذكر من نعيم للمتقين أعده الله للمحسنين .

٤٦ ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾

يُقال للكفار: كلوا يا فجّار من لذائذ هذه الدار في قصر من الأعمار، فإن لذائذها منقطعة، ونعيمها زائل.

٤٧ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن كذب بما ذكره الواحد القهار من أخبار الغيب.

٤٨ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾

وإذا قيل للكفار: صلّوا للملك الجبار وأطيعوه واتبعوا رسوله، عصوا واستكبروا وجحدوا وأنكروا .

٤٩ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

هلاك ودمار لمن كذب بالرسالة، ورد الوحي وكفر به.

٥٠ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

فبأي كلام بعد هذا القرآن المعجز المفحم المبارك البيّن يؤمن هؤلاء الكفار؟ إذا لم يصدقوا بهذا الكتاب، فلا تصديق لهم بكلام غيره.

مكية

ترتيبها ٧٨

سورة النبأ

آياتها ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾

عن أي شيء يسأل المشركون بعضهم بعضًا؟ والاستفهام لإضفاء الاستعظام بشأن هذا الأمر، وما اختلف فيه المشركون إلا لما أصابهم من ذهول لضخامة ما حدث في العالم من رسالة ربانية عالمية.

(٢) ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

فهم يتساءلون عن الخبر العظيم الذي ملأ القلوب هيبة، والنفوس رهبة، والعقول دهشة من إرسال نبي بشير نذير، وكتاب كريم منير، وبعث ونشور، وقد طال فيه نزاعهم وكثر خلافهم، وهو حق لا ريب فيه، صدق لا كذب فيه، يقين لا شك فيه.

(٣) ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾

ففي هذا اليوم كثر لغطهم وغلطهم ما بين مصدق ومكذب، ومقرّ ومنكر؛ لأن نبأه عجيب، وخبره غريب.

(٤) ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾

والله لسوف يعلمون إذا بُعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وكشف الغطاء، وظهر الخفاء، حينها يعلمون صدق الخبر وصحة الأمر، وقبح فعلهم وسوء عملهم.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾

بلى والله لينكشفن لهم بعد الموت الحق في هذا الأمر من ثبوت ما أخبر الله به، وأخبر به رسوله من بعث ونشور، وجنة ونار، وصراط وميزان، وغيرها من أخبار الغيب.

(٦) ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾

والدليل على صحة الرسالة وأخبار الغيب أن من أخبر بها هو الذي أتقن خلق الأرض، فمهدها وبسطها وسهلها لمصالحكم من البناء والزراعة والسكنى والمعاش، فالأرض أمٌّ رؤوم، فيها الرزق المقسوم، والقوت المعلوم.

(٧) ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾

وجعلنا الجبال تمسك الأرض كالأوتاد، فلا تميل ولا تضطرب، ووزعها على الأرض بتقدير محكم، فتجدها مقسَّمة بين أطرافها الأربعة ووسطها بإتقان، وحسن تدبير، فسبحان اللطيف الخبير.

(٨) ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾

وخلقناكم زوجين ذكورًا وإناثًا؛ ليحصل التوالد والتناسل وبقاء النوع واستمرار الحياة، ولو كان زوجًا واحدًا لانقطع النوع، وحصل فناء هذا الصنف من المخلوقات، ولكن الله أوجد الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والطيور وكل مخلوق.

(٩) ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾

وجعلنا نومكم راحة لأبدانكم، وقطعًا لأشغالكم، تستريح فيه الأجسام بلذيذ المنام؛ لتعود إلى العمل بنشاط.

١٠ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾

وجعلنا الليل كاللباس لكم يستركم ويغطيكم، ففيه تعودون إلى سكنكم، وتُهدِّئون من حركتكم ومعاشكم.

١١ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾

وجعلنا النهار سببًا لكسب الرزق، وطلب المعاش وزمنًا للجد والعمل، والبناء والإنتاج؛ لتحصل الحياة والإعمار.

١٢ ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾

وبنينا فوقكم سبع سماوات محكمة البناء قوية السُّمك، مرفوعة السقف، متقنة الصنعة لا قصور فيها ولا عيوب، يَحار فيها الطرف، ويَدْهش من حسنها العقل الواعي.

١٣ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

وجعلنا الشمس في السماء كالسراج الوهاج، تسير بحسبان وتضيء بحكمة وتطلع بتقدير، لا اختلال في سيرها ولا اضطراب في طلوعها وغروبها.

١٤ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾

وأنزلنا من السحب إذا حان نزول الغيث منها ماءً مباركًا طهورًا عذبًا غزيرًا كثير الانصباب، فيه الحياة والنماء والخير الكثير.

١٥ ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾

لنخرج بالماء حبًا يأكله الإنسان والحيوان، وهو قوت نافع، ورزق مبارك من حنطة وذرة وشعير وغيرها، وأخرجنا بالماء نباتًا من الحشائش والخمائل تأكله الدواب، ويبهج النظر ويجمل الأرض.

١٦ ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

وأخرجنا بهذا الماء المبارك حدائق غناء، وبساتين فيحاء، ملتفة الأغصان، لينة الأفنان، بهية المنظر، بهيجة الجمال.

١٧ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾

إن يوم القيامة يوم يفصل الله بين الخلائق فيه، له وقت معلوم، وأجل مسمًّى معلوم عند الله لا يخلف الله الميعاد.

١٨ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

يوم يَنفخ إسرافيل في البوق - وهو قرن عظيم - النفخة الثانية فتخرجون من القبور جماعات كثيرة تسعى إلى الموقف.

١٩ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾

وتشققت السماء وتصدعت، فصارت أبوابًا كثيرةً لنزول الملائكة، وذهاب الأبراج والأفلاك والكواكب.

٢٠ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾

ونُسفت الجبال، ودُكَّت واقتلعت من أماكنها وصارت هباءً منبثًا، وقاعًا صفصفًا متناثرة في الجو.

٢١ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾

إن جهنم مكان يُرصد فيه الكفار من قبل خزنة النار، فهم مترقبون مجيئهم لإنزال أشد العقوبة بهم.

٢٢ ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾

فالنار مرجع للطغاة يعودون إليها صاغرين مدحورين، فهي دارهم التي فيها يُهانون ويُعذبون.

٢٣ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾

باقين في النار دهورًا بلا انقطاع، مؤبدين في العذاب، خالدين في أقسى العقاب لا يُفتر عنهم ولا يُخفف.

٢٤ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾

لا يجدون في النار بردًا يطفئ عنهم الحر، ولا شرابًا يذهب الظمأ، فجلودهم حَرَّى، وأجوافهم عطشى.

٢٥ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾

لكن يبدلون من البرد والشراب ماءً حارًا يغلي يقطع الأمعاء، وسائلاً قيحًا مؤذيًا من أجسام المعذبين يتجرعونه.

٢٦ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾

هذا الجزاء يقابل أفعالهم القبيحة، ويكافئ أعمالهم السيئة، فهم يستحقون هذا الجزاء، وهم أهلٌ لهذا البلاء.

٢٧ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾

لأن هؤلاء الكفار كانوا يكذبون بيوم الحساب، ولا ينتظرون القيامة، ولا يؤمنون بها ولا يتوقعون البعث.

٢٨ ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾

وجحدوا بآيات الله المنزلة على رسوله، وكذبوا بما أوحاه الله لنبيه وردّوه وأعرضوا عنه، فكان جزاؤهم هذا اللون من العذاب.

٢٩ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾

وكل شيء من الأفعال والأعمال كتبناه في كتاب الحسنات والسيئات، فهو محفوظ مضبوط بلا زيادة ولا نقص ليوم الحساب.

٣٠ ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

فذوقوا جزاء تكذيبكم وكفركم بربكم، فلن تجدوا إلا زيادة في العذاب، وشدة في العقاب، لا تُرحمون ولا تخرجون.

٣١ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾

إن للمتقين عند ربهم بالعمل بما أمر واجتناب ما نهى عنه فلاحًا في الآخرة، ونجاةً من النار، وفوزًا بالجنة.

٣٢ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾

لهم حدائق غناء فيها مزارع العنب دانية على الغصون، وإنما ذكر العنب لكثرة منافعه وجودة طعمه.

٣٣ ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾

ولهم في الجنات زوجات من الحوريات عذارى جميلات، فائقات الحسن، مطهرات من كل عيب، حسنات الأخلاق، في حرمة واحتشام.

٣٤ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾

ولهم آنية الخمر المترعة المليئة التي لا تسكر ولا تصدع، ولا يهذي صاحبها ولا يغيب عقله مع تمام اللذة ونهاية السرور.

٣٥ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾

لا يسمعون في الجنة كلامًا لا فائدة فيه، ولا باطلاً من الحديث، بل سلام وحسن كلام وجمال، مجالس أنس، سمو وحلاوة منطق.

٣٦ ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

هذا الجزاء من الله ربهم على حسن عملهم أثابهم بالنعيم على لزومهم الصراط المستقيم، وأعطاهم وحباهم وكفاهم في أحسن دار، وخير مستقر.

(٣٧) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾

هذا الذي أكرمهم هو رب السموات والأرض الذي ربى الخليقة بالنعم، وهو واسع الرحمة شاملها لكل مخلوق، لا يكلمه أحد إلا بإذنه لعظمته وهيبته.

(٣٨) ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾

ذاك اليوم يقوم جبريل إعظامًا لله وإجلالاً له مع الملائكة وهم صفوف، لا يتكلم منهم أحدٌ بشفاعة إلا إذا أذن له ورضي عن المشفوع له.

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾

ذاك اليوم صدقٌ وعدُه، حقٌّ وقوعُه، ثابتٌ وقتُه، فمن أراد اتخذ عملاً صالحًا عند ربه ينفعه، وينجيه به من عذابه وسوء عقابه.

(٤٠) ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾

إنا خوفناكم هذا العذاب القريب ووقوعه، يوم يشاهد الإنسان عمله من خير وشر، أما الكافر فلسوء مصيره يتمنى أنه كان ترابًا لئلا يحاسب ولا يُعذب، ومن تمنى الموت فكفى به بلية ومحنة.

مكية

ترتيبها ٧٩

سورة النازعات

آياتها ٤٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾

أقسم الله بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا بقوة وعنف حتى تسحبها من كل أجزاء الجسد، مع ألم ومشقة وعذاب وحسرة.

(٢) ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾

وأقسم بالملائكة التي تخرج أرواح المؤمنين بلطف ولين وسهولة ورفق، فتكون كالقطرة من فم السقاء يسرًا.

(٣) ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾

وأقسم بالملائكة وهي تنزل من السماء وتصعد ذاهبة آيبة بأوامر الله وأحكامه، كل صنف منهم يعمل لعظمة الملك وقوة السلطان.

(٤) ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾

وأقسم بالملائكة التي تسبق بأمر الله أرواح المؤمنين إلى مستقرها بمبادرة لتذوق النعيم ولا تتأخر عما أعد الله لها.

(٥) ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾

وأقسم بالملائكة التي تدبر أمر الله من قَطْرٍ ورياح وكتابة وحفظ للناس، وتنفيذ لكل أمر من رحمة وعذاب.

(٦) ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾

يوم تقع النفخة الأولى تضطرب الأرض، وترجف بأهلها، وتُزلزل بمن عليها بحركة عنيفة، وتهتزّ هزًا مذهلاً مدهشًا.

(٧) ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾

وتأتي بعدها النفخة الثانية ليقوم الناس لرب العالمين.

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾

هناك قلوب شديدة القلق والاضطراب والانزعاج من هول الموقف، تكاد القلوب تخرج من الجُنُوب لخوف علام الغيوب.

(٩) ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾

أبصار هؤلاء الخائفين ذليلة حائرة من هول المنظر وفظاعة المشهد، خضعت الأبصار وحارت الأفكار، وعنت الوجوه للواحد القهار.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾

يقولون: هل نُرد بعد الموت إلى الحياة؟! وهذا لا يكون، فقد مات الآباء والأجداد فما عادوا، فلا رجعة لنا ولا عودة، بل موت بفناء.

(١١) ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾

أئذا بليت منا العظام، وتفتت الأعضاء، وأصبحنا ترابًا نُرد إلى الحياة ونُعَاد من جديد؟! هذا لا يكون أبدًا.

(١٢) ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾

يقول من كذب بالبعث: هذه الرجعة إذًا خائبة لنا، خاسرة في حقنا، ليست في صالحنا؛ استبعادًا لها واستهزاءً.

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾

فإنما النفخة الثانية صيحة واحدة لا تعب فيها علينا، فإذا وقعت أعدناهم كما بدأناهم، وأحييناهم كما أمتناهم.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾

فإذا وقعت النفخة الثانية خرج الناس إلى أرض بيضاء لفصل القضاء، فعرضت الأعمال، وعظمت الأهوال، وبرز ذو الجلال، يوم الثواب والنكال.

(١٥) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾

هل سمعت أو خبرت عن قصة موسى العظيمة، وصبره في مواجهة فرعون، وما لقي من نوائب؟ إنَّ فيها أسوة فاصبر وتعزَّ به.

(١٦) ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

حين ناداه خالقه ومدبر أمره بالوادي الميمون المبارك المطهر بطور سيناء، فشرف الوادي لأجل التكليم، وتقدس بسبب الوحي.

(١٧) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾

وقال له ربه: سر يا موسى إلى فرعون فادعه إلى التوحيد، فإنه بغى وطغى وتجبر وعصى، وجاوز الحد في الكفر والإلحاد والفسق والفساد.

(١٨) ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾

فقل له بلين، وخاطبه برفق: هل لديك رغبة في أن تتطهر من الكفر وتوحد الله، وتخلص له العبادة وتزكي نفسك بالطاعة؟ فهذا خير لك.

١٩ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾

وأدلك على الطريق إلى الله الذي رباك بنعمه، فلعلك تخاف عقابه وتخشى عذابه فتطيع أمره، وتجتنب نهيه.

٢٠ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾

فأرى موسى فرعون المعجزة الكبرى، فانقلبت العصا حيّة بإذن الله، وهي دليل على صدق موسى وأنه نبي من عند الله.

٢١ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾

فكذب فرعون دعوة موسى وعصى أمره، أو كذب بقوله وعصى بفعله، فمن تكذيبه رفضه للدليل، ومن عصيانه تركه للتوحيد.

٢٢ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾

ثم أعرض عن الهداية وسعى في الغواية، وصد عن متابعة موسى، وأمعن في الفساد في الأرض قتلاً وظلمًا وإذلالاً واستعبادًا.

٢٣ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾

فجمع الناس وأعلن مناديًا بباطله صارخًا بفريته وكذبته السخيفة من ادعاء الألوهية قاتله الله.

٢٤ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

فقال فرعون للناس: أنا ربكم الذي رباكم بالعطايا، وأنا عالٍ فوقكم لا رب فوقي كذبًا منه وزورًا، وقصده أن يُعبد من دون الله.

٢٥ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾

فنكَّل الله به غاية التنكيل، وعاقبه أشد العقاب، في الدنيا بالإغراق، وفي الآخرة بالإحراق، أو عاقبه بكلمتيه الكاذبتين.

٢٦ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾

إن في عقاب الله لفرعون ومحقه وإهلاكه عظة عظيمة لمن اتقى ربه وخاف مولاه، فهذا مصير كل طاغية، وهذه نهاية كل مجرم جبار.

٢٧ ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾

أتظنون في تقديركم أنكم أشق في الخلق، وأصعب في الإيجاد، وأعظم في الصنعة من خلق السماء التي بناها الله بإحكام، وسواها بإتقان؟

٢٨ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾

بناها فرفعها وأعلى سقفها فجعل سمكها في جرمها عاليًا كما بين السماء والسماء، فسبحان مُجَمِّل هذا البناء.

٢٩ ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾

وجعل الليل مظلمًا، ومحا الليل بنور الشمس في النهار، فغاير بين الوقت، ولم يجعله سرمدًا بتوقيت معين، فلم يسبق الليل النهار، ولا النهار الليل.

٣٠ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾

والأرض بعد رفع السماء فرشها للكائنات، ومهدها لعيش الناس، وبسطها مع كرويتها لتقوم على ظهرها الحياة.

٣١ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾

وأخرج الماء من الأرض في عيون وآبار وأنهار من بين الصخور، ومن تحت الجبال، وأنبت فيها المرعى الأخضر متاعًا للحيوان.

٣٢ ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾

وثبَّت الجبال كالأوتاد للأرض فلا تتحرك، ولا تضطرب، ولا تهتز، ووزع الجبال بحكمة على أطراف الأرض؛ لتستقر لمن يعيش على ظهرها.

٣٣ ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

وجعل ذلك كله منفعة لكم ومتاعًا لأنعامكم، فطاب سكنكم، وقرَّ عيشكم، وقامت حياتكم، فالإنسان والحيوان في نعمة ورغد.

٣٤ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾

فإذا حان قيام الساعة، وهي الداهية العظمى، والطامة الكبرى، طمت على الأبصار بهولها، وعلى الأسماع بصوتها، وعلى القلوب بخوفها.

٣٥ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾

حينها يتذكر الإنسان ما عمل من خير وشر وصلاح وفساد، فتعرض عليه حسناته وسيئاته في وقت لا ينفع الندم ولا يجدي التحسر.

٣٦ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾

وأظهرت نار جهنم أمام الناس يراها الجمع لا تخفى على أحد، قد هُيئت للفجار، وأُعدت للكفار تنتظرهم لإحراقهم.

٣٧ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾

فأما من تكبر وتجبر وتعدى الحدود، ونقض العهود، ونكث العقود بالشرك والجحود والخروج عن طاعة الملك المعبود.

٣٨ ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

وقدَّم الحياة الدنيا على الآخرة فعمل لها، وفضَّلها ونسي الآخرة وأهملها، فأحب العاجلة وانغمس في لذائذها، معرضًا عن اليوم الآخر.

٣٩ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

فإن النار له قرار وبئس والله الدار، يأوي إليها، ويقيم بها معذبًا خاسئًا يذوق الأنكال ويقيد بالأغلال.

٤٠ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾

فمن خاف الله وعظم قدره، وهاب أخذه وخشي بطشه، وكف النفس عن هواها وردعها عن غيها واتباعها شهواتها.

٤١ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾

فإن جنات النعيم هي مقام هذا المتقي الدائم، يأوي إليها مكرمًا منعمًا، تقر فيها عينه، وتسعد فيها نفسه، ويطيب فيها عيشه.

٤٢ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾

يسألك المشركون يا محمد متى تقوم الساعة؟ ومتى موعدها؟ ومتى وقت وقوعها؟ ويريدون ذكر تأريخ قيامها استهزاءً.

٤٣ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾

في أي شيء أنت من ذكر الساعة، فليس عندك علم بها لتخبرهم، ولم يطلعك الله على موعدها لتفتيهم، فأنت لا تدري بها.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾

إلى الله وحده نهاية علمها لا يعلمها غيره، ولا يدري بها سواه، لا ملك مقرَّب ولا نبي مرسل.

(٤٥) ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾

إنما ينفع نصحك من خشي قيام الساعة فعمل للآخرة، أما المكذب المعرض فهو في لهوه يلعب، وفي ضلاله يسعى، فمهمتك الإنذار لا الإخبار.

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾

كأن هؤلاء الكفار يوم يرون قيام الساعة لم يبقوا في الدنيا إلا مقدار عشية يوم، أو ضحاه؛ لقصر ما مكثوا في هذه الدنيا الفانية، فهي أحلام وأوهام، لا يغتر بها إلا الطَّغَام، أفمن أجل عَشيَّة أو ضحاها يُضَحَّون بالآخرة؟!!

مكية

ترتيبها ٨٠

سورة عبس

آياتها ٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾

قطَّب الرسول ﷺ وجهه لانشغاله بدعوة كبار الكفار، فأعرض ولم يصغ لسؤال الأعمى، وخاطبه بالغَيْبَة تلطفًا.

(٢) ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾

لأجل أن جاءه الأعمى «ابن أم مكتوم» فكأن المعنى: هذا مسكين وأعمى وسائل عن العلم وتعرض عنه؛ لإثارة العطف والرحمة.

(٣) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾

وما ينبئُك - أيها النبي - أن هذا الأعمى جاء ليتطهر بهداك من ذنوبه، ويعلمك من آثار جهله.

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾

أو لعله يتعظ بقولك فينتفع ويعمل بما سمع، فالتزكية عمل الطاعات، والتذكر ترك المحرمات، وهما التقوى.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾

أما من استغنى بماله وجاهه ودنياه عن رسالتك، فهو منغمس في شهواته، منتكس في مخالفاته، لم يعتنِ برسالتك.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾

فأنت تقبل عليه وتعتني به وتحييه طمعًا في هدايته، هو معرض وأنت مقبل، وهو موغل في ضلالته، وأنت حريص على هدايته.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾

وليس عليك حرج ألا يتطهر من معصيته، حتى تحرص على هدايته، فدعه ما دام أنه اختار الغواية وترك الهداية، واتركه في رجسه.

٨ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾

وأما من أتاك ساعيًا لطلب الهداية، باحثًا عن العلم، سائلاً عن الحكمة، حريصًا على الفقه في الدين، وأتاك محبًا لك ولدينك.

٩ ﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾

وهو يخاف عذاب الله ويخشى عقابه، حمله الخوف على السؤال؛ ليعلم الحلال فيعمل به، ويعلم الحرام فيجتنبه، فبالخوف تنال النجاة.

١٠ ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾

فأنت تتشاغل عنه بغيره، فلا تجيب سؤاله، ولا تسمع كلامه، مع أنه أتى راغبًا وأنت تلاحق من ولّى هاربًا.

١١ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾

كلا لا تعد لمثل هذا العمل – أيها الرسول – فإن هذه موعظة ونصيحة، فعليك أن تعظ من ينتفع بموعظتك.

١٢ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

فمن أحب أن ينتفع بموعظة القرآن فعل، فهذّب نفسه بالوحي، وقوّم سلوكه بالدين، فانتفع من العلم النافع بعمله الصالح.

١٣ ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾

هذه النصائح من القرآن مسطرة في صحف شريفة، عزيزة المكان، مقدسة الجناب، محترمة المحل؛ لأنها كلام الله عز وجل.

١٤ ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾

وهي رفيعة الذات والقدر، منـزهة عن الدنس، لا يمسها إلا المطهرون، عصم معناها من الزيغ، ونزّه فحواها عن الرجس.

١٥ ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾

كُتبتْ بأيدي ملائكة سفراء بالوحي بين الله ورسوله، يبلغون النبي القرآن بأمانة، قد حفظوا ما حملوا، وأدوا ما سمعوا.

١٦ ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾

ملائكة كرام على ربهم، أعزاء على الله، أطاعوا أمره واجتنبوا نهيه، سلموا من أدران الذنوب، وخلصوا من آثار العيوب.

١٧ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾

لعن الله الكافر ما أشد كفره، وأكثر بغيه، وأعظم جحوده، نسي الإحسان، وعصى الرحمن، وأطاع الشيطان، وكذّب بالقرآن.

١٨ ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾

لماذا لا يتفكر الكافر في أصل خلقته؟ ومن أيّ مادة خلقه الله منها، إنها ماء مهين، وأصل حقير، فلو تذكّر ما تكبّر.

١٩ ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾

خلقه من ماء ضئيل مهين، فقدّر له أوقاتًا وأطوارًا، طفولة، ثم صبا، ثم كهولة، ثم شيخوخة، وقدّر خلقه ورزقه وعمله.

٢٠ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾

ثم سهّل ولادته، ويسّر له طريق الهداية والضلالة؛ ليختار أحدهما، وأوضح له المحجة، وأقام عليه الحجة، لينقطع عنه العذر.

٢١ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾

ثم توفاه وأمر بدفنه في القبر، لتمام الستر، وما يُدفن إلا الإنسان تكريمًا له وتمييزًا عن الحيوان.

٢٢ ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾

ثم إذا أراد الله أحياه بعد موته ليوم القيامة؛ ليلقى جزاءه ويواجه مصيره، من خير أو شر.

٢٣ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾

كلا ردعًا للإنسان عن الكفر والتكذيب، فالإنسان لم يفعل ما أمره الله على الوجه اللائق إلا القليل، والكثير معرض مكذِّب.

٢٤ ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾

فليفكر الإنسان كيف خلق الله له طعامًا من أنواع مختلفة، ومذاقات متعددة، وأصناف كثيرة؛ لتقوم حياته بها.

٢٥ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾

أنا أنزلنا الغيث بغزارة فسكبناه من الغمام، فجاء بماء منهمر فيه البركة والنماء والحياة للإنسان والحيوان والنبات.

٢٦ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾

ثم شققنا تربة الأرض بالنبات؛ ليخرج ساق النبت وفْقَ حجمه، بلا زيادة ولا نقصان، بل بحكمة وإتقان.

٢٧ ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾

فأخرجنا من الأرض حبًا من الحنطة والشعير والذرة؛ غذاء للإنسان والحيوان، بطعوم مختلفة، وأصناف متعددة.

٢٨ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾

وأخرجنا به شجر العنب الذي هو من أعظم الأشجار نفعًا، وله فوائد كثيرة، وكذلك أنبتنا البرسيم للبهائم غذاءً لها وقوتًا.

٢٩ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾

وأخرجنا شجر الزيتون صاحب الزيت والثمر؛ زينةً وأكلاً ودواءً، وكذلك النخل الباسق، أجَلُّ الشجر وأعظمها نفعًا.

٣٠ ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾

وأنبتنا بساتين كثيرة الأشجار، لذيذة الثمار، ملتفة الأغصان، كثيفة الأفنان في جمال وبهاء، رياض خُضر، وخمائل غناء، وبساتين فيحاء.

٣١ ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾

وخلقنا فاكهة لذيذة الطعم، مختلفة الحجم، بمذاقات شتى وطعوم مختلفة، وألوان بهية تبهج الناظر، وتسر الخاطر، وأوجدنا عشبًا للبهائم ومرعى للدواب.

٣٢ ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

متعناكم بذلك منفعةً لكم وغذاءً ومرعى للحيوان، ومصلحة ذلك لكم حتى متاع الدواب؛ لأن فائدتها عائدة إلى الإنسان.

٣٣ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾

فإذا قامت القيامة بصيحتها المفزعة المذهلة التي تصخُّ الآذان، ويرجف لها الجنان، وينخلع من هولها قلب الإنسان.

٣٤ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾

يوم يهرب الإنسان من أخيه على رغم القربى وصلة الرحم والنسب، فلا إخاء ولا معرفة ولا منفعة؛ لأن الأمر أعظم من كل شيء.

٣٥ ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾

ويهرب من أمه وأبيه؛ لهول الموقف، فلا يعطيهم حسنة من حسناته، قد شغل عنهم بما أذهل العقول، وأدهش الأفكار، وغشي الأبصار.

٣٦ ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾

وهرب من زوجته بعد المودة والرحمة وطول العشرة؛ لما اعتراه من خوف مفرط، وفزع هائل، وكذلك هرب من أولاده بعد اللطف والرحمة والحنان، انتهت العلاقة، وتفصَّمت العُرى، وتقطَّعت الأنساب.

٣٧ ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾

لكل إنسان موقف صعب شغل قلبه، وأذهب لبه، فنسي الأحباب وغفل عن الأصحاب، وتشاغل بنفسه عن الأنساب والأحساب.

٣٨ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾

وجوه المؤمنين مشرقة متلألئة زاهية بالبشرى، مضيئة بالسرور، باهية بالفرحة، غمرها الإشراق والنور.

٣٩ ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾

ضاحكة لحسن المصير، وطيب المنقلب، ولذة الفوز، مستبشرة بالنجاة وحصول الفلاح، ووقوع الظفر، واكتمال السرور، وتمام الحبور.

٤٠ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾

ووجوه الكفار عليها غبار، وذلة وصغار، قبح منهم المنظر، وشاهت الوجوه، وساء الحال، وخاب المآل.

٤١ ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾

تغشاها ظلمة الذنوب، وسواد الخطايا، وكدرة المعاصي؛ لأنهم لما عاينوا العذاب، وشاهدوا العقاب، أصابهم الكدر في المخبر والمظهر.

٤٢ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾

أصحاب هذه الوجوه المظلمة هم الكفار المكذبون بالكتاب والرسول، الفجار بارتكاب المعاصي والذنوب، فهم جحدوا الرسالة، وسلكوا سبل الضلالة.

مكية

ترتيبها ٨١

سورة التكوير

آياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾

إذا الشمس دُورت ولُفت وذهب ضوؤها وطُمس نورها، فصارت مكورة سوداء لهول ما حل بها، وفظاعة ما وقع.

٢ ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾

وإذا النجوم تساقطت بعدما ذهب ضوؤها وتهاوت سوداء على الأرض، ووقعت من أماكنها.

٣ ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾

وإذا الجبال نُسفت من أماكنها، ودُكّت من مراسيها، فتفتتت وذهبت في الهواء هباءً لما تزلزلت الأرض.

٤ ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾

وإذا النوق الثمينة النفيسة الحوامل أهملت وسيِّبت؛ لهول المشهد وخطورة الحدث، وضخامة الواقعة.

٥ ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾

وإذا الوحوش جمعها الله ليوم العرض ليقتص لبعضها من بعض، ثم يقول لها: كوني ترابًا؛ فانظر إلى العدل حتى بين الوحوش.

٦ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾

وإذا البحار أُشعلت فصارت نارًا تتلهب، وتتفجر بالبراكين المتقدة التي تتطاير حممًا في الجو، فتُحوِّل الماء إلى نار بقدرة الجبار.

٧ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾

وإذا النفوس قُرنت أرواحها بالأجساد؛ ليبعث الإنسان بروحه وجسده ليوم الحشر والحساب.

٨ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾

وإذا البنت التي دُفنت حية سُئلت لماذا قُتلت؟ وهذا السؤال توبيخ لمن قتلها وتقرير له بظلمه.

٩ ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾

ما سبب قتلها؟ ما الجرم الذي فعلته؟ وما الظلم الذي ارتكبته وهي البريئة من كل إثم لطفولتها؟.

١٠ ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾

وإذا صحف الحسنات والسيئات عُرضت للنظر، وفُتحت للحساب؛ ليجد كل إنسان عمله مكتوبًا أمامه.

١١ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾

وإذا السماء خُلعت من مكانها، وقُلعت كما يقلع السقف، وتشققت فصارت أبوابًا، وانتهى بناؤها المحكم.

١٢ ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾

وإذا النار أُوقدت وتأججت سعيرًا، وأوقدت إيقادًا شديدًا واضطرمت حتى أكل بعضها بعضًا؛ استعدادًا للكفار.

١٣ ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾

وإذا الجنة قُرِّبت للسعداء، وزُيِّنت للأولياء، وأُدنيت للمتقين، فصارت منهم قريبة؛ استعدادًا لاستقبالهم.

١٤ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾

حينها تعلم كل نفس ما أتت به من خير أو شر، يوم تشاهد عملها، وترى سعيها، وتطالع كتابها، فمن مسرور أو مدحور.

١٥ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾

فأقسم قسمًا بالكواكب التي تبدو ليلاً وتختفي نهارًا إذا طلعت الشمس كأنها ظباء تأوي إلى بيوتها.

١٦ ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾

التي تسعى في أبراجها، وتدور في أفلاكها، وتستتر في النهار في ضوء الشمس، فهي ذاهبة آيبة، فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها.

١٧ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾

وأقسم قسمًا بالليل إذا أقبل متدرجًا في ظلامه، وأدبر متجليًا عن سواده فهو في إقبال وإدبار.

١٨ ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾

وأقسم قسمًا بالصبح إذا أقبل بنوره، وأطل بضيائه، وفاجأ العالم بإشراقه في بهاء وجلال، وسناء وجمال.

١٩ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾

وجواب القسم أن هذا القرآن أجراه الله على لسان جبريل، وهو رسول من الله إلى محمد ﷺ كريم على الله مُكَرَّمٌ في منزلته الرفيعة.

٢٠ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾

صاحب قدرة هائلة وطاقة كبيرة، ومنزلة عظيمة، ورتبة عالية، عند الله ذي العرش، وهو كريم على الله عز وجل.

٢١ ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾

وجبريل تطيعه الملائكة في الملأ الأعلى لارتفاع محله وجلالة منزله، وهو أمين على الوحي، حافظ لما يؤدي، صادق فيما يبلغ.

٢٢ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾

وما صاحبكم محمد ﷺ بمجنون ذاهب العقل كما قلتم، بل هو أعقل العقلاء، وأنتم سميتموه الصادق الأمين، وهو النهاية في الرشد والسداد.

٢٣ ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾

ولقد رأى الرسول جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، له ست مئة جناح سد بها الأفق الأعلى جهة السماء.

٢٤ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾

وليس محمد ﷺ على الوحي المنزل من الله بمقصر بخيل بالتعليم والبلاغ، بل هو الصادق الأمين بلغ الرسالة، وأدى الأمانة على أكمل وجه وما كتم شيئًا.

٢٥ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾

وهذا القرآن الحكيم ليس بقول شيطان رجيم، بل هو كلام الرحمن الرحيم، معصوم من الزيادة والنقصان، منزه عن الخطأ، محفوظ من الخلل والزلل.

٢٦ ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾

فإلى أيِّ سبيل تذهب بكم عقولكم في التكذيب والغواية، وأي طريق تسلكونها في الشرك والشك، لقد تُهتُم وضللتم.

٢٧ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

ما هذا القرآن إلا تذكير لكل الناس وعظة لجميع العالم، فهو رسالة ربانية للإنسانية، ووثيقة إلهية للبشرية، فبها الهداية والرشد والفلاح.

٢٨ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾

لمن أراد منكم أن يستقيم على منهج الله، بتحكيم شرع الله في حياته، واتباع سنة رسوله ﷺ؛ استقامةً لا عوج فيها ولا انحراف.

٢٩ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وما تشاؤون الاستقامة إلا بعد مشيئة الله، فمشيئتكم تحت مشيئة الله - سبحانه -؛ لأنه مالك أمركم ومصرِّف أحوالكم، نواصيكم بيده، لا حول ولا طول لكم إلا بإذنه جل في علاه.

مكية

ترتيبها
٨٢

سورة الانفطار

آياتها
١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾

إذا قامت القيامة تشققت السماء، وفتِّحت السماء فصارت أبوابًا لنـزول الملائكة، فأديم السماء يتقطع.

٢ ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾

وإذا الكواكب وقعت من عليائها، وسقطت من سمائها، بعدما ذهب ضوؤها، وإنَّ أمرًا أسقط الكواكب لعظيم مهول.

٣ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾

وإذا البحار تصدَّعت جوانبها، وذهبت حواجزها، واختلطت فصارت بحرًا واحدًا، وفاض الماء، وهاج الموج، واضطرب الكون.

٤ ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾

وإذا القبور تصدَّعت وتناثر ترابها ليخرج الناس من بطونها ليوم الحساب، وليواجهوا الجزاء من ثواب وعقاب.

٥ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

حينها تعلم كل نفس ما قدّمت من أعمال، وما سوَّفت به، وتكاسلت عنه، فلم تعمل به، أو ما قدّمت أمامها، وخلّفت وراءها في الدنيا.

٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾

يا أيها الإنسان، ما الذي خدعك حتى عصيت ربك؟ ومن الذي أغواك عن طاعة مولاك؟ ومن الذي جرأك على الكفر والفجور؟.

٧ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾

فالله هو الذي خلقك يا ابن آدم في أحسن صورة، وركَّبك في أجمل تقويم من أعضاء سليمة مع اعتدال القامة وتناسب الخلق.

٨ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

ركَّبك في صورة حسنة عجيبة، اختارها لك وميَّز بين الناس في صورهم وأشكالهم وأصواتهم وألوانهم.

٩ ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾

كلا، لا تغتروا بكرم الله، بل أنتم تكذبون بالحساب، فلا تستعدون له ولا تتقون ربكم، وتخشون لقاءه.

١٠ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾

ووالله إن عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم، ويسجِّلون كل شيء على الإنسان، ويكتبون الحسنات والسيئات.

(١١) ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾

هؤلاء الملائكة مكرمون عند الله، يكتبون القليل والكثير، فلكرامتهم مؤتمنون، ولكتابتهم ضابطون، فلا وهمًا ولا خطأ.

(١٢) ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾

يطلعون بإذن الله على أعمالكم حسنها وسيئها، فيحصونها ويضبطونها ليوم الحساب بلا زيادة ولا نقص.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾

إن المجتهدين في الطاعات المسابقين في الخيرات، لفي نعيم مقيم، وأجر عظيم، ومقعد كريم، في جوار الرحمن الرحيم.

(١٤) ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾

وإن من كذّب بدين الله وخالف أمره لفي نار تلظى خالدين فيها أبدًا تحرقهم بلهيبها، وتصهرهم بوقودها.

(١٥) ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾

يصلون حرَّها ويذوقون عذابها يوم الحساب، وتُنْضج جلودهم، وتشوي وجوههم وتذيب شحومهم، وتصهر عظامهم.

(١٦) ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾

هم خالدون في النار لا يخرجون منها، ولا يزحزحون عنها، وليس لهم بدٌّ من دخولهم فيها، أُحضرت لهم ودُفعوا إليها دفعًا.

(١٧) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾

وما أعلمك ما حقيقة يوم الحساب؟ إنه يوم مهول، ومشهد فظيع، وموقف صعب، أكبر من أن يوصف، وأعظم من أن يحاط به.

(١٨) ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾

وما أدراك ما ذاك اليوم؟ فلمثله يعمل الإنسان وله يهتم، وبأمره يُعتنى، فهو أشد يوم عرفه الناس.

(١٩) ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾

في ذلك اليوم لا تملك نفس منفعة لنفس، ولا دفع مضرة عن نفس، فالنافع والضار هو الله وحده، بيده الأمر كله، لا أمر لغيره ولا فضل لسواه جل في علاه.

مكية

ترتيبها
٨٣

سورة المطففين

آياتها
٣٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾

هلاك وخسار، وعذاب ودمار، لمن غشَّ في المكيال والميزان بالزيادة إذا اكتال والنقص إذا كال.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾

الذين إذا طلبوا حقوقهم من غيرهم أخذوها وافية كاملة؛ سواء في الميزان أوالمكيال أو سائر الأحكام والأموال كافة.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾

وإذا كالوا لغيرهم، أو وزنوا لهم نقصوا حقوقهم، وبخسوا حظوظهم، فهم يستوفون حقوقهم وينقصون حقوق الناس.

٤ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾

ألا يفكر هؤلاء المطففون أنهم سوف يُبعثون بعد موتهم فيحاسبون على أعمالهم، ويجازون على تطفيفهم.

٥ ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾

سوف يُبعثون في يوم عظيم خطره، رهيب بأسه، مهول مشهده، فاق الأيام لعظائم ما يجري فيه من أهوال وأخطار.

٦ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

هذا اليوم يقوم الناس فيه من قبورهم إلى الموقف ليحاسبوا، فيجتمعون فيه لفصل القضاء ونيل الجزاء، فسعداء وأشقياء.

٧ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾

ألا إن كتاب الكفار الفجار في سجل أهل النار، وأسماءهم في كتاب الهالكين من أصحاب الجحيم، ضُبطت وسُجِّلت.

٨ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾

وما أعلمك بهذا الكتاب الذي هو سجل أسماء أهل النار؟ فهو كتاب محفوظ أُحصيت فيه الأسماء بلا زيادة ولا نقص.

٩ ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾

هذا الكتاب مسطور بأسماء الكفار، عُلِمت الأسماء بالحروف، وضُبطت في متنه، فهو سجل الأشرار وكتاب أهل النار.

١٠ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

لعنة وخسار وهلاك وبوار؛ لأهل النار الذين كذبوا بالكتاب، ونسوا الحساب، فاستحقوا العذاب، واستوجبوا العقاب.

١١ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

هؤلاء يكذبون بيوم الجزاء، ويجحدونه وينكرون البعث والنشور، فلا جنة عندهم ولا نار، ولا موقف بين يدي الجبار.

١٢ ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾

وما يكذب بيوم القيامة إلا من تجاوز الحدود، ونقض العهود، وكفر بالمعبود، قد أكثر من الآثام، وبالغ في الإجرام، وأسرف في الحرام.

١٣ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

إذا قُرئت على هذا الفاجر آيات القرآن قال - مستهزئًا -: هذه حكايات الأولين، وخرافات السابقين، وأباطيل القصاص المحرفين.

١٤ ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

كلا والله، ليس أساطير الأولين، بل غطَّى على قلوبهم حجاب التكذيب، وغين المعصية، وران الذنب، فعميت عن الحق.

١٥ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾

كلا والله، إن هؤلاء الكفار ممنوعون من رؤية ربهم، لا ينظرون إليه كما ينظر المؤمنون؛ نكالاً بهم وإهانةً لهم.

١٦ ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾

ثم إن الكفار يصلون النار، تشوى منهم الوجوه، وتحرق الجلود، وتدخل على الأفئدة؛ لسوء فعلهم وقبح عملهم.

١٧ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

ثم تقول لهم خزنة جهنم: هذا العذاب الذي كنتم به تكذبون فذوقوه مهانين، وَاصلَوه خالدين.

(١٨) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾

ألا إن كتاب الأبرار الصادقين المخلصين لمضبوط في سجل الأخيار، وفي ديوان الأبرار في علوٍّ احترامًا وتكريمًا.

(١٩) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾

وماذا يعلمك عن كتاب عليِّين؟ إنه والله عالٍ في مكانه، مرتفع في مرتبته؛ لشرف ما فيه من أسماء.

(٢٠) ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾

إنه كتاب مكتوب بأحرف من نور، ومسطور بإذن العزيز الغفور، بيَّن فيه كتابة الأسماء، معلم بعلامات ظاهرة لأهل البر والإحسان.

(٢١) ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

يحضر هذا الكتاب العظيم ملأ كريم من الملائكة المقربين الذين أعلى منزلتهم، فهم يشهدون على ما في كتاب الأبرار.

(٢٢) ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

إن المؤمنين الطائعين لفي نعيم مقيم، ومقعد صدقٍ كريم، مع خلود دائم، وقرة عين، وبهجة نفس فوق وصف الواصفين.

(٢٣) ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾

وهم على الأسرة الوثيرة المريحة ينظرون إلى ما أكرمهم الله به من مناظر بهية، ومنها نظر بعضهم إلى بعض لزيادة السرور.

(٢٤) ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾

تعرف في وجه هؤلاء الأبرار بهجة النعيم، وبهاء التكريم، وبريق السرور، ورونق الحسن ونور الجمال، وحسن المظهر.

(٢٥) ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾

يشرب هؤلاء الأبرار من شراب خالص لا خلط فيه ولا غش، وهو خمر لا سكر فيه ولا صداع، خُتِم فلا يفتحه إلا صاحبه، لم تلوثه الأيادي.

(٢٦) ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾

غطاء الكأس يفوح منه عبير المسك، وأريجه يفعم النفس، وفي مثل هذا النعيم يتبارى المتسابقون في ميدان الطاعة، وفي سبيل هذا النعيم والتكريم فليتسابق المجتهدون في الخير لينالوه.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾

ويخلط هذا الشراب بماء عذب زلال من عين صافية، تصب فيه من مكان عالٍ مرتفع، ليعظم مشهد انصباب الماء.

(٢٨) ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

وهذه العين الصافية العذبة هي (التسنيم) التي يشرب منها الأبرار كرامةً لهم واحتفاءً بهم؛ جزاء عملهم الصالح الحسن.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾

إن الذين كفروا كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا، ويضحكون من تصرفاتهم لما في نفوس الكفار من الاستكبار.

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾

وإذا مرَّ المؤمنون بالكافرين تغامزوا بعيونهم استهزاءً بهم وسخريةً منهم، فكان الأغنياء يسخرون من فقراء المؤمنين.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾

وإذا عاد الكفار إلى منازلهم عادوا متلذذين باستهزائهم بالمؤمنين فرحين بسخريتهم من أهل الإسلام عتوًا وكبرًا.

٣٢ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾

وإذا شاهد الكفار المؤمنين قالوا: لقد ضل هؤلاء وأخطؤوا الطريق وتركوا دينهم ولم يهتدوا إلى الحق.

٣٣ ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾

وليس الكفار وكلاء على المؤمنين، رقباء على تصرفاتهم، رعاةً لأعمالهم، فليس لهم حق في الدخول في شؤونهم.

٣٤ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾

ففي يوم الحساب ينقلب الحال، يضحك المؤمنون من الكفار حينما يشاهدونهم صاغرين حِقَارًا أذلاء ممقوتين.

٣٥ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾

على الأسرة الوثيرة المريحة ينظرون من منازلهم العالية وقصورهم الرفيعة إلى الكفار في النار يُعذّبون.

٣٦ ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

أما كوفئَ الكفار على ما فعلوه في هذه الدار، من السخرية والاستكبار، أما عوقبوا، أما أُهينوا، أما صاروا أذلاء بعد العتو، حِقَارًا بعد الكبر، بلى؛ لسوء أعمالهم في الدنيا.

مكية

ترتيبها ٨٤

سورة الانشقاق

آياتها ٢٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾

إذا السماء تشققت، وتصدّعت، وفُتحت أبوابها، وزال أديمها، وتغيّر بناؤها، وتقطع سمكها؛ قامت القيامة.

٢ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

واستمعت لأمر ربها، وانقادت وأطاعت، وحق لها أن تسمع وتطيع، فهو الذي خلقها وبناها، فأمره مطاع نافذ لا رادَّ له.

٣ ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾

وإذا الأرض مُهّدت وفُرشت كما يفرش الأديم بزوال الجبال، وبسطها ليقوم عليها الحساب وفصل القضاء.

٤ ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾

وقذفت بما في باطنها، ورمت ما في جوفها من الأموات والكنوز، وخَلَتْ مما كان في باطنها تمامًا.

٥ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

وانقادت لأمر الله، وسمعت له - جل في علاه -، وحق لها أن تسمع وأن تطيع، فهو مالك الملك، لا راد لأمره ولا مانع لما أراد.

٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾

يا أيها الإنسان: إنك كاسب عامل جاد مثابر في هذه الدنيا، وسوف تلقاه عند ربك إن خيرًا وإن شرًا.

٧ **﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾**

فأما من أعطاه الله كتاب النجاة بيمينه تكريمًا له؛ لأن اليمنى مباركة ميمونة، فهذا هو السعيد الفائز.

٨ **﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾**

فسوف يحاسبه الله يوم القيامة حسابًا سهلاً يسيرًا لا نقاش فيه، بل برفق ورحمة مع ستر ومغفرة وتجاوز.

٩ **﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾**

ويعود إلى أهله في غرفات الجنات قد غشيه السرور، وغمره الحبور، وجلله النور؛ لفوزه برضا الغفور الشكور.

١٠ **﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾**

وأما الكافر الذي أُعطي كتابه بشماله من خلف ظهره إهانةً له وإذلالاً، فويل له ما أتعسه، فالشمال لشؤمه، وخلف ظهره لإدباره وتخلفه.

١١ **﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾**

فهذا الخاسر سوف يصرخ وينادي: واثبوراه ياهلاكاه لما حل به من الخسران، وما وقع به من الخذلان، وغضب الرحمن، والذهاب إلى النيران.

١٢ **﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾**

ثم يدخل نارًا موقدة تشوي وجهه، وتحرق جسمه، وتصهره؛ لكفره وتكذيبه وأفعاله الشنيعة.

١٣ **﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾**

فرحٌ لأنه كان في الدنيا بين أهله وأولاده وعشيرته أشرًا بطرًا معجبًا تائهًا لهواه، فرحًا بدنياه، مغترًا بالمال والجاه.

١٤ **﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾**

إنه اعتقد ألا يعود إلى الواحد الأحد فنسي الحساب وكذَّب بالكتاب، ورد الرسالة، واتبع الضلالة.

١٥ **﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾**

بلى سوف يعود إلى ربه، فربُّه أعلم بعمله، فهو الخبير بسعيه، المطلع على حاله، البصير بسرِّه وجهره.

١٦ **﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾**

أقسم قسمًا بالشفق وهو حُمْرة الأفق بعد الغسق، وبُعيدَ غروب الشمس إلى العشاء.

١٧ **﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾**

وأقسم قسمًا بالليل وما ضم تحت ردائه، وما غطَّاه بكسائه، ومن دخل تحت ظلامه من أمواته وأحيائه.

١٨ **﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾**

وأقسم قسمًا بالقمر إذا تم نوره، واستكمل حجمه وتدويره، وتناسق نموه وكمل تكويره.

١٩ **﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾**

لتمرنَّ – أيها الكفار – بأطوار من الأخطار، فناء ثم جزاء ثم بلاء، شدة بعد شدة، وكربة تتلوها كربة.

٢٠ **﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾**

فما لهؤلاء الكفار لا يؤمنون بالواحد القهار، وقد نصب لهم البراهين، وأقام الأدلة، وبيَّن الحجة، وأوضح المحجة؟ فشواهد الوحدانية قائمة، وعلامات الألوهية ظاهرة، وآثار الربوبية ماثلة.

٢١ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾

وإذا تتلى عليهم آيات القرآن لا يخضعون ولا يذعنون، فماذا يردهم بعد سماع هذا الإعجاز من الاستجابة؟ وماذا يمنعهم بعده من الإيمان؟.

٢٢ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾

لكنهم يكذبون بالكتاب، ويجحدون يوم الحساب، فالتكذيب مذهبهم، والكفران مشربهم، فسوف يعلمون سوء فعلهم وقبح جرمهم.

٢٣ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾

والله مطلع على ما يضمرون، عالم بما يخفون، محيط بما يكون في صدورهم، وما يسرون في نياتهم من الكفر والتكذيب.

٢٤ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

فأخبرهم بأن العذاب ينتظرهم، والعقاب أمامهم، فالنار مثواهم، وجهنم مستقرهم، والبشارة هنا للتهكم.

٢٥ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم نعيم لا انقطاع فيه، وثواب لا كدر معه، وسرور لا حزن يتبعه، وعطاء لا يمنٌّ به عليهم، جزل لهم العطاء وحسنت لهم النعماء، وتم لهم الرخاء، وعظم لهم الجزاء، وحسن فيهم الثناء.

مكية

ترتيبها
٨٥

سورة البروج

آياتها
٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾

أقسم قسمًا بالسماء ذات المنازل للكواكب، التي تنزلها الكواكب الاثنا عشر منزلاً منزلاً، وبرجًا برجًا بحساب وإتقان وحكمة.

٢ ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾

وأقسم قسمًا باليوم الذي جعله الله موعدًا للعالم لفصل القضاء، فلا يخلف فيه وعده، بل هو واقع لا محالة، كائن لا شك في وقت معين وأجل مسمّى.

٣ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

وأقسم بكل شاهد في ذاك اليوم وحاضر ومعاين لغيره، وكل مشهود عليه بأعماله التي عملها، فالرسل والأمم شاهد ومشهود، ولكل حكم وقضية شهود وخصوم، والحاكم هو الله وحده.

٤ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾

لعن وعذب أصحاب الأخدود في نجران الذين حفروا شقًا في الأرض، ثم ملؤوه نارًا وأقحموا فيه المؤمنين.

٥ ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾

حيث أشعلوا نارًا عظيمة لها وقود ولهيب تأكل من وقع فيها، أشعلها الكفار للأبرار.

٦ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾

والكفار قعدوا على حافة النار يشاهدون عذاب الأخيار، ليتشفوا بمشهد التعذيب شأن الجبابرة.

٧ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

وهؤلاء الكفار ينظرون إلى المؤمنين يعذبون ويبصرون النار تشويهم، وقد جلسوا يتفرجون متلذذين بعذاب الصالحين.

٨ ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾

وما عابوا عليهم إلا الإيمان بالله، فليس للمؤمنين ذنب عندهم إلا طاعتهم لربهم وإلا فما آذوهم وما ظلموهم.

٩ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

والله المعبود له ملك السموات والأرض خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا، وهو شاهد على كل شيء، عالم بكل أمر، مطلع على كل فعل، محيط بما دقَّ وجل.

١٠ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾

إن الذين آذوا المؤمنين بالإحراق، وصدوهم عن دينهم، وابتلوهم في عقيدتهم، واستمروا على الكفر والأذى، ولم يتوبوا من الفعل الشنيع والأذى الفظيع، فسوف يحرقهم الله بنار الآخرة التي لا تبقي ولا تذر، خالدين فيها أبدًا.

١١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾

إن الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات فجزاؤهم الجنات في خلود مقيم، ونعيم عظيم في جوار ملك كريم، وهذا هو الظفر بالمطلوب، والفوز بالمرغوب، وإدراك كل محبوب، بفضل علام الغيوب.

١٢ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾

إن عذاب ربك عنيف لا يُطاق، وإن أخذه شديد لا يقاوم، إذا أخذ أهلك، وإذا بطش دمّر، يقصم الجبابرة، ويمحق العتاة، ويبيد الطغاة.

١٣ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾

إنه – سبحانه – ينشئ الخلق في البدء، ويعيدهم في النهاية، يخلقهم من العدم، ويبعثهم وهم رمم، أمات وأحيا، وأنشأ وسوى، وخلق وهدى.

١٤ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾

كثير الغفران لأهل الذنوب والعصيان، وواسع الحلم والتودد لكل تائب ندمان، للمقصر يغفر، وللمقبل يتودد.

١٥ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾

خلق العرش العظيم واستوى عليه، وهو عظيم الذات جميل الصفات، حسن الأفعال له العظمة والجلال.

١٦ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقّب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، نفذت قدرته، وبهرت حكمته.

(١٧) ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾

هل نُعْلمك - أيها النبي - خبر الأقوام الطغاة الطغام؟ الذين حاربوا الرسل الكرام، وأكثروا في الأرض من الآثام، واغتروا بإقبال الأيام.

(١٨) ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾

هم جنود فرعون العنيد، وجيش هذا الطاغية الرعديد، وقوم ثمود، الذين تجاوزوا الحدود، فكلهم بلغ غاية في الفساد، ووصل نهاية الإلحاد، وأمعن في العناد.

(١٩) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾

بل حال هؤلاء الكفار عجيب، ونبؤهم غريب، فهم كذبوا الرسول، وأنكروا القرآن، وجحدوا الحساب، وارتكبوا الضلالة، وانحرفوا عن الهداية.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾

والله محيط بهم لا يعجزونه، قادر عليهم لا يفوتونه، تحت حكمه مقهورين، وعن ملكه لا يخرجون.

(٢١) ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾

بل إن هذا القرآن شريف المكان، ظاهر البيان، مبارك عظيم، مرشد كريم؛ لأنه كلام الرحمن الرحيم.

(٢٢) ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۢ﴾

مكتوب في لوح محفوظ من الزيادة والنقصان، مصون عن تحريف الإنسان والجان، وتنزه عن الزلل، وجل عن الخلل؛ لأنه منزل من الله عز وجل.

مكية

ترتيبها	## سورة الطارق	آياتها
٨٦		١٧

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾

أقسم قسمًا بالسماء والنجم الذي يطرق العالم ليلاً، ويختفي في النهار، فكأنه زائرُ ليل يخفيه الظلام.

(٢) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾

وما يعلمك - يا محمد - ما الطارق؟ إنه نجم عظيم ثاقب النور، تام الضوء، تخترق أشعته الظلام كأنه يطرق السماء.

(٣) ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾

هذا النجم المضيء المتوهج، يثقب ثوب الليل بنوره، وينفذ بضوئه بين حجب الظلام.

(٤) **﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾**

كل نفس عليها حافظ من الله، موكل بحراستها وحفظها مما يؤذيها، وإحصاء عملها، وكتابة سعيها، ومراقبة تصرفاتها.

(٥) **﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾**

فلينظر الإنسان باعتبار وتفكر من أيِّ مادة خلقه ربه، وما أصله، وما أول هذا الخلق، إنه من ماء حقير من موضع مهين.

(٦) **﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾**

خُلق من مني يصب في الرحم، فمن أصله من هذا الأصل لا ينبغي له أن يتكبر ولا يتجبر، بل يتواضع لتفاهة أصله.

(٧) **﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾**

هذا الماء المهين والمني الحقير يخرج من ظهر الرجل وصدر المرأة، يلتقي في موضع يحتشم من ذكره ليكوِّنَ الإنسان.

(٨) **﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾**

إن الله على ردِّ الإنسان حيًا بعد موته للحساب لقادر، فبعد الموت حياة، وبعد البعث حساب، وبعد النشور جزاء.

(٩) **﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾**

ذاك اليوم تختبر السرائر، ويكشف عمًّا في الضمائر، وتظهر المكنونات، وتبدو الخفيات، ويخرج ما أكنّته النيّات.

(١٠) **﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾**

فما لجاحد اليوم الآخر وهو الكافر من قوة تحميه، ولا ناصر ينقذه مما هو فيه، فلا دافع ولا نافع ولا شافع له.

(١١) **﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾**

وأقسم قسمًا بالسماء ذات الغيث الذي يرجع بخارًا من الأرض فتعيده السماء إلى الأرض مطرًا هنيئًا مباركًا.

(١٢) **﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾**

وأقسم قسمًا بالأرض التي تتشقق بالنبات، وتتصدع لخروج جذوع الأشجار من بين طبقاتها.

(١٣) **﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾**

إن هذا القرآن قول يفصل بين الحق والباطل، ويفرِّق بين الرشد والغي، ويميز بين الصلاح والفساد.

(١٤) **﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾**

وليس القرآن لهوًا، ولكنه جدٌّ لا لعب فيه، وحق لا باطل معه، وهدى لا ضلال معه.

(١٥) **﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾**

إن الكفار يخفون كيدهم لمحاربة المؤمنين، ويحبكون الخطط لحرب الإسلام، فهم في تدبير الحرب الخفية.

(١٦) **﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾**

ويقابل الله تدبيرهم بتدبير أحكم منه وأخفى وأقوى، فيبطل كيدهم ويفل حَدَّهم ويحبط مكرهم.

(١٧) **﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾**

فانتظر- يا محمد- الكفار بعض الانتظار؛ لترى ماذا يفعل بهم القهار؟ ولا تستعجل هلاكهم، فكل ما هو آت قريب، فسوف ترى مصارعهم ونهايتهم المرة المذلة إذا حان موعد أخذهم.

مكية

ترتيبها ٨٧

سورة الأعلى

آياتها ١٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾

نزِّه اسم ربك المتعالي في العلو عن كل ما لا يليق به من أوصاف، وقدِّسه بكل وصف جميل وصف به نفسه؛ ولأن الله عالٍ في ذاته وصفاته، والعبد دان ضعيف مقصر، قال «سبِّحْ» والتسبيح يكون مسنوناً عند الهبوط إلى الأودية والسهول لحديث: كنا إذا هبطنا سبَّحنا، وإذا علونا كبرنا، والعلو يذكر بالتكبير لله.

(٢) ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾

الذي خلق الإنسان وصوَّره وحسَّن شكله وعدَّل قامته وناسب بين أعضائه، وأبدع في خلقه ليتهيأ لما كُلف به.

(٣) ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾

والذي قدَّر كل شيء ووفقه لما خلقه له، ووجهه الوجهة الصحيحة في معاشه، فدل كل مخلوق على ما يضمن بقاءه.

(٤) ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾

والذي أنبت كل ما ترعاه الدواب، وأخرج النبات الأخضر من التراب، فتراه حدائق ذات بهجة، ملتفة مثمرة بكل باهٍ زاه.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾

فجعله يابسًا هشيمًا تذروه الرياح محطمًا بعدما كان مخضرًا، مشرقًا بالنور، زاهيًا بالجمال، وكذلك الحياة بعدها فناء وزوال.

(٦) ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾

سنُعلِّمكَ - أيها النبي - القرآن عن طريق جبريل، فلا تنسى ما تسمع، فقد كفيناك حفظه فلا تخف ضياعه من صدرك.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾

إلا ما شاء الله أن ينسخه من القرآن فإنه سوف ينسيك إياه حكمةً منه؛ لأنه يعلم ما ظهر وما خفي، فهو أعلم بمصالح العباد ومآل الأمور وأسرار الأشياء.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

ونوفقك في كل أمورك لأيسر الطرق، وأسهل السبل فسيرتك سمحة، ودعوتك رحمة، ورسالتك بشرى.

(٩) ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾

فانصح الناس، وأرشدهم إلى الحق، وادعهم إلى الهدى إذا نفعت الموعظة، وجِدَّ في النصح.

(١٠) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾

سيستقيم من نُصحِك التقي، ويعرض الشقي، فمن خاف ربه نفعه الوعظ وأيقظه الزجر، ونبهه التذكير؛ لأن في قلبه حياة، وفي نفسه فطرة سوية وبقية من نور.

١١ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾

وسوف يهمل تذكيرك كل شقي فاجر، فلا ينصت، ولا يعي، ولا يفقه، ولا يلين قلبه؛ لأنه مطموس القلب، أعمى البصيرة، مظلم النفس، لا أمل في صلاحه.

١٢ ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾

فهذا الفاجر الكافر جزاؤه نار جهنم تحرقه بلهيبها، وتشويه بوقودها، وتصهره بنارها؛ لأنه حارب الملة، ورد الوحي، وكذب الرسول، وأمعن في الضلالة.

١٣ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

هذا الكافر لا يموت في النار، حتى لا يستريح من العذاب، ولا يحيا حياة طيبة، بل هو في أشد العذاب، فهو في النكال مقيم في سواء الجحيم، وأنكد العيش على الإنسان يوم لا يكون حيًا فيُرجى، ولا ميتًا فيُنعى.

١٤ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾

ظفر والله وفاز برضوان الله وثوابه، وصارت الجنة مأواه من طهّر نفسه من الذنوب وبرأها من العيوب، وأخلصها لعلاّم الغيوب.

١٥ ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾

وذكر اسم ربه بقلبه ولسانه، وصلى لربه بأركانه، فعبادته قولية وفعلية وبدنية، وذكر الصلاة؛ لأنها عمود الدين، وقرة عيون العابدين.

١٦ ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾

بل تقدِّمون حبَّ الدنيا على حب الآخرة، فتفضلُّون الفانية على الباقية، وتعملون للعاجلة وتتركون الآجلة.

١٧ ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

والآخرة خير وأبقى من الدنيا، فهي دار البقاء والنعماء وحسن الجزاء، والدنيا دار الفناء والبلاء والضراء.

١٨ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾

إن هذا الوحي المحكم والكلامَ الكريم الحافل بالوصايا النافعة والنصائح المفيدة موجود في الكتب المنزلة التي سبقت القرآن نزولاً.

١٩ ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾

وهي صحف إبراهيم، وصحف موسى، التي أوحيت إليهما من الله، وذُكِرَا - عليهما السلام - لأسبقيتهما وفضلهما، فالرسل والكتب متفقة على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال.

مكية

ترتيبها
٨٨

سورة الغاشية

آياتها
٢٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾

هل جاءك - يا محمد - أخبار القيامة التي تغشى الأبصار بهولها، وتَطُم على الناس بشدتها، وتذهل القلوب بدواهيها.

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾

وجوه في يوم القيامة ذليلة خائبة مسودة؛ لقبح أعمالها، وسوء فعالها؛ لأنها لما شاهدت العذاب أصابتها الخيبة والندم.

(٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

عاملة عملاً متعبًا مضنيًا ولكنه باطل؛ لأنه خلاف الشرع، أو أنها تُكَلَّفُ في النار بجر الأغلال ومعاناة النكال.

(٤) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾

تحرق بنار حامية تشوي جلودها، وتصهر أعضاءها، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يخرجون من العقاب.

(٥) ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾

شرابها من عين شديدة الحرارة تقطع منهم الأمعاء، ويسقط لحوم وجوههم من غليانها وشدة فورانها.

(٦) ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾

ليس لهم طعام في النار يأكلونه إلا شوك يابس شديد المرارة، مرتفع الحرارة؛ زيادة في عذابهم والتنكيل بهم.

(٧) ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

لا يسمن آكله ولا يشبع مَنْ تناوله، فهو لا يرد ضعفًا، ولا يدفع جوعًا، ولكنه يجلب ألمًا ويزيد سقمًا.

(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾

وهناك وجوه مسرورة مشرقة، علاها البهاء، وجللها النور، وغشيها الحسن، وهي وجوه المؤمنين.

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾

راضية بعملها الصالح في الدنيا، مطمئنة لحسن مصيرها، واجدة ثوابها، مسرورة بنعيمها، متلذذة بثوابها.

(١٠) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾

يدخلون جنة مرتفعة، وينـزلون درجات عالية ومراتب سامية، علت مكانًا وقدرًا وقيمة، وسمت شرفًا.

(١١) ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾

لا يسمع أهل الجنة فيها قولاً لا خير فيه، فليس فيها كلام باطل ولا حديث ساقط، ولا لغو، بل حق وصواب وسلام.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾

في الجنة عين صافية عذبة رقراقة جارية، بماء زلال بارد يتدفق بغزارة؛ كرامة للمؤمنين.

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾

وفي الجنة أسرَّة لأهلها مرفوعة القوام، عالية المحل، وثيرة مريحة، فيها كل المتعة والأنس.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾

وفي الجنة آنية لا عرى لها، توضع في يد من يشربها ليسر تناولها وسهولة شربها، مع الأناقة والجمال والطهر واللذة.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾

وفي الجنة وسائد صُفَّ بعضها بجانب بعض في جمال عجيب، وحسن بديع، يتكئ عليها المنعمون، وهم يتحدثون ويضحكون.

(١٦) ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

وفي الجنة بسط ثمينة زاهية باهية مخملية تتقل مع الجالس في ليونة ملمس، وراحة مجلس، ووثارة وفخامة.

١٧ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

أفلا ينظر الناس إلى بديع خلق الله في الإبل كيف سوى شكلها؟ وجعل فيها أوصافًا ليست في غيرها من الحيوان.

١٨ ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾

وكيف لا ينظرون في السماء ويتفكرون في هذا السقف العظيم المرفوع المتقن القائم بلا عمد، لا شقوق فيه ولا عيوب.

١٩ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾

وكيف لا ينظرون إلى الجبال وهي قائمة في جلال، واقفة في جمال، تثبت الأرض، كأن كل جبل سبابة مسبِّح يشهد لله بالوحدانية.

٢٠ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾

وكيف لا ينظرون إلى الأرض وقد سُويت للعيش على ظهرها، ومُهِّدت للناس، وفُرشت للمخلوقات لتتم عليها الحياة.

٢١ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾

فذكِّر - أيها الرسول - بآيات القرآن، وأدلة الخلق في الأكوان، وذكِّر بأيادي النعم وبأيام النقم، فمهمتك التذكير.

٢٢ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

لست متسلطًا عليهم بسلطان حتى تجبرهم على الإيمان، إنما أنت هادٍ تقيم الحجة وتوضح المحجة، وتدعو إلى الهداية.

٢٣ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾

غير أن من تولى عن الهداية، وكفر بالرسالة، وأدبر عن الرشد، وجحد الأدلة، وكذَّب بالحق فقد استحق العذاب.

٢٤ ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾

فالله يوم القيامة يعذبه العذاب الشديد بالأغلال والحديد، في نار قعرها بعيد، وطعام أهلها الزقوم والصديد.

٢٥ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾

إن مرجع الجميع إلى الله، ومرد الكل إليه -عز وجل-؛ فإليه منتهى العلوم والأعمال والناس ليوم لا ريب فيه.

٢٦ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

ثم إن علينا حساب الناس يوم الحشر، فنوفي كلاً بما عمل، ونجزي كلاً بما قدَّم من خير وشر.

مكية

ترتيبها		آياتها
٨٩		٣٠

سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾

أقسم قسمًا بالفجر إذا غشي العالم بضيائه، وكسا الكون بسنائه، وأشرق على الدنيا ببهائه.

٢ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

وأقسم قسمًا بالليالي العشر من ذي الحجة؛ لشرف زمانها، وكثرة أعمال الخير فيها، وكون أيام الحج والنسك في أوقاتها.

(٣) ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾

وأقسم قسمًا بالزوج والفرد من كل نوع وصنف، فما تناسل كان له زوجان، وما كان جامدًا ففرد واحد.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

وأقسم قسمًا بالليل حين يمضي بظلمته، ويذهب بسواده؛ ليحل النهار محلَّه، وفي هذا الذهاب آية انبلاج الصبح.

(٥) ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾

هل فيما أقسمت به من هذه المخلوقات قسمٌ كاف شافٍ لمن له عقل يرشده إلى صدق ما أقسمتُ عليه، وصحة ذلك.

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾

ألم تعلم ماذا فعل ربك بعاد قوم هود يوم عذَّبهم بالريح، وأفناهم بالهلاك وهم أقوى من كفار مكة؟ فهلاك هؤلاء أهون عليه.

(٧) ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾

أهل المدينة العظيمة ذات البناء الرفيع والقصور الشاهقة، والأعمدة السامقة. قيل: إنها قريبة من عدن.

(٨) ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾

التي لم يوجد مثل بنائها العجيب، وشكلها الغريب، وقوة أهلها، وكثرة خيراتها، وحَصَانَة بنائها.

(٩) ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾

وثمود أهلكناهم وكانوا يقطعون الصخور في أوديتهم ويبنون بها، فما منعتهم قوتهم منا لما دمَّرناهم.

(١٠) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾

وأهلكنا فرعون وقصوره العظيمة، وجنوده العتيدة، ودمَّرنا مبانيه التي كأنها جبال في الثبات والطول والقوة.

(١١) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾

هؤلاء الأقوام أكثروا ظلم الأنام، وأسرفوا في الآثام، وسفكوا الدم الحرام، فاستحقوا هذا الانتقام.

(١٢) ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾

فأكثروا في البلاد الفساد، من التكذيب والعناد، والظلم والاستبداد، والقهر والاستعباد، والإضرار بالعباد.

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾

فأرسل الله عليهم نصيبًا مؤلمًا، وعذابًا شديدًا، وبأسًا قويًا، وبطش بهم فأبادهم ودمَّر ديارهم.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾

إن ربك يرصد أعمال الفجار، ويرقب أفعال الكفار، ثم يعاقبهم في الدنيا بالدمار، وفي الآخرة بالنار.

(١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾

فأما الإنسان إذا ما اختبره ربه بحالة الغنى فأكرمه بالمال وحسن الحال، فإنه يغتر وينخدع ويقول: هذا لمنزلتي عند ربي، ولما لي عنده من حظوة وقرب، وقد يكون هذا من الاستدراج.

(١٦) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾

وإذا ما اختبره بالفقر والعسر فضيَّق عليه الرزق، وقتَّر عليه المعيشة، ظن أنه لسوء مكانته وبعده عن ربه وحَسِبَها هوانًا من الله له.

(١٧) ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾

والصحيح أنه لا هذا ولا ذاك، فليس الإعطاء تكريمًا، وليس المنع إهانةً على الإطلاق، ولكنكم في حال الغنى لا تحسنون إلى اليتيم، ولا ترحمون ضعفه، ولا تلطفون به؛ لطغيان المال وقسوة القلوب.

(١٨) ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾

ولا يحث بعضكم بعضًا على إطعام المسكين، وحسن ضيافته، وجميل رعايته، فالغالب على الناس الجفاء مع الفقراء.

(١٩) ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾

وتأكلون الميراث بنهم وشره، لا تفرقون بين حلال أو حرام، وتضمون حق الأيتام والأرامل والنساء إلى حقوقكم بلا ورع.

(٢٠) ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾

وتحبون جمع المال حبًّا شديدًا، تفنون من أجله الأعمار، وتركبون في سبيله الأخطار، وتكثرون لتحصيله الأسفار، وأكثر الناس عبيد للدرهم والدينار.

(٢١) ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾

انتهوا عن هذا الفعل، وتذكروا إذا زلزلت الأرض زلزالاً شديدًا، حتى يزول ما عليها ويخرب بنيانها، وتهدم أركانها، وتميد بأهلها، وتضطرب بسكانها.

(٢٢) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾

وجاء ربك لفصل القضاء مجيئًا يليق بجلاله، ومعه ملائكة السماء في صفوف وهم متراصّون خاشعون لربهم مطيعون له.

(٢٣) ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾

وبُرِّزت النار للناظرين، وأُحضرت للمجرمين، حينها يتذكر الإنسان ذنوبه، وإهماله وتفريطه في الدنيا في وقت لا ينفعه التذكر ولا يفيده الندم، فقد فات الأوان، وحان الحساب، وحلَّ القضاء.

(٢٤) ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾

يقول هذا المذنب: يا ليتني قدَّمتُ خيرًا في الحياة الدانية الفانية لحياتي هذه الباقية من العمل الصالح والأفعال الحسنة.

(٢٥) ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾

حينها لا يعذب مثل عذاب الله لأعدائه أحدٌ لشدة عذابه وقوة عقابه، وعظيم نكاله، وقوة بطشه.

(٢٦) ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾

ولا يوثق أحدٌ مثل إيثاقه لأعدائه في نار جهنم، فإنهم يُصفدون في السلاسل، ويقيدون في الأغلال، مع النكال وسوء الحال وقبح المآل.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾

ويُقال لنفس المؤمن الصالح: يا أيتها النفس الراضية بدين الله وقضائه وعطائه، المطمئنة بذكره، المتبعة لرسوله ﷺ، المتيقنة بوعده ووعيده.

(٢٨) ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾

عودي إلى ثواب ربك ورضوانه، وفضله وجنانه، وحسن عطائه وامتنانه؛ راضية عنه بما منح من ثواب، وصرف من عقاب، وقد رضي هو عنها بما فعلت من هدى، واجتنبت من ردى.

٢٩ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾

فادخلي من بين عباد الله الصالحين، وحزبه المفلحين، وجنده الفائزين في النعيم الأبدي، والخلود السرمدي.

٣٠ ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾

وادخلي جنتي مقر رحمتي، فتنعَّمي بأنعم دار وخير جوار مع الأبرار، في مقعد صدق، ومقام آمن، ومحل خلود، نعيم لا يفنى، وخير لا يبلى.

مكية

ترتيبها ٩٠

سورة البلد

آياتها ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾

أقسم قسمًا بالبلد الحرام وهي مكة المكرمة، حيث بيت الله، وحرمه ومَهْبِط وحيه، ومولد رسوله ومشاهد الحج.

٢ ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾

وأنت مقيم بهذا البلد فزاد فضله بوجودك، فكونك بهذا البلد يقتضي شرفه ورفعته، والديار تعظم بشرف ساكنها.

٣ ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾

وأقسم قسمًا بكل والد وكل مولود من المخلوقات المتوالدة التي تتناسل؛ لأن فيه بقاء الحياة وحفظ النوع، وبرهان على عظمة الباري وقدرته على الخلق وحكمته في الإنشاء.

٤ ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾

لقد خلقنا الإنسان وهو يكابد الشدائد، ويصارع النوائب، ويتعرض للمصائب، فطريقه طريق التعب والنصب، تنغص حياته الأكدار، وتحيط بها الأخطار.

٥ ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾

هل يظن الإنسان أنه لا يستطيع أحد أن ينتقم منه ويقهره ويغلبه، وهذا جهل منه وغرور وعتو، بل الله يقهره ويغلبه ويقدر عليه.

٦ ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾

يقول: أنفقت أموالاً كثيرة كبرًا وخيلاء، ودعاوى كاذبة لجلب الفخر لنفسه مثل ما فعل بعض المشركين حيث قال: أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيرًا وهو كاذب.

٧ ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

أيظن أنه لم يطلع على حقيقة أمره أحد في قدر إنفاقه، بلى، فالله عالم كم أنفق، مطلع كم أعطى، وسوف يحاسبه على كل نفقة صرفها.

(٨) ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾

أما وهبنا للإنسان عينين يرى بهما، وبصر الإنسان نعمة جليلة، حيث إنه يرى ببصره معالم حياته ومباهج دنياه وما يهمه لقيام وجوده.

(٩) ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

ورزقنا الإنسان لسانًا ناطقًا فصيحًا يؤدي به غرضه، ويصل إلى مطلوبه، ورزقناه شفتين تعينانه على الكلام والصمت، وتناول الطعام في جمال بديع وصنع متقن.

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾

وأوضحنا له سبيل الحق والباطل، والهدى والضلال؛ ليكون على بينة من أمره، فيختار أحدهما بعد ما بان له الفرق بينهما.

(١١) ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾

هلا اجتاز السبيل الصعب بفعل ما يحب وعمل ما يستحب من حسنات وصدقات وقربات؛ لينال الفوز ويظفر بالنجاة.

(١٢) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾

وما أدراك ما اجتياز هذه العقبة؟ إنه عسير على من لم يرد الله توفيقه، يسير لمن يسره الله عليه.

(١٣) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

إنها عتق رقبة لتستوفي حريتها، وتنال حقوقها، وتستوفي إنسانيتها، فالإسلام جاء بالحرية.

(١٤) ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾

أو بذل الطعام في يوم مجاعة للفقراء والأيتام، وإيثار المسكين على النفس مع الحاجة وقلة الزاد.

(١٥) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾

وإطعام اليتيم القريب وكفالته والقيام على شؤونه؛ لأنه فقد الرعاية والحنان، فانكسر قلبه، وذلّت نفسه.

(١٦) ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

وإطعام مسكين كادت يده من الإفلاس والعدم تلصق بالتراب؛ فحقه أن يُواسى وأن يُعطى بعدما تقطّعت به السبل.

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾

ثم كان المجتاز لعقبة الأعمال الشاقة مؤمنًا بالله لا كافرًا ولا منافقًا يوصي نفسه وغيره بالصبر المشروع على الطاعات والمكاره، وعن المعاصي، ويوصي بالتراحم لبناء الألفة في المجتمع المسلم ليعم الأمن والسلام.

(١٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾

أهل هذه الصفات هم أصحاب اليمين في دار الفائزين، صحائفهم بأيمانهم، واليمن والبركة معهم، ظفروا بالمطلوب، ونجوا من المرهوب.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾

والجاحدون للآيات المكذبون بالرسالات هم أصحاب الشمال يحشرون مع أهل الضلال في الأنكال والأغلال، صحفهم بشمائلهم لسوء فعالهم.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾

تطبق عليهم نار محرقة تشوي الوجوه وتصهر الأجسام، أغلقت عليهم فلا يخرجون، وأوصدت عليهم فلا يموتون ولا يحيون، عذاب مستمر في سوء المستقر.

مكية

ترتيبها ٩١

سورة الشمس

آياتها ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾

أقسم قسمًا بالشمس إذا تجلت في ضحاها، وأضاءت الدنيا بسناها، وارتفعت على العالم تتباهى في جمال فريد، وحسن باهر، وإشراق ساحر.

٢ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾

وأقسم قسمًا بالقمر المنير، صاحب النور الزاهي، والجمال المتناهي، الذي يتلو الشمس بعدما تغرب، ويخلفها بعدما تغيب؛ فيملأ الآفاق نورًا.

٣ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾

وأقسم قسمًا بالنهار إذا جلَّى الشمس للكون، وأظهرها في زينتها للعالم، وكانت محجوبة عن الأنظار، مكللة بالأستار، فأبانها النهار.

٤ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾

وأقسم قسمًا بالليل إذا غطَّى الشمس فأخفاها وسترها عن العيون وحجبها عن الأبصار بظلامه.

٥ ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾

وأقسم قسمًا بالسماء وبنائها المحكم، وسقفها المرفوع المنظم، علو في جمال، وارتفاع في كمال.

٦ ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾

وأقسم قسمًا بالأرض حيث بسطت كالفراش، ومُهِّدت للمعاش، فصارت موطأة الأكناف، مذللة السبل.

٧ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾

وأقسم قسمًا بكل نفسٍ خلقها الله فسواها، في أحسن صورة وركبها في أجمل شكل، وأبدع خلقها في أبهى هيكل وألطف قوام.

٨ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

فبيَّن لها طريق الحق والباطل، وأوضح لها سبل الهداية والغواية؛ لينقطع العذر، وتقوم الحجة، وتتضح المحجة.

٩ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾

قد فاز من طهَّرها من الذنوب، وظفر – والله – من نزَّهها عن العيوب، وسعد من زودها بتقوى علاَّم الغيوب.

١٠ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

وقد خسر من أخفاها في الخطايا، ودفنها في الدنايا، وقبرها في كل عمل قبيح شنيع، ولطَّخها بكل معصية من الرذائل، وحرمها من الجولان في فضاء الفضائل.

(١١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ﴾

كذبت ثمود رسولها صالح ﷺ بعدما بلغت الحد في العصيان، ووصلت الغاية إلى الكفران، بغت وطغت وكذبت وأعرضت.

(١٢) ﴿إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾

إذ قام شقي القبيلة وأعتاها وأضلها وأكثرها فجورًا؛ فإنه ما أقدم على هذه الفعلة إلا بعدما مُسِخ من التوفيق.

(١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

فقال لهم رسول الله صالح ﷺ: احذروا أن تمسوا الناقة بسوء، أو تتعرضوا لشربها، فإنها آية من آيات الله تدل على صدقي، وإيذاؤها خطر محدق بكم.

(١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾

فجحدوا رسالة الله، وقتلوا ناقة الله، فاستحقوا غضب الله، فأباد خضراءهم، وقطع دابرهم، وسوى العقوبة عليهم، فلم ينجُ أحد، فعمَّهم بالعذاب، وشملهم بالعقاب.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾

والله لا يخاف عاقبة ما فعل بهم من عذاب، فهو قدير لا يغالبه أحد، ولا تقاومه قوة، تفرّد بالهيمنة وتوحّد بالجبروت.

مكية

ترتيبها ٩٢

سورة الليل

آياتها ٢١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾

أقسم قسمًا بالليل إذا غطى العالم بسواده، وأغطش نور النهار بمداده، وأقبل يغشي برادئه الأرض، ويستر بعباءته الدنيا.

(٢) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾

وأقسم قسمًا بالنهار إذا جلَّى العالم بضيائه، ونوَّر الدنيا بسنائه، فانقشع عن وجهه الظلام، وهرب من طريقه الليل.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾

وأقسم قسمًا بخلق الزوجين الذكر والأنثى من كل صنف ونوع، فبالزوجين يبقى التوالد وتستمر الحياة، ويحصل الدوام.

(٤) ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾

إن عملكم مختلف ما بين مهتدٍ وضال، وصالح وفاسد، وبر وفاجر، وجواد وبخيل، وصادق وكاذب، وعادل وظالم، ومحق ومبطل.

(٥) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾

فأما من بذل ماله واتقى ربه في بذله، فاجتنب الرياء والسمعة، والمن والأذى، فهو معط للندى، كافٍ للأذى، محقق للتقوى.

٦ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾

وصدّق بأن الله يثيبه على عمله، ويجزيه خيرًا على إنفاقه وتقواه، فهو يعمل لوجه الله ويريد ما عنده وينتظر موعوده.

٧ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾

فسنوفقه لأيسر الأمور وأنفعها وأصلحها له، ونسهِّل له عمل الصالحات وفعل الخيرات، ونوجهه لكل ما فيه فلاحه.

٨ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾

وأما من أمسك ماله واستغنى عن ثواب ربه فبخل على نفسه بترك الإنفاق، وحرمها من أجر ربها بسوء ظنه بربه.

٩ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾

وكذَّب بثواب الأعمال يوم الحساب، وأنكر أن هناك جزاءً على السعي، ولإنكاره اليوم الآخر ساء فعله، وشان حاله.

١٠ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾

فسنوليه ما تولى ونوجهه إلى الذي اختاره من سوء العمل وقبح الفعل؛ فيسهل عليه الذنب، لأنه أُصيب بخذلان من الله.

١١ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾

ولا يحميه ماله من التردي في النار والوقوع في غضب الجبار، فماله الذي بخل به لا يدافع عنه إذا حل به ما يكرهه.

١٢ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾

إن علينا أن نبيّن الهدى للناس بإنزال الكتب وإرسال الرسل وإقامة الحجة وتوضيح المحجة؛ لينقطع العذر عمن ضل.

١٣ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾

فالآخرة والأولى ملكنا وفي تصرفنا، فليسألها الراغبون فيها، وليطلبها من أرادها عندنا، فخير الدنيا وخير الآخرة لا يحصل إلا بإذننا.

١٤ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾

فحذرتكم نار جهنم فإنها تتوقد دائمًا فلا تطاق، وتستعر أبدًا فلا يُصبَّر عليها، فمن عرف شدة عذابها هرب منها بالتقوى.

١٥ ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾

لا يدخلها ويخلد فيها ويستحقها إلا الكافر الشقي الذي أعرض عن الهدى، وأحبَّ الردى، وصدّ عن الإيمان، وأطاع الشيطان.

١٦ ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

الذي كذَّب بالخبر، وتولى عن الأمر، وأنكر الرسالات، وترك المأمورات، وارتكب المنهيات، وهو الذي رد القول وأهمل العمل.

١٧ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾

وسيبعد عن النار وغضب الجبار التقي الورع الذي فعل المأمور على نور من الله، يرجو ثواب الله، وترك المنهيات على نور من الله، يخاف عقاب الله.

١٨ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾

الذي ينفق ماله في سبيل الله يتطهر به من الذنوب، ويتنزه عن العيوب، بلا سمعة ولا رياء، ولا منٍّ ولا أذى، بل مخلصًا في العطاء.

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾

وليس لأحد من الناس عنده يد يريد أن يكافئه عليها، ولا جميل يحب رده لفاعله، ولا إحسان من إنسان يثيبه عليه، بل لوجه الله وحده.

(٢٠) ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

ولكنه أنفق ماله لرضى ربه وطلب الثواب من خالقه، والله ليس بحاجة إلى هذا المال؛ لأنه الأعلى ذاتًا وصنعةً وقدرًا، والأعلى لا يطلب من الأدنى، لكن العبد بحاجة إلى ثواب ربه.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

ووالله لنرضينه في جنات النعيم، بقرة العين في جوار رب كريم، مع السرور الدائم، والملك الكبير والمحل الآمن.

مكية

ترتيبها
٩٣

سورة الضحى

آياتها
١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾

أقسم قسمًا بالضحى وصفائه وطلوعه على العالم بضيائه وارتفاعه في الكون بسنائه، فهو آية في حسنه وبهائه.

(٢) ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

وأقسم بالليل إذا سكن بهدوئه، وخيم بظلامه، وكسى العالم بردائه، وغطى الكون بسواده، فاستتر كل شيء بجناحه.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

ما أبغضك ربك – يا محمد – بعدما أحبك، وما بعّدك بعد أن قرّبك، وما تركك بعدما اصطفاك، وما أقصاك وما قلاك، بل اجتباك وآواك.

(٤) ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾

ولدار الآخرة في الفردوس الأعلى خير لك من دار الدنيا؛ فهناك السرور والحبور والنعيم الدائم مقام الصدق، وفي الدنيا الكدر، والنكد، والهم، والغم، والوصب والنصب، والتعب.

(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾

ووالله ليعطينك الله من أصناف النعيم، وأنواع التكريم ما يرضيك من قرة العين، وسرور النفس، وبهجة القلب، وراحة الجسم ما يفوق الوصف.

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾

أما وجدك يتيمًا قبل النبوة فآواك ورعاك وأحسن إليك ورباك، وحفظك وتولاك، وأسبغ عليك نعمه واجتباك.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾

ووجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال، وأكرم الخصال، وأنبل الفعال، واصطفاك للرسالة، واختارك للنبوة.

(٨) ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

ووجدك فقيرًا فرزقك وقنَّعك بما أعطاك، وساق إليك من النعم المعنوية والمادية ما فيه البركة والرضا، وفتح عليك من المعارف العلمية والفتوحات الإلهية ما أغنى نفسك عن الدنيا.

(٩) ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾

فأما اليتيم فلا تسئ معاملته بل ارحم ضعفه، واجبر كسره وامسح دمعته، وأذهب حزنه، وكن له والدًا رحيمًا مكان والديه؛ فقد كنت أنت يتيمًا فتذكر ذلك.

(١٠) ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾

وأما السائل فلا تزجره، بل أطعمه واقض حاجته، ولبِّ سؤاله، وتلطف به، وراعِ حاله، واعذره في الحاجة، ولا تكدر خاطره.

(١١) ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

وأما بنعمة ربك التي أسبغها عليك فتحدث بها، وانشر آثار جميل الله عليك، وأظهر أيادي الكريم المنان بالشكر والعرفان، ولا تكتمها بالجحود والنكران.

مكية

ترتيبها ٩٤

سورة الشرح

آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

ألم نوسع لك - يا محمد - بنور النبوة والهدى صدرك بعد الضيق؟ أما جعلنا صدرك رحبًا وسيعًا رحيمًا حليمًا؟ أما جعلناك أكثر الناس سرورًا ورضًا وفرحًا وانشراحًا على الرغم من النوائب والمصاعب والمصائب؟

(٢) ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾

وحططنا عنك بذلك حملك والأعباء التي كانت عليك، وغفرنا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ورضينا عنك وأسبلنا عليك العفو والرحمة؟

(٣) ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾

الذي أثقل ظهرك، وكان عبئًا عليك وهمًا يلازمك وغمًا يصاحبك، فالآن أرحناك منه بالغفران والرضوان.

(٤) ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

وجعلنا ذكرك مرفوعًا في المنائر وعلى المنابر وفي الدفاتر، فتُذكر مع ذكر الله، واسمك يذكر في المحافل والمجامع على مر الدهور واختلاف العصور ﷺ.

(٥) ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

فإن بعد العسر يسرًا، وبعد الضيق فرجًا، ومع الحزن سرورًا، وبعد ليل الغم صبح الفرج، فالشدة لا تستمر والأزمة والنوائب لا تبقى.

(٦) ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

والعسر عسر واحد، واليسر يسران، ولن يغلب عسرٌ يسرين، فأبشر بسهولة بعد كل صعوبة، وبفرج بعد كل شدة.

(٧) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾

فإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، فجدّ في العبادة وتفرغ للطاعة، وأكثر من النوافل وعمل الفضائل، والتزوّد بالصالحات.

(٨) ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

وإلى ربك وحده فارغب فيما عنده بسؤاله، وألح عليه، وأحسن التذلل والخضوع له، وكثرة التطوع، ومزيدًا من الإخبات.

مكية

ترتيبها ٩٥

سورة التين

آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾

أقسم قسمًا بالتين والزيتون لما فيهما من المنافع وهما في الأرض المباركة فلسطين التي بعث فيها الأنبياء.

(٢) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾

وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى، فشرف هذا المكان بهذا التكليم، وصارت له ميزة من القداسة والنفاسة.

(٣) ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾

وأقسم بمكة مَهْبِط الوحي، ومهد الرسالة، وأرض محمد ﷺ، فيها مولده ومبعثه وقبلته، فعيسى في أرض التين والزيتون، وموسى في طور سيناء، ومحمد في مكة.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل وأبهى منظر، تناسب في الأعضاء وتناسق في الخلق، وتوافق في القوام.

(٥) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

ثم رددناه بالكفر إلى أهون من البهائم، وأضل من الأنعام، وجعلنا مأواه النار لـمَّا أشرك بالواحد القهار.

(٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

لكن من آمن وعمل صالحًا له أجر عظيم، ونعيم مقيم، بجوار رب رحيم، مع ثواب لا ينقطع وخير لا ينقضي.

(٧) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾

ماذا يحملك - أيها الإنسان - على التكذيب بالبعث والحساب بعد وضوح الأدلة من الكتاب والسنة وقدرة الله على جمع الناس للثواب والعقاب؟

(٨) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾

أليس الله الذي جعل يوم الفصل للحكم بالعدل بأحكم الحاكمين فيما قضى وقدّر، وصرف ودبّر، ونهى وأمر، وحكم وأخبر.

مكية

ترتيبها ٩٦

سورة العلق

آياتها ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

اقرأ ما أُنزل إليك من القرآن مفتتحًا باسم ربك المتفرد بالخلق، فبالقراءة يُنال العلم، وتحصل المعرفة، ويُعبد الرب، وباسم الله تحصل البركة والفتح والتوفيق.

(٢) ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾

الذي صوَّر الإنسان من قطعة دم غليظ فركب سمعه وبصره، ونفخ فيه الروح ومنحه الحياة بعد أطوار من الخلق.

(٣) ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾

اقرأ ما أنزل إليك ربك كثير الإحسان، واسع الجود، وسوف يفتح عليك إذا قرأت، ويمنُّ عليك بالفهم إذا تعلمت.

(٤) ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾

الذي علم الأمم الكتابة بالقلم، فحفظوا العلوم، ودونوا الأخبار، ونقلوا الآثار، فالقلم ذو الجسم الضئيل خطره جليل، وشرفه عظيم.

(٥) ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

علّم الإنسان ما كان يجهله، فرقّاه من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن حضيض الغفلة إلى سماء المعرفة، فبالعلم ينال كل فضل.

(٦) ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾

حقًا إن الإنسان إذا خلا من الإيمان يبطره الغنى ويطغيه المال، فيتجاوز الحدود ظلمًا وفسادًا وفسقًا وكيدًا وعتوًا.

(٧) ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾

فإذا وجد الغنى طغى وبغى، وإذا فقد التقوى فتجده منتهكًا للحرمات، تاركًا للطاعات، مانعًا للحقوق.

(٨) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾

فليتيقن كل طاغٍ وكل باغٍ أن المعاد إلى الله، وأن المصير إليه في يوم الحساب؛ لينال العقاب على إسرافه، فهل من معتبر؟

(٩) ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ﴾

ألا تعجب ممن ينهى عباد الله عن طاعة الله، ويصد عن سبيل الله، ويمنع الخلق أن يعبدوا الخالق؟.

(١٠) ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾

ينهى العبد أن يصلي للرب كما فعل أبو جهل مع الرسول ﷺ ومثله من يمنع المتصدق من الصدقة والداعية من الدعوة والمجاهد من الجهاد.

(١١) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾

أرأيت إن كان هذا العبد الذي نهي عن الصلاة على هدى من الله، والناهي على ضلالة وفي جهالة لتكذيبه بالرسالة.

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾

أو إن كان يأمر غيره بتقوى الله، فكيف عن ذلك ينهاه؟ فإن الآمر بالصلاح حقه أن يُعان ويُساعد، لا أن يُحارب ويُجاهد.

(١٣) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾

أرأيت إن كان هذا الناهي مكذِّبًا بالخبر، متوليًا عن الأمر، كذّب الأقوال، وترك الأفعال، وكذّب بقلبه ولسانه وتولى بأركانه.

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾

ألم يعلم أن الله يرى ما يفعل ويبصر ما يعمل، فهو يحصي أقواله، ويكتب أفعاله، ويعلم أحواله، ويجعل إليه مآله.

(١٥) ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾

ليس الأمر كذلك، والله لئن لم يترك هذا الشقي محاربته للحق وأذاه للرسول لنأخذنَّ بناصيته أخذًا عنيفًا، ونجذبه جذبًا شديدًا، ثم لننبذنَّه في نار جهنم ذليلاً مدحورًا.

(١٦) ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

فناصيته ناصية كاذبة في أقوالها، خاطئة في فعالها، وهو يَكْذِب في الأخبار، ويخطئ في الأحكام، فالإرادة فاسدة والعقيدة جاحدة.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾

فليأت هذا الشقي بأهل ناديه الذي كان يدّعي نصرتهم له؛ ليرى أن لا ناصر له من دون الله، ولن يدفع عنه أحد.

(١٨) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾

سندعو ملائكة العذاب وزبانية العقاب، وهم غلاظ شداد، بطشهم شديد بكل فاجر عنيد.

(١٩) ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾

ليس الأمر كما ظن هذا الكافر، فأنت - يا محمد - محفوظ منصور، فلا تطعه في ترك الصلاة، بل زد من السجود والتقرب إلى ربك؛ لتنال قُرْبَه وحُبَّه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

مكية

ترتيبها ٩٧

سورة القدر

آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾

إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، فلهذا النزول صارت خيرًا من ألف شهر في العبادة والشرف والفضل والمنزلة.

(٢) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾

وما أعلمك ما فضل ليلة القدر وما شرفها؟

(٣) ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾

ليلة القدر فاضلة شريفة مباركة أفضل عند الله من عبادة ألف ليلة، فهي أفضل الليالي على الإطلاق.

(٤) ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾

ينـزل فيها ملائكة الرحمن من السماء بكل أمر قضاه الله في تلك السنة، ومعهم جبريل أكرمهم على الله، فلفضلها اختصها الله بهذا النـزول.

(٥) ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾

وهي أمن كلها، سلام جميعها، بركة من أولها لآخرها، لا شر فيها ولا فتنة، ولا شؤم ولا بؤس من بدايتها إلى أن يطلع الفجر في صباحها.

سورة البينة

مدنية

ترتيبها ٩٨

آياتها ٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾

لم يكن أهل الكتاب والمشركون تاركين كفرهم حتى تأتيهم العلامة الموعود بها التي ذكرت في كتبهم.

(٢) ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾

وهذه الآية والعلامة هي مبعث الرسول الخاتم محمد ﷺ الذي يتلو قرآنًا في مصحف منـزه عن الدنس مطهر من الرجس.

(٣) ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾

في هذه الصحف أخبار صادقة وأحكام عادلة وأوامر نافعة وقصص مفيدة، ومنهج مجيد، تهدي إلى الحق، وتدل على الفضيلة، وترشد إلى الهدى.

(٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾

ما اختلف أهل الكتاب في صحة نبوة محمد ﷺ إلا بعد ما بُعث بغيًا وحسدًا، وإلا فقد كانوا مجمعين على أنه رسول من عند الله كما جاء في كتبهم، ثم جحدوا وتفرقوا في شأنه.

(٥) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾

وما أمروا في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم - وهو دين كل نبي - إلا بإخلاص العبادة لله والميل من الشرك به، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهذا هو الدين الصحيح الذي لا يقبل الله غيره.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾

إن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين، مأواهم نار جهنم خالدين فيها، فهم أشد الناس شرًا، وأعظم الخليقة فجورًا، فقد كذبوا القرآن، وجحدوا بالرسول، وحاربوا الحق.

٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾

إن الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات بإخلاص واتباع، فهم أفضل الخليقة وصفوة الناس؛ لأنهم امتثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه واتبعوا رسوله واهتدوا بهداه.

٨ ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾

ثوابهم عند الله يوم القيامة جنات خلد، في مقعد صدق، ومقام آمن، وسلام مع النعيم المقيم والفوز العظيم، وهي جنات تجري من تحتها الأنهار في غاية الحسن ونهاية الجمال، ومع هذا النعيم رضوان الملك الكريم، والرحمن الرحيم، بقبول أعمالهم، ورضوا عنه بما أنعم عليهم، وأغدق عليهم من الكرامة، وهذا جزاء كل من خاف مولاه، واتقى الله بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

مدنية

سورة الزلزلة

ترتيبها ٩٩

آياتها ٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴾

إذا اضطربت الأرض اضطرابًا شديدًا، ورجت رجًا عظيمًا، وأصابها زلزال يهز أعلاها وأسفلها، ويغيّر معالمها.

٢ ﴿ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴾

وأخرجت ما في جوفها، ورمت بما في بطنها من موتى وكنوز، ودفعت بها إلى ظهرها استعدادًا ليوم الفصل.

٣ ﴿ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾

حار الإنسان وأصابه ذهول واعترته دهشة وسأل مذهولاً، فالأرض ماذا دهاها، ماذا أصابها، ما لها؟

٤ ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾

يوم الفصل تخبر الأرض بكل ما عُمِلَ على ظهرها من حسنة وسيئة، وصلاح وفساد، وحق وباطل؛ لتكون شاهدة على كل أحد.

٥ ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾

حينها يأمرها الله أن تخبر بكل شيء عمل عليها، ولا تكتم خبرًا، ولا تجحد أمرًا، فتقر بكل عمل صغير وكبير.

٦ ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

حينها يعود الناس إلى فصل القضاء أنواعًا مختلفين، ليشاهدوا نتائج أعمالهم من حسنات وسيئات وبر وفجور.

٧ ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴾

فمن يعمل وزن نملة صغيرة من الخير يجد ثوابه عند ربه، فلا يحتقر فاعل الخير القليل فإنه كثير مع النية والصدق حتى البسمة صدقة.

٨ ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾

ومن يعمل وزن نملة صغيرة من الشر يجد عقابه عند ربه فلا يحتقر عامل فعل السوء ولو قل، فرب عثرة من كلمة، ولا صغيرة مع الإصرار.

مكية

ترتيبها ١٠٠

سورة العاديات

آياتها ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾

أقسم قسمًا بالخيل الجاريات المسرعات للجهاد السابقات، التي لها صهيل لشدة عدوها وسرعة جريها، وهي أجمل شيء حينئذ وأروعه.

(٢) ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾

فالموقدات نارًا بحوافرها لقوة جريها وشدة سرعتها ومضائها في عدوها، فهي بأقدامها تقدح شرارًا وتوري نارًا.

(٣) ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾

فالسابقات إلى الأعداء في الصباح يوم تعدو مع طلوع الفجر، تحمل الأبطال إلى ساح القتال في بهجة وجمال.

(٤) ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾

فأثرن بالجري غبارًا، وحرّكن بالعدو ترابًا من قوة ضرب الخيل بأقدامها الأرض لشدة سرعتها وقفزها.

(٥) ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾

فتوسطت الخيل بالأبطال وسط الأعداء في ساح القتال، فأصبحن في حَومة الوغى، ووسط المعركة، وقلب العاصفة.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾

إن الإنسان يجحد نعم ربه، وينكر إحسان الإله، ويكفر بنعم مولاه، فشكره قليل أو معدوم.

(٧) ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾

وإن الإنسان على الجحود مقر معترف بما اقترف، يشهد على سوء فعله بنفسه ويعلن تقصيره.

(٨) ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾

وإنه شديد في حب المال، مولع بالحطام، مغرم بالدرهم، عاشق للدنيا، حريص على جمعها، خادم لها.

(٩) ﴿۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾

أفلا يدري الإنسان ماذا ينتظره إذا خرج من قبره لحشره، وحضر للحساب؟ فما له غافل لاهٍ ساهٍ لاعب.

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾

واستخرج ما في الصدور من أمور، وظهر ما في الضمائر، وبان ما في السرائر، وبدت الخوافي، وانكشف كل مستور.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾

إن الله – عز وجل – بأعمال عباده خبير، وبسعي خلقه بصير، لا يخفى عليه أمر، ولا يعزب عنه سر؛ لأنه يعلم كل شيء.

مكية

ترتيبها ١٠١

سورة القارعة

آياتها ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾

القيامة تقرع القلوب بأهوالها وتهز العالم بصوتها، وتذهل الناس، وتدهش العقول؛ فهي أعظم خطب وأشد كرب.

(٢) ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

ما أعظمها من حدث، وما أخطرها من كربة، وما أشد هولها، وما أعظم وقوعها، فهي فوق الوصف.

(٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

وأي شيء أعلمك بها؟ فأنت لا تدري بما فيها من أحوال فظيعة، وصور مريعة، وأحداث مخيفة، ومواقف مذهلة.

(٤) ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾

يوم القيامة يكون الناس في كثرتهم وخوفهم وفزعهم وتفرقهم كالفراش المنتشر الذي يسقط في النار طاشت الأفكار، وحارت الأنظار.

(٥) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾

وتصبح الجبال فيه كالصوف الذي ينثر باليد، فيصير في الهواء كالهباء؛ لأن الجبال تُدكّ وتُنسف وتزول من أماكنها.

(٦) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾

فأما من ثقل ميزانه بالحسنات، ورجح بالصالحات، ومالت كفته بفعل الخيرات فهنيئًا له وطوبى وقرة عين.

(٧) ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾

فهو في حالة طيبة في جنان النعيم، في مقعد صدق ومقام آمن، ومجلس سلام ومحل أنس، وسرور ونور وحبور.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾

وأما من خف ميزان حسناته، وطاشت كفته لقلة خيراته ورجحت به السيئات فبعدٌ له، وويل له مما ينتظره.

(٩) ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾

فحظه عاثر، وسعيه خاسر، ومأواه جنهم، ومثواه النار لما أدركه من البوار بسبب عصيانه للملك الجبار، وسميت هاوية؛ لأنها تهوي بصاحبها إلى قعرها.

(١٠) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾

وما أعلمك ما هذه الهاوية، إن صاحبها يهوي على وجهه إلى قعرها البعيد، ليجد العذاب الشديد من الأغلال والحديد، والزقوم والصديد.

(١١) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾

إنها نار موقدة، وجحيم مؤصدة، وسعير محرقة لا يفتّر لهبها، ولا تخمد شعلتها، ولا يطفأ وقودها.

مكية

ترتيبها ١٠٢

سورة التكاثر

آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾
شغلكم عن عبادة الله تفاخركم بالأموال والأولاد، وتكاثركم بما يفنى عما يبقى، فنسيتم الآخرة بسبب الدنيا.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾
واستمر اشتغالكم بالدنيا حتى متم ونقلتم إلى المقابر، لقد غلبت عليكم الغفلة حتى ذهلتم عن العمل للآخرة.

(٣) ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾
ما هكذا ينبغي لكم أن تشغلوا بالفاني عن الباقي، سوف يظهر لكم أن الآخرة خير وأبقى من دنياكم الزائلة.

(٤) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾
وسوف يتبيّن لكم سوء اختياركم بتقديم الدنيا على الآخرة، والانشغال بها عن طاعة الله عز وجل.

(٥) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾
ما هكذا ينبغي لكم لو كنتم تعلمون حق العلم، ما ألهاكم الولد والمال عن المآل، وما شغلكم الحطام عن التزود بالعمل الصالح.

(٦) ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾
والله لتشاهدُنَّ النار بعيونكم، وترونها بارزة لكم، فهل عملتم ما ينجيكم منها ويجنبكم دخولها؟

(٧) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾
وأُقسِم لترون النار دون شك، ولتبصرنَّها بلا ريب، فأعدوا الزاد ليوم المعاد، واجتنبوا النار بطاعة الواحد القهار.

(٨) ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾
ثم أقسم لتسألُنَّ يوم القيامة عن كل نعيم، هل شكرتم ربكم عليه؟ وهل كان عونًا على الطاعة من أسماع، وأبصار، وأموال، وأولاد، وغذاء، وكساء، ودواء، وماء وضياء، وهواء وغيرها من الآلاء.

مكية

ترتيبها ١٠٣

سورة العصر

آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾
أقسم قسمًا بالدهر، وهو وقت لحياة الأجيال، والقيام بالأعمال، وأداء الأشغال، وهو عمر الدنيا.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾

إن ابن آدم لفي هلاك ودمار إن لم يؤمن بالعزيز الغفار، وإنه لفي نقصان وخسران يوم يترك الإيمان.

(٣) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

إلا من آمن بالله واتبع رسوله ﷺ وعمل الأعمال الصالحة المشروعة، وأوصى المؤمنون بعضهم بعضًا بالحق الذي جاءت به الرسالة وهو العمل بطاعة الله، وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على المأمور، وترك المحذور، والرضا بالمقدور، فالإيمان اعتقاد، والعمل الصالح زاد، والحق مراد، والصبر عتاد، فمن جمعها فهو خير العباد في الدنيا ويوم المعاد.

مكية

ترتيبها ١٠٤

سورة الهمزة

آياتها ٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾

بؤسًا وهلاكًا لكل مغتاب للمسلمين، طعَّان في المؤمنين، ينقب عن المعايب، ويدفن المناقب، لسانه كالمقراض للأعراض.

(٢) ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ﴾

الذي يجمع المال شرهًا ونهمًا، ويحصيه طمعًا، ويبخل فيمنع الحقوق اللازمة، ويصبح خادمًا للمال، خازنًا له، مشغولاً به عن الطاعة.

(٣) ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾

يظن أن ماله الذي جمعه يضمن له الخلود في الدنيا والسلامة من الآفات، والهروب من الموت، والإفلات من لقاء الله عز وجل.

(٤) ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾

كلا، ليس الأمر كما يظن، ولسوف نطرحه في النار تهشم أعضاءه، وتحطم عظامه، وتسحق أجزاءه؛ جزاءً على جشعه وطمعه وجمعه.

(٥) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾

وما أعلمك بحقيقة هذه النار؟ إنها مهولة بأنكالها، مفزعة بأغلالها، لمثلها يخاف ويحذر ويخشى.

(٦) ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾

إنها نار الله التي أوقدها وسعَّرها لأعدائه، وأعدّها لمن يستحقها، فهي فوق الوصف عذابًا ونكالاً.

(٧) ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾

فهي من شدة حرارتها وعظيم سعيرها تنفذ من الأجسام إلى القلوب، وتخترق الأعضاء إلى الجوف، فباطن الجسم وظاهره يُحرق بها.

(٨) ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾

وهذه النار تطبق على أصحابها لا يخرجون منها أبدًا، بل هم خالدون فيها سرمدًا بلا انقطاع ولا تخفيف.

(٩) ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾

وهذه النار مفروشة على عمد، يتقلبون عليها ظهرًا لبطن، والعمد قد ذاب التهابًا، كلما طلبوا التخفيف زادهم الله عذابًا.

مكية

ترتيبها ١٠٥

سورة الفيل

آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾

ألم تعلم كيف عذَّب الله أبرهة صاحب الفيل وجيشه الذين أرادوا هدم الكعبة؟ فأبادهم الله وأهلكهم وقطع دابرهم.

(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

أما أبطل كيدهم، وخيَّب سعيهم، وضيَّع تدبيرهم؛ حيث شتت ما جمعوا، وفلَّ ما حشدوا، وأهلك ما أعدوا.

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾

وبعث عليهم طيرًا في السماء في فرق متتابعة وجماعات متلاحقة، فلهوانهم لم ينزل عليهم جندًا وإنما أنزل طيرًا.

(٤) ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾

فالطير تقذفهم من السماء بحجارة من طين متحجر، لا تخطئُ الرمية ولا تضل الهدف، كل رجل له حجر، ولله جنود من الملائكة والطير والبشر.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

فصاروا كأوراق الزرع اليابسة المحطمة المهشمة التي أكلتها البهائم، ثم رمتها وداستها، فهم صاروا مبعثرين على الأرض مقطعين مزقت أجسامهم وتفرقت جموعهم.

مكية

ترتيبها ١٠٦

قريش

آياتها ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾

ألا تعجبون لاجتماع قريش وائتلافهم وانتظام أمرهم وما هيأه الله لهم من أسباب المعاش.

(٢) ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾

كيف ألفوا رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكيف تيسر لهم ذلك؟ ليحصلوا على أرزاقهم وما تقوم به حياتهم، وهذا تسهيل من الله وحده، فأين الشكر؟!

(٣) ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾

فليؤمنوا بالله وحده الذي هو رب الكعبة التي تشرفوا بها، وافتخروا على الناس بجيرتها، فالواجب عليهم شكره - سبحانه - بطاعته، واتباع رسوله وإخلاص العبادة له.

(٤) ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾

والله وحده هو الذي أطعمهم من جوع شديد، وآمنهم من خوف عظيم؛ فالغذاء والأمان هما سبب الحياة، وقد تكفَّل الله لهم بهما، والجوع والخوف هما أخطر ما ينغص الحياة ويكدِّر العيش.

مكية

ترتيبها ١٠٧

سورة الماعون

آياتها ٧

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾

ألا تعجب من حال الذي يكذب بيوم الحساب؟ ألا تنظر إلى الجحود للبراهين على صحة ذلك؟ وتكذيبه بالأدلة التي تثبت وقوع ذلك اليوم العظيم.

(٢) ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴾

ذاك المكذب غليظ الطباع، فظ الخُلق، قاسي القلب، يدفع اليتيم عن حقه بعنف، ولا يرحم هذا الضعيف؛ لأنه لما كذب بالحساب أصبح لا يرجو الثواب، ولا يخاف العقاب.

(٣) ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾

ولا يحث غيره ولا يدعو سواه إلى طعام المسكين، فمن باب أولى لا يطعم هو، فهو بخيل يأمر الناس بالبخل، جحد حق الخالق في العبودية، وأنكر حق المخلوق في حسن المعاملة.

(٤) ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴾

فعذاب شديد، وخسارة متحققة للمصلين المتهاونين بشأن هذه الصلاة، فيؤدونها وَفْقَ رغباتهم لانشغالهم بشهواتهم.

(٥) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾

الذين يغفلون عن صلاتهم فيؤخرونها عن وقتها ويخلّون بأدائها، ولا يعملون بما تقتضيه من نهي عن الفحشاء والمنكر، فهم مضيّعون للصلاة وقتًا وأداءً وامتثالاً.

(٦) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾

يؤدون أعمالهم مراءاةً للناس، فلا يخلصون في قصد الله بها، والمرائي عمله فاسد؛ لأنه راقب المخلوق ونسي الخالق لهوان نفسه، وسقوط قيمته وقبح سريرته.

(٧) ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾

ويمنعون كل ما فيه عون للآخرين مما لا ضرر في إعارته، فخيرهم ممنوع، وطالبهم مدفوع، لا أحسنوا عبادة الخالق، ولا نفعوا المخلوق، قساة جفاة، بخلاء أهل رياء.

مكية

سورة الكوثر

ترتيبها ١٠٨
آياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾

إنا أعطيناك - أيها النبي الكريم - الخير الكثير العظيم في الدنيا من النصر والظفر، وفي الآخرة نهر الكوثر أحلى من العسل، وأشد بياضًا من اللبن، حافتاه اللؤلؤ، وطينته المسك، وهذا الكوثر كرامة لك خاصة؛ لما لك عند الله من مكانة.

(٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾

فما دام أن الله وهبك هذه المواهب العظيمة فأخلص لربك الصلاة وكل عبادة، واذبح له وحده، ووجِّه كل عبادة بدنية أو مالية لله وحده.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾

إن الذي يبغضك ويبغض ما جئت به من الحق والهدى مقطوع الخير، مبتور الأثر، مسلوب البركة، منزوع النفع، أما أنت فالبركة والخير كله لك، من الذكر الحسن والأثر الطيب والنفع الباقي والأجر الدائم.

مكية

سورة الكافرون

ترتيبها ١٠٩
آياتها ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

قل - أيها النبي - للذين كفروا بالله ورسوله وكذبوا بآياته، وذكروا بالكفر تشنيعًا وتوبيخًا ووصفًا لازمًا معه الذم والبراءة منهم.

(٢) ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾

لا أعبد ما تعبدون من الأصنام والأوثان، بل أعبد الرحمن، وأعادي الشيطان، وأتلو القرآن، وأبرأ من هذا الزور والبهتان.

(٣) ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾

ولا أنتم عابدون ربي الواحد الأحد المستحق للعبادة؛ لأنكم أشركتم به غيره، وكذبتم رسوله، وحاربتم دينه، فأنتم أعداؤه.

(٤) ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾

ولا أنا في المستقبل عابد ما تعبدون من الأصنام بعد ما هداني ربي لدين الإسلام، فكيف أكفر بربي وقد خلقني ورزقني.

(٥) ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾

ولا أنتم في المستقبل سوف تعبدون إلهي وخالقي، فقد طبع على قلوبكم بالكفر، وكتب عليكم الشقاء، وحقت عليكم كلمة العذاب.

(٦) ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾

لكم دينكم الباطل الذي لزمتموه عتوًا وعنادًا، وأصررتم على اتباعه بغيًا وعدوانًا، ولي ديني الحق الذي هداني ربي إليه، ولا أبغي سواه، ولا أريد غيره، فأنتم ملازمون للغواية، وأنا ثابت على الهداية.

مدنية

ترتيبها ١١٠

سورة النصر

آياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾

إذا تم لك الانتصار على الكفار وحصل لك الظفر، ودان لدينك الناس، وفتح الله عليك بفتوحاته، وفتح لك القلوب والأسماع والأبصار، وفتح لك مكة وسائر الأمصار.

(٢) ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾

ورأيت الناس أقبلوا إلى الإسلام جماعات جماعات، وجاءتك القبائل مبايعة، والوفود متتابعة، ودانت لك العرب والعجم.

(٣) ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾

إذا حصل ذلك فهو علامة لك على دنو أجلك؛ فتهيأ للقاء ربك بالإكثار من الأذكار؛ لأنه زاد الأبرار، فأدم التسبيح بحمد ربك، فالتسبيح تنزيه له عن المعايب، والتحميد إثبات المحامد له، وأكثر من الاستغفار؛ ليجبر ما حصل من نقص، أو وقع من خطأ، فبالاستغفار تدوم النعم، وتصرف النقم، والله يتوب على من يتوب؛ لأنه غفّار الذنوب، ستّار العيوب، يقبل العائد، ويمحو الزلة، ويتجاوز عن الخطايا.

مكية

ترتيبها ١١١

سورة المسد

آياتها ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾

خسرت وخابت يدا الشقي أبي لهب الذي جحد الحساب، وكذب بالكتاب، وآذى الرسول ﷺ وحارب الملة، وبخل بماله.

(٢) ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾

ما نفعه ماله ولا دافع عنه حطامه، ولن يُردَّ عنه عذاب الله وغضبه، فقد خسر نفسه وأهله وماله لسوء فعاله.

٣ ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

سيُحرق بنار تتلهب، ويُشوى في جهنم ويعذب، ويلقى جزاءه الأكيد في العذاب الشديد، وهو جزاء كل جبار عنيد.

٤ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾

وامرأته تُعذب معه؛ لأنها آذت رسول الله ﷺ، وحاربت الإسلام، وصدت عن السبيل، وطرحت الشوك في الطريق.

٥ ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾

وحبلها الذي كانت تحتطب فيه يصبح حبلاً من الليف الخشن تُطوق به، ويلتهب عليها نارًا، وتجرجر به في جهنم، وتُسحَّب به في السعير.

مكية

سورة الإخلاص

ترتيبها ١١٢ آياتها ٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

قل - أيها النبي - هو الله المتفرد بالألوهية لا يشاركه أحد، وهو أحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا يشبه أحدًا من خلقه، ولا يشبهه أحد، متفرد بالكمال والجلال والجمال.

٢ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾

الله وحده الذي تقصده المخلوقات في قضاء الحاجات، وهو السيد الكامل في السيادة، الباقي بعد أن يفنى عباده، لا يُطعم الطعام، ولا تأخذه سنة ولا منام.

٣ ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾

ليس له صاحبة ولا والد ولا ولد، لم يخرج من أحد ولم يُخرج منه أحدًا، لم يلد فيُورث ولم يولد فيشرك به، فليس بحاجة إلى غيره بل ما سواه بحاجة إليه.

٤ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾

ليس له مثيل ولا نظير ولا شبيه ولا ند في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، تفرَّد بالربوبية والألوهية.

مكية

سورة الفلق

ترتيبها ١١٣ آياتها ٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾

قل - أيها النبي - أعوذ وألتجئ وأعتصم برب الصبح الذي فلقه من الليل، وشقه من الظلام، وجعله آية على قدرته.

﴿٢﴾ ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

من شر كل المخلوقات، وأذى جميع المؤذيات، فالله وحده الذي يحمي من الأذى، ويمنع من الردى.

﴿٣﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

ومن شر ليل مظلم مدلهم إذا طبَّق الأرض بظلامه، وغطى العالم بسواده، وما فيه من أخطار وشرور وأذى.

﴿٤﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾

ومن شر الساحرات النافثات فيما تعقدن من السحر للصرف والعطف، وما فيه من تفريق وشر وضرر.

﴿٥﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

ومن شر حاسد للنعمة محبٍّ لزوالها، مبغض لفضل الله على عباده إذا حسد وجمحت نفسه وأطلق عينه.

مكية

ترتيبها
١١٤

سورة الناس

آياتها
٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾

قل - أيها النبي - أعوذ وألتجئ وأعتصم برب الناس؛ فربوبيته تقتضي الاحتماء به، والالتجاء إلى قوته عز وجل.

﴿٢﴾ ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾

فهو ملك الناس المتصرف في شؤونهم، المدبِّر أمورهم، الحاكم عليهم، الغني عنهم، الذي لا يخرج عن ملكه شيء.

﴿٣﴾ ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾

وهو إله الناس المستحق للعبودية وحده، المتفرد بالألوهية، الذي لا شريك له، ولا رب سواه، ولا إله غيره.

﴿٤﴾ ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾

من أذية الشيطان الذي يوسوس عند غفلة الإنسان، ويختفي إذا ذُكر الرحمن.

﴿٥﴾ ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾

الذي ينشر الشك والشر في صدور العباد، ويبث في قلوبهم الفجور والفساد، والانحراف.

﴿٦﴾ ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾

وأعوذ بالله من شياطين الجن المتوارين، ومن شياطين الإنس الظاهرين، فشياطين الجن يُحتمى منهم بالطهر والذكر، وشياطين الإنس بالدفع بالحسنى، والاعتصام بالملك الأعلى.

وصلى الله وسلم على نبيه ومصطفاه، وآله وصحبه ومن والاه.

* * *

الخاتمة

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾
وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

«ربَّنا تقبلْ منَّا إنَّكَ أنتَ السّميعُ العليمُ، وتُبْ علينا إنّك أنْتَ التّوّابُ الرّحيم».

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَما صَلَّيْتَ عَلَى إِبْراهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْراهِيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَما بَارَكْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ إنَّك حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحمْدِك أشْهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ أنْتَ
أسْتَغفِرُك وأتُوبُ إليْك».

* * *

فهرس بأسماء السور وبيان المكي والمدني